مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الخَامسُ والعِشرونَ

سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 25 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-22-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 25 : المجلد الخامس والعشرون، سورة إبراهيم من الآية 26 إلى سورة الحِجْر الآية 99.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-22-7
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-3019282 بتاريخ 2024/02/23م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزءُ الثَّالِثَ عشَرَ

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ٢٦﴾ [إبراهيم: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد التَّمثيل لحال المؤمنين إيراد التَّمثيل لحال الكافرين

بعد أن بيَّن النَّظم الجليل المثل الذي وصف به الإيمان وأهله، وشبَّه كلمة الإيمان الطَّيِّبة بالشَّجرة الطَّيِّبة؛ أتبعه بالتَّمثيل لحال أهل الكفر مشبِّهًا إيّاهم بالشَّجرة الخبيثة، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَبِيثَةٍ﴾: أَصْلُ الخُبْثِ: الرَّداءَةُ والسّوءُ، والخُبْثُ: الفَسادُ، يُقال: خَبُثَ الرجلُ، يَخْبُثُ، خَباثَةً وخُبْثًا، أيْ: فَسَدَ، وأخبثَه غيره، أي: علَّمه الخُبثَ وأفسدَه، والخَبيثُ والخابِثُ: الفاسِدُ من كُلِّ شَيْءٍ، وضِدُّه: الطَّيِّب[2]. والخُبُثُ: الشَّياطينُ لِفَسادِها، ويأتي الخُبْثُ بِمعنى الكَراهَةِ، والأَخْبَثانِ: البَوْلُ والغائِطُ، ويُطْلَقُ على الشَّرِّ بِجَميعِ أَنْواعِه[3]، والمقصود بالكلمة الخبيثة في الآية: الشَّديدةُ سوءًا، التي تنبعث من خُبثِ النَّفس، وضَلالِ الفِكرِ، والمراد بها: كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ.

2) ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾: أَصلُ الجَثِّ: القَطْعُ مُطْلَقًا، وَقيلَ: قَطْعُ الشَّيْءِ مِنْ أَصله، وَقيلَ: انتزاعُ الشَّجَرِ مِنْ أُصوله؛ والاجْتثاث أَوْحى مِنْهُ[4]، يُقالُ: جَثَثْتُه، واجْتَثَثْتُه، فانجَثَّ، والجُثَّةُ: جُثَّةُ الإنسانِ؛ إذا كانَ قاعِدًا أَوْ نائِمًا[5]. وَشَجَرَةٌ مُجْتَثَّةٌ: لَيْسَ لَها أصل في الأرض[6]،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/413.
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خبث).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خبث).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (جث - جثث).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جث).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (جث).

وَمَعْنَى اجْتُثَّ الشَّيءُ: أُخِذَتْ جُثَّتُه بِكَمالِها، وجَثَّه: قَلَعه، والجَثيثةُ النَّخْلَةُ الَّتي كانَتْ نَواةً، فحُفِرَ لَها، وحُمِلَتْ بجُرْثومَتِها، وَقَدْ جُثَّتْ جَثًّا[1]. والمراد بالاجْتِثاثِ في الآية: قَطْعُ الشَّيْءِ كُلِّه، مُشْتَقٌّ مِنَ الجُثَّةِ، وَهيَ الذّاتُ[2].

3) ﴿قَرَارٍ﴾: أصلُ القَرارِ: الثُّبوتُ والتَّمَكُّنُ، يُقال: قرَّ الشَّيْءُ، يَقِرُّ، قَرارًا: إذا ثَبَتَ في مَكانِه، ولم يَتَحَوَّلْ، ويأْتي بِمعنى: الاقْتِرانِ والتَّلازُمِ، يُقالُ: قَرَّ الشَّيْءُ بالشَّيْءِ: إذا قُرِنَ بِهِ، وتَرافَقَ مَعَهُ، ويُطْلَقُ القَرارُ على الشَّيْءِ الثّابِتِ الباقي في مَكانِه أو على حالَتِه كالأَرْضِ والبِناءِ، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإقامَةُ، والاطْمِئْنانُ، والسُّكونُ[3]، والمراد بالقَرارِ في الآية: الثُّبوتُ في المَكانِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كَلِمةُ الكُفرِ ليس لها ثُبوتٌ نافِعٌ في القَلبِ، ولا تُثمِرُ إلّا كُلَّ قَولٍ خَبيثٍ

يقول الحقُّ سبحانه: ومَثَلُ كَلِمةٍ خَبيثةٍ - وهي كَلِمةُ الكُفرِ واعتقادُ الشِّركِ - كشَجَرةٍ كريهةِ الطَّعمِ، مِثْلِ الحَنظلِ، فلا أصلَ لها ثابتٌ في الأرضِ، ولا ارتفاعَ لفُروعِها في السَّماءِ، وليس لها ثمرةٌ ولا مَنفعةٌ، وكذلك كُفرُ الكافرِ؛ فلا يعمَلُ مع كُفرِه خيرًا، ولا يَقولُه، ولا يجعَلُ اللّهُ فيه بركةً ولا مَنفعةً، ولا يصعَدُ عَمَلُه ولا قَولُه إلى السَّماءِ، استُؤصِلَت هذه الشَّجرةُ الخبيثةُ، واقتُلِعَت مِن أصلِها؛ فليس لها عُروقٌ وجُذورٌ ثابِتةٌ في الأرضِ تُمسِكُها، وكذلك الكُفرُ؛ لا أصلَ له ولا فَرعَ، ولا يَثبُتُ ثُبوتًا نافِعًا في قَلبِ صاحِبِه، ولا يصعَدُ للكافِرِ عمَلٌ، ولا يُتقبَّلُ منه شَيءٌ[4].

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جث، جثث).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قرر).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/652، 654، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/361، والمراغي، تفسير المراغي: 13/149.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في صدر الآية:

إثر التَّمثيل عن الكلمة الطَّيّبة يُستأنف للتَّمثيل عن الخبيثة

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ بالواو الاستئنافيَّة[1]، فبعد أن مثَّل للكلمة الطَّيِّبة بالشَّجرة الطَّيِّبة، كأنَّه قيل: وما مثل الكلمة غير الطَّيِّبة، فجيء بالجملة لبيان المثل المقابل لذلك التَّمثيل.

سرُّ إضافة ﴿وَمَثَلُ﴾ إلى ﴿كَلِمَةٍ﴾:

جيء بالتَّمثيل لبيان مكانة الكلمة

أضاف النَّظم البليغ لفظ المَثَل إلى الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ لبيان أنَّ المثل جيء به لبيان حال الكلمةِ، وذلك لأنَّ سياق الحديث ورد لبيان حال الكفر والإيمان بتمثيلهما بالشَّجرة، فإضافة المثل للفظ ﴿كَلِمَةٍ﴾ تنويهٌ بأنَّ الحديث جارٍ عنها لمكانة الكلمة في الشَّريعة، فـ "مهما عظَّم أولو الفكر من مقام الكلمة، وطلبوا لها من الحرّية والتَّقديس، لم يبلغوا في تقييمها ما أراد لها اللّه من التَّقدير والتَّقديس، وبيان عظيم خطرها في المجتمعات"[2].

الغرض من وصف الكلمة بـ ﴿خَبِيثَةٍ﴾:

كلمة الكفر عريقة في القبح والسّوء

وُصفت الكلمة بصفة الخُبث في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ للدَّلالة على أنَّها بالغة في القبح والسّوء؛ لأنَّ كلمة الكفر تتضمَّن تكذيب الحقِّ، فهي خالية من أيِّ صفة من صفات الطّ يب لعراقتها في الخبث[3]، وأفاد هذا الوصف تقييد التَّمثيل بكونه واردًا لبيان نقيض الكلمة الطَّيِّبة التي سبق ذكرُها، فالوصف بالخبيثة تخصيص للكلمة التي جيء بالمثل لبيان وجه السّوء والخبث والقباحة في كلمة الكفر.

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/186.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/187.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.

غرض المقابلة بين ﴿طَيِّبَةٍ﴾ و﴿خَبِيثَةٍ﴾:

أجرى النَّظم الجليل مقابلة بين الإيمان والكفر في التَّمثيل لكلٍّ منهما في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وقوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24]، والغرض من ذلك إظهار المقابلة بينهما لمزيد البيان بتمثيل كلِّ فريق بحالة على وجه الانفراد، "وكلُّ جزء من أجزاء إحدى الهيئتين يُقابله الجزء الآخر من الهيئة الأخرى، وذلك أكمل أحوال التَّمثيل أن يكون قابلًا لجمع التَّشبيه وتفريقه"[1].

الجمع بين التَّشبيهيْن أبلغ في إظهار مقصد المقابلة

سرُّ العدول عن الفعل (ضرب):

أورد النَّظم الجليل المثل الثّاني في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ مغايرًا للتَّمثيل الأوَّل؛ فلم يقل: (وضرب اللّه مثلًا كلمة خبيثة)، فتغيَّر الأسلوب في تمثيل الكلمة الخبيثة بالشَّجرة الخبيثة؛ "للإيذان بأنَّ ذلك غيرُ مقصود الضَّرب والبيان، وإنَّما ذلك أمرٌ ظاهرٌ يعرفه كلُّ أحد"[2]، فكونها خبيثة لا خير فيها لا يحوج أن تكون مقصدًا للتَّمثيل، فإنَّما هي حقيقة لا شبهة فيها، كما أنَّ في ذلك اختصارًا وإيجازًا في التَّعبير بأن اكتفي بدلالة الأوَّل على الثّاني[3].

خُبث كلمة الكفر واضح بيِّن لا يحوج بيانه إلى ضرب المثل

سرُّ التَّعبير عن المَثَل بالجملة الاسميَّة:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير في التَّمثيل الثّاني بالجملة الاسميَّة، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، وقد جاء التَّعبير في التَّمثيل الأوَّل بالجملة الفعليَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

قُبح الكفر حقيقة ثابتة، فمِنَ البلاغة أن يعبِّر عنها بما يدلُّ على الثُّبوت

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/224.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44، والقنّوجي، فتح البيان: 7/111.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: 24]؛ لأنَّ اتِّصافَ الكفر بكونه قبيحًا حقيقةٌ معلومة معهودة ثابتة، فالأَوْلى أن يُعبَّرَ عنها بما يدلُّ على ذلك الثُّبوت، وهو الجلمة الاسميَّة، ومن بديع ما يُذكر هنا ما أفاده ابن عرفة؛ إذ نبَّه إلى أنَّ التَّمثيل للمؤمنين جاء بالجملة الفعليَّة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: 24]، أمّا في مثال الكافر؛ فجيء بالجملة الاسميَّة ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾؛ "لأنَّ المؤمن له حالتان؛ لأنَّه انتقل من الكفر إلى الإيمان، والكافر له حالة واحدة ثبت عليها، ولم ينتقل عنها، فلذلك عبَّر عن مَثَلِه بالاسم"[1].

غرض التَّشبيه التَّمثيلّي ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ﴾:

حالة الشَّجرة الخبيثة كحال الكافر في الانفصال عن أصله وخُلوِّه من الخير

أورد النَّظم الجليل التَّمثيل في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ تشبيهًا لحالة الكفر وخلوِّه من الفائدة والحسن بالشَّجرة التي لا يتوانى النّاس في انتزاعها لانتفاء فائدتها وشدَّة ضررها، فهي تُجتثُّ، فتكون في غاية الضَّعف، وتُقلِّبُها أقلُّ ريح، فالكافر مثل هذه الشَّجرة لا بقاء له ولا فائدة منه[2]، فالمشبَّه هو الحالة الحاصلة من انفصال عن الجذور، وما يسبِّبه من سوء للنَّفس برؤية تلك الشَّجرة الخالية من كلِّ نفع وثمر؛ بل تستوجب بذل الجهد لاقتلاعها حفظًا لصالح النَّبات منها، تشبيهًا لذلك بصفات الاضطراب في الاعتقاد وضيق الصَّدر وكدره لانفصاله عن خالقه.

غرض وصف الشجرة بـ﴿خَبِيثَةٍ﴾:

خلوُّ الشَّجرة من كلِّ ما يؤمَّل به من الخير يبين عن سوء المثيل

وصف النَّظم الجليل الشَّجرة الَّتي مُثِّلَ بها عن الكلمة بصفة الخُبث في قوله تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ للدَّلالة على خلوِّ هذه الشَّجرة من صفات الجودة والخير تمثيلًا بها عن الكفّار، "فالكافر

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/448.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/336.

يرى أنَّ بيده شيئًا، وهو لا يستقرُّ، ولا يغني عنه، كهذه الشَّجرة التي يُظنُّ بها - على بُعد أو للجهل بها - أنَّها شيء نافع، وهي خبيثة الجني غير باقية"[1]، فجاء الوصف ﴿خَبِيثَةٍ﴾ في كلا طرفي التَّمثيل المشبَّه والمشبَّه به للدَّلالة على أنَّ مورد التَّمثيل هو هذه الصِّفة، فالكلمة الخبيثة "لا تعيش في الوجود، وليس لها بقاء فيه؛ بل إنَّها تنتهي بانتهاء زمانها، وتنْزل من الأضرار بمقدار وقتها، كالسّعاية والنّميمة والكذب والخديعة والغيبة، وليس لها وجود إلّا بمقدار زمانها، وقد تضرّ، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها وبيء، ولا تبقى إلّا الكلمة الطّيبة"[2].

غرض وصف الشَّجرة بجملة فعلية:

الاجتثاث صفة حادثة تفصح عن سوء الشَّجرة

وصف النَّظم الجليل الشجرة بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ للدَّلالة على أنَّ الاجتثاث يقع بفعل فاعل، وليست هي صفة قارَّة فيها، فهي صفة حادثة تقع بها؛ "لأنَّ النّاس لا يتركونها تلتفُّ على الأشجار، فتقتلها"[3]، إشارة إلى أنَّها لا تحظى برضا النّاس وقَبولهم، فيعمدون إلى اجتثاثها في كلِّ زمان، اجتثاثًا متجدِّدًا، كما أنَّ فيه إشارة إلى نهايتها الكائنة بفعل فاعل تعبيرًا عن قصر عمرها.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾:

اجتثاث الشَّجرة الخبيثة مكرَّر محقَّق الوقوع على وجه المبادرة والسُّرعة

آثر النَّظم الكريم وصْفَ الشَّجرة بالجملة الفعليَّة بالزَّمن الماضي في قوله تعالى: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ التَّعبير بالفعل الماضي يدلُّ على تحقُّقِ الفعل وإنجازه، وفي ذلك إشارة إلى مبادرة النّاس وسرعتهم في اجتثاثها، فهو اجتثاث محقَّق ومنجَزٌ، وهذا يومئ إلى شدَّة كراهة النّاس لها لشدَّة ضررها وانتفاء نفعها.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/336.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4022.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.

دلالة التَّعبير بالمبني للمفعول ﴿ٱجۡتُثَّتۡ﴾:

اجتثاث الشَّجرة الخبيثة هو المقصود في ذمِّها لا بكونه من مُعيَّن

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المبني للمفعول في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ إذ "لمّا كان من أنفع الأمور إعدامُها، والرّاحةُ من وجودها على أيِّ حالة كانت؛ بنى للمفعول"[1]، فالفائدة تتحقَّق بذات الاجتثاث، لا بكونه من أحدٍ معيَّن، فليس مقصود الخطاب بيان الفاعل؛ إذ لا ميزة لفاعل دون غيره هنا، فالمقصود وصف الشَّجرة بكونها تُجتَثُّ تحقيرًا لشأنها.

سرُّ تقييد الاجتثاث ﴿مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾:

الشَّجرة الخبيثة مستقرَّة على سطح الأرض لا جذور ممتدَّة لها فيها

آثر النَّظم الكريم تقييد الاجتثاث بكونه واقعًا من الفوقيَّة في قوله تعالى: ﴿ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ﴾، ولم يقل: (اجتثَّت من الأرض)؛ إذ ليس لها أصل ثابت يمتدُّ في الأرض؛ بل عروقها في وجه الأرض وعلى سطحها، وليس لها فرعٌ صاعد إلى السَّماء؛ بل ورقها يمتدُّ على الأرض، فالكفر وكلمته لا حجَّة له ولا ثبات فيه ولا خير يأتي منه[2]. "فكما أنَّ هذه لا ثبات لها ولا دوام، فكذلك الباطل لا يدوم، ولا يثبت؛ بل هو زائل ذاهب، وثمره مرٌّ كريه كالحنظل"[3]. كما أنَّ في هذا التَّقييد إظهارًا للمقابلة بين التَّمثيلين؛ فلمّا جيء بصفة ثبات الأصل في تمثيل الكلمة الطَّيِّبة بالشَّجرة الطَّيِّبة، وبأنَّ فرعها في السّماء، جيء هنا بما يقابل ذلك[4]، وهو الانفصال من الجذور للدَّلالة على انتفاء الثَّبات.

دلالة النّفي في قوله: ﴿مَا لَهَا﴾:

حقيقة الشَّجرة الخبيثة أنَّها منعدمة القرار من الأصل

جاء أسلوب النَّفي في قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٖ﴾ بنفي الجملة الاسميَّة للمبالغة في نفي صفة الاستقرار عن هذه الشَّجرة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 7/111، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4022.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 13/149.
(4) الزمخشري، الكشاف: 2/553.

فيتحصَّل معنى الثُّبوت في النَّفي، فالصِّفة هذه منتفية انتفاء ثابتًا، لا ينتقض بمرِّ الزَّمان، لأنَّ حقيقة الشَّجرة الخبيثة كذلك، فالكفر المشبَّه بها ضعيف واهن، لا قرار له، متَّصف بذلك على وجه الرُّسوخ، فهو داحض غير ثابت، لا بقاء له، فهو يضمحلُّ عن قريب لبطلانه[1]. فـ "الكافر وكلمته لا حجَّة له ولا ثبات فيه، ولا خير يأتي منه أصلًا، ولا يصعد له قول طيّب ولا عمل طيب"[2].

دلالة حرف الجرِّ في ﴿مِن قَرَارٍ﴾:

انتفاءُ القرار عن الشَّجرة الخبيثة مستغرقٌ لكلِّ وجه القرار

أدخل النَّظم الجليل حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ للدَّلالة على التَّعميم، فإنَّ إدخال حرف الجَرِّ الزّائد على النَّكرة الواقعة في حيِّز النَّفي يفيد الاستغراق في النَّفي[3]، تأكيدًا لانتفاء وجود القرار، فالنَّفي مستغرق لكلِّ وجوه الاستقرار، تأكيدًا لنفي البقاء والنَّفع عنها، وبهذا وقعت المشابهة بينها وبين كلمة الكفر الخبيثة، فهي خُلوٌّ من النَّفع والحقِّ والبقاء.

موقع جملة ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ ودلالته:

انـتـفـاء الـقـرار تأكيد للاجتثاث وتعليل له

الجملة في قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ جيء بها لتأكيد معنى الاجتثاث المذكور في الجملة التي قبلها في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ الاجتثاث دالٌّ على انعدام القرار[4]. كما أنَّ فيها دلالة على سبب الاجتثاث، فجيء بها بعد ذكر الاجتثاث من فوق الأرض لبيان علَّة ذلك[5]، فهي لافتقارها للجذور الغائرة في الأرض أحالها أن تكون طفيليَّة ضارَّة لغيرها، فاتَّصفت بالاجتثاث وانعدام القرار.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/554.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/128.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/225.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.

جمال المقابلة في المَثَلَيْن السّابقَيْن:

إبراز المعاني وترغيب المخاطَب في الكلمة الطّيبة وتنفيره من الكلمة الخبيثة

في المَثَلَيْنِ المذكورين في الآيات السابقة مقابلة بين ثلاثة معانٍ، هي: ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [إبراهيم: 24] و﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: 24] و﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: 24] قوبلت بثلاثة، هي: ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ و﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ و﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾، وفي ذلك ما فيه من إبراز المعنى، والتَّرغيب في الكلمة الطَّيِّبة، والتَّنفير من الكلمة الخبيثة.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

قرار وبقاء:

القرار تمكُّن وثبات، البقاء دوام ضدَّ الفناء

البقاء من (بَقيَ) وَهوَ الدَّوامُ، يُقالُ: بَقيَ الشَّيْءُ يَبْقَى بَقاءً، وَهوَ ضِدُّ الفَناءِ[1]. وأمّا القرار؛ فمِن (قَرَّ)، وهو يَدُلُّ عَلَى تَمَكُّنٍ، يُقالُ: قَرَّ، واسْتَقَرَّ[2]. قَرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا؛ إذا ثبت ثبوتًا جامدًا، وقوله: ﴿ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ثبات[3]، فالقرار يدلُّ على الثَّبات والتَّمكُّن، أمّا البقاء؛ فيدلُّ على دوام الوجود بخلاف الفناء، وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالقرار؛ لأنَّه أراد بيان أنَّ كلمة الكفر لا ثبات لها، فهي متقلِّبة متردِّدة لوصف حال الكافر.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بقي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرّ).
(3) الراغب، المفردات: (قرّ).

﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾ [إبراهيم: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيان الحقِّ بتمثيله بالشَّجرة الطَّيِّبة أعقبَهُ ببيان حال أهله

بعد أن أجرى النَّظم الكريم التَّمثيل على الكلمتين الطيِّبة والخبيثة بالشَّجرة الطَّيبة والخبيثة، وكان المقصود من ضرب ذلك المثل بيان حال أصحابهما؛ أتبع ذلك التَّمثيل التَّصريح بحالهما[1]، فبعد "أن وصف الكلمة الطَّيِّبة بما سلف أخبر بفوز أصحابها ببغيتهم في الدُّنيا والآخرة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُثَبِّتُ﴾: أصلُ (ثبت): كَلِمَةٌ واحِدَةٌ، تدلُّ على دَوام الشَّيءِ، يُقالُ: ثَبَتَ ثَباتًا وَثُبوتًا[3]، ومنه: أَثْبَتَ حُجَّتَهُ: أقامَها، وثَبَتَ القَوْلُ والأَمْرُ: وَضَحَ، ورَجُلٌ ثَبْتٌ: أي: حُجَّةٌ، والثّابِتُ: اللّازمُ الواقِفُ[4]. ويُقال: ثبَتَ فلان في الأمر، أي: صحَّت عزيمته فيه وداوم عليه؛ ويقال أيضًا: ثبَّتُّ فلانًا في الأمر، أي: جعلته ثابتًا فيه، لا يتزعزع عنه، ولا يضطرب، وقوَّيت رأيه فيه[5]. وحَقيقَةُ التَّثبيت في الآية: جَعْلُ الشَّيءِ ثابتًا قارًّا في مَكانٍ، والمراد به: أنَّ الله يسَّر لَهُم فَهْمَ الأقْوالِ الإلَهيَّةِ على وَجْهِها، وَإِدْراكَ دَلائِلِها حَتَّى اطْمَأَنَّتْ إِلَيْها

(1) القاسمي، محاسن التأويل: 6/314.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 13/150.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثبت).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ثبت).
(5) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 2/347، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 2/985.

قُلوبُهُم، وَلَمْ يُخامِرْهُم فيها شَكٌّ، فَأَصْبَحوا ثابِتينَ في إيمانِهِم غيرَ مُزَعزعينَ، وعاملين بِها غَيْرَ مُتَرَدِّدينَ[1].

2) ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾: القَوْلُ: مَصْدَر قالَ، ومَعناهُ: الكَلامُ على التَّرْتيبِ، أو كُلُّ لَفْظٍ نَطَقَ به اللِّسانُ، سواء كان مُفيدًا أم لم يَكُن، يُقال: قالَ، يَقولُ، قَوْلًا، أيْ: تَكَلَّمَ كلامًا، والقَوْلُ يَقَعُ على الكَلامِ التّامِّ، وعلى الكلِمَة الواحِدَةِ على سَبيلِ الحَقيقَةِ، ويُسْتَعْمَلُ بِمعنى جَميعِ الأَفْعالِ، كَقَوْلِهِم: قالَ بيَدِهِ هكذا، أيْ: أَخَذَ، وقالَ بِرِجْلِه، أيْ: مَشَى، ومِن مَعانيهِ أيضًا: القيلُ، والمَقالَةُ، والمَذْهَبُ، والحُكْمُ، والجَمْعُ: أَقْوالٌ[2]. والمقصود بالقَول الثّابت في الآية: القَوْلُ: الكَلامُ. والثّابِتُ: الصّادِقُ الَّذي لا شَكَّ فيهِ، والمُرادُ بِهِ: أَقْوالُ القُرْآنِ؛ لأنَّها صادِقَةُ المَعاني واضِحَةُ الدَّليلِ[3].

3) ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ﴾: أصلُ (ضلّ): يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ وَذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[4]. والضَّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبَن؛ إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[5]. والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضِلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ، وضاعَ، ولم يهتدِ إلى الطَّريق، وضَلِلْتُ الشَّيْءَ أَضِلُّهُ؛ إذا جعلته في مَكان، وَلم تَدْرِ أين هوَ، وأضْلَلْتُه، أي: أَضَعْتُه[6]، ورجلٌ مُضَلَّل، أي: لا يوفَّق لخيرٍ، صاحبُ غَواياتٍ وبَطالاتٍ. وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ[7]. والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: اضْطِرابٌ وارْتِباكٌ، فهو الأَثَرُ المُناسِبُ لسَبَبِهِ، أَعْني: الكَلِمَةَ الَّتي اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ، كَما دَلَّتْ عليه المُقابَلَةُ[8].

المَعنى الإجْماليُّ:

يقولُ الحقُّ سبحانه: يُثَبِّتُ الله تعالى الَّذين صدّقوا برسالة الأنبياءِ والمرسلين،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (قول)، والنووي، تهذيب الأسماء واللغات: 4/106، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 277.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلّ).

(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلّ).

(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ضلّ).

(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.

يثبِّتهم على دينهم ويقينهم بسبب اعترافهم الثّابت بتوحيد اللّه وطمأنينتهم به، فلم تهزّهم الشُّكوك، ولم يزلزلهم الإيذاءُ أو التَّشكيك، فيَظلّون على ما هم عليه مِنَ اليَقين الثّابت في الحياةِ الدُّنيا، لا تُزحزحهم عنه الشَّدائد والفِتَن، وإن كانت كموج البحر أو كقِطع اللَّيل المُظلم، ويَخذُلُ اللّهُ الكافرينَ والمُنافِقينَ - بسبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم - فيَجعَلُهم في حَيرةٍ وعَمايةٍ، فلا يوَفِّقُهم إلى الحَقِّ في الحياةِ الدُّنيا، ولا يوَفِّقُهم في قُبورِهم إلى القَولِ الصّائِبِ حين يُسألونَ عن الإيمانِ باللّهِ ﷻ وبرَسولِه ﷺ[1].

أثـبَـتُ الـقَـولِ كَلِمةُ التوحيدِ ولوازِمُها؛ فهي أعظَمُ ما يُثَبِّتُ اللهُ بها عبدَه في الدُّنيا والآخرة

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في الآية:

يـثـبِّـت الـلـه تـعـالى عـبـاده الـصّـالـحـين، كثبوت الشَّجرة الـطَّـيِّـبـة ثابتة الأصل

الجملة في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ إذ سيقت جوابًا لسؤال نشأ عن الكلام السّابق، كأنَّه قيل: إنّا نجد النُّفوس مائلة إلى الضَّلال، فكيف لنا بالامتثال؟ فقيل: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ﴾[2]، فالاستئناف البيانيّ في الآية نشأ "عمّا أثاره تمثيل الكلمة الطَّيِّبة بالشَّجرة الثّابتة الأصل بأن يُسأل عن الثَّبات المشبَّه به: ما هو أثره في الحالة المشبَّهة؟ فيجاب بأنَّ ذلك الثَّبات ظهر في قلوب أصحاب الحالة المشبَّهة، وهم الذين آمنوا؛ إذا ثبتوا على الدّين، ولم يتزعزعوا فيه؛ لأنَّهم استثمروا من شجرة أصلها ثابت"[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُثَبِّتُ﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾؛ لأنَّ تثبيته تعالى لعباده المؤمنين

منَّة الله تعالى عـلى عـبـاده المؤمنين بالثَّبات دائمة لا تتغيَّر

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/667، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/363، 364، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 425، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/492.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/414.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.

دائم مستمرٌّ بكلّ زمان، والتَّعبير بالمضارع عن ذلك يشير إلى أنَّها سنَّة إلهيَّة في الخلق، فكلُّ مؤمن في كلّ زمان ومكان سيجد تثبيت اللّه تعالى له بالقول الثّابت.

غرض التَّعبير بالمسند إليه لفظ الجلالة:

ما أُسند إلى لفظ الجلالة دلَّ على تعظيم شأنه

أسند النَّظم الجليل فعل التَّثبيت في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ إلى لفظ الجلالة تعظيمًا لشأن ذلك التَّثبيت وتفخيمًا له، فاللّه تعالى هو ذاته ﷻ يثبِّت المؤمنين، دليلًا على إتقان التَّثبيت وتحقُّق ما يُرجى منه.

سرُّ التَّعبير بالمفعول به اسم موصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

إيقاع التَّثبيت على مَن أوجد الإيمان يدلُّ على قبول الله تعالى أقلَّ درجاته

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ دون الاسم المصرِّح بالوصف، فلم يقل: (يثبِّت اللّه المؤمنين)؛ إشارةً إلى شمول ذلك التثبيت لكل من أحدث الإيمان، ولو جاء النَّظم بالوصف؛ لدلَّ على أنَّ التَّثبيت إنَّما يشمل من كان الإيمان صفة راسخة لهم، فلسعة رحمة الجليل قَبِل الذين "أوجدوا هذه الحقيقة ولو على أقلِّ درجاتها"[1].

دلالة التَّعبير بجملة الصِّلة فعلًا ماضيًا:

فعل الإيمان لِمَن ثبَّتهم الله تعالى حدثٌ منجزٌ محقَّقٌ

عبَّر النَّظم الجليل عن الإيمان بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ وهو مسوق ضمن صلة الموصول، للدّلالة على تحقُّق الإيمان في الطّائفة التي يثبِّتها اللّه تعالى، وأنَّه حدثٌ قد وقع، وأُنجِز، وأنَّ التَّثبيت يجب أن يكون مسبوقًا بإحداث الإيمان.

دلالة الباء في ﴿بِٱلْقَوْلِ﴾:

تثبيت المولى الجليل عبادَهُ بِحِكَمِ القرآن ومعانيه القيِّمة

أدخل النَّظم الجليل حرف الجرِّ الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ للدّلالة على السّببيّة، إذ إنَّ تثبيتهم حاصل بسبب جريان

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.

مقولة التَّوحيد على ألسنتهم، وهو كائن بسبب أقوال القرآن المتضمِّنة المعاني الصّادقة، واضحة الدَّليل[1].

دلالة وصف القول بـ ﴿ٱلثَّابِتِ﴾:

وصف القول بالثَّبات؛ والثّابِتُ الصّادِقُ الَّذي لا شَكَّ فيهِ، والمُرادُ بِهِ أقْوالُ القُرْآنِ؛ لِأنَّها صادِقَةُ المَعاني واضِحَةُ الدَّليلِ[2].

نكتة الجناس في ﴿يُثَبِّتُ﴾ و﴿ٱلثَّابِتِ﴾:

توفيق الله عباده المؤمنين وتثبيتهم

جاء وصف القول بالثبات من المادة نفسِها من الفعل ﴿يُثَبِّتُ﴾ إشارةً إلى توفيق الله لعباده المؤمنين، قال الآلوسيُّ ما ملخصه: "قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾، أي: الذي ثبت عندهم، وتمكَّن في قلوبهم، وهو الكلمة الطيبة التي ذكرت صفتها العجيبة"[3].

غرض الطّباق بين الدّنيا والآخرة:

تثبيت المؤمنين دائم في كلِّ مراحل الوجود

قرن النَّظم الجليل في قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ بين الدُّنيا والآخرة في عبارة واحدة للمطابقة بينهما، فجيء بالطِّباق للتَّنبيه على أنَّ التَّثبيت كائن لهم في كلِّ زمان، فلا يُزالون عنه في الدُّنيا إذا افتُتِنوا في دينهم كزكريّا ويحيى عليهما السلام، ولا يتلعثمون إذا سُئلوا عن معتقدهم في الآخرة ولا تُدهشُهم أهوالُ القيامة[4]، "أي: يثبِّتهم بالكلمة الطَّيِّبة التي ذُكرت صفاتها العجيبة فيما سلف مدَّة حياتهم، إذا وجد من يفتنهم عن دينهم، ويحاول زللهم، كما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله ﷺ، وبعد الموت في القبر الذي هو أوَّل منزل من منازل الآخرة، وفي مواقف القيامة، فلا يتلعثمون، ولا يضطربون؛ إذا سئلوا"[5].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/226.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/204.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44.
(5) المراغي، تفسير المراغي: 13/150.

دلالة الواو في ﴿وَيُضِلُّ﴾:

تثبيت أهل الإيمان يقابله إضلال أهل الظُّلم والكفران

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ معطوفة على الجملة المستأنفة في قوله جلَّ شأنه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ﴾[1]، فبعد أن بيَّن وصف الشَّجرتين، وعقَّبه ببيان شأنه تعالى مع الفريقين، فبيَّن تثبيته للمؤمنين، وأتبعه بإضلاله لأهل الكفر، تتميمًا للمقابلة بين الفريقين، فبعد "أنْ وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدِّمة؛ بيَّنَ حالَ أصحابِها"[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيُضِلُّ﴾:

ضلال الظّالمين سنَّة من سنن الله تعالى في خلقه

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ للدَّلالة على التَّجدُّد والاستمرار في ذلك، فضلالة الظّالمين دائمة لا تنقطع بمرِّ الزَّمان، فالتَّعبير بالمضارع عن ذلك ينبئ عن كونها سنَّة من سنن اللّه تعالى في خلقه، تقع مع كلِّ ظالم في أيّ زمانٍ ومكان.

غرض التَّعبير بالاسم الجليل مسندًا إليه:

ضلالة الإنسان وهدايته شأن عظيم وأمر خطير

آثر النَّظم الكريم التَّعبير باسم الجلالة الدّالِّ على الكمال والعظمة والجلال، في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ للدَّلالة على التَّعظيم المناسب لمضمون السّياق؛ إذ تناول شأن الإيمان والهداية والضَّلال، فاللّه تعالى الذي له الأمر والسُّلطان هو يفعل ذلك[3].

دلالة التَّعبير بالمفعول به معرَّفًا ﴿ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾:

طريق الهداية لا ينال إلّا بالعدل، ولا سبيل للظّالم غير الضَّلال

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾ معرَّفًا باللّام للدّلالة على الجنس دلالة أي: أنَّ اللّه تعالى إنَّما يصرف عن الهداية أولئك الّذين صاروا من جنس

---

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/188.

(2) المراغي، تفسير المراغي: 13/150.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.

الظّالمين، ولو جيء به نكرة؛ لكانَ المراد التَّكثير لا الجنس، فالتَّعريف يدلُّ على أنَّ إضلال الظّالمين سنَّة راسخة من سنن اللّٰه تعالى في خلقه، كما يحتمل أنَّه أراد بهم قومًا بعينهم، فالمراد به العهد، "ووصفُهم بالظُّلم إمّا باعتبار وضعهم للشَّيء في غير موضعِه، وإمّا باعتبار ظلمِهم لأنفسهم؛ حيث بدَّلوا فطرةَ اللّٰه التي فطرَ النّاسَ عليها، فلم يهتدوا إلى القول الثّابتِ، أو كلّ مَن ظلم نفسَه بالاقتصار على التَّقليد، والإعراضِ عن البيِّنات الواضحة، فلا يثبت في موقف الفتن، ولا يهتدي إلى الحق"[1].

دلالة الواو في ﴿وَيَفۡعَلُ﴾:

الفعل بحسب المشيئة يقرِّر إرادة الله تعالى لعباده من التَّثبيت والإضلال

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بالواو الاستئنافيَّة، للدَّلالة على أنَّ الجملة سيقت مساق التَّقرير والتَّذييل على التَّقسيم المتقدِّم في قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وقوله: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ﴾، كأنَّ سؤالًا أثير عن علَّة هذا التَّقسيم، فقيل: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ بحقِّ الملك[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿وَيَفۡعَلُ﴾:

جريان أفعال الخالق وفق مشيئته على وجه التَّجدُّد

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد والدَّوام، في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه تعالى دائم الفعل على وفق مشيئته، مستمرٌّ على ذلك الوصف، فاللّٰه ﷻ يجري أفعاله على ما يشاء في كلِّ زمان من أزمنة النّاس.

غرض التَّعبير بالاسم الجليل مُسندًا إليه:

جريان الأفعال حسب المشيئة شأن عظيم؛ وهو من خصائص الألوهيَّة

أسند النَّظم الجليل الفعل إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ تعظيمًا لمضمون الخطاب، أي: إنَّ اللّٰه تعالى الّذي له الحكم والسُّلطان، وله الأمر كلُّه، هو يفعل ذلك، ويفعل ما

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/44.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/337.

يشاء، فالتَّعظيم مناسب لتعليق فعله بالمشيئة، فإنَّ ذلك دالٌّ على التَّعظيم، فناسب ذلك أن يعبِّر باسم الجلالة.

دلالة الإظهارِ موضعَ الإضمار ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّـهُ﴾:

كمال سلطان الله تعالى وتأكيد إرادته يقع بالإظهار لا بالإضمار

آثر النَّظم الكريم تكرار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾، فذكر لفظ الجلالة مرَّتين في جملتين متعاقبتين، ولم يكتفِ بالإضمار؛ بل وضع الظّاهر موضعَ المضمَرِ تربيةً للمهابة[1] وتعظيمًا لمضمون الكلام، كما أنَّ تكرار اللَّفظ يُقصَدُ منه أن تكون كلُّ جملة مُستقلَّةً بدلالتها، فتكون سائرة مسير المثل[2].

دلالة التَّعبير بـ(ما) في: ﴿مَا يَشَآءُ﴾:

سعة مشيئته وكثرة الأعمال لا تحدُّها حدود، فالإبهام أبلغ في التَّعبير عنها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن المفعول به بالاسم الموصول ﴿مَا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على عموم الأفعال، فكلُّ فعل داخل تحت مشيئته تعالى؛ لأنَّ كلَّ شيء كائن بحُكْمِه وقضائه[3]، كتثبيت المؤمنين وخذلان الظّالمين، لا رادَّ لحكمه ولا اعتراض عليه[4]، فاسم الموصول (ما) دالٌّ على العموم لما فيه من الإبهام، "وتحت إبهام ﴿مَا يَشَآءُ﴾ وعمومه مطاوٍ كثيرة من ارتباط ذلك بمراتب النُّفوس، وصفاء النّيّات في تطلُّب الإرشاد، وتربية ذلك في النُّفوس بنمائه في الخير والشَّرِّ حتّى تبلغ بذور تَينِك الشَّجرتين منتهى أمدهما من ارتفاعٍ في السَّماء واجتثاثٍ من فوق الأرض المعبَّر عنها بالتَّثبيت والإضلال، وفي كلِّ تلك الأحوال مراتب ودرجات لا تبلغ عقول البشر تفصيلها"[5].

---

(1) الشّوكاني، فتح القدير: 3/129.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/227.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 7/113.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/227.

دلالة التَّعبير بالمضارع في ﴿يَشَآءُ﴾:

آثر النَّظم الكريم أن يعبِّر عن المشيئة بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجديد والاستمرار في قوله تعالى: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾؛ لأنَّ اللّه تعالى دائم المشيئة، ومشيئتُه ﷻ لا تنقطع في زمان، ولا تختصُّ بزمان دون غيره، كما أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع عن المشيئة يناسب التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ أفعال اللّه تعالى لا تنقطع، فالمشيئة التي تتعلَّق بتلك الأفعال لا تنقطع كذلك.

مشيئة المولى لا تتعلَّق بزمان دون غيره، فشأنها الدَّوام والاستمرار

﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ٢٨﴾ [إبراهيم: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنَّما يُضلُّ الله تعالى مَن ظلم نفسه بإيثاره الكفرَ على الشُّكر

أعقب النَّظم الجليل تمثيلَ الإيمان والكفر بالشَّجرة الطَّيِّبة والخبيثة ببيانِ حال أصحابهما، فابتدأ بذكر حال الكافرين، فبعد "أن ضرب عزَّ اسمه الأمثالَ بيانًا لحالَي الفريقين، وذكر ما يلهمه من التَّوفيق في الدّارين للسُّعداء، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال، جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشُّرور والآثام، وبيَّن أنَّ كلَّ ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة؛ ذكر هنا الأسباب التي أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجِّبًا رسولَه ممّا صنعوا من الأباطيل"(1). ومن المناسبة أنَّ الآية هنا مسوقة كالبرهان والعلَّة على الآية السابقة التي أخبرت أنَّ كلَّ الإيمان والضَّلال بأمر الله تعالى وحده، فلمّا أخبر سبحانه بذلك، وأنَّه الفاعل وحده؛ أتبعه بذكر الدَّليل عليه، وهو إضلال الذين بدَّلوا الكلمة الطَّيِّبة من التَّوحيد بالإشراك وزلزلتهم واجتثاث كلمتهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾(2).

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿بَدَّلُواْ﴾: أصلُ (بدل): أصلٌ واحِدٌ، وهو قيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وبَديلُه، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ؛ إذا غيَّرته، وإنْ لم تَأْتِ له ببَدَلٍ، قالَ الله تعالَى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ [يونس: 15]. وأبْدَلْتُهُ؛ إذا أتيت له بِبَدَلٍ، وحقيقته: أن تُغيِّرَ الصّورة إلى صورة أُخرى، والجوهرة

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/152.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/415.

بعينها، والإبدال: تنحيةُ الجَوهرة، واستئناف جوهرةٍ أُخرى[1]. والمقصود بالتَّبديلِ في الآية: وَضْعُ الشَّيْءِ في المَوْضِعِ الَّذي يَسْتَحِقُّهُ شَيْءٌ آخَرُ.

2) ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾: أصلُ (نعم) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على تَرَفُّهٍ وَطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، مِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللّه تعالى على عَبْدِهِ به مِنْ مالٍ وعَيْشٍ[2]، مُشْتَقَّةٌ مِنَ النَّعيم، وهو راحَةُ العَيْشِ ومُلائِمُ الإنسانِ والتَّرفُّه، والنِّعمةُ أيضًا: الحالَةُ الحَسَنَةُ؛ لأنَّ بناءَ الفِعْلَةِ بالكَسْرِ للهَيئاتِ، ومتعلِّقُ النِّعْمَةِ اللَّذّاتُ الحِسّيَّةُ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ في اللَّذّاتِ المَعْنَويَّةِ العائِدَةِ بِالنَّفعِ، وَلَوْ لَمْ يُحِسَّ بها صاحِبُها، وبناؤُها بناءُ المَرَّة من الفِعْلِ كالضَّرْبَة والشَّتْمَة، والنِّعْمَةُ للجِنْسِ تُقال للقَليلِ والكثيرِ، وَجَمْعُها: نِعَمٌ، وتُجْمَعُ جَمْعَ سَلامَةٍ على نِعَماتٍ[3]. والمراد بنعمة اللّه هنا: المَنْفَعَةُ الَّتي يَقْصِدُ بها فاعِلُها الإحْسانَ إلَى غَيْرِهِ، وهي إرسال محمد ﷺ إليهم يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدُّنيا والآخرة.

3) ﴿كُفۡرٗا﴾: أَصْلُ الكُفْرِ: السَّتْرُ والتَّغْطيَةُ، يُقالُ: كَفَرَ الشَّيْءَ، أيْ: سَتَرَهُ، وغَطّاهُ، ومِنْهُ سُمّيَ الزّارِعُ كافِرًا؛ لأنَّهُ يُغَطّي البَذْرَ بِالتّراب، ومنه سُمّيَ غَيْرُ المُؤْمِنِ كافِرًا؛ لأنَّهُ غَطَّى الحَقَّ والإيمانَ[4]. والكُفْرُ: نَقيضُ الإيمانِ، يُقال: كَفَرَ بِالشَّيْءِ، يَكْفُرُ، كُفْرًا وكُفورًا وكُفْرانًا: إذا أَشْرَكَ بِاللّهِ، ولم يُؤْمِنْ به، ويأْتي الكُفْرُ بمعنى الإنكارِ والجُحودِ، فيُقال: كَفَرَ بِالنِّعْمَةِ، أيْ: أَنْكَرَها، وجَحَدَها[5]. والمراد بالكُفْرِ في الآية: كُفْرانُ النِّعْمَةِ، وهو ضدُّ الشُّكْرِ، والإشْراكُ باللّه مِنْ كُفْرانِ نِعْمَتِهِ[6].

4) ﴿دَارَ﴾: أصلُ الدّور: الإحداق والإحاطة بالشَّيء، والدّار هي المَنْزِلُ؛ وسُمِّيت دارًا لدَوران أهلها بها، أو لدَورانها هي على أهلها وإحاطتها بهم، وتُطلَق، ويُراد بها البلَد والضِّيَعُ والدُّنيا كلُّها[7].

5) ﴿ٱلۡبَوَارِ﴾: أصلُ الكلمةِ يدلُّ على هلاكِ الشَّيء وما يشبهه من تعطُّلِهِ وخُلوِّه، يُقالُ:

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/193، و29/270.
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (كفر).
(5) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(7) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (دور).

بارَ الشَّيء، يَبورُ، بَورًا: إذا هَلَكَ، وتَعطَّلَ، ودارُ البَوار، أي: دار الهلاك، وهم بور، أي: ضالّون هلكى، ويأتي البوار بمعنى الكساد، يقال: بارت السّوق؛ إذا كسدت، ومن هذا الوجه: الأرض البوار، أي: الخراب التي لم تزرع، والبائر: الفاسد الّذي لا خير فيه، ومنه سوق بائرة، أي: فاسدة[1]. والمراد بـ﴿ٱلۡبَوَارِ﴾ في الآية: الهلاك والخسران.

المَعْنى الإجْماليّ:

تحذيرٌ مِن كُفْرانِ النِّعمةِ، وصَرفِها فيما لا يُرضي الله

يقول الله تعالى: ألم تنظُرَ - يا محمَّدُ ﷺ - إلى كفّارِ قُرَيشٍ، الَّذين غَيَّروا نِعمةَ اللّهِ عليهم بِبَعثِك رسولًا إليهم مِن اللّهِ، فكَفَروا باللّهِ، وكَذَّبوك، فلم يُؤمِنوا برسالَتك، ولم يَشكُروا اللّهَ عليها، وأنزَلوا قَومَهم - الّذين اتَّبَعوهم مِن قُرَيش - دارَ الهَلاكِ؟

فالكافر يُقابل نِعَمَ اللّه بالجحود والنُّكران، والأصل أن تقابل بالإقرار والشُّكر، فمن بدَّل الشُّكر كفرًا كمن بدَّل النِّعمة ذاتها، وهم بذلك يأخذون بيد أقوامهم إلى الهلاك، فهذا خطاب لقادة الكفّار يُقبِّح أفعالهم في إضلال أقوامهم، فبئس الهداة هم.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

الاستئناف لبيان وجه التَّمثيل بين خبث الشَّجرة والكفر

الجملة في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، جيء بها تفسيرًا لتمثيل الكافرين بالشَّجرة الخبيثة، وهذا الاستئناف قد "اقتضته مناسبة ما حكي عن أحوال أهل الضَّلالة وأحوال أهل الهداية ابتداء من قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا﴾ [إبراهيم: 21] إلى قوله: ﴿تَحِيَّتُهُمۡ فِيهَا سَلَٰمٌ ٢٣﴾ [إبراهيم: 23]، فضرب اللّه مثلًا لكلمة الإيمان وكلمة الشِّرك، فقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا﴾ [إبراهيم: 24] إيقاظ للذِّهن ليترقَّب ما يرِدُ بعد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (بور).

هذا الكلام، وذلك مثل قولهم: ألم تعلم؟ ولم يكن هذا المثل ممّا سبق ضربه قبل نزول الآية؛ بل الآية هي التي جاءت به، فالكلام تشويقٌ إلى علم هذا المثل"[1]. كما أنَّ الاستئناف بهذه العبارة يبيّن وجه التَّشبيه بين الكفر وبين تلك الشَّجرة الّتي لا نفع فيها.

الغرض من الاستفهام ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

كـفـرُ النِّـعـمـة مثيرٌ للعجب في منهاج العارفين

عبَّر النَّظم الجليل بالاستفهام المجازيِّ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا﴾؛ لتقرير الرُّؤية ابتغاء التَّعجيب من حال الكفرة، حيث جعلوا بدل شكر نعمة اللّه تعالى عليهم الكفرَ بها[2]، فليس الاستفهام حقيقيًّا؛ بل المراد دعوة المخاطَب للتَّعجُّب من شأن الكفرة، وممّا صنعوا من الأباطيل التي لا تصدُر عمّن له أدنى إدراك[3]، "أي: ألم تعلم وتعجب من قوم بدَّلوا شكر النِّعمة غمطًا لها وجحودًا بها، كأهل مكَّة الذين أسكنهم اللّه حَرمًا آمنًا تُجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيء، وجعلهم قوّام بيته، وشرَّفهم بإرسال رسوله محمَّد ﷺ من بينهم، فكفروا بتلك النِّعمة"[4]، فأيُّ كفر أشنع من ذلك وأعجب؟

المُراد بالخطاب في فعل الرُّؤية ودلالتُه:

ســوء فـعـلـهـم واضح يدركه كلُّ أحد، ويدعو إلى التَّعجيب

عبَّر النَّظم الجليل بصيغة المخاطَب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾، والمراد به - على ما جوَّزه أئمَّة التَّفسير - إمّا النَّبيُّ ﷺ أو كلُّ مَن بلغه الخطاب، والغرض منه التَّعجيب "ممّا صنع الكفرة من الأباطيل الّتي لا تكاد تصدر عمَّن له أدنى إدراك، وذلك بتكذيبهم محمّدًا ﷺ حين بعثه اللّه منهم، وأنعم عليهم به"[5]، ويدلُّ الخطاب على أنَّ ما جاؤوا به من قباحة الفعل يُدركه كلُّ من له نظر، فسوء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/223.
(2) الشّوكاني، فتح القدير: 3/130.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(4) المراغي، تفسير المراغي: 13/153.
(5) القنّوجي، فتح البيان: 7/114.

فعلهم واضحٌ بيِّنٌ؛ إذ أعرضوا عن شكر نعمة المولى بأن خصَّهم برسولٍ منهم.

دلالة حرف الجرّ في: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾:

بين أهل الإيمان وأهل الكفر مدًى بعيدٌ

آثر النَّظم الكريم تعديةَ فعل الرُّؤية بحرف الجرِّ الدّالِّ على الغاية ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ للدَّلالة على بُعدهم عن مقام النَّبيِّ ﷺ[1]، وكأنَّ المراد ليس رؤية ذواتهم؛ بل المراد منهاجُهم وفعلُهم القبيح، فحرفُ الجرِّ ﴿إِلَى﴾ يدلُّ على أنَّ إعراضهم عنِ الدَّعوة جعلهم في مكانٍ بعيدٍ بحيث يكون بينه وبين الرّائي مدًى يصحُّ أن يُستعملَ فيه حرفُ الغاية.

غرض التَّعبير بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعجيب حاصلٌ من قوم معروفين معهودين

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ للإشارة إلى قوم معهودين مُرادين بأعيانهم وهم صناديدُ المشركين من قريش، فعبَّر بالموصول؛ لأنَّهم فريقٌ معروفون، وهم الّذين استكبروا من أهل مكَّة، فعارضوا دعوة الإسلام، وكذَّبوا النَّبيَّ ﷺ وشرَّدوا مَن استطاعوا من عباد الله المؤمنين، وهم الّذين تسبَّبوا في إحلال قومهم دار البوار[2].

غرض الاستعارة في الفعل ﴿بَدَّلُوا۟﴾:

من السَّفاهة وضع الحسن - وقد وجب - موضعَ القبيح

استعار النَّظم البليغ لفظ التَّبديل لمعنى وضع الشَّيء مكان غيره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾؛ لأنَّهم وضعوا مكانَ الشُّكر الّذي وجب عليهم الكفرَ، كما في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢﴾ [الواقعة: 82]، أي: تجعلون شكرَ رزقكم؛ حيث وضعوا مكانَه التَّكذيب[3]، فاستُعير "التَّبديل لوضع الشَّيء

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/415 - 416.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/555.

في الموضع الذي يستحقُّه شيءٌ آخر؛ لأنَّه يشبه تبديل الذّات بالذّات"[1].

وهي استعارة مكنيَّة؛ فشبَّه الّذين كفروا؛ إذ فضَّلوا الكفر على الإيمان بمَن يعمد إلى شيء، ويرفعه من موضعه، ويضع شيئًا موضعه؛ لأنَّه يستحسن المبدَل لوجه ما، فحذف المشبَّه به، وأبقى قرينة التَّبديل دالَّة عليه، وفائدة ذلك التَّعبير عن ضلال عقولهم؛ إذ "جعلوا بدل النِّعمة التي تستوجب الشُّكر كفرًا، فالذين أُعطوا نعمة بدل أن ينتفعوا بها في وضعها موضعَها من الشُّكر عليها؛ كفروا بها، وكثيرون من ذوي النِّعم الذي أنعم اللّه عليهم بالثّراء استعلوا به، فجعلوه كفرًا"[2].

نكتةُ الإضافة إلى لفظ الجلالة: ﴿نِعۡمَتَ ٱللَّـهِ﴾:

تعظُمُ النِّعم بِعِظَم المنعِم بها

أضاف النَّظم البليغ لفظ النِّعمة إلى اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ تعظيمًا لشأن هذه النِّعمة، فهي من اللّه تعالى الّذي له صفات الكمال والجلال، وهذه النِّعمة العظيمة هي "أن بوَّأهم حرَمَه، وأمَّنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة النّاس تهوي إليهم، وسلَّمهم ممّا أصاب غيرَهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النِّعَمَ، وعبدوا الحجارةَ، ثمَّ أنعم اللّه عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه - صلى اللّه عليهم جميعًا - وهداهم إلى الحقِّ، وهيَّأ لهم أسباب السّيادة والنَّجاة في الدُّنيا والآخرة، فبدَّلوا شكر ذلك بالكفر به، فنعمة اللّه الكبرى هي رسالة محمّد ﷺ ودعوة إبراهيم وبنيه عليهم السلام"[3].

الغرض من التَّنكير في ﴿كُفۡرٗا﴾:

كفر النِّعمة من أعظم أنواع الكفر

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الكفر بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾؛ للدَّلالة على تعظيم جنايتهم[4]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4025.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.

فبدَّلوا شكرَ نعمة اللّه تعالى عليهم بكفر عظيم، وتعظيم الكفر مناسب لذكر النِّعمة مضافة إلى اللّه تعالى إذ إنَّها تستلزم الشُّكر، فلمّا لم تقابل بلازمها من الشُّكر؛ دلَّ ذلك على أنَّ الكفر بها هو كفر في غاية الغلوِّ.

دلالة الواو في ﴿وَأَحَلُّواْ﴾:

تبديل النِّعمة والتَّسبُّب بالإحلال في النّار من فعل سادة الكفّار

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ معطوفة بواو العطف على الجملة الواقعة صلة للموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾[1]؛ لأنَّ المراد من التَّعجيب من حال الكفّار كلا الفعلين التَّبديل وما تسبَّب عنه من إحلال القوم دار البوار، فدلَّ العطف على أنَّ التَّبديل والإحلال كائنان من فعل سادة الكفّار كلاهما.

غرض المجاز العقلّي في ﴿وَأَحَلُّواْ﴾:

مُسبِّب الفعل فاعل له عقلٌ

أسند النَّظم الجليل فِعلَ الإحلال إلى الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾، والّذي يدخل الظّالمين إلى النّار إنَّما هو اللّه تعالى، فإسناد الفعل إلى الكافرين جاء على طريقة المجاز العقليِّ[2]؛ إذ إنَّ سبب دخولهم النّار إنَّما هم سادتهم وكبراؤهم من الكفّار، فإنَّ "أصحاب النِّعَم الّتي يكفرونها هم الّذين يفسدون أقوامهم، ويأخذونهم إلى حيث الفناء، وفناء الأمم والأقوام بشيوع الكفر والجحود فيها"[3].

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي:

حلولهم النّار مؤكَّدٌ مقطوع لا شكَّ فيه

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ مع أنَّ حلولَ تلك الدّار لمّا يقع بعدُ؛ وذلك للدّلالة

(1) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/188.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4025، وينظر: القنّوجي، فتح البيان: 7/114.

على تحقيق الإحلال وتأكيد حصوله؛ لأنَّ زمن الإحلال متأخِّرٌ عن زمن الكفر[1]، فإنَّ التَّعبير بالماضي عن المستقبل يقصد منه تأكيد حدوث مضمون الخطاب.

سرُّ إضافة القوم إلى الضَّمير ﴿قَوۡمَهُمۡ﴾:

ملازمة المتبوع دليل انتماء التّابع

أضاف النَّظم الجليل لفظ القوم إلى ضمير الّذين بدّلوا نعمة الله تعالى في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾؛ لأنَّ القوم لمّا اتَّبعوهم في ملازمة الكفر حتّى ماتوا على الكفر؛ صاروا مستحقّين أن يكونوا تابعين لهم، وأن يضافوا إليهم[2]، كما أنَّ كلَّ قوم إنَّما يتَّبعون سادتهم، ويلازمونهم في الحرب والسِّلم والإيمان والكفر، فكانوا مختَّصين بهم.

سرُّ الإضافة في ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾:

مجمع الخسران والهلاك في دارٍ ما مبالغة في قبح الدّار

آثر النَّظم الكريم إضافة لفظ الدّار إلى البوار في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ للمبالغة في كون تلك الدّار بالغة السّوء، فهي حائزة على صفات الهلاك، فتكون دار الهلاك الّذي لا هلاك وراءه[3]، فلمّا كان البوار يدلُّ على الهلاك والخسران؛ دلَّت إضافته إلى الدّار على محلِّه ومكانه[4]، وجعْلُ الهلاك والخسران مختصًّا بمكان ما يدلُّ على عظم السّوء في ذلك المكان، فالمراد من الإضافة بيان سوء ذلك الإحلال، وفداحة الخسران الذي سبَّبه الكبراء لقومهم.

دلالة تعريف المُضاف إليه ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾:

أصل البوار وجنسه كائن مستقرٌّ في تلكم الدّار

عرَّف النَّظم الجليل لفظ البوار بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ الدّالَّة على الجنس، مبالغة في وصف الدّار بالقبح؛ إذ إنَّها حازت البوار كلَّه الذي لا بوارَ وراءه[5]، فهي

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/228.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.

دارٌ قد جمعت الهلاك كلَّه، فلا هلاكَ ولا خسرانَ في غير هذا المكان، فانعدم وجود البوار في غير هذه الدّار؛ فهي أصل البوار ومكانه وموئله.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(بدّلوا) و(غيّروا):

التَّغْيِير مطلق الاخـتـلاف، والتَّبديل وضع شيء مكان شيء آخر

التَّغيير من (غير) وهو يَدُلُّ عَلَى اخْتِلافِ شَيْئَيْنِ، قَوْلُنا: هَذا الشَّيْءُ غَيْرُ ذاكَ، أيْ: هوَ سِواهُ وَخِلافُهُ[1]. أمّا التَّبديل؛ فمن (بدل) وهو قيامُ الشَّيْءِ مَقامَ الشَّيْءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هَذا بَدَلُ الشَّيْءِ وَبَديلُهُ[2]. والإبدال والتَّبديل والتَّبَدُّل والاستبدال: جعل شيء مكان آخر، كقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ﴾ [البقرة: 59][3]، فالتَّغيير عامٌّ يدلُّ على مخالفة، أمّا التَّبديل؛ فيدلُّ على وضع شيءٍ مكان شيءٍ آخر، وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالتَّبديل، فقال جلَّ شأنه: ﴿بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرًا﴾؛ لأنَّهم وضعوا الكفر موضع الشُّكر والإيمان.

(أحلّوا) و(أنزلوا):

الـنُّـزول حـطُّ الرَّحل، والحلُّ فيه فتْحُ ذلك الرَّحل، فهو أدلُّ على المكث

أصل الحَلِّ: حلُّ العقدة، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧﴾ [طه: 27]، وحَلَلْتُ: نزلت، أصله من حلِّ الأحمال عند النُّزول، ثم جُرِّدَ استعمالُه للنُّزول، فقيل: حَلَّ حُلولًا، وأحَلَّهُ غيره، قال ﷺ: ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ [الرعد: 31]، ﴿وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾[4]. أمّا النُّزولُ في الأصل؛ فهو انحِطاطٌ من عُلْو، يقال: نَزَلَ عن دابَّته، ونَزَلَ في مكان كذا: حَطَّ رَحْلَهُ فيه[5]، فالنُّزول في المكان يدلُّ على حطِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غير).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) الراغب، المفردات: (بدل).
(4) الراغب، المفردات: (حلّ).
(5) الراغب، المفردات: (نزل).

الرَّحل فيه، أمّا الحلول؛ فيدلُّ على أكثر من ذلك، فهو نزول يتبعه حلُّ الرَّحل، فهو أدلُّ على المكث في المكان واللُّبث فيه من مجرَّد النُّزول، ولذا اختير هذا اللَّفظ لذمِّ الكافرين الذين أحلّوا قومهم تلك الدّار، فهو أدلُّ على الالتصاق والبقاء في تلك الدّار.

﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ٢٩﴾ [إبراهيم: 29]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

بعد تقرير سوء المصير شرع في بيانه وتفصيله وذمِّه

لمّا بيَّن أنَّ مآل الذين بدَّلوا شكر نعمة اللّه بالكفران أنَّهم أحلّوا قومهم دار البوار؛ أتبعه ببيان تلك الدّار، وأنَّها تلقاهم بسوء المنظر، فلمّا "أفاد أنَّها مهلكة؛ بيَّنها بما يفهم أنَّها تلقاهم بالعبوسة، كما كانوا يلقون أولياء اللّه من الرُّسل وغيرهم بذلك، فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾ حال كونهم ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾"[1]. فالآية مسوقة لبيان دار البوار، فأعقب الإبهام الحاصل من قوله: ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ بإيضاح كون تلك الدّار هي نار جهنَّم التي هي بئس القرار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾: أصلُ (صلى): النّارُ وما أَشْبَهَها مِنَ الحُمَّى، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بِالنّارِ، وصَلَيْتُ اللَّحْمَ، بالتَّخفيفِ، على وَجْهِ الصَّلاحِ مَعْناهُ شَوَيْته، فأمّا أَصْلَيْتُه، وصَلَّيْتُه؛ فَعَلَى وجْهِ الفَسادِ والإِحْراقِ[2]. وتصلّاها: قاسَى حرَّها، وأصلاه النّار، وصلّاه إيّاها وفيها وعليها: أدخله إيّاها وأثْواه فيها، قال الآلوسي، وقال بعض المُحقِّقين: إنَّ أصل الصَّلي القُرب من النّار، وقد استعمل هنا في الدُّخول مجازًا[3]. والصِّلاءُ: يقال للوَقود وللشِّواءِ[4]. والمقصود بالصَّليِّ في الآية: الاصطلاء بالنّار والقُرب منها، والمراد به هنا: الاحتراق بها.

2) ﴿ٱلۡقَرَارُ﴾: أصلُ القَرارِ: الثُّبوتُ والتَّمَكُّنُ، يُقال: قرَّ الشَّيْءُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/416.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صلي).
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 2/425.
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (صلي)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التمييز: 3/435.

يَقِرُّ، قَرارًا؛ إذا ثَبَتَ في مَكانِهِ، ولم يَتَحَوَّلْ، والقَرارُ: المُستقرُّ مِنَ الأرض، وأقرَرتُه في مَقَرِّه ليَقَرَّ، وفلان قارٌّ، أي: ساكِنٌ[1]. ويأتي بِمعنى الاقْتِرانِ والتَّلازُم، يُقالُ: قَرَّ الشَّيْءُ بِالشَّيْءِ؛ إذا قُرِنَ بِهِ، وتَرافَقَ مَعَهُ، ومِنْ مَعانيه أيضًا: الإقامَةُ، والاطْمِئْنانُ[2]. والمراد بالقَرارِ في الآية: الثُّبوتُ في المَكانِ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يقولُ تعالى: هذه الدّار هي جهنَّم دار العَذاب والهلاك الَّتي يقاسون حَرَّ نارها، تُحيطُ بهم من جميع جوانبهم، وبئس المُستقرُّ هي لمن أراد اللّه به النَّكال والوَبال[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة جملة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ بين البدل والاستئناف:

أجاز أئمَّة التَّفسير والبيان أن تكون الجملة في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ استئنافيَّة، وأن تكون بدلًا، ودلالة كونها بدلًا أنَّه جيء بها بعد الإبهام في قوله: ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾؛ إذ إنَّ في الإبهام المتبوع بالبيان تهويلًا بليغًا بمضمون الخطاب[4]، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المراد من ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ الآخرة، فيكون ذكر النّار بعدها على أنَّه بدلٌ عنها، "فتخصُّ دار البوار بأعظم أفرادها وهو النّار، ويجعل ذلك من ذكر بعض الأفراد لأهميَّته"[5]، أمّا الاستئناف؛ فهو مبنيٌّ على تفسير دار البوار بأنَّها أرضُ بَدْر، فتكون جملة ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، كأنَّه قيل: وما دار البوار؟ فقيل: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾.

إتباع الإبهام بالبيان يخلع المبالغة والتَّهويل على مضمون الخطاب

(1) الخليل، العين: (قر).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قرر).
(3) المراغي، تفسير المراغي: 13/153.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/229.

سرُّ إيثار اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ على غيره:

جهـنَّم بئس القـرارُ جزاءً لأسوأ الأعمال؛ فالجـزاء من جنس العمل

لمّا كانت أعمال هؤلاء قد بلغت مداها من الكفر، وكانوا سببًا في إنزال قومهم دار الهلاك والخسران، أوثر التَّعبير عن دار البوار بأدقِّ وصفٍ للنّار، وهو ﴿جَهَنَّمَ﴾، التي يعذَّب فيها الكافرون - نعوذ بالله منها وممّا يؤدّي إليها -؛ ليكون الجزاء من جنس العمل؛ لأنَّ اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ يدلُّ على بُعْد قَعْر الشّيء وعُمق تجوُّفه مع اضطمامه على هذا التجوُّف، وقد تكرَّر في الأحاديث وصفها بالعمق السّحيق، وقد سمّاها اللّه ﷻ هاوية ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ [القارعة: 9] "والهاوية: كُلُّ مَهْواةٍ لا يُدْرَك قعرُها"(1).

غرض تقديم المفعول به ﴿جَهَنَّمَ﴾:

التَّعجيل ببيان سوء المصير أبلغ في التَّفجيع

قدَّم النَّظم الجليل المفعول به في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ تعجيلًا لهم بهوْل المصير، وتفجيعًا لهم، فبعد الإبهام المتحصِّل من قوله: ﴿دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ بمجيء الوصف عامًّا؛ أتبعه باللَّفظة الَّتي تفسِّر ذلك البوار، مقدِّمًا إيّاها على الفعل؛ لما في ذلك التَّقديم من تعجيلٍ بالفاجعة، فليس المراد مجرَّد الإخبار بأنَّ تلك الدّار هي جهنَّم؛ بل المراد بيان فداحة الخسران والبوار الّذي أحلّوا قومهم فيه، فافتتاح الجملة بالمفعول به ﴿جَهَنَّمَ﴾ افتتاح بليغ يدلُّ على التَّفجيع والتَّهويل بسوء المصير.

غرض وصف جهنَّم بجملة فعليّة:

التَّقييد بالصَّلْي المعلوم تصوير لكيفيَّة المباشرة

قيَّد النَّظم الجليل لفظ جهنَّم بالجملة الفعليَّة في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ للدَّلالة على حال الكافرين فيها، أي: إنَّهم يباشرون حرَّها منغمسين فيها(2)، فالجملة الفعليَّة ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾ مستأنفة، جيء بها لبيان "كيفيَّة حلولهم فيها، أي: داخلين فيها

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهنم).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/416.

مقاسين لحرها"(1)، فلم يكتفِ النَّظم ببيان كون دار البوار بأنَّها جهنَّم؛ بل بيَّن كذلك كيفيَّة دخولهم تلك الدّار، كما لا يخفى أن التَّصريح بصلْي النّار غير ملزم؛ إذ إنَّ دخول النّار يقتضي الصَّلْيَ فيها، فإنَّما صرَّح بذلك إيغالًا في التَّرويع والتَّرهيب.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾:

الحلول في النّار لا ينقطع في دارهم الدّائمة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ حلولهم فيها، وصليهم بحرِّها كائنان على وجه الدَّوام والاستمرار(2). كما أنَّ في ذلك تصويرًا للمشهد واستحضارًا للصّورة، وهذا التَّصوير والاستحضار أبلغ في التَّرويع والتَّفجيع.

دلالة موقع جملة ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾:

عطْفُ القبيح على القبيح تهويلٌ لسوء المقام

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ معطوفة على الجملة المستأنفة الواقعة حالًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَصۡلَوۡنَهَاۖ﴾، فتكون حالًا ثانية من جهنَّم، والتَّقدير: وبئس القرار هي(3)، أي: أحلّو قومهم جهنَّم حال كونهم يباشرونها مقاسين لحرِّها وحال كونها مكانًا بئيسًا.

غرض قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ ودلالته:

القرار في النّار هو القرار البالغ السّوء

ذمَّ النَّظم الجليل النّار بأسلوب الذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾، وهو إنشاء غير طلبيٍّ المراد منه المبالغة في وصف النّار بالسّوء، فصفة البؤس منسوبة للقرار فيها، أي: بئس المقرُّ جهنَّمُ، وبئس القرار قرارُهم فيها(4)؛ لأنَّهم "يصطلون بها، يحيط بهم حرُّها الشَّديد، ويكونون وقودًا لها، وإنَّها تكون أسوأ نهاية؛ ولذا ذمَّها اللّه، فقال تعالتْ كلماتُه: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾"(5).

---

(1) القنّوجي، فتح البيان: 7/114.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/230.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4026 - 4027.

القرار الكائن في جهنَّم هو القرار السـيّـئُ لا كـلَّ قرار

سرُّ التَّعبيرِ بـ ﴿ٱلۡقَرَارُ﴾ معرَّفًا باللام:

آثر النَّظم الكريم تعريف القرار في قوله تعالى: ﴿جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَاۖ وَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ بالألف واللّام الدّالَّة على العهد؛ فلمّا ذكر في صدر الآية الفعل ﴿وَأَحَلُّواْ﴾؛ دلَّ ذلك على حضور معنى الحلول وعهده في الذِّهن، فيكون ذكر القرار تنويهًا على هذا الحلول المذكور، وليس المُراد به كلَّ قرار؛ بل القرار في جهنَّم هو المخصوص بالذَّمِّ.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيَّن سوء المصير أعقبه ببيان أسبابه

لمّا بيَّن النَّظم الجليل أنَّهم أحلّوا قومهم جهنَّم، فكان استقرارهم في تلك الدّار البائرة قد بلغ من البؤس غايته؛ أتبعه ببيان علَّةِ ذلك وسبب شقاوتهم؛ إذ كان فعلهم كفعل مَن لا عقل له ولا فقه؛ إذ ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ الذي يعلمون أنَّه إله واحد لا شريك له شركاء يعبدونهم معه تعالى اللّه عمّا يصفون[1]، فبيَّن تعالى أنَّ الكفر الّذي بدّلوا به نعمة اللّه تعالى، هو اتّخاذُهم الأندادَ شركاء له في العبادة[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَندَادًا﴾: أصلُ النِّدِّ: الفِراقُ والمُباعدة، يُقالُ: نَدَّ البعير ندًّا وندودًا؛ إذا ابتعد، وفارق أهله، ومنه سمّي الضّدُّ والمخالف والمثل ندًّا؛ لأنَّه يباعد مثيله، ويفارقه، والنِّدُّ بالكَسْرِ: المِثْلُ والنَّظيرُ، والجَمْعُ أندادٌ، يُقالُ: فلان ندُّ فلانٍ ونَديدُهُ، أي: مِثْلُه ونَظيرُهُ[3]، والنِّديَّةُ: المِثليَّةُ، والنِّدُّ أيضًا: ما كانَ مِثْل الشَّيء يُضادُّه في أُموره، ولا يكونُ النِّدُّ إلّا مُخالفًا، والأندادُ: الأضدادُ[4]. والمرادُ بالأنْدادِ في الآية: جَمْعُ نِدٍّ، وهو المُماثِلُ في مَجْدٍ ورِفْعَةٍ[5].

2) ﴿تَمَتَّعُواْ﴾: أَصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَع النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[6]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/417.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4027.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (ندد).
(4) الخليل، العين، وابن الأثير، النِّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (ندد).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/230.
(6) الراغب، المفردات: (متع).

الجَوْدَة(1). والمتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمْتاعُ: الانْتِفاعُ(2)، تقولُ: تَمَتَّعْتُ بِكَذا، واسْتَمْتَعْتُ بِهِ؛ إذا انْتَفَعْتُ بِهِ، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلُّ شَيْء ينتفَع بِهِ، ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد؛ والفناء يَأْتي عليه في الدُّنيا، والجَمْعُ أمْتِعَةٌ(3). والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانْتِفاعُ القَصيرُ زَمَنُهُ.

3) ﴿مَصِيرَكُمْ﴾: أصلُ (صير): أَصْلٌ صَحيحٌ، وهو المآلُ والمَرْجِعُ، مِنْ ذلكَ صارَ يَصيرُ صَيْرًا وصَيْرورَةً، والصِّيرُ كالحَظائِرِ يُتَّخَذُ للبَقَرِ، والواحِدَةُ صيرَةٌ، وَسُمّيَتْ بِذَلِك؛ لِأَنَّها تَصيرُ إِلَيْهِ(4). وصَيرُ الأمْرِ مُنْتَهاهُ وما صيرَ إليه، وأنا على صيرٍ مِنْ أمْرِ كذا، أي: على ناحيةٍ منه، وصَيّورُ الشيءِ آخِرُه ومُنْتَهاهُ(5)، والمَصير: المَوْضِعُ الَّذي تَصير إليه المياهُ(6)، والمراد بالمَصيرِ في الآية: الرُّجوعُ والانتهاءُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الانغماس في الأهواء والاستطالة بها سبب كلِّ شرٍّ

يُخبر الحقُّ سبحانه أنَّ أشد الكفر الَّذي بدَّلوا به نعمة اللّه تعالى هو اتِّخاذ الأنداد شركاء له في العبادة، فقال تعالى: إنَّ مِنْ سَفَهِ هؤلاء الضّالّين المعاندين الَّذين أبوا أن يستجيبوا لرسول اللّه ﷺ أنَّهم جعلوا للّه أندادًا، ونظراء يعبُدونَهم معه؛ كي يُضِلّوا النّاسَ عن دينِ اللّهِ الحَقِّ، ولم يتوقَّف قُبحهم هذا على أنفسهم، وإنَّما تعدّاهم إلى غيرهم، فصاروا قوّاد الضَّلالِ وأئمَّتَهُ، فهدِّدهمْ - يا محمَّد ﷺ - بأنَّ حياتهم قصيرة، وأنَّ حجمها كحجم متاع المسافر، ثمّ بعد ذلك يكون إلى النّار مآلهم يُخلَّدون في النّار لقاء قيادتهم الضَّلال.

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).
(2) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (صير).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صير).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (صير).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في قوله: ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ معطوفة على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَدَّلُواْ﴾، وقوله: ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ بالواو العاطفة، فالفعل داخل مع الفعلين المذكورين في "حيّز الصِّلة وحكم التَّعجيب، أي: جعلوا في اعتقادهم وحكمهم ﴿لِلَّهِ﴾ الفردِ الصّمدِ الّذي ليسَ كمثلِه شيءٌ هو في الواحد القهّار ﴿أَندَادًا﴾"(1). فالضّمير في ﴿وَجَعَلُواْ﴾ يعود إلى أئمَّة الكفر، وهم الّذين بدَّلوا نعمة اللّه، فالعطف في الآية مسوق لتعديد مزيدٍ من شناعاتهم.

الإشــــراك بـالـلـه تـعالى ضـلالـة أخـرى مــن ضــلالات الــكــافـريــن العديدة

دلالة التَّعبير بالماضي في ﴿وَجَعَلُواْ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل بالفعل الماضي ﴿وَجَعَلُواْ﴾ الّذي جعلت الغاية منه إضلال النّاس في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ للدّلالة على أنَّ ذلك الجعل قديمٌ فيهم متأصِّلٌ في أفعالهم، وهو فعلٌ متحقِّقٌ منجَز، فالماضي يدلُّ على أنَّ إشراكهم باللّه تعالى من أفعالهم الأصيلة العتيدة.

شــركــهــم وضــلالــهــم مـتـأصِّـل بهم قديم العهد

غرض تقديم ﴿لِلَّـهِ﴾ على ﴿أَندَادًا﴾:

قدَّم النَّظم الجليل لفظ الجلالة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، فلم يقل: (وجعلوا أندادًا للّه)؛ لأنَّ التَّصريح بلفظ الجلالة يتضمَّن الدَّلالة على أنَّهم يعلمون أنَّه الإله الّذي لا شريك له في خلقهم، ولا في رزقهم(2)، فيدلُّ تقديم العَلَم الجليل على شناعة جعلهم للّه شركاء؛ لأنَّ من تمام سوء ذلك الجعل بأنَّه مقصود به الإشراك باللّه تعالى، فتقديم لفظ الجلالة للمبالغة في بيان شناعة ذلك الفعل.

اتِّـخـاذ الأنـداد بالغ الشَّناعة لما فـيـه مـن شـرك بالله الواحد

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/45.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/417.

غرض تنكير المفعول به ﴿أَندَادٗا﴾:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير، فهم جعلوا للّه تعالى كثيرًا من الشُّركاء، كما أنَّه يتضمَّن الدَّلالة على تهوين أولئك الشركاء وتحقيرهم، فهم أنداد لا يُؤبَهُ لهم، ولا حقيقةَ لهم، كما أنَّ فيه إلماحًا إلى تعدُّد أشكال أولئك الأنداد.

تعدَّدت الآلهة، وكـثرت فلكلِّ قـوم وثـنٌ أشـركوه بالله تعالى

دلالة اللّام في الفعل ﴿لِّيُضِلُّواْ﴾:

أدخل النَّظم الجليل اللّام الدّالَّة على العاقبة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾؛ لأنّ الإضلال لم يكن غرضهم؛ بل هو النَّتيجة التي يؤول إليها فعلهم من اتّخاذ الشُّركاء، "أي: لتكون عاقبة أمر الّذين شايعوهم على ضلالهم الصدَّ والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف، والوقوع في حمأة الكفر والضّلال"[1]. فمآل فعلهم ونتيجته الضَّلال والإضلال، وذلك معنى أن اللّام لامُ العاقبة، أي: لتكون "النَّتيجة ضلالهم بها؛ وإضلال غيرهم لتقديسها، وذلك أنَّهم صنعوا حجارة على أشكالٍ آدميّة، ثمَّ توهَّموا فيها قوى خفيَّة، ثمَّ عبدوها ضلالًا بها"[2].

عاقبة اتِّخاذ الأنداد الضَّلال والإضلال

دلالة التَّعبير بحرف الجر ﴿عَن﴾:

عبَّر النَّظم الكريم بحرف الجرِّ الدّالِّ على المجاوزة ﴿عَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ﴾ للدَّلالة على أنَّ الإضلال كانت نهايته ونتيجته صرفَ النّاس عن سبيل اللّه تعالى، فمدخول ﴿عَن﴾ يُعرَض عنه، فيكون بعيدًا عن المقصد، موضوعًا على الجانب، ومخلَّفًا إلى الوراء، وهذا يبيِّن شناعة ذلك الجعل؛ إذ إنَّه جعل السَّبيل القويم الذي نهايته إلى اللّه تعالى متروكًا مُبتعَدًا عنه.

غاية الإضلال مجانبة الطَّريق القويم

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/153.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4028.

سرُّ الإضافة إلى الضّمير في ﴿سَبِيلِهِۦ﴾:

عِظَمُ جناية المشركين إعراضهُم عن السَّبيل عظيم الصَّلاح

أضاف النَّظم الجليل لفظ السَّبيل إلى الضَّمير العائد للّه تعالى في قوله تعالى: ﴿لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تفخيمًا لشأن السَّبيل وتشريفًا، فشرف المضاف من شرف المضاف إليه، فالسَّبيل الّذي أضيف للّه تعالى سبيلٌ قويمٌ على وجه الكمال، والغاية من تفخيم شأن السَّبيل الدَّلالة على شناعةِ الإشراك، وجعلِ الأنداد للّه تعالى، ذلك الجعل الذي تكون عاقبته الإعراض عن ذلك السَّبيل العظيم.

دلالة الاستئناف بفعل القول ﴿قُلۡ﴾:

إسعاف المخاطَب بالإجابة عن جزاء الكافرين المتنعِّمين في الدُّنيا

الجملة في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّه بعد قوله جلَّ شأنه: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ كان النَّبيُّ ﷺ "بمعرض أن يقول: فماذا أفعل بهم، وقد أمرتني بإخراجهم إلى صراطك؟"[1]، فالمخاطَب بالآية السّابقة إذا عَلِمَ ضلالهم وإشراكهم؛ فإنَّه يتساءَل عن الجزاء المناسب، مع رؤيته أنَّهم قد تُركوا يرفلون في النَّعيم، فجيء بالجواب بأنَّ تمتُّعهم لن يحقّق لهم غير المصير إلى النّار[2].

الغرض من الأمر في ﴿قُلۡ﴾:

الأمر بالقول يدلُّ على تضمين الخطاب معنى الملفوظ لا لفظه

افتتح النَّظم الجليل جملة الاستئناف بفعل القول بصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ اهتمامًا بمضمون المقول؛ لأنَّ سوق الخطاب مصدَّرًا بفعل القول يدلُّ على الاهتمام بالمضمون والمعنى دون الملفوظ، فالأمر بأن يقول لهم: تمتَّعوا، يحصل بأن يقول أيَّ عبارة تدلُّ على تهديدهم، بلا اشتراط تضمُّنه الملفوظ في نصِّ الآية، فتدلُّ الجملة على: أمِنَ المطلوب إبلاغهم بتخليتهم بأن يتمتَّعوا في الحياة الدُّنيا؟

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 10/417.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/231.

التَّهديد بالأمر يؤذن بأنّهم لا ينفكّون عن عتوِّهم

الغرض من الأمر في مقول القول ﴿تَمَتَّعُواْ﴾:

عبَّر النَّظم الجليل بفعل الأمر في قوله تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ على سبيل المجاز، فهو أمر تهديدٍ ووعيدٍ وتهوينٍ، "فهو كقول الطّبيب بعد ما أمر المريض بالاحتماء مرّات، ولم يقبل منه: كُلْ ما تريد، فإنَّ مصيرك إلى الموت، والمراد التّهديد؛ ليرتدع، ويقبل ما يقول"(1). والتَّهديد بصيغة الأمر تدلُّ على أنَّ المخاطَب به غير قادر على الانفكاك منه، وأنَّه في صدد الإيغال في عتوِّه، فهو "إيذان بأنَّهم لانغماسهم في التمتُّع بالحاضر، وأنَّهم لا يعرفون غيره، ولا يريدونه، مأمورون به، قد أمرَهم آمرٌ مطاع لا يسعهم أن يخالفوه، ولا يملكون لأنفسهم أمرًا دونه، وهو أمر الشَّهوة"(2).

الأمر بالتَّمتُّع في الشَّهوات يسبِّب سوء المصير

دلالةُ الفاء في ﴿فَإِنَّ﴾:

افتتح النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالفاء الدّالَّة على السَّببيَّة للدَّلالة على أنَّ صيرورتهم إلى النّار كائنة بسبب تمتُّعهم على هذا الوجه(3)، فالجملة تعليلٌ للأمر؛ إذ لمّا كان هذا حالهم في غاية الكفر والسّوء لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه، فإنَّهم قد تعاطوا الأسباب المقتضية لذلك المصير، فالجملة تعليل للأمر بالتَّمتع(4).

تمتُّعهم في الحياة الدُّنيا جعلهم منكرين سوء مصيرهم

غرض توكيد جملة التَّعليل بموكِّديْن:

أكَّد النَّظم الجليل الجملة المساقة لتعليل الأمر في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ بالجملة الاسميَّة، وكونها مصدَّرة بحرف التَّأكيد (إنَّ) لتأكيد مضمون الجملة، فإنَّهم ينكرون أن تكون عاقبة التَّمتُّع المنهمكين فيه عذابًا أو مصيرًا بائسًا، فجيء بالتَّأكيد ردًّا على ذلك الإنكار.

---

(1) الطّيبي، فتوح الغيب: 8/599.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/555.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.
(4) القنّوجي، فتح البيان: 7/115.

سرُّ الإضافة في اسم إن ﴿مَصِيرَكُمۡ﴾:

أضاف النَّظم الجليل لفظ المصير في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى ضمير المخاطَبين لبيان أنَّ ذلك المصير خاصٌّ بهم، وأنَّه كائن لهم على وجه الاستحقاق، فلمّا نالوه مستحقِّين له؛ كانوا أصحابه المختصِّين به.

تهديد المخاطَب بمصيره أبلغ في الوعيد

حرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ ودلالتُهُ:

عبَّر النَّظم الجليل بحرف الجرِّ ﴿إِلَى﴾ الدّالِّ على الغاية في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ للدّلالة على أنَّ نهايتهم مستقرَّة في النّار، وأنَّ نهاية سعيهم تصير بهم إلى هناك، لا غاية لهم سواها.

نهاية الضّلال المصير في جهنَّم وبئس المصير

إيثار (النّار) على جميع أسماء جهنَّم:

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن دار البوار باسم النّار في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ تعبيرًا عن جهنَّم بأخصِّ أوصافها، وكون العذاب فيها كائنًا بالحرق بالنّار، فالتَّعبير عنها بهذا الاسم للتَّذكير بشدَّة عذابها الكائن بالنّار.

تهويل المذكور بأخصِّ أسمائه أبلغ في البيان

كما أنَّ التعبير بلفظ ﴿ٱلنَّارِ﴾ ينسجم مع الفواصل السابقة ﴿قَرَارٖ﴾، ﴿ٱلۡبَوَارِ﴾، ﴿ٱلۡقَرَارُ﴾، وهذا الامتداد المنتهي بصوت الراء المُتَّصِف بالتَّكْرار يتَّفق ومعنى الاضطراب والثَّوَران وعدم الاستقرار.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأنداد والشُّركاء:

النِدُّ: المِثلُ والنّظير[1]، ونَديدُ الشَّيء: مُشارِكُه في جَوْهَره، وذلك ضربٌ من المُماثلة، فإنَّ المِثْل يقال في أيِّ مشاركةٍ كانتْ، فكلُّ نِدٍّ مِثْلٌ، وليس كلُّ مِثلٍ نِدًّا، ويقال: نِدُّهُ ونَديدُهُ ونَديدَتُهُ، قال تعالى:

النِّدُّ الشَّريك المماثل في الذّات، والشَّريك مخالط في الأمر

(1) الجوهري، الصحاح: (ندد).

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة: 22][1]، وأمّا الشَّريك؛ فمن (شرك)، وأصله يَدُلُّ عَلَى مُقارَنَةٍ وَخِلافِ انْفِرادٍ، ومنه الشِّرْكَةُ، وَهوَ أَنْ يَكونَ الشَّيْءُ بَيْنَ اثْنَيْنِ لا يَنْفَرِدُ بِهِ أَحَدُهُما[2]. فهو يدلُّ على مُخالَطَة الشَّريكَيْنِ، يُقالُ: اشترَكنا بِمَعْنَى تَشارَكنا، وَقَدِ اشْتَرَكَ الرَّجُلانِ وتَشارَكا وشارَك أحدُهما الآخَرَ، ويُشارَك يَعْني: يُشارِكُهُ في الغَنيمَةِ. والشَّريكُ: المُشارِك[3]. فالشِّرك لا يدلُّ على المماثلة؛ بل على المخالطة، وأمّا الأنداد؛ فيدلُّ على التَّماثل في الذّات، فعبَّر في الآية بلفظ الأنداد للدَّلالة على شدَّة غلوِّهم في اعتبار أولئك الشُّركاء، فقد جعلوهم مماثلين لله تعالى عمّا يصفون.

---

(1) الراغب، المفردات: (ندد).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).

(3) ابن منظور، اللسان: (شرك).

﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ٣١﴾

[إبراهيم: 31]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ابتدأ بذكر أحوال المشركين أعقبه بذكر أحوال المؤمنين

أعقب النَّظم الجليل وعيد المشركين بدعوة المؤمنين إلى سبُل الخير والنَّجاة، فبعد "أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتَّهديد بالتَّمتُّع بنعيم الدُّنيا، أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة في التَّمتع بها، والجدِّ في مجاهدة النَّفس والهوى، ببذل النَّفس والمال في كلِّ ما يرفع شأنهم، ويقرِّبهم من ربِّهم، وينيلهم الفوز لديه في يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خُلَّة"(1)، فلمّا سبق أن أمر اللّه تعالى النَّبيَّ ﷺ بأن يقول للمبدِّلين نعمة اللّه ما قاله لهم؛ أتبعه بأن يقول للمؤمنين هذا القول(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خِلَٰلٌ﴾: أصلُ الخُلَّة: الصَّداقةُ والمَحَبَّةُ، والخَليلُ: الصَّديقُ والحَبيبُ، وَأَصْلُها مِنَ الخَلَل، وَهوَ: الفُرْجَةُ بَيْنَ شَيْئَيْن(3)، والتَّخَلُّلُ: دُخولُ الشَّيْءِ في وَسَطِ شَيْءٍ آخَرَ، يُقالُ: خَلَّلَ أَصابِعَ يَدَيْهِ ورِجْلَيْه، أَيْ: أَسالَ الماءَ بَيْنَهُما، وَمِنْهُ الخَلَّةُ: الفَقْرُ؛ لِأَنَّهُ فُرْجَةٌ في حالِه، والخَليلُ: الفَقيرُ، وسُمِّيتِ المَحَبَّةُ خُلَّةً؛ لِأَنَّها تخلَّلَتِ القَلْبَ، فَصارَتْ خِلالَهُ، أَيْ: في باطِنِه(4). والمرادُ بالخِلالِ في الآية: كِنايَةٌ عَنِ التَّبَرُّع، والمعنى: إِذْ لا بَيْعَ يَومَئِذٍ، فَيُشْتَرى الثَّوابُ، ولا خِلالَ مِنْ شَأْنِها

(1) المراغي، تفسير المراغي: 13/152.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 7/116.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلّ).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خلل).

الإرْفادُ والإسْعافُ بِالثَّوابِ، ولَيْسَ المُرادُ نَفْيَ الخُلَّةِ، أيِ: الصُّحْبَةِ والمَوَدَّةِ؛ لأنَّ المَوَدَّةَ ثابِتَةٌ بَيْنَ المُتَّقينَ[1].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا ينفع يوم القيامة فداء ولا صداقة فكلُّ امرئ له شأن يغنيه

وجَّه الحقُّ سبحانه أمرًا لنبيّه ﷺ طلَب منه فيه مواصلة دعوة المؤمنين إلى الاستمرار في التَّزوُّد مِنَ العَمل الصّالح فقال تعالى: قُلْ - يا مُحمَّدُ ﷺ - لعبادي المؤمنين بأن يُقيموا الصَّلَواتِ الخَمسَ المَفروضةَ عليهم، بحُدودِها في أوقاتِها، ويُنفِقوا ممّا رَزَقناهم مِن فَضلِنا، فيُؤدّوا ما أوجبْتُ عليهم مِن الحقوقِ سرًّا وإعلانًا، مِن قَبلِ أن يأتيَ يومُ القيامةِ الَّذي لا يَقدِرونَ فيه على ذلك، ولا سبيلَ إلى استدراكِ ما فاتَ، لا بمُعاوَضةِ بَيعٍ وشراءٍ، ولا بِهِبَةِ خَليلٍ وصَديقٍ، فكُلُّ امرئٍ له شأنٌ يُغنيه[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في ﴿قُل لِّعِبَادِىَ﴾:

بيان حال الفريق الثّاني من تمام التَّبليغ

فُصِلَت الجملة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾؛ لأنَّها مستأنفة لبيان المباينة والمقابلة بين الفريقين، فترك النَّظمُ العطفَ بين القولين؛ للإيذان بتباين حالِهما باعتبار أنَّ المقولَ للتَّهديد، والمقولَ الثّاني للتَّشريف[3]. فهو "استئناف نشأ عن ذكر حال الفريق الذي حقَّت عليه الكلمة الخبيثة بذكر حال مقابله، وهو الفريق الذي حقَّت عليه الكلمة الطَّيِّبة. فلمّا ابتُدئ بالفريق الأوَّل لقصد الموعظة والتَّخلي؛ ثُنّيَ بالفريق الثّاني"[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/679، 680، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/439، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/510، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 426.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/46.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/231.

غرض التّعبير بالأمر ﴿قُل﴾:

إبلاغ العباد بإقامة الصّلاة بفعل القول أقرب للنُّفوس

صدَّر النَّظم الجليل الجملة المستأنفة بفعل القول بصيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تنويهًا بأهمِّية مضمون الخطاب، فهو مأمور بالدَّعوة إلى الصَّلاة بأيِّ لفظ كان، وإنَّما جعل حصول الصَّلاة متعلِّقًا بقوله ﷺ لما في كلامه من حُسنٍ وطيب وقَبول، "فهو جالٍ لصدأ القلوب، وموجبٌ لتهذيب النُّفوس"[1]، وترقيقها وترقّيها. كما أنَّ خطاب العباد بذلك أظهر؛ لبيان مودَّة اللّه تعالى لهم، فالعدول عن الأمر المباشر يخفِّف من وقع الأمر بالصَّلاة على النُّفوس.

سرُّ الإضافة في ﴿لِّعِبَادِيَ﴾:

إضافة العباد للــه تـعـالى تشريف وتكريم رفيع لهم

أضاف النَّظم الجليل لفظ العباد إلى الضَّمير العائد للّه تعالى في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تشريفًا لهم وتحبيبًا لهم فيه، وتزكيةً لهم بوصفهم بأشرف الوصف[2]، فـ "خصَّهم بالإضافة إليه تنويهًا لهم، وتنبيهًا على أنَّهم المقيمون لوظائفِ العبودية الموفون بحقوقها"[3].

غرض التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

تعريف المذكور بالموصول تنويه بمضمون الصِّلة

عبَّر النَّظم الجليل عن العباد بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ لتضمين الصِّلة بأبرز صفاتهم التي تعرِّفهم وتميِّزهم عن غيرهم، فلمّا "كانوا متحلّين بالكمال؛ صيغ الحديث عنهم بعنوان الوصف بالإيمان"[4]. فالتَّعبير بالموصول يشير إلى أهمِّية مضمون صلته، فالصِّلة تتضمَّن الوصف الذي يكون معرِّفًا لهم وفاصلًا لهم عن غيرهم، وهذا يدلُّ على أنَّ إيمانهم كان ظاهرًا مشهورًا يمتازون به.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/46.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/232.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿ءَامَنُواْ﴾:

تحقُّق الإيمان ورسوخه صفة مدح في عباد الله تعالى

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي عن إيمانهم في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ للدَّلالة على أنَّهم قد تحقَّقوا بهذا الوصف، وأوجدوه[1]، فأثنى عليهم بوصفٍ مُنجَزٍ مُحقَّق لهم، كما أنَّه أخبر عن الإيمان بالماضي دون المضارع تأكيدًا لحصول الإيمان واكتفاء بدلالة فروعه من إقامة الصَّلاة والإنفاق على التَّجدُّد والدَّوام، فالإيمان محقَّق وفروعه متجدِّدة.

سرُّ إيثارِ التّعبير ﴿لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

المدح بصفة العبوديَّة يشير إلى أنَّهم أوفوا العبادة حقَّها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ دون أن يقول: (قل للمؤمنين)؛ مدحًا وثناءً عليهم؛ لأنَّ إظهار لفظ العباد فيه "إشارة إلى أنَّهم قاموا بحقِّ العبوديَّة، فلم يشركوا مع اللّه أحدًا، وأخلصوا الذّات، وأعطوا ما هو حقٌّ على العبد أن يؤدّيه"[2].

نكتة الأمر بالمضارع: ﴿يُقِيمُواْ﴾ ﴿وَيُنفِقُواْ﴾:

طلب الدّوام على الخيرات لا طلب إيجادها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن إقامة الصَّلاة والإنفاق بصيغة الفعل المضارع دون فعل الأمر في قوله تعالى: ﴿يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ للدَّلالة على الدَّوام، فلمّا "كان المؤمنون يقيمون الصَّلاة من قبلُ، وينفقون من قبلُ، تعيَّن أنَّ المراد الاستزادة من ذلك، ولذلك اختير المضارع - مع تقدير لام الأمر - دون صيغة فعل الأمر؛ لأنَّ المضارع دالٌّ على التَّجدُّد، فهو مع لام الأمر يلاقي حال المتلبِّس بالفعل الذي يؤمر به بخلاف صيغة (افعل)، فإنَّ أصلها طلب إيجاد الفعل المأمور به من لم يكن ملتبسًا به، فأصل ﴿يُقِيمُواْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/418.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4029.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ليقيموا، فحذفت لام الأمر تخفيفًا"[1]. ففعل الأمر يدلُّ على طلب إيجاد الفعل بعد أن لم يكن موجودًا، أمّا الطَّلب بالمضارع؛ فيدلُّ على أنَّ المراد الدَّوام على ما عهد منهم والاستزادة منه وتعجيل إنجاز الفعل.

سرُّ تقييد الفعل بالمفعول به ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

للصَّلاة شأن عظيم في تهذيب النُّفوس وصلة العبد بربِّهِ

قيَّد النَّظم الجليل الإقامة بالصَّلاة في قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تفخيمًا لشأن الصَّلاة؛ فخصَّها؛ لأنَّها صلة العبد بربِّه، ولأنّ في إقام الصلاة تهذيبًا للنُّفوس، واستشعارًا للرُّبوبية، وهي عمود الدّين، وفرعه المتين[2].

سرُّ التقييد في: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

تفضَّل الله برزقه وأمرهم بإنفاقه للامتنان عليهم بالرِّزق والثَّناء

قيَّد النَّظم الجليل الإنفاق بأنَّه كائن من رزق الله تعالى في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ للدَّلالة على أنَّ المأمور إنَّما هو بعض رزقهم، والإيفاء بالأمر يقع بأدنى قدر من ذلك الرِّزق، تخفيفًا عنهم وإلطافًا بهم[3]. كما أنَّ في تعميم ما يُنفَقُ منه بالتَّعبير عنه بـ (ما) الدّالَّة على العموم ثناءً عليهم، فإنفاقهم لا يتقيَّد بنوع واحد من الرِّزق؛ بل كلُّ شيء رُزِقوه، فإنَّهم يُنفقون منه، كما أنَّ فيه حثًّا على الإنفاق؛ حيث إنَّ رزق الله تعالى شامل لكلِّ ما يملكون، فكلُّ ما في حوزهم إنَّما هو من رزق الله تعالى، فيكون القيد ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ معلومًا من غير الإتيان به، فيكون التَّصريح به "للتَّذكير بالنِّعمة تحريضًا على الإنفاق ليكون شكرًا للنِّعمة"[4]. كما أنَّ فيه تنويهًا بأنَّ ما عندهم إنَّما هو من رزق الله تعالى لهم، وليس لهم فضل فيه سوى الحركة والسَّعي، فالتَّفضُّل بالرِّزق كائن من الله تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/232.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4029.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/418 - 419.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/232.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾:

تحقُّق رزق الله تعالى لهم، مع دوام إنفاقهم فيه ثناءٌ جزيل عليهم

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ للدَّلالة على ما تحقَّق عندهم من الرِّزق، فالنَّفقة تحصل بما بين أيديهم ممّا امتلكوه، واقتنوه ممّا رزقهم اللّه تعالى إيّاه، كما أنَّ فيه إشارة إلى أنَّ دوام الإنفاق المعبَّر عنه بالفعل المضارع لا ينقطع، وإن كان من الرِّزق لا يتجدَّد، وفي هذا مزيد من الثَّناء عليهم ببيان سعة كرمهم وسخائهم، بإنفاقهم الدّائم ثقة باللّه تعالى وإن كان الرِّزق غير متجدِّد لهم.

سرُّ التَّقييد بالحال: ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾:

المداومة على الإنفاق من صفات أهل الإيمان

قيَّد النَّظم البليغ إنفاق المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾، فهو كائن بالسِّرِّ والعلن، فجمع بين الحالتين للإشارة إلى أنَّهم مداومون على الإنفاق في كلّ الحالات[1]. وفسَّر بعض أئمَّة التَّفسير أنَّ الجمع بين الحالين إشارة إلى صدقة التَّنفُّل التي تكون بالسِّرِّ، وإلى الزَّكاة المفروضة التي تكون بالعلانية[2]، حيث في كلتا الحالتين فضيلة وفائدة، فالإنفاق الكائنُ في السِّرِّ فيه سترٌ للفقراء، وهذا فعلٌ حسن، والإنفاق علانية فيه دعوة للاقتداء بالمنفِق، ونشرٌ لفضيلة التَّعاون، وفي كلٍّ خير[3].

غرض الطّباق في ﴿سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾:

إيراد الضِّدَّين في سياق واحد أبلغ في البيان عن عظيم فائدة الإنفاق

أورد النَّظم الجليل الطِّباق بين لفظي السِّر والعلانية في قوله تعالى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾ فجمع بين الضِّدَّين في عبارة واحدة لبيان أهميَّة الإنفاق، فهو مشروع ومطلوب في جميع الحالات، وإيذانًا بقبول اللّه تعالى لإنفاقهم في أيِّ حال كان، فهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/419.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4029.

حثٌّ على الإنفاق، "والمقصود تعميم الأحوال في طلب الإنفاق؛ لكيلا يظنّوا أنَّ الإعلان يجرُّ إلى الرّياء، كما كان حال الجاهلية، أو أنَّ الإنفاق سرًّا يفضي إلى إخفاء الغنيِّ نعمةَ اللّه، فيجرُّ إلى كفران النِّعمة، فربَّما توخّى المرء أحد الحالين فأفضى إلى ترك الإنفاق في الحال الآخر، فتعطَّل نفع كثير وثواب جزيل، فبيَّن اللّه للنّاس أنَّ الإنفاق بِرٌّ لا يكدِّره ما يحفُّ به من الأحوال"[1].

غرض البدء بالسرِّ في: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾:

السِّرُّ أوْلى من العلانية وأدلُّ على الإخلاص وأحفظ لكرامة النّاس

قدَّم النَّظم الجليل ذكر السِّرِّ على العلانية في قوله تعالى: ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ للتَّنبيه على أنَّ السِّرَّ أولى من العلانية؛ "لبُعده عن خواطر الرياء، ولأنَّ فيه استبقاء لبعض حياء المتصدِّق عليه"[2]. فالإسرار في الصّالحات أدلُّ على الإخلاص، وأحفظ لِمَن أُنفق عليه، فقُدِّم لأفضليَّته، وفيه إشارة إلى حثِّ العباد على تفضيله وتقديم العمل به.

دلالة إدخال حرف الجرِّ على الظَّرف ﴿مِّن قَبۡلِ﴾:

قصر الآجال يوجب المبادرة بالأعمال

آثر النَّظم الكريم حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ على الظَّرف ﴿قَبۡلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ ترهيبًا من التَّهاون في المبادرة إلى الأعمال، وإشارة إلى قصر مدَّة الأعمال في الحياة الدُّنيا[3]، كما أنَّ فيه تأكيدًا لمعنى القَبليَّة في ظرف الزَّمان ﴿قَبۡلِ﴾، والمُراد من ذلك بيان ضرورة المبادرة في الأعمال[4].

نكتة التَّعبير بالمصدر المؤول ﴿أَن يَأۡتِيَ﴾:

إتيان يوم الحساب حاصلٌ ومستمرٌّ يقترب كلَّ يوم

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ دون أن يقول: (من قبل مجيء يوم) للدَّلالة على أنَّ الإتيان حاصلٌ الآن ومستمرٌّ، وأنَّ ذلك اليوم يقترب من النّاس

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/233.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/233.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/419.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.

بمرور كلِّ يوم، فالمصدر المؤوَّل فيه دلالة على الحدوث والتَّجدُّد المستفاد من الفعل المضارع، فالإتيان واقع وهو في طريقه للبلوغ إلى غايته، وهذا أنسب في سياق الدَّعوة إلى البدار في الإنفاق، والإتيان بالعمل الصّالح.

دلالة التَّعبير بالتَّنكير في ﴿يَوۡمٞ﴾:

الإبـهـام أبلغ في التَّعظيم والتَّهويل

عبَّر النَّظم الجليل عن يوم القيامة بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ﴾ لما في التَّنكير من دلالة على التَّعظيم، أي: هو يوم "عظيم جدًّا ليس هو كشيء من الأيام التي تعرفونها"[1]، والإبهام الّذي هو مدلول التَّنكير أدلُّ على تفخيم المذكور، فهو ليس ممّا يمكن أن يكون معروفًا معهودًا لكم، وهذا أبلغ في الدَّعوة وإيجاد المبادرة في السّامعين.

سرُّ وصف اليوم بالجملة الاسمية:

المبايعة والخلال منتفية على وجه التَّأكيد والثُّبوت

وصف النَّظم الجليل اليوم بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ لأنَّ المراد نفيُ معنًى مركَّبٍ لا مفرد؛ إذ إنَّ الصِّفة المراد نفيها هي صفة مركَّبة، لا يفي بها المفرد، كما أنَّ إرادة نفي المبايعة والشِّراء، ونفي الاستفادة من أواصر القرابة والصَّداقة عن ذلك اليوم نفيًا على وجه التَّأكيد؛ اقتضى بالمجيء بجملة اسميَّة منفيَّة، وفي ذلك مبالغة في خلوِّ ذلك اليوم من هذه المعاني.

غرض التَّعبير بالكناية في نفي البيع والخلال:

نفي المبايعة يوم الحساب دليل على عظيم منافع الصّالحات

كنّى النَّظم الجليل بنفي البيع والخلال في قوله تعالى: ﴿يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ﴾ عن منافع المبادرة في الصلاة والإنفاق قبل الوفاة، فإنَّ "انقطاع آثار البيع والخِلالِ الواقعَيْن في الدُّنيا، وعدم الانتفاع بهما، من أقوى الدَّواعي إلى الإتيان بما تبقى عوائدُه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/419.

وتدوم فوائدُه من الإنفاقِ في سبيلِ الله ﷻ، أو من حيث إنَّ ادِّخارَ المال وترْكَ إنفاقِه إنَّما يقع غالبًا للتِّجارات والمُهاداة، فحيث لا يمكن ذلك في الآخرة، فلا وجهَ لادِّخاره إلى وقت الموت"(1)، فهو حثٌّ على العمل الصّالح والمبادرة به لعظيم نافعه قبل يوم الجزاء.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السِّرّ والكتمان:

الكتمُ خاصٌّ بالمعاني، والسِّرُّ عامٌّ

الكتمُ مختصٌّ بالسُّكوت عن المعاني كالأسرار والأخبار(2). وأمّا السِّرُّ؛ فهو إخفاء الشَّيء في النَّفس، ولو اختفي بستر أو وراء جدار لم يكن سرًّا، والأصل في السِّرّ تغطية الشَّيء بغطاء، وقد يكون السِّرُّ في غير المعاني مجازًا، تقول: فعل سرًّا، وقد أسرَّ الأمر(3). وفي الآية الكريمة آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالسِّرّ: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾؛ لأنَّه دالٌّ على إخفاء الإنفاق لا كتمانه بالسُّكوت.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) العسكري، الفروق، ص: 287.
(3) العسكري، الفروق، ص: 63.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذمُّ كفران النِّعمة يستوجب التَّنبيه على وجوب شكرها

لمّا ذكر النَّظم الجليل أنَّ الكافرين بدَّلوا نعمة اللّه كفرًا؛ أتبع ذلك في هذه الآية بذكر إنعامه على الوجود كلّه، فلمّا "ذكر أحوالَ الكافرين لنعم اللّه تعالى، وأمرَ المؤمنين بإقامة مراسم الطاعةِ شكرًا لنِعَمه؛ شرَع في تفصيل ما يستوجب على كافَّة الأنام المثابرة على الشُّكر والطّاعة من النّعم العِظام والمنن الجِسام حثًّا للمؤمنين عليها وتقريعًا للكفرة المُخلِّين بها الواضعين موضعَها الكفرَ والمعاصيَ"[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رِزْقًا﴾: أصلُ (رزق): أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْت، ثُمَّ يُحمَلُ عليه غَيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ[2]، وهو كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مالٍ ونَحْوِهِ، والجَمْعُ: أَرْزاقٌ[3]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[4]. والرَّزْقُ بِفَتْحِ الرّاءِ: العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، أيْ: أَعْطَى، وَوَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطي، وَهوَ اللّهُ[5]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلَى الجَوْفِ، وَيُتَغَذَّى بِهِ؛ فَهوَ رِزْقٌ، وَمِنْ مَعاني الرِّزْقِ أيْضًا: الكَسْبُ، الهِبَةُ، الصَّدَقَةُ[6]، والمقصود بالرِّزق في الآية: القوتُ، ويُطْلَقُ على الطَّعام والثِّمارِ[7].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(3) بن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (رزق).
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رزق).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/235.

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: أصلُ (سخر): أَصْلٌ مُطَّرِدٌ مُسْتَقِيمٌ يَدُلُّ عَلَى احْتِقارٍ واسْتِذْلالٍ، مِنْ ذلكَ قَولُنا: سَخَّرَ اللّه ﷻ الشَّيْءَ[1]. فالتَّسخيرُ: التَّذليلُ، وسفُنٌ سواخِرُ؛ إذا أطاعت، وَطابَ لَها الرّيحُ، وَكُلُّ ما ذَلَّ، وانْقادَ، أو تهيَّأ لكَ على ما تُريدُ، فَقَدْ سُخِّرَ لَكَ[2]. والسُّخْرَةُ: الرَّجُلُ أو الدّابَّةُ يُسْتَعْمَلُ بِلا مُقابِلٍ، يُقال: سَخَّرَهُ، سُخْرًا، وسُخريًّا، أيْ: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجْرَةٍ[3]. والـمُسَخَّرُ هو المقيَّض للفعل، والسُّخْرِيُّ: هو الذي يقهر، فَيَتَسَخَّرُ بإرادته[4]. وقيلَ: السُّخريُّ، بِالضَّمِّ، مِنَ التَّسْخيرِ، والسِّخريُّ بالكَسْرِ، مِنَ الهُزْءِ[5]. وَحَقيقةُ التَّسْخيرِ في الآية: التَّذليلُ والتَّطويعُ، والمُرادُ بتَسْخيرِ الفُلْك: تَسْخيرُ ذاتِها بإلهام البَشَرِ لِصُنْعِها وشَكْلِها بكَيْفيَّةٍ تَجْري في البَحْرِ بدونِ مانِعٍ، وَتَسْخيرُ الأَنْهارِ: خَلْقُها على كَيْفيَّةٍ تَقْتَضي انْتِقالَ الماءِ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ وقَرارَهُ في بَعْضِ المُنْخَفَضاتِ[6].

3) ﴿ٱلْفُلْكَ﴾: أصلُ (فلك): أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، مِنْ ذلكَ فَلْكَةُ المِغْزَلِ بِفَتْحِ الفاءِ، سُمّيَتْ لِاسْتِدارَتِها[7]. والفُلْكُ: جَمْعُ لَفْظُهُ كَلَفْظِ مُفْرَدِه: السَّفينَة، يُذكّر، ويؤنَّث[8]، ومِنْ هذا القياسِ فَلَكُ السَّماءِ: مَجرى الكواكب[9]. والمرادُ بالفُلْكِ في الآية: اسمٌ لـمَرْكَبِ البَحْرِ، واسمُ جَمْعٍ له بِصيغَةٍ واحِدَةٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعَمُ الله تعالى علـى البـشَـر لا تُعدُّ، ولا تُحصى لكثرتها

في هذه الآية يذكر الحقُّ سبحانه بعض نِعمه على الوجود كلِّه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(3) ابن سيده، المحكم: (سحر).
(4) الراغب، المفردات: (سحر).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (فلك).
(9) الراغب، المفردات: (فلك).

فقال تعالت كلماته: هو الَّذي أنشأ السَّمواتِ والأرضَ مِن العدَم، وأبدعَهما على غيرِ مثالٍ سابق، وأنزَل مِن السَّحابِ مَطَرًا، فأخرجَ به مِن الثَّمَراتِ المُتنوِّعةِ رِزقًا لكم تعيشونَ به، وذلَّل لكم السُّفُنَ لتجريَ بكم في البحرِ بإذنِه، فهو الَّذي يسَّرَ لكم صُنعَها، وأقدَرَكم عليها، وجعَلَها طافيةً على البَحرِ بتَيسيرِه، وحَفِظَها على تيّارِ الماءِ لتحمِلَكم، مع كَفِّ العواصِفِ عنها وإعانتِها بالرِّيحِ الطَّيِّبةِ، فتركبوها لتنتَقِلوا عَبْرَها من مكانٍ إلى آخرَ، وتَحمِلوا فيها أمتِعتَكم من بلدٍ إلى بلدٍ، وذلَّل لكم الأنهارَ لتشربوا مِن مياهِها، وتَسقوا بها زُروعَكم وأنعامَكم، وذلَّلَها لكم بالرُّكوبِ عليها، والإجراءِ لها إلى حيثُ تُريدونَ.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الاستئناف في الآية:

إقامة الحُجَّة على العباد بسرد آلائه وجميل نعمائه

الجملة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ مستأنفة للتَّذكير بآلاء اللّه تعالى على خلقه، وللتَّنبيه على عظيم قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحُجَّة عليهم[1]، وهذا الاستئناف واقع موقع الاستدلال على ما تضمَّنته الجملة في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾[2]، ففيه دلالةٌ على بطلان أولئك الأنداد، وتفسير لكون مصير المشركين النّار؛ إذ إنَّ خالق السَّموات والأرض وما فيهما هو اللّه تعالى، فأنّى يتَّخذون من دونه آلهة يجعلونها له ندًّا؟! تعالى اللّه عمّا يصفون.

الغرض من التَّعبير بالجملة الاسمية:

تأكيد الإنعام وتربية للمهابة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تأكيدًا لمضمون الخطاب، وللدَّلالة

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.

على ثبوت ذلك المعنى وكونه حقيقة راسخة لا تتغيَّر بمرِّ الزَّمان، كما أنَّ في جعلها اسميَّة متضمِّنةً تلك الأفاعيلَ العظيمة، وما تبعها من المذكورات لاحقًا؛ أدلُّ على تربية المهابةِ، فهي تذكير مؤيَّد بالبراهين على عظيم آلاء اللّه؛ للتَّنبيه على قدرته مع إحسانه إلى البشر لتقوم الحجَّة عليهم[1].

سرُّ التَّعبير بالمسند إليه باللفظ الجليل ﴿ٱللَّـهُ﴾:

التَّعبير بالاسم العظيم أبلغ في سياق التَّذكير بعظم المخلوق

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بلفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ تعظيمًا لمضمون الآية، فخلْقُ السَّموات والأرض عظيم الشَّأن حريٌّ بأن يسند إلى لفظ الجلالة الدّالِّ على التَّعظيم والجلال، كما أنَّ تصدير الآية باللَّفظ الجليل مفيض النِّعم، فيه تربية للمهابة، ولتعيين الموجِد الذي هو الغرض الأهمُّ في الآية[2].

مجيء المسند اسمًا موصولًا:

تعريف المذكور بأفعاله المعهودة أوقع في الاحتجاج

عبَّر النَّظم الجليل بالاسم الموصول مسندًا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ للتَّعريف باللّه تعالى؛ لما في الموصول من صلة تتيح أن يُعطف عليها الأفعالُ المراد وصف اللّه تعالى بها، "فهو تعريف للّه تعالى بأنَّه الّذي خلق السّموات والأرض، خلق ﷻ السّماء ببروجها ونجومها وكواكبها، والأرض بطبقاتها وجبالها، وما أودع ببطنها من أحجار وفلزات ومعادن جامدة وسائلة"[3]. فالتَّعبير بالاسم الموصول للدَّلالة على أنَّ هذه الصِّفات لا يجادل فيها أحد بأنَّها من فعل اللّه تعالى، فخلق السَّموات والأرض وما عطف عليهما ليس في محلّ خلاف بين الخلق بأنَّ اللّه هو موجدُها،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4031، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4031.

فجيء بالموصول إشارة إلى أنَّ اللّه تعالى مشهور ومعهود أنَّه هو خالق السَّموات وما تبعها، "فجيء في هذه الآية بنِعَم عامَّة مشهودة محسوسة لا يُستطاع إنكارُها، إلّا أنَّها محتاجة للتَّذكير بأنَّ المنعم بها وموجدها هو اللّه تعالى"[1].

سرُّ التَّعبير بجملة الصِّلة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

سوقُ الأدلَّة التي لا تنقض تأكيدٌ لاستحقاق الإلهيَّة على وجه الوحدة

عبَّر النَّظم الجليل بالجملة الفعليّة في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ صلة للموصول؛ لأنَّ الخبر المضمَّن في هذه الصِّلة ممّا هو معلوم بالضَّرورة لكلِّ النّاس؛ "إذ لا ينازع المشركون في أنَّ اللّه هو صاحب الخلق، ولا يدَّعون أنَّ الأصنام تخلق شيئًا، كما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [لقمان: 25]، فخلْقُ السموات والأرض دليل على إلهيَّة خالقهما، وتمهيدٌ للنِّعم المودعة فيهما، فإنزالُ الماء من السَّماء إلى الأرض، وإخراجُ الثَّمرات من الأرض، والبحارُ والأنهارُ من الأرض، والشَّمسُ والقمرُ من السَّماء، واللَّيلُ والنَّهارُ من السَّماء ومن الأرض"[2].

دلالة العطف في ﴿وَأَنزَلَ﴾:

حشد النِّعَم العظيمة أوقع في قوَّة الاحتجاج

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة صلة للموصول، فأعقب ذكر خلق السَّموات بذكر النِّعمة التي بها تكون الحياة، وهي نعمة الماء، وهي كائنةٌ من الأرض ومن السَّماء معًا[3]، وفي ذلك تأكيدٌ للاحتجاج عليهم بسرد عظيم النِّعم.

سرُّ تقييد إنزال الماء ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

المنَّة بنزول الماء من السَّماء أبلغ لما فيه من محض الإنعام

قيَّد النَّظم الجليل إنزال الماء بكونه كائنًا من السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لبيان محض الامتنان به عليهم،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/234.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

فمن المعلوم أنَّ المطر نازل من السَّماء، فإنَّما جيء به لإظهار الامتنان عليهم به، فماء المطر منه مشربهم، ومنبت الكلأ في بواديهم، وبيان كونه من السَّماء فيه تنبيهٌ على محض الإنعام.

غرض تقديم ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿مَآءٗ﴾:

تعظيم المُنزَّل قبل ذِكْره ببيان جهة نزوله

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، فلم يأتِ به على أصل التَّركيب: (وأنزل ماء من السَّماء)؛ تعجيلًا بما يشرِّف هذا الماء، ويبين وجه الامتنان به، وذلك ببيان جهة النُّزول قبل المنزَّل، كما أنَّ في تأخير المفعول به تشويقًا له[1]، فيحصل الامتنان بكونه نازلًا من السَّماء لمحض الإنعام قبل بيان ماذا أنزل، كما أنَّ السّامع يتطلَّع لمعرفة هذا المنزَّل فيؤخِّر ذكره إلى آخر العبارة تفخيمًا لشأنه وتشويقًا له، فيقع في الأُذن عند ذِكْره موقعًا حسنًا بليغًا.

غرض تنكير المفعول به ﴿مَآءٗ﴾:

كثرة النِّعمة دليل كرم المنعم، دالَّة على وجوب طاعته وعبادته

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الماء بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لما في التَّنكير من دلالة على التَّكثير، والتَّعظيم، فتكثير الماء النّازل من السَّماء في سياق بيان النِّعم أنسب وأبلغ في سياق الامتنان بالإنعام.

دلالة الفاء في ﴿فَأَخۡرَجَ﴾:

خروج الثِّمار كائنٌ بسبب تراكم النِّعم من خلق الأرض وإنزال الماء من السَّماء

أدخل النَّظم البليغ الفاء الدّالَّة على السَّببيَّة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ لأنَّ نزول الماء هو السَّبب في النُّمو، فخروج الثِّمار كائن بسبب الماء الَّذي جعل منه كلَّ شيءٍ حيٍّ[2]، فذكر أوَّلًا الإنعام عليهم بنزول الماء من السَّماء بمحض فضله، وأتبعه بكون ذلك الإنعام بالماء هو المسبِّب

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

لخروج الثِّمار، فهو تأكيد للإنعام عليهم ببيان فائدة الماء وأثره في حياتهم.

سرُّ التَّعبير بشبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

إحالة نعمة الثِّمار على نعمة الماء يفصح عن لطف مقاديره بعباده

علَّق النَّظم الجليل فعل إخراج الثَّمرات بشبه الجملة من الجارِّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ للنَّصِّ على أنَّ تلك الثَّمرات إنَّما خرجت بسبب الإنعام بالماء[1]، وفي ذلك مزيد من تفخيم شأن النِّعمة.

دلالة من ﴿مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

جنس الرِّزق الخارج بالماء ثمار متنوِّعة

أدخل النَّظم الجليل حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ لبيان الخارج من الأرض بأنَّه من جنس الثَّمرات، فـ ﴿مِنَ﴾ بيانيَّة، جيء بها تبيينًا للرِّزق، أي: أخرج به رزقًا هو ثمرات[2]، فجيء بـ ﴿مِنَ﴾ البيانيَّة لتنوُّع الثَّمرات، والمعنى: فأخرج بالماء الثَّمرات المتنوِّعة المختلفة الفوائد[3].

دلالة الجمع والتَّعريف ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

كثرة النِّعمة ألزم في سياق الامتنان

آثر النَّظم الكريم المجيء بلفظ الثَّمرات معرَّفًا مجموعًا في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ للدَّلالة على كثرة تلك الثِّمار، فهي ثمار لا تنحصر[4]، والتَّكثير المدلول عليه بصيغة الجمع ألزم وأبلغ في سياق الامتنان بعظيم الإنعام.

نكتة تقديم أشباه الجُمل على المفعول: ﴿رِزۡقٗا﴾:

تشريف المقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر

قدَّم النَّظم الجليل المجرورات على المفعول به في قوله تعالى: ﴿فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا﴾، ولم يقل: (فأخرج رزقًا من الثمرات به)؛ لأنَّ تقديم المجرور على المنصوب باعتبار كونِ الثَّمرات هي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/557.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4032.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.

مادَّة الرِّزق، أو تشريفًا لها، وتفخيمًا لشأن المؤخَّر، فيبقى السّامع متطلِّعًا لمعرفة المراد من إخراج الثِّمار بالماء، فبعد الامتنان بإنزال الماء معلوم أنَّ السّياق في بيان هذه النِّعم والامتنان بها، فأُخِّر الغرضُ من تلك النِّعَم تفخيمًا له ليقع في السَّمع أبلغ موقع.

سِرُّ تنكير المفعول به ﴿رِزْقًا﴾:

سعة الرِّزق وشموله الأنواع الكثيرة أوسع من تعيينها

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الرِّزق بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ﴾ للدَّلالة على العموم، فيشمل كلَّ المطعوم والملبوس وغيره ممّا هو رزق[1]، وهذا يجري على سياق الآية من إيراد الألفاظ بما يدلُّ على الكثرة والتَّعميم؛ وذلك لمناسبته الاستدلال بعظيم النِّعَم على استحقاق التَّوحيد والعبوديَّة لموجدها.

دلالة وصف ﴿رِزْقًا﴾ بـ ﴿لَّكُمْۖ﴾:

إيجاد الرِّزق مقصودًا به الإنسان دليل على عظيم الامتنان

قيَّد النَّظم الجليل الرِّزقَ بشبه الجملة ﴿لَّكُمْۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ﴾ لما في هذا القيد من بيان كون المقصود بذلك الرِّزق الإنسان، وخاصة المخاطَبين، وفي ذلك تأكيد على عظيم الامتنان؛ إذ لم يكن إنزال المطر وإخراج الأرزاق خبطَ عشواء؛ بل كان المقصود منه أن يكون ذلك رزقًا للنّاس، وهذا يدلُّ على عظيم الامتنان.

دلالة العطف في ﴿وَسَخَّرَ﴾:

نعمة الإبحار من نِعَم الخالق العظيم

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦۖ﴾ معطوفة على الجملة الواقعة صلة للموصول[2]، وما تبعها في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْۖ﴾؛ إذ بعد تلك النِّعَم أتبعها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/47.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.

بالنِّعم الكائنة في مياه البحار[1]، فهي وَسَطٌ ناقل لتجارتهم وسفرهم بالفُلك.

بلاغة المجاز في التَّسخير:

تخويل العباد بالتَّصرُّف بالموجودات من تمام الإنعام

عبّر النَّظم الكريم بالتَّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ عن القدرة في التَّصرُّف به؛ إذ إنَّ "التسخير حقيقته: التَّذليل والتَّطويع، وهو مجازٌ في جعل الشَّيء قابلًا لتصرُّف غيرِه فيه"[2]، فاللّه تعالى جعل تلك الموجودات بحيث يمكن للإنسان أن يستفيد منها ويطوِّعها له ولمآربه، وفائدة "التَّعبير عن التَّصريف المتعلِّق بما ذُكر من الفُلك والأنهارِ والشَّمسِ والقمر واللَّيل والنَّهار بالتَّسخير من الإشعار، بما فيها من صعوبة المأخذ وعزَّة المنال والدَّلالة على عِظَم السُّلطان وشدَّة المحال ما لا يخفى"[3].

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلْفُلْكَ﴾:

مقصود تلك النِّعمة الإنسان

قدَّم النَّظم الكريم شبه الجملة من الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ﴾، ولم يقل: وسخَّر الفُلكَ لكم؛ اهتمامًا بأنَّ المقصود من تلك النِّعمة المخاطَبون، وأنَّهم مخصوصون بها، كما أنَّ في تأخير الفُلك تشويقًا له، كما جرت العادة في تأخير المذكور تشويقًا له وتفخيمًا لشأنه.

دلالة اللام في ﴿لِتَجْرِىَ﴾:

وجه تسخير البحار أنَّ الفُلك قادرة على الجري فيه

أدخل النَّظم الجليل لام التَّعليل على الفعل في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ لبيان علَّةِ التَّسخير[4]، فوجه التَّسخير أن يكون البحر حاملًا للفُلك مناسبًا لجريها فيه، فخلق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/235.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/48.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

اللّٰه تعالى تلك القوانين والسُّنن في البحر بحيث يتمكَّن الإنسان من اكتشاف تلك السُّنن، فيبحر فيه.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿لِتَجۡرِيَ﴾:

جري الفُلك في البحار متجدِّد مشاهَدٌ في كلِّ زمان

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الجري بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ للدَّلالة على تجدُّد ذلك الجري، وأنَّه دائم في كلِّ زمان، كما أنَّ في ذلك تصويرًا للمشهد.

نكتةُ ذِكر المُجرَى فيه ﴿فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾:

التَّصريح بالمجرى فيه وهو مظنَّة الهلاك أبلغ في بيان النِّعمة

صرَّح النَّظم الجليل بأنَّ جري الفلك كائن في البحر في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ مع كون أنَّ ذلك معلوم؛ إذ لا يخفى أنَّ الفلك تجري فيه، ولا تجري في غيره؛ وإنَّما صرَّح بالبحر لاستحضار عظمة هذا الإنعام، فمن الغريب أن يركبَ الإنسانُ البحر الذي هو مظنَّة الهلاك، فكان الإنعام بركوب البحر إنعامًا كبيرًا، فذَكر البحر استحضارًا وتذكيرًا بذلك.

دلالة اللام في ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

الفُلك تجري في كلِّ بحر، ليس بحرًا بعينِه

عرَّف النَّظم الجليل البحر بالألف واللّام الدّالَّة على الجنس في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾؛ فليس المراد به بحرًا بعينه؛ بل المراد جنس البحار، فإنَّ الفلك تجري في البحار كلِّها، فهو أمر عامٌّ في كلِّ البحار، ولا يختصُّ ببحر دون غيره.

سرُّ تقييد الجري بشبه الجملة ﴿بِأَمۡرِهِۦۖ﴾:

خلق الله تعالى الموجودات مع غاياتها، فجري الفُلك قد جرى بأمره ذلك

قيَّد النَّظم البليغ جريَ الفُلك بكونه حاصلًا بأمر اللّٰه تعالى في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾؛ إذ إنَّ الجري في البحر من عجائب الأمور التي تبهر العقل، فكان من تمام بيان عظمة الإنعام أن ينسب ذلك إلى أمرِهِ ﷻ[1]، وأمره تعالى لها إنَّما وقع حال

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

إيجادها، وهو قول الله تعالى للبحار والأرض وسائر الأشياء: "كن بحال كذا وعلى وتيرة كذا، وفي هذا يندرج جريان الفلك وغيره"[1].

غرض إضافة الأمر للضَّمير ﴿ بِأَمْرِهِۦۖ ﴾:

فخامة الأمر بفخامة الآمر، إيماء إلى استحقاق التَّوحيد

أضاف النَّظم الجليل لفظ الأمر إلى الضَّمير العائد إلى الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ﴾؛ للدَّلالة على عظمة ذلك الأمر، وأنَّ ذلك الأمر له من العظمة بأن يضاف إلى الله تعالى لاختصاصه به، فهو مَن يأمر البحار وغيرها، فهو خالقها وموجدها، ففيه إيماء إلى أنَّ ما يشركون به لا أمر لهم، تذكيرًا لهم بالإله الحقِّ المستحقِّ العبادة والطّاعة.

دلالة الواو في ﴿وَسَخَّرَ﴾:

النِّعم العظيمة تذكر تباعًا لبيان عظمة الخالق

عطف النَّظم الجليل الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ على الجملة ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ بالواو[2]؛ لأنَّ الأنهار من جملة النِّعم العظيمة بعد نعمة البحار[3]، فسيقت الأنهار ضمن الآلاء التي ذكرت في التَّعريف بالجليل ﷻ وبيان نعمائه وجميل آلائه.

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على المفعول به:

بيان أنَّ المخاطَب هو المخصوص بالإنعام أبلغ في الاحتجاج

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾، فلم يقل على الأصل: (وسخَّر الأنهار لكم)؛ لما في التَّقديم والتَّأخير هنا من أثر في بيان الامتنان، فالمستفيد من تسخير الأنهار هم النّاس، فقدَّم ذكر مَن وقعت له الفائدة من ذلك التَّسخير، وهذا أبلغ في سياق الامتنان بتلك النِّعم، كما أنَّ في تأخير الأنهار تشويقًا لها، فيبقى السّامع

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/339.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 10/420.

منتظرًا أيَّ شيء وقع في التَّسخير بعد تلك المذكورات، فيأتي ذكر الأنهار لتقرير ذلك الامتنان.

علَّة الجمع ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ والإفراد ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾:

الإنعام بالأنهار كائن بالكثرة والتَّفرُّع، والبحر سيق لبيان الإنعام بجري الفلك فيه

آثر النَّظم الكريم التَّعبير عن الأنهار بصيغة الجمع، والبحار بصيغة المفرد، في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ لِتَجۡرِيَ فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾؛ وذلك لأنَّ الإنعام بالأنهار متأتٍّ بكونها كثيرة متفرِّعة، تسير في بلادهم، أمّا البحر؛ فذكر الإنعام بجري الفُلك فيه، لا الإنعام بالبحار ذاتها، فأفرد لإرادة الجنس، فجري الفلك يكون في كلِّ بحر بما لا يختلف عن بحر آخر.

نكتةُ جمع الأضداد:

نِعَمُ المولى كثيرة متنوِّعة حاصلة في كلِّ مكان

جمع النَّظم الجليل بين المتقابلات في الآية - ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، ﴿ٱلۡبَحۡرِ﴾ و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرَ﴾ -، فجمع بين السموات والأرض، وجمع بين البحر والأنهار؛ لما في ذلك من بيان تنوُّع نعمه، وأنَّها متحصِّلة في كلِّ تلك الموجودات، فهي تتضمَّن نِعَمًا جليلة لا تحصى، وفي ذلك تأكيد على استحقاقه التَّوحيد والعبادة، فنِعَمُهُ في كلِّ مكان تحيط بالخلائق.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(أنزل) و(نزَّل):

التَّنزيل دالٌّ على التَّفريق، والإنزالُ عامٌّ

قال الرّاغب: "والفَرْقُ بَيْنَ الإنْزالِ والتَّنْزيلِ: أنَّ التَّنْزيل يختصُّ بالموضع الذي يُشيرُ إليه إنزالُهُ مفرَّقًا، ومرَّةً بعد أُخْرَى، والإنزالُ عامٌّ"[1]. وفي الآية آثر النَّظم الكريم التَّعبير بـ (أنزل)؛ لأنَّه أنسب مع نزول الماء؛ لأنَّه نزول عامٌّ لا يراد بيان أنَّ نزوله مفرَّق؛ إذ لا ميزة بتفريق إنزاله؛ بل المراد كونه نعمةً من نِعَم اللّه تعالى، وهي حاصلة بالإنزال العامِّ.

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإنعامُ بريِّ الثِّمار يعقبه الإنعام بإنضاجِها بضياء الشَّمس

بعد أن بيَّن النَّظم الجليل ما سخَّر الله تعالى لعباده في الأرض؛ أخذ يبيِّن ما سخَّر للإنسان من أجرام السَّماء[1]، ومن المناسبة أنَّ النَّظم لمّا ذكر نزول الماء من السَّماء، وتسخير ماء الأنهار؛ "أتبعه ما جعله سببًا لكمال التَّصرُّف وإنضاج الثِّمار المسقيَّة بالماء النّازل من السَّماء، والنّابع من الأرض فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ﴾"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَآئِبَيۡنِۖ﴾: أصلُ (دأب): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على مُلازَمَةٍ ودَوامٍ[3]. فالدَّأْبُ: العادة المستمرَّة دائمًا على حالةٍ، قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾ [آل عمران: 11]، أي: كعادتهم التي يستمرّون عليها[4]. وكُلُّ ما أَدَمْتَه؛ فقَدْ أَدْأَبْتَه[5]. ودَأَبَ الرَّجُلُ في عَمَلِهِ؛ إذا جَدَّ[6]. والدُّؤوبُ المبالَغةُ في السَّير، وأدأبَ الرّجُل الدّابَّة إدآبًا؛ إذا أتعبها[7]. والدّائِبانِ: اللَّيْلُ والنَّهارُ[8]، والمرادُ بالدُّؤوبِ في الآية: مُرورُ الشَّيءِ في العمَلِ على عادةٍ جاريةٍ فيه.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4032.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 10/420 - 421.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (دأب).
(4) الراغب، المفردات: (دأب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (دأب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دأب).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (دأب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دأب).

المَعنى الإجْماليُّ:

تسير أجرام السَّماء من غير إبطاء في دأبٍ مستمرٍّ يَعلمُ الله تعالى سيرَها وناموسها

يقول اللّه تعالى: وذلَّلَ لكم الشَّمسَ والقمَرَ يَدأبانِ في سَيرِهما، فيتعاقَبانِ عليكم بلا انقطاعٍ؛ لتَحقيقِ مَصالِحِكم، كحِسابِ أزمِنَتِكم، وضَبطِ أوقاتِكم، ونفعِ أبدانِكم، وحيواناتِكم، وزُروعِكم، وثمارِكم، وغيرِ ذلك، وكذلك ذلَّل اللّهُ تعالى لكم اللَّيلَ والنَّهارَ يتعاقبانِ عليكم؛ فجعل اللَّيلَ لِتَسكُنوا فيه؛ راحةً لأبدانِكم، وجعل النَّهارَ لِتَبتَغوا فيه مِن فَضلِه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة العطف في الآية:

تعداد النِّعم لبيان واجب الشُّكر

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ معطوفةٌ على الجملة الواقعة صلة في قوله جلَّ شأنه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2]، فبعد أن ذكر السَّموات والأرض وإنزال الماء الذي أخرج الثِّمار؛ أتبع ذلك بما هو كائن في السَّماء، وينفع الأرض، وبه تكون الحياة، وهو تسخير الشَّمس والقمر، إذ لو لم يوجدْهما على هذا الحال؛ لكانت الحياة من المحال.

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلشَّمْسَ﴾:

بيان المقصود بالتَّسخير مبالغة في المنَّة وما يلزمها من شكر النِّعمة

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ لما في التَّقديم من تخصيص للمخاطَب بهذه النِّعمة، فالتَّسخير إنَّما وقع لأجلكم، وهذا أدلُّ على الامتنان، وفي تأخير الشَّمس تشويق لها، وتفخيم لشأنها.

سرُّ التّقييد بالاستمرار في: ﴿دَآئِبَيْنِ﴾:

قيَّد النَّظم الجليل تسخير الشَّمس والقمر بكونهما دائبين في

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/682، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/367، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 426.

(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.

الإنعام بدوام الشَّمس والقمر على السُّنن الموضوع لهما

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ لبيان حالهما، أي: إنَّ التَّسخير لهما كان بهذه الحالة، وهي أنَّهما دائبان في الحركة والسَّير والإنارة، فهما يسيران في دأب مستمرٍّ بلا توانٍ، وما ينشأ عنهما من صلاح الحياة[1]، ودأبهما أنَّهما مستمرّان على "حالات لا تختلف؛ إذ لو اختلفت لم يستطع البشر ضبطها، فوقعوا في حيرة وشكّ"[2]، فالقيد بهذا الحال من حسن البلاغة؛ لأنَّ وجه النِّعمة بهما ليس بمطلق إيجادهما؛ بل بكونهما مستمرَّين على ما وجدا له، وهو إنشاء اللَّيل والنَّهار، فالدَّأب هو وجه النِّعمة بهما، وما وقع بهما من خير للنّاس؛ فهو تبع لهذا لكونهما مستمرَّين على ذلك.

دلالة عطف ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

اللَّيل والنَّهار كاشفان لوجه النِّعمة بالشَّمس والقمر

الجملة في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ معطوفة على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾[3]؛ لأنَّ تسخير اللَّيل والنَّهار تابعان للشَّمس والقمر فذكر تعالى "ما ينشأ عن وجود الشَّمس وعدمها، فقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ﴾، أي: الّذي القمر آيته ﴿وَٱلنَّهَارَ﴾، أي: الّذي الشمس آيته، يوجد كلٌّ منهما بعد تصرُّمه، ولو كان أحدهما سرمدًا؛ لاختلَّ الحال بعدم النَّبات والحيوان"[4]، فالإنعام بمجرَّد الشَّمس لا يكفي أن تكون حياة، فلا بدَّ أن يتنوَّع جوُّ الأرض باللَّيل والنَّهار لتكون حياة وتدوم.

غرض تقديم ﴿لَكُمُ﴾ على ﴿ٱلَّيْلَ﴾:

تخصيص المخاطَب بذكر النّعمة يوجب عليه شكرها

قدَّم النَّظم الجليل شبه الجملة على المفعول به في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لأنَّ المقصود من تسخير اللَّيل والنَّهار هو الإنسان، فقدَّم ذكر المخاطَبين الّذين وقع التَّسخير لهم على ذكر

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/421، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4033.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/236.
(3) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 7/194.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 10/421.

المسخَّر لما في ذلك من بيان الاختصاص بالتَّسخير، والمبالغة في الامتنان، وفي تأخير المسخَّر تشويق وتفخيم له.

نكتة التّرتيب في: ﴿ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾:

تقديم الأسبق في الخَلْق مناسب في سياق ذكر المخلوقات

قدَّم النَّظم الجليل ذكر اللَّيل على ذكر النَّهار في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾؛ لأنَّ خلْقَ اللَّيلِ سابق على خلق النَّهار وإيجاده، كما في قولِه جلَّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، فرتَّبهما حسب وجودهما في الخلق.

نكتة جمع الأضداد:

حَشْدُ النِّعم المتكوِّنة من تلك المخلوقات تنبيهٌ على كثرتها

جمع النَّظم الجليل بين المتقابلات في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ فجمع بين الشَّمس والقمر، وجمع بين اللَّيل والنَّهار؛ لأنَّ هذه المذكورات بها يكون الإنعام بحركة اللَّيل والنَّهار والمدِّ والجزْرِ والدِّفء والبرد، فلولا وجودها مجتمعة؛ لما كانت تلك النِّعم موجودة، فجمْعُها تنبيهٌ على كلِّ النِّعَمِ التي تكون بسببها.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانت نِعَمُ اللهِ لا تُعدُّ، وجبَ على مَنْ يتقلَّبُ فيها شكرُ المُنعِمِ بها

لَمّا ذكر اللّهُ تعالى قُدرتَه العظيمةَ في خلقِ السَّماواتِ والأرض، وبعضَ نعمِه الجليلة، كإنزالِ الماء منَ السَّماء، وتسخيرِ الفُلك والأنهارِ والشَّمسِ والقمرِ واللَّيلِ والنَّهار؛ بيَّن في هذه الآية أنَّه لم يقتصرْ على تلكَ النِّعم؛ بل أعْطَى عبادَه منَ المنافعِ والمُراداتِ ما لا يأتي على بعضِها التَّعديدُ والإحصاء؛ ولكنَّ الإنسانَ يظلمُ نفسَه، فيتمتَّعُ بتلك النِّعم ويجحدُ المُنعمَ بها ولا يشكره ﷻ[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعُدُّواْ﴾: (عدّ): العَيْنُ والدّالُ أصلٌ صحيحٌ واحدٌ، لا يخلو من العَدِّ، والعَدُّ: إحْصاءُ الشَّيء، وضمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعض، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: 94]، تقولُ: عَدَدْتُ الشَّيءَ أعُدُّهُ عَدًّا، فأنا عادٌّ، والشَّيءُ معدودٌ، والعديد: الكَثْرةُ، والعَدَدُ: مقدارُ ما يُعدُّ[2]. وقولُه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّـهِ﴾؛ أيْ: إنْ تتعرَّضوا لتَعْدادِ نِعَمِ اللّهِ[3].

2) ﴿تُحْصُوهَآۗ﴾: (حصو): الحاءُ والصّادُ والحرفُ المُعتلُّ، ثلاثةُ أصول: الأوَّلُ: المَنْعُ، والثّاني: العَدُّ والإطاقة، والثّالثُ: شيءٌ من أجزاءِ الأرض. والثّاني: هو ما يُناسبُ السِّياقَ هنا، وهو العَدُّ والطّاقةُ، من أحصيتُ الشَّيءَ: إذا عدَدْتَه وأطَقْتَه، قال تعالى: ﴿عَلِمَ

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/99.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عدّ).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.

أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المُزَّمِّل: 20][1]. والإحصاءُ: التَّحصيلُ بالعدَد، وهو مُشتقٌّ من الحَصا اسْمًا للعدد، ومنقولٌ من الحَصى، وهو صغارُ الحِجارة؛ لأنَّهم كانوا يعدّون الأعدادَ الكثيرة بالحصى؛ تجنُّبًا للغلط. قال تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجنّ: 28][2]. وقولُه تعالى: ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أي: لا تُطيقوا إحصاءَها وعدَّها بوجهٍ من الوجوه[3].

3) ﴿لَظَلُومٞ﴾: (ظلم): الظّاءُ واللّامُ والميمُ أصْلانِ صحيحان؛ أحدُهما: خِلافُ الضِّياءِ والنّور، والآخَرُ: وضعُ الشَّيءِ غيرَ موضِعه تعدِّيًا، والأصلُ الثّاني: هو ما يعنينا هنا: ظَلَمَهُ يَظْلِمُه ظُلْمًا[4]، من قولهم: "مَنْ أشْبَه أباهُ فما ظَلم"؛ أيْ: لم يَضَعِ الشَّبَهَ في غيرِ موضعِه[5]. وقولُه تعالى: ﴿لَظَلُومٞ﴾؛ أيْ: يظلمُ النِّعمةَ بإغفالِ شُكْرِها[6].

4) ﴿كَفَّارٞ﴾: (كفر): الكافُ والفاءُ والرّاءُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو السَّتْرُ والتَّغطيةُ، ووُصِفَ اللَّيلُ بالكافر؛ لسَترِه الأشخاصَ، والزُّرّاعُ لسَترِه البذرَ في الأرض. وكان الكفرُ ضِدَّ الإيمان؛ لأنَّه تغطيةٌ للحقّ، قال تعالى: ﴿فَأَبَىٰٓ ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورٗا ٩٩﴾ [الإسراء: 99][7]. وقولُه تعالى: ﴿كَفَّارٞ﴾؛ أيْ: شديدُ الكُفرانِ للنِّعمة، يجمعُ ويَمْنَعُ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخاطبُ اللّهُ ﷻ عبادَه، مُمتنًّا عليهم فيقول: هيَّأ لكم كلَّ ما تحتاجونَ إليه، في جميعِ أحوالِكم ممّا تسألونَه بحالِكم وقالِكم،

نِعَمُ اللهِ على العِبادِ أعظمُ مِن أن تُعدَّ، أو يُطاقَ تمامُ شُكرِها

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حصوى).
(2) الرّاغب، المُفردات: (حصا).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظلم).
(5) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 2/300.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (كفر).
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/151.

وأنتمُ يا عبادي عاجزون عن تعدادِ النِّعم، فَضْلًا عنِ القيام بشُكْرِها، فهي حقُّ اللّه، وهو أثقلُ مِن أن يقوم به العبادُ، ويُطيقوا تمامَ شُكرِها[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دَلالةُ الواو في: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

الــواوُ عاطفةٌ لجملةِ تذييلِ النِّعمِ لِما قبلَها

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ للعطف[2]، عطفتْ نعمةَ الإعطاءِ على ما وردَ قبلَها مِنَ العطاءاتِ الرَّبانيَّة، والتَّسخيراتِ الإلَهيَّة، فجاءتِ الواوُ مع جُملتِها المعطوفةِ بمنزلةِ التَّذييلِ لما قبلَها، منَ المِنَنِ الرَّبّانيَّة على عبادِه، لحِكَمٍ يعلمُها اللّهُ تعالى ولا يعلمونها، مصداقُها قولُه تعالى: ﴿۞وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾ [الشّورى: 27][3].

إيثارُ التَّعبيرِ بالإيتاءِ لا الإعطاءِ:

الإيــتـاءُ خـاصٌّ بالأمورِ المادِّيَّةِ، مـع المـشـاركـةِ فيها

آثرَ سياقُ الآيةِ التَّعبيرَ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ؛ فقال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾، ولم يَقل: (وأعطاكم)؛ لأنَّ الإيتاءَ خاصٌّ بالأمورِ المادِّيَّةِ الماليَّة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا﴾ [البقرة: 229]، وقولِه تعالى: ﴿وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ﴾ [البقرة: 247]، وأكثرُ ما يسألُ العبادُ ربَّهم منَ النِّعم، هذا الصِّنفُ منَ الإعطاءِ.

والإعطاءُ: الإنالةُ، قالَ تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ﴾ [التَّوبة: 29]، فهو مُختصٌّ بالصِّلة، قالَ تعالى: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩﴾ [ص: 39][4]. وفي الإعطاء دليلُ التَّملُّكِ دونَ الإيتاء، ويؤيِّدُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١﴾ [الكوثر: 1]، فإنَّه كان له منعُ مَن

(1) ابن كثير، تفسير القرآن الكريم: 2/494.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/194.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.
(4) الرّاغب، المُفردات: (أتى) و(عطا).

شاءَ منه كالملِكِ للملك، وأمّا القرآنُ فحيثُ إنّ فيه مشاركةَ أُمَّته ﷺ له في فوائدِه، ولم يكن له منعُهم منه، قالَ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحِجْر: 87][1]. ولذلك قالَ تعالى هنا في الآية: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾، فالَّذي يُؤتيهِ اللّهُ لعبادِه يُجمعُ منه مع النِّعم المادِّيَّةِ في الغالب مشاركةُ غيرِ المُؤتَى له فيما آتاه اللّهُ، من وَلَدٍ ووالدَيْن وزوجةٍ، وغيرِ ذلك.

سِرُّ استعمالِ الماضي في الآية:

مَنْ يسألِ اللهَ مؤمنًا يُؤْتِهِ من فضْلِه

لَمّا كان المُرادُ تحقُّقَ الإيتاءِ منَ اللّهِ تعالى، بعدَ تحقُّقِ سؤالِهم ربَّهم أنْ يُؤتيَهم من نِعَمِه وفضْلِه، جاءَ استعمالُ السِّياقِ لتلكما الصِّيغتَيْن بالزَّمنِ الماضي، بقولِه: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾، و﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾؛ لإفادةِ هذا التَّحقُّقِ وتأكيدِ حصولِه؛ وقد أمرَ اللّهُ عبادَه أنْ يسألوه من فَضْلِه، فقالَ ﷻ: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ﴾ [النِّساء: 32].

فائِدةُ التَّعبيرِ بضميرِ المُخاطَبين ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

مزيدُ الاهْتمامِ بالمخاطَبين

في التَّوجُّه للعبادِ بضميرِ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾ مزيدُ اهتمامٍ بهم، فهم خَلْقٌ من خَلْقِ اللّهِ ﷻ؛ بل هم في موضعِ تخصيصِهم بالتَّكريم من بين سائرِ المخلوقات، كما قالَ تعالى: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، والاهتمامُ بهم وتكريمُهم، يقتضي الاهتمامَ بإيتائهم من كلِّ ما سألوه.

وجهُ الجمعِ بين ﴿مِّن﴾، و﴿كُلِّ﴾:

تقتضي حِكمةُ اللهِ تعالى إعطاءَ بعضٍ من عُمومِ مَرغوباتِ السّائلين

﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن كُلِّ﴾ تُفيدُ التَّبعيضَ، و﴿كُلِّ﴾ تفيدُ العمومَ؛ أيْ: أعطاكم بعضًا من جميعِ ما سألتموه من مَرْغوباتِكمُ الخارجةِ عنِ اكْتسابكم، بحيث شأنُكم فيها أن تسألوا اللّهَ إيّاها، وذلك وَفْقَ ما تَقْتضيه مشيئتُه التّابعةُ للحِكمةِ والمصلحةِ، كقولِه ﷻ: ﴿مَّن كَانَ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 86، والكفويّ، الكلِّيّات: 1/360.

﴿يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: 18][1]. ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِّن﴾ للبيان، وكلمةُ ﴿كُلِّ﴾ للتَّكثير، كقولِكَ: (فلانٌ يعلم كلَّ شيءٍ، وأتاهُ كلُّ النّاسِ)؛ أيْ: آتاكم مِن كلِّ ذلك، ما احتجتُم إليه، ونيطَ بِهِ انْتظامُ أحوالِكم على الوجهِ المُقدَّر، فكأنَّكم سألتموه، أو: كلَّ ما طلبتُموه بلسانِ الاسْتعدادِ، أو: كلَّ ما سألتموه[2].

دَلالةُ ﴿مَا﴾، وإضافةِ ﴿كُلِّ﴾ إليها:

جُمـــعَ ﴿مَا﴾ و﴿كُلِّ﴾؛ لإفادة العمومِ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ يصحُّ أن تكونَ مصدريَّةً، وتكونَ ﴿كُلِّ﴾ لاسْتغراقِ العموم؛ أيْ: جميع أسئلتِكم، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ عائدًا على اللّهِ تعالى. ويصحُّ أن تكونَ ﴿مَا﴾ بمعنى (الَّذي)؛ أيْ: جميعُ الَّذي سألتُموه[3]، ويكونَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ عائدًا على ﴿ٱلَّذِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: 32].

دَلالةُ الإضمارِ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾:

لا مُؤتيَ لسُؤْلِ العبدِ إلّا الله تعالى

جاءَ الضَّميرُ في ﴿سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾ بدلَ التّصريحِ باسْمِ الجلالةِ أو الرَّبِ؛ عَوْدًا على ما تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [إبراهيم: 32] مُقترنًا مع الإيتاءِ في هذا العَوْد، للدّلالةِ على أنَّ المُؤْتيَ لِما سألتُموه هو اللّهُ، الَّذي خلقَ تلك المُكوّناتِ العظيمةَ والنِّعمَ الجليلةَ.

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾:

نِـعَـمُ الـلـهِ عظيمةٌ، سأل العبدُ أم لم يَسأل

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ عَطَفَتْ ما يدلُّ على تحقُّقِ وجهِ العِظَمِ، بفرْضِ ما يوجِبُ العَجْزَ على سؤالِهم ما هم مُحتاجونَ إليه،

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/264، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.

(2) أبو السُّعود: إرشاد العقل السّليم: 2/264.

(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/340، والعُكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/69، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.

وإعطائهم إيّاه، وإعطائهم ما لم يَسألوه، فكان العطفُ والمعطوفُ عليه في كِفتي ميزانٍ متعادِلَتيْنِ مُتَساوِيتَيْنِ[1].

نُكتةُ مجيءِ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ بعد ﴿وَءَاتَىٰكُم﴾:

نِعَمُ اللهِ لا تُحصَى، ولا يُحيطُ بها فردٌ

جاءتْ جملةُ: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ تأكيدًا للتَّذييلِ، وزيادةً في التَّعميمِ الواردِ في قولِه تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ﴾، وتنبيهًا على أنَّ ما آتاهم اللّهُ، كثيرٌ منه معلومٌ، وكثيرٌ منه لا يُحيطونَ بعلمِه، أو لا يتذكَّرونَه عند إرادةِ تَعْدادِ النِّعمِ[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بأداةِ الشَّرطِ (إنْ):

عَدمُ الإحصاءِ مُرتبطٌ بعدمِ الإحاطةِ بالعدِّ، إنْ حاولتُم فيه

تُستعملُ (إنْ) عندما يكونُ هناك عدمُ ترجيحٍ لحصولِ الفعلِ، فَعَدُّ نعمِ اللّهِ غيرُ مُتوقَّعٍ، وفي قولِه تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ﴾ كأنَّه يقول: إنْ تُحاولوا العَدَّ وتأخُذوا فيه، ويترتَّب عليه رَبْطُ ما بعدَه به؛ أيْ: جوابُ الشَّرطِ هو عدمُ الإحصاءِ مُترتِّبٌ على فعلِه، وهو العَدُّ، وهذا يَدلُّ على أنَّ نِعَمَ اللّهِ كثيرةٌ، لا يمكنُ عَدُّها أو ضَبْطُها.

دَلالةُ الخِطابِ: ﴿تَعُدُّواْ﴾، و﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾:

عَدُّ النِّعَمِ وحَصْرُها إجمالًا وتفصيلًا لا يُطيقُه البشرُ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿تَعُدُّواْ﴾ على عدِّ النِّعَمِ على الإجمالِ، وهو داخلٌ تحتَ محاولةِ العَدِّ؛ أيْ: إن تحاولوا العَدَّ وتأخذوا فيه. ودلَّ قولُه تعالى: ﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾ على ضَبطِ العَدَدِ بالتَّفصيلِ، والإحصاءُ مُشتقٌّ مِنَ الحصا اسْمًا للعَدَدِ، ومنقولٌ مِنَ الحَصَى، وهو صغارُ الحِجارةِ؛ لأنَّهم كانوا يَعدّون الأعدادَ الكثيرةَ بالحَصَى؛ تجنُّبًا للغَلَط، فالعَدُّ بدايتُه والإحصاءُ نهايتُه[3]. واللّهُ تعالى يُخاطِبُ عبادَه بهذيْنِ الفعليْنِ: ﴿تَعُدُّواْ﴾ و﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾، فيقول: إنْ تُحاولوا عَدَّ نِعَمِ اللّهِ تعالى لا تَحْصُروها، ولا تُطيقوا عدَّها وبلوغَ آخرِها لكثرتِها،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/421.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/236.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

هذا إذا أردتُم عَدَّها على الإجمال، وأمّا التَّفصيلُ: فلا يقدرُ عليه ولا يعلمُه إلّا اللّهُ ﷻ[1].

إيثارُ مجيءِ ﴿تَعُدُّواْ﴾ و﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾ مضارعَيْن:

مهما دامتْ محاولةُ العَدِّ فلن تَستطيعوا الإحصاءَ والضَّبطَ

جاءَ فعلُ الشَّرط ﴿تَعُدُّواْ﴾ وجوابُه ﴿تُحۡصُوهَآۗ﴾ بصيغةِ المضارع؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ محاولةِ العَدِّ لنِعَمِ اللّهِ واسْتمرارِها، وتجدُّدِ ضبطِ العددِ بالإحصاءِ واسْتمرارِه، وكما أنَّ القُدْرةَ على العَدِّ والضَّبطِ الكاملِ إجمالًا وتفصيلًا غيرُ مُتحقِّقة، فكذلك أيُّ تجدُّدٍ واسْتمرارٍ لكلٍّ منَ العَدِّ والإحصاءِ غيرُ متحقِّقٍ، وسَينقلبُ مُحاولُها خاسئًا وهو حَسير[2].

نُكتةُ إفرادِ ﴿نِعۡمَتَ﴾:

النّعمةُ الواحدةُ تحوي في طيّاتِها نِعَمًا كثيرةً

النِّعمةُ هاهنا اسْمٌ أُقيمَ مقامَ المَصدر، يُقال: أنْعَمَ اللّهُ عليه، يُنعِمُ إنعامًا ونِعْمَةً، فأُقيمَ الاسْمُ مَقامَ الإنعام، كقولهم: أنفقتُ عليه إنفاقًا ونفقةً بمعنًى واحدٍ؛ ولذلك جاءَ ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالإفرادِ دون الجمع؛ لأنَّه في معنَى المصدر، وفي الإفراد إشارةٌ إلى احتواءِ كلِّ نعمة عددًا لا حصْرَ له منَ النِّعم، وفيه دعوةٌ إلى كثرة الشّكرِ والتّأمُّلِ فيما أنعم اللّهُ به علينا، مِن نِعَمٍ ظاهرةٍ وباطنةٍ.

سِرُّ رسْمِ تاء ﴿نِعۡمَتَ﴾ مبسوطةً:

رسّخَ بَسْطُ التّاءِ سَعةَ نِعَمِ الله، وعَدَمَ إمكانِ عَدّها

جاء رسمُ ﴿نِعۡمَتَ﴾ بالتّاءِ المبسوطةِ؛ لأربعة أمورٍ؛ الأوّلُ: أنَّ التّاء ارتبطتْ بالاسم، وهو هنا لفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾، فأصبحتْ بمعنى الفعلِ فتُفتحُ عندئذٍ. والثّاني: قولُه: بالتّاء، بمعنَى النِّعمةِ الحاصلةِ بالفعل في الوجود، فكأنَّها مضتْ فلم تُشْكَرْ، فكانت بمثابة فعلٍ ماضٍ، فَفُتحتْ تاؤها، ويدلُّ على ذلك أنَّ التّذييلَ جاءَ بأنَّ الإنسانَ ظلومٌ كفّار، فهي نِعْمَةٌ متَّصلةٌ بالظَّلوم الكَفّار في تنزُّلِها[3]. والثّالثُ:

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/482، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: 4/3615، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/99.
(3) ابن البنّاء، عنوان الدّليل من مرسوم خطّ التّنزيل، ص: 110.

أنَّها تدلُّ على النِّعمةِ الخاصَّةِ الَّتي وهبَها اللّهُ لعبادِه المؤمنين، كما تدلُّ على النِّعَم المفتوحةِ الَّتي لا يمكنُ إحصاءُ عددِها. والرّابعُ: تنبيهُ القارئ والسّامعِ على تدبُّرِ هذه الآية وما حولَها منَ الآياتِ، في السِّياق الَّذي وردتْ فيه؛ لاسْتخلاصِ الحِكْمةِ والعِبرة[1].

فائِدةُ إضافةِ ﴿نِعۡمَتَ﴾ إلى اسْمِ الجلالة:

واجبُ العِبادِ شُكرُ المُنعِمِ والتَّوبةُ إليه

في إضافةِ ﴿نِعۡمَتَ﴾ إلى اسْم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ تَنبيهٌ على أمورٍ ثلاثة؛ الأوَّلُ: أنَّ الَّذي خلقَ لكمُ النِّعمَ الَّتي تتقلَّبون فيها ليلَ نهارَ، هو اللّهُ لا أحدَ سواه. والثّاني: أنَّ حقَّ اللّهِ تعالى المُنعِم عليكم بهذه النِّعم، هو شكرُه ﷻ. والثّالثُ: أنَّ حَقَّ اللّهِ تعالى أثقلُ مِن أن يقومَ به العِبادُ، ونِعَمُه أكثرُ من أن يُحصيَها العادُّ، فما عليكم إلّا أن تكونوا توّابينَ أوّابينَ لتقصيرِكم في شُكْرِ المُنعِم، أو غفلتِكم عنه[2].

نُكْتَةُ التَّعبير بالإحصاءِ لا بغيره:

لا يُطيقُ البَشرُ عَدَّ نِعَمِ اللهِ تعالى فضْلًا عن إحصائِها

جاءَ التَّعبيرُ بقوله: ﴿لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ للدّلالةِ على عدم حَصْرِها وضَبطِها، وعدم القُدرة على إطاقة عَدِّها وبلوغِ آخِرِها؛ ولا يَقدِرُ على ذلك ولا يعلمُه إلّا اللّهُ ﷻ، ولا يوفِّرُ هذا المعنَى ولا يُحقِّقُه إلّا التَّعبيرُ بلفظِ الإحصاء، وذلك كما في قولِه تعالى في شأنِ وجوبِ قيامِ اللَّيلِ على الصَّحابة ﵃: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ﴾ [المُزَّمِّل: 20][3].

سِرُّ فصلِ جملةِ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

تأكيدُ معنَى تبديلِ النِّعمةِ كُفرًا

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ عمّا قبلَها؛ تأكيدًا لمعنَى الاسْتفهامِ الإنكاريِّ المُستعمَلِ في تحقيق تبديلِ النِّعمةِ كفرًا[4].

علّةُ تصدير ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بالتَّوكيد:

الإنسانُ هو مَنْ بدَّلَ نعمةَ اللهِ كُفرًا

صُدِّرت جملةُ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾؛ لتأكيدِ معنَى

(1) محمّد شملول، إعجاز رسم القرآن، ص: 174 - 175.

(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/340.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/422.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

الاسْتفهام الإنكاريِّ في قولِه تعالى: ﴿۞أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا﴾ [إبراهيم: 28]؛ أيِ: التأكيدِ أنَّ الإنسانَ هو الَّذي بدَّلَ نعمةَ اللّه كفرًا، وهو الظَّلومُ الكفّار[1].

دَلالةُ (ال) والتّعبيرِ بالـ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ دون مرادفاتِه:

الإنسانُ الظّالمُ الكافرُ، وليس كلُّ ابنِ آدمَ كذلك

المرادُ بالإنسانِ هنا: النَّوعُ والجِنسُ، والمعنَى: الإنسانُ الَّذي توجَدُ فيه هذه الخِلال، وهي الظُّلمُ والكُفر، فإن كانت هذه الخِلالُ مِن جاحدٍ؛ فهي بصفةٍ، وإن كانت مِن عاصٍ؛ فهي بصفةٍ أُخرى، ولذلك احْتُرِزَ بهذا المعنَى عنِ اسْتعمالِ لفظِ (ابن آدم)[2].

فضلًا عن أنَّ ذِكْر ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70] في القرآن جاء في مقاماتٍ ليس مِن بينها الجُحودُ والكُفران، بل ورد في مقامِ الإنعام، كما في قوله: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: 70]، أوِ التّذكيرِ بقصّة آدمَ وإبليسَ؛ للتّحذير كما في قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 26]، وقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 27]، وقوله تعالى: ﴿۞أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٦٠﴾ [يس: 60]، أو لبيانِ عِظَم الجريمة، وهي أن يقتل الأخُ أخاه مع صَلاح الأبِ، كما في قولِه تعالى: ﴿۞وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الآيات [المائدة: 27 - 31].

دَلالةُ اللّامِ في ﴿لَظَلُومٞ﴾ وإيثارِ اللّفظِ على غيرِه:

تـأكيـدُ صِفـةِ الظُّلمِ عند الإنسـان، والمبالغةُ في تحقُّقِه بها

اللّامُ في ﴿لَظَلُومٞ﴾ لتأكيدِ صفةِ الظُّلم في الإنسان؛ إذ يَظلمُ النِّعْمَةَ بإغفالِ شُكرِها، ولا أشدَّ ظُلمًا لنفسِه مِنَ المُشرك باللّهِ، الكافرِ به، وجاءت صيغةُ ﴿لَظَلُومٞ﴾ للمبالغةِ في وصْفِ الإنسانِ بالظُّلم، فهو ظَلومٌ، في الشِّدَّةِ يَشكو ويجزَعُ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 9/340.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/423، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

دَلالةُ صيغةِ ﴿كَفَّارٞ﴾، وسِرُّ مجيئِها بعد ﴿لَظَلُومٞ﴾:

المبالغةُ في وصْفِ الإنسانِ بالكُفرِ هو أشَدُّ الظُّلْمِ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ جاءت صيغةُ ﴿كَفَّارٞ﴾ للمبالغةِ في وصفِ الإنسانِ بالكُفر، وسيقتْ بعد صيغةِ ﴿لَظَلُومٞ﴾ لبيانِ أنَّ الإنسانَ بمقدارِ كَثْرةِ النِّعَم يَظْلِمُ نفسَه، إذْ بَدلَ أنْ يشكرَ المُنعِمَ يَجْحَدُه، فهو شديدُ الكُفرانِ للنِّعمة، يَجْمَعُ ويَمْنَع، فيكونُ ذلك سبيلًا لكُفْرِه، إذْ يُعرِضُ عن عبادةِ المُنعِمَ، ويعبدُ ما لا يُغْني عنه شيئًا، فأمّا المؤمنُ فلا يجحدُ نِعَمَ اللهِ تعالى، ولا يَعْبُدُ غيرَه[1].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

السُّؤالُ والطَّلبُ:

السُّؤالُ بالقولِ وبالفعلِ، ويستدعي جوابًا، وهو أعمُّ منَ الطَّلبِ

السُّؤالُ يكونُ بالقولِ وبالفعلِ، ولا يكون السُّؤالُ إلّا كلامًا، والسُّؤالُ يَستدعي جوابًا؛ إمّا باللِّسانِ أو باليد.

والطَّلبُ يكونُ بالسَّعْي وغيرِه، ولذلك قيلَ: عليكَ الهَرَبُ وعَلَيَّ الطَّلَبُ. والطَّلبُ قد يَفتقرُ إلى جواب وقد لا، وكلُّ سؤالٍ طَلَبٌ، وليس كلُّ طَلَبٍ سؤالًا[2].

ولمّا كان السّؤالُ يُؤدَّى باللّسان وباليد، ويستدعي جوابًا؛ ناسبَ طبيعةَ سؤالِهم الّذي سألوه اللّهَ تعالى، وآتاهم منه وِفاقَ حِكمته.

العَدُّ والإحصاءُ:

العَدُّ إحصاءُ الشَّيءِ بعد ضَمِّ أعدادِه، والإحصاءُ تحصيلُه بالعدَد

العدُّ: إحصاءُ الشَّيء، وضَمُّ الأعدادِ بعضِها إلى بعض، من غير حفظٍ، قالَ تعالى: ﴿وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ٩٤﴾ [مريم: 94]. والعَدَدُ: مِقْدارُ ما يُعَدُّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾[3].

وأمّا الإحصاءُ: فيكونُ مع العَدّ الحِفْظُ والإحاطَةُ، وهو مُشتقٌّ من

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/237.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 287، والكفويّ، الكلّيّات: 3/16، 153، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 128.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (عدّ).

الحَصا اسْمًا للعدَد، ومُستعارٌ من الحَصَى، وهو صغارُ الحجارة، فالإحصاءُ هو التَّحصيلُ والضَّبطُ بالعدَد، قالَ تعالى: ﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ٢٨﴾ [الجنّ: 28][1]؛ وعلى هذا فمعنى قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ أي: إن تعدّوا نِعَمَ اللّهِ تعالى بِضَمّ بعضِها إلى بعض أعدادًا، لن تَقْدِروا على حفظها، ولا الإحاطةِ بها؛ إذ لا يَقْدِرُ على ذلك أحدٌ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (حصا).

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: 35]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيانُ كفرِهم بالنِّعمِ الخاصَّةِ بهم، بعدَما كفَروا بالنِّعمِ العامّةِ

لَمّا انْقضَى المأمورُ به من القولِ لكافرِ النِّعمة وشاكرِها، وسببِ ذلك والدّليلِ عليه، وبأنَّ اللّهَ خالقُ الموجوداتِ كلِّها وربُّها، فلا يصِحُّ أصلًا أن يكونَ شيءٌ منها شريكًا، أمرَ اللّهُ نبيَّه ﷺ أن يُذكِّرَهم بأيامِ اللّهِ عند أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، للدّلالةِ على تبديلِهمُ النِّعمةَ ظُلْمًا منهم وكُفرًا، في أسلوبٍ دالٍّ على البعث مُشيرٍ إلى وجوبِ براءتِهم منَ الأصنام، حيث كانَ محطَّ حالِهم فيها تقليدُ الآباء، ولَمّا كان إبراهيمُ عليه السلام أعظمَ آبائِهم، وأنَّه سَنَّ لهم إقامةَ الصَّلاةِ، وشُكرَهم لنِعَمِه بالإنفاق وغيرِه، قالَ ناعيًا عليهم عقوقَ أبيهم الأعظم: واذكرْ لهم مُذكِّرًا بأيامِ اللّهِ خبرَ إبراهيم، إذ قال: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ القَفْرَ الَّذي وضعتُ به ولدي بلدًا عظيمًا آمنًا، واصرفني وبنيَّ عن عبادةِ الأصنام[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامِنًا﴾: أصل الأَمْن: طُمأنينةُ النّفس وزوالُ الخوف، يُقال: أمِنْتُ الرَّجُلَ أَمْنًا وأَمَنةً وأمانًا، وبيتٌ آمِنٌ: ذو أَمْن، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [القَصَص: 57][2]، وكما هنا في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾؛ أيْ: ذا أَمْن[3].

2) ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾: (جنب): ابْتعدَ، وجَنَبْتُه عن كذا: أبْعدتُه،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (أمن).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/153.

والجُنُب: البَعيد، قال تعالى: ﴿وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ﴾ [النِّساء: 36]، ورَجُلٌ جَنِبٌ وجانِبٌ، قالَ ﷺ: ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ﴾ [النِّساء: 31]، وجنَّبَه الشَّيءَ تجنيبًا؛ أيْ: نحّاهُ عنه وجعلَه ناحيةً منه وجانبًا، وكذلك جنَّبتُه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النَّحل: 36]؛ أي: اترُكوه بالكلِّيَّة(1)، ومنه قولُه هنا: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾؛ أيْ: باعِدْني وباعِدْ بَنيَّ(2).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـوةُ إبراهيـمَ عليه السلام بالأمنِ لمكَّة، واجتنابِ عبادةِ الأصنامِ

يَذْكرُ اللّٰهُ تعالى في هذا المقام مُحتجًّا على مُشركي العرب بأنَّ البلدَ الحرامَ مكَّةَ إنَّما وُضِعتْ أوَّلَ ما وُضِعتْ على عبادةِ اللّٰهِ وَحْدَه لا شريكَ له، وأنَّ إبراهيمَ الَّذي كانتْ بسبَبه عامرةً آهلةً، تبَرَّأ ممَّن عبدَ غيرَ اللّٰه، ودعا لمكَّةَ بالأمن، وقدِ اسْتجابَ اللّٰهُ له فقالَ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ [العنكبوت: 67]. وقالَ سبحانه: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾ [آل عمران: 96 - 97]، ودعا لنَفْسِه ولبنيه أن يُجنِّبَهمُ اللّٰهُ عبادةَ الأصنام، الَّتي تَفْتِنُ النّاسَ وتُقْصيهم عنِ الإيمانِ باللّٰهِ، والعبوديَّةِ له لا لأحدٍ سواه(3).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ تلوينِ الخطابِ:

الإيمـاءُ بعقوقِ ذرِّيَّـةِ إبراهيـمَ عليه السلام من المشركين

غيَّرَ البيانُ القرآنيُّ أسلوبَ الامْتنانِ بذِكرِ النِّعمِ العامَّةِ للنّاس جميعًا، إلى أسلوبِ الحكايةِ عن إبراهيمَ عليه السلام؛ لإدْماجِ المشركين الَّذين كانوا يعتزّون ببُنُوَّتِهم له ويتفاخرون بها، وفي هذا إيحاءٌ لهم بأنَّهم خالفوا مَن يعتزّون به، فقد عبدوا الأصنامَ الَّتي كادَها لقومه،

(1) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جنب).

(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/153.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.

فجعلَهم جُذاذًا كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النَّحل: 120 - 121][1].

دَلالةُ الواوِ في ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾:

عَطفتِ الواوُ إهمالَ الشُّكرِ على تبديلِ النِّعمةِ بالكفرِ

عطفتِ الواوُ جملةَ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ على جملة: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، فإنَّهم كما بدَّلوا نعمةَ اللّهِ كُفرًا، أهمَلوا الشُّكرَ على ما بوَّأهُمُ اللّهُ منَ النِّعَمِ بإجابةِ دعوةِ أبيهم إبراهيمَ عليه السلام، وبدَّلوا اقْتداءَهم بسَلَفِهم الصّالحِ اقْتداءً بأسلافِهم من أهلِ الضَّلالة، وبدَّلوا دُعاءَ سَلَفِهم الصّالحِ لهم بالإنعامِ عليهم كُفرًا بمُفيضِ تلكَ النِّعم.

عَطفتِ الواوُ خُصوصَ النِّعمِ على عمومِها

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عَطفتْ جُملتَها على جملة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [إبراهيم: 32]، بأنِ انتقلَ مِن ذِكرِ النِّعمِ العامَّةِ للنّاسِ، الَّتي يدخلُ تحتَ مِنَّتِها أهلُ مكَّةَ بحُكمِ العمومِ، إلى ذِكرِ النِّعمِ الَّتي خَصَّ اللّهُ بها أهلَ مكَّة[2].

مُخالفةُ النَّبيِّ عقوقٌ يَستَحِقُّ الذَّمَّ

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عطفتْ جملتَها على ما تقدَّم في قولِه: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 31]، ناعيًا عليهم مع مخالفتِهم لصريحِ العقلِ وقاطعِ النَّقل، عقوقَ أبيهمِ الأعظمِ عليه السلام[3].

فائدةُ ﴿وَإِذْ﴾ وسِرُّ حَذْفِ مُتعلّقِها:

زيادةُ التَّعجيبِ مِن شأنِ المُشركين في كُفرِهم نِعمَةَ اللهِ، وعدمِ شُكرِها

﴿وَإِذْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ اسْمُ زمانٍ ماضٍ منصوبٌ على المفعوليَّةِ لفعلٍ محذوفٍ شائعِ الحذفِ في أمثالِه، تقديرُه: واذْكر (إذْ قالَ إبراهيمُ)، زيادةً في التَّعجيبِ مِن شأنِ المشركين الَّذي مَرَّ في قولِه تعالى: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا﴾ [إبراهيم: 28]، فمَوقِعُ العِبرةِ منَ الحالَيْنِ واحدٌ، وقد وردَ نظيرُ هذا التَّعلُّقِ في

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/424، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/424.

سياقاتٍ عديدةٍ، كقولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ وَزَادَكُمۡ فِي ٱلۡخَلۡقِ بَصۜۡطَةٗۖ﴾ [الأعراف: 69]. وقولِه تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [الأنفال: 26][1].

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ الدُّعاءِ بفعْلِ القولِ ماضيًا:

اتِّباعُ نهجِ التَّفصيلِ بالقول، وتَحَقُّقِ مضمونِه

في التَّعبيرِ بالقولِ دونَ الدُّعاء في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ﴾، التَّذكيرُ بما وقعَ في هذا الوقت؛ أيْ: وقتَ قولِه ﵇، من مقالاتِه على نهجِ التَّفصيل، والمرادُ بهذا القولِ: الإفصاحُ باللِّسانِ لتأكيدِ ما سلفَ من تعجيبِه ﵇، ببيانِ فَنٍّ آخر من جناياتِهم، حيثُ كفروا بالنِّعم العامَّة وعَصَوْا أباهم إبراهيمَ ﵇، فلم يشكروا النِّعم؛ بل فعلوا ما هو أدْهى وأمرُّ، وهو عبادةُ الأصنام. ولذلكَ جاءَ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي، فقد حصلَ منهم العصيانُ، وتحقَّقَ منهم الكُفرُ البَواحُ بعبادة غيرِ اللّهِ، الَّذي شرَّفَهم بإسكانِهم مكَّةَ، وجعلها مكانًا آمنًا لإقامةِ دينِ اللّهِ ورسالةِ أبيهم إبراهيمَ ﵇، لا لجحودِ تلك النِّعم واسْتبدالِ البلدِ الحرامِ بدارِ البَوار[2].

إيثارُ الدُّعاءِ بالرُّبوبيَّة ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ﴾:

تذكيرُ المشركين بما هُم به مؤمنون، ولكنَّهم بمقتضياتِه كافِرون

وردَ دعاءُ إبراهيمَ ﵇ بلفظِ الرُّبوبيَّة، دونَ الألوهيَّة (اللهمَّ)؛ لأنَّ المنافعَ الَّتي مَنَّ اللّهُ عليهم بها منَ الإسكان في مكَّةَ المُكرَّمة، مع ما أسبَغَهُ عليهم منَ النِّعمِ الظّاهرةِ والباطنة، كالأمن والأمانِ، والرِّزقِ الوفيرِ منَ الثَّمرات، وهَوِيِّ قلوبِ النّاسِ إليهم من كلِّ أوْبٍ سحيقٍ، هذا كلُّه من معاني الرُّبوبيَّة الَّتي كانوا يؤمنون بها، وفي ذلك تذكيرٌ لهم بما هُم به مؤمنون، وبما هم فيه يَرفُلونَ منَ النِّعَمِ الَّتي خلقَها اللّهُ لهم، وأفاضَ عليهم بها[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/266 - 267.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/50.

بَلاغةُ الحذْفِ في قولِه: ﴿رَبِّ﴾:

قولُه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ مُنادَى محذوفٌ منه حرفُ النِّداءِ وياءُ المتكلِّم، وأصلُه: (يا ربِّي)، والسِّرُّ البلاغيُّ في حذفِ (يا) النِّداء قبلَ ﴿رَبِّ﴾ المبالغةُ في تصويرِ قُربِ المُنادَى؛ إذ إنَّ معنَى الرَّبّ: الخالقُ والمُربِّي والسَّيِّدُ والمالك، وهو بهذه المعاني مِن شأنِه أنْ يكونَ قريبًا، لا يُحتاجُ في ندائه إلى وسائطَ، كما قالَ تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]، ثمَّ إنَّ كلمةَ ﴿رَبِّ﴾ أكثرُ استعمالًا من غيرِها في الدُّعاء، فَروعِيَ فيها مِن جهاتِ التَّخفيفِ ما يجعلُها أطوعَ في الألسنة، وأسهلَ في مجاري الحديث[1]. فحُذِفتْ ياءُ النِّداءِ قبلَها، وياءُ المتكلِّم بعدَها[2].

اللهُ تعالى أقربُ إلى المَرءِ مِن حبْلِ وَرِيدِه

إيثارُ استعمالِ الفعْلِ ﴿ٱجۡعَلۡ﴾:

الفعلُ (جعلَ) مِن أفعالِ التَّحويل فهو يقتضي تحويلَ الأمرِ من صفةٍ إلى صفةٍ أُخرى، أو من حالٍ إلى حال، وهنا - في السِّياق - اقْتضَى الفعلُ تحويلَ وتَصْييرَ البلدِ مِن بلدٍ غيرِ آمنٍ إلى بلدٍ آمنٍ تحويلًا كُليًّا، ولذلكَ نصبَ مفعولَيْن اثنَيْن؛ الأوَّل: ﴿ٱلۡبَلَدَ﴾، والثَّاني: ﴿ءَامِنًا﴾، وهذا يدلُّ على زيادةٍ وقوَّةٍ في المعنَى الواردِ في السِّياق، وهذا ما لا يُحَقِّقُه الفعلُ (أمِّن)، فلم يَقُلْ: (أمِّنْ هذا البلدَ).

تحويلُ البلدِ آمنًا كليًّا مقصدٌ عَاليٌّ ومَطلَبٌ سَنيٌّ

فائِدةُ اسْمِ الإشارةِ:

اسْمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾ هو اسمٌ معرفةٌ، يدلُّ على شيءٍ مُعيَّن تتمُّ الإشارةُ إليه، وجاء ذِكرُ اسْمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنًا﴾؛ للدّلالة على شيءٍ مُعيَّن تمَّتِ الإشارةُ إليه بإشارةٍ حِسِّيَّة، وهو في ذلك يُعَدُّ رمزًا للدّلالةِ والتَّعبيرِ عن أنَّ الَّذي غابَ عنِ الجملة نقصَ بغيابه

كمالُ العنايةِ بالمُشارِ إليه وتعظيمِه

---

(1) عبد العظيم المطعنيّ، خصائص التّعبير القرآنيّ وسماته البلاغيّة: 2/7 - 8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/238.

معناها، وأصبحتْ مُبهمةً، فوردَ اسمُ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هنا ليُشيرَ إلى شيءٍ لم يُذكرِ اسْمُه، ولكنَّه يُشيرُ بوصْفِه إلى كمالِ العنايةِ به وتعظيمِه، لرَفيعِ مَقامِه ومَنزلتِه(1).

نُكْتَةُ تعريفِ ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ هنا، وتنكيرِها في ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾:

التَّعريفُ لكلمة ﴿ٱلْبَلَدَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ للعَهْد؛ لأنَّه معهودُ الحضور، وجاءتْ حكايةُ دُعائِه بدون بيانِ البلدِ إبهامًا يَرِدُ بعدَه البيانُ، بقولِه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾، أو هو إحالةٌ على ما في علم العرب مِن أنَّه مكَّةٌ. والتَّنكيرُ في قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126] تنكيرُ النَّوعيَّة، فهنا قوله تعالى: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا﴾ دعا إبراهيمُ عليه السلام للبلدِ بأن يكونَ آمنًا؛ بأنْ يُخرجَه من صفةٍ كان عليها منَ الخَوْفِ إلى ضِدِّها منَ الأمن، كأنَّه قال: هو بَلَدٌ مَخوفٌ فاجعلْه آمنًا. وفي مقام التَّنكيرِ دعا لِمُشارٍ إليه أنْ يجعلَه اللهُ مِن نوعِ البلادِ الآمنةِ الَّتي يأمنُ أهلُها ولا يخافون، فمآلُ المُفادَيْن مُتَّحِدٌ(2).

دعـوةُ الأمـنِ بـالإخـراج مِـن صفةٍ كان عليها مِنَ الـخَـوْفِ إلى ضِدِّها

دَلالةُ عطْفِ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ دونَ غيرِه:

دلَّ عطفُ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾ على مناسبةِ جملتِه على ما سبقَها، فلمّا دعا بالأمنِ من فسادِ الأموالِ والأبدان، بقوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: 126]، أَتْبَعَه بالدُّعاءِ بالأمنِ من فسادِ الأديانِ، فقالَ: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾(3)، فالأمنُ والتّوحيدُ عِمادا العيشِ، وقِواما الحياةِ.

عـطْـفُ الأمـنِ الـدِّيـنـيِّ على الأمنِ الدُّنيويِّ

إيثارُ اسْتعمالِ لفظِ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾:

آثرَ السِّياقُ القرآنيُّ اسْتعمالَ لفظِ ﴿وَٱجْنُبْنِي﴾؛ لدَلالتِه على

---

(1) المراغيّ، علوم البلاغة، ص: 115.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/100.

(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.

الإبعادِ الكُلِّيِّ والصَّرفِ التّامِّ عن عبادةِ الأصنام، سواءٌ بصناعتِها، أو جَلْبِها، أو بيعِها وشرائها، أوِ السُّجودِ لها وطلبِ العونِ منها، وجميعِ ما يدخلُ تحت معنَى عبادتِها، وهذه المعاني لا يُحقِّقُها إلّا الفعلُ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾[1]، ويُرادُ باجْتنابِها هنا كذلك معنى: ثبِّتْنا وأدِمْنا على اجْتنابِ عبادتِها[2].

الابْتعادُ التّامُّ عن عبادةِ الأصنامِ، والثّباتُ على ذلك، مُنتهَى الاخلاصِ

نُكتةُ تخصيصِ الدّعاءِ، ثمّ تعميمِه:

معلومٌ أنَّ الأنبياءَ عليهم السلام لا يعبُدونَ الوَثَنَ أوِ الصَّنمَ ألْبتَّةَ، وبناءً عليه: فإنَّ تخصيصَ نفسِه عليه السلام بالدُّعاءِ في قولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ مُبتدئًا به بصيغةِ الإفراد، وإنْ كان يعلمُ أنَّه تعالى يَعْصِمُه من عبادةِ الأصنام، إلّا أنَّه ذكرَ ذلك هَضْمًا للنَّفْسِ، وإظهارًا للحاجةِ والفاقةِ إلى فضلِ اللّهِ في كلِّ المطالب، وهذا يقتضي إفراطَ خوفِه على نفسه عليه السلام ومَنْ تحمّلَ مسئوليّتَه.

إظهارُ الحاجةِ لعصْمةِ اللهِ لإبراهيمَ وبَنيه منَ الشِّركِ

ويمكنُ أن يكونَ المُرادُ هنا بقولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ العصمةَ منَ الشِّرك الخَفيِّ الَّذي فيه تعلُّقُ القلبِ بالوسائطِ والأسبابِ الظّاهرة. والتَّوحيدُ المحضُ هو أنْ ينقطعَ نَظَرُه عنِ الوسائط، ولا يَرَى مُتصرِّفًا سوى الحقِّ سبحانه وتعالى[3].

والفائدةُ في هذا الدُّعاءِ عَيْنُ الفائدةِ الَّتي تقدَّمتْ في قولِه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾، وحتَّى يَعُمَّ هذا الدُّعاءُ وتتحقَّقَ الفائدةُ منه له عليه السلام، ولبنيه من بَعْدِه[4].

إيثارُ اسْتعمالِ ﴿وَبَنِيَّ﴾ بدلًا مِن (ذُرِّيَّتي):

آثرَ السِّياقُ اسْتعمالَ ﴿وَبَنِيَّ﴾ دون (ذُرِّيَّتي) لأسبابٍ ثلاثة؛ الأوَّلُ: أنَّه أرادَ بَنيه مِن صُلْبه. والثّاني: أنَّه أرادَ أولادَه وأولادَ أولادِه؛ أيَ:

مِن مظاهرِ تكريمِ المؤمنين تخصيصُهم بالدّعاءِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/267 - 268.
(2) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/164، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/341، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/101.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/101.

مَنْ كانوا موجودين حالَ الدُّعاء، ولا شُبهة هنا في أنَّ دعوتَه مجابةٌ فيهم، ولذلك لم يَعْبُدْ أحدٌ مِن وَلَدِ إبراهيمَ ﷺ صَنَمًا. والثّالثُ: أنَّ هذا الدّعاءَ مختصٌّ بالمؤمنين مِن أولاده، والدَّليلُ عليه أنَّه قال في آخر الآية: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾، وأمّا لو قال: (ذُرِّيتي) فهذا يصدُقُ على جميع بَنيه، وليس الأمرُ كذلك، فإنَّ من بَنيه مَنْ عبدَ الأصنامَ، وهم مشركو مكَّةَ، فلم يكونوا في حقيقة الأمرِ مِن بنيه؛ لأنَّهم لم يتَّبعوه، ونظيرُه قولُه تعالى لنوحٍ ﷺ في ابنِه الكافر: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ [هود: 46][1].

بَراعةُ الانْسجامِ الصَّوتِّي: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ﴾:

دعـاءُ إبراهيـمَ ﷺ لِبَنيه ينسجِمُ والفطرةَ السّليمة، وقد ذُكِرَ تلميحًا وتصريحًا

يظهرُ مِنَ الحروفِ المشتركةِ بين اللَّفظَيْنِ ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ و﴿وَبَنِيَّ﴾، ما يُشبه الجناسَ غيرَ التامّ، فقد تماثلتِ الأحرفُ الثّلاثةُ: النّونُ والباءُ والياءُ، معَ اتِّحادِ مخارجِ كلٍّ منها على حِدة، ما يجعلُ نُطقَ هذَيْن اللَّفظَيْن يُجسِّدُ انسجامًا صوتيًّا بين الكلمات؛ للإشارة إلى دخول لفظِ ﴿وَبَنِيَّ﴾ في دعوة إبراهيمَ لنفسه ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾، وكأنّه دعا لبَنيه مرتيْن، أولاهما ضمْنَ ياء التّكلِّم، والأخرى بالتَّصريح، وهو ما هدفَ إليه السِّياقُ هنا في اسْتعمال ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾ و﴿وَبَنِيَّ﴾؛ إذ يتمُّ التَّوافقُ بينَهما، ويحدثُ شَدٌّ وجَذْبٌ، كلُّ واحدٍ منهما يحاولُ أن يُماثِلَ الآخَرَ وأن يكونَ مُعاضدًا له، فجاءَ التَّخصيصُ بالنَّفسِ في ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾، ولَحِقَ بهِ التَّعميمُ في ﴿وَبَنِيَّ﴾، مع استعمال نفسِ الحروفِ والأصواتِ التّابعةِ لها؛ ليتحقَّقَ بذلك التّماثلُ في الدُّعاء، وهو أن يُجَنِّبَ إبراهيمَ وبَنيه عبادةَ الأصنام[2].

عِلّةُ العُدولِ عنِ المصدرِ الصَّريحِ إلى المُؤوَّل:

احتماليَّةُ وقوعِ عبادةِ الأصنامِ

جاءَ التَّعبيرُ بالمصدرِ المُؤوَّلِ في قولِه تعالى: ﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/102.

(2) الشّايب، أثرُ القوانين الصّوتيّة في بناءِ الكلمة، ص: 67، وكمال بشر، علم الأصوات، ص: 119، وانتصار عثمان، القضايا الصّوتيّة والدّلاليّة في كتاب المحتسب، ص: 72 - 75.

دون المصدر الصَّريح: (عبادةَ الأصنام)؛ لأنَّ الحدَثَ هنا - كما يقتضيه السِّياقُ القرآنيُّ - قائمٌ بأركانه: الفاعلُ (المُسنَد إليه)، والحَدَثُ (المُسنَد)، وهو مرتبطٌ باحْتماليَّةِ الوقوع؛ أيْ: وقوعِ عبادةِ الأصنام، وقد كان مِن بنيه مَن عبدَ الأصنام، وهم مُشركو مَكَّة، وهذا أمرٌ غيبيٌّ لا يعلمُه إلّا اللّهُ تعالى على وجهِ اليقين، وليس لإبراهيمَ عليه السلام الجزمُ بوقوعِ الحَدثِ لا محالةَ، وهو عبادةُ الأصنامِ ممَّن يعيشُ مستقبلًا مِن بنيه في مكَّة[1].

نوعُ (ال) في ﴿ٱلۡأَصۡنَامَ﴾، ودلالتِها:

(ال) للعهـد، وهـي الأصنـامُ الَّتي عبدَها قومُ نوحٍ، أو لجنسِ الأصنامِ

(ال) في ﴿ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ للعهد؛ أيْ: أصنام قوم نوحٍ، وهي الَّتي وردَ ذِكْرُها في قولِه تعالى: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ [نوح: 23][2].

ويمكنُ أن تكونَ (ال) للجنس؛ أيْ: جميعُ الأصنام؛ أيْ: مَنْ يصدُق عليه أنّه صَنَمٌ، فإنَّ الصَّنَمَ: هو صورةٌ، أو حجارةٌ، أو بناءٌ يُتَّخذُ معبودًا ويُدْعَى إلهًا[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأمنُ والاطْمئنانُ:

الأمـنُ طُمأنينةُ الـنَّـفْـس، والاطْـمـئـنـانُ سكونُها بعد انْزعاجٍ

أصلُ الأمن: طُمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخَوْف، والأمْنُ والأمانةُ والأمانُ في الأصل مصادر. قالَ تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ [البقرة: 125]، وقولُه تعالى: ﴿أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا﴾ [آل عمران: 154]؛ أيْ: أمْنًا[4]. والطُّمأْنينةُ والاطْمِئنانُ: السُّكونُ بعدَ الانْزعاج، قالَ

(1) أحمد عبد السّلام، العدول عن المصدر الصّريح إلى المصدر المؤوّل في القرآن الكريم: حوليّات الآداب والعلوم الاجتماعيّة، العدد: 35، جامعة الكويت، وجلال الحمّادي، العدول في صيغ المشتقّات في القرآن الكريم، ص: 191.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/341، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.
(4) الرّاغب، المُفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (أمن).

تعالى: ﴿وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ﴾ [الأنفال: 10]، وقالَ سبحانَه: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧﴾ [الفجر: 27]، وهي ألّا تصيرَ أمّارةً بالسّوءِ. وقالَ تعالى: ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرّعد: 28]، واطْمأنَّ وتطامَنَ يتقاربانِ لفظًا ومعنًى(1). ولمّا كان العيشُ الرّغيد المُبتَغى في البلدان يناسِبُه طُمأنينةُ النَّفسِ وزوالُ الخوفِ الدّائمان، لا السّكونُ بعدَ الانزعاجِ العارضِ؛ اصطُفيَ لفظُ الأمنِ.

الاجتنابُ والتَّركُ:

الاجْـتـنـابُ التَّركُ بالكُلِّيَّة، والابتعادُ التّامُّ

الاجْتنابُ: الابتعادُ والتَّركُ بالكُلِّيَّة، وتجنيبُ الشَّيءِ: تنحيتُه وجَعْلُه في ناحيةٍ منه وجانبًا، قالَ ﷻ: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النّحل: 36]، وقالَ ﷻ: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾(2).

وتَرْكُ الشَّيءِ: رفضُه قَصْدًا واخْتيارًا، أو قهرًا واضطرارًا؛ فمنَ الأوَّلِ: ﴿وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ﴾ [الدُّخان: 24]، ومِنَ الثّاني: ﴿كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ٢٥﴾ [الدُّخان: 25]، وقد يُقالُ لكلِّ فعلٍ ينتهي به إلى حالةٍ ما: تركتُه كذا، أو يجري مجرَى جعلتُه كذا. والتَّركُ عند العربِ تخليفُ الشَّيءِ في المكانِ الَّذي هو فيه والانْصرافُ عنه، ولهذا يُسمّون بيضةَ النَّعامةِ إذا خرجَ فرخُها: تَريكة؛ لأنَّ النَّعامةَ تنصرفُ عنها، ومنه تَرِكةُ فلانٍ: لِما يَخْلُفُه بعدَ موتِه(3). ولمّا كان مقصدُ إبراهيمَ عليه السلام نبذَ عبادةِ الأصنامِ بالكُلّيّة، بوصْفِها أصلَ نواقضِ التّوحيد، اختِيرَ لفظُ الاجتناب.

---

(1) الرّاغب، المُفردات، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (طمن).

(2) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 1/342، والرّاغب، المُفردات: (جنب).

(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 124، والرّاغب، المُفردات: (ترك).

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم: 36]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدَّعوةُ بتجنيبِ عبادةِ الأصنامِ، بسببِ إضلالِها للنّاسِ

لَمّا ذكرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ دعوةَ إبراهيمَ عليه السلام بجعلِ مكَّةَ بلدًا آمنًا، وتَجنيبِ بنيهِ عبادةَ الأصنام، جاءَ في هذه الآيةِ مُعلِّلًا دعوتَه الأخيرةَ؛ بأنَّ الأصنامَ سببُ إضلالِ كثيرٍ منَ النّاس، فمَن تبعَه عليه السلام في دينِه واعتقادِه، فإنَّه مِن ملّتِه وأهلِ هديِه، ومَن عصاه في غيرِ الدِّينِ فإنَّ اللّهَ يغفرُ له، ويتوبُ عليه[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَضۡلَلۡنَ﴾: (ضلّ): الضّادُ واللّامُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على معنًى واحدٍ، وهو ضياعُ الشَّيءِ وذهابُه في غيرِ حَقِّه، يُقالُ: ضَلَّ يَضِلُّ وتضِلُّ، لُغتان، وكلُّ جائرٍ عنِ القَصْد ضالٌّ، والضَّلالُ والضَّلالةُ: العدولُ عنِ الطَّريق المستقيم، ويُضادُّه الهدايةُ، قالَ تعالى: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الإسراء: 15]، ورَجلٌ ضِلّيلٌ ومُضَلَّلٌ، إذا كانَ صاحبَ ضلالٍ وباطل، وممّا يدُلُّ على أنَّ أصلَ الضَّلالِ ما ذكرناه، قولُهم: أُضِلَّ المَيِّتُ، إذا دُفِن، وذاكَ كأنَّه شيءٌ ضاع، وكذلكَ كلُّ شيءٍ مُقيمٍ لا يُهتَدَى إليه. وقولُه: ﴿أَضۡلَلۡنَ﴾؛ أيْ: افْتُتِنوا بها، واغْترّوا بسببِها[2].

2) ﴿تَبِعَنِي﴾: (تبع): التّاءُ والباءُ والعَيْنُ أصلٌ واحدٌ، لا يَشِذُّ عنه منَ البابِ شيءٌ، وهو التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقال: تَبِعتُ فلانًا إذا تَلَوتَه واتَّبعتَه، وأتْبَعتُه إذا لحقتَه، والأصلُ واحدٌ، غيرَ أنَّهم فرَّقوا بينَ القَفْوِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ضلّ).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/379.

واللُّحوقِ، فغيَّروا البناءَ أدْنى تغيير، قالَ تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَ سَبَبًا ٨٥﴾ [الكهف: 85][1]. وقولُه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾؛ أيْ: تبعَ ديني، ولَحِقَ بمِلَّتي[2].

3) ﴿عَصَانِي﴾: (العَيْنُ والصّادُ والحرفُ المعتلُّ) أصلانِ صحيحان، إلّا أنَّهما مُتباينان، يدُلُّ أحدُهما على التَّجَمُّع، ويدُلُّ الآخَرُ على الفُرْقة. والأصلُ الثّاني هو ما عناه سياقُ الآية، وهو العِصْيانُ والمَعْصية، يُقالُ: عَصَى عصيانًا، وهو عاصٍ، إذا خرجَ عنِ الطّاعة، قالَ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121]. ويُقالُ فيمَن فارقَ الجماعة: "فُلانٌ شَقَّ العَصا"[3]. والعاصي: الفصيلُ إذا عَصَى أُمَّهُ في اتِّباعِها[4]. وقولُه تعالى: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾؛ أيْ: لم يُطِعْنِي فيما دونَ الشِّرك[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأصنامُ سببٌ لضَلالِ النّاس، والنَّجاةُ باتِّباعِ دينِ إبراهيمَ عليه السلام

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن نبيِّه إبراهيمَ عليه السلام أنَّه أَسْنَدَ الضَّلالَ للأصنام؛ لأنَّها كانت سببَ ضلالِ النّاسِ، فَمَن تبعَه على ما جاءَ به منَ التَّوحيدِ والإخلاصِ للّه ربِّ العالمين، فإنَّه مِن ملَّته وأهلِ دينِه، ومَنْ عصاه فإنَّ اللّهَ يَغْفرُ له ويرحمُه، فإنَّه سبحانه وتعالى رحيمٌ بعباده، لا يُعذِّبُ إلّا مَن كَفرَ به وتَمرَّدَ عليه[6].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ التّعبيرِ بـ﴿رَبِّ﴾ حذفًا وتَكرارًا، وإضافةً:

الـزِّيـادةُ في القُربِ إلى الله، والـرَّغـبـةُ في استجابةِ الدّعاءِ

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بالدُّعاءِ مع حَذْفِ أداتِه (يا)؛ زيادةً في التّقرّب بكونِه عليه السلام من أهلِ القُربِ والانْقطاعِ إليه سبحانه وتعالى، وجاءَ تكرارُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (تبع).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/153.
(3) الميدانيّ، مجمع الأمثال: 1/364.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (عصى).
(5) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/355.
(6) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375.

﴿رَبِّ﴾ بيانًا لزيادةِ الاهْتمامِ بأمرِ الأصنام، وإظهارًا لاعْتنائه به، ورغبةً في استجابته، ولإنشاء التّحسُّرِ على إضلالِها للنّاس.

وورَدَ قولُه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ بإفرادِ المُضاف إليه؛ ليكونَ الكلامُ الواحدُ على نظامٍ واحدٍ مع ما سبقَه(1).

دَلالةُ تصْديرِ الجُمَلِ مُؤكَّدةً بـ(إنَّ):

تأكيدُ تعليلِ دَعوةِ إبراهيمَ عليه السلام بإجْنابِه عبادةَ الأصنامِ

أفادَ حرفُ (إنَّ) الَّذي صُدِّرتْ به جملةُ: ﴿إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ التَّوكيدَ لما أفادَه حرفُ (إنَّ) في هذا المقامِ مِن معنَى التَّعليل؛ إذ جاءتْ جملتُه تعليلًا للدَّعوةِ بإجْنابِه عبادةَ الأصنامِ بأنَّها ضَلالٌ، راجَ بين كثيرٍ من النّاس، فَحَقَّ للمؤمنِ الضَّنينِ بإيمانِه أنْ يخشَى أن تجترفَه فتنتُها، فيقعَ في حبائلِها(2).

بَلاغةُ إسْنادِ الضَّلالِ إلى ضَميرِ الأصنامِ:

الإسنادُ للأصنامِ مجازيٌّ، فَضَلالُ النّاسِ بسببِها

إسنادُ الضَّلالِ إلى الأصنامِ بقولِه تعالى: ﴿إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ﴾ إسنادٌ مجازيٌّ علاقتُه السَّببيَّةُ؛ أيْ: ضلّوا بسببِها؛ لأنَّ الأصنامَ لا تعْقِلُ ولا تفعلُ شيئًا، فلمّا ضلَّ النّاسُ بسببِها صارتْ كأنَّها أضلَّتْهم، فنُسِبَ الفعلُ إليها، كما يُقالُ: فَتَنَتْهُمُ الدُّنيا وغرَّتْهم؛ أيْ: افْتُتِنوا بها واغْترّوا بسببِها(3).

فائِدةُ قولِه: ﴿كَثِيرٗا﴾:

رواجُ عبادةِ الأصنامِ بينَ الأعمِّ منَ النّاس

أفادَ قولُه تعالى: ﴿كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ بأنَّها ضلالٌ راجَ بينَ كثيرٍ من النّاس؛ أيْ: ضلَّ بهنَّ كثيرٌ من النّاسِ عن طريقِ الهُدى، حيثُ عَبَدوهُنّ، وهذا منَ المقلوب، ونظيرُه قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: 175]؛ أيْ: يُخوِّفُكم بأوليائِه(4).

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(3) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/164، والواحديّ، البسيط: 12/484، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.

(4) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 15/398 - 399، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

معنَى الفاءِ في: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾:

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ للتّفريع؛ أيْ: إنَّ تقسيمَ النّاسِ إلى مُتَّبعٍ لهَدْيِ إبراهيمَ عليه السلام، وعاصٍ له مُتفَرِّعٌ عمّا قبلَه مِن ضلال كثيرٍ منَ النّاس بسبب الأصنامِ.

النّاسُ بينَ مُتّبعٍ لإبراهيمَ عليه السلام أو عاصٍ له

نوعُ ﴿فَمَن﴾، ودَلالتُها:

﴿فَمَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَن تَبِعَنِي﴾ أداةُ شرطٍ جازمةٌ؛ أيْ: فمَنْ تَبعني منَ النّاسِ فتجنَّبَ عبادةَ الأصنامِ فهو منِّي، فدخلَ في ذلك أبوهُ وقومُه، ويدخُلُ فيه ذُرِّيَّتُه؛ لأنَّ الشَّرطَ يصلُحُ للماضي والمستقبلِ[1].

مَنِ اتَّبعَ دينَ إبراهيمَ عليه السلام فهو منه صلى الله عليه وسلم

إيثارُ لفْظِ ﴿تَبِعَنِي﴾ دونَ غيره:

آثرَ سياقُ الآيةِ اسْتعمالَ ﴿تَبِعَنِي﴾ دونَ غيرِه منَ الُمرادفات؛ لأنَّ الاتِّباعَ يعني: اللَّحوقَ والاقْتداءَ فيما أنا عليه منَ التَّوحيد الخالصِ للّه؛ أيْ: فصارَ حنيفًا مُسلمًا موحِّدًا مثلي[2].

الاصْطِباغُ الكاملُ بالتَّوحيد الخالِصِ لله تعالى

سِرُّ اسْتعمالِ الماضي ﴿تَبِعَنِي﴾:

جاءَ اسْتعمالُ الفعلِ الماضي ﴿تَبِعَنِي﴾؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ الاتِّباعِ، وتأكيدِ حصولِه منَ الُمتَّبِعِ لإبراهيمَ عليه السلام.

تحقُّقُ الاتِّباعِ لإبراهيمَ عليه السلام

بَلاغةُ التّعبيرِ بالفاءِ والتَّوكيدِ ﴿فَإِنَّهُۥ﴾:

(الفاءُ) في قولِه تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّي﴾ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، وأفادَت مع حرفِ التَّوكيدِ (إنَّ) قوَّةَ رَبْطِ جوابِ الشَّرطِ بفعلِه ﴿تَبِعَنِي﴾، فالاتّباعُ طريقُ هدايةٍ، وسبيلُ قُرْبٍ، واتّصالٌ موصِلٌ إلى الرّشادِ.

شِدَّةُ اتِّصالِ جوابِ الشَّرطِ بفعْلِه

سِرُّ الإخبارِ بالجارِّ والمجرورِ ﴿مِنِّي﴾:

(مِنْ) في قولِه تعالى: ﴿مِنِّي﴾ اتِّصاليَّةٌ، وأصلُها التَّبعيضُ المجازيُّ؛ أيْ: فإنَّه متَّصلٌ بي اتِّصالَ البعضِ بكلِّه، فأفادَ الإخبارُ بقولِه: ﴿مِنِّي﴾ شِدَّةَ اللُّصوقِ؛ أيْ: هو بعضي لفَرْطِ اخْتصاصِه بي،

المُتَّبعُ للنّبيِّ مُتّصِلٌ بهِ في شأنِ الدّينِ من غيرِ فِكاكٍ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/153.

ومُلابستِه لي، وفيه مُبالغةٌ منه عليه السلام في بيانِ اخْتصاصِه به، فهو مُتَّصلٌ بي لا ينفكُّ عنِّي في أمرِ الدِّين[1].

دَلالةُ عطْفِ جملةِ ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾:

التَّأدُّبُ في مقام الدُّعاءِ، والنَّفعُ للعُصاةِ

دَلَّ عَطْفُ قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ على ما قبلَها على عظيمِ التَّأدُّبِ في مقامِ الدُّعاء، وجميلِ النَّفعِ للعُصاةِ منَ النَّاسِ بقَدْرِ ما يستطيعُه، والمعنَى: ومَنْ عصاني أُفوِّضُ أمرَه إلى رحمتِك وغُفرانِك، وليس المقصودُ الدُّعاءَ بالمغفرةِ لمَن عَصَى، وهذا مِن غَلَبَةِ الحِلْمِ على نبيِّ اللّهِ إبراهيمَ عليه السلام وخَشية اسْتِئصال عُصاةِ ذُرِّيَّته، وسَوْقُ هذه الدَّعوةِ هنا للتَّعريضِ بالمشركينَ منَ العَرَبِ، بأنَّهم لم يَبَرّوا بأبيهم إبراهيمَ عليه السلام[2].

سِرُّ العُدولِ عن قولِه: (لم يتَّبعْني) إلى: ﴿عَصَانِي﴾:

الإيذانُ باستمرارِ دعوتِه عليه السلام، ومَن لم يتَّبعْه فهو العاصي

جاءَ التَّعبيرُ بالعِصْيانِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَنۡ عَصَانِي﴾ دونَ عدمِ الاتِّباعِ كقوله: (ومَنْ لم يتَّبعْني)؛ للإيذانِ بأنَّه عليه السلام مُستمرُّ الدَّعوةِ، وأنَّ عدمَ اتِّباعِ مَنْ لم يتَّبعْه إنَّما هو لعِصيانِه، لا لأنَّه لم يُبلِّغْه الدَّعوةَ[3].

جمالُ المقابلةِ في الآيةِ الكريمةِ:

أدبُ إبراهيمَ عليه السلام في دعائِه لمَن تَبِعَه ولمَن عصاه

لمّا ذَكَرَ خطابُ اللّهِ تعالى قولَ إبراهيمَ عليه السلام في صدرِ الآية: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾، تسبَّبَ بغضُ إبراهيمَ عليه السلام لتلك الأصنامِ في أن يأتيَ في دعائه على عَرْضِ صورتَيْن مُتقابلتيْن، وكلتاهما داخلتان في بيانِ صفةٍ عظيمةٍ تخلَّق بها نبيُّ اللّهِ إبراهيمُ عليه السلام، وهي صفةُ الحِلْمِ، مع عظيمِ أدبِه ورفيعِ خُلُقِه في مَقامِ دعائه للّهِ سبحانه وتعالى، ففي الصّورةِ الأولى: دعا بقولِه: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ﴾؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/239.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268.

أيْ: مِن مِلَّتي؛ لكونِه على طريقتي وديني، فآتِني ما وعدتَني فيه منَ الفوز، وفي الصّورةِ الثّانيةِ: دعا بقوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أيْ: فَضَلَّ عنِ اتبّاعي، فقدِ اسْتحقَّ النّارَ، لكن يا ربِّ إنْ عذَّبتَه فهو عبدُك، وإنْ غَفرتَ له فأنتَ أهلٌ لذلك؛ لأنَّ لك أن تفعل ما تشاء، فإنَّك بليغُ السّترِ، بليغُ الإكرامِ بعد سَتْرِ الذُّنوب، وأكَّدَ ذلك للإعلامِ بزيادةِ رغبتِه في العَفْو؛ لأنَّه لا ينقصُ به شيءٌ مِن عزَّتِه سبحانَه، ولا حِكمتِه[1].

رحمةُ نبيِّنا والأنبياءِ صلواتُ ربّي عليهم أُنموذَجُ حُنوٍّ مُتفرِّدٍ

وقد وردَ تأثُّرُ رسولِ اللّه ﷺ إثْرَ تلاوةِ هذه الآيةِ، كما روى ذلك عبدُ اللّه بنُ عمرو بنِ العاص رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ تلا قولَ إبراهيمَ عليه السلام: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وقولَ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ١١٨﴾ [المائدة: 118]، فرفعَ يَدَيْهِ ثمَّ بَكى، فقال: "اللهمّ أُمَّتي، اللهمّ أُمَّتي" وبكى، فقالَ اللّهُ جلَّ ثناؤه: يا جبريلُ اذهبْ إلى مُحمَّد - وربُّكَ أعلمُ - فاسْألهُ ما يُبكيه؟ فأتاهُ جبريلُ عليه السلام فسألَه، فأخبرَه رسولُ اللّهِ ﷺ ما قال، فقالَ اللّهُ تعالى: "يا جبريلُ اذْهبْ إلى مُحمَّدٍ ﷺ، فقلْ له: إنّا سنُرضيكَ في أُمَّتكَ ولا نَسوؤك"[2].

بيانُ مُناسبةِ فاصلةِ الآية لِسياقِها:

تَلطُّفُ إبراهيمَ عليه السلام في دعائِه للعاصين

يقوم سياقُ الآيةِ الكريمة على بيانِ إضلالِ الأصنامِ لِعُبّادها، وهو رأسُ المعاصي؛ لأنَّه كُفرٌ وشِرْك، ومنِ اتَّبعَ دينَ إبراهيمَ عليه السلام فهو منه، ومَنْ عصى إبراهيمَ بكُفرٍ أو معصيةٍ؛ فإنَّ اللّهَ يغفرُ لهما، وقد حَمَلَ إبراهيمَ عليه السلام على هذه العبارةِ ما كان يأخذُ نَفْسَه به منَ القولِ الجميلِ والنُّطقِ الحَسَنِ، وجميلِ الأدبِ معَ اللّهِ في دعائه، والتَّلطُّفِ مع عبادِ اللّهِ، حتَّى معَ العاصين منهم[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425 - 426.

(2) أخرجه مسلم في صحيحه، برقم: (202)، وابن جرير في جامع البيان: 13/229.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/445.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاتِّباعُ والطّاعةُ:

الاتِّباعُ: القَفْوُ واللُّحوق، وتبعتُ فلانًا إذا تَلَوْتَه واتَّبعتَه، وأَتْبَعْتُه إذا لحقتَه، كما في قولِه تعالى: ﴿فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: 43][1]. ولا يكونُ في الاتّباع إجبارٌ وإكراه. والطّاعةُ أصلُها من الطَّوْعِ الَّذي هو الانْقياد. والطّاعةُ تكونُ منَ الأَدْنَى للأعلى؛ لأنَّها في موافقةِ الإرادةِ الواقعةِ موقعَ المسألة، وهي إنَّما تقعُ رغبةً أو رَهْبةً[2]. فالطّاعة: تنفيذٌ لأمر الآمر (بالفعل أو التّرك)، محبّةً أو ذُلًّا، رغبةً أو رهبةً، إكراهًا أو رِضًى، أو ذلك كلَّه. ولمّا كانت عبادةُ اللّه امْتِثالًا، وانْقيادًا، وخُضوعًا من غير إجبارٍ؛ إذْ ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: 256]، ناسبَ اللّفظُ المُقيّدُ بهذا الشّرط، وهو لفظُ (الاتِّباع).

الاتِّـبـاعُ تُـلـوٌّ ولُـحـوقٌ، والطّاعةُ انْقيادٌ بِرَغبةٍ أو رَهْبةٍ

المعصيةُ والإعراضُ:

المعصيةُ والعِصيان؛ أصلٌ يدُلُّ على الفُرقة، يُقال: عصَى عِصْيانًا، وهو عاصٍ إذا خرج عنِ الطّاعة، وهذا الخروجُ قد يكونُ كُلِّيًّا بالكفر، وقد يكونُ جزئيًّا بالذُّنوب، كبيرِها وصغيرِها، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦﴾ [الأحزاب: 36]. وأَعْرَضَ: أظْهرَ عَرْضَه؛ أيَ: ناحِيَتَه، وأَعْرض عنِّي: وَلَّى مُبدِيًا عَرْضَه، قالَ تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]. ولمّا كان المقصودُ مِن لفظ العصيان الخروجَ الكُلّيَّ عنِ الطاعة بالكُفر بسبب إضلالِ الأصنام، اختِيرَ لفظُ (عصاني) دون (أعرض عنّي).

المعصيةُ الخروجُ عـنِ الـطّـاعـةِ كُلّيًّا أو جُزئيًّا، والإعراضُ التَّولّي والابْـتـعـادُ عنِ الشَّيءِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (تبع).

(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 335، والكفويّ، الكلِّيّات: 3/155، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 145.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ دَرْءِ المفاسدِ ناسبَ الدُّعاءُ بجلْبِ المصالحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّة

لَمّا دعا إبراهيمُ عليه السلام بدَرْءِ المفاسدِ النّاشئةِ مِن نوعَيِ الإنسانِ والشَّيطانِ بأمنِ البَلَدِ وإيمانِه، ذكرَ السَّببَ الحاملَ له على تخصيصِه بذلكَ، مُستجلبًا للمصالحِ مع إعلامِه بأنَّه راغبٌ فيه، لقولِه: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾، ولَمّا نَفَى عنه الرِّفدَ الدُّنيويَّ أثبتَ له الأُخرويَّ، إشارةً إلى أنَّ الدّارَيْن ضَرَّتانِ لا تجتمعان، فقالَ: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ الَّذي حرَّمْتَ التَّعرُّضَ له، ومنعْتَه بالْهَيْبةِ فلا يَملِكُه أحدٌ سواك، وذلكَ ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ما أسكَنْتَهم في هذا الوادي؛ لأنَّ أَوْلَى النّاس بإقامةِ الصَّلاةِ حاضِرو البيتِ المُتوجّهون بها إليه، واجعلْ يا ربِّ أفئدةَ النّاسِ مشتاقةً إليه، تقصدُه مُسرعةً نحوه. ولَمّا دعا لهم بالدِّين، دَعا لهم بالرِّزقِ المُتضمِّن للدُّعاءِ لجيرانِهم، فقال: وارزقْهم على يدِ مَن يَهْوي إليهم منَ الثَّمراتِ الَّتي أنْبتَّها في بلادِهم؛ ليكونَ حالُهم حالَ مَن يُرْجَى شُكْرُهم لما يرَوْن مِن نِعَمِك في هذا المكانِ البعيدِ عن الفضلِ لولا عنايتُك، فيشتغلوا بعبادتِك؛ لإغْنائِكَ لهم وإحسانِك إليهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذُرِّيَّتِي﴾: (ذرّ): الذّالُ والرّاءُ المشدَّدةُ أصلٌ واحدٌ يدُلُّ على لطافةٍ وانْتشار، ومن ذلك: الذَّرُّ: صِغارُ النَّملِ، الواحدةُ ذَرَّة.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428.

ومنه: الذُّرِّيَّةُ، قالَ تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ﴾ [البقرة: 124]. وذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: وَلَدُه، والجمعُ: الذَّراريّ، والذُّرِّيّات[1]، وهو المُرادُ هنا في قولِه تعالى: ﴿أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾[2].

2) ﴿بِوَادٍ﴾: وَدى يَدي وَدْيًا، وأوْدَى الرَّجُلُ: هَلَكَ، فهو مودٍ، والوادي: الموضعُ الَّذي يسيلُ فيه الماء، ومنه: سُمِّيَ المَفرَجُ بينَ الجبالِ والتِّلالِ والآكامِ واديًا، وجمعُه أَوْدِية، نحو: نادٍ وأَنْدِيةٌ، ويُستعارُ الوادي للطَّريقةِ، كالمذهبِ والأسلوب، فيُقال: فلانٌ في وادٍ غيرِ واديك، قالَ تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ٢٢٥﴾ [الشُّعراء: 225] فإنَّه يعني: أساليبَ الكلامِ مِنَ المدحِ والهجاءِ والجَدَلِ والغَزَل، وغيرِ ذلكَ مِنَ الأنواع[3]. وقالَ تعالى: ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرَّعد: 17][4]. وقولُه هنا: ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ هو وادي مكَّة[5].

3) ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾: (حرم): الحاءُ والرّاءُ والميمُ أصلٌ واحد، وهو المنعُ والتَّشديد. فالحرامُ ضِدُّ الحلال، قال تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ﴾ [الأنبياء: 95][6]. والحُرمةُ: ما لا يَحِلُّ انْتهاكُه، قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 30]. وقولُه تعالى: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾؛ أيِ: المُحرَّمِ مِن اسْتحلالِ حُرُماتِ اللّهِ فيه، والاسْتخفافِ بحقِّه[7].

4) ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾: (فأد): الفاءُ والألفُ والدّالُ، أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارة، مِن ذلك: فَأَدتُ اللَّحم: شَوَيتُه، ومن هذا الباب: الفُؤاد، سُمِّيَ بذلك لحرارتِه، والفَأْدُ: مصدرُ فَأَدْتُه، إذا أصبتَ فؤادَه. والفؤادُ: كالقلب، يقالُ له فؤادٌ إذا اعتُبِرَ فيه معنى التَّفؤُّد، أي: التَّوقُّد، قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ١١﴾ [النَّجم: 11][8]. وقولُه تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾؛ أيْ: قلوبًا مُتوقِّدةً بالشَّوق[9].

5) ﴿تَهۡوِيٓ﴾: (هوي): الهاءُ والواوُ والياءُ: أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خُلوٍّ وسقوط، أصلُه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (ذرّ).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(3) الفيروزاباديّ، البصائر: 5/192.
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (ودى).
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المُحيط: (حرم).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 13/233.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد).
(9) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.

الهواءُ بينَ الأرضِ والسَّماء، سُمِّيَ لخُلوِّه[1]، ويُقالُ هَوَى الشَّيءُ يَهْوي: هويًّا إذا سقطَ مِن عُلْوٍ إلى سُفْل[2]. قالَ تعالى: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [الحجّ: 31]. وهوَى يَهوِي: يُريد، كما تقولُ: رأيتُ فلانًا يَهْوي نحوَك، معناه: ينحطُّ إليكَ وينحدِرُ ويَنْزِل[3]. وقولُه هنا: ﴿أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أيْ: تَحِنُّ وتُسرِعُ لزيارةِ بيتِك[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

صِـدقُ التّـوكّـل عـلى الـلّـهِ مع صَلاحِ النِّيَّةِ

هذا دعاءٌ ثانٍ بعد الدُّعاءِ الأوَّلِ الَّذي دَعا به إبراهيمُ عليه السلام عندما ولَّى عن هاجرَ وولدِها، وذلك قبلَ بناءِ البيت، وهذا كانَ بعدَ بنائه تأكيدًا ورغبةً إلى اللّهِ ﷻ، ولهذا قالَ: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾؛ أيْ: قالَ عليه السلام مُتضرِّعًا مُتوكِّلًا على ربِّه: إنِّي أسكنْتُ بعضَ ذُرِّيَّتي - وهم إسماعيلُ وذرِّيتُه - في أرضِ مكَّةَ، وهي وادٍ ليس فيه ماءٌ ولا يَنْبُتُ فيه زَرعٌ، فاجْعلْهُم ربَّنا موحِّدينَ مُقيمينَ الصَّلاةَ، واجْعلْ قلوبًا منَ النّاسِ تُحبُّهم، وتُحبُّ الموضعَ الّذي هم ساكنون فيه، وارْزُقْهم منَ الثَّمراتِ والأرزاقِ الّتي تتوالَى إليه من كلِّ جانب، ما يجعلُهم شاكرين لك لِما أسْبغتَه عليهم من تلكَ النِّعم[5].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾، وسِرُّ افْتتاحِها بالنِّداء وتكرُّرِه:

تَكرارُ الدّعاءِ مَعَ التّضرّعِ مَظِنّةُ الإجابةِ

جملةُ: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ مُستأنفةٌ لابتداءِ دعاءٍ آخرَ، وافْتُتِحتْ بالنِّداءِ لزيادةِ التَّضرُّع، أمَلًا بإجابة دعائه عليه السلام[6]، وكُرِّرَ النِّداءُ رغبةً في الإجابة، وإظهارًا للتَّذلُّلِ والالْتجاءِ إلى اللّه تعالى[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (هوي).
(2) الأزهريّ، تهذيبُ اللُّغة: 4/3813، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى).
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78.
(4) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/367، والخازن، لُباب التّأويل: 3/41.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/295، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 375 - 376.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240.
(7) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/446.

بَلاغةُ حذفِ حرفِ النّداء: ﴿رَّبَّنَآ﴾:

لم يُصَدَّرْ قولُه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ﴾ بـ (يا) النِّداءِ قبلَه؛ للمبالغةِ في تصويرِ قُربِ المُنادَى، وهو المُربِّي والسّيِّدُ والمُدبِّرُ لأمورِ عباده، وهو بهذه المعاني وغيرِها مِن معاني الرُّبوبيَّة قريبٌ ﷻ، لا يحتاجُ في ندائه إلى وسائطَ.

الـرَّبُّ أقـربُ إلى نـفـوسِ عـبـادِه منهم

سِرُّ العُدولِ إلى الجمْعِ: ﴿رَّبَّنَآ﴾:

أُضيفَ (ربّ) في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ إلى ضميرِ الجمعِ خلافًا لسابِقَيْه؛ لأنَّ الدُّعاءَ الَّذي افْتُتِحَ به، فيه حظٌّ للدّاعي ولأبنائه، ولعلَّ إسماعيلَ عليه السلام حاضرٌ معه حين الدُّعاء، كما يدُلُّ له ما تقدَّمَ في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ﴾ [البقرة: 127] إلى قولِه تعالى: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128][1]. وما أورده بقوله: ﴿رَّبَّنَآ﴾ هو بصدَدِ تمهيدِ مبادي إجابتِه، من قولِه: ﴿إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ﴾ متعلِّقٌ بذرِّيَّته، فالتَّعرُّضُ لوصْفِ ربوبيَّته تعالى لهم أَدْخَلُ في القَبولِ وإجابةِ المسؤول[2].

الدُّعاءُ للعُمومِ بقصْدِ تحقُّقِ الإجابةِ

دَلالةُ التّصديرِ بأداةِ التَّوكيدِ ﴿إِنِّيٓ﴾:

صُدِّرتِ الجملةُ بأداةِ التَّوكيد ﴿إِنِّيٓ﴾ تأكيدًا لنداءٍ سابقٍ، وفي ذلكَ ضربٌ منَ الرَّبطِ بينَ الجُمَلِ المُفتَتَحةِ بالنِّداء، وهو ربطُ المِثْلِ بمِثْلِه[3].

تأكيدُ النِّداءِ ورَبْطُ المِثْلِ بمِثلِه

إيثارُ لفْظِ ﴿أَسۡكَنتُ﴾ ماضيًا:

آثَرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ السَّكَن؛ لأنَّ السَّكَنَ نِعمةٌ منَ اللّهِ تعالى، تدلُّ على نعمةِ الأمانِ الَّتي دَعا بها إبراهيمُ عليه السلام ربَّه، بقولِه: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا﴾، والسَّكَنُ بفعلِه ﴿أَسۡكَنتُ﴾ يدلُّ على تحقُّقِ

نِعمتا الأمانِ والسَّكينةِ مُتحقِّقتانِ بنِعمةِ السَّكَنِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240 - 241.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/268.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/240.

نعمةِ الإقامةِ الدّائمةِ في المكانِ الَّذي نزلَ فيه إبراهيمُ وزوجُه وابنُه، فكأنَّ إبراهيمَ ﷺ قالَ: (ربِّ أدِمْ عليهم السَّكَنَ في هذا المكانِ مع السَّكينةِ في قلوبِهم، والطُّمأنينةِ والأمْنِ في حياتِهم)(1).

السَّكَنُ المُعدُّ هو من المُتاحِ في وقتِه

والتَّعبيرُ بلفظِ السّكَن، وإسنادُ الفعلِ إلى إبراهيمَ نفسِه ﷺ في قولِه: ﴿أَسۡكَنتُ﴾ يحتمل أنَّه أعَدَّ لهم سَكَنًا ممّا هو متاحٌ له في هذا المكان، كالبيوت الخفيفة المُتَنقِّلةِ الّتي تخضع لظروف البوادي من مكان إلى آخرَ مثلِ الخيامِ، ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النّحل: 80]، وهذا معنًى حقيقيٌّ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿أَسۡكَنتُ﴾:

القَصْدُ كَرَمُ اللهِ بإنعامِه عليه وعلى ذُرّيّتِه

يحتملُ أنَّ إبراهيمَ ﷺ وضع زوجَه وابنَهُ في هذا المكان القَفْر، ومعهما شيءٌ من التّمْر والماء، وعَبَّر عن وضعِهما بالسُّكنَى على سبيلِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ، والغرضُ منها: الرّجاءُ في كَرَمِ اللّهِ به وبذُرِّيَّته بناءً على أمرِ اللّهِ له بذلك.

معنَى ﴿مِن﴾ ودَلالةُ دُخولِها على: ﴿ذُرِّيَّتِي﴾:

المُـرادُ بعضُ الذّرّيّةِ

حرفُ الجرِّ ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾ تُفيدُ التَّبعيضَ، كما في قولِه تعالى: ﴿أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ [الأعراف: 50]، وذلك كَمَن يقول: قد أصَبْنا من بني فلان، وقَتَلْنا من بني فلان، وإن لم يَقُلْ: رجالًا؛ لأنَّ ﴿مِن﴾ تؤدّي عن بعضِ القوم، فيكونُ المُرادُ: بعضَ ذرِّيَّتي(2)؛ إذ كان ابنُه الآخرُ وهو إسحاقُ يعيش في موطن غيرِ هذا الموطن، فإسماعيل الّذي أسكنَه في هذا الوادي هو بعضُ ذُرّيّته،

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/103.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78.

لا كلَّ ذُرّيّتِه(1). ويجوزُ أن يُقال: إنَّ ﴿مِن﴾ دخلتْ لتوكيدِ الكلام، والتَّقديرُ: (ربَّنا إنِّي أسكَنْتُ ذُرِّيَّتي)(2)، وكون ﴿مِن﴾ للتَّبعيض أَوْلى؛ لأنَّه إنَّما أَسْكَنَ إسماعيلَ، وهو بعضُ وَلَدِه(3).

إيثارُ لفْظِ الذّرّيّة، وإضافتُه إلى المُتكلِّم:

كَثرةُ نَسْلِ إبراهيمَ عليه السلام ورغبتُه فيه

في لفظِ الذُّرِّيَّة إيحاءٌ إلى أنَّ نَسْلَ إبراهيمَ عليه السلام سيكثُر حتَّى يكونَ كالنُّجوم، وأكَّدَ ذلك بإضافته إلى ياء المتكلِّم؛ تنبيهًا على أنَّه لكونِه على وجهٍ لا يسمحُ به أحدٌ، لا يكادُ يُصدَّق، وللإعلام بأنَّه عليه السلام راغبٌ فيه(4).

سِرُّ إيثارِ الباءِ على (في): ﴿بِوَادٍ﴾:

ذُرّيّةُ إبراهيمَ عليه السلام مُنْتمون للوادي

الباءُ في قولِه تعالى: ﴿بِوَادٍ﴾ مَزيدةٌ للتَّأكيد؛ أيْ: أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتي واديًا(5)، ويمكنُ أن تكونَ الباءُ بمعنَى (في)؛ أيْ: في وادٍ، لكنَّ السِّياق لم يأتِ بـ (في) مع أنَّها هي الَّتي تتبادرُ إلى الذِّهن، وأوردَ الباءَ الّتي تُفيد الإلصاق للدّلالةِ على استقرار ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ عليه السلام في هذا الوادي المبارك وانتمائِهم إليه؛ لكونِه مأنوسًا خصيبًا بنفحاتِ اللّه، محفوفًا برحمته ورضوانه، مُشَرّفًا بأن يكون وِعاءً حاملًا لبيت اللّه تعالى(6).

إيثارُ الوادي دونَ غيرِه منَ المرادفاتِ:

الوادي مَكّةُ، وهي مُنخفضٌ بينَ الجبالِ

جاء لفظُ ﴿بِوَادٍ﴾ دونَ غيره؛ لأنَّ الواديَ هنا هو مَكَّةُ المُشرَّفةُ؛ لكونِها في فضاءٍ مُنخفِضٍ بين جبالٍ تجري بهِ السُّيولُ(7).

نُكْتَةُ وَصْفِ الوادي: ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾:

نفيُ المُسَبَّبِ لانتفاءِ السَّببِ

وَصْفُ الوادي في قولِه تعالى بأنّه: ﴿غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ يعني أنَّه لا

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/192.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/487، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/366.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/426.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/223، والأخفش، معاني القرآن: 2/636.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/192.
(7) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3865، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/426.

يكونُ فيه شيءٌ مِن زرعٍ قطّ، كقولِه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزُّمر: 28]، بمعنى: لا يوجدُ فيه اعْوجاجٌ، ما فيه إلّا الاستقامةُ لا غير[1]. وهذه الصِّفة للوادي تدلُّ على أنَّه لا يصلُحُ للنَّبت؛ لأنَّه حِجارة، فإنَّ كلمة (ذو) تدلُّ على صاحبِ ما أُضيفت إليه، وتَمَكُّنِه منه، وإذا أُريد ضِدُّها قيل: غيرُ ذي كذا[2]. وانتفاءُ كونِه ذا زَرْعٍ مُستلزِمٌ لانْتفاءِ الماءِ الَّذي لا يمكنُ أن يوجدَ زرعٌ إلّا حيث وُجِدَ الماءُ، فنَفى ما يتسبَّبُ عنِ الماءِ وهو الزَّرعُ، لانْتفاءِ سببِه وهو الماءُ[3].

إنّ الله لا يُضيّع أولياءه

ويمكنُ أن يقتضيَ هذا الوصفُ: أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قد عَلِمَ منَ اللّهِ أنَّه لا يُضيِّعُ هاجرَ وابْنَها في ذلك الوادي، وأنَّه يَرزقُهما الماءَ، وإنَّما نظرَ النَّظَرَ البعيدَ فقال: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾، ولو لم يَعْلَم ذلكَ منَ اللّهِ لقال: غيرَ ذي ماءٍ، على ما كانَتْ عليه حالُ الوادي عند ذلك[4].

سِرُّ التَّقييدِ في: ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾:

البيتُ مُحرَّمٌ، وهو في وادٍ غيرِ ذي زرعٍ، مِن قَبْلِ بناءِ إبراهيمَ له

جاءَ القيدُ بقولِه تعالى: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ بعد قولِه: ﴿غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾؛ لبيانِ أنَّ هذا البيتَ المُحرَّمَ كان قبلَ أن يَرفعَه إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ منَ الأرضِ حتَّى رفعَه أيامَ الطّوفان؛ لأنَّ إسكانَ إبراهيمَ إسماعيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مكَّةَ كان قبلَ بنائهما البيتَ، وقد كانت كذلك غيرَ ذاتِ زَرْعٍ[5].

ويمكنُ أن يُرادَ أنَّ قولَه: ﴿عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾؛ أيْ: الَّذي قد مضَى في سابقِ علمِك أنَّه يحدُثُ في هذا الوادي على صفتِه الَّتي وردَ بها[6].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/446.
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/341.
(5) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/488.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 13/233، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/366.

فائِدةُ إضافةِ ﴿بَيۡتِكَ﴾ إلى الجليلِ:

جاءتْ إضافةُ ﴿بَيۡتِكَ﴾ إلى ضميرِ المَدْعوِّ ﷻ، في قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ﴾، والتّعريفُ بالإضافة دونَ (ال)؛ لبيانِ أنَّ المقصودَ إظهارُ كونِ ذلك البيتِ والإسكانِ فيه مع فُقدانِ مباديه بالمرَّة، لِمحضِ التَّقرُّبِ إلى اللّهِ تعالى، والالْتجاءِ إلى جوارِه الكريم، وإيذانًا بأنَّ عَظَمَةَ هذا البيتِ من عَظَمةِ اللّهِ ﷻ، الَّذي أمرَ إبراهيمَ وإسماعيلَ برفعِ قواعدِ البيتِ وبنائِه[1].

عَظَمةُ البيتِ من عَظَمةِ اللهِ ﷻ

إيثارُ صيغةِ المفعول ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾:

جاءت صيغةُ المفعول ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾؛ لبيانِ أنَّه قد حُرِّم التَّعرُّضُ له والتَّهاونُ به، أو لم يزلْ مُعظَّمًا مُمَنَّعًا، يهابُه الجبابرةُ في كلِّ عصر، ولا تنالُه الأيدي بما يُفسدُه أو يَضُرُّ أهلَه، أو مُنِعَ منه الطّوفانُ فلم يستولِ عليه، ولذلك سُمِّيَ عتيقًا، فعُنْوانُ الحُرمةِ فيه قديمٌ، مع تَعدُّدِ بناءِ الكعبةِ المعظَّمة[2].

البيتُ عتيقٌ في حُرمةِ التّهاونِ به وإفْسادِه

فإيثارُ صيغةِ اسم المفعول ﴿ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ على الصِّفة المشَبَّهة (الحرام) مناسبٌ لإضافة البيت إلى ضمير المخاطب ﴿بَيۡتِكَ﴾؛ لأنّ المفعول مُشْعِرٌ بالفاعل؛ أي: الّذي حَرَّمْتَه، فكأنَّه استجداءُ عطاءٍ من خلال الدّعاء. وسُمّي بالبيت المُحَرَّم: لأنَّ اللّه حرَّمه وعَظَّمه، وحَرَّم القتالَ والاصطيادَ عنده، ولا يختار أحدٌ مثلَ هذا المَوْضعِ إلّا للانقطاع للعبادة والتّبتُّلِ إلى اللّه تعالى، والتَّبرُّك به[3].

سِرُّ توسُّطِ الدُّعاء بقوله: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ﴾:

توسَّطَ الدُّعاءُ بقولِه: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ﴾ بينَ ما تَقدَّمه وبين ما أعْقبَه؛ للاهْتمامِ بمقدِّمةِ الدُّعاءِ بما فيه من زيادةِ الضَّراعة إلى

الاهــتــمــامُ بمقدِّمةِ الدُّعاءِ، وتـفـريـعُـه لما بَعْدَه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.

(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.

اللّه، وتَهْيئةِ الدّعاءِ لهم بأن يجعلَ أفئدةً منَ النّاسِ تَهوي إليهم؛ لأنَّ هِمَّةَ الصّالحين وشُغلَهم في إقامةِ الدِّين[1].

دَلالةُ اللّامِ في: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾:

علّةُ الإسكانِ إقامةُ الصّلاة والعبادةِ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ للتَّعليل؛ أيّ: علَّةُ الإسكان بذلك الوادي عندَ ذلك البيت، أنْ لا يَشْغلَهم عن إقامةِ الصَّلاةِ في ذلك البيت شاغلٌ، فيكونَ البيتُ معمورًا بذِكرِ اللّه وعبادته أبدًا[2]. ففي قوله تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ﴾ إثباتٌ بأنّ الإقامة عنده عبادةٌ، وقد نفى كونَها للكسب؛ فجاء الحصرُ مع ما في ﴿رَّبَّنَآ﴾ منَ الإشارة إلى أنّ ذلك هو المقصودُ[3].

البلاغةُ في قولِه: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾:

الصّلاةُ عمودُ الدّين، وركنُه المتين

قولُه تعالى: ﴿لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تخصيصٌ للصَّلاةِ من بين سائرِ شعائرِ الدِّين لفضلها، ولإظهارِ كمالِ العنايةِ بإقامةِ الصَّلاة، وأنَّها المقصدُ الأقْصى والمطلبُ الأسْنَى[4]، ولأنّها عمودُ الدّين.

دَلالةُ الفاءِ في: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾:

الفاءُ تمهيدٌ لإجابةِ الدُّعاءِ، بجَعلِ أفئدةِ ناسٍ تَهوي إليهم

في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾ الفاءُ رابطةٌ لجواب الطَّلب، فهي لتمهيدِ مبادئِ إجابةِ دعائِه ﷺ، وإعطاءِ مسؤولِه الَّذي لا يتسنَّى ذلكَ المرامُ إلّا به[5].

سِرُّ تنكير ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾:

المقصودُ بعضُ الأفئدةِ

نُكِّرَتْ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾ لتتناولَ أفئدةَ ناسٍ غير معلومين، مِن مختلف الأصقاع والأعراق، بلحاظ البَعضيّة وليس الكلّيّة[6].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/224.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380.

سِرُّ اسْتعمالِ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾:

القلوبُ المُشتاقةُ المُحِـبَّـةُ تُـسْـرِعُ لأجْلِهِم

الأفئدةُ: جمع فؤاد، وهو القلبُ، أو وسطُ القلب، وإيثارُه على القُلوب؛ لكون مَقرِّ المحبّة وسطَها، وأيْضًا يُشْعِر ذلك بتمام المَوَدّة، وكمالِ المحبّة[1]، بما يحملُه لفظُ الفُؤاد من معنى التّفَؤُّد؛ أي: التّوقّد، يُقال: فأدتُ اللّحمَ؛ أيْ: شَويتُه، ولَحْمٌ فئيد؛ أيْ: مشوي[2]، ومنه معنى الاحتراق شوقًا. أو المرادُ به هنا النَّفسُ والعقلُ. وأورد لفظَ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾ في السِّياقِ لإرادةِ أن يكونَ مَسيرُ النّاسِ إليهم عن شوقٍ ومحبَّةٍ، حتَّى كأنَّ المُسرِعَ هو الفُؤادُ لا الجَسدُ[3]. وميلُ القلوب إلى المكان مع جفاف مائه، وصعوبة أرضه، وارتفاعِ جباله الصّمّاء الّتي لا تُكسى بخُضرةٍ قط[4]، أمرٌ محطُّ إعجازٍ، ومثارُ تأمُّلٍ لِمَن يتدبّرُه.

فائِدةُ قيْدِ ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾:

إمّا أن تكونَ من بيانيَّةً، وإمّا أن تكونَ تبعيضيَّةً

جاءَ قولُه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ لبيانِ أنَّ تلكَ الأفئدةَ منَ النّاس، فتكونُ ﴿مِّنَ﴾ بيانيَّةً؛ أيْ: فاجعلْ أُناسًا يَقْصِدونَهم بحبّاتِ قلوبهم[5]. ويمكنُ أن تكونَ ﴿مِّنَ﴾ للتَّبعيض؛ أيْ: أفئدةً مِن أفئدةِ النّاس، فلو قال: أفئدةَ النّاسِ لازْدحمتْ عليهم فارسُ والرّوم[6]؛ إذِ الجمعُ المُضافُ إلى المُحلَّى باللّام يُفيد الاسْتغْراق[7].

بَلاغةُ الاستعارةِ التّصريحيّةِ ﴿تَهۡوِيٓ﴾:

الأفئدةُ تُسرعُ في القصْدِ إليهم

هَوَى يَهْوي هوِيًّا: إذا سقطَ مِن عُلْوٍ إلى سُفْل[8]، وأُطلِق هنا على الإسراعِ في المشيِ اسْتعارةً تصريحيَّةً[9]؛ إذ شُبّه الإسراعُ بالهويّ،

(1) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (فأد)، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/225.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4039.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/241.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/269.
(7) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/86.
(8) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3813، والجوهريّ، الصّحاح: (هوى).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/242.

بجامع الاندفاع بقوَّة في كلٍّ، فالأفئدةُ تُسرعُ إليهم كأنَّها تسقطُ سقوطًا بانْحدارٍ ونزولٍ؛ لشدَّةِ إسراعِها[1]، ويرسّخ ذلك معنَى اللّفظِ المُستَنبَط مِن "هوتِ النّاقةُ: إذا أسرعتْ في سيرها إسراعًا شديدًا، كأنّها تُسابق الرّيحَ"[2].

سِرُّ تعْدِيةِ ﴿تَهۡوِيٓ﴾ بـ (إلى):

أفئدةُ المؤمنين تَهوي شوقًا إلى البيتِ العتيقِ

عُدِّيَ الفعلُ ﴿تَهۡوِيٓ﴾ بـ (إلى)، وأصلُ تعديتِه باللّام؛ لِتضمُّنِه معنَى الشَّوقِ والنُّزوعِ والميلِ، فكأنَّ الأفئدةَ تطيرُ نحوَهم شوقًا ونِزاعًا[3]؛ فإنَّ الشَّيءَ كلَّما بَعُدَ مَدى مَرْماه اشْتدَّ وَقْعُه، وهَفَتِ القلوبُ إليه مُسرعةً[4].

دَلالةُ عطْفِ جملةِ: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

الدُّعاءُ بالدُّنيا بعدَ الدُّعاءِ بالدِّين

لَمّا دعا لهم إبراهيمُ ﷺ بالدِّين؛ بإقامةِ الصَّلاةِ وحجِّ البيت، دعا لهم بالرِّزقِ المُتضمِّنِ للدُّعاءِ لجيرانِهم، فقال: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ على يدِ مَنْ يهوي إليهم، منَ الثَّمراتِ الَّتي أنبتَها اللّهُ في بلادهم.

معنَى حرفِ الجرِّ في: ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

القصدُ إيصالُ بعضِ الثّمراتِ

﴿مِّنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بيانيَّةٌ، ويمكنُ أن تكونَ تبعيضيَّةً، وذلك يَدلُّ على أنَّ المطلوبَ بالدُّعاءِ إيصالُ بعضِ الثَّمراتِ إليهم[5].

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾:

جبايةُ جميعِ الثَّمراتِ مِن جميعِ الأقطارِ

صُدِّرتِ ﴿ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ بـ (ال) الَّتي تُفيدُ جِنْسَ الثَّمراتِ كُلِّها بأنواعِها المختلفة، بأن يُجعلَ بقربٍ منه قُرًى يحصُلُ فيها ذلك، أو يُجْبَى إليه منَ الأقطارِ الشّاسعةِ بالتِّجاراتِ وغيرِها، وقد حصلَ كلاهما، حتَّى إنَّه تجتمع فيه الفواكهُ الرَّبيعيَّةُ والصّيفيَّةُ في يومٍ واحدٍ[6].

(1) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 4/368، والخازن، لباب التّأويل: 3/83.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4039.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/270.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/427 - 428.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/380، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.

نُكتةُ عدمِ شرطِ الرّزقِ بالإيمانِ:

أُكتُفِيَ بإقامةِ الصّلاةِ عن ذِكْرِ المؤمنين

في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ إنّما لم يَخصّ إبراهيمُ عليه السلام المؤمنينَ بالدّعاء، كما خصَّهم في قوله: ﴿وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ [البقرة: 126]؛ اكتفاءً بذِكْر إقامةِ الصّلاة[1].

دَلالةُ (لعلَّ) في: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾:

رجاءُ شُكْرِهم بتوحيدِ اللهِ واسْتمرارِهم عليه

في قولِه تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾؛ أيّ: ليكونَ حالُهم حالَ مَن يُرجَى شُكرُهم، لِما يَرَوْنَ من نِعَمِك الخارقةِ للعوائد، في ذلك الموضعِ البعيدِ عنِ الفضلِ لولا عنايتُك، فيشكرونَك ربَّنا بالفعلِ لا بمُجرَّدِ القولِ.

وَجهُ التّعبيرِ بالشُّكرِ في: ﴿شَكَرۡتُمۡ﴾:

الشُّكْرُ مقابلةُ النِّعمةِ بالإحسانِ، وتعظيمُ المُنعِمِ بصَرفِ نِعْمَتِه إلى ما يُرضيه

الشُّكْرُ: امتلاءُ النّفس بالإحساس بالنّعمة، واندفاعُها إلى الطّاعة والخضوعِ، والقيامُ بحَقّ المُنعِم، ومقابلةُ الفضلِ والنّعمة بالإحسان في الطّاعة والواجباتِ، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7]، فالشُّكرُ يكون على النّعمةِ، وبالمثابرة على الطّاعة والعبادة[2]. وعليه يكونُ الشُّكرُ: تعظيمَ المُنعِم بصرف نِعمتِه إلى ما يُرضيه[3].

سِرُّ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾:

بالشُّكرِ تدومُ النِّعَمُ، ويُستَدامُ الكَرَمُ

أفادت صيغةُ المضارع ﴿يَشۡكُرُونَ﴾ أنَّهم يشتغلون بعبادتك، مُداومين عليها مُستمرِّينَ في شكرِهم لكَ؛ لإغنائكَ لهم وإحسانِكَ إليهم، وديمومةِ نِعَمكَ عليهم في دينهم ودنياهم، وللإيماء إلى جدارة الشّكر بالتّجديد. وفيه تذكيرٌ لقريشٍ بهذه النِّعم عليهم ببركةِ أبيهمُ الأعظم إبراهيمَ عليه السلام، الَّذي نهى عن عبادةِ الأوثان، وحقيقةُ الشُّكرِ قائمةٌ على التَّوحيدِ الخالصِ للّهِ وحدَه لا شريكَ له[4].

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/226.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/56.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/148.
(4) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/490، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428.

❁ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الذُّرّيّةُ، والأهلُ، والأولادُ:

الـذُّرّيّـةُ والـولـدُ يَـشـتـركـان في النَّجْلِ والنَّسْلِ، والأهــلُ أعـمُّ منهما

ذُرِّيَّةُ الرَّجُلِ: ولَدُه ونَسْلُه، والجمعُ: الذَّراري والذُّرِّيّات. والأهلُ يكون مِن جهةِ النَّسب والاخْتصاص، فمِن جهةِ النَّسبِ قولُك: أهلُ الرَّجلِ لقرابتِه الأدْنَيْن، ومن جهةِ الاخْتصاصِ قولُك: أهلُ البَصْرةِ وأهلُ العلم[1]. فالأهلُ أوسعُ دَلالةً منَ الذُّرِّيَّة، فأهلُ الرَّجل: مَن يَجْمَعُه وإيّاهم مَسْكنٌ واحد، ثمَّ سُمِّي به مَنْ يَجْمَعُه وإيّاهم نَسَبٌ أو دِينٌ أو صَنعةٌ أو نحوُ ذلك. ويُطلَقُ (الأهلُ) كذلك على زوجةِ الرَّجلِ خاصَّة؛ لأنَّها المرادُ في عُرفِ اللِّسان[2]. والأولادُ: جمعُ وَلَد، والوَلَدُ: دليلُ النَّجْلِ والنَّسْل، ثمَّ يُقاسُ عليه غيرُه، من ذلكَ (الوَلَد)، وهو للواحدِ والجميع، ويُقالُ للواحد: وُلْدٌ أيضًا، والوَليدةُ: الأُنْثى، والجمعُ: وَلائد، وتولَّدَ الشَّيْءُ عنِ الشَّيْءِ: حصلَ عنه[3]. واختِيرَ لفظُ الذّرّيّة في الآية؛ لأنّ مقصودَ النّبيّ ابراهيمَ عليه السلام: ولدُه، ونسلُه.

الوادي والأرضُ:

الــوادي جُــزءٌ مـنَ الأرضِ بين جَبَلَيْن

الوادي: الموضعُ الَّذي يسيلُ فيه الماءُ، والمَفْرَج بينَ الجبالِ والتِّلالِ والآكام، وجمعُه: أوْدية. والأرضُ: الجِرْمُ المُقابلُ للسَّماء، وجمعُه: أرَضون، ولم تجئ مجموعةً في القرآن، ويُعبَّرُ بها عن أسفلِ الشَّيء، كما يعبَّرُ بالسَّماءِ عن أعلاه[4]. ويُقالُ: أرضٌ أريضةٌ؛ أيْ: حَسَنةُ النَّباتِ[5]. ولأنّ مكّة كانت في أرضٍ منخفضةٍ واقعةً بينَ الجبال؛ اختِيرَ ما يناسبُها، مِن لفظٍ دالٍّ على الخصوص، وهو الوادي، دونَ اللّفظ الدّالِّ على العموم، وهو لفظُ (الأرض).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (ذرّ).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 84، والكفويّ، الكلِّيّات، ص: 210.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، اللِّسان: (ولد).
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (أرض).
(5) الخليل، العين: 7/55، وابن فارس، المجمل: 2/92.

الحَرامُ والُمحَرَّم:

الحرامُ: المَنعُ والتَّشديدُ، وهو ضِدُّ الحلال، قال تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ﴾ [الأعراف: 157]، وهو صفةٌ مُشبَّهةٌ تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام. والُمحَرَّمُ: اسمُ مفعولٍ يدلُّ على مجرَّدِ الحدوث لِما هو مُحَرَّمٌ، مِن اسْتحلالِ حُرُماتِ اللهِ والاسْتهانةِ بها، كما قال تعالى: ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾، فيَدُلُّ على أنَّ الحُرمةَ مُتجدِّدةٌ فيه بتَجَدُّدِ الفعل، وصيغتُه تُفيدُ الصَّيرورةَ؛ أي: اللهُ تعالى صيَّرَه حرامًا[1]. ومِن هنا فهي أنسبُ لسياقِ الآيةِ بما تحملُه مِن دلالة دوامِ الحُرْمةِ.

الحَـرامُ صفةٌ مُشبَّهةٌ تُفيدُ الثُّبوتَ، والُمحَرَّمُ اسْمُ مفعولٍ يدلُّ على التَّجدُّدِ

الأفئدةُ والقلوبُ:

لم يُفَرِّقْ بعضُ أهلِ اللُّغةِ بينَهما؛ بل عرَّفوا كُلًّا منهما بالآخر، إذ قالوا: إنَّ الفؤادَ كالقلب، لكنَّ بعضَهم أضافَ فقال: يُقال للقلبِ فؤادٌ إذا اعْتُبِرَ فيه معنَى التَّفؤُّدِ؛ أي: التَّوقُّد، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾؛ أيِ: قلوبًا متوقِّدةً بالشَّوق، ذلك أنَّ الفؤادَ مِنَ الفعلِ (فَأَدَ)، وهو يدلُّ على حُمَّى وشِدَّةِ حرارةٍ[2]، فالأفئدةُ توصَفُ بالرِّقَّة، والقلوبُ باللِّين؛ لأنَّ الفؤادَ غِشاءُ القلب، إذا رَقَّ نفَذَ القولُ فيه وخلُصَ إلى ما وراءَه وعلِقَ به، وإذا غَلُظَ تعذَّر وصولُه إلى داخله، كما قال تعالى عنِ الكافرين: ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179][3]. ولمّا كان الشّوقُ إلى بيت اللهِ الحرام مُتّقدًا في نفوس المسلمين في كلّ حين، ويتحرّقون شوقًا لها، ناسب اصطفاءُ لفظِ ﴿أَفۡـِٔدَةٗ﴾.

الأفــئـــدةُ هي القلوبُ المتَّقِدَةُ بالحُبِّ والشَّوقِ

الهويّ، والميلُ، والإسْراع:

الهوِيُّ: السُّقوط، يُقالُ: هَوَى الشَّيْءُ يَهْوِي هوِيًّا: إذا سقط

الـهـوِيُّ سقوطٌ مـع الإســـراعِ الشَّديدِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، الُمفردات: (حرم).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، الُمفردات: (فأد).
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 433، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 189، ولامنس، الفرائد، ص: 263.

مِن عُلْوٍ إلى سُفْل، كما قالَ تعالى: ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحجّ: 31]. وفي (الهويِّ) معنَى الانْحدارِ والنُّزولِ مع الإسراعِ الشَّديدِ[1].

والمَيْلُ: مصدرٌ مِن: مالَ يَميلُ مَيْلًا، ويُستعمَلُ فيما يُرى وفيما لا يُرى، مثل أن يُقالُ: مالَ فلانٌ، ومالَ الحائطُ مَيْلًا، والمَيْلُ يكونُ في جانبٍ واحد، يُقال: مالَ عنِ الحقِّ، ومالَ عليه في الظُّلم[2].

والسُّرعةُ: ضِدُّ البُطء، ويُستعمَلُ في الأجسامِ والأفعال، يُقالُ: سَرُعَ، فهو سريعٌ، وأسْرعَ فهو مُسْرِعٌ، وأسْرَعوا: صارتْ إبِلُهُمْ سِراعًا، قالَ تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]، وقالَ ﷻ: ﴿يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43][3].

ولمّا كان لفظُ (الهويّ) إسراعًا بجامعِ الاندفاعِ بقوَّة، فالأفئدةُ تُسرِعُ إليهم كأنَّها تسقطُ سقوطًا بانْحدارٍ ونزولٍ لشِدَّةِ إسراعِها، وهذا المعنى يناسبُ دلالةَ لفظِ (الهوِيّ).

الشُّكرُ والحَمْدُ:

مـآلُ الشُّكرِ الزِّيادةُ، وهو تعظيمُ المُنعِمِ بتَحرّي مواضعِ الرّضا المصروفةِ عن نِعمِه

بين الشُّكرِ والحمدِ اختلافٌ وتلاقٍ في معنى الإحساس بالنّعمة والقيامِ بحقّها، وما يجب بالنّسبة للمُنعِم، ولكنّهما يختلفان في القيامِ بحَقّ المُنعِم، فالقيامُ بحَقّ المُنعِمِ في الشّكر بالطّاعة والعملِ، وجعلِ الجوارحِ كلِّها في طاعة اللّه تعالى، والخضوعِ المُطلق للّه تعالى في كلّ شأن من شؤونه، وحالٍ من أحواله.

والقيامُ بحقّ المُنعِمِ في الحَمْد بالثّناء على اللّه تعالى ثناءً مطلقًا كاملًا، مع تَذَكّر نَعمائِه، وتَذَكّرِ ما يحيطه مِنَ الوجود كلِّه. والحمدُ ذاتُه عبادةٌ.

(1) الفرّاء، معاني القرآن: 2/78، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: 4/3813.
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 269، 526.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سرع).

فالشّكرُ يكون على النّعمةِ وبالمُثابرة على الطّاعة والعبادةِ[1]، فهو تعظيمُ المُنعِم بصرف نعمتِه إلى ما يرضيه[2]، ولمّا كان مآلُ الشُّكر الزّيادةَ، وتعظيمَ المُنعِم بتحرّي مواضع الرّضا المصروفة عن نِعمه، كان حَرِيًّا بأفعال الأنبياء وذراريهم تمثُّله قولًا وفعلا، والدّوامُ عليه.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 1/56.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/148.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اللهُ الَّذي تفضَّلَ على عبادِه بِنِعَمِ الدِّينِ والدُّنيا، أحاطَ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعلْمًا

لَمّا فرغَ سياقُ الآيةِ السّابقةِ منَ الدُّعاءِ بالأهمِّ، منَ الإبقاءِ على الفطرةِ الأولى المُشوِّقةِ للعزائمِ إلى العكوفِ في دارةِ الأُنْس، ومِنَ الكفايةِ لهمُ في المعاش، المُنْتِجِ للشُّكرِ بإنْفاقِ الفضْل، وتبيَّنَ مِن ذلك أنَّهم خالَفوا أعْظمَ آبائهم في جميعِ ما قصدَه لهم منَ المصالح، أتْبعَه في هذه الآيةِ الكريمةِ ما يحثُّ على الإخلاصِ في ذلك وغيرِه، له ولغيرِه؛ ليكونَ أنْجحَ للمُرادِ بضمانِ الإسْعاد، ولا سيَّما مع تكريرِ النِّداءِ الدّالِّ على مزيدِ التَّضرُّع، فقال: ربَّنا أيُّها المُحْسنُ إلينا إنَّكَ تعلمُ جميعَ ما نُخفي وما نُعلن، فأنتَ الَّذي أحطْتَ بكلِّ شيءٍ قُدرةً وعِلمًا وحِكْمةً[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُخۡفِي﴾: خَفِيَ الشَّيءُ خُفْيةً: اسْتَتَرَ، قالَ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: 55]. والخَفاءُ: ما يُستَرُ به كالغطاء، وخَفَيْتَه: إذا أزلْتَ خفاه، وذلك إذا أظْهَرْتَه، وأخْفيتَه: أوليتَه خفاءً، وذلك إذا سَتَرْتَه[2]. وقولُه تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ أي: ما نَسْتُرُ ونكتُمُ مِن جميعِ أمورِنا[3].

2) ﴿نُعۡلِنُۗ﴾: (علن): العَيْنُ واللّامُ والنّونُ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إظْهارِ الشَّيءِ والإشارةِ إليه وظُهورِه، يُقالُ: عَلَنَ الأمرُ يَعْلُنُ،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/428 - 429.
(2) ابن فارس، المُجمل: 2/297، والرّاغب، المُفردات: (خفى).
(3) البغويّ، معالم التّنزيل: 4/357، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.

وأعلَنْتُه أنا. والعلانيةُ: ضدُّ السِّرِّ، وأكثَرُ ما يُقالُ ذلكَ في المعاني دونَ الأعيان، قال تعالى: ﴿أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ٩﴾ [نوح: 9][1]. وقولُه تعالى: ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾؛ أيْ: ما نُظهِرُه[2].

المَعْنى الإجْماليّ:

قد أحاطَ اللهُ بكلِّ شيءٍ علْمًا

يقولُ تعالى مُخبرًا عن إبراهيمَ خليلِه عليه السلام، أنَّه قال: ربَّنا إنَّك تعلمُ الأشياءَ كلَّها، ظاهرَها وباطنَها، لا يَخفى عليكَ منها شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، فأنتَ قَصْدي في دعائي، وما أرَدْتُ بدعائي لأهلِ هذا البلدِ، إنَّما هو القَصْدُ إلى رضاكَ والإخلاصُ لك[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بُلاغةُ الفَذْلَكَةِ في ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ﴾:

التّعبيرُ خلاصةُ ما قد ذُكِرَ بالتّفصيلِ

في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ الآية، فَذْلَكةٌ للجُمَل الماضية، بذِكْر مُجملِ ما فُصّل وخُلاصتِه؛ لِما اشتملت عليه مِن ذِكْر ضلال كثيرٍ منَ النّاس، وذِكْر مَنِ اتّبع دعوته ومَن عصاه، وذِكْر أنّه أراد من إسكان أبنائِه بمَكّة رجاءَ أن يكونوا حُرّاسَ بيت اللّه، وأن يُقيموا الصّلاة، وأن يشكروا النّعَم المَسؤولةَ لهم. وفيه: تعليمٌ لأهله وأتباعه بعموم عِلْم اللّه تعالى، حتّى يُراقبوه في جميع الأحوال، ويُخلِصوا النّيّةَ إليه[4].

فائِدةُ حَذْفِ حرْفِ النّداءِ: ﴿رَبَّنَآ﴾:

زيادةُ التّقرُّبِ إلى الله، والأملُ في إجابةِ الدُّعاء

جاءَ النَّداءُ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾ محذوفَ الأداةِ (يا)؛ زيادةً في تقرّب إبراهيمَ عليه السلام، فهو من أهلِ القُرْبِ والانْقطاعِ إلى خالقهِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (علن).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/154.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/27، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/242.

ومولاه، وأمَلًا في اسْتجابةِ دعائه[1]. وفيه: أنَّ مقصِدَ إبراهيمَ عليه السلام التَّنبيهُ على اخْتصارِه في الدُّعاء، والتفويضُ إلى ما عَلِمَ اللّهُ من رغائبِه، وحرصُه على هدايةِ بنيه والرِّفقِ بهم[2].

بَلاغةُ تَكرارِ النّداءِ ﴿رَبَّنَآ﴾:

إبـداءُ الضّراعةِ واللّجوءُ إلى الله تعالى، وإظهارُ جليلِ علْمِه

تكرُّرُ النِّداءِ بـ﴿رَبَّنَآ﴾ دليلُ التَّذرُّعِ واللَّجأِ إلى اللّهِ تعالى، وإظهارِ جليلِ علمِ اللّهِ بكلِّ شيءٍ[3]، والمبالغةِ في إبْداء الضّراعةِ والابتهالِ[4].

سِرّ الإضافةِ إلى ضمير التّعظيم (نا):

عِلْمُ الله تعالى مُطْلَقٌ لا يتفاوَتُ فيه معلومٌ دونَ معلومٍ

عُبِّر بضمير الجماعة (نا) في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ﴾؛ لأنّ المُراد ليس مُجرّدَ علمِه تعالى بما يَخْفَى وما يُعْلَن، بل بجميع خفايا المُلك والملكوت، وقد حَقّقه عليه السلام بقوله على وجه الاعتراض: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ لِما أنّ علمَه تعالى ذاتيٌّ، فلا يتفاوتُ بالنّسبة إليه معلومٌ دونَ معلومٍ[5].

عِلَّةُ تصْدير ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ﴾ بالتَّوكيد:

تـأكيـدُ إحـاطـةِ عِـلْـمِ الـلـهِ بكلِّ شيءٍ

صُدِّرَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ﴾ بحرف (إنَّ)؛ لتأكيدِ أنَّ عِلْمَ اللّهِ عامٌّ فيما يُخفونَهُ وما يُعلِنونَه، عِلْمٌ لا تفاوتَ فيه ما بينَ السِّرِّ والعَلَن[6].

إيثارُ صيغةِ المضارع: ﴿تَعۡلَمُ﴾:

اسْـتـمـرارُ عـلْـمِ اللهِ بكلِّ شيء

جاءت صيغةُ المضارع ﴿تَعۡلَمُ﴾ للدّلالةِ على اسْتمرارِ عِلْمِ اللّهِ بكلِّ شيء، وديمومةِ هذا العِلْمِ دونَما انقطاعٍ، ما امتدَّ الزّمنُ وتقلّبت الأحوالُ، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ﴾ [الأعراف: 89].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/342.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/227.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/227.
(6) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/449.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

المُبالغةُ في سَعَةِ علم الله

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾، اسمٌ موصولٌ بمعنَى (الَّذي)، يُشير إلى الإبهام؛ أيْ: جميعُ ما نُخْفي وما نُعْلِن(1)؛ فتعلمُ الَّذي نُخفيه، دِقّه وجِلّه، فكيف بما نُعْلِنُه؛ وفي ذلك مبالغةٌ في بيانِ عِلْمِ اللّهِ بكلِّ شيء.

دَلالةُ الطِّباقِ ﴿مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾:

تأكيدُ شُمولِ عِلْمِ اللهِ لكلِّ شيءٍ

دَلَّ الطِّباقُ في قولِه تعالى: ﴿مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾ على تأكيدِ شُمولِ عِلْمِه تعالى وكمالِه، وقد أضفَى هذا المُحَسِّنُ البَديعيُّ على التَّعبيرِ جمالًا ورَوعةً؛ لعدمِ تكلُّفه، ولاستدعاءِ المعنَى له بأسلوبٍ سَهْلٍ واضحٍ، وفي هذه المقابلة؛ أيْ: بما نُخْفي ما يُقابلُ ما نُعلنُ، سواءٌ تعلَّقَ به الإخفاءُ أوْ لا؛ أيْ: تعلمُ ما نُظهرُه وما لا نُظهرُه، فإنَّ عِلْمَه تعالى مُتعلِّقٌ بما لا يَخطُرُ بالبالِ، ممّا فيه منَ الأحوالِ الخَفيَّة، فضلًا عن إخفائِه(2).

نُكْتَةُ تقديمِ ﴿مَا نُخۡفِي﴾ على ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾:

تحقيقُ المُساواةِ في عِلْمِ اللهِ بيْنَ السِّرِّ والعَلَنِ

جاء تقديمُ ﴿مَا نُخۡفِي﴾ على ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾؛ لتحقيقِ المُساواةِ بينَهما في تعلُّقِ العِلْمِ بهما على أبْلغِ وجه، فكأنَّ تعلُّقَه بما يَخْفَى أقْدمُ منه بما يُعْلَن، أو لأنَّ مرتبةَ السِّرِّ والخَفاءِ مُتقدِّمةٌ على مرتبةِ العَلَن؛ إذْ ما من شيءٍ يُعلَنُ إلّا وهو قبلَ ذلك خَفيٌّ، فتَعلُّقُ عِلْمِه سبحانَه بحالتِه الأولى أقدمُ من تعلُّقِه بحالتِه الثّانية(3).

فائِدةُ ذِكْرِ قولِه: ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾:

تأكيدُ علمِه تعالى بما خَفِيَ قبلَ ظُهورِه

في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾، تأكيدُ علمِه تعالى بما خَفِيَ، فإنَّ العَلَنَ ما ظَهرَ إلّا بعد أن كانَ مَخْفيًّا، وفي ذلك مبالغةٌ في بيانِ جليلِ عِلْمِه وسَعَتِه(4).

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/192.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.

دَلالةُ الواوِ في: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾:

تأكيدُ أنَّ عِلْمَ اللهِ ليس فيه أيُّ خفاءٍ

جاءَ العطفُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾؛ تأكيدًا وتحقيقًا لما عَناهُ تعالى بقولِه: ﴿تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي﴾ مِن أنَّ عِلْمَه ﷻ بذلك ليس على وجهٍ يكونُ فيه شائبةُ خفاءٍ بالنِّسبةِ إلى علْمِه تعالى، كما يكونُ ذلكَ بالنِّسبةِ إلى علومِ المخلوقاتِ[1].

فائِدةُ التَّذييلِ في الآيَة:

اللهُ تعالى علّامُ الغيوبِ لا يَعزُبُ عنه شَيءٌ

ذُيِّلَتِ الآيةُ الكريمةُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ اللّه يعلمُ أحوالَنا ويعلمُ كلَّ شيءٍ، وفيه كذلك تصديقٌ لإبراهيمَ عليه السلام، كقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ٣٤﴾ [النّمل: 34]، أو هو مِن كلامِ إبراهيم، يعني: وما يَخفَى على اللّهِ - الَّذي هو عالمُ الغيبِ - من شيءٍ في كلِّ مكانٍ[2].

إيثارُ النَّفي بـ ﴿وَمَا﴾ دون (لا):

كمالُ عِلْمِ اللهِ بكلِّ شيءٍ وفي جميعِ الأحوالِ

آثَرَ سياقُ الآيةِ النَّفيَ بـ ﴿وَمَا﴾ دون (لا) في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ﴾؛ لأنَّ (ما) تنفي الفعلَ المضارعَ في الحال، وهي نفيٌ لقولِه: هو يفعلُ، إذا كان في حالِ الفعل، فتقولُ: ما يفعلُ، فهي تخلِّصُ المضارعَ للحال. و(لا) تنفي المضارعَ في الاسْتقبال، فتكونُ نفيًا لقوله: يفعلُ، ولم يقعِ الفعل، فتقولُ: لا يفعلُ، فهي تخلِّصُ المضارعَ للاسْتقبال[3].

وتطبيقُ هذا هنا في سياقِ الآيةِ لبيانِ أنَّ ما مِن أمرٍ يدخُلُ تحتَ الوجودِ كائنًا ما كانَ، في زمانٍ من الأزمانِ، إلّا ووجودُه في ذاتِه عِلْمٌ بالنِّسبةِ إليه سبحانه وتعالى، وفي هذا المعنَى الدَّقيقِ تحقيقٌ لكمالِ عِلْمِه تعالى في كلِّ شيءٍ، في جميعِ الأحوال، دون أنْ تكتنفَه شائبةُ خفاءٍ[4].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/105.

(3) سيبويه، الكتاب: 4/221 - 222.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.

نُكْتَةُ الالْتفاتِ مِنَ الخطابِ إلى الغَيْبةِ مع ذكرِ لفْظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّـهِ﴾:

الإيـذانُ بعموم عـلْـمِ الـلـهِ، صاحبِ الجلالِ والكمالِ

الالْتفاتُ مِنَ الخطابِ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾، إلى الغَيْبةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ مع ذِكْرِ لفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾؛ لاسْتحضارِ عَظَمةِ الذّاتِ الإلهيَّة في جليلِ علم اللّهِ وسَعتِه لِما خَفِيَ وما ظهَرَ، ولِما كان في الأرض وفي السَّماء، وفي ذلك أيضًا تربيةُ المهابةِ في القلوب، والإشْعارُ بعِلَّةِ الحُكم، على نَهجِ قولِه تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]، والإيذانُ بعمومه؛ لأنَّه ليس بشأنٍ يختصُّ به أو بمَن يُعلَّق به؛ بل هو شاملٌ لجميعِ الأشياء[1]، فالمناسبُ ذِكْره تعالى بعنوان مُصَحّحٍ لَمبدئيّة الكلِّ[2].

سِرُّ دخولِ حرفِ الجرِّ على النَّكرة:

عِلْمُ الله تعالى ذاتـــيٌّ، وهـو سبحانَه يعلمُ جـمـيـعَ مـا في العالَمِ

جاءت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن شَيۡءٖ﴾ للاسْتغراقِ، والمبالغةِ في النَّفي، كأنَّه قيل: وما يَخْفَى عليه شيءٌ ما[3]، فـ"الاستغراق؛ أيْ: بعلم مقتضى ذاتِه العلي، وكلُّ ما هذا شأنُه فلا يَخْتَصُّ بمعلوم ما، بل نسبتُه إلى كلّ شيء مِن شأنه أن يُعلَم على الاستواء، وأمّا عِلْمُ المَلَكِ والبشَرِ؛ فعِلْمُهما ليس مِن ذاتهما، بل مِن غيرهما، فيَعْلَمُ شيْئًا دون شيء، فيفيدُ أنّه تعالى يعلمُ جميعَ ما في العالَم كليًّا كان أو جُزئيًّا، موجودًا أو معدومًا، فيعلمُ السِّرَّ والإعلان"[4].

إيثار لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾:

أفادتْ (شيء) ما يَصِحُّ أن يُعْلَمَ ويُخْبَرَ عنه، لا بمعنى الموجودِ فقط

المُرادُ بالمعلوم عامٌّ بالموجود والمعدوم، وبالمُمكن والمُمتنع، ولذا اخْتيرَ في النّظم الجليل لفظُ ﴿شَيۡءٖ﴾ النّكِرة؛ الّذي يدلُّ على

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/271.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(4) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89.

الإحاطة والشُّمولِ والعمومِ، بوصْفِها أعمَّ كلمةٍ؛ بمعنى: ما يَصِحّ أن يُعْلَم ويُخْبَرَ عنه، لا بمعنى الموجودِ فقط[1].

فائدةُ قولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

إحاطةُ علْمِ اللهِ بما في أكبرِ المخلوقاتِ

لَمّا كانَ عِلْمُه تعالى شاملًا لكلِّ شيء، ذكرَ مِن هذه الأشياءِ المُتعارَفِ عليها - الَّتي تدلُّ على السَّعة والعِظَم - الأرضَ والسَّماءَ، فَعِلْمُ اللّهِ قد أحاطَ بما فيهما، لا يَخفى عليه شيءٌ[2].

نُكتةُ تقديمِ الأرضِ على السّماءِ:

في التّقديمِ مُراعاةُ القُربِ، والتّرقّي

تقديمُ الأرض على السّماء في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، مع توسيط (لا) بينهما، باعتبار القُرب والبُعد، فهي أقربُ إلينا، أو لرعاية الفواصل، أو للتّرقّي مِنَ الأدنى إلى الأعلى. والمُرادُ مِنَ السَّماءِ ما يشملُ السّمواتِ كلّها. ويجوزُ إرادةُ جهةِ السُّفْلِ مِنَ الْأَرْضِ، وجِهَةِ العُلوّ مِنَ السّماء[3].

سِرُّ توسيطِ ﴿وَلَا﴾ بيَن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

القَصْدُ استقلالُ كلٍّ منهما في النّفي

توسيطُ ﴿وَلَا﴾ بينَ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾؛ للتّنبيه على استقلال كلٍّ منهما في النّفي، ولو لم يوَسّطْ بَيْنَهُما لأوهم أنّ النّفيَ مُتَوَجّهٌ إلى المجموع مِن حيث المجموعُ، وفيه محذورٌ لا يخفى، ثمّ المُرادُ بهما العالمُ كلُّه[4].

دَلالةُ الطِّباقِ: ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

إحاطةُ عِلْمِ اللهِ بما في المُتقابِلَيْن، إحاطةٌ بما في سِواهُما

دلَّ الطِّباقُ بينَ ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ و﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على تحقُّقِ المبالغة، وذلك أنَّه لَمّا ذكرَ الأرضَ ذكرَ ما يقابلُها وهي السَّماء، ولَمّا كانَ السِّياقُ سياقَ دُعاءٍ

---

(1) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89.

(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.

(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.

(4) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/89.

واعْترافٍ بسَعةِ عِلْمِ اللّهِ ﷻ لكلِّ شيء، جاءَ التَّعبيرُ بطَرَفَي الجُملةِ معَ الإفرادِ في كلَيْهما؛ للدّلالةِ على أنَّ مَنْ كان مُحيطًا بكلِّ ما في المُتَقابِلَيْن مِن غيرِ أن يَحْجُبَه أحدُهما عنِ الآخر، كان محيطًا بغيرِهما كذلكَ مِن غيرِ فَرْقٍ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإخْفاءُ والسَّتْر:

الإخفاءُ عامٌّ في المعاني والأعيانِ، والسَّتْرُ التَّغطيةُ بما هو ملاصقٌ وغيرُه

الإخفاءُ: الاسْتتارُ، وهو السُّكوتُ عنِ المعنَى وعن غيرِه، تقولُ: أَخْفَيتُ الدِّرهمَ في الثَّوب، وأَخْفيتُ الدُّعاءَ في قلبي، قالَ تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ﴾ [الأعراف: 55][2]، فهو عامٌّ في المعاني والأعيان.

والسَّتْرُ: مِن سَترَ الشَّيءَ: غطّاه، والسِّترُ: ما يَسْتُرُكَ عن غيرِك، وإن لم يكن مُلاصِقًا، تقولُ: تستَّرتُ بالحيطان، وتقولُ: تستَّرتُ بالغطاء، وهو ملاصقٌ لك، والسُّتْرَةُ: هو ما يُستَرُ به كائنًا ما كان[3].

واختِيرَ لفظُ (الإِخْفاءِ) بوصف ﴿مَا نُخۡفِي﴾ سُكوتًا عن مكنون الصّدور وما يدور في العقول، لا تغطيتَه.

الإعلانُ والإظهارُ:

الإعـلانُ إظهارُ الشَّيء، وأكثرُ ما يكونُ في المعاني، والإظـهارُ يكونُ في المـعـاني وغيرِها

الإعلانُ: خِلافُ الكِتمان، ويدُلُّ على إظهارِ الشَّيءِ والإشارةِ إليه وظُهورِه، وأكثرُ ما يُقالُ في المعاني دونَ الأعيان، كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾، وهو إظهارُ المعنَى في النَّفسِ، ولا يَقْتَضي رفعَ الصَّوتِ به[4].

والإظهارُ: الكَشْفُ، تقولُ: كشفتُ الأمرَ للرَّجُلِ إذا أَظْهرتَه له،

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(2) ابن فارس، المُجمل: 2/297، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 447 - 448.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 176، وابن منظور، لسان العرب: (ستر).
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 60، والرّاغب، المُفردات: (علن).

وإذا أُخرِجَ الشَّيءُ مِن وعاءٍ أو بَيْتٍ كان إظْهارًا، ويكونُ الإظهارُ للمعاني والأعيان[1]. وعِلْمُ اللّه تعالى مُتَضَمِّنٌ لِما يُعْلَن قولًا، وما يُظْهَرُ مِن معنًى في النّفس، مِن دون رَفْع الصّوت، لا المكشوفِ الظّاهر البادي للعَيان فحَسْبُ؛ لذا يُناسبُه لفظُ (الإعلان).

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 169، وابن منظور، لسان العرب: (ظهر).

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَنْ شكرَ اللهَ بِصِدْقٍ أجابَ اللهُ دعاءَه، ولو كان في العُرفِ مُستحيلًا

لمّا دعا إبراهيمُ ربَّه بقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ﴾؛ أيْ: إنَّكَ تَعۡلَمُ ما في قُلوبِنا وَضمائِرِنا، أعطاهُ اللّهُ ما رجاهُ من الولد إسماعيلَ وإسحاقَ، فأثنى على اللّه بقوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾.

ولَمّا تمَّ ما دعا به إبراهيمُ عليه السلام منَ النَّزاهةِ عن رجاسَةِ الشِّرك، وتبيَّنَ بتقديمِهِ أنَّ أهمَّ المُهمّاتِ البراءةُ منه، أتْبَعَهُ الحمدَ على ما رَزقَ من النِّعم، وما تَبِعَ ذلك منَ الإشارةِ إلى وجوبِ الشُّكر، فقال: الحمدُ للّهِ الَّذي وَهبَ لي حالَ كِبَرِ سِنّي إسماعيلَ وإسحاق، فهو تعالى الَّذي سمعَ نِدائِي واسْتجابَ دُعائي(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَهَبَ﴾: (الواوُ والهاءُ والباءُ): كلماتٌ لا ينقاسُ بعضُها على بعض، تقولُ: وهَبْتُ الشَّيءَ أهَبُهُ هِبةً وموْهِبًا، واتَّهبْتُ الهِبةَ: قَبِلْتُها. والهِبةُ: أن تجعلَ مُلكَكَ لغيرِك بغير عِوَض، قالَ تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، وقالَ تعالى: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾(2).

2) ﴿ٱلۡكِبَرِ﴾: (الكافُ والباءُ والرّاءُ) أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَر، يُقالُ: هو كبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢﴾ [نوح: 22]. والكِبَرُ: الهَرَمُ، قال تعالى: ﴿وَأَصَابَهُ ٱلۡكِبَرُ﴾ [البقرة: 266]، والأصلُ أن يُستعمَلَ في الأعْيان، ثمَّ اسْتُعيرَ للمعاني كقولِه تعالى: ﴿لَا

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (وهب).

﴿يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: 49][1]، وقولِه تعالى: ﴿وَهَبَ لِى عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾؛ أيْ: الهَرَمِ وكِبَرِ سِنِّي، ويَأْسي عنِ الوَلَد[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حَمِدَ إبراهيمُ ربَّهُ على ما وهبه من الولدِ بعد اليأس من الإنجاب

حَمِدَ إبراهيمُ عليه السلام ربَّه جل جلاله على ما رَزقَه من الوَلدِ بعد كِبَرِ سِنِّه، ويَأْسِه عنِ الوَلد، وقد سَمِعَ اللّهُ دُعاءَه واسْتجابَ له فيما سألَه من الوَلد[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصلِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّـهِ﴾ عمّا قبلَها:

تصديرُ مقامِ المُناجاةِ بالحمدِ من جليلِ الأدبِ معَ الله

صُدِّرتِ الآيةُ الكريمةُ بقولِه تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مفصولةً عمّا قبلَها؛ لأنَّ استهلالَ الجملةِ بالحمدِ والثّناء على اللّه الوهّابِ، بعدَ ما دعا إبراهيمُ ربَّه مُثنيًا عليه، بأنّه سبحانَه يعلم ما نُخفيه وما نُعلنُه، في هذا الاستهلال بيانٌ لبعض حال إبراهيمَ عليه السلام، من شوقه إلى الولد في إبّانِ الكِبَرِ وحين اليَأسِ منَ الولادة، فَحَرِيٌّ بهذا المَقامِ أن يُصدَّرَ بالثَّناءِ على اللّهِ وإكرامِه لنبيِّه إبراهيمَ عليه السلام بأنَّه سميعُ الدُّعاء؛ أيْ: مجيبٌ، تمهيدًا لإجابةِ دعوتِه كما أجابَ دعوتَه سَلَفًا[4].

ويمكنُ أن يدلَّ ذلك ظاهرًا على أنَّ وَلَدَيْه إسماعيلَ وإسحاقَ يبقيانِ بعدَ موتِه، وأنَّه مشغولُ القلبِ بسببِهما، فكان هذا دعاءً لهما بالخيرِ والمعونةِ بعد موته على سبيلِ الرَّمز والتَّعريض، وذلك يدُلُّ على أنَّ الاشْتغالَ بالثَّناءِ عندَ الحاجةِ إلى الدُّعاءِ أفضلُ منَ الدُّعاء[5].

نوعُ (ال) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، وإيثارُ الجملةِ الاسْميَّةِ:

(ال) للاسْتغراق، والحمدُ للهِ ثابتٌ مُستمرٌّ لا ينقطعُ

(ال) في ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ للاسْتغراق؛ أيْ: اسْتغراقِ المَحامدِ كلِّها للّه،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (كبر).
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/155.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/243.
(5) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/106.

وإيثارُ اسْتعمالِ الجملةِ الاسْميَّةِ في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لإفادتِها الثُّبوتَ والدَّيمومةَ في أنَّ الحمدَ قائمٌ ثابتٌ للّه، لا ينفكُّ ولا يتخلَّف.

بَلاغةُ القصرِ في ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾:

لا يُحْمَدُ على النِّعمَ سِواه ﷻ

في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ معنى القصْرِ؛ أيْ: إنّ الحمد للّه ﷻ وحدَه، فهو مانِحُ النِّعمِ ومُجْرِيها وحدَه، وهو الّذي وَهَبَه في هذا الكِبَرِ العِتيِّ[1].

سِرُّ النَّعتِ بالاسْمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾:

الإيماءُ إلى وَجْهِ بناءِ الحمدِ، والمبالغةُ في إسنادِ الصِّفةِ للموصوفِ دون سواه

جاءَ اسمُ الموصولِ ﴿ٱلَّذِى﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى﴾ صفةً للفظِ الجلالة ﴿لِلَّهِ﴾؛ إيماءً إلى وجْهِ بناءِ الحمد[2]، ومبالغةً في إسنادِ صفةِ الحمدِ للّهِ وَحْدَه، فهو ﷻ، لا أحدَ سواه، مَنْ يَسْتَحِقُّ الحمدَ على وجهِ الحقيقةِ والإطلاق.

إيثارُ اسْتعمالِ لفظِ ﴿وَهَبَ﴾ دونَ غيره:

الهِبةُ تمليكٌ مِنَ اللهِ تعالى لخليلِه على سبيلِ المَنِّ

آثَرَ السِّياقُ القرآنيُّ اسْتعمالَ لفظِ ﴿وَهَبَ﴾ دونَ غيره مِنَ المُرادفات؛ لأنَّ الهبةَ تمليكٌ مِن غيرِ عَقْد، مَنًّا مِنَ اللّهِ ﷻ على خليلِه ومُصطفاه إبراهيمَ عليه السلام بولَدَيْه إسماعيلَ وإسحاقَ، وقد بلغَ من الكِبَرِ عِتيًّا، ويئِسَ عنِ الولد[3].

سِرُّ العُدولِ عن (وهَبَنِي) إلى ﴿وَهَبَ لِى﴾:

نعمةُ الهِبةِ خاصَّةٌ مِنَ اللهِ تعالى لخليلِه، تَقْتضي الاسْتعظامَ والشُّكرَ

عَدَلَ سياقُ الآيةِ عنِ الفعلِ (وهَبَني) إلى الفعلِ المُتعدِّي باللّام ﴿وَهَبَ لِى﴾؛ لأنَّ نعمةَ الهبةِ فائضةٌ عليه، خاصَّةٌ به، مملوكةٌ له من اللّهِ تعالى لا من غيرِه، وهذا التَّقييدُ للهبةِ اسْتعظامٌ للنِّعمةِ وإظهارٌ لشُكرِها، لَمِن يستحِقُّها على وجهِ التَّعيين[4].

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/106.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/243.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272.

هبةُ الولدِ مع الكِبَرِ الَّذي لا يُرجَى معه الولادةُ

بَلاغةُ حرفِ الاسْتِعلاءِ ﴿عَلَى﴾:

حرفُ ﴿عَلَى﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ للاسْتعلاءِ المجازيّ بمعنَى (مع)؛ أيْ: وهبَ ذلك تَعَلِّيًا على الحالةِ الَّتي شأنُها أن لا تسمحَ بذلك؛ أيْ: وهبَ لي معَ الكِبَرِ الَّذي لا تحصُلُ معه الولادةُ[1]. ومعنى استعلائه على الكِبَر - أيضًا - أنّه وصل غايتَه، فكأنّه تجاوزه وعلا ظهره، كما يُقال: على رأس السّنة، وفيه منَ المبالغة ما لا يَخفى[2]. والجارُّ والمجرور في موضع الحال، وحالُ الاستعلاءِ هذه تقتضي التَّمكُّنَ؛ أيْ: حالَ كوني مُستعليًا على الكِبَر، ومُتمكِّنًا منه على يَأْسٍ منَ الولد[3]، والتّقييدُ بذلك استعظامًا للنّعمة، وإظهارَ الشُّكر لها[4]. فقوله: ﴿عَلَى ٱلۡكِبَرِ﴾ يدلُّ على جلال الشُّعور بالنّعمة، وكونِه إكرامًا منَ الله تعالى بخَرْق الأسباب[5].

وإنّ شُكْرَ النّعمة بذِكْر إسماعيلَ وإسحاقَ فيه معنًى جليلٌ؛ لأنّهما وَلَدا أبي الأنبياءِ الّذين جاؤوا بعد إبراهيمَ ﷺ، فكأنّ النّبوّة انحصرت في ذريّته ﷺ، كما يبدو من قَصَص القرآن الكريم الصّادقِ في ذاته[6].

تطييبُ قلبِ إبراهيمَ وزوجَيْه

نُكْتَةُ الجمْعِ بيْن ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾:

جمعَ السِّياقُ في الدُّعاءِ بينَ ﴿إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ﴾ عليهما السلام؛ للدّلالةِ على أنَّ هذَيْن الوَلَدَيْنِ الكريمَيْنِ قد وُلِدا له عليه السلام في حالِ كِبَرِ إبراهيمَ عليه السلام؛ تطييبًا لقلبِ زوجِه هاجر أمِّ إسماعيل، وقلبِ زوجِه سارة أمِّ إسْحاق، وتَطْييبًا لقلبِ إبراهيمَ عليه السلام[7].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/449، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/228.
(5) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4042.
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4042.
(7) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/429 - 430.

علّةُ فصلِ ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾:

تعليلُ ما وقعَ مِن هِبَةِ اللهِ تعالى لإبراهيمَ عليه السلام

جملةُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ تعليلٌ لجملةِ ﴿وَهَبَ لِي﴾؛ أيْ: وهَبَ ذلكَ؛ لأنَّه سميعُ الدُّعاء، والسَّميعُ مُستعمَلٌ في إجابةِ المطلوب، كنايةً عنِ الإجابةِ والتَّقبُّل[1]. وكذلكَ فإنَّ في هذا السِّياق تعريضًا بالأنْداد، وإشارةً إلى ما تضمَّنه تأسُّفُه على العُقمِ[2].

تَوجيهُ حشْدِ المُؤكِّدات في جملة الفاصلة:

تأكيدُ وقوعِ جميعِ ما دعا به إبراهيمُ عليه السلام منَ الخوارقِ

لمّا كان إتيانُ الولدِ في سِنٍّ لا يولَدُ فيه لمثْلِه، وجميعُ ما دعا به منَ الخوارق، فوجودُه لا يَكادُ يُصدَّقُ، أشارَ إلى ذلكَ بتأكيدِ الجملةِ بحرفِ التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾[3]، وبالجملة الاسميّةِ، وباللّام؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ وفيه ما يَدُلّ على أنّ ذلك كان بدعاءٍ منَ الخليل، واستجابةٍ منَ اللّه تعالى، وفيه أيضًا شعورٌ بالشّكر الجزيلِ لربّه؛ لأنّه الّذي ربّاه وكوّنه وقام على شؤونه واستجاب دعاءَه[4].

نُكْتَةُ ذِكْرِ حالِ الكِبَرِ:

المِنَّةُ بهِبةِ الله للوَلَدِ حالَ الكِبَرِ أعظمُ وَقْعًا وأنْفعُ أثَرًا

ذَكَر بيانُ اللّهِ تعالى حالَ الكِبَرِ في قولِه تعالى: ﴿وَهَبَ لِي عَلَى ٱلْكِبَرِ﴾؛ لأنَّ المِنَّةَ بهبةِ اللّهِ فيها أعْظمُ من حيثُ إنَّها حالُ وقوعِ اليأسِ منَ الولادة. والظَّفَرُ بالحاجةِ على عَقِبِ اليأسِ مِن أجَلِّ النِّعَمِ وأحْلاها في نَفْسِ الظّافر، ولأنَّ الولادةَ في تلك السِّنِّ كانت آيةً لإبراهيمَ عليه السلام[5].

إيثارُ الرُّبوبيَّةِ والإضافةُ في ﴿رَبِّي﴾:

الرَّبُّ هو الخالقُ والمُرَبِّي والمُحْسنُ جلّ جلاله

آثَرَ السِّياقُ ذِكْرَ الرُّبوبيَّةِ بقولِه: ﴿رَبِّي﴾؛ لأنَّ مِن معاني الرُّبوبيَّة أنَّ اللّهَ هو الخالقُ والمُربِّي، فاللّهُ تعالى هو الَّذي يخلُق الولدَ، وهو

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/430.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/430.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4042.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.

الَّذي يُربِّيهِ برعايتِه وحِفْظِه ولُطفِه به، وإضافةُ ﴿رَبِّي﴾ إلى ياءِ المتكلِّم؛ للدّلالةِ على الاعترافِ الكاملِ بأنَّ ربّي هو المحسنُ إليَّ بخَلْقِ الولدِ وهِبَتِه لي، وتربيتِه ورعايتِه[1].

دَلالةُ اللّامِ، وصيغةُ (فعيل) ﴿لَسَمِيعُ﴾:

تأكيدُ السَّماعِ بإجابةِ الدُّعاءِ ومضاعفةِ النِّعمةِ

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ للتَّأكيد، وصيغةُ (سميع) مِن أبنيةِ المبالغةِ، العاملةِ عملَ الفِعلِ إذا أُضيفَ إلى مفعولِه أو فاعلِه، بإسنادِ السَّماعِ إلى دعاءِ اللّهِ تعالى مجازًا، وهو مع كونِه مِن تتمَّةِ الحمدِ والشُّكرِ، إذْ هو وصفٌ له تعالى بأنَّ ذلكَ الجميلَ سُنَّتُه المستمرَّةُ، وفيه تعليلٌ على طريقةِ التَّذييلِ للهبةِ المذكورة، وفيه إيذانٌ بتضاعُفِ النِّعمةِ فيها؛ إذ وقعتْ بعد الدُّعاءِ بقولِه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠﴾ [الصّافّات: 100]، فاقْترنَتِ الهبةُ بقَبولِ الدَّعوةِ وإجابتِها بقولِه: ﴿لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾[2].

بَلاغةُ المجازِ في: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ﴾:

الإجابةُ مِن لوازمِ سماعِ الدّعاءِ

﴿لَسَمِيعُ﴾ في جملة الفاصلة: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ مجازٌ مُستعملٌ لمعنى: (مجيب)، إطلاقًا للفظ المَلْزوم وإرادةً للازمِه العاديّ؛ فإنّ الإجابة مِن لوازم سماع الدّعاء غالبًا، ولو لزومًا عاديًّا[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهِبَةُ والرِّزقُ:

الهِبَةُ تمليكُ ما تَملِكه لغيرِك بدون عِوَض، والرِّزقُ العطاءُ الجاري، وملكُ المنفعةِ

الهِبةُ: أنْ تجعلَ مُلكَكَ لغيرِكَ بغيرِ عِوَض، يُقالُ: وهَبْتُه هِبَةً ومَوْهِبةً ومَوْهِبًا، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ﴾ [الأنعام: 84]، وقال تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ [الشُّعراء: 21][4].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/430.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272.
(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/90.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (وهب).

والرِّزقُ: اسْمٌ لما يَمْلِكُ صاحبُه الانْتفاعَ به، فلا يجوزُ منازعتُه فيه لكونِه حلالًا، والرِّزقُ هو العطاءُ الجاري في الحُكمِ على الإدْرار، ولهذا يُقال: أرزاقُ الجُنْد؛ لأنَّها تجري على إدْرار، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذّاريات: 22]، وقال تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة: 3][1]. وعطايا اللّه لنَبيّه ﷺ لم تكن قرينةَ العِوض؛ فكَرَمُ اللّه لا يَسَعُه حَدّ، ولا يُشرطُ فيه عِوضٌ، أو مقايضةٌ؛ فناسب اصطفاءُ لفظِ ﴿وَهَبَ﴾.

الكِبَرُ والشَّيخوخَةُ:

الكِبَرُ في السِّنِّ وفي الأعيانِ والمعاني، والشَّيخوخةُ الكِبَرُ في السِّنِّ والعلمِ

كَبِرَ؛ أيْ: أسَنَّ، ولذلكَ يُقالُ للإنسانِ إذا طالتْ مُدَّةُ وجودِه: إنَّه كبير؛ أيْ: كبيرُ السِّنّ، طويلُ مُدَّة البقاءِ[2]. ويُستعملُ لفظُ كبيرٍ في الكمِّيَّة المتَّصلة كالأجسام، وفي الكميَّةِ المُنفصلة كالعدد، والأصلُ أن يُستعمَلَ في الأعيان، ثمَّ اسْتُعيرَ للمعاني، كقولِه تعالى: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: 49][3].

والشَّيخُ: هو مَن طَعَنَ في السِّنّ، وقد يُعبَّرُ به عمَّن يكثُرُ علمُه، لَمّا كانَ من شأنِ الشَّيخِ أن تكثُرَ تجاربُه ومعارفُه، ويُقالُ: شيخٌ بيِّنُ الشَّيخوخة، قال اللّهُ تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: 72]، وقال تعالى: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣﴾ [القصص: 23][4]. وناسب ذِكرُ لفظِ الكِبَرِ الدّالِّ على طول مُدّةِ البقاء مع موقف الهباتِ والعطايا والنِّعمِ الإلهيّةِ، لا اللّفظِ الدّالِّ على الطّعن في السّنّ، والهَرَم.

---

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 254، والرّاغب، المُفردات: (رزق).
(2) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 477، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 193.
(3) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (كبر).
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (شيخ).

﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ ٤٠﴾

[إبراهيم: 40]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعدَ تمامِ الحمدِ علـى النِّعـمةِ، يـكـونُ الـدُّعـاءُ بالتَّقرُّبِ إلى اللهِ بطاعتِه أرْجَى في القَبولِ

لَمّا تمَّ الحمدُ على النِّعمة بعد الدُّعاءِ بالتَّخلّي من منافي السَّعادة، وختْمه بالحمدِ على إجابةِ الدُّعاء، انْتهزَ الفُرصةَ في إتباعِه الدُّعاءَ بالتَّحلّي بحِلْيةِ العبادة الَّتي أخبرَ أنَّها قَصْدُه، بإسكانه من ذرِّيَّته ثمَّ إقامتِها، إشارةً إلى صعوبتِها على النَّفْسِ إلّا بمعونةِ اللّه، فقالَ: ربِّ الخالقَ لي، المالكَ لأمري، اجْعلْني ومن ذرِّيَّتي مُقيمي الصَّلاة، وتقبَّلْ دعائيَ كلَّه بذلكَ وغيرِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُقِيمَ﴾: (قوم): القافُ والواوُ والميمُ أصلانِ صحيحان، يدُلُّ أحدُهما على جماعةِ ناس، وهمُ القوم. والآخر على انتصابٍ أو عزم - وهو الَّذي يَعْنينا - فقولُهم: قامَ يقومُ قيامًا فهو قائم، والقَوْمةُ المرَّةُ الواحدة، إذا انْتصبَ، قالَ تعالى: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55]؛ أيْ: يُديمون فِعلَها ويُحافظونَ عليها[2]، وهو معنَى قوله تعالى: ﴿مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[3].

2) ﴿وَتَقَبَّلۡ﴾: (قبل): القافُ والباءُ واللّامُ أصلٌ واحدٌ صحيحٌ، تدُلُّ كَلِمُهُ كلُّها على مواجهةِ الشَّيءِ للشَّيء، ومنه قبِلتُ الشَّيء قَبولًا. والتَّقبُّلُ: قَبولُ الشَّيءِ على وجهٍ يقتضي ثوابًا، كالهديَّةِ ونحوِها، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: 16][4]. وقولُه تعالى: ﴿وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ أي: اجْعله مقبولًا عندَك مُستجابًا[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/431 - 432.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (قوم).
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/155.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (قبل).
(5) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/155.

المَعنى الإجْماليُّ:

يدعو إبراهيمُ عليه السلام ربَّه أن يجعلَه مُحافظًا على الصَّلاة، مُقيمًا لحدودِها، وأن يجعلَ ذُرِّيَّتَه كذلك مُقيمينَ لها، وأن يستجيبَ دعاءَه فيما سألَه فيه كلّه[1].

الــدُّعــاءُ بالمُحافظةِ على الصَّلاةِ وإجابةِ الدُّعاءِ

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الإيجازُ بحذْفِ حرفِ النِّداءِ:

زيادةُ التَّقرُّبِ إلى اللهِ، واليقينُ بأنَّ اللهَ عليمٌ بحاجاتِه

حُذِفَ حرفُ النِّداء (يا) في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ﴾ زيادةً في التَّقرُّبِ إلى اللّهِ تعالى، وأملًا في إجابةِ دعائه، والاخْتصارُ في الدُّعاء يقينًا منه عليه السلام بأنَّ اللّهَ تعالى عليمٌ برغائبِه وحِرْصِه على هدايةِ ذُرِّيّته، إلى ما يحبُّه اللّهُ ويرضاه، ويُقرِّبهم إليه جل جلاله[2].

إيثارُ الإفرادِ في إضافةِ ﴿رَبِّ﴾ إلى ياءِ المُتكلِّمِ:

إبراهيمُ عليه السلام قُدوةٌ في طاعتِه لربِّه

جاءَ توحيدِ ضميرِ المُتكلِّم في قولِه: ﴿رَبِّ﴾ مع شمولِ دعوتِه لذُرِّيَّتِه في قولِه: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيٓۚ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه المُقتدَى في ذلك، وذُرِّيَّتُه أتباعٌ له، وإنْ ذَكَرَهم بطريقِ الاسْتطرادِ[3].

سرُّ اسْتعمالِ فعلِ الطَّلبِ ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾:

الــجَــعْــلُ مُستعمَلٌ في التَّكوينِ

الفعلُ ﴿ٱجۡعَلۡنِي﴾ مُستعمَلٌ في التَّكوين؛ أي: اجْعلْني في المستقبلِ مُقيمَ الصَّلاة[4]، واجعلْ صِبْغتي صِبغةَ مَنْ يَصْدُقُ عليهم أنَّهم يقيمونَ الصَّلاةَ حقَّ إقامتِها.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُقِيمَ﴾ دونَ الفعلِ:

المبالغةُ في تحقيقِ صِفةِ الإقامةِ على وجهِها الكاملِ

في قولِه تعالى: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ عبَّر بالاسمِ ﴿مُقِيمَ﴾، ولم يُعبِّر بالفعلِ (أُقيمُ)؛ لأنَّ النَّعتَ ألْزَمُ وأكثرُ منَ الفعلِ،

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495.
(2) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/342، والبقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/425.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/272.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244.

كأنَّه قال: ربِّ اجْعلْني مِن عادتي إقامةَ الصَّلاةِ، ولو قالَ: اجْعَلْني أُقيمُ الصَّلاةَ، لم يكن فيه مِنَ المبالغةِ ما في المُقيم(1).

فائِدةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿وَمِن﴾:

بعضُ ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ مُقيمو الصَّلاةِ دونَ بعضٍ

التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿وَمِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾؛ للدّلالة على أنَّ المرادَ بعضُ ذُرِّيَّته؛ لأنَّه عَلِمَ بإعلام اللّهِ أنَّه يكونُ في ذُرِّيَّته كُفّارٌ، فقالَ أدبًا: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾، وذلك قولُه تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: 124]، وكما في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾ [البقرة: 128](2). ويجوزُ أن تكونَ ﴿وَمِن﴾ ابْتدائيَّةً؛ لأنَّ إبراهيمَ عليه السلام لا يسألُ اللّهَ إلّا أكملَ ما يُحبُّهُ لنفسِه وذُرِّيَّتِه(3).

سِرُّ العُدولِ عنِ المُفردِ في: ﴿رَبَّنَا﴾:

مُراعاةُ التّابِعينَ له مِن ذُرِّيَّته

جاءَ قولُه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ﴾ بالجمعِ في ﴿رَبَّنَا﴾ دونَ الإفراد، بالنَّظَرِ إلى مَنْ تبِعَهُ مِن ذُرِّيَّته؛ لأنَّ ما بعدَه كلامٌ آخر؛ أيْ: ربِّ وربَّ مَنْ وفَّقْتَهُ بتربيتِك وإحسانِك، لإقامةِ الصَّلاةِ مِنْ ذُرِّيَّتي(4).

دَلالةُ الواوِ في: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ﴾:

الدّعاءُ إبقاءٌ للأملِ في النّفسِ بالإصرارِ على الرّجاءِ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ﴾ عاطفةٌ؛ أيْ: ربِّ وربَّ ذُرِّيَّتي اجْعَلْني واجعلْ بعضَ ذُرِّيَّتي مُقيمي الصَّلاةِ، ثابتينَ عليها، وتقبَّلْ دعائي هذا(5). ودخولُ الواو على الفعل ﴿وَتَقَبَّلۡ﴾ إشارةٌ إلى إلحاح الدّاعي في طلب القَبول لما دعا به قبلُ، وما يدعو به بَعْدُ، كما تَصَدّرَ طلبُ القبول دعاءَ القرآن الكريم بعد الفاتحة، وذلك على لسان إبراهيمَ عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127].

(1) الواحديُّ، التّفسير البسيط: 12/491.
(2) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/342، والنّحّاس، معاني القرآن: 3/537، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381 - 382.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244.
(4) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/431 - 432.
(5) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/273.

لَطيفةُ إيثارِ صيغةِ التَّفعُّلِ ﴿وَتَقَبَّلۡ﴾:

المبالغةُ في قبولِ الدُّعاءِ على الدَّوامِ

جاءتْ صيغةُ ﴿وَتَقَبَّلۡ﴾ دون (واقْبَلْ)؛ للمبالغةِ في الدُّعاءِ بالقَبولِ منَ اللّهِ تعالى، مع ما تُفيدُه صيغةُ المضارعِ من تَجدُّدِ واسْتمرارِ القَبولِ منَ اللّهِ ﷻ؛ أيْ: ربَّنا اجعلْ دعائي مقبولًا عندك جَعْلَ مَن كأنَّه راغبٌ فيه، آملٌ بتحقُّقِه على الدَّوام(1). فالتَّقبُّلُ شِدّةُ القَبول، وتقبُّلُ العبادةِ منَ اللّه تعالى، قَبولُها مع الرّضوان، ومحبّةِ القائمِ بها(2).

نُكْتَةُ حذْفِ ياءِ المُتكلِّم: ﴿دُعَآءِ﴾:

تخصيصُ دعائِه المذكورِ، وإظهارُ التّذلّلِ والانكسارِ لله، والتَّلطُّفِ في الخطابِ

حُذِفَت ياءُ المتكلِّم في ﴿دُعَآءِ﴾ واسْتُعيضَ عنها بالكَسرِ تخفيفًا، ويشيرُ قوله تعالى: ﴿دُعَآءِ﴾ بكسر الهمزةِ إلى تخصيص دعائه المذكور، وطلبِ التّجاوزِ عمّا فيه من تقصير، وإظهارِ التّذلّلِ، والانكسارِ بينَ يدي اللّه، ضراعةً بعد ضراعة، ورجاءً بعدَ رجاء(3)، وفيه منَ التّلطُّفِ والأدبِ ما فيه، مع ما يُفيد من طَلبِ قَبولِ جميعِ الدّعاء له ولذرّيته، ومَن يَطَأُ هذا البيتَ، ولو أضافَ لاقتصرَ على نفسه عليه السلام.

۞ الفروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّقبُّلُ والاسْتجابةُ:

التَّقبُّلُ قَبولُ الشَّيءِ مع اقْتضاءِ الثَّواب، والاسْتجابةُ قَبولُ الدُّعاءِ بناءً على وعدٍ بالاسْتجابة

التَّقبُّلُ: قَبولُ الشَّيءِ على وجهٍ يقتضي ثوابًا كالهديَّة ونحوها، كما قالَ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ﴾ [الأحقاف: 16](4)، وهو أنسبُ لسياقِ الآيةِ المُتَضمِّنِ الطّلبَ بقَبولِ الدّعاء المُقتضي للثّواب.

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/432.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4044.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/244، وهي قراءة الجمهور، وصلا ووقفا، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وأبو جعفر بإثباتِ الياء السّاكنة وصلا، ويعقوب وصلا ووقفا. يُنظر: ابن الجزري، النشر: 2/301.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (قبل).

والاسْتجابةُ: قَبولٌ لِما دعا به اللّهَ تعالى، ولذا وَعَدَ اللّهُ ﷻ الدّاعينَ بالاسْتجابةِ في قولِه ﷻ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: 60]، ووعد المُستجيبينَ بالحُسْنَى في قولِه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الرَّعد: 18](1).

(1) العسكريُّ، الفروق اللغوية، ص: 44، والكفويّ، الكلّيّات: 1/60.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾

[إبراهيم: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لّمّا كان الإنسانُ - ولوِ اجْتهدَ كلَّ الاجْتهاد - محلَّ العجزِ الموجِبِ للتَّقصيرِ المُفتقِرِ إلى السّتر، قالَ تعالى مُشيرًا إلى ذلك: ربَّنا أيُّها المالكُ لأمورِنا المدبِّرُ لنا اغفرْ لي ولوالديَّ وللمؤمنينَ يومَ يظهرُ ويتحقَّقُ على أعْلى وُجوهِه الحسابُ[1].

مهما أطاعَ العبدُ ربَّه فهو بحاجةٍ إلى مَغفرةِ اللهِ وسَترِه

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿يَقُومُ﴾: قامَ يقومُ قيامًا فهو قائمٌ، وجمعُه: قيامٌ، وأقامَه غيرُه، وأقامَ بالمكانِ إقامةً، والقيامُ للشّيءِ هو المُراعاة له والحفظ، ويكونُ قامَ بمعنَى العزيمة، كما يُقالُ: قامَ بهذا الأمر، ومنه قولُه تعالى: ﴿يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: 55]، والقِيامُ والقِوامُ: اسمٌ لما يقوم به الشّيْءُ؛ أيْ: يثبتُ، ويَرْكُزُ[2].

2) ﴿ٱلْحِسَابُ﴾: يُقالُ: حَسَبْتُ، أَحْسُبُ حِسابًا وحُسْبانًا، قال تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ [يونس: 5]، والحسابُ: ما يُحاسَبُ عليه العبدُ فيُجازَى بِحَسَبِه، كما قالَ تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: 1][3]. وقولُه تعالى: ﴿يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾؛ أيْ: يبدو حسابُهم ويظهرُ ويَثْبُتُ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الدُّعاءُ بالمغفرةِ للأقْربِ فالأقْربِ

يدعو إبراهيمُ عليه السلام ربَّه أن يغفرَ له ولوالدَيه - وكان هذا قبلَ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/432.
(2) الرّاغب، المُفردات: (قوم).
(3) الرّاغب، المُفردات: (حسب)، وابن القطّاع، الأفعال: 1/364، وقال: "حسب: بفتح السِّين، وكسرها، وضمّها".
(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/343، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.

أن يتبرَّأ من أبيه لّمّا تبيَّنَ له عداوتُه للّهِ ﷻ - وللمؤمنين كلِّهم يومَ يُحاسِبُ اللّهُ عبادَه، فيُجازيهم بأعمالِهم، إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فَشَرٌّ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

تَكرارُ لفْظِ ﴿رَبَّنَا﴾:

في التَّكرارِ مَزيدُ الالْـتجـاءِ إلى الله، والتّضرّعِ له

جاءَ تَكرارُ لفظِ ﴿رَبَّنَا﴾ للدّلالةِ على مَزيدِ التَّضرُّعِ واللَّجأِ إلى اللّهِ ﷻ، وبخاصَّةٍ في مقامِ الدُّعاءِ بالمغفرةِ العامَّةِ الشّاملةِ، له ولوالدَيْه ولجميعِ المؤمنين[2].

إيثارُ إضافةِ (ربّ) إلى ضَميرِ المُتَكلّمين:

فـي الإضـافـةِ إظـهـارٌ لمالِكيَّةِ الـلّـهِ تـعـالى لخَلْقِه، وتدبيرِ أمورِهم

إيثارُ إضافةِ (ربَّ) إلى (نا) الدّالّةِ على الجمعِ، لإظهارِ المالكيَّةِ للّهِ تعالى لخَلْقِه، المُدَبِّرِ لأمورِهم، المُرَبّي لهم، القائمِ على رعايةِ مصالحِهم وجميعِ شؤونهم[3].

نُكْتَةُ خَتْمِ الدُّعاءِ بطلَبِ المغفرةِ:

إظهارُ الالْتجاءِ إلى اللهِ، وعدمِ الاستغناءِ عنِ المغفرةِ

ختمَ إبراهيمُ ﵇ دعاءَه بطلبِ المغفرةِ منَ اللّهِ؛ لإظهارِ الالْتجاءِ إلى اللّهِ تعالى، وقَطْعِ الطَّمعِ من كلِّ شيءٍ إلّا من فَضْلِه وكَرمِه ورحمتِه، وأنَّ العبدَ ولو كان نبيًّا مُرسَلًا، فلا غِنَى له عَن مغفرةِ ربِّه؛ لأنَّه يبقى مُقصِّرًا في تحقيقِ كمالِ الشُّكرِ للّهِ تعالى[4].

فائدةُ تخصيصِ القُيودِ:

الدُّعـاءُ للأقْربِ فـالأقـربِ مـعَ البِشارةِ بإجابةِ الدُّعاءِ

خصَّص إبراهيمُ ﵇ دعاءَه بقُيودٍ؛ أوَّلُها: نَفْسُه، وثانيها: والداه، وثالثُها: المؤمنون، فعدَل عنِ الجمعِ (لنا)؛ اختصارًا وبيانًا لأحقيَّةِ مَنْ يدعو له بالتَّرتيب، وحرصِه على الدُّعاءِ للخاصَّةِ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/495 - 496.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/381.
(3) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/432.
(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/107، والخازن، لباب التّأويل: 3/43.

والعامَّة، وخاصَّةً أنَّ اللّهَ تعالى لا يَرُدُّ دعاءَ خليلِه إبراهيمَ ﷺ، وفيه بِشارةٌ عظيمةٌ لَمن ذكرَهم بالمغفرةِ، إلّا ما وردَ من أنَّ والدَه قد وَعدَه بالإيمانِ ثمَّ نَكثَ، فلم يتبيَّن له قبلَ دعائِه أنَّه من أصحابِ الجحيم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾ [التَّوبة: 114](1).

بَلاغةُ الظَّرفيَّة في: ﴿يَوۡمَ﴾:

تـهـويـلُ يـومِ الـقـيـامـةِ، والاسْتعدادُ له

جاءَ الظَّرْفُ: ﴿يَوۡمَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾ لا على تعيينِ زمانِه؛ لتهويلِ ذلكَ اليوم، وزَرْعِ المهابةِ الشَّديدةِ في قلوبِ العبادِ للاسْتعدادِ له، وتجنُّبِ ما فيه من أهوالٍ عظامٍ ومَخاطرَ جِسامٍ، بطاعةِ الرَّحمن وتَقْوى المليكِ الدَّيّان(2).

بَلاغةُ الاسْتعارةِ:

الـقـصـدُ إرادةُ الثُّبوتِ، والمجازُ من قيامِ النّاسِ للحساب

معنَى قولِه تعالى: ﴿يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ﴾: يثبُتُ، وقدِ اسْتُعيرَ القيامُ للثُّبوتِ تَبَعًا لتشبيهِ الحسابِ بإنسانٍ قائم؛ لأنَّ حالةَ القيامِ أقْوى أحوالِ الإنسانِ؛ إذْ هو انْتصابٌ للعمل، ومنه قولُهم: قامتِ الحربُ على ساق، إذا قَوِيَتْ واشْتدَّت، وقولُهم: ترجَّلَتِ الشَّمسُ، إذا قَوِيَ ضَوْؤها. ويجوزُ أنْ يُسنَدَ إلى الحسابِ قيامُ أهلِه إسنادًا مجازيًّا، أو يكون مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ [يوسف: 82]؛ أيْ: أهلَها(3).

---

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/43.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/273.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/107.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اللهُ ﷻ لا يَدَعُ الظّالمينَ دون حسابٍ عسيرٍ في يومِ الحسابِ

لَمّا ختمَ إبراهيمُ ﷺ في الآيةِ السّابقةِ دعاءَه بيومِ الحسابِ الَّذي يوجِبُ ذِكْرُه كلَّ سعادةٍ، ونسيانُه كلَّ شقاوة، ذكرَ بعضَ ما يتَّفقُ فيه رجوعًا إلى ما مضى مِن أحوالِ يومِ القيامة على أَحْسنِ وجهٍ، فقالَ - عاطفًا على قولِه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم: 31] - وجُلُّ المقصدِ تهديدُ أهلِ الظُّلم بالإشراكِ وغيرِه، وخاطبَ الرَّأسَ الَّذي لا يمكنُ ذلك منه، ليكونَ أَوْقعَ في قلبِ غيرِه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ من أعمالِ الكفرِ والظُّلم، إنَّما يُؤَخِّرُهم ليوم تظهرُ عليهم فيه أماراتُ الخوفِ والجَزَعِ، مع أشدِّ حالاتِ الذُّلِّ والصَّغار، وقلوبُهم فارغةٌ لا شيءَ فيها منَ الجُرأةِ والأَنَفَةِ الَّتي كانوا يُظهرونَها من قبلُ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾: (حسب): الحاءُ والسِّينُ والباءُ أصولٌ أربعة؛ أحدُها: الحِسْبانُ: وهو الظَّنّ[2]، وهو المعنيُّ هنا، كما في قولِه تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ [العنكبوت: 2]، وقولِه سُبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [العنكبوت: 4]، وقولِه هنا في الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾، فكلُّ ذلك مصدرُه الحِسْبان، والحِسْبانُ: أن يَحكُمَ لأحدِ النَّقيضَيْن من غيرِ أن يَخْطُرَ الآخَرُ ببالِه، فيَحْسبَه ويَعقِدَ عليه الإصبعَ، ويكونَ بعَرَضِ أن يَعْتَريَه فيه شَكٌّ، ويُقارِب فيه الظَّنَّ، لكنَّ الظَّنّ أن يخطُرَ النَّقيضان ببالِه، فيُغَلِّبَ أحدَهما على الآخر[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 10/433 - 434.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (حسب).
(3) الرّاغب، المُفردات: (حسب).

2) ﴿غَٰفِلًا﴾: (غفل): الغَيْنُ والفاءُ واللّامُ أصلٌ صحيحٌ يدُلُّ على تركِ الشَّيءِ سَهْوًا، وربَّما كان عن عَمْد، من ذلك: غَفَلْتُ عنِ الشَّيءِ غَفْلَةً وغُفولًا، وذلك إذا تركتَه ساهيًا، وأغْفَلْتَه إذا تركتَه على ذِكْرٍ منكَ له، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس: 92][1]. وقولُه تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾؛ أيْ: مُهْمِلًا لهم إذا أنْظَرَهم وأجَّلَهم[2].

3) ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾: أخَّرَ الشَّيءَ فتأخَّرَ، واسْتأخَر، والآخِرُ: بعد الأوَّل، تقولُ: جاءَ آخِرًا وأخيرًا. والتَّأخيرُ: مُقابلٌ للتَّقديم، قالَ تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: 2][3]. وقولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾؛ أيْ: يُمْهِلُهم ويُؤَخِّرُ جزاءَهم وعذابَهم[4].

4) ﴿تَشْخَصُ﴾: شَخَصَ، يشخَصُ، شُخوصًا، وشَخَصَ بصرُه، فهو شاخصٌ: إذا فَتَح عَيْنَيْه وجَعَلَ لا يَطْرِفُ، قالَ تعالى: ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنبياء: 97]؛ أيْ: أجفانُهم لا تَطْرِف[5]. وقولُه تعالى: ﴿تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾؛ أيْ: تُرفَعُ فيه أبصارُ أهلِ الموقف، ولا تغمُضُ مِن هَوْلِ ما تراه في ذلك اليوم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللهُ ﷻ لا يُهمِلُ عقابَ الظّالمين

المعنى: ولا تحسبَنَّ اللّهَ يا مُحمَّدُ إذا أنْظَر الظّالمينَ وأجَّلَهم، أنَّه غافلٌ عنهم مُهْمِلٌ لهم لا يُعاقبُهم على صُنْعِهم؛ بل يُحصي ذلك عليهم ويَعُدُّه عليهم عَدًّا، وإنَّما هو يُنْظِرُهم ليومٍ لا تغمُضُ فيه أعينُهم مِن شِدَّةِ أهوالِه[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/496.
(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/157.
(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (أخر).
(5) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (شخص).
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/157.
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/496.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الوصلِ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾:

تأكيدُ الوعيدِ مع تسليةِ رسولِ الله ﷺ

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ عَطَفتْ جُملتَها على الجُمَلِ السّابقة، وهذا العطفُ له اتِّصالٌ بجُملة: ﴿قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]، الَّذي هو وعيدٌ للمشركينَ، وإنذارٌ لهم بأن لا يَغْترّوا بسلامتِهم وأَمْنِهم، تنبيهًا لهم على أنَّ ذلكَ متاعٌ قليلٌ زائلٌ، فأكَّدَ الوعيدَ بهذه الآية، مع إدْماجِ تسليَةِ الرَّسولِ ﷺ على ما يتطاوَلون به منَ النِّعمة والدَّعَة، كما دَلَّ عليه التَّفريعُ في قولِه: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ﴾ [إبراهيم: 47]، وفي معنَى الآيةِ قولُه: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزَّمّل: 11]. وباعْتبارِ ما فيه مِن زيادةِ معنَى التَّسلية، وما انْضمَّ إليه مِن وصفِ فظاعةِ حالِ المشركين يومَ الحَشْرِ، حَسُنَ اقترانُ هذه الجملةِ بالعاطفِ، ولم تُفصَل(1).

بَلاغةُ الكنايةِ في النَّهيِ بـ﴿وَلَا﴾:

النَّهيُ كنايةٌ عن إثباتِ ضِدِّ المَنهيِّ عنه

صيغةُ النَّهيِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ ظاهرُها نهيٌ عن حسبانِ ذلك، وهذا النَّهيُ كنايةٌ عن إثباتِ وتحقيقِ ضدِّ المَنْهيِّ عنه، في المقامِ الَّذي من شأنِه أن يُثيرَ للنّاسِ ظنَّ وقوعِ المَنهيِّ عنه؛ لقوَّةِ الأسبابِ المُثيرةِ لذلك، وذلكَ أنَّ إمهالَهم وتأخيرَ عقوبتِهم يُشبِهُ حالةَ الغافلِ عن أعمالِهم؛ أيَ: تَحقَّقْ بأنَّ اللّهَ ليس بغافلٍ، وهو كنايةٌ ثانيةٌ عن لازمِ عدمِ الغَفْلةِ وهو المؤاخذةُ، فهو كنايةٌ بمرتبتَيْن؛ ذلك لأنَّ النَّهيَ عنِ الشَّيءِ يأذَنُ بأنَّ المنهيَّ عنه بحيثُ يتلبَّسُ به المخاطَبُ، فنهيُه عنه تحذيرٌ منَ التَّلبُّسِ به، بقطعِ النَّظَرِ عن تقديرِ تَلبُّسِ المخاطَبِ بذلك الحِسبان. وعلى هذا الاسْتعمالِ جاءتِ الآية، سواءٌ توجَّهَ الخطابُ لكلِّ مَنْ يَصِحُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/245.

أنْ يُخاطَبَ به، فيدخُلُ فيه النَّبيُّ ﷺ، أمْ توجَّه للنَّبيَّ ﷺ ابْتداءً، ويدخُلُ فيه أُمَّتُه[1].

إيثارُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿تَحۡسَبَنَّ﴾:

اللهُ تعالى عالِمٌ بما يَعملُ الظّالمون، وسيُجازيهم بما يَستحِقّون

جاءَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿تَحۡسَبَنَّ﴾ مع نونِ التَّوكيد الثَّقيلة؛ للاسْتمرارِ في النّهيِ عن هذا الحِسبانِ في إهمالِ الظّالمينَ وعدمِ مؤاخذتِهم، واليقينِ التّامِّ بأنَّ اللّهَ عالمٌ بتمامِ عِلْمِه، وكمالِ حِكْمَتِه حَقًّا ويقينًا، بما يعملُ الظّالمون، وأنَّه سيُجازيهم بموجبِ وعيدِه العظيم لهم[2].

نُكْتَةُ العُدولِ إلى اسْمِ الجلالةِ:

اللهُ المعبودُ بحقٍّ دونَ سواه، ليس غافلًا عمَّن كفَروا بعبادتِه

لَمّا بيَّن في الآياتِ السّابقةِ دلائلَ التَّوحيد، ثمَّ حكى عن إبراهيمَ عليه السلام أنَّه طلبَ منَ اللّهِ أن يَصونَه عنِ الشِّرك، وكان القومُ في عهدِ الرَّسول ﷺ مشركين في توحيد الأُلوهيَّة، فعَبَدوا الأصنامَ، وفعلوا أفعالَ الظّالمينَ، معَ كونِهم مُقرّين بتوحيدِ الرُّبوبيَّة، لم يكنْ ذلك مُنجيًا لهم وقد عبدوا غيرَ اللّه. فجاء التّصريحُ بذِكرِ لفظِ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، في قولِه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾؛ إيحاءً إلى ذلك المعنَى، وأنَّ اللّهَ الَّذي عبدوا غيرَه، أو أشركوا معه غيرَه في العبادة ليس غافلًا عمّا يعملُه أولئك الظّالمون، من الكفر والشِّرك في عبادتِه، وما ينتج عنه من أعمالٍ خبيثةٍ، في حقِّ اللّهِ وحقِّ عبادِه[3].

بَلاغةُ الكنايةِ والمَجازِ: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾:

الكنايةُ عنِ النَّهيِ عنِ اسْتعمالِ العذابِ للظّالِمين

نفيُ الغَفْلةِ عنِ اللّهِ تعالى في قولِه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ ليس جاريًا على صريحِ معناه؛ لأنَّ ذلك لا يظنُّه مؤمنٌ؛ بل هو كنايةٌ عنِ النَّهيِ عنِ اسْتعمالِ العذابِ للظّالمين، ومنه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/245 - 246.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/451.
(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/107.

جاءَ معنَى التَّسليةِ للرَّسول ﷺ[1]. والمُراد بالنّهي عن حسبانه غافلًا: الإيذانُ بأنّه تعالى عالمٌ بما يفعل الظّالمون، لا يخفى عليه شيءٌ منه، وأنّه معاقبُهم على كثيره وقليله، على سبيل الوعيد والتّهديد، كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾ [البقرة: 283] يريد الوعيدَ؛ فهذا كنايةٌ أو مجازٌ عنِ الوعيد والتّهديد؛ أي: لا تَحۡسَبَنَّ اللّهَ يترك عقابَهم؛ لأنّه جائزٌ في كَرَمه أن يعفوَ عنهم، لكن لا بدّ أن يعاقبَهم على القليل والكثير[2].

بَلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليّةِ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾:

اللهُ تعالى رقيبٌ على أعمالِهم وسيُحاسِبُهم

وثمّةَ وجهٌ آخرُ وهو أنْ يُراد: ولا تحسبنّه تعالى يُعاملهم معاملةَ الغافلِ عمّا يعملون، ولكن يعاملُهم معاملةَ الرّقيبِ عليهم، المُحاسِبِ على النّقير والقِطمير من أعمالهم. فعلى هذا يكون من باب الاسْتعارَة التّمثيليّة، كما في قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 9][3].

نوعُ (ما) في: ﴿عَمَّا يَعۡمَلُ﴾:

اللهُ مُحيطٌ بكلّ أعمالِهم ومُحْصٍ لها

﴿عَمَّا﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ اسْمٌ موصولٌ[4] بمعنَى (الّذي)؛ أيْ: لا تحسبن اللّهَ غافلًا عنِ الّذي يعملُه الظّالمون من أعمالِ الكفرِ والشِّرك. وإيثار ﴿عَمَّا﴾ في هذا المقام عن (الّذي) يُشيرُ إلى شُمولِ عملِهم، الظّاهِرِ والباطِنِ، الحاضِرِ والمُستقبلِ.

إيثارُ فعلِ ﴿يَعۡمَلُ﴾ على غيره:

عملُ الظّالمين مقصودٌ مُنافٍ للإحْكامِ

آثَرَ السّياق القُرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ فعلَ (العمل) على فِعلَي (الصُّنع)، و(الفعل)؛ لأنّ (العمل) أخصُّ من (الفعل)؛ فهو فعلٌ بنوعِ مشقّةٍ، وهو أيضًا ما يَصْدُر بقَصْدٍ؛ لأنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(2) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94.
(3) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94 - 95.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 5/205.

الفعلَ قد يُنسبُ إلى الحيوانات الّتي يقع منها فِعلٌ بغير قَصْدٍ، وقد يُنسَب إلى الجمادات، والعملُ قلّما يُنسبُ إلى ذلك.

و(الصُّنْعُ): إجادةُ الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلُّ فِعْلٍ صُنْعًا، ولا يُنسَبُ إلى الحيوانات والجمادات كما يُنسبُ إليها الفعلُ[1].

ومن هاهنا كان إيثارُ لفظِ العملِ مناسبًا لقَصديّة القيام بما قاموا به، مِن صور الظُّلم الّذي يُنافي الإجادةَ، والدّقّةَ، وإبداعَ العمل.

سِرُّ إيثارِ صيغةِ المضارع ﴿يَعۡمَلُ﴾:

استمرارُ الظّالمينَ بأعمالِ الكفرِ

جاءَ اسْتعمالُ صيغةِ المضارع في سياقِ الآيةِ ﴿يَعۡمَلُ﴾؛ للدّلالةِ على تجدُّدِ قيامِ الظّالمينَ بتبديلِ نعمةِ اللّهِ كفرًا، واسْتمرارِ إحلالِ قومِهم دارَ البَوارِ، واتِّخاذِ الأندادِ[2].

سِرُّ إسْنادِ الفعلِ ﴿يَعۡمَلُ﴾:

الدّلالةُ على وجودِ أعمالٍ للظّالمينَ تفضحُ كُفرَهم وشِركَهم بالله

جاءَ إسنادُ الفعلِ ﴿يَعۡمَلُ﴾ إلى الظّالمينَ؛ للدّلالةِ على أنَّ هؤلاء الظّالمينَ لم يكتفوا بعدمِ الاعْترافِ بوَحدانيَّة اللّه؛ بل أضافوا إليه أعمالًا هي دونَ الشِّرك، مثلَ: ظُلم النّاسِ بالاعْتداءِ عليهم، أو حِرمانِهم حقوقَهم، وصدِّهم عن سبيل اللّه، وكلِّ ما يدخلُ في أعمالِ ظُلْمِ العبادِ للعبادِ[3].

علّةُ فصْلِ جملةِ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾:

الجملةُ تعليلٌ للنَّهي في صدْرِ الآيةِ

فُصِلَتْ جملةُ ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ﴾ عمّا قبلَها؛ تعليلًا للنَّهي السّابقِ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾؛ أيْ: دُمْ على ما كنتَ عليه مِن عدمِ حِسبانِه تعالى غافلًا عن أعمالِهم، ولا تحزَنْ بتأخيرِ ما تستوجبُه مِنَ العذاب الأليم؛ إذْ تأخيرُه للتّشديدِ والتَّغليظ[4]. وفيها تسليةٌ للمظلوم وتهديدٌ

(1) الرّاغب، المُفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (عمل).

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/274.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.

(4) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/108، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/274.

للظّالم، فاللهُ تعالى - وهو العدلُ ﷻ - لا يَدَعُ الظّالمَ يفعلُ ما يشاءُ مِن أعمالِ الظُّلم دونَ جَزاء.

بَلاغةُ أسْلوبِ القَصْرِ:

تـهـويـلُ ما سيُصيبُهم مِنَ العذابِ والإذلالِ لا محالةَ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾، صُدِّرَ التّأخيرُ بـ ﴿إِنَّمَا﴾ لقَصْرِ التّأخيرِ بما وراءَه مِن صفات: كشُخوصِ الأبصار، وحالِ كونِهم مسرعين رافعي رؤوسِهم ذُلًّا وخُشوعًا، وذلك لقَصْدِ تهويلِ الخَطْبِ وتفظيعِ العذابِ، ببيانِ أنَّهم مُتوجِّهونَ إلى العذابِ لا محالةَ، وللدّلالةِ على أنَّ حقَّهم مِنَ العذابِ هو الاسْتئصالُ بالمَرَّة، وألّا يَبْقى منهم في الوجودِ عَيْنٌ ولا أثَر، وللإيذانِ بأنَّ المؤخَّرَ له مِن جملةِ العذابِ وعُنوانِه[1].

سِرُّ إيثارِ اللّامِ في قولِه: ﴿لِيَوْمٍ﴾:

التّأخيرُ لأجلِ جـزاءِ يـومٍ تَـشـخصُ فيه الأبصارُ

آثَرَ السِّياقُ القرآنيُّ إلصاقَ اللّامِ بـ (يوم) دونَ حرفِ الجرِّ (إلى) لبيانِ الغاية؛ أيِ: هذا التّأخيرُ لأجلِ جزاءِ يوم[2].

سِرُّ تنكيرِ (يوم) في: ﴿لِيَوْمٍ﴾:

وقتُ يومِ الجزاءِ غيرُ معلومٍ

جاءَ قولُه تعالى: ﴿لِيَوْمٍ﴾ نَكِرةً؛ لإبهامِ وقتِ هذا اليوم، فهو يومٌ يَحْدُثُ فيه ما يَحْدُثُ مِن أهوالٍ لأولئك الظّالمين، لكنَّ وقتَه غيرُ معلومٍ لأحدٍ من الخَلْق، وإنَّما عِلْمُ وقوعِه عندَ اللّهِ وَحدَه.

إيثارُ التَّعبيرِ بـ ﴿تَشْخَصُ﴾:

استمرارُ عدَمِ طَرْفِ الأعْيُنِ مِن شدَّةِ أهوالِ يومِ القيامةِ

آثَرَ سياقُ الآيةِ التَّعبيرَ بالفعلِ ﴿تَشْخَصُ﴾ دونَ غيرِه مِنَ المُقاربات؛ لأنَّ هذا التَّعبيرَ يدلُّ على مجموعةٍ مِنَ المعاني، كلُّها تتضافرُ لتُحَقِّقَ المعنَى الكاملَ المُرادَ في هذا الحَدَثِ المُرعبِ المُفزع، والظّاهرُ أنّ اللّفظَ مأخوذٌ مِن شَخَصَ الرّجلُ مِن بلده، إذا خرج

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 2/274.
(2) العُكبريّ، إملاء ما منّ به الرّحمن: 2/70.

منه[1]، فقولُنا: شخَصَ البَصَرُ نفسُه، إذا سَما وطَمَحَ وشَصا[2]، وشَخَصَ بصرُه: إذا فتحَ عَيْنَيه لا يَطْرِفُ[3]؛ أيْ: مِن هَوْل ما ترى في ذلكَ اليوم[4]، وهي تحدُّ النَّظرَ لفَزَعِ ذلكَ، ولِفَرْطِه بشخص المُحْتَضَر[5]، وتدلُّ صيغةُ المضارعِ في ﴿تَشۡخَصُ﴾ على تجدُّدِ حالِ تلكَ الأبصارِ، واسْتمرارِها مع اسْتمرارِ تلكَ الأهوالِ بأصحابِها، حتَّى يقضيَ اللّهُ بين العباد، إمّا إلى جنَّةٍ وإمّا إلى نار.

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرور على الفاعلِ:

تخـصـيـصُ الـشُّـخـوصِ في هذا اليومِ دونَ غيرِه

تقدَّم شِبهُ الجملةِ ﴿فِيهِ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾؛ لتخصيصِ الشُّخوصِ في هذا اليوم بالذّاتِ دونَ غيرِه، وللمبالغةِ في تصويرِ شِدَّةِ أهوالِه، وخطيرِ أحوالِه، فجاءَ هذا التَّعبيرُ مُبيّنًا لما تقدَّمَه في صدرِ الآيةِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾[6].

فائِدةُ جمْعِ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

عُـمـومُ أبـصـارِ النّاسِ في رُؤيةِ هـولِ ما يُصيبُ الظّالمين

أفادَ جمْعُ ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ العمومَ؛ أيْ: تشخَصُ فيه أبصارُ النّاسِ مِن هَوْلِ ما يَرَوْن، ومِن جملةِ ذلك: مشاهدةُ هَولِ أحوالِ الظّالمين[7].

دَلالةُ الألفِ واللّامِ في ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

التَّعريفُ تعميمٌ يُـرادُ بـه زيـادةُ تهويلٍ وترهيبٍ

الألفُ واللّامُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ للعهد، ويَدُلُّ على الضّمير؛ لأنَّ التَّأويل: تشخَصُ بأبصارِهم[8]، وتحتملُ (ال) الجنسَ؛

---

(1) القُونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94 - 95.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شخص)، وابن منظور، لسان العرب: (طمح) و(شصا). ومعنى (شصا): الشُّصوُّ من العين: مثل الشُّخوص، شصا يشصو: كأنّه ينظر إليك وإلى آخر. يُنظر: الخليل، العين: (شصو).
(3) ابن السّكّيت، إصلاح المنطق، ص: 263، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (شخص).
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382.
(5) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 3/344.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(8) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/494.

وفيه تهويلٌ وتعميمٌ لشُخوص أبصارِ أهلِ المَوقف جميعًا، حين ترتفع أبصارُ أهلِ الموقفِ فيدخلُ في زُمرتهم الكفرةُ المعهودون دُخولاً أوّليًّا؛ أيْ: تبقى مفتوحةً لا تتحرّكُ أجفانُهم مِن هول ما يرَونه[1]. وردّ القونويُّ حملَ الألفِ واللّام على الاسْتغْراق لعدم ملاءمتِه للسّباق والسّياقِ، وأيْضًا الاسْتغْراقُ في حَدّ ذاته غيرُ مستقيمٍ؛ إذ أبصارُ الأخيارِ قارّةٌ في مواضعها[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحِسبانُ والظَّنُّ:

الحِسبانُ مِنَ الحِسابِ، والظَّنُّ حِسبانٌ على جهةِ التَّوسُّعِ

أصلُ الحِسبان مِنَ الحساب، تقولُ: أَحْسَبُه بالظَّنِّ قد مات، كما تقولُ أَعُدُّه قد مات، ثمَّ كَثُرَ حتَّى سُمِّيَ الظَّنُّ حِسبانًا على جهةِ التَّوسُّع، وصارَ كالحقيقةِ بعد كَثْرةِ الاسْتعمال، وفُرِّقَ بينَ الفعلِ منهما، فيُقالُ في الظَّنِّ: حَسِبَ، وفي الحسابِ: حَسَبَ، ولذلك فُرِّقَ بينَ المصدَرَيْن، فقيل: حَسْبٌ وحِسْبان. والحِسبانُ لا يكونُ إلّا باطلًا، قالَ تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115].

والظَّنُّ: ضربٌ مِنَ الاعْتقاد، وقد يكونُ حِسبانٌ ليس باعْتقادٍ، ألا ترى أنَّكَ تقولُ: أحسبُ أنَّ زيدًا قد مات، ولا يجوزُ أن تعتقدَ أنَّه مات، مع علمِكَ بأنَّه حيٌّ[3].

الغَفْلةُ والنِّسيانُ:

الغَفْلةُ أعمُّ مِنَ النِّسيان

الغَفْلةُ: عدمُ التَّفطُّنِ للشّيء، وعدمُ عَقْليَّتِه بالفعل، أو هي عدمُ حضورِ الشَّيءِ في البالِ بالفعل، سواءٌ بقيتْ صورتُه أو معناه في الخيال، أو الذِّكر، أوِ انْمحتْ عن أحدِهما. والغَفْلةُ أعمُّ من النِّسيانِ[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/55.
(2) القونويّ وابن التّمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 11/94 - 95.
(3) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 185، 343، والكفويّ، الكلّيّات: 2/248.
(4) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 389، والكفويُّ، الكلّيّات: 3/26، والجُرجانيّ، التّعريفات، ص: 260.

والنِّسيانُ: الغَفْلةُ عنِ الشَّيءِ معَ انْمحاءِ صورتِه أو معناه عنِ الخيال، أوِ الذِّكرِ بالكُلِّيَّة، ولذلكَ يحتاجُ النّاسُ إلى تَجَشُّمِ كَسْبٍ جديدٍ وكُلفةٍ في تحصيلِه ثانيًا[1].

ونفْيُ الفعلِ العامِّ مُقتضٍ لنفيِ الخاصّ، فما كان ربّنا غافلًا عمّا يفعلُه الظّالمون، وما كان ربّنا نسِيًّا.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 389، والكفويّ، الكلّيّات: 3/25، 143، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 260.

﴿مُهۡطِعِينَ مُقۡنِعِي رُءُوسِهِمۡ لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ ٤٣﴾ [إبراهيم: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان حال الظّالمين يوم القيامة

لّما كانَ دعاءُ إبراهيم عليه السلام خاصًّا بالمؤمنين الذين آمنوا بربِّهم وأقاموا ما فرضه عليهم من الصّلوات وسائر المأمورات، جاء بعده بيان حال الظّالمين يوم القيامة وأنّهم ليسوا كالمؤمنين؛ بل هم في ذِلّة وهوان وإسراع إلى مصيرهم المحتوم الّذي لاينفكّون عنه بأيّ حال يوم الحساب جزاءَ ظُلمهم واستكبارهم. وإنكارهم ليوم الحِسابِ الموجِب ذِكْره لِكُلِّ سَعادَةٍ ونِسْيانه لِكُلِّ شَقاوَةٍ، ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ ما يَتَّفِقُ فِيهِ رُجوعًا إلى ما مَضى مِن أحْوالِ يَوْمِ القِيامَةِ عَلى أحْسَنِ وجْهٍ[1].

ثُمَّ إنَّه لّما جاء في الآية السّابقة قولُه: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ٤٢﴾ [إبراهيم: 42] بَيّنَ في هذه الآية حالهم في ذلك اليوم.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُهۡطِعِينَ﴾: أصلُ (هطع): يَدُلُّ على إقْبالٍ على الشَّيْءِ وانْقِيادٍ[2]، يُقالُ: هَطَعَ الرَّجُلُ: إذا أقبل ببَصَره على الشَّيء لا يُقلِعُ عنه، يهطع هطوعًا[3] ولا يكون ذَلك إلّا مَعَ خَوفٍ[4]، والإهْطاعُ: الإسْراعُ في العَدْو، وأهْطَعَ البَعِيرُ: صَوَّبَ عُنُقَهُ مُنْقادًا، وأهْطع

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/433.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).
(3) الجوهري، الصحاح: (هطع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هطع).

أيضًا: أسْرَعَ[1]، وعليه فالمُراد بالإهْطاعِ في الآية: إسْراعُ المَشْيِ مَعَ مَدِّ العُنُقِ كالمُتَخَتِّلِ، وهي هَيْئَةُ الخائِفِ[2].

2) ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أصلُ (قنع): يَدُلُّ على الإقْبالِ على الشَّيْءِ، ومنه الإقْناعُ: الإقْبالُ بِالوَجْهِ على الشَّيْءِ، يُقالُ: أقْنَعَ لَهُ يُقْنِعُ إقْناعًا، أيْ أقْبَلَ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ[3]، وَمِنها سُمِّيَتْ القَناعَةَ؛ لِأنَّ صاحبها يُقْبِلُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي لَهُ راضِيًا[4]، والإقناع أيضًا: رفعُ الرَّأْسِ والنَّظرُ في ذُلّ وخُشوع، يُقال: أقنعَ رأسَه، إذا رفَعه، وَقالَ القتيبيّ: المُقْنِع رأسَه: الَّذِي رفعَه وَأقْبل بطَرْفه إلَى ما بَين يَدَيْهِ[5]، والقانِعُ: المُتَّصِفُ بالقُنوعِ، وهوَ التَّذَلُّلُ، يُقالُ: قَنَعَ - مِنْ بابِ سَألَ - يَقْنَعُ قُنوعًا: إذا سألَ بِتَذَلُّلٍ، وَسُمِّيَ قانِعًا لِإقْبالِهِ على مَنْ يَسْألُهُ[6]، وبناء على ما سبق فإقْناعُ الرَّأْسِ في الآية: طَأْطَأتُهُ مِنَ الذُّلِّ، وَهوَ مُشْتَقٌّ مِنْ قَنَعَ - مِنْ بابِ مَنَعَ - إذا تَذَلَّلَ[7].

3) ﴿طَرْفُهُمْ﴾: أصلُ (طرف): يَدُلُّ على حَرَكَةٍ في بَعْضِ الأعْضاءِ فالطَّرْفُ، وَهوَ تَحْرِيكُ الجُفونِ في النَّظَرِ[8]، وطَرَفَ يَطْرِفُ طَرْفاً: لَحَظَ، وَقِيلَ: حَرَّكَ شُفْرَه ونَظَرَ، يُقالُ: شَخَصَ بصرُه فَما يَطْرِفُ[9]، والطَّرْفُ أيضًا: اسْمٌ جامِعٌ لِلْبَصَرِ، لا يُثَنَّى وَلا يُجمع؛ لأنَّه في الأصل مَصْدَرٌ فَيَكونُ واحِدًا وَيَكونُ جَماعَةً[10]. والطَّرْفُ كذلك: إصابَتُك عيناً بِثَوْبٍ أو غَيْرِهِ، يُقالُ: طُرِفَتْ عينُه وأصابَتْها طُرْفَةٌ وطَرَفَها الحزنُ بِالبُكاءِ، والاسْمُ الطُّرْفَةُ، وَعَيْنٌ طَرِيفٌ: مَطْروفة[11]. والمُرادُ بالطَّرْفِ في الآية: تَحَرُّكُ جَفْنِ العَيْنِ[12].

4) ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ﴾: أصلُ (فأد): أصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على حُمَّى وَشِدَّةِ حَرارَةٍ، مِنْ ذلكَ:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هطع).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/246.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنع).
(4) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قنع).
(5) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (قنع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قنع)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/265.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/246.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طرف).
(9) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(10) الأزهري، تهذيب اللُّغة: (طرف).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (طرف).
(12) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/247.

فَأدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ. وهذا فَئِيدٌ، أي: مَشْوِيٌّ. والمِفْأَدُ: السَّفودُ، والمُفْتَأَدُ: المَوْضِعُ يُشْوَى فِيهِ[1]، والتَّفَوُّدُ: التَّوَقُّد، والفُؤادُ: القلبُ؛ لِتَفَوُّدِه وتوقُّدِه، مُذَكَّرٌ لا غَيْرُ، وَقِيلَ: وسَطُه، وَقِيلَ: الفُؤادُ غِشاءُ القلبِ، والقلبُ حَبَّتُهُ وسوَيْداؤُه، والفُؤادُ أيضًا: العَقْلُ[2]، ورَجُلٌ مَفْؤودٌ: جَبانٌ ضَعِيفُ الفُؤادِ، ورجل مَفْؤودٌ وفَئِيدٌ: لا فؤادَ لَهُ؛ وَلا فِعْلَ لَهُ[3]، والمَقصودُ بالأفئدة في الآيةِ: جَمْعُ فُؤادٍ، وهو القَلْبُ، والمُرادُ به هُنا العَقْلُ، وهو إطْلاقٌ شائِعٌ في اسْتِعْمالِ العَرَبِ[4].

5) ﴿هَوَآءٌ﴾: أصْل (هوي): يَدُلُّ على خُلوٍّ وَسُقوطٍ، وأصْلُهُ الهَواءُ: الجَوُّ ما بين السَّماءِ والأرْضِ، وكلُّ فارِغٍ وأجْوَفَ وخالٍ فهو هَواءٌ، ومنه قَلْبٌ هَواءٌ، أي: فارِغٌ[5]، والهَواءُ والخَواءُ واحد، يُقال: هَوَى صَدْرُه، يَهْوِي، هَواءً: إذا خَلا، والهَواءُ: كُلُّ فُرْجَةٍ بين شَيْئَيْنِ كما بين أسْفَلِ البَيْتِ إلى أعلاه، وأسْفَلُ البِئْرِ إلى أعلاها[6]، ويأتي بمعنى الجَبانِ؛ لِخلوِّه مِن الجُرْأة، فكأنَّه فارِغٌ[7]. والجمع: أهْوِيَةٌ[8]، والمُرادُ بالهواء في الآية: الخَلاءُ، أي أفئدتهم كالهَواءِ في الخُلوِّ مِنَ الإدْراكِ لِشِدَّةِ الهَوْلِ[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يصف ربنا ﷻ حال الظّالمين يومَ يَخْرُجون مِن قبورِهم مُسرعين لإجابة الدّاعي للحساب، رافعي رُؤوسِهم: لا تعودُ إليهم أبصارُهم، ولا يستطيعون السَّيطرةَ عليها، ولا يتمكَّنونَ من توجيهها حيث شاؤوا،

في موقف الحساب تنقلب فيه أحوال الظّالمين، ويغيب عنهم صوابهم، وتفلت منهم جوارحهم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فأد).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/99.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (فأد).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/241.
(5) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (هوا، هوي).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (هوا).
(7) الخليل، العين: (هوى).
(8) ابن دريد، جمهرة اللغة: (هوي).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/247.

أو الطَّرْفِ بأعيُنِهم كما أرادوا، وقلوبُهم خاليةٌ ليس فيها شَيءٌ؛ ولا تعقِلُ شيئًا من شدَّةِ الخَوفِ، رافعي رؤوسهم، لا يُبصرون شيئًا لكثرة الخوف والوَجَل مِن هَوْل ما يرون في ذاك الموقف العصيب(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

إيثار لفظ ﴿مُهۡطِعِينَ﴾:

الإهطاعُ إسراعٌ في ذُلٍّ وتَرَقُّبٍ

هذه الآيةُ المبارَكة مِن الآيات الّتي كَشَفت عن أحوال الظّالمين يوم الجزاء والحساب وما يكونون عليه من هيئةٍ مُشفقةٍ، نحو قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ٤٩﴾ [الكهف: 49] وتصوِّر حالهم إذا دُعوا إلى الحساب يوم القيامة نحو قوله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ [القمر: 7 - 8]، وقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣﴾ [المعارج: 43] وأوثر لفظ ﴿مُهۡطِعِينَ﴾ دون غيره؛ لجَمْعِهِ بَيْنَ حالتي الإسراع والذُّلّ، أي أنَّهم مُسرعون إلى الحساب في ذُلٍّ وخوف وهلع كإسراعِ الخائف والأسير، مأخوذٌ من أهطع يُهطِع إهطاعًا إذا أسرع، ومثله قوله تعالى: ﴿مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ٨﴾ [القمر: 8]، والمُهْطِعُ أيضًا هو الَّذي يَنْظُر في ذُلٍّ وخُشوعٍ.

إنَّ هؤلاء الظّالمين المتكبّرين الَّذين كانوا يسيرون في الأرض مَرَحًا، ويملؤونها جورًا يسيرون في ذلك اليوم العظيم أذِلّاء مَذعورين نحو البَلاء مُجيبين لأوَّل داعٍ دون إعراض أو تلكُّؤٍ أو تَرَدُّد؛ لأنَّهم لا يملكون الّا الإذعانَ والإجابةَ.

(1) نُخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 261.

فالمُهْطِع يظهر مِن فَرْط تسرُّعِه وكأنَّ رَقَبَته قد طالتْ، وكأنَّ الجزاء بالعذاب يجذِبه ليقرّبَه، فَيُدفَع في شدَّةٍ وجفوةٍ إلى العذاب، يقول الحقُّ سبحانه: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾﴾ [الطور: 13]، وكأنَّ هناك مَنْ يدفعهم دَفْعًا إلى مصيرهم المُؤْلِم[1].

سرُّ استعمال الاسم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ بدلًا من الفعل:

ثبات الوَصْف ومُلازمته لهم

أوثر استعمال الاسم ﴿مُهْطِعِينَ﴾ الَّذي وقع حالًا بدلًا من الفعل؛ للدَّلالة على ثبات هذا الوصف في حقِّهم، ومُلازمتِه لهم في ذلك اليومِ العظيم.

إيثار الوصف الفريد ﴿مُقْنِعِي﴾، ودلالته:

الكِناية عن شِدَّة الذُّل والهَوان

الإقناع: رَفْعُ الرأسِ وإدامةُ النَّظر من غيرِ التفاتٍ إلى غيرِه، ومنه قولُ الشَّمّاخ يَصِفُ إبلًا تَرْعى أعالي الشَّجر فترفع رؤوسَها:

يُباكِرْن العِضاهَ بمُقْنَعاتٍ *** نواجِذُهُنَّ كالحَدأ الوَقيع[2].

يَعْنِي: بِرُءوسٍ مَرْفوعاتٍ إِلَيْها لِتَتَناوَلَهُنَّ[3]، فقول اللّه تعالى: ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ حالٌ ثالثة تكشف عن هيئة الظّالمين يوم القيامة، وإقناعُ الرَّأس: رَفْعه.

ومعنى الجملة هُنا: رافعوا رؤوسِهم ينظرون في ذُلٍّ وصَغار، والجملةُ كناية عن صِفةٍ هي شِدَّة الذُّل والهَوان والصَّغار، قال البقاعيُّ: "﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾: أيْ رافِعِيها وناصِبِيها ناظِرِينَ في ذُلٍّ وخُشوعٍ إلى جِهَةٍ واحِدَةٍ، وهي جِهَةُ الدّاعِي، لا يَلْتَفِتونَ يَمِينًا ولا شَمالًا، وهَذا كِنايَةٌ عَنْ أشَدِّ الذُّلِّ والصَّغار"[4].

وقيل: إنَّ الكلمة (مُقنع) مِن الأضداد، فيكونُ بمعنى:

---

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7597.

(2) البيت من بحر الوافر، وهو للشماخ بن ضرار. ينظر: الشّمّاخ، ديوان الشّمّاخ، ص: 56.

(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/159.

(4) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/434.

طَأْطَأها ونَكَّسها فهو من الأضداد ذِلَّة وخضوعا[1]؛ والآيةُ الكريمة تحتمل ذلك.

بلاغة الإطناب في وصف أحوال الظّالمين:

إدخال الرَّوْعِ فِي قَلْبِ السّامِعِ

أطنبَ النَّظم الكريم في وصف أحوال الظّالمين بذكر إهطاعهم وإقناع رؤوسهم يوم القيامة لإدْخال الرَّوْعِ والمهابة فِي قَلْبِ السّامِعِ.

عِلَّة فصل جملةِ ﴿لَا يَرۡتَدُّ﴾:

احتمال الجملة للبدليَّة المانعة من العطف بالواو

هذه جُملة ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ حاليَّةٌ ثالثة كاشِفة وواصِفة لحال الظّالمين في الحَشْر، والجُملة تحتمل أكثرَ مِن وَجْه إعرابيٍّ، فهي إمّا حاليَّةٌ، أو بَدَل من ﴿مُقۡنِعِي﴾ أو استئنافٌ، ومعنى الجملة: "لا يَزولُ ما اعْتَراهم مِن شُخوصِ الأبْصارِ، وتَأْخيرُهُ عَمَّنْ هو من تَتِمَّتِه مِنَ الإهْطاعِ، والإقْناعِ مَعَ ما بَيْنَهُ وبَيْنَ الشُّخوصِ المَذْكورِ مِنَ المُناسَبَةِ لِتَرْبِيَةِ هَذا المَعْنى"[2].

دلالة الكناية:

شخوص أبصار الظّالمين لهول المَنْظَرِ

﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ هذه الحالُ الرّابعة الَّتي تَصِف الظّالمين في أرض المَحْشَر؛ والطَّرْف: الجفْن، يُقال: ما طَبَق طَرْفُه: أي: جِفْنه على الآخر، ويُطْلَق أيضًا على العَيْن، قال عنترة:

وأغُضُّ طَرْفي ما بَدَت لي جارتي *** حتَّى يواري جارتي مَأْواها[3]

والآيةُ فيها تصريحٌ بشُخوص أبصار الظّالمين، حيث تَبْقى مفتوحةً لا تَطْرُف - كالمُحْتَضَر - لِما أصابها من الهَوْل، فهؤلاء الظّالمون لا يستطيعون تحريك جُفونهم، وهذا كِنايةٌ عن بقاء العين مفتوحةً على حالها لِشِدَّة هَوْل ما يُعاينونه، أو أنَّ أبصارَهم قد استغرقَتْها الأهوالُ الّتي تراها فهي فَزِعَة هَلِعَة، قد سُمِّرَت أعينهم

(1) السّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون7/121، والقرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/159.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/275.
(3) عنترة بن شدّاد، ديوانه، ص: 154.

فيما ترى مِن عذاب ذلك الهَوْل الأعظم فلا ترْجِع إليهم، ولا تعود تحت سيطرتِهم فتَرى ما يَجب أن تراه، وتمتنع عن رؤية ما ترْغَب ألّا تراه، ولَم يَعُد عليها مِن تَحَكُّم وسُلْطان[1].

سِرُّ استعمال صيغة المضارع المنفيّ:

دوام شخوص أبصارهم واستمراره لتتابع الأهوال عليهم

عبَّر النَّظم الكريم بصيغة المضارع المنفيِّ في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ﴾؛ للإشارة إلى استمرار تلك الحالة لَهُم؛ حيث تبقى أعينُهم شاخصة، أي: "لا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ تَحْرِيكُ أَجْفانِهِمْ، حَسْبَما كانَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ كُلَّ لَحْظَة؛ بَلْ تَبْقى أَعْيُنُهم مَفْتوحَةً لا تَطْرِفُ، أَوْ لا تَرْجِعُ إِلَيْهِمْ أَجْفانُهُمُ الَّتِي هِي آلَةُ الطَّرْفِ"[2].

غَرَض تقديم الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾:

عَدم سيطرة الظّالمين على عيونهم

الغرضُ مِن تقديم الجارِّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على الفاعل في قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْۖ﴾ هو بيان عَدم سيطرتِهم على عيونهم الَّتي سُمِّرَت مِن هَوْل ما تُشاهِده، وعَدَم تحكُّمهم فيها، حيث استولت عليها تلك المَرائي المُفْزِعة ومَلَكَتْها، ولم يَعُد لَهُم عليها مِن سُلطان فيستطيعون تحويلها، أو إغماض جفونها، هذا المعنى ناسبه تقديمُ الجارّ والمجرور ﴿إِلَيْهِمْ﴾ على الفاعل، ولو قيل: لا يرتَدُّ طرفُهم إليهم لضاع الغرضُ المذكور؛ حيث سيُصْبِح الغرضُ بيانَ شخوص أبصارهم أوَّلًا، وعَدَمَ ارتدادها إلَيْهم ثانيةً، لكنَّ المرادَ العكس[3].

نكتة إفراد ﴿طَرْفُهُمْۖ﴾، والعُدول عن الجمع:

تَشابه هيئة أعْيُنِ أؤلئك الظّالمين يوم القيامة

في قوله تعالى: ﴿طَرْفُهُمْۖ﴾، عدول عن الإفراد إلى الجمع؛ لِنُكْتَةٍ هي تشابُه هيئة أعْيُنِ هؤلاء الظّالمين في الطَّرفِ والسُّكون، فصارت كَطَرْف واحدٍ، وعلى هيئةٍ واحدة؛ لذا كان مِن المناسب إيثارُ المفرد على الجَمْع.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4050.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/246.
(3) عادل الروينيُّ، تأمُّلات في سورة إبراهيم، ص: 226.

العلاقة بين: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾، و﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾:

شخوص الأبصار دليل على شدَّة الدَّهشة والحَيْرَة ونفي ارتدادها دليل على دوام ذلك الشُّخوص.

قَوْلُهُ سبحانه: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ والْمُرادُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ دَوامُ ذَلِكَ الشُّخوصِ، وأما قوله تعالى: ﴿تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ۝٤٢﴾ [إبراهيم: 42] لا يدل على كَوْنَ هَذا الشُّخوصِ مُستمرًا بهم دائمًا، فقَوْلُهُ ﷻ: ﴿لَا يَرۡتَدُّ إِلَيۡهِمۡ طَرۡفُهُمۡۖ﴾ يُفِيدُ دَوامَ هَذا الشُّخوصِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى دَوامِ تِلْكَ الْحَيْرَةِ والدَّهْشَةِ في قُلوبِهِمْ[1].

سِرُّ العطف بالواو بذكر حال الأفئدة:

وصف الحال الباطن بعد وصف الحال الظاهر

في قوله تعالى ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾: الواو حاليَّة، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾: هواء مبتدأ وخبر، والجملة حال رابعةٌ، والمعنى أنَّ شخوصَ أبصارهم مُستمرٌّ، وهذا حالُهم الظّاهر، فلا تتحرَّك أجفان عيونِهم؛ بل تبقى مفتوحةً بدون حَراك لهول ما يُشاهدونه في هذا اليوم العصيب، وأمّا حالُهم الباطن فقلوبهم فارغة خالية عن الفهم، بحيث لا تعي شيئًا من شدَّة الفزع والدَّهشة[2]، ويجوز أن تكون الواو استئنافيَّة، والجملة مستأنَفة[3]، فالمعنى: بعدَ ما وصف حالَهم الظاهرَ شرع في الإخبار عن باطنهم الخائفِ الفَزِع.

إيثار استعمال لفظ الفؤاد دونَ القلب:

الفؤاد هو مَوْطِن المشاعر والأحاسيس والوعي والإدراك

قوله جلَّ شانه: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ الفُؤاد: هو العُضْوُ الَّذِي مِن شَأْنِه أَنْ يُحَمَّى بِالغَضَبِ، والتَّفَؤُّدُ: التَّحَرُّقُ والتَّوَقُّدُ، وهو اسم من أسماء الْقَلْبِ جَمْعُهُ أَفْئِدَةٌ[4]. ويُسْتَنْبَط مِنْ استخدام هذا اللَّفظ أنَّ الفؤاد هو مَوْطِن المشاعر والأحاسيس والوعي والإدراك؛ لذا أوثر استعمالُ لفظِ الفؤاد دون القلب.

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/108.
(2) طنطاويُّ، التّفسير الوسيط: 7/573.
(3) درويش، إعراب القرآن: 5/205.
(4) الفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (فأد).

سِرُّ جمع ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ﴾ وإفراد ﴿هَوَآءٞ﴾:

كَثْرةُ تلك الأفئدة الفارغة مِن العقل والفَهْم والوعي

جُملة ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ إمّا حاليَّة، وإمّا استئنافيَّة، وحيث إنَّ الغرض هو الإشارةُ إلى الكَثْرة جُمِعت الأفئدة في قوله: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾؛ للإشارة إلى كثرة تلك الأفئدة الفارغة مِن العقل والفَهْم والوعي؛ لِفَرط حيرة أصحابها وذُعْرهم ووَلَهِهم؛ وكأنَّ أفئدتَهم الفارغةَ صارت تَتَكاثرُ، وتتخالَط في ذلك اليوم المَهيب.

وأُفْرِد لفظ ﴿هَوَآءٞ﴾؛ وهو خبرٌ لجمع ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ﴾؛ لأنَّ معنى ﴿هَوَآءٞ﴾ هُنا فارغة، ولو لم يُقْصَد ذلك لقيل: (أَهْوِية) ليُطابِق الخبرُ مبتدأه[1].

سِرُّ التَّشبيه البليغ للقلوب بالهواء:

تصوير شدَّة اضطرابِ الأفئدة وفراغها

الهواء: هو الخالي من الأجسامِ ويُعبَّرُ به عن الجُبْنِ، يقال: جوفُه هواء؛ أيْ: فارغ. قال زهيرٌ[2] يصف ناقته:

كأنَّ الرَّحلَ مِنْها فوقَ صَعْلٍ *** مِنَ الظِّلمانِ جُؤجؤهُ هَواءُ[3].

والمقصود في الآية: أنَّ قلوب الكُفّار خالية يوم القيامة عن جمع الخواطر، والأفكار لِعِظَم ما نالهم من الحيرة لِما تحقَّقوهُ من العذاب، وخالية من كُلِّ سرور لكثرة ما هم فيه من الهمِّ والحُزنِ[4].

وقوله ﷻ: ﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ حالٌ رابعة، والمعنى: أنَّ أفئدتَهم قد فَرَغت مِن أسباب السَّكينة والاطمئنان والأمن، وامتلأت بأسباب الهُموم والخوف، أو أنَّ أفئدتهم لا تُدْرك شيئًا ولا تَعيه مِن شِدَّة

(1) السّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 7/123.
(2) زهير بن أبي سُلمي، ديوانه، ص: 9.
(3) الصّعل: المُنجرد شعر الرّأس والصّغير الرّأس، والظِّلمان جمع ظليم وهو ذكرُ النّعام، والجؤجؤ الصدر وجؤجؤه: صدره؛ هواء: أي لا مُخّ فيه، وجعل صدره فارغا ليكون أسرع في السّير إلى طعامه. يُنظر: الجوهري، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (هوى)، وابن سيده، المخصّص: 1/279، والجاحظ، الحيوان: 4/454، ودورىش: إعراب القرآن: 5/209.
(4) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 11/3243.

الخوف والفزع والهَلَع، والجُملة تشبيهٌ بليغ رائع لتلك الأفئدةِ الفَزِعة الطّائرة الخاوية مِن كُلِّ وَعْيٍ وإدراك.

وقد عَلَّقَ ابْنُ عَطِيَّة على هذا التَّشبيه بقوله: "﴿وَأَفۡـِٔدَتُهُمۡ هَوَآءٞ﴾ تَشْبِيهٌ مَحْضٌ، لِأَنَّها لَيْسَتْ بِهَواءٍ حَقِيقَةً، وجِهَةُ التَّشْبِيه يُحْتَمَل أَنْ تَكونَ في فَراغِ الأَفْئِدَةِ مِنَ الخَيْرِ والرَّجاءِ والطَمَعِ في الرَّحْمَةِ، فَهي مُنْخَرِقَةٌ مُشْبِهَةٌ الهَواءَ في تَفَرُّغِه مِنَ الأَشْياءِ وانْخِراقِه، ويُحْتَمَلُ أَنْ يَكونَ في اضْطِرابِ أَفْئِدَتِهِمْ وجَيَشانِها في صُدورِهِمْ، وأَنَّها تَجيءُ وتَذْهَبُ وتَبْلُغُ - عَلى ما رُوِيَ - حَناجِرَهُمْ، فَهي في ذَلِكَ كالهَواءِ الَّذِي هو أَبَدًا في اضْطِرابٍ"[1]، وحُذف وجهُ الشَّبه وأداته؛ كي تذهب النَّفس في وجوه الشَّبه بين الأفئدة والهواء كُلَّ مذهب.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مهطعين) و(مُسْرِعين):

الإهطاع مُختصٌّ بالإسراع المصحوب بالخوف والتَّرَقُّب والحَذَر

يدلُّ أصل مادَّة هَطَع عَلَى إقْبالٍ عَلَى الشَّيْءِ وانْقِيادٍ[2]، وأَهْطَعَ: أَسْرَعَ مُقْبِلًا خائفًا، أو أَقْبَلَ بِبَصَره على الشَّيءِ لا يُقْلِعُ عنه[3]، والمُهْطِع الَّذي لا يرفع رأسه. والإهطاع: بمعنى الإسراع، ومنه ما أَنْشَدَ ابن برِّي:

وبِمُهْطِعٍ سُرُحٍ كأنَّ زِمامَهُ *** في رأسِ جذْعٍ مِنْ أوالٍ مُشَذَّبِ[4]

ومثله أيضًا قول الشّاعر:

بمُسْتَهطعٍ رَسْلٍ كأنَّ جَدِيلَهُ *** بقَيْدومِ رَعْنٍ مِنْ صَوامٍ مُمَنَّعُ[5]

أمّا الإسراع فهو المُبادرة والتّعجيل، تقولُ: أسرع يُسرِعُ إسراعًا

(1) ابن عطِيّة الأندلُسيّ، المُحرِّر الوجيز، ص: 1060.
(2) ابن فارس مقاييس اللُّغة: (هطع).
(3) الفيروزاباديّ، القاموس المُحيط: (هطع).
(4) البيت من الكامل، وهو لابن برّي، الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 5/324.
(5) البيت من الطّويل، وهو بلا نسبة في كتب الأدب والمعاجم: يُنظر: الزّمخشري، أساس البلاغة: 2/376، وابن منظور، لسان العرب، والأزهري، وتهذيب اللُّغة وتاج العروس: (صوم)، (قدم).

فهو مُسرِعٌ وسرِيعٌ أي: بادر وعجّل، والاسمُ: السُّرعةُ، وضِدُّ الإسراع: الإبطاءُ والتّأخِيرُ، ويُستعملُ فِي الأجسام والأفعالِ، والمُسارعةُ: المُسابقةُ، يُقالُ: سارعتُ فُلانًا أي: سابقتُهُ ونافستُهُ، وسرعانُ النّاسِ: أوائِلُهُمُ الّذِين يسبِقون إلى الأمرِ، ومِن معاني الإسراع أيضًا: الجِدُّ والإقدامُ[1].

والخُلاصة: أنَّ كِلا اللَّفظين يشترك في الدِّلالة على السُّرعة، لكنَّ الإهطاعَ يختصّ بالإسراع المصحوبِ بالخوف والتَّرقُّب والحَذَر.

القِناع والغِطاء:

الغطـاء أعـمُّ وأشـمـل مـن القناع

القِناع في اللُّغة يَدُلُّ عَلَى الْإقْبالِ عَلَى الشَّيء، وقَنِعَ بِنَفْسِه قَنَعًا وقَناعةً: رَضِيَ. وأقْنَعَ رأسَه: رفعه، والقِناعُ والمِقْنَعةُ: ما تتَقَنَّعُ بِهِ المرأةُ مِنْ ثَوْبٍ تُغَطِّي رأْسَها ومحاسِنَها، وألقى عَنْ وجْهه قِناعَ الحياء، عَلَى المَثَلِ، وقَنَّعه الشَّيبُ خِمارَه إذا عَلاهُ الشَّيبُ، وَرُبَّما سَمَّوُا الشَّيْبَ قِناعًا لِكَوْنِهِ موضعَ القِناعِ مِنَ الرأْس[2].

أمّا الغِطاء فهو كل ما يُجْعَل فَوْقَ الشَّيء يَحْجُبه ويَسْتُره كالغِشاء، ويُقال: غَطَّيْتُ الشَّيْءَ وَغَطَّيْتُهُ، والْغِطاءُ: ما تُغُطِّي بِهِ؛ وَغَطا اللَّيْلُ يَغْطو، إذا غَشَّى بِظَلامِهِ[3].

الفؤاد والقلب:

الفؤاد هو غِشاء القَلْب، والقلب أخصُّ مِن الفؤاد

يَدُلُّ أصل مادَّة الفؤاد على حُمَّى وَشِدَّة حَرارَةٍ، ومِن ذَلِك: فَأَدْتُ اللَّحْمَ إذا شَوَيْتُهُ، والْفُؤادُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِحَرارَتِه[4].

أمّا القلب فيَدُلُّ أصل مادَّته عَلَى شيئين: الأَوَّل: خالِص شَيْءٍ وَشَرِيفه، والْآخَرُ عَلَى رَدِّ شَيْءٍ مِنْ جِهَةٍ إلَى جِهَةٍ، فالْأَوَّلُ الْقَلْبُ:

(1) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (سرع).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ، وابن منظور، لسان العرب: (قنع).
(3) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (غطو).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).

قَلْبُ الْإِنْسانِ وَغَيْرِه، سُمِّيَ لِأَنَّهُ أَخْلَصُ شَيْءٍ فِيهِ وَأَرْفَعُه، وَخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ وَأَشْرَفُهُ قَلْبُه، وسُمِّي القَلْبُ قَلْبًا أيضًا لِتقلُّبه وتَحَوُّلِه[1].

وفي القرآن الكريم وَرَد اسم القلب بمعنى الأداةِ الدّاخليَّة الَّتي وظيفتُها التَّعقُّل، ومركزُه الصَّدْر، ويُطْلَق على المعاني الَّتي تَخُصُّ العِلْم والفَهْم والشَّجاعة، وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: 37]، أي عِلْم وفَهْم.

ولا تكاد المعاجمُ اللُّغوية تُفَرِّق بين الفؤاد والقلب، لكن وَرَدَ في القرآن الكريم ما يُؤَكِّد على وجود فَرْقٍ بينهما وهو قوله تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠﴾ [القصص: 10]، ومِمّا يُلْحَظ أيضًا في استعمال البيان القرآنيِّ للكلمتيْن أنَّ القَلْب يُذْكَر قَبْل السَّمْع والبَصَر دائمًا، أمّا الفؤاد فيُذْكَرُ بَعْد السَّمْع والبَصَر دائمًا، ومن شواهد هذا قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٧﴾ [البقرة: 7]، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ٣٦﴾ [الإسراء: 36].

"قال بعضُ العلماء: إنَّ القلب هو الفؤاد، وبعضُهم قال: إنَّ الفؤاد ليس هو القلب، وإنَّما هو غشاء القلب؛ لأنَّ العربيَّة دقيقة، تُسمِّي كلَّ جزء باسمه، وهذا الَّذي يترجَّح؛ أيْ: إنَّ الفؤاد هو الغشاء وما في داخله؛ لأنَّ أصل الفؤاد من التَّفَوُّد، وهو التَّوقُّد والحُرقة، فكأنَّ القلب هو موضعُ هذه الأشياء، فلذلك استُعْمِل هكذا في هذا المكان"[2].

وأيضًا فإنَّ الفؤاد ليس محَلُّه الصَّدْرَ فهو غير القلب بدليل قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحَجّ: 46]، فالفؤاد هو غِشاء القَلْب، والقلب أخصُّ مِن الفؤاد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قلب).

(2) السّامرائيُّ، لمسات بيانيّة، ص: 127.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ٤٤﴾ [إبراهيم: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذُكِرَ في الآية السّابقة وَصْف الكُفّار وحالهم عِنْد البَعْث في القيامة، وفي هذه الآية عودةٌ إلى خطاب النَّبيِّ ﷺ وأمره بالإنذار فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾، فبعد أن وصف الله تعالى له حال الظّالمين في ذلك اليوم العظيم أمره بإنذارهم منه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَنذِرِ﴾: أَصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[1]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، وهو المُحَذِّرُ مِنْ شَرٍّ يُتَوَقَّعُ، والجَمْعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[2]، وَمِنْهُ النَّذْرُ، وَهوَ أَنَّهُ يَخافُ إذا أَخْلَفَ[3]، والمُرادُ بالإنْذارِ في الآيةِ: الإِخْبارُ بما فيهِ تَوَقُّعُ ضُرٍّ، وَضِدُّهُ البِشارَةُ.

2) ﴿أَجَلٖ﴾: أصلُ الأَجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، وَقَدْ صَرَّفَهُ الخَليلُ فقالَ: أجِلَ هذا الشَّيءُ وهو يأْجَلُ، والاِسمُ الآجِلُ نَقيضُ العاجِلِ، والأجيلُ المُرْجَأُ، أي: المُؤَخَّرُ إلى وَقْتٍ، والآجِلَةُ: الآخِرَةُ[4]، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عِبارة عن دنوِّ الموت[5]، وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ٣٨﴾ [الرعد: 38]، أي: تَعْيينٌ وتَحديدٌ لا يَتَقَدَّمُهُ ولا يَتأَخَّرُ عنه. وقَولُهُم: (أجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأَنَّهُ يُريدُ انتهَى وبَلَغَ الغايَةَ[6]، والمقصود بالأجَلِ في الآية: الوقتُ المـوَقَّتُ بِهِ عَمَلٌ مَعْزومٌ أو مَوْعودٌ[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نذر).
(2) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللُّغة: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/164.

3) ﴿نُّجِبۡ﴾: أصْلُ (جوب) يَدُلُّ على مُراجَعَةِ الكلام، يُقالُ كلَّمَهُ فأجابهُ جَوابًا، وقد تَجاوبا مُجاوبةً[1]، والفِعْل: أجابَ يُجيبُ، والمَصْدَرُ الإجابةُ، والاِسْمُ الجابةُ، بِمَنْزِلَةِ الطّاعةِ والطّاقَةِ[2]، وجَوابُ الكلامِ هو ما يَقطَع الجَوْبَ فيَصِل من فَمِ القائل إلى سَمْعِ المُستمع، لكن خُصَّ بما يَعود مِن الكلام دون المبتدأ من الخطاب، قال تعالى: ﴿۞فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ﴾ [النّمل: 56]، والجواب يُقال في مُقابلة السُّؤال[3]، والاستجابة قيل: هي الإجابة، وتحقيقه ما قاله الرّاغب: هو تحرّي الجواب وتهيّؤه له، لكن عُبِّر به عن الإحاطة لقلّة انفكاكها منها، قال تعالى: ﴿ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 24][4]، والمُرادُ بالإجابَةِ في الآية: إعْطاءُ الْأَمْرِ المَسْؤولِ، أي: نُجب فيه دعوة الرُّسل إلى توحيدك، وإخلاص العبادة لك، بعد أن جحَدنا ذلكَ[5].

4) ﴿دَعۡوَتَكَ﴾: الدُّعاءُ: النِّداءُ، وأصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلام يكون مِنْكَ، ومنه سُمِّيَت الرَّغْبَةُ إلى اللهِ ﷻ دُعاءً. تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا، دُعاءً ودَعْوَةً، أَيْ: نادَيْتُهُ[6]، والدَّعْوَةُ: المَرَّةُ الواحِدَةُ من الدُّعاءِ[7]، ويأتي الدُّعاءُ بمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللهَ، أَدْعوهُ، أيْ: سَأَلْتُهُ[8]، ويُطلَق على الحَثِّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ، أيْ: حَثَّهُمْ ورَغَّبَهُم[9]، والمقصودُ بالدّعوة في الآية: الحَثُّ إلى الشَّيْءِ والتَّرْغيب فِيهِ، والمُرادُ بها: أوامِرُ التَّكْليفِ وَنَواهِيه.

5) ﴿زَوَالٖ﴾: أصْلُ الزَّوْلِ يَدُلُّ على تَنَحّي الشَّيءِ عَنْ مَكانِه[10]، ومنه الزَّوالُ: التَّحَوُّلُ والاِنْتِقالُ، يُقال: زالَ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، أي: انْتَقَلَ وتَحَوَّلَ[11]، ويُطْلَق بِمعنى ذَهاب الشَّيْءِ، يُقال: زالَ الشَّيْءُ، يَزولُ، زَوالاً، أيْ: ذَهَبَت حرَكَتُهُ ومن مَعانِيه: التَّنْحِيَةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جوب).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (جوب).
(3) الراغب، المفردات: (جوب).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جوب).
(5) المراغي، تفسير المراغي: 13/166.
(6) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: (دعا - دعو).
(7) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (دعا).
(8) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).
(9) الأمير، التّحبير لإيضاح معاني التّيسير: 4/5.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زول).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (زول).

والإبْعادُ، يُقال: أزَلْتُ الشَّيْءَ إزالَةً: إذا نَحَّيْتُه وأبْعَدْتُه[1]. ويأتي بِمعنى الاسْتِحالَةِ والاِضْمِحْلالِ، وزوالِ المُلْك، والجَمْعُ: أزْوالٌ[2]. والمقصودُ بالزَّوالِ في الآيةِ: الاِنْتِقالُ مِنَ المَكانِ، وَأُريدَ بِهِ هُنا الزَّوالُ مِنَ الْقُبورِ إلَى الْحِسابِ[3].

المَعْنى الإجْمالِيُّ:

تحذيرٌ للظّالمين قبل فوات الأوان

وأنذر - أيُّها الرَّسول ﷺ - أُمَّتَك مِن عذاب الله يوم القيامة؛ إذ يقول الَّذين ظلموا أنفسهم بالكفر يومئذٍ: ربَّنا أمْهِلْنا قَليلًا حتَّى نُؤْمِن بك ونُصَدِّق رُسُلَك، فيُجابون توبيخًا: ألم تَحْلِفوا في حياتكم الدُّنيا أنَّكم مُخَلَّدون فيها، وأنَّكم لن تفارقوها إلى الآخرة مُنْكرين البَعْث والنُّشور بَعْد الموت؟[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾:

عَطْف جملة على جملة تحذيرًا من مُشابهة الظّالمين الموصوفة أحوالهم

الواو في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ عاطِفة، حيث عُطِفَتْ جُملة ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ على جُملة ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ [إبراهيم: 42]؛ "لأنَّه قد تمَّ وَصْفُ الكفّارِ وَحالِهِمْ عِنْد البَعْث في القيامة، ثُمَّ عاد إلى خطاب النَّبيِّ ﷺ، وَأمْره بالإنذار فقال: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾"[5] تحذيرًا من مُشابهة الظّالمين الموصوفة أحوالهم في الآية السّابقة.

غرض الأمر بإنذار النّاس:

الإنذار مُتَّجِه لما يجري في هذا اليوم مِن أهوالٍ تقشعرُّ منها الأبدان

في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ المُخاطَبُ بالأمر هو الرَّسول الكريم ﷺ، والغرضُ من الأمر الدَّوام، والمعنى: أنذرهم في الدنيا

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (زول).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (زول).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/248.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/248.
(5) جماعة من علماء التّفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 261.

قبل أن يأتيهم العذاب[1] وداوم على إنذار النّاس يوم يأتيهم العذاب؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ملتزمٌ بإنذارهم.

نوع (ال) في ﴿ٱلنَّاسَ﴾ بين الجنس والعهد:

الإنذار كما يكون للكافر تهديدًا يكون للمُسلم وعظًا وتذكيرًا

(ال) في قوله ﴿ٱلنَّاسَ﴾ لِلْجِنس والمُراد عموم الأُمَّة، أو عهديَّةٌ إن كان المُراد الكُفّار، "والأولُّ أوْلى لأنَّ الإنذار كما يكون للكافر يكون أيضًا للمُسلم، ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: 11]، بَيْدَ أنَّ المؤمن الصّالح يتَّعظ بالإنذار فيُذْعِنُ للنُّصْح، ويستجيبُ لَه فيَنْجو مِن العِقاب، والكافر لا يستجيب فيَحِلُّ عليه العذاب والشَّقاء[2].

وقد أشار أبو السُّعود إلى نُكْتةِ اعتبارِ (ال) عهديَّة، أو جِنْسيَّة فقال: "﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾: للإشعارِ بأنَّ المُرادَ بالإنذارِ هو الزَّجرُ عمّا هم عليه مِن الظُّلم؛ شفقةً عليهم، لا التَّخويف للإزعاج والإيذاء؛ فالمُناسِبُ عدَمُ ذِكْرِهم بعنوانِ الظُّلم، وعلى القول بأنَّ المرادَ: النّاسُ جميعًا: فإنَّ الإنذارَ عامٌّ للفريقَيْن، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ [يس: 11]، والإتيانُ يعُمُّهما مِن حيثُ كونُهما في الموقِفِ، وإنْ كان لُحوقُه بالكُفّارِ خاصَّةً؛ أيْ: أنذِرْهم وخوِّفْهم[3].

بلاغة المجاز في إيقاع التَّخويفَ باليوم:

تعظيم شأن ذاك اليوم وتهويل ما يقع فيه

المقصود من اليوم في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ يومُ القيامة؛ و﴿يَوْمَ﴾ مَفْعول ثانٍ لِأَنْذِر، ولا يَصِحُّ أنْ يَكونَ ظَرْفًا؛ لِأنَّ يومَ القيامة يومُ حِساب، لَيْسَ بِزَمانٍ لِلْإِنْذار[4]، والإنذار مُتَّجِه لما يجري في هذا اليوم مِن حال تقشعرُّ مِن هَوْلِها الأبدان، إذ تكون أبصارُهم فيها شاخصة، خَوْفَ العذاب الأليم الَّذي هو في ذاته هَوْلٌ أكبر، ولكن جَعَلَ التَّخويفَ لليوم من إطلاق اسم المحلِّ وإرادة

(1) حكمت ياسين، الصّحيح المسبور من التّفسير بالمأثور: 3/143.
(2) القنوجيُّ، فتح البيان: 7/132.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/451.

الحالِّ[1] بطريق المجاز المرسل بعلاقة المحليَّة فالإيقاع عليه مجازي والمُراد ما وقع فيه، وإنَّما أوقع عليه لما في الإبهام من التَّهويل ما لا يخفى لأنَّ في ذلك اليوم الذي وصف ما يُذهب الألباب[2].

فائدة الاقتصار بذكر اتيان العذاب دون الثَّواب:

المقـام مقام تهديدٍ ووعيد وزَجْر وترهيب

اقْتُصِر في قوله: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ على ذِكْر إتيان العذاب مع كَوْن يوم القيامة يومَ إتيان الثَّواب أيضًا؛ لأن المقامَ مقامُ تهديدٍ ووعيد وزَجْر وترهيب، فكان مِن المُلائم ذِكْرُ أهواله، وشدائده، وأحوالِ الظّالمين فيه.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

الإشـارة إلى المعهود السّابق من أحوال عذابهم

(ال) في لفظة: ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ للمعهود السّابق؛ أيْ: وأنذرهم يومَ يأتيهم العذابُ الَّذي تقدَّم ذكرُه، وهو شخوصُ الأبصار، وكونُهم مهطعين مقنعي رءوسهم[3].

سِرُّ إيثار لفظ الإتيان بدل المجيء:

التَّعبيرُ بالإتيان تحقيقًا لنزوله وسُرعة حُلوله

أوثر التَّعبيرُ بـ﴿يَأۡتِيهِمُ﴾؛ لأنَّ مادَّة الإتيان تَدُلُّ على السُّهولة واليُسْر، أمّا مادَّة المجيء الّتي فإنَّها تدلُّ على اكتمال الاتيان وتمامه[4] فإذا اكتمل الاتيان وبلغ مقصده من مكان أو زمان أو شخص أصبح مجيئا، قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾ [الأعراف: 129] فالمجيء تمام الاتيان، والإتيان هو البداية[5] فناسب التعبيرُ هُنا بالإتيان تحقيقًا لنزوله وسُرعة حُلوله.

بلاغةُ المجاز العقليّ في إسناد الإتيان إلى العذاب:

تهويل العذاب وتفظيعه حتَّى لكأنَّه يتحرك نَحْوَهم بِنَفْسه

المرادُ بالعذاب في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ عذابُ

---

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير8/4051.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/97، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/233.

(3) ابن عادل، اللّباب: 12/3243.

(4) الرّاغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أتى) و(جيء).

(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جيأ).

الآخرة، وإسناد الإتيان إلى العذاب مستعملٌ في معنى وقوعه على سبيل المجاز العقليِّ؛ فالعذاب لا يأتي من تلقاء نفسه، وإنَّما يأتي به الله ﷻ، وأصل المعنى: يوم يأتيهم الله بالعذاب، وسِرُّه تهويل العذاب وتفظيعه حتَّى لكأنَّه يتحرك نَحْوَهم بِنَفْسه[1].

دلالة الفاء في: ﴿فَيَقُولُ﴾:

سُرعة طلب الظَّالمين تأخير العذاب عنهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ عاطفة، وتَدُلُّ على سُرْعة طَلَب الَّذين ظلموا إعادتَهم إلى الدُّنيا فَوْرَ إتيان الله تعالى لَهُم بالعذاب.

فائدة التَّعبير بالفعل المُضارع في ﴿فَيَقُولُ﴾:

الدَّلالة على تكرار الطَّلب منهم واستمراره

دلَّت صيغة المضارع ﴿فَيَقُولُ﴾ على تكرار قولهم، واستمراره، ودلَّت كذلك على استحضار صورتِهم وهم يفعلون ذلك.

سرُّ التَّعبير باسم الموصول:

إتْيانُ العَذابِ يَعُمُّ كلَّ ظالم

قوله تعالى ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: أي: فيقول الظّالمون، ففي الجملة عُدولٌ عن الإضمار إلى الإظهار، وعُبِّر بالاسم الموصول؛ لِيَتَأتَّى من خلال جُملة الصِّلة الحُكْمُ عليهم بِالظُّلْم، ولِلْإشْعارِ بأنَّ ما لَقوهُ مِن الشِّدَّةِ إنَّما هو لِظُلْمِهِمْ، وإيثارُهُ عَلى صِيغَةِ اسم الفاعِلِ (الظّالمون) لِلْإيذانِ بِأنَّ الظُّلْمَ في الجُمْلَةِ كافٍ في الإفْضاءِ إلى ما ذُكِرَ مِنَ الأهْوالِ من غَيْرِ حاجَةٍ إلى الاسْتِمْرارِ عَلَيْهِ كَما يُنْبِئُ عَنْهُ صِيغَةُ اسم الفاعِلِ، وعَلى تَقْدِيرِ كَوْنِ المُرادِ بِالنّاسِ عمومهم، فَمَعْنى الَّذِينَ ظَلَموا مِنهم: الكُفّارُ، وكُلُّ مَن ظَلَمَ بِالشِّرْكِ، والتَّكْذِيبِ مِنَ المُنْذَرِينَ، وغَيْرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ الخالِيَةِ، فَإنَّ إتْيانَ العَذابِ يَعُمُّهم[2].

سِرُّ إيثار الدُّعاء باسم الرُّبوبيَّة، وحذف أداة النِّداء:

الدَّلالة على الاستعطاف والتَّوَدُّد والتَّقَرُّب إلى رَبِّهم

في إيثار الدُّعاء بالرُّبوبيَّة، والعدول عن (اللهمَّ) استعطاف منهم

(1) المطعنيُّ، التّفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/180.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/276.

لله تعالى واستجداء؛ ليُجيب رجاءهم بالعودة إلى الدُّنيا للإيمان به ﷻ، وبرُسله. وهذا المعنى يُناسبه الدُّعاء بِوَصْف الرُّبوبيَّة الّذي يَدُلُّ على الإحسان، والتَّقدير أيُّها المُحْسِنُ إلَيْنا بِالخَلْقِ والرِّزْقِ والتَّرْبِيَّةِ واللُّطْف.

وحُذِفَت أداة النِّداء في قولهم: ﴿رَبَّنَآ﴾ - كَما حكاه القرآن عنهم - للتَّوَدُّد والتَّقَرُّب إلى رَبِّهم.

الدّلالة على شُمول آثار الرُّبوبيّة للطّائع والعاصي

دلالة التَّلويح باختلاف حال الدّاعين بلفظ ﴿رَبَّنَآ﴾:

كلُّ ما أنعمَ اللّه به منَ الخَلْق والرزق والتدبير مما هو داخل في الربوبية فهو عامٌّ يشمل الكافر والمؤمن والطائع والعاصي، لأن الربوبيَّة تقتضي القيامَ على رعاية الخَلْق وتدبير أمره، وهذا من نعمه على عباده ورحمته بهم.

وقد جاء تجسيد ذلك في دعاء إبراهيم ﷺ، لمّا أراد تخصيص المؤمنين في طلبه للأمن والرزق كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾ [البقرة: 126]

وفي هذا بيانٌ أنّ الكافر له نصيبه من الرِّزق فلن يُحرم منه وذلك لعموم الرُّبوبيَّة، ولذلك فالظّالمون يتعلّقون بالرُّبوبيَّة يوم يأتيهم العذاب كما تعلّقوا بها في الدُّنيا ظَنّا منهم أنَّها تسعُهُمْ كما وسعتهم من قبلُ، والإنسان لحظةَ أن يمسّه الضُّرّ فهو يدعو بالرّبوبيّة المُتضمِّنة لمعاني الإحسان والإنعام[1].

وكلّ النِّعم من عطاء الرّبوبيَّة وهي لله يعطيها في الدُّنيا لخلقه جميعًا، وهذه رحمة، فاللّه ربُّ الجميع: من أطاعه ومن عصاه. وهذه رحمة، واللّه قابل للتَّوبة، وهذه رحمة[2].

(1) الشّعراويُّ، تفسير الشّعراويِّ: 12/7121.
(2) الشّعراويُّ، تفسير الشّعراويِّ: 1/54.

دلالة جُملة مقول القول ﴿أَخِّرۡنَآ﴾:

تصوير حالة مثولهم وخضوعهم بين يدي ربِّهم

في قوله: ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ هُنا تَلوينٌ للأسلوب مِن الحكاية إلى الخطاب والطَّلب، وكأنَّ هؤلاء الكفّار الظّالمين ماثلون خاضعون يَتَمَنَّون ويطلبون! فنَقل هذا الأسلوبُ في سرعة خاطفة حكايةَ حالهم في الدُّنيا إلى مُجابهتِهم بالخِطاب في الآخرة، وهكذا في لَمْح البَصَر تُطْوى صفحة الدُّنيا شاملةً كُلّ مافيها بِما فيها ومن فيها!.

بلاغة المجاز في التَّعبير عن الإعادة إلى الدُّنيا بتأخير العذاب:

التَّمنِّي والتَّوسُّل إظهارًا لشِدَّة النَّدامة والتَّحسُّر

عبَّر النَّظم الكريم عن الإعادة إلى الدُّنيا بتأخير العذاب في الآخرة على سبيل المجاز في جُملة ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ فالتَّأْخِيرُ مُسْتَعْمَلٌ في الْإعادَةِ إلَى الْحَياةِ الدُّنْيا مَجازًا مُرْسَلًا[1]، والغرض من هذا الطَّلب التَّمَنِّي والتَّوَسُّل إظهارًا لشِدَّة النَّدامة والتَّحَسُّر.

الكِناية في: ﴿أَخِّرۡنَآ﴾، وإيثار التعبير به:

الإشارة إلى أنَّ طَلَبهم العَوْدُ للحياة الدُّنيا من قبيل المُحال

في قوله تعالى: ﴿أَخِّرۡنَآ﴾ أي أخِّرْ العذاب عَنّا أو رُدَّنا إلَى الدُّنْيا[2] والكِنايةُ عن إعادتهم إلى الحياة الدُّنيا ليؤمنوا باللّه وبرسله، وفي هذه الكناية إشارَة إلَى أن هذا الطَّلب الذي يتضمَّنُ الرَّدَّ إلَى الدُّنْيا؛ بعد خرابها وزوالها هو من قبيل التَّمني الْمُنْظَمِّ للمُحال[3].

فائدة وَصْف الأجَل بكونه قريبًا:

في وُصِفَ الأجَل بقريب في قوله تعالى ﴿رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ تَلْيينٌ في الخِطاب، ووسيلة منهم لاستجابة اللّه تعالى لدعائهم[4].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/248.

(2) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 3/202.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/97.

(4) المطعنيُّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/180.

تصوير شدَّة افتقارهم ولو إلى القليل من الوقت رجاء تدارك ما فات

دلالة الاستعارة في وصف الأجل بالقُرب:

في قوله ﷻ: ﴿أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ القريبُ هو القليل، فَفيه استعارةٌ مكنيَّة؛ حيث شُبِّه الزَّمان بالمَسافَةِ، ثمَّ حذف المشبَّه به، ورُمِزَ إليه بشيءٍ من لوازمه، وهو القُرْبُ، أيْ أخِّرْنا مِقْدارَ ما نُجيبُ بِهِ دَعْوَتَكَ[1]، وفي هذه الاستعارة تصويرٌ لشدة افتقارهم ولو إلى القليل من الوقت رجاء تدارك ما فاتهم من إجابة الرسل واتِّباعهم.

التَّكثيرُ لإطالة المُـدَّةِ وطَلَبِ المُهلَة

فائدة تنكير ﴿أَجَلٖ﴾:

أفاد التَّنكيرُ في لفظة ﴿أَجَلٖ﴾ هنا في قوله تعالى ﴿أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾ التَّكثيرَ؛ لأنَّهم يريدون إطالة المدَّة تنفيسًا لهم مِمّا هم فيه من الكرب والشِّدَّة.

الجزمُ لكونه جوابا للأمر، والدّعوةُ للإيمان بأركانه

وَجْهُ الجزم في إجابتهم الدَّعوة، والمراد بها:

عِلَّةُ الجَزْم في قولهم ﴿نُّجِبۡ﴾ لوقوعه جوابًا للأمر في قوله: ﴿أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ﴾.

والمرادُ بالدَّعوة هُنا الإيمانُ بما أرسله الله تعالى إليهم عن طريق رُسُله من توحيده، وعَدَم الشِّرْك به، والإقرار بألوهيَّته سبحانه ورُبوبيَّته.

الدعوة إلى التوحيد من الله والرُّسل عليهم السلام هُم المُبَلِّغون لها

نكتة الإضافة في: ﴿دَعۡوَتَكَ﴾:

أضيفت الدَّعوة في قوله تعالى: ﴿نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ﴾ إلى ضمير المخاطَب بدلًا مِن (دعوة رسُلِك)؛ لأنَّ دعوة الله تعالى هي الأصل، والرُّسُل عليهم السلام هُم المُبَلِّغون لها؛ لذا قَدَّم الظّالمون وَعْدَهم إجابة دعوة الله تعالى، وأخَّروا اتِّباع الرُّسُل عليهم السلام؛ لأنَّ المُقَدَّم أصْلٌ وهو (دعوة الله تعالى).

فائدة العَطْف والتّميم في جُملة ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾:

عُطفت الجملة في قوله تعالى: ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾ على ما قَبْلَها مِن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/248.

باب عَطْف الخاص على العامّ، والنُّكْتة في ذِكْر الخاص "لاستدراك ما بَدَرَ منهم من تكذيب الرُّسُل، والسُّخْرية منهم"(1)، والمعنى: نُطيع رُسُلَك، ونُصَدِّقُهم، ولا نستكبر عليهم؛ بل نكون لهم تَبَعًا وفي هذا وعد بكمال الانقياد والطّاعة.

وَعْـدُ الظّالمين بتَصديق الرُّسُل عليهم السلام بيان لكمال الانقياد والطّاعة

دلالة الجمع في لفظة ﴿ٱلرُّسُلَۗ﴾:

جاء التَّعبير عن الرُّسُل عليهم السلام بالجَمْع ﴿وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ﴾؛ والجمعُ إما باعتبار اتفاقِ الجميع على التوحيد فاتِّباعُ واحدٍ منهم اتِّباعٌ لَهُم جميعًا عليهم السلام، وكونِ عصيانهم للرسول صلى الله عليه وسلم عصيانا لهم جميعاً وإما باعتبار أنَّ المحكي كلام ظالمي الأمم جميعًا والمقصودُ بيانُ وعدِ كُلِّ أمةٍ باتِّباع رسولها(2).

اتِّـفـاق دَعـوة الـرُّسُـل عليهم السلام في كَوْنها للتَّوحيد

معنى (ال) في ﴿ٱلرُّسُلَۗ﴾:

المُراد ب(الرُّسُلِ) في هذا المقام هُم الرُّسل الَّذين أُرسلوا إليهم فقد كانوا يعرفونهم بأعيانهم في الدنيا و.

التَّعريف مُفيدٌ للعهد

سرُّ الجواب بالاستفهام ودلالة العدول عن الجواب بالرَّفض:

في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ بدايةُ الرَّد على طَلَب الظّالمين بتَأخير العذاب، وجاء هذا الرَّد بأسلوب الاستفهام موَبِّخًا لَهُم، ومُقَرِّعًا، ومُقرِّرًا، حيث ساقهم سَوْقًا إلى ساحة الخِطاب؛ لِيَقْذِفَ في وجوههم هذا الرَّدَّ الصّادِمَ المُخَيِّب لِأُمْنِيَّتهم، يُذَكِّرهم بِما قالوه تَجَبُّرًا وجَهْلًا، "فالجملةُ الكريمة تحكي رفضَ مطالبهم بأبلغ أسلوبٍ؛ حتَّى يزدادوا حُزْنًا على حُزْنهم، وحَسْرةً على حَسْرتهم"(3)، والاستفهام للتَّقرير والتَّوبيخ والتَّبكيت.

توبيخ الظّالمين وتقريعهم بما يستلزم رَدَّ طلبهم وتخييب أمنيَّتهم بأبلغ أسلوب

وقَدْ أبانَ ابن عاشور عن عِلَّة العدول عن الجواب بالرَّفض إلى

(1) المطعنيُّ، التّفسير البلاغيُّ للاستفهام في القرآن الحكيم: 2/180.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: (5/56).
(3) الرُّوينيُّ، تأمُّلات في سورة إبراهيم، ص: 229.

الجواب بالاستفهام فقال: "لَمّا ذُكِرَ قَبْلَ هَذِهِ الجُمْلَةِ طَلَبُ الَّذِينَ ظَلَموا مِن رَبِّهِمْ تَعَيَّنَ أنَّ الكَلامَ الواقِعَ بَعْدَها يَتَضَمَّنُ الجَوابَ عَنْ طَلَبِهِمْ فَهو بِتَقْدِيرِ قَوْلٍ مَحْذوفٍ، أيْ: يُقالُ لَهم، وقَدْ عُدِلَ عَنِ الجَوابِ بِالإجابَةِ أوِ الرَّفْضِ إلى التَّقْرِيرِ والتَّوْبِيخِ؛ لِأنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ رَفْضَ ما سَألوهُ"[1].

سِرُّ افتتاح الجواب بواو العَطْف في: ﴿أَوَلَمۡ﴾:

التَّنبيه عَلى مَعْطوفٍ عَلَيْهِ مُقَدَّرٍ هو رَفْضُ ما سَألوهُ

قائلُ هذا الجواب لَهُم هو اللّٰهُ تعالى، والمعنى: أولم تكونوا - أيُّها الظّالمون - تُقْسِمون بالأيمان المُغَلَّظة في الدُّنيا بأنَّكم بَعْد موتكم ستبقون في قبوركم إلى أن تَبْلَى أجسادُكم، وأنَّه ليس بَعْد ذلك مِن بَعْث ولا حِساب ولا ثواب ولا عِقاب[2].

والواو في ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ للعَطْف على محذوف تقديره: أتقولون هذا الآن، وقد كُنْتُم أقْسَمتم في الدُّنْيا أنَّكم لن تُبْعَثوا ولن تُحشروا؟!.

"وافْتُتِحَتْ جُمْلَةُ الجَوابِ بِواوِ العَطْفِ تَنْبِيهًا عَلى مَعْطوفٍ عَلَيْهِ مُقَدَّرٍ هو رَفْضُ ما سَألوهُ، حُذِفَ إيجازًا؛ لِأنَّ شَأْنَ مُسْتَحِقِّ التَّوْبِيخِ أنْ لا يُعْطى سُؤْلَهُ، فالتَّقْدِيرُ: كَلّا، و﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾... إلى آخره"[3].

بلاغة الحذف بين همزة الاستفهام، وحرف العطف في: ﴿أَوَلَمۡ﴾:

دلالة حالهم على سابق مقالهم

تقدير الكلام هُنا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾: أجحدتم أو أعرضتم وأقسمتم ما لكم من زوال، وإنَّما وقع الحذف في هذه الجملة الكريمة لدلالة حالهم على سابق مقالهم.

فائدة فعل الكَوْن ﴿تَكُونُوٓاْ﴾:

الدَّلالة على المُكْنة في اغترارهم والرُّسوخ في كُفرهم وافتخارهم

في التَّعبير بفعل الكَوْن إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا في غايَةِ المُكْنَة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/248.
(2) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/212.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/249.

والاغترار بالأمَل، والزَّهو والافتخار بالنَّفْس مع الرُّسوخ في الكفر والتَّكذيب.

نكتة العدول بما ذُكِر عن (أولم تُقْسِموا):

الإشـــارة إلى تحقُّق قسمهم وتـأكُّـدِ سوء مقالهم وقبيح فِعالهم

قوله تعالى ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم﴾ أيْ جَهلًا وسَفَهًا أوْ أَشَرًا وبَطَرًا؛ وعُدِل عَن قول (أوَ لم تُقْسِموا): لأنَّ التَّقدير على إرادة القول، فَهُم إمّا أن يكونوا قد قالوا هذا نَصًّا بِلِسان مقالهم، وإمّا أن يكونوا قالوه بلسان الحالِ حيث بَنَوْا شديدًا وأمَّلوا بعيدًا[1]، وفي التَّعبير بالماضي ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾ إشارة إلى تَحَقُّق قَسَمِهم وتَأكُّدِه سواء كان بلسان الحال، أو بلسان المقال.

معنى: ﴿مِّن﴾:

إفـادة الابـتـداء الـدّالِّ على عدم التَّفَكُّر والاعتبار

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ هُنا ابتدائيَّة، أي أنَّكم أقسمتم من أوَّل الأمر وقبل التَّفكُّر فيه وقبل النظر والاعتبار بمن أهلك من قبلكم من أمم الكُفْرِ.

فائدة القَيد بالظَّرف المجرور:

الإشـارة إلى أنَّ وَقْت إقْسامِهِمْ لَـــمْ يَـكُـنْ مُسْتَغْرِقًا لِلزَّمان

قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ أي حين كنتم في الدُّنيا ودَلَّ التَّعبير بالظَّرف المجرور في أنَّ وَقْت إقْسامِهِمْ لَمْ يَكُنْ مُسْتَغْرِقًا لِلزَّمان.

سِرُّ الإيجاز بالحذف في: ﴿مِّن قَبۡلُ﴾:

الـدَّلالــة على حقارة ما كانوا فـيـه، وسرعة انقضائه

وفي قوله: ﴿مِّن قَبۡلُ﴾ أي في حياتكم الدُّنيا إيجازٌ بالحَذْف للعلم بزمن قسمهم؛ لأنَّ الآخرة دار جزاء لا دار عمل وفي هذا الإيجاز دلالة على حقارة ما كانوا فيه، وسُرعة انقضائه.

عِلَّة الفصل في: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾:

كون هذه الجملة بيـانًا لجُملة (أقْسَمْتُمْ)

قوله تعالى ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ﴾ والمعنى: ما لَكم مِن زَوالٍ مِن الأرض وانْتِقالٍ بَعْدَ الموت، أي حَلَفْتم أنَّكم لا تُبْعَثون كَقَوْلِه تَعالى:

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 2/307.

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ [النّحل: 38][1]؛ وفُصِلَت الجُمْلَةُ عمّا قبلها؛ لأنَّها جاءت بَيانًا لِجُمْلَةِ ﴿أَقْسَمْتُم﴾[2].

سِرُّ اصطفاء الخِطاب في ﴿لَكُم﴾ وما قبله في الجُملة الكريمة:

مُـراعـاة حـال المُخاطَب لكونه أدخل في التَّوبيخ وأصرح في المُراد

صِيغَةُ الخِطابِ في ﴿مَا لَكُم﴾ لِمُراعاةِ حالِ الخِطابِ في ﴿أَقْسَمْتُم﴾، وهو أدْخَلُ في التَّوْبِيخِ مِن أنْ يُقالَ: ما لَنا، مُراعاةً لِحالِ المَحْكِيِّ الواقِعِ في جَوابِ قَسَمِهِمْ[3].

كما بَيَّنَ النَّظم الكريم الجَوابَ المُقْسَمَ عَلَيْهِ حاكِيًا مَعْنى قَوْلِهِمْ لا لَفْظَهُ؛ لِيَكونَ صَرِيحًا في المُرادِ مِن غَيْرِ احْتِمالٍ لِتَعَنُّتٍ لَوْ قِيلَ: ما لَنا؟[4].

دلالة إثبات حرف الجَرِّ وحَذْف متعلِّق ﴿زَوَالٍ﴾:

إفـادة استغراق النَّفي وتوكيده

أكَّدَ النَّظم الكريم النَّفْيَ بشبه الجُملة: ﴿مِّن زَوَالٍ﴾ أي عَمّا أنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الكُفْرانِ وعَدَمِ الإذْعانِ لِلْإيمانِ، أوْ مِن هَذِهِ الدّارِ إلى الدّارِ الآخِرَةِ، أوْ مِن مَنازِلِكُمُ الَّتِي أنْتُمْ بِها، كِنايَةً عَنْ ثَباتِ الأمْرِ وعَدَمِ المُبالاةِ بِالمُخالِفِ كائِنًا مَن كانَ"[5].

فأفاد إثباتُ ﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ استغراقَ النَّفي وتوكيدَه، وَحُذِفَ مُتَعَلّقُ زَوالٍ لِظُهورِ المُرادِ.

معنى الزوال في هذا الموضع ونكتة تنكير لفظه:

الإشْعارُ بامْتِدادِ زَمـانِ الإمـهـال، وبُـعْـدِ مَـدى التَّأْخِيرِ وتعظيم زواله وانقضاءه

الزَّوالُ: الانتقالُ مِن حالٍ إلى حال، أو مِن مكان إلى آخرَ، والمُرادُ به هُنا: انتقالُهم مِن قبورهم إلى الحساب يوم القيامة، أي مالكم من زوال مما أنتم عليه من التمتع بالحظوظ الدنياوية ولم تُحدِّثوا أنفسكم بالانتقال إلى هذه الأحوال والأهوال وفِيها إشْعارٌ بِامْتِداد

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/248، وابن جُزّي، التّسهيل في علوم التّنزيل، ص: 417.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/248.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/277.
(4) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/436.
(5) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/436.

زَمانِ الإمهال، وبُعْدِ مَدى التَّأْخِيرِ"[1]، وأفاد التَّنكير هنا التَّعظيم، أي: ليس لكم من زوالٍ يستأصل شأنَكم.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنذار والتَّخويف:

الإنـذار تخويفٌ مع إعلام موضع المـخـافـة وذِكْـر المَضارِّ

الخوف: تَوَقُّعُ الضَّرَر المشكوك في وقوعه، وهو يتعلَّق بالمكروه؛ أمّا الإنذار: فهو تخويفٌ مع إعلام موضعِ المخافة وذِكْر المَضارِّ من قولك: نذرتُ بالشَّيءِ إذا علمتَه فاستعددت له، فإذا خَوَّف الإنسانُ غيرَه، وأعْلَمَه حالَ ما يخوِّفه به فقد أنذرَه، وإن لم يُعْلمه ذلك لم يُقَل: أَنْذره.

والإنذار إحسانٌ من المُنْذِر، وكُلَّما كانت المخافة أشَدَّ كانت النِّعْمة بالإنذار أعظمَ؛ ولهذا كان النَّبِيُّ ﷺ أعظمَ النّاسِ مِنَّةً بإنذاره للأُمَّة عقاب اللّه تعالى[2].

الأَجَل والمُدَّة:

الأَجَـل الـوقـت المـضـروب لانقضاء الشَّيءِ

الأَجَل الوقت المضروب لانقضاء الشَّيء، وأَجَلُ الإنسان هو الوقت لانقضاء عُمره، وأجَل الدَّيْن مَحِلُّه، وذلك لانقضاء مُدَّة الدَّيْن، وأجَلُ الموت وقت حُلوله وذلك لانقضاء مُدَّة الحياة قَبْلَه، فأجَلُ الآخرة الوقت لانقضاء ما تَقَدَّم قَبْلَها قبل ابتدائِها، ويجوز أن تكون المُدَّة بَيْن الشَّيْئَيْن بِجَعْلِ جاعلٍ وبغير جَعْلِ جاعل، وكُلُّ أجَلٍ مُدَّةٌ وليس كُلُّ مُدَّة أجَلًا[3].

الدُّعاءُ والنِّداء:

الدُّعاء يَتَضمَّن طَلَبًا، والنِّداء لا يستلزم طَلَبًا

النِّداء هو رفع الصَّوْت بما له معنى، والدُّعاء يكون بِرَفْع الصَّوْت وخَفْضه يُقال: دَعوته من بعيد ودعوت اللّهَ في نَفسِي وَلا يُقال: ناديْتُه في نَفسِي.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/248.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 46.
(3) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 46.

وأصل الدُّعاء طلب الْفِعْل دَعا يَدْعو، والدُّعاء يَتضمَّن طَلَبًا، والنِّداء لا يستلزم طَلَبًا، ومِن الشَّواهد القرآنيَّة على ذلك قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾ [الدُّخان: 55]، وقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦﴾ [القمر: 6][1].

الزَّوال والانتقال:

الانتقال أعمُّ من الزَّوال

الانتقال يكون في الجهات كُلِّها، والزَّوال يكون في بَعْض الجِهات دونَ بعض، فلا يُقال: زال مِن سُفْلٍ إلى عُلوٍّ، كما يُقال انتقل مِن سُفْلٍ إلى عُلوٍّ، ويُعَبَّر عن العَدَم بالزَّوال فيُقال: زالت عِلَّته، والانتقال يقتضي مُنْتَقَلًا إليه، والانتقال يَتَعَدَّى بحرف الانتهاء (إلى)، والزَّوال لا يقتضي ذلك، والزَّوال أيضًا لا يكون إلّا بعد استقرار[2].

(1) السّامرائيُّ، لمسات بيانيّة، ص: 243.

(2) الرُّمّانيُّ، الألفاظ المُترادفة المُتقاربة المعنى، ص: 59.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾﴾ [إبراهيم: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مواصلة تقرير أحوال الظّالمين

جاءت الآيةُ معطوفةً على الَّتي قَبْلَها، ووقعت في سياق وعيد للظّالمين، وتسليةً للمظلومين بذكر أحوال الظّالمين في عدم اعتبارهم بمن سبقهم من الأمم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسَكَنتُمْ﴾: أَصْلُ (سكن): يَدُلُّ على خِلافِ الاضْطِرابِ والْحَرَكَةِ[1]. فالسُّكونُ ضدُّ الحركة، يقال: سَكَنَ الشَّيءِ يَسْكُنُ سُكونًا، إذا ذهبت حركته[2]. والسَّكَنُ: اسْمٌ بِمَعْنَى الْمَسْكُونِ. والسُّكْنَى: مَصْدَرُ سَكَنَ فُلانٌ البَيْتَ، إذا جَعَلَهُ مَقَرًّا لَهُ، وَهوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السُّكونِ، أيِ الْقَرارِ[3]. والسَّكْنُ: الْأَهْلُ الَّذِينَ يَسْكُنُونَ الدّارَ[4]. والسَّكينة: الطَّمأنينة والاستقرار والرَّزانة والوقار[5]. والْمرادُ بِالسُّكْنَى: الْحُلولُ[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تقريع الظّالمين وتوبيخهم لعدم اعتبارهم بأحوال السّابقين

يقول الحقُّ سبحانه: ونزلتم في مساكن الأمم السّابقة الظّالمة لأنفسها بالكُفر باللّه مِن قبلكم، مثل قوم هود وقوم صالح، واتَّضح لكم ما أوقعناه بهم من الهلاك، وضربنا لكم الأمثال في القرآن لتتَّعظوا، فما اتَّعظتم بها[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سكن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/238.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(5) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 1/440.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/249.
(7) جماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 261.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾:

الحُلولٌ في أماكن الظّالمين أدعى للاتّعاظ والاعتبار

الواو في قوله: ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ عاطفة، عَطَفَتْ جُملة ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ على جملة ﴿أَقۡسَمۡتُم﴾، والمرادُ بالسُّكنى: الحُلول في أماكن الظّالمين لوقت يَكْفِي للاتِّعاظ الاعتبار، وكُفّارُ قريش كانوا يَمُرّون بديار قوم ثمودَ في رحلتهم إلى الشّام، وكانوا يَحُطّون رِحالهم هُناك، كما كانوا يمرّون على ديار قوم عاد في رحلتهم إلى اليمن.

والمعنى: لقد أقسمتم - أيُّها الضّالون - بأنَّكم ما لَكُم من انتقال من دار الدُّنيا إلى دار الآخرة، وحللتم في مساكن القوم الظّالمين[1]، فكان عجيبًا أن تروا مساكن الظّالمين أمامكم، خالية منهم، وأنتم فيها خُلفاء، ثم تقسمون مع ذلك: (ما لكم من زوال)! وعند هذا التَّبكيت ينتهي المشهد، وندرك أين صاروا، وماذا كان بعد الدُّعاء وخيبة الرَّجاء.

دلالة استعمال صيغة الماضي: ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾:

استعمل النَّظم الكريم صيغة الماضي في ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾؛ للدِّلالة على تَحَقُّق السُّكنى وتأكُّدِها.

سِرُّ تعدية الفعل (سَكَنَ) بحرف الظَّرْفيَّة:

الدّلالة على طول بَقاء كُفّار قريش وسُكْناهم في ديار سابقيهم من الظّالمين

عُدِّي الفعلُ (سَكَنَ) في الآية بحرف الظرفية ﴿فِي﴾، مع أنَّه يجيء أيضًا متعدَّيا بِنَفْسِه في قوله: ﴿فِي مَسَٰكِنِ﴾؛ للدِّلالة على طول بَقاء كُفّار قريش وسُكْناهم في ديار مَن سَبَقوهم مِن أهل الظُّلْم كعادٍ وثمود، وهذا أدعى لِعظتهم واعتبارهم مِمّا حَلَّ بأهل الظُّلْم والكُفْر مِن الأُمم السّابقة، لكنَّهم مع طول بقائهم واستخلافهم لِديار مَن سبقوهم مِن أهْل الطُّغيان لَمْ ينزجروا ولم يتَّعظوا.

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 2/321.

بديع الجِناس الاشتقاقي:

الدَّلالة على السُّكون والاستقرار

دَلَّ جناس الاشتقاق في ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ﴾ على السُّكون والاستقرار؛ لاشتراك الكلمتيْن في أصْل المادَّة وهو السُّكنى من السُّكون الذي هو اللُّبث(1).

سِرُّ العدول عن الاسم الصَّريح إلى اسم الموصول:

بيان أنَّ هؤلاء الظَّالِمين كَما جَمَعَهُم وَصْف الظُّلمِ يَجْمَعُهم مِيسَمُ الهَلاكِ

عَدَلَ النَّظم الكريم عن الاسم الصَّريح (الظالمين) إلى اسم الموصول في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ للإشارة إلى عِلَّة ظُلمِهم، وبيانه أنَّ هؤلاء الظّالِمِينَ كما جَمَعَهُمْ وَصْف الظُّلْمِ يَجْمَعُهم مِيسَمُ الهَلاكِ.

نُكْتة التَّصريح بالمفعول به: ﴿أَنفُسَهُمۡ﴾:

الإشارة إلى أنَّ عاقبة الظُّلْم وخيمةٌ تَؤولُ إلى صاحبه

في ذِكْر معمول الفعل (ظَلَم) في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ عاقبة الظُّلْم الوَخيمةِ تَؤولُ إلى صاحبه، وفيه إشارة إلى شِدَّة غباء هؤلاء الظّالمين، وسَفَه أحلامهم؛ إذ أوقعوا الظُّلْم على أنفسهم هُم بَدَلًا مِن أن ينفعوها ويُقَدِّموا لَها ما يكون سَبَبًا في نعيمها، لا ما يكون سَببًا في هلاكها.

سِرُّ التَّعبير بِجَمع القِلَّة (أَنْفُس):

الدِّلالة على حقارة تلك الأنفس المُعْتَدية الظّالمة

وأوثر التَّعبيرُ بِجَمع القِلَّة (أَنْفُس) على جَمْع الكثرة (نُفوس)؛ للدِّلالة على حقارة تلك الأنفس المُعْتَدية الظّالمة، وأنَّها أَنْفُسٌ رخيصة تافهة قليلة مهما كانت كثرتُها؛ لِظُلْمها وكفرها وعنادها.

دلالة العطف في: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ﴾:

الجَمْعُ بين إقامة الحُجَّة بَيْن دلائل الآثار والموعظة وتواتر الأخبار

الواو في قوله ﷻ: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ﴾ عاطفةٌ على ﴿وَسَكَنتُمۡ﴾ والفاعل مقدَّر على منطوق الجملة، أيْ حالهم وذلك بالأخبار والمشاهدة، ولكم متعلقان بـ ﴿وَتَبَيَّنَ﴾.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/565.

والمعنى: تَبيَّنَ لَكم بِمُشاهَدَةِ الآثارِ فِعْلُنا العَجيب بِهِم مِنَ العُقوبَةِ والعَذابِ الشَّديدِ بما فَعَلوهُ مِنَ الذُّنوب[1]، وهوأَدْعَى لتوبيخهم وتقريعهم؛ حيثُ جَمَع لَهم في إقامة الحُجَّة بَيْن دلائل الآثار والمُشاهدة، ودلائل الموعظة، وتواتر الأخبار.

دلالة ذكر التَّبيُّن مع كون المُشركين مُنكرين مكذِّبين:

التَّزهيد في طَلَبِ الدُّنيا، والإرشاد إلى الجِدِّ والاِجْتِهادُ في طَلَبِ الدِّين

قد يُقال لماذا قيل: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ ولَمْ يَكُنِ القَوْمُ يُقِرّونَ بِأنَّهُ تَعالى أَهْلَكَهم لِأَجْلِ تَكْذيبِهِمْ؟.

والجواب: أنَّهم عَلِموا أنَّ أولَئِكَ المُتَقَدِّمينَ كانوا طالِبينَ لِلدُّنيا، ثُمَّ إنَّهم فَنوا وانْقَرَضوا، فَعِنْدَ هَذا يَعْلَمونَ أنَّهُ لا فائِدَةَ في طَلَبِ الدُّنيا، والواجِبُ الجِدُّ والاِجْتِهادُ في طَلَبِ الدِّينِ، والواجِبُ عَلى مَن عَرَفَ هَذا أَنْ يَكونَ خائِفًا وَجِلًا فَيَكونَ ذَلِكَ زَجْرًا لَهُ[2].

فائدة تقديم الجارِّ والمَجرور ﴿لَكُمْ﴾:

الاهتمام بشأن المُبَيَّن لَهُم

قُدِّم الجارّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ على المفعول به ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ للاهتمام بالمُقَدَّم لَهُم، وَهُمُ المُبَيَّن لَهُم، والمضروبة لَهُم الأمثال للتَّشويق إلى المُؤَخَّر.

سِرُّ إيثارِ التَّعبير بِـ ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾:

مجيء (كيف) في سِياق المُبالغة والتَّعجيب

أوثر التَّعبيرُ بقوله سبحانه: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ أي: مِن الإهلاك والتَّدمير والاستئصال بسبب كفرهم وفسوقهم على أن يُقال: ما فَعَلْنا بهم؛ للدَّلالة على المبالغة فيما حَلَّ بساحتهم مِن الإهلاك والعقوبة؛ فـ﴿كَيْفَ﴾ مُستعملة في سِياق المُبالغة والتَّعجيب.

سِرّ إضافة الفعل إلى ضمير العظمة والكبرياء:

تعظيمُ العقوبة وتهويلها

وإسناد الفعل إلى (نا) في قوله: ﴿كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾: لتعظيم

(1) فتح القدير، الشّوكانيّ: 3/120.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/146.

الفعل أي العقوبة وتهويلها، والتَّعبيرُ بـ ﴿فَعَلْنَا﴾ مَحمولٌ على الوَعيدِ الشَّديد[1]؛ والمراد: عُقوبتُهم، وإهلاكُهم.

معنى الباء، ونكتة تقديم شِبْه الجملة ﴿بِهِمْ﴾:

تعيين مَن أوقِعَتِ العقوبة عليهم

الباء هُنا للإلصاق والتَّعدية، وقُدِّم الجارّ والمجرور ﴿بِهِمْ﴾؛ لتعيين مَنْ أوقِعَتِ العقوبة عليهم وهم الظّالمون.

دلالة الواو في: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾:

غرابة صُنوف العذاب

الواو في قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ﴾ عاطفة، والفعل إمّا أن يكون معطوفًا على الفعل ﴿وَتَبَيَّنَ﴾، وإمّا أن يكون مُستأنفًا[2]، والمقصود مِن قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ما نَزَل بِهم مِن صُنوف العذاب الّتي هي في الغرابة كالأمثال المضروبة لِكُلِّ ظالم[3].

سرُّ تكرار الجارّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾:

التّشديد في التّوبيخ لإصرارهم على الكفر بَعْد مُعاينة ما حَلَّ بالسّابقين

كُرِّرَ الجارُّ والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ مع فِعْلَي ﴿وَتَبَيَّنَ﴾، و﴿فَعَلْنَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾؛ لتشديد التَّوبيخ عليهم؛ حيث إنَّ البيان والفعل كان مِن أجْلِهم هُم كي يَتَّعِظوا ويَنْزَجِروا، لكنّهم لَم يرتدعوا، بل أصرّوا على كُفرهم وعنادهم.

حقيقة الضَّرب ومعنى ضرب الأمثال:

المَثَلُ بمعنى الشَّبيه، وهو تشبيهٌ للحال بالحال، والمُراد تشبيهُ ذويها بذويها، أو هو بمعنى الصِّفة العجيبة الغريبة[4].

الضَّرب المُراد هُنا ذِكْر شيءٍ أثرُه يظهر في غيره

والضَّرب: إيقاعُ شيءٍ على شيءٍ، وضَرْبُ المَثل هو من ضَرْب الدّراهم، وهو ذِكْر شيءٍ أثرُه يظهر في غيره، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [الزُّمر: 29]، ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ [الكهف: 32]، ﴿ضَرَبَ لَكُم

(1) الزّركشيُّ، البُرهان في علوم القرآن: 4/121.
(2) السّمين الحلبيُّ، الدّر المصون: 7/127.
(3) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/392.
(4) الشِّهاب الخفاجيُّ، عناية القاضي: 5/277.

﴿مَّثَلًا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ﴾ [الرّوم: 28]، ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ﴾ [الرّوم: 58]، ﴿۞وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ مَثَلًا﴾ [الزُّخرف: 57][1].

سِرّ إضافة الضَّرب إلى ضمير العظمة والكبرياء:

تعظيمُ هذا الضَّرْبِ وتفخيم شأنه

معنى قوله: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ﴾: "أي: قد رأيتم وبلغكم ما أحَلَلْنا بالأُمَم المُكَذِّبة قَبْلَكم، ومع هذا لم يَكُن لَكُم فيهم مُعْتَبرٌ، ولم يكن فيما أَوْقَعنا بِهِم مُزْدَجَرٌ لَكُم"[2]، وفي الإضافة إلى ضمير العظمة والكبرياء دلالة على تعظيم هذا الضَّرب وتفخيم شأنه.

۞ الفُروقُ المعْجَمِيَّة:

السُّكْنَى والإقامة:

المُدَّة في السَّكَن أطْول من المُدَّة في الإقامة

يشترك كُلٌّ مِن السُّكْنَى والإقامة في الحُلول بالمكان، والنُّزول فيه، ويفترقان في المُدَّة، فالمُدَّة في السَّكَن أطْول من المُدَّة في الإقامة، حيث إنَّ السَّكن كما يدلُّ عليه أصْل المادَّة يدلُّ على السُكون، ولزوم الشَّيء وثباته.

(1) الرّاغب، المفردات: (ضرب).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/230.

﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾ [إبراهيم: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ صفة مكرهم بعد ذِكْرِ أحوالهم وصفة عقابهم

في الآية السّابقة ذَكَرَ اللّه تعالى صِفَةَ عِقاب الظّالمين، وفي هذه الآية ذَكَرَ كَيْفِيَّة مَكْرِهِم وعَراقتهم في الكُفْر والجُحود والعِناد[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَرُواْ﴾: أَصْلُ (مكر): يدلُّ على الاِحْتِيالِ والخِداع[2]، ومنه المَكْرُ: وهو صَرْفُ الغير عمّا يقصده بحيلةٍ، قال الجُرجانيُّ: المكرُ: هو إيصالُ المَكْروهِ إلى الإنسانِ من حيثُ لا يَشعُرُ[3]، وذلك ضربان: مَكرٌ محمودٌ، وذلك أن يتحرَّى بذلك فِعل جميل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ [آل عمران: 54]. ومذمومٌ، وهو أن يتحرَّى به فعل قبيح، وعلى ذلك قوله: ﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ [الرعد: 33]، والمراد به هنا: تَبْيِيتُ فِعْلِ السّوءِ بِالْغَيْرِ وَإِضْمارُهُ[4].

2) ﴿لِتَزُولَ﴾: أَصْلُ الزَّوْلِ يَدُلُّ على التَّحَوُّلِ والانتقال[5]، يُقال: زالَ مِن بَلَدٍ إلى بَلَدٍ، أي: انْتَقَلَ وتَحَوَّلَ، ويُطْلَق بمعنى ذَهابِ الشَّيْءِ، يُقال: زالَ الشَّيْءُ، يَزولُ، زَوالاً، أيْ: ذَهَبَت حَرَكَتُهُ ومن مَعانيه: التَّنْحِيَةُ والإبْعادُ، يُقال: أَزَلْتُ الشَّيْءَ إزالَةً: إذا نَحَّيْتُهُ وأَبْعَدْتُهُ[6]، ويأتي بِمعنى الاسْتِحالَةِ والاِضْمِحْلالِ، وزوالِ المُلْكِ[7]. والجَمْعُ:

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/147.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مكر).
(3) الجرجاني، التعريفات، ص: 227.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/250.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زول).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (زول).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (زول).

أَزْوالٌ، وحقيقة الزَّوالِ في الآيةِ: تَنَحِّي الشَّيْءِ عَنْ مَكانِه، أي: تتحرَّك هذه الجبال من مكانها، أو تتفتَّت، أو تخرّ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

علمُ الله تعالى مُحيطٌ بمكر الظّالمين

يخبر اللّه تعالى أن حال هؤلاء الظالمين كحال من سبقهم حذو القذّة بالقذّة، فقال: هؤلاء الظّالمون جاءتهم العِبَرُ فلم يعتبروا، بل أضافوا إلى ذلك أنَّهم مكروا بالرَّسول ﷺ مَكْرَهم العظيم الَّذي استفرغوا فيه جُهدَهم لإبطال الحقِّ، وإحقاق الباطل، والقضاء على دعوته، واللّه يعلم تدبيرَهم، لا يَخْفى عليه منه شيءٌ، وتدبير هؤلاء على عَظمته ضعيف، فهو لا يزيل دينَ اللّه ورسالته، خلافًا لِمَكْر اللّه بهم، وشدَّة عقابه لَهُم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة الواو في: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ﴾ وأثرها في ارتباط الجُملة في السّياق:

بَيانُ تَناهِيهِمْ في اسْتِحْقاقِ ما فُعِلَ بِهِمْ

الواو في ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ حاليَّة، والجملة حال مِنَ الضَّميرِ الأوَّلِ في ﴿فَعَلۡنَا بِهِمۡ﴾، أَوْ مِنَ الثّاني، أَوْ مِنهُما جَميعًا[2]، ودَلَّت الواو في ﴿وَقَدۡ﴾ على تحقيق المَكْر وتوكيده، وإنَّما قُدِّمَ عَلَيْهِ قَوْلُه تَعالى: ﴿وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾؛ لِشِدَّةِ ارْتِباطِه بِما قَبْلَه، أيْ: فَعَلْنا بِهِمْ ما فَعَلْنا، والحالُ أنَّهم قَدْ مَكَروا في إبْطالِ الحَقِّ، وتَقْريرِ الباطِل مَكْرَهُم العَظِيم الَّذي اسْتَفْرَغوا في عَمَلِهِ المَجْهودَ، وجاوَزوا فِيهِ كُلَّ حَدٍّ مَعْهودٍ بِحَيْثُ لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُمْ، فالمُرادُ بَيانُ تَناهِيهِمْ في اسْتِحْقاقِ ما فُعِلَ بِهِمْ، أَوْ قَدْ مَكَروا مَكْرَهُمُ المَذْكورَ في تَرْتِيبِ مَبادِئِ البَقاءِ، ومُدافِعَةِ أَسْبابِ الزَّوالِ[3].

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/365، وجماعة من علماء التفسير، المختصر في تفسير القرآن الكريم، ص: 261.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/250.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/377.

الموقع النَّحويُّ لـ: ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ ونكتة الإسناد:

التَّأكيد على استفراغ هؤلاء الكُفّار المُتآمرين جُهْدَهم في الكيد وتدبير الشَّرّ

وقع قوله ﷻ: ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ مفعولًا مُطلقا؛ لتأكيد مَكْرهم، وأضافه إليهم لأنَّه مُلتصقٌ بهم، وصفة دائمة لا تنفكُّ عنهم، وإضافة المَكْر (المصدر) إلى الضّمير (هم) من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وفيه دلالة على استفراغ هؤلاء الكُفّار المُتآمرين جُهْدَهم، وبَذْلَهم أقصى طاقتهم في المَكْر والمَكيدة وتدبير الشَّرِّ للرَّسول ﷺ وصحابته الكِرام رضوان الله عليهم، واستُفيد هذا المعنى مِن إضافة المصدر الَّتي تفيد الاستغراق.

إيثارُ استعمال الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾:

الدَّلالة على التَّدبير المُسْبَق، والتَّخطيط المُحْكَم

المَكْر: تَبْييتُ فعلِ السّوء بالغيْرِ وإضماره، مع إظهار ما يُخالف ذلك، وأوثر استعمالُ الفعل ﴿مَكَرُواْ﴾ دون غيره؛ لدلالته على التَّدبير المُسْبَق، والتَّخطيط المُحْكَم، فهؤلاء الظّالمون جاءتهم العِبَرُ فَلَمْ يَعْتَبِروا، بل أضافوا إلى ذلك أنَّهم مَكروا بالرَّسول ﷺ مَكْرَهَم العظيم الَّذي استفرغوا فيه جهدَهم لإبطال الحَقِّ، وإحقاق الباطل، والَّذي كان مِن مَظاهره محاولتُهم قَتْلَ الرَّسول ﷺ[1].

بديع الجناس الاشتقاقي بين ﴿مَكَرُواْ﴾، و﴿مَكۡرَهُمۡ﴾:

الدَّلالة على إصرار الكُفّارِ الظّالمين على المكيدة وإلحاق السّوء بقافلة الإيمان

أُكِّد فِعل المكر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾ بتكرار مادَّة المَكْر بطريق جناس الاشتقاق للدَّلالة على إصرار الكُفّارِ الظّالمين على المَكيدة وإلحاق السّوء بقافلة الإيمان ورَسولها ﷺ.

دلالة (الواو) في: ﴿وَعِندَ﴾:

الواو (الواو) في قوله: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾ عاطفة؛ عَطَفَتْ هذه الجُمْلة على ما قَبْلَها ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ﴾، ويمكن أن تكون للحال على معنى: والحال إنَّ مكرهم مكشوفٌ عند الله؛ وقد اختلف

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 3/376.

بيان انكشاف مكرهم بعد افتضاح أمرهم

المفسِّرون في المرادِ بالَّذين مَكَروا على أقوالٍ؛ منها: أنَّهم الَّذين ظلموا أنفُسَهم، فيكون المعنى: فعَلْنا بهم ما فعَلْنا، والحالُ أنهم قد مكروا مكرَهم[1]، ومنها: أنَّهم هُمُ المُخاطَبون في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: الَّذين سَكَنوا في مساكنِ الَّذين ظلموا أنفسَهم[2].

دلالة العنديَّة ومعناها:

التَّعريضُ بالوعيدِ والتَّهديدِ

العِنْدِيَّةُ في قوله ﷻ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ المقصود بها: وعند الله جزاء مكرهم الذي فعلوه، أو وعند الله مكتوب مكرهم، فهو مُجازيهم، أو عند الله مكرهم الذين يمكرهم به على أن يكون المكر هُنا على سبيل المُقابلة والجزاء، لأنَّه ﷻ محيط به علما وقدرة فيعود جزاء مكرهم عليهم[3].

وعلى كل هذه المعاني ففي الجُمْلة تَعريضٌ بالوعيدِ والتَّهديدِ بالمُؤاخذةِ بِسوءِ فِعْلِهم، أو هو وَعيدٌ بالجزاءِ على مكْرِهم[4].

سرُّ تقديم المُسنَد على المُسنَد إليه:

التَّلويح بمكان العذاب وعيدًا وتهديدًا

وقُدِّم المُسْنَد ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ﴾ على المسند إليه ﴿مَكۡرَهُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ﴾؛ لإفادة الحَصْر، فاللّه سبحانه وَحْده هو الرَّقيب عليهم، والمُطَّلِع على سوء تدبيرهم، وعظيم مَكْرهم، وخبايا نفوسهم، وفساد طَويَّتهم، وسرّ التقديم هو الوعيد، ويُرشِّحُ ذلك استعمال العنديّة، ففيها تلويحٌ بمكان العذاب وفي هذا من الوعيد مافيه.

سِرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

تأكيد إضافة المَكْر ونِسْبته إليهم

عُدِل عن الإضمار إلى الإظهار في قوله ﷻ: ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ

(1) ابن جرير، جامع البيان، والشّوكانيُّ، فتح القدير: 3/120.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/455، والفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/147.
(3) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428، والهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 14/449.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/261.

﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ حيث كان الظّاهر أن يُقال: وعِنْد اللّه مَكْرُهم وإن كان لتزول منه الجبال؛ ذلك لتأكيد إضافة المَكْر ونِسْبته إليهم.

دلالة (إن) واللّام، وأثر دُخولهما في الجُملة:

تعظيم مَكْرهم بالنِّسبة من جهة جهدهم فيه، وبيان ضعفه لقلّة تأثيره وتحقيره بجانب عقوبتهم

﴿وَإِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ إمّا أن تكون نافيَةً، واللّامُ في ﴿لِتَزُولَ﴾ مُؤَكِّدَةٌ لَها، والمَعْنى: ومَحالٌ أَنْ تَزولَ اَلْجِبالُ بِمَكْرِهِمْ، عَلى أنَّ اَلْجِبالَ اِسْتِعارَةٌ تصريحيَّة، أو تمثيليَّة حيث بَيَّنت شِدَّة مَكْر أهْل الكُفْر ومتانته وعظمته، وافتنانهم فيه، وبلوغهم الغايةَ مِنه حتَّى استحال إلى كَوْنه مُهَيَّئًا لإزالة الجبال الشُّمِّ الرَّواسي عن أماكنها لِكوْنه مَثَلًا، وشُبِّهت آياتُ اللّه وشَرائِعه بالْجِبالِ الرّاسِيَةِ ثَباتًا وتَمَكُّنًا، ويُؤَيِّده قِراءَةُ ابْنِ مَسْعودٍ (وَما كانَ مَكْرُهم)[1].

وإمّا أن تكون ﴿وَإِن﴾ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقيلَةِ، والمقصودُ: تعظيم مكرهِم؛ لأنَّ ما فُعِل مِن المَكْر، وما أُعِدَّ مِن الكَيْد لإزالة ما هو كالجبال الشُّمِ الرّاسية في الثَّبات والقوَّة والضَّخامة يكون في غاية الشِّدَّة والقوَّة.

والمَعْنى أنَّهم مَكَروا لِيُزيلوا ما هو كالجِبالِ الرّاسِيَةِ ثَباتًا وتَمَكُّنًا مِن آياتِ اللّه تَعالى وشَرائِعِه[2].

والغرض من اعتبار (إنْ) نافية الاستخفاف بِمَكْر الكُفّار؛ لِضَعْفه وَوَهَنه مَهما بَلَغ مِن الشِّدَّة في مقابل ثَبات شريعة اللّه، ورسوخها المُؤَيَّدة بِمَدَدٍ مِنْه سبحانه .

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿كَانَ﴾:

الدَّلالة على رُسوخ مكرهم واستقراره

التَّعبير بِفِعْل الكَوْن: ﴿كَانَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ﴾ يدلُّ على رسوخ مَكْرهم واستقراره وثباته وتأصُّله.

---

(1) القاسميُّ، محاسن التّأويل: 7/3738.

(2) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 2/154، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاويّ: 5/182.

توجيه القراءات في: ﴿لِتَزُولَ﴾:

عَدَمُ تفاوُتِ الحالِ في تَحْقِيقِ الجَزاءِ بَيْنَ كَوْنِ مَكْرِهِمْ قويًّا أوْ ضَعِيفًا

في اللّام قراءتان: قراءةُ الجمهور بِكَسْرِ اللّام: ﴿لِتَزُولَ﴾، والمعنى وما كانَ مَكْرُهم زائِلَةً مِنهُ الجِبالُ، وقراءة الكِسائي: بِفَتْحِ اللّامِ الأولى، ورَفْعِ اللّامِ الثّانِيَةِ فتصير (لَتَزولُ)[1]، والمعنى: هو مَكْرٌ عَظِيمٌ لَتزولُ مِنهُ الجِبالُ لَوْ كانَ لَها أنْ تَزولَ[2].

وقَوْلُه تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ مَسوقٌ لِبَيانِ عَدَمِ تَفاوُتِ الحالِ في تَحْقِيقِ الجَزاءِ بَيْنَ كَوْنِ مَكْرِهِمْ قَوِيًّا أَوْ ضَعِيفًا[3].

معنى (مِن):

إفادة الابتدائيَّة والسَّببيَّة

(مِن) هُنا في قوله جلَّ شأنه: ﴿لِتَزُولَ مِنۡهُ﴾ ابتدائيَّة، ويمكن أن تكون تعليليَّة سببيَّة، أي، بسبب مكرهم تزول الجبال.

نُكْتة تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنۡهُ﴾ على الفاعل:

الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق إلى المؤَخَّر

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿مِنۡهُ﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡجِبَالُ﴾؛ للاهتمام بالمُقَدَّم، والتَّشويق إلى المُؤَخَّر، حيث إنَّ السّامع يترقَّب، ونَفْسُه تَتَشوَّف لِمعرفة هذا الشَّيء الَّذي يَنْسِفه مَكْرُ الماكرين، وكَيْدُ الكائدين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المكر والخداع والكَيْد:

تشترك الألفاظ الثلاثة في معنى قَصْد السّوء بخفاء

المَكْر: المَكْرُ كما قال الرّاغب: صَرْف الغير عمّا يقصده بحيلة[4].

---

(1) ابن مجاهد، السّبعة، ص: 363، وابن الجزريِّ، النّشر: 1/50.

(2) فصّل ابن عاشور الغرض من القراءة الأولى بقوله: "والمقصود الاستخفاف بالماكرين ومكرهم، أي: ليس مكرُهم بِمُتجاوِزٍ مكرِ أمثالِهِم، وما هو بِالّذِي تزُولُ مِنهُ الجِبالُ، وفي هذا تعرِيض بِأنّ الرّسُول ﷺ والمُسلِمِين الّذِين يُرِيدُ المُشركُون المكر بِهِم لا يُزعزِعُهم مكرُهم، لِأنّهم كالجِبالِ الرّواسِي"، يُنظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/263.

وأشار إلى المقصد في القراءة الثانية فقال: "أي: جديرة، فهو مُستعمل في معنى الجدارةِ والتّأهُّلِ لِلزّوالِ لو كانت زائلة، وهذا مِن المُبالغةِ في حُصُولِ أمر شنِيع أو شدِيد في نوعِهِ على نحوِ قولِهِ تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ۝٩٠﴾ [مريم: 90]". يُنظر: ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 13/263.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/280، والسّمين الحلبيُّ، الدُّر المصون: 7/126 - 127.

(4) الرّاغب، المفردات: (مكر).

وهو إرادَة وتَدْبيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ بِحَقٍّ مَنْ لَمْ يعلمْ بِما يُراد بِه وَلَمْ يَحْتَسِب أنْ يَأتِيهِ هَذا الفِعْلُ مِنْ حَيْثُ أتَىَ مِنْه بِصورَتِه تلك.

وهو: إرادَةُ الماكِرِ فِعْلَ السّوءِ بِالمَمْكورِ بِهِ فِي غَفْلَة مِنْهُ عَمّا يُرادُ بِهِ وَعَدَمُ حَذَرِهِ مِنْ شَرٍّ يَأتيهِ مِنْ جِهَةِ الماكِر.

أمّا الخِداع فهو إظْهارُ خِلاف ما تُخْفيه: هو تَدْبيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ يقومُ بِهِ الخادِعُ لإيقاعِ الضَّررِ والشَّرِّ بالمخدوعِ من حيثُ لم يحذر ويتنبّه، كأنْ يَرقبَ المخدوع قدومَ السّوءِ من بابٍ فيفجأه مِن باب آخرَ، وعداوةُ الخادع والمخدوع بَيِّنَةٌ، وكلاهما يَتَرَبَّص بالآخر.

أمّا الكَيْد فكلُّ تَدْبيرٍ لِفِعْلٍ خَفِيٍّ أو ظاهر يريدُ مِنهُ الكائِد دَفْعَ المكيدِ أنْ يرتكبَ عملًا سيئًا أو جُرمًا وذنبًا بإرادته بدونِ جَبرٍ أو إرغام.

فالممكورُ به لا يحتَسِب أن يأتي من الماكر سوءٌ، ولكنَّ المخدوع عداوتُه ظاهرةٌ وتربُّصهما معلوم ولكنَّه ينتظر السّوءَ ويَتَحَسَّب له مِن طريق فَيَفجأه مِن طريق آخرَ(1).

(1) مجمع اللُّغة العربيّة بالقاهرة، المعجم الكبير: (مكر، خدع، كيد).

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: 47]

وعيد الله للظّالمين مُتحقّقٌ لا محالة

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

كان النَّهْي في الآيات السّابقة عن أن يَحْسِب أَحَدٌ أنَّ اللّه تعالى تاركُ الظّالمين، وما يفعلونه، غيرُ مُنْزِلٍ بِهِم ما يستحقّون مِن عقاب؛ جزاءً وفاقًا لِما يفعلون، وفي هذه الآية بيان أنَّ اللّه تعالى مُنَزِّل هذا العقاب؛ لأنَّه جزاؤهم، ولأنَّه قد وَعَدَ رُسُلَه به، وإنَّ اللّه تعالى لا يُخْلف رُسُلَه ما وَعَدَهم به مِن النَّصر والتَّأييد، ومِن عِقاب أعدائِهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ﴾: الخُلْفُ والخُلُفُ: المُخالفة في الوعد، وهو نقيضُ الوَفاء به، يقال: وعدني فأخلفني، أي: خالف في الميعاد[2]. وَهوَ أن يَقولَ شَيْئًا وَلا يفْعَله عَلَى الاسْتِقْبالِ، والخُلْفُ، بِالضَّمِّ: الِاسْمُ مِنَ الإخلاف، وَهوَ في المُسْتَقْبَلِ كالْكَذِبِ في الماضِي[3]، ويُقالُ لِلَّذي لا يَكادُ يَفِي إذا وَعَدَ: إنَّهُ لَمِخْلافٌ. والمُخْلِفُ: الكثيرُ الإخْلافِ لوَعْدِه، والخالِفُ: الَّذي لا يكادُ يوفي[4]، والمُراد بـ ﴿مُخْلِفَ﴾ هُنا: اسم فاعل من الإخلاف، بمعنى عدم الوفاء بالوعد، وأمّا المُراد بالوعد في الآية: ما وعد اللّه تعالى به أنبياءه ورُسله من نصره إيّاهم، ومن جَعْل العاقبة لهم[5].

2) ﴿عَزِيزٌ﴾: العِزَّةُ في الأصل: القوَّة والشِّدَّة والغَلَبَة، خِلاف الذُلِّ[6]. يقال: عَزَّ يَعَزُّ - بالفتح للمُضارع -: إذا اشتَدَّ وقَوِيَ، وبالكسر

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4054.

(2) ابن دريد، جمهرة اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (خلف).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (خلف).

(4) الزّبيدي، تاج العروس: (خلف).

(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/577.

(6) الأزهري، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (عزز).

للمُضارع: إذا قَوِيَ وامتَنَع، وبالضَّم: إذا غلَب وقَهَر[1]، ويُقال: عَزَّ فلانٌ، أي: صار عَزيزًا، أي: قَوِيَ بعد ذِلَّة. وأعَزَّهُ اللّه. وهو يَعْتَزُّ بفلان[2]، ورَجُلٌ عَزيزٌ: مَنِيعٌ، لا يُغْلَب، ولا يُقْهر، وعَزَّ الشَّيء: إذا لم يُقْدَر عليه، وعَزَّ الشَّخص: قَوِيَ وبَرِئَ من الذُّل[3]، والمقصود بالْعِزَّة في الآية: الْقُدْرَةُ[4]، وفي دلالة العزيز هُنا: إشارة إلى القُدرة التّامّة على العقاب، وهي صفة الذّات[5].

3) ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: أصلُ (نقم): يَدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[6]، فيُقال: نَقِمْتُ عليه، أَنْقِمُ: إذا أنكَرْتَ عليه فِعْلَهُ إمّا باللِّسانِ، وإمّا بِالعُقوبَةِ، أو عاتَبْتَهُ عليه[7]، ومِن ذلك: النِّقْمَةُ مِن العَذابِ والانْتِقام، كأنَّه أنكَرَ عليه فَعاقَبَهُ. والنِّقْمَةُ أيضاً: كَراهَةُ الشَّيءِ كَراهَةً شَدِيدَةً، يُقال: نَقِمْتُ الأمرَ، ونَقِمْتُه: إذا بالَغْتَ في كَراهَتِه[8]. والنِّقمة أيضًا: المُكافَأةُ بالعُقوبَةِ، يُقال: انْتَقَمَ اللّهُ منه: إذا عاقَبَهُ[9]. والمقصود بالِانتِقامِ في الآية: العُقوبَةُ لأجلِ ذَنْبٍ[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اقتضاء عزّته ﷻ أن ينتقم من الظّالمين

يقولُ اللّه تعالَى: فلا تحسبنَّ أيُّها الرَّسول ﷺ أنَّ اللّه يُخْلِف ما وَعَدَ رُسُلَه من النَّصر والتَّمكين، وإهلاك مكذّبيهم؛ لأنَّ اللّه عزيز غالب لا يُقْهَر، ولا يمتنع عليه شيءٌ، فهو سبحانه عَزَّ فَقَهَرَ، وحَكَم فَغلَبَ، مُنْتَقِمٌ من أعدائه أشَدَّ انتقام[11].

(1) النّحاس، معاني القرآن: 1/379.
(2) الجوهري، الصِّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عزز).
(3) أحمد مختار، معجم اللُّغة العربية المعاصرة، وإبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط: (عزز).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/251.
(5) النّيسابوري، غرائب القرآن: 2/102.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقم).
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللُّغة: (نقم).
(8) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: (نقم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/71.
(10) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(11) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسّر، ص: 261.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء في: ﴿فَلَا﴾:

رَبْط المُسَبَّب بالسَّبَب

الفاء في: ﴿فَلَا﴾ من قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ﴾ عاطفة هذه الجملة على ما قبلها لِرَبْط المُسَبَّب بالسَّبَب.

سِرُّ تقديم المفعول الثّاني على الأوَّل:

توكيد وقوع وَعْدِ الله سبحانه لِرُسله بالنَّصر والتَّأييد، وبالإهلاك لأعدائهم

أصل العبارة في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخۡلِفَ وَعۡدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾ هو: فَلا تَحْسَبَنَّ اللّه مُخلِفَ رُسلِه وعدَه، وقُدِّم المفعولُ الثّاني على الأوَّل؛ لمناسبته لسياق الآية الكريمة؛ لأنها وَرَدَت في سياق الإنذار والتَّهديد للظّالمين بما توعَّدهم اللّه تعالى به على ألسنة الرسل، فالمُهِمُّ في التَّهديد ذِكْرُ الوعيد، وأمّا كَوْنه على ألْسنة الرُّسُل فذلك أمْرٌ لا يقف التَّخويف عليه ولا بُدَّ حتَّى لو فُرِضَ التَّوعد مِن اللّه تعالى على غير لسان رسول، لكان الخوف منه كافيًا[1].

فالمقصود إذًا توكيد وقوع وَعْدِه سبحانه لِرُسِله الكرام عليهم السلام بالنَّصر والتَّأييد، وبالإهلاك لأعدائهم.

وأضاف ابن جُزّي: "ولِمَ قُدِّم المفعول الثّاني على الأوَّل؟ فالجواب أنَّه قُدِّم الوَعْد لِيُعْلَم أنَّه لا يُخْلِف الوعد أصلًا على الإطلاق، ثم قال تعالى: ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾؛ لِيُعْلَم أنَّه إذا لم يُخْلِف وَعْدَ أحَد مِن النّاس، فكيف يُخْلِف وَعْدَ رُسُله وخِيرة خَلْقه فَقُدِّم الوَعْد أولًا بِقَصْد الإطلاق، ثم ذَكَرَ الرُّسُل لِقَصْد التَّخصيص"[2].

بيان المُخاطَب، ومضمون النَّهي، وَسَببه:

تثبيت الرَّسول ﷺ على حُسْن ظَنِّه بِرَبِّه

المُخاطَب في الآية الكريمة هو النَّبيُّ ﷺ. فإن قيل: كيف يليقُ بالرَّسول - صلوات اللّه وسلامه عليه - أن يحْسِبَ اللّهَ ﷻ موصوفًا بالغفلة؟.

(1) أحمد بن المُنير، حاشية على تفسير الكشّاف: 2/307.

(2) ابن جُزِّي، التّسهيل لعلوم التّنزيل، ص: 418، يُنظر أيضا: الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/307، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/400، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/456.

والجواب عن ذلك من وجوه:

الأوَّل: المُراد به التَّثبيت على ما كان عليه مِن أنَّه لا يحسب إن كان غافلًا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٤﴾ [الأنعام: 14] ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [القصص: 88].

والثّاني: المقصود منه بيان أنَّه لو لم ينتقم لكان عدم الانتقام لأجل غفلته عن ذلك الظّالم، ولمّا كان امتناع هذه الغفلة معلومًا لِكُلِّ أحد - لا جرم - كان عدمُ الانتقام مُحالًا.

الثّالث: أنَّ المُراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملةَ الغافل عمّا يعملون، ولكنْ معاملة الرَّقيب عليهم المحاسب على النَّقير، والقِطْمير.

الرّابع: أنَّ هذا الخطاب، وإن كان خطابًا للنَّبيِّ ﷺ في الظّاهر إلا أنَّه خِطاب مع الأمَّة"[1].

ولابن عاشور توجيهٌ لطيف حيث قال: "والْخطاب للنَّبيِّ ﷺ؛ لأَنَّ تَأْخِيرَ ما وَعَدَ اللّه رَسولَه - عليه السلام - مِنْ إنْزالِ الْعِقابِ بِأعْدائِهِ يُشْبِه حالَ الْمُخْلِفِ وَعْدَهُ، فَلِذَلِكَ نُهِيَ عَنْ حُسْبانِهِ"[2].

لطيفةُ جَمْع ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾:

المُراد بالجَمْع ﴿رُسُلَهُۥٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾: الرَّسول ﷺ وهذا مِن باب الجَمع المُستَعمَل في الواحِد مَجازا لِلَطيفة هي: "تَثْبيت لِلنَّبِيِّ ﷺ بأنَّ اللّه مُنجز لَهُ ما وعَدَهُ مِن نَصرِهِ عَلى الكافِرينَ بِهِ، فَأمّا وعدُهُ لِلرُّسُلِ السّابِقِينَ فَذَلِكَ أمر قَد تَحَقَّقَ فَلا يُناسِبُ أن يَكونَ مُرادا مِن ظاهِرِ جَمعِ رُسُلِهِ"[3].

اللـه مُـنْـجِـزٌ لرسوله ﷺ ما وعَدَهُ

توجيه المتشابَه اللَّفظيِّ:

أشار الرّازيُّ إلى وَجه التَّناسب بَيْنَ هذه الآية، وقَوله سبحانه

(1) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكِتاب: 11/412.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/263.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/263.

التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّهُ تَعالَى يُقِيمِ الْقِيامَةَ إحقاقًا للحَقِّ وينجز وعده لرسله انتصارًا للصّدق

قبل ذلك: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42]، فقال: "اعْلَمْ أنَّهُ تَعالَى قالَ في الآيَةِ الأُولى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: 42]، وَقالَ في هَذِهِ الآيَةِ: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾، والمَقصودُ مِنهُ التَّنبيهُ عَلَى أنَّهُ تَعالَى لَو لَم يُقِم القِيامَةَ وَلَم يَنتَقِم لِلمَظلومِينَ مِنَ الظّالِمِينَ، لَزِمَ إمّا كَوْنُهُ غافِلا، وَإمّا كَوْنُهُ مُخلِفا في الوَعدِ، وَلَمّا تَقَرَّرَ في العُقولِ السَّلِيمَةِ أنَّ كُلَّ ذَلِكَ مُحالٌ كانَ القَوْلُ بِأنَّهُ لا يُقِيمُ القِيامَةَ باطِلا"[1].

عِلّة الفصل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾:

تعليل النَّهي السّابق وتحقيق انتقامه تعالى لأوليائه من أعدائه

فُصِلَت جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ عمّا قبلَها؛ لوقوعها تَعليلًا للنَّهيِ في صَدْرِ الآية بحُسْبانِهِ سبحانه مُخْلِفَ وعْدِه؛ ولوقوعها تذييلًا لجملة النَّهي. والمعنى: إنَّ الله غالبٌ لا يُماكَر، ذو انْتقام لأَوْلِيائِه مِن أعْدائِه[2]، ويمكن أن يكون سبب الفصل هو الاستئناف البيانيَّ جوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ: لم يفعل هذا كلَّه؟

بلاغة توالي المؤكِّدات في فاصلة الآية:

تأكيد الوَعْد لرسوله ﷺ بالنَّصر والغَلَبَة

صُدِّرت جملة التَّذييل بـ﴿إِنَّ﴾ واسميَّة الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾؛ لتأكيد الوَعْد لرسوله ﷺ بالنَّصْر والغَلَبة، ولإدخال المَهابة على الخبر، وتفظيع الوعيد المُتَضَمَّن في الوَعْد؛ لذا أوثر التَّعبيرُ بوصف الألوهيَّة والعِزَّة والقُدْرَة.

إيثار صفة العزَّة والانتقام:

كلمة (الانتقام) هُنا لَتَشفي صدور عِباد الله المظلومين المَكلومين

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾ عَبَّر النَّظم الكريم عن الجزاء بالانتقام؛ لأنَّ أهلَ الظُّلْم من الكُفّار قد أذاقوا المُستضعفين من المؤمنين صُنوف العذاب فكان لابُدَّ من الجزاء انتقامًا من الظّالمين؛ لِتَقَرَّ أعينُ الضُّعفاء، ويذوقوا حلاوة الحقِّ بَعْد أنْ ذاقوا

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/148.

(2) النّسفيُّ، مدارك التّنزيل: 2/266.

مرارة الصَّبر على الأذى في سبيله، وليتيَّقنوا أنَّه سبحانه كان رقيبًا على أعدائهم وشهيدًا، فالظّالم لَمْ يَفْلِت مِن العِقاب، والماكر لَم يَنْجُ مِن الحِساب.

وكلمة (الانتقام) هُنا لَتَشفي صدور عِباد اللّه المظلومين المَكلومين، فالظّالم الماكر يستحِقُّ الانتقام عَدْلًا جزاءَ الظُّلْم والعِناد والمَكْر.

وأضاف أبو السُّعود فقال: "حيثُ كان الوعْدُ عبارةً عن تَعذيبِهم خاصَّةً، لم يُذَيَّل بأنْ يُقال: (إنَّ اللّهَ لا يخلِفُ الميعادَ)، بَلْ تَعَرَّض لِوَصْف العِزَّةِ والانْتِقام المُشْعِرِينَ بِذَلِك، والمُرادُ بِالانْتِقام: ما أُشِيرَ إلَيْه بِالفِعْل، وعَبَّرَ عَنْهُ بِالمَكْرِ"[1].

وقد أجاد ابنُ عاشور في تعليله لإيثار التَّعبير بِصِفَتي العِزَّة والانتقام حيث قال: "والمَعْنى: أنَّ موجِبَ إخْلافِ الوَعْدِ مُنْتَفٍ عَنِ اللّه تَعالى؛ لِأنَّ إخْلافَ الوَعْدِ يَكونُ إمّا عَنْ عَجْزٍ وإمّا عَنْ عَدَمِ اعْتِيادِ المَوْعودِ بِه، فالعِزَّةُ تَنْفِي الأوَّلَ وكَوْنُهُ صاحِبَ انْتِقامٍ يَنْفِي الثّاني، وهَذِهِ الجُمْلَةُ تَذْيِيلٌ أيْضًا وبِها تَمَّ الكَلامُ"[2].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الوَعْد والوعيد:

لفظ (الوعد) مُختَصٌّ بالخير و(الوعيد) مختصٌّ بالشَّرِّ حال اجتماع اللَّفظين

يدلُّ أصل المادَّة على التَّرجية[3]، وتكون الأرض واعدة: إذا رَجَيْنا خيرها مِن المطر والأعشاب، وقد وَعَدَت الأرض: إذا رجينا خيرها[4].

والمُراد بالوَعْد: وَعْد اللّه تعالى لأهل طاعته بالثَّواب والجزاء الحَسَن والنَّعيم المقيم، وأمّا الوعيد، فالمُراد به النُّصوص الّتي فيها تَوَّعُد للعُصاة بالعذاب والعقاب الأليم، فالوعد: فضل اللّه ﷻ ونعمته، والوعيد: عدله وعُقوبته.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/282.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/265.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وعد).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصّل: (وعد).

ولفظ (الوعد) إذا تكرَّر ذِكْرُه في مَوْضع لم يُذكر فيه لفظ (الوعيد)؛ فهُنا الوعد قد يُستعمل في الخير والشَّرّ، يُقال: وعدته خيرًا ووعدته شَرًّا، لكن إذا ذُكر اللَّفظان معًا في مَوضع واحد فإنَّ لفظ (الوعد) يكون مُختَصًّا بالخير و(الوعيد) يكون مختصًا بالشَّر[1].

الانتقام والعِقاب:

الانتقام جزءٌ من العقاب

الانتِقام: سَلْبُ النِّعمة بالعذاب، والعِقاب: جزاء على الجُرْم بالعذاب؛ لأنَّ العقاب نقيض الثَّواب، والانتِقام نقيض الإنعام، وعلى الرَّغم من أنَّ العديد من جوانب الانتقام تتَّفق مع مفهوم العدالة، فإنَّ الانتقام يعني ضِمْنًا التركيزَ على إحداث مَزيد مِن الضَّرر والعقاب في مُقابل عقاب مُتصالِح ومُتناغِم[2].

(1) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 54.
(2) العسكريّ، معجم الفروق اللُّغويّة، ص: 77.

﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ٤٨﴾ [إبراهيم: 48]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بيان وقت انتقام الله بعد وعيده

أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة بأنَّه ﴿عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٖ﴾، وفي هذه الآية بَيَّنَ وقْتَ انْتِقامِهِ فقالَ: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾، وعَظَّمَ مِن حالِ ذَلِكَ اليَوْمِ؛ لِأنَّهُ لا أمْرَ أعْظَمُ في العُقولِ والنُّفوسِ مِن تَغْيِيرِ السَّماواتِ والأرْضِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُبَدَّلُ﴾: أصلُ (بدل): أصلٌ واحِدٌ، وهو قِيامُ الشَّيءِ مَقامَ الشَّيءِ الذّاهِبِ، يُقالُ: هذا بَدَلُ الشَّيءِ وَبَدِيلُهُ، ويقولونَ: بَدَّلْتُ الشَّيءَ: إذا غَيَّرتُهُ وإنْ لَمْ تَأْتِ لَهُ بِبَدَلٍ. قالَ اللّه تَعالَى: ﴿قُلۡ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓۖ﴾ [يونس: 15](2). وأَبْدَلْتُهُ: إذا أَتَيْتُ لَهُ بِبَدَلٍ، وحقيقته: أن تُغيِّرَ الصّورة إلى صورة أُخرى، والجوهرة بعينها؛ والإبدال: تنحيةُ الجَوهرة، واستئناف جوهرةٍ أُخرى(3)، والمقصود بالتَّبديل في الآية: جَعْلُ شَيْءٍ بَدَلًا عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، والمُرادُ بِهِ: اسْتِبْدالُ العالَمِ المَعْهودِ بِعالَمٍ جَدِيدٍ(4).

2) ﴿وَبَرَزُواْ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ وبُدوِّهِ(5)، فالبَرازُ: المَكانُ البَعيدُ الواسِعُ الخالي مِن الشَّجَرِ ونَحْوِهِ(6)، يُقالُ: بَرَزَ

---

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/438.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (بدل).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (برز).
(6) المعجم الوسيط: (برز).

الرَّجلُ، يَبْرُزُ، بُروزاً: إذا خَرَجَ إلى الفَضاءِ الواسِعِ لِحاجَةٍ. والبَرازُ: الغائِطُ، سُمِّيَ بذلك؛ لأنّهم كانوا يَقْضونَ حاجَتَهُم في الأَمْكِنَةِ الخالِيَةِ البَعيدَةِ عن النّاسِ[1]. ومن الباب: المُبارزة للقتال، وهي الظُّهور من الصَّفِّ[2]، والمقصود بالبُروزِ في الآية: الخُروجُ مِنْ مَكانٍ حاجِبٍ[3]. والمُرادُ به هنا: خُروجُ الخَلْقِ من قُبورِهم ظاهِرِينَ للحساب.

3) ﴿ٱلۡوَٰحِدِ﴾: أَصْلُ (وحد): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على الانْفِرادِ[4]، والواحِدُ: الَّذِي لا يَتَجَزَّأ، وَلا يُثَنَّى، وَلا يَقْبَل الانقسام، وَلا نَظيرَ لَهُ وَلا مِثْل[5]، وإذا وصِفَ اللّه تعالى به فهو المُنْفَرِد بالذّات، في عَدم المِثْل والنَّظير[6]. والواحِدُ أيضًا: اسمٌ بُنِيَ لِمُفْتَتَح العَدَدِ، تَقولُ: جاءَني واحِدٌ مِنَ النّاسِ[7]، والمراد بالواحد في الآية: الفرد الذي لا ثاني له، ولا شريك له، ولا مثل له ولا نظير ولا شبيه[8].

4) ﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾: أصلُ القَهْرِ يَدُلُّ عَلَى غَلَبَةٍ وَعُلوٍّ. يُقالُ: قَهَره يَقْهَره قَهْرًا فَهوَ قاهِر، وقَهّار للمُبالَغة، وأَقْهَرْتُ الرَّجُل إذا وجَدْتَه مَقْهورًا، أَوْ صارَ أمرُه إلى القَهْر[9]، والقَهّار صفةٌ للّه ﷻ ثابتةٌ بالكتاب، وهو الَّذي يقهر كلَّ شيءٍ، فيغلبه ويصرِفه لما يشاء كيف يشاء[10]، والمقصود بالقَهّار في الآية: الغَلَبَةُ والتَّذليلُ معًا[11].

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

يذكر الحقُّ سبحانه زمانَ الانتقام من الكافرين فيقول: هذا

تَبَدُّلُ نواميس الكون وسننه يوم القيامة

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (برز).
(2) الراغب، المفردات: (برز).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/216.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحد).
(5) الراغب، المفردات، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).
(6) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (وحد).
(7) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (وحد).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (وحد).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر: (قهر).
(10) الخطابي، شأن الدعاء، ص: 315، والبيهقي، الأسماء والصفات، ص: 315.
(11) الرّاغب، المفردات: (قهر).

الانتقام مِن الظّالمين الكُفّار يَحِلُّ بهم يوم تقوم القيامة، يوم تُبَدَّل هذه الأرض بأرض أخرى مِن غير جِنسها، أو صِفاتها، وكذلك السَّماوات تُبَدَّل بغيرها، وتخرج الخلائقُ من قبورها أحياءً ظاهرين بأبدانهم وأعمالهم؛ للحساب، للوقوف بين يدي خالقِهم، للقاء اللّٰه الواحد الأحد، القَهّار الغالِب، المُتَفَرِّد بالعَظَمَة والمُلْك(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

مُتعلَّق الظَّرْف في: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ﴾:

اليـوم الموعـود لَــهُ أحْـوالٌ جَمَّةٌ يُذْكَرُ كُلَّ مَـرَّةٍ بِعُـنْوانٍ مَخْصوصٍ

مُتعلَّق الظَّرْف في قوله: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ﴾ هو فعل محذوف تقديره: اذْكُر يوم، ويجوز أن يكون بدلًا من قوله: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ﴾، ويجوز أن يكون هو صِفَة لِقَوْله: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ۝٤١﴾ [إبراهيم: 41].

وهذا اليوم هو اليوم الموعود الَّذي يَأْتيهم العَذابُ بِعَيْنِه، ولَكِنْ لَهُ أحْوالٌ جَمَّةٌ يُذْكَرُ كُلَّ مَرَّةٍ بِعُنْوانٍ مَخْصوصٍ، والتَّقْييدُ بِهِ مَعَ عُمومِ انْتِقامِهِ لِلْأوْقاتِ كُلِّها؛ لِلْإفْصاحِ عَمّا هو المَقْصودُ من تَعْذِيبِ الكَفَرَةِ المُؤَخَّرِ إلى ذَلِكَ اليَوْمِ بِموجِبِ الحِكْمَةِ الدّاعِيَةِ إلَيْه(2).

نُكْتة إيثار التَّعبير بالتَّبديل على التَّغيير:

شمول التَّبديل لــلــذَّوات والــصِّـفـات جميعًا

وأوثر التَّعبيرُ بالتَّبديل على التَّغيير؛ لأنَّ التَّغيير لا يتعلَّق بالذّات، وإنَّما يتعلَّق بالأعراض، بخلاف التَّبديل فإنَّه يكون في الذّات والجِنْس، وهذا ما يحدث للأرض والسَّماوات يوم القيامة؛ حيث يُغَيَّر ذات الأرض، وكذلك السَّموات، فتختلفان كُلِّيًا عن جنسهما المعهود في الدُّنيا، كما قيل: يُحْشَرُ النّاسُ يَوْمَ القِيامَةِ عَلَى أرْضٍ بَيْضاءَ عَفْراءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ(3)؛ لذا كان من المُناسب التَّعبير بالتَّبديل دون التَّغيير هُنا.

(1) الرّاغب، المفردات: (قهر).
(2) نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 261.
(3) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/164.

وأشار الزَّمخشريُّ إلى نَوْعَي التَّبديل بقوله: "وقد يكون في الذَّوات كقولك: بدَّلت الدَّراهمَ دنانيرَ، ومنه قوله تعالى ﴿بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النِّساء: 56] ﴿وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ﴾ [سبأ: 16]، وفي الأوصاف، كقولك: بَدَّلْتُ الحَلَقَةَ خاتمًا، إذا أذَبْتَها وسَوَّيتها خاتمًا، فنَقَلْتَها من شَكْلٍ إلى شَكْل. ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [الفرقان: 70]، واخْتُلِف في تبديل الأرض والسَّموات"[1].

دلالة صيغة المضارع المبنيّ للمفعول:

العِلْمُ الفاعل والتَّنبيه على عَظمة فعله

عُبِّر بالمُضارع المبنيّ للمفعول ﴿تُبَدَّلُ﴾ في قوله ﷻ: ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾؛ للعلم بالفاعل؛ حيث لا يَقْدِر على ذلك إلّا اللّه الخالق، وللإشارة إلى قُدْرة الفاعل وعظمته، فبناء الفعل لِما لم يُسمَّ فاعُله هو لإشغالهم بالفعل عن معرفة الفاعل.

سرُّ وضع المُظْهَر موضع المضمَر:

التَّأكيد على أنَّ التَّبديل يكون في ذات أرض الدُّنيا

وُضِع المُظْهَر مَوْضع المُضْمَر في قوله ﷻ: ﴿تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ حيث كان الظّاهر أن يُقال: غيرها؛ للتَّأكيد على أنَّ التَّبديل يكون في ذات أرض الدُّنيا، فأرض الآخرة غير أرض الدُّنيا ذاتًا وصِفاتٍ كما ورد في كُتُب التَّفسير[2].

نكتة تَقْدِيمُ تَبْدِيلِ الأرْضِ على تبديل السَّماوات.

تَقديمُ تَبدِيلِ الأرضِ لِقُربها مِنّا، ولِكَونِ تبدِيلِها أعظَمَ أثَرا بِالنِّسبَةِ إليَنا[3].

توجيه المتشابَه اللَّفظيِّ:

التَّصريح بتبديل الأرض في مقام أحداث القيامة، والإخبار بفناء زينة الأرض في مقام الاعتبار

قَوْلُهُ تَعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ الآيَةَ؛ هَذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ فِيها التَّصريحُ بِتَبْدِيلِ الأرْضِ يَوْمَ القِيامَة، وقَدْ جاءَ في آيَةٍ أُخْرى ما يُتَوَهَّمُ مِنهُ أنَّها تَبْقى ولا تَتَغَيَّرُ، وهي قَوْلُهُ تَعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 2/566.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/233، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/163.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/283.

مَا عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا جُرُزًا ۝٨﴾ [الكهف: 7 - 8]، فَإنَّهُ تَعالى في هَذِهِ الآيَةِ صَرَّحَ بِأنَّهُ جَعَلَ ما عَلى الأرْضِ زِينَةً لَها لِابْتِلاءِ الخَلْقِ، ثُمَّ بَيَّنَ أنَّهُ يَجْعَلُ ما عَلى الأرْضِ صَعِيدًا جُرُزًا، ولَمْ يَذْكُرْ أنَّهُ يُغَيِّرُ نَفْسَ الأرْضِ، فَيُتَوَهَّمُ مِنهُ أنَّ التَّغْيِيرَ حاصِلٌ في ما عَلَيْها دونَ نَفْسِها.

والجَوابُ هو أنَّ حِكْمَةَ ذِكْرِ ما عَلَيْها دونَها، لِأنَّ ما عَلى الأرْضِ مِنَ الزِّينَةِ والزَّخارِفِ ومَتاعِ الدُّنْيا، هو سَبَبُ الفِتْنَةِ والطُّغْيانِ، ومَعْصِيَةِ اللّه تَعالى.

فالإخْبارُ عَنْهُ بِأنَّهُ فانٍ زائِلٌ فِيهِ أكْبَرُ واعِظٍ وأعْظَمُ زاجِرٍ، عَنِ الِافْتِتانِ بِهِ، ولِهَذِهِ الحِكْمَةِ خُصَّ بِالذِّكْرِ، فَلا يُنافي تَبْدِيلَ الأرْضِ المُصَرَّحَ بِهِ في الآيَةِ الأُخْرى، كَما هو ظاهِرٌ، مَعَ أنَّ مَفْهومَ قَوْلِهِ سبحانه: ﴿مَا عَلَيۡهَا﴾ [الكهف: 8] مَفْهومُ لَقَبٍ لِأنَّ المَوْصولَ الَّذِي هو واقِعٌ عَلى جَمِيعِ الأجْناسِ الكائِنَةِ عَلى الأرْضِ زِينَةً لَها، ومَفْهومُ اللَّقَبِ لا يُعْتَبَرُ عِنْدَ الجُمْهورِ، وإذا كانَ لا اعْتِبارَ بِهِ لَمْ تَظْهَرْ مُنافاةٌ أصْلًا."[1].

دلالة الواو في: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾:

بيان تَغَيُّرِ عوالم الكون العلويَّة بعد ذكر تغير عوالمه السُّفليَّة

(الواو) في قوله: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ عَطْف على الأرض أي تتغيَّر معالمُهما أيضًا على حَدِّ قول القائل[2].

وما النّاسُ بِالنّاسِ الذينَ عَهِدتَهُمْ *** وَلا الدّارُ بِالدّارِ التي كُنتَ تَعْلَمُ[3]

بلاغة الطِّباق في ذكر السَّماوات والأرض:

طلاقة قدرة الخالق على تبديل أكبر جُرْمين فوقنا وتحتنا

في الآية الكريمة مُحَسِّن بديعيٌّ هو الطِّباق بين الأرْضِ والسَّماواتِ

(1) الشّنقيطيُّ، أضواء البيان: 3/136.

(2) البيت من بحر الطويل، وقائله هو العبّاس بن المطلب، وقد اقتبسه الفرزدق وغيّر القافية (تعرف) بدلا من تعلم، يُنظر: أبو الحسن الجرجانيُّ، الوساطة بين المتنبّي وخصومه، ص: 199.

(3) دوريش، إعراب القرآن: 5/206.

وقد أكَّد هذا المُحَسِّن طلاقة قدرة الخالق ﷻ على تبديل أكبر جُرْمين مِن مخلوقاته من فوقنا ومن تحتنا في آنٍ واحد يوم القيامة.

الإشارة إلى المعهود ذِهنا في النُّفوس

معنى التَّعريف في لفظتي السَّماواتِ والأرْضِ:

التَّعريف في لفظ السَّماواتِ والأرضِ للعهد الذِّهنيِّ، فإنَّ السّامِعَ يَستحضرُ عند سماعِ هذيْن اللَّفظَين المعنى المُتبادِرَ، وهو السَّماءُ الّتي تَعلونا، والأرضُ الّتي نعيشُ فيها.

إخراج الكلام على حَسَبِ ما اعتقده الظّالمون

مَرْجع الضَّمير، ودلالة التَّعبير بِلَفْظ الجلالة:

(الواو) في ﴿وَبَرَزُواْ﴾ إمّا أن تكون عاطفة عَلى ﴿تُبَدَّلُ﴾، أو استئنافيَّة، أو حاليَّة.

والضَّمير في ﴿وَبَرَزُواْ﴾ يعود إلى الخَلائِق أوِ الظّالمِينَ المَدْلولُ عَلَيْهِمْ بِمَعونَةِ السِّياقِ، والمُرادُ بُروزُهم من أجْداثِهِمُ الَّتي في بُطونِ الأرضِ، وجوَّزَ أنْ يَكونَ المُرادُ ظُهورَهم بِأعْمالِهم الَّتي كانوا يَعْمَلونَها سِرًّا ويَزْعُمونَ أنَّها لا تَظْهَرُ أوْ يَعْمَلونَ عَمَلَ مَن يَزْعُمُ ذَلِكَ[1].

وإنَّما قال ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ مع كونِه سبحانه رقيبًا عليهم، عالمًا بهم، لا تخفَى عليه خافيةٌ مِن أحوالِهم، برَزوا أو لم يَبرُزوا؛ لأنَّهم كانوا يستَترونَ عن العُيونِ عند فِعلِهم للمعاصي، ويظنّونَ أنَّ ذلك يخفَى على اللّهِ تعالى، وأنَّه غير مُطَّلِع عليهم، فَأُخْرِج الكلام على ما يعتَقدونَه[2].

فهؤلاء الظّالمون ظَهروا، وعَلِموا عِلْم اليقين والمُشاهدة أنَّهم لَقَوا اللّه تعالى الذي كانوا يُكَذِّبون لقاءه، ويُنكرونه؛ لذا كان التَّعبير بلفظ الجلالة مُلائمًا أشدَّ المُلاءمة في هذا المقام؛ لإلقائه المَهابة في نفوسهم، وَقَذْفه الهَلَعَ في أفئدتهم بَعْد إنكارهم لقاءه. وأوثر

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/255.
(2) الشّوكانيُّ، فتح القدير: 3/755.

التَّعبير بالبُروز على التَّعبير بالظُّهور؛ لأنَّ البُروز فيه شِدَّة وبَأْس، وهذا يتناسب مع جَوِّ المشهد وتفاصيله يوم القيامة.

سِرُّ إسْنادِ البُروزِ إلى الظّالمين:

وَجْهُ إسْنادِ البُروزِ إلَيْهِمْ مَعَ أنَّه عَلى هَذا لِأعْمالِهِمْ؛ للإشعار بِتَشَكُّلِهِمْ بِأشْكالٍ تُناسِبُ أعمالهم.

الإشعار بتشكُّلِهِمْ بأشْكالٍ تُناسِبُ أعمالهم

العُدولُ إلى صِيغَةِ الماضِي:

العُدولُ إلى صِيغَةِ الماضِي لِلدَّلالَةِ عَلى تَحَقُّقِ وُقوعِ ذلك البُروز حتَّى صار أمْرًا واقعًا يُخْبَر عنه.

تحقُّق وُقوع ذلك البُروز

مُناسبة صفتي ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ للسِّياق:

جاء التَّعبير بِصِفَتي ﴿ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ مُلائمًا لِسياق التَّهديد والوعيد؛ فوَصْفُه سبحانه بـ﴿ٱلۡوَٰحِدِ﴾؛ ليتيقَّنوا أنَّ شِرْكهم كان باطِلًا، وأنَّه وَحْده المَلِك العَدْل، فلا شفاعة لِأحدٍ لَهُم، ولا لأصنامهم.

وفي التَّعبير بوَصْف ﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾ تهويل لما يُلاقيه هؤلاء الظّالمون يومئذٍ، ولتربية المَهابة، وتحقيق الانتقام في ذلك اليوم على تقدير كونه ظَرْفًا.

إظهار بُطلانِ الشِّرك، وتَحقيق الانتقام في ذلك اليوم

"ففيهما دلالة على أنَّ الأمْرَ في غايةِ الصُّعوبة، ولِتهويلِ الخطْب، وتَربيةِ المَهابة، وإظهارِ بُطلانِ الشِّرك، وتَحقيقِ الانتقام في ذلك اليوم، على تقديرِ كونِه ظرفًا له، وتَحقيقِ إتيانِ العذاب الموعودِ، على تَقدير كونه بدلًا من يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ؛ فإنَّ الأمْرَ إذا كان لواحدٍ غلّابٍ لا يُعازُّ، وقادرٍ لا يُضارُّ، كان في غايةِ ما يكونُ من الشِّدَّةِ والصُّعوبة."(1).

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

التَّبديل والتَّغيير:

التَّبديل: تغيير حال الشَّيء، والإبدال: جَعْل الشَّيْءِ مكانَ غيره،

التَّغيير أعمُّ من التَّبديل

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/287، والبيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 3/203 - 204، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/457، وابن عادل، اللّباب: 11/412.

والتَّغيير قد يُطلَق على الذّات أو الصِّفات، فقَوْلُنا: هَذا الشَّيْءُ غَيْرُ ذاكَ، أيْ هوَ سِواهُ وَخِلافُهُ[1]. فالتَّغيير يُقال على وجهَيْن: أحدهما لتغيير صورة الشَّيءِ دون ذاته، يُقال: غيَّرت داري إذا بنيتُها بناءً غيرَ الَّذي كان، والثّاني لتبديله بغيره نحو: غيَّرت غلامي ودابَّتي إذا أبْدَلْتهما بغيرهما نحو قول اللّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرَّعد: 11].

البروز والظُّهور:

يختصُّ البُروز بالدِّلالة على الشِّدَّة والبأس

البُروز يَدُلُّ أصلها على كُلِّ ظُهور بَعْد خفاء[2]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٥٠﴾ [البقرة: 250].

وقوله: ﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ﴾ [إبراهيم: 21].

أمّا الظُّهور فيَدُلُّ أصْل معناها على الظُّهور بقوَّة والبُروز[3]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ١٢٠﴾ [الأنعام: 120].

وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [لقمان: 20].

يتضَّح إذًا أنَّ اللَّفظين يشتركان في الدِّلالة على الوضوح والانكشاف، ويختصُّ البُروز بالدِّلالة على الشِّدَّة والبأس، ويختصُّ الظُّهور بإطلاقه على معنى الغَلَبة والقوَّة[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غير).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (برز).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ظهر).
(4) محمد محمد داود، معجم الفروق الدِّلالية في القرآن الكريم، ص: 109.

الواحد والأحد:

الواحد مُنفرد بالذّات في عدم المِثْلِ والنَّظير، والأحد بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد

يوصَفُ اللّهُ ﷻ بالأحَدِيَّةِ، وهي صِفةٌ ذاتيَّةٌ له، والأحَدُ اسمٌ له ﷻ.

قال السَّمعانيُّ: "أحَدٌ: بمعنى الواحِدِ، وقد فُرِّق بيْن الأحَدِ والواحِدِ وقيل: إنَّ الأحَدَ أبلَغُ مِنَ الواحِدِ، يُقالُ: فلانٌ لا يُقاوِمُه أحدٌ، نفيًا للكُلِّ، ويُقالُ: لا يُقاوِمُه واحِدٌ، ويجوزُ أن يقاوِمَه اثنانِ، وأيضًا فإنَّ الواحِدَ يكونُ الَّذي يليه الثّاني والثّالِثُ في العَدَدِ، والأحَدُ لا يكونُ بمعنى هذا الحالِ، وأكثَرُ المفَسِّرينَ أنَّه بمعنى الواحِدِ"(1).

وقال ابنُ كثير: "يعني: هو الواحِدُ الأحَدُ، الَّذي لا نظيرَ له ولا وَزيرَ، ولا نَديدَ ولا شَبيهَ ولا عديلَ، ولا يُطلَقُ هذا اللَّفظُ على أحَدٍ في الإثباتِ إلّا على اللّهِ ﷻ؛ لأنَّه الكامِلُ في جميعِ صِفاتِه وأفعالِه"(2).

و﴿ٱلْوَٰحِدِ﴾ اسم فاعل للموصوف بالواحديَّة أو الوحدانيَّة، والواحد سبحانه هو المنفرد الَّذي لا يفتقر إلى غيره فهو سبحانه كان ولا شيءَ قبله، ووجود المخلوقات لم يزده كمالًا كان مفقودا أو يزيل نقصًا كان موجودًا.

والواحد في أسماء اللّه تعالى هو الفرد الَّذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر.

والأحَد: هو اسم بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والهمزة فيه بدل الواو وأصله (وَحَدَ).

والواحد اسم بُني لمُفتَتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس ولا تقول: جاءني أحد، فالواحد منفرد بالذّات في عدم المِثْل والنَّظير، والأحد منفرد بالمعنى.

والفرق بين الواحد والأحد أنَّ الأحد بُني لنفي ما يُذكر معه من العدد.

(1) السّمعانيُّ، تفسير القرآن: 6/303.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/527.

القهار يدلُّ على الغلبة والعلوِّ وفي الجبّار معنى إصلاح الشَّيء

القَهّار والجبّار والمُذِلّ:

﴿ٱلۡقَهَّارِ﴾: يدُلُّ أصل المادَّة (قهر) على الغَلَبَة والعُلوّ[1]، والقَهّار صيغة مُبالغة على وزن (فعّال)، وهو الَّذي له عُلوُّ القَهْر باعتبار الكَثْرة، وهوالذي قَهَرَ خَلْقَه بِسُلْطانه وَقُدْرَته وصَرَّفهم عَلَى ما أراد طَوْعًا وَكَرْهًا قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 18][2].

ومن معاني القَهّار في القرآن الكريم: العالي على خَلْقه، وهو المُصْلح للأُمور، مِنْ جبَر الكَسْر إذا أَصْلَحه، وجَبَر الفَقير إذا أغْنَاه، وهو القاهر خَلْقه على ما أراد مِنْ أمْرٍ أو نَهْيٍ[3].

قال الخَطّابيُّ: (القَهّار): هو الَّذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة، وقهر الخلق كلَّهم بالموت"[4].

أمّا الجبّار فالجَبْر في أصل اللُّغة: إصلاح الشَّيءِ بِضَرْبٍ من القهر[5]، والجَبّارُ: الْقاهِرُ خَلْقَه عَلَى ما أراد مِن أمر وَنَهْيٍ[6].

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلۡمُؤۡمِنُ ٱلۡمُهَيۡمِنُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡجَبَّارُ ٱلۡمُتَكَبِّرُۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٢٣﴾ [الحَشْر: 23].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قهر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (قهر).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 2/432، والشّوكانيُّ، فتح القدير: 1/278.
(4) الخطّابيُّ، النّهج الأسمى: 2/182.
(5) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (جبر).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (جبر).

﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ٥٠﴾ [إبراهيم: 49 - 50]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

عطف أحوال أخرى للظّالمين على بعضها

في الآية السّابقة وصَفَ الله سُبْحانَه نَفْسَه بِكَوْنِهِ قَهّارًا، وفي هذه الآية بَيَّنَ عَجْزَهُم وذِلَّتَهُم، وما يَحلُّ بالمُجرمين يوم القيامة مِن عذاب عنيف مُهين يُناسِب إجرامهم وكُفْرهم فَقال ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: أصلُ (قرن): يَدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيْءٍ[2]، يُقال: قَرَنْتُ الشَّيءَ بالشَّيءِ: وصلته به. والحَبل الَّذي يُقرَن بِهِ بعيران يُقال لَهُ القَرَن، وقَرَّنْتُهُ على التّكثير[3]، وَأما القِرنُ، فَهوَ حَبلٌ يُقلَّده البعيرُ ويقادُ بِهِ[4]. ومنه: قُرِّنتِ الأسارى في الحبال، شُدِّد للكثرة[5]. والقِرانُ: أَنْ تَقْرِنَ بَيْنَ تَمْرَتَيْنِ تَأْكُلُهُما[6]. والمراد بالتَّقْرينِ في الآيَةِ: وَضْعُ اثْنَيْنِ في قَرنٍ، أيْ حَبْلٍ[7].

2) ﴿ٱلۡأَصۡفَادِ﴾: أصلُ (صفد): يدلُّ على شَدٍّ بِشَيْءٍ، ومنه الصَّفْدُ والصِّفاد: القَيْدُ الغُلُّ[8]. يُقالُ: صَفَدْتَ الرَّجُلَ، فَهوَ

(1) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/151.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (قرن).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (قرن).
(5) الجوهري، الصحاح: (قرن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قرن).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية: (صفد).

مَصفود، وصَفَّدْته فَهوَ مُصَفَّد[1]. والصِّفادُ ما يوثَقُ بِهِ الأسير مِنْ قِدٍّ وقَيْدٍ وغُلٍّ[2]. والمراد بالأصْفادِ هنا: جَمْعُ صِفادٍ، وهو القَيْدُ والغُلُّ[3].

3) ﴿سَرَابِيلُهُم﴾: السِّرْبالُ: القَميصُ من أيِّ جِنْسٍ كانَ، يَقِي الجَسَدَ حَرَّ الشَّمْسِ، كَما يَقِيه البَرْدَ، وَقَدْ تَسَرْبَلَ بِهِ وسَرْبَلَه إيّاه. وسَرْبَلْتُه فَتَسَرْبَل، أي: ألبسته السِّرْبالَ. وتُطْلَقُ السَّرابيلُ على الدُّروعِ، جَمْعُها سِرْبالٌ[4]، والمقصود بالسَّرابيل في الآية: جَمْعُ سِرْبالٍ وَهوَ الْقَميصُ[5].

4) ﴿قَطِرَانٍ﴾: القَطِران: مادَّة حارَّة نَتِنَة شديدة الاشتعال تشبه الزِّفت تُطلَى بها جُلود الإبل الجربى؛ ليزول الجَرَبُ منها، وتتكوّن من عصارة الأبْهُلِ والأرز وَنَحْوهما يُطْبَخُ، فَيتَحلَّبُ مِنْهُ[6]، يُقالُ: قَطَرْتُ البَعِيرَ: طَلَيْتُه بالقَطِرانِ[7]، ويُسَمَّى الهِناء، سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يَتَقاطَر[8]، قِيلَ، والله أعلم: إنَّ السَّرابيل جُعِلَتْ مِنَ القَطرانِ؛ لأنَّه يُبالِغُ في اشْتِعالِ النّارِ في الجُلودِ[9].

5) ﴿وَتَغْشَىٰ﴾: أَصْلُ (غشى) يَدُلُّ على تَغْطِيَةِ شَيءٍ بِشَيءٍ، يُقالُ غَشَّيْتُ الشَّيءَ أُغَشِّيهِ[10]، وَيُقال: غُشِيَ عليه فهو مغشيٌّ عليه، وهي الغَشْيَة[11]، والغِشاوَة: ما غَشِيَ القَلْبَ من رَيْنِ الطَّبْع[12]، وتَغَشَّى ثيابه واستغشاها: تَغَطَّى بها كي لا يَرى ولا يَسْمع: ﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ [نوح: 7]، والغاشية: القِيامَةُ؛ لأنَّها تغشى الخَلْق، وَقيل: الغاشية النّار؛ لأنّها تغشى وُجوه الكفّار[13]. والمُرادُ بالتَّغْشِيَةِ في الآية: جَعْلُ الشَّيْءِ غاشِيًا، وحَقِيقَتُها التَّغْطِيَةُ، أي: تُغطّي وجوههم بلهيبها![14].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صفد).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (صفد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سربل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/253.
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (قطر).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (غشا).
(8) السّمين الحلبيُّ، عمدة الحُفّاظ: (قطر).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قطر).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غشى).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة: (غشا).
(12) الخليل، العين: (غشو).
(13) ابن سيده، المحكم: (غشو).
(14) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8ب/166، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/206.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

وَصْفُ الآيتين لشدَّة ما يُحيط بالظّالمين من أهوال العذاب

يقول اللّه تعالى: وترى - يا محمَّدُ ﷺ - الكافرينَ يومَ القيامةِ مُقيَّدينَ بالأغلالِ والقُيودِ، وثيابُهم التي يَلبَسونَها مِن القَطِرانِ، وتلفَحُ وُجوهَهم النّارُ، فتُحيطُ بها مِن كُلِّ جانبٍ، وتَحرِقُها.

ذلكَ مَنظرٌ تقشعرُّ منه الأبدان، وتنخَلِعُ منه القُلوبُ، تتجلَّى فيه نقمة اللّه تعالى، حيث تنزل بالظّالمين، وتأخذهم أخذَ عزيز مُقتدر، وما ظلمهم اللّه الحقّ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الرُّؤية في الآية، ودلالة الخِطاب:

(الواو) في قوله ﷻ: ﴿وَتَرَى﴾ عاطفة الجملة على جملة ﴿تُبَدَّلُ﴾، و﴿وَتَرَى﴾ بصريَّة.

إشفاء صَدْر الرَّسول ﷺ بمُعاينته عذابَ أعدائه

والخطاب لإشفاء صَدْر الرَّسول ﷺ من أعدائه؛ فها هو ذا يري بعينيْه مصيرَ هؤلاء الكفرةِ المجرمين الَّذين عاندوه، وآذوه، ومكروا به، وعَذَّبوا أصحابه، فهاهُم اليوم يُساقون إلى جهنَّم في تلك الهيئات المُذِلَّة مُقَيَّدين في الأغلال.

سِرُّ العدول عن الإضمار إلى الإظهار:

الدَّلالة على العذاب المُقيم الذي لا ينفكُّ ولا يَفْتُر

ذَكَرَ اللّه تعالى بُروزَ الكُفّار لَه سبحانه، وذَكَرَ حالَهم في ذَلِكَ البُروزِ فَقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وكان الظّاهر أن يقول: وتَراهُمْ، ولَكِنَّه أظْهَر فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾؛ لِتَعَدُّدِ صِفاتِهِمُ الَّتِي أوْجَبَتْ لَهُمُ الخِزْيَ[2].

نكتة التَّعبير بالفعل المُضارع ﴿وَتَرَى﴾:

الدَّلالة على استمرار عذابهم

التَّعبير بالمُضارع لِاسْتِحْضارِ صورةِ عذاب المُجرمين المُشركين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/746، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/385، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/206.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/439.

يومَ القيامة، أو للدِّلالة على استمرار عذابهم، وللدَّلالة على أنَّ أحوالهم الثَّلاثة المذكورة في تلك الآية الكريمة مِن صُنوف العذاب والإهانة لا تَنْفكُّ عنهم، ولا تَفْتُر.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

إفادة الاستغراق لكلِّ أولئك المجرمين من الظَّلمة

أفاد التَّعريف هنا الاستغراق لكلِّ أولئك المجرمين من الظَّلمة، وفي هذا وعيدٌ شديدٌ لهم.

إيثار وصف الُمجرمين دون الظّالمين:

بيان أنَّ الجزاء مِن جِنْس العمل

أوثر التَّعبيرُ بوَصْف المجرمين دون الظّالمين؛ لأنَّ ما اكتسبه هؤلاء المُعَذَّبون مِن جرائم في اعتقادهم، وفي أفعالهم، وفي إفسادهم عَبَثًا في الأرض، وفي عِنادهم وتَعَنُّتهم هو السَّبب فيما ينالون من عقاب، ويَحِلُّ بهم من عذاب[1].

دلالة الظَّرف في: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾، ونُكتة الحذف فيه:

التَّهويل من شدَّة يوم القيامة

في قوله: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ دلالة على شدَّة هولِ يوم القيامة على هؤلاء المجرمين، كما تُشير إلى ذهول الرّائي لهم؛ وذلك لاختلاف هيئَتِهم عمّا كانوا عليه في الدُّنيا من متاعٍ، وهذه فائدة تعلُّق الرُّؤية باليوم.

معنى التَّنوين في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾:

التَّنوين عِوَضٌ عن الجُملة السّابقة

التَّنوين في ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ عِوَضٌ عن الجُملة السّابقة، يَعْنِي: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ والسَّمَوات[2].

إعراب ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ وسِرُّ استعمال هذا اللَّفظ دون غيره:

بيان أحوال المُجرمين في العَرْض وفي جَهَنَّم

ذَكَر اللّٰه تعالى للمُجرمين الظّالمين أحوالًا ثلاثة - أعاذنا اللّٰه منها - في ذلك اللِّقاء العَصيب يوم القيامة: وهي: ﴿مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾، و﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾، و﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4057.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 13/740.

وقد قعت ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ حالًا مِنَ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ كاشفةً عن هيئتِهم وهُم يُساقون إلى العذاب سَوْقًا.

وأوثر التعبيرُ بهذا اللَّفظ؛ لدلالته على الجَمع والمُصاحَبة، فمَشْهد المُجرمين وهُمْ مَقْرونون، مَقْرونٌ بَعْضُهم مَعَ بَعْض في القُيودِ والأغْلالِ، أوْ مَعَ شَياطِينِهِمْ، كُلُّ كافِرٍ مَعَ شَيْطانِهِ في غُلٍّ، أوْ تُقْرَنُ أيْديهِمْ إلى أرْجُلِهِمْ مُغَلَّلِينَ. يَمُرّون صَفًّا صَفًّا مَشْهد مُذِلٌّ مُهين، دالٌّ كذلك على قُدْرة اللّه القَهّار[1].

وقد بَيَّنَ اللّه تَعالى في هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أنَّ المُجْرِمِينَ وهُمُ الكُفّارُ يَوْمَ القِيامَةِ يُقَرَّنُونَ في الأصْفادِ، وأكَّد سبحانه هَذا المَعْنى في مَواضِع أُخَرَ كَقَوْلِه ﴿وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ١٣﴾ [الفرقان: 13][2].

عِلَّة العدول عن مقْرونين إلى ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾:

دلالة التَّضعيف على المُبالغة

عُدِلَ عن (مقْرونين) إلى صيغة التَّضعيف ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾؛ لأنَّ تضعيف اللَّفظ، وثِقَل النُّطْق به يُحاكي عظيم تقرينهم وتكثيره، مربوطين ربْطًا شديدًا، وقَسْوة تضييق وثاقهم وشِدَّتها، ويُلْمِح إلى شِدَّة إحكامها عليهم وغِلْظتها، وكأنَّهم يُقَرَّنون بالأغلال مَرَّة بَعْد مَرَّة، كما يَدلُّ التَّشديد على المُبالغة.

وممّا يُساعِد على هذا الفَهْم تنكير اللَّفظ، والذي يُشير أيضًا إلى كثرة أولئك المُجرمين المُقَرَّنين.

فائدة قيد ﴿فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾:

استحكامُ الغَلِّ وشِدَّتُه

أوْمَأ التَّعبير بحرف الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ إلى شِدَّة غَلِّ أيدي وأرْجُل هؤلاء المجرمين في السَّلاسِل الَّتي تَجْمَعُ الأيْدِي حتَّى صاروا مُنْغَمِسين فيها ومُسْتقرِّين، وصارت ظَرْفًا لَهُم.

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/256.

(2) الشّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/136.

علّة الفصل في: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾:

الجملة بيانٌ لحال المُجرمين في كون العذاب أصْنافًا متنوّعة وأحوالًا مُختلفة

جملة ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ الجملة حال ثانية، أو جملة مستأنَفة وسرابيلهم مبتدأٌ ومن قطران خبرُه فبين الجملتَيْن كمالُ الاتِّصال؛ وهي بيانٌ لحال المجرمين.

سِرُّ إضافة (سرابيل) إلى ضمير الغائبين:

تخصيص هذا السَّرابيل وتَعَلُّقها بهم

إضافة (سرابيل) إلى ضمير الغائبين للتَّخصيص، فتلك السَّرابيل من قطران مُعَدَّة لَهُم خِصّيصًا.

دلالة حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾:

إذلالهم بجعل ما يُتَوَقَّى به العذابُ عذابًا

يُضاف إلى قرنهم في الوثاق أنَّ سرابيلهم وثيابهم مِن مادَّة شديدة القابليَّة للالتهاب، وهي في ذات الوقت قَذِرَةٌ مُنْتِنة سوداء مِن قَطِران، ففيها الذُّلُّ والإهانةُ والتَّحقيرُ، وفيها الإيحاء بِشِدَّة الاشتعال فَوْر قُرْبهم مِن النّار، حيث يُجْعل القَطِران لهَمُ لباسًا ليزيد في حرِّ النّار عليهم فيكون ما يُتَوَقَّى به العذابُ عذابًا و﴿مِّن﴾ بَيانيَّة.

تنكير ﴿قَطِرَانٍ﴾:

تفخيم وتهويل نوع هذا القطران

تنكير ﴿قَطِرَانٍ﴾ للتَّفخيم والتَّهويل، فَهو قَطِران مِن نوعيَّة خاصَّة، شديدة الاشتعال، مُنْتِنة، قذِرة، وهذا مِن أجْل زيادة عذابهم، وتهويله، وتكثيره.

بلاغة التَّشبيه في: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾:

ثياب أهل النّار لا ستر ولا غطاء، بل نتنٌ وحُرقة وتأجيج

قوله تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ﴾ حقيقة واقعة لأهل النّار، فلا ستر عليهم يَسترهم من النّار إلّا وَقودها، وذَهَبَ بعضهم إلى التَّجوُّز فيها لتُحمل على معنى المُبالغة في عذاب أهل النّار، والنِّكاية بهم على سبيل التَّشبيه البليغ؛ حيث شُبِّه طلاءُ جلود أهل النّار بالقطران، وكأنَّه كالسَّرابيل لَهُم[1]، قالَ الزَّمَخْشَرِيُّ: "ومِن شَأْنِه - أي: القَطْرانُ - ، أَنْ يُسْرِعَ فِيهِ اشْتِعالُ النّارِ، وقَدْ يُستسرجُ بِهِ، وهو

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/241.

أَسْوَدُ اللَّوْنِ مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيُطْلى بِهِ جُلودُ أَهْلِ النّارِ حَتَّى يَعودَ طِلاؤُهُ لَهم كالسَّرابيلِ، وهي القُمُصُ، لِتَجْتَمِع عَلَيْهِمُ الأَرْبَعُ: لَذْعُ القَطِرانِ وحُرْقَتُهُ، وإِسْراعُ النّارِ في جُلودِهِمْ، واللَّوْنُ الوَحْشُ، ونَتَنُ الرِّيحِ، عَلى أَنَّ التَّفاوُتَ بَيْنَ القَطِرانَيْنِ كالتَّفاوُتِ بَيْنَ النّارَيْنِ. وكُلُّ ما وعَدَهُ اللّه، أَوْ أَوْعَدَ به في الآخِرَةِ، فَبَيْنَه وبَيْنَ ما يُشاهِدُه مِن جِنْسِهِ ما لا يُقادِرُ قَدْرَهُ، وكَأَنَّهُ ما عِنْدَنا مِنهُ إلّا الأسامِيَ والمُسَمَّياتِ ثَمَّةَ"[1].

أعاذنا اللّه من هذا العذاب برحمته وعفوه ومغفرته.

فائدة استعمال صيغة المضارع: ﴿وَتَغۡشَىٰ﴾:

استمرار غَشيان وجوههم النّار

أوثر التَّعبيرُ بالمُضارع في الحال الثّالثة في قوله: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾؛ لإفادة استمرار الغشيان، وتَجَدُّده، ولاستحضار تلك الحال. قال البقاعيُّ: "ولَمّا كانَ هَذا اللِّباسُ مَعَ نَتْنِهِ وفَظاعَتِهِ شَديدَ الانْفِعالِ بِالنّارِ، بَيَّنَ أَنَّهُ يُسَلِّطُها عَلَيْهِمْ فَقالَ: ﴿وَتَغۡشَىٰ﴾"[2].

عِلَّة اختصاص الوجوه بالذِّكْر:

الوجْهُ أعزُّ مَوضِعٍ في ظاهِرِ البدَنِ وأشرَفُه وظهور أثر العذاب عليه أكثر

ثالث أحوال المُجرمين يوم القيامة أشار إليها قوله تعالى: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾. وخَصَّ الوُجوهَ هنا؛ لأنَّ الوجْهَ أعزُّ موضِعٍ في ظاهِرِ البدَنِ وأشرَفُه، كالقلْبِ في باطنِه؛ فلهذا السَّببِ خصَّ اللّهُ تعالى هذين العُضوين بظُهورِ آثارِ العِقابِ فيهما، فقال في القلبِ: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ۝٧﴾ [الهمزة: 6 - 7]، وقال في الوجه: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[3].

بلاغة المجاز في التَّعبير بالوجوه وغشيان العذاب لها:

لفت الانتباه لما يلحقهم من المَهانة والذِّلة

في قوله: ﴿وُجُوهَهُمُ﴾ مجاز مرسل علاقته الجزئية، حيث ذكر الجزء، وهو الوجوه، وأُريد به الكُلُّ، أي عموم البَدَن، لأنَّ الحاصل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/394.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/440.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف3/394، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/459، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/114.

أنَّ النّار تغشى جميع أبدانهم، ولكن فيذكر الوجوه وتقديمها لفت للانتباه لما يلحقهم من المَهانة والذِّلة وهم الذين أرادوا الوجاهة والمنزلة في قومهم.

سرُّ تقديم المفعول: ﴿وَتَغۡشَىٰ وُجوهَهُمُ ٱلنّارُ﴾:

التَّجعيل بإهانة المجرمين

لَمّا كان الوجه أشرَفَ ما في الإنسانِ فإهانتُه إهانةٌ عظيمةٌ لصاحِبِه ذكَرَه وقَدَّمَه؛ تعجيلًا بإهانتهم فقال: ﴿وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ أيْ تَعْلوها بِاشْتِعالِها، فَعُلِمَ أنَّهُ يَلْزَمُ مِن غَشَيانِها لَها اضْطِرامُها فِيما ضمّخَ بِالقَطْرانِ مِن بابِ الأوْلى[1].

سِرُّ ترتيب الأحوال في الآية الكريمة:

التَّرقِّي في دَرَكات عذاب المجرمين

يُلْحَظ في ترتيب هذه الأحوال الثَّلاثة أنَّها جيء بها للتَّرقِّي؛ لذا جيء بالجملة الثّانية ﴿سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ أفْظَع مِن الصَّفْد؛ فإنَّ كَونَهم في الصَّفاد أهون مِن أن تكون سرابيلُهم مِن قَطِران؛ فجيء بها جملةً اسميَّة، وغشيان النّار أكرم أعضاء الجسم، واستعلاء أقوى العناصر عليها أشَدُّ مِن الكُلِّ، فعُبِّر بالفعل المضارع الدّال على تَجَدُّد الغشيان، واستحضار تلك الحالة الفَظيعة في مُشاهَدة السّامِع. وجاءت تلك الصِّفات معطوفة؛ للقَصْد إلى استقلال كُلِّ صِفَة من تلك الصِّفات، وأنَّها مِن الأهميَّة بحيث تُذْكَر مُنْفَرِدة[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(مُقَرّن) و(مقيَّد):

يشترك اللَّفظان في الدِّلالة على الحَبْس

﴿مُّقَرَّنِينَ﴾: يدلُّ أصل المادَّة على الجَمْع[3]، فالقَرْنُ جمعُ شيءٍ إلى شيء آخر ووَصْله به مع ملازمة بحيث لا يَنْفَكُّ أحدهما عن الآخر، فالاقترانُ كالازدواج في كونه اجتماع شيئَيْن أو أشياء في

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 10/440.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب، حاشية على تفسير الكشّاف: 8/638.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).

معنًى من المعاني يُقال قرنت الشَّيءَ بالشَّيءِ إذا شددته به ووصلته والقران اسم للحبل الَّذي يُشدُّ به شيئان وله استعمالان:

الاستعمال الأوَّل: وضع اثنين في قَرْن أي الحَبْل الَّذي يُشَدُّ بِه، ويُقال: قَرَنَ الأسيرَ بالأسير أي جمعهما في وثاق واحد، ومن المادَّة القرينُ المصاحِب الملازِم، شُبِّهَت الملازمةُ الغالبة بالقَرْنِ بين شيئَيْن بحيث لا ينفصلان[1]، فعلى هذا الاستعمال معنى مقرَّنين: مشدودين بوثاق مجموعين فيه؛ لتَشابُه جرائِمهم، واتّحادهم في أوصافهم الإجراميَّة.

الاستعمال الثّاني: قَرَنَ الأسيرَ بالحَبْل أي شَدَّه به، والقَرْن: الحَبْل الَّذي يُشَدُّ به الأسير، وقَرَّنه شَدَّدَ عليه الوثاق.

أمّا التّقييد فيُستعارُ في كُلِّ شيءٍ يُحبسُ، يُقالُ: قيّدتُهُ أُقيِّدُهُ تقييدًا، ويُقالُ: فرسٌ قيدُ الأوابِدِ، أي فكأنّ الوحش من سُرعةِ إدراكِهِ لها مُقيّدةٌ. قال:

وَقَدْ أَغْتَدِي والطَّيْرُ في وُكُناتِها *** بِمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الْأَوابِدِ هَيْكَلِ[2]

الخُلاصة: يشترك اللَّفظان في الدِّلالة على الحَبْس، لكن ينفرد لفظ (مُقَرَّن) بدلالته على الشِّدَّة والإحكام والتَّضْييق.

الأصفاد والأغلال:

تنفرد الأصفاد في الدّلالة على الفعل (التَّقييد) وآلته

﴿ٱلْأَصْفَادِ﴾: شَدُّ أشياءَ ممتدَّة وضمُّها بعضها إلى بعض بقوَّة، كرجلَي المُقَيد تَنْضمّان بِشِدَّة نافذتَيْن من القَيْد[3]، والصَّفد: الوَثاقُ، والِاسْمُ الصَّفادُ، والصِّفادُ: حَبْلٌ يوثَقُ بِهِ أو غُلٌّ، وَهوَ الصَّفْدُ

(1) الرّاغب، المفردات: (قرن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قيد).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صفد).

والصَّفَدُ، والْجَمْعُ الأَصْفادُ[1]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: 38].

و﴿ٱلۡأَغۡلَٰلُ﴾: الغَلَلُ أَصْلُه: تَدَرُّع الشَّيْءَ وتَوَسُّطه، ومنه: الغَلَلُ للماء الجاري بين الشَّجر[2]، والغُلُّ: القَيْد والجمع: أغلال، وغَلَّه: وَضَعَ في عُنُقِه، أو يَدِه الغُلَّ[3]، ومِن شواهده قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾ [الرَّعْد: 5].

وتشترك الكلمتان في الدِّلالة على التَّقييد، وتنفرد الأصفاد في الدِّلالة على الفعل (التَّقييد) وآلته.

السِّرْبال والقميص:

السِّرْبال أكثر من القميص في الدِّلالة على حِفْظ لابسه ووقايته

السِّرْبال كُلُّ ما يُتَسَرْبَل به: أي يَلْبسه النّاس للتَّسَتُّر والوِقاية كالقُمْصان والثِّياب والدُّروع وغيرها[4]، والقميص: الَّذي يُلْبَس، وتَدُلُّ أصل مادَّته على لُبْسِ شَيْءٍ والدُّخول فِيه[5].

والفرق بين الكلمتَيْن هو أنَّ السِّرْبال أكثر من القميص في الدِّلالة على حِفْظ لابِسه ووقايته.

الغشيان والتَّغطية:

يدلُّ الغِطاء على استعلائه الشَّيءَ الَّذي يستره بخلاف الغشيان

الغَشَيان: والتَّغشية: السِّتْر والتَّغْطية، ويُسْتعار ذلك لِعَمى البصيرة[6]، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ [آل عمران: 154].

والغِطاء: ما جُعل فوق شيءٍ يحْجُبُه ويستره، فهو كالغِشاء. ويدلُّ

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صفد).
(2) الرّاغب، المفردات: (غلّ).
(3) الفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: (غلّ).
(4) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (سربل).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سربل).
(6) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (غشي).

عَلَى الْغِشاءِ والسَّترِ[1]، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: 101].

فتشترك الكلمتان في الدِّلالة على السِّتر والتَّغطية، ويفترقان في دلالة الغطاء على استعلائه الشَّيءَ الَّذي يستره بخلاف الغشيان.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غطو).

﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٥١﴾

[إبراهيم: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعليل وقوع صنوف العذاب السّابقة عليهم

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى أحوال المجرمين الظّالمين يومَ العَرْض، وأنَّهم في ذلك اللِّقاء العَصيب يوم القيامة على أحوال ثلاثة - أعاذنا اللّه منها -: الأولى: أنَّهم مَقْرونون في الأصْفاد. والثّانية: أنَّ سَرابيلَهُم مِّن قَطِرانٍ. والثّالثة: أنَّ النّارَ تَغْشى وُجوهَهُم. لَمّا ذَكَرَ ذلك قالَ هُنا مُعَلِّلًا لهذه الأفعال، وتلك الأحوال في ذلك اليوم: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِيَجۡزِيَ﴾: أصلُ (جزي): أصْلٌ واحِدٌ، هو الاكْتِفاءُ بِالشَّيْءِ، يُقالُ اجْتَزَأْتُ بِالشَّيْءِ اجْتِزاءً، إذا اكْتَفَيْتُ بِهِ، وَأَجْزَأني الشَّيْءُ إجْزاءً إذا كَفاني. ويُقالُ جَزَيْتُ فُلانًا أجزيهِ جَزاءً، وجازَيْتُهُ مُجازاةً[2]، والجَزاء: ما فيه الكفاية من المقابلة، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشرٌّ[3]. والجَزاء أيضًا: القَضاء، قالَ اللّه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا﴾ [البقرة: 48]، وَتقولُ: جَزَى عَنِّي هذا الأَمْرَ يَجْزي، كَما تَقولُ قَضَى يَقْضِي[4]. ولم يجئ في القرآن إلّا جزى دون جازى، وذاك أنَّ المجازاة هي المكافأة، وهي المقابلة من كلِّ واحدٍ من الرَّجُلين، والمكافأة هي: مقابلة نعمة بنعمة هي كفؤها، ونعمة اللّه تَتَعالى عن ذلك، ولهذا لا يستعمل لفظ المكافأة في اللّه ﷻ، وهذا

(1) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جزي).
(3) الراغب، المفردات: (جزا).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: (جزي).

ظاهر[1]. والمقصود بالجَزاءِ في الآية: المُكافَأةُ على العَمَلِ بما يُناسِبُ ذلكَ العَمَلَ مِنْ خَيْرٍ أو شَرٍّ.

2) ﴿كَسَبَتۡ﴾: أصلُ الكَسْبِ: يَدُلُّ عَلَى ابْتِغاءٍ وطَلَبٍ وإصابَةٍ. يُقالُ: كَسبتُ الشَّيء، أي: طَلبتُه، ومنه سُمّي طَلَبُ الرِّزق كَسْبًا واكتسابًا[2]، والكَسْبُ يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره؛ ولهذا قد يتعدّى إلى مفعولين، فيقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدته لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كَسْبٌ، وليس كلّ كَسْبٍ اكتسابًا[3]، ويأتي الكَسْبُ بمعنى الشَّيء المكتسب، وجمعه: مكاسب. ويُطلَق أيضًا على الجرح، أي: فِعل الشَّيء بالجارحة[4]، والمقصود بالكَسْبِ في الآية: ما يعمله الإنسان باختياره لجلب نفعٍ أو دَفْعِ ضرٍّ.

3) ﴿سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾: أصلُ الحِسابِ: العَدُّ والإحْصاءُ، مَصْدَر الفِعلِ حَسَبَ، يُقال: حَسَبَ الشَّيءَ، يَحْسُبُه، حَسْباً وحُسْبانًا وحِساباً وحِسْبَةً وحِسابَةً، أي: عَدَّهُ[5]. والحَسَبُ: العدَدُ المَعْدودُ. والحَسَبُ والحَسْبُ: قَدْرُ الشَّيْءِ[6]. ويأتي الحِسابُ بمعنى المُناقَشَة، فيُقال: حاسَبَهُ مُحاسَبَةً، وحِساباً: إذا ناقَشَهُ الحِسابَ وجازاهُ[7]. والسَّريعُ: ضِدُّ البَطيءِ. والمَعْنَى: أنَّ اللّٰه تعالى لا يُماطِلُ الحِسابَ وَلا يُؤَخِّرُهُ عِنْدَ حُلولِ مُقْتَضِيه، فهو عامٌّ في حِسابِ الخَيْرِ والشَّرِّ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يفعَلُ اللّٰهُ بالمُجرمينَ ما يفعَلُ؛ ليكونَ في ذلك جزاء للمُسيءِ على إساءته، لا ظُلمًا منه سُبحانه، وكما يعاقِبُ من أساء يُثيبُ من أحسَنَ

حَشْرُ النّاس يوم المعاد لإقامة صرح العدل المُطلق بينهم، ومجازاة كلّ امرئ بما عمل

(1) الراغب، المفردات: (جزا).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كسب).
(3) الراغب، المفردات: (كسب).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (كسب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/254.

وأطاع. إنَّه سبحانه سريع المحاسبة لعباده؛ لأنَّه لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ، بل جميع الخَلْق بالنِسبة لقدرته كالنَّفْس الواحدة(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

متعلَّق اللّام في قوله: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾:

اللّام تعليليَّة، ومُتَعَلِّق اللّام إمّا أن يكون مُضمَرًا، والتَّقدير: يُفْعَلُ بِهِمْ ذَلِكَ لِيَجْزِيَ سبحانه ﴿كُلَّ نَفۡسٖ﴾ أيْ مُجْرِمَةٍ بِقَرِينَةِ المَقام، من باب أنَّ الجزاء من جنس العمل.

اللّام تعليليّةٌ ومتعلّقها دائرٌ بين الخصوص والعموم

ويَجوزُ - عَلى اعْتِبارِ العُمومِ - تَعَلَّقَ تَعَلُّقُ اللّامُ بـ ﴿وَبَرَزُواْ﴾ عَلى تَقْدِيرِ كَوْنِه مَعْطوفًا عَلى ﴿تُبَدَّلُ﴾، والضَّميرُ لِلْخَلْقِ ويَكونُ ما بَيْنَهُما اعْتِراضًا، أيْ بَرَزوا لِلْحِسابِ لِيَجْزِيَ اللّه تعالى كُلَّ نَفْسٍ مُطِيعَةٍ أوْ عاصِيَةٍ ما كَسَبَتْ مِن خَيْرٍ أوْ شَرٍّ(2).

إيثارُ استعمال الجزاء، وإسنادِه إلى اسم الجلالة:

سياق القَهْر يقتضي التَّعبيرَ بالجزاء

أوثر استعمال الجزاء والكَسْبِ في قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾؛ لاقْتِضاءِ سِياقِ القَهْرِ لَهُما، وقد استَدعى ذَلِك أنْ يَكونَ نَفْسُ الكَسْبِ هو الجَزاء، لِأنَّ ذَلِك أبْدَعُ وأدَقُّ في الصُّنْعِ وأبْرَع بِأنْ يُصَوِّرَ بِما يَحِقُّ مِنَ الصّوَرِ المَلِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ الثَّوابِ، والقَبِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ العِقابِ(3).

وإسناد الجزاء إلى لَفْظ الجلالة؛ لتعظيم الأمرِ بإسْنادِ الجَزاءِ إلى الاِسْمِ الأعْظَمِ الجامِعِ لِجَمِيعِ صِفاتِ الكَمالِ والجلالِ والعَظَمَة.

كَما عُبِّر بأنَّ الجزاء هو ما كَسبوا مِن عمل، فليس في ظاهر اللَّفظ أنَّه جزاء العمل، بل هو العَمل ذاته؛ وذلك للإشارة إلى المُساواة التّامَّة بين الجزاء والعمل، فكأنَّه هوَ هوَ(4).

(1) ابن جرير، جامع البيان: 13/746، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 7/508.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 13/257.

(3) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4058.

كُلُّ نَفْسٍ طائعةٍ أو عاصية سَتَجني جزاءَ عملها

دلالة التَّعميم في ﴿كُلَّ﴾، وإضافتها إلى النكرة ﴿نَفْسٍ﴾:

﴿كُلَّ﴾ من ألفاظ العموم، وهي اسمٌ موضوع لاستغراق أفراد الاسم النَّكِرة، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [آل عمران: 185] وكذلك أجزاء المفرد المُعَرَّف[1].

وإضافة هذا اللَّفظ إلى النَّكرة ﴿نَفْسٍ﴾ أفاد الإحاطةَ والشُّمول، فكُلُّ نَفْس طائعة أو عاصية سَتَجني جزاءَ عملها، إنْ خيرًا فَخَيْرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ.

فاللَّفْظ باقٍ على عمومه؛ ليشمل الجزاءُ الفريقَيْن: المؤمنين والكافرين، وقد قال الواحِدِيُّ: إنَّ المُرادُ مِنهُ أَنْفُسُ الكُفّارِ؛ لِأَنَّ ما سَبَقَ ذِكْرُه لا يَلِيقُ أَنْ يَكونَ جَزاءً لِأَهْلِ الإيمانِ، وتعقبه الرازي بقوله: يُمْكِنُ إجْراءُ اللَّفْظِ عَلى عُمومِهِ؛ لِأَنَّ لَفْظَ الآيَةِ يَدُلُّ عَلى أَنَّهُ تعالى يَجْزي كُلَّ شَخْصٍ بما يَليقُ بِعَمَلِه وكَسْبِه ولَمّا كانَ كَسْبُ هَؤُلاءِ الكُفّارِ الكُفْرَ والمَعْصِيَةَ، كانَ جَزاؤُهم هو هَذا العِقاب المَذْكور، ولَمّا كانَ كَسْبُ المُؤْمِنينَ الإيمانَ والطّاعَةَ، كانَ اللّائِقُ بِهِمْ هو الثَّواب، وأَيْضًا أَنَّهُ تَعالى لَمّا عاقَبَ المُجْرِمينَ بِجُرْمِهِمْ فَلِأَنْ يُثِيبَ المُطِيعِينَ عَلى طاعَتِهِمْ كانَ أَوْلى"[2].

والحَقُّ أنَّ كِلا الرَّأْيَيْن صواب؛ فالقول بالتَّخصيص يؤيِّده سياق الآية السّابق واللّاحق ومقامها؛ حيث إنَّ الكلام السّابق واللّاحق عن المجرمين فيخُصُّهم الوعيد والتَّهديد، ويكون مُتعلَّق اللّام محذوفًا؛ تقديره: يُفْعل بهم ذلك لِيَجزيَ كُلَّ نَفْسٍ مُجْرِمة ما كَسَبَت مِن أنواع الكفر والظُّلْم والإجرام والمعاصي.

ويُظاهِر التَّعميمَ دلالةُ (كُلّ) وإضافتها إلى نكرة. كما أنَّ القول

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/164.
(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 12/152.

بالتَّعميم مناسبٌ بالنَّظر إلى أنَّ قوله تعالى ﴿لِيَجۡزِيَ﴾ متعلِّق بقوله ﷻ: ﴿وَبَرَزُواْ﴾ أي الخَلْق كُلُّهم، فيكون ﴿كُلَّ نَفۡسٍ﴾ عامًّا، أي: مطيعة ومُجْرِمة.

معنى ﴿مَّا﴾ وسرُّ العدول عن دخول الباء عليها:

اعتبار نَفْس الكَسْبِ هو الجَزاء أبلغ في مقام الوعيد

﴿مَّا﴾ في الآية الكريمة اسم موصول. وكَشَف صاحب نظم الدُّرر عن سِرِّ العدول عن دخول الباء على ﴿مَّا﴾ هنا بقوله: ولَمّا عَظُمَ الأَمْرُ بإسْنادِ الجَزاءِ إلى الِاسْمِ الأعْظَمِ الجامِعِ لِجَمِيعِ صِفاتِ الكَمالِ، اقْتَضى ذَلِكَ أنْ يَكونَ نَفْسُ الكَسْبِ هو الجَزاء لِأنَّ ذَلِكَ أبْدَعُ وأدَقُّ في الصُّنْعِ وأبْرَعُ بِأنْ يُصَوِّرَ بما يَحِقُّ مِنَ الصّوَرِ المَلِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ الثَّوابِ، والقَبِيحَةِ عِنْدَ إرادَةِ العِقابِ، فَلِذَلِكَ أسْقَطَ (الباءَ) الَّتِي سَتُذْكَرُ في سورة غافر[1].

إيثار استعمال الفعل ﴿كَسَبَتۡۚ﴾:

الكَسْبُ فِعْلُ ما يُسْتَجْلَبُ بِهِ نَفْعٌ أوْ يُسْتَدْفَعُ بِهِ ضُرٌّ

أوثر التَّعبيرُ بالفعل ﴿كَسَبَتۡۚ﴾ دون عملت؛ لمناسبته للجزاء في صَدْر الآية، فالكَسْبُ: "فِعْلُ ما يُسْتَجْلَبُ بِهِ نَفْعٌ أوْ يُسْتَدْفَعُ بِهِ ضُرٌّ، ومِن جَزاءِ المُؤْمِنِ عُقوبَةُ مَن عاداهُ في اللّه."[2]. وفيه أيضًا إشارة إلى أنَّ جزاءهم مناسب لأعمالهم.

كَما "جاءَ مِن لَفَظَةِ الكَسْبِ بما يَعُمُّ المُسِيءَ والمُحْسِنَ لِيُنَبِّهَ عَلى أنَّ المُحْسِنَ أيْضًا يُجازى بِإحْسانِهِ خَيْرًا"[3].

وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱللَّهُ﴾ أيْ: لِكَيْ يَجْزِيَ اللَّهُ واللامُ مُتَعَلِّقَةٌ بِفِعْلٍ مُضْمَرٍ تَقْدِيرُهُ: أُنَفِّذُ عَلى المُجْرِمِينَ هَذا العِقابَ لِيَكونَ في ذَلِكَ جَزاءُ المُسِيءِ عَلى إساءَتِه.

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.
(2) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/440.
(3) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز، ص: 1062.

علّة الفصل في: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾:

كون الجملة مُستأنفة، أو ابتدائيَّة تأكيدا لوقوع الحساب

فُصِلَت جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ عمّا قبلها؛ لكونها مستأنفة؛ وذلك لتأكيد وقوع الحساب أو أنَّها" استئنافٌ ابتدائيٌّ، وأُخِّرَت إلى آخِرِ الكلام؛ لِتقديم ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ﴾ إذا قُدِّرَ معمولًا لها"[1].

نُكْتَة تصدير جملة التَّذييل بـ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسميَّة:

تأكيد وقوع الحساب، وسرعته

صُدِّرت جملةُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ بإنَّ؛ لتأكيد وقوع الحساب، وسُرْعته، "فالمُقاربة الزَّمنيَّة بالنِّسبة إلى الله تعالى مُؤَكَّدة، فهو سبحانه لا تُستطال على أفعاله الأزمان[2].

علاقة التَّذييل بالسِّياق:

(ال) في كلمة (الحِساب) للاستغراق

وقع التَّذييل مُؤَكِّدًا للسِّياق قَبْله؛ فالله تعالى يُحاسب الخلائق في مِقْدار حَلْب شاة، ولا يُشغله حسابٌ عن حساب ليستريح بعضُهم عن الحساب بمحاسبة الآخرين حتَّى يتأخَّر عنهم العذاب، وهذا وجه ارتباط التَّذييل بما قَبْله، وعليه فـ (ال) في كلمة ﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ للاستغراق، ويجوز أن يكون المُراد مِن الحِساب نَوْعًا مِن العذاب، وهذا بلا رَيْب له ارتباط بسياقه[3].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجزاء والأجر:

الجزاء أعمُّ من الأجر

الأَجْر: يدلُّ أصل المادَّة على أثَر أو حصيلة لجُهْد ماديٍّ فيه صَنْعَة[4].

والأجر: ما يَعود مِن ثواب العامل دُنيويًّا أو أخرويًّا. والأُجْرة في الثَّواب الدُّنيوِّي، ويُقال فيما كان عن عَقْد أو ما يَجْري مَجْراه، ولا يُقال إلا في النَّفع دون الضُّرِّ بخِلاف الجزاء[5].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/254.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4059.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/111.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أجر).
(5) المناويُّ، التّوقيف على مُهمّات التعاريف، باب الهمزة.

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: 112].

الجزاء ما فيه الكفاية من المقابلة إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشَرٌّ

والجزاء: يُقال فيما كان عن عَقْد وغير عَقْد، ويُقال في النّافع والضّار، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف: 88].

الكَسْب والعَمَل:

الكَسْبُ يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ولا يُستعمل إلّا في الخير غالبًا

الكَسْب: يدُلُّ المعنى المحوريُّ على جَمْع الشَّيءِ وتحصيله شيئًا بعد شيءٍ بجُهْدٍ ما(1)، كَما يَدُلُّ على جَلْب النَّفْع مِن مال وغيره، أو تحصيل ما هو مَظنَّة النَّفْع(2).

والكَسْبُ: كَما قال الرّاغب: "ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظّ، كَكَسْبِ المال، وقد يُستعمل فيما يظنُّ الإنسان أنَّه يجلب منفعة، ثم استجلب به مضرَّة، والكَسْبُ يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولَيْن، فيُقال: كَسَبْتُ فلانا كذا، والاِكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدته لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كسب، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا"(3).

والكَسْب لا يُستعمل إلّا في الخير غالبًا، أمّا الآيات الَّتي وَرَدَ فيها في المعاصي والسَّيِئات فهو على معنى التَّعوّد، فالعاصي قد اعتاد العِصيانَ، فناسبه أن يُسْنَد إليه الفعل؛ ولأنَّ مَن يكْسِب إثما أو سوءًا قد يَظُنُّ في ذلك خيرًا، وتحصيل نَفْع(4).

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الزُّمر: 51].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (كسب).
(2) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 422.
(3) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(4) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة في القرآن الكريم، ص: 423.

والعَمَل: هو جُهْد ماديٌّ مِن حيٍّ أو جَماد يُؤَدِّي إلى إحداث شيءٍ أو هيئة أو نَقْل[1].

والعَمَلُ يستعمل في الأعْمالِ الصالحة والسَّيِّئة[2] ومن شواهده قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 277]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [النّساء: 124]، وقوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النّساء: 123] وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: 46]

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عمِل).

(2) الرّاغب، المفردات: (عمِل).

﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾ [إبراهيم: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إيجاز الآية الأخيرة لعلَّة أحكام السّورة

اشتَمَلت هذه السّورةُ على كثير مِن المواعِظِ والأمثالِ والحِكَم الَّتي أبكَمَت البُلَغاءَ، وأخرَسَت ألسنة الفُصَحاء، وبَهَرت العُقولَ؛ تَرجَمَها سُبحانَه بما يصلُحُ عُنوانًا لجميعِ القُرآنِ(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَلَٰغٌ﴾: أصلُ (بلغ): يدلُّ على لُحوقِ الشَّيءِ والوُصولِ إليه أو المُشارَفَةِ عليه(2)، يُقالُ: بَلَغْتُ المَكانَ بُلوغًا، أي: وصَلْتُ إليه، وكذلك إذا شارَفْتُ عليه(3). والبَلاغُ: الاسْمُ مِنَ الإبْلاغِ والتَّبْليغ، وهُما: الإيصالُ، يُقالُ: أبْلَغَهُ الخَبَرَ إبلاغاً، وبَلَّغَهُ تَبْليغاً، والثّاني أكْثَرُ(4)، والبَلاغُ أيضًا: ما يُتَبَلَّغُ بِهِ ويُتَوَصَّلُ إلى الشَّيْءِ المَطْلوبِ، والبَلاغُ كذلك: الكِفايةُ؛ وتَقولُ: لَهُ في هَذا بَلاغٌ وبُلْغَةٌ وتَبَلُّغٌ، أي: كِفايةٌ، والمبالَغةُ: أن تبلغ مِن العَمَل جهدَك(5)، وبَلَغَ الغُلامُ: أدْرَكَ، والمقصودُ بالبَلاغِ في الآيةِ: اسْمُ مَصدَرِ التَّبْليغِ، أيِ هَذا المِقْدارُ مِنَ القُرْآنِ في هذهِ السّورَةِ تَبْليغٌ لِلنّاسِ كُلِّهِم(6).

2) ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾: أصلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ(7). والإنْذارُ:

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/441.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (بلغ).
(4) الزبيدي، تاج العروس: (بلغ).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (بلغ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/254.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).

إخبارٌ فيه تخويف، كما أنّ التّبشير إخبار فيه سرور. والنَّذِيرُ: المنذر، ويقع على كلِّ شيءٍ فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيرَهُ(1). والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا(2). وَمِنْهُ النَّذْرُ، وَهوَ أَنَّهُ يَخافُ إذا أَخْلَفَ، والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أَيْ أوجِبَ(3). والمقصود بالإنْذارِ في الآية: الإخبارُ بما فِيهِ تَوَقُّعُ ضُرٍّ.

3) ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾: أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان(4)، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأظهرته. والذُّكْرُ – بضَمِّ الذّال – بِالْقَلْبِ. يُقالُ: ما زالَ مِنِّي عَلَى ذُكْرٍ، أي: لَمْ أَنْسَه(5)، والتَّذكِرَةُ: ما تُسْتَذْكَرُ بِهِ الحاجَةُ. واسْتَذْكَرَ الشَّيءَ: دَرَسَهَ للذِّكْرِ. والاسْتِذْكارُ: الدِّراسَةُ لِلْحِفْظِ، والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيته(6)، والمقصود بالتَّذَكُّرِ في الآية: النَّظَرُ في أدلَّةِ صدق الرَّسول – ﷺ – وَوُجوبُ اتِّباعِه، وَلِذَلِكَ خُصَّ بِذَوِي الأَلْبابِ(7)، وأَصْلُهُ يَتَذَكَّر، فَأُدْغِمَ التّاءُ في الذّالِ لِتَقارُبِ مَخْرَجَيْهِما.

4) ﴿أُوْلُواْ﴾: أولوا بِمَعْنَى ذَوو لا يُفْرد لَهُ واحِدٌ ولا يُتَكَلَّمُ بِهِ إلّا مُضافًا، كقولك: أولوا بأْسٍ شَدِيدٍ وأولوا كَرَم، كأنَّ واحِدَهُ أَلٌ، والواو لِلجَمْعِ، ألا تَرى أنَّها تَكونُ في الرَّفع واواً وفي النَّصْبِ والْجَرِّ ياءً؟(8)، وقيل: أوْلو، والمُؤَنَّثُ أوْلاتُ، والواحِدُ: ذو(9)، وأُلات للإناث واحِدَتُها ذاتٌ، تَقولُ: جاءَني أولو الألباب وأولات الأَحْمال(10). ولا يُقال إلّا للجميع من النّاس وما يشبهه(11). والمقصود بأولو في الآية: ذوو، بمعنى أصحاب.

5) ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: أصلُ (لبّ): يَدُلُّ على خُلوصٍ وَجَوْدَةٍ(12)، ومنه اللُّبُّ: العَقْلُ الخالص من الشّوائب؛ وسُمِّي بذلك لكونه خالص ما في الإنسان مِن معانيه، كاللُّباب واللُّبِّ من الشَّيء،

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نذر).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (نذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والمحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ذكر).
(5) أبو عمرو الشيباني، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/255.
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (ألل).
(9) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ألل).
(10) الجوهري، الصحاح: (ألل).
(11) الخليل، العين: (ألل).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).

وقيل: هو ما زكى مِنَ العَقْلِ، فكلُّ لبٍّ عَقْلٌ وليس كلّ عقل لبًّا[1]، ورَجُلٌ لَبِيبٌ، أيْ عاقِلٌ، وَقَدْ لَبَّ يَلُبُّ، وَخالِصُ كُلِّ شَيْءٍ لُبابُهُ[2]. والمقصودُ بالأَلْبابِ في الآية: العُقولُ، وأولو الألْبابِ: هُمْ أهلُ العُقولِ الصَّحِيحَةِ[3].

۞ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

القرآن وما فيه من عظات تبليغ للنّاس وعِظة، وإنذار من عقاب الله ﷻ

ختم الله تعالى السّورة الكريمة بقوله: هذا القُرآنُ تَبليغٌ مِن اللّهِ تعالى إلى جميعِ النّاسِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، والإعذارِ إليهم، وهو كفايةٌ لهم في الموعظةِ والتذكيرِ، وبه يتبلَّغونَ، ويتزوَّدونَ للوُصولِ إلى أعلى المَقاماتِ والدَّرَجاتِ، وأنزَلْنا القُرآنَ ليُخَوَّفَ النّاسُ به عِقابَ اللّهِ، ويُحَذَّروا من نقمته، وليعلمَ النّاسُ بحُجَجِ القرآنِ وبَراهينِه أنَّ اللّهَ المعبودَ بحَقٍّ إلهٌ واحِدٌ، لا يستحِقُّ غيرُه العبادةَ، وليتذَكَّرَ ويتَّعِظَ أصحابُ العُقولِ السَّليمةِ بهذا القرآنِ، فيَهتَدوا إلى العمَلِ بما ينفَعُهم، وتَرْكِ ما يضُرُّهم[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

تصدير الجملة باسم الإشارة ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ﴾:

اسم الإشارة يوجِز المعاني ويكْتنِزها

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ السّورَةُ عَلى الكثيرِ مِن المَواعِظِ والأمْثالِ والحِكَمِ الَّتِي أبْكَمَتِ البُلَغاءَ، وأَخْرَسَتِ الفُصَحاءَ، وبَهَرَتِ العُقولَ، وجاء التَّعبير باسم الإشارة في الجملة؛ لِيَكْتَنِزَ هذه المعاني ويوجِزَها، ويَسْتحضرها، ويشير إليها وكأنَّها شاخصة "بما يَصْلُحُ أن يكون عُنْوانًا لِجَمِيعِ القُرْآنِ فَقالَ: ﴿هَٰذَا﴾ أيِ الكِتاب الَّذِي يُخْرِجُ النّاس مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ"[5].

(1) الراغب، المفردات: (لب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/351.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 13/747، والرازي، مفاتيح الغيب: 19/114، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/386، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 428.

(5) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/441.

وقد اختلَف المُفسِّرون في توجيه المُشار إليه، فَقِيلَ: إنَّ قَوْلَهُ: ﴿هَٰذَا﴾ إشارَةٌ إلى القُرْآنِ الكريم، وقِيلَ: إشارَةٌ إلى هَذِهِ السّورَةِ. وقِيلَ: إشارَةٌ إلى المَذْكورِ من قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا﴾ إلى ﴿سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: 42 - 51][1].

إيثار لفظ ﴿بَلَٰغٌ﴾ على (بيان):

قــوَّة الـبـلاغ، وشِدَّة تأثيره

ومَعْنى ﴿بَلَٰغٌ﴾: كِفايَةٌ في الوَعْظِ والتَّذْكِير، ولِيُنْذَروا به[2].

وأوثر التَّعبيرُ بالبلاغ على البيان؛ لدلالته على الوُصول والقَصْد، وشدَّة التَّأثير، والقوَّة.

سِرُّ تنكير ﴿بَلَٰغٌ﴾:

الـتَّـأكـيـد على عظمة الـقـرآن الـكـريـم، وهـذا البلاغ المُبِين

وتنكيرُ بلاغ للتَّعظيم؛ حيث ذُكِرت ثلاثُ فوائدَ لهذا البلاغِ العظيم، وهي الإنذار في قوله: ﴿وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾، والعِلْم بوحدانيَّة اللّه تعالى في قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وتَذَكُّر أصحاب العقول، وذلك في قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

وهذا يُؤَكِّد على عظمة القرآن الكريم، وهذا البلاغ المُبين.

معنى لام التعريف، ونوعها في ﴿لِّلنَّاسِ﴾:

هَذا القُرْآن بَلاغٌ لِجَمِيع النّاس

اللّامُ في ﴿لِّلنَّاسِ﴾ للاستغراق؛ لِيَشْمل هذا البلاغ جميع النّاس؛ فقد بَيَّنَ اللّه تعالى في هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ أَنَّ" هَذا القُرْآنَ بَلاغٌ لِجَمِيعِ النّاسِ، وأَوْضَحَ هَذا المَعْنى في قَوْلِهِ تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: 19]. وبَيَّنَ أنَّ مَن بَلَغَهُ ولَمْ يُؤْمِن بِهِ فَهو في النّارِ كائِنًا مَن كانَ، في قَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ الآيَةَ" [هود: 17][3].

(1) الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/153.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/453.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 3/136.

دلالة الواو، ونوع اللّام في: ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾:

الــواو عاطفة واللّام للتّعليل

الواو في ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ عاطفة، واللّام للتّعليل، والفعل معطوف عَلى كَلامٍ محذوف يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفظُ ﴿بَلَٰغٌ﴾، والتّقدير: لِيُنْصَحوا ويُحذَّروا، وفي هذا الفعل أوجهٌ، أحدُها: أنَّه متعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ أيّ: ولِيُنْذَروا بِما أَنْزَلْنا عليك.

الثّاني: أنه معطوفٌ على محذوفٍ، ذلك المحذوفُ ومتعلّقها قٌ بـ ﴿بَلَٰغٌ﴾، تقديره: لِيُنْصَحوا ولِيُنْذَروا. الثّالث: أنه محمولٌ على المعنى؛ أيّ: لِيُبَلَّغوا ولِيُنْذَروا. الرّابع: أنَّ اللّامَ لامُ الأمر[1].

سِرُّ بناء الفعل للمفعول:

الدَّلالة على تميُّز القرآن عن كلِّ كـلام وأثــره في النُّفوس

بُنِيَ الفعل ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ للمفعول؛ لأنَّ القَصْد الإنذار من أي مُنْذِرٍ كان، وفَصَّل البِقاعيُّ هذا السِّرَ بقوله: "ولَمّا كانَ مُتَعَلِّقُ البَلاغِ الَّذِي قُدْرَتُهُ بِالوُصولِ يَتَضَمَّنُ البِشارَةَ، عَطَفَ عَلَيْهِ النِّذارَةَ بانِيًا لِلْمَفْعولِ، لِأنَّ النّافِعَ مُطْلَقُ النِّذارَةِ، وكُلُّ أحَدٍ مُتَأهِّلٌ لِأنْ يَكونَ واعِظًا بِهِ مَقْبولًا، لِأنَّ مَن سَمِعَهُ فَكَأنَّما سَمِعَهُ مِنَ اللهِ لِتَمَيُّزِهِ بِإعْجازِهِ عَنْ كُلِّ كَلامٍ، فَقالَ: ﴿وَلِيُنذَرُواْ﴾ أيّ مِن أيِّ مُنْذِرٍ كانَ فتقوم عليهم الحجّةُ[2].

دلاله الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾، ومرجعه:

الضَّمير المجرور في ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ فيه وجْهانِ: أحَدُهُما: بِالرَّسولِ، والثّاني: بِالقُرْآنِ[3]، وهو الأرجح؛ لدلالة السِّياق عليه.

عِلَّة تقديم جُملة ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾:

الـخَـشْـيَـةُ أُمُّ الْخَيْرِ كُلِّهِ

قُدِّمت جملة الإنذار ﴿وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ﴾ على جملة ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ﴾؛ لِأنَّهم إذا خافوا ما أُنْذِروا بِهِ؛ دَعَتْهُمُ الْمَخافَةُ إلى النَّظَرِ حَتَّى يَتَوَصَّلوا إلى التَّوْحِيدِ؛ لِأنَّ الْخَشْيَةَ أُمُّ الْخَيْرِ كُلِّهِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ

(1) السّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 7/134.

(2) البِقاعيُّ، نظم الدُّرر: 10/443.

(3) الماورديُّ، النُّكت والعُيون: 3/146.

﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ أيْ: لِيَتَّعِظ بِهِ ذَوو ٱلۡعُقولِ، فَيُقْبِلوا عَلى ما فِيهِ نَجاتُهم وسَعادَتُهم[1].

بلاغة القصر في: ﴿وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾:

القَصْر يُؤَكِّد وحدانيَّة الله تعالى، ويَنْفي التَّعدُّدَ بِالكَثْرَة أوِ التَّثْليث

بَيَّنَ اللّه تعالى في هَذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ أنَّ من حِكَم إنْزالِ القُرْآنِ العَظيم العِلْمَ بأنَّهُ تَعالى إلَهٌ واحِدٌ، وأنَّ مِن حِكَمِه أنْ يَتَّعظ به أصْحابُ العُقولِ."والمَعْنى: ولِيَعْلَموا ممّا ذُكِرَ فيهِ مِنَ الأدِلَّةِ ما اللّه إلّا إلَهٌ واحِدٌ، أيْ: مَقْصورٌ عَلى الإلَهيَّةِ المُوَحَّدَةِ، وهَذا قَصْرٌ مَوْصوفٌ عَلى صِفَةٍ وهو إضافيٌّ، أيْ: أنَّهُ تَعالى لا يَتَجاوَزُ تِلْكَ الصِّفَةَ إلى صِفَةِ التَّعَدُّدِ بِالكَثْرَةِ أوِ التَّثْليثِ، كَقَوْلِه ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ [النِّساء: 171]"[2].

مُناسبة قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ لسياق الآية:

التَّذكيرُ بِهَذِهِ المَواعِظِ والنَّصائِحِ يوجِبُ الوُقوفَ عَلى التَّوْحيدِ

أشار السِّياق السّابق إلى أنَّ التَّذْكيرَ بِهَذِهِ المَواعِظِ والنَّصائِحِ يوجِبُ الوُقوفَ عَلى التَّوْحيدِ والإقْبالَ عَلى العَمَلِ الصّالِحِ، واجتناب العمل الطّالح، بيان ذلك أنَّ المَرْءَ إذا سَمِعَ هَذِهِ المَواعِظ والتَّخْويفات والتَّحْذيرات؛ اشتَدَّ خَوْفُه، وعَظُمَ وَجَلُه، واشْتَغَلَ بِالنَّظَرِ والتَّأمُّلِ، فَوَصَلَ إلى مَعْرِفَةِ التَّوْحيدِ والنُّبُوَّةِ واشْتَغَلَ بالأعْمالِ الصّالِحَةِ[3].

علَّة اختصاص أولي الألباب بالذِّكر، وختْم الآية بها:

أولو الألباب هُم الَّذِينَ ينتفعون بالتَّذَكُّر

خُصَّ أولو الألباب بالذِّكر؛ لأنَّهم هُم الَّذينَ ينتفعون بالتَّذَكُّر، وتَظْهر آثاره فيهم.

"والتَّذَكُّرُ: النَّظَرُ في أدِلَّةِ صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ ووُجوب اتِّباعِه؛ ولِذَلِكَ خُصَّ بِذَوِي الألْبابِ تَنْزيلًا لِغَيْرِهِمْ مَنْزِلَةَ مَن لا عُقولَ لَهم ﴿إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ٤٤﴾ [الفرقان: 44] "[4].

(1) الزّمخشريُّ، الكشّاف: 3/395.
(2) ابن عاشور، التّحريروالتّنوير: 13/255.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب:/19/154.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/255.

سِرُّ ترتيب الصّفات الواردة في الآية الكريمة:

ترتيب الصّفات تَرْتيبًا عقليًّا بِحَسْبِ حُصول بَعْضِها عَقِبَ بَعْض

رُتِّبَتْ صِفاتُ الآياتِ المُشارِ إلَيْها باسْمِ الإشارَةِ عَلى تَرْتِيبٍ عَقْلِيٍّ بِحَسْبِ حُصولِ بَعْضِها عَقِبَ بَعْض، فابْتُدِئَ بالصِّفَةِ العامَّةِ وهي حُصولُ التَّبْلِيغ، ثُمَّ ما يَعْقُبُ حُصولُ التَّبْلِيغِ مِنَ الإنْذارِ، ثُمَّ ما يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ العِلْمِ بالوَحْدانِيَّةِ لِما في خِلالِ هَذِهِ السّورَةِ مِنَ الدَّلائِلِ، ثُمَّ بالتَّذْكِيرِ في ما جاءَ بِهِ ذَلِكَ البَلاغُ وهو تَفاصِيلُ العِلْمِ والعَمَلِ، وهَذِهِ المَراتِبُ هي جامِعُ حِكْمَةِ ما جاءَ بِهِ الرَّسولُ ﷺ موزَّعَةً عَلى مَن بَلَّغَ إلَيْهِمْ، ويَخْتَصُّ المُسْلِمونَ بِمَضْمونِ قَوْلِهِ ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

عَلاقة خاتمة السّورة بِأوّلها:

هذا البَلاغ هو الكِتاب العزيز الّذي أنزله الله تعالى على رسوله ﷺ

جاء قوله ﷻ: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ في خاتمة السّورة ناظرًا إلى أوّلها ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ①﴾ [إبراهيم: 1]؛ حيثُ إنَّ هذا البَلاغ هو الكِتاب العزيز الّذي أنزله اللّه تعالى على رسوله ﷺ؛ لِيُخرِج النّاس من الظُلمات إلى النّور.

وقد بَيَّن الفخرُ الرّازيُّ تلك العَلاقة بقوله: "أمّا أوَّلُ هَذِهِ السّورَةِ فَهو قَوْلُهُ تَعالى: ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: 1] فَإنّا قَدْ ذَكَرْنا هُناكَ أنَّ هَذا يَدُلُّ عَلى أنَّ المَقْصودَ مِن إنْزالِ الكِتابِ إرْشادُ الخَلْقِ كُلِّهِم إلى الدِّينِ والتَّقْوى ومَنْعُهُم عَنِ الكُفْرِ والمَعْصِيَةِ، وأمّا آخِرُ السّورَةِ فَلأنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يَدُلُّ عَلى أنَّه تَعالى إنَّما أنْزَلَ هَذِهِ السّورَةَ، وإنَّما ذَكَرَ هَذِهِ النَّصائِحَ والمَواعِظَ لِأجْلِ أنْ يَنْتَفِعَ الخَلْقُ بِها فَيَصِيروا مُؤْمِنِينَ مُطِيعِينَ ويَتْرُكوا الكُفْرَ والمَعْصِيَةَ، فَظَهَرَ أنَّ أوَّلَ هَذِهِ السّورَةِ وآخِرَها مُتَطابِقانِ في إفادَةِ هَذا المَعْنى[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 13/255.

(2) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 19/154.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البلاغ والبيان:

البلاغ: يدُلُّ أصل المادَّة على الوُصول إلى الشَّيء[1].

ومن شواهده قوله تعالى: ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠﴾ [آل عمران: 20].

البلاغ الإيصال للرَّسالة والبيان الكشف عمّا فيها

البيان: المعنى المحوريُّ للكلمة هو بُعْدُ الشَّيء، وانْكِشافُه ووضوحه وظهوره. ومنْه: بانَ الشَّيْءُ وَأبانَ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ. والبَيْنُ الفِراقُ[2]، ومن شواهده قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ١٣٨﴾ [آل عمران: 138].

والفرق بين البلاغ والبيان فهو أنَّ البلاغ إيصال الرسالة، قال الجوهريُّ في الصِّحاح: والإبلاغ الإيصال، وكذلك التَّبليغ، والاسم منه البلاغ[3].

وأما البَيان فهو الإيضاح والكشف عن المعنى المقصود إظهارُه.

الإبلاغ والإيصال:

الإبلاغ أشدُّ اقتضاء للمُنْتهي إليه

الإبلاغ أشدُّ اقتضاء للمُنْتهي إليه من الإيصال؛ لأنَّه يقتضي بلوغ فهمه وعقله كالبلاغة الَّتي تصل إلى القلب، وقيل: الإبلاغ اختصار الشَّيء على جهة الانتهاء ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ٦﴾ [التَّوبة: 6].

اللُّب والعَقْل والنُّهية:

تشترك في كونها أسماء للعقل وتختلف في صفاتها

اللُّب: يدُلُّ أصل الكلمة على النَّقاء والخُلوص، قال ابن فارس:

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بلغ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بين).
(3) الجوهريُّ، الصِّحاح: (بلغ).

"اللُّبُّ معروف، من كلِّ شيءٍ، وهو خالصه وما يُنتَقى منه، ولذلك سُمِّيَ العقلُ لُبًّا. ورَجُلٌ لَبيب، أي عاقل. وخالِصُ كُلِّ شيءٍ لُبابُه"(1).

ولُبُّ كلِّ شيءٍ ولُبابُه خالِصُه وخِيارُه. ولُبُّ الرَّجُل ما جُعِل في قَلْبه مِن العَقْل. ولَبيبٌ عاقِلٌ ذو لُبٍّ مِن قوم ألِبّاء(2).

وقال الرّاغب: "اللُّبُّ: العقل الخالص مِن الشَّوائب، وسُمِّي بذلك لِكَونه خالص ما في الإنسان مِن معانيه كاللُّباب واللُّبّ مِن الشَّيء، وقيل هو ما زكى مِن العَقْل فَكُلُّ لُبٍّ عَقْلٌ، وليس كُلُّ عَقْل لُبًّا، ولهذا عَلَّق اللّه تعالى الأحكام الَّتي لا يدركها إلا العقول الزكيَّة بأولي الألباب نحوقوله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: 269](3).

ومِن الملحوظ في الاستعمال القرآنيِّ للكلمة أنَّه لمْ يَرِد استعمالُ (اللُّبِّ) مُفردًا، وإنَّما اسْتُعْمِل جَمْعَ تكسير (الألباب)، كُلُّها في سِياق ثناء، وتقدير لأولي الألباب، ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: 179]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: 190].

ومنها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأٓخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزُّمر: 9].

العَقْل: يَدُلُّ أصل مادة (عقل) على حُبسةٍ في الشِّيءِ أو ما يُقارب الحُبْسَة، ومِن ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل(4).

و"العقل هو العِلْم بِصِفات الأشياء مِن حُسْنها وقُبْحها، وكمالها ونقصانها"(5).

وردت مادة (عقل) في القرآن الكريم في تسعة وأربعين موضعًا، منها قوله تعالى: ﴿۞أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة: 44].

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لبّ).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لبّ).
(3) الرّاغب، المفردات: (لبّ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عقل).
(5) أبو بكر الأزديُّ، جمهرة اللُّغة: 2/939.

وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ [البقرة: 164].

ومنها قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام: 151].

النُّهية: جَمْعها: النُّهى والنُّهية: العَقْل؛ لأنَّه يَنْهى صاحبَه عن ارتكاب القبيح، ويَنْتَهي إلى ما أُمِرَ به ولا يتجاوزه[1]. ويدُلُّ معناها المحوريُّ على الغايةِ والبُلوغ، والثَّبات[2]، وعلى تَحَبُّس الشَّيءِ الرَّقيق في مكانه وتوقُّفه فيه لا يتخطّاه[3].

قال السَّعْديُّ: "النُّهَى؛ أيْ: العقول السَّليمة، والفِطَرُ المُستقيمة، والألباب الَّتي تزجر أصحابَها عمّا لا ينبغي"[4].

وقد وَرَدَ لفظ النُّهى في مَوضعين اثنين في سورة طه، في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ وَٱرۡعَوۡاْ أَنۡعَٰمَكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ٥٤﴾ [طه: 54]، وقال: ﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ١٢٨﴾ [طه: 128].

وفَرَّق الرّازيُّ بين النُّهَى والعَقْل، حيث جَعَل النُّهَى أعلى مرتبة مِن العقل، حيث قال: "والأقرب أن للنُّهْية مَزِيَّة على العقل، والنُّهى لا يُقال إلا فيمن له عَقْل يَنْتَهي بِهِ عن القبائح، كما أنَّ لِقولنا: أولو العَزْم مَزِيَّة على أولو الحَزْم، فلذلك قال بعضهم: أهل الورع وأهل التَّقوى"[5].

فالعقل يمْنَعُ الشَّخصَ عن اقتراف المعاصي، وبالنُّهَى يَنْزَجر عن المُحرَّماتِ ويَنْتهي عن المعاصي والآثام.

(1) السّمين الحلبيُّ، عُمدة الحُفّاظ: (نهي).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نهي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (نهي).
(4) السّعديُّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 615.
(5) الفخر الرّازيُّ، مفاتيح الغيب: 22/436.

الجُزْءُ الرَّابِعَ عشَرَ

سُورَةُ الحِجرِ

سُورَةُ الحِجر

التَّعريف العامُّ بالسّورة

سورة الحِجر مكّيّةٌ، على المأثور الأصحّ عند المفسّرين

سورةُ الحِجر هي السورة الخامسة عشرةَ في ترتيب المصحف، وعدد آياتها تِسْعٌ وتسعون آية باتِّفاق العادّين(1).

وهي سورة مكّيَّة نزلت قبل الهجرة باتِّفاق(2)، ومِنَ المفسرين مَن استثنى آياتٍ مدنيَّةً منها(3)، والصَّحيح القول بأنَّ السّورةَ مَكِّيَّةٌ بتمامها(4).

أمّا ورودُ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 90 - 91]؛ فإنَّه لم يُبتلَ الإسلام يومئذٍ باليهود والنَّصارى ذاك الابتلاء، فالظّاهر أنَّ الآيتين تذكران قومًا نهضوا في أوائل البعثة على إطفاء نور القرآن، وبعَّضوه أبعاضًا؛ ليصدّوا عن سبيل اللّٰه، فأنزل اللّٰه عليهم العذاب وأهلكهم(5)، وهذا "يشمل أهلَ الكتابَيْن وغيرهم من المشركين، وكلَّ مَنِ اقتسم كتابًا للّٰه بتكذيب بَعْضٍ وتصديق بَعْضٍ"(6).

وأمّا ترتيب نزولها؛ فقد ذَكَرَ بعضهم أنَّ ترتيبها الثّالثة والخمسون بين سورتَي يوسف والأنعام(7)، وزعم بعضهم أنَّها الرّابعَةُ

---

(1) الداني، البيان في عدّ آي القرآن، ص: 173.

(2) مقاتل، تفسير مقاتل: 2/198، وابن الجوزي، زاد المسير: 4/45، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/465، والشوكاني، فتح القدير: 3/120.

(3) لزيادة تفصيل يرجى الرّجوع إلى: الترمذي، سنن الترمذي: 5/296، وأحمد، المسند: 1/305، والواحدي، أسباب النزول، ص: 186، وابن حبّان، الثقات: 8/96، وابن الجوزي، الضعفاء والمتروكين: 2/231، وابن حجر، تقريب التهذيب: 2/380، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/397، والماوردي، النكت والعيون: 3/147، والطبرسي، مجمع البيان: 6/501.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/131، 17/94، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/5، 33، ودروزة، التفسير الحديث: 4/34، ودروزة، التفسير الحديث: 4/34.

(5) الطبطبائيّ، الميزان في تفسير القرآن: 12/193.

(6) طنطاوي، الوسيط: 8/82.

(7) السيوطي، الإتقان في علوم القرآن: 1/43.

والخمسون في ترتيب النُّزول[1]، والحقُّ أنَّ التَّرتيب النُّزوليَّ ليس قطعيًّا في ثبوته لافتقاده إلى صحَّة الرِّوايات.

ظـروف نـزول السّـورة حافلة بـالأحـداث والـتَّـحـدِّيـات، لـلمسلمين في العهد المكّي

والمدَّة الزَّمنيَّة التي نزلت فيها هذه السّورة هي ما بين السنة الرابعة والسنة العاشرة للبعثة، وهو زمنٌ حافل بأحداث جِسام عاشها المسلمون الأوائل في مكَّة، امتدت إلى زمن وفاة عمِّه أبي طالب وزوجته خديجة، حيث سُمّي ذلك العام بعام الحزن؛ بسبب توقُّف دعوة النَّبيِّ ﷺ فيه، وبسبب ما لقيه من أذًى في داخل مكَّة وفي خارجها، فوجد النَّبيُّ ﷺ في نفسه ما وجد مِنْ كَبَدٍ وعناء، حيث فقد في أثناء ذلك كلِّه السَّند العاطفيَّ والعقليَّ بفَقْدِ زوجته خديجة، وفقَدَ فيها السَّند الاجتماعيَّ والسّياسيَّ بوفاة عمِّه أبي طالب، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تثبِّت به فؤاده، وترفعُ من معنويّاته، وخُتِمت بالتَّسرية عن النَّبيِّ ﷺ، وبتوصيته بالثَّبات على دعوته، فالسّورة نزلت في جوٍّ مشحونٍ يمثِّل ذروة الصِّراع بين الحقِّ والباطل في مرحلة ساخنة من مراحل الدَّعوة في مكَّة.

۞ أسماء السّورة:

سـورةُ (الحِـجـر) لـمْ تُـسَمَّ باسمٍ غيرِه في الأثر

ليس لهذه السّورة في جميع المصاحف وكُتُبِ التَّفسير والسُّنَّة إلّا اسمٌ واحد، هو (الحِجْر)، وهو اسمها الثابتُ رِوايةً وشُهرةً[2]، وقد ذكروا في سبب تسميتها به: ورود هذا الاسم فيها دون غيرها، وأصحابُ الحِجْرِ هم قوم صالح عليه السلام؛ إذ كانوا ينزلون الحِجْرَ - بكسر الحاء وسكون الجيم - وهو المكان المَحْجورُ، أيْ: المنوع أنْ يسكنه أحد غيرهم لاختصاصهم به.

ويجوز أنْ يكون لفظُ الحِجر، مأخوذًا من الحجارة؛ لأنَّ قوم صالح عليه السلام كانوا يَنْحِتونَ بيوتهم من أحجار الجبال وصخورها، ويبنون بناءً محكمًا جميلًا[3].

(1) دروزة، التفسير الحديث: 4/34.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/5.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/6.

والحقُّ أنَّه لا بدَّ من البحث عن رابط أقوى بين اسم السّورة وموضوعها، فكثير من السّور انفردت ببعض الأسماء، ولم تُسمَّ باسمها.

ولفظ الحِجر دالٌّ على المنعة والقوَّة والحفظ، و"الحَجَر: هو الجوهر الصُّلب المعروف، والحَجْر والتحجير: أنْ يُجعل حول المكان حِجارَةٌ، ويقال للعقل: حِجْر؛ لكون الإنسان في منعٍ منه ممّا تدعو إليه نفسه، وفلان في حَجْرِ فلان، أيّ: في منع منه عن التَّصرُّف في ماله وكثير من أحواله، وحِجْر القميص أيضًا: اسم لما يُجعل فيه الشيء، فَيُمْنَعُ، وحُجِّر القمرُ: صار حوله دائرة، ومِحْجَر العين منه، وتَحَجَّرَ كذا: تصلَّب وصار كالأحجار"[1].

قصة أصحاب الحِجر، بيانٌ لسنَّة الله تعالى في حفظ أوليائه، ودحر أعدائه

وترتبط التّسمية ارتباطًا وثيقًا بمحور السّورة العام، وبمحاورها التّفصيلية، فالسّورة أوضحت أنَّ هلاك الأمم كائنٌ بالإسراف في التَّمتُّع بالدُّنيا والانشغال بها عن الآخرة، متغافلين عن الحكمة من خَلقهم ووجودهم، وإنَّ كثرة التَّلذُّذ والتَّنعُّم بالدُّنيا يؤدّي إلى طول الأمل فيها وقلَّة العمل للآخرة، فمن طال أمَلُهُ؛ قلَّ عَمَلُهُ؛ وأنَّ خير علاجٍ لطول الأمل، هو الإكثار من ذكر الموت، وعبادة اللّه تعالى حتّى انْقِضاءِ الأجل[2].

وبناءً على هذا فإنَّ قصة أصحاب الحِجر هي الأنموذج الَّذي يحقِّق محور السّورة ومستلزماته في بيان سنَّة اللّه تعالى في حفظ دينه ورسله، وفي ديمومة النِّعم ما دام النّاس على دين الحقِّ، وفي بيان أثر الترفُّه في زوال النِّعم، حيث نجد أنَّ أصحاب الحِجر قد أفرطوا في الترفُّه بالنِّعم، وأخلدوا إلى الأرض، فاغترّوا بطول الأمل، وشغلهم التَّلذُّذ بالمتاع الزّائل، فما حفظ اللّه عليهم النِّعَمَ، بل قلبها عليهم إلى نقمة بصيحة واحدة.

(1) الرّاغب، المفردات: (حجر).

(2) طهماز، الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، ص: 124.

❁ بيان محورها العام والموضوعات التّي تأتلف وتلتفُّ حوله:

إبـراز سنَّـة من سنن الله تعالى، في حفْظِهِ دينَه وأوليـاءَهُ، وإهْلاكِ المبطلين

يقول البقاعيُّ: "فمقصود هذه السّورة اعتقاد كون القرآن بلاغًا جامعًا للأمور الموصلة إلى الله، مغنيًا عن جميع الأسباب، فلا ينبغي الالتفات إلى شيء سواه ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ﴾، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: 88] ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 99]، وكان الجمع بين الوصفين الدّالَّيْن على الجمع إشارةً إلى الردِّ عليهم في جعلهم القرآن عِضين"(1).

إبـراز المصير البئيس، للكفرة المكذّبين بالدّين

ويمكن القول بعد تقليب النّظر في آيات سورة الحِجْرِ: إنَّ محور سورة الحِجر الرئيس هو: إبراز المصير المَخوف الّذي ينتظر الكافرين المكذِّبين، ويدور السياق حول هذا المحور بعدَّة أشكال، سواء في ذكر سنن الله في المكذِّبين، أو إبراز عظمة الله وقدرته في ما يُشاهَد من الكون، أو في وصف مشاهد يوم القيامة، أو ذكر قصص السّابقين وعاقبتهم كقوم لوط، وأصحابِ الأيكة، وأصحابِ الحِجر، وما تخلَّل ذلك كلَّه من تعقيبات والَّذي يرجع إلى المحور الرئيس، ويدور حوله(2).

الإنـسـان بين الأمل والأجل، ومن طال أمله، تمحّض للدّنيا عمله

ويمكن أنْ يكون محور سورة الحِجْرِ مُعَنْوَنًا في: (الإنسان بين الأمل والأجل)، فالسّورة أوضحت أنَّ هلاك الأمم كائنٌ بالإسراف في التَّمتُّع بالدُّنيا والانشغال بها عن الآخرة، وإنَّ كثيرًا من النّاس يخطئون عندما يجعلون الدُّنيا غاية لخَلقهم، ويغفلون عن الآخرة وما ينتظرهم فيها من حساب، ولهذا تراهم منصرفين بكلِّ طاقاتهم إلى الدُّنيا غافلين أو مُتَغافِلِينَ عن الحكمة من خَلقهم ووجودهم، وهي عبادته سبحانه وعمارة الأرض بطاعته، وإنَّ كَثْرَةَ التَّلذُّذ والتَّنعُّم بالدُّنيا يؤدي إلى طول الأمل فيها وقلَّة العمل للآخرة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/3.
(2) مسلم، مصطفى وآخرون، موسوعة التّفسير الموضوعي: 4/95.

فمن طال أمَلُهُ؛ قلَّ عَمَلُهُ؛ لأنَّ الأمل الطويل يُشْغِلُ صاحبه عن أجله، وأنَّه كثيرًا ما تتجاوز الآمال حدود الآجال، وأنَّ خير علاج لطول الأمل هو الإكثار من ذكر الموت، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين(1).

بيان سنَّة الله تعالى الرّاسية، في حماية رسله وحفظ كتبه الهادية

والحقُّ أنَّ محور السّورة الكريمة يضمُّ كلَّ ما تقدَّم ذكره من آراء، حيث تمثِّل هذه الآراءُ دعائمَ بارزة، وخطوطًا فرعيَّة لمحور السّورة المختار؛ فالسّورة الكريمة قد نزلت في جوٍّ مشحونٍ بالعدائيَّة المُفرِطَةِ من قريش للنبيِّ ﷺ والمؤمنين معه، وقد احتاج المسلمون مع هذا الظّرف إلى التّسرية والتّثبيت لهم على الحقِّ، فقام محور هذه السّورة على بيان سنَّة اللّه تعالى في حفظ دينه من خلال حفظ رُسُلِهِ وَكُتُبِهِ، وكذلك في حفظ أتباع هذا الدّين وفي إهلاك أعدائه.

مقتضيات محاور السّورة تتمثّل في العناصر الآتية:

اقتضى ما تقدّم من توضيحٍ للمحاور الأساسية للسّورة أنْ يُبَيِّنَ اللّه أنَّ دينه وخَلْقَه قائمان على الحقِّ في تضاعيفها، فقال عن الملائكة: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، و﴿قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 55]، و﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٦٤﴾ [الحجر: 64]، و﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الحجر: 85].

إقامة الحقّ وحفظ الدّين، من الغاوين والمستهزئين

ومن المقتضيات أيضًا: أنْ تُبَيِّنَ السّورةُ مظاهرَ حفظ اللّه لدينه وللحقِّ الّذي قام عليه أمرُ الدُّنيا والآخرة، فمن ذلك أنَّ اللّه تعالى قد تعهَّد بحفظ كتابه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وبحفظ ملكوته: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝١٧﴾ [الحجر: 17]، وبحفظ نبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ۝٩٥﴾ [الحجر: 95]، وبحفظ عباده من إغواء الشَّيطان: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا

(1) طهماز، الإنسان بين الأمل والأجل في سورة الحجر، ص: 124.

﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: 42]، وتعهَّد اللّه تعالى كذلك بإهلاك أعداء هذا الدّين كما بَيَّنَ عن نهايات عصور الظالمين(1).

القَصَصُ المبين، ومشاهد المغالبة والتّمكين

واقتضت المحاور أيضًا أنْ تأتي المشاهد القصصيَّة في السّورة الكريمة متَّسقة معها؛ فمشهد قصَّة آدم عليه السلام سُلِّط الضوء فيه على حفظ اللّه لعباده الصّالحين في مقابل تعهُّد إبليس بتزيين المعصية والإغواء لذرّية آدم، وفي جانب قصَّة إبراهيم عليه السلام كان التَّأييد من اللّه لإبراهيم عليه السلام بأنْ أعطاه الذُّرّيَّة الَّتي حفظت دينه في عقبه إلى يوم الدّين، وفي قصَّة لوط عليه السلام حفظ اللّه له أهْلَ بيته من المؤمنين وأهلك المفسدين منهم، وكذلك الحال في قصَّتَي أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر.

معوّقات التقدّم الإنساني، ومظاهر الإغواء والتّزيين

واقتضت محاور السّورة الكريمة أنْ تُظهر لنا ما يعوقُ البشر عن دوام الحفظ والبقاء أو مسوِّغات زواله من قِبَلِ البشر، وكان من أهمِّها مظاهر الإتراف، والمبالغة في التمتُّع بالوسائل المعينة على الاستقرار البشريِّ؛ لتصبح غاية في نظر أهلها بدلًا من أنْ تكون وسيلة للعيش، وطول الأمل ونسيان الأجل، فقال عن الكافرين: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ولهذا اختصَّت سورة الحِجر بذكر وسيلة إغواءٍ لإبليس لم ترد في غيرها من السّور الَّتي ذكرت قصَّة آدم، وهي وسيلة التَّزيين: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر: 39]، وقال في وصف أصحاب الحِجر: ﴿وَكَانُوا۟ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ۝٨٣ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٨٤﴾ [الحجر: 82 - 84]، ونهى نبيَّه ﷺ في آخر السّورة الكريمة مِنْ أنْ يتطلَّع إلى ما في أيديهم من متاعٍ زائلٍ: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ

(1) كما في الآيات: الحجر: 73 - 74، و79، و83 - 84، و89 - 93.

إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ [الحجر: 88].

الموضوعاتُ الرّئيسَةُ للسّورة:

مَدارُ السّورة حولَ تقريرِ حفظ الله تعالى لدينه ونصرته لأوليائه

احتوت السّورة على عدد من الموضوعات والمقاصد الأساسيَّة، وأهمُّها: أنَّها افتُتِحت بالحروف المقطَّعة الَّتي فيها تَعرِيضٌ بالتَّحدّي بإعجاز القرآن. والتَّنويهُ بفضل القرآن وهديه، وإنذارُ المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم، وتوبيخُهم بأنَّهم شَغَلَهُمْ عن الهدى انغماسُهم في شهواتهم، وإنذارُهم بالهلاك عند حُلولِهِ إبّان الوعيد الَّذي عيَّنه اللّه في علمه، وتسلية الرَّسول ﷺ على عدم إيمان مَنْ لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه، وما يتورَّكون بطلبه منه، وأنَّ تلك عادة المكذِّبين مع رسلهم، وأنَّهم لا تُجْدِي فيهم الآياتُ والنُّذُرُ لو أُسْعِفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به، وأنَّ اللّه حافظٌ كتابه من كيدهم.

ثمَّ إقامة الحجَّة عليهم بعظيم صنْعِ اللّه وما فيه من نِعَم عليهم، وذِكْرِ البعث ودلائل إمكانه. ثمّ انتقل إلى خلق نوع الإنسان، وما شرَّف اللّه به هذا النَّوع، وقصَّة كفر الشَّيطان.

ثمّ ذَكَرَ قصَّة إبراهيم ولوط عليهما السلام وأصحابَ الأيكة وأصحابَ الحِجْرِ، وخُتمت بتثبيت الرَّسول ﷺ وانتظار ساعة النَّصر، وأنْ يصفح عن الَّذين يؤذونه، ويَكِلَ أمرهم إلى اللّه، ويشتغل بالمؤمنين، وأنَّ اللّه كافيه أعداءه، مع ما تخلَّل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجنِّ، واستراقهم السَّمع، ووصف أحوال المتَّقين، والتَّرغيب في المغفرة، والتَّرهيب من العذاب[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/7.

الخصائص الأسلوبيّة والموضوعيّة لسورة الحِجْرِ:

أوّلا: الخصائص الموضوعيّة:

تتضمّن قصّة قومَيْ ثمود وشعيب، وحفظ الله للقرآن، مع خلق الإنسان وسجوده للرّحمن

وتفرَّدت سورة الحِجْرِ بذكر وصفٍ لقوم ثمود بأنَّهم ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ [الحجر: 80] دون غيرها من السّور، فقصَّة (ثمود) ذُكرت في أكثر من موضع في عدد من السّور القرآنيَّة، فتارة كانوا يُذْكَرونَ باسم ثمودَ، كقوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ [الأعراف: 73]، وتارة يتمُّ ذكرهم بقوم صالح، قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ [هود: 89]، وتارة يُذْكَرونَ بنسبة أخوة صالح لهم، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ أَخُوهُمۡ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٤٢﴾ [الشّعراء: 141 - 142]، فكان ذلك دلالة على حفظ اللّه لدينه من خلال سلب الحفظ عن أمَّة تمسَّكت بالمادّيات دون الشرع، فلم ينفعها ذلك، فاللّه الحافظ دون غيره؛ لذا كان الحِجر أكبرَ دليل على وهَنِ الأسباب المادّية.

وتفرَّدت سورة الحِجر بتقرير حفظ اللّه تعالى لكتابه، بتتابع عددٍ من المؤكّدات لا نجده في سورة أخرى بقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾. وفي ذلك دلالة على المحور الأصيل من حفظ اللّه تعالى لدينه.

وتميَّزت سورة الحِجر بحديثها عن قوم شعيب بوصفهم بأنَّهم (أصحاب الأيكة) دون قوم مدين، حيث ذُكر لفظ (الأيكة) أربعَ مرّات في القرآن الكريم(1)، وفي ذلك دلالة على القوَّة الاقتصاديَّة التي تمتَّعوا بها من زروع وثمار وبيع وشراء، فلم تحفظهم، وتؤمِّنهم من عقاب اللّه لعدم حفظ منهج اللّه فيها، وتفرَّدت السّورة بوصف أصحاب الأيكة بالظالمين دون بقيَّة المواقع، وفي ذلك إشارة إلى عدم حفظهم النِّعمة.

(1) سورة الحجر، الآية: 78، سورة الشعراء، الآية: 176، سورة ص، الآية: 13، سورة ق، ص: 14.

وتفرَّدت سورة الحِجر بوصف خلْقِ الإنسان وخلْقِ الجانِّ، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾ [الحجر: 26 - 27]، فقد ذَكَرَ وصف خلق الإنسان من ﴿حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾ [الحجر: 26، 28، 33] ثلاث مرّات في السّورة الكريمة[1]، فنشأة خلق الإنسان من طين أسود له دلالاته، وهو أنَّ هذا الإنسان قد خُلق من شيء ضعيف موهِن متغيِّر منتِنٍ، لكنَّه فاق غيره بتوازنه وحفظه منهجَ اللّه تعالى، فكان من المخلَصين، وأمّا الجانُّ؛ فقد خُلق من نار السَّموم، وهي مَظِنَّةُ القوَّة والهجوم والاختراق، لكنَّها لم ترتقِ إلى ما ارتقى إليه هذا الإنسان لعدم حفظه منهجَ اللّه، فكان الحفظ لهذا الإنسان بذاك الوصف لاتِّباعه شرع اللّه، فكان مخلَصًا لا تؤثِّر فيه غواية السُّموم بقوَّتها واختراقها، وفي ذلك تسلية لرسول اللّه ﷺ في أنَّ اللّه حافظ دينه؛ مهما تعرَّض هذا الدّين للأذى والقوَّة الساعية لهدمه.

وتميَّزت سورة الحِجر بتعدُّد ذِكْر السُّجود فيها، حيث ذُكِر في ستة مواضع[2]، خمسةٌ منها تتعلَّق بالسُّجود لآدم، والأخير منها في الوصيَّة لنبيِّنا محمَّد ﷺ بأنْ يكون من السّاجدين، وفي ذلك دلالة على العناية والاهتمام بالسجود، فهو سببٌ في الحفظ وسببٌ في الطَّرد، ولهذا اعتلاق بمحور السورة الكريمة.

ثانيًا: الخصائص الأسلوبيَّة:

تتميّز السّورة بكثرة ذكر نون العظمة، في خطاب الله ﷻ لعباده

هناك العديد من الأساليب والقضايا اللُّغويَّة التّي مازت هذه السّورة عن غيرها من السّور، وإنْ شاركتها بعض السّور في شيء من هذه الأساليب، منها: تميَّزت السّورة الكريمة بكثرة ذكر نون العظمة في خطاب اللّه ﷻ، فلا تكاد تجد خطابًا إلّا وذُكِرت النون فيها،

(1) الآيات: 26، 28، 33.
(2) الآيات: 29، 30، 31، 32، 33، 98.

مثل قوله: ﴿إِنَّا﴾، ﴿نَزَّلْنَا﴾، ﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ [الحجر: 17]، ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ [الحجر: 16]، ﴿كَفَيْنَاكَ﴾ [الحجر: 95]، ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿جَعَلْنَا﴾ [الحجر: 16]، ﴿عَلِمْنَا﴾ [الحجر: 24]، ﴿خَلَقْنَا﴾ [الحجر: 26]، ﴿ءَاتَيْنَاكَ﴾ [الحجر: 87]، ﴿نَعْلَمُ﴾ [الحجر: 97]، ﴿مَتَّعْنَا﴾ [الحجر: 88]، ﴿وَنَزَعْنَا﴾ [الحجر: 47]، ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿وَأَنْبَتْنَا﴾ [الحجر: 19]، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22]، ﴿عِندَنَا﴾ [الحجر: 21]، وفي ذلك دلالة على القوة والحفظ للخَلْق والكون والمصير والدين، فكان متناسقًا ومتناسبًا مع حفظ الله لدينه.

تتميّز السّورة، بكثرة المؤكِّدات اللّفظيّة والمعنويّة

وتميَّزت السّورة الكريمة بكثرة المؤكِّدات فيها كما تقدَّم في آية حفظ الذِّكر، وكما في استهلال بعض الآيات بـ(لقد) المكوِّنة من اللّام الدّاخلة على جواب القسم المقدَّر، مقرونة بـ (قد) التحقيقيَّة، وذلك في سبعة مواضعَ[1]، وفي ذلك تأكيد على الخبر، وتسلية وحفظ لقلب النَّبيِّ ﷺ، ومن ثَمَّ يرتبط هذا التَّوكيد بقوَّة بمحور السورة الكريمة في تحقيق الحفظ.

وتارة يكون التَّوكيد المعنويُّ بذكر ﴿أَجْمَعُونَ ۝٣٠﴾ [الحجر: 30]، ﴿أَجْمَعِينَ ۝٣٩﴾ [الحجر: 39، 43، 59، 92]، في خمس مرّات في السّورة الكريمة[2]، من أصل ستّة وعشرين موضعًا في القرآن الكريم، نالت سورة الحِجر منها العدد الأوفر من بين كلِّ السّور القرآنيَّة، وكلُّ ذلك له اعتلاق بالحفظ والتَّأكيد على الإحاطة حفظًا وعناية؛ ليتناسق اللَّفظ، ويتناسب مع محور السورة الكريمة.

تتميّز السّورة، بذكر بعض المقادير والأوقات، وذكر بعض الآجال والنِّهايات

تميّزت السّورة بذكر ما نوّه به في العنوان أعلاه، فقد جاء وصف الكتاب والقَدَر والوقت بـ ﴿ٱلْمَعْلُومِ ۝٣٨﴾ [الحجر: 38] في ثلاثة مواضعَ[3]، وجاء الوصف بـ ﴿مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ [الحجر: 66] في موضعَيْن

---

(1) الآيات: 10، 16، 24، 26، 80، 87، 97.
(2) الآيات: 30، 39، 43، 59، 92.
(3) الآيات: 4، 21، 38.

اثنَيْن[1]، و﴿مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر: 73] في موضع[2]، وبـ ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ [الحجر: 65] في موضع[3]، فضلًا عن ذكر التقدُّم والتأخُّر في قوله: ﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الحجر: 24]، وقوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، فضلًا عن ذِكر القسمة في ذكر أبواب جهنَّم في قوله: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: 44]، وذِكر السّاعة في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَـَٔاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: 85]، وكلُّ تلك المقادير والأوقات والآجال والنِّهايات لها اعتلاق بدقَّة العناية والصّيانة والإحصاء والحفظ، والتي بدورها لها ارتباط بالمحور الرئيس للسّورة الكريمة.

تميّز السّورة، بذكر نماذج من أسلوب الحوار، مع تنوّع أطرافه وشخصّياته

وتميَّزت سورة الحِجر الكريمة بذكر نماذج من أسلوب الحوار في أربعة مواقع: حوار اللّه مع الملائكة وإبليس، وحوار الملائكة مع إبراهيم عليه السلام، وحوار الملائكة مع لوط عليه السلام، وحوار قوم لوط مع النَّبيِّ لوط عليه السلام، وهذا الحوار كان له دور في الحفظ والصّيانة، فكان الحفظ للمؤمنين المخلصين بعد حوار إبليس، وكان الحفظ لقلب إبراهيم عليه السلام من الوجل والقنوط بعد حوار الملائكة، وكان الحفظ للوط عليه السلام وتطمينه وإنقاذ أهله بعد حوار الملائكة له، وكذا الحفظ للوط عليه السلام بإهلاك قومه بعد عدم نفع حواره معهم، فكان لأسلوب الحوار حفظ ورعاية لها علاقة بمحور السّورة.

تميّز السّورة، بتفاصيل مصير قوم لوط المشؤوم، للتّسرية عن كرب خاتم الأنبياء المظلوم

وتفرَّدت سورة الحِجر بذكر كلِّ العقوبات الّتي وقعت على قوم لوط، فذكرت السّورة عقوبة الصَّيحة، وقلْبَ الأرض عاليها سافلها،

(1) الآيتان: 66، 83.
(2) الحجر: 73.
(3) الحجر: 65.

ثمّ إمطارهم بحجارة من سجّيل، وهذه العقوبات لم تتكرَّر مُجْتَمِعَةً إلّا في سور الحِجر، وهذا لتحقيق غرض الحفظ والرِّعاية والعناية بقلب النَّبيِّ محمَّد ﷺ في أجواء مشحونة بالكرب والضّيق، فكان التَّفرُّد له اعتلاق بمحور السّورة الكريمة.

تتميّز السّورة، بقلّة فواصل آياتها، مع تقارب مخارج حروف الفواصل مع بعضها

وتميَّزت السّورة الكريمة بقلَّة فواصل آياتها، في الحرف الّذي تنتهي به كلُّ آية من آيات هذه السّورة، ففواصل السّورة الكريمة، تكوَّنت من ثلاثة أحرف، هي: حرف (اللّام) في موضعين، وحرف (الميم)، في ستَّة عشر موضعًا، وحرف (النّون) في واحد وثمانين موضعًا، وهذه القلَّة في التّنوُّع مع تقارب مخارج تلك الحروف مع بعضها قد يدلُّ على الجمع والإحاطة بها بسهولة، فتكون تلك الفواصل لها علاقة بمحور الحفظ والرِّعاية، والله أعلم.

تتميّز السّورة، بألفاظ ذات أوزان خاصّة، لم ترد إلّا فيها

وتفرَّدت سورة الحِجر عن غيرها من السور باشتقاقات وصيغ لم ترد إلّا في هذه السّورة، ومن تلك الألفاظ: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾ [الحجر: 54] و﴿ٱلصَّفۡحَ﴾ [الحجر: 85] و﴿ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85] و﴿ٱلۡحِجۡرِ﴾ [الحجر: 80] و﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ [الحجر: 55] و﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ [الحجر: 24]، ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ [الحجر: 24] و﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90] و﴿بَشَّرۡنَٰكَ﴾ [الحجر: 55] و﴿بِخَٰزِنِينَ ٢٢﴾ [الحجر: 22] و﴿بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ [الحجر: 20] و﴿تَوۡجَلۡ﴾ [الحجر: 53]، و﴿تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾ [الحجر: 54]، ﴿جُزۡءٞ﴾ [الحجر: 44] و﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: 21] و﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: 22] و﴿كَفَيۡنَٰكَ﴾ [الحجر: 95] و﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ [الحجر: 39] و﴿لَعَمۡرُكَ﴾ [الحجر: 72]، ﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾ [الحجر: 43] و﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾ [الحجر: 59] و﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [الحجر: 75] و﴿مَّسۡنُونٖ ٢٦﴾ [الحجر: 26] و﴿مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر: 44] و﴿مَقۡطُوعٞ﴾ [الحجر: 66]، ﴿مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ [الحجر: 19] و﴿وَجِلُونَ ٥٢﴾ [الحجر: 52] و﴿وَحَفِظۡنَٰهَا﴾ [الحجر: 17] و﴿يَضِيقُ﴾ [الحجر: 97]، وفي تلك الألفاظ المذكورة دلالات تلقي بظلالها على المحور الرئيس الذي اكتنف السّورة موضوعًا وأسلوبًا.

وأخيرًا حظيت السّورة الكريمة بألفاظ تفرَّدت بها عن غيرها من السّور من جهة الجذر والمادَّة اللُّغويَّة؛ وهذه الألفاظ هي: ﴿لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] و﴿تَفۡضَحُونِ ۞﴾ [الحجر: 68] و﴿عِضِينَ ۞﴾ [الحجر: 91]، وإنَّ الجامع لهذه الألفاظ الثَّلاثة التّي تفرَّدت بها السّورة أنَّها ذات اتِّصال مباشر بمحور السّورة من حفظ اللّه لدينه، فلفظ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: 22] شقَّ طريقًا في حفظ الحياة دالًّا على قُدْرَتِهِ ومَنَعَتِهِ تعالى في حفظ دينه، وذلك من خلال حفظ البشرية بالماء، ولفظ ﴿تَفۡضَحُونِ ۞﴾ [الحجر: 68]، جاء في سياق الحضِّ على الحفظ والسّتر للمعاصي وعدم الجهر بها وعدم تجزئة الفطرة السليمة، فهي علامة الهلاك، أمّا لفظ ﴿عِضِينَ ۞﴾ [الحجر: 91]؛ فقد جاء في سياق توبيخِ مَنْ فرَّق، وجزَّأ القرآن الكريم، تكذيبًا واتِّهامًا وتحريفًا، وهو في مقابل حفظ اللّه للقرآن، فأنّى لها من مقابلة! وكلُّ تلك الألفاظ تندرج تحت اسم السّورة (الحِجْرِ)، فأصحاب الحِجر جاءت عقوبتهم من السّماء جهة اللّواقح، وفضحوا أنفسهم بمعاصيهم، وجزَّؤوا، وفرَّقوا كلام اللّه المنزل عليهم.

۞ مناسبة السّورة لما جاوَرَها:

مناسبة السورة لما قبلها:

السّورة متَّصلة تمامًا بسورتَي إبراهيم والنَّحل مضمونًا وأسلوبًا وغاية

جاءت هذه السّورة في التَّرتيب المصحفيِّ بعد سورة إبراهيم، وقد تَلَمَّسَ وَجْهَ اتِّصالهما الإمامُ البقاعيُّ بقوله: لَمّا خَتَمَ التي قبلها بعنوان الكتاب، ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوان، وأوّله وصفه بأنَّه جامع، والخير كلُّه في الجمع، والشرُّ كلُّه في الفُرْقَةِ، فقال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ﴾، أيْ: هذه الآيات العالية المقام، النفيسة المرام. ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، أيْ: الكامل غاية الكمال الذي لا كتاب على الحقيقة غيره، الجامع لجمع ما يقوم به الوجود من الخيرات، القاطع في قضائه من غير شكٍّ ولا تردُّد، الغالب بأحكامه القاهرة في وعده ووعيده وأحكامه في إعجازه لجميع من يعانده[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/2.

وُجــوهٌ أخـرى للـمـنـاسـبـة، أهمّها أنّ القرآن بــلاغ بـالمصير الخطير

وقد ذَكروا فيها وجوهًا أخرى للرَّبط بينهما، منها: أنّه جاء في آخر سورة إبراهيم قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٥٢﴾ [إبراهيم: 52]، وجاء في أوَّل سورة الحِجر ما يبيِّن طبيعة هذا الإنذار: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾.

وأنّه ذكر تعالى في خواتيم سورة إبراهيم عاقبة الظالمين، فقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ۝٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ وَتَغۡشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ۝٥٠﴾ [إبراهيم: 49 - 50]، وقال في بداية سورة الحِجر: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

فهذه الودادَةُ إنَّما تكون يوم القيامة عندما يرون العذاب، ويرون نجاة المسلمين وفوزهم بالجنَّة.

وقال ﷻ في خواتيم سورة إبراهيم في الظّالمين: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوۡمَ يَأۡتِيهِمُ ٱلۡعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رَبَّنَآ أَخِّرۡنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ نُّجِبۡ دَعۡوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَۗ أَوَلَمۡ تَكُونُوٓاْ أَقۡسَمۡتُم مِّن قَبۡلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٖ ۝٤٤﴾ [إبراهيم: 44].

وقال في بداية سورة الحِجرِ: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، فالَّذين في سورة إبراهيم ألهاهُمُ الأمل، حتى ظنّوا أنَّهم لا يزولون عن هذه الدنيا، وإنَّما هم خالدون فيها.

بيان حال الدّعوة منذ القديم، وصراع الأنبياء مع المكذّبين، والتّسرية على خاتم النّبيّين

والحقُّ أنَّ كلتا السّورتَيْن يكمِّل بعضها بعضًا؛ فسورة الحِجر بيَّنت أيضًا انقسام النّاس في شأن هذه الدَّعوة، وبيَّنت حال كلِّ فريق، وعرضت لبعض آيات الله في الكون الدالَّة على وحدانيَّته وكماله، وتناولت جانبًا قصصيًّا من حياة بعض الأنبياء بدءًا من آدم أبي الأنبياء عليهم السلام، ومرورًا بإبراهيم عليه السلام وما جرى مع ضيوفه وبشراه بالولد، وكذلك جانبًا من قصَّة لوط عليه السلام، وكذلك قصَّتي أصحاب الأيكة وأصحاب الحِجر، فقد فصَّلت سورة الحِجر ما أوجز في سورة

إبراهيم من وسائل غواية إبليس لآدم وذرّيته، وحوت في آخرها وصايا للنَّبيِّ ﷺ تصلح أنْ تكون قواعد للدَّعوة في كلِّ زمان ومكان، فقال تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 94 - 99].

مناسبة السورة لما بعدها:

أمّا وجه ارتباطها بسورة النَّحل؛ فيقول عنه المراغي: أنَّه لَمّا قال في سورة الحِجر: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٩٢﴾ [الحجر: 92] كان ذلك تنبيهًا إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عمّا فعلوه في الدُّنيا، فقيل في النَّحل: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1]، وأيضًا فإنَّ قوله في آخرها: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: 99] شديد الالتئام بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 1][(1)].

اشتراك السّورتين في عرض ملامح التّكذيب، ومصائر المكذّبين، وعرض قدرة الله في كلّ حين

وتشترك السّورتان في الحديث عن مواقف المشركين عبر التّاريخ من فكرة الوحي وتكذيبهم وشبههم حول البعث والتَّوحيد والنُّبوَّة، وعن تكذيبهم بالمعجزات والخوارق: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، وتشترك السّورتان في عرض مشاهد قدرة اللّه تعالى وآياته في الأنفس والآفاق، وتشترك السّورتان كذلك في عرض مشاهد المكذِّبين عبر التّاريخ وما أصابهم نتيجة اسْتِعْجالهِم وتكذيبهم العذابَ: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾. فسورة النَّحل أجملت ما جاء في سورة الحِجر، وفصَّلت في بيان ما كان يجب على أولئك الكافرين من الإذعان لآيات اللّه في الكون المسخَّر لهم.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 14/51.

﴿ الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ١﴾ [الحجر: 1]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

القرآن هو البلاغ المبين للنّاس أجمعين، في كلّ عصر وحين

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى في آخِرِ السّورَةِ قَبْلَها أشْياءَ مِنْ أحْوالِ القيامَةِ مِنْ تبديل السّموات والأرْضِ، وأحْوالِ الكُفّارِ في ذَلِكَ اليَوْم، وأنَّ ما أتَى بِهِ هوَ عَلَى حَسَبِ التَّبْليغِ والإنْذارِ؛ ابْتَدَأ في هَذِهِ السّورَةِ بِذِكْرِ القُرْآنِ الَّذي هوَ بَلاغٌ لِلنّاسِ، وذكرِ أحْوالِ الكَفَرَةِ، ووِدادَتِهِمْ في ذلك اليوم لَوْ كانوا مسلمين[1].

ولَمّا خَتَمَ التي قبلها بعنوان الكتاب؛ ابتدأ هذه بشرح ذلك العنوانِ، وأوَّلُه وصْفُه بأنَّه جامع، والخير كلُّه في الجمع، والشرُّ كلُّه في الفُرْقَةِ، فقال تعالى: تلك الآياتُ العالية المقام، النفيسة المرام، آياتُ الكتاب الكامل غاية الكمال، الذي لا كتاب على الحقيقة غيره، الجامع لجمع ما يقوم به الوجود من الخيرات، القاطع في قضائه من غير شكٍّ ولا تردُّد، الغالب بأحكامه القاهرة في وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ وإحكامه في إعجازه لجميع من يعانده[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّبِينٖ﴾: أصلُ الكلمةِ مِن البَيْن، وهو امتدادٌ بين طرفين أو جانبين مع فصل كبير أو اتساع، ومِنْ ذلك الفَصْلُ والتمييزُ. جاء معنى الوضوح والظهور، وهو المعنى الذي جاءت به كل مفردات التركيب القرآنية، عدا الظرف (بين)[3]؛ لأنَّ الفَصْلَ والتمييزَ يقتضي بُعْدَ الشَّيءِ وانْكِشافَه، فالبَيْنُ: الاتِّصال البَيِّنُ أو الفِراقُ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/463.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/2.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بين).

البَيِّنُ؛ يُقالُ: بانَ يَبِينُ بَيْنًا وبَيْنونَةً، والبَيِّنَةُ: الأمرُ الواضح، والبيان: التَّوضيحُ والكَشْفُ، يُقالُ: بانَ الشَّيْءُ، وأبانَ؛ إذا اتَّضَحَ وانْكَشَفَ[1]، وسُمّيَ الكلامُ بيانًا لكشفه عن المعنى المقصود إظهاره، ويُقال: بَيَّنْتُهُ وأَبَنْتُهُ: إذا جعلت له بيانًا تكشفه[2]. والمقصود بالمُبِيْنِ في الآية: المُبالَغَةُ في الظُّهورِ والوضوح.

المَعنى الإجْماليُّ:

افتُتِحَت هذه السّورةُ العظيمة بالحروف المقطَّعة؛ لبيان إعجاز القرآن؛ إذ تُبرِزُ عجزَ الخَلْقِ عن معارضته بالإتيان بشيءٍ من مثله، مع أنَّه مركَّبٌ من هذه الحروفِ العربيَّة التي يتحدَّثون بها!

القـرآن المجيد جامعٌ لِصفات الكمال الأسنى، فـي الإعـجـاز واللّفظ والمعنى

ثمَّ أخبرَ اللّه تعالى أنَّ آياتِ القُرآنِ الكريم هي آياتُ الكتابِ الجامعِ لأنواعِ الكَمالِ، وهي آياتُ قرآنٍ عظيمٍ واضحٍ إعجازُه للخَلقِ، مُظهرٍ للحقائقِ بأحسَنِ بَيانٍ، وأوضَحِه[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة تخصيص آيات القرآن، باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

آيــاتُ الـقـرآن ينبغي أنْ تكون حاضرةً، بمنزلةِ المنظور المُشاهَدِ

الإشارَةُ بـ﴿تِلْكَ﴾ إلَى ما هوَ مَعْروفٌ قَبْلَ هَذِهِ السّورَةِ مِنْ مِقْدارِ ما نَزَلَ من القُرْآنِ؛ إذ هو المتسارِعُ إلى الفهم حينئذٍ عند الإطلاق، وعليه يترتَّب فائدةُ وصف الآياتِ بنعت ما أضيفت إليه من نعوت الكمالِ فيما يأتي، أي: الآياتُ المَعْروفَةُ عِنْدَكُمُ القريبة منكم المُتَمَيِّزَةُ لَدَيْكُمْ تَمَيُّزًا كَتَمَيُّزِ الشَّيْءِ الّذي تُمْكِنُ الإشارَةُ إلَيْهِ هيَ آياتُ الكِتابِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكون إشارةً إلى آياتِ السّورة، وهَذِهِ الإشارَةُ لِتَنْزيلِ آياتِ القُرْآنِ مَنْزِلَةَ المنظور المُشاهَدِ، أو للإشعارِ بأنَّها ينبغي أنْ تكون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بين).

(2) الرّاغب، المفردات: (بان).

(3) الواحديّ، الوجيز، ص: 588، والزّمخشري، الكشاف: 2/569، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/64، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 429.

حاضرةً مشاهدةً، فَمَنْ شاءَ أنْ يَسْمَعَها، ويَتَدَبَّرها؛ أَمْكَنَهُ، وعُبِّرَ باسم الإشارة الذي للبعيد مع قربِ الآياتِ المنزَّلةِ المتلوَّة؛ للتنبيه على بُعد منزلةِ المشارِ إليه وعُلوِّ منزلته في الفخامةِ والتَّعظيم[1]، أي: الآيات العالية المقام، النفيسة المرام[2]، البعيدة عن أنْ يطالها أحدٌ بسوء.

مقام الاستدلال بالتعبير باسم الإشارة ﴿تِلْكَ﴾:

الحثُّ على النَّظر في آيات القرآن وتدبُّرها

عُبِّرَ باسم الإشارة هنا؛ للحثِّ على النَّظر في آياتِ القرآن القريبةِ منهم بذاتها، البعيدة عنهم بمنزلتها ومكانتها، المميَّزةِ أكمل تمييز؛ ليتبيَّنَ لهم أنَّه من عند الله، ويَعْلَموا صِدْقَ مَنْ جاءَهُمْ بِهِ؛ ولتكون في مقامِ الاستدلالِ على ذلك[3].

براعة الإخبار في مستهلّ السّورة:

آياتُ القرآنِ لا كمالَ فوقَها، في المعنى والفصاحة والبلاغة

قولِه: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وفيه أنّه لَمّا كان اسم الإشارةِ ﴿تِلْكَ﴾ من المُبْهَماتِ فَسَّر المقصودَ منه خبرُه، وهو قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، فتكون الإشارةُ إلى ما بعدَه من الآياتِ المنزَّلة، فيكون من قبيل الإخبار عن المبتدأ بمعناه؛ ليفيد معنى الكمالِ والإبداع والبراعة، بمعنى الآياتِ الكاملة التي لا كمالَ فوقَها في المعنى والفصاحة والبلاغة، وهذا هو الظّاهر، ويَحْتَمِلُ أنْ تكونَ الجملة الاسمية: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرًا عن حُروفِ ﴿الٓرۚ﴾، ويكون ﴿الٓرۚ﴾ مبتدأ؛ لِأَنَّ المُخْتارَ في الحُروفِ المُقَطَّعَةِ في فَواتِحِ السّوَرِ أنَّ تَعدادَها للتَّحَدّي، والمَعْنَى: تِلْكَ الحُروفُ آياتُ الكِتابِ وقرآن مبين، أيْ: مِنْ جِنْسِها حُروفُ الكِتابِ، وجَميعُ تَراكيبِهِ مِنْ جِنْسِ تِلْكَ الحُروفِ؛ لتسجيل عجزِهم عن معارضة القرآن، مع أنَّه من جنسِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 10/244، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/80، 14/8.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/2.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/81.

حروف كلامِهم، فما لهم لا يستطيعون معارضتها بمثلِها، فَلَوْلا أَنَّ هذه الآياتِ مِنْ عِنْدِ اللّه؛ لَكانَ اخْتِصاصُ الكتابِ بِهَذا النَّظْمِ المُعْجِزِ دونَ كَلامِهِمْ مُحالًا؛ إِذْ هوَ مُرَكَّبٌ مِنْ حُروفِ كَلامِهِمْ[1].

سرّ الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

آياتُ الكتاب يشبه بعضُها بعضًا، في المعنى والبيان

إضافَةُ ﴿ءَايَٰتُ﴾ إلَى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ تَحْتَمِلُ أَنْ تكون إضافَةً شَبيهَةً بِالبَيانيَّةِ[2]، بمعنى آياتٍ هي الكتاب وهي قرآنٌ مبينٌ، وتَحْتَمِلُ أنْ تكون الإضافة على معنى (مِنْ)، والمعنى: آياتٌ من الكتابِ ومن قرآنٍ مبينٍ، أيْ: هي بعضٌ منه، فيكون الكتابُ والقرآنُ بمنزلةِ الظَّرفِ للآياتِ؛ تعظيمًا لشأنِ الآياتِ؛ إذ وصفَها بما يوصَف به الكلُّ، للإشعار بأنَّ بعضَ آياتِ الكتاب يشبه بعضها بعضًا في المعنى والبلاغة[3].

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

القرآن هو الكتاب الكامل، في بلاغه اليانع، وإعجازِه الماتع

(ال) للعهدِ بمعنى الكتابِ الكاملِ المعهودِ الغنيِّ عن الوصف به المشهورِ بذلك من بين الكتب الجدير بأنْ يختصَّ من بين سائر الكتب باسم الكتاب على الإطلاق، والمعنى: تلك آياتُ الكتاب الكاملِ في كونِه كتابًا من بين جميع الكتبِ المنزَّلةِ لِما تضمَّنه من المعاني التّامَّة والبلاغة الكاملة، فاستحقَّ أنْ يكونَ معجزًا لكمالِه[4].

دلالة التَّنكير في لفظ ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾:

أفادَ التَّنكيرُ التَّعظيم والتَّفخيم، بمعنى قرآنٍ عظيم الشَّأنِ[5]، فالقرآن يعلو ولا يعلى عليه.

براعة العطف بالواو، في ثنايا السّياق:

اشتمال القرآن على ما في الكتب الإلهيَّة، من صفاتِ كمالِ

قوله: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾ وفيه، عطفَ ﴿وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ﴾

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233، وابن عاشور، التّحرير والتّوير: 11/82.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/81.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/233.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/116، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63.

(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/5689، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/116، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/464.

على ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على طريق عطفِ التَّفسير، ومقتضى العطف يفيد التَّغايرَ في الوصفين، وإنْ كان عطفَ بيانٍ وتفسير، وتقدير الكلام: آياتُ الكتابِ وآياتُ قرآنٍ مبينٍ، والمراد بالكتاب القرآنُ، فوصف هنا بوصفين، وأفاد العطفُ تفخيمَ شأنه العظيم، بِما جُمع فيه من وصفَي الكتابيَّةِ والقُرْآنيَّةِ، فأفاد وصفُ الكتابيَّةِ أنَّ الآياتِ مجموعةٌ في كتابٍ، واشتماله على صفات كمال جنس الكُتُبِ الإلهية، فكأنَّه هو كلُّها، وأفادَ وصفُ القرآنية أنَّها آياتُ قرآنٍ متلوٍّ مُبِين، وكونَه ممتازًا عن غيره، نسيجَ وحدِه، بديعًا في بابه، خارجًا عن دائرة البيان[1].

نكتة تأخير وصف ﴿وَقُرۡءَانٖ﴾، على وصف ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾:

الحثُّ على كتابة ما يـنـزَّل من القرآن، لحفظِه ومراجعتِه

أُخِّرَ وصفُ القرآنيَّة للإشارةِ إلى امتيازه عن سائر الكتبِ باسم القرآنِ بعد التَّنبيه على انطوائه على كمالات غيرِه من الكتب؛ ليكونَ أدخلَ في المدح، فاسْمُ القُرْآنِ أَرْسَخُ في التَّعريف به من الكتاب، فالقرآن عَلَمٌ على الكتاب المنزَّل على سيِّدنا محمَّد ﷺ، والكتاب عَلَمٌ بالغلبةِ، فعُبِّرَ هنا بالكتاب أوَّلًا؛ كيلا يُتوهَّمَ من أول الأمرِ أنَّ امتيازَه عن غيره لاستقلاله بأوصافٍ خاصَّةٍ به من غير اشتماله على نعوت كمالِ سائرِ الكتب الكريمة؛ ولِأنَّ المُعَرَّفَ هوَ أَصْلُ الإِخْبارِ والأَوْصافِ، ثُمَّ جيءَ بِالْمُنَكَّرِ؛ لِأَنَّهُ أُريدَ وصْفُهُ بِالْمُبِينِ، والمنكَّرُ أَنْسَبُ بِإِجْراءِ الأَوْصافِ عليه، ولِأَنَّ التَّنْكيرَ يَدُلُّ على التَّفْخيم والتَّعْظيم، فَوُزِّعَت دلالة الكمال ودلالة التَّعظيم على نُكْتَةِ التَّعْريفِ ونُكْتَةِ التَّنْكيرِ[2]، وفي التَّعبير بالكتابِ إشارةٌ إلى الأمر بكتابة ما يَنْزِلُ منه لحفظِه ومراجعته، كما أنَّ فيه إشارةً إلى المستقبل بأنَّ القرآن سَيُكْتَبُ، ويُجْعَلُ في كتابٍ محفوظٍ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/250.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/530، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/63، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/9.

سرّ إيثار مجيء الصّفة بلفظ ﴿مُّبِينٍ﴾:

القرآن بيّنٌ في نفسِهِ، ومبينٌ لمن يقرؤه ويتدبَّره

أفاد مجيء الصّفة أنّ القرآن متَّصف بصفة لازمة له غيرِ منفكَّةٍ عنه هي كونه مبينًا، والصفة ليست للتقييد، كما هو حال الصفات مع النَّكرات بل هي للتَّوضيح والبيان، فَإِنَّ كَوْنَهُ قُرْآنًا يَدُلُّ عَلَى أنَّ معانيه واضحةٌ بيِّنة، وهو مُبِينٌ لمن يقرؤه متدبِّرًا؛ لِأَنَّهُ ما جُعِلَ مَقْروءًا إلّا لما في تَراكيبِهِ مِنَ المعاني المفيدة للقارئ، ولّما كان ﴿مُّبِينٍ﴾ مشتقًّا من الفعل (أبانَ) المتعدّي - كما هو الظّاهرُ - أفاد التَّعبير الكناية عن كونِه بيِّنًا في نفسِه، فإنَّه لا يكون مبينًا لغيرِه إلّا؛ إذا كان بيِّنًا واضحًا في نفسِه.

فائدة حذف متعلّق الوصف ﴿مُّبِينٍ﴾:

القرآن مبينٌ للنّاس طريقَ الهداية لاتّباعه، وطريق الضّلال لمجانفته

لَمّا كان الوصف مشتقًّا من الفعل المتعدّي - كما تقدَّم - دلَّ على أنَّ معمولَه محذوف، وحذف المتعلِّق لإفادة العموم من حيثُ المبدأ، بمعنى: أنَّ الآياتِ هي آياتُ قرآن مُبِين؛ لأنَّه من عندِ اللّه بما تضمَّنه من وجوهِ الإعجاز، ولإفادة العموم من حيث المآل، بمعنى: أنَّ القرآنَ مبيِّنٌ للنّاسِ طريق الحقِّ والهداية، ومبيِّنٌ طريق الضلال والغوايةِ لتجنُّبها، فهو مبيِّنٌ لكلِّ شيءٍ[1].

توجيه المتشابه اللَّفظيّ، بين آية الحِجْرِ (01) وآية النّمل (01):

تقديم لفظ القرآن وتأخيره، ومناسبة ذلك لسياقِه

قُدِّم هنا الكتابُ على القرآنِ، وفي سورة النَّملِ قُدِّمَ القرآنُ على الكتابِ، فقال: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١﴾ [النّمل: 1]، فَأَمّا تَقْديمُ الكِتابِ عَلَى القُرْآنِ في هذه السورة؛ فَلِأَنَّ سياقَ الكَلام في تَوْبيخ الكافِرينَ وتَهْديدِهِمْ بِأَنَّهُ سَيَجيءُ وقْتٌ يَتَمَنَّوْنَ فيه أَنْ لَوْ كانوا مُؤْمِنينَ، فَلَمّا كانَ الكَلامُ موَجَّهًا إِلَى المُنْكِرينَ؛ ناسَبَ أَنْ يَسْتَحْضِرَ المُنَزَّلَ عَلَى سيِّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ بِعُنْوانِه الأَعَمِّ، وهو كَوْنُهُ كِتابًا؛ لِأَنَّهُمْ حينَ جادلوا ما جادلوا إلّا في كِتابٍ، فَقالوا: ﴿لَوۡ أَنَّآ أُنزِلَ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/419.

عَلَيۡنَا ٱلۡكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهۡدَىٰ مِنۡهُمۡۚ﴾ [الأنعام: 157]؛ ولِأنَّهُمْ يَعْرِفونَ ما عِنْدَ الأُمَمِ الآخَرينَ بِعُنْوانِ (كِتَابٌ)، ويَعْرِفونَهُمْ بِعُنْوانِ (أَهْلِ الكِتابِ)، فَأمّا عُنْوانُ (القُرْآنِ)؛ فَهوَ مُناسِبٌ لِكَوْنِ الكِتابِ مَقْروءًا مدروسًا، وإنَّما يقرؤه ويدرسه المؤمنون به، ولِذَلِكَ قُدِّمَ عُنْوانُ (القُرْآنِ) في سورَةِ النَّمْلِ، ولَمّا كان في التعريف نوع من الفخامة، وفي التنكير نوعٌ آخر، وكان الغرضُ الجمعَ؛ عُرِّفَ الكتابُ، ونُكِّرَ القرآنُ هاهنا، وعُكِسَ في النَّمل، وقُدِّم المعرَّفُ في الموضعين لزيادة التَّنويهِ[1].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/9.

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢﴾ [الحجر: 2]

العلاقة بين كون القرآن كتاب الله حقًّا، وندمُ الكافرين على عدم الإيمانِ به وتصديقه

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا وصف اللّهُ تعالى هذا القرآنَ بما وصفَه من العظمةِ، وأنَّه الكاملُ في معانيه وفي الإبانةِ لجميع المقاصدِ؛ شرع في بيان ندمِ الكافرين بهذا القرآنِ لِعدمِ الانتفاعِ به وتركِ الانقيادِ لأحكامِه، فقال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَوَدُّ﴾: الود: التَّمني، وهو تقدير المعنى في النفس للاستمتاع، وإظهار ميل الطباع له، وفيه اشتراك بين التمني والحب، وهو هنا للتمني[1]، وأصلُ (وَدَّ): تَدُلُّ عَلَى مَحَبَّةٍ، ووِدِدْتُه: أَحْبَبْتُه، ووَدِدْتُ أَنَّ ذاكَ كانَ؛ إذا تمنَّيْته، أَوَدُّ فيهما جميعًا، وفي المَحَبَّة الوُدُّ، وفي التَّمَنّي الوَدادَةُ[2]؛ لأنَّ التَّمنّي هو تَشهّي حُصولِ ما تَوَدُّهُ، والوُدُّ يُستعمَلُ كِنايةً عن السَّعْيِ لحصولِ الشَّيءِ المَوْدودِ؛ لأنَّ الشَّيءَ المَحْبوبَ لا يَمْنَعُ من تَحْصيلِه إلّا مانِعٌ قاهِرٌ، فهو لازِمٌ لِلْوُدِّ[3]، والمرادُ بالودِّ في الآية: التَّمنّي المتولِّد منه التَّنديم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

سيَندَمُ الّذين كفروا على عدم إسلامهم، ولات حين مندم

أشار اللّه تعالى بهذه الآية إلى أنَّ المشركين سَيَنْدَمون عندما تنكشف لهم الحقائق؛ فيعرفون أنَّهم على الباطل، وأنَّ المؤمنين على الحقِّ، ويتمَنَّونَ لو كانوا مُسلِمينَ في الدُّنيا، موَحِّدينَ، مُنقادينَ لأمرِ اللّهِ تعالى، وخاضعينَ لأحكامِه، حتَّى ينجوا مِن الخزي والعِقاب[4].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/11.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 6/75.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/301.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/8، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/524.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بقولِهِ: ﴿رُّبَمَا﴾ في السّياق:

العقل لا يسكن إلى الكفر، ولا يطمئن إليه؛ إذ هو منافٍ لمقتضاه

حرف ﴿رُّبَمَا﴾ لم يوجد في القرآن إلّا في هذه الآية، وقد يُسْألُ، فيقال: ﴿رُّبَمَا﴾ للتَّقليل، وهي تفيد الظَّنَّ، وتمنّي الكافرِ الإسلامَ يكثرُ ويتَّصلُ، وهو مقطوعٌ به، فلا يُشاكِلُهُ ﴿رُّبَمَا﴾، كما أنَّ الآيةَ على معنى الوعيد، وإنَّما يناسب الوعيدَ تكثيرُ ما يُتواعَدُ به؟ وجوابُه أنَّه جاء على المبالغة، بمعنى: أنَّ الإسلامَ لو كانوا يودّونه مرَّةً واحدةً؛ لكانت المسارعة إلى الدُّخولِ فيه عند الإمكان واجبة، فكيف والنَّدم على عدم الدخولِ في الإسلامِ يتَّصل، ويكثر بتجدُّد الحقيقة وظهورها في كلِّ حينٍ، فيكون مجيء الصّيغة على التَّقليل أبلغَ في التَّهديد على طريق استعارة القليل للكثير بقرينة السياق، ونُزِّل التّضادُّ منزلة المناسبة بينهما، ويكون المرادُ من استعارة القليل للكثير التهكُّمَ بهم وتخويفَهم، أو يقال: لَمّا كان السّياقُ هنا يقتضي التَّكثير؛ كان دخولُ لفظِ يشعر ظاهره بالتقليل لإيقاظِ السّامعِ بما يعظمُ شأنُه والتَّنبُّه له[1]، فيكون المعنى على المبالغة كذلك، ويحتمل أنْ يكون ﴿رُّبَمَا﴾ للتَّكثير[2]، والمعنى: يودُّ كثيرًا الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ولَمّا كان مجيء ﴿رُّبَمَا﴾ على معنى حصولِ ما بعدها وقتًا بعدَ وقتٍ[3]؛ كان المعنى حصولَ ندامة الكافرين وقتًا بعدِ وقتٍ وتكرُّرها منهم في كلِّ آنٍ من آناتِ اليومِ الآخرِ، وأنَّ ذلك من الظُّهور بحيث لا يخفى على أحدٍ، ويؤيِّده مجيء الفعل ﴿يَوَدُّ﴾ بصيغة المضارع كما يأتي.

---

(1) ذكر أكثر هذا الكلام الأزهري في تهذيب اللغة: 15/133، مادّة: (ربّ)، نقلا عن الزّجاج، ونقله عنه ابن منظور في لسان العرب والزبيدي في تاج العروس وغيرهما، وانظر: الواحدي، التفسير البسيط: 12/539، والزمخشري، الكشاف: 2/570، وابن المنير، الانتصاف، حاشية على تفسير الكشاف: 2/569، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/523، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/117، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/11.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/167، والعكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/776.

(3) الراغب، المفردات: (رب)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/64.

نكتة التّعبير بـ﴿يَوَدُّ﴾ في ثنايا الآية الكريمة:

بيان ندامة الكافرين على عدم دخولِهم في الإسلام عندَ ظهور الحقيقة

أفاد التعبيرُ بالودِّ، واقترانُ الودِّ بـ ﴿لَوۡ﴾ تولُّدَ معنى التَّمنّي مجازًا، ولمّا كان التَّمنّي هو طلَبُ الأمْرِ المُمْتَنِعِ الحُصولِ أفادَ التَّعبيرُ تحسُّرَهم على عدم دخولِهم في الإسلام[1]، وبدلًا من أنْ يقول: (يتمنَّى) عُبِّرَ بالودِّ؛ للإيذانِ بشدَّة حبِّهم ورغبتِهم لأنْ يكونوا مسلمين عندَ ظهورِ الحقيقةِ، لِمَا تفيده ﴿لَوۡ﴾ من تقدير غير الواقع واقعًا، فأفاد هذا التركيب حبَّهم الشديد المشوب بالتمنّي لِما لا مَطْمَعَ لهم في أنْ يكونوا مسلمين، ودلَّت ودادتُهم التي بمعنى التَّمنّي على ندامتِهم وتحسُّرهم ولومِ أنفسِهم على عدم دخولِهم في الإسلامِ.

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع، في قولِه: ﴿يَوَدُّ﴾:

وعدُ القرآن ووعيده، واقعٌ لا مندوحة عنه

أفاد التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يَوَدُّ﴾ تجدُّدَ حدوث هذا الودِّ، فإنَّه لَمّا صحَّ مجيء الفعل المضارع بعد ﴿رُّبَمَا﴾؛ أفادَ تجدُّدَ حصولِ ودادتِهم واستمرارَها، كلَّما بانت حقيقة الإسلام عندَهم في الدُّنيا وفي الآخرة، وفيه إشعارٌ بظهور قوَّة الإسلام في المستقبل، ويَحْتَمِلُ أنْ يقال: إنَّ الأصل أنْ يأتيَ الماضي بعد ﴿رُّبَمَا﴾، فيكون مجيء المضارع على خلافِ مقتضى الظاهر، ونكتته؛ إمّا لتنزيل وعدِ القرآن ووعيدِه، وما كان فيه كأنَّه عَيانٌ وواقعٌ للقطع بتحقُّقه، فجرى الكلام فيما لم يكن منه كمجراه في المحقَّق الواقعِ، وإمّا لأجلِ حكايةِ حالِ الكافرين عندَ تمنّيهم أنْ لو كانوا مسلمين، وتصويرِها؛ لتوبيخِهم وللتَّنبيه على سوء عاقبتِهم، ويصلح أنْ يكون للأمرين معًا[2].

بلاغة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾، وصلته ﴿كَفَرُواْ﴾:

الكفر سبب الملامة، ومآل الحسرة والنَّدامة

أفاد التَّعبير بالاسم الموصول وصلته بيان سبب بناء الحكم، بمعنى أنَّ كُفرَهم عمومًا أو كفرَهم بالقرآنِ هو سبب ندامتِهم.

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 304.

(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/532، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/569.

سرّ حذفِ ظرف الزّمان، في سياق الآية:

قولِه: ﴿يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وفيه لم يُعيِّن وقتَ ودادتِهم لدخول الإسلامِ وندمِهم على كفرِهم؛ ليفيد العمومَ، فتشملُ تلك الوَدادةُ يومَ القيامةِ أو عند موتهم أو عند معاينةِ حالِهم وحال المسلمين عندَ الحسابِ من الجزاء والثَّواب، أو عند رؤيتهم خروجَ عصاةِ المسلمين من النار، وبالجملةِ فهذه الودادة تكونُ في كلِّ الأحوالِ الَّتي تخطرُ بالبالِ، وتُظهر بطلانَ ما كانوا فيه مِن خلاف الإسلام وانكشاف الأمر لهم، وفيه إشعارٌ بأنَّ الذي منعهم عن الإسلام فوتُ شيء من الدُّنيا، وذهابُ شيء قد طمعوا فيه كما سيأتي[1].

تمنّي الكافر لو كانَ مسلمًا، عندَ فوات الأوان، لا يغني عنه شيئا

نكتة حذف متعلّق الفعل، في قوله: ﴿كَفَرُواْ﴾:

لَمّا تقدَّم في الآية السابقة ذكرُ الكتاب والقرآن؛ أَشْعَرَ أنَّ الكلامَ على تقدير: كفروا بالكتاب الذي هو من الكتبِ المنزَّلة، وكفروا بالقرآن الذي هو علمٌ على الكتابِ الذي نزلَ على رسوله ﷺ، وكفروا بأنَّه من عندِ الله، ونكتة الحذفِ بيان أنَّ الكفرَ صار كالوصفِ اللّازم لهم بكفرِهم المذكور، تعظيمًا لشأنِ الإيمانِ بالقرآن وتهويلًا من الكفرِ به، وتوبيخًا لهم على كفرِهم.

الكفرُ بالقرآن، من أشنع أنواعِ الكفر

مناسبة ورود الفعل ﴿كَانُواْ﴾ بصيغة الماضي:

عُبِّرَ بالكون الماضي لِلدَّلالَةِ عَلَى أَنَّهُمْ يَوَدّونَ الإِسْلامَ بَعْدَ مُضيِّ وقْتٍ كافٍ للتمكُّن من الدخولِ فيه، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّهم إذا راجعوا عقولَهم؛ أنكروا كفرَهم، وتمنَّوا أنْ لو كانوا مسلمين من أوَّل أمرِهم[2].

القرآن يحثُّ على مراجعةِ العقل، والتَّأنّي قبل إظهارِ الكفرِ

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿مُسۡلِمِينَ﴾ في السّياق المبين:

لم يَقُلْ: لو كانوا (مؤمنين)؛ للإشعار بأنَّهم تمنَّوا أنْ لو كانوا

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/420، والواحدي، التفسير البسيط: 12/538، والسمعاني، تفسير السمعاني: 3/128، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/64، والشوكاني، فتح القدير: 3/146.
(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/252، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/11.

مُنْقادِينَ لجميعِ أحكامِ اللّه، ومُذْعِنِينَ لكلِّ أوامرِه، وليس في أمرِ الإيمانِ والتَّصديقِ فقط، وفيه إيذانٌ بأنَّ كفرَهم بالقرآنِ، وبأنَّه من عندِ اللّه إنَّما كان بالجحود بعد ما علموا كونَه من عند اللّه تعالى[1].

الكفرُ بالقرآن، جحودٌ للحقِّ الظّاهر الباهر

سبب إيثار التَّعبير بصيغة الغيبة ﴿لَوۡ كَانُواْ﴾:

قوله: ﴿لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، وفيه جيء بالعبارة على لفظ الغَيْبَةِ، فلم يَقُلْ: (لو كنّا مسلمين)؛ لأنَّهم مخبرٌ عنهم[2]؛ ليفيد أنَّهم مهمَلون، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ - كما سيأتي - وليكون السّياق على نسقٍ واحدٍ في الخطابِ بصيغة الغَيْبَةِ.

الكافرُ مهمَل حقير، لا وزنَ له عندَ العليم القدير

بلاغة الخبر، في سياق الآية الأغرّ: بمعنى:

قوله: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾، هذه الجملة وإنْ كانت خبريَّةً؛ لتفيد ندمَ الّذين كفروا وحسرتَهم، على عدم دخولِهم في الإسلامِ؛ لكنَّها تتضمَّن تهديدًا وتهويلًا للكافرين الّذين لا يتَّبعون دين الإسلام[3]، بما يظهر لهم في المستقبل، من حقّيَّة الإسلام وصوابِه، ولكن بعدَ فواتِ الأوانِ.

حقّيَّة الإسلام، تظهر شيئًا فشيئًا، بعدَ زمنِ نزولِ القرآن

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/64.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/570، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/206.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/10.

﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٣﴾

[الحجر: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

توبيخُ الذين يُصِرّونَ على عنادِهم في الكفر، بعد حصول النّدم لمن يكفر

لَمّا طرق لهم سبحانه الاحتمال؛ كان كأنَّه قيل: هل جوَّزوه، فأخذوا في الاستعداد له؟ فقيل: لا، بل استمروا على عنادهم، فقال مستأنفًا مبيِّنًا المانع لهم من الإذعان: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ذَرۡهُمۡ﴾: أصلُ الفِعْل (ذَرْ) التَّركُ، يُقال: فلان يَذَرُ الشَّيءَ، أيْ: يتركه لقلَّة اعتداده به، والعَرَب قد أماتَتِ المصدرَ مِنْ يَذَرَ والفِعل الماضي، واسْتَعْمَلَتْهُ في الحاضر والأمر، فإذا أرادوا المصدرَ؛ قالوا: ذَرْه تَرْكًا، أي: اتْرُكْهُ[1]. وقيل: أصلُ ذلك من القَذْفِ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ [الأنعام: 91]، أي: اقذفهم، وألقِهم، واتركهم، فلا اعتِدادَ لهم ولا مُبالاة بهم[2]، ومن ذلك الوذرَةُ: وهي قطعة لحمٍ صغيرةٍ؛ سُمّيت بذلك لِقلَّة الاعتداد بها[3]، والمقصود بـ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ في الآية: اتْرُكهم، والأمرُ بتركِهم مُستعمَلٌ في لازمِه، وهو قِلَّةُ جَدوى الحِرْصِ على إصلاحِهم[4].

2) ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾: أصلُ المَتْع: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمْتَعُ مَتْعًا، أيْ: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[5]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ

(1) الخليل، العين، والزبيدي، تاج العروس: (وذر).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (وذر).
(3) الراغب، المفردات: (وذر).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/13.
(5) الراغب، المفردات: (متع).

الجَوْدَةِ[1]، والمتعةُ: المَنْفَعَةُ، والاستِمْتاعُ: الانْتِفاعُ[2]، تقولُ: تَمَتَّعْتُ بِكذا، واسْتَمْتَعْتُ بِهِ؛ إذا انْتَفَعْتُ بِهِ، والإمْتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلُّ شَيْءٍ يُنتفَع بِهِ، ويُتبلَّغ بِهِ، ويتزوَّد؛ والفناءُ يَأْتي عليه في الدُّنيا، والجَمْعُ: أَمْتِعَةٌ[3]. والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: الانْتِفاعُ بالمَتاعِ القَصيرِ زَمَنُهُ.

3) ﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾: يدور معنى اللهو على شُغْلٍ عن شَيْءٍ بِشَيْءٍ، واللهوُ: هو كُلُّ شَيْءٍ شَغَلَكَ عن شَيْءٍ، فَقَدْ ألهاكَ، ولَهَوْتُ مِنَ اللهوِ، ولَهيتُ عنِ الشَّيْءِ؛ إذا تركته لغَيرِه، ويُعبَّر باللهو عن كلِّ ما بِهِ استمتاع، قالَ تعالى: ﴿لَوۡ أَرَدۡنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهۡوٗا﴾ [الأنبياء: 17]، ومَنْ قالَ: أراد باللهو المرأةَ والولدَ؛ فتخصيصٌ لبَعضِ ما هو مِن زينَةِ الحياة الدُّنيا الَّتي جُعِلتْ لهوًا ولعبًا، ويُقالُ: ألهاهُ كذا، أيْ: شغلَهُ عمّا هو أهمُّ إليه[4]. وإلهاءُ الأمَلِ في الآيةِ مقصودٌ بهِ: إنْساؤُهُ إيّاهُم ما حَقُّهُم أنْ يَتذكَّروهُ بِأنْ يَصرِفَهُم تَطَلُّبُ ما لا يَنالونَ عن التَّفكيرِ في البَعْثِ والحياةِ الآخرة[5].

4) ﴿ٱلۡأَمَلُۖ﴾: أصلُ (أمل): يدلُّ على التَّثَبُّتِ والانْتِظارِ[6]، يُقالُ: أَمَلَ خَيْرَه يَأْمُلُه أملًا، وما أطولَ إمْلَته! مِنَ الأمَلِ، أيْ: أمَله، وإنَّه لَطويلُ الإمْلَة، أيْ: التَّأْميل، والأمَلُ: هو ظَنُّ حُصولِ أمرٍ مَرغوبٍ في حُصولِهِ مع استِبعادِ حُصولِه، وهو واسطةٌ بيْنَ الرَّجاءِ والطَّمَعِ[7]، وهو المرادُ هنا في الآية.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الّذين يتمتعون ويأكلون ويلههم الأمل بالدّنيا، سوف يعلمون إذا عاينوا سوء الجزاء.

أمَرَ الحقُّ ﷻ الرَّسولَ ﷺ بأنْ يذرهم في طغيانهم يعمهون، بعد أنْ ثبَت أنَّهم قومٌ لا ينفع فيهم إنذارٌ، فقال: اترك - أيُّها الرسول ﷺ - الكفار يأكلوا، ويستمتعوا بدنياهم وبشهواتِهم، ويشغلهم الطَّمع فيها عن طاعة اللّٰه وتزوُّدهم لمعادِهم، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم الخاسرة في الدنيا والآخرة[8].

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).
(2) أبو موسى المديني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (لهو).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/14.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/14.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 17/65، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص، 262.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة المجاز بالأمر في قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾:

أمر الرّسول بترك نصح القومِ، دليلٌ على هلاكِهم الوشيك

أفاد الأمرُ في قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ معنى الوعيد والتّهديد[1]، وأشعرَ الوعيدُ بهلاكِهم إنْ ترك رسولُ الله دعوتَهم ونصيحتَهم، ولم يبالِ بهم.

نكتة حذفِ متعلّق الفعل ﴿ذَرۡهُمۡ﴾:

تركُ الاشتغال بدعوة من لا رجاءَ في صلاحِه

لَمّا كان الأصل في الفعل ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ أنْ يكون متعدّيًا إلى مفعولين، وقَدْ جاء محذوف المتعلّق؛ دلَّ على أنَّ الفِعْلَ نُزِّلَ مَنْزِلَةَ ما لا يَحْتاجُ إلَى مُتَعَلِّقٍ، إذِ المَعْنيُّ بِهِ تَرْكُ الاشْتِغالِ بِهِمْ والبُعْدُ عَنْهُمْ، فَلِذَلِكَ عُدّيَ فِعْلُ التَّرْكِ إلَى ذَواتِهِمْ؛ لِيَدُلَّ عَلَى اليَأْسِ منهم ومن صلاحِهم[2].

بلاغة الطّلبِ وجوابه، في سياق الآية:

إيثارُ التَّلَذُّذِ والتَّنَعُّمِ، لَيْسَ مِنْ أخلاقِ المؤمنين

قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾، وفيه لَمّا جاء الطلبُ بصيغة الأمرِ بتركِهم في قولِه: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ وكانت الأفعال الثلاثة في مقام الجوابِ والجزاء، ولَمّا كان الظّاهر أنّه لا يترتَّب على الأمر بِتَرْكِ نَصيحَتِهِمْ، وشَغْلِ بالِهِ بِهِمْ الجواب والجزاء؛ لِأنَّهُمْ يَأْكُلونَ، ويَتَمَتَّعونَ سَواءٌ تَرَكَ نَصيحَتَهُمْ، أمْ لَمْ يَتْرُكْها؛ أفادَ أنَّ الأمرَ بقولِه: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ لَيْسَ مُسْتَعْمَلًا في الإذْنِ بِمُتارَكَتِهِمْ؛ لِأنَّ النَّبيَّ ﷺ مَأْمورٌ بِالدَّوامِ عَلَى دُعائِهِمْ، ويكون المرادُ مِنَ الأمرِ لازمه، وهو قِلَّةُ جَدْوَى الحِرْصِ على إصلاحِهم، والمعنى: لا جدوى من دعائهم، فهم لَيْسوا مِمَّنْ يَرْعَوي عَنْ ما هو فيه مِنَ الكُفْرِ والتَّكْذيبِ، ولا مِمَّنْ تَنْفَعُهُ النَّصيحَةُ والتَّذْكيرُ، لتفيدَ صيغة المضارع دوامَهم على ذلك

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/420، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/350، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/465، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/146.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/13.

واستمرارَهم عليه لا إحداثَه، والمعنى: ليس لهم شأنٌ في حياتِهم إنْ تَرَكْتَهُمْ سوى حصولِ هذه الأفعالِ الثلاثة منهم، فيكون الجزم في الأفعال الثلاثة بلامٍ محذوفة، بتقدير: ليأكلوا، وليتمتَّعوا، وليلههم الأمل، والأمْر في ﴿ذَرۡهُمۡ﴾ على المجاز للتَّهديد والتَّوبيخ والتَّوعُّدِ والإنْذارِ، ويَحْتَمِلُ أنْ تكون الأفعال الثلاثة جوابًا وجزاءً لفعل الطَّلبِ على سبيلِ التَّوبيخ والتَّبكيت، فإنَّه لّما كانت نصيحةُ رسولِ اللّه لهم بما يتلوه عليهم من القرآن تُنَغِّصُ عليهم عيشتَهم، وتُشَوِّشُ عليهم مُتَعَهُمْ بنهيهم عن المنكراتِ وتذكيرِهم بعذاب الآخرة؛ أُمِرَ ﷺ بتركهم، والتقدير: ذرهم فإنْ تركتهم؛ تهنَّوا بأكلِهم، وتمتُّعهم، وألهاهم الأمل، وفي الكلامِ على الوجهين من التَّهديد والزَّجر ما لا يُقادَرُ قدْرُه(1).

بلاغة التَّعريض في سياق الآية البليغ:

حياةُ الأكلِ والشُّرب والانغماسِ في الملذّات، مذمومةٌ مستقبحة

قوله: ﴿يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾، وقد ورد في الأفعال الثّلاثة تعريضٌ للكافرين، بأنَّ حياتَهم إنَّما هي حياة أكلٍ وشربٍ، والمعنى: هم منغمسون فيما يتعيَّرون به في أعمالهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [مُحَمَّد: 12](2).

مناسبة التَّرتيب بين أفعال الأكل، والتّمتّع، ولهو الأمل:

تمتُّع الكافرين من قبيل تمتُّع البهائم، بالمأكلِ والمشرَبِ

لّما كانت الأفعال الثّلاثة مجزومةً على سبيل الجواب للفعل ﴿ذَرۡهُمۡ﴾، وجاءت معطوفةً؛ كانَ العطف هنا على سبيل الترتُّب، بمعنى: أنَّ الأكلَ الذي كان كالشأنِ الذي يعيشون له يُفْضِي إلى تمتُّعهم، وتمتُّعهم يُفْضِي إلى أنْ يُلهيَهُم الأملُ، ففي تقديم الأكلِ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/465، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/119، والشّوكاني، فتح القدير: 3/146، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/13.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/12.

على التَّمتُّع إيذانٌ بأنَّ تمتُّعَهم إنَّما هو من قبيل تمتُّع البهائم بالمآكل والمشارب(1).

دلالة قوله: ﴿يَأۡكُلُواْ﴾، في سياق الآية:

المؤمن دأبه أن يأكل ليعيش، لا أن يعيش ليأكل

لَمّا كان الأكل من المباحات، وممّا يُستعان به على المعيشة والحياة، وكان قوله: ﴿يَأۡكُلُواْ﴾ قد جاء هنا على سبيل الذَّمِّ والتَّوبيخ لمجيئه في سياق الدعوة إلى تركِهم، أفاد أنَّ المرادَ أنْ يأكلوا أكْلًا مقصودًا لذاتِ اللذَّة فقط، بأنْ يكونوا مشغولين بشهوةِ الأكلِ ولذَّتِه مُعْرِضِينَ عن دعوة رسولِ اللّه ﷺ لهم إلى الإيمانِ والعملِ للآخرة والاستعدادِ للمعادِ(2).

نكتة التّعبير بلفظ ﴿وَيَتَمَتَّعُواْ﴾:

كـثرةُ التّمتُّع والتَّلذُّذ، تشغلُ عن الواجباتِ وعظائم الأمور

أفاد التّعبير بصيغة (يتفعَّل) أنَّهم يطلبون التمتُّعَ والتَّلذُّذَ عن طريق الانتفاعِ بالمتاعِ حالًا بعد حالٍ، ويكثرون منه، بدلًا من الانشغال بالإيمانِ والعملِ الصّالح، ومثلُه لفظ (التقرُّب) في أنَّه بمعنى طَلَبِ القرب حالًا بعد حال(3).

براعة التَّعبير في جملة: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾:

الأمَلُ يُكْسِلُ عَنِ العَمَلِ، ويورثُ التَّراخيَ والتَّوانيَ

لَمّا كان اللهوُ هو ما يَشْغَلُ الإنسان عمّا يعنيه ويهمُّه، أو عمّا هو أهمُّ إليه بأنْ يُعْرِضَ عنه(4)، وكان الأملُ هنا هو شيء مرغوبٌ يُرجَى تحصيله في المستقبل من أمورِ الدُّنيا؛ أَشْعَرَ التَّعبيرُ أنَّ الأمل أشغلهم عمّا يُهمُّهم من الإيمانِ باللّه ورسولِه والعملِ الصّالح، بحيث أعرضوا عنه رغبةً منهم في ما أمَّلوهُ من غيره حتَّى انغمسوا فيه دونَ فائدةٍ ترجى منه، ولّما كان الأملُ معنى عامًّا يشمل كلَّ أمرٍ مرغوبٍ يُرْجَى تحصيلُه كما تقدَّم؛ أفاد أنَّ المعنى: ﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾ طولُ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/64 - 65.
(2) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 12/7640.
(3) السّمعانيّ، تفسير السّمعانيّ: 3/129، وأبو حيّان، البحر المحيط: 11/15.
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (لهو).

الأعمارِ وبلوغ الأوطار واستقامة الأحوال، وألّا يَلْقَوا في العاقبة والمآل إلّا خيرًا إلى أنْ يفوتَ الأوان، ولاتَ ساعةَ مندمٍ[1].

سبب إيثار حذف متعلّق الفعل ﴿وَيُلۡهِهِمُ﴾:

الانشغال بالأمل، يلهي عن الإيمان وأعمالِ المبرّة

لَمّا حُذِفَ متعلِّقُ الفعل؛ دلَّ على عموم إلهاء الأمل لهم، والمعنى: ويلهِهم الأملُ عن اتِّباعك - يا رسولَ اللّه - وعن التفكُّر فيما هم يصيرون إليه، وعن الإيمان والطاعة، وغيرها من أمورِ الخير والصَّلاح[2].

فائدة تقديم المفعول الضّمير، على الفاعل الظّاهر:

تأكيد إلهاء الأمل للكافرين وانشغالهم به

قولُه: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾، فيه تقدُّم المفعول به على الفاعل، مع أنَّه واجب التَّقديم هنا، لكنَّه لا يخلو من فائدة، وهي تأكيد إلهاء الأمل لهم، وفيه قَصْرٌ إضافيٌّ، فكأنَّ الأملَ لم يلهِ أحدًا سواهم، ففيه توبيخ لهم.

بلاغة المجاز العقلّي، في جعل الأمل يلهي:

الانشغال بالأمل، يؤدّي إلى تحكُّمه في الإنسانِ

في قولِه: ﴿وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾، لَمّا كان الأمل أمرًا معنويًّا، وكان أصل الكلام: ألهاهم اللّه بالأمل؛ كان إسنادُ اللهوِ إلى الأملِ؛ ليكون هو الفاعل على سبيل المجاز العقلي؛ لإفادة تحكُّم الأملِ فيهم لإثبات الأمرِ بالحجَّة، وللإشعارِ بالمبالغة في سَبَبِيَّةِ الأمل في انشغالِهم بما لا نفعَ فيه ولا جدوى منه حتَّى صارَ الأملُ كأنَّه هو الفاعل في إلهائهم[3].

دلالة الفاء في قولِه: ﴿فَسَوۡفَ﴾ في السّياق:

تَرَتُّبُ الوعيد على الوعيد، إشعارٌ بِعِظَمِ الوعيد

أفادت الفاء تَرَتُّبَ الوعيد في قولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ على انشغالِهم بالأكلِ والتمتُّع وإلهاء الأمل لهم، ولَمّا كان قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ﴾ على معنى الوعيد والتَّهديد؛ أفادت

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.
(3) العصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 1/277.

الفاء تَرَتُّبَ الوعيد على الوعيد، وأنَّ الوعيد في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ أشدُّ وأعظمُ؛ لأنَّه جاء على سبيل التَّرقي.

دلالة التَّعبير بلفظ (سَوۡفَ) في السّياق:

الوعيد يشمل كلَّ الأزمنة المستقبلة الممكنة

أفاد التَّعبير بالحرف (سَوۡفَ) أنَّ الزمن الذي سيعلمون فيه وبالَ عملِهم وأملِهم متراخٍ قليلًا، وليشمل التَّعبير كلَّ الأزمنةِ المستقبلة، وهو المُناسِبُ لأسلوب التَّهديد الذي يدلُّ عليه التَّركيب، لِيُشْعِرَ بهولِ الأمر عليهم في كلِّ زمنٍ مستقبلٍ، فيعيشون في رعبٍ وخوفٍ بدلَ التَّلذُّذ والتَّمتُّع والانشغال بآمالِهم السعيدة، ولَمّا كان المهدَّد به عامًّا بدلالة حذف مفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾، كما سيأتي بيانه، وأنَّه سيقع في زمن متراخٍ قليلًا بحيث لا يستطيعون استدراك ما فات؛ كان التعبير بـ(سَوۡفَ) أشدَّ وأنكى في التهديد؛ إذ معرفة الحقِّ بعدَ فواتِ الأوانِ أشدُّ حسرةً وندامة من معرفته في وقتِه.

بلاغة المجاز الخبريّ في سياق الآية الكريمة:

التمتُّعُ وإلهاءُ الأملِ، دَليلُ الجهالةِ وقِصَرِ النّظرِ

قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، الخبر هنا على معنى الوعيدِ والتَّهديدِ، وتركيبُ ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ حينما يأتي في ذيل الكلامِ أسلوبٌ يُستعمل في التَّهديد كثيرًا حتَّى صارَ كالحقيقة فيه؛ ليكون تهديدًا إثرَ تهديدٍ، ووعيدًا بعدَ وعيدٍ، وفيه تعليلٌ للأمر بالترك في قوله: ﴿ذَرۡهُمۡ﴾؛ فإنَّ علمَهم ذلك علَّةٌ لتركِ النَّهي والنصيحةِ لهم[1]، وفي التَّعبير بـ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ إشعارٌ بأنَّهم كانوا على جهالةٍ في حالِ انشغالِهم بأكلِهم وبتمتُّعهم وبإلهاء الأملِ لهم.

مناسبة حذف متعلّق الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾:

من أوعدته القدرة، علم من مصيره ما لا يسرّه

لَمّا كان الخبر على معنى التَّهديد والوعيد؛ جاء الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/350، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/465، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.

محذوفَ المفعولين؛ ليفيد التَّهويلَ بشأنِ ما سيعلمونَه، وأنَّه سيكونُ وبالًا عليهم.

فائدة حذف ظرف الزَّمان، في قوله: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾:

معرفة الحقِّ بعدَ فواتِ الأوانِ، حسرةٌ وندامةٌ في كلّ زمان

لَمّا كان الخبر على معنى التَّهديد والوعيد؛ كان إبهامُ تعيين وقت الوعيد يفيد الإبلاغَ في الوعيدِ وتهويلَه وتعظيمَه، والمعنى: فسوف يعلمون الحقَّ في الدنيا بعدَ فواتِ الأوانِ، وأنَّهم كانوا على الباطل، ولم يتبعوا الحقَّ، ففيه تنديمٌ وتحسيرٌ لهم، أو: فسوف يعلمونَ؛ إذا وردوا القيامة وبالَ ما صنعوا[1]، أو: فسوف يعلمونَ ذلك في الدُّنيا، وسوف يعلمونَ ذلك في الآخرة؛ ليحصل لهم النّدم والحسرة في الدّارين.

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/540، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/350.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ٤﴾ [الحجر: 4]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط بين التّعريض بالانشغال بالملذّات، وتأكيد أنّ الوعيد بالإهلاكِ لا يتخلّف

لمّا توعّدهُم بما يحِلُّ بهِم؛ أردف ذلك بما يُشعِرُ بهلاكِهم، وأنّهُ لا يُستبطأُ، فإنّ لهُ أجلًا لا يتعدّاهُ[1]، وأيضًا لمّا تَوَعَّدَهُمْ بقولِه: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، وكان من أبرز صفاتهم الاستعجال بالعذاب تكذيبًا واستهزاء، فكأنَّ أولئك الكَفَرَة قد سألوا الاستعجال بالعذاب، فجاءت هذه الآيةُ جوابًا لهم؛ لِيُفِيدَ أنَّ لهم أجلًا في إهلاكِهم بكتاب معلوم مؤقَّتٍ لا بُدَّ من بلوغهم له[2]، كما حدث مع الأمم السابقة قبلهم، وقد رأوا بعض ذلك، أو سمعوه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾: أصلُ الهَلاكِ يَدُلُّ على كَسْرٍ وسُقوطٍ[3]، يُقالُ: هَلَكَ الشَّيْءُ هَلاكًا وهُلوكًا ومَهْلِكًا؛ إذا ماتَ، أو فَنِيَ، فهو هالِكٌ[4]، والإِهْلاكُ: إعْدامُ ذاتِ المَوْجودِ وإفناؤُهُ وإماتَةُ الحَيِّ[5]، والتَّهْلُكَةُ: كلُّ شيءٍ يَصيرُ عاقِبَتُهُ إلى الهَلاكِ[6]، وتُطلَقُ أيضًا على فَقْدِ الشَّيْءِ مع وُجودِهِ مع غَيْرِهِ، ومَصيرِ الشَّيْءِ إلى حيث لا يُدْرَى أيْنَ هو[7]. والمقصود بالإهلاك في الآية: الاستئصال والإفناءُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كُلُّ مَن ماتَ أو قُتِلَ، إنَّما ماتَ بالقضاء والأجل

قرَّر اللّه تعالى أنَّ هلاكَ الأُمم الظّالمة، موقوتٌ بوقت محدد في

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/466.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/421، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/17.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هلك).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (هلك)، والهرويّ، الغريبين في القرآن والحديث: 6/1935.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8 - أ/82.
(6) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (هلك).
(7) المطرزيّ، المعرب: (هلك).

علمه، وأنَّ سُنَّتَهُ في ذلك ماضيةٌ لا تتخلَّف، فقال: وما أَهْلَكْنا يا رسول اللّه ﷺ مِنْ أهْلِ قَرْيَةٍ مِن القُرى الَّتي أهلكنا أهلَها فيما مضى إلّا وكان لهلاكِهم زمنٌ محدَّدٌ مكتوبٌ في اللَّوحِ المحفوظِ، فلا نُهلِكُهم حتى يَبلُغوه، فإذا بَلغوهُ؛ أهلكناهم[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الجملة الخبريّة، في فهم السّياق المحكم:

التَّحذير من التَّمتع بالحياة الدّنيا، والإعراضِ عن الآخرة

في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾، أنّه لَمّا كانت الآيةُ السّابقةُ على معنى الوعيد والتَّهديد - كما تقدَّم - أفادت الجملة الخبريَّة هنا تأكيد الوعيد؛ لِيُفيدَ هذا التَّأكيدُ تقريرَ الزَّجرِ والتَّحذيرَ[2] من عاقبة سوء مرتكبِهم بإعراضهم عن الإيمانِ وانشغالِهم بالأكل والتَّمتُّع بالحياة الدُّنيا عن الآخرة.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا﴾:

الأممُ الكافرة مُمَتَّعَةٌ قَبلَ العذابِ، مَأْخوذَةٌ به عِنْدَ وقوعِه

قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾، هذه الواو اعتراضيَّةٌ، والجملة اعْتِراضٌ تَذْييليٌّ؛ لِأَنَّ في هَذِهِ الجُمْلَةِ حُكْمًا يَشْمَلُهُمْ، وهوَ حُكْمُ إمْهالِ الأُمَمِ الَّتي حَقَّ عَلَيْها الهَلاكُ، أيْ: ما أَهْلَكْنا أُمَّةً إلّا وقَدْ مَتَّعْناها زَمَنًا، وكانَ لِهَلاكِها أجَلٌ ووَقْتٌ مَحْدودٌ، فَهيَ مُمَتَّعَةٌ قَبْلَ حُلولِهِ، وهيَ مَأْخوذَةٌ عِنْدَ حلوله[3].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

موتُ الكافرِ، نوعٌ من الإهلاكِ له بالعذاب

لَمّا كان الكلامُ في سياق المؤاخذة على الإعراض عن الإيمان وعن دعوة الرَّسول ﷺ؛ أفاد أنَّ المرادَ من الإهلاك العذابُ والإفناءُ بسوء العملِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يدخل فيه الإهلاكُ بالموت؛ لأنَّه لَمّا حذف المصدر المبيِّن لنوعِ الإهلاك، فلم يَقُلْ ما معناه: (وما أهلكنا من قريةٍ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/14، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/3.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/119.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/14.

إهلاكَ عذابٍ)؛ دلَّ على عموم الإهلاكِ، فيكون المرادُ من الهَلاكِ مَجْموعَ الأمْرَيْنِ: نُزولَ عَذابِ الاِسْتِئْصالِ ونُزولَ المَوْتِ؛ لِأنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما يُشارِكُ الآخَرَ في كَوْنِهِ هَلاكًا، فَوَجَبَ حَمْلُ اللَّفْظِ عَلَى القَدْرِ المُشْتَرَكِ الَّذي يَدْخُلُ فيهِ القِسْمانِ مَعًا، والمعنى: وما أهلكنا من قرية إهلاكَ تعذيب أو إهلاكَ موتٍ[1].

التَّعبير بضمير الجمع (نا)، في: ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

لِيُفِيدَ تَعْظِيمَ العذابِ وتَفْخِيمَهُ بما يدلُّ عليه الضَّمير من تعظيم الملك الواحدِ الأحدِ[2]. فإهلاكُ اللّه للأمم الكافرة، يقينٌ بأنْ سيفعلُ بها فاقرة.

مناسبة التَّعبير بصيغة الماضي ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾:

القياسُ على إهلاكِ الماضين، أشدُّ تهديدًا لِلمستهزئين بالعذاب المهين

لم يَقُلْ: (وما نهلك من قريةٍ)، بل جاء بصيغة الماضي لإفادة تحقُّق وقوع الإهلاكِ بالوقتِ المعلوم الثابتِ عندَه تعالى؛ لأنَّ الآيةَ لّما كانت على معنى التَّهديد والوعيد للقوم الكافرين وقتَ نزول القرآن إلى قيام السّاعة من أنَّهم إنْ كفروا، وأعرضوا عن القرآن، فسيصيبهم ما أَصاب الذين أهلكناهم في القدرِ المحدَّد لهم، كان القياس على أمرٍ قد ثبتَ وقوعُه أشدَّ تهديدًا ووعيدًا للمخاطَبين المستبطئين العذابَ، المستهزئين به، وأثبتَ حجَّةً عليهم، وأبلغَ عبرةً لهم.

دلالة مجيء ﴿مِن﴾ في قولِه: ﴿مِن قَرۡيَةٍ﴾:

تأكيد حكم الاستغراق بحرف الجرِّ (مِنْ)

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ النصَّ على استغراقِ عموم أجناس القرى، وعموم الأفراد في كلِّ القرى؛ ليشملَ الحكمُ كلَّ ما يطلقُ عليه قريةٌ، كما أفادَ تأكيد الحكم، والمعنى: وما أهلكنا أيَّ قريةٍ من القرى[3].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/421، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/17.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿قَرۡيَةٍ﴾ في السّياق:

إهلاكُ القرى باستئصال النّاس ومساكنِهم، من عذاب الله العادل

لَمّا كانت القرية اسمًا للسُّكّانِ في مسكن مجتمع، أو اسمًا للموضع الذي يجتمع فيه النّاس؛[1] دلَّ على أنَّ الإهلاكَ يقع على الموضع، وعلى النّاس الذين يسكنون فيه؛ للإشعارِ بالاستئصال وعِظَم إهلاكِ اللّه تعالى.

دلالة الواو في جملة: ﴿وَلَهَا كِتَابٞ﴾:

توقيت إهلاك القرى سابقٌ على زمنِ وقوعِه

تَحْتَمِلُ الواو أنْ تكون حاليَّة، وتكون الجملة الاسمية ﴿وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ حالًا من ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وسوَّغ مجيء الحال من النَّكرة وقوعها في سياق النَّفي لدلالتِها على العموم، ونكتة مجيء واو الحال هنا: أنَّها أفادت أنَّ الحالةَ التي بعدها في اللفظ هي في الزمنِ قبل الحالةِ التي قبل الواوِ، بمعنى: أنَّها دلَّت على أنَّ الأجل المعلوم مقرَّرٌ مؤقَّتٌ سابقٌ تقديره على زمن نزولِ الإهلاك، مستمرٌّ إلى وقوعِ الهلاكِ، وأجاز الزَّمخشري وغيرُه أنْ تكون الواو داخلةً بين الصفة والموصوف متوسِّطةً بينهما؛ لتأكيد لصوقِها بالموصوف وتقويتِه، فتكون الجملة الاسمية ﴿وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ صفة لـ﴿قَرۡيَةٍ﴾، وساغ دخول الواو لَمّا كانت صورة الجملة هاهنا كصورتها؛ إذا كانت حالًا، فتكون الآيةُ مفيدةً الحصرَ مع التَّأكيد[2].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿كِتَابٞ﴾:

الأجل المحدود عندَ الله ثابتٌ، لا يقبل الزّيادة والنَّقص

لَمّا كان الكِتابُ في الآية بمعنى الأجل المكتوب، في كتاب المَحْدودِ عِنْدَ اللّه؛ كان التَّعبير به على طريق الاستعارة التّصريحيَّة، بتشبيه الأجل المحدود بِالكِتاب، في أنَّهُ لا يَقْبَلُ الزّيادَةَ والنَّقْصَ في الوقتِ وفي نوعِ الإهلاكِ، وفيما يصيبُهم بالإهلاك، وفي أنّه ثابتٌ مقرَّر[3].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قري).

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/570، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/350، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/206، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/466، والسّمين الحلبيّ، الدّر المصون: 7/143.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

لا ينبغي للعاقل أنْ يغترَّ بالإمهال، فالله يمهل ولا يهمل

دلالة الكِتاب المَعلومِ في سياق الآية:

أفادت الجملة الحالية أو جملة الوصف - على التَّوجيهين - أنَّ تقديم الإهلاكِ وتأخيرَه إنَّما يقع على وفقِ الكتاب المعلوم المحدَّد، فآذنَ الكلامُ أنَّ الَّذينَ تَقَدَّموا في الإهلاكِ كانَ وقْتُ هَلاكِهِمْ في الكِتابِ مُعَجَّلًا، والَّذينَ تَأخَّروا كانَ وقْتُ هَلاكِهِمْ في الكِتابِ مُؤَخَّرًا، ففيه تهديدٌ وزجرٌ للنَّاس عن استبطاء الإهلاكِ والغفلةِ والرُّكون إلى الدنيا، فلكلِّ أجلٍ كتابٌ(1).

المبالغة في إهلاكِ القرى الكافرة؛ ليكون على جهة الاستيعابِ

دلالة الضّمير في قوله: ﴿وَلَهَا﴾:

لَمَّا كان قوله: ﴿كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾ يفيد أنَّ زمن وقوع إهلاكِ أيِّ قريةٍ مكتوبٌ معلومٌ، ولَمّا كان الظّاهرَ عودُ الضَّمير في ﴿وَلَهَا﴾ إلى ﴿قَرۡيَةٍ﴾؛ كان تقديرُ الكلامِ: إلّا وللقرية كتاب معلومٌ في الإهلاكِ، ففيه مبالغة في الإهلاكِ على جهةِ الاستيعاب بنسبة الكتاب المعلوم إلى القرية، كما أجاز بعضُ المفسِّرين أنْ يكون الضَّميرُ عائدًا إلى القرية مع حذف مصدرٍ مضافٍ مفهوم من الفعل ﴿أَهۡلَكۡنَا﴾، والتقدير: إلّا ولإهلاكِ القرية كتابٌ معلومٌ.

الأجل المعلوم لا يُنسَى، ولا يُغفلُ عنه، وما منه مفرّ

دلالة صفة الأجل في قوله: ﴿مَّعۡلُومٌ﴾:

لَمّا كان الكتاب بمعنى المكتوبِ في اللوح المحفوظ، لِيُفِيدَ أنَّه ثابتٌ ومعلومٌ عند اللّه تعالى؛ دلَّ مجيء الصِّفة المقيَّدة للموصوف النَّكرة، على دفعِ توهُّم أنَّه قد يُنْسَى أو يُغْفَلَ عنه، فقال: ﴿مَّعۡلُومٌ﴾، والمعنى مكتوبٌ مقدَّرٌ لا يُنسى، ولا يُغفل عنه حتى يُتصوَّرَ التخلفُ عنه بالتقدُّم والتأخُّر، كما أفادت الصِّفةُ تأكيدَ الموصوف وتقريرَه لِما يدلُّ عليه الموصوف من كونِ المكتوبِ معلومًا عندَ اللّه تعالى(2).

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/119.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/287، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/65.

دلالة الاستثناء:

تأكيدُ زمنِ وقوعِ الإهلاكِ بما ثبتَ في الكتاب المعلومِ

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ أفاد مجيء ﴿إِلَّا﴾ بعدَ الاسمِ النَّكرة في سياقِ النَّفي أنَّ الاستثناء من عمومِ الأحوالِ[1]، وتقدير الكلامِ: ما أهلكنا قريةً من القرى في أيِّ حالٍ من الأحوالِ إلا حالَ أنْ يكون لها كتابٌ، أيْ: أجلٌ موقَّتٌ لمَهلَكِها قد كتبناه، لا نُهلِكُها قبل بلوغِه، والكتابُ معلومٌ لا يُغفل عنه حتى يمكنَ مخالفتُه بالتقدُّم والتأخُّر، لِيُفيدَ الاستثناءُ من عموم الأحوالِ تأكيدَ زمنِ وقوعِ الإهلاكِ بما ثبتَ في الكتاب المعلومِ.

دلالة أسلوب الحصر بالنّفي والاستثناء:

الهلاك محصّلة تدلّ على ضلال السّعي، وفساد المسلك

لَمّا كان الذين يأكلون، ويتمتَّعون، ويشغلُهم الأمل عن اتِّباع رسولِ اللّه ﷺ، وما أنزلَ إليه في حكمِ من يعتقد أنّه لا يَنْزِلُ بهم العذاب، ولا يصيبهم الهلاك، وهم منكرون للوعيدِ، وكانوا في انشغالِهم باللذّات في حكم من يُصِرُّ على اعتقاده الخاطِئ، فجاء الكلام على طريق الحصر بـ (ما وإلّا) في قوله: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾ للإيذانِ بخطئهم فيما يستهزِئون به من وقوع العذاب بهم، وبأنَّهم مُصِرّونَ على الخطأ بسوء أعمالِهم وطولِ أملِهم في الدُّنيا[2].

توجيه المتشابه اللَّفظي:

المقامُ في سورة الحِجر يقتضي النَّسق بالواو، أو الحاليّة، ولكليهما معنى، يدعمه ويجلّيه

قال اللّه تعالى في سورة الحِجْر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ﴾، فجاء بالواو بعدَ ﴿إِلَّا﴾، وقال في موضعٍ آخر: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ [الشّعراء: 208]، من غيرِ واو، والسَّبب هو أنَّه لَمّا كانت الواو تفيد مزيد ربط واجتماع في الحال وفي الوصف على التَّقديرين في تأويل الجملة، أيْ: سواء قُدِّرَت الجملتان ﴿وَلَهَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

(2) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 294.

﴿كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾، و﴿لَهَا مُنذِرُونَ ٢٠٨﴾ [الشّعراء: 208] حالًا أو وصفًا؛ أفادَ أنَّ المقامَ في سورة الحِجر، يقتضي النَّسقَ بالواو، وذلك أنَّ قوله: ﴿وَلَهَا كِتَابٌ﴾ صفة لازمة للقرية، فإنَّ الكتْبَ في اللّوح وصف أزلي ثابتٌ، فناسب أنْ يكون في اللّفظ ما يدلُّ على تأكيدِ اللزوم واللُّصوق وهو الواو، وإذا كانت الواو حالية؛ فيناسبه أيضًا في سورة الحِجْرِ للإيذانِ بأنَّ جملة الحال التّي جاءت بعد الواو في اللّفظ هي في الزّمنِ قبل الحالةِ التّي قبل الواوِ كما تقدَّم قريبًا[1].

(1) النيّسابوريّ، غرائب القرآن: 5/286 - 287.

﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٥﴾ [الحجر: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين كون هلاك الأمم بقدر معلوم، وأنّ الأجل لا سبق فيه ولا تأخير

لَمّا بَيَّنَ اللّه سبحانه أنَّ الأمم المهلكة؛ كان لكل منهم وقت معيَّن لهلاكهم، وأنَّه لم يكن هَلاكُهُمْ إلّا حسبما كان مكتوبًا في اللَّوح المحفوظ؛ بَيَّنَ جلَّ شأنُه أنَّ كلَّ أمَّةٍ من الأمم منهم ومن غيرِهم لهم أجلٌ لا يمكن التَّقدُّم عليه ولا التأخر عنه، فجاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لَمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ﴾؛ بَيَّنَ فائدة التقدير والتَّحديد بأنَّه عدمُ المجاوزة بدءًا ونهايةً.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡبِقُ﴾: يدور معنى السَّبق على تقدُّم الشَّيءِ من بين ما حوله في قوة وجدٍّ، يُقالُ: سَبَقَ يَسْبِقُ سبقًا، والسَّبْقُ: التقدُّم في السَّير، وكلُّ شيءٍ تقدَّم؛ فقد سبق، فيأتي بمعنى الإفلاتِ أو المضيِّ في السَّير، ومعْنَى ﴿تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾: تَتَقَدَّمُهُ، وتَفوتُه، أيْ: تُعْدَمُ قبلَ حُلولِهِ[2].

2) ﴿أَجَلَهَا﴾: أصلُ الأجَلِ: غايَةُ الوقْتِ في مَحَلِّ الدَّيْنِ وغيرِه، ويُقالُ للمُدَّةِ المضروبة لحياة الإنسان أجَلٌ، فيُقال: دنا أجلُه، عبارة عن دنوِّ الموت[3]. وقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ٣٨﴾ [الرعد: 38]، أيْ: تَعْيينٌ وتَحديدٌ لا يَتَقَدَّمُهُ، ولا يَتأَخَّرُ عنه، وقَولُهُم: (أَجَلْ) في الجوابِ، هو مِنْ هذا البابِ، كأنَّهُ يُريدُ انتهَى، وبَلَغَ الغايَةَ[4]. والمقصودُ بالأجَلِ في الآية: الوقتُ الـموَقَّتُ بِهِ عَمَلٌ مَعْزومٌ أو مَوْعودٌ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/65.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سبق).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أجل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).

3) ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: أصلُ التَّأخير: فِعْلُ الشَّيْءِ آخرًا بَعْدَ أجَلِه، والتَّأخير: التَأجيل، يُقالُ: أخَّرَ الشَّيْءَ يُؤَخِّرُه، أيْ: أجَّلَهُ، وضِدُّ التَّأخيرِ: التَّقْديمُ والتَّعْجيل، ويُطْلَقُ التَّأْخيرُ أيْضًا بِمَعْنَى: تَفْويتِ الشَّيْءِ وتضييعه، يُقالُ: أخَّرَ سَفَرَهُ، أيْ: فَوَّتَهُ، ولَمْ يَأْتِ بِهِ في وقْتِه، والتَّأخُّرُ: التَّخَلُّفُ سواءٌ كانَ في المَكانِ أم الزَّمانِ، يُقالُ: تَأخَّرَ عَنْ عَمَلِه، أيْ: تَخَلَّفَ عَنْهُ، وتَأخَّرَ عَنْ مُنافِسِه؛ إذا جاءَ بَعْدَهُ في المَكانِ أو الزَّمانِ[1]. والمراد بالِاسْتِئْخارِ في الآية: المُبالَغَةُ في التَّأخُّرِ، فالسّينُ والتّاءُ للتَّأكيد[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

لا يغرَّنّهم تخلُّفُ العذاب عنهم، فإنّ أجَلهم آتٍ لا يسبقونه ولا يتأخّرون عنه

في الآية بيانُ مظهرٍ من مظاهر قُدرة اللّه تعالى وإحكامه لشؤون خلقه، وهو ألّا يتقدَّمَ هلاكُ أمَّةٍ قبلَ الوَقتِ الَّذي قدَّرَهُ اللّهُ لهلاكِها، ولا يستأخِرُ، فيتجاوَزُ الوقتَ المحدَّدَ له؛ بل الكلُّ نهلكه، ونُميته في الوقت الَّذي حدَّدناه بقدرتنا وحكمتنا[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سبب إيثار الفصلِ في الآية:

تقرير أنّ آجال الأمم، محدودة بـالـقـدر، فلا يقدّم ميقاته ولا يؤخّر

لم يُعطَفْ قولُه: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ على ما قبله؛ لكونه موضِّحًا ومبيِّنًا من حيث إنَّ إهلاكَ أيِّ قريةٍ لَمّا كان له كتاب معلوم محدَّد مؤقَّتٌ؛ أفاد أنَّهم لا يسبقون أجلهم، ولا يستأخرون، وفي الجملة معنى التَّأكيد والتَّقرير كذلك لِما قبلها، فناسب عدم العطف.

دلالة التّعبير بلفظ ﴿مَّا تَسْبِقُ﴾، وأثره في المعنى:

كلُّ مَن مات أوْ قُتِلَ فإنَّما ماتَ بِأجَلِهِ

لَمّا كان لفظ (سَبَقَ) إذا كانَ واقِعًا عَلَى شَخْصٍ؛ كانَ مَعْناهُ أنَّهُ جازَ، وخَلَّفَ، كَقَوْلِكَ: سَبَقَ زَيْدٌ عَمْرًا، أيْ: جازَهُ، وخَلَّفَهُ وراءَهُ،

(1) ابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أخر).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/14، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/3.

ومَعْناهُ: أنَّهُ قَصرَ عَنْهُ، وما بَلَغَهُ، وإذا كانَ واقِعًا عَلَى زَمانٍ؛ كانَ بالعَكْسِ في ذَلِكَ، كَقَوْلِكَ: سَبَقَ فُلانٌ عامَ كَذا، مَعْناهُ: مَضَى قَبْلَ إتْيانِه، ولَمْ يَبْلُغْهُ، فَقَوْلُهُ تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، مَعْناهُ: أنَّهُ لا يَحْصُلُ ذَلِكَ الأجَلُ قَبْلَ ذَلِكَ الوَقْتِ، فتهلك الأمَّةُ قبل بلوغ أجلِها، وما يستأخرون، أيْ: ما يتجاوزونه، ويتأخَّر الأجلُ عنهم، بَل إنَّما يَحْصُلُ في ذَلِكَ الوَقْتِ بِعَيْنِه[1].

بلاغة سوق الكلام، بنفي السّبق والاستئخار:

تخصيصُ كُلِّ أجلٍ بِوَقْتِهِ المُعَيَّنِ، إنَّما هو بتخصيصِ الإلهِ الواحدِ الأحدِ

لَمّا كان المرادُ إثباتَ وقوع أجلِ كلِّ أمَّةٍ في وقتِه المعيَّن؛ لم يأتِ بما يدلُّ على المعنى مباشرة، فجاء بنفي السبق والتأخير؛ ليؤذن بإثباتِ وقوعِ الأجل بعينه في الوقت المحدَّد له، وبدفع توهُّم أيِّ سبقٍ أو تأخير لأجَلِهم بما يدلُّ عليه ظاهر النَّفي وصريحه، فدَفْعُ التَّوهُّم لا يدلُّ عليه شيءٌ مثل أسلوب النَّفي، وللإشعارِ بأنَّ تخصيصَ كُلِّ أجلٍ بِوَقْتِهِ المُعَيَّنِ دونَ الوَقْتِ الَّذي قَبْلَهُ أوْ بَعْدَهُ إنَّما هو بتخصيصِ إلهٍ واحدٍ أحدٍ[2].

فائدة مجيء ﴿مِنۡ﴾، في قوله: ﴿مِنۡ أُمَّةٍ﴾:

تأكيد استحالة سبق أيِّ أمَّةٍ أجلها أو تأخيره

لَمّا كان حرف الجر ﴿مِنۡ﴾ يفيد النَّصَّ على استغراق الجنس؛ دلَّ على أنَّ لفظَ الأمَّة يشمل أفراد أمم القرى المهلكَة وغيرهم، كما أفاد الحرفُ تأكيد نفي السبق وتأخيره[3].

نكتة الإسناد إلى (الأمَّة) دون (القرية):

لا غلبة لأيِّ جمعٍ لأجله، مهما بلغت قوّته، وكثرت عدّته

قوله: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، أُسنِدَ الفعلان ﴿تَسۡبِقُ﴾، ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ إلى الأمَّة، بعد إسنادِ الإهلاك إلى القرية؛ لأنَّ السياق في بيان أنْ لا غلبة لأيِّ جمعٍ، وإنْ كان قويًّا بحيث يستطيع

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/542، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/120، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/541، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/466.

أنْ يسبق أجله، أو يَسۡتَأۡخِرَ عنه، فناسب مجيء لفظ ﴿أُمَّةٍ﴾ هنا لِما يدلُّ عليه اللَّفظ من معنى الاجتماع والقوَّة وكونهم على أمرٍ واحدٍ يجتمعون عليه[1]، فالسبقُ والاستئخارُ وصفٌ للأمَّةِ دون القرية مع ما في لفظِ الأمَّة من العموم لأهل تلك القرى وغيرِهم ممن أُخِّرت عقوباتُهم إلى الآخرة[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بقولِه: ﴿أَجَلَهَا﴾ في السّياق:

مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقِه في القرآن، من بليغ البيان

لم يَقُلْ: (ما تسبق مِنْ أمَّةٍ كتابَها المعلومَ) كما في الآية السابقة، ونكتته هي أنَّه لَمّا قال: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾؛ اقتضى ذكرُ السَّبقِ إيرادَ لفظِ الأجلِ، فكان إيرادُ الأجلِ - الذي هو غايةُ الوقتِ للشَّيءِ أو هو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء - باعتبار ما يقتضيه من السَّبق في الوقتِ كما أنَّ إيرادَه بعنوان الكتابِ المعلوم باعتبار ما يوجبه من الإهلاك[3]، كما أنَّه لَمّا كان الكلام على غاية الوقت لكلِّ أمَّة وتعيين وقتِ إهلاكِها وتحديده من غيرِ أنْ تسبقَ الأمَّةُ أجلها أو تَسۡتَأۡخِرَ عنه ناسب ذكر الأجل.

نكتة إيثار صيغة الاستفعال: ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

النَّفسُ بطبيعتِها تشتهي تأخير الأجل وتكره سبقَه، وقدر الله هو الفيصل

عُبِّرَ بصيغة الاستفعال؛ للإشعار بعجزهم عن الاستئخار مع طلبهم له بما تدلُّ عليه السين والتّاء، مع دلالتها على تأكيد طلبهم، إشعارًا بأنَّ النَّفسَ بطبيعتِها تشتهي تأخير الأجل وتكره سبقَه[4].

سرّ ورود صيغة المضارع ﴿تَسۡبِقُ﴾، و﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

دوامُ نفي السَّبقِ والاستئخارِ فيما بين الأمم الماضية والباقية

قوله تعالى: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، أوثِرَتْ صيغةُ المضارعِ في الفعلين بعد ما ذُكر نفيُ الإهلاكِ بصيغة الماضي؛

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أمم).

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66، والبروسويّ، روح البيان: 4/443، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/15.

لأنَّ المقصودَ بيانُ دوامِ نفي السَّبْقِ والاسْتِئْخارِ فيما بين الأممِ الماضيةِ والباقية في أجلِها الذي أجِّلت له[1].

سبب تقديم نفي السّبق، على عدم التأخُّر:

سرُّ تأخيرِ عذابِ الكافرين، هو أنَّهم لا يسبقون أجلهم

قُدِّمَ نفي السبقِ على عدمِ التَّأخر مع كون المقام مقامَ المبالغةِ في بيان تحقُّق عذابِهم؛ لأنَّ السَّبقَ مقدَّمٌ في الوجود على التَّأخُّر، ولأنَّ المرادَ بيانُ أنَّ سرَّ تأخيرِ عذابِهم مع استحقاقهم لذلك هو أنَّهم لا يسبقون أجلهم، فلا تأخيرَ في أجلِهم كما قد يتوهَّمُ.

بلاغة التَّغليب في قولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

تحصيل الأمم للقوَّة وأسبابِها، لا يؤخِّرُ أجلَها

لَمّا كان لفظ أمَّة مؤنَّثًا، وجاء الفعل على نسقه، في قولِه: ﴿مَّا تَسۡبِقُ﴾؛ كان إيراد الفعل ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ باقترانه بضمير جماعة الذكور على تغليب الرِّجالِ في ما يتضمَّنه لفظ الأمَّة، فيكون الفعل ﴿تَسۡبِقُ﴾ قد حُمِلَ على لفظ الأمَّة؛ لأنَّه مؤنَّثٌ، و﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ حُمِلَ على المعنى؛ لأنَّ طلبَ استئخار العذاب لا يَقْدِرُ عليه إلّا من له قوَّة وشأن، فأُشيرَ إلى رجالِ الأمَّة، بمعنى لا يستطيع الأمرَ أيُّ أمَّةٍ، وإنْ كان الطالبون للأمر لديهم القوَّةُ وأسبابُها، كما أنَّ فيه رعايةً لِلفواصلِ، ولهذا لم يَقُلْ: (ما تسبق من أمَّة أجلها وما تستأخر)[2].

سرّ حذف متعلّق الفعل، في قولِه: ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

الإيجاز ومراعاة الفاصلة من عادةِ القرآن في البيان

تقدير الكلام: (وما يستأخرون عنه) فحُذِفَ الجارُّ والمجرور (عنه)؛ لأنَّه معلوم من السّياق، ففيه إيجازٌ ولِمراعاةِ الفواصل[3].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قال الله تعالى في سورة الحِجر: ﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، وقال في سورة الأعراف: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/84، والواحديّ، التفسير البسيط: 12/542، والزّمخشري، الكشاف: 2/571، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/66.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، والسّمين الحلبيّ، الدر المصون: 7/143.

تقديم الاستئخار لبيان عدمِ خلاص الأمم من العذاب، وتأخيره لبيان سرِّ تأخير إهلاكِهم

﴿أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34]، وفي سورة النَّحل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٦١﴾ [النّحل: 61]، وسرُّ تقديم الاستئخار في سورة الأعراف وسورة النحل هو أنَّ المقصودَ بالذات بيانُ عدمِ خلاصِهم من العذاب، وأمّا ما في سورة الحِجر في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ من سبق السبق في الذكر، فلِأنَّ المراد بيانُ سرِّ تأخيرِ إهلاكِهم مع استحقاقهم له، حسبما ينبئُ عنه قوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، فالأهمُّ هناك بيانُ انتفاءِ السَّبْق، فقُدِّم لمناسبةِ المقامِ(1).

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.

﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ [الحجر: 6]

علاقة قدر الله في هلاك الكفّار، بكفر المشركين بنبوّة محمّدٍ ﷺ

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بيَّن اللّه تعالى فيما سبق كفرهم بالكتاب، وما يؤول إليه حالُهم؛ شرعَ في بيان كفرِهم بمن أُنزلَ عليه الكتابُ[1]، وأيضًا لَمّا بالَغَ اللّه تعالى في تَهديدِ الكُفّارِ، ذَكَرَ بَعْدَهُ شُبَهَهُمْ في إنْكارِ نُبوَّتِه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾: أصلُ الذِّكْرِ: الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[3]. وهو أيضًا: جَرْيُ الشَّيْءِ على لِسانِكَ[4]. والذِّكْرُ: الصّيتُ والثَّناءُ، لذكره بين النّاس، والذِّكْر: الكتابُ الَّذي فيه تَفْصيل الدّين، وكلُّ كتابٍ من كُتبِ الأنبياء عليهم السلام ذِكْرٌ[5]، فالذِّكْرُ الكَلامُ الموحَى بِهِ؛ ليُتْلَى، ويُكَرَّرَ، فهو للتِّلاوَةِ؛ لأَنَّهُ يُذْكَرُ ويُعادُ، ولأنَّ فيه تذكيرًا باللّه واليومِ الآخِرِ، أو لأنّه بمعْنَى أنَّ به ذِكْرَهُم في الآخَرينَ[6]، والمقصود بالذِّكر في الآية: الكَلامُ الموحَى بِهِ؛ ليُتْلَى، ويُكَرَّرَ، والمُرادُ بِهِ هُنا القُرْآنُ[7].

2) ﴿لَمَجۡنُونٞ﴾: أصْلُ الاجْتِنانِ: الاسْتِتارُ والاخْتِفاءُ، يُقالُ: جَنَّ الشَّيْءُ، واجْتَنَّ اجْتِنانًا، أيْ: اسْتَتَرَ، ومنهُ سُمّيَ الجَنينُ لاِسْتِتارِهِ في بَطْنِ أُمِّه، وسُمّيَ فاسِدُ العَقْلِ: مَجْنونًا؛ لِتَغَطّي عَقْلِه واستِتارِهِ عَنِ الإدْراك، والجنون: زَوالُ العَقْلِ أَوْ فَسادُهُ، تقولُ: جُنَّ الرَّجُلُ، فَهوَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66.
(2) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والمحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).
(5) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.

مَجْنونٌ، أيْ: زالَ عَقْلُه، أوْ فَسَدَ[1]. والمراد بالمجنونِ في الآية: الَّذي جُنَّ، أيْ: أصابَهُ فَسادٌ في العَقْلِ مِنْ أثَرِ مَسِّ الجِنِّ إيّاهُ في اعْتِقادِهِم[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عِنادُ أهلِ مكَّة، وكفرهم بمن أُنزل عليه الكتاب، ورميه بالجنون

قال المكذِّبون لرسول اللّه ﷺ استهزاءً: يا أيُّها الذي زعم أنَّه نُزِّل عليه القرآن إنَّك لذاهب العقل، هلّا تأتينا بالملائكة - إنْ كنت صادقًا - لتشهد أنَّ اللّه أرسلك[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة عودِ الضَّمير، في قولِه: ﴿وَقَالُواْ﴾:

عدم الإنكار على قولِ الكبراء الكافرين مع اتِّباعِهم دليل الرِّضا بقولِهم

الضّمير في ﴿وَقَالُواْ﴾ لكفار قريش، ويُشْعِرُ وصفهم لرسول اللّه ﷺ بالجنون بأنَّه قول صناديدهم وكبرائهم، كَما قالَ فِرْعَوْنُ: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرۡسِلَ إِلَيۡكُمۡ لَمَجۡنُونٞ ٢٧﴾ [الشُّعَراء: 27][4]، ولَمّا كان أتباعُهم غيرَ منكرين لقولِهم؛ آذن عدم إنكارهم برضاهم به، فنسب القول إلى جميعهم.

مناسبة مجيء أسلوب النِّداء في ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

توبيخُ من لا يستحي من رسول الله ﷺ، ولا يتأدَّب معه

قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وفيه: لَمّا كان النِّداء بمعنى رفْعِ الصَّوت صياحًا وظهورِه للمخاطَبين، وكان على معنى طلبِ إقبال المنادَى على المنادي؛ دلَّ على أنَّهم ما كانوا يرقبون في رسولِ اللّه إلًّا ولا ذمَّةً في استهزائهم، ففيه توبيخٌ.

لهم على قبحِ أعمالِهم وعدم استحيائهم ممَّن نزِّل عليه الذِّكر[5]،

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جنن)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 131.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/17.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/527، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/8.

(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/51، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/351.

(5) الماتريديّ، تأويلات أهل السنّة: 6/422، والسمعاني، تفسير السّمعانيّ: 3/130، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/351.

كما أفادَ مَجيءُ الكلام بأسلوب النِّداء التَّنبيه على أنَّ المنادَى وهو رسولُ اللّه بعنوان نزولِ الذكر عليه؛ كان حاضرًا في قلوبهم لا يغيب عنهم[1]؛ ليشعرَ بأنَّ الضجرَ والاضطرابَ لم يكن ليفارقَهم بسبب نزول الذِّكر على رسولِ اللّه ﷺ.

دلالة (يا) النِّداء في سياق الآية المحكم:

الإيمانُ وأحوالُه بعيدٌ من الشِّرك وأحوالِه

في قولِه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، وفيه لَمّا كانت (يا) للنِّداء، والظّاهر أنّها لنداء البعيد؛ أفاد التَّعبير بها أنَّهم تصوَّروا رسول اللّه ﷺ بعيدًا عنهم بما هم عليه من الشِّرك وأحوالِه، وما كان عليه من الإيمان وأحوالِه، فلمّا كان النِّداء يكون بمدِّ الصَّوت للإنسانِ المعرض عن المنادي[2]؛ ناسب ما أشعر به قولُهُ تعالى: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ﴾ من معنى إعراضِه ﷺ عنهم، كما يشعر النِّداء بالياء استصغارَهم لرسولِ اللّه؛ إذ ينادونه من مكانٍ بعيدٍ مع إعراضِهم عن اسمِه ومناداته بالصِّفة التي جاءهم عليها، وهم منكرون لها[3].

سبب إيثار التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى﴾:

مـن قـبـح الـكـافـرين وجـهـلـهـم، جعلُهم نـزولَ الـذِّكـر سببًا للتَّهكُّم

عُبِّر بالاسم الموصول لِما في الصِّلَةِ مِنَ المَعْنَى الَّذي جَعَلوهُ سَبَبَ التَّهَكُّم[4]، وللإشعار بأنَّ جملة الصِّلة - وهي كون رسول اللّه قد أُنزل عليه الذِّكر - معلومةُ الانتسابِ عند المتكلِّمين والمخاطَبين.

فائدة التّعبير بجملة: ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾:

أراد الكافرون الاستهزاء برسول اللّه، فصَرَف اللّه ألسنتهم عن الشَّتم

أفاد هذا التعبير أنَّ رسولَ اللّه أبلغَهم، وقال لهم: أُنزل عليَّ الذِّكرُ من اللّه، ليُشعِرَ الكلامُ أنَّهم قد بُلِّغوا بالأمرِ، فلمّا قال لهم ذلك؛ عارضوه بهذا القولِ كالمستهزئين به ﷺ، ففيه توبيخٌ لِما استهزؤوا

(1) الإسفرايينيّ، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 1/605.
(2) سيبويه، الكتاب: 2/230، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/321.
(3) عبد الكريم الخطيب، التّفسير القرآني للقرآن: 7/217.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.

به، وإيذانٌ بأنَّهم قد بلَّغوا بالرِّسالة، وقد أرادوا الِاسْتِهْزاءَ بِوَصْفِهِ، فَأَنْطَقَهُمُ اللّه بِالحَقِّ فيهِ؛ صَرْفًا لِأَلْسِنَتِهِمْ عَنِ الشَّتْمِ(1).

بلاغة التَّهكُّم، على خلافِ مقتضى الظَّاهر:

قولُ الحقِّ على جهة التَّهكُّم، مذمومٌ قبيحٌ

لَمّا كان الوصفُ في قولهم: ﴿ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾ مناقضًا لقولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ لأنَّهم كانوا كفرةً لا يُقِرّونَ بنزولِ شيءٍ على رسولِ اللّه ﷺ؛ أفاد أنَّهم قالوا هذا الوصف على معنى التَّهكُّم للتَّشهير بالوصف المنادى به؛ ليكون ما قالوه على جهة الاستهزاء والاستخفاف والتَّكذيب، لا تسليمًا لذلك واعتقادًا له، وإشعارًا بعلَّة حكمهم الباطل في قوله: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾(2).

نكتة التَّعبير بصيغة ﴿نُزِّلَ﴾ في السّياق:

التّعجيب من إقرار الكافرين بنزول الذّكر، ووصف المبلّغ له بأنّه مجنون

أفاد التَّعبير بصيغة (فُعِّلَ) أنَّهم كانوا مقرّين بكثرةِ تنزيل الآياتِ على رسولِ اللّه ﷺ وتتابعها عليه، ففيه تعجيب من حالِهم ووصفِهم، كيف يُقِرّونَ بكثرة تنزيل آياتِ القرآن وتتابعه عليه، ويصفونه بالجنون؟

سرُّ إيثار التَّعبير بصيغة المبنيّ للمفعول ﴿نُزِّلَ﴾:

مكابرة الكافرين في الحقِّ، طريق للطَّعنِ في النّبوَّة والرّسالةِ

عبِّرَ بصيغة المبني للمفعول على وجه المكابرةِ من الكافرين، لإفادةِ أنَّهم منكرون أنْ يكونَ الذِّكرُ منزَّلًا من عندِ اللّه تعالى، وأنَّهم مكذِّبون بالتنزيل نفسه؛ لإيهام أنَّ ذلك ليس بفعل له فاعلٌ أو لتوجيه الإنكارِ إلى كون التنزيلِ عليه لا إلى استناده إلى الفاعل؛ ليكون وصْفُهم الذِّكرَ بأنَّه مُنَزَّلٌ؛ تقريرًا لاستهزائهم واستخفافهم برسولِ اللّه ﷺ للطَّعنِ في نبوَّته ورسالته(3).

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 20/121، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/66، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/16.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/19، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.

لم ينزل الذّكر يقينا إلّا عليه، باعتراف الكافرين أعداءه

دلالة تقديم ﴿عَلَيۡهِ﴾ على ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾:

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على النّائب عن الفاعل ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾؛ لإفادة التَّخصيص، بمعنى: أنَّهم كانوا معترفين أنَّه لم يدَّعِ أحدٌ أنَّه أنزل الذِّكر عليه من الله تعالى سوى رسول الله ﷺ، والتَّقدير: يا أيُّها الذي لم يُنزَّل الذِّكر إلا عليه.

تَسْمِيَةُ القُرْآنِ ذِكْرًا، تَسْمِيَةٌ جامِعَةٌ عَجيبَةٌ

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱلذِّكۡرُ﴾:

عبَّر بالوصف الأعمِّ - وهو الذِّكر - دونَ الأخصِّ وهو القرآنُ؛ لأنَّ في ذكر الأخصِّ تنبيهًا لِلمعجزات التي ورد بها القرآن، والكلام في سياق إنكارِهم لمعجزة القرآن وطعنهم بالنَّبيِّ، ولمّا كان القرآنُ قد وُصف بالذِّكر؛ لأنَّه يُتلَى ويُكرَّرُ؛ أشعرَ التَّعبير به بأنَّه صارَ حديثَ القوم وذكرَهم، فناسب إيرادُ هذا الوصفِ المقامَ. وتَسْمِيَةُ القُرْآنِ ذِكْرًا تَسْمِيَةٌ جامِعَةٌ عَجيبَةٌ لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ عِلْمٌ بها مِنْ قَبْلِ أنْ تَرِدَ في القُرْآنِ[1].

عِلْمُ المشركين بأنَّ نزول الذّكر أمرٌ خارقٌ للعادةِ

مناسبة مجيء قوله: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾:

أفاد الوصف بالجنونِ أنَّهم كانوا يعلمون أنَّ ما يقولُهُ رسولُ الله ﷺ من نزول الذِّكر عليه أمرٌ عظيم خارقٌ للعادةِ ومخالفٌ للواقِع، والمعنى: أنَّك لَتقولُ قولَ المجانين حين تدَّعي أنَّ الله تعالى نزَّلَ عليك الذِّكرَ، أيِ: القرآن، لِتَوَهُّمِهِمْ أنَّ ادِّعاءَ نُزولِ الوَحْيِ عَلَيْهِ لا يَصْدُرُ مِنْ عاقِلٍ، لمخالفتِه الواقِعَ؛ تَوَهُّمًا مِنْهُمْ بِأنَّ ما لا تَقْبَلُهُ عُقولُهُمُ الَّتي عَلَيْها غِشاوَةٌ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِ أنْ يَقْبَلَهُ العُقَلاءُ[2].

نكتة التَّعبير بتركيب ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾:

لَمّا كان هذا الكلام يُقال للعاقل؛ حين يفعل شيئًا مخالفًا للعُرفِ؛

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/4، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/17.

(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/17.

عجز الكافرين عن تحدّي القرآن، أفضى بهم للاستهزاء والشّتم

أو يقول قولًا مخالفًا لِما اعتاد النّاس عليه للإشعار بتحيُّره فيه ولاستبعادِ كلامِه، أفاد أنَّهم إنَّما قالوا هذا القولَ؛ لتحيُّرهم في أمرِ رسول الله ﷺ، ولعجزِهم عن التحدّي، ولاستبعاد نزول الذِّكر عليه، ولأنَّه دعاهم إلى غيرِ ما هم فيه، وخاطرَ بنفسِهِ وروحِه لأجل دعوتِه ﷺ، وهذا كما يقول الرجل لمن يسمع منه كلامًا يستبعده، أو يستبعد النزول إلى حكمِهِ: أنت مجنون[1].

بلاغة الكناية، في جملة: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾:

بلاغة إرادة ملزوم الكلامِ ولازمه

أفاد حكمُهم على رسولِ الله - بأنَّه مجنون - أنَّهم مكذِّبون لِما يقوله من نزول الذِّكر عليه من ربِّ العالمين؛ لأنَّ ما يصدر من المجنون من الكلام لا يكون جاريًا على مطابقة الواقع، فأكثره كذبٌ غيرُ مطابقٍ للواقعِ، فيكون مرادُهم من هذا القولِ ملزومَ التَّركيبِ ولازمَه.

بلاغة التَّعريض في اتّهامه بالجنون:

الكافر أحقُّ بالوصفِ بالجنون، لالتباس الحقائق عليهم واشتباهِها

أفاد التعبيرُ الكاشف عن وصف الكافرين لرسولِ الله ﷺ بهذا الوصفِ التَّعريضَ بهم، بأنَّهم أولى بهذا الوصفِ بما وصفوه به؛ لكفرِهم وعدم الانتفاعِ من عقولِهم ولالتباس الحقائق عليهم، فهم كما في المثل: رَمَتْنِي بدائِها وانْسَلَّتْ[2].

فائدة تتابع التّأكيد في: ﴿إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾:

الكاذب يسعى لتأكيد كلامِه، ليصدِّقَهُ النّاس

جاءت الجملةُ مؤكَّدةً بثلاثة تأكيدات: اسميَّتِها وبالأداتين: (إنَّ)، واللّام الداخلة على الخبر؛ ليكون على طريق الخبر الإنكاري؛ لعلمِهم بصدقِ رسول الله فيما يدّعيه وفي حقيقة نزول القرآنِ عليه، وليقينِهم بأنَّ المخاطَب المخالِفَ لعملِهم منكِرٌ لقولِهم، أيْ: لعلمِهم بأنَّ خبرَهم منكَرٌ جاؤوا بثلاثة تأكيداتٍ، والمعنى: أنَّ جنونَك مُتَحَقِّقٌ

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/121، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/259.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/263.

على أتمِّ وجهٍ؛ بسبب ما تدَّعيه من نزول الذِّكر عليك[1]، أو يكون التأكيد لِقَصْدِهِمْ تَحْقيق ذَلِكَ لَهُ ﷺ؛ لَعَلَّهُ يَرْتَدِعُ عَنِ الاسْتِمْرارِ فيهِ، أَوْ لِقَصْدِهِمْ تَحْقيقَهُ لِلسّامِعينَ حاضِري مَجالِسِهِمْ، ولا مانعَ من الجمعِ بين هذه المعاني كلِّها[2].

سبب مجيء قولِهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾:

ليس للمغلوبِ إلّا الشَّتمُ، وهو سلاح المهزومين

لَمّا أقاموا الشتم مقامَ الجواب عمّا أمرهم اللّه تعالى به من الإيمانِ بآياتِ الكتاب والقرآن؛ كان هذا دليلًا على عنادِهم؛ للإشعارِ بأنَّهم مغلوبون مقطوعون في المناظرة، فليس للمغلوبِ إلّا الشَّتمُ[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/19.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/17.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/19.

﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٧﴾ [الحجر: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾؛ أتبعوه ما زعموا أنَّه دليل على قولِهم، وتقريرٌ لشبهتِهم؛ لأنَّ قصدَهم تكذيب الرسول ﷺ[1].

المناسبة بين اتّهامه بالجنون، وطلب الإتيان بالملائكة لتصديقه

❁ المَعنى الإجماليُّ:

قال المشركون لرسول اللّه ﷺ: هلّا أتيتَنا بالملائكةِ؛ ليَشهَدوا لك على ما تَقولُ؛ إن كنتَ من الصّادِقينَ في أنَّك رَسولٌ مِن عندِ اللّهِ حقًّا[2].

الشَّكُّ في صِدق رسول الله، واتّهامه بالجنون، لونٌ مِن سوء الأدَب معه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بقوله ﴿لَّوْمَا﴾ في السّياق:

قولِه: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾، وفيه أنّه لَمّا تركَّبت (لو) مع (ما)؛ أفادت هنا معنى التَّحضيض المتولِّد منه معنى التَّنديم، بمعنى: أنَّ طلبَهم كان على سبيلِ تحضيض رسول اللّه على الإتيانِ بالملائكة متندِّمين على أنَّه لم يفعل هذا من قبلُ، وتقدير الكلام: هلّا تأتينا بالملائكة، والتَّعبير بـ ﴿لَّوْمَا﴾ مشربٌ بمعنى التَّمنّي[3].

إفادة تركيب الآية معنى التَّمنّي، المتولِّد منه التَّنديم

مناسبة مجيء الطّلب بعد النِّداء:

قدَّم النِّداء على الطلب في قولهم: ﴿لَّوْمَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ جريًا على مقتضى اللازم من تقديم التنبيه بالنِّداء

عمل الكافرين على ترك الرَّسول ﷺ تذكيرَهم وإنذارَهم

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/21، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/19، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/18.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/15، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/527، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/254.

(3) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 307.

أو بغيرِه قبل الطَّلب؛ ليتمكَّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى؛ حرصًا من الكفّار على تحقيقِ المعنى في نفسِ رسول اللّه ﷺ لعلَّه يترك التَّذكيرَ والنِّذارة.

فائدة التَّعبير بصيغة المضارع ﴿تَأۡتِينَا﴾:

تجدُّد طلب الكافرين الإتيانَ بالملائكة، ليس إلّا معاندةً منهم

عُبِّرَ بصيغة المضارع؛ لأنَّ المرادَ من ﴿لَّوۡمَا﴾ التَّحضيض، ولإفادة تجدُّد طلبِهم في أنْ يأتي الرَّسول ﷺ بالملائكة حالًا بعد حال ووقتًا إثر وقت، أيّ: إنْ لم يكن الآن؛ ففي وقتٍ آخرَ.

نكتة إيثار التَّعبير بلفظ ﴿تَأۡتِينَا﴾:

الكافرون يطلبون المعجزات، مع أنَّ القرآن هو أعظم معجزةٍ

لّمّا كان الإتيان بالشَّيء بمعنى إحضاره من غيرِ المكان الذي هو فيه، ولا يكون إلّا فيما عَظُمَ شأنُه، ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾ [النمل: 38]؛ كان طلبُهم الإتيانَ بالملائكة دون غيرِه، لعلمِهم بأنَّه أمرٌ عظيم، والمعنى: حُضورُهُمْ عِنْدَهُمْ ليخبروهم بِصِدْقِهِ في الرِّسالَةِ، فيكونوا شاهدين لك على صدق ما تقول.

دلالة التَّعبير بلفظ ﴿تَأۡتِينَا﴾:

بيان جهل الكافرين، في طلبهم آية الإتيانِ بالملائكة

لّمّا كان لفظُ الإتيان يُقال لِما يكون المجيء فيه بسهولة؛[1] عُبِّرَ به لزعمهم بسهولةِ أنْ يأتي رسولُ اللّه بالملائكة؛ إنْ كان من الصّادقين، ففيه إيذانٌ بجهلِهم؛ إذ أرجعوا أمر الإتيان بالملائكة إلى الرَّسول ﷺ، وليس إلى اللّه تعالى.

بلاغة مجيء الكلام على خلافِ مقتضى الظّاهر:

يقين الكافرين بأنَّ طلبهم الإتيان بالمعجزة، كان على سبيل التَّعنُّت والتَّكذيب

لّمّا جاء الطَّلبُ بأسلوب ﴿لَّوۡمَا﴾ المتضمِّن معنى التَّمنّي - كما تقدَّم - أفادَ أنَّهم كانوا يعلمون أنَّ رسول اللّه لن يفعل هذا، وأنَّ طلبَهم ممتنَعُ الحصول، وأنْ لا طماعيَّة لهم بوقوعِه، فدلَّ على أنَّ

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أتى).

طلبَهم على معنى التَّعنُّت والعنادِ والتكبُّر والتَّكذيب، كما حكى اللّه عنهم في الآية الأخرى ﴿أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92].

نكتة إيثار ذِكر الملائكة:

طلب الإتيان بالملائكة، غرضُهُ التَّصديقُ أو العقابُ

آثروا ذِكر الملائكة لعنادِهم وشدَّة تكذيبِهم، والمعنى: هلّا تأتينا بالملائكة؛ لكي يشهدوا بصحَّة نبوَّتِك وبِصدقِك، ويعضدوك على إنذارِك، كقوله تعالى: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَلَكٞ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ٧﴾ [الفرقان: 7]، أو لكي يعاقبونا على تكذيبنا لك، كما كانت تأتي الأممَ المكذِّبةَ برسلِها[1].

سرُّ إيثار التَّعبير بأداة الشَّرط ﴿إِن﴾:

تجاهلُ الكافرين لصدقِ الرّسولِ الأكرم، لتشكيكِه في صدقِه

عُبِّرَ بأداة الشَّرط ﴿إِن﴾ للإيذانِ بأنَّهم شاكّون في صدقِ رسول اللّه ﷺ في نزول القرآن عليه، أو يقال: لَمّا كانوا على علم بصدقِ رسولِ اللّه ﷺ؛ عُبِّرَ بالأداة ﴿إِن﴾ المفيدة للشَّكِّ والخلوِّ عن الجزم في مقامِ الجزمِ؛ ليكون الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر على معنى تجاهلِ الكافرين لصدقِ رسولِ اللّه فيما يقولُه أو لتشكيكِه في صدقِه ﷺ.

بلاغة التَّعبير: ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

ورود الوصف على نيَّة التّكرار، من بليغ التّعبير

التَّعبير بـ ﴿مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أبلغُ في الاتِّصافِ بالصِّدقِ من (إنْ كنت صادقًا)؛ لأنَّ فيه تكريرًا لصدقِه، فإنَّه لا يدخل في مجموع الصّادقين إلّا إنْ كان صادقًا، فالوصف على نيَّة التّكرار، ومعنى الكلامِ: إنْ كنت مِنَ النّاسِ الَّذينَ صِفَتُهُمُ الصِّدْقُ[2].

سرّ حذف متعلّق الاسم المشتق ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾:

حذفُ المتعلّق لإفادة عموم صدق ما قالَه رسول الله ﷺ

لَمّا كان اسم الفاعل يقوم مقام الفعل في التَّعلُّق؛ دلَّ على أنَّ مُتعلِّقَهُ حُذِفَ لقصدِ العموم، بمعنى: إنْ كنت من الصّادقين، في

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/122، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/18.

أنَّ اللّه بعثك إلينا، وأنزل عليك القرآن، وفي أنَّ الملائكة يأتون إليك بالوحي، وفي أنَّها تأتي بالعقاب لتكذيبنا، كما كانت تأتي الأممَ المكذِّبةَ لرسلِها، وفي جميعِ ما تخبرنا به، وغير هذا ممّا أتى به رسول اللّه ﷺ، فالحذف يفيد العموم، ويدخل فيه الإخبار بالنُّبوَّة، وأنَّه تعالى أوحى إليه القرآن عن طريق المَلَكِ دخولًا أوَّليًّا[1].

دلالة سوء طلبهم، بالتّحدّي لإبطال الحقّ:

قبحُ الطَّلبِ من سوء الأدبِ

في قولِه: ﴿لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، لَمّا اقترح الكفّار على رسولِ اللّه ﷺ الإتيانَ بالملائكة بعد ما أُزيحت العلة عليهم بما أيَّده به من معجزاتِه؛ توجَّب اللَّوم عليهم وتوبيخهم لسوء أدبهم في طلبِهم[2]، مؤذنًا بأنَّ طلبَهم على سبيلِ التعنُّت والمكابرةِ والتَّهكُّم؛ محاولةً منهم لإظهارِ اليقين والجزم الثّابت على كون الرَّسول باطلًا في دعواه[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/66، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/51، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/571.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/264.

(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/122.

﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ٨﴾ [الحجر: 8]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ردُّ الشُّبَهِ، وجوابُ مقالاتِ أهلِ الضَّلالِ لإبطالها، منهج قرآنيّ أصيل

لَمّا ذكروا شبهتهم، وطلبوا دليلًا على صدق الرَّسول ﷺ؛ أشار في هذه الآية إلى ردِّ شبهتهم وجواب مقالتهم ومقترحهم الباطل، فجاءت هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنظَرِينَ﴾: أصلُ النَّظرِ: تَأمُّلُ الشَّيْءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ يُستعارُ، ويُتَّسَعُ فيه، والنَّظَرُ: تَقْليبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراكِ الشَّيءِ ورؤيَتِه، وسُمّيَ الإمْهالُ إنْظارًا؛ لأنَّه يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذي يَأتي فيه[2]، وضِدُّهُ: التَّعْجيلُ، ويأتي الإنْظارُ بِمَعْنَى: التَّأْخيرِ والتَّأْجيلِ؛ لقوله: ﴿أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤﴾ [الأعراف: 14]، وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ٢٩﴾ [الدخان: 29][3]، والمقصود بالإنظار في الآية: التَّأْخيرُ والتَّأْجيلُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنـزالُ الملائِكةِ لا يكون إلّا بالحَقّ، وعندها لا منجى من العذاب

ردَّ اللّه تعالى على المشركين: إنَّنا لا نُنَزِّلُ الملائكة إلّا تنزيلًا بالوجه الذي تقتضيه الحكمة، وتجري به سنَّتُنا، كأنْ نُنزِّلهم لإهلاك الظّالمين، أو لتبليغ وَحْينا إلى رُسلنا، لا على حسَبِ اقتراح الكُفّارِ، ولو نزَّلنا الملائكةَ على الكُفّارِ - كما اقترَحوا - فرَأوا الملائكةَ عيانًا، ولم يُؤمِنوا؛ فلن يُمهِلَهم اللّهُ، وسيُعَذِّبُهم في الحالِ[4].

(1) الفخر الرازيّ، مفاتيح الغيب: 19/122، والقاسميّ، محاسن التأويل: 6/330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نظر).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (نظر)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.
(4) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/4، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/147، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 262.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سببُ إيثار تقديم هذه الآية على الّتي بعدها:

الـــرَّدُّ على الشُّبهات من أهمِّ الأولوياتِ

لّما قال المشركون: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾؛ كان الظّاهر أنْ يكون الرَّدُّ أوّلًا على تكذيبِهم بالتَّنزيل، ثم الرَّد عليهم في طلب الإتيانِ بالملائكة، فكان الظّاهر أنْ تتقدَّم الآية: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ على قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، ولكن لشدَّة استدعاءِ طلبهم الإتيان بالملائكة للجواب قُدِّمَ ردُّه على ما هو جوابٌ عن التَّكذيب، وليكونَ أحدُ الجوابين متَّصِلًا بالسؤال، ولو عكسَ؛ لزم انفصالُ كلٍّ من الجوابين عن سؤاله[1]، كما أنَّ تأخير قوله: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ هو الأوفق على جهة التَّذييل لكونِ الآية مسوقةً على معنى العموم والكلّيَّة.

بلاغة التَّعبير في تأكيد أنّ مصدر التّنزّل هو الله وحده:

المتكفِّل بأمرِ هذا الدّين هو الله تعالى، ولذلك فهو محفوظ دوما

في قولِه: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾، لّما كان كلام المشركين على طريق الخطاب لرسول الله ﷺ، وكان الظّاهر أنْ يكون الرَّد من المخاطَب، بأنْ يقال له: (قل) أو ما في هذا المعنى؛ كان مجيء الرَّد من الله تعالى قطعًا لشبهتِهم، وتقريرًا بأنَّ الذي يقوله لكم رسولنا هو من عندنا وبإذننا، وإشعارًا بأنَّ المتكفِّل بالأمر هو الله تعالى.

بلاغة الجوابِ في سياق الآية البليغ:

نِعَمُ اللهِ على الإنسانِ لا تنقطع على الدّوام

قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ وفيه جاء الجوابُ على مقترح الكافرين بالإتيان بالملائكة مَشوبًا بِطَرَفٍ مِنَ الأُسْلوبِ الحَكيم؛ للإشعارِ بتعليمهم الفرقَ بينَ آياتِ الرُّسُلِ وبَيْنَ آياتِ العَذابِ، فَأرادَ الله ألّا يدَّخِرَهُمْ هَدْيًا، وإلّا فَهُمْ أحرياءُ بألّا يُجابوا[2].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/18.

سبب إيثار التَّعبير بصيغة المبني للفاعل ﴿نُنَزِّلُ﴾:

لَمّا قالوا عَلَى سَبيلِ الاِسْتِهْزاءِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ﴾، بصيغة المبني للمفعول تكذيبًا واستهزاءً، رَدَّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ هوَ المُنَزِّلُ عَلَيْه، فَلَيْسَ التَّنزيل مِنْ قِبَلِهِ ولا قِبَلِ أَحَدٍ، بَلْ هوَ اللّه تَعالَى الَّذي بَعَثَ بِهِ جِبْريلَ عليه السلام إِلَى رَسولِهِ ﷺ[1].

ليس التَّنزيل من قِبَلِ رسول الله ولا من قِبَلِ أحدٍ، بل من الله تعالى وحده

براعة العدولِ في الجواب في قولِه تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾:

لَمّا حكى اللّه عن المشركين قولَهم: ﴿لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾؛ كان ظاهر الرَّدِّ بصدد مقترحهم أنْ يقال: (ما تأتيهم بهم إلّا بالحقِّ)، فعدلَ عن تطبيق ظاهر الرَّدِّ؛ ليكونَ مشوبًا بطرفٍ من الأسلوب الحكيم كما تقدَّم؛ للإيذان بأنَّهم قد أخطؤوا في التعبير، كما أخطؤوا في الاقتراح، وأنَّ الملائكةَ لعلوِّ رتبتهم أعلى من أنْ يُنسَبَ إليهم مطلقُ الإتيان الشاملِ للانتقال من أحد الأمكنة المتساوية إلى الآخر منها، بل من الأعلى إلى الأسفل، وأنْ يكون مقصدُ حركاتهم أولئك الكفرةَ، وأنْ يدخلوا تحت ملكوتِ أحدٍ من البشر، وإنَّما الّذي يليق بشأنهم النّزولُ من مقامهم العالي، وكونُ ذلك بطريق التّنزيل من جناب الرّبّ الجليل[2].

نزولُ الملائكة من مقامهم، بطريق التّنزيل، من جناب الرَّبِّ الجليل

سرُّ التَّعبير بنونِ العظمة، في قولِه: ﴿نُنَزِّلُ﴾:

عُبِّرَ بنونِ التَّعظيم للإيذانِ بأنَّ تنزيل الملائكة شأنٌ عظيم، وأنَّه لا يكون إلّا من عندِ اللّه الملك الواحدِ الأحدِ وعن أمرِه سبحانه؛ وأنَّه لَيْسَ لَهُمُ اخْتيارٌ في النُّزول، ولهذا قَصَرَ تنزيلهم على أنْ يكونَ تنزيلًا بالحقِّ، ففيه توبيخٌ لهم على تكذيبِهم واستخفافِهم.

الملائكة ليس لهم اختيار في النُّزول، فنزولهم بأمرِ الله تعالى

توجيه القراءات القرآنيّة، في قوله ﴿نُنَزِّلُ﴾:

قَرَأَ حفصٌ وحَمْزَةُ والكِسائيُّ وخَلَفٌ ﴿نُنَزِّلُ﴾ بِنونَيْنِ الأولَى

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/468.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/67.

تنوُّع القراءات القرآنيّة، فيه سَعَةٌ في المعنى

مَضْمومَةٌ، والثّانِيَةُ مَفْتوحَةٌ، وكَسْرِ الزّاي، و﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ بِالنَّصْبِ، ورَوَى أبو بَكْرٍ عن عاصم بِالتّاءِ مَضْمومَةً وفَتْحِ النّونِ والزّاي، أي: (ما تُنَزَّلُ) مبنيًّا للمفعولِ، و(المَلائِكَةُ) بِالرَّفْعِ نائبًا عن الفاعل، وقَرَأ الباقونَ (ما تَنَزَّلُ) بفتحِ التّاءِ[1]، فأمّا قراءة ﴿نُنَزِّلُ﴾؛ فقد تقدَّم توجيهها، وأمّا قراءة أبي بكرٍ عن عاصم (ما تُنَزَّلُ)؛ فيكون إبهامُ الفاعل لِتعظيم شأنِه، وأمّا قراءة (ما تَنَزَّلُ)؛ فحذفت إحدى التاءين استثقالًا للجمع بينهما، ففيها تخفيفٌ صوتيٌّ، وتوجيهها أنَّ (تتنزَّل) من (تنزَّل)، وهو إمّا بمعنى المطاوعة، أيْ: نزَّلها الله، فتنزَّلت، للإشعار بأنَّها لا تتنزَّل إلّا بأمر الله، وأنَّ نزولَها هو امتثالٌ لأمر الله لها بالنُّزول، لا من قِبَلِ نفسها، وإمّا بمعنى تكلُّف النُّزول؛ لأنَّه لَمّا كان نزول الملائكة من السماء إلى الأرضِ قليلًا ونادرًا؛ صارَ نزولُهم في حكم المتكلَّف[2].

فائدة الباء في قولِه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

الحقُّ لا يفارق الملائكة في جميعِ شؤونِهم

الباء هنا للملابسة، والمعنى: ما نُنَزِّل الملائكة إلّا تنزيلًا ملتبسًا بالحقِّ، بمعنى عدم مفارقة الحقِّ لهم في جميعِ شؤونهم حين تدلّيهم من علوٍّ إلى سُفلٍ.

دلالة المستثنى، في قولِ تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

حذْفُ المصدر، وإقامة الصِّفة مقامه للمبالغة

لَمّا كان التَّقدير: ما ننزِّل الملائكة إلّا تنزيلًا بالحقِّ؛ كان الجارُّ والمجرور صفة للمصدر المحذوف على معنى بيان نوعِ المصدرِ[3]، فحُذِفَ المصدر، وأقيمت الصفة مقامَه على وجهِ المبالغة، بأنْ جُعِلَ عينُ التَّنزيل ملتبسًا بالحقِّ، وتنزيلُ الملائكة ملتبسًا بالحقِّ كذلك.

(1) ابن مجاهد، السّبعة في القراءات، ص: 366، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/68، وابن الجزريّ، النّشر في القراءات العشر: 2/301.

(2) الرّضيّ الاستراباديّ، شرح شافية ابن الحاجب: 1/104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/140.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/260.

دلالة الاستثناء المفرّغ، وأثره في المعنى:

في قولِه تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، لَمّا كان الاستثناء مفرَّغًا من أعمِّ الأحوالِ؛ أفاد نفي عمومِ الأحوالِ الذي يلزم منه نفيُ عمومِ الأزمنة والأمكنة، والمعنى: نفيُ تنزيل اللّه تعالى للملائكة في جميعِ الأحوالِ إلّا في حالة كونه تنزيلًا بالحقِّ.

لصوقُ الحقِّ بالملائكة، في جميع تنزُّلاتهم

بلاغة الحصر في سياق الآية الكريمة:

في قوله: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾، لَمّا كان الحصر بطريق (ما وإلّا) يُسلَكُ مع مخاطَبٍ مرتكبٍ للخطأِ مع إصرارٍ؛[1] أفاد الحصرُ هنا ردَّ المشركين عن خطأِ اعتقادِهم في جوازِ طلبِهم الإتيان بالملائكة، وكأنَّهم لَمّا طلبوا الإتيان بالملائكة كانوا مصرّين على جواز الطَّلب وتكرُّرِه منهم، ومعنى الحَصْرِ في الآية: قَصْرُ تنزيل اللّه تعالى للملائكة على كونِه تنزيلًا بالحقِّ لا يتجاوزه إلى الباطل، ففيه إشعارٌ بأنَّ ما اقترحوه من الإتيان بالملائكة ليس من الحقِّ بل هو من الباطل، وهو من قصرِ الإفرادِ؛ لأنَّ المشركين كانوا يعلمون أنَّ الملائكة تَنْزِلُ بالعذاب، كما هو حاصلٌ في الأمم الماضية.

تنزيل اللّه للملائكة لا يكون إلّا بالحقّ، ولا يتجاوزه إلى الباطل

دلالة لفظ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ في السّياق:

يَحْتَمِلُ أنْ يكون المرادُ من لفظِ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الوجه الذي قدَّره اللّه تعالى، واقتضته حكمته، أي: ما ننزِّل الملائكةَ إلّا بالحكمةِ والفائدة، ولا حكمة في أن تأتيكم بصور تشاهدونها، فإنَّه لا يزيدكم إلّا لَبسًا، وإلّا في معاجلتكم بالعقوبة، فإنَّ منكم ومن ذراريكم من سبقت كلمتنا له بالإيمان، فَيَصيرُ إنْزالُهُمْ عبثًا باطلًا، ولا يَكونُ حَقًّا، ويحتمل أن يكون المرادُ من الحقِّ العذاب، أيْ: ما ننزِّل الملائكة إلّا بالعذاب الحاقِّ بكم، فتكون الباء للمصاحبة، والحقُّ بمعنى الشَّيء الحاقِّ، أيْ: ما ننزِّل الملائكة إلّا مُصاحِبينَ لِلْعَذابِ الحاقِّ عَلَى

تنزيل الملائكة يكون لحكمةٍ وفائدةٍ، أو للعذابِ الحاقّ عليهم

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 295.

النّاسِ، وهوَ عذابُ الاسْتِئْصالِ، وحُكْمُنا في أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ ألّا نَفْعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ، وأَنْ نُنظرَهم لِما عَلِمْنا مِنْ إيمانِ بَعْضِهِمْ، ومِنْ إيمانِ أَوْلادِ الباقينَ[1].

براعة التَّعبير بحرف الجزاء ﴿إِذٗا﴾ في السّياق:

اختيار الجواب الأنسب، من بلاغة التّعبير

لَمّا كان ﴿إِذٗا﴾ حرفَ جوابٍ وجزاءٍ؛ دلَّ على وجودِ شرطٍ مقدَّرٍ، وتقدير الكلام: ولو نَزَّلْنا الملائكةَ؛ إذًا ما كانوا مُنْظَرِينَ[2]، فأفاد لفظُ ﴿إِذٗا﴾ الجوابَ عن قولِهم: ﴿لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، والمجازاة على طلبِهم.

براعة ترتيب الجملتين في سياق التنزّل وعدم الإنظار:

براعة نظم القرآن، في ترتيب الجمل في هذا المضمار

في قولِه تعالى: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، جاءت ﴿إِذٗا﴾ متقدّمة في الرتبة؛ لأنَّها الجواب المقصود لِطلبهم ﴿لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾، فتكون جملة ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ مقدَّمةً من تأخيرٍ؛ لأنَّها تعليل للجوابِ، فقدِّمت؛ لأنَّها أوقعُ في الرَّدِّ، وأوجز[3]، كما أنَّها في مقامِ الحكمِ الكلّي الذي يشمل تعليل الجوابِ المذكور وغيره، وليصحَّ عطف جملة ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾ عليها.

سرّ العطف في سياق الآية الكريمة:

معنى سببيّة الجملة المعطوف عليها للجملة المعطوفة، وأثره في المعنى

قولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، تضمَّن جوابُ طلبِهم تعليلَين: أحدهما: كلّيٌّ هو الجملة الأولى، والآخر يخصُّهم، وهو المذكور، في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، فتضمَّن التَّعبير الرَّدَ على شبهة الكافرين بالإخبار عن أنَّ تنزيل الملائكة من شأنِ اللّه، ولا ينزِّلهم اللّه إلّا بالحقِّ، كما تضمَّن إقامة الحجَّة بطريق التنزُّل على قولِهم

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/423، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/122، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/68، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/68، ومجير الدّين العليميّ، فتح الرّحمن: 3/542، والشّوكاني، فتح القدير: 3/147.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/19.

ومقترحِهم، وأفاد العطف أنَّ الجملة الأولى تفيد بمضمونِها أنَّها سببٌ للجملة الثّانية، ولهذا تضمَّنت حرفَ الجزاء ﴿إِذٗا﴾، والمعنى: لو فرض افْتُرِضَ، ونزَّلنا الملائكة؛ فما كانوا إذًا مُنْظَرِينَ، أيّ: فما يتأخَّر عنهم العذاب عندَ معاينة الملائكة، وما كانوا مُنْظَرِينَ، فأفاد الكلامُ الرَّدَ عليهم وجوابهم مع ذكر المجازاة على طلبِهم، وفيه تهديدٌ ووعيدٌ لهم على مقولتِهم.

سبب توسُّط حرف الجواب ﴿إِذٗا﴾ في الآية:

الــجــمــعُ في المعنى بين نفي الاستئصال والتَّهديد، من روائع النَّظم القرآنيّ

في قولِه: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، لَمّا كان الأصل في حرف الجواب أنْ يكون مصدَّرًا في جملة الجوابِ؛ أفاد توسُّطها بين اسم كان وخبرها تمامَ المناسبة في الوصل بالواو، بنسق الجملة المنفية على الجملة المنفية لوجود الجهة الجامعة بينهما؛ لأنَّ تقدير الكلام: ما نُنَزِّلُ الملائكةَ إلّا بالحقِّ، ولو نزَّلنا الملائكةَ؛ ما كانوا إذًا مُنْظَرِينَ، كما أنَّ توسُّطَ حرف الجوابِ يجعلُ الحرفَ ألصقَ بالإنظار، فيفهم منه نفي استئصالهم، كما تقدَّم، وللإشعار بأنَّ نفي الإنظار هو الغالب بسبب تقدُّم الكون المنفي[1]، فالكلامُ مُعْتَمَدٌ على نفي كونِهم مُنْظَرِينَ؛ تهديدًا لهم وتخويفًا؛ ولتهويل شأنِ الطَّلب الذي طلبوه، فتكون الجملة بتوسُّط حرف الجواب قد جمعت بين ما هو كالشّيءِ وضدِّه، أيّ: الإشعارَ بنفي الاستئصالِ والتَّهديد بسبب تقدُّم النَّفي.

دلالة الإخبار عن الشَّرط المقدَّر وجزائه:

الاحتجاج على الكافرين، بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبِهم

في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾، لَمّا طلب المشركون الإتيان بالملائكة ليؤمنوا على زعمهم؛ لأنَّهم وإنْ طَلَبوا ذَلِكَ بِقَصْدِ التَّهَكُّم، فَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُعْتَقِدونَ أنَّ نُزولَ المَلائِكَةِ هوَ آيَةُ صِدْقِ الرَّسولِ فيه، فلمّا طلبَ المشركون ذلك؛ كان الإخبار عن الشَّرط المقدَّر وجزائه

(1) سيبويه، الكتاب: 3/15.

إيذانًا بإنتاج مقدِّماتهم لنقيض مطلوبهم، فطلبوا الإتيانَ بالملائكة، وجاءهم الرَّدُّ بالتَّصريح بالضَّرر إنْ وقع ما يؤمِّلون(1).

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿مُّنظَرِينَ﴾:

إمهالُ الكافرين نِعْمَةٌ لمن يؤمن منهم

لَمّا كان ﴿إِذًا﴾ حرفَ جوابٍ لِما يُسْتَقْبَلُ من الزمان، وتعلَّق به لفظ ﴿مُّنظَرِينَ﴾؛ فُهِمَ مِنْ هَذا على سبيل الكناية أنَّ اللّه مُنْظِرُهُمْ، وأنَّه لَن يستأصِلَهم؛ لِأَنَّهُ أرادَ أنْ يَكونَ نَشْرُ الدّينِ بواسِطَتِهِمْ، فَأَمْهَلَهُمْ حَتَّى اهْتَدَوْا، ولَكِنَّهُ أهْلَكَ كُبَراءَهُمْ ومُدَبِّرِيهِمْ(2).

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿مُّنظَرِينَ﴾:

حثُّ الكافرين على التَّأمُّل في أقوالِهم وأعمالِهم، لعلَّهم يؤمنون

لَمّا كان الإنظار بمعنى التَّأخير، وهو هنا على جهة التَّأمُّل والتفحُّص للمنظَر؛ أشْعَرَ التَّعبير بقوله: ﴿مُّنظَرِينَ﴾ تَمْكِينَهُمْ من النَّظر والتَّأمل ومعاينة أقوالِهم وأعمالِهم؛ ليعرفوا سوءَها(3)، ففيه حثٌّ على التَّأمُّل في أقوالِهم وأعمالِهم القبيحة، فإنَّها موجِبَةٌ للإهلاكِ ولعذابِ الاستئصال.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

(الإنظار) و(الإمهال):

الإنظار مقرون بمدّة محدّدة، والإمهالَ بمدّة غير محدّدة

الإنظارُ مَقْرونٌ بمُدَّةٍ معلومةٍ، بحيث يَقع فيهِ النَّظرُ، والإمهالُ يقع بمدَّةٍ مبهمةٍ، وذهب بعضُ اللُّغويين إلى أنَّ الإنظارَ عند اللّه تعالى، هو تَأْخير العَبْدَ؛ لِيَنْظر في أمره، ويتأمَّله، ويعاينه، والإمهالُ تَأْخيره؛ لِيُسَهِّلَ ما يتكلَّفه من علمه(4).

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 14/18، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/261.

(2) ابن عاشور، التحّرير والتنوير: 14/19.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نظر)، والكفويّ، الكليّات، ص: 906.

(4) العسكري، الفروق اللغّويّة، ص: 202.

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

العلاقة بين نزول الملائكة، وكون القرآن منزَّلًا من عند الله الّذي هو بحفظِه

لَمّا أجاب اللّه تعالى عن مقترح الكافرين في الإتيان بالملائكة، فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ﴾؛ أجاب عن الشُّبهة الأولى في قولِهم: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، فقال: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، وجاءَ نَشْرُ الجوابَيْنِ عَلَى عَكْسِ لَفِّ المَقالَيْنِ اهْتِمامًا بِالابْتِداءِ بِرَدِّ المَقالِ الثّاني بِما فيهِ مِنَ الشُّبْهَةِ بِالتَّعْجيزِ والإفْحام، ثُمَّ ثُنّيَ العَنانُ إلَى رَدِّ تَعْريضِهِمْ بِالِاسْتِهْزاءِ وسُؤالِ رُؤْيَةِ المَلائِكَةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾: أصلُ (حفظ): يَدُلُّ على مُراعاةِ الشَّيْءِ[2]، ويأْتي الحِفْظُ بِمَعْنى: الرعايةِ والعنايةِ، وضِدُّهُ التَّضييعُ والتَّفْريطُ، تَقولُ: حَفِظَ المالَ حِفظًا؛ إذا رَعاهُ، ومَنَعَهُ مِنَ الضَّياعِ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يُقالُ: حَفِظَ الكلامَ، أيْ: تعاهَدَهُ، ولَمْ يَنْسَهُ[3]. والحافِظُ والحَفيظُ الموكَّل بِالشَّيْءِ ليحفظَه، يُقالُ: فلان يَحفظُنا علَيكُم وحافِظُنا[4]. والمراد بـ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ في الآية، صونُ الذِّكر عن الضَّياع والتَّحريف والزّيادة والنَّقص[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/20، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/20.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حفظ).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (حفظ).
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الذّكر الَّذي بَعَثَ اللهُ به نبيَّه ﷺ، محفوظ ومحروسٌ على الدّوام

بيَّن الحقُّ ﷻ أنَّه قد تكفَّل بحفظِ هذا القُرآن الَّذي سَبَق للكافرين أنِ استهزؤوا به، وبمن نَزَلَ عليه، فقال: إنّا نحنُ نزَّلْنا القرآنَ الَّذي فيه الذِّكرَى والموعِظةُ والشَّرَفُ، وإنّا له لحافِظونَ في حالِ إنزالِه مِن استِراقِ كلِّ شَيطانٍ رَجيمٍ، وبعدَ إنزالِه بحِفظِ ألفاظِه ومعانيه مِنَ الزِّيادةِ والنَّقصِ والتَّحريفِ، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يَقْدِرُ أحدٌ على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله، ولحافظون له بقيام طائفةٍ من أبناء هذه الأمَّة الإسلامية باستظهاره وحفظه والذَّبِّ عنه، إلى أنْ يرث اللّه الأرض ومَن عليها(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بديع القولِ بالموجِب، في سياق الآية:

الرَّدُّ على شبهةِ الكافرين من كلامِهم، أسلوب قرآنيّ بليغ

لَمّا أخبر اللّه عن الكافرين قولَهم: ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٌ﴾؛ جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾ على طريقِ القَوْلِ بالموجِبِ بتَقْريرِ إنْزالِ الذِّكْرِ عَلَى الرَّسولِ ﷺ مُجاراةً لِظاهِرِ كَلامِهِمْ، والمَقْصودُ الرَّدُّ عَلَيْهِمْ في اسْتِهْزائِهِمْ(2).

براعة التَّعبير، في سياق حفظ الله للقرآن:

حفظُ القرآن من كيدِ الأعداء، ارتقاء به وتعظيمٌ لشأنِه

في سَبْكِ الجملتين من الدّلالةِ عَلى كمالِ الكبرياءِ والجلالة وعلى فخامة شأنِ التنزيل مالا يخفى؛ إذ بدأت الآية بالتأكيد على تعظيم شأنِ المنزِّل والمنزَّل، ثُمَّ زادَ ذَلِكَ ارْتِقاءً في بيانِ شأنِ الذِّكرِ ونِكايَةً لَهُمْ بِأنَّ مُنَزِّلَ الذِّكر هوَ حافِظُهُ مِنْ كَيْدِ الأعْداءِ(3).

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/68، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 262، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/255.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/20.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/20.

فائدة التَّعبير بضميرَي الجمع ﴿إِنَّا نَحۡنُ﴾ معًا:

تعظيمُ المنزَّل يدلُّ على تعظيم المنزِّل

أفاد الضّميران (نا) الّذي هو اسم (إنَّ)، و﴿نَحۡنُ﴾: التَّعظيمَ، أيِّ: نحن بعِظَم شأنِنا وعلوِّ جنابنا نزَّلنا ذلك الذِّكرَ الّذي أنكروه، وأنكروا نزولَه عليك، ونسبوك بذلك إلى الجنون، وتعظيم المنزِّل، يدلُّ على تعظيم المنزَّل[1].

دلالة صيغة فعَّل، في قوله: ﴿نَزَّلۡنَا﴾:

مجيءُ صيغةِ فعَّل للمبالغة، في نزول القرآن وتعظيم شأنِه

أفادت صيغة (فعَّل) تكثيرَ التَّنزيل؛ للإشعار بالمبالغة في نزولِه وتعظيم شأنِه، ولمّا كان السياق في بيان حفظه من الطَّعن وغيرِه، وهذا لا يكون إلّا في الأرض، وليس حينما نزل من السَّماء دفعةً واحدةً؛ ناسب أنْ يأتي بصيغة فعَّل التي تدلُّ على نزولِه على رسول اللّه ﷺ في الأرضِ تدريجًا ومفرَّقًا.

نكتة اختيار لفظ ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾ في الآية:

القرآن سيبقى مذكورًا على ألسنة المؤمنين، إلى يومِ الدّين

لم يَقُلْ: (نزَّلنا القرآن) مع أنَّ القرآن أخصُّ في العَلَميَّةِ على المنزَّل من عندِ اللّه من لفظ الذِّكر عندَ الإطلاقِ؛ لأنَّه جاء على طريق القول بالموجِبِ كما تقدَّم، وللإشعار بأنَّه مَذْكورٌ عندَ اللّه وعندَ الملأ، ولّما بيّن أنّه تعالى حافظٌ له، وأنَّ حِفْظَه أمرٌ ثابتٌ دلَّ على أنَّهُ سيبقى مذكورًا، ويلزمُ منه دوامُ كونه مقروءًا مادام اللّه حافظًا له، فهو مقروءٌ على ألسنة الخلق إلى يوم القيامة[2]، وفيه إشارةٌ إلى ما هو واقع ثابتٌ في المستقبل.

فائدة مجيء المسند ﴿نَزَّلۡنَا﴾ جملة فعليَّة:

تقويةُ مضمون الجملةِ، وتحقيقُها بمجيءِ المسندِ جملةً فعليَّة

قوله: ﴿نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾، تَحتَمِلُ هذه الجملة أنْ تكون خبرًا عن ﴿نَحۡنُ﴾؛ لِتُفِيدَ تَقْوِيَةَ الحكمِ وتحقيقَهُ وتخصيصَهُ، بمعنى تَحْقِيقِ أنَّ اللّه تعالى هو الذي نزَّل الذِّكر وتخصيصِه به سبحانه، فتكون جملة

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/123، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/68.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/286.

﴿نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ﴾ خبرًا عن (نا)، ويَحْتَمِلُ أنْ تكون خبرًا عن (نا)، ويكون ﴿نَحۡنُ﴾ تأكيدًا للضَّمير (نا)، ومآل المعنى واحدٌ[1].

دلالة الواو في ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾:

حِفْظُ الله تعالى للقرآنِ، حجَّةٌ على أنَّه نزَّله على رسولِه

أفادت الواو العطفَ؛ ليكون الكلامُ من عطفِ الجملة الاسمية على الجملة الاسمية؛ ليكون بمجموعهما الرَّدُّ على إنكار الكافرين واستهزائهم، كما أشْعَرَ العطفُ أنَّ الجملة المعطوفة بمنزلة الدليل على معنى الجملة المعطوف عليها، فكان حِفْظُ اللّه تعالى للقرآنِ دليلًا وحجَّةً على أنَّ اللّه تعالى نزَّله؛ لأنَّه لو كان من قول البشر، أو لم يكنْ آيةً؛ لتطرَّق عليه الزيادة والنقصان، ولم يبقَ محفوظًا من التبديل والتَّغيير، كما يتطرَّق على كلِّ كلام سواه[2].

فائدة ورود الجملة الاسميّة في السّياق:

بيان ثبوت حفظِ اللهِ تعالى للقرآنِ ودوامُه

في قولِه: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ لَمّا كانت الجملة الاسميَّة تفيد الثُّبوت والدَّوام؛ دلَّ الكلامُ على ثبوتِ حفظ اللّه تعالى للقرآن ودوامِه[3].

دلالة عودِ الضّمير في قولِه: ﴿لَهُۥ﴾:

حِفْظُ للقرآنِ، ضمان لحمايته من التّحريف والعبث به

يعود الضّمير إلى أقرب مذكور، وهو ﴿ٱلذِّكۡرَ﴾، وهو ظاهر قولِ جمهور المفسِّرين، وليس إلى الرَّسول، كما نقلَ عن بعضهم[4]، فإنَّه لا تعلُّق بين إنزال اللّه للذِّكر، وبين حِفْظِ اللّه تعالى للرَّسول؛ لأنَّه تعالى قد يحفظ الرَّسول وإنْ لم يُنزِّل عليه الذِّكرَ، والمعنى: وإنّا للذِّكر لحافظون[5].

---

(1) العكبريّ، التبيان في إعراب القرآن: 2/777، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 221.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/572، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 4/211.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/69.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/123، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/486.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 2/85، وابن جرير، جامع البيان: 17/68، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/423، والباقلانيّ، الانتصار لنقل القرآن: 1/136.

دلالة تتابع المؤكّدات، في آية الحفظ:

تأكَّدت الجملة بالأداة (إنَّ) التي تُفيدُ تأكيدَ مضمونِ الجملة وباللّام في ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾، وبتقديم الجارِّ والمجرور، فأصلُ الكلام (وإنّا لَحافظون له)، كما أنَّ اللّامَ الدّاخلةَ على الضَّميرِ أفادت تقويةَ العامل على جهة المبالغة في الحفظ للذِّكر، كما أنَّ مجيءَ الجملة اسميَّةً قوّى هذا التأكيدَ، فلمّا وَكَلَ اللّه تعالى حفظَ القرآنِ إلى نفسه، وقرَّره بتتابع التأكيدات، لم يَقْدِرْ أحدٌ من الطاعنين مع كثرتهم على الطَّعنِ فيه منذ نزل، ففي حفظه حجَّةٌ على أنَّه من عندِ اللّه[1].

لَمّا وَكَلَ الله تعالى حفظَ القرآنِ إلى نفسه، لم يَقْدِرْ أحدٌ على الطَّعنِ فيه

دلالة تقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور على متعلِّقه ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ التَّخصيصَ، بمعنى: إنّا للذِّكر خاصَّةً دونَ سائرِ ما نزَّلناه من الكتب لَحافظون، وأفاد التَّقديمُ التَّأكيدَ كما تقدَّم، ولرعاية الفاصلة كذلك.

حِفْظُ الله تعالى القرآنَ خاصَّةً، دونَ سائرِ ما نَزَلَ من الكتب

دلالة إسناد حفظ الذِّكر إلى الله تعالى:

قوله: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، قد يُقال: ما السِّرُّ في تَطَرُّقِ التَّغْيير لِلْكُتُبِ السّالِفَةِ وسَلامَةِ القُرْآنِ مِنْ تطرُّقِ التَّغْيِيرِ لَهُ؟ والجوابُ: أنَّه لَمّا أوْكَلَ الله لِلْأحْبارِ حِفْظَ كُتُبِهِمْ، فَقالَ: ﴿بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: 44]، وتَوَلّى حِفْظَ القُرْآنِ بِذاتِهِ تَعالَى، فَقالَ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2]، فكان حفظ القرآن من التَّحريف مع توفُّر الدَّواعي على الطَّعن فيه، وإبطالِه على مدار الأزمنة، لهو من أعظم المعجزات على أنَّ اللّه تعالى نزَّله على رسوله محمَّدٍ ﷺ، وفيه إخبارٌ عن الغيب، وهو واقع الآن، فَكانَ ذَلِكَ أيْضًا مُعْجِزًا قاهِرًا[3].

حفظُ القرآن من التَّحريف، مع توفُّر الدَّواعي على الطَّعن فيه، من أعظم المعجزات

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/423.

(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/264، والقاضي عياض، ترتيب المدارك: 4/283، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/572، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/6.

(3) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/124.

إيثار حذف متعلّقِ اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

حِفْظُ الله للقرآن يعمُّ الحفظَ للقرآن، ولأمَّة القرآن

لَمّا كان اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ يَقْتَضِي متعلِّقًا؛ أفاد حَذْفُهُ معنى العموم، أيْ: لحافظون من كلِّ ما لا يليق به، فَيَدْخُلُ فيه حفظُه من تكذيبهم له واستهزائِهم به دخولًا أوّليًّا، فيكون وعيدًا للمستهزئين، ويشمل الحِفْظَ من جميع ما يقدح فيه من الطعن فيه والمجادلةِ في حقّيته، ودخل في حفظِه الحِفْظُ مِنَ التَّلاشي، والحِفْظُ مِنَ الزّيادَةِ والنُّقْصانِ فيه في ألفاظه ومعانيه، بِأَنْ يَسَّرَ تَواتُرَهُ وأَسْبابَ ذَلِكَ، وسَلَّمَهُ مِنَ التَّبْديلِ والتَّغْييرِ حَتَّى حَفِظَتْهُ الأُمَّةُ عَنْ ظُهورِ قُلوبِها مِنْ حَياةِ النَّبيِّ ﷺ، فاسْتَقَرَّ بَيْنَ الأُمَّةِ بِمَسْمَعٍ مِنَ النَّبيِّ ﷺ، وصارَ حُفّاظُهُ بالِغينَ عَدَدَ التَّواتُرِ في كُلِّ مصرٍ، كما أفاد حذفُ المتعلِّق عمومَ الزَّمانِ، بمعنى: أنَّ حفظه عن الطَّعن وغيره في كلِّ وقتٍ[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

الحافظُ للشَّيء عالمٌ بأحوالِه، ولا يعتريه جهلٌ ولا نسيانٌ

عُبِّر بلفظ ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾ للإيذانِ بأنَّ اللّه تعالى هو المتكفِّل بتعهُّده ورعايتِه بمعنى منع تغييره وتحريفه والنَّقص فيه، وأفاد التَّعبيرُ أنَّه تعالى عالمٌ به، فإنَّ الحافظ للشَّيء عالمٌ بأحوالِه، ولا يتخلَّلُه جهلٌ ولا نسيانٌ، فإذا خَفِيَتْ عليه أحوالُه أو بعضُها؛ لا يتأتَّى له حفظه[2].

سرُّ إيثار التَّعبير بصيغة اسم الفاعل ﴿لَحَٰفِظُونَ﴾:

أَشْعَرَ التَّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل، عراقةَ وصفِ حفظِ اللّه للقرآن وثباتَه له سبحانه.

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 205، والرّاغب، المفردات: (حفظ).

﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠﴾ [الحجر: 10]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكذيب الرّسول والاستهزاء بالمؤمنين، عادة الكافرين الأوّلين مع أقوامِهم

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى استهزاءَ الكفّار برسول اللّه ﷺ، ونِسْبَتَهُ إلى الجنون، واقتراحَ الإتيان بالملائكة، وكان الّذي قالوه عليه ﷺ شاقًّا وله غائظًا موجعًا، سلّاه اللّه تعالى بأنَّ من أرسل مِنْ قَبلِه كانت عادة قومِهم معهم، مثل عادة هؤلاء معك، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1].

۞ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿شِيَعِ﴾: أصلُ (شيع): يَدُلُّ على مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَة، وأَصْلُهُ مأخوذٌ مِنَ الشّياع؛ وهو الحَطَب الصِّغار توقَدُ به الكبار، فأطلق الشّياع على الانتشار والتَّقوية، ويقال: شاع الخبر، أيّ: كَثُر، وقوي، وشاعَ القوم: انتشروا، وكثروا، وشَيَّعْتُ النّار بالحطب: قوَّيتها، والشّيعَةُ: من يتقوّى بهم الإنسان، وينتشرون عنه، والشّيَعُة: الفِرْقَةُ، أو القَوْم يَجْتَمعونَ على الأمر، والشّيعَةُ: أتباع الرجل وأنصاره، وجَمْعُها: شيَعٌ وأشْياعٌ جمع الجمع، والشّيَعُ جمع: شيعة، وكُلُّ قَوْمٍ أمْرُهُم واحِدٌ يَتْبَعُ بَعْضُهُم رَأْيَ بَعْضٍ، فَهُم شيَعٌ، ويُقال: هُم شيعَةُ فُلانٍ وشيعَةُ كذا من الآراءِ، والمراد بالشّيَعِ في الآية: الأمم التي أمْرُها واحدٌ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تَسْلِيَةُ الرّسول ﷺ، في تكذيب كفّار قريش له

يخبرُ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ ما فيه تَعْزِيَةٌ وتَسْلِيَةٌ له عمّا أصابه مِن

(1) أبو حيّان البحر المحيط: 6/468، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/25، والخازن، لباب التّأويل: 3/49، والشّوكانّي، فتح القدير: 3/147.

(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات: (شيع)، والزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/174، وابن الهايم، التّبيان في تفسير غريب القرآن، ص: 205.

سُفهاء قومه، فأخبره بأنَّ ما أصابه مِنهم يُشبه ما فعله المكذِّبون السّابقون مع رُسلِهم[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبلاغيُّ:

دلالة التَّنظير عَلَى طَريقَةِ التَّمْثيلِ بِنُظَرائِهِمْ:

تَحقيقُ كُفْرِ المستهزئين برسولِ الله، بتمثيلِهم بنماذج سابقة

في قوله ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لَمّا كان المرادُ من الآية تنظيرَ حالة إرسالِ رسول الله محمَّدٍ ﷺ في قومِه بإرسالِ الله تعالى الرُّسل في الأمم السابقة؛ أفادَ التَّنظير إبْطالَ اسْتِهْزائِهِمْ عَلَى طَريقَةِ التَّمْثيلِ بِنُظَرائِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السّالِفَةِ، وفي هَذا التَّنْظيرِ تَحْقيقٌ لِكُفْرِهِم؛ لِأنَّ كُفْرَ أولَئِكَ السالفين مقرَّرٌ عِنْدَ الأُمَمِ ومُتَحَدَّثٌ بِهِ بَيْنَهُمْ[2].

بلاغة الجمع بين التَّعريض والكناية في الآية:

من براعة نظمِ القرآن، تلوين الأسلوب بما يفيد المطلوب

في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ لَمّا كان الكلام على طريقة التَّمثيل بالنَّظير من الأمم السالفة؛ أفادَ التَّعريضَ بِوَعيدِ أَمْثالِهِم، وفيه إِدْماجٌ بِالكِنايَةِ عَنْ تَسْلِيَةِ الرَّسول عليه السلام[3].

فائدة التأكيد بقوله: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تحقيقُ تَسْلِيَةِ الرَّسولِ ﷺ وتقريرُها

أفاد التَّعبيرُ بـ ﴿وَلَقَدۡ﴾ تأكيدَ الجملة بلامِ القسم، المُنبِئة عن أمرٍ عظيم يَحْتاجُ إلى تقريرٍ وتأكيدٍ، وبـ (قَد) المؤكِّدة لمضمون الجملة كذلك، أيْ: لتأكيدِ تحقيق سبقِ إرسال الله تعالى قبل إرسال رسول الله ﷺ في الأمم السّابقة، على معنى تحقيق التّسلية لرسول الله ﷺ، وإلّا فإنَّ الرَّسول ﷺ على يقين بتحقُّق إرسالِ الله من قبلِه في الأمم السّابقة، كما يُفيدُ التَّعْبيرُ بـ ﴿وَلَقَدۡ﴾ تحقيقَ سبق إرسال الله تعالى مثل الإرسال الّذي جحدوه، واستعجبوه[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/69، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 8/81، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/22.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/22.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

دلالة التَّعبير بالضّمير (نا) في قولِه: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

أفاد التعبير بالضَّمير (نا) تعظيم شأن إرسالِ اللّه تعالى، فهو شأن الملك العظيم ﷻ، والمرادُ منهُ إظهارُ نهايةِ التَّعظيمِ والجلالةِ للّه المرسِل؛ لتأكيد التَّعجيب من استهزاء الكفّار بالرَّسول واستخفافِهم به ﷺ مع أنَّ الإرسال من اللّه الملك الواحدِ الأحدِ، وهو شأنٌ عظيم.

التَّعجيب من استهزاء الكفّار بالرَّسول، مع أنَّ المرسِل هو الله الجليل

سبب حذف مفعول ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

حُذِفَ مفعولُ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، وهو معلومٌ مقصودٌ؛ لأنَّ الإرسالَ يقتضي رسولًا[1]، فوقع الحذف؛ لأنَّ المرادَ إثباتُ الفعل للفاعل، وليس التباسَه بمفعولِه[2]، أيِ: إثباتُ إرسالِ اللّه تعالى، والمعنى هذا هو الشأن، وهذه هي العادة؛ لأجلِ تسلية الرَّسول ﷺ؛ ولبيان أنَّ اللّه تعالى، كما أرسله في قومِه؛ فقد أرسل من قبله في الأمم السابقة.

كما أرسل اللهُ محمَّدًا ﷺ إلى قومِه؛ فقد أرسل رسلًا من قبلِه

سبب مجيء ﴿مِن﴾:

أفاد مَجيءُ ﴿مِن﴾ في شبه الجملة: ﴿مِن قَبۡلِكَ﴾ تحقيقَ ابتداء غاية إرسال اللّه تعالى قبل إرسالِ رسولِ اللّه ﷺ، ليشمل كلَّ من أرسله اللّه تعالى في قومِه، فيكون المعنى على الاستغراق والاستيعاب.

إفادةُ (مِنْ) معنى الاستغراق، في هذا السّياق

نكتة إيثار التَّعبير بـ﴿فِي﴾ في السّياق:

لَمّا كان الأصلُ في الإرسال أنْ يتعدّى بحرف الجرِّ (إلى)، بأنْ يقال: ولقد أرسلنا من قبلك إلى شِيَعِ الأوَّلين؛ أشْعَرَ التَّعبيرُ بـ ﴿فِي﴾ تضمينَ الفعلِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ معنى: نبَّأنا، وجعلنا الذي بمعنى صيَّرنا، والمرادُ نبَّأناهم فيهم، وجعلناهم فيما بينهم، للإعلام بمزيدِ التَّمكُّن فيهم، وللإيذان بأنَّ حالَ الرُّسل وعادتهم هي العيشُ فيما بين أقوامِهم، فوقوع التَّكذيب والاستهزاء على الرُّسل من أقوامهم

حالُ الرُّسل وعادتُهم، هي العيشُ فيما بين أقوامِهم

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/124.

(2) الجرجانيّ، التّعريفات، ص: 156.

ليس أمرًا غريبًا، فلك - يا محمَّدُ ﷺ - أسوةٌ بالرسل الماضية مع أممهم المكذِّبة، ولست بأوحدَ فيه[1].

سرّ التّعبير بلفظ ﴿شِيَعِ﴾ في السّياق:

كلُّ طائفة من الكفّار تتبع التّي قبلها في التّكذيب والاستهزاء

لَمّا كان لفظ ﴿شِيَعِ﴾ يدلُّ على القَوْم المجتمعين المتفقة كلمتُهم، وكان اللَّفظ مشتقًّا من شاعه، أيْ: تبعه، لِيُعِينَ بعضُ القوم بعضَهم، وأصله من الشّياع، وهو الحطب الصغار توقَدُ به الكبار؛ آثَرَ التَّعبيرَ به؛ للإشعار بأنَّ كلَّ طائفة من الكفّار تتبع التي قبلها في التَّكذيب والاستهزاء، وأنَّ بعضهم يُعِينُ بعضًا على قبح أعمالِهم وسوء مرتكبِهم، وللتنبيه على صغر قدرِهم وحقارة منزلتِهم[2].

دلالة قوله تعالى: ﴿شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

رسولُ الله ﷺ، خاتمُ الرُّسل، وسيّد المرسلين

لَمّا كان كلُّ رسولٍ من قبل رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ موصوفًا بأنَّه من شيع الأوَّلين؛ دلَّ على أنَّ قومَ قريشٍ هم الآخرون، فَيُشْعِرُ الكلامُ بأنَّ رسول اللّه خاتم الرُّسل، ففيه توبيخٌ شديد للمستهزئين على سوء عملِهم وقبح تصرُّفهم مع خاتم رسل اللّه ﷺ.

فائدة الإضافة في قوله: ﴿شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

بيان أنّ إضافةَ الموصوف للصِّفة، من أجل إفادة بيانِ الموصوف وإيضاحِه

لَمّا كانت الإضافة هنا من إضافة الموصوف إلى صفته مثلَ قولِه تعالى: ﴿وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ﴾ [يوسف: 109][3]؛ أفادت الإضافةُ شدَّةَ لصوق الصِّفة بالموصوف حتَّى صارت هي نفسها، فتكون الإضافة بيانيَّة، وتقدير الكلام: (في الشّيَعِ الأوَّلين).

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/572، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، والطيّبي، حاشية الطّيبيّ على الكشّاف: 9/20.

(2) السّمعاني، تفسير السّمعاني: 3/131، والكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 980، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/125.

(3) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 980، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/124، والأشمونيّ، شرح ألفيّة ابن مالك: 2/141.

﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ١١﴾ [الحجر: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تقبيح عملِ الأوّلين والمتأخّرين من الكافرين، لتواصيهم في الاستهزاء بالرُّسل

لَمّا أخبر اللّه تعالى أنَّه قد أرسل رسلًا في الأمم السابقة؛ بيَّن في هذه الآية كيف تعاملت هذه الأُمم مع هؤلاءِ الرُّسُلِ، فقال: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: أصلُ (هزأ) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تدلُّ على السُّخرية، يُقالُ: هَزِئَ واسْتَهْزَأ؛ إذا سَخِرَ، وأصله من استخفاف المستهزِئ بالمستهزَأِ به وذهاب قيمته عنده، وكلُّ ما ورد في القرآن من (الاستهزاء)؛ فهو بمعنى السخرية مع استخفاف قدر المستهزَأ به، والهُزْءُ: مزحٌ في خفية، والاسْتِهزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ، وإنْ كان قد يُعبَّرُ به عن تعاطي الهزؤ، والمرادُ بـ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ في الآية: المُبالغَةُ في السُّخريةِ والاستخفافِ بالآخرين[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

محنة الرُّسل والأنبياء مع أقوامهم واحدة، في كلّ العصور

ذَكَرَ الحقُّ ﷻ حال هؤلاء الرُّسلِ مع تلك الشّيع المتجمِّعة على الباطل، فقال: وما أتَى تلك الأُمَمَ الماضيةَ مِن رَسولٍ أرسَله اللّهُ إليهم؛ لدَعوتِهم إلى الحَقِّ، إلّا سخِروا به، وكَذَّبوه[2]، فما من رسولٍ جاءهم بالدعاء إلى توحيد اللّه والإذعان بطاعته إلّا كانوا منه يسخرون، وفي هذا تَسْلِيَةٌ للرَّسول ﷺ، فكما فَعَل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فُعِلَ بمن قبلك من الرُّسل[3].

(1) الخليل، العين، وابن سيده، المحكم، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هزأ).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/20، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/527.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/69، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بيان قبح فعالهم بمن يأتي من الرّسل

دلالة قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم﴾:

أفاد دخول (ما) على الفعل المضارع، حكاية الحال الماضية؛ لتصوير قبح عملِهم[1].

فائدة مجيء ﴿مِّن﴾:

أفاد حرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قولِه: ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ التَّنصيصَ على استغراق جنس كلِّ الرُّسل، ففيه تعجيبٌ من الكافرين في استهزائهم بكلِّ رسولٍ يأتيهم، فكأنَّهم تواصوا بالاستهزاء بالرُّسل.

التَّعجيبُ من عملِ الكافرين، لجعلِهم وصفَ الرِّسالة سببًا للاستهزاء بالرُّسل

بلاغة تعليق حكم الاستهزاء على المشتقِّ ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾:

لَمّا علَّقَ الحكم، وهو الاستهزاء على إتيان الرَّسول؛ دلَّ على علّيَّة المأخذِ، بمعنى أنَّ استهزاءهم بمن يأتيهم كان بسبب ما اتَّصَفَ به من كونِه رسولًا من عندِ اللّه، وليس بسببِ شيءٍ آخر يقتضيه التَّكذيب أو الاستهزاء، تقبيحًا لعملِهم، وبيانًا لعادتِهم في معاملةِ رسل اللّه عليهم السلام.

كثرة استهزاء الكفّار بالرَّسول نُزِّلَ منزلة من ليس له عمل سوى الاستهزاء به

فائدة تقديم ﴿بِهِۦ﴾ في سياق الآية:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على الجملة الفعلية ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للإيذانِ بتخصيصِ استهزائهم بالرَّسول على طريق القصر الإضافي للمبالغة، أيّ: كانوا يبالغون في الاستهزاء به، والمعنى: قد قَصَروا استهزاءهم على رسولِهم الذي أرسله اللّه تعالى فيهم؛ لِأَنَّهُمْ لَمّا كانوا يُكْثِرونَ الِاسْتِهْزاءَ بِرَسولِهِمْ ﷺ، وصارَ ذَلِكَ سَجيَّةً لَهُمْ؛ نُزِّلوا مَنْزِلَةَ مَنْ لَيْسَ لَهُ عَمَلٌ إلّا الِاسْتِهْزاء بالرسول ﷺ[2].

سبب إيثار التَّعبير بقولِه: ﴿بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

لم يَقُلْ: (إلّا كانوا منه يستهزِئون)، فجاء بالباء، وقال: ﴿بِهِۦ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف/572، والبيضاويّ، أنوار التنّزيل: 3/207.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

إفادة باءِ الملابسة المبالغة في استهزاء الكافرين برسلِهم

﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ لأنَّه لَمّا كانت الباء للملابسة؛ دلَّ على أنَّ استهزاءهم كان بجميع ما يكون من الرَّسول، أيْ: ملابسَةِ الاستهزاء لكلِّ الرَّسول، ولو قال: (منه يستهزِئون)؛ لأفاد استهزاءهم بأمرٍ من أموره وشأنٍ من شؤونِه، فأفاد مجيء الباء المبالغة في السُّخرية والاستهزاء.

دلالة عود الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ على الرّسول:

علّة الاستهزاء الرّسالة الّتي جاء بها

لَمّا كان الضَّمير عائدًا إلى لفظ ﴿رَّسُولٍ﴾؛ أفاد أنَّ استهزاءَهم كان بالرَّسول الذي أرسله اللّه تعالى، لِيُشْعِرَ أنَّ سببَ استهزائِهم هو ما اتَّصفَ به من الرسالةِ، وليس بغيره.

سرّ مجيء المسند ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ جملة فعلية:

بيان استهزاء الكافرين بالرَّسول ﷺ

لَمّا كانت الجملة الفعلية ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ خبرًا لـ﴿كَانُواْ﴾؛ أفادت تَقْوِيَةَ الحُكْمِ وتقريرَه، بمعنى: تحقيقِ كونهم كانوا يستهزِئون بالرّسول ﷺ.

دلالة التَّركيب ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

الاستهزاءُ بالرُّسل من أقبح أعمالِ الكافرين

لَمّا كان تركيب (كان يفعل) يُفِيدُ اسْتِمْرارَ الفِعلِ والمداومَةَ عليه؛ أفاد قوله تعالى: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ استمرار استهزائِهم بالرُّسل والمداومةَ عليه، وكأنَّه ليس لهم شأنٌ سوى الاستهزاء، أو يقال: ﴿كَانُواْ﴾ دَلَّتْ عَلَى أنَّ الاستهزاء بالرُّسل سَجِيَّةٌ لَهُمَ، والمُضارِعُ دَلَّ عَلَى تَكَرُّرِهِ مِنْهُم، وفي مجيء الفعل مضارِعًا حكايةٌ للحالِ وتصويرٌ لها؛ لإظهارِ قبيح فعلِهم، وإشعارٌ بأنَّ الاستهزاء قد يزيد، وذلك دليلٌ على أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قد بلغَ منهم مَبْلَغًا[1].

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

من براعة نظمِ القرآن، مجيءُ كلِّ لفظ على ما يناسبه في السّياق

قال اللّهُ تعالى في سورة الحِجْر: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي شِيَعِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٠ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وقال في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23، والشّعراويّ، تفسير الشّعراوي: 12/7655.

سورة الزخرف: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ [الزخرف: 6 - 7]، فذكر في آية الحجر ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾، وفي آية الزّخرف قوله: ﴿مِن نَّبِيٍّ﴾ [الزخرف: 6]، والسّببُ هو أنّه لَمّا تقدَّمَ ذِكْرُ الرّسالةِ في سورة الحِجر؛ ناسبه ذِكْرُ الرَّسول، ولَمّا تقدَّمَ ذِكْرُ النّبوَّةِ في سورة الزّخرف؛ ناسبه ذِكْرُ النبوَّة، كما أنّه لَمّا تقدَّمَ في آية الزخرف ﴿وَكَمْ﴾ [الزخرف: 6] الخبريّة التّي تُفِيدُ التَّكثيرَ؛ ناسب ذلك ذكر النّبيِّ الموحى إليه؛ ليشمل مَنْ كانَ مُرْسلًا، ومَنْ كان غيرَ مُرْسَلٍ، فورد هنا ما يعمُّ الصِّنفين عليهم السلام وأمّا آيةُ الحِجر؛ فلم يرد فيها ولا قبلها ما يطلب بالتكثير مع ما تضمَّنت من قصد تأنيسه عليه السلام، وتَسْلِيَتِه، فَخُصَّتْ بالتعبير باسم الرسالة تسليةً له عن قولهم: ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ بما جرى للرُّسل قبلُ عليهم السلام من مثل ذلك، ومن البيِّن أنَّ موقع الرّسل هنا أمكن في تسليّته، عليه السلام، فجاء كلٌّ على ما يجب من المناسبة(1).

دلالة الاستثناء بالأداة ﴿إِلَّا﴾:

إصرارُ الكافرين على الاستهزاء بالرُّسل مقصودٌ مبيَّتٌ

في قولِه: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، أفاد الاستثناءُ بمجيئه بطريق النَّفي والاستثناء أنَّ الكافرين كانوا مُصِرِّين على الاستهزاء برسلِهم قاصدين له مبيِّتين للأمر مع تكرُّره منهم؛ لتشكيكِهم ولترك دعوتِهم، وآذن أنَّهم كانوا مُخْطِئِينَ بعملِهم ومُصِرِّين على خطئهم.

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/289، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 222.

﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٢ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٣﴾ [الحجر: 12 - 13]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

العلاقة بين مناوأة الرّسل، والإجرام بتكذيب الهدى الّذي هو سببٌ للهلاكِ

لَمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ الأممَ السابقة قد تواردت على تكذيب الرُّسل واختيار طريق الضَّلال؛ جاءت هذه الآية؛ لتبيِّن أنَّ سنَّة اللّه فيهم أنْ سلكَ الاستهزاء والتَّكذيب في قلوبِهم بسبب إجرامِهم وتلقّيهم الحقَّ بالسُّخريَّة(1).

وأيضًا لَمّا كانت قلوبُ أهلِ الضَّلال موصوفةً بالضّيقِ والحَرج، كان الدّاخلُ إليها لا يدخل إلّا بغايةِ العسرِ، فلذلك قال جوابًا لمن كأنَّه قال: أهذا خاصٌّ بهؤلاء؟ فقيل: لا، بل ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾(2)، فهم لا يؤمنون به.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾: أصلُ (سلك): يَدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، والسَّلْكُ، بِالفَتْحِ: مَصْدَرُ سَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ فانْسَلَك، أيْ: أدْخَلْتَه فيهِ فَدَخَلَ، وكلُّ شيءٍ أدْخَلْتَهُ في شيءٍ؛ فقد سَلَكْتَه فيه، واللّه يُسْلِكُ الكفّارَ في جَهَنَّمَ، أيْ: يُدْخِلُهُمْ فيها، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريق، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقه، قالَ تعالى: ﴿لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح: 20]، والسِّلْكُ: الخُيوطُ، الواحِدَةُ سِلْكَةٌ، وجَمْعُه سُلوكٌ(3)، و﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ بمعنى: نُدْخِلُه(4). والمرادُ منه: شدَّةُ وُقوعِ الفِعْلِ ونفاذه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/23.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/27.
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(4) أبو حيان، تحفة الأريب، ص: 166.

2) ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾: أصلُ الكَلمَةِ مِن الجرْم، وهو: القَطْعُ[1]، وقيل أصلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَريمَةُ أهْلِه، أيْ: كاسِبُهُم، ومنه سُمّيَ الذَّنْبُ جُرْمًا؛ لأنَّه كَسْبٌ لِصاحِبِه[2]، والإجْرامُ: ارْتكابُ الجُرْم، وهوَ الإثْمُ العَظيمُ[3]، يُقال: أجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْبًا، أو جَنَى جِنايَة[4]. والجُرْمُ والجَريمَةُ: الذَّنْبُ والإثْمُ، والإجرامُ أيضًا: إلصاقُ الجَريمَةِ بالآخرين، ويأْتي بِمعنى الاعْتِداءِ والظُّلْم، فيُقال: أجْرَمَ في حَقِّ أخيه، أيْ: ظَلَمَهُ، واعْتَدَى عليه، والمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرْآنِ هوَ الكافِرُ، كَقَوْلِهِ تعالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]، والمقصود بالإجرام في الآية: الكُفر، والمراد بالمجرمين: كُفّارُ قُرَيْشٍ.

3) ﴿خَلَتۡ﴾: أصلُ الخُلوِّ: الفراغُ، يُقال: خَلا المَكانُ، يَخْلو، خُلوًّا وخَلاءً: إذا لم يَكُن فيهِ أحَدٌ، ولا شَيْءَ فيه، ويُقال: مَكانٌ خالٍ، أيْ: فارِغٌ[5]. وخَلا مكانُهُ: ماتَ، ومَضَى، والقُرونُ الخاليَةُ: الماضيَة[6]. ويأْتي الخُلوُّ بِمعنى الانْفِراد، تقول: خَلا الرَّجُلُ بِنَفْسِه، أيْ: انْفَرَدَ بها[7]. والمقصود بالخلوِّ في الآية: ما مضى من الزَّمان.

4) ﴿سُنَّةُ﴾: أصلُ كَلمَةِ السُّنَّةِ مِنَ السَّنِّ، وهوَ جَرَيانُ الشَّيْءِ في سُهولَةٍ، يُقالُ: سَنَنْتُ الماءَ على وجْهي أسُنُّهُ سَنًّا؛ إذا أجرَيْته، ومِمّا اشْتُقَّ مِنْهُ السُّنَّةُ، وهيَ السّيرَةُ، وسُنَّةُ رَسولِ اللّه ﷺ: سيرَتُهُ[8]، والسُّنَّة: الطَّريقَةُ حَميدَةً كانَتْ أمْ ذَميمَةً[9]، سُنَّةُ الرَّجُلِ: طَريقَتُهُ، والجَمْعُ سُنَنٌ، وكُلُّ مَنِ ابْتَدَأ شَيْئًا، ثُمَّ عَمِلَ بِهِ غَيْرُهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ فَهوَ الَّذي سَنَّهُ، واسْتَنَّ بالشَّيْءِ: عَمِلَ بِهِ[10]، والمقصود بالسُّنَّةِ في الآية: العادَةُ المَألوفَةُ.

5) ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: هم السّابِقونَ المُتَقَدِّمونَ في الزمان أو الحال أو الفضل والمنزلة،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (جرم).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جرم).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 30/210.
(4) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (جرم).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (خلو).
(6) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (خلى، خلو).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والفيّومي، المصباح المنير: (خلو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سنّ).
(9) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (سنن).
(10) سعدي أبو جيب، القاموس الفقهيّ لغة واصطلاحا، ص: 183.

والـمُرادُ هُنا: الأُمَمُ الَّتي سَبَقَتْ، وعَرَفوا أَخْبارَهُم، فَلَقوا عَذابَ الاستئصال، مِثْلَ عادٍ وثَمودَ، وهذا تهديدٌ لكفّار مكَّة[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإجـرام متَّصل الـحـلـقـات، بـعـضـهـا آخـذٌ بحُجز بعض

كما دخل الكفر في قلوب الأمم السابقة بالاستهزاء بالرسل وتكذيبهم، كذلك نفتِنُ قلوب مشركي قومك الذين أجرموا بالكفر باللّه وتكذيب رسوله[2]، فقد أنزلنا الكُتُبَ على الرُّسل من قبلُ، فبلَّغوا الرسالات حتى طرقت معانيها بَواطِنَهُمَ، وأدخلناها في قلوبِ أولئك المجرمين المستهزِئينَ برسلِهم، فلم يؤمنوا بها، فهم يسمعونَه، ويفهمونَه، ويعلمونَ أنَّه الحقُّ، ومع ذلك يُكذِّبونَ به[3]، ولا يُصَدِّقون بالذكر الذي أُنزل، وقد مضت سنَّة اللّه في الأولين التي لا تتخلَّف بإهلاك المجرمين الذين كذَّبوا رسلَهم، وهؤلاء مِثْلهم، فسَيَهْلِك المستمرون منهم على الكفر والتكذيب[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة مجيء الآية على طريق الاستئناف البيانّي:

تَوارُدُ الأُمَمِ على تكذيب الرُّسل بسببِ إجرامِهم

لّما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، وكان قد يخطر في أذهانِ المخاطَبين سؤالٌ ناشئ من هذه الآية، مفاده: كَيْفَ تَوارَدَتْ هَذِهِ الأُمَمُ عَلَى طَريقٍ واحِدٍ مِنَ الضَّلالِ، فَلَمْ تُفِدْهُمْ دَعْوَةُ الرُّسُلِ ﷺ كَما قالَ تَعالَى: ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: 53]، فلمّا كان الأمر كذلك؛ جاءت هذه الآية؛ لتبيِّنَ أنَّه من فعلِ اللّه تعالى بسبب إجرامهم[5].

---

(1) الواحديّ، الوسيط: 3/40، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/346.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/70، والبغويّ، معالم التنزيل: 3/51، نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، ص: 262.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/125، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/148.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/91، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسّر، ص: 262.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/23.

دلالة التّعبير بـ﴿كَذَٰلِكَ﴾ في السّياق الكريم:

التّشبيه المركّب من بليغ الأساليب

لَمّا كان لفظ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مفيدًا التَّشبيه على أمرٍ قد سبق أو أمرٍ حاضرٍ في ذهنِ المخاطَبِ؛ كان اسم الإشارة الذي للبعيد (ذلك) للتَّعبير عن المشبَّه به الذي يكون مركَّبَ الصّورةِ والمعنى، فأوجز معناه التَّركيبي في لفظٍ واحدٍ، وجعله مشبَّهًا به، ثم ذكر المشبَّه، فيكون هذا التَّركيب من قبيل التَّشبيه المركَّب.

بلاغة التَّشبيه في: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾:

مُقابَلَةُ النَّظِيرِ بالنَّظير، لإقامة الحجّة، ولتحقيق الإذعان على المحجّة

لَمّا كان المشبَّه به هو اسم الإشارة، والمشار إليه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ هوَ السَّلْكُ المَأْخوذُ مِنْ ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾؛ كان التشبيه بتقدير: مِثْلَ سَلْكِ الكتب المنزَّلة على الأمم الماضية حين أُلْقِيَتْ عليهم من الملأ الأعلى، نَسْلُكُ الذِّكرَ في قلوب المجرمين من مشركي مكة وفي قلبِ كلِّ مجرم لا يؤمن بالله، وبأنَّ القرآن من عنده سبحانه، أو التَّقدير: مِثْلَ سَلْكِ الاستهزاء والتَّكذيب بالرُّسل الذي سلكناه في قلوب شيع الأولين، نَسْلُكُ الاستهزاء والتَّكذيب، أيْ: نَجْعَلُه ونُدْخِلُه، ففي الكلام إبْطالٌ لاسْتِهْزائِهِمْ عَلَى طَريقَةِ التَّمْثيلِ بِنُظَرائِهِمْ مِنَ الأُمَمِ السّالِفَةِ[1]، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون المعنى: مِثْلَ سَلْكِ التَّصديق في قلب مَنْ صَدَّقَ رسولَ الله، واختاره؛ نسلك التكذيب في قلب من اختار التكذيب وكذبه، أو المعنى: مِثْلَ الذي سلكنا في قلوب المؤمنين، من قبول الآيات والحجج، والتصديق لها، لِما علِمْنا أنَّهم يختارون ذلك؛ نسلك في قلوب المجرمين، من تكذيب الآيات والحجج وردِّها، لِما علِمْنا منهم مِنَ الرد والتكذيب لها[2]، وفي هَذا التَّنْظير تَحْقيقٌ لِكُفرِ أهلِ مكَّة المكذِّبين؛ لأجل مقابلة النَّظير بالنَّظير في عدمِ الانتفاع من الكتاب المنزَّل عليهم أو في التَّكذيب والاستهزاء.

(1) الثّعلبيّ الكشف والبيان: 15/432، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/370، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/525، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/22.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

لا يجتمع الإيمانُ والكفرُ في قلبٍ واحدٍ

لَمّا كانَ السَّلكُ هو إدخال الشيء في غيره بدقَّةٍ على معنى النَّفاذِ والامتدادِ حتَّى إصابةِ الهدفِ، كإدخال الخيط في ثقبِ الإبرة، والرمح في المطعون؛ دلَّ على دقَّة السَّلْك في قلوبِ المجرمين وإصابته إصابةً محكمةً بحيث ينفذ في قلوبِهم، وأفادَ التَّعبير بالسَّلْكِ انتفاء إيمانِهم؛ لأنَّه إذا كان التَّكذيبُ قد دخل في قلوبهم دُخولَ الخَيْطِ في المِخْيَطِ، فإنَّه لا يمكن أنْ يجتمعَ والإيمانَ في قلب واحد، فلا يمكن أنْ يؤمنوا بالذكر الحكيم، لامتلاء قلوبِهم بالكفر.

فائدة التَّعبير بنونِ الجمعِ في: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

لا مدافعةَ ولا منازعةَ لأفعالِ اللهِ، جلّ في علاه

لَمّا كانت النّون للتّعظيم؛ دلَّ على إظهارِ التَّعظيم لفعلِ اللّه تعالى، للإشعارِ بأنَّ فعلَ اللّه تعالى في سَلْكِ الذِّكر أو التَّكذيب أو غيرِه في قلوبِ المجرمين له أثرٌ قويٌّ كاملٌ فيهم، بِحيثُ لا يستطيعون دفعَه ولا منازعته، فهم مغلوبون مقهورون.

فائدة مجيء صيغة المضارع ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

بيان تعظيم شأنِ الله تعالى، في فعلِه بالمجرمين

أفادت صيغة المضارع استمرار الفعل وتجدُّدَه من مشركي مكَّة في زمنِ نزول القرآن حالًا فحالًا، أيْ: كلَّما تجدَّد نزوله، وسمعوه على القولِ بأنَّ المرادَ سلك الذِّكر، وفيه استحضارُ الصّورة لبيان عظمة اللّه وتعظيم شأن فعلِه سبحانه؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمَقْصودَ بَيانُ طريقةِ تَلَقّي الْمُشْرِكينَ لِلْقُرْآنِ، أيْ: تَجَدَّدَ لِهَؤُلاءِ إبْلاغُ القُرْآنِ عَلَى سُنَّةِ إبْلاغِ الرِّسالاتِ لِمَنْ قَبْلَهُمْ، أو المراد استمرار سلك الاستهزاء في قلوبِهم وتجدُّده[1].

دلالة عودِ الضّمير في قولِه: ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾:

الكافر يقرأ القرآن، ولا يَنْتَفِعُ منه لمرضٍ في قلبِه

يَحْتَمِلُ أنْ يكون الضمير في ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾ عائدًا على الذِّكر، وهو

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/126، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/24.

القرآن، ويكون الضمير في قوله: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾ عائدًا عليه أيضًا، أيِّ: لا يصدِّقون به، والمعنى: كذلك نُدْخِلُ الذِّكرَ في قلوب المجرمين، فلمّا تعلَّق في قلوبِهم بوصفِ كونِهم مجرمين؛ دلَّ على أنَّ سلكَه يجعلهم مكذِّبين به مستهزئين، أيِّ: مكذَّبًا به مردودًا مستهزأ به نُدْخِلُهُ في قلوب المجرمين، أيِّ: هَكَذا نولِجُ القُرْآنَ في عُقولِ المُشْرِكينَ، فَإنَّهُمْ يَسْمَعونَهُ، ويَفْهَمونَهُ؛ إذْ هوَ مِنْ كَلامِهِمْ، ويُدْرِكونَ خَصائِصَهُ، ولَكِنَّهُ لا يَسْتَقِرُّ في عُقولِهِمُ اسْتِقْرارَ تَصْديقٍ بِهِ، بَلْ هُمْ مُكَذِّبونَ بِهِ، وبِهَذا السَّلْكِ تَقومُ الحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِتَبْليغِ القُرْآنِ إلَيْهِمْ، ويُعادُ إسْماعُهُمْ إيّاهُ المَرَّةَ بَعْدَ المَرَّةِ؛ لِتَقومَ الحُجَّةُ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون الضمير في نَسْلُكُهُ يعود على الاستهزاء المقتضي للتَّكذيب، فيعود على المصدر المفهوم من الفعلِ في قوله: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، ويعود الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ أيضًا على ذلك بعينه، والباء سببيَّة، أيِّ: لا يؤمنون بسببِ استهزائهم[1].

بلاغة الإظهار في موضعِ الإضمار:

سلكُ التَّكذيب والاستهزاء في قلوب الكافرين، بسبب ذنوبِهم واحتيالِهم

كانَ الظّاهرُ أنْ يقول: (كذلك نسلكه في قلوبِهم)؛ لأنَّ السياق في ذكر أهلِ مكَّة المعاندين، فجاء الكلامُ على خلافِ مقتضى الظاهر، لتعليقِ السَّلْكِ بالوصف المشتقِّ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ لبيان سبب الحكم، لِيُفيدَ أنَّ إدخال التَّكذيب والاستهزاء في قلوبهم بسبب إجرامِهم، أيِّ: بما كسبوه من كفرهم بسبب ذنوبِهم العظيمة واحتيالِهم في كسبِهم، ولَمّا كان الاسم المشتقُّ ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ مأخوذًا من (أجرمَ) الرُّباعي؛ دلَّ على تعدّي أثرِ كفرِهم وذنوبِهم العظيمة واحتيالهم إلى غيرِهم، كما أشْعَرَ أنَّ السَّلْكَ في الأمم الماضية كان بسببِ إجرامِهم كذلك، فبذلك يكونون قد ساروا على سنن الأوَّلين في الإجرام.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/352، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/125، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/207، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/24.

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾:

لَمّا كان المقصودُ من المجرمين أهل مكّة الكافرين؛ عبَّرَ به بصيغة (ال) الجنسيّة، للإشعار بأنَّ المرادَ جنسُ المجرمين؛ لِيُفِيدَ الاستغراقَ، ويَدْخُلَ فيه أهلُ مكَّة دخولًا أوَّليًّا[1].

سـلـكُ اللـهِ الـتَّـكـذيـب، يستغرق قلوبَ جميعِ المجرمين

الإشعارُ بالمقابلةِ فيما يجعل في القلوب:

في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، لَمّا علَّق إدخال التَّكذيب والاستهزاء في قلوب المجرمين؛ أَشْعَرَ الكلامُ بالمقابلة، أيْ: من حكم المعنى المذكور أنْ يسلك التّصديق في قلب من صدَّق بالرَّسول، واختاره، فيزداد إيمانًا مع إيمانِه[2].

كما يسلك اللهُ الـتَّـكـذيـب في قلوبِ المجرمين يسلك التَّصديق في قلوبِ المؤمنين

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاء في هذه السّورة قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾، وفي سورة الشعراء: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٢٠٠﴾ [الشعراء: 200]، فذكر في هذه السورة الفعل بصيغة المضارع ﴿نَسۡلُكُهُۥ﴾، وفي سورة الشعراء بصيغة الماضي ﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾ [الشعراء: 200]، ووجه ذلك، أنَّه تقدم في آية الحِجْرِ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ﴾، وهو قول العُتاةِ من كفار قريش وغيرهم الذين عُنوا بقولِه تعالى تهديدًا ووعيدًا: ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، ولم يتقدم في هذه السورة إخبارٌ بحال غيرهم من مكذِّبي الأمم سوى التعريف بأنَّ كلَّ قرية أُهْلِكَتْ فبأجل معلوم، فحال هؤلاء كحال من تقدمهم، فجاء بالفعل المضارع؛ ليدل على استمرارِ الأمر، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسۡلُكُهُۥ﴾، وأمّا آية الشعراء؛ فقد تقدَّمها ذكر أقوام الرُّسُلِ من الأمم المكذبين، فلمّا تقدم أمرُها وقعت العبارة بالماضي، فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

من براعة نظم القرآن، مناسبَةُ كلِّ لفظ لسياقه

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/69.

(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425.

﴿سَلَكۡنَٰهُ﴾ [الشعراء: 200]، ولم يناسب في سورة الشعراء غير الماضي، فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يناسب[1].

فائدة التَّعبير بـ﴿لَا﴾ النّافية في السّياق:

مناسبة المبالغة في نفي الإيمانِ، لمعنى السَّلْك في قلوبِ المجرمين

عُبِّرَ بـ ﴿لَا﴾ النّافية؛ لأنَّها أكثرُ مبالغةً في النَّفي من غيرِها، وهو المناسب للفظ السَّلْك.

بلاغة العموم بحذف المتعلِّق:

إفادة العموم لتكثير المعنى

يَحْتَمِلُ أَنْ يكون الكلامُ بتقدير: وقد خلت سنَّة الأولين بالتكذيب بعد قيام الحُجج، ويَحْتَمِلُ أَنْ يكون المعنى: وقد مضت سنَّة الأوَّلين بالإهلاك فيمَنْ كَذَّبَ الرُّسُلَ مِنَ الأُمَمِ الخاليَةِ، عند مكابرة حُجَجِ اللّه، والظّاهر أنَّ متعلِّقَ الفعلِ ﴿خَلَتۡ﴾ أفادَ العمومَ، بمعنى عموم ما جرى في سنَّة الأوَّلين من تكذيب فريقٍ وإيمانِ فريقٍ آخر، ومن إظهار المكابرة والمعاندة مع التَّكذيب بعد ظهور الحُجَجِ والآيات لفريقٍ وإظهار الانقياد لفريقٍ آخر، ومن إهلاكِ الكافرين المكذِّبين وتخليصِ المؤمنين الصّادقين[2].

بلاغة التَّعريض بكفّار مكَّة ومن لفّ لفّهم:

إنذار المجرمين بحلولِ العذاب بهم إنْ أصرّوا على إجرامِهم

لَمّا كان الخبر في قوله: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أمرًا معلومًا، ليس فيه فائدةٌ متجدِّدة؛ دلَّ على أنَّ الخبر مستعملٌ في لازمه، فيكون المراد من ذكرِ الطريقةِ التي سنَّها اللّه في إهلاكهم حين كذَّبوا رُسُلَهُمْ، وكذَّبوا بالذِّكر المنزَّل عليهم؛ هو الوعيد لأهل مكَّة على تكذيبهم وتخويفهم وتهديدهم، ففيه تَعْريضٌ بكفّار مكَّة وبكلِّ مَنْ يتَّصف بوصف المجرمين من أهل التَّكذيب والاستهزاء برُسُلِ اللّه بأنَّ في ذَلِكَ إعْذارًا لَهُمْ وتنبيهًا لحلولِ العذاب بهم، كما حلَّ

(1) الغرناطيّ، ملاك التّأويل: 2/290.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425، والماورديّ، النّكت والعيون: 3/150، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/370، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/127.

فيمن كان قبلَهم، ولمّا كان الحرف ﴿وَقَدۡ﴾ للتَّأكيد والتَّحقيق؛ أفاد تأكيدَ الوعيدِ، والتَّعريضَ بالإعذار والإنذار[1].

دلالة الإضافة في قولِه: ﴿سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

الاعـتـيـادُ على الـشَّيء يجعله سُنَّةً لصاحبِه

إضافةُ ﴿سُنَّةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ إمّا أنْ تكونَ لأدنى مُلابَسَةٍ، فهي باعْتِبارِ تَعَلُّقِها بِهِمْ، للإشعار بأنَّ هذه هي عادتهم التي ألفوها في التَّكذيب والاستهزاء، وإنَّما هيَ سُنَّةُ اللّه فيهِمْ؛ لأنَّها المَقْصودُ هُنا، وإمّا أنْ تكون من الإضافة إلى المفعول بتقدير سنَّة اللّه في الأوَّلين، وحذف الفاعل في المعنى لظهورِه، وللتَّنبيه على أنَّها صارت سنَّة منسوبةً إليهم لإلفِهم لها[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(السَّلْك) و(الإدخال):

السَّلْك هو نفوذ شيءٍ في شيءٍ، والإدخـــال هو الإيــلاج، وهـو نقيض الإخراج

عُبِّرَ بالسَّلْك دونَ الإدخال، للفرق بينهما: فالسَّلْك هو نفوذ شيءٍ في شيءٍ على وجهِ الدِّقَّة والسُّرعة ويكون بامتدادٍ حتَّى إصابةِ الهدف، ويكون السَّلْكُ في موضعٍ خفيٍّ، حتّى يصلَ إلى الهدف الدّقيق المُسْلَكِ اللّطيفِ المَوْرِدِ[3]، ولهذا يقال: سَلَكَ الخَيْطُ في الإبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزّمر: 21]، أيْ: فأدخله في الأرض، وأسكنه فيها بنفاذ ودقَّةٍ وامتداد، وأمّا الدّخول؛ فهو الولوج، أيْ: هو نقيض الخروج، ويُسْتَعْمَلُ في المكان والزمان والأعمال، فيكون السَّلْكُ أخصَّ من الدُّخولِ؛ لدلالتِه على النُّفوذ بدقَّةٍ وسرعة وامتدادٍ حتَّى إصابةِ المقصودِ.

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/425، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/25.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/25.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللغّة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سلك)، (دخل).

﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ [الحجر: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

الرّبط بين كفر السّابقين، وكون الآيات الباهرة، لا يؤمن بها المتأخّرون من الكفرة

لمّا بيَّن الله تعالى أنَّ كفرَ مَنْ كفَرَ مِنْ أهْلِ مَكَّةَ ليس لِنَقْصٍ في المعجزة التي جاء بها رسول الله ﷺ، إنَّما ذلك؛ لأنَّهم صدّوا عن الحق، فلو جئت بالمعجزات التي لا يماري فيها العقلاء لماروا فيها، وادَّعَوا ضلال أبصارِهم، فجاءت هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَظَلُّواْ﴾: أصلُ (ظلّ): يَدُلُّ على سَتْرِ شَيءٍ لِشيءٍ، فالظِّلُّ: ظِلُّ الإنسانِ وغيره، تَقولُ: أظَلَّتْني الشَّجَرَةُ، وظِلٌّ ظَليلٌ: دائِمُ الظِّلِّ[2]، ومِنَ البابِ قَولُهم: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا، وذلكَ إذا فَعَلَهُ نَهارًا، وإنَّما قُلنا: إنَّهُ من البابِ؛ لأنَّ ذلكَ شَيءٌ يُخَصُّ به النَّهارُ، وذلكَ أنَّ الشَّيءَ يكونُ له ظِلٌّ نهارًا، ولا يُقالُ: ظَلَّ يَفْعَلُ كذا ليلًا؛ لأنَّ اللَّيلَ نَفْسَهُ ظِلٌّ[3]. والمقصود بـ (ظلَّ) في الآية: ما يدُلُّ على الكَوْنِ في النَّهارِ.

2) ﴿يَعۡرُجُونَ﴾: العُروجُ: مصدر عَرَج، وهو الصُّعودُ والارتِفاعُ، والمِعْراجُ: آلةُ العُروجِ كالمَصعَدِ والمَرْقى التي يُصْعَد بها من أسْفَلَ إلى أعلى، فهو بِمنزِلَةِ السُّلَّمِ أو الدَّرَجِ، ولكن لا تُعرف كيفيَّتُه، يُقال: عَرَجَ إلى السَّطح وإلى السَّماء، يعرُجُ، عُروجًا ومَعْرَجًا، أيْ: صَعَدَ[4]، والمقصود بالعروج في الآية: الصُّعودُ.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4074.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظل).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ظل).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، والزّبيديّ، تاج العروس: (عرج).

3) ﴿سُكِّرَتْ﴾: أصلُ (سكر) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ، مِنْ ذلكَ السُّكْرُ مِنَ الشَّرابِ، يُقالُ: رَجُلٌ سِكِّيرٌ، أيْ: كَثيرُ السُّكْرِ، والتَّسْكيرُ: التَّحْييرُ، والسَّكْرُ: سَدُّ الشِّقِّ ومُنْفَجَرِ الماءِ، والسِّكْرُ: اسْمُ ذلكَ السِّدادِ الَّذي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشِّقِّ ونَحْوِه، والماءُ إذا سُكِرَ: تَحَيَّرَ[1]، وقولُه ﷻ: ﴿سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا﴾[2] أيْ: سُدَّتْ، وتَحيَّرت[3]، وهو المراد هنا في الآية.

4) ﴿مَّسْحُورُونَ﴾: أصلُ (سحر) يدلُّ على خَدْعٍ وشِبْهِه[4]، وحقيقةُ السِّحْرِ: صَرْفُ الشَّيءِ عَنْ حَقيقَتِهِ إلى غَيْرِهِ، فكأنَّ السّاحِرَ لَمّا أرَى الباطلَ في صورَةِ الحَقِّ، وخَيَّلَ الشَّيءَ على غيرِ حَقيقَتِه، قَدْ سَحَرَ الشَّيءَ عَنْ وجْهِهِ، أيْ: صَرَفَهُ[5]. تَقول العَرَبُ للرَّجُل: ما سَحَرَكَ عَن وجه كذا وكذا؟ أيْ: ما صَرَفَكَ عَنهُ[6]، والمَسْحور: ذاهِبُ العَقْلِ المُفْسَدُ[7]. والسِّحْرُ: الأُخْذَةُ؛ وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُه، ودَقَّ، فَهوَ سِحْرٌ، والجَمْعُ أسحارٌ وسُحورٌ، ورجلٌ ساحِرٌ مِنْ قَوْمِ سَحَرَةٍ، والسِّحْرُ: البيانُ في فِطْنَةٍ[8]. والمقصود بالسِّحرِ في الآية: تَخْييلُ ما ليس بِكائِنٍ كائِنًا، والمرادُ: ما رأيناهُ هو تَخَيُّلاتُ المَسْحورِ[9].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

صورةٌ عَجيبَةٌ لعناد الكافرين، ولجحودهم للحقّ بعد ما تبيَّن

ختم الله ﷻ هذه الآيات الكريمة برسم صورة عجيبة لتعنُّت المكذبين، وصدودهم عن الحقِّ، بعد ما توضَّح، فقال: ولو فَتَحْنا

---

(1) ابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (سكر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سحر).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سحر).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سحر).
(7) الزّبيديّ، تاج العروس: (سحر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (رهق).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/26.

على هؤلاءِ الكُفّارِ بابًا مِن السَّماءِ، فجعلوا يصعَدونَ في وضَحِ النَّهارِ في ذلك البابِ، ويُشاهِدونَ ما في السَّماءِ بأعيُنِهم مِن مَلَكوتِ اللّهِ تعالى وقُدرتِه وسُلطانِه ومَلائكَتِه، لجَحَدوا أنْ يكونوا رأوا شَيئًا، ولقالوا: إنَّما سُدَّتْ أبصارُنا بالسِّحرِ، ومُنِعَت من النَّظَرِ، بل نحن قومٌ سَحَرَنا محمَّدٌ، فما عُدْنا نعقِلُ الأشياءَ، ونراها كما يجِبُ[1]، أو المعنى: ولو فَتَحْنا على هؤلاءِ الكُفّارِ بابًا مِن السَّماءِ، فظلَّت الملائكة تعرج فيه، وهم يرونهم عيانًا لجحدوا بها، وقالوا: سُدَّت أبصارُنا، فلم نَرَ شيئًا، بل نحن قومٌ سَحَرَنا محمَّدٌ ﷺ، فما نعقل شيئًا[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة التّعبير بأداة الشَّرط (لَوْ):

حجَّة القرآن كافية هادية، لا يحتاج مع وضوحها إلى بيّنة تعدوها

لَمّا كان حرف (لَوْ) يفيد تعليق حصولِ مضمون الجزاء لحصولِ مضمون الشَّرط فرضًا في الماضي مع انتفاء الشَّرط على سبيل القطعِ؛ دلَّ على أنَّ الشَّرط المذكور ما هو إلّا على سبيل الفرض، وأنَّه منتفي الوقوع، وسِيقَ الكلامُ بهذا الأسلوبِ؛ لإقامة الحجَّة على المشركين في إثباتِ مكابرتِهم ومعاندتِهم، وإنْ ظَهَرَتِ الآياتُ، ووَضُحَتِ الحِجَجُ والمعجزاتُ، والغرض هو الإيذانُ بأنَّ معجزة القرآن كافيةٌ وافيةٌ واضحةٌ، وأنَّ أيَّ معجزةٍ أخرى لا تنفعهم.

فائدة التّعبير بـ(على) في قولِه: ﴿عَلَيۡهِم﴾:

أفعالُ الله عظيمةٌ ولا مدى لحدودِ أفعالِه

قولِه: ﴿فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾، أفاد التَّعبير بحرف الجرِّ (عَلَى) استيعاب الفتح عليهم، وتمكُّنه منهم بحيث لا يبقى شيءٌ مغلقٌ عليهم، ولم يَقُلْ: (ولو فتحنا لهم)؛ لِما يؤذن به حرف الجرِّ (إلى) بالإذن لهم في فتح بابٍ من السماء، والأمر على فرضِ المستحيل لإثباتِ معاندتِهم.

---

(1) البغويّ، معالم التّنزيل: 3/52، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/354، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/72، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/353، وابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/525.

مناسبة مجيء الفعل ﴿فَتَحۡنَا﴾ بصيغة التّعظيم:

للإشعار بعظم الفعل، وأنّه لا يصدر إلّا من الملكِ الواحدِ الأحدِ، وأنّه لا فتحَ في عطاءٍ ومددٍ، إلّا من اللّه الأحد.

دلالة التّنكير في قوله: ﴿بَابٗا﴾:

للسَّماء أبوابٌ وليس لها بابٌ واحدٌ

أفادَ تَنْكِيرُ البابِ تَعْظِيمَهُ وتَفْخِيمَهُ للإيذانِ بعلوِّ شأنِ أبواب السَّماء، ودلَّ التَّنكيرُ على أنَّ للسَّماء أبوابًا كثيرة، وليس لها بابٌ واحدٌ؛ لمجيء ﴿مِّنَ﴾ التبعيضية، كما أفاد التَّنكير أنَّ أيَّ بابٍ منها له الحكم المذكور.

دلالة الضَّمير، في قولِه: ﴿فَظَلُّواْ﴾:

العنادُ والمكابرةُ، صفةٌ لازمةٌ للكافرين

يَحْتَمِلُ أنْ يكون الضَّمير عائدًا إلى المشركين الّذين طلبوا الإتيان بالملائكة والمعجزات، فيكون المعنى: ولو فتحنا على هؤلاء المشركين من قومك بابًا من السّماء، فظلّوا هم فيه يعرجون؛ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، كما يَحْتَمِلُ أنْ يكون عائدًا إلى الملائكة، فيكون المعنى: ولو فتحنا على هؤلاء القائلين لك يا محمد: ﴿لَّوۡمَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ بابًا من السماء، فظلَّ الملائكة فيه يعرجون، والمشركون يرونَهم عيانًا؛ ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، والقصدُ أنَّه لو فَتَحَ للمشركين بابًا من السماء؛ فإنَّهم يصرفون ما يعاينون من مشاهدة الآياتِ الباهرات عن حقيقتِه عنادًا ومكابرةً، أيْ: لَوْ صَعِدوا إلَى السَّماءِ، وشاهَدوا المَلَكوتَ والمَلائِكَةَ؛ لَأصَرّوا عَلَى الكُفْرِ(1).

فائدة الفاء، في جملة ﴿فَظَلُّواْ﴾، من السّياق:

العروج في السَّماء، لا يكون إلّا عن طريق بابها

أفادت الفاء العطف؛ لِتُفيدَ أنَّ الشَّرط مؤلَّف من جملتين بمجموعِهما تتمُّ الحجَّة على المشركين، كما أفادت الفاء التَّرتيب

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/73، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/353، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 10/8.

بمعنى: أنَّ العروج في السَّماء لا يكون إلّا عن طريق بابِها، فتكون الجملة الأولى بمنزلة السبب للثّانية، ويكون الجزاءُ الممتنع مرتَّبًا على مجموعِ الجملتين الممتنعتي الحصول.

بلاغة الاستعارة في قولِه: ﴿فَظَلُّواْ﴾:

(ظلَّ) يُسْتَعْمَلُ لعملٍ يكون في النّهار، للإشعارِ بوضوحِ الرُّؤية وجلائها

لَمّا كان المرادُ أنَّه لو فتح اللّه بابًا من السَّماء؛ لعاينوا الآياتِ، وشاهدوها بوضوح؛ اسْتُعِيرَ لَفْظُ ﴿فَظَلُّواْ﴾ للتعبير عن ظهور الأمر ووضوحِه، بحيث يكون حالُهم مثل حالِ من كان في النَّهار؛ لأنَّ (ظلَّ) يُسْتَعْمَلُ لعملٍ يكون في النَّهار، يقال: ظل فلان يفعل كذا؛ إذا فعله بالنهار[1]، وأَشْعَرَ لَفْظُ ﴿فَظَلُّواْ﴾ بطول المعاينة لِما هو متبادر من اللفظ حيث لا قرينة على إرادة بعضِ الوقتِ، والكلامُ على طريق الاستعارة التصريحية التبعيَّة، ويَحْتَمِلُ أنْ يكون قد ذَكَرَ الظلول؛ ليجعل عروجهم بالنهار؛ ليكونوا مُسْتَوْضِحِينَ لِما يرون، فيكون المرادَ من اللفظ الحقيقَةُ؛ لكونِ الرؤية في النَّهار مُنْكَشِفَةً وواضحةً[2].

نكتة التّعبير بلفظ ﴿يَعۡرُجُونَ﴾:

عُـروجُ الإنسانِ يقتضي نـزولَه، من باب المخالفة

عُبِّرَ بـ ﴿يَعۡرُجُونَ﴾؛ للإشعار بأنَّهم ينزلون، ويصعدون، فذكرَ العروجَ، واستغنى عن ذكر النُّزول؛ لأنَّ العروجَ لا يكون بدون النُّزول؛ لأنَّ الكلام في الإنسان في الحياةِ الدنيا، وليس في الملائكة، فكان ذكرُ العروج ذكرًا للنُّزول، وكانَ حذفُه اختصارًا، واقتضى ظاهرُه إضمارًا[3]، أو لأنَّ العروجَ أصعبُ من النزول، فمن كان قادرًا على العروج؛ كان على النّزول أقدر.

دلالة اللّام في قولِه: ﴿لَقَالُوٓاْ﴾:

أفادت اللّام تأكيدَ قولِهم وتقريرَه، على فرضِ فتح باب من

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/555، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل3/208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/128.
(3) أبو حفص النّسفيّ، التّسير في التّفسير: 9/175.

السَّماء. والقول في الفؤاد يعبّر عن المراد، وإنّما جعل اللّسان على الفؤاد دليلا.

دلالة قوله: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾:

التَّعنُّت طبع مسترذل، يُعْمِي الأبصارَ

أشْعَرَ هذا القولُ باليأس من إيمانِهم، ولَمّا كان فرض عروجهم في باب من أبواب السّماء على معنى ظهور الآيات الباهرات الممتنع إنكارُها لوضوحها؛ أفاد أنَّهم يقولون ذلك لشدَّة تعنُّتهم وسفههم، وأنَّهم ينكرون معاينة ذلك.

بلاغة القصر في قوله: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾:

المبالغة في التَّعنُّت مع ظهور الآيات، دليل المكابرة والسَّفه

عُبِّرَ بالأداة ﴿إِنَّمَا﴾ لإيذانِ المخاطَب أنَّ ما يقولونه من تسكير أبصارِهم أمرٌ لا يعوز المخاطَبَ تحقيقُه ولا إقامةُ الحجَّة عليه؛ لأنَّه في نفسِه جليٌّ وظاهر؛ لِيُفيدَ أنَّ قولَهم إنَّما هو على سبيل المعاندة والمكابرة، ولَمّا كانت الأداة (إنَّما) تفيد القطع بما بعدها؛ أفاد مجيئُها أنَّهم يبتّون القولَ بأنَّ ذلك ليس إلّا تسكيرًا للأبصار، وأنَّ ما يرونه لا حقيقة له، فإنَّه لَمّا قال: ﴿فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ﴾ الذي يفيد ظهور الآيات الباهرات أمامَ أعينهم؛ كان الجزاء ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، على سبيل قصرِ القلب، أيْ: أبصارنا لم تبصر شيئًا باهرًا، بل سُكِّرت، وسُدَّت[1].

دلالة جوابِ الشّرط، في قوله: ﴿لَقَالُوٓاْ﴾:

المجرمون لا يعتبرون، ولا يؤمنون بالآياتِ الباهرات

قولِه: ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا﴾، وفيه أنّه لَمّا كان لفظ ﴿لَقَالُوٓاْ﴾ واقعًا في جواب الشَّرط؛ أفاد أنَّ ظهورَ الآياتِ لهم ومعاينتهم لها لا ينفع في إيمانِهم ولا التَّأثير في قلوبهم، وليس لهم إلا قولهم: ﴿إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، فأعلمَ اللّه ﷻ أنَّ هُؤلاءِ لا يَعْتَبِرونَ، ولا يوقِنونَ، ولا يؤمنون بأبْهَرِ ما يكون من الآيات وأوضحِها[2].

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/208، والسّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 291، 295.

(2) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/68.

سرّ إيثار التّعبير بالأداة ﴿بَلۡ﴾:

السِّحر أشدُّ من تسكير البصر

لَمّا كان الحرف ﴿بَلۡ﴾ للإضرابِ الانتقالي، أفادَ أنَّ ما بعده أعظم؛ ليؤذنَ بالانتقال لِما هو أشنع وأقبح وصفًا، وكأنّه على سبيل التَّرقي، فوصفوا أنفسهم بأنَّهم مسحورون؛ لأنَّ تسكير البصر يُصِيبُ النَّظرَ، والسِّحرُ يُصِيبُ العقلَ والتأثير في جملة الجوارح، ومنها النَّظرُ، والمعنى: أنَّ الأمر لا يختصُّ بتسكير الأبصار، بل نحن قومٌ مسحورون في عقولنا وأبصارنا وجميعِ جوارحِنا[1].

دلالة إيثار التَّعبير بالجملة الاسميّة ﴿نَحۡنُ قَوۡمٞ﴾:

قَبَّحَ الكافرين في ادِّعاء استمرار السِّحر عليهم، لاستمرارِ ظهورِ الآياتِ

قوله: ﴿نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، وفيه أنّه عُبِّرَ بالجملة الاسميَّة لِما تفيدُه من دوام مضمونِها، بمعنى: نحن قومٌ دائمون على مسحوريَّتنا، لإبطالِ أيِّ حجَّةٍ ترد عليهم، وإيرادُ الجملة الاسميَّة بعد تسكير الأبصارِ لبيان إنكارِهم لغير ما يرونه، فإنَّ عروجَ كلٍّ منهم إلى السماء، وإنْ كان مرئيًّا لغيره؛ فهو معلوم بطريق الوجدانِ مع قطع النّظرِ عن الأبصار، فهم يدَّعون أنَّ ذلك نوعٌ آخرُ من السّحر غيرُ تسكير الأبصار[2].

سرُّ إيراد كلمة ﴿قَوۡمٞ﴾ في السّياق:

لفظ القوم يدلُّ على القوّة والاعتداد

في قولِه: ﴿بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ﴾، وفيه إيراد كلمة ﴿قَوۡمٞ﴾ هُنا دونَ أنْ يَقولوا: (بَلْ نَحْنُ مَسْحورونَ)؛ لِأنَّ ذِكْرَها يَقْتَضي أنَّ السِّحْرَ قَدْ تَمَكَّنَ مِنْهُمْ، واسْتَوَى فيهِ جَميعُهُمْ حَتَّى صارَ مِنْ خَصائِصِ قَوْمِيَّتِهِمْ، ولَمّا كان لفظ القوم يطلق عادةً على جماعة الرِّجال الذين يعتدُّ بهم، ويظاهر بعضهم بعضًا؛ عبَّروا به لِلإشعار بقوَّة السِّحر، فيناسب التَّرقي إلى الأعظم بعد ذكر تسكير الأبصار[3].

---

(1) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/353، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/130.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/70.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/25.

نكتة إيثار التَّعبير بـ﴿مَّسۡحُورُونَ﴾:

ادِّعاء السِّحر طريق للهروب من الحقيقة

للإيذان بأنَّهم يقولون: إنَّ كلَّ ما يرونه من الآيات المعجزات الباهرات هو باطلٌ خُيِّلَ إليهم بنوعٍ من السِّحر على سبيلِ التَّمويه والتَّزويق، وليس ثابتًا على الوجه الذي شاهدناه، فالحقيقة خلاف المرئيِّ[1].

القراءات في إبراز الاستعارة التّصريحية، في ﴿سُكِّرَتۡ﴾:

لفظ (سُكِّر) بالتَّشديد تكثير في تسكير الأبصار، وبالتَّخفيف مأخوذ من سُكرِ الشَّراب

قرأ السّبعة سوى ابن كثير ﴿سُكِّرَتۡ﴾، وقرأ ابن كثير ﴿سُكِرَتۡ﴾، فعلى قراءة التَّشديد يَحْتَمِلُ أنْ يكون اللَّفظُ مأخوذًا من السَّكْر؛ وهو سَدُّ الشِّقِّ لئلّا ينفجر الماء، ففي اللّفظ استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، فَكَأَنَّ هَذِهِ الأَبْصارَ مُنِعَتْ مِنَ النَّظَرِ كَما يَمْنَعُ السَّكْرُ الماءَ مِنَ الجَرْيِ، ويَحْتَمِلُ أنْ يكونَ مأخوذًا من سُكْرِ الشّراب؛ ففيه استعارة تصريحية تَبَعِيَّةٌ أيضًا، بتشبيه ما اعترى الأبصار من خللٍ في إحساسِها وفسادٍ في النَّظر بما يعتري عقل السّكران، فيختلُّ إدراكُهُ، أيْ: إنَّ الأبصارَ حارت، ووقع بها من فساد النظر مثل ما يقع بالرّجل السَّكران من تغيُّر العقل وفساد اللُّبِّ، فـ ﴿سُكِّرَتۡ﴾ بالتّشديد على هذا التَّوجيه يراد به زيادة في المنعِ وتكثيرٍ في تسكير الأبصار، أيْ: مرَّةً بعدَ مرَّة على سبيل المبالغة، وأمّا على قراءة التَّخفيف؛ فاللَّفظ مأخوذ من سُكرِ الشَّراب، ويجري فيه الاستعارة المذكورة[2].

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3: 208، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/131.

(2) الهداية إلى بلوغ النّهاية: 6/3869، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/68، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/557، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/573، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/129، وابن الجزرّي، النّشر في القراءات العشر: 2/301، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/266.

﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحجر: 16]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إنَّ في السّماءِ لدلائلَ ظاهرةً على وجودِ الله وتوحيدِه

لَمّا أجابَ اللّه تَعالى عن شُبْهَةِ مُنْكِري النُّبوَّة، وكان قد ثَبَتَ أنَّ القَوْلَ بالنُّبوَّة مُفَرَّعٌ على القَوْلِ بالتَّوْحيد أَتْبَعَهُ تعالى بدَلائِلِ التَّوْحيد، ولَمّا كانَتْ دَلائِلُ التَّوْحيدِ مِنْها سَماويَّةٌ، ومِنْها أرْضيَّةٌ، بَدَأَ مِنْها بِذِكْرِ الدَّلائِلِ السَّماويَّةِ فجاءت هذه الآية.

أو: لَمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّهم لو رَأوا الآيةَ المذكورةَ في السّماءِ لَعانَدوا فيها، عَقَّبَ ذلك بهذه الآيةِ، فكأنَّه قال: وإنَّ في السماء لعِبَرًا منصوبةً غيرَ هذه المذكورةِ، وكفرُهم بها، وإعراضُهم عنها إصرارٌ منهم وعتوٌّ(1).

أو: لَمّا ذَكَرَ كُفْرَ الكافِرينَ وعَجْزَ أصْنامِهِم ذَكَرَ كمالَ قُدْرَتِهِ لِيَسْتَدِلَّ بها على وَحدانيَّتِه(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُرُوجٗا﴾: الباءُ والرّاءُ والجيمُ أصلانِ: أَحَدُهُما: البُروزُ والظُّهورُ، والآخَرُ: الوزَرُ والملْجَأُ، فالأوَّل: البَرَجُ: تباعُدُ ما بَيْنَ الحاجِبَيْن، وكلُّ ظاهرٍ مُرْتَفِعٍ فَقَدْ بَرَجَ؛ وإنَّما قيلَ للبُروجِ بُروجٌ لِظُهورِها وبَيانِها وارْتِفاعِها، أمّا الثّاني: فالبُروجُ: القُصور، الواحدُ: بُرْجٌ، وبهِ سمِّيت بُروجُ السَّماءِ أيضًا؛ لمنازلِها المختصَّةِ بها(3). قال الفَرّاءُ: اخْتَلَفوا في البُروجِ، فقالوا: هيَ النُّجومُ، وقالوا: هيَ البُروجُ المَعْروفَةُ، وقالوا: هي القُصورُ في السَّماءِ(4). وقال الزَّجّاجُ: البُروجُ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/354.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/9.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برج).
(4) الفراء، معاني القرآن: 3/252.

الكَواكِبُ العِظامُ[1]. ومرجعُ الأقوال كلِّها إلى شيءٍ واحدٍ، وهو بُروزُ وظُهورُ شيءٍ ناصعٍ قويٍّ أو مرتفعٍ ضَخْمٍ، فالكواكبُ ظاهرةٌ، والقصورُ ظاهرةٌ[2]. والمقصودُ بالبروج في الآية: منازِلُ الكواكبِ والنُّجوم.

2) ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾: أصْلُ (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وتَحْسينِهِ[3]، أو: زيادةٍ مُحبّبةٍ تَعْلَقُ بظاهر الشّيءِ ناشئةٍ عمّا يزخرُ به باطنُه، ومن ذلك الأصلِ جاء المعنَى الشّائعُ للتّزيّن وهو: التَّحلّي بحِليةٍ مُجتلَبةٍ تقليدًا لِما هو ناشئٌ منَ البدنِ[4]، والزَّيْنُ: نقيضُ الشَّيْن. زانَه الحُسْنُ يَزينُه زَيْنًا، وازْدانَتِ الأرضُ بعُشبها، وازَّيَّنَتْ وتَزَيَّنَتْ، والزّينةُ جامعٌ لكُلِّ ما يتزيّن به النّاسُ، وما يَحْسُنُ في أَنْظارِهِم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالحُلِيِّ والجَواهِرِ[5]. والمقصودُ بالزّينة في الآية: ما يَحْصُلُ بِهِ الزَّيْنُ. والمرادُ: جُعِلَتْ هذه البُروجُ بِأشكالٍ تَقَعُ مَوقِعَ الحُسْنِ في الأَنْظار.

3) ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾: النَّظَرُ: تَأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُه، ثُمَّ يُسْتَعارُ ويُتَّسَعُ فيه، فَيُقال: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ أنظرُ إليه، إذا عايَنْتَهُ[6] أو: مواجهةٌ بالعين بتَرقّبٍ وتهيّؤٍ للرّؤية، ويأتي النَّظَرُ بِمعنى الفِكْرِ والتَّأمُّلِ، يُقالُ: نَظَرْتُ في كلامِهِ، أي: فكَّرْتُ وتأمَّلْتُ[7]، والنّاظرُ: العَيْنُ نَفْسُها، أو: النُّقطةُ السَّوداءُ الصّافيةُ الَّتي في وسَط سَوادِ العين وبها يَرى النّاظرُ ما يُرى[8]. والمقصودُ بالنَّظرِ في الآية: المُشاهَدةُ بالعَيْنِ، والاعتبارُ بالمُشاهَدِ. والمرادُ بالنّاظرين: الَّذين يتمَتَّعونَ بِمُشاهَدَتِها، ويعتبِرون ويتّعَظون بذلك[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يبيِّنُ اللّه تعالى في هذه الآية كمالَ اقتدارِه ورحْمتِه بخلْقِه، بأن قد خَلَقَ في السَّماءِ الدُّنيا نُجومًا بمثابةِ مَنازِلَ للشَّمسِ والقَمَرِ في مَسيرِهما، وزيَّنَ السَّماءَ الدُّنيا بالنُّجومِ

(1) الزجاج، معاني القرآن: 4/73.
(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برج)، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/27.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (زين).
(5) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/269.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نظر).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نظر).
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/29.

التَّنبيهُ إلى خلْقِ السَّماواتِ وما فيها من عَجيبِ التَّكوينِ

لِمَن يُبصِرُها، ولِمَن ينظُرُ إليها فيتأمَّلُها ويعتبِرُ، ويستدِلُّ بها على قُدرةِ خالِقِها ووَحدانيَّتِه ﷻ، والَّتي يَحارُ الفِكْرُ في دقائقِ صَنْعتِها، وقُدرةِ مُبدِعِها. ففي الآية إشارةٌ إلى ما للعُقول السَّليمةِ مِن قُدرةٍ على النَّظرِ في ملكوتِ اللهِ، وارتيادِ مواقعِ العِبرة والعِظةِ مِن آياته المبثوثةِ في هذا الملكوتِ(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ إقامةِ الحُجّةِ في هذه الآيةِ:

الكُفرُ بالله عِنادٌ ومُكابرةٌ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّه لو فتحَ عليهم بابًا منَ السّماء ﴿لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥﴾ [الحجر: 15]، أَعْجَزَهم بهذه الآيةِ، لِيُؤْذِنَ أنَّهم كاذِبون معانِدون، فآياتُ السّماءِ دائمةٌ وهم مُبصِرون لها كلَّ يوم، فدلَّ على أنَّهم لم يُؤمِنوا لعنادِهم ومُكابرتِهم وليس لعدَمِ وجودِ الآياتِ.

فائدةُ الوصْلِ بالواوِ في ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا﴾:

مـا بـين أيْـدي النّاسِ من آياتٍ كـافٍ في الدّلالةِ على توحيدِ الله

ناسبَ العطفُ بالواو في هذه الآيةِ لِمُناسبتِها ما قبْلَها في أنَّ الكلامَ على ما تضمّنَتْه السّماءُ منَ الآيات العظام على توحيدِ اللّه، والمعنَى بدلًا من أنْ يَطلُبوا الآياتِ منَ السّماءِ نُذَكِّرُهم بأنَّ الآياتِ قريبةٌ منهم وأمامَ أنظارِهم، وذلك في السّماءِ التي فوقَهم وما فيها من بُروجٍ، وكذلك النّجوم التي زَيَّنَ اللّه بها السّماءَ.

بَلاغةُ ذكْرِ الخبرِ وإرادةِ فائدتِه ولازِمِه:

الآياتُ السّماويّةُ الظّاهرةُ مُغنِيَةٌ عن طلَبِ خوارقِ العاداتِ

أفادَ الخبرُ إثباتَ أنَّ اللّه تعالى هو الذي جعلَ في السّماء بُروجًا، وليس غيرَه، وهو الذي زيّنَها للنّاظرين، ففيه إثباتٌ لفائدةِ الخبرِ، ولمّا كان الخبرُ الذي تضمّنَتْه الآيةُ معلومًا عندَ أغلبِ المُخاطَبين دلَّ على أنَّ المرادَ لِهؤلاء لازمُه أي لازمُ الفائدةِ، فيكونُ لِتذكيرِ المُخاطَبين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/30، والشوكاني، فتح القدير: 3/151، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/224، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/256.

بأنَّ هناك ما هو أعظمُ منَ الإتيان بالملائكةِ وفتح بابٍ منَ السماء، وهو أنّنا جعلْنا في السّماءِ بروجًا وزيّنّاها للنّاظرين، وهي آياتٌ دائمةٌ أمامَ أنظاركُم، والذي منعَكم منَ الانتفاعِ بها هو عنادُكم، ففي الآية استدلالٌ على مكابَرتِهم، فَإِنَّهُم لَوْ أرادوا الحَقَّ لَكانَ لهم في دَلالَةِ ما هو أمامَ أبصارِهم غُنْيَةٌ عن تَطلُّبِ خَوارِقِ العاداتِ[1].

دَلالةُ التَّأكيدِ في قولِه ﴿وَلَقَدْ﴾:

ظهورُ الآياتِ السّماويّةِ الدّائمةِ أذهلَ النّاسَ عنِ التّفكُّرِ بها

لمّا لم يَنتفعِ المُخاطَبون بما هو أمامَ أبصارِهم منَ الآياتِ العظيمةِ الظّاهرةِ الدّائمةِ على توحيدِ اللّه وبديعِ صُنعِه أُنزلوا منزلةَ المُتردِّدين لذُهولِهم عنها، فافْتُتِحَ الخبرُ بمؤكِّدَين هما لامُ القسَمِ التي تفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ الخبرِ، و(قَدْ) التي تفيدُ تحقيقَ مضمونِ الخبرِ وتقريرَه، ومَرجِعُ التَّأْكيدِ إلى تَحقيقِ الاستدلالِ وإلى الإلجاءِ إلى الإقرارِ بِذلك، ولمّا كانت جملةُ ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ معطوفةً على جملةِ ﴿جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ أفاد دُخولُ التأكيدِ على الجملةِ المعطوفةِ كذلك، إيذانًا بذُهولِهم عنِ الأمرَين معًا، وتقديرُ الكلام: وعِزّتي وجَلالي قد جعلْنا في السّماء بروجًا وقد زيّنّاها للنّاظِرين[2].

نُكتةُ التّعبيرِ بـ﴿جَعَلْنَا﴾:

إفادةُ لفظِ (جعل) معنَى الإيجادِ والإبداعِ

لمّا كانتِ البروجُ قد وُجِدت بعدَ تقدّمِ خلقِ السّماوات، وكان إيجادُها على وجهٍ يظهرُ فيه إبداعُ الخالقِ وعظمُ خلْقِه عبّرَ بلفظِ ﴿جَعَلْنَا﴾ الذي يدلُّ على الإيجادِ والإبداعِ؛ لِيناسبَ سياقَ الآياتِ في بيانِ توحيدِ اللّه وبديعِ خلْقِه.

فائدةُ التّعبيرِ بنونِ العظمةِ: ﴿جَعَلْنَا﴾ و﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾:

حُسنُ النّظرِ في خَلْقِ الله طريقٌ إلى تعظيمِه سُبحانه

أفادَ التّعبيرُ بنونِ العظَمةِ في الفعلَيْن وفي ما بعدَهما منَ الأفعالِ في هذا السِّياقِ تعظيمَ شأنِ فعْلِ اللّه ربِّ العالمين؛ لإبرازِ مزيدِ عنايةٍ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/27.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/27.

بفعْلِ الجعْلِ والتّزْيين هنا، فهو من فعلِ الملكِ الواحدِ الأحدِ، فيُفيدُ تعظيمَ الفاعلِ ﷻ، لحثِّ المُخاطَبين على النّظرِ فيها، والمعنَى: لا أحدَ يفعلُ مثلَ هذا الفعلِ غيرُ اللّه تعالى، تقريرًا لدلائلِ توحيدِ اللّه وعظَمتِه.

فائدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

قُـرْبُ الآيـاتِ الدّالّةِ على الله منَ النّاسِ

(ال) هنا للعهْدِ الذِّهنيِّ؛ للإيذانِ بأنَّ الكلامَ في السّماءِ المعهودةِ عندكم أيُّها المخاطَبون، فالآياتُ الدّالّةُ على إلهيَّة اللّه وتوحيدِه قريبةٌ منكم أمامَ أنظارِكم.

سِرُّ تقديمِ ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ على ﴿بُرُوجًا﴾:

لـمْ يوجِدِ اللهُ الـبُروجَ إلّا في السّماءِ؛ لِتظهرَ الآيـاتُ أمـامَ أنـظارِ الـنّـاسِ دائمًا

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ تخصيصَ جعْلِ البروجِ في السَّماء، وليس في موضعٍ آخرَ، بمعنى لم يوجِدِ اللّهُ البروجَ إلّا في السّماءِ، كما أفادَ التّقديمُ تأكيدَ الجعْلِ المذكورِ وتقريرَه، للإيذانِ بقُربِ الآياتِ وأنّها أمامَ الأنظارِ.

فائدةُ حرفِ الجرّ في: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾:

سَعةُ السّماءِ وعِظمُ خلْقِها إذ حَوتِ البُروجَ فيها

أفادَ حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ أنَّ السّماءَ ظَرفٌ للبروجِ، للإيذانِ بعِظمِ خلْقِ السّماءِ وسَعتِها.

دَلالةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿بُرُوجًا﴾:

تعظيمُ شأْنِ السّماءِ لكونِها من أعظمِ آياتِ الله تعالى

البروجُ هي المنازلُ، واحدُها بُرجٌ، وسُمّيَ بذلك لظُهورِه وارتفاعِه ووضوحِه، ولمّا كانت البروجُ في السَّماءِ دلَّ على عِظَمِ السَّماءِ وعُلوِّ شأنِها[1].

فائدةُ التَّنكيرِ في قولِه ﴿بُرُوجًا﴾:

الـحـثُّ على التّفكُّرِ في خلْقِ الـلـهِ وتقليبِ النّظرِ في السّماءِ

أفادَ التّنكيرُ تفخيمَ شأنِ البروجِ، بقرينةِ السّياقِ واقترانِ فعْلِ الجعْلِ بها، والمعنَى: ولقد جعلْنا في السّماء بروجًا عظيمةً

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/354.

كبيرةً ظاهرةً، للحثِّ على تقليبِ النّظرِ في السّماء والتّفكُّر في خلْقِه سُبحانَه.

دَلالةُ الضّميرِ في قوله: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

الظّاهرُ أنَّ الضّميرَ (ها) يعودُ إلى السّماءِ؛ لأنّها المُحدَّثُ عنها، ولكونِ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ﴾ عائدًا إلى السّماءِ كذلك، فيكونُ مرجعُ الضّميرِ في السّياق واحدًا، ولمّا كان الضّميرُ العائدُ إلى الاسْمِ يحملُ ما اتّصفَ به الاسْمُ منَ الأوصافِ دلَّ على أنَّ المعنَى: زيَّنا السّماءَ التي جعلْنا فيها بروجًا للنّاظِرين، فيكونُ جعْلُ البروجِ في السّماء آيةً وتزْيينُها آيةً أخرى، ويَحتملُ أنْ يعودَ على البُروجِ؛ لِأنَّها الأقْرَبُ في اللَّفْظِ فيكونُ التّزيينُ للبروجِ، والوجهُ الأوّلُ أوْلى وأظهرُ[1]، ولا مانعَ من إرادةِ المعنَيَيْن معًا على طريق الاشتراكِ اللّفظيِّ، بل إرادةُ المعنَيَيْنِ معًا أدْخَلُ وأمكَنُ في الاستدلالِ والامْتنانِ في وقتٍ واحدٍ، وأثرَى في المعنَى، فيكونُ جعْلُ البروجِ في السّماء آيةً، وتزْيينُ البروجِ آيةً ثانيةً، وتزْيينُ السّماءِ آيةً ثالثةً.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

في مجيء لفْظِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ في سياقِ الاستدلالِ على توحيدِ اللّه بعظيمِ فعْلِه وإيجادِه جمعٌ بين الاسْتِدْلالِ والامتنانِ وإدماجٌ لهما بِنِعْمَةِ التَّمكينِ مِنْ مُشاهَدةِ المَرائي الحَسَنَة، ففيه حثٌّ على الإيمانِ باللّه تعالى وتوحيدِه ومقابلةِ النِّعم بالشُّكر، ثُمَّ يَتَفاوتُ النّاسُ في إدْراكِ بديعِ صُنعِ اللّه وعظيمِ نِعَمِه على مِقْدارِ تَفاوُتِ عُلومِهم وعُقولِهِم.

دَلالةُ التَّعبيرِ بصيغةِ التَّفْعيلِ في ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

لمّا كان التّزْيينُ يرادُ به جعْلُ الشّيءِ زَيْنًا، وصيغةُ (زَيَّنَ) تفيدُ شدّةَ التَّحسين للشّيءِ، أي إظهارُ شدَّةِ حُسنِه دلَّ على أنَّه تعالى

الإيجازُ بدَلالةِ ضميرٍ واحدٍ على جُملةٍ منَ المَعاني

الجمْعُ بَيْنَ الاسْتِدْلالِ على توحيدِ اللّه والامتنانِ له سبحانه

إظهارُ شِدَّةِ حُسنِ السَّماءِ بتَزْيينِها، وشمولِ زينتِها كلَّ ما يُطلَقُ عليه زينةٌ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/77، والماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/427، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/471، والبقاعي، نظم الدرر: 11/32.

أظهرَ شدَّةَ حُسنِ السّماء بتَزْيينِها، ولمّا كانتِ الزّينةُ مُبهمةً صادقةً على كلِّ ما يُزانُ به شملتْ كلَّ ما يُطلقُ عليه زينةٌ في السّماءِ من صوَرٍ بديعةٍ وأشكالٍ رائعةٍ وأضواءٍ عجيبةٍ، ويدخل فيه ترتيبُها على نظامٍ بديعٍ مُستتبعٍ للآثارِ الحسنةِ[1].

فائدةُ تزْيين السّماءِ:

الحثُّ على النّظَرِ إليها والتّفكّر فيها، والثناء على المُزيّن ﷻ

لمّا كان ما يَقبحُ في العين منَ المنظرِ لا يَتفكّرُ النّاظرُ فيه ولا ينظرُ إليه؛ فزيَّنَها لهم؛ لِيحملَهم ذلك على التّفكّرِ فيها، والنّظرِ إليها؛ ليعلَموا أنَّه تدبيرٌ واحدٌ؛ حيث جعلَ منافعَ السّماءِ مُتّصلةً بمنافعِ الأرض؛ مع بُعْدِ ما بينَهما، واقتضَى التّركيبُ الثّناءَ على المُزَيِّنِ سُبحانه، وعلى تَزْيينِه ومدْحَه؛ لأنّه أخبرَ أنَّه زيَّنَها للنّاظرين على جهةِ التّعظيمِ والتّفخيمِ ولا يحتملُ أن يُزيِّنها للنّاظرين، ثمَّ يَنهَى عنِ النَّظرِ إليها، فلمّا كان الأمرُ كذلك أفادَ الحثَّ على النَّظرِ فيها وإليها[2]، للاستدلالِ بذلك على وَحدانيَّته سُبحانه والثَّناءِ عليه تعالى.

سببُ إيثارِ حذْفِ مُتعلّقِ الفعْلِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾:

زينةُ السّماءِ مُتنوّعةٌ مُتكثّرةٌ لا يَملُّها النّاظِرون لبديع صنعتها

أفادَ حذفُ مُتعلّقِ الفعلِ ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ العُمومَ، فلم يَذكرْ أنواعَ الزّينةِ منَ الأشكالِ والهيئاتِ البهيَّةِ التي فيها؛ للإيذانِ بتنوُّعِها وتكثّرِها وعُمومِها، فزينةُ السّماءِ لا يملُّها النّاظرون، فهي دالَّةٌ بتنوُّعِها وتكثُّرِها على قُدرةِ مُبدعِها وتوحيدِ صانعِها.

دَلالةُ (ال) في قوله ﴿لِلنَّٰظِرِينَ﴾:

شُمولُ وعُمومُ كُلِّ النّاظِرين دون تمايزٍ بينهم

في قوله ﷻ: ﴿وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ﴾، أفادت (ال) الاستغراقَ لتشملَ كُلَّ مَنْ يتَّصفُ بصِفةِ النّظرِ منَ المؤمنين والكفّارِ، ولا تقتصرُ على صنفٍ دون آخرَ، فتشملُ الرّؤيةُ والنّظرُ كلَّ البشرِ مؤمنِهم وكافرِهم.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208، والهرري، حدائق الروح والريحان: 15/27.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/427.

دَلالةُ قولِه تعالى: ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾:

مَن لم يَنتفِعْ بالنّظرِ إلى السّماءِ فكأنَّ نظَرَه عَدَمٌ

لمّا كان ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ مُشتقًّا منَ النّظر احتملَ أنْ يُرادَ به المُبْصِرون؛ لأنّ السّماءَ منَ المَحسوسات الّتي لا تُدْرَكُ إلّا بِنَظرِ العَيْنِ، ولمناسبةِ لفْظِ ﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ لإدراكِ التّزْيين بالبصرِ، لأنَّ الأشْياءَ الزَّيِّنَةَ هيَ حَسَنَةٌ في أعْيُنِ جميعِ النّاسِ ومحبَّبةٌ لهم، فَلا يَخْتَصُّ المؤمنون أو غيرُهم بِجَعْلِها لَهُم زَيِّنَةً، أو أنْ يُرادَ به المُعتبِرون المُتفكّرون المُستدلّون بها على قُدرةِ مُبدعِها وتوحيدِ صانِعِها[1]، فيكونُ المرادُ منَ النّظرِ نَظَرَ القلبِ لِما فيها مِنَ الزّينَةِ المَعْنَويَّةِ، أي بترتيبِها على نظامٍ بديعٍ مُستتبعًا للآثارِ الحسَنةِ، فيكونُ المرادُ مَنِ انتفعَ بالتّزْيين على سبيلِ التّخصيصِ، وأمّا مَن لم ينتفعْ فكأنَّ نظرَه لا نَظرَ، ويُمكنُ الحملُ على المعنَيَيْنِ معًا على طريق الاشتراكِ اللفظيِّ، فيكونُ أثرَى في معنى الخطابِ.

دَلالةُ الاسْمِ المُشتقِّ ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾:

الحثُّ على النّظَرِ إلى السَّماءِ ومدحُ النّاظِرين المُعتَبِرين

المُشتقّاتُ مَعانيها كلّيّةٌ، فالتّعبيرُ بالاسْمِ المُشتقِّ يُفيدُ أنَّ مَن ينتفعُ من تَزْيين اللّه تعالى للسّماء كلُّ مَنِ اتَّصفَ بالنّظرِ، ففيه حثٌّ على النّظرِ إلى السّماء؛ لأنّه أخبرَ أنَّه زيَّنَها للنّاظرين، ولا يُتَصَوَّرُ أنْ يُزَيِّنَها للنّاظرين، ثمَّ ينهَى عنِ النَّظرِ إليها، فدلَّ على أنَّ السّياقَ يُفيدُ حثَّ كلِّ النّاسِ على النّظرِ إليها ومدْحَ النّاظِرين المُعتَبِرين[2].

فائدةُ حذْفِ مُتعلَّقِ قولِه ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾:

النّظرُ إلى السّماءِ طريقٌ للنّظَرِ فيها والتّفكُّرِ في بديعِ خلَقِ الله

لمّا كان الاسْمُ المشتقُّ ﴿لِلنَّـٰظِرِينَ﴾ يحتملُ أنْ يتعدّى بـ(إلى) وبـ(في)، وحُذِفَ هذا المتعلَّقُ دَلَّ حَذْفُه على عموم التّعلّق[3]، ليفيدَ الحثَّ على النّظرِ في السّماء وإلى السماءِ، فإنْ كانَ التّقديرُ (إلى

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/526، والرّازي، مفاتيح الغيب: 19/12، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/471، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/269، والهرري، حدائق الروح والريحان: 15/27.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/427.

(3) القنوجي، فتح البيان: 7/154.

السّماء) كانَ المرادُ منَ النّاظِرين النّظرَ بالبصرِ، وإذا كانَ التَّقديرُ (في السّماء)، كانَ المرادُ النَّظرَ بالقلبِ والعقلِ، وتقدَّمَ أنَّ الحمْلَ على المعنَيَيْن أثرَى لمعنَى الخطابِ، فالنّظرُ إلى السّماء طريقٌ للنّظرِ فيها وفي زينَتِها وبديعِ ما خلقَ اللّه فيها.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الجَعْلُ والخَلْقُ:

الجعْلُ يُفيدُ معنَى الإبداعِ والخَلْقُ يُفيدُ معنَى الإيجادِ

الجعْلُ هو الإنشاءُ والإبداعُ، والخلقُ هو الإنشاءُ والإيجادُ؛ لأنّ (خَلَقَ) فيه معنى التّقديرِ والتّسويةِ، كما أنَّ الجعْلَ يتوقَّفُ على موجودٍ مُغايرٍ للمجعولِ، بحيث يوجدُ المجعولُ بسببِ المخلوقِ الأوّلِ، أو يكونُ المجعولُ مَحسوسًا عنِ المخلوقِ الأوّلِ، بخلافِ (خَلَقَ) فإنَّ العبارةَ تقعُ كثيرًا به عمّا لم يتقدّمْ وجودَه وجودٌ مُغايرٌ يكونُ عنه الثّاني، فلكلِّ لفْظٍ سياقُه ودَلالتُه وإنِ اشتركا في معنَى الإنشاءِ[1].

(1) الغرناطي، ملاك التأويل: 1/97، والآلوسيّ، روح المعاني: 4/78.

﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ١٧ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ١٨﴾ [الحجر: 17 - 18]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتيْنِ لما قَبْلَهُما:

عِصْمةُ الوحْيِ مِنَ التّغيِيرِ أوِ الزّيادةِ أوِ النُّقصانِ

لمّا ذكرَ اللّه تعالى خلْقَ السّماءِ وما جعلَ فيها منَ البُروجِ والزّينَةِ أتبعَ كلامَه بذكْرِ عِصمةِ الوحَيِ من أن تتطرَّقَ إليه زيادةٌ أو نقصانٌ، لأنّ نزولَه منَ السّماءِ، فالعوالمُ التي يصدرُ منها الوحْيُ ويَنتقلُ فيها محفوظةٌ منَ الشّياطينِ المَرجومةِ، فيكونُ الكلامُ على طريقِ الإدماجِ للتّعليمِ أثناءَ الاستدلالِ على توحيدِ اللّه[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾: أصلُ الحِفْظِ: مُراعاةُ الشَّيْءِ، أو: احتياطٌ قويٌّ ضابطٌ للشّيءِ فلا يضيعُ ولا يتفلّتُ[2]، ويأتي الحِفْظُ بِمعنى الرِّعايَةِ والعِنايَةِ والحمايةِ، وضِدُّهُ التَّضْييعُ والتَّفْريطُ، والحِفْظُ أيْضًا: التَّعاهُدُ وقِلَّةُ الغَفْلَةِ، وضِدُّهُ النِّسْيانُ، يُقالُ: حَفِظَ الكلامَ، أي: تَعاهَدَهُ ولَم يَنْسَهُ[3]، والحَفيظُ: الرَّقيبُ، والموكَّلُ بالشَّيْءِ يَحْفَظُهُ، وكذلك الحافِظُ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾ [الشورى: 6][4]. والمقصودُ بالحِفْظِ في الآية: الرِّعايَةُ والعِنايَةُ والحمايةُ. والمُرادُ بالحِفْظِ مِنَ الشَّياطينِ الحِفْظُ مِن اسْتِقْرارِها وتَمَكُّنِها مِنَ السَّماواتِ[5].

2) ﴿رَّجِيمٍ﴾: أصلُ الرَّجْمِ: الرَّميُ بِالحِجارةِ، والرِّجامُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/29 - 30.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حفظ).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حفظ).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حفظ).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

الحِجارةُ، يُقالُ: رُجِمَ فُلانٌ، إذا ضُرِبَ بالحِجارَةِ[1]، والرَّجْم أيضًا: السَّبُّ والشَّتْمُ، لأنّه رُمي بالقول القبيحِ الذي يُشبهُ الحجارةَ في قسوتِه، ومنه قَولُه تعالى حكايةً عَن أبي إبراهيمَ لإبراهيمَ عليه السلام: ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]، أي: لأَسُبَّنَّكَ وأشْتُمَنَّكَ، والرَّجْمُ كذلك: اسْمٌ لِما يُرجَمُ به الشّيءُ المرجومُ، وجمعُه: رُجومٌ. والرَّجيم في نعتِ الشَّيْطان المرجومُ بالنُّجوم[2]، والرَّجيمُ أيضًا: المُحَقَّرُ؛ لأنّ العَرَبَ كانوا إذا احْتَقَروا أحدًا حَصَبوهُ بِالحَصْباءِ[3]. والمرادُ بالرَّجيمِ في الآية: المَطْرودُ، وهو كنايَةٌ عَنِ الحَقارَةِ.

3) ﴿ٱسْتَرَقَ﴾: أصلُ (سرق): أَخْذُ شَيْءٍ لغيره في خَفاءٍ وسَتْرٍ أو بِحيلةٍ، يُقال: سَرَقَ المالَ سَرَقاً وسَرِقَةً: إذا أَخَذَهُ في خُفْيَةٍ وحيلَةٍ. فهو سارِقٌ. ويُقال: سَرَقَ أو اسْتَرَقَ السَّمعَ: إذا تَسَمَّعَ سِرًّا ومُختَفيًا. ومِمّا شَذَّ عَنْ هذا البابِ السَّرَقُ: جَمعُ سَرَقَةٍ، وهيَ القِطْعَةُ مِنَ الحَرير[4]، وكأنّها تسرقُ البصرَ من جمالِها، والمقصودُ باستراقِ السّمع في الآية: سَرِقَتُهُ. ووزنُ الافتعال للتَّكلُّف.

4) ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: أَصْلُ (تبع): التُّلُوُّ والقَفْوُ، يُقالُ تَبِعتُ فُلانًا إذا تَلوتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ إذا لَحِقْتَهُ[5] كأنَّما لَحِقَ أوِ التصق به وتَطَلَّبَه مُتَّبِعًا له[6]. وتَبِعتُ الرَّجُلَ إذا مشيتُ مَعَه، واتَّبعتُه إذا مشيتَ خَلفَه لتلحقَه[7]. قال أبو عُبيد: ويُقال: أَتْبَعْتُ القَومَ إذا كانوا قد سبقوك فلحقتَهم. وأتبع فلانٌ فلانًا إذا تبعَه يُريد به شرًّا، كما أتبعَ فِرْعَوْنُ موسَى، والهَمزَةُ زائِدَةٌ، مثلَ هَمزَةِ أبانَ بِمَعْنَى بانَ. وأمّا التَّتبُّع فأنْ يتتبَّعَ في مُهْلَة شَيئًا بعدَ شَيْءٍ[8]. والمرادُ بالاتّباع في الآية: اقتفاءُ أثَرِ الشَّيءِ بحيث لا يفوتُه. والمرادُ بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾ في الآية: لَحِقَهُ غَيْرَ مُفْلِتٍ له.

5) ﴿شِهَابٌ﴾: أصلُ (شهب): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على بَياضٍ في شَيءٍ مِنْ سَوادٍ، ومِنْ ذلكَ:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجم).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرق).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).

(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (تبع).

(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (تبع).

(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (تبع).

الشُّهْبَةُ في الفَرَسِ، وهو بَياضٌ يُخالِطُه سَوادٌ[1]، تشبيهًا بالشِّهابِ المختلطِ بالدُّخان، ومنه قيل: كتيبةٌ شَهْباءُ: اعتبارًا بسَوادِ القَومِ وبياضِ الحَديدِ[2]. والشِّهابُ: الشُّعلةُ السّاطعةُ مِنَ النّار الموقدة، ومِنَ العارضِ في الجوِّ، والجميعُ الشُّهُبُ والشُّهْبانُ[3]. والمقصودُ بالشِّهاب في الآية: الشُّعْلَةُ مِنَ النّارِ الَّتي تَنْقَضُّ باللَّيلِ شِبْهَ الكوكبِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حِفْظُ الله تعالى السَّماءَ من مَرَدةِ الشَّياطين آيةٌ من آياتِه

يُخبرُ الحقُّ ﷻ أنَّه قد حَرَسَ السَّماءَ الدُّنيا من كُلِّ شَيطانٍ ذَميمٍ محقَّرٍ مَطرودٍ من رَحمةِ اللهِ؛ لئَلّا يَسْتَمِعوا إلى الملأِ الأعلَى، لكن قد يتقدَّمُ بعضُ مَرَدتِهم فيختطفُ بخُفْيةٍ خطفةً يسيرةً ممّا يَسمعُه مِنَ الملائكةِ مِنَ الأخبارِ والحوادثِ ممّا سِوى الوحْي، فيلحقُه شهابٌ مِنَ النّارِ مضيءٌ ظاهرٌ، فيقتلُه أو يُخبلُه أو يُحرِقُه[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الوصْلِ بالواوِ في: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا﴾:

تأكيدُ حفْظِ الله للسّماءِ من أن يَصلَ منها شيءٌ إلى كلِّ شيطانٍ رجيمٍ

لَمّا كانتِ الواوُ للعطفِ أفادتْ دخولَ الجملةِ المعطوفةِ في حيّزِ التّأكيد بـ﴿وَلَقَدْ﴾، لتكونَ معطوفةً على ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ والتّقديرُ: ولقد حفظْناها من كلِّ شيطانٍ رجيم، وأفادَ التّأكيدُ هنا إضافةً لِما تقدّمَ في دلالةِ ﴿وَلَقَدْ﴾ تحقيقَ حفْظِه تعالى للسّماء من كلِّ شيطانٍ رجيم وتقريرَه.

مُناسبةُ تقديمِ التّزْيين على الحفْظِ:

تقديمُ ما هو أعمُّ وأظْهرُ دلالةً على توحيدِ الله ممّا هو أخصُّ وأخْفَى

لَمّا كان تزيينُ السّماءِ أظهرَ دلالةً على توحيدِ اللّه تعالى وبديعِ صُنعِه؛ لأنّه يعمُّ النّاظرين جميعًا، وكان حفظُها خاصًّا؛ لئلّا يَسترقَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهب).
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شهب).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات: (شهب).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/31، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/10- 11، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.

الشَّيطانُ السّمعَ قدَّمَ ما هو أعمُّ وأظهرُ على ما هو أخصُّ وأخفَى، فجاء قولُه تعالى: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾ على سبيلِ الإدماجِ لإفادةِ تمامِ المعنى، بعدَ إظهارِ عظمةِ إيجادِ البروجِ في السّماء وتزْيينِها للنّاظِرين.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بلفْظِ الحفْظِ:

شُمولُ معنَى الحفْظِ للقُربِ مِنَ السّماءِ ولِدخولِها

لمّا كان الحفْظُ بمعنى تعهُّدِ الشّيءِ ومراعاتِه بحيث يبقَى كما هو معَ دوامِ المقصودِ منه، ومنعِ ما يُعطّلُ فائدتَه، قد يقال: لِمَ عُبِّرَ بقولِه: ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، والشَّيْطانُ لا قُدْرَةَ له على هَدمِ السَّماءِ، فأيُّ حاجَةٍ إلى حِفظِ السَّماءِ مِنْهُ؟ والجوابُ: لَمّا مَنَعَهُ مِنَ القُرْبِ مِنْها، فَقَدْ حَفِظَ السَّماءَ مِنْ مُقارَبَةِ الشَّيْطانِ، فَحَفِظَ اللّه السَّماءَ مِنْهُم، كَما قَدْ تُحْفَظُ مَنازِلُنا عَنْ مُتَجَسِّسٍ يُخْشَى مِنْهُ الفَسادُ، فيحتملُ أن يكونَ الحفْظُ بمعنى شاملٍ للقُربِ منها للاستماعِ ويحتملُ أن يكونَ بمعنى دُخولِها[1].

دَلالةُ قولِه ﴿وَحَفِظْنَـٰهَا﴾:

أنَّ الشَّيطانَ لا يأتي منه إلّا الفسادُ

أفادَ التّعبيرُ بحفْظِ السّماءِ بيانَ أهمّيتِها وعُلوِّ شأنِها، لتَكفُّلِ اللّه بحفْظِها، وزادَ الأمرَ اهتمامًا مجيءُ الفعلِ بصيغةِ التّعظيم باقترانِه بنونِ العظَمة، للإشعارِ بأنَّ الذي يحفظُها هو الملكُ الواحدُ الأحدُ، ولمّا كان حفظُها هو من كلِّ شيطانٍ رجيمٍ دلَّ على أنَّ الشَّيطانَ لا يأتي منه إلّا الفسادُ.

فائدةُ التّعبيرِ بـ﴿مِن﴾:

منعُ الشّياطين الوُصولَ إلى السّماءِ بغرض الاستراق

عبّرَ بحرفِ الجرِّ ﴿مِن﴾ الذي هو لابتداءِ الغايةِ؛ للإيذانِ بأنَّ حفْظَ السّماءِ ابتدأ من كلِّ شيطانٍ رجيم، ليُشعرَ بمنعِهم منَ الوصولِ إليها ودخولِها، ومنَ الاقترابِ منها، إلّا فيمن اسْتُثْنيَ كما سيأتي.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/129.

فائدةُ لفْظِ ﴿كُلِّ﴾:

حظرُ دُخولِ السّماءِ يَشملُ جميعَ الشّياطين

أفادَ لفظُ ﴿كُلِّ﴾ العمومَ، ليشملَ كلَّ شَيطانٍ، ولمّا كان الحفْظُ لا يُقصدُ به الحفْظُ من ذاتِ الشّيْطان دلَّ على أنَّ المرادَ ما يُفيدُ معنى الدّخولِ والوقوفِ على أحوالِها، والمعنى: وحفظْناها من دُخولِ كلِّ شيطانٍ رجيمٍ واقترابه، إذِ الحفْظُ لا يكونُ من ذاتِ الشّيطانِ[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿شَيۡطَٰنٖ﴾:

الـدّلالـةُ على حفْظِ الله تعالى السّماءَ منه مع عُتوِّه

الشّيطانُ فَيعالٌ منَ البُعدِ أو فَعْلان منَ الاحتراقِ، والرّاجحُ في معنى الشّيْطان هو البُعدُ، ولا مانعَ من إرادةِ المَعنَيَيْن فيه، فيكونُ المعنى: من كلِّ بعيدٍ منَ الخيرِ مُحترقٍ[2]، فإذا كان هذا الكافرُ العاتي المُتمرّدُ الشّديدُ القويُّ، القادرُ على التّشكّلِ بأشكالٍ مُختلفةٍ، القادرُ على الوُصولِ إلى السّماءِ قد حفِظَ اللّه بقُدرتِه السّماءَ منه فما دونَه في القوّةِ من بابٍ أولَى.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿رَّجِيمٍ﴾:

الـرّجـيـمُ هو المَطرودُ والمُبْعَدُ والقَبيحُ

لمّا كان الرّجمُ هو الرّميُ بالحجارة؛ ليُفيدَ الطّردَ والإبعادَ والهُجرانَ، وكان المقصودُ بالرّمي بالحجارة القتلَ، فقيل للقتلِ رجمٌ، ولمّا كانَ الرّجمُ يأتي بمعنَى السّبِّ والشّتم؛ لأنّه رميٌ بالقولِ القبيحِ، فُسِّرَ بكلِّ ذلك لفظُ ﴿رَّجِيمٍ﴾، وذلك أنَّ الرّميَ بالحجارةِ والقولَ القبيحَ يوجبُ هذه المعانيَ، فَسُمِّيَتْ رجمًا، فدلَّ على أنَّ الوصْفَ دالٌّ على معاني الرّمي والطّردِ والإبعادِ والقُبحِ، ليُفيدَ التّحقيرَ[3].

دَلالةُ الوصْفِ بصيغةِ (فعيل):

المبالغةُ في وصْفِ الشّيطانِ بالطَّردِ والقُبحِ

لمّا كان ﴿رَّجِيمٍ﴾ بمعنى مَرجوم، أفادَ التّعبيرُ به بصيغَةِ فعيلٍ المُبالغةَ في الطّردِ والإبعادِ والشّتْم، وسواءٌ أكانَ الطّردُ بالرّجم

(1) البروسوي، روح البيان: 4/448، والهرري، حدائق الروح والريحان: 15/28.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/32.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/565، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/129، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

بالشّهبِ أم بغيرِه، فصار وصْفُ الرّجيم صفةً ثابتةً له مع المبالغةِ في المعنى[1].

دَلالةُ مجيءِ ﴿رَّجِيمٍ﴾ صفةً للشّيطانِ:

كلُّ شَيطانٍ هو رجيمٌ

وردَ اللّفظُ ﴿رَّجِيمٍ﴾ صفةً لموصوفٍ نَكرةٍ على معنى التّوضيح والبيانِ، وللإشعارِ بتعليقِ الحُكم على الوصْفِ، فالشّيطانُ لا يستطيعُ أن يَقتربَ منَ السّماءِ بلهَ الدّخولَ فيها، فهو مطرودٌ مُبعَدٌ، فليست صفةُ النَّكرةِ هنا قيدًا مُقيّدًا للنّكرة لإخراجِ غيرِ الرّجيم، بمعنى أنَّه يوجدُ شيطانٌ رجيمٌ وآخرُ غيرُ رجيم، فإنَّ كلَّ شيطانٍ رجيمٌ.

دلالةُ الاستثناءِ في: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾:

أقصَى ما يصلُ إليه الشّيطانُ أن يَسترقَ السّمعَ خُفيَةً، وهو بتقديرِ الله

تنوّعتْ عباراتُ المُفسّرين في بيان نوعِ الاستثناءِ من دون بيانِ سببِ الخلافِ، مع أنَّ المعنى يختلفُ على وَفْقِ التّوجيه، ونوجزُ بيانَ المسألة فنقولُ: يحتملُ أنْ يكونَ الاستثناءُ متّصلًا، كما يحتملُ أن يكونَ مُنقطعًا، ومناطُ الاختلافِ في بيان معنَى الحفْظِ في قولِه تعالى ﴿وَحَفِظۡنَٰهَا﴾، فإذا كان المرادُ من حفْظِ السّماءِ دخولَها، كان التّقديرُ: وحفظْنا السّماءَ التي جعلْنا فيها بروجًا من دُخول كلِّ شيطانٍ رجيم، وكان الاستثناءُ مُنقطعًا، والمعنى: حفظْنا السّماءَ من دخولِ كلِّ شيطانٍ رجيم، لكنْ مَنِ استرقَ السّمعَ فأتبعَه شهابٌ مبينٌ، ودليلُ هذا التّوجيهِ أنَّ إقْدامَهُم على اسْتِراقِ السَّمعِ لا يُخْرِجُ السَّماءَ مِنْ أنْ تَكونَ مَحْفوظَةً مِنْهُم إلّا أنَّهُم مَمنوعونَ مِنْ دُخولِها، وإنَّما يُحاوِلونَ القُرْبَ مِنْها، فلا يكونُ الاستراقُ دخولًا، ولا يَصِحُّ أنْ يَكونَ اسْتِثْناءً متَّصِلًا، وإذا كان المرادُ مِنَ الحفْظِ الدّخولَ في السّماء ويشملُ ذلك الاقترابَ منها، أي منْعَ الشّياطين منَ التّعرّضِ لها على الإطلاقِ والوقوفِ على ما فيها في الجملةِ، كانَ استثناءً متّصلًا، وتكونُ ﴿مَنِ﴾ مُستثنًى منصوبًا، والمعنى: حفظْنا السّماءَ التي جعلْنا

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/176، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/355.

فيها بروجًا من دخولِ كلِّ شيطانٍ مرجومٍ ومن اقترابه منها إلّا منِ استرق السّمعَ منَ الشياطين، ويؤيّدُ وجهَ الاستثناءِ المتّصلِ أنَّ (الفاء) في قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾ تفيدُ ترتّبَ ما بعدَها على ما قبْلَها، والمعنى العامُّ على الوجهَيْن يفيدُ أنَّ أقصَى ما يَصِلُ إليه الشّيطانُ الرَّجيمُ أن يَسترقَ السّمعَ، أي أن يأخذَ معلوماتٍ عن طريقِ الخُفيةِ كمن يَسترقُ السَّمعَ، والاستراقُ بتقديرِ اللّه وحُكمِه[1].

بَلاغةُ الاستعارةِ: ﴿ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ﴾:

التّنبيهُ على دِقَّةِ كيْدِ الشّيطانِ وخُبْثِ وَسْوَسَتِه

شُبّهتْ خَطْفَتُهم اليَسيرةُ للكلامِ من قُطّانِ السّماواتِ باستراقِ السّمعِ الذي هو بمعنى اخْتلاسِه سرًّا وبلطفٍ، ووجْهُ الشّبهِ هو التّسمّعُ بتخفٍّ، فيكونُ حالُه كحالِ الذي يأخذ شيئًا ليس له في خفاءٍ وبلُطفٍ، فجاء الكلامُ على طريق الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيّةِ، ونُكتتُه التّنبيهُ على دِقَّةِ كيدِه وخُبثِ وَسْوستِه[2].

فائدةُ التّعبيرِ بصيغةِ الافتعال ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾:

اجتهادُ الشّيطانِ في تحصيلِ سَرقةِ المَسموعِ لسَعْيِه في الشّرِّ

أفادَ التّعبيرُ بلفظِ ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ أنّه اجتهدَ في تحصيلِ سرقةِ المَسموعِ، وبالَغَ في اجتهادِه في ذلك، وتكلَّفَ فيه، للإشعارِ باجتهادِه في سَعْيِه إلى السّوءِ والشّرِّ وتكلُّفِه فيه[3].

فائدةُ التّعبيرِ بالمصدَرِ: ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾:

استراقُ الشّيطانِ كلَّ ما يَقدرُ على سمْعِه

لمّا كان المرادُ استراقَ المَسموعِ كان التَّعبيرُ بالمصدَرِ عنِ اسْمِ المفعولِ للمبالغةِ في حرْصِ الشّيطانِ على استراقِ كلِّ ما يستطيعُ أن يَسمعَه منَ الكلامِ، وعَبَّرَ بالسّمعِ على معنى المَسموعِ؛ لأنّه كلامٌ يسمعُه الشّيطانُ، ثم يُخْبِرُ به فَيُؤَوَّلُ إلى كونِه مسموعًا[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/77، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/176، والزمخشري، الكشاف: 2/574، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/130، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/71.

(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (سرق)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/71.

(3) الرضي الأستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب: 1/110، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

(4) البروسوي، روح البيان: 4/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

نُكتةُ التّعبير بلفْظِ ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾:

سبْقُ الشّيطانِ للشِّهابِ لا تَمنعُ لُحوقَ الشّهابِ به

عَبَّرَ بـ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ﴾ دونَ (تبعه)؛ لأنّ دخولَ همزةِ التّعديةِ على الفعلِ المُتعدّي (تبع) أفادَ أنَّ الشّيطانَ قد سبقَ فتَبَعَ الشّهابُ أثرَه فلحقَه أو أدركَه[1].

دَلالةُ قولِه ﴿مُّبِينٞ﴾:

الشِّهابُ المُبينُ هو الظّاهرُ للنّاظِرين

لمّا كان المبينُ على صيغةِ اسْمِ الفاعلِ بمعنى مُبينٍ للنّاظرين؛ أفادَ أنَّه ظاهرٌ بيّنٌ[2]، فالشّيءُ لا يكونُ مُبينًا لغيرِه إن لم يكن بيِّنًا في نفسِه، وفي لفظِ ﴿مُّبِينٞ﴾ تضادٌّ في المعنى للفظِ ﴿ٱسۡتَرَقَ﴾ الذي يكون بخُفيةٍ، ففيه معنى المُقابلةِ في المعنى.

بَلاغةُ لازمِ الفائدةِ في: ﴿فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ﴾:

الشُّهبُ المُتساقِطةُ في السّماءِ هي رجومٌ للشّياطين المُسْترِقةِ

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّ منْ يَسترقُ السّمعَ منَ السّماءِ يَتبعُه شهابٌ مُبينٌ أفادَ تَعْليمَ المخاطَبين، ومَن كان وقتَ نزولِ القرآن بالأولويَّة، بأنَّ الشُّهُبَ الَّتي يُشاهِدونَها مُتَساقِطَةً في السَّماءِ هي رُجومٌ للشَّياطينِ المُسْتَرِقَة، طَرْدًا لَها عَنِ اسْتِراقِ السَّمعِ كامِلًا، فَقَدْ عَرَفَ النّاسُ ذَلِكَ مِنْ عَهْدِ الجاهِلِيَّةِ ولَم يَعْرِفوا سَبَبَهُ[3].

---

(1) الجوهري، الصحاح: (تبع)، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/270.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ١٩﴾ [الحجر: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرَ اللّه تعالى آيةَ السّماءِ على توحيدِه وتفرُّدِه بالإلهيَّةِ ثنّى بآيةِ الأرضِ، لِمناسبةِ المُضادّةِ والمُقابلةِ[1].

المُقايَسةُ بالنّظرِ إلى السّماءِ والأرضِ استِدلالٌ على أُلوهيَّةِ الله وتَوحيدِه

شَرْحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿مَدَدۡنَٰهَا﴾: (مدّ): أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيءٍ في طول، واتِّصالِ شَيءٍ بِشَيءٍ في استِطالَةٍ[2]، تَقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أمُدُّه مَدًّا. ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهرٌ آخرُ، أي: زادَ فيهِ وواصَلَهُ فَأطالَ مُدَّتَهُ[3]. ومنه: المُدّة للوقتِ المُمتدّ[4]. ومدَّ اللّهُ الأرضَ يَمُدُّها مَدًّا بَسَطَها وسَوّاها، ويُقالُ: مَدَدْت الأرض مَدًّا إذا زِدت فيها تُرابًا أو سَمادًا مِنْ غَيْرِها لِيَكونَ أعمَرَ لَها وأكثرَ رَيْعًا لِزَرْعِها، والمِدادُ: ما يُكْتَبُ بِهِ، لِأنَّهُ يُمَدُّ بِالماءِ. ومَدَّه في غَيِّه، أي: أمهلَه وطَوَّلَ لَهُ[5]، والمقصود بالمَدِّ في الآية: البَسْطُ والسِّعَةُ.

2) ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾: أصْلُ (لقي) يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ[6]، واللَّقى: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذُ[7]، والإلْقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيث تلقاه، أي: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارفِ اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[8]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/34، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/35.
(2) وعبّر محمد حسن جبل عن ذلك بأنه استطالة جرم الشيء في نفسه أو باتصاله بغيره، فيزيده طولا أو قدرا. يُنظر: جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مد).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مد، مدد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (مدد).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لقي).
(8) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (لقى).

﴿يُلۡقُونَ ٱلسَّمۡعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ، أي: مِنْ غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ﴾ [المائدة: 64][1]، والمُرادُ بالإلقاء في الآية: تَمثيلٌ لتكوينِ أجسامٍ بارِزةٍ على الأرضِ مُتباعِدٌ بعضُها عَنْ بعضٍ؛ لأنّ حَقيقةَ الإلقاءِ: رميُ شَيءٍ مِنَ اليَدِ إلى الأرضِ، وهذا استِدلالٌ بِخِلْقَةِ الجِبالِ في الآيةِ[2].

3) ﴿رَوَٰسِيَ﴾: أصلُ (رسا): يَدُلُّ على ثَباتٍ. تَقولُ رَسا الشَّيْءُ يَرْسو، إذا ثَبَتَ، وأرساه غيرُه[3]، والرَّواسي مِنَ الجِبالِ: الثَّوابتُ الرَّواسِخُ؛ قال الأخفشُ: واحِدَتُها راسيةٌ[4]. ورَسَتْ قَدَمُه: ثَبَتَتْ في الحَرْب. ورَسَتِ السَّفينةُ تَرْسو رُسوًّا: بَلَغَ أسفلُها القَعْرَ وانْتَهَى إلى قرارِ الماءِ فَثَبَتَت وبَقِيَتْ لا تَسيرُ، وأرْساها هو[5]. والرَّسِيُّ: العَمودُ الثّابِت في وسَط الخِباء[6]، وألقى مراسِيَه كنايةً عنِ الإقامة[7]. والمقصودُ بالرُّسوِّ في الآية: الثَّباتُ والقَرارُ.

4) ﴿وَأَنۢبَتۡنَا﴾: أصلُ (نبت): أَصْلٌ واحِدٌ يدُلُّ على نَماءٍ في مَزْروعٍ، ثُمَّ يُسْتَعارُ. فالنَّبْتُ مَعروفٌ، يُقالُ نَبَتَ، وأنْبَتَتِ الأرْضُ[8]. ونَبَّتَ الزرعَ والشَجرَ تَنْبيتًا إذا غَرَسَه وزَرَعه. ونَبَّتُّ الشجرَ تَنْبيتًا: غَرَسْتُه، والنّابتُ مِنْ كُلِّ شيءٍ: الطَّريُّ حينَ يَنْبُتُ صَغيرًا؛ وما أَحْسَنَ نابتة بَني فُلانٍ، أي: ما يَنْبُتُ عليهِ أموالُهم وأولادُهم. ونَبَتَتْ لَهُم نابتةٌ إذا نَشأ لَهُم نَشءٌ صغارٌ، وإنَّ بَني فُلانٍ لنابتةُ شَرٍّ، والنوابتُ مِنَ الأحداثِ: الأغْمارُ[9]. والمقصود بالإنباتِ في الآية: تكوينُ النَّباتِ.

5) ﴿مَّوۡزُونٖ﴾: أصلُ (وزن): بِناءٌ يَدُلُّ على تَعْديلٍ واسْتِقامَةٍ، أو: ثِقَلُ الشّيءِ مع عدم انتشار أبْعادِه، ولا يكونُ ذلك إلا بتعديلٍ واستقامةٍ، وزَنْتُ الشَّيْءَ وزْنًا. يُقالُ: قامَ ميزانُ النَّهارِ، إذا انْتَصَفَ النَّهارُ، وهذا يوازِنُ ذلكَ، أي: هو مُحاذيهِ، ووزينُ الرَّأيِ: مُعتَدِلُهُ[10]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 4/123.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/288.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسا)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رسو).
(4) الأخفش، معاني القرآن: 2/401.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رسا).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (رسا).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (رسا).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبت).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نبت).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وزن).

والوَزْنُ: فِعْلُ الوزّانِ ما يَزِنُ بالميْزانِ[1]، والوَزْنُ أيضاً: الاعْتِدالُ والاِسْتِقامَةُ، ومنه قَوْلُهُم: وزَنَ فُلانٌ كَلامَهُ، أيْ: تَكَلَّمَ بِاعْتِدالٍ، والجمعُ: أوْزانٌ[2]. ولفظُ ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ في الآية: مُسْتَعارٌ لِلْمِقْدارِ المَضْبوطِ. أي: مُقدَّرٌ بمقدارٍ مُعيَّن، وموزونٌ بميزانِ الحكمةِ، بحيث تتوافرُ فيه كلُّ معاني الجمالِ والتَّناسُقِ[3].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

جعلَ الله تعالى كـلَّ شيءٍ في الحياةِ موزونًا بقَدَرٍ معلومٍ

بعد أن ذَكَرَ اللّٰه تعالى الدَّلائلَ السَّماويّةَ على وَحدانيّته أتْبعَها بذكرِ الدَّلائلِ الأرضيّةِ، فقال: والأرضَ بَسَطْناها، ووسَّعْناها سَعةً تتمَكَّنُ المخلوقاتُ فيها منَ الامتدادِ بأرجائِها، والتَّناوُلِ من أرزاقِها، والسُّكونِ في نواحيها، وجعَلْنا فيها جِبالًا ثابتةً تُمسِكُ الأرضَ؛ لِئلّا تَضطَرِبَ بأهلِها، وأَوْجَدْنا في الأرضِ مِنْ كُلِّ شيءٍ مُقدَّرٍ بقَدْرٍ مَعْلومٍ، بقصدٍ وإرادةٍ[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الوصلِ بالواو: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

دَلائلُ التّوحيدِ ظاهرةٌ في الأرضِ كـمـا هـي في السّماءِ

لمّا كانت الواوُ للعطف؛ فقد أفادت دُخولَ الجُملةِ المعطوفةِ في حيّزِ التّأكيدِ بـ﴿وَلَقَدۡ﴾، لتكونَ معطوفةً على ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾[5]، وأفادَ التّأكيدُ هنا إضافةً لما تقدّمَ في دلالة ﴿وَلَقَدۡ﴾ تحقيقَ مدِّ اللّٰه تعالى للأرضِ وتقريرَه؛ إظهارًا لدلائلِ التّوحيد.

مُناسبةُ الوصْلِ في الآية:

المقابلةُ بين إبداعِ اللـه تـعـالى في الـسّـمـاءِ وفي الأرضِ

لمّا ذكرَ في الآيةِ السّابقةِ أنَّه تعالى جعلَ بروجًا في السّماءِ ثابتةً

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وزن).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وزن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/35، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/30.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/13، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/529، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/71.

فيها وأنَّه زيَّنَها للنَّاظِرين قابلَ هذه الآياتِ في السَّماء بذكرِ مدِّ الأرضِ وإلقاء الجبالِ فيها؛ لتكونَ مركوزةً في الأرضِ، وأنَّه أنبتَ فيها النَّباتَ لنفعِ الخلْقِ، وليكونَ زينة للأرض كذلك، فيكونُ بمثابةِ المقابلة بين فعلِ اللّه في السّماء وفعْلِه سُبحانه في الأرضِ.

فائدة (ال) في: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

دلائلُ التّوحيدِ ظاهرةٌ لِمَن أعمَلَ نظرَه واعتبَرَ

(ال) هنا للعهدِ الذّهنيّ؛ للإيذانِ بأنَّه كما أنَّ الآياتِ الباهرات التي في السّماء معهودةٌ عندكم قريبةٌ منكم، فكذلك الآياتُ التي في الأرضِ معهودةٌ عندكم وهي أمامَ أنظارِكم.

دَلالةُ التّعبيرِ بالتّركيبِ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

تقرير المعنى في الأذهان بطريق الإجمال ثمّ التّفصيل

لمّا جاء لفظُ ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ منصوبًا دلَّ على أنَّه مفعولٌ لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه المذكورُ، فالفعلُ المذكورُ فسَّر المحذوفَ، وتقديرُ الكلامِ: ومددْنا الأرضَ مددْناها، وفيه برزَ الكلامُ في معرضِ الاعتدالِ نظرًا إلى إيجازِه في اللّفظ من وجهٍ، بسبب الفعلِ المحذوفِ، وإلى إطنابِه من وجهٍ آخرَ نظرًا إلى أنّ الجملةَ على نيَّة التَّكرار، ومنَ الإطنابِ كذلك التّفصيلُ بذكرِ الفعْلِ ومُتعلَّقاته بعد الإجمالِ بذكرِ الأرَضِ[1].

فائدةُ مجيءِ الجُملة فعليّةً في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

آثارُ أفعالِ الله دالَّةٌ على توحيدِه وبديعِ صُنعِه

لمّا كانت هذه الجملةُ الفعليَّةُ معطوفةً على الجُملةِ الفعليَّة في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾[2]، جاءَ الكلامُ بصيغةِ الجُمَلِ الفعليّةِ تقريرًا للآياتِ بذكرِ أفعالِ اللّه بما تدلُّ عليه آثارُها على أُلوهيَّته سُبحانَه وتوحيدِه وعظيم قُدرتِه وبديعِ خلْقِه.

سببُ إيثارِ المدّ في ﴿وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا﴾:

إلقاءُ الرّواسي وإنباتُ النّباتِ يُناسبُ المدَّ دون غيرِه

لم يقُلِ اللّه تعالى هنا (والأرضَ دحوناها) كما جاء في آيةٍ أخرى في قولِه ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: 30]؛

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 284.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 11/442.

لمناسبة إلقاء الرّواسي وإنباتِ ضروبِ النّباتِ لمدِّ الأرضِ الذي هو بمعنى البسْطِ.

سِرُّ التّعبيرِ بـ(نا) في ﴿مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا﴾:

الــدَّلالــةُ على وجـوبِ تعظيمِ الـخـلّاقِ المبدعِ سبحانه

عبّرَ بـ(نا) الدّالّةِ على تعظيمِ الفاعلِ في الفعلَيْن (مَدَّ وألْقَى)؛ للإشارة إلى أنّه لا يَقدرُ على خَلْقِ الشّيءِ العظيمِ وإبداعِه إلّا العظيمُ سُبحانه.

دَلالةُ (في) في: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾:

ثـبـاتُ الجـبـالِ دلــيــلٌ عـلى بديعِ خلْقِ اللهِ وعظيمِ صُنعِه

لمّا كان حرفُ الجرِّ (في) يفيدُ الظّرفيّةَ المكانيَّةَ هنا دلَّ على أنَّ الأرضَ التي مُدَّت صارتْ ظرْفًا للجبالِ الرَّواسي، بمعنى أنَّ الجبالَ قد تمكّنت منَ الأرضِ وثَبتَت فيها، وفي ذلك إشارةٌ عجيبةٌ إلى بديع صُنعِ اللّه سُبحانه في كوْنِ جُزءٍ من هذه الجبالِ في باطن الأرض؛ لتتمكَّنَ منَ الرُسوِّ في الأرض وتَثبيتِها.

بديعُ إيثار الضَّمير في ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا﴾:

الــــرّواسي في بـعـض مـواضـعِ الأرضِ وأثـرُها يَـعـمُّ جـمـيـعَ الأرضِ

لما كانَ حصولُ الجبلِ يقعُ في جانبٍ في الأرضِ دونَ آخرَ دلَّ على أنَّ الضّميرَ العائدَ إلى الأرضِ في قولِه ﴿فِيهَا﴾ على معنى بعضِ مواضعِ الأرضِ، ففي التّعبيرِ استخدامٌ بَلاغيٌّ، بعَوْدِ الضّميرِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ على الأرضِ بمعنى جميعِ الأرضِ، وعودِ الضّميرِ في قولِه: ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ على الأرضِ بمعنى بعضِ مواضعِ الأرضِ؛ لأنَّ الإلقاءَ لم يَستوعبْ جميعَ الأرضِ، فأفادَ الضّميرانِ العائدانِ على الأرضِ معنيَيْن، أحدُهما إرادةُ الكلِّ والثّاني إرادةُ الجُزء؛ إيجازًا في الكلام، وللإشعار بأثرِ الرّواسي على الأرضِ كلِّها، وإن لم تكن في كلِّ الأرض، فإلقاءُ الجبالِ الرَّواسي في بعضِ مواضعِ الأرضِ، وأثرُ ذلك ونفعُه يَعمُّ جميعَ الأرضِ.

فائدةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾:

تنبيهُ المُخاطَبين إلى عِظَمِ إلقاءِ الـرّواسي والأثرِ المُترتِّبِ على ذلك

لمّا كان أصلُ الكلام: وألقَيْنا رواسيَ فيها؛ أفادَ تقديمُ الجارِّ

والمجرورِ على المفعول به تأكيدَ الإلقاءِ في الأرضِ من غيرِ تخصيصٍ؛ ليُفيدَ التّأكيدُ التّنبيهَ إلى عِظَمِ إلقاءِ الرّواسي في الأرضِ، وعظيمِ أثرِ ذلك فيها.

دَلالةُ قولِه تعالى ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾:

ثباتُ الأرضِ مآلُه إلى قُدرةِ اللهِ المُطلَقَةِ

لمّا قال تعالى: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾ دلَّ على أنَّ ثباتَ الأرضِ ليس بسببِ ثِقلِ الجبالِ الرّواسي، بل مآلُه إلى فعْلِ اللّه تعالى وقُدرتِه، فهو أكملُ في التّعبيرِ عن كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى.

بَلاغةُ قولِه ﴿وَأَلۡقَيۡنَا﴾ بين الكنايةِ والاستعارةِ:

كلُّ فعلٍ عظيمٍ تَتحيَّرُ فيه الأذهانُ هو هيِّنٌ على الله تعالى

لمّا كان إلقاءُ الشّيءِ على معنى طرْحِه؛ إشعارًا بخفَّتِه، عُبِّرَ عن جعْلِ الجبالِ في الأرضِ بإلقائها؛ ليفيدَ اللّفظُ لزومًا خفَّةَ الأمرِ عليه سُبحانه مع عِظَمِ خلْقِ الجبالِ؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ فعلٍ عظيمٍ تَتحيَّرُ فيه الأذهانُ هو هيِّن عليه سُبحانه، ويحتملُ أن يكونَ اللّفظُ على الاستعارةِ التّصريحيّةِ التّبعيَّةِ؛ بمعنى: أنّه شبَّه إلقاءَ الجبالِ الرّواسي بإلقاءِ حَصَياتٍ قبضَهنّ قابضٌ بيده فنبذَهُنَّ، ووجْهُ الشّبهِ: الخفَّةُ والاستقلالُ، تصويرًا لعظمَتِه، وتمثيلًا لقُدرتِه، وأنَّه فعلٌ هيّنٌ عليه ﷻ[1].

سببُ حذْفِ موصوفِ الوصف: ﴿رَوَٰسِيَ﴾:

أهمُّ وصْفٍ للجبالِ هو رُسوُّها في الأرضِ

تقديرُ الكلامِ في: ﴿وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾: (وألقَيْنا فيها جبالًا رواسيَ)، فلم يُذكرِ الموصوفُ لإغناءِ غلبةِ الوصْفِ بالرّواسي عن ذكر الجبالِ[2]، ولتوجيهِ ذهنِ المُخاطَبين إلى الوصْفِ الذي يُشعرُ بظهورِ قُدرةِ اللّه وعظيمِ خلْقِه.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿رَوَٰسِيَ﴾:

لمّا كان الإرساءُ هو ثُبوتُ الأجسامِ الثّقيلةِ، واستقرارُها على شيءٍ

---

(1) البروسوي، روح البيان: 4/451.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/347، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/3.

ثِقَلُ الجبالِ وثباتُها في الأرضِ دليلٌ على قُدرةِ اللهِ وعظيمِ خلْقِه

والإقامةُ فيه أو عليه، بحيث لا تنتقلُ عن مكانِها دلَّ على ثِقلِ الجبالِ وثُبوتِها في أحيازِ الأرضِ[1]، ودلَّ ذكرُ الرَّواسي بعد ذكر الأرضِ أنَّها ليست منَ الأرضِ في التّكوين، اعتبارًا بمجرَّدِ العطفِ الذي يقتضي التّغايُرَ دونَ اعتبارِ العُرفِ العادي[2].

فائدةُ حذْفِ المفعولِ في ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾:

إنباتُ ضروبِ النّباتِ في الأرضِ من شأنِ الإلهِ الواحدِ الأحدِ سبحانه

حذْفُ مفعولِ ﴿وَأَنۢبَتۡنَا﴾ على معنى إثباتِ فعْلِ الإنباتِ للّه تعالى في الأرضِ؛ لإفادةِ أنَّ هذا الفعلَ هو من شأنِ اللّه تعالى، وأنَه لا يمكنُ لهذا الفعْلِ أنْ يأتيَ إلّا منه سُبحانه، وأنَّ غيرَه لا يفعلُه، أو لا يستطيعُ فعْلَه[3]، فيُؤْذِنُ ذلك بظهور آثارِ فعْلِ اللّه الدّالَّةِ على إلهيّته وتوحيدِه، ويحتمل أن يكونَ الحذفُ للعمومِ المُقيَّدِ، والمعنى: أنبَتْنا في الأرضِ ضروبًا منَ النّباتِ مُقيَّدًا بوصْفِ كونِه من كلِّ شيءٍ مقدّرٍ مرتَّبٍ متناسبٍ لا تصلحُ فيه زيادةٌ ولا نقصانٌ.

دَلالةُ الضّميرِ في ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا﴾:

نِعَمُ اللهِ في ضُروبِ النّباتِ مُتنوِّعةٌ في الأرضِ وفي الجبالِ

لمّا كان الضّميرُ في قولِه ﴿فِيهَا﴾ يعودُ على ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾، فيحتملُ أن يعودَ على اللّفظِ المذكورِ أوّلًا ليكونَ المعنى: وأنبتْنا في الأرض، ويحتملُ أن يعودَ على الأرضِ بوصْفِ الرّواسي التي فيها، وهذا هو الظّاهرُ في عوْدِ الضّميرِ، فيكونُ المعنى: وأنبَتْنا فيها وفي رَواسيها، تكثيرًا للنّعم وتَوسعةً في المِنَّة[4]، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ النّباتَ الذي ينبتُ في الجبالِ أو عليها أدْخلُ في المنفعةِ واللّذةِ منَ الذي ينبتُ في غيرِ الجبالِ، وهذا معروفٌ عند أهلِ الاختصاصِ.

دَلالةُ حرف الجرِّ في ﴿مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾:

لم يُنْبتِ الله من النّباتِ إلّا ما هو موزونٌ ومُقدَّرٌ ونافعٌ

﴿مِن﴾ هنا للتَّبْعيضِ[5]، بمعنى أنَّه تعالى لم يُنبتْ كلَّ شيءٍ، بل

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/90، والبقاعي، نظم الدرر: 10/275.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/55.

(3) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 154 - 155.

(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/208.

(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/472.

أنشأ وأوجدَ بعضَ النّباتِ ممّا هو موصوفٌ بأنَّه موزونٌ مُقدَّرٌ بقَدرِه، قد وُزِنَ بميزانِ الحكمةِ، ممّا يصلحُ للخلْقِ وينفعُ النّاسَ.

بَلاغةُ قوله ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ بيَن الاستعارةِ والمَجازِ المُرسل:

الإنباتُ فيه تقديرٌ وتناسُبٌ وتوازُنٌ مع مدِّ الأرضِ وإلقاءِ الجبالِ

يحتملُ أن يكونَ اللّفظُ على الاستعارة، فشُبِّه تقديرُ الأشياءِ وتحريرُها بالوزْنِ الذي لا زيادةَ فيه ولا نقصانَ؛ للإشعارِ بحُسن إنباتِ الأشياءِ في الأرضِ، وحُسنِ الحكمةِ والتّناسُبِ في إنباتِها وتقديرِها مع مطابقةِ مصْلحةِ الخلْقِ، فالاستعارةُ تصريحيّةٌ تبعيّةٌ، وهذا هو الظّاهرُ، والمعنى: أنبَتْنا في الأرضِ من كلِّ شيءٍ مَقدورٍ جرَى على وزنٍ مِنْ قَدَرِ اللّه ﷻ لا يُجاوِزُ ما قَدَّره اللّه عليه، فالإنباتُ في الأرضِ فيه تقديرٌ وتناسُبٌ وتوازنٌ مع مدِّ الأرضِ وإلقاء الجبالِ، كما أنَّهُ تعالى يَعْلَمُ المِقْدارَ الَّذي يَحتاجُ إليه النّاسُ ويَنتَفِعونَ به، فيُنبِتُ تعالى في الأَرْضِ ذلك المِقْدارَ، ويحتملُ أن يكونَ مجازًا مُرسَلًا من إطلاق اسْمِ السّببِ على المسبَّبِ، فَكانَ إِطْلاقُ لَفْظِ الوزْنِ لإِرادَةِ مَعْرِفَةِ المِقْدارِ؛ لأنَّ الوزْنَ يُعْرَفُ بِهِ مِقْدارُ الشَّيْءِ، والمعنى: وأنبَتْنا فيها من كلِّ شيءٍ معلوم مِقدارُه[1].

بَلاغةُ ترتيبِ المعاني في الآيةِ:

بَراعةُ التَّرتيبِ بذكْرِ مَدِّ الأرضِ ثُمَّ إلقاءِ الرّواسي ثُمَّ إنْباتِ النّباتِ

جاء ذكْرُ أفعالِ اللّه تعالى في هذه الآية بتَرتيبٍ عجيبٍ؛ فذكرَ مدَّ الأرضِ، ثم إلقاءَ الرّواسي فيها، ثمَّ الإنباتَ فيها من كلِّ شيءٍ موزونٍ؛ ففيه إشعارٌ بأنَّ إلقاءَ الرَّواسي كان بعدَ مدِّ الأرضِ وبسْطِها، فلولا الجبالُ لمادتِ الأرضُ؛ لأنّها ممدودةٌ مبسوطةٌ، فلمّا ثبتتِ الأرضُ بإلقاء الرّواسي الثّوابتِ وصلُحتْ لإنبات النّباتِ أنبتَ اللّه فيها من كلِّ شيءٍ موزونٍ مقدَّرٍ بقَدرِه لا يحتملُ الزّيادةَ ولا النّقصانَ كما تقدَّمَ.

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/176، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/355، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/131.

﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ٢٠﴾ [الحجر: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الأرضُ مَوضعُ مَعايِشِ النّاسِ ورِزقِهم فيها

لمّا أخبرَ اللّه تعالى أنَّه يعلمُ المقدارَ الذي يحتاجُ إليه النّاسُ وينتفِعون منه، فيُنبتُ اللّه تعالى ذلك المقدارَ أتْبَعه بقوله ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾؛ لأنَّ ذلك الرِّزْقَ الَّذي يَظْهَرُ بِالنَّباتِ يَكونُ مَعيشَةً لَهُم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَعَٰيِشَ﴾: (عيش): أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على حَياةٍ وبَقاءٍ، قال الخَليلُ: العَيْشُ: الحَياةُ. والمَعيشَةُ: التي يَعيشُ بِها الإنسانُ: من مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ وما تَكونُ بِهِ الحَياةُ. والمَعيشَةُ والمَعيشُ: اسْمٌ لِما يُعاشُ به[2]. والمَعاشُ يَجْري مَجْرَى العَيْشِ. تَقولُ عاشَ يَعيشُ عَيْشًا ومَعاشًا. وكُلُّ شَيْءٍ يُعاشُ بِهِ أَوْ فيهِ فَهو مُعاشٌ[3]. والمعايشُ في الآية: جَمعُ مَعيشَةٍ، وهي ما يَعيشُ به الحَيُّ من مَطْعَمٍ ومَشْرَبٍ وما تَكونُ بِهِ الحَياةُ.

❁ المَعْنى الإجْمالِيُّ:

الكائناتُ كلُّها يَرزقُها الله ﷻ ويُقدِّرُ لها أقواتَها

يقولُ الحقُّ تعالى: وهيَّأنا لكم في الأرضِ أيُّها النّاسُ ما تعيشونَ به مِنَ المطاعِمِ والمَشارِبِ، ويسَّرْنا لكم أنواعَ المكاسِبِ، وجَعَلْنا لكمُ الأولادَ والعبيدَ والدَّوابَّ والأنعامَ الَّتي نَرزُقُها نحنُ لا أنتم[4].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/131.
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (عيش).
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عيش).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/37، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/167، و10/13، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/529.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ التّعبيرِ بالآية:

الاستدلالُ بخلْقِ المعايشِ على كمالِ القُدرةِ وبَديعِ الحِكْمةِ وتفرُّدِ الألوهيّةِ

فَذَلِكَةُ الآيةِ أنّه لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّه جعَلَ الأرض مَمدودةً بمقدارٍ وشكْلٍ معيَّنَيْن، مُختلفةَ الأجزاء في الوضْعِ مُحدِثًا فيها أنواعَ النّباتِ والحيوانِ المختلفةِ خِلْقَةً وطبيعةً، مع جوازِ ألّا تكونَ كذلك كان الكلامُ على طريق الاستدلالِ على كمال قُدرتِه وتناهي حِكْمتِه، والتَّفرُّدِ في الأُلوهيَّةِ والامتنانِ على العبادِ بما أنعمَ عليهم في ذلك؛ ليوحِّدوه ويَعبدوه[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿وَجَعَلْنَا﴾:

إبداعُ الله تعالى في إنشاءِ أنواعِ المَعايشِ للنّاسِ

عُبِّرَ بالفعْلِ ﴿وَجَعَلْنَا﴾ للإيذانِ بإبداعِه تعالى في إنشاءِ أنواعِ المعايشِ التي تفيدُ النّاسَ في حياتِهم.

دَلالةُ اللّامِ في قولِه ﴿لَكُمْ﴾:

التَّذكيرُ بنعمةِ الله على الخلْقِ بإيجادِ المَعايشِ لأجْلِهم

أفادتِ اللّامُ الاختصاصَ، بمعنى: جعَلْنا في الأرض مَعايشَ خاصَّةً لكم، أي: قد أوجدَها اللّه تعالى لأجْلِكم، ففيه تذكيرٌ بنعمتِه سُبحانه على جميع الخلْق.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَكُمْ﴾:

تقريرُ اختصاصِ المَعايشِ بالخلْقِ زيادةً في مِنَّةِ الله وفضْلِه

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ به التّأكيدَ والقصْرَ الإضافيَّ؛ ليُفيدَ تقريرَ اختصاصِ المَعايشِ لهم، زيادةً في مِنَّة اللّه وفضْلِه عليهم.

دَلالةُ الضّميرِ في قولِه ﴿فِيهَا﴾:

كثرةُ المَعاني بالألفاظِ القليلةِ

يحتملُ أن يعودَ الضّميرُ على الأرضِ وحدَها، وأن يعودَ على الأرضِ ورواسيها؛ وهو الظّاهرُ، ليكونَ من عطْفِ الضّميرِ على الاسْمِ الظّاهرِ بما اتّصفَ به، فإنَّ إلقاءَ الرّواسي في الأرضِ بمثابةِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209.

وصْفٍ لها، كما أنَّ المعايشَ موجودةٌ في الأرضِ والجبالِ، كما هو الواقعُ[1]، أي: وجعلْنا لكم في الأرضِ وفي الجبالِ الرّواسي معايشَ تكثيرًا للنِّعم، ويحتملُ أن يعودَ على الجبالِ الرّواسي وحدَها، وتكونُ الدّلالةُ على جعْلِ المعايشِ في الأرض من بابٍ أولَى.

فائدةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾:

من سوءِ الظّنِّ بالله أن يَعتقدَ الإنسانُ أنَّ أرزاقَ الأرضِ لن تَكفيَ النّاسَ

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ الحصْرَ، فإمّا أن يكونَ منَ الحصْرِ الحقيقيّ؛ ليُفيدَ أنَّ معايشَ الخلْقِ على المجموعِ لا تكونُ في غيرِ الأرضِ التي يعيشُ النّاسُ عليها، وإمّا أن يكونَ منَ الحصْرِ الإضافيّ؛ ليفيدَ أنَّ المعايشَ لا تكونُ في غيرِ الأرض باعتبارِ معيشتِكم فيها، كما أفاد التّقديمُ تأكيدَ جعْلِ الله تعالى المَعايشَ في الأرضِ، وتدخلُ الجبالُ في الأرضِ كما تقدَّمَ.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفظِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾:

طلبُ أسبابِ الرِّزقِ منَ المعايِشِ التي أنعمَ الله بها على النّاسِ

أفادَ التّعبيرُ بصيغةِ الجمْعِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ العُمومَ؛ لورودِ اللّفظِ نَكرةً في سياقِ الامتنانِ، ويفيدُ مع العموم التَّنَوُّعَ والتَّغايُرَ، ولمّا كان لفظُ العيشِ يعمُّ المأكولَ الذي يُعاشُ به والتّحرُّفَ الذي يُؤدّي إليه كان المُرادُ من لفظِ ﴿مَعَٰيِشَ﴾ الذي جاء بِصيغةِ مُنتهى الجُموعِ كلَّ ما يعيشُ به الإنسانُ في هذه الأرضِ ممّا يتعلَّقُ به البقاءُ وما يكونُ به الحياةُ، فالمعيشةُ أخصُّ منَ الحياة، فيدخلُ في اللّفظ المطاعمُ والمشاربُ والملابسُ، وكلُّ ما يتحقّقُ به العيشُ وما يكونُ سببًا له، ومنه طلبُ أسبابِ الرّزقِ بالكسبِ والتَّصرُّفِ من حِرفةٍ أو زراعةٍ أو تجارةٍ أو أيِّ عملٍ[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/430.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/154، والواحدي، التفسير البسيط: 9/29، والزمخشري، الكشاف: 2/89، وابن عطية، المحرّر الوجيز: 2/377.

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَمَن لَّسْتُمْ﴾:

نِعَمُ الله كثيرةٌ ومُتنوِّعةٌ، فلا تَنْتهي أفْضالُه سُبْحانَهُ وَتَعَالَى

يحتملُ أن تكونَ الواوُ قد عطفتِ الاسْمَ الموصولَ ﴿وَمَن﴾ على ﴿مَعَٰيِشَ﴾، والتّقديرُ: جعلْنا لكم فيها مَنْ لسْتُم له برازقين منَ العيالِ والخَدَم والدّوابِّ وما أشبهَها، وهذا التّقديرُ هو الظّاهرُ، وعليه جمهورُ المُفسّرين، ويحتملُ أن يكونَ الاسْمُ الموصولُ منصوبًا بالعطفِ على محلِّ ﴿لَكُمْ﴾، والتّقديرُ: جعَلْنا لكم معايشَ ولمن لسْتُم له برازقين، فيكونُ المرادُ من ﴿وَمَن﴾ الدّوابَّ والوحوشَ أي غيرَ العاقلِ، وهذا التَّقديرُ نقلَه بعضُ المُفسّرين[1]، ولا مانعَ من إرادةِ المعنَيَيْن معًا، فالقرآنُ حمّالُ وُجوهٍ.

فائدةُ التّعبير بـ﴿وَمَن﴾:

الإيـذانُ بتَمامِ نِعمةِ الله على النّاسِ إذ جعَلَ لهم المعايش في الأرضِ

لمّا كان (مَنْ) يأتي للعاقلِ، وكان المرادُ منَ الاسْمِ الموصولِ ﴿وَمَن﴾ العيالَ والخدمَ والدَّوابَّ والأنعامَ وما أشْبهَها كما هو الظّاهرُ، كان دخولُ غيرِ العاقل في معنى (مَنْ) دالًّا على أنَّها جاءت على طريقة تغليبِ العاقلِ على غيره، لفضيلةِ العقلِ والتّمْييزِ، وسببُ العطْفِ هو لِردِّ حُسبانِهم أنَّهم يَكفون مؤونتَهم، أي قد كفاكُم اللّهُ مؤونةَ أرزاقِها، ولِتحقيقِ أنَّ اللّه تعالى هو الذي يَرزقُهم وإيّاكم، وللإشعارِ بتَمامِ نعمةِ اللّه على النّاس؛ إذ جعلَ لهم في هذه الأرضِ العيالَ والخدمَ والأنعامَ وغيرَها، وعلى القولِ بأنَّ (مَنْ) لغيرِ العاقلِ فنُكتةُ التّعبيرِ به هو أنَّه لما وُصِفتِ الوحوشُ وغيرُها بالمعاشِ الذي الغالبُ عليه أن يوصَفَ به النّاسُ - إذ يقالُ: الآدميُّ يتعيّشُ، ولا يقال: الفرسُ يتعيّشُ - جرتِ الوحوشُ والدّوابُّ مَجرى العقلاءِ في التّسميةِ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمْ﴾ [النمل: 18][2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/82، والزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/177.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/573، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/528، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/71، والبروسوي، روح البيان: 4/452.

فائدةُ تقديمِ (له): ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾:

الـرّزقُ لا يكونُ إلّا من الخالق سُبحَانَهُ وَتَعَالَى

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ على مُتعلَّقه التّخصيصَ الإضافيَّ، بمعنى إذا كان النّاسُ لا يَقْدرون على رزقِ المَذكورين فلا رازقَ لهم إلّا ربُّهم سُبحانَه، كما أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ تأكيدَ نفْيِ قُدرتِهم على رزقِ المَذكورين، ولمّا كان الضّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ عائدًا على الاسْمِ الموصولِ ﴿وَمَن﴾ الدّالِّ على العموم أفادَ عمومَ الضّميرِ، والمعنى ومن لسْتُم برازقين لكلِّ مَن لا قُدرةَ لكم على رزْقِه.

سببُ إيثارِ النّفْيِ ﴿لَّسۡتُمۡ﴾:

استـمـرارُ نـفْـيِ قُدرةِ النّاسِ على رزْقِ المَخلوقين

أفادَ النّفيُ بـ(ليسَ) استمرارَ نفَيِ رزقِهم لِما يتضمَّنُه لفظُ العمومِ ﴿وَمَن﴾، لتفيدَ (ليس) نفْيَ الماضي والحالِ واستمرارَ النّفْيِ في المستقبل من غيرِ انقطاعٍ[1].

دَلالةُ الخبرِ في ﴿وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾:

تَيْـسيرُ أسـبـابِ الرّزقِ منَ الرَّزّاقِ

دلَّ الخبرُ على فائدته، وهي نفيُ أن يكونوا همُ الرّازقين خلْقًا أو سببًا، ليكونَ ردًّا على خطأ حُسبانِهم في أن يكونوا همُ الرّازقين بتَيْسيرِ أسبابِ العمَلِ والمكاسبِ، ودلَّ بِلازمِه على أنّ اللّه هو الرّازقُ على الحقيقةِ، فهو تعالى يَرزقُهم وإيّاهم.

فائدةُ الباءِ في قولِه ﴿بِرَٰزِقِينَ﴾:

تأكيدُ نفْيِ قُدرةِ الـنّـاسِ على الـرّزقِ في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ

أفادتِ الباءُ المُبالغةَ في التّنصيصِ على نفْيِ العُمومِ والمُبالغةِ في نفْيِه، أوِ الاحتراسِ من إرادة التّخصيصِ بحالٍ منَ الأحوال، بمعنى تأكيدِ نفْيِ قُدرتكم على رِزْقِهم في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ.

دَلالةُ لفظِ ﴿بِرَٰزِقِينَ﴾:

الله تعالى خالقُ الرّزقَ وأسْبابَه

دلَّ التّعبيرُ بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ على أنَّ المرادَ لسْتُم برازقين له حقيقةً ولسْتُم بسببٍ له، ولا مَدْخلَ لكم فيه، وإنْ كنتم أقوياءَ

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/190.

مُجتمِعين؛ لِيفيدَ النّفيُ رفعَ توهُّمِ أن يكونَ لهم أيُّ سببٍ في الرّزق أو في إثباتِه لهم، فالرّازقُ على الحقيقةِ بالخلْقِ والعطاءِ وتَيْسيرِ السّببِ للوُصولِ إلى الرّزقِ هو اللّه تعالى بعظيمِ خلْقِه وبديعِ إنشائِه(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المَعيشةُ والحياةُ:

المَعيشةُ أخصُّ مِنَ الحياةِ، وهي اسْمٌ لأسْبابِها

العيشُ اسمٌ لِما هو سببُ الحياة منَ الأكل والشّربِ وما بِسبيلِ ذلك، والشّاهدُ قولُهم (مَعيشةُ فلانٍ من كذا) يَعنون مأكلَه ومَشربَه ممّا هو سببٌ لبقاءِ حياتِه، ولَمّا كانتِ المَعيشةُ منَ العيش لِما تكونُ به الحياةُ والبقاءُ منَ الطّعامِ والشّرابِ والمَلبسِ وغيرِها، فتكونُ المعيشةُ خاصَّةً بالحيوانِ كانتِ المعيشةُ أخصَّ منَ الحياة؛ لأنّ الحياةَ تقالُ في الحيوان، وفي الباري ﷻ، وأمّا المعيشةُ فلا يوصَفُ بها اللّه تعالى؛ لأنّ فيها معنى العجْزِ والاحتياجِ، والمَعيشةُ اسمٌ لِما يُتَعَيَّشُ منه(2).

(1) الراغب، المفردات: (رزق).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 102، والراغب، المفردات: (عيش)، والكفويّ، الكلّيات، ص: 651.

﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢١﴾ [الحجر: 21]

أسبابُ الرّزقِ في خَزائنِ الله لا تَنْتهي

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا بَيَّنَ اللّه تعالى أنَّهُ أَنْبَتَ في الأَرْضِ كُلَّ شَيْءٍ مَوزونٍ، وجَعلَ فيها معايِشَ، أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ ما هو كالسَّبَبِ لذلك، فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾: أصلُ (خزن): يَدُلُّ على صِيانَةِ الشَّيءِ[2]. يُقال: خَزَنَ الشَّيءَ يَخْزُنه خَزْناً واخْتَزَنه: أَحْرَزه وجَعَلَهُ في خِزانةٍ واخْتَزَنَهُ لِنَفْسِه. والخِزانَةُ: اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ، واحِدَةُ الخَزائن، والخِزانَةُ أيضًا: عَملُ الخازِنِ[3]. والـمَخْزَن، بِفَتْحِ الزّاي: ما يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ. وسُمّيَ الوِعاءُ خِزانَةً لأنّه مِنْ سَبَبِ الـمَخْزون فيهِ[4]. وخِزانَةُ الرّجلِ قلْبُه، وخازِنُهُ لِسانه[5]. والمقصود بالخَزائنُ في الآية: جَمعُ خِزانَةٍ، مُستعارَةٌ لتَعَلُّقِ قُدرَةِ اللّه بالإنعامِ وإعطاءِ الخَيراتِ النّافعةِ للنّاسِ في الدُّنيا[6].

2) ﴿بِقَدَرٖ﴾: أَصْلُ (قدر): يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِه ونِهايَتِه، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: نِهايَتُهُ. ويأْتي بِمعنى التَّقْدير، وهو: بَيانُ كَمّيَّةِ الشَّيْءِ، يُقال: قَدَرَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ، يَقْدُرُه، قَدْرًا، وقَدَّرَه، أيْ: قاسَهُ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/133.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خزن).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/241.

وبَيَّنَ مِقْدارَهُ[1]. وتَقْديرُ اللّه الأشياءَ على وجهين: أحدُهما: بإعطاءِ القُدْرَة، يُقالُ: قَدَّرَني اللّه على كذا وقوّاني عليه. والثّاني: بأن يجعلَها على مِقْدارٍ مخصوصٍ ووجهٍ مخصوصٍ حسبَما اقتضتِ الحِكمةُ، وعلى ذلك قولُه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، قال أبو الحسن: خذهُ بقَدر كذا وبقَدر كذا، وفلانٌ يخاصمُ بقدَرٍ وقدْرٍ. أمّا التَّقْديرُ منَ الإنسان فعلى وجهين: أحدُهما: التَّفكُّرُ في الأمر بحسب نظرِ العقل، وبناءُ الأمرِ عليه، وذلك محمودٌ. والثّاني: أن يكونَ بحسب التَّمنّي والشَّهوةِ، وذلك مذمومٌ، كقوله: ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩﴾ [المدثر: 18 - 19][2]. والمرادُ بالقَدَر في الآية: التَّقْديرُ، أي: بِمِقْدارٍ مَعْلوم تَقْديرُه عندَ اللّه تعالى.

۞ المَعنى الإجماليُّ:

كلُّ شيءٍ في هذا الكونِ خاضعٌ لإرادةِ اللّه تعالى وقُدرتِهِ وتَصرُّفِهِ

يُخبرُ اللّه تعالى أنَّه مالكُ كلِّ شيءٍ، وأنَّ كلَّ شيءٍ سهلٌ يسيرٌ عليه، وأنَّ عنده خزائنَ الأشياءِ من جميع الأصنافِ، من نباتٍ ومعادنَ ومخلوقاتٍ لا حصْرَ لها، فقال: وما مِن شَيءٍ - مِن جميع الأرزاقِ، وأصنافِ الأقدارِ، من الأمطارِ وغيرِها - إلّا عندَ اللّه وحدَه خَزائنُه، ومفاتيحُه بيَدِه؛ فهو مالِكُ كُلِّ شَيءٍ، وهو القادِرُ على إيجادِه وتكوينِه متى يشاءُ، وما نُنَزِّلُ الأمطارَ والأرزاقَ وكُلَّ شَيءٍ إلّا بمِقدارٍ مُحَدَّدٍ، لا يزيدُ ولا يَنقُصُ، بحسَبِ مَشيئةِ اللّه، وما تَقتَضيه حِكمتُه[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

التَّذْييلُ لتأكيدِ الكلامِ وتقريرِه في نُفوسِ المُخاطَبين

بَلاغةُ التّذييلِ بقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

لَمّا كان الظّاهِرُ أنَّ المُرادَ من قولِه تعالى: ﴿مَّوۡزُونٖ﴾ أنَّه المُقدّرُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدر).

(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدر).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/14، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/530، والشوكاني، فتح القدير: 3/152، والزحيلي، التفسير المنير: 14/24.

بمقدارٍ يقْتَضيه التّناسبُ، والموزونُ بميزانِ الحِكمةِ كان مجيءُ قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ على سبيل التَّذْييلِ، بتأكيدِ مفهومِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾ لأهميَّتِه وتقريرِه في نفوسِ المُخاطَبين[1].

بَلاغةُ الجمْعِ بين فائدةِ الخبرِ ولازمِها:

طلبُ الرّزقِ من غيرِ الله مُـؤْذنٌ بجهْلِ صاحِبِه

قولُه تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾: لمّا كان كلُّ شيءٍ في خزائن اللّه الملكِ الأوحدِ، وكانَ كلُّ شيءٍ لا يُطلَبُ إلا ممَّن عنده خزائنُه، وممّن مفاتيحُ تلك الخزائن بيَدَيْه، وكانَ طلبُه من غيره طلبًا ممَّن ليس عندَه ولا يَقدِرُ عليه[2] أفادَ الخبرُ بلازمِه أنَّ الطّلبَ من غيرِ اللّه تعالى طلبٌ في غيرِ محلِّه، ومُؤْذنٌ بجهلِ صاحبِه، وفيه حثٌّ على الطّلَب منَ اللّه تعالى الذي عندَه خزائنُ كلِّ شيءٍ، فالمرادُ منَ الخبر فائدتُه ولازمُ الفائدة.

نكتةُ النّفْي بـ(إنْ) في ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

المُبالغةُ في تأكيدِ النّفيِ

عبّر البيانُ الإلهيُّ بأداة النّفي (إنْ) دون (ما)؛ لأنّها أكثرُ تأكيدًا للنّفيِ من (ما)[3]، فناسبَ اقترانُها بلفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾ الدّالِّ على عُمومِ الأشياءِ النّافعةِ للنّاسِ.

دلالة إيثار النفي بـ (ما):

تـنـوّعُ إنـكـارِ المُنكرين يَقتضي التَّعبيرَ عن كلِّ نوعٍ بما يُناسِبُه

لمّا كان النّفيُ بـ(إنْ) أقوى وآكدَ منَ النّفي بـ(ما) كما تقدّم عُدِلَ إلى (ما) في قولِه ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ لأنّ إنكارَ الكفرةِ لِأنْ يكونَ كلُّ مُمكنٍ منَ المُمكناتِ عند اللّه في خزائنِ قُدرتِه أكثرَ إنكارًا من تنزيلِه بقدَرٍ معلوم؛ لأنّهم يُشاهدون آثارَ قُدرتِه بنزولِ المطرِ وغيرِه بقدرٍ معلومٍ، كما أنَّ من يؤمنُ بأنَّ كلَّ شيءٍ عند اللّه في

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 9/25.
(2) ابن القيم الجوزية، الفوائد، ص: 292.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/200.

خزائنه يؤمنُ لا محالةَ بأنَّه يُنزِّلُه بقدرٍ معلومٍ، فكان مجيءُ الحصْرِ بـ(إنْ وإلّا) لردِّ إنكارِهم الأوّلِ لأنّه أشدُّ.

فائدةُ ﴿مِّن﴾ في ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

تتابُعُ التَّأكيداتِ لإثباتِ أنَّ كلَّ شيءٍ عندَ الله في خزائنِه

أفاد حرفُ الجرِّ ﴿مِّن﴾ تأكيدَ عُمومِ لفْظِ ﴿شَيۡءٍ﴾، والاحتراسَ مِن احتمالِ تخصيصِه بحالٍ منَ الأحوالِ، أي ما من شيءٍ منَ الأشياءِ إلّا وهي في خزائنِ اللّه وبقُدرةِ اللّه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿شَيۡءٍ﴾:

المطرُ من أعظَمِ أنواعِ الرِّزقِ لِسَعةِ نفْعِه وعُمومِه

لمّا كان لفظُ ﴿شَيۡءٍ﴾ يعمُّ كلَّ مخلوقٍ ممّا يُطلق عليه شيءٌ؛ بدلالةِ أنَّ الكلامَ في سياقِ إيجادِ المعايشِ التي هي أسبابُ الحياةِ، ولمّا جاء اللّفظُ في سياقِ النّفيِ كان على معنى العُمومِ المُقيَّدِ بوصفِ (نافع)، بقَرينَةِ قَوْلِه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ﴾، وقرينةِ السّياقِ الدّالَّةِ على كمالِ القُدرةِ وعظيمِ الإنعامِ، ففي الكلامِ حَذْفُ الصِّفَةِ كقولِه تعالى: ﴿يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ٧٩﴾ [سورة الكهف: 79] أيْ سَفينَةٍ صالِحَةٍ، ويدخلُ في لفظِ ﴿شَيۡءٍ﴾ المطرُ بقرينةِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ دخولًا أوّليًّا؛ لعظيمِ نفْعِه وشُمولِه، وشَملَ ذلك الأَشْياءَ المُتَفَرِّقَةَ في العالَمِ الَّتي تَصِلُ إلَى النّاسِ بِدَوافِعَ وأسْبابٍ تَسْتَتِبُّ في أحْوالٍ مَخْصوصَةٍ، أوْ بِتَرْكيبِ شَيْءٍ مع شَيْءٍ مِثْلَ نُزولِ البَرَدِ مِنَ السَّحابِ وانْفِجارِ العُيونِ مِنَ الأرْضِ بِقَصْدٍ أوْ على وجْهِ المُصادَفَةِ في الظّاهِرِ[1].

بَلاغةُ الحصْرِ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾:

الأفعالُ بمنزلةِ الأقوالِ في الإيمانِ والتّكذيبِ

عبّرَ بأسلوبِ (إنْ) و(إلّا) لردِّ المُخاطَبين منَ الكُفّار عن خطأِ اعتقادِهم في أنّه ليس كلُّ شيءٍ بقُدرةِ اللّه تعالى، وللإشعارِ بأنَّهم مُصرّون على هذا الاعتقادِ، وهذا الاعتقادُ قد يكونُ بصريحِ قولِهم، وقد يكونُ بعملِهم وتصرُّفاتِهم، وهو الظّاهرُ، بمعنى أنَّهم مُصرّون

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/355، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/36.

على هذا الاعتقاد بسببِ إصرارِهم على الأعمالِ التي تُؤْذِنُ أنَّهم لا يَعتقدون بأنَّ كلَّ شيءٍ عند الله خزائنُه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿خَزَآئِنُهُۥ﴾:

جعْلُ المَعايشِ للنّاسِ والدّوابِّ وغيرِهم أمرٌ هيِّنٌ عليه سُبحانه

لمّا كان (خزائنُ) جمْعَ (خزانة)، وهي اسْمُ المكان الذي يُخزن فيه الشَّيءُ أي يُحفظُ، وكان الكلامُ في بيان أنَّه تعالى جعلَ في الأرضِ الرِّزقَ وأسبابَه دلَّ على أنَّ المرادَ منَ الخزائن مقدوراتُه كلُّها[1]؛ لِيبيّن أنَّ جعْلَ المعايشِ في الأرضِ للنّاس والدّوابِّ وغيرِهم أمرٌ هيِّنٌ عليه سُبحانه، فإنَّ عندَه خزائنَ جميعِ الأشياء وهي في مُلكِه.

بَلاغةُ الاستعارةِ في: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ﴾:

جَميعُ المُمكِناتِ مَقْدورَةٌ لله ومَمْلوكَةٌ له يُخرِجُها بمشيئتِه وبحسَبِ ما ينفعُ النّاسَ

لمّا كانتِ الخزائنُ تُطلقُ على الموضعِ الذي يُحفظُ فيه نفائسُ الأموالِ لا غيرُ، غُلِّب في العُرفِ على ما للملوكِ والسّلاطينِ من خزائنِ أرزاقِ النّاسِ، فشُبِّهتْ مَقدوراتُه تعالى الفائتةُ للحصْرِ، المُندرجةُ تحت قُدرته الشّاملةِ في كونِها مَستورةً عن علوم العالَمين، ومَصونةً عن وصولِ أَيديهم مع كمالِ افتقارِهم إليها ورغْبتِهم فيها، وكونِها مهيَّأةً مُتَأتّيةً لإيجادِه وتكوينِه، فمتى تعلّقتِ الإرادةُ بوجودِها وُجدتْ بلا تأخُّرٍ بنفائسِ الأموالِ المَخزونةِ في الخزائنِ السُّلطانيّة، فذكرُ الخزائنِ على طريقةِ الاستعارةِ التّخْييليّة، أو شُبِّهَتْ هَيْئَةُ إيجادِ الأشْياءِ النّافِعَةِ بِهَيْئَةِ إخْراجِ المَخْزوناتِ مِنَ الخَزائِنِ على طريقَةِ الاستعارةِ التَّمْثيليَّةِ المَكْنيَّة، ورُمِزَ إلى الهَيْئَةِ المُشَبَّه بها بما هو مِنْ لَوازِمِها وهو الخزائنُ، أو شُبّه اقتدارُه على كلِّ شيءٍ وإيجادُه بالخزائنِ المودَعةِ فيها الأشياءُ المُعدَّةُ لأَنْ يُخرجَ منها ما شاء، ليُؤْذِنَ أنَّ مقدورَه كأنَّه حاصلٌ موجودٌ، فهو أقوى مما لو قيل: نحن قادرون على إيجادِه وتكوينِه، فتكونُ الاستعارةُ تمثيليّةً مكنيَّةً، وأصلُ التّشْبيه على الوجهَيْن من تشبيهِ المعقولِ بالمحسوسِ وهو الخزائنُ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/355، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134.

والمعنى الحاصلُ على الوجهَيْن: جَميعُ المُمكِناتِ مَقْدورَةٌ له سبحانَه، ومَملوكَةٌ له، يُخْرِجُها مِنَ العَدَمِ إلى الوُجودِ كَيْفَ شاءَ ومتى شاء، وما من شيءٍ ينتفعُ به العبادُ إلّا ونحن قادرون على إيجادِه وتكوينِه[1].

سِرُّ مجيءِ الواوِ في قولِه ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

أبرعُ الأدلَّةِ على أُلوهيَّةِ الله وتوحيدِه ﷻ

لمّا كان قولُه تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ إشارَةً إلى كَوْنِ مَقْدوراتِه غَيْرَ مُتَناهيَةٍ، أفادَ مجيءُ الواوِ والجملةِ بعدها الإيذانَ بأنَّ كُلَّ ما يخلقُه اللّه تعالى في الوُجودِ مُتَناهٍ، وكان تخصيصُ وجودِه بِوقْتٍ مُقَدَّرٍ دونَ ما قبلَه أو ما بعدَه، وبمكانٍ مُعَيَّنٍ دونَ سائرِ الأماكن، وبوصْفٍ معيّنٍ دونَ سائرِ الأوصاف، دالًّا على أنَّ وجودَها بهذه الأحوالِ إنّما هو بتَخْصيصِ مُخَصِّصٍ وتَقْديرِ مُقَدِّرٍ، وهذا هو المُرادُ مِنْ قَوْلِه: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾، والمعنَى: أنَّهُ لَوْلا القادِرُ المُخْتارُ الَّذي خَصَّصَ تلك الأشْياءَ بتلك الأحْوالِ الجائِزَةِ لامتَنَعَ اخْتِصاصُها بتلك الصِّفاتِ الجائِزَةِ[2]، ففيه دليلٌ واضحٌ على ألوهيّةِ اللّه ووَحدانيّته، وهو السّياقُ الذي وردَتْ فيه الآياتُ.

دَلالةُ واوِ الحالِ في ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

بيانُ بالغِ حكمةِ الله في تنزيلِه بعضَ ما في خزائنِه بقدرٍ معلومٍ

الظّاهرُ أنَّ الواوَ تفيدُ الحالَ ممّا سبقَ، أيْ: ما من شيءٍ إلّا عندنا خزائنُه، والحالُ أنّا ما نُنزِّله إلّا بقدرٍ معلومٍ، فيكونُ مجيءُ الحالِ لبيانِ بالغِ الحِكمةِ في تنزيلِ بعضِ ما في خزائنِه بقدرٍ معلومٍ[3].

دَلالةُ واوِ العطْفِ في ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

ذِكْرُ الأدلّةِ المُتنوّعةِ على ألوهيّةِ الله ووَحْدانيّتِه

وعلى أنّ الواوَ للعطفِ يكونُ من بابِ الجمعِ بين الأدلّةِ المتعدّدةِ والمُتنوّعةِ على ألوهيّةِ اللّه ووَحْدانيّتِه، أي: كلُّ شيءٍ عندَ اللّه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134، والطيبي، فتوح الغيب: 9/25، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/474، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/275، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/36.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/134، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

خزائنُه، ولا يُنزّلُ اللّه ما في الخزائن إلّا بحكمةٍ بالغةِ، لا بإسرافٍ ولا بتقتيرٍ.

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

إيجادُ الأشياءِ مثلُ تنزيلِ المَطرِ في الإنعامِ على النّاسِ وعُمومِ الانتفاعِ

لمّا كان المُرادُ مِنَ الإنزالِ الإحداثَ والإنشاءَ والإبداعَ وتهيئةَ التّمكينِ للمَقدوراتِ على جهة الانتفاعِ منها، كقوْلِه تعالَى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖ﴾ [الزُّمَر: 6] وقولِه: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ﴾ [الحَديد: 25] وكانَ المرادُ من لفظ ﴿شَيۡءٍ﴾ معنى العُموم؛ ليشملَ المطرَ وغيرَه كان التّعبيرُ بلفظِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ على المجازِ بطريقِ الاستعارة التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّةِ، بتشبيهِ إيجادِ الأشياءِ والتّمكينِ منَ الانتفاعِ بها على قدْرِها بالمطرِ الذي ينزلُ بقدره فيُنْتَفَعُ منه، ولو نقصَ أو توقّفَ لَأَهْلَكَ، ولو زاد لأغْرَقَ، فيفيدُ الإنعامَ من عُلوٍّ، ويفيدُ أنَّ تصاريفَ الأمور كائنةٌ في العوالمِ العُلْويّةِ، والمعنى: وما من شيءٍ ينتفعُ به العبادُ إلّا ونحن قادرون على إيجادِه وتكوينِه والإنعامِ به وتهيئتِه للانتفاعِ منه، وما نُعطيه إلّا بمقدارٍ معلومٍ أو بتقديرٍ معلومٍ[1]، إذ لو زاد أو نقصَ لكان ضارًّا.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

بيانُ عُلوِّ الله تعالى وسُموِّ أفعالِه

أفادَ التّعبيرُ بلفْظِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ الذي يفيدُ أنّه من عُلوٍّ الإشعارَ بتفضُّلِ اللّه تعالى وظهورِ منّتِه على النّاسِ، فالتّنزيلُ على معنى الإنعام[2].

دَلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (نُفعّل):

إيجادُ اللهِ الأشياءَ في الأرضِ بالتّدريجِ لأنّه يُنزِّلُها بقدَرٍ معلومٍ

لمّا كان ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ على صيغةِ (نفعّل) أفادَ أنَّ تنزيلَه بطريقِ التّدريجِ، لِينتفعَ به الخلقُ، فهو بقدرٍ معلومٍ مع كثْرتِه[3].

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/356، والزمخشري، الكشاف: 2/574، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/37.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/276.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/276.

تنزيلُ ما في خزائنِ الله مُستمِرٌّ لا يَتوقَّفُ

دَلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

أفادَ التّعبيرُ بالفعْلِ المضارعِ استمرارَ تَنْزيلِ ما في خزائنِ اللّه بقدَرٍ معلوم، وتَجَدُّدَهُ مع بعض انقطاعٍ بما ينفعُ النّاسَ[1]، ليدركَ النّاسُ قيمةَ الامْتنانِ به عند ضعْفِه أو فقْدِه، إذ إدراكُ النّعمة عند فقْدِها أو ضعْفِ وجودِها أشدُّ.

كلُّ مُمكنٍ هو في قُدرةِ الله وما يُنزِّلُه إلّا بحِكمةٍ وتدبيرٍ وبما ينفعُ النَّاسَ

بَلاغةُ الاسْتِخدامِ في الضّميرِ في ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾:

لّما كان الضّميرُ في ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ يعودُ في الظّاهرِ إلى ﴿شَيۡءٍ﴾ وهو لفظٌ عامٌّ، لا أعمَّ منه في المُمكناتِ، وكان المعنى: (وما ننزّل شيئًا ممّا أردنا تنزيلَه)، فالمنزّلُ بعضٌ ممّا في خزائنه سُبحانه، فلمّا كان الأمرُ كذلك كان الضّميرُ على معنى الاسْتخدام[2]؛ للإشعارِ بأنَّ كلَّ مُمكنٍ هو في قُدرةِ اللّه، وما يُنزّلُه إلّا بحكمةٍ وحسنٍ وحُسنِ تدبيرٍ وبما ينفعُ النّاسَ.

إجابةُ الدّعاءِ في وقتِه أو تأخيرُه هو منَ التّنزيلِ بقدَرٍ معلومٍ

نكتةُ الحصْرِ في ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا﴾:

لّما كانَت جملةُ ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ تفيدُ أنَّ جميعَ المُمكناتِ هي بمقدورِ اللّه تعالى، جاء الحصْرُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾؛ للإنكارِ على ما قد يُتوهَّمُ؛ بأن يُقال: لّما كانت جميعُ الأشياءِ في مُلكِ اللّه وفي قُدرتِه، فلِمَ لا يُنزلُ الكثيرَ منها حتَّى ينتفعَ الخلقُ ولا يحتاجوا شيئًا؟ فأفادَ القصْرُ بيانَ سرِّ عدمِ تكوينِ الأشياءِ على وجْهِ الكثرةِ حسْبَما هو في خزائنِ القُدرةِ، وليدلَّ على حِكمتِه سُبحانه في خلْقِه وتنزيلِ مَقدوراتِه، فقد يُعطي العاصِيَ إملاءً له ليكونَ عقابًا له، وقد يمنعُ التَّقيَّ اختبارًا لصبرِه ورجاءِ ثوابِه، ومنَ التّنزيلِ بقدَرٍ معلومٍ إجابةُ الدّعاءِ في وقتِه أو تأخيرُه[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/36.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

دَلالةُ الباءِ في قولِه ﴿بِقَدَرٖ﴾:

الله تعالى عالمٌ بما يُنَزِّلُه بحِكمةٍ تُناسِبُ الخلْقَ وتَنْفعُهم

الباءُ هنا لِلملابسةِ، ويحتملُ أن يكونَ الجارُّ والمجرورُ على معنى الحالِ[1]، والتّقديرُ: وما نُنَزّلُه إلّا في حالِ كونِ ذلك المقدورِ مُلتبسًا بقدَرٍ معلوم، لِيفيدَ أنّه تعالى حينَ ينزّلُ المَقدوراتِ فإنَّ علْمَه مُلتبسٌ بها لا يُفارقُها وأنَّه يُنزّلُها بحكمةٍ تُناسبُ الخلْقَ.

دَلالةُ الصِّفةِ ﴿مَّعۡلُومٖ﴾:

الوصْفُ بطريقِ الإثباتِ لعلْمِ الله بمَقْدوراتِه آكدُ من طريقِ النّفْيِ

جاءتِ الصّفةُ في قولِه ﴿مَّعۡلُومٖ﴾ للتّقييدِ، وجاء الوصفُ بطريق الإثباتِ بالوصْفِ بالاسْمِ المشتقِّ دون أن يقولَ مثلًا (بقدرٍ لا يغيبُ عنّا)؛ لأنّ الوصْفَ بطريقِ الإثباتِ لعلْمِ اللّه بمقدوراتِه المُنزّلةِ آكدُ من طريق النّفْيِ، والآيةُ وردتْ على طريق التّأكيدِ في ألفاظِها وتأليفِها، كما أنَّ التّعبيرَ بلفْظِ ﴿مَّعۡلُومٖ﴾ فيه رعايةٌ للفاصلةِ.

نُكتةُ التّعبيرِ باسْمِ المفعولِ ﴿مَّعۡلُومٖ﴾:

كلُّ مَقدورٍ من مَقدوراتِ اللهِ يُنزِّلُه تعالى بعلْمِه وحكمتِه

عبّرَ باسْمِ المفعول؛ للإيذانِ بأنَّ كلَّ مقدورٍ من مَقدوراتِ اللّهِ المُنزَّلةِ قد ثبتَ العلْمُ به، وللإشعارِ بأنَّه على وجْهِ الحِكمةِ والإبداعِ، والمعنى أنَّه معلومُ المِقدارِ عندَ اللّه أو معلومُ التّقديرِ عندَه سُبحانه، والجمعُ بين المعنَيَيْن أولى وأظهرُ[2].

۞ الفُروقُ المُعجَمِيَّةُ:

الإنزالُ والإرسالُ:

الإنزالُ لا يكونُ إلّا من عُلوٍّ، فهو أخصُّ من الإرسالِ

لم يقلِ اللّه تعالى (وما نرسله إلا بقدر معلوم)؛ للفرقِ بين الإنزالِ والإرسالِ، فالإنزالُ أخصُّ منَ الإرسالِ؛ لأنّ الإنزالَ لا يكونُ إلّا من عُلوٍّ، والإرسالُ أعمُّ[3]، كما أنَّ الإنزالَ في القرآن لا يكونُ إلّا

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/153، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/444.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/152، والقنوجي، فتح البيان: 7/159، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/37.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/474.

منَ اللّه تعالى، والإرسالُ قد يكونُ منَ اللّه وقد يكونُ منَ الخلْقِ إلى الخلْقِ، وفيه معنى تبليغِ رسالةٍ، بخلاف الإنزالِ، ولمّا كان السّياقُ في بيان قُدرةِ اللّه والاستدلالِ على إلهيَّتِه وتوحيدِه وإظهارِ فضْلِه، ونعمتِه وفي أنَّ تصاريفَ الأمورِ كلَّها في العالَمِ العُلويِّ عبَّرَ بقوله ﴿نُنَزِّلُهُۥٓ﴾ دونَ (نُرسله).

﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الحجر: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاسْتِدلالُ بِالرِّياحِ على تَوحيدِ اللهِ وبَديعِ خلْقِه

لمّا تمَّ ما أراده سُبحانَه من آيتَي السّماءِ والأرضِ، وختَمَه بشُمولِ قُدرتِه لكلِّ شيءٍ، أتبعَه بذكْرِ ما ينشأُ عنهما ممّا هو بينَهما مودَعًا في خزائن قُدرتِه، وذلك للاستِدلالِ بفعل الرّياحِ على أُلوهيَّتِه وتَوحيدِه وعلى مِنّتِه على النّاسِ بما فيها منَ الفوائدِ[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿لَوَٰقِحَ﴾: أصلُ (لقح): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحْبالِ ذَكَرٍ لِأُنثى، ثُمَّ يُقاسُ عليه ما يُشَبَّهُ به، منه لِقاحُ النَّعَمِ والشَّجَرِ. أمّا النَّعَمُ فتُلْقِحُها ذُكرانُها[2]، ورياحٌ لَواقِحُ: تُلْقِحُ السَّحابَ بالماءِ، وتُلْقِحُ الشَّجَرَ. والأَصْلُ في لَواقِحَ مُلْقِحَةٌ لكنَّها لا تُلْقِحُ إلّا وهيَ في نَفْسِها لَواقِحُ؛ الواحِدَةُ لاقِحَةٌ[3]، أي: ذاتُ لقاحٍ، واللَّواقِحُ أيضًا: الحَوامِلُ. واللِّقاحُ: ذواتُ اللَّبَنِ، واحدتُها لَقوحٌ ولُقْحةٌ[4]، والمقصودُ باللَّواقحِ في الآيةِ: الحوامِلُ التي تحملُ ما يكونُ سببًا في نزولِ الأمطارِ. ويَصِحُّ أن يكونَ لفظُ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمْعَ مُلقحٍ - اسمَ فاعلٍ - وهو الَّذي يُلْقِحُ غيرَه، فتكونُ الرّياحُ مُلقحةً لغيرِها كما يُلقِحُ الذَّكَرُ الأُنثى[5].

2) ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾: أصلُ (سقى): أصْلٌ واحِدٌ، وهو إشْرابُ الشَّيءِ الماءَ وما أشْبَهَهُ. تَقولُ: سَقَيْتُهُ بيَدي أسْقيهِ سَقْيًا، وأسْقَيْتُهُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/36، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لقح).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (لقح).
(5) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/32.

إذا جَعَلْتَ لَهُ سِقْيًا. والسُّقْيُ: المَصْدَرُ. وكَم سِقْيُ أرْضِك، أيْ حَظُّها مِنَ الشُّرْبِ. والسِّقايَةُ: المَوْضِعُ الَّذي يُتَّخَذُ فيهِ الشَّرابُ في المَوْسِم[1]. والسِّقايَةُ أيضًا: الصّواعُ، وفي قَولِه ﷺ: ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحۡلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، وهو الَّذي كانَ يَشْرَبُ فيهِ المَلِكُ[2]. والسَّقيُّ، على فَعيلٍ: السَّحابَةُ العَظيمَةُ القَطْرِ[3]. والاسْتِسْقاءُ: طَلَبُ السّقي، أو الإسقاء، قال تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: 60][4]. والمَسْقَى: وقتُ السَّقْيِ[5]. والمقصودُ بقولِه ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ في الآية: جعلناهُ لكم سُقْيًا.

3) ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾: أصلُ (خزن): يَدُلُّ على صيانَةِ الشَّيءِ[6]. يُقال: خَزَنَ الشَّيءَ يَخْزُنه خَزْناً واخْتَزَنه: أحْرَزه وجَعَلَهُ في خِزانة، واخْتَزَنَهُ لِنَفْسِه. والخِزانةُ: اسْمُ المَوْضِعِ الَّذي يُخْزَنُ فيهِ الشَّيْءُ، واحِدَةُ الخَزائن، والخِزانةُ أيضًا: عَمَلُ الخازِن[7]. والمَخْزَن، بِفَتْحِ الزّاي: ما يُخْزَن فيهِ الشَّيْءُ. وخِزانَةُ الرجل قَلْبُه، وخازِنُهُ لِسانُه[8]. والمقصودُ بالخَزْنِ في الآية: حفظُ الماءِ، أي: لَسْتُم بقادرين على خزنِه وحفْظِه في الأنهارِ والآبارِ والعيونِ وغيرِها، وإنّما نحن القادرون على ذلك.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ الله تعالى قد هيَّأ في الكونِ أسبابًا للرِّزقِ والإيجادِ

يقولُ الحقُّ ﷻ: وأرسَلْنا رياحَ الرَّحمةِ لِتُلَقِّحَ السَّحابَ، فينشأُ عن ذلك الماءُ الذي يحمِلُه السَّحابُ، فأنزَلْنا مِنَ السَّحابِ مَطَرًا، فمكَّنّاكم من هذا الماءِ العذْبِ؛ لِشُربِكم، وشُربِ أنعامِكم، وسَقْيِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقى).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سقى).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سقى).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خزن).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (خزن).

أراضيكم، لا قُدرة لكم على خزْنِه وادِّخارِه، ولكنّ اللّه يَخزنُه لكم على الأرض بالأنهار ونحوِها، أو في الأرض بأن يَسلكَه ينابيعَ فيها رحمةً بكم وإحسانًا إليكم(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الوصْلِ بالواوِ في ﴿وَأَرۡسَلۡنَا﴾:

مناسبةُ تَوالي الجُملِ الفِعْليَّة في تقريرِ المعنَى وتأكيدِه

عُطِفَت هذه الجُملةُ على قولِه ﴿وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ وما بينَهما جُملٌ اعتراضيَّةٌ؛ لتحقيقِ ما سبقَ وتقريرِه وتأكيدِه، ولِترشيحِ ما لَحِقَ، فتكونُ جملةُ ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ داخلةً في حيِّزِ التّأكيدِ بـ﴿وَلَقَدۡ﴾، ويَجري فيها ما ذُكرَ في فائدةِ التَّأكيدِ بـ﴿وَلَقَدۡ﴾ في موضِعِه(2).

سببُ إيرادِ صيغة الجمع ﴿ٱلرِّيَٰحَ﴾:

الرِّياحُ بِصيغةِ الجمْعِ لإفادةِ الرَّحْمةِ والإنعامِ

لَمّا كان السّياقُ في بيانِ قُدرةِ اللّه وبَديعِ حِكْمتِه وظهورِ مِنّتِه على الخلْقِ، وجاء اللّفظُ بصيغةِ الجمْعِ عند جميعِ القُرّاءِ إلّا حمزةَ وخلف، دلَّ على أنَّ المرادَ من قولِه تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ﴾ إرسالُ رياحِ الرّحمةِ، أي: على وجهِ الإنعامِ، وهذا من عادة القرآنِ في استِعمالِ صيغةِ الجمْعِ للرّيح(3)، وأمّا على قراءةِ حمزةَ وخلَفٍ العاشرِ بالإفراد فللدّلالةِ على أنَّ اللّه قادرٌ على النّفعِ والرّحمةِ بالرّيحِ الواحدةِ والرّياحِ الكثيرةِ، والذي دلَّ على ذلك في قراءة الإفرادِ وصْفُ الرّيحِ بأنّها لواقحُ، أي: نافعةٌ بتكوينِ السّحابِ، وإنزالِ الغيثِ، وإيجادِ الثِّمارِ.

بَلاغةُ قولِه ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ بين التّشبيه والمجاز:

تنوُّعُ التّوجيهِ البَلاغيِّ من بَراعةِ بَلاغةِ القرآنِ

لَمّا كان لفظُ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ جمْعَ لاقحٍ بمعنى حاملٍ، فيقال: ناقةٌ لاقحٌ،

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/18، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/531، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

(3) الراغب، المفردات: (رسل)، وأبو حيان، البحر المحيط: 2/82.

أي: حاملٌ، فالمرادُ باللَّواقحِ اسْمُ الفاعل، أيِ المُلقِّحات، فشُبِّهتِ الرّياحُ التي جاءت بخيرٍ من إنشاءِ سحابٍ ماطرٍ بالنّاقةِ الحاملِ، ليكونَ الكلامُ على طريقةِ التَّشبيهِ البليغ؛ لأنّ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ حالٌ كما سيأتي، والحالُ في معنى الخبرِ، فتقديرُ الكلام: الرّياحُ لواقحُ، ووجْهُ الشّبهِ هو الحمْلُ، أي كما أنَّ اللّواقحَ تكونُ حاملةً، فالرّياحُ حاملةٌ بالسّحابِ أو بالماءِ الذي فيه، كما شُبِّهتِ الرّيحُ التي لا تأتي بالخيرِ بالعقيم، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ بطريقِ الإسنادِ المجازيِّ بإطلاق اللَّواقح على الرّياح، وهي سببُ السّحاب، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ باللَّواقحِ ذَواتَ لِقاحٍ، فيكونَ الإسنادُ حقيقيًّا ليكونَ اللّفظُ من بابِ النّسبِ، مثلَ لابِنٍ وتامِرٍ، وذَلِكَ أنَّ الرّياحَ تَمُرُّ على الماءِ ثُمَّ تَمُرُّ على السَّحابِ والشَّجَرِ فيكونُ فيها لِقاحٌ، فالمُرادُ باللّواقحِ على هذا الوجهِ الاسْمُ المفعولُ، أي مُلقَّحات بالشّجرِ والسّحابِ وغيرِهما[1].

بَراعةُ التّعبيرِ بإيثارِ لفْظِ ﴿لَوَٰقِحَ﴾:

لا يعلمُ مَوضعَ نزولِ الماءِ ولا وقتَه إلّا اللهُ

لمّا كانتِ اللَّواقحُ هي النّوقَ التي توصَفُ بهذا الوصْفِ يومَ حمْلِها[2]، دلَّ على أنَّ الرّياحَ تكونُ حاملةً للسّحاب أو للماءِ الذي فيه بمثابةِ ابتداءِ حمْلِ اللّواقحِ، فلا يعلمُ موضعَ نزولِ الماء ولا وقتَه إلّا اللّهُ.

دَلالةُ الحالِ في قولِه ﴿لَوَٰقِحَ﴾:

إرسالُ الرّياحِ لواقحَ هو بتخصيصِ الله تعالى وحُسْنِ تدْبيره

لمّا كانتِ الحالُ على معنى تقييدِ العاملِ أفادَ مجيءُ ﴿لَوَٰقِحَ﴾ اقترانَ إرسالِ الرّيّاحِ بكونِها لواقحَ، ولمّا كانتِ الحالُ لبيانِ هيئةِ صاحبِها بأن يكونَ على حالٍ دونَ أخرى مُمكنةٍ له دلَّ على أنَّ اللّه تعالى بإرادتِه وقُدرتِه هو الذي قيّدَ الرّياحَ بحالِ كونِها لواقحَ دونَ حالٍ أخرى، بألّا تكونَ لواقحَ، ففي الكلامِ إشعارٌ بكوْنِ إرسالِ الرّياحِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/462، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/276، والقنوجي، فتح البيان: 7/159.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (لقح).

لواقحَ هو بتخْصيصِ اللّه تعالى وحُسْنِ تدْبيرِه، ففيه معنى إقامةِ الحُجّةِ على تَوحيدِه سُبحانَه.

دَلالةُ الفاءِ في قولِه ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾:

تفيدُ الفاءُ التّرتُّبَ والتّعقيبَ، بمعنى أنَّ إنزالَ الماءِ منَ السّماء مُرتَّبٌ على إرسالِ الرّياح لواقحَ ومسبَّبٌ عنه، وإفادةُ التّعقيبِ في كلِّ موضعٍ بحسبِه، فإنزالُ اللّه تعالى الماءَ منَ السّماء هو بقدَرٍ معلومٍ.

إنزالُ الله تعالى الماءَ منَ السّماءِ هو بقدَرٍ معلومٍ

فائدةُ تقديمِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

لَمّا كان لفظُ ﴿فَأَنزَلۡنَا﴾ يفيدُ النّزولَ من عُلوٍّ كان التّصريحُ بالجارِّ والمجرورِ وتقديمُه على المفعولِ لإظهارِ تعْظيمِ أمرِ إنزالِ الماءِ منَ السّماءِ، وإبرازِ فضلِ هذه النِّعمةِ التي تنزلُ من عُلوٍّ.

تعظيمُ شأنِ السّماءِ بإنزالِ الماءِ منها

فائدةُ تنكيرِ لفْظِ ﴿مَآءٗ﴾:

أفادَ التَّنكيرُ تفخيمَ الماءِ النّازلِ منَ السّماء الذي هو بقدَرٍ معلوم وتعظيمَه وتكثيرَه، وأنَّ ذلك عامٌّ في كلِّ ماءٍ نازلٍ منَ السّماء؛ لأنَّ النَّكرةَ المُثبتةَ في سياقِ الامتنانِ تفيدُ العمومَ.

التّعظيمُ والتّكثيرُ والعُمومُ

دَلالةُ الفاءِ في قولِه تعالى ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾:

تفيدُ الفاءُ التّرتيبَ والتّعقيبَ، بمعنى أنَّ إسقاءَ اللّه تعالى الماءَ للخلْقِ مُرتَّبٌ على إنزالِه منَ السّماء، ففيه تذكيرٌ بنعمةِ سُقيا الماءِ ورِفعتِها، وإشعارٌ بحُسْنِ تدبيرِ اللّه سُبحانَه وجميلِ أفعالِه؛ إذ رتّبَ إنزالَ الماء منَ السّماءِ على إرسالِ الرّياحِ لواقحَ، كما رتَّبَ إسقاءَ الماء للخلْقِ على إنزالِه.

من بَديعِ تدْبيرِ اللهِ ترتيبُ الإنزالِ على إرسالِ الرّياحِ وترتيبُ الإسْقاءِ على إنزالِه

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾:

لَمّا كان قولُهم (سقيته الماء) بمعنى أعطيْتُه قدْرَ ما يَرويه، وكان قولُهم (أسقيته نهراً) بمعنى جعلتُه له سُقيا وأعدَدتُه له، كان التّعبيرُ بـ﴿فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ﴾ أبلغَ من (سقيناكموه)؛ لِما فيه منَ الدّلالةِ

من نِعَمِ الله الكبرى على النّاسِ تَمْكينُهم منَ الماءِ لِيَنتفِعوا منه متَى أرادوا

على جعْلِ الماءِ مُعدًّا لهم على جهة تمكينِهم منه؛ لِينتفِعوا به متى أرادوا، وهذه الكلمةُ هي أطولُ كلمةٍ في القرآن[1].

بديعُ المقابلةِ في ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾:

ظهورُ عظيمِ قُدرةِ الله أمامَ عجزِ الخلْقِ وقِلَّةِ حيلَتِهم دليلٌ على أُلوهيَّتِه وتوحيدِه

لمّا أثبتَ اللّه تعالى لجنابِه أنَّه ما من شيءٍ إلّا عندَه خزائنُه في قولِه: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ نفَى عنهم قُدرتَهم على خزْنِ الماء في السّحابِ وإنزالِه إلى الأرضِ، فقال: ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾؛ فقابلَ بين مُلكِه العظيم وقُدرتِه المُطلقةِ من جهة، وعجْزِ الخلقِ وضعْفِهم من جهة أخرى، وذلك لإظهارِ قُدرتِه المُطلقةِ سبحانَه أمامَ عجْزِ الخلْقِ، فهم لا يَملكون الخزائنَ، بل لَيسوا بقادرين على أن يَخزِنوا الماءِ الذي أنزلَه اللّه منَ السّماءِ لهم، فتفيدُ المقابلةُ الاستدلالَ على ألوهيَّة اللّه وتَوحيدِه، وكأنَّه قيل: نحن بأُلوهيَّتنا القادِرون على إيجادِه وخزْنِه في السَّحاب وإنزالِه، ونحن القادرون على خَزْنِه بعدَ إنزالِه، وما أنتم على ذلك بقادرين، لا على إيجادِه، ولا على خزْنِه بعدَ إنزالِه؛ لعجْزِكم وضعْفِكم، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ إشارةً إلى وجودِ إلهٍ مدبِّرٍ حكيم، والمعنى: ما أنتم بخازنين له بعد ما أنزلناه في الغُدرانِ والآبارِ والعُيون، بل نحن نخزنُه فيها لنجعلَها سُقيا لكم، وليكونَ ذخيرةً لكم عند الحاجة إليه، مع أنَّ طبيعةَ الماءِ تقتَضي الغَوْرَ، فوقوفُه دون حدٍّ لا بدَّ له من سبب مُخصِّصٍ؛ فيدل خَزنُه على المدبِّر الحكيم، كما تدلُّ حركةُ الهواء في بعض الأوقاتِ من بعض الجهاتِ على وجْهٍ يَنتفعُ به جميعُ المخلوقات، وفي المقابلةِ إظهارٌ لكمالِ قُدرةِ اللّه وعظيمِ فعلِه أمامَ عجْزِ الخلقِ وقلَّةِ حيلتِهم[2].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/474، والبقاعي، نظم الدرر: 11/37، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/72، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/138.

بَلاغةُ النّفْيِ في ﴿وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾:

المُبالغةُ في نفْيِ قُدرةِ الخلْقِ على خَزْنِ الماءِ النّازلِ منَ السّماءِ

كان الظّاهرُ أن يتوجّهَ النّفْيُ إلى قُدرتِهم؛ لأنّ الخزنَ عائدٌ إلى الفعْلِ والقُدرةِ، فلمّا توجّه النّفْيُ إلى ذواتِهم أفادَ المبالغةَ في نفْيِ قُدرتِهم على خزْنِ الماء في السّماء أو خزنِ كلِّ الماء النّازلِ منَ السّماءِ في الأرضِ.

فائدةُ تقديمِ ﴿لَهُۥ﴾:

الخازنُ للماءِ هو الله تعالى وحدَه دونَ غيرِه

أصلُ الكلامِ: وما أنتم بخازنين له، فقُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ لإفادة القصْرِ الإضافيِّ مع تأكيدِ نفْيِ قُدرتِهم على أن يكونوا خازنين لماءِ المطرِ في السّماء أو ماءِ المطرِ النّازلِ منَ السّماء في الأرض، ويُفهمُ من لازمِه أنَّ الخازنَ له هو الذي أنزلَه منَ السّماء، وهو اللّه تعالى وحدَه دونَ ما سواه، كما أنَّ في تقديم الجارِّ والمجرورِ رعايةً للفاصلة.

فائدةُ الباءِ في قولِه ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾:

الاحْتِراسُ مِن احتمالِ التَّخصيصِ

أفادتِ الباءُ المُبالغةَ في نفْيِ العُمومِ، بمعنى تأكيدِ نفْيِ قُدرتكم على خزنِ الماءِ في أيِّ حالٍ منَ الأحوالِ، والاحْتِراسِ من احتمالِ التَّخصيصِ.

فائدةُ مَجيءِ لفْظِ ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾ **نَكرةً:**

عمومُ نفْيِ قُدرة الخلْقِ على خزْنِ الماءِ

لمّا جاء اللّفظُ نكرةً في سياقِ النّفْيِ دلَّ على العُمومِ، والمعنى لا يكونُ من أيِّ واحدٍ منكم خزنٌ للماءِ في السّماءِ، ولا للماءِ النّازلِ منَ السّماءِ إلّا بقُدرةِ اللّه وفضْلِه عليكم، لبيانِ عجْزِ الخلْقِ وإظهارِ ضعْفِهم فيما يعمُّ ظهورُه.

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِخَٰزِنِينَ﴾:

القادرُ على حفْظِ الماءِ النّازلِ في الآبارِ وغيرِها وعلى إخراجِه هو اللهُ وحدَه

يحتملُ أن يكونَ المعنى: قادرين على حفْظِه في الغُدرانِ والعُيون والآبارِ بعد إنزالِه، أو: قادرين على التّمكُّنِ من إخراجِه[1]، كما أنّكم

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209.

لا تَقدرون على خَزْنِه وحفْظِه في السّحابِ من بابٍ أولى، ويُمكنُ الجمعُ بين هذه المعاني وغيرِها ممّا يحتملُه الكلامُ، بل هو الأَوْلى؛ لِعمومِ اللّفظِ بمجيئِه في سياق النّفْيِ كما تقدَّمَ، وتفيدُ هذه الجملةُ بكلِّ معانيها أنّ القادرَ على كلِّ ذلك هو اللّه تعالى وحدَهُ.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ [الحجر: 23]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

أمـرُ الإحـيـاءِ والإماتةِ بيدِ الله وحدَه

لَمّا تقرَّرَ تفصيلُ الخبرِ عمّا هو سببٌ للإحياءِ في الجُملةِ، تهيَّأتِ النَّفسُ للانتقالِ منه إلى الإحياءِ الحقيقيّ قياسًا على ذلك، جاءت هذه الآيةُ(1).

وأيضًا لَمّا جرَى ذِكْرُ إنْزالِ المَطَرِ، وكانَ مِمّا يَسْبِقُ إلى الأذْهانِ عند ذِكْرِ المَطَرِ إحْياءُ الأرْضِ بِهِ، ناسَبَ أنْ يُذْكَرَ بَعْدَهُ جِنْسُ الإحْياءِ كُلِّهِ؛ لِما فيهِ مِنْ غَرَضِ الاسْتِدْلالِ على الغافِلِينَ عنِ الوَحْدانيَّةِ، ولِأنَّ فيهِ دَليلًا عَلَى إمكانِ البَعْثِ(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُحۡيِۦ﴾: الحياةُ: طراوةٌ مع امتدادٍ، لها فاعليّةٌ تتمثّلُ في رهافةِ الحِسّ وفي النّموّ حركةً أو امتدادًا(3)، والحَيُّ مِنْ كُلِ شَيْءٍ: نَقيضُ المَيِّتِ، وحَيَّ، يَحْيا، فهو حَيٌّ، ومِنه الحَيَوانُ، وهو كُلُّ ذي روح، ناطِقًا كان أو غيرَ ناطِقٍ، والحيُّ مِنَ النَّباتِ: ما كانَ طَرِيًّا يَهْتَزُّ، وأرضٌ حَيَّةٌ، أيْ: مُخصِبَةٌ، وطَريقٌ حَيٌّ، أيْ: بَيِّنٌ(4). والمُرادُ بِالإحياءِ في الآية: تَكوينُ المَوْجوداتِ الَّتي فيها الحَياةُ، وإحياؤُها بَعْدَ فَناءِ الأجسامِ(5).

2) ﴿وَنُمِيتُ﴾: المَوْتُ: ذَهابُ القوَّةِ مِنَ الشَّيءِ، أو همودٌ وسكونٌ ينشأُ عن زوالِ حدّةِ الشّيءِ وقوّته(6)، يُقال: ماتَ، يَموتُ، مَوْتاً، فهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (حيي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حيي)، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حيي).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/36.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (موت).

مَيّتٌ، وجَمعُه: أمواتٌ، ومَيِّتون، ومَيْتون. ويُطلَقُ أيضًا على مَن في حُكْمِ الميِّتِ وليس به، وعلى ما من شأنه أن يموتَ، ويُجْمَعُ على مَوْتَى وأمواتٍ[1]، والمقصودُ بالموت في الآية: زوالُ القوّةِ الحاسّةِ[2].

3) ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾: الوِرْثُ والميراثُ (أصْلُه الواوُ): كَوْنُ الشَّيء لِقَوْم ثُمَّ يَصيرُ إلى آخَرينَ بِنَسَبٍ أَوْ سَبَبٍ أو غير ذلك[3]. يُقالُ: ورِثَ أباهُ، يَرِثُه، إرْثًا، فهو وريثٌ، أي: صارَ إلَيْه مُلْكُهُ بعد مَوْتِه. فالإيراث: الإبقاءُ للشَّيء. يورِثُ، أي: يُبقي ميراثًا. والتُّراثُ: تاؤه واوٌ، ولا يُجْمَعُ كما يُجْمَعُ الميراثُ. والإرثُ: ألفُه واوٌ، لكنَّها لمّا كُسِرَتْ هُمِزَتْ بلُغة من يهمز الوِسادَ والوِعاءَ[4]. واللّه ﷻ يَرِث الأرْض ومَن عليها، وهو خيرُ الوارِثين، أي يَبقى ويَفْنى مَن سواهُ فَيرجع ما كانَ يملكه العِباد إليه وحْده لا شريك لَهُ[5]. والمقصودُ بالإرْثِ في الآية: البَقاءُ بعدَ الموجوداتِ تَشْبيها للبقاءِ بالإرْث.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحياةُ والموتُ بيدِ الله تعالى وحدَه، وأن ليس لهذه الحياةِ بقاءٌ

لقد بيَّنَ اللّه ﷻ في هذه الآية أنَّ الإحياءَ والإماتةَ بيدِه وحدَه، فقال: وإنّا لَنحنُ نُحْيي الخَلْقَ مِنَ العدَمِ، ونُميتُ الأحياءَ متى شِئْنا، ونُحْييهم بعدَ مَوتِهم يومَ البَعثِ، فاللّه سُبحانه يرثُ الأرضَ ومن عليها، فلا يغترنَّ أحدٌ بهذه الدُّنيا، وإنْ أعطاهُ اللّه الكثيرَ من زَهرتِها، وأفاض عليه الجزيلَ مِن متاعِها؛ فكلٌّ إلى زوالٍ[6].

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، وابن منظور، لسان العرب: (موت).

(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (موت).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (ورث).

(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ورث).

(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ورث).

(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/47، والشوكاني، فتح القدير: 3/153، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/229.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ الوصْلِ بالواوِ ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

الاسْتِدلالُ على قُدرةِ الله وعُموم تَصرُّفِه سُبحانه

أفادتِ الواوُ عطْفَ هذه الجُملةِ على قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾، فتكونُ من عطْفِ الجُملةِ المؤكَّدةِ على الجُملةِ المؤكَّدةِ؛ لِلدَّلالةِ على القُدرَةِ وعُمومِ التَّصرُّفِ[1].

سَببُ إيثارِ ضميرِ التَّعظيمِ في الآيةِ:

الإحياءُ والإماتةُ والبقاءُ من شأنِ الله المَلِكِ الواحِدِ الأحَدِ

لمّا كان فعلُ الإحياءِ والإماتةِ والبقاءِ بعد موتِ الخلائقِ لا يكونُ إلّا لله تعالى، عبَّرَ بالضّميرِ الأعظمِ؛ للإيذانِ بأنَّ الإحياءَ والإماتةَ والبقاءَ بعد فناءِ الخلْقِ من شأنِ المَلِكِ الواحدِ الأحدِ، لا يُشارِكُه في ذلك أحدٌ.

فائدةُ المؤكِّداتِ في ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

من يُنكِرُ البعْثَ يومَ القيامةِ كأنَّه مُنكِرٌ لخلْقِ الله له

لمّا جاءتِ الجُملةُ الخبريَّةُ مُؤكَّدةً بتأكيدَيْن (إنَّ) واللّامِ الموطِّئةِ للقسَمِ أفادَ ذلك تحقيقَ المعنى وتقريرَه، ولمّا كان لفظُ ﴿نُحۡيِۦ﴾ يفيدُ الإحياءَ الأوّلَ والإحياءَ عندَ البعثِ نُزِّلَ الكافرون مَنزلةَ المُنكِرين للإحياءِ الأوّلِ أي الإيجادِ؛ لإنكارِهم الإحياءَ الثّاني، كما نزّلوا مَنزلةَ المُنكِرين لِلإماتة بسببِ أقوالِهم وأفعالِهم المُنكَرةِ، ويدخلُ فيه المُلْحدون المُنكِرون لأصْلِ إيجادِ اللّه تعالى للخلْقِ دخولًا أوّليًّا[2].

دَلالةُ الحصْرِ في ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

لا قُدْرَةَ على الإحْياءِ ولا على الإماتَةِ إلّا لله تعالى

لمّا جاء المُسنَدُ إليه ضميرًا ﴿لَنَحۡنُ﴾ مُسندًا إليه الخبرُ الفعْليُّ في قولِه: ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ أفادَ الحصرَ بمعونةِ ورود التّأكيدَيْن: (إنَّ) واللّام، والمعنى: لا قُدْرَةَ على الإحْياءِ ولا على الإماتةِ إلّا لَنا[3].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/136، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/139، والخازن، لباب التأويل: 3/54، والقنوجي، فتح البيان: 7/160.

فائدةُ مَجيء خَبر ﴿وَإِنَّا﴾ جُملةً اسميَّةً:

ثبوتُ الحكم وتأكيدُه ودوامُه واستمرارُه

لمّا كانت جملةُ ﴿لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ خبرًا لـ﴿وَإِنَّا﴾ أفادتِ الثُّبوتَ بمعنى التَّأكيدِ، بمعنى ثبوتِ أمرِ الإحياءِ والإماتةِ لنا دونَ غيرِنا وتأكيدِه وتقريرِه ودوامِه واستمرارِه.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

تجدّدُ الإحياءِ والإماتةِ واسْتِمرارُهما

لمّا جاء الفعلُ ﴿نُحۡيِۦ﴾ بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على التّجدُّدِ والاستمرارِ أفادَ أنَّ المرادَ منَ الإحياءِ تَكْوينُ المَوْجوداتِ الَّتي فيها الحَياةُ، ويندرجُ فيه إِحْياؤُها أَيْضًا بَعْدَ فَناءِ الأَجْسامِ، فيكونُ قد أُدْمِجَ في الاسْتِدْلالِ على تَفَرُّدِ اللّه تعالى بِالتَّصرُّفِ إِثْباتُ البَعْثِ ودَفْعُ اسْتِبْعادِ وُقوعِه واسْتِحالَتِه، وأمّا ﴿وَنُمِيتُ﴾ فأفادَ مجيئُه بصيغةِ المضارعِ تجدّدَ الإماتةِ للموجوداتِ التي فيها الحياةُ[1].

سببُ حذْفِ المفعولِ في ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

اختِصاصُه سُبحانه بذلك، وشُمولُ الإحياءِ والإماتةِ للخلْقِ جميعًا

لمّا كان الفِعْلان ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ منَ الأفعالِ المُتعدّية كانَ حذفُ المفعولِ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، أو يكونُ نُزِّلَ الفعلُ المُتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازمِ، ونُكتتُه على كلا الأمرَين هي إثباتُ أنَّ اللّه تعالى بعظَمتِه وأُلوهيّتِه من شأنِه الإحياءُ والإماتةُ، وأنَّ هذين الفعْلَين لا يكونان إلّا منه، فالقصدُ إثباتُ معنى الإحياءِ والإماتةِ فعلًا للّه تعالى على طريقِ المبالغةِ، وأنّهما مُختصّانِ به سُبحانه دون غيرِه، ولو عُدّي الفِعْلانِ لانتقضَ الغرَضُ؛ لأنّ الكلامَ سيُفيدُ حينئذٍ أنَّهم مُقرّون بأنَّ اللّه تعالى يُحيي ويُميتُ، ولا يُنكِرون إلّا جنسَ ما وقعَ أثَرُ الإحياءِ أوِ الإماتة عليه، فلمّا كان الكلامُ مع مَنْ أنْكَرَ الإحياءَ والإماتةَ أصلًا أو مع من نُزِّلَ منزلتَه حُذِفَ المفعولُ منَ الفعْلَين؛ لأجل تحقيقِ الاختصاصِ المُناسبِ لسياقِ الاستدلالِ على توحيدِ اللّه تعالى[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 155، والسكّاكي، مفتاح العلوم، ص: 229.

بَلاغةُ التّكميلِ في ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

الاحْتِراسُ مِن توهُّمِ أنّه تعالى يُحْيي ولا يَقدرُ على الإماتةِ

لمّا كان المقصودُ ذكْرَ الإحياءِ وهو المُناسبُ لذكْرِ إنزالِ المطرِ كان المَقْصودُ من ذكرِهِ ذِكْرَ الإماتةِ على جهة الاستيعاب، ولِدفْعِ توهُّم أنَّه تعالى يُحيي ولا يقدرُ على الإماتةِ، فجاء الكلامُ على الإطناب بطريقِ التَّكْميلِ(1).

بَديعُ الطِّباقِ في ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

لا يَقدرُ على الجمْعِ بين الإحياءِ والإماتةِ سِوى الله تعالى

جاء الفِعْلان متقابلَيْن متضادَّيْن على طريق الطِّباقِ؛ للإيذانِ بأنَّه لا يقدرُ على الجمْعِ بين الإحياءِ والإماتةِ سوى اللّه تعالى، وإنّما جاء بطريق ذكْرِ المُتقابلَين مع أنَّ الإحياءَ وحدَه كافٍ في بيانِ كمالِ قُدرتِه والاستدلالِ على توحيدِه لظهورِ الأمرِ بطريقِ المقابلةِ وللتّذكير بمَوتِهم ولترشيحِ ذكْرِ اللّاحق في قولِه تعالى: ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾.

سرُّ التّرتيب في ﴿نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾:

الاحتجاجُ بالظّاهرِ في الدُّنيا على تَرتيبِ وُجودِه

لمّا كان المرادُ منَ الإحياء إيجادَ الحياةِ في بعضِ الأجسامِ القابلةِ لها وكان المرادُ منَ الإماتة إزالةَ تلك الحياةِ ظهرَ وجْهُ تقديم فعْلِ الإحياء على فعْلِ الإماتةِ، ثمَّ إنّ المُنكِرَ للبعثِ لمّا كان لا يُحْتَجُّ عليه إلّا بما يراه منَ المتّفقِ عليه وبما لا يختلفُ فيه أحدٌ، بدأ بذكْرِ الحياةِ التي يعيشُها ثمّ الموتِ الذي يراه مع بعضِ المُحيطين به، وأمّا تقديمُ الموتِ في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ﴾ [البقرة: 28] فلأنّ المرادَ في سورةِ البقرةِ العدمُ السّابقُ للإيجادِ(2).

دَلالةُ العطْفِ في ﴿وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾:

الدَّلالةُ على أنّه تعالى هو المَلِكُ وهو سبحانه الوارث على الحَقيقةِ

لمّا عُطِفت هذه الجُملةُ على قولِه تعالى: ﴿لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ دلَّ على أنَّها داخلةٌ في حيِّزِ التَّأكيدِ، لتكونَ خبرًا لـ(إنَّ)، ويحتملُ أن تكونَ معطوفةً على ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾، وعلى الوجهَيْن يكونُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/39.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/139.

وصْفُ اللّه تعالى بالوارث على أنَّه هو الملكُ على الحقيقةِ لا على المَجازِ، لِيفيدَ أنَّ مِلْكَ الخلائقِ إنّما هو على سبيل المجازِ لا الحقيقةِ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ المُتأخّرَ ليس بوارثٍ للمُتقدّم كما يتراءَى من ظاهر الحالِ، وأنَّ تصرُّفَ الخلْقِ صوريٌّ، فالوارثُ الحقيقيُّ هو اللّه المَلكُ الباقي(1).

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾:

اللّه تعالى هو الباقي بعدَ فناءِ المَخْلوقاتِ وهو المالِكُ لجَميعِ المَمْلوكاتِ

لَمّا كانَ لفظُ الوارثِ يُقال للباقي من وارث الميّتِ، عبّرَ به هنا على طريق الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ؛ للإيذانِ بأنَّه بموتِ جَميعِ الخَلائِقِ، يَزولُ مُلْكُ كُلِّ أحَدٍ وينقطعُ عنه عِنْدَ مَوْتِه، ويَكونُ اللّه هو الباقي الحَقُّ المالِكُ لِكُلِّ المَملوكاتِ وحدَهُ، فلمّا كانَ هَذا شَبيهًا بالإرْثِ، وصفَ اللّه تعالى نفسَه بأنَّه وارثٌ مِنْ هَذا الوجْهِ، ففي التّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ إيذانٌ بأنَّ ما عندَ الخلائقِ كان ابْتِداؤُه منه تعالى، فإذا فنيَ جميعُ الخلائق رجعَ الذي كانوا يَملكونَه في الدّنيا على المجازِ إلى مالكه على الحقيقةِ، وهو اللّه تعالى، وفيه إشعارٌ بأنَّ مرجعَ الخلائقِ كلِّها إليه تعالى، والمعنى: ونحن الباقون إذا مات الخلائقُ(2).

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بقولِه ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾:

ما يَملِكُه النّاسُ في الدّنيا زائِلٌ، فإذا ماتَ النّاسُ خلُصتِ الأملاكُ لله وحده

قد يقالُ: كيف يصفُ اللّه تعالى نفسَه بأنَّه الوارثُ وإن كانَ على المجازِ؛ لأنَّ الوارثَ من يتجدَّدُ له المُلْكُ، بعد فناءِ المورِّث، واللّه تعالى لم يتجدَّدْ له مُلْكٌ، لأنّه لم يَزلْ مالكًا للعالَم؟!، وجوابُه: أنَّه لَمّا كان الوارثُ لغةً هو الباقي بعد فناءِ غيره، وكان اللّفظُ استُعملَ على طريقِ المجازِ، أفادَ أنَّ ما يَملكُه الخلقُ في الدّنيا ليسَ مِلْكًا على

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/575، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/136، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209.

الحقيقةِ، فلمّا كانَ الخلائقُ يعتقدون أنَّهم مالكون، ويُسمَّون بذلك أيضاً مجازًا ثمَّ ماتوا، خلُصت الأملاكُ كلُّها للّه تعالى عن ذلك التعلُّقِ، فبهذا الاعتبارِ سُمّي وارثًا، ونظيرُ ذلك قولُه تعالى ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْقَهَّارِ ١٦﴾ [غافر: 16]، والمُلْكُ له أزليٌّ وأبديٌّ، اليومَ وقبلَ اليومِ وبعدَه[1].

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 297.

﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾

[الحجر: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاحْتِجاجُ على التّوحيدِ بكمالِ العِلْمِ بعدَ كمالِ القُدرة

لّما احتجَّ اللّه تعالى على كمالِ قُدرتِه في قولِه: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ وأفادَ الكثرةَ التي تفوتُ الحصْرَ أتْبَعَهُ بقولِه: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ لبيانِ كمالِ علْمِه؛ للإيذانِ بأنَّه لا يحصي الكثرةَ التي تفوتُ الحصْرَ إلّا اللّهُ تعالى، وبأنَّه لا يَخْفَى عَلَى اللّه شَيْءٌ مِنْ أحْوالِهِم، وبأنَّ ما يدلُّ على قُدرتِه دليلٌ على علْمِه؛ لأنّ القادرَ على كلِّ شيءٍ لا بدَّ له من علْمِه بما يصنعُه[1].

وأيضًا لّما ذَكَرَ الإحْياءَ والإماتَةَ وكانَ الإحْياءُ يُذَكِّرُ بالأحْياءِ، وكانَتِ الإماتَةُ تُذَكِّرُ بالأمواتِ الماضينَ تَخَلَّصَ مِنَ الاسْتِدْلالِ بالإحْياءِ والإماتَةِ عَلَى عِظَمِ القُدْرَةِ إلى الاسْتِدْلالِ بلازِمِ ذلك على عِظَمِ عِلْمِ اللّه وهو عِلْمُهُ بالأُمَمِ البائِدَةِ وعِلْمُهُ بالأُمَمِ الحاضِرَةِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾: أصْلُ (قدم): يَدُلُّ على سَبْقٍ ورَعْفٍ (أي: تقدُّم)[3]، مع قوّةٍ وحدّةٍ[4]. فالقَدَمُ: ما يَطَأُ عليه الإنسانُ[5]، وجمعُه أقْدامٌ، وبه اعتُبِرَ التَّقدّمُ والتَّأخُّرُ[6]، ويُقالُ: قَدَّمَ فلانٌ يقدِّمُ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/37، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، والبقاعي، نظم الدرر: 11/40.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.
(3) الخليل، العين: (قدم).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (قدم).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (قدم).
(6) الراغب، المفردات: (قدم).

وتَقدَّم يَتقدَّمُ، وأقدَمَ يُقْدِمُ، واستَقْدَمَ يَستقدمُ، بِمَعْنى واحِد. وقولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾، يَعْني مَنْ يَتقَدَّمُ مِنَ النّاسِ على صاحِبِهِ في الـمَوْتِ ومَنْ يتأخرُ مِنْهُم فيهِ، وأصلُ ذلك كلِّه مِنَ القَدَمِ[1]. والقُدْمَةُ والقَدَمُ: السّابقةُ في الأمرِ[2]، والقَدَم أيضًا: كلُّ ما قدَّمتَ مِن خيرٍ[3]، يُقال: لِفُلانٍ قَدَمُ صِدْقٍ، أي: شَيءٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ أثَرٍ حَسَنٍ[4] أو سابقةِ فضيلةٍ[5]. والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ﴾ في الآية: الَّذينَ تَقَدَّموا الأحياءَ إلى الـمَوْتِ، أو إلى الآخِرَةِ، فالتَّقَدُّمُ فيهِ بمَعْنَى الـمُضيِّ[6].

2) ﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾: التّأخيرُ: فِعلُ الشّيءِ آخِرًا بعد أجلِهِ، والآخِرُ ضِدُّ الأوّلِ، والتّأخيرُ: التأجيلُ، وضِدُّهُ: التّقديمُ والتّعجيلُ، يُقالُ: أخّر الشيءَ يُؤَخِّرُهُ: أجّلهُ[7]، والتّأخيرُ: تفويتُ الشيءِ وتضييعُهُ، يُقالُ: أخّر سفرهُ: فوّتهُ ولم يأتِ بِهِ في وقتِهِ. والـمُؤخّرُ خِلافُ الـمُقدّمِ، والتّأخيرُ أيضًا: جعلُ الشّيءِ خلف غيرِهِ[8]، وأصلُ التّأخُّرِ: تخلُّفُ الشّيءِ في المكانِ أوِ الزّمانِ عن مُقارِنِهِ[9]، يُقالُ: تأخّر عن عملِهِ؛ أي: تخلّف عنهُ، والِاستِئخارُ مُبالغة في التّأخُّرِ، مثل: استِحباب، فالسّينُ والتّاءُ لِلمُبالغةِ[10]. والآخِرةُ: الدّارُ التي بعد الدُّنيا[11]. و﴿ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ﴾ في الآية: الَّذينَ تَأَخَّروا، وهم الباقونَ بَعْدَ زَوالِ غَيرِهِم إلى أجَلٍ يأتي[12].

❁ المَعنى الإجْماليّ:

يكشَفُ اللّه تعالى في الآية عن بعض عِلْمِه، وأنَّه سُبحانه قد عَلِم ما كان من خَلْقِه قبل

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (قدم).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قدم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (قدم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدم).
(5) الراغب، المفردات: (قدم).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم: (أخر).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (أخر).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أخر)، ويُنظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/201.
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/201.
(11) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (أخر).
(12) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.

أن يُخلَقوا، السّابقين منهم واللّاحقين، فهذا بيانُ كمالِ عِلْمِه بعد الاحْتِجاج على كمالِ قُدرتِه، فإنَّ ما يدلُّ على كمالِ قُدرتِه دليلٌ على كمالِ عِلْمِه[1].

اللهُ تعالى عالمٌ بجميعِ المَخلوقاتِ المُتقدِّمةِ والمُتأخِّرةِ إلى يومِ القيامةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائِدةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في قولِه ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا﴾:

أفادَ مَجيءِ الكلامِ مؤكَّدًا باللّامِ الموطّئةِ للقسَمِ و(قَدْ) تنزيلَ المُخاطَبين منزلةَ المُنكِرين؛ لأنْ يكونَ علمُ اللهِ شاملًا كاملًا بسببِ أعمالِهم القبيحةِ وإشراكِهم باللهِ تعالى، وللإشعارِ بأنَّهم سيُحاسَبون على ما علِمَ اللهُ من أعمالِهم وأحوالِهم بعدَ الحشْرِ يومَ القيامةِ.

قبيحُ أعمالِ الكافرين وإشراكُهم به تعالى جعلَهم في مقامِ المُنكِرين لإحاطةِ علْمِه

دَلالةُ الخبَرِ في قولِه ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا﴾:

فائِدةُ الخبرِ في الآيةِ بيانُ إحاطةِ علْمِه تعالى بكلِّ أحوالِ الخلْقِ ممّن تقدّمَ، وإحاطةِ علْمِه بما سيقعُ وما يكونُ من أحوالِ المُستأخِرين كذلك، ولازِمُ الفائدةِ بيانُ أنَّ علْمَه تعالى ذاتيٌّ، فعلْمُه سُبحانه عِلْمُ إحاطةٍ وانكشافٍ شاملٍ كاملٍ، فهو سُبحانه لا يخفَى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السّماءِ، وفي الخبرِ وعيدٌ وتَهْديدٌ لمن يخالفُ أمرَ اللهِ تعالى، بأنَّه إن تقدّمَ إلى المعصيّةِ جوزيَ بالعقابِ، وإعلامٌ ووعْدٌ بأنَّ من تقدَّمَ إلى الطّاعةِ جوزيَ بالثّوابِ[2].

الوعيدُ لمن يُخالفُ أمرَ الله، والوعدُ لمن يُطيعُ الله، لأنّه تعالى بهم عليمٌ

فائِدةُ التَّكرارِ في ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا﴾:

في تَكرارِ قولِه تعالى ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا﴾ ما لا يَخفَى منَ الدّلالةِ على كمالِ تأكيدِ علْمِه بما مضى وما تأخّرَ، لرفعِ أيِّ شكٍّ عن كمالِ علْمِ اللهِ تعالى وشُمولِه[3]، كما أنَّ العلْمَ بالمُستأخِرين وممّن لم يولَد بعدُ والعلمَ بما سيكونُ من أحوالِهم أكثرُ بيانًا ووضوحًا بكمالِ إحاطةِ

علْمُ اللهِ بمَن لم يولَدْ وبما سيكونُ من أحوالِهم أظهرُ حُجّةً على كمالِ إحاطتِه تعالى

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/83، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/229.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 19/86، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/140.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

علْمِه سُبحانه وعظيمِ قدْرِه، ولهذا كرّره مع ﴿ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ زيادةً في التّقرير.

سِرُّ مجيء الفعْلِ ﴿عَلِمْنَا﴾ ماضيًا:

علمُ الله مُتعلِّقٌ بما مضَى وبما سيقعُ وبما هو واقعٌ

أفادَ مَجيء الفعْلِ بِصيغةِ الماضي أنَّ علْمَ اللّه أزليٌّ قديمٌ، متعلِّقٌ بما وقعَ وانقضى، وبما سيقعُ ولم يأتِ بعدُ، وأنَّه حاصلٌ ثابتٌ.

فائدةُ التَّعريف بـ(ال) في الآية:

علْمُ اللّه بالمُستقْدِمين والمُستأخِرين يفيدُ علْمَه بالمُتقدِّمين والمُسارِعين في الطّاعات

لمّا أفادتْ (ال) الموصولةُ استغراقَ الأفراد تناولَ اللَّفظُ عمومَ علْمِه تعالى بكلِّ مُستقدمٍ ومُستأخِرٍ على جميع وجوهه، ليدخلَ فيه عمومُ علْمِه بكلِّ من تقدَّم ولادةً وموتًا إلى زمنِ آدمَ، ومن تأخرَ ممّن يكونُ منهم ويولدُ إلى يوم القيامةِ، ويدخل فيه أيضًا عمومُ علْمِه بمن تقدّمَ منهم ومن تأخّرَ في الإسلامِ وأنواعِ الطّاعاتِ والخَيراتِ، وما يقعُ في القتال وغيرِه، فاللّفظُ على معنى العمومِ ولا يخصُّ حالةً دونَ حالةٍ، وهو المناسبُ للمقام[1].

دَلالةُ السّين والتّاء في الآية:

لا ينفعُ اجْتِهادُ الخلْقِ جميعًا في تأخيرِ المَوتِ عن أحدٍ، ولا اجْتِهادُهم في تقديمِه

أفادتِ السّينُ والتّاء المبالغةَ في تأكيد التّقدّمِ والتَّأخّرِ، فكأنَّ من قضى اللّه بموتِهم يُسارعون في التّقدّمِ وإنْ كانوا مُجتهدين بالعلاجِ في تأخيره، ومن قضى اللّه تأخيرَه حتى يكونوا كأنَّهم يُسابقون إلى ذلك وإن عالجوا الموتَ بأيِّ شكلٍ منَ الأشكالِ فإنَّه يتأخّرُ، ولا يستطيعُ الخلْقُ جميعًا تقديمَه بأيّ حالٍ[2].

بديعُ المُقابلةِ في الآية الكريمة:

إحاطةُ علْمِ اللّه الشّاملِ الكاملِ لجميع الخلائقِ

ورد اللَّفظانِ على سبيلِ المُقابلةِ؛ لتفيدَ المقابلةُ إحاطةَ علْمِ اللّه الشّاملِ الكاملِ لجميعِ الخلائقِ، ولكيلا يُتوهَّم أنَّ من فاتَ أو من يتأخَّرُ لا يعلَمُ اللّه به وبأحواله.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/89، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/433، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/358، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/37.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/41، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.

إفادةُ العُمومِ مع رعايةِ الفاصلةِ

مُناسبةُ حذْفِ الجارِّ والمجرورِ في الآية:

لمّا ذكرَ مُتعلّقَ اسْمِ الفاعل ﴿مِنكُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ﴾ حذَفَه في ما يُقابلُه لدلالتِه عليه من جهة؛ على سبيل الإيجازِ، وللدّلالةِ على العمومِ من جهة ثانية، أي: المُستأخرين منكم ومن غيرِكم، ولرعاية الفاصلةِ من جهة ثالثةٍ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ٢٥﴾ [الحجر: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إذا أحاطَ اللهُ بالمَخلوقاتِ قُدْرةً وعِلْمًا سهُلَ عليه إعادَتُهم وحَشْرُهم

لمّا تمَّ الدّليلُ على تمامِ القُدرة وشُمولِ العلم، ثبت قطعًا إحياءُ الموتى لانتفاءِ المانعِ من جهة القُدرةِ، واقتِضاءِ الحِكمةِ له من جهة العلْمِ للعدْلِ بين العبادِ بالمقابلةِ على الصّلاحِ والفسادِ[1].

وأيضًا لمّا أخبرَ اللهُ تعالى أنَّه يُحيي ويُميتُ، وقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ﴾ كان ما ذُكرَ كالدّليلِ الموصِلِ إلى النّتيجةِ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾، فإنَّ مَن قدّرَ الحياةَ والموتَ ومن هو عليمٌ بما يقعُ من أحوال العبادِ لا يوجِدُ هذه الموجوداتِ ولا يقدّرُها عبثًا، فالإحياءُ والإماتةُ وعلْمُ اللّه بأعمالِ الخلقِ تَقتضي بحسبِ الحِكمةِ إعادةَ الإحياءِ بعد الموتِ للحشرِ، فجاءت هذه الآيةُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَحْشُرُهُمْۚ﴾: أصلُ (حشر): الجَمعُ والسَّوقُ، وأهلُ اللُّغَةِ يَقولونَ: الحَشْرُ الجَمعُ مع سَوْقٍ، وسُمّيَتِ الحَشَراتُ بِذلك؛ لِاجْتِماعِها وكَثْرَتِها[3]، والحَشْرُ: جَمعُ النّاسِ يَوْمَ القيامَة. والحَشْرُ: حَشْرُ يَوْمِ القيامَةِ. والمَحْشَرُ: المَجْمَعُ الَّذي يُحْشَرُ إليه القَوْمُ، وكذلكَ إذا حُشِروا إلى بَلَدٍ أو مُعَسْكَرٍ أو نَحْوِهِ[4]، والمرادُ بالحَشْرِ في الآية: جَمْعُ النّاسِ من مواضِعَ مُتفرِّقةٍ إلى مكانٍ واحِدٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/41.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/40.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حشر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (حشر).

❁ المَعنى الإجماليُّ:

سَيَحشرُ الله تعالى النّاسَ جَميعًا للحِساب والجزاءِ

يُخبرُ الحقُّ ﷻ نبيَّه مُحمَّد محمَّدًا ﷺ أنَّه تعالى وحدَه الَّذي يجمَعُ الأوَّلينَ والآخِرينَ يومَ القيامةِ للحِسابِ والجزاءِ، لا شَكَّ في قُدرته على ذَلك، وصِدْقِ وعده، إنَّه ﷻ حَكيمٌ يضَعُ الأشياءَ في مواضِعِها اللّائقةِ بها، ومن ذلك حِكمتُه في تدبيرِ خَلْقِه ومُجازاتِهم على أعمالِهم، وهو عليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بأعدادِ خَلْقه وأحوالِهم وأعمالِهم، فيُجازيهم عليها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شَرًّا فشَرٌّ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الالتفاتِ في الآية:

تنبيهُ المُخاطَبين إلى أنَّ الله تعالى مالِكُهم ومُربّيهم هو الذي يَحشرُهم

لمّا كانت الآياتِ السّابقةُ بطريق خطابِ المُتكلّم المُعظِّم نفسَه ثمَّ انتقل الكلامُ في هذه الآية ليكونَ بطريق الغيبةِ بذكْرِ الاسْمِ الظّاهرِ كان الكلامُ على طريقِ الالتفاتِ؛ ليكونَ أحسنَ تطْريةً لنشاط السّامعِ، وأكثَرَ إيقاظًا له، للإصغاءِ إلى أنَّ اللّه تعالى هو الذي يَحشرُهم وأنَّ الجزاءَ مُلاقيهم، كما أنَّ في الالتفاتِ بالتّعرّضِ لعُنوانِ الرّبوبيّةِ إشعارًا بعِلّيَّة حشْرِ اللّه لهم، فهو مالكُهم ومُربّيهم ويُحقّقُ العدْلَ فيهم[2].

دَلالةُ الخبرِ في ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾:

حشرُ الخلْقِ يومَ القيامةِ للجزاءِ على أعمالِهم

فائدةُ الخبرِ هنا المؤكَّدِ بـ﴿وَإِنَّ﴾ هي الإخبارُ بأنَّ اللّه تعالى يحشُرُ جميعَ المُستقدِمين والمُستأخِرين لا محالةَ، ولازمُ الفائدةِ الإخبارُ بأنَّه تعالى إنّما يَحشرُهم للثّوابِ والعقابِ لا محالةَ.

فائدةُ تصديرِ الآية بـ﴿وَإِنَّ﴾:

تَحقيقُ وعْدِ الله بأنَّه هو الذي يحشُرُ الخلْقَ

أفادَ تصديرُ الجملةِ بـ﴿وَإِنَّ﴾ تحقيقَ الوعْدِ بأنَّ اللّه تعالى هو الذي يحشُرُ الخلائقَ، والتّنبيهَ على أنَّ الحُكمَ بحشْرِ الخلْقِ واقعٌ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/56، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 430.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

مُتحقِّقٌ، بما سبقَ منَ الدّلالة على كمالِ قُدرةِ اللّه تعالى وعلْمِه بتفاصيلِ الأشياءِ لتحْقيقِ حِكمتِه سُبحانَهُ وظُهورِها، فيدلُّ التَّأكيدُ على صحَّة الحُكم، ولهذا أَتْبعَه بالجملة الفعليَّةِ في قولِه ﴿يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ كما سيأتي(1).

دَلالةُ الحصْرِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾:

اللّه تعالى هو وحدَه القادرُ على حشْرِ الخلْقِ، وهو العالِمُ بهم مع كثْرَتِهم وتَباعُدِهم

لمّا جاء المُسندُ إليه ضميرًا ﴿هُوَ﴾ والمُسندُ هو الخبرُ الفعليُّ ﴿يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ أفادَ الحصرَ بمعونةِ ورودِ التّأكيدِ بـ﴿وَإِنَّ﴾ ومَجيءِ الجُملةِ اسميَّةً، أو يقال لمّا توسَّطَ ضميرُ العظمةِ ﴿هُوَ﴾ دلَّ على أنَّه العالمُ بحصْرِهم مع إفراطِ كثْرتِهم وتباعُدِ أطرافِ عددِهم والقادرُ على حشْرِهم والمُتولّي له لا غيرَ؛ لأنّهم كانوا يَستبْعِدون ذلك ويَستنكِرونَه، ويقولون: ﴿مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ٧٨﴾ [يس: 78](2).

فائدةُ الإضافةِ في ﴿رَبَّكَ﴾:

إظهارُ شَرَفِ النّبيِّ ﷺ والتّنْويهُ بشأنِه عندَ حشْرِ الخلائقِ

في الإضافةِ إلى ضميرِ المُخاطَبِ المقصودِ منه رسولُ اللّه ﷺ دَلالةٌ على اللُّطفِ به ﷺ، وتَنْويهٌ بشأنِه ﷺ؛ لأنّهُم كَذّبوهُ في الخَبَرِ عَنِ البَعْثِ، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ٧ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ﴾ [سورة سبأ: 7 - 8]، أيْ فكَيْفَ ظَنُّكَ بِجَزائِهِ مُكَذِّبيكَ إذا حشَرَهم؟!(3).

فائدةُ مجيءِ خبَرِ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ جُملةً اسميَّةً:

لا أحدَ يَحْشُرُ الخلْقَ سِوى الله تعالى

لمّا كانت جملةُ ﴿هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ خبرًا لـ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ﴾ أفادتِ الجملةُ الثُّبوتَ، بمعنى ثبوتِ أمْرِ حشْرِ جميعِ الخلْقِ للّه تعالى دونَ غيرِه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/141.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/576، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/141.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.

فائدة وُرود الخبر جملة فعليَّة في ﴿هُوَ يَحْشُرُهُمْۚ﴾:

حَشْرُ الخلْقِ من شأن الله وحدَه

أفادَ مَجيء الخبرِ جملةً فعليَّة تقوّي الحُكم وتحقيقَه، بمعنى تحقيقِ الأمرِ للسّامعِ بأنَّ اللّه هو يحشرُهم وليس غيرَه.

دَلالةُ الضّميرِ في ﴿يَحْشُرُهُمْۚ﴾:

شُمولُ حشْرِ الله كلَّ الخلائقِ على وَفْقِ علْمِه بهم وبما قدّموا وأخّروا

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّه قد علمَ كلَّ المُستقدِمين والمُستأخِرين جمَعَهم هنا في الضّمير (هم)، ولمّا كان الضّميرُ يعودُ على الاسْم الظّاهرِ بما اتّصفَ به من تعلُّقِ علْم اللّه بهم، أفادَ أنَّه تعالى يحشُرُ الذين أحْياهُم وأماتَهم منَ المُستقدِمين والمُستأخِرين على وَفْقِ علْمِه بهم وبأحوالِهم، فيكونُ الضّميرُ على معنى العُمومِ والاستغراقِ، أي يحشُرُ كلَّ المُستقدِمين والمُستأخِرين.

فائدةُ (إنَّ):

بيانُ العلَّةِ من حشْرِ الله تعالى للخلائقِ وبيانُ وجْهِ الفائدةِ منه

جاءت (إنَّ) في قوله ﴿إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾: لتأكيدِ مضمونِ الجملةِ ولتقريرِ المعنَى في نفوسِ المُخاطَبين، ولِربطِ الجملةِ المتَّصلة بها بما قبْلَها على سبيل بيانِ العلَّةِ من حشْرِ اللّه تعالى للخلائق وبيانِ وجْهِ الفائدةِ منه، فكأنَّه قيلَ إنّما يَحشُرُهم؛ لأنّ الحكمةَ تقتَضي الحشرَ للجزاءِ على أعمالِ الخلْقِ، وأنَّ الجزاءَ يكونُ على وَفْقِ علْم اللّه بهم وبأحوالِهم، فلا ظلمَ يومَ القيامة، فكان تذْييلُ الآية بهاتين الصِّفتَين منَ الحكمةِ والعلم في غاية المناسبةِ، فكأنَّه قيل إنّما يَحشرُهم لأنّه تعالى كاملُ القُدرةِ يفعلُ كلَّ ما يفعلُ على مقتضى الحكمةِ والصّوابِ، ولأنّ علْمَه قد وسِعَ كلَّ شيءٍ ومنه علمُه تعالى بأجزاءِ الموتَى ومواقعِها في أمكنةٍ شتَّى، فيكونُ حشرُ الخلائق على مقتضَى الحكمةِ ووضْعِ الأمورِ في موضعِها السّليم، ولو لم يقعِ الحشْرُ لكان مخالفًا لحكمةِ اللّه وعلْمِه بجميعِ الأمور[1].

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 323، والزمخشري، الكشاف: 2/576، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/137، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.

دَلالةُ الضّميرِ في قولِه ﴿إِنَّهُۥ﴾:

حَشْرُ الخلائقِ من مُقتضَى حِكْمةِ اللهِ تعالى وعلْمِه

لمّا كان الضّميرُ يعودُ على الاسْمِ الظّاهرِ المذكورِ قبْلَه بما اتّصفَ به أفادَ أنَّ المرادَ إنَّ ربَّك الذي يحشُرُهم حكيمٌ عليمٌ، ففيه إشعارٌ بأنَّ الحشْرَ هو من مُقتضَى حِكمتِه وعلْمِه ﷻ كما يفيدُ عمومَ الوصْفَيْنِ وثبوتَهما له سُبحانه.

دَلالةُ مَجيءِ الوصْفَين الجليلَيْن بصيغةِ فعيلٍ:

حِكمةُ اللهِ تعالى في جعْلِ الحشْرِ لجميعِ الخلائقِ، وعلْمُه وسِعَ كلَّ شيءٍ

دلَّت صيغةُ فعيلٍ التي للمبالغةِ في قولِه تعالى: ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ على أنَّ اللّه تعالى له كاملُ الحكمةِ وكاملُ العلمِ، وزاد من معنى المبالغةِ حذفُ متعلَّقِ الوصْفَين، فلم يقل (حكيم في خلقِه أو في حشرِه) مثلًا كما لم يقل (عليمٌ بهم أو بأعمالِهم)؛ للإيذانِ بأنَّ الوصْفَين على معنى الوصفِ المُطلقِ، ولإفادة العُموم في كلِّ مُتعلَّقات الصّفتَين، ولمّا جاءتِ الصّفتان في سياقِ بيانِ العلَّةِ لوقوعِ الحشرِ أفاد المعنى أنَّه تعالى باهرُ الحكمةِ في جعْلِ الحشْرِ لجميعِ الخلائق، مُتقنٌ في أفعالِه كلِّها ومنها الحشرُ، وأنَّ علمَه وسِعَ كلَّ شيءٍ، فلا يُعجزُه حشرُ الخلائق كلِّها؛ لِعلْمِه تعالى بأجزاءِ الموتى ومواقعِها مهما كانت في أماكنَ شتَّى، مختلفةٍ أو متباعدةٍ، وأنَّهم سيُحاسَبون على وَفْقِ علْمِ اللّه بهم وبأعمالِهم.

نكتة التّرتيب في ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾:

الحَشرُ والجزاءُ على الأعمالِ يومَ القيامةِ من مُقتضى حِكْمته سُبحانه

لمّا كان السّياقُ في بيانِ أنَّ اللّه تعالى سيَحْشرُ الخلائقَ يومَ القيامة كانَ تقديمُ صفةِ الحكمة على صفة العلْم؛ للإيذان باقتضائِها للحشْرِ والجزاءِ، وأنَّ الحشْرَ لجميعِ الخلائق فلا يَشذُّ منهم أحدٌ؛ لأنّ اللّه عليم بهم وبمواضعِهم جميعًا[1]، ولما كان الحسابُ والجزاءُ بعد الحشْرِ ناسبَ مُجيءُ العلْمِ بعد الحكمةِ.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/73.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تذكيرُ الإنسانِ بِمَبدأِ أصْلِه دليلٌ على قُدْرةِ اللهِ على إعادةِ خلْقِه وبعْثِه

لّما جرَتْ سنَّتُه الإلهيةُ ﷻ على أنْ يذكرُ ابتداءَ الخلق دليلًا على الإعادة سابقًا ولاحقًا، وابتدأ هنا بذكْرِ الحشْرِ لِما قام عليه مِنَ الدّليلِ بإحياء الأرضِ، توقَّعَ السّامعُ تفصيلَ ابتداءِ الخلْقِ الذي هو أدلُّ دليل على البعثِ بعد إجمالِه في قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ فجاءت هذه الآيةُ[1].

وأيضًا لَمّا نَبَّهَ تعالى على مُنتَهَى الخَلْقِ وهو الحَشْرُ يَوْمَ القيامَةِ إلى ما يَسْتَقِرّونَ فيه، نَبَّهَهُم على مَبْدَأ أَصْلِهِم آدَمَ، وما جَرَى لِعَدوِّهِ إبْليسَ مِنَ المُحاوِرَةِ مع اللّه تعالى[2].

وأيضًا: لمّا أقامَ اللّه تعالى الدّليلَ في الآياتِ السّابقةِ على أنَّه المُنفردُ بخلْقِ أجناسِ العالَمِ مِنَ السّماء والأرضِ وما فيهما وما بينَهما، ولمّا ذكرَ الإحياءَ والإماتةَ كان من أهمِّ الإحياءِ إيجادُ النّوعِ الإنسانيِّ؛ فجاءت هذه الآيةُ تَكْملةً لهذا الدّليل وتقريرًا لقُدرةِ اللّه على إمكانِ البعثِ والحشْرِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صَلْصَٰلٍ﴾: أصلُ (صلّ): أمرانِ: الأوّل: ندًى وماءٌ قَليلٌ، والآخَرُ: صَوْتٌ، فَأمّا الأوَّلُ فالصَّلَّةُ، وهي الأرْضُ، تُسَمَّى الثَّرَى لِنَداها، على أنَّ مِنَ العَربِ مَنْ يُسَمّي الصَّلَّةَ التُّرابَ النَّديَّ؛ ولذلك تُسَمَّى بَقِيَّةُ الماءِ في الغَديرِ صُلْصُلَةً[4]. والصَّلْصالُ: المُنْتِنُ مِنَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/42.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/475.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلّ).

الطّين، من قولهم: صَلَّ اللّحمُ وأصَلَّ[1]. وأمّا الثّاني: فترَدُّدُ الصّوتِ مِنَ الشَّيء اليابسِ. يُقالُ: صَلَّ اللِّجامُ وغَيْرُهُ، إذا صَوَّتَ. فَإذا كَثُرَ ذلك مِنْهُ، قيلَ: صَلْصَلَ[2]. وقال أبو إسْحاق: الصَّلصالُ: الطينُ اليابسُ الَّذي يَصِلُّ من يُبْسِه، أي: يصوِّتُ[3]، ونَحْوَ ذلك قال الفراء[4]، قال الأزهري: هو صَلصال ما لم تُصِبه النّار، فَإذا مسّتْه النّار فهو فَخّار[5]. والمقصودُ بالصَّلصالِ في الآية: الطّينُ الَّذي يُتْرَكُ حَتَّى يَيْبَسَ، فَإذا يَبِسَ فَهو صَلْصالٌ، وهو شِبْهُ الفَخّارِ إلّا أنَّ الفَخّارَ هو ما يَبِسَ بِالطَّبْخِ بِالنّارِ، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الرَّحْمَن: 14][6].

2) ﴿حَمَإٍ﴾: أصلُ (الحمأ): اسْوِدادٌ ونتانةٌ، ومنه: الحَمَأُ: الطّينُ الأسودُ المُنتِنُ، وحَمِئَتِ البئرُ حَمَأً، بِالتَّحْريك، فَهيَ حَمِئَةٌ إذا صارَتْ فيها الحَمأةُ وكَثُرَتْ. وحَمِئَ الماءُ حَمَأً وحَمَأً خالَطَتْهُ الحَمأة فكَدِرَ وتَغيرت رائِحَتُهُ. وعَيْنٌ حَمِئَةٌ: فيها حَمأةٌ؛ وفي التَّنْزيل: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الكهف: 86][7]. والمقصودُ بالحَمَأ: الطّينُ إذا اسودَّ وكُرِهَتْ رائِحَتُهُ.

3) ﴿مَّسْنُونٍ﴾: (السنُّ): جَرَيانُ الشَّيْءِ في سُهولَةٍ، يُقالُ: سَنَنْتُ الماءَ على وجْهي أسُنُّهُ سَنًّا إذا أجْرَيْتُهُ. وروي عنِ ابن عباس أنَّه قالَ: المسنونُ الطّينُ الرَّطبُ؛ لأنّه إذا كان رطبًا يسيلُ وينبسطُ على الأرض فيكونُ مسنونًا؛ كأنَّه مصبوبٌ[8]. والمَسْنون: المُنْتِن، أي: مُتَغَيِّرٌ مُنْتِنٌ؛ يُقال: سُنَّ الماءُ فهو مَسْنونٌ، أي: تَغَيَّرَ[9]؛ وقال الزّجّاج: قيل فيه مُتَغَيَّر؛ وإنما أُخذ من أنَّه على سُنَّةِ الطريق؛ لأنه إنَّما تغيّرَ إذا قام بغير ماءٍ جارٍ[10]. أمّا ابنُ عاشور فيرى: أنَّ المَسْنونَ هو الَّذي طالَتْ مُدَّةُ مُكْثِه، وهو اسْمُ مَفْعولٍ مِن فِعْلِ سَنَّهُ إذا تَرَكَهُ مُدَّةً طَويلَةً تُشْبِهُ السَّنَةَ. ويرى أنَّ فِعْلَ (سَنَّ) بِمَعْنَى تَرَكَ شَيْئًا مُدَّةً طَويلَةً غيرُ مَسْموعٍ. ولَعَلَّ (تَسَنَّهُ)

(1) الراغب، المفردات: (صلل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صلّ).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (صلّ).
(4) الفراء، معاني القرآن: 2/88.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (صلّ).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/41.
(7) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حمأ).
(8) ابن الأنباري، الأضداد، ص: 398، والواحدي، التفسير البسيط: 12/598.
(9) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سنن).
(10) الزجاج، معاني القرآن: 3/179.

بِمَعْنَى تَغَيَّرَ مِنْ طولِ المُدَّةِ أصْلُهُ مُطاوِعُ سَنَه ثُمَّ تُنوسيَ مِنْهُ مَعْنَى المُطاوعَةِ[1]. وهو المقصودُ بالآية هنا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خَلْقُ الله تعالى آدَمَ مِن صَلْصالٍ أعْجبُ وأتَمُّ في الدَّلالةِ على القُدرةِ

يُخبِرُ اللهُ تعالى أنَّه خَلَقَ آدمَ من طينٍ قدِ اشْتَدَّ يُبْسُه بعدما خُمِّرَ، حتَّى صارَ له صوتُ صَلصلةٍ إذا نُقِرَ، وهذا الصَّلصالُ من طينٍ أسودَ متغيِّرٍ؛ مِن طولِ مُكثِه[2]. فظاهِرُ هذه الآيةِ أنَّ آدمَ خُلِقَ مِن صَلصالٍ، أي: طينٍ يابسٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخَرَ ما يَدُلُّ على خِلافِ ذلك، كقَولِه تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ۝﴾ [الصافات: 11]، وكقَولِه تعالى: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59] والجوابُ: أنَّه ذكَرَ أطوارَ ذلك التُّرابِ، فذكَرَ طَورَه الأوَّلَ بقَولِه: ﴿مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: 59]، ثُمَّ بُلَّ فصارَ طينًا لازِبًا، ثمَّ خُمِّرَ فصار حمَأً مسنونًا، ثمَّ يَبِسَ فصار صَلصالًا كالفخَّارِ[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ تَصْديرِ الآيةِ بـ﴿وَلَقَدْ﴾:

خلْقُ الإنسانِ والجانِّ من أظْهرِ الأدلَّةِ على وجودِ الله وتَوحيدِه

لمَّا كانَ مساقُ الآيةِ للدَّلالةِ على كمالِ قُدرة الله تعالى وبيانِ بدْءِ خلْقِ الثَّقلَيْن أكَّدَ هذا الأمرَ باللَّام الموطِّئة للقسَم و(قَدْ)؛ للإيذانِ بأنَّ خلْقَ الإنسان والجانِّ من أظهرِ الأدلَّة على وجودِ الله وتَوحيدِه، ففي ذكْرِ ابتداءِ الخلْقِ على وصولِ البشرِ إلى أصْلٍ كان بمحضِ القُدرةِ مُخالفًا لهم في التَّكوين بين أبوَين، وانتهاءِ الجنِّ إلى أصلٍ ليس خلْقُه كخلْقِهم، تنبيهٌ عظيمٌ على انتهاءِ المَوجوداتِ إلى موجودٍ لا يُجانِسُهم، بل هو خالقٌ غيرُ مخلوقٍ، فاعلٌ بالاختيارِ، واحدٌ لا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/59، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/21، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431.
(3) الشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 131.

شريكَ له، ولا اعتراضَ عليه، قادرٌ على ما يريدُ سُبحانه، كما أفادَ التّأكيدُ التّنبيهَ على المقدّمةِ الثّانية التي يتوقّفُ عليها إمكانُ الحشْرِ، وهو قَبولُ موادِّ الخلْقِ جميعًا للجمْعِ والإحياءِ والبعثِ والنّشورِ[1].

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

لمّا كانَ الإنسانِ مَخلوقًا من مادَّةٍ واحدةٍ كان الجنْسُ كلّه في حُكمِ المخْلوقِ منها

(ال) هنا عهديّةٌ؛ للإشارةِ إلى آدمَ عليه السلام، ويجوزُ أن يرادَ بـ(ال) الجنْسُ كما هو الظّاهرُ من لفْظِ الإنسان؛ لأنّ تشعُّبَ جنسِ الإنسانِ لمّا كان من شخصٍ واحدٍ خُلِقَ من مادَّةٍ واحدةٍ كان الجنسُ بأسْره مخلوقًا منها، والمعنى: خلقْنا أصلَ الإنسانِ وأوَّلَ فردٍ من أفرادِه خلْقًا بديعًا مُنطويًا على خلْقِ سائرِ افرادِه انطواءً إجْماليًّا[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

لا تَغترَّ أيُّها الإنسانُ ولا تَتَكبَّرْ فأصْلُك من حمإٍ مَسنونٍ

لم يَردْ في القرآنِ ذكْرُ اسْمِ آدمَ عليه السلام عند بيانِ أنَّ أصلَ الخلْقِ كان من حمأٍ مسنونٍ، فلم يقل (ولقد خلقنا آدمَ من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ)، ولم يَردْ هذا الوصفُ إلّا عند ذكْرِ الإنسان أوِ البشر، ونُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ الإنسانِ هنا مع أنَّ المرادَ آدمُ هو تذكيرُ كلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ بأنَّ أصلَه بذاتِه وأوصافِه كان من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، فلا يغترَّ ولا يتكبَّرْ، ولْينظرْ إلى عظمةِ اللّه وبديعِ خلْقِه ومُقتضَى حِكمتِه وسَعةِ علْمِه سُبحانه، وفيه إشعارٌ ببديعِ صُنعِ اللّه في تصويرِ الإنسانِ وعظَمتِه، وأنّها من أجملِ صوَرِ الخلْقِ، ففيه تعجيبٌ من صورةِ خلْقِه وما هو عليه؛ لِمَجيءِ اللّفظ في سياقِ تعظيمِ قُدرةِ اللّه وبديعِ خلْقِه، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كلَّ فردٍ من أفرادِ البشرِ له حظٌّ من إنشاءِ آدمَ عليه السلام منه، فكان خلْقُه عليه السلام منَ الطّين خلْقًا لكلِّ أحدٍ من فروعِه منه، ولمّا كان خلْقُه على هذا النَّمطِ السّاري إلى

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والبقاعي، نظم الدرر: 11/43، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210.

جميع أفراد ذرّيته أبدعَ من أن يكونَ ذلك مقصورًا على نفسِه؛ كما هو المفهومُ من قولِه: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، كانَ أدلَّ على عِظَم قُدرةِ الخلّاقِ العليمِ وكمالِ علْمِه وحِكمتِه.

دَلالةُ (من):

بيانُ أصْلِ خلْقِ الإنسانِ دَليلٌ على إعجازِ القرآنِ وأنَّه من عندِ الله

تفيدُ (من) في ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ﴾ في الموضعَيْن: الابتداءَ، بمعنى أنَّ ابتداءَ خلْقِ الإنسانِ كانَ من صلصالٍ وابتداءَ خلْقِ الصّلصالِ كانَ من حَمَإٍ مسنون، فيكونُ الجارُّ والمجرورُ ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ صفةَ تقْييدٍ للصّلصال، بمعنى أنَّ الحمأ مادَّةٌ سابقةٌ للإنسانِ على كونِه كان صلصالًا، وفي بيانِ أصلِ خلْقِ الإنسانِ بيانٌ لعجيبِ قُدرةِ اللّه تعالى الواحدِ الأحدِ؛ لِأنَّ خَلْقَه مِنْ هذه الأُمورِ أعْجَبُ مِنْ خَلْقِ الشَّيْءِ مِنْ شَكْلِه وجِنْسِه، ولأنّه تعالى أخْرَجَ مِنْ هذه الحالَةِ المَهينَةِ نَوْعًا هو سَيِّدُ أنْواعِ عالَمِ المادَّةِ ذاتِ الحَياةِ، ولمّا كان بيانُ أصلِ الخلقِ ليس في علْمِ الإنسانِ في وقتِ التّنزيلِ، كان ذكرُه وبيانُه دليلًا على إعجازِ القرآنِ وكونِه من عندِ اللّه تعالى وحجّةً على نُبوّةِ رسولِه ﷺ[1].

دَلالةُ الوصْفِ بقولِه تعالى ﴿مَّسْنُونٍ﴾:

تنوّعُ المعنَى لِتنوُّعِ التّوجيهِ

إمّا أن يكونَ لفظُ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ بمعنى مُصوَّرٍ، ليكونَ مأخوذًا من سنةِ الوجْه، أي: صورته، وإمّا أن يكونَ بمعنى مصبوبٍ، من سنَّ الماءَ، أي: صبَّه، والمعنى: من صلصالٍ مفرَّغٍ على هيئةِ الإنسان كما تُفرَّغُ الصّوَرُ مِنَ الجواهرِ المُذابةِ في القوالبِ، وعلى هذين المعنَيَيْن يكونُ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ صفةً لـ﴿صَلْصَٰلٍ﴾، وقُدِّمتِ الصّفةُ غيرُ الصّريحةِ؛ أي: الجارّ والمجرور في قولِه: ﴿مِّنْ حَمَإٍ﴾ على الصّفةِ الصّريحةِ ﴿مَّسْنُونٍ﴾ لنُكتةٍ تقْتضي العُدولَ إلى هذا التّقديم، وهي كونُ الحَمَأِ مناسبًا لِلصّلصال في كونِ كلٍّ منهما من قَبيلِ الموادِّ،

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/137، والشهاب، عناية القاضي: 5/510، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.

فهما مُتقدّمان على الصّورةِ في الوجود، فروعيَ ذلك في الذِّكرِ، كما أنَّ في تقديمِ الصّفة غيرِ الصّريحةِ تنبيهًا على أنَّ ابتداءَ مسنونيَّته ليس في حال كونِه صلصالاً بل في حال كونِه حمأ، كأنَّه سُبحانه أفرغَ الحمأ، فصوَّرَ من ذلك تمثالَ إنسانٍ أجوفَ، فيَبسَ، حتَّى إذا نُقِرَ صوَّتَ، ثمَّ غيَّرَهُ إلى جوهرٍ آخرَ، فتباركَ اللّه أحسنُ الخالقين، كما يحتملُ أن يكون ﴿مَّسۡنُونٖ﴾ بمعنى مُنْتِنٍ، فيكونَ صفةً لـ﴿حَمَإٖ﴾[1].

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ:

تنوُّعُ ذكْرِ أصْلِ خلْقِ آدمَ عليه السلام لمُناسبةِ أطوارِ خلْقِه

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾ كان ظاهرُ هذه الآيةِ أنَّ آدم خُلِق من صلصالٍ؛ أي: طينٍ يابسٍ، وقد جاء في آياتٍ أُخرَ ما يدلُّ على خلافِ ذلك، كقوله تعالى: ﴿طِينٖ لَّازِبِۭ ١١﴾ [الصافات: 11]، وكقوله: ﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: 59]، والجوابُ: أنَّه ذكرَ أطوارَ ذلك التّراب، فذكرَ طوْرَه الأوّلَ بقوله: ﴿مِن تُرَابٖ﴾ [آل عمران: 59]، ثم بُلَّ فصارَ طينًا لازبًا، ثم خُمِّرَ فصار حمأ مسنونًا، ثم يَبسَ فصارَ صلصالًا كالفخّار، والمعنى: خُلِق من هذا وذاك وذلك[2].

(1) الشهاب، عناية القاضي: 5/510، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/143.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/349، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188، والشنقيطي، دفع إيهام الاضطراب، ص: 185.

﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾ [الحجر: 27]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرَ خلْقِ الجانِّ بعد ذكْرِ خلْقِ الإنسان، ليأخُذوا حِذْرَهم منه

لمّا ذكرَ اللّه تعالى خلْقَ الإنسانِ أتْبَعه ذكْرَ خلْقِ الجانِّ من قبلِه، ومنه يَتخلَّصُ إلَى التَّذْكيرِ بِعَداوةِ الشَّيطانِ لِلْبَشَرِ لِيَأْخُذوا حِذْرَهُم مِنْهُ ويُحاسِبوا أنْفُسَهُم على ما يُخامِرُها مِنْ وسْواسِهِ بِما يُرْديهِم في الهلاكِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسَّمُومِ﴾: أصلُ (سم): يَدُلُّ على مَدْخَلٍ في الشَّيءِ، كالثُّقْبِ وغَيْرِه، فَمِنْ ذَلِكَ السَّمُّ والسُّمُّ: الثُّقْبُ في الشَّيْءِ. قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، والسُّمُّ القاتِلُ، يُقالُ: فَتْحًا وضَمًّا؛ وسُمّيَ بذلكَ لِأَنَّهُ يَرْسُبُ في الجِسْمِ ويُداخِلُه، خِلافَ غَيْرِهِ مِمّا يُذاقُ. والسَّمومُ: الرّيحُ الحارُّ، لِأنَّها أيْضًا تُداخِلُ الأجْسامَ مُداخَلَةً بِقوَّةٍ، وتؤثِّرُ تأثيرَ السُّمِّ[2]. والسُّمُّ: الإصلاحُ بَيْنَ النّاسِ، وذَلِكَ أنَّهُم يَتَبايَنونَ ولا يَتَداخَلونَ، فإذا أُصْلِحَ بينهم تَداخَلوا. والمرادُ من قوله: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾، أي: منَ الرّيحِ الحارّةِ الَّتي تقتُلُ؛ وذلك لِشدَّة حرارتِها، وقوَّة تأثيرِها، فإنّها تنفذُ في مسامِّ البَدَنِ[3].

المَعْنى الإجماليُّ:

بيانُ المادّةِ التي خُلِقَ منها إبليسُ، قبلَ خَلْقِ الإنسانِ

بيَّن اللّه تعالى بعد ذلك المادّةَ الَّتي خُلِقَ منها الجانُّ؛ حيث إنَّ إبليسَ - أبا الجنِّ، المُتواريَ عن الأعيُنِ - خَلَقَه اللّه ﷻ من قبْلِ آدمَ مِنَ النّارِ الشَّديدةِ الحرارةِ. فالآيةُ تضمَّنتْ إيماءً إلى شرَفِ آدمَ عليه السلام

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/52، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سم).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/38.

وطيبِ عُنصرِه وطهارةِ مَحتدِه، وعلينا أن نُؤمنَ بأنَّ الجنَّ خُلقتْ منَ النّار، ولكنّا لا نعرفُ كُنهَ ذلك ولا حقيقتَه، فذلك ما لا سبيلَ إلى معرفتِه إلّا من طريق الوحْيِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ العطْفِ في الآيةِ:

تنوُّعُ خلْقِ الله دَليلٌ على بديعِ صُنْعِه وعظيمِ شأنِه

عُطِفَتْ جُملةُ ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ﴾ على ما قبْلَها، لِمناسبةِ بيانِ تنوّعِ خلْقِ اللّه تعالى وبديعِ صُنعِه، ولإكمالِ الكلامِ على بدْءِ خلْقِ الثّقلَيْن، وللإدْماجِ والتَّمهيدِ إلى بَيانِ نَشْأةِ العَداوة بَين بني آدَمَ وجُنْدِ إبْليسَ[2].

دَلالةُ (ال) في قولِه ﴿ٱلۡجَآنَّ﴾:

خلَقَ الله أصْلَ الجنِّ من نارِ السَّمومِ

(ال) عهديّةٌ، للإشارةِ إلى أبي الجِنِّ، وذهبَ بعضُ المُفسّرين إلى أنَّه إبليسُ، وجزمَ به السّمينُ الحلبيُّ[3]، ويجوزُ أن يرادَ بـ(ال) الجنْسُ كما ذُكرَ في لفظِ الإنسان؛ لأنّ تشعُّبَ جنسِ الجنِّ لمّا كان مخلوقًا من مادّةٍ واحدةٍ كان الجنْسُ بأسْرِه مخلوقاً منها، والمعنى: خلقْنا أصلَ الجنِّ من نارِ السَّموم[4].

بَراعةُ مَجيءِ جُملةِ ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ﴾:

الجمعُ بين الألفاظِ القليلةِ والمَعاني الكثيرةِ من بديعِ بَلاغةِ القرآنِ

لمّا كان المناسبُ هنا هو العطْفُ على جُملةِ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ وكانتِ الجُملةُ فعليَّةً جاءت جملةُ ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ﴾ كذلك، ولمّا كان المرادُ تقويةَ المعنى والتّنبيهَ على نوعِ خلْقِ الجانِّ والاهتمامَ به، لِمخالفتِه لخلْقِ الإنسانِ ولِما سيُذكر بعدُ من عداوتِه للإنسانِ بدأ بذكْرِ لفظِ الجانِّ منصوبًا ليكونَ على طريقِ الاشتغالِ، فتحقَّقَ

(1) الشنقيطي، أضواء البيان: 2/10، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431، والمراغي، تفسير المراغي: 14/21.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/42.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/436، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/157.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.

البدءُ بالاسْمِ مع فِعليَّة الجملةِ ليكونَ بطريق الإجمالِ ثمَّ التّفصيلِ مع تقويَةِ المعنى[1]؛ لأنّ ﴿وَٱلۡجَآنَّ﴾ منصوبٌ بفعلٍ يُفسّره المَذكورُ، فهو بتقدير حصولِ جُملتَين على معنى التَّكرار، وتقديرُ الكلام: (ولقد خلقنا الجانَّ خلقناه من قبل)، فأوجزَ بحذْفِ الفعلِ مع بقاء معنَى التّأكيدِ، فهو كالجمْع بين الإطنابِ والإيجازِ بتركيبٍ واحدٍ، وإن لم يوجَدْ ثَمَّ إطنابٌ في الحقيقةِ.

دَلالةُ ﴿مِن﴾ في قولِه ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

خـلـقُ الـجـانِّ أسْـبـقُ مـن خلْقِ الإنسانِ، ولا فـضـلَ في الأسبقيَّةِ

﴿مِن﴾ لابتداءِ الغايةِ الزّمانيّةِ، والمعنى: خلقْنا الجانَّ في زمنٍ ابتدأ قبْلَ زمنِ خلْقِ الإنسانِ، وفائدتُه تَعْليمُ المخاطَبين أنَّ خَلْقَ الجانِّ أَسْبَقُ[2]، والإشعارُ أن لا فضلَ لهم في أسبقيَّةِ خلْقِهم على خلْقِ الإنسانِ، إذ أمرَ إبليسَ أن يسجدَ لآدمَ، ولم يقل (والجانَّ خلقناه قبل) بحذف (مِنْ)؛ لتأكيدِ تعْيينِ ابتداءِ خلقِ الجانِّ قبل خلقِ الإنسان، وللإيذانِ بتقليلِ زمانِ سبْقِ خلْقِه وتقريبِه[3].

فائدة ﴿مِن﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ تبعيضيَّة[4]، بمعنى أنَّ خلْقَ الجانِّ كان من بعضِ نار السَّمومِ.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾:

الجانُّ مَخلوقٌ منَ النّارِ الحارَّةِ الشّديدةِ النّافذةِ في المَسامِّ

لمّا كانتِ الإضافةُ على معنى اللّامِ وكان لفظُ السَّموم بمعنى الرّيحِ الحارَّةِ كان المعنى من نارِ الرّيحِ الحارَّةِ، فالجانُّ مخلوقٌ من نارِ الحرِّ الشّديدِ النّافذةِ في المسامِّ، وفائدةُ بيانِ أصلِ خلْقِ الجنِّ الإيذانُ بحِكمةِ اللّه تعالى في إتقانِ المَزجِ والتّركيبِ في هذا الخلْقِ وبيانُ المقابلةِ بين أصلِ خلْقِ الإنسانِ وأصْلِ خلْقِ الجانِّ،

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/43.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/52.
(4) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/185.

ويحتملُ أن يكونَ لفظُ السَّمومِ بمعنى النّارِ الشّديدةِ الحرارةِ فتكونَ الإضافةُ بيانيَّةً[1].

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلسَّمُومِ﴾:

عِظمُ حَرِّ النّارِ التي خُلِقَ منها الجانُّ، فهي تقتلُ لفرْطِ حرِّها

عبّرَ البيانُ الإلهيُّ بلفظِ السَّموم، التي هي الرّيحُ الحارّةُ؛ للإشعارِ بأنَّ النّارَ الحارَّةَ التي تكوّنَ منها الجانُّ بلُطفِها تنفذُ في المسامِّ، فتقتلُ بدخولِها في المَسامِّ لإفراط حرِّها وحَرِّ ريحِها[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/359، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/476، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/185، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/145.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/576، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/138.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٖ مِّنْ حَمَإٖ مَّسْنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مِنْ أعظَمِ نِعَمِ اللهِ على البَشَرِ نِعمةُ الإيجادِ ونِعمةُ إظْهارِ تَفْضيلِهم أمامَ الملائكةِ

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تعالى حُدوثَ الإنْسانِ الأوَّلِ، واسْتَدَلَّ بِذِكْرِه على وُجودِ الإلَهِ القادِرِ المُخْتارِ، عطفَ عليه ذكرَ واقعةِ خلْقِه، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾ الآيةَ(1).

وأيضًا لمّا كانت نعمةُ الإيجادِ كافيةً في إخلاص العبادةِ للموجِدِ سُبحانه، ثمَّ لم يعتبرْها أهلُ الضَّلال، أشار تعالى إلى نعمةٍ هي أكبرُ منها، وهي التّفضيلُ على جميع المخلوقاتِ على وجْهٍ مُبيِّنٍ لسببِ الضَّلالِ، فجاءت هذه الآيةُ(2).

المَعنى الإجماليُّ:

خَلْقُ اللهِ الإنسانَ من طينٍ يابسٍ من أبْرَزِ الأدلّةِ على القُدرةِ الإلهيَّةِ

هنا يُحدّثُ القرآن عن أنَّ اللهَ ﷻ قد آذن الملائكةَ قبلَ خلقِ آدمَ، وقبلَ ميلادِه المُنتظرِ في سلسلةِ التَّطوُّرِ، آذنَهم سُبحانه بأن يَنتظروا ميلادَ هذا الكائنِ، هذا الإنسانِ، الذي ينطقُ، ويعقلُ، ويكونُ خليفةَ الله في الأرض، فقال: واذكر أيّها الرَّسولُ ﷺ إذ قال ربُّك للملائكة - الَّذين لا يعصون الله ما أمرَهم ويفعلون ما يُؤمرون - ولإبليسَ وكان معهم: إنّي سأخلُق بشرًا من طين يابسٍ أسودَ مُتغيّرِ الرّيح، له صوتٌ إذا نُقِرَ(3).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سرُّ مجيءِ قصّةِ آدمَ بعدَ ذكْرِ الحشْرِ:

لَمَّا تَقَدَّمَ شَيْءٌ مِنْ قصَّة آدمَ في أوائِلِ البَقَرَةِ عَقِبَ ذِكْرِ الإماتَةِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/53.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/233، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/38.

الحذَرُ من كيْدِ الشّيطان في الدُّنيا سببٌ للسّعادةِ يومَ القيامةِ

والإحْياءِ والرُّجوعِ إليه تعالى، وذُكِرتِ القصَّةُ في الأعْرافِ بعد ذكْرِ يَومِ القيامةِ، وذكْرِ الموازينِ فيه، وفي الكهفِ بعد ذِكْرِ الحَشْرِ، وكذا في سورَةِ ص بعد ذِكْرِ ما أعَدَّ مِنَ الجَنَّةِ والنّارِ لِخلْقِه، دلَّ على أنَّ من عادةِ القرآنِ أنَّه حيثُ ذَكَرَ مُنْتَهَى هذا الخَلْقِ ذَكَرَ مَبْدَأَهُم وقِصَّتَهُ مع عَدوِّهِ إبْليسَ لِيُحَذِّرَهُم مِنْ كَيْدِهِ، ولِيَنْظُروا ما جَرى له معه حتَّى أخْرَجَهُ مِنَ الجنَّةِ مَقرِّ السَّعادَةِ والرّاحَةِ، إلى الأرْضِ مَقَرِّ التَّكليفِ والتَّعَبِ، فيتحَرَّزوا من كيدِه[1].

سِرُّ البَدءِ بقولِه ﴿وَإِذْ﴾:

خَلْقُ اللهِ تعالى لآدمَ وما جَرَى فيه أمرٌ عظيمُ الشَّأنِ يَنْبغي تذكُّرُه والتَّذكيرُ به

لمّا كان لفْظُ (إذ) إذا جاء في صدْرِ الكلامِ إنّما يأتي لِما عظُمَ شأنُه، بمعنى (واذكر إذ)، وكان مقتضَى الظّاهرِ إيرادَ الكلامِ على منهاجِ ما قبْلَه مِنَ الأقوالِ المَحكيّةِ المُتّصلةِ به أفادَ أنَّ تصديرَ الآيةِ به إيذانٌ بأنَّ ما في حيّزِه أمرٌ عظيمٌ يَنبغي الاستماعُ إليه، وذلك بذكْرِ نِعمةٍ جليلةٍ حقيقةٍ بالذِّكْرِ والتّذكيرِ على حيالِها، لِيُؤْذَنَ بأنَّ خلقَ آدمَ وما جرَى فيه من سُجودِ الملائكةِ وإباءِ إبليسَ أمرٌ عظيمُ الشّأنِ يَنبغي تَذكُّره والتّذكيرُ به[2].

دَلالةُ الإخْبارِ في ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾:

إظهارُ فضلِ آدمَ بإعْلامِ الله تعالى المَلائكةَ بخلْقِه

لمّا جاء الكلامُ على طريقِ الإعلامِ بخلْقِ آدمَ ولمّا يَخلُقْه اللهُ بعدُ، وكان الإخبارُ لجميعِ الملائكةِ أفادَ تفخيمَ أمرِ مَن سَيخلُقُه، وأنَّ له شأنًا في خلْقِه، فإنَّ الملكَ إذا أرادَ أمرًا عظيمًا ظاهرًا أعلنَه أمامَ الملأ.

سببُ إيثارِ الرُّبوبيّةِ والإضافةِ في ﴿رَبُّكَ﴾:

أمرُ المَلائكةِ بالسّجودِ لآدمَ مِن إحْسانِ الله تعالى لرَسولِه ﷺ

في التّعرُّضِ لوصْفِ الرّبوبيّةِ مع الإضافةِ إلى ضميرِ الخطابِ المُرادِ به رسولُ اللّه ﷺ إشعارٌ بعِلّيَّة الحُكم، فيفيدُ أنَّ أمرَ الملائكةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/476.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 1/87.

بالسّجودِ لآدمَ من إحسانِ اللّه تعالى لرسولِه ﷺ، وأنَّ اللّه تعالى شرَّفَ آدمَ عليه السلام لشَرفِه ﷺ[1].

دَلالةُ ﴿إِنِّي﴾ في قولِه ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ﴾:

تحقُّقُ وقوعِ خلْقِ الله آدمَ قبْلَ خلْقِه

في قوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ أفادتْ ﴿إِنِّي﴾ المُبالغةَ في تحقُّقِ وقوعِ خلْقِ اللّه ﷻ لآدمَ عليه السلام على غيرِ مثالٍ سبق.

نُكتةُ التَّعبيرِ بِصيغةِ فاعلٍ في قولِه ﴿خَٰلِقُۢ﴾:

ما شاءَ الله كانَ وما لم يشأْ لم يَكُنْ

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بصيغةِ اسْمِ الفاعلِ غيرِ المُضافِ دونَ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ بأن يقولَ (إنّي أخلق بشرًا)، أوِ التَّعبيرِ باسْمِ الفاعلِ المضافِ بأن يقول (إني خالقُ البشرِ)؛ لأنّ في صيغةِ اسْمِ الفاعلِ غيرِ المضافِ ما ليس في صيغةِ اسْمِ الفاعلِ المضافِ، ولا في صيغةِ المضارعِ، منَ الدَّلالةِ على أنّه تعالى فاعلٌ له فيما سيأتي البتّةَ لا محالةَ منْ غيرِ صارفٍ يَثْنيه ولا عاطفٍ يَلويه، وفي مجيءِ صيغةِ اسْمِ الفاعلِ تعبيرٌ عنِ المستقبلِ بلفْظِ الحالِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿بَشَرٗا﴾:

بَديعُ خلْقِ الله بتصْويرِ البشرِ في أجْمَلِ صورَةٍ مع أن أصلهم من حمإٍ مسنونٍ

لمّا كان المرادُ منَ البشرِ هو الإنسانُ، فَلِمَ عبّرَ بلفْظِ البشرِ دونَ الإنسانِ مع قُرْبِ ذكْرِ الإنسانِ؟ وجوابُه أنَّه ذكرَ الإنسانَ في معرضِ المُقابلة مع الجانِّ، ولمّا جاء ذكْرُ الأمرِ بسجودِ الملائكة له ذكرَه بوصْفِ البشريّةِ اعتبارًا بظهورِ بشَرته أي ظاهرِ الجلْدِ أو باعتبارِ مُباشرتِه وملاقاتِه لغيرِه؛ لِيفيدَ أنَّه جسمٌ كثيفٌ مخالفٌ للملائكة، فيكونُ اللّه تعالى قد أخبرَ الملائكةَ بعَجَبٍ عندهم، فهم مَخلوقون من نورٍ، فيكونُ السّجودُ له باعتبارِ وصْفِ البشريَّةِ أدلَّ على الائتمارِ، كما أنَّه لمّا كان لفْظُ البشرِ يومِئُ إلى حُسنِ الهيئَةِ؛ لاشتقاقِه منَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/53، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/74، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.

البشارةِ كما ذهب إليه بعضُ اللُّغويّين أفادَ أنَّه بعدَ خلْقِه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ سيكونُ حَسَنَ المنظرِ بعدَ تسْويَتِه ونفْخِ الرّوح فيه، كما أنَّ التَّعبيرَ بلفظِ البشرِ تأكيدٌ لكوْنِ المرادِ منَ الإنسانِ في الآيةِ السّابقةِ هو آدمُ عليه السلام[1].

فائدةُ تنْكير ﴿بَشَرًا﴾:

الإشعارُ بعُلوِّ شأنِ البشرِ من أوّلِ الخِطابِ لإظْهارِ فضْلِه أمامَ الملائكةِ

أفادَ تنكيرُ ﴿بَشَرًا﴾ في قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ تفخيمَ البشرِ؛ للإشعارِ من أوّلِ الخطابِ وقبْلَ الأمْرِ بالسّجودِ له بعُلوِّ شأنِه، لتَوْطينِ الملائكةِ على الائتمارِ بالسُّجودِ له، إذ هو المُفضَّل عليهم.

سببُ تَكرار ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾:

القادرُ على النَّشأةِ الأولَى قادرٌ على النَّشأةِ الأُخرَى

كرّرَ البيانُ الإلهيُّ ذكْرَ مبدأ خلْقِ البشرِ لتأكيدِ الأمرِ، كما أنَّ ذكْرَه في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ في معرِضِ بيانِ الدّلالةِ على كمالِ القُدرةِ الإلهيّةِ، وبيانِ أنَّ القادرَ على النّشأة الأولَى قادرٌ على النّشأةِ الأخرى، وأمّا في هذه الآية فذكَرَ مبدأ الخلْقِ ليبيِّنَ للملائكة اختلافَ خلْقِه عن خلْقِهم، وأنَّه أمرَهم بالسّجودِ له مع أنَّ مادَّته من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ؛ ففيه تَعجيبٌ من تنوّعِ خلقِ اللّه تعالى، وليَعْلَموا أنَّ شَرَفَ المَوْجوداتِ بِمَزاياها لا بِمادَّةِ تَرْكيبِها[2]، وفي هذا تنبيهٌ على أنَّ الأمرَ بالسّجود تشريفٌ لآدمَ عليه السلام واختبارٌ للمأمورين، ولهذا علّلَ إبليسُ الامتناعَ من سجودِه بذكْرِ مبدأ خلْقِ آدمَ عليه السلام، كما سيأتي، وتفصيلُ الكلامِ على قولِه تعالى: ﴿مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ تقدَّمَ في الآيةِ السّابقةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 276، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإنسانُ والبَشَرُ:

البَشرُ يُباشِرُ ويُلاقي والإنسانُ يُؤنِسُ من يكونُ معه

ذهب بعضُ اللّغويّين والمُفسّرين إلى أنَّ المرادَ من لفْظِ البشرِ كونُه يُباشِرُ ويُلاقي، والبَشَرةُ هي ظاهرُ الجِلْد من كلِّ حيوانٍ، أو يكونُ التّعبيرُ بلفْظِ البشرِ على معنى البشارة بحُسنِ الهيئةِ والقَوام، وأمّا الإنسانُ فهو خلافُ الجانّ، وهو مشتقٌّ من الأُنس الذي هو خلافُ النُّفور، والإنسيُّ منسوبٌ إلى الإنس يقال ذلك لمن كثرَ أُنسه، ولكلّ ما يُؤنسُ به، فيكون لكلِّ لفظٍ منَ البشرِ والإنسانِ اعتبارُه عندَ الإطلاق، ولهذا ذكرَ اللّه تعالى الإنسانَ في مقابل الجانِّ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٦ وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ مِن قَبۡلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: 26 - 27] وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ١٥﴾ [الرحمن: 14 - 15]، أي لأنّ الإنسانَ يُؤنسُ بظهوره، والجانَّ يَستترُ، وذهب آخرون إلى أنَّ الفرقَ بينَهما هو أنَّ المرادَ بالإنسان البدنُ مع الرّوح والمرادَ بالبشرِ الجسدُ الخالي منَ الروح[1].

(1) الراغب، المفردات: (أنس)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/148.

﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ٢٩﴾

[الحجر: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَسْويةُ خلْقِ آدمَ ونفخُ الرّوحِ فيه مَناطُ رِفعتِه وعُلوِّ شأنِه

لمّا بيَّن اللّه تعالى للملائكة ما يريدُ أن يفعلَ من خلْقِ آدمَ وبيّن مادَّة خلْقِه ذكرَ سببَ تشريفِه بأمرِهم بالسّجودِ له(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾: أصْلُ (سوي): يَدُلُّ على اسْتِقامَةٍ واعْتِدالٍ بَيْنَ شَيْئَيْن. يُقالُ هذا لا يُساوي كذا، أي لا يُعادِلُه(2). والتَّسْوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ. وتأْتي بمعنى العَدْلِ والإنْصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيْئَيْن: إذا عَدَلت بَيْنَهما(3)، وهي أيضًا: تَقْويمُ الشَّيءِ وتَعْديلُه، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيْءَ فاسْتَوى، أيْ: قَوَّمتُه فاسْتَقامَ(4). والسَّويُّ يُقالُ فيما يُصانُ عنِ الإفراطِ والتَّفريط من حيث القَدْرُ والكيفيَّةُ، ورَجُلٌ سَويٌّ: استوت أخلاقُه وخِلْقَتُه عنِ الإفراطِ والتَّفريط. والمقصود بالتَّسوية في الآية: تَعْديلُ ذاتِ الشَّيْءِ. وقد أُطْلِقَتْ هنا على اعتدالِ العَناصِرِ فيه واكتِمالِها بحيثُ صارَتْ قابِلَةً لنَفْخِ الرّوحِ(5).

2) ﴿وَنَفَخۡتُ﴾: أصْلُ الكلِمَةِ يَدُلُّ على انْتِفاخٍ وعُلوٍّ. النَّفْخُ: إخْراجُ الرّيحِ مِنَ الفَمِ، يُقالُ: نَفَخَ بِفَمِه، يَنْفُخُ، نَفْخًا: إذا أخرَجَ منه الرّيحَ، ويكونُ ذلك في الاستراحَةِ والمُعالَجَةِ ونَحوِهما، ونفَخَ النّارَ بالمِنْفاخِ: هَيَّجَها وأذْكاها بريحِه، والمِنْفَخُ والمِنْفاخُ: آلَتُه، وهو ما يُنْفَخُ به، ومن

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/419.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(4) الجوهري، الصحاح: (عدل).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

معاني النَّفْخ: الفَخْرُ والكِبْرُ[1]. واسْتُعير في الآية لِوضْعِ قوَّةٍ لَطيفَةِ السَّرَيانِ قَويَّةِ التَّأْثيرِ دُفْعَةً واحِدَةً، ولَيْسَ ثَمَّةَ نَفْخٌ ولا مَنْفوخٌ[2].

3) ﴿فَقَعُواْ﴾: (وقع): أَصْلٌ واحِدٌ يَرْجِعُ إلَيْهِ فُروعُهُ، يَدُلُّ عَلَى سُقوطِ شَيْءٍ. يُقالُ: وقَعَ الشَّيْءُ وُقوعًا فَهو واقِعٌ[3]. والواقِعَةُ لا تُقالُ إلّا في الشِّدَّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وقَعَ) جاء في العذاب والشَّدائدِ، نحو: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾ [الواقعة: 1 - 2]، ووُقوعُ القَولِ: حصولُ مُتضمَّنه، ووقَعَ المطرُ: سقط، ومَواقِعُ الغيثِ: مَساقِطُهُ، والمواقَعَةُ في الحربِ، ويُكنَّى بالمواقَعَةِ عنِ الجماعِ، والإيقاعُ يُقالُ في الإسقاط، وفي شنِّ الحرب بالوقْعَة. ووقْعُ الحديدِ: صوتُهُ[4]. وتَوقَّعْتُ الشَّيْءَ: انْتَظَرْتُهُ متى يَقَعُ. والمقصودُ بالوقوع في الآية: السُّقوطُ لقَصْدِ التَّعظيم، أي: اسْقُطوا له ساجِدينَ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

الأصلُ الإنسانيُّ مُكرَّمٌ عندَ الله تعالى

أخبَرَ اللَّه تعالى ملائكتَه الكرامَ أنَّه إذا أكمَلْتُ خَلْقَ آدمَ، وصَوَّرْتُه، وصارَ جسدًا تامًّا في غايةِ الإتقانِ، ونفخْتُ فيه الرّوحَ الَّتي هي مِن خَلْقي، فصار بشرًا حَيًّا؛ فخِرّوا له ساجِدينَ؛ سجودَ التَّحيَّةِ والتَّكريم، لا سجودَ العِبادة، وهو أمرٌ واجبٌ بالسُّجود[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدةُ الفاءِ في ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾:

تسويةُ خلْقِ آدمَ مُرتّبَةٌ على خلْقِه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ

الفاءُ تفيدُ السّببيّةَ والتَّعقيبَ[6]، بمعنى أنَّ التّسويةَ مُسبَّبةٌ عن خلْقِ الصّلصالِ من حمأٍ مسنونٍ وأنَّ التّسويةَ أعقبَتْه.

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (نفخ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقع).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (وقع).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/65، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/360، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/476، 477، والزحيلي، التفسير المنير: 23/231.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147.

نُكتةُ التّعبير بـ﴿فَإِذَا﴾:

تَسويةُ خلْقِ آدمَ أمرٌ واقعٌ مُحقَّقٌ لا محالةَ

عُبِّرَ بأداة الشّرطِ (إذا) للإيذانِ بأنَّ الشّرطَ المُقترنَ بها وهو تسويةُ خلْقِ آدمَ وتعديلُ أعضائِه وهيئتِه أمرٌ مقطوعٌ بحصولِه وأنَّه واقعٌ مُحقّقٌ لا محالةَ، فهو بمثابةِ التّأكيدِ والبيانِ لقولِه: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا﴾.

فائدةُ التّعبير بصيغةِ الماضي في قوله ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

الدّلالةُ على الجَزمِ بتحقُّقِ الوقوعِ

في قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾، لمّا كانت (إذا) تفيدُ الجزْمَ بوقوع الشّرطِ جاء الفعلُ معها بصيغةِ الماضي؛ لكوْنِه أدلَّ على الوقوع باعتبارِ لفْظِه، فكأنَّه قد حصلَ ووقعَ لقوّة الجزْمِ بوقوعِه[1].

دَلالةُ لفْظِ ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

لا إفراطَ ولا تفريطَ في خلْقِ اللهِ البَشَرَ وإتمامِ أعضائِه وصورَتِه

التّسويةُ تَعْديلُ ذاتِ الشَّيْءِ بحيث يُصانُ عنِ الإفراطِ والتَّفريطِ من حيث القدرُ والكيفيّةُ، وأفاد الفعلُ المنسوبُ إلى اللّه تعالى على معنى التّشريفِ أنَّه تعالى قد جعل الأعضاءَ فيه سليمةً مُسوّاةً مُعَدَّةً لمنافعِها واعْتِدالِ العَناصِرِ فيهِ واكْتِمالِها على هيئة الصّورةِ البشريَّة، أي سوّيتُه بنفسي تكريمًا منّي له بإتْمامِ خلْقتِه بِحَيْثُ صارَتْ قابِلَةً لِنَفْخِ الرّوحِ فيها[2].

دَلالةُ الضّميرِ في قوله ﴿سَوَّيۡتُهُۥ﴾:

بَديعُ صُنعِ اللهِ في تحويلِ الصّلصالِ إلى صورةِ البشرِ البهيّةِ الجميلةِ

يعودُ الضّميرُ على لفْظِ ﴿بَشَرًا﴾ بما اتَّصفَ به، أي فإذا سوّيتُ الذي خلقْتُه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ، للإشعارِ ببديع صُنعِ اللّه تعالى إذ جعلَ الصّلصالَ في هذه الصّورةِ الجميلةِ مع كاملِ الأعضاءِ المُعَدّة للعيشِ في هذه الدّنيا.

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 241.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/147، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

فائدةُ العطْفِ في ﴿وَنَفَخۡتُ﴾:

تَسْوِيَةُ خَلْقِ آدمَ هَيَّأَتْهُ لنفْخِ الرّوحِ فيه

أفادَ العطفُ في قولِه ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ أنَّ حصولَ الجزاء مُعلَّقٌ بحصولِ مجموعِ الأمرَين في الشّرطِ، وأنَّ نفخَ الرّوح فيه مُرتَّبٌ على تسْويتِه، بحيث إنَّ التّسويةَ هيَّأته لنفخِ الرّوح فيه، ليفيدَ أنَّ الجزاءَ في قولِه: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مُسبَّبٌ على وقوعِ مجموعِ الشّرطِ بحصول تسْويتِه ونفخِ الرّوحِ فيه، لتعظيمِ شأنِ كلِّ فعْلٍ من هذين الفعلَيْن، والإعلامِ بتشريفِه وتكريمِه إذ نسبَ اللّه تعالى الفعلَيْن لنفسِه.

دَلالةُ الضّميرِ في قولِه ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ﴾:

الـدّلالـةُ على البشرِ بمجموعِ صِفاتِه

في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ يعودُ الضّميرُ في ﴿فِيهِ﴾ على البشَرِ بما اتّصفَ به؛ أي: فإذا نفختُ من روحي في الّذي خلقْتُه من صلصالٍ من حمإٍ مسنونٍ وسَوّيْتُه.

بَلاغةُ الاستعارةِ في ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ﴾:

تَمثيلُ تَحْصيلِ الـرّوحِ في بـدَنِ آدمَ بالنّفْخِ في جِسْمٍ مُجوَّفٍ

النّفخُ في الحقيقةِ هو إجْراءُ الرّيح في تَجاويفِ جِسْمٍ آخَر[1]، أو هو إخْراجُ الهَواءِ مَضْغوطًا بَيْنَ الشَّفَتَيْن مَضْمومَتَيْن كالصَّفيرِ[2]، فشُبِّه تعلُّقُ الرّوح ببدنِ آدمَ وجريان آثارِه في جوفِ أعضائِه بإجراءِ الرّيحِ في جسمٍ مجوَّفٍ وجريانِ آثارِ الريحِ فيه، فذكر لفْظَ المُشبَّه به وهو النّفخ، وأرادَ المُشبَّه، وهو تعلُّقُ الرّوح بجسمِ آدم، ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستعارةِ التّصريحيَّةِ التّبعيَّةِ، والنُّكتةُ في استعارةِ لفْظِ النّفخِ هي لِما فيه من معنى الإفاضةِ في التّجويفِ والسَّريانِ فيه، فأفادَ سريانَ الرّوحِ في تجاويفِ الشّرايين إلى أعماقِ البَدَنِ، فليس ثمَّةَ نفخٌ ولا منفوخٌ، وإنَّما هو تمثيلٌ لوجودِ الرّوحِ في المادَّةِ القابلةِ له، فيحيا بها آدمُ عليه السلام[3].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والزمخشري، الكشاف: 2/577، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/148.

دَلالةُ الإضافةِ في ﴿رُّوحِى﴾:

إضافةُ الرّوحِ إلى الله تشريفٌ وتكريمٌ لآدمَ ونسْلِه

أضافَ اللّه سُبْحانَهُ الرّوحَ المخلوقةَ إلى نَفْسِه تَشْريفًا وتَكْريمًا، وليَسْرِيَ هذا التَّشريفُ والتّكريمُ إلى بدنِ آدمَ ونسْلِه لّما جرت فيه، ففي الإضافة تنويهٌ بشأنِ هذا المخلوقِ، وفي الإضافة معنى التّخْصيصِ(1)، وليكونَ كالتّهيئةِ لاستحقاقِ الأمرِ بالسّجودِ له، فالإضافةُ هنا مثلُ (بيت اللّه) و(ناقة اللّه).

دَلالةُ الخبرِ في ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾:

التّفاضُلُ بالأعمالِ والآثارِ لا بحقائقِ العناصِرِ وأصْلِها

في الجُملةِ الخبريَّة إيماءٌ إلَى أنَّ حَقائِقَ العَناصِرِ عِنْدَ اللّه تعالى لا تَتَفاضَلُ إلّا بِتَفاضُلِ آثارِها وأعْمالِها، فخلقَ اللّه البشرَ من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، فكانت تسْويتُه ونفخُ الرّوح فيه تشريفًا وتكريمًا، فأفادَ أنَّ كَراهَةَ الذّاتِ أوِ الرّائِحَةِ إلى حالَةٍ يَكْرَهُها بَعْضُ النّاسِ أوْ كُلُّهُم إنَّما هو تابِعٌ لِما يُلائِمُ الإدْراكَ الحِسّيَّ أوْ يُنافِرُهُ تَبَعًا لِطِباعِ الأمزِجَةِ أوْ لِإلْفِ العادَةِ، ولا يُؤْبَهُ به في عِلْمِ اللّه تعالى، وهذا هو ضابِطُ وصْفِ القَذارَةِ والنَّزاهَةِ عِنْدَ البَشَرِ(2).

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه ﴿فَقَعُواْ﴾:

المُبادرةُ إلى الائتمارِ من شَأْنِ العارِفين بالله

عبَّرَ بفعل الأمر ﴿فَقَعُواْ﴾ الذي هو من وقع يقع، دونَ أن يقول (فاسجدوا له) مثلًا، لِما في لفظ (وقع) من معنى الهويِّ إلى موضعٍ أدنى، أي ليكن هويُّكم هويَّ مَن كان في مبادرتِه به وسهولةِ انقياده كأنَّه وقع من غيرِ اختياره(3).

بَلاغةُ التّقديمِ في ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُ الملائكةِ لآدمَ سُجودُ تكْريمٍ وتَحيَّةٍ لا سجودُ عِبادةٍ

لّما كان الضّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ يعودُ على البشَرِ بالأوصافِ التي

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 3/45، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.
(3) الراغب، المفردات: (وقع).

ذُكرتْ، بمعنى فقَعوا للذي خلقْتُه من صَلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ وسوّيتُه ونفختُ فيه من روحي أفادَ أنَّ الملائكةَ قد علِموا أنَّه مخلوقٌ مكرَّمٌ فكان تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ على معنى تخْصيصِ السّجودِ له[1]؛ بِما اتَّصفَ به من أوصافِ التّشريفِ والتّكريمِ، ليكونَ السّجودُ سجودَ تكريمٍ وتحيَّةٍ لا سجودَ عبادةٍ، والمعنى فاسجدوا له دونَ غيرِه، فيفيدُ تخْصيصَ آدمَ دونَ غيرِه منَ المخلوقاتِ بهذا النّوعِ منَ السّجود.

فائدةُ مَجيءِ الحالِ في ﴿سَٰجِدِينَ﴾:

سُجودُ الملائكةِ كان على وَفْقِ المَعْهودِ عندَنا والمُتبادِرِ منَ اللّفظِ

لمّا كان الحالُ على معنى تقْييدِ العاملِ واقترانِه بصاحبِ الحالِ أفادَ مجيءُ ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تقييدَ الوقوعِ بالسّجودِ؛ لأنّ الوقوعَ يكونُ على أحوالٍ مُتعدّدةٍ، أي فقَعوا له وقوعَ السّاجدين، ليُفيدَ التّعظيمَ، فقيَّدَ الوقوعَ بالهَويّ المُقترِنِ بالتّعظيم، ويحتملُ أن يكونَ الهويُّ على معنى الطَّأطأةِ والانحناءِ، أو يكونَ بوضْعِ الجبهةِ لتكونَ في الموضعِ الأدنَى، وهو السّجودُ المعهودُ عندنا والمُتبادِرُ منَ اللّفظِ، وهذا هو الظّاهرُ، فليس المأمورُ به مجرَّدَ الانحناءِ والخضوعِ والتّسليمِ والإشارةِ، والمعنى: اسقُطوا له ساجِدينَ على وجوهِكم تحيَّةً له وتعظيمًا، فلم يكنِ السّجودُ لآدمَ سجودَ عبادةٍ[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/420.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/360، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، وأبو حيان، البحر المحيط: 1/247، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/44.

﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٣٠ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾ [الحجر: 30 - 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

سُجودُ جميعِ المَلائكةِ لآدمَ وامتناعُ إبليسَ تَنْبيهٌ للبَشرِ على عدوِّهمُ القديمِ

لمّا أمرَ اللّه تعالى المَلائكةَ بالسُّجود في الآيةِ السّابقةِ كان كأنّه قيلَ: فماذا فعلتِ الملائكةُ، وهل سجَدوا من غيرِ توقُّفٍ؟ قيل: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ولمّا أفاد الجمْعُ العمومَ وأكّدَه كأنَّ سائلًا سأل: هل سجد جميعُ المَأمورين، فقال: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٣١﴾، أو يقال: لمّا أبلغَ في تأكيدِ ما أفهمَه الجمعَ استثنى إبليسَ منَ السّاجدين[1].

❁ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَجْمَعُونَ﴾: (جمع) يدلُّ على تَضامِّ الشَّيءِ، يُقالُ جمعتُ الشَّيء جمعًا[2]، ويُقال للمَجموع: جَمْعٌ وَجَميعٌ وجَماعَةٌ. وجَميعٌ وأَجْمَعُ وأَجْمَعونَ تُستعملُ لتأكيد الاجتماعِ على الأمر، فأمّا أجمعون فتوصَفُ به المعرفةُ، ولا يَصحُّ نصبُه على الحال، نحوَ قولِه تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، وأمّا جميعٌ فإنَّه قد يُنصبُ على الحال فيُؤَكّدُ به من حيث المعنى، نحو: ﴿ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًاۖ﴾ [البقرة: 38][3]. والمقصودُ بـ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ في الآية: التّأكيدُ على سُرعة طاعةِ المَلائكة.

2) ﴿أَبَىٰٓ﴾: أصلُ الكلمَة يَدلُّ على الامتِناعِ، ويأتي بمعنى كراهيَةِ الشَّيءِ، فيُقال: أَبى الشَّيْءَ، إباءً وإباءَةً: إذا كَرِهَه. والإباءُ: شدَّةُ الامتِناعِ وعَدَمُ القَبولِ، يُقال: أَبى، يَأْبى، إباءً؛ أيْ: رَفَضَ وامتَنَعَ ولم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/54.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(3) الراغب، المفردات، والطيبي، فتوح الغيب: 11/159.

يَقْبَلْ، فهو آبٍ وأبيٌّ وأَبيانٌ[1]. والمقصودُ بالإباءِ في الآيةِ: الامتِناعُ مِنْ فِعْلٍ أو تَلَقّيه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

امتثالُ الملائكةِ بالسُّجود تعظيمٌ لله تعالى وتشريفٌ لآدمَ

لـمّا خلقَ اللّهُ آدمَ، ونفَخَ فيه الرّوحَ، امتثلَ الملائكةُ كلُّهم لأمرِ اللّه، وسجَدوا عن آخرِهم، ما بقيَ منهم مَلَكٌ إلّا سجدَ، وسجَدوا مُجتَمِعين في آنٍ واحدٍ، لا مُتفرِّقين، إلّا إبليسَ امتنع مُسْتكْبِرًا مُتعاظمًا ولم يكن مِنَ السّاجدينَ؛ تكبُّرًا منه وحسَدًا لآدمَ، وكان استكبارُه استكبارَ كُفْرٍ[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَراعةُ الإيجازِ في ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

بَراعةُ الإيجازِ بحذْفِ الجُمَلِ لِوُضوحِ المعنى

أوجزَ البيانُ الإلهيُّ في الكلامِ بحذْفِ الجُملِ بما يدلُّ عليه السّياقُ، والتّقديرُ: فخلقَه فسوّاه فنفخَ فيه الرّوحَ فأمرَ الملائكةَ بالسّجودِ له فسجدَ الملائكةُ[3].

دَلالةُ الفاءِ في ﴿فَسَجَدَ﴾:

المُبادَرةُ إلى الائتِمارِ من غيرِ مُهلةٍ من فِعْلِ الملائكةِ الأطْهارِ

ظاهِرُ الآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أنَّهُ تعالى لمّا نَفَخَ الرّوحَ في آدَمَ ﵇ أوجَبَ على المَلائِكةِ أنْ يَسْجُدوا له؛ لِأنَّ قَوْلَهُ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ مَذْكورٌ بِفاءِ التَّعْقيبِ وذلك يَمنَعُ مِنَ التَّراخي، فأفادَ أنّه لمّا أمرَهم سجَدوا من غيرِ مُهلةٍ ولا توقُّفٍ لمّا جاء وقتُ السُّجودِ، وأنَّ سجودَهم كانَ بسببِ هذا الأمرِ[4].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أبا).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/66، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/534، والشوكاني، فتح القدير: 3/157، والزحيلي، التفسير المنير: 23/231.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبقاعي، نظم الدرر: 11/54، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/149.

إيثار الإظهارِ في: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾:

رِفْعةُ شأنِ المَلائكةِ لمّا بادَروا إلى السُّجودِ لآدمَ

كان الظّاهرُ أن يقولَ (فسجدوا) لقُربِ ذكرِ الملائكة، فجاء الكلامُ على خلافِ مُقتضى الظّاهرِ، بالإظهارِ في موضعِ الإضمار؛ لإظهارِ رفعةِ شأنِ الملائكةِ الذين سجَدوا، وللإشعارِ بعلّيَّة سُجودِهم وهو كونُهم ملائكةً ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: 6]، لِيُنبّهَ على أنَّ إبليسَ ليس منَ الملائكةِ كما سيأتي.

سِرُّ التّأكيدِ بقولِه ﴿كُلُّهُمۡ﴾:

القَطْعُ بسُجودِ عُمومِ المَلائكةِ واسْتِغراقِ اللّفظِ لهم

يحتملُ لفظُ الملائكةِ أن يكونَ جمْعًا عامًّا مُحتملًا للتّخْصيص وأن يكونَ على معنى الغالبِ والأكثرِ، فجاء التّوكيدُ بلفظِ ﴿كُلُّهُمۡ﴾ لِقطع باب التّخْصيص؛ ليُفيدَ الجزمَ بسُجودِ كلِّ الملائكة واستغراقِ اللّفظِ لهم جميعًا[1].

سِرُّ اقتِرانِ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ بـ ﴿كُلُّهُمۡ﴾:

سُجودُ المَلائكةِ كلّهم أكمَلُ أصنافِ السّجودِ، وزيادةٌ في التّشريفِ والتّكريمِ

يحتملُ أن يكونَ مَجيءُ لفظِ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ لإفادة التّأكيدِ بعدَ التأكيد، مبالغةً في تعميمِ جميعِ الملائكةِ ولمنْعِ التّخْصيصِ، ويحتملُ أن يكونَ لكلِّ لفْظٍ معناه، فيفيدُ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ التّأسيسَ، وبيانُه إنَّه لمّا قال ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ أفادَ دفعَ توهُّمِ تأخُّرِ أيِّ واحدٍ منهم أوِ امتناعِه، بمعنى تقريرِ أنَّه لم يمتنعْ ولم يتأخّرْ في ذلك أحدٌ منهم عن أحد، ويلزمُ منه اجتماعُهم على السّجودِ في وقتٍ واحدٍ دفعةً واحدةً، وهو الظّاهرُ من مُبادرتِهم إلى السُّجودِ، ويدلُّ عليه مأخذُ الاشتقاقِ للفظِ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ الذي فيه معنى الجمْعِ والمعيَّةِ بحسبِ الوضْعِ اللّغويِّ، كما أنَّ الأصلَ في الخطابِ تنزيلُ اللّفظِ على أكملِ أحوالِه، ولا ريْبَ في أنَّ سجودَ الملائكة مُجتمِعين أكملُ أصنافِ السُّجود وأجمَلُه وأوفَى للائتمار وأظهرُ في تكريم آدمَ وتشريفِه، ولمّا شاع استعمالُ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ تأكيداً أُقيمَ مَقامَ (كُلّ) من إفادة معنَى الإحاطة من

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/188.

غير نظَرٍ إلى الكمالِ، فإذا فُهِمَتِ الإحاطةُ من لفظٍ آخرَ لم يكنْ بدٌّ من مُراعاةِ الأصل صونًا للكلام عنِ الإلغاء، ولِيكونَ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ على التّأسيسِ مع تضمُّنِه معنَى التّأكيدِ، أو يقال: لمّا كانَ ذكرُ الكلِّ يحتملُ أن يكونَ بتأويلِ التّفرُّقِ قطَعَه بقوله ﴿أَجۡمَعُونَ﴾، وأشعرَ التّتابُعُ بلفظِ ﴿أَجۡمَعُونَ﴾ أنَّ خروجَ الواحدِ منَ الائتمار بالسُّجودِ لا يقدحُ في تشريف آدمَ ولا في تكريمِه، وأنَّ خروجَه لا يُعبَأُ به[1].

فائدةُ حذْفِ المُتعلّقِ في ﴿فَسَجَدَ﴾:

الإيـجـازُ مع وُضوحِ المعنَى، وأنَّ طاعةَ الله أشـرفُ من خُصوصيّةِ النّظرِ إلى مَن سُجِدَ له

لمّا كان التّقديرُ في قوله: ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ أَجۡمَعُونَ﴾ هو: (فسجدَ المَلائكةُ كلُّهم أجمعون له)، أيْ لآدمَ، كان حذْفُ الجارِّ والمجرورِ للإيجازِ مع وضوحِ المعنَى، وللإشعارِ بأنَّ النّظرَ أوّلًا وبالذّاتِ إلى الائتمار بأمْرِ السُّجودِ، وليس إلى خُصوصِ من سجَدوا له، ولهذا حُذفَ المتعلّقُ كذلك في قولِه تعالى: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أي: السّاجِدين له.

تَوجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظِيِّ:

سُجودُ الملائكةِ لآدمَ على وجْهِ الـخُـضـوعِ لله والائتمارِ بأمْرِه لِـتـحـيَّـةِ آدمَ وتكريمِه

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206]، فقولُه ﴿وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ۩ ٢٠٦﴾ [الأعراف: 206] يُفيدُ الحَصرَ، وذلك يدلُّ على أنَّهم لا يَسجُدون إلّا للّه تعالى، وذلك يُنافي كَوْنَهُم ساجِدينَ لِآدَمَ عليه السلام، وبيانُه أنَّ سُجودَهم لآدمَ هو سجودُ تحيَّةٍ لمخلوقٍ، وليس سجودَ عبادةٍ كما هو حالُ سجودِهم للّه تعالى، لِقرينة قولِه: ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الأعراف: 206]، ولهذا عرَّفَ اللّه تعالى الملائكةَ بأنَّ آدمَ مخلوقٌ، ثمَّ أمرَهم بالسُّجودِ له، فكان سُجودُهم على وجْهِ الخضوعِ لأمرِ الإله

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، والبقاعي، نظم الدرر: 16/420، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/150، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/289.

تحيَّةً وتكريمًا لآدمَ، ولهذا جاء في قولِه تعالى: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ تقديمُ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُۥ﴾ أي: لا سُجودَ لأحدٍ منَ المخلوقاتِ إلّا لآدمَ تكريمًا وتشريفًا له، كما تقدَّمَ.

دَلالةُ الاسْتِثناء في قولِه ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾:

إبليسُ ليسَ منَ جنس المَلائكةِ

يحتملُ أن يكونَ الاستثناءُ مُنقطعًا، فيكونَ إبليسُ ليس منَ الملائكة، وإنّما استُثْنِيَ؛ لأنّه كان بينَهم مأمورًا معهم بالسُّجود، فغُلِّبَ اسمُ الملائكةِ، ثمّ استُثْني بعدَ التّغليب، ويحتملُ أن يكونَ الاستثناءُ متّصلًا فيكونَ إبليسُ منَ الملائكةِ، والوجْه الأوّلُ هو الصّوابُ واستظْهَره كثيرٌ منَ المُفسّرين(1).

دَلالةُ قولِه ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

جمَعَ إبليسُ بامْتِناعِه عن السُّجودِ بين العصيانِ والاستكبارِ ومفارقةِ الجماعةِ المؤتمِرين بأمرِ الله

إن كان الاستثناءُ مُنقطعًا كان المعنى: لكنَّ إبليسَ أبى أنْ يكونَ مع السّاجِدين، ويحتملُ أن تكونَ (لكنَّ) بالتّشديد تَقْتضي اسْمًا وهو إبليسُ، وخبرًا وهو الجملةُ الفعليّةُ ﴿أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أو تكونَ حرْفَ استدراكٍ، وإن كان الاستثناءُ متّصِلًا كان الكلامُ على طريق الاستئنافِ، فكأنَّه وقعَ في جواب سؤالٍ أفادَه الاستثناءُ، لبيانِ كيفيَّةِ عدمِ سُجودِه فإنَّ مُطلَقَ عدمِ السّجود قد يكونُ مع التّردّدِ، وتقديرُه: هل سجدَ إبليسُ؟ فقال: أبى أن يكونَ مع السّاجدين، وعلى الوجهَيْن في الكلامِ دَلالةٌ على كمالِ رَكاكةِ رأيه حيث أدمجَ في معصيّةٍ واحدةٍ ثلاثَ معاصٍ: مخالفةَ الأمرِ، والاستكبارَ مع تحقيرِ آدمَ عليه السلام، ومفارقةَ الجماعةِ والإباءَ عنِ الانتظامِ في سلْكِ أولئك المُقرَّبين الكِرامِ(2).

---

(1) الطيبي، حاشية على تفسير الكشاف: 9/32.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/150، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/290.

مَعْصيةُ التّكبُّر أوجَبَتْ لإبليسَ الطَّرْدَ والإبْعادَ

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿أَبَىٰٓ﴾:

عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بـ﴿أَبَىٰٓ﴾؛ للإيذانِ بشدّةِ امْتناعِه منَ السُّجود، وأنَّه لم يكُنْ مُتردِّدًا، فعُلِمَ أنَّ امتناعَه منَ السُّجود للإباءِ والاستكبارِ، فدلَّ على أنَّهُ عَصَى، وأنَّهُ تَرَفَّعَ عَنْ مُتابَعَةِ غَيْرِهِ[1].

إبليسُ ليس من جِنْسِ الملائكةِ وكان مَعَهم على التَّبَعِ

دلالة التَّعبيرِ بقولِه ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

لم يقُلْ (أبى أن يكون من الساجدين)؛ للإشعارِ بأنَّه ليس من جنْسِهم، بل كان معهم، ودخلَ في لفْظِ (الملائكة) على التّغْليبِ، كما أنَّ لفْظَ المعيَّةِ يفيدُ أنَّه كانَ معهم على التَّبعِ لا على الأصالةِ.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/290، والقونجي، فتح البيان: 7/166، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46.

﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٣٢﴾ [الحجر: 32]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّسجيلُ على إبليس بالاعتراف بذنبه

لمّا أخبر اللّه تعالى عن امتناع إبليس عن السُّجودِ لآدم بعدَ الأمرِ الإلهي؛ أتبعه بسؤال اللّه له، وهو العالم بحالِه عن السَّبب الذي منعه من السُّجود.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابُ الله تعالى لإبليس ليس للتَّشريفِ، بل لإقامةِ الحجَّة والتَّقريع

سأل اللّه تعالى إبليس - وهو أعلم به - ليظهر حقيقته، ولتقوم الحجَّة على استحقاقه للعقاب، فقال اللّه تعالى له: يا إبليسُ، ما السَّبَبُ الذي حمَلَك على ألّا تكونَ مع الملائكةِ السّاجِدينَ لآدمَ، وقد أمرتُك بالسُّجودِ معهم؟(1) وقد جرى الاستخبار في الآية على ما تعرفُه العَرَبُ مِن كلامِها، وتستعمِلُه في مُحاوراتِها، فتسألُ عن الشَّيءِ تَعرِفُه، لينطق به المسؤولُ، أو ليُقِرَّ به، أو لتؤكِّدَ الحُجَّةَ عليه، ومِثلُ هذا كثيرٌ في القُرآنِ، قال اللّهُ تعالى لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ١٧﴾ [طه: 17]، وهو يَعلَمُها ويَراها(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البياني:

مجيء الكلام على طريق الاستئناف لِتشويقِ السّامع واستدرارِ إصغائِه

ورد الكلامُ على طريق الاستئناف البياني مَسوقًا للجواب عن سؤالٍ نشأ من حكايةِ امتناع إبليس من السُّجود مخالفًا الملائكة كلَّهم أجمعين، فكان ذلك ممّا يحرِّك السامع، ليسأل - لعظم مخالفة الأمر وهول الموقفِ - فكأنَّه قيل: فماذا قال اللّه تعالى حينَ أعرضَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/66، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/139، والشوكاني، فتح القدير: 3/157.
(2) القصاب، النكت الدالة على البيان: 2/44.

إبليسُ عن السُّجودِ، ولم يمتثل لأمر اللّه؟ تشويقًا للسّامع، واستدرارًا لإصغائه لما هو مهمٌّ في الكلامِ، فجاء الجوابُ بقولِهِ: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾.

بلاغة النِّداء في قولِه: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ﴾:

الممتنع عن الامتثال لأمر اللّه بعيدٌ عن رحمتِه

لمّا امتنع إبليس عن السُّجودِ؛ ناداه اللّه تعالى بـ(يا) التي هي لنداء البعيد للإيذانِ ببعدِه عن رحمةِ اللّه تعالى بامتناعِه عن السُّجود.

دلالةُ الضَّمير في قولِه: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ﴾:

تعظيمُ شأنِ الامتناعِ عن الامتثال والتَّرهيب منه

لمّا كان الضَّمير في ﴿قَالَ﴾ عائدًا إلى لفظ ﴿رَبُّكَ﴾ [الحجر: 28] بما اتَّصفَ به؛ كان المعنى: قال ربُّك الذي أمر الملائكة بالسُّجود للبشرِ الذي خلقَه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ، ففيه إيذانٌ بأنَّ اللّه تعالى إنَّما سأل من لم يأتمر بأمرِه، ترهيبًا لشأنِ الامتناعِ عن الامتثال.

بلاغة مجيء الكلامِ خلافِ الظّاهر:

لإبليسَ نصيبٌ من معنى اسمِه

كان الظّاهر أن يقول: (قال ما منعك ألّا تسجد) - في قولِه ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ - لقربِ ذكرِ اسم إبليس اللَّعين، ونكتة مجيء الكلامِ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بإيثار إعادة الاسم الظّاهر؛ الإشعارُ بأنَّه ميؤوسٌ منه؛ لدلالة الاسم على اليأس من رحمةِ اللّه، فهو من الإبلاس وهو الإبعاد، وكأنَّه قيلَ: يا مُبْعَدُ[1]، كما أنَّ ذكر اسم الملعونِ تسجيلٌ عليه بامتناعِه من السُّجود، وأنَّه لا أحدَ غيره يكون حالُه مثلَ حالِه في الامتناعِ من السُّجود.

بلاغة الاستفهام المجازي في الآية:

استدراجُ إبليس ليظهر ما في باطنِه

لمّا كان اللّه تعالى عالمًا بسبب امتناعِ إبليس من السُّجود وبالغرضِ الذي دعاه إليه؛ كان الاستفهام على طريق المجاز في قولِه ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾؛ ليفيدَ الإنكارَ على عدمِ سجودِه، ويتولَّد

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (بلس)، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.

من هذا الإنكار التَّوبيخُ واللَّومُ على إبائِه، والتَّعجيبُ من حالِه؛ لأنَّ شأنَ المتعجَّب منه أن يُسألَ عن سببِه، بحيث يجدر أنْ يسألَ عن السَّبب والغرضِ ممّا يتعجَّبُ منه، وفيه استدراجٌ لإبليسَ ليُظهِرَ ما في باطنِه من العداوة.

فائدة طريق الاستفهام الإنكاري في الآية:

انتفاء أنْ يكون لإبليسَ أيُّ سببٍ يمنعُه من السُّجودِ لآدمَ

لمّا كان الاستفهام إنكاريًّا في قولِه: ﴿مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أفادَ إنكارَ أن يثبتَ لإبليسَ أيُّ سببٍ يمنعُه من السُّجود، والمعنى: أيُّ سببٍ يحملك على الامتناعِ عن أن تكونَ مع السّاجدين؟ وأفادَ إنكارَ أن يكونَ للَّعينِ أيُّ علَّة غائيَّةٍ، أي: أيُّ غرضٍ وأيُّ داعٍ لك دعاك إلى الامتناع عن أن تكونَ مع السّاجدين[1]؟ ولمّا كان لفظ ﴿مَا﴾ يفيد العمومَ في الاستفهام؛ دلَّ على إفادةِ الاستفهام الإنكاريِّ انتفاءَ أنْ يكون له أيُّ سببٍ أو غرضٍ يحملُه على عدمِ السُّجودِ، أو يمنعُه منه.

دلالة اللام في قولِه: ﴿مَا لَكَ﴾:

اخـتـصـاص الـسُّـؤال عن حالته العجيبةِ به، وهي امتناعه عـن الـسـجـود آدم

هذه اللّام لِلاختصاص، بمعنى اختصاص السُّؤال بالمخاطب - وهو إبليسُ هنا - على الحالةِ العجيبةِ التي وقعت منه.

دلالة جملةِ الحالِ:

التَّعجيب من إبليسَ لامتناعِه من السُّجود

قوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ في موضع الحال، وهي قيدٌ للاستفهامِ الإنكاريِّ، والتقدير: ما لكَ في ألّا تكون مع السّاجدين، فالإنكارُ على حالةِ امتناعِ إبليسَ من السُّجودِ، أي: فالاستفهام عن إبليس في هذه الحالة العجيبةِ.

سبب إيثار حذف حرف الجر في الآية:

حذف حرف الجرِّ في قولِه تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/577، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.

امتناعُ إبليسَ عن السُّجود لآدم هو بمنزلة امتناعِه عن كلِّ سجود أُمِرَ به

للإيجاز ولظهورِ المعنى، وللإشعارِ بأنَّ امتناعَ إبليسَ عن السُّجود لآدم هو بمنزلة امتناعِه عن السُّجود في كلِّ موضعٍ أُمِرَ به، ليفيدَ عمومَ المواضعِ من غير تخصيصٍ بموضعٍ دونَ آخر.

براعة النَّفي في قولِه: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾:

امتناعُ إبليسَ من السُّجود لآدمَ بمنزلة الاستمرارِ على امتناعِه من امتثال أمر الله تعالى

لمَّا كان الظَّاهر أن يقول: (ما لكَ أن لم تكن مع الساجدين؟) مثلًا؛ لأنَّ الإنكارَ جاء بعدَ وقوع الحادثة؛ كان مجيء التَّركيب بصيغة النَّفي بـ(لا) واقترانِه بـ(أنْ) المصدرية الدالَّة على الزمن المستقبل لسببٍ: وهو الإيذان بتطاول زمن امتناعِه من السُّجود، وكأنَّه مستمرٌّ عليه، لما تفيدُه (لا) النّافية من الدلالة على استمرارِ النَّفي، و(أنْ) المصدرية على الزمانِ المتطاول[1]، ليفيد هذا التَّركيبُ أنَّ امتناعَه من السُّجود لآدمَ كان بمنزلة امتناعِه من الائتمار لأمر اللّٰه تعالى، بالزَّمان المتطاول الذي ابتدأ بوقوعِ الحادثة، ليفيد امتناعَه عن السُّجودِ في عمومِ الزَّمان، كما أفادَ حذف حرفِ الجرِّ عمومَ المواضعِ، كما تقدَّم.

سبب إيثار التعبير بقولِه: ﴿مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

تأكيدُ أنَّ إبليسَ ليس من الملائكةِ

لم يقل: (ما لكَ ألّا تكونَ مع الملائكةِ)؛ لأنَّ محطَّ الإنكار هو امتناعُه من السُّجود، وتقدَّم أنَّ التَّعبير بـ﴿مَعَ﴾ فيه إشعارٌ بأنَّه ليس من جنس الملائكة، وأنَّه دخل في الأمر على سبيلِ التَّبع؛ كما أفاد لفظ ﴿مَعَ﴾ أنَّ الأمر بالسُّجودِ كانَ على سبيلِ المصاحبة.

نكتة حذف المتعلّق في قولِه: ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

الامتثال لِأمرِ اللّه بالنَّظر لِكونِه أمرًا من الله تعالى

لمّا كان تقدير الكلام: ما لكَ ألّا تكونَ مع الساجدين لآدم؟[2] أفاد أنَّ حذف الجار والمجرور للإيجاز، وللتنبيه على أنَّ مخالفته هي في الائتمار بأمر اللّٰه بالسُّجود، وليس لخصوص مَنْ أُمِرَ بالسُّجود له.

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/156، 4/206.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/210.

سبب اقتصار توبيخ إبليس على امتناعِ السُّجود:

تـراكـمُ المعاصي يوجب السَّخط

لمّا جاء في سورة الأعراف توبيخُ إبليسَ على الامتناعِ من الائتمار بأمر اللّه في قولِه: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ [الأعراف: 12] وجاء في سورة (ص) توبيخه على الامتناع من السجود لِما خلقَ اللّه بيديه في قولِه: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: 75]، وجاء في هذه السورة توبيخُه على عدم سجودِه مع السّاجدين؛ أفادَ أنَّ كلَّ هذه المعاصي تقتضي توبيخَه، وأنَّ كلَّ واحدةٍ من تلك المعاصي الثلاث كافية في التوبيخ وإظهارِ بطلانِ ما ارتكبه[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/75.

﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٣٣﴾ [الحجر: 33]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّعريف بحقيقة ما يبطن به إبليس لعنه الله

انساق الكلامُ إلى بيانِ ماذا أجابَ إبليسُ عن سؤال ربِّ العالمين، فَإِنَّ مَنْ يَسْمَعُ السُّؤالَ في الآية السابقة يَتَشَوَّقُ لِمَعْرِفَةِ الجَوابِ، وَيُنَزَّلُ مَنْزِلَةَ مَنْ يَسْأَلُ عَنْهُ، فَيُجابُ، قال كذا وكذا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استكبار إبليس على أمر الله، وإبداء العداوة لآدم وذرِّيَّته

قال إبليسُ تكبُّرًا وحسَدًا لآدمَ عليه السلام: لا ينبغي لي أنا - المخلوق من نارٍ - أن أسجُدَ لهذا الجسَدِ الَّذي خلقْتَه من طينٍ يابسٍ لا مَنعة فيه، إذا نُقِرَ؛ أجاب بالتَّصويتِ، أسودَ مُتغيِّرٍ، فأنا خيرٌ منه؛ لأنَّك خلقتَني من نارٍ نافعةٍ بالإشراقِ، مُمتَنِعةٍ ممَّن يريدُها بالإحراقِ، فسُجودي له منافٍ لحالي[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البيانِّي في الآية:

استدرارُ سمع المخاطبين للتَّعريف بأوصاف إبليس

لمَّا قال الله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ كان كأنَّ سؤالًا نشأ من السّامع ليسألَ، ويقول: فماذا أجابَ إبليس؟ فقال تعالى: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾، فالاستئنافُ مبنيٌّ على السؤالِ الذي انساق إليه الكلام، لاستدرارِ سمعِ المخاطَبين لإكمالِ القصَّة، وللتنبيه على عظمِ الأمر بتحريكِ أذهانِهم للإصغاء لما يتلى[2].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/67، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/26، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص431.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.

سرُّ جواب إبليسَ خلاف مقتضى الاستفهامِ:

لمّا كان الظّاهر أن يكون جوابُ إبليس هو عن سبب امتناعِه عن الامتثال، وعن سبب عدمِ مصاحبته الملائكة في السُّجود؛ كان في عدوله عن تطبيق جوابه على السؤال رومٌ للتفصّي عن المناقشة، فعدلَ عن التَّصريحِ، وأجابَ بما هو أقبح وأشنع، بما يدلُّ على استكبارِه وعنادِه، ليكون ما ذكر في جزائه استحقاقًا له، فأجابَ بما يتسبَّب به لعنَه وطردَه، فكأنَّه قال: لم أمتنع عن امتثال الأمر ولا عن الانتظامِ في سلكِ الملائكة، بل عمّا لا يليق بشأني من الخضوع للمفضول، فخذله اللّه تعالى لجريِه على سنن قياس عقيم، وزلَّ عنه أنَّ ما يدور عليه فلَكُ الفضل والكمال هو التحلي بالمعارف الربّانية، والتخلِّي عن الملكات الرَّدية، التي أقبحها الكبر والاستعصاء على أمر ربِّ العالمين ﷻ[1].

عـدولُ إبليسَ عـن الـجـوابِ الصَّريح لما هو أقبحُ لاستكبارِه وعنادِه

براعة التَّعبير بنفي الكون في الآية:

لمّا كان المعنى: لا يَصِحُّ مِنِّي أَنْ أَسْجُدَ لِبَشَرٍ؛[2] لأنَّ إبليس كان يريد نفي صحَّة سجودِه لآدم، وليس إمكانَ الفعلِ؛ كان نفي الكونِ في قولِه: ﴿قَالَ لَمۡ أَكُن لِّأَسۡجُدَ﴾ الدالِّ على نفي الإمكانِ أصلًا أبلغَ في نفي إبليس اللَّعين صحَّةَ سجودِه لآدمَ، فكأنَّه قال: (ليس في إمكاني السجودُ لآدم)، لتنتفي صحَّةُ سجودِه، فإنَّ نفي الملزوم يقتضي نفي اللازم، مع أنَّ الواقعَ هو أنَّه كان يقصد نفي صحَّة سجودِه لآدمَ، ولهذا علَّله بقولِه: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾.

تـقـبـيـح رأي إبـلـيـس في التَّعبيرِ عن نفي صحَّة سجودِه لآدمَ بنفي إمكانِه

فائدة اللّام في قولِه: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾:

اللّامُ هي لام الجحود؛ لِتَأْكِيدِ نفي سجودِه، وهي على معنى الاستحقاق، أي: لا يقعُ منّي السُّجود لآدمَ في أيِّ حالٍ من الأحوالِ،

عـنـادُ إبليس وتكبُّره جرَّه إلى القولِ باستحالةِ سجودِه لآدمَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/577، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140.

ولا يحقُّ لي أن أسجدَ له، فيستحيل أن أسجدَ لبشرٍ، وهو ينافي حالي، ولا يليقُ بي، فيفيد المبالغة في النَّفي، أي: هذا ممّا لا يمكن وقوعُه أصلًا، وذهب بعضُ النَّحويين إلى أنَّ لامَ الجحودِ هنا لإفادة نفي القصدِ إلى الفعل وإرادتِه، والمعنى: لم أكن قاصدًا للفعلِ ولا مريدًا له، فيفيد تأكيدَ نفيِ الفعل؛ لأنَّ نفيَ قصدِ الفعلِ أبلغ من نفي الفعلِ نفسِه.

دلالة المصدر المؤوَّل في قولِه: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾:

من قبحِ إبليسَ علمُه بإنكارِ الله على عدمِ امتثالِه ثُمَّ العنادُ والاستمرارُ فيه

لامُ الجحود في قولِه تعالى: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾ داخلةٌ على المصدرِ المؤوَّل؛ لأنَّه بتقدير: (لأنْ أسجُدَ)؛ للإيذانِ بأنَّ إبليسَ كان يريد نفي إمكانِ مطلقِ سجودِه لآدمَ من غيرِ نظرٍ إلى طولِه أو قصرِه أو موضعِه أو إلى أيِّ وصف آخر مقيِّدٍ للسُّجودِ، وللإشعارِ بأنَّه معتقِدٌ بأنَّ نفيَ إمكانِه وعدمَ امتثالِه مستمرّان، وأنَّه لن يسجدَ لبشرٍ، وإنْ علمَ إنكارَ اللّه على عدمِ امتثالِه؛ لِما تدلُّ عليه (أنْ) الدالَّة على الاستقبالِ مع الفعلِ المضارع.

فائدة التَّعبير بالمضارع في قولِه: ﴿لِّأَسۡجُدَ﴾:

صورة السُّجود امتثالًا لأمرِ الله؛ تشريفٌ، والامتناع استكبارًا؛ من فعلِ إبليسَ

أفاد التعبيرُ بصيغة المضارع تصويرَ الحالة، فكأنَّ إبليس يستنكر أن يكونَ على صورةِ السُّجودِ لآدمَ، فهو يستنكر السُّجودَ، ويستنكر حالتَه، وهو يسجد لآدم.

دلالة التَّركيب في قولِه: ﴿لِبَشَرٍ خَلَقۡتَهُۥ﴾:

استنقاص إبليس لآدم لكونه بشرًا، ولكونه من صلصالٍ من حمأٍ مسنونٍ

لمّا كان هذا الكلامُ من إبليس في سياق إنكارِه السُّجودَ لآدم؛ كان تعبيرُه على سبيلِ الاستنقاصِ لآدمَ باعتبار نوعِه حين قال: ﴿لِبَشَرٍ﴾، ثمَّ زادَ، فذكر وصفَه باعتبار أصلِ خلقته، فقال: ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ﴾؛ ليكون استنقاصُه للموصوفِ وصفتِه على سبيلِ الاجتماعِ وعلى سبيل الانفراد، ولمّا استنقص ما خلقَه اللّه؛ أفادَ على سبيلِ الكنايةِ استكبارَه واستعظامَه لنفسِه، وفيه

إشارةٌ إجماليَّةٌ في كونِه خيرًا منه، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَقالَ: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ٧٦﴾ [ص: 76][1].

براعة التعبير بقوله: ﴿خَلَقۡتَهُۥ مِن صَلۡصَٰلٖ﴾:

بشاعةُ حالِ إبليس؛ إذ استكبر على الله، وهو مستحضرٌ أنَّ الله أمرَه بالسُّجود

أفادَ التعبير بالجملة الفعليَّة ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾ الإشعارَ بغلطِ إبليسَ بأنْ رأى الفضلَ كلَّه باعتبارِ العنصرِ الذي بدأ منه خلقُ البشرِ، وغفل عمّا يكونُ باعتبار الفاعلِ الذي هو مقرٌّ به، كما أشار إليه بقوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، أي: بغير واسطة، كما غفلَ عمّا يكونُ باعتبار الصّورة، كما نبَّه إليه بقولِه: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: 29]، فأجملَ في لفظ ﴿خَلَقۡتَهُۥ﴾ تسويةَ اللّه تعالى للبشرِ، ونفخَ الرّوح فيه، كما غفل اللَّعين عمّا يكونُ باعتبارِ الغايةِ التي خُلِقَ البشرُ لها وهو ملاكُه، ولذلك أمر الملائكة بالسجود له؛ لما تبيَّنَ لهم أنَّه أعلم منهم بما يدور عليه أمر الخلافة في الأرض، وأنَّ له خواصًّا ليست لغيره، وفي التَّعبير كذلك تنبيهٌ إلى عظمِ قبحِ إبليس وبشاعةِ حالِه، لما تؤذن به الجملة الفعلية من أنَّه استكبر، وعاندَ في حال أنَّه كان مستحضرًا أنَّ اللّه تعالى هو الذي خلقَ آدمَ[2].

سرُّ التكرار في الآية الكريمة:

لِكلِّ تركيبٍ مقصده، فاللفظ واحدٌ والمقصدُ يختلف

لمّا أخبر اللّه تعالى الملائكة بأنَّه ﴿خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن صَلۡصَٰلٖ مِّنۡ حَمَإٖ مَّسۡنُونٖ ٢٨﴾ [الحجر: 28]؛ كان إخبارُه لأصلِ خلقِ آدمَ على سبيل التَّشريف والتَّكريم لآدم وبيانِ بديع صنعِ الخالقِ، وأمّا إبليس؛ فكان ذكرُه لأصلِ خلقِ آدم على سبيلِ التَّعليل بخيريَّتِه وأفضليَّته على آدم، ليفيدَ سببَ تكبُّره على الائتمار والسُّجود لآدمَ، فَشَتّانَ بَيْنَ ذِكرِ ذَلِك

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/210.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 9/7، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 1/465، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/291.

فِي قَوْلِهِ تَعالَى لِلْمَلائِكَةِ، وَبَيْنَ مَقْصِدِ الشَّيْطانِ مِنْ حِكايَةِ ذَلِكَ فِي تَعْلِيلِ امْتِناعِهِ مِنَ السُّجودِ لِلْمَخْلوقِ مِنْهُ، فاللَّفظ واحدٌ والسّياق مختلفٌ، فكان لكلِّ تركيبٍ مقصدُه(1).

سببُ مخاطبة الله تعالى لإبليس:

الخطابُ على سبيل الإكرام تشريفٌ وعلى سبيلِ الإهانةِ إذلالٌ

لمّا أخبر اللّه تعالى عن إبليس قولَه في معرض خطابه مع اللّه تعالى: ﴿خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾؛ دلَّ على أنَّ الخطابَ خطابُ الحضورِ، وليس خطابَ الغيبةِ، وظاهِرُهُ يَقْتَضِي أنَّ اللّه تَعالَى تَكَلَّمَ مَعَ إِبْلِيسَ بِغَيْرِ واسِطَةٍ، وَأنَّ إِبْلِيسَ تَكَلَّمَ مَعَ اللّه تَعالَى بِغَيْرِ واسِطَةٍ، وَكَيْفَ يُعْقَلُ هَذا مَعَ أنَّ مُكالَمَةَ اللّه تَعالَى بِغَيْرِ واسِطَةٍ مِنْ أعْظَمِ المَناصِبِ وَأشْرَفِ المَراتِبِ، فَكَيْفَ يُعْقَلُ مخاطبة اللّه تعالى لإبليس من غير واسطةٍ، وهو رَأْسُ الْكَفَرَةِ ورئيسُهُم؟ والجوابُ هو أنَّ مُكالَمَةَ اللّه تَعالَى إنَّما تَكونُ مَنْصِبًا عالِيًا؛ إذا كانَ عَلَى سَبِيلِ الْإكْرامِ والْإعْظامِ، فَأمّا مكالمته مع إبليس؛ فقد كانت على سَبِيلِ الْإهانَةِ والْإذْلالِ، كما يوبِّخُ اللّهُ تعالى الكفّارَ يوم القيامة(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/46.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/140، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [الحجر: 34]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السابقة عن جوابِ إبليس؛ كانَ كأنَّه قيل: فبِماذا أُجيب؛ فجاءت هذه الآية:

من بلاغة القرآن استدرارُ سمعِ المخاطَبين وحثُّهم على الإصغاء لما يهمُّهم

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿رَجِيمٞ﴾: أصلُ الرَّجْم: الرَّمْيُ بِالحِجارَةِ، والرِّجامُ: الحِجارَةُ، يُقالُ: رُجِمَ فُلانٌ؛ إذا ضُرِبَ بالحِجارَةِ[1]. والرَّجْم أيضًا: السَّبُّ والشَّتْم؛ لأنَّه رَمْيٌ بالقول القبيح الذي يشبه الحجارة في قسوته، ومنه قَولُه تعالى حكاية عَن أبي إبراهيم لإبراهيم عليه السلام: ﴿لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]، أي: لأَسُبَّنَّكَ وأشْتُمَنَّكَ، والرَّجْم كذلك: اسْم لما يُرْجَمُ بِهِ الشَّيْءُ المرجومُ، وَجمعه: رُجومٌ[2]، والرَّجيمُ أيضًا: المُحَقَّرُ؛ لأنَّ العَرَبَ كانوا إذا احْتَقَروا أحدًا؛ حَصَبوهُ بِالحَصْباءِ[3]، والمرادُ بالرَّجيم في الآية: المَطْرودُ، وهو كنايَةٌ عَنِ الحَقارَةِ.

المَعْنى الإجماليُّ:

استحقَّ إبليس بعصيان أمر اللّه الطَّردَ والإبعادَ من الجنَّة، وهي وإن لم تذكر في هذه الآية، فالقِصَّة تتضمَّنها، أمَرَه اللّه بالخروج منها، وجعلَه مرجومًا، أي: مطرودًا مُبعدًا، لا يستحقُّ الإكرامَ والمنزلةَ العاليةَ، فقال اللّه تعالى له: فاخرُجْ منها، فإنَّك مَشتومٌ مُحقَّرٌ مذمومٌ[4].

استحقاق إبليس بعصيان أمر الله تعالى الطَّردَ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رجم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/30.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/26، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/534، والزحيلي، التفسير المنير: 2/1221.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف في الآية:

العدوُّ الأوَّل للبشر هو إبليس اللَّعين

جاء قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ على طريق الاستئناف البياني، كما هو حالُ أكثرِ آياتِ هذه القصَّة، لاستمرار إصغاء المخاطَبين وتنبيهِهم إلى منشأِ عداوةِ عدوِّهم الأوَّل.

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾:

أعظم الكفر تخطئة الخالق سبحانه في أفعاله وأوامره

الفاءُ لِتَرْتِيبِ هَذا الجَزاءِ عَلَى ما ذُكِرَ مِنَ الذَّنْبِ قَبْلَهُ؛ إذ مقتضى تعليلِ إبليس أنَّ اللّه خلق خلقًا مفضولًا، وكلَّف أفضلَ منه أنْ يَذِلَّ له، فكأنَّه قال: وهذا جور وظلمٌ، فهو بمنزلةِ التَّصريح بِتَخْطِئَةِ الْخالِقِ، فكان جوابُ إبليسَ مُنبئًا عن كفرِه وعدم تأهُّلِه للبقاء في الجنَّة أو في السموات، فاسْتَحَقَّ الخروجَ[1].

دلالة الأمرِ في قولِه: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا﴾:

خروج إبليس من الجنَّة مقترنٌ بتحقيرِه وإهانتِه

أفاد الأمر هنا طلبَ خروجِ إبليس من الجنَّة، واقترن بالطَّلب معنى التَّحقير بقرينةِ السّياق، والمعنى اخرجْ منها محقَّرًا مذلولًا .

مناسبةُ عودِ الضَّميرِ في قوله: ﴿مِنۡهَا﴾:

البقاء في موضع الطُّهر والنَّزاهة نعمة والخروج منه عقوبة

لم يَتَقَدَّمْ لِلضَّمير مُفَسِّرٌ يَعودُ عَلَيْهِ، ولمّا كان الضَّميرُ متعلِّقًا بالفعلِ ﴿فَٱخۡرُجۡ﴾؛ دلَّ على أنَّ ما يعود إليه الضَّمير هو موضعٌ منزَّهٌ شريفٌ، لتعليلِه خروجَه منها بأنَّه رجيمٌ خبيثٌ مشتومٌ، كما أنَّ الموضعَ يوصف بالتَّأنيث، وهو معلوم بين المتكلِّم والمخاطَب، فلمّا كان الضَّمير عائدًا على غيرِ مذكورٍ في السّياق، وكان معلومًا من تكرُّر هذه الحادثة في القرآن أنَّ إبليس كان في الجنَّة، وكان مع زمرة الملائكة في السَّماء، فيحتمل أن يكون المراد: فاخرج من الجنَّة، أو فاخرج من السَّماء، أو فاخرج من المنزلة التي كنت عليها في الملأ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.

الأعلى، أو فاخرج من زمرة الملائكة، والظّاهر هو الأوَّل[1]، ولا مانع من إرادة أكثر هذه المعاني، وإنَّما لم يصرِّحْ بمرجعِ الضَّمير؛ لأنَّ النَّظرَ موجَّهٌ إلى الخروجِ من موضعٍ لا يستحقُّ أن يكونَ فيه، وليس إلى ذكرِ المكانِ المخصوصِ الذي يخرج منه، كما أنَّ المقامَ مقامُ إنذارٍ ووعيدٍ في سياق الإخبارِ عن تكبُّر إبليسَ وعتوِّه، فكنّى بالضَّمير للإشعارِ بتنزُّه شأنِ الجنَّة أو السّماء وشرفِهما، وأنَّه ليس فيهما إلّا ما يكونُ طاهرًا نقيَّ السَّريرة غيرَ متكبِّرٍ ولا متعالٍ، وللتَّنبيهِ على قبحِ طويَّةِ إبليس وخبثِه.

فائدة (إنَّ) في قولِه: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾:

لا يجتمع خبثُ النَّفس وقبحُ السَّريرة مع البقاء في الجنَّة

أفادت (إنَّ) في قولِه: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ تأكيدَ مضمونِ الجملةِ وتقريرَها عندَ المخاطَب، كما أفادتِ الإيذانَ بالتَّعليل، وَذَلِكَ إيماءٌ إلَى سَبَبِ إخْراجِ إبليسَ مِنْ عَوالِمِ القُدُسِ، وَهوَ ما يَقْتَضِيهِ وَصفه بالرجيم، أي: اخرج منها؛ لأنَّك رجيمٌ، ففيه إشارةٌ إلى نزاهةِ المكان الذي كان فيه وطهارته، وأنَّه لا يجتمع خبثُ النَّفس وقبحِ السَّريرة مع البقاء في الجنَّة، أيْ: حَيْثُ ظَهَرَ هَذا فِيكَ، فَقَدْ خَبُثَتْ نَفْسُكَ خُبْثًا لا يُرْجى بَعْدَهُ صَلاحٌ، فَلا تَبْقَى فِي الجنَّة ولا في عالَمِ القُدُسِ والنَّزاهَةِ[2].

فائدة مجيء الكلامِ بصيغةِ الخطاب:

الإهانة بطريق الخطاب أشدُّ من أن تكون بطريق الغيبة

تقدَّم أنَّ المخاطبة بين الله تعالى وإبليس كانت على سبيل الإهانة والإذلال، ولمّا جاء الأمرُ بإخراجِه من الجنَّة أو من السَّماء، ووصفُه بالرَّجيم على طريقِ المخاطبة؛ كانَ أشدَّ تحقيرًا وتبكيتًا للَّعين من أن يكون على طريق الغيبة.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/58، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361، والرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/534، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/47.

وُصِفَ إبليس بالرَّجيم ليفيدَ معنى الرّمي والطَّرد والإبعاد والقبح

بلاغة الكنايةِ في قولِه: ﴿رَجِيمٌ﴾:

لمّا كان الرَّجيم بمعنى المطرود - كما هو الظّاهر - كان التَّعبير بالرَّجيم على سبيلِ الكناية؛ فإنَّ مَنْ يُطرَدُ على سبيلِ التَّحقيرِ والنبذِ يُرجَم بالحجارة غالبًا، أو هو ممّا ينبغي أن يُرجَمَ بالحجر، كما أنَّه لمّا كانَ الرَّجمُ يأتي بمعنى السبِّ والشَّتم؛ دلَّ على أنَّ الوصف على معنى الرَّمي والطَّرد والإبعاد والقبح؛ ليفيد التَّحقيرَ، فيكون الطَّرد على سبيلِ التَّحقيرِ لازمًا للرَّجم لزومًا عرفيًّا، والمعنى: فإنَّك مطرودٌ من كلِّ خيرٍ وكرامةٍ، ويحتمل أن يكون كنايةً عن كونِه شيطانًا يُرجَمُ بالشُّهب(1).

المبالغة في وصف الشيطان بالطَّرد وقبيح الفعل والقول

دلالة الوصف بصيغة (فعيل):

لمّا كان ﴿رَجِيمٌ﴾ بمعنى مرجوم؛ أفاد التَّعبير به بصيغة فعيل المبالغة في الطَّردِ والإبعادِ والشَّتم، وسواء أكانَ الطَّرد بالإبعادِ من الموضعِ المنزَّهِ أو بالرَّجم بالشُّهُب، والمعنى على المبالغة هو أنَّ طردَه أقبحُ أنواعِ الطَّرد وأشدُّه، وأنَّ بُعدَه عن اللّه تعالى وعن موضعِ التَّشريف أشدُّ أنواعِ البُعدِ.

وصْفُ الرَّجيم صفةٌ ثابتةٌ للشيطانِ

سبب إيثار مجيء ﴿رَجِيمٌ﴾ خبَرًا:

لمّا جاء لفظ ﴿رَجِيمٌ﴾ خبرًا عن ﴿فَإِنَّكَ﴾؛ دلَّ على أنَّه صار صفةً ثابتةً له معروفًا به بحيث يخبرُ به عنه لاشتهارِه به، مع المبالغة في المعنى.

الكرامة في الامتثال لأمر اللّه، وليس في أصل الخلقة ونوعِها

بلاغة الجمع بين فائدة الخبر ولازمِها في الآية:

فائدة الخبر - في قولِه تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ - هي أمرُ اللّه تعالى لإبليس بالخروج من الجنَّة، وأمّا لازمها؛ فهو وعيدٌ له يتضمَّن الجوابَ عن شبهتِه، فإنَّه لمّا ادَّعى لنفسِه الفضل

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/102، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/152.

والخيريَّة ظنًّا منه أنَّ الكرامةَ والفضلَ في مادَّة أصلِ الخِلقةِ؛ كان كأنَّه قال: أنا أهل القربِ والقبول، فأجيب بهذا التَّركيب ليفيدَ بلازمِه أنَّك من أهل البُعد والطَّرد لا من أهلِ القربِ والقبول[1].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/76، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/153.

﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٣٥﴾ [الحجر: 35]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ثبوت اللَّعنة على إبليس واستمرارها إلى الأبد

لمّا أخبر اللّه تعالى عن أمرِه بخروج إبليس من كلِّ موضعٍ شريفٍ، وعن وصفِه بأنَّه رجيم؛ أكَّد بعدَه بالإخبار باستمرارِ ذلك وثبوتِ اللَّعنةِ عليه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱللَّعۡنَةَ﴾: أصلُ (لعن): يَدُلُّ على الطَّرْدِ والإبْعادِ عن الخَيْرِ، يُقال: لَعَنَهُ اللّهُ، أيْ: أبْعَدَهُ وطَرَدَهُ عن الخَيْرِ[2]، واللَّعِينُ: المُبْعَدُ المَنْبوذُ، واللِّعانُ: الدُّعاءُ بِاللَّعْنِ، واللِّعانُ مِن الخَلْقِ بمعنى السَّبِّ والشَّتْمِ، يُقال: لَعَنَهُ لَعْنًا، أيْ: سَبَّهُ[3]. ويأْتي اللَّعْنُ بمعنى التَّعْذيبِ والإهْلاكِ، واللَّعْنَةُ: العَذابُ[4]. والمقصود باللَّعنَةِ في الآية: الطَّردُ والإبْعادُ بإهانةٍ وتَحقيرٍ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مُلازمةُ اللَّعنة لإبليس إلى يوم القيامة

يقول الحقُّ تبارك وتعالى: وإنَّ طَرْدَك التّامَّ مِن رَحمتي سيبقَى في الدُّنيا مُتَّصِلًا بك، لاحِقًا لَك، إلى يوم القيامةِ الَّذي تُلاقي فيه جزاءَ ما عَمِلتَ، فهو آخر من يموت من الخَلْقِ[5].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة العطف في قولِه: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾:

خروج إبليس من الجنَّة على سبيل الطَّرد وثبوت اللَّعنة عليه واستمرارها

لمّا حكم اللّه تعالى على إبليس بالخروج من كل موضعٍ شريفٍ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/56.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (لعن).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (لعن).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (لعن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/67، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/26.

وكان مفهوم الخروج محتملًا أن يكون على سبيل الإبعادِ وألّا يكون كذلك؛ كان ذكر الرَّجيم دالًّا على أنَّ الخروج من الجنَّة على سبيل الإبعاد والطَّرد، ثمَّ إنَّه عطف على ما تقدَّم هذه الآية تأكيدًا في بُعدِه، وزادَ عليه بالإخبار باستمراره، مع ثبوت اللَّعنة عليه، وقوَّى هذا الثبوت مجيء الخبر بصيغة الجملة الاسمية، فأفاد العطف تأسيس المعنى.

دلالة ﴿وَإِنَّ﴾:

تأكيد الإبعاد والطَّرد

أفادت ﴿وَإِنَّ﴾ في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ تأكيدَ وقوع اللَّعنة على إبليس، بعد تأكيد إبعاده وطرده من كلِّ موضعٍ شريفٍ، وفي ذلك توثيقُ الحكم وتقريرُه.

بلاغة تقديم ﴿عَلَيۡكَ﴾:

لعنة الله لإبليس خاصَّةٌ به ومقصورة عليه

أفاد تقديم الجار والمجرور على اسم ﴿وَإِنَّ﴾ - في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ - تخصيص اللَّعنة المذكورةِ به، والمعنى: إنَّ عليك خاصَّةً اللَّعنة إلى يومِ الدين[1]، أو أفاد قصرها عليه، والمعنى: إنَّ عليك وحدك اللَّعنة إلى يومِ الدين، لا على غيرك.

دلالة (عَلَى) في ﴿عَلَيۡكَ﴾:

استيعاب لعنة الله لإبليسَ وتمكُّنها منه

جاء حرف الجر (على) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ على طريق المجاز، ليفيد تمكُّنَ اللّعنةِ والشَّتمِ من إبليس، حتَّى كأنَّ اللَّعنة فوقَه مستوعبةٌ له محيطة به[2].

دلالة لفظ ﴿ٱللَّعۡنَةَ﴾:

التكبُّر على الله سبب للإبعادِ من رحمته وتوفيقِه

لمّا كان اللَّعنُ هو النَّفيَ أو الطَّردَ والإبعادَ بتخويف وذعر؛ كان مجيئُه بمعنى الطَّرد والإبعاد على سبيل السُّخط من الله تعالى على طريق المجاز، ولمّا ذكر أنَّ اللَّعنَ هو في هذه الدنيا إلى يومِ الدين -

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/47.

سواءٌ أكانَ على التأبيد أم على الانقطاع - أفادَ أنَّ المرادَ منه طردُ إبليس وإبعادُه من رحمةِ اللّه وتوفيقِه وعن أيِّ خيرٍ؛ بسبب معصيتِه.

(ال) في لفظ ﴿ٱللَّعۡنَةَ﴾ بين الكمال والعهد:

استحقاق إبليس الخروجَ المطلق من الجنَّة ومن رحمة الله

تحتمل (ال) أن تكون بمعنى الكمال، أي: عليك اللعنة الكاملة الأوصاف؛ لتُناسبَ اختصاصَ إبليس اللَّعين بها[1]، ويحتمل أن تكون للعهد العلمي، أي: عليك اللَّعنة التي هي الطَّرد والإبعاد من الجنَّة ومن رحمةِ اللّه، فيكون المعهود هو ما فهم من لفظ ﴿رَجِيمٌ﴾ مع زيادةٍ في المعنى.

توجيه المتشابه في الآية:

مناسبة التَّعبير للسِّياقِ

في هذه السورة قال اللّه تعالى لإبليس: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ بالألف واللّام، وَفي سورة (ص) قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ﴾ [ص: 78] بالْإِضافَة، ووجه اختلاف التَّعبير في الآيتين: هو أَنَّ الْكَلام فِي هَذِه السّورَة جرى على الجِنْس؛ ليفيدَ الاستغراقَ من أول القِصَّة فِي قَوْله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الحجر: 26]، ﴿وَٱلۡجَآنَّ خَلَقۡنَٰهُ﴾ [الحجر: 27]، ﴿فَسَجَدَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمۡ﴾ [الحجر: 30]، كَذَلِك قال: ﴿عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾، فأفادت (ال) استغراق الصِّفات، فتكون للكمالِ، ليفيدَ المبالغة في اللَّعنِ، وأمّا الوارد في سورة (ص) مضافًا لياء المتكلم؛ فوجهه المناسبة اللفظية لقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص: 75]، وأيضًا لما أضاف خلق آدم إليه تشريفًا له بقوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾؛ أضاف طرد عدوه إليه أيضًا زيادة في كرامةِ آدمَ وفي إهانةِ إبليس، فجرت العبارتان على منهج واحدٍ ومسلكٍ متناسب، ولم يكن ليتناسب العكس[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/152، والبقاعي، نظم الدرر: 11/56.

(2) الكرماني، أسرار التكرار، ص: 155، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/290، والبدر بن جماعة، كشف المعاني، ص: 223.

سبب توقيت انتهاء اللّعن بـ﴿إِلَىٰ﴾:

استمرارُ إبليس على الكفر وبُعدُه عن الخير

في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، قد يقال: إنَّ كَلِمَةَ ﴿إِلَىٰ﴾ تُفيدُ انْتِهاءَ الغايَةِ، وهَذا يُشْعِرُ بأنَّ اللَّعْنَ لا يَحْصُلُ إلّا إلَى يَوْمِ القِيامَةِ، وَعِنْدَ قِيامِ القِيامَةِ يَزولُ اللَّعْنُ، والجوابُ أنَّ القيد بـ﴿إِلَىٰ﴾ لا يقصد به انتهاء التَّوقيت إلى غاية يوم الدين، بل المُرادُ مِنْهُ التَّأْبيدُ؛ لأنَّ ذكرَ يومِ الدّين أَبْعَدُ غايَةٍ يَذْكُرُها النّاسُ في كَلامِهِمْ، ومن استعمال التَّوقيت على معنى التأبيدِ قولُه تعالى: ﴿مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [هود: 107]، ويحتمل أن تكون ﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الغاية، والمعنى: أنَّكَ مَذْمومٌ مَدْعوٌّ عَلَيْكَ بِاللَّعْنَةِ في السموات والْأَرْضِ إلَى يَوْمِ الدِّينِ مِنْ غَيْرِ أنْ تُعَذَّبَ، فَإذا جاءَ ذَلِكَ اليومُ عُذِّبتَ عَذابًا تَنْسَى اللَّعْنَ مَعَهُ، فَيَصِيرُ اللَّعْنُ حِينَئِذٍ كالزّائِلِ؛ بسبب أنَّ شدَّة العذاب تُذهل عنه، والكلامُ على التَّوجيهين فيه إيذان بدوام الطرد، وتوالي البُعد واستمرار المقت، وبأنَّه مُنِعَ من التَّقرُّب إلى الخيرِ والتَّوبة من الكفرِ[1].

سرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾:

الجمع بين بقاء اللعنة على إبليس وشدَّةِ العذاب عليه في الآخرة

ذهب الزمخشريُّ إلى أنَّ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾، ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤﴾ [الأعراف: 14]، و﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ كلُّها في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكًا بالكلام طريقة البلاغة[2]، فإنَّ اختلاف العبارات لاختلاف الاعتبارات، ونكتة التَّعبير بـ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ هنا: هو أنَّه لمّا كان ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ بمعنى يوم الجزاء، ومنه قولهم: (يومَ يدينُ اللّهُ العبادَ بأعمالهم)، وتقول العرب: دِنتُهُ بما فعلَ، أيْ: جازيتُه، أو بمعنى يوم الحساب، ويدخل في ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ جميعُ ما فيه من ذِكر القيامةِ، وشدائدِها وصعوباتِها، وأفزاعِها وأهوالِها، وحسابِها وسؤالِها، واختلافِ أحوالِها، والنارِ ودَرَكاتِها، والجنَّةِ ودرجاتِها،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/577، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/477، والبقاعي، نظم الدرر: 11/56.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/578.

والصِّراطِ وخَطَره، واللهب وشررِه، فلمّا كان الأمر ما ذُكِرَ؛ كان مجيءُ ﴿يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ للإشعارِ بأنَّ اللَّعنةَ متمكِّنةٌ منه غيرُ مفارقةٍ له إلى أنْ يلاقيَ جزاءَ عملِه، فيكون العقابُ عليه في ذلك اليومِ الموصوفِ بعظمِ الشَّدائد والأهوال، أمامَ رؤوس الخلائق؛ أشدَّ من اللَّعنةِ، وأظهرَ في إهانتِه وتحقيرِه، ويحتمل أن يكون المعنى: أنَّ اللَّعنةَ عليه في الدُّنيا، وهي ثابتةٌ عليه متمكِّنةٌ منه لا تفارقُه، فهي على التَّأبيد، ويزيد عليها نيله الجزاء على عملِه وقولِه، فيجمع بين بقاءِ اللَّعنة عليه وشدَّة العذاب في الآخرة[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرَّجم واللَّعن:

اللَّعنُ يُدعَى به، والرَّجمُ لا يُدعَى به

الرَّجْمُ: هو الرَّمي بالحجارةِ، ويأتي الرَّجم على طريقِ الكنايةِ بمعنى الطَّرد أو السَّبِّ والشَّتم؛ لأنَّ المرجومَ مطرودٌ، ويلحقه السَّبُّ والشَّتمُ غالبًا، ويأتي الرَّجم كذلك بمعنى القتل؛ لأنَّهم كانوا إذا قتلوا رجلًا؛ رَمَوْهُ بالحجارة حتّى يموت، وأمّا اللَّعن؛ فهو بمعنى الطَّرد والإبعاد والانتباذ على سبيل الغضبِ من الملعونِ، ويؤتى باللَّعنِ في مقام الدُّعاء على الآخرين، فيقال: اللعنة على كذا، وأمّا الرَّجم؛ فلا يدعى به، وكلُّ مَنْ لَعَنَهُ اللّه؛ فَقَدْ أبعده عَنْ رَحْمَتِه، واسْتَحَقَّ العذابَ، فَصارَ هالِكًا، فالرَّجم أعمُّ من اللَّعن، وإن كانَ اللَّفظان (اللَّعين والرَّجيم) إذا أُطلقا؛ عُنِيَ بهما الشَّيطان؛ لأنَّهما صارا وصفًا غالبًا له[2].

---

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (دين)، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/47.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رجم، لعن).

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحجر 36 - 38]

۞ مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

حكمة الله اقتضت ابتلاء العباد واختبارهم، فحكم على إبليس بالإمهالِ

لمّا أمرَ اللّه تعالى إبليس بالخروجِ من الجنَّة، وحكم عليه بالطَّرد وباللَّعنة إلى يوم الدين؛ سأل اللّهَ الإنظارَ إلى يوم بعْثِ الخلائق؛ ليتمكَّن من إغواءِ ما يقدرُ عليه منهم، فلمّا كان غرضُه ألّا يموتَ؛ لأنَّه بعدَ قيام القيامةِ لا يموتُ أحدٌ؛ قطع اللّه تعالى عليه ما دبَّجَ من المكر، ومنعه من مطلوبه، فقال ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾.

وأيضًا لمّا أمكن تأخير العقوبةِ مع الموتِ كسائر من أُخِّرت عقوباتُهم إلى الآخرة من الكفرة؛ طلبَ اللَّعينُ تأخيرَ موته، ولأنَّ حكمةَ اللّهِ في خلقِه مقتضيةٌ ابتلاءَ العبادِ واختبارَهم ليستبينَ المطيعُ ربَّه والمطيعُ عدوَّه؛ جاءت هذه الآياتُ بعدَ الأمرِ بالخروجِ من مواضع الفضل وطردِه منها(1).

۞ شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾: أصلُ النَّظَرِ: تَأمُّلُ الشَّيءِ وَمُعايَنَتُه، والنَّظَرُ: تَقْلِيبُ البَصَرِ والبصيرةِ لإدراك الشَّيءِ ورؤيَتِه، وقد يُرادُ به التَّأمُّلُ والفَحْصُ، وقد يراد به المعرفةُ الحاصلةُ بعد الفَحْصِ، وهو الرَّؤيَّةُ، فيُقالُ: نَظَرْتُ إلى الشَّيءِ، أَنْظُرُ إليه؛ إذا عايَنْتَه، ويقولون: نَظَرْتُهُ، أي: انْتَظَرْتُه. وسُمِّيَ الإمْهالُ إنْظارًا؛ لأنَّهُ يَنْظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذِي يَأْتِي فِيهِ(2). وَضِدُّهُ: التَّعْجِيلُ. ويأتي الإنْظارُ بِمَعْنَى: التَّأْخِيرِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/141، والبقاعي، نظم الدرر: 1/57.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).

والتَّأْجِيل؛ لقوله: ﴿أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: 14]. قوله: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: 29][1]. والمقصود بالإنظار في الآية: الإمهالُ والتَّأخِيرُ والتَّأْجيلُ.

المَعنى الإجْماليُّ:

سؤال إبليس تأخيرَ عذابه؛ زيادةٌ في بلائه ويأسٌ من السَّلامة

لـمّا تلقَّى إبليسُ هذا الجزاء؛ طلَبَ الإمهالَ إلى يوم البعث من القُبور، فقال: ربِّ فإذا أخرَجْتَني من مواطن الكرامة، ولعَنْتَني، فأمهِلْني وأخِّرْني، ولا تُهلِكْني إلى أن تبعَثَ خلْقَك يومَ القيامةِ؛ وأرادَ بذلك أنْ يجدَ فُسحةً لإغواء عِباد الله، ويأخذَ منهم ثأرَه، وينجوَ مِن الموتِ؛ لاستحالتِه بعدَ يومِ البعثِ[2]، ولقد أجابَ اللهُ دُعاءَ إبليس في الظاهر، لكنْ كان ذلك في الحقيقة مَكرًا به؛ لأنَّه مكَّنَه من مُخالفةِ أمْرِه إلى يومِ القيامةِ، فلم يَزِدْه بذلك التَّمكينِ إلّا شِقوةً؛ لِيَعلمَ الكافَّةُ أنَّه ليس كلُّ إجابةٍ للدُّعاءِ نِعمةً ولُطفًا، بل قد تكونُ بلاءً ومَكرًا، فقال: فإنَّك من المؤخَّرينَ المُمهَلينَ، إلى الوقتِ الَّذي يموتُ فيه الخلائقُ، وهو وقتُ النَّفخةِ الأولَى، وإنَّما سُمِّيَ هذا الوقتُ (أي: وقتُ النفخةِ الأولَى) بالوقتِ المعلوم؛ لأنَّ مِنَ المعلوم أنْ يموتَ كلُّ الخلائقِ فيه، وقيلَ: إنَّما سمّاه الله تعالَى بهذا الاسم؛ لأنَّ العالِمَ بذلك الوقتِ هو الله تعالَى لا غير، كما قال تعالَى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الأعراف: 187]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34][3].

(1) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نظر)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/19.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/68، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/27، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/77.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/68، والقشيري، لطائف الإشارات: 1/522، والبغوي، معالم التنزيل: 3/58، والرازي، مفاتيح الغيب: 19/141.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستئناف البياني في الآية:

تـشـويـقُ السّامعين وتنبيههُم إلى طلبِ إبليس الإنظارَ في عقوبتِه وتأخيرَها

في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنَّه قيل: فماذا قال اللَّعينُ بعد ما سمع أنَّه مطرودٌ ملعونٌ، فقيل: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ﴾[1]، ففيه تشويقٌ للسّامعينَ إلى معرفةِ قولِ إبليس، وتنبيهٌ لهم إلى أنَّه طلبَ إنظارَ العقوبةِ وتأخيرَها.

سبب التَّعبير بقولِه: ﴿رَبِّ﴾:

الخضوعُ والتَّذلُّلُ لله سبب إجابة الدعاء

خاطَبَ إبليسُ اللّه تعالى بِصِفَةِ الرُّبوبِيَّةِ، لعلمِه بأنَّ إجابةَ الطلبِ من اللّه تعالى يقتضي الخضوعَ والتَّذلُّلَ له سبحانه.

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾:

اختار إبليس الإمهالَ بعدَ طردِه من رحمة الله، واختار آدمُ الاستغفارَ بعدَ زلَّتِهِ

هذه الفاءُ هي الفصيحةُ، بمعنى: أنَّها تفصحُ عن شرطٍ في الكلامِ، فهي واقعةٌ في جوابِ شرطٍ مقدَّر يدلُّ عليه السّياق، وتقدير الكلام: إنْ أخرجتني من دار الكرامةِ، وجعلتني رجيمًا، وطردتني عن الخير، فأنظرني بتأخير موتي، وإنَّما طلب الإنظارَ ليجدَ فسحةً في إغواء بني آدم؛ لأنَّ اللَّعينَ ظنَّ أنَّ خروجَه من الجنَّة بسببِ آدمَ، وليس بسببِ تكبُّرِه وإبائِه واعتراضِه على ربِّ العالمين[2]، ففي الكلام إيجازٌ بحذف أكثر من جملةٍ لقرينة السّياق، وأفادت الفاء ابتناءَ طلبِه على ما حكم اللّه عليه بالخروج واللَّعن، كما أفادت أنَّ أوَّلَ طلبٍ له عقبَ الأمرِ بخروجه من رحمة اللّه ولعنِه هو إنظارُه إلى يوم يُبعثُ الخلائقُ، فلم يبادرْ إلى الاستغفار وطلب رحمتِه تعالى كما فعل آدم وزوجُه حينَ أُخرجا من الجنَّة.

دلالة طلبِ الإنظار في قولِه: ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾:

مبالغةُ إبليسَ في طلبِ الإنظار ليحقِّق غايتَه في الإغواء

لمّا كان الإنظار والتأخير لا يكون للذات؛ لأنَّه متعلِّق بالأحوالِ؛

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/76.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/154.

أفادَ أنَّ المرادَ تأخيرُ بعضِ الأحوالِ التي ترد على ذاتِه، وهو الموت بقرينةِ السّياق، والمعنى: فأنظر موتي، وأخِّره إلى يوم يبعثون، ونكتةُ طلبِ الإنظار للذّاتِ للمبالغة في الطلبِ، فإنَّ تأخيرَ الذّاتِ وإمهالَها تأخيرٌ لأحوالِها كلِّها ليحقِّقَ إغواءَه لبني آدمَ[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ﴾:

طلبُ إبليسَ تأخيرَ موتِه يتضمَّن طلبَ تأخيرِ العقوبةِ وتأجيلِها

عبَّر بالإنظار هنا؛ للإشعار بأنَّ عملَ إبليس وقولَه يستحقُّ بهما معاجلة العقوبة من اللّه تعالى، وأنَّه كان على علم بهذا؛ لأنَّ الإنظار لا يكون إلّا مع توقُّع المعاجلةِ بما هو غيرُ مرغوبٍ فيه، فيَقولُ المُتَكَلِّمُ لِمَنْ يُعَاجِلُه: أَنْظِرْني أَبْتَلِع رِيقِي، أي: أَمْهِلْني[2]، ولهذا كان طلبُ إبليسَ تأخيرَ موتِه يتضمَّن طلبَ تأخيرِ العقوبةِ وتأجيلِها.

مناسبة تحديد الإنظار في الآية:

تنبيهُ بني آدمَ إلى أنَّ إغواءَ إبليسَ لا ينقطعُ إلَى وُجودِ آخِرِ إنسانٍ فِي الدُّنْيا

لمّا كان يومُ البعث هو يوم النَّفخة الثّانية، التي يقومُ فيها الخلقُ إلى ربِّ العالمين؛ أرادَ إبليسُ اللَّعينُ ألّا يذوقَ الموتَ، فطلبَ أنْ يكونَ إمهالُه إلى يوم يُبعثُ الخلقُ، فالتَّعبير بقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾؛ لأنَّ غرض اللَّعين به يتحقَّقُ، فيكون تَمْهِيدًا لِما عَقَدَ عَلَيْهِ العَزْمَ مِنْ إغْواءِ البَشَرِ، فَأرادَ الإنْظارَ إلَى آخِرِ مُدَّةِ وُجودِ نَوْعِ الإنْسانِ في الدُّنْيا[3].

دلالة عود الضَّمير في قوله: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

إعلامُ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريَّةٌ

لمّا لم يكن في الكلام ما يعود عليه الضَّمير في قولِه: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾، وكان الكلامُ في بيان أنَّ إبليس قصد إغواء بني آدم - كما دلَّ عليه السِّياقُ - أفادَ أنَّ المرادَ من الجمع في قولِه: ﴿يُبۡعَثُونَ﴾ البشرُ المعلومون من تركيبِ خلقِ آدمَ أوَّلًا وبالذّاتِ[4]، فأفادَ الضَّمير الإيجازَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/48.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نظر).
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/77، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/48.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 5/19، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/36.

في الكلام، والإشعارَ بأنَّ اللّهَ قد أعلمَ إبليسَ بأنَّ آدمَ سيكونُ له ذريَّةٌ، أو أنَّه لمّا رأى خصوصيَّة آدم عند اللّه في خلقِه وإكرامِه بالأمر بالسُّجودِ له وإعلامِ اللّه تعالى للملائكة أنَّه جاعلٌ في الأرضِ خليفةً؛ علم أنَّه لن يكونَ مخلوقًا وحدَه، وأنَّه سيكون له ذرّيَّةٌ.

سرُّ الإضافة في ﴿يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾:

لم يقل: ما معناه (لا تُمِتْنِي إلى يومِ البعثِ)، بل أضاف اليوم إلى الفعل المبني للمفعول ﴿يُبۡعَثُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه أضمر في نفسِه إغواء بني آدم، فكأنَّه قال: أنظرني؛ لكي أبقى معهم في الدُّنيا، فطلبه لِلإنظار ليس من أجلِ تأخير موتِه فقط، بل قَصَدَ من وراء ذلك ما هو أهمُّ، قَصَدَ تزيينَ المعاصي لبني آدم وإغواءَهم أجمعين.

طلبُ إبليسَ الإنظارَ؛ لِعزمِه على تزيينِ المعاصي لبني آدم وإغوائِهم أجمعين

نكتة مجيء الفعل بصيغة ﴿يُبۡعَثُونَ﴾:

كانَ الظّاهرُ أنْ يقولَ إبليسُ: (إلى يومِ تبعثهم)؛ لأنَّه في مقام خطاب اللّه ربِّ العالمين، فعُدِلَ إلى صيغةِ المبني للمفعولِ؛ لتوجيهِ النَّظرِ إلى حدث بعثِ الخلقِ يومَ القيامةِ، وليس إلى إسنادِ البعثِ إلى اللّهِ تعالى؛ للإشعارِ بعظمةِ يوم البعثِ وهولِه، كما أنَّ الفاعلَ معلومٌ، وإبليسُ مقرٌّ به، فليس في ذكرِه هنا فائدةٌ، ففيه إيجازٌ كذلك.

تعظيمُ شأنِ يومِ البعثِ والإيذانُ بخطرِه

بلاغة الاستئناف البياني في الآية:

جاء القول على طريق الاستئناف المبنيِّ على سؤال نشأ ممّا قبله، كأنَّه قيل: فبماذا أجابه اللّه على سؤالِه الإنظارَ إلى يوم البعث؟ فقيل: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾، لتشويقِ السّامعين إلى المقاولةِ بين اللّه تعالى وإبليسَ، وتنبيههم إلى الإصغاء إليها.

تنبيه السّامعين إلى الإصغاء لما أجابَ الله تعالى به إبليسَ اللّعين

دلالة الجواب بقوله: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

لمّا كان طلب إبليس الإنظار إلى يوم يُبعَث الخلقُ، وجاء الجواب مقيَّدًا بإنظارِه إلى يوم الوقتِ المعلوم؛ دلَّ على أنَّ إنظارَه إلى ذلك الوقتِ لم يكن إجابةً له على ما يرغبُ، ويتمنَّى، فلم يكن الإنظارُ

إنظارُ إبليسَ إملاءٌ له ليزدادَ إثمًا وعقوبةً، ولتظهر حكمةُ الله في الابتلاء به

كرامةً له، بل هو إمْلاءٌ له ليزدادَ إثمًا، وتزدادَ عقوبتُه، ولتظهر حكمةُ اللّه في ابتلاء بني آدمَ بتزيينِه وإغوائِه[1].

مناسبة الجملة الاسمية في الآية:

طلبُ إبليس الإنظارَ لتأخيرِ الموتِ لا لتأخيرِ العقوبة

لمّا كانت الجملةُ الاسميَّةُ دالَّةً على الثُّبوتِ؛ دلَّ الكلامُ - في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ - على أنَّه إخبارٌ بالإنظارِ المقدَّر للمنظَرين أزلًا، لا إنشاءٌ لإنظار خاصٍّ به إجابةً لدعائِه، فلا خَصوصيَّةَ لإبليسَ في الإنظار، ودلَّ الكلامُ أيضًا على أنَّ استنظارَه كان طَلَبًا لتأخيرِ الموتِ؛ إذ به يتحقَّق كونُه من جملتهم لا لتأخيرِ العُقوبةِ، كما ذهب إليه بعضُ المفسِّرين، وإن كان طلبُ تأخيرِ الموتِ يتضمَّن طلبَ تأخيرِ العقوبةِ لإبليسَ، والمعنى: أنَّك من جُملةِ الذينَ أُخِّرَتْ آجالُهم أزلًا حسبما تقتضيه الحِكمةُ التكوينيةُ إلى يومِ الوقتِ المعلوم، فإنظارك لا كرامةَ لك فيه[2].

دلالة (إنَّ) في قوله: ﴿فَإِنَّكَ﴾:

تأكيدُ كونِ إبليسَ من الطّائفةِ التي أخَّرَ اللهُ تعالى موتَها

تفيد (إنَّ) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ تأكيدَ مضمون الجملة وتقريرِها، بمعنى تقريرِ كونِ إبليسَ من الطّائفةِ التي أنظرها اللّه، وأخَّرَ موتَها.

نكتةُ صيغةِ الجمعِ في ﴿ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

إنظارُ إبليسَ ليسَ خَصوصيَّةً لهُ، بل هو مِنَ الذينَ تأخَّرتْ أعمارُهمْ

عُبِّر بصيغة الإدخالِ في جمعِ المنظَرين؛ ليكون إبليسُ من جملتِهم ومنتظمًا في سلكِهم، فيكونَ مشمولًا بما سأله الآخرون؛ لِيُؤذنَ بأنَّ السّائلَ تبَعٌ لهم في ذلك، لئلّا يتوهَّم إبليسُ أنَّ إنظارَه خَصوصيَّةٌ له، بل حالُه حالُ الطّائفةِ التي تأخَّرت أعمارُها كثيرًا، حتَّى جاءتْ آجالُها على اختلافِ أوقاتِها، فقد عمَّ تلكَ الفرقةَ إنظارٌ، وإنْ لم يكونوا أحياءً مدَّةَ الدَّهرِ، والمعنى: أنَّه تعالى أخبر

---

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/193.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/217.

بأنَّ إنظارَه هو من جملةِ إنظار مقدَّرٍ أزلًا، لا لإنشاءِ إنظارٍ خاصٍّ به، وقع إجابةً لدعائِه، ولهذا لم يقل له: (فأنا أَنْظُرك)، ومجيء صيغة المبني للمفعول دالٌّ على هذا المعنى، فالفاء لربط الإخبار بالإنظار وبالاستنظار، أي: بطلبِه، لا لربط نفس الإنظار به، وأنَّ استنظاره لتأخير موتِه؛ إذ به يتحقَّقُ كونُه من جملتهم، لا لتأخير عقوبتِه[1]، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ الفاءَ هي الفاءُ الفصيحة الدالَّة على شرطٍ مقدَّرٍ، والتَّقدير: إن طلبت منّي الإنظار؛ فإنَّك من المنظرين إلى يَوْمِ الوَقْتِ المَعْلوم، وهو وقت النفخة الأولى، وليس فيه إجابةٌ لطلبِه؛ لأنَّ قيد الإنظار اختلف كما سيأتي[2].

فائدة صيغة المبني للمفعول في ﴿ٱلۡمُنظَرِينَ﴾:

تحقيرُ إبليسَ وإهانتُه من عادةِ القرآنِ عندَ ذكرِه

عُبِّرَ بصيغة المبني للمفعول؛ للإشعار بعدم الاهتمام بإبليسَ، وأنَّ عليه من الصَّغار والتَّحقير ما لا يستحقُّ به أن ينسب اللّٰهُ تعالى لنفسه إنظارَه.

فائدة تقييد الإنظار في الآية:

أنظرَ اللهُ إبليس إلى يومِ النَّفخةِ الأولى لا إلى يومِ يَبعثُ الخلقَ

جاء الجواب مقيَّدًا بغايةٍ زمنيَّةٍ هي ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾؛ للإيذان بأنَّ إنظارَه لم يكن إجابةً إلى ما سأل، وإنَّما كان مجيبًا له إلى ما سأل لو كان قال له: إنَّك من المنظرين إلى الوقتِ الذي سألتَ، أو إلى يوم البعث، أو إلى يومِ يُبعثون، أو ما أشبه ذلك، وهذا يدلُّ على أنَّه لم يجبْهُ إلى ما سألَ من الإنظار الذي أرادَه، واعتبار إجابةِ الطلب تكون على وفقِ القيد الزَّماني الذي قُيِّد به، فلمّا قيَّد اللّٰه تعالى إنظارَه بقوله: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾؛ دلَّ على أنَّ مدَّةَ الإنظار إلى يومِ النَّفخة الأولى، فلا إجابة لإبليس على طلبِه؛ لأنَّه

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/380، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/217، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/292.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/292.

طلب الإنظار إلى يومِ البعث لكي لا يموتَ، وأنظره اللّٰه تعالى إلى يومِ الوقتِ المعلومِ، فقضى على إبليس أن يموتَ، كما يموتُ الخلقُ[1].

سبب ذكر اليوم والوقت في الآية:

استعمالُ لفظِ الوقتِ للدلالة على الأجلِ

لما كان لفظُ (اليوم) يُستعمل فيما يتمُّ فيه أمرٌ ظاهر؛ أشعر التَّعبير به - في قولِه: ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ - ظهور موتِ إبليس في هذا اليوم المذكور، ولمّا كان الوقتُ أدلَّ ألفاظ الزمان على الأجلِ؛ قال: ﴿ٱلۡوَقۡتِ﴾، والمراد تأخيرُ أجلِه إلى يومِ موعدِ وقوعِه[2].

دلالة قولِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾:

كلُّ مخلوقٍ يموتُ ولو بعدَ حينٍ

لمّا أخبر اللّٰه تعالى أنَّ إنظار إبليس له غايةٌ زمانيَّةٌ ينتهي إليها الإنظار؛ دلَّ على أنَّه غير مطلقٍ، وأنَّه ينتهي بزمنٍ معيَّنٍ، فقيَّدَه بقولِه: ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾، ولمّا كان لفظ ﴿ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ مبنيًّا للمفعول، أي: حذف فاعلُه؛ احتمل أن يكون المراد معلومًا عندَ اللّٰه خاصَّةً، وأنَّه لم يبيِّن له ذلك الوقت، ولم يطلعه عليه، ويؤيِّده ما جاء في قولِه تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 48]، فأخبر إبليسُ أنَّه يرى ما لا يرون هم، وأنَّه يخاف اللّٰه، ولو كان بيَّن له الوقت المعلوم؛ لكان لا يخاف هلاكه قبل ذلك الوقت، كما يُحتمل أن يكون المرادُ معلومًا عندَ اللّٰه تعالى تعيينًا، وعندَ النّاس إجمالًا، ويكونَ المقصودُ به يومَ النَّفخة الأولى حين يموت جميع الخلائق، فيكون محكومًا عليه بالموتِ معهم[3].

بلاغة التَّعريض في قولِه: ﴿يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾:

العبرة في الخطاب بأهل الإيمان وغيرهم كالعدم

تقدَّم أنَّه يحتمل أن يكون المرادُ بالمعلوم ما اختصَّ اللّٰه بعلمِه،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 12/331.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/57.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/440.

كما يحتمل أن يكون المرادُ ما علمَه اللّه تعيينًا والنّاسَ إجمالًا، فعلى التَّوجيه الثاني يكون في الكلام تعريضٌ بأنَّ مَنْ لَمْ يُؤْمِنوا بِذَلِكَ الْيَوْمِ - أي: يوم البعث - مِنَ النَّاسِ ولم يعلموه علمًا إجماليًّا بسببِ عدم إيمانِهم به لا يَعْبَأُ اللّه بِهِمْ، فَهُمْ كالْعَدَمِ[1].

توجيه المتشابه في الآية:

تقدَّم الكلامُ على توجيه المتشابه في آيات سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15]، وآياتِ سورة (ص): ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩﴾ [ص: 79] في بيان سبب اقتران الفاء بالفعل في سورتَي الحجر و(ص)، وفي ذكر وصف الرُّبوبيَّة فيهما دون سورة الأعراف، فلينظر عند تفسير قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15].

الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الإنظار والإمهال:

الإنظارُ له وقتٌ محدَّدٌ، والإمهالُ تأخيرٌ لوقتٍ غيرِ معيَّنٍ

تقدَّم في سورة الأعراف عند بيان تفسير قولِه تعالى: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥﴾ [الأعراف: 14 - 15] أنَّ الإنظار له وقتٌ محدود مقدَّر، وأمّا الإمهال؛ فهو التأخير المبهم غير المحدَّد بوقتٍ معيَّن مع رفقٍ فيه، فناسب ذكر الإنظار دون الإمهال؛ لِمناسبته شدَّةَ عقوبةِ إبليسَ وتوقيتَ إنظارِه إلى وقتٍ معيَّنٍ محدودٍ[2].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/49.
(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 202، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مهل).

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾ [الحجر: 39 - 40]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

تنبيه المخاطَبين إلى عزمِ إبليس علـى إغـواء النّاس منذُ خَلْقِ آدمَ

لمّا أفهم ما تقدَّمَ الحكمَ بإغوائِه، لكونِه رجيمًا وملعونًا، فتضمَّن هذان الوصفان أنَّ اللّه تعالى خلقَ في نفسِ إبليس مقدرةً على الإغواء، ولمّا حكمَ اللّه عليه باللَّعنِ؛ أيسَ من الهدى، كان السامع كأنَّه قال: فماذا قال إبليس؟ فجاء قولُه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، ثمَّ استثنى منهم عباد اللّه المخلَصين؛ لأنَّه علمَ أنَّ كيدَه لا يعمل فيهم، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾: أَصْلُ (زين) يَدُلُّ عَلَى حُسْنِ الشَّيْءِ وَتَحْسِينِهِ[2]. الزَّيْنُ نَقِيضُ الشَّيْنِ، وزانَهُ وزَيَّنَهُ بمعنًى، وهو تصيير الشَّيء زَينًا، أي: حَسَنًا، والزِّينَةُ الحقيقيَّة: ما لا يشين الإنسان في شيءٍ من أحواله لا في الدُّنيا، ولا في الآخرة، وتَزْيينُ اللّه للأشياء قد يكون بإبداعها مزيَّنة، وإيجادها كذلك، وتَزْيينُ الناس للشَّيء: بتزويقهم، أو بقولهم، وهو أن يمدحوه، ويذكروه بما يرفع منه[3]. والزّينة أيضًا: جامعٌ لكُلِّ ما يتزيَّن به النّاسُ، وَما يَحْسُنُ في أَنْظارِهِم مِنْ طَرائِفِ الدُّنْيا، كالْحُلِيِّ والْجَواهِرِ[4]. والمقصود بالتَّزْيين في الآية: التَّحْسِينُ، أي: جَعْلُ الشَّيْءِ زَيْنًا، أي: حَسَنًا[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/58.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زين).
(3) الراغب، المفردات: (زين).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (زين).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50.

2) ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾: أصلُ (غوي): يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلامِ الأمْرِ[1]، الغَواية - بفتح الغين -: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ وغوٍ وغويٌّ وغيّان: ضالٌّ، وأغْواه هوَ[2]، والغَيُّ: جهل من اعتقاد فاسد[3]، وقوله تعالى: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ إشارةٌ إلى غَوايَةٍ يَعلَمُها اللّه، وهي الَّتي جَبَلَهُ عليها، والمقصود بالإغواءِ في الآية: جعْلُهم غاوِينَ، أي: ضالِّينَ[4].

3) ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾: أصلُ (خلص): تَنْقِيَةُ الشَّيءِ وَتَهْذِيبُهُ ممّا يشوبه[5]، خَلَص الشَّيءُ، بِالفَتْح، يَخْلُص خُلوصًا وخَلاصًا؛ إذا كانَ قَدْ نَشِبَ، ثُمَّ نَجا، وسَلِم[6]. وأخْلَصه، وخَلَّصه، وأخْلَص للّه دِينَه: أمْحَضَه، وأخْلَصَ الشَّيءَ: اخْتارَهُ، والمُخْلَصون المُخْتارون، والمُخْلِصون المُوَحِّدون، والخالِصةُ: الإخْلاصُ، وخَلَص إليه الشَّيءُ: وَصَلَ، وخَلَصَ الشَّيءُ، بِالْفَتْح، يَخْلُصُ خُلوصًا، أي: صارَ خالِصًا[7]. والمرادُ بالإخلاص في الآية: الإفرادُ وتصفيةُ الشَّيءِ ممّا يُنافِيه، أو يُفسِدُهُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

العـبـوديَّـة الـصّـادقـة لله تعالى أفضلُ ما اتَّصف به طائع

قال إبليسُ: ربِّ بسبَبِ إغوائِك لي لأُحَسِّنَنَّ للنّاسِ مَعصيتَك، ولأُرَغِّبنَّهم فيها، ولأشغَلنَّهم بزينةِ الدُّنيا عن طاعتِك، ولأُضِلَّنَّ جميعَ النّاسِ عن طريقِ الحَقِّ، إلّا عبادَك الذين اختَرتَهم لهدايتِك، وطَهَّرتَهم من الشِّركِ والرِّياءِ فصاروا مُخلَصينَ، فلا أستطيعُ إغواءَهم[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(2) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(3) الراغب، المفردات: (غوي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلص).
(6) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خلص).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خلص).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 14/68، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/28، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

سببُ إيرادِ الحكاية عن إبليس:

احتقارُ إبليس وبغضُه من الإيمانِ

ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحالَةُ مِنْ أَوْصافِ إبليس - في قوله تعالى: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩﴾ - لإعلامِ بني آدم عمّا يضمره لهم، وما يبغيه من الكيدِ فيهم؛ بَعْثًا لِكَراهيَّتِهِ في نُفوسِ الْبَشَرِ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّ حَقَّ النَّفْسِ الْأَبِيَّةِ أَنْ تَأْنَفَ مِنَ الْحَياةِ الذَّمِيمَةِ الْمُحَقَّرَة، وَذَلِك شَأْنُ الْعَرَب، فَإذا عَلِموا هَذا مِنْ حالِ إبْلِيسَ؛ أَبْغَضوهُ، واحْتَقَروهُ، فَلَمْ يَرْضَوْا بِكُلِّ عَمَلٍ يُنْسَبُ إلَيْه[1].

دلالة النِّداء في قول إبليس: ﴿رَبِّ﴾:

إبليس كافرٌ بألوهيَّة الله تعالى مقرٌّ بربوبيَّته

نادى إبليس بقولِه: ﴿رَبِّ﴾ - في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ - ليفيدَ أنَّه مع كفرِه يقرُّ بالربوبية والخلق، لعلمِه بأنَّ اللّٰه تعالى هو الموجِد الواحدُ الأحد، وأنَّ أيَّ طلبٍ في هذه الحياة لا يكون إلّا من ربِّ العالمين، وفيه إشعارٌ بأنَّ الكفر أنواعٌ، وأنَّه ليس كلُّ من آمن بأنَّ اللّٰه هو الخالق المالكُ لهذا الخلق مؤمنًا حتَّى يَقرَّ بألوهيَّة اللّٰه، ولا يعترض عليه سبحانه، فقد علم إبليسُ ربوبيَّةَ اللّٰه تعالى، وضلَّ على علم؛ لأنَّه لم يطعْ ربَّهُ.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

اجتهادُ إبليس في إغواء النّاس لإفسادِهم، كما فَسَد وغوى

يُحتمل أن تكونَ الباء للقسم، أي: بسلطانِك عليَّ، ونفاذ أمرِك فيَّ لأزيِّنَنَّ لهم في الأرضِ، ويدلُّ على أنَّها باءُ القسم قوله تعالى حكايةً عن إبليسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾ [ص: 82]، كما يقالُ: فباللّٰه لأفعلنَّ، وتكون اللّام في ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ جوابَ القسم، والمعنى: أقسم بإغوائك إيّاي؛ لَأزَيّنَنَّ لهم، وقد يقالُ: لم يكن إغواءُ اللّٰه تعالى لإبليسَ ممّا يجب أن يقسَم به، لولا فرطُ جهله، ويجابُ بأنَّ القسمَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/48.

في المعنى صحيح؛ لأنَّ الإغواء ممّا يتفرَّد الحقُّ بالقدرة عليه، ولا يشاركه فيه أحدٌ؛ وللاهتمام بهذا السبب قدَّمه على جواب القسم الدالِّ على المقسَم به، ويحتمل أن تكونَ الباء سببية، والمعنى: بسبب وُقوعِي في الغَيِّ وتسبُّبك بإغوائي؛ أقسمُ لأَجْتَهِدَنَّ في تزيين القبائح والمعاصي لهم في الأرضِ وفي إغوائهم؛ حتَّى يَفْسُدوا بسببي، كما فَسَدْتُ بسببهم، كما تحتمل أن تكون للمجازاة، وفيها معنى السببية، والمعنى: فبإغوائك لي لأُزَيِّنَنَّ لهم[1].

دلالة (ما) المصدرية في قوله: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

اتِّصافُ إبليس بحقيقةِ الإغواء وكمالِه

(ما) هنا مصدرية[2]، لتفيدَ حصولَ حقيقةِ الإغواء لإبليس من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخرَ للإغواء الذي اتَّصفَ به، ومن غيرِ تقييدٍ بوقتٍ، ليفيد الوصفُ بالمصدر اتِّصافَه بالإغواء المطلق المضمَّن معنى الكمالِ.

دلالة صيغة أفْعَلَ في ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

نسبةُ إبليس إلى الإغواء بسببِ اعتراضِه على اللهِ تعالى وتكبُّرِه على أمرِه سبحانه

صيغة (أفعل) للنِّسبةِ، مثل بناء (فعَّل) كفسَّقَ للنِّسْبَةِ إلى التَّفسيق، فيكونُ معنى ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾ نسبتني إلى الإغواء، لاعتراضه على اللّه تعالى وعدم امتثالِه، أو تكون الصِّيغة حملًا على الغيِّ أي: لمّا أمره اللّه تعالى بالسجود لآدم؛ عند ذلك ظهر غيُّ إبليس وكفره، فجاز أنْ يضيف ذلك الغيَّ إلى اللّه تعالى باعتبار أنَّ غيَّه ظهر؛ لمّا اعترض على أمرِ اللّه، وتكبَّر على آدم، فلم يسجد، ويحتمل أن تكون الصيغة على أصلِها، والمعنى: أغواه اللّه تعالى بما قضى من حكمتِه وتقديره[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/103، ومكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 6/3895، والماوردي، النكت والعيون: 3/160، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/271، والواحدي، التفسير البسيط: 12/605، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 9/37، والبقاعي، نظم الدرر: 11/58.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/7، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 8/348.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿أَغۡوَيۡتَنِي﴾:

تنبيهُ بني آدمَ إلى ضلالِ الشَّيطان الذي لا يرى سوى الباطلِ، ولا يأمرُ إلّا به

عُبِّرَ بالإغواء للإشعار بانهماكِ إبليس في الباطلِ، وأنَّه قد فسد فسادًا بحيث لا يُرجى صلاحُه، وأنَّ ظُلمَةَ الكفرِ والتكبُّر قد غشيَتْهُ، فلا يرى طريقًا إلى الرُّشدِ، ففيه تنبيهٌ لبني آدمَ من وسوستِه والانخراطِ في غيِّه، فإنَّه لا يرى سوى الباطلِ، ولا يأمرُ إلّا به، فهو على الضَّلال ومنهمكٌ به.

فائدة تتابع التأكيد في قولِه: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

إصرارُ الشَّيطان على التَّزيين لبني آدمَ وفتنتِهم

تتابعَ التأكيدُ في ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ لاقترانِ الفعل باللّام؛ لِتأكيدِ الفعل وتقريرِه، سواء أكانت اللّامُ جوابَ قسمٍ أم موطِّئةً للقسم على الخلاف في دلالة الباء في قولِه: ﴿بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ - كما تقدَّم - كما تقوّى هذا التأكيد باقترانِ الفعل بنون التأكيد الثقيلة، ليفيدَ تقريرَ فعلِ التَّزيين وإصرارَه عليه ليفتنَ بني آدم.

نكتة التَّعبير بالفعل ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

لكلِّ شيءٍ زينتُه الخاصَّة به

لمّا كان لفظُ الزِّينة اسْمًا جامِعًا لِكُلِّ شَيۡءٍ يُتَزَيَّن بِهِ، وكان التَّزيين بمعنى تحسين الشَّيء في الظّاهرِ ليكونَ زينًا مقبولًا محبَّبًا مرغوبًا في الطَّبعِ والعقلِ عندَ الآخرين[1]، وكان الفعل على صيغة (فعَّل) المفيدة للتَّكثير؛ دلَّ التَّعبير بلفظِ ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾ على اجتهادِ إبليس في تحسين القبائحِ وتزويقِها لبني آدمَ بأيِّ شيءٍ يُتزيَّن بها، لأجلِ إغوائهم وإضلالِهم، فلكلِّ شيءٍ زينتُه الخاصَّةُ به، وأفادَت الصيغةُ تكثُّرَ التَّزيين منه وتكرارَه واستمرارَه، أي: لأزيِّنَنَّ لهم تزيينًا عظيمًا[2]، كثيرًا متكرِّرًا مستمرًّا.

---

(1) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (زين)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/535، والبقاعي، نظم الدرر: 11/59.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/58.

بلاغة حذف مفعول ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾:

حُذِفَ مفعولُ الفعل المتعدي ﴿لَأُزَيِّنَنَّ﴾؛ للإيذان بإثباتِ التَّزيين في نفسِه فعلًا لإبليس، وأنَّ من شأنِ التَّزيين الذي يقصد منه الإضلالُ أن يكون لإبليسَ، بمعنى: أنَّ التَّزيين للإغواء لا يكون إلّا منه، ويحتمل أن يكون حذف المفعول لإفادة العموم، أي: لأزيِّنَنَّ لهم كلَّ ما يكون في الأرضِ من الباطلِ قصدًا لإضلالِهم، والمعنى: لأزيّنَنَّ لهم المعاصي وأحسِّنها، وأحبِّبها لهم، ويحتمل أن يتناولَ التَّزيينُ كلَّ ما يشغلُ عن طاعةِ اللّه وعبادتِه، فيكون التَّزيين بِفِعْلِ المَعاصِي، وبِشَغْلِهِمْ بزينة الدنيا عن فعل الطاعة[1]، ولا مانع من إفادة كل هذه المعاني.

التَّزيين لأجلِ الإغواء والإضلالِ لا يكون إلّا من إبليسَ وأعوانِه

فائدة اللّام في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾:

اللّامُ على معنى الاختصاصِ، بمعنى: أنَّ تزيين إبليس الباطل لبني آدم مختصٌّ بهم، والمعنى: أنَّه متفرِّغٌ لتحسين الباطلِ لهم وتزويقِه حتَّى يحبِّبَه لهم.

تفرُّغُ إبليس لتحسين الباطل لبني آدمَ وتزيينِه لهم

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾:

الضَّمِيرُ عائِدٌ عَلَى غَيْرِ مَذْكُورٍ في الكلام، بَلْ يعود عَلَى ما يُفْهَمُ مِنه، وَهوَ ذُرِّيَّةُ آدَمَ؛ للإشعارِ بأنَّ ذرِّيَّة آدمَ في تفكيرِه، وأنَّه قد أضمرَ لهم الإغواءَ، فهو عازمٌ على إضلالِهم وجرِّهم إلى الكفرِ والباطلِ بعدَ ظهورِ تكبُّرِه وكفرِه[2].

إضمارُ إبليسَ الإغواءَ لبني آدمَ منذُ أن ظهرَ تكبُّرُه وكفرُه

دلالة الحال بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

لمّا كان الجار والمجرور في موضعِ الحال؛ أفادَ أنَّ تزيين إبليس لبني آدم مقيَّدٌ بوقتِ وجودِهم في الأرضِ وعيشِهم فيها، ويلزم منه أن يكون الكلامُ على الكناية بمعنى: لأزَيِّنَنَّ لهم في الدنيا، كما يأتي.

تزيين إبليس لبني آدم محصورٌ بوقتِ عيشِهم في الأرضِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/103، والواحدي، التفسير البسيط: 12/606، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/27، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/211.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/477.

سرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

تزيين إبليس لبني آدمَ يجعلهم يعملون في الأرضِ على أنَّها موضعُ الخلدِ والبقاء

ذُكِرَ الجار والمجرور ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ليشير اللَّعينُ إلى أنَّه قادرٌ على الاحتيال لآدمَ وتزيينِ الأكل له من الشجرة في السَّماء، وهو على التَّزيين لذرِّيَّته في الأرض أقدرُ، ويحتمل أن يكونَ ذكر ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كنايةً عن الدُّنيا؛ لأنَّ الأرضَ محلُّ متاعِ الدُّنيا ودارُها، ففي التَّعبير إشعارٌ بأنَّه يزيِّن لهم المقامَ في الأرضِ في أعينهم، ويوسوس لهم أنَّ الزِّينةَ في الأرضِ وحدها، كي يطمئنوا إليها، ويعملوا فيها على أنَّ مقامَ الخلدِ فيها، فكأنَّهم يخلدون إلى الأرضِ طمعًا في ما زيَّنه إبليس لهم، كما أنَّ في التَّعبير بحرف الجر ﴿فِي﴾ إشارةً إلى أنَّ الأرضَ مستقرُّ التزيين، وأنَّ تزيينه متمكِّنٌ في الأرضِ مثلَ تمكُّن المظروفِ في ظرفِه(1).

بلاغة المجاز في قولِه: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾:

حرصُ إبليسَ على المبالغةِ في غوايةِ بني آدمَ واجتهادُه فيها

لمّا كانت الغوايةُ لا تكون إلّا بإذن اللهِ تعالى؛ كان المعنى لأحملنَّهم على الغواية، فيكون الكلام على طريق المجاز العقلي بإسناد الغواية إلى سببها(2)، للإشعار بالمبالغة في حرصِ إبليس على غوايةِ بني آدمَ واجتهادِه فيها.

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾:

تزيين المعاصي والانغماسُ فيها طريقٌ إلى الغوايةِ

يعودُ الضَّمير على ما عادَ إليه الضَّمير في قولِه: ﴿لَهُمْ﴾، بما اتَّصف به من تزيين إبليس لهم، والمعنى: لأغوينَّ بني آدم الذين زيَّنتُ لهم الشَّهواتِ والمعاصي، ففيه تأكيدٌ على أنَّ التَّزيين سببٌ للإغواء.

مناسبة العطف في قولِه: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾:

أوَّل الضَّلالِ استحسانُ الباطلِ

ورد العطف في الجملتين على معنى: أنَّ حصولَ المعطوفِ عليه سببٌ لِوقوعِ المعطوف، أي: إنَّ الإغواء لا يكونُ، ولا يحصل حتَّى يكونَ

---

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/221، والبروسوي، روح البيان: 4/467، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/293.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 5/293، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/159.

التَّزيين، ليفيدَ أنَّ تزيين إبليسَ لبني آدمَ سببٌ لإغوائهم، فأوَّلُ الشَّرِّ استحسانُه، ثمَّ يأخذُهم إلى الضَّلال عن طريق ما يستحسنون، ويشتهون(1)، ففيه تحذير النّاس من خطرِ تزيين إبليس للقبائحِ وتحسينِه وجوهَ الباطلِ.

فائدة مجيء: ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

عزمُ إبليسَ على إغـواء جميع بـني آدمَ إلَّا من استثناهم من عبـادِ الله المخلَصين

لمّا كان لفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ تأكيدًا للضَّمير في ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾؛ دلَّ على أنَّ إبليسَ قصدَ الاستغراقَ في إغوائِه إلّا من استثناه، ويحتمل أن يكون التأكيد محمولًا على الضَّمير في ﴿لَهُمۡ﴾ أيضًا، فيكون قد قصد استغراق التَّزيين والإغواء لجميعِ بني آدمَ إلّا من استثناهم، وينبني عليه حكم الاستثناء، كما يأتي الكلامُ عندَ بحثِ دلالة الاستثناء في الآية.

بلاغة التَّعبير بالاستثناء في الآية:

مـن يـقـصـدُ الإضـلالَ يـرى الضالّين أكثر، ومـن يـريـدُ الـهـدايـةَ يـرى المهتدين أكثر

لمّا قال تعالى حكايةً عن إبليس: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾؛ جَعَل المُغوين هُمُ المستثنى منه، أي: هم الأصل، واستثنى منهم عباد الله المُخْلَصِينَ؛ لأنَّ عزيمتَهُ منصرِفةٌ إلى الإغواء، فهو الملحوظ ابتداء عنده، على أنَّ المُغوين هم الأكثر، وهم كذلك في الواقع، وعكسُهُ ما جاء في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، فإنَّه تعالى جعلَ عبادَه هم الأصلَ، وإن كانوا هم الأقل في الواقع(2).

دلالة الإخراج لِلمستثنى بيَن القلَّة والكثرة:

الـكـثـيرُ من بـنـي آدمَ يستجيب لإغواءِ الـشَّـيـطـانِ، وقـلـيـل منهم يـخـلـصُ لله تعالى

الأصلُ في الاستثناء أن يكون المستثنى فيه أقلَّ من المستثنى منه، ولكنَّه قد يكونُ أقلَّ أو أكثرَ(3)، فقد جاء استثناء عباد اللّه المخلصين ممَّن يغويهم إبليس، كما جاء استثناء من يتَّبع إبليس من عبادِه

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4087.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/29.

المؤمنين، فالاستثناء لا يُشْعِرُ بقلَّة المستثنى بِالنِّسبة لِلْمُسْتَثْنَى مِنْهُ وَلا الْعَكْسِ، ولكن لمّا أكَّدَ إغواءَ بني آدمَ بقولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾؛ كانَ استثناءً من عامٍّ مؤكَّد، والاستثناء من العامِّ المؤكَّدِ فيه دليلٌ على أنَّ الكثرةَ هي التي استجابت لإغوائِه، والقلَّةَ هي التي أخلصت للّٰه تعالى، ولمّا ذكرَ اللّٰه تعالى هَذا الكلامَ من غيرِ إنكارٍ على إبليسَ؛ دلَّ على صِدْقِهِ فيما قال(1).

فائدة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾:

عِبادُ اللّٰه المخلَصين لا يعملُ فيهم إغواءُ الشَّيطانِ

أفاد الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ إثباتَ الإغواء وحده، أو التَّزيين والإغواء معًا - على تنوُّعِ التَّوجيه في دلالة الاستثناء كما تقدَّم - لجميعِ بني آدمَ ونفيه وحده أو نفيهما معًا عن عباد اللّٰه المخلَصين حصرًا، بمعنى اختصاصِ عباد اللّٰه المخلَصين بأنَّ تزيينَ إبليسَ وإغواءَه لا يصيبُهم، والمعنى: إلّا عبادَك منهم المخلَصين، فلا يعمل فيهم تزييني ولا إغوائي.

دلالة الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾:

عنايةُ اللّٰه بعبادِه المخلَصين تمنعهم من الوقوعِ في الغيِّ مع احتمالِ تزيينِه

يحتمل أن يكون الاستثناء من مجموع المعطوف والمعطوف عليه، والمعنى: استثناء عباد اللّٰه المخلصين من تزيين الشيطان وإغوائه، أي: فلا يقدر على التَّزيين لهم ولا إغوائهم بسببِ عبادتِهم للّٰه وإخلاصِهم له سبحانَه في توحيدِه، كما يحتمل أن يكون ﴿إِلَّا عِبَادَكَ﴾ مستثنًى من المعطوف فقط، أي: من الإغواء لا من التزيين، فعباد اللّٰه المخلَصون يُزيِّنُ لهم، ولا يغويهم، ولا يعملُ فيهم كيدُه؛ لأنَّ التَّزيين: هو تحسينُ القبائحِ - كما تقدَّم - والإغواءَ: هو الحمل على الوقوع فيها، فالإغواء يستلزم الفعلَ والتَّزيين لا يستلزم، فعناية اللّٰه بهم تمنعهم من الوقوعِ في الغيِّ، وإن زَيَّنَ إبليسُ الغيَّ لهم(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/50، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4088.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/5، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

الإشارة بالاستثناء إلى تحقير الكذب:

الكذبُ في غاية الخساسةِ

الذي حمل إبليس على ذكر الاسْتِثْناءِ هو ألّا يَصِيرَ كاذِبًا في دَعْواهُ، فَلَمّا احترَزَ عَنِ الْكَذِبِ؛ دلَّ على أنَّ الْكَذِبَ في غايَةِ الْخَساسَةِ[1].

دلالة الإضافة في قولِه: ﴿عِبَادَكَ﴾:

تشريفُ عبادِ اللهِ المخلصين وتكريمُهم بإضافتِهم إلى اللهِ تعالى

الإضافة على معنى الاختصاص؛ لإفادةِ تشريفِهم باختصاصِهم بكونِهم عبادًا لَه سبحانه دونَ غيرِه، واختصاصِهم بكونِهم عبادًا له سبحانه دونَ غيرِهم، والمعنى: إلّا عبادكَ المشرَّفين المكرمين المعظمين بإضافتهم إليك[2].

بلاغة تقديم ﴿مِنۡهُمُ﴾ في الآية:

مَن أغواهم إبليسُ كانوا يستطيعون الإفلاتَ من غوايتِه؛ لو أخلصوا له تعالى

في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، تقدَّم ﴿مِنۡهُمُ﴾ على متعلَّقِه ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، والتَّقدير: إلّا عبادكَ المخلصين منهم، وأفاد تقديم الجارِّ والمجرور الذي هو في موضعِ الحال تخصيصَهم، أي: إنَّ لهم مزيةً على سائر من سعى إبليس إلى إغوائهم، كما أشعر التَّقديم أنَّ العباد المخلصين هم من نفسِ طينةٍ من أغواهم، وأنَّ لهم نفسَ صفاتِ بني آدم، لدلالةِ (مِنْ) في ﴿مِنۡهُمُ﴾ على التَّبعيض من الضَّمير في ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ﴾، فيفيد أنَّ مَن أغواهم إنَّما كان لتفريطٍ منهم، بقبولِهم التَّزيين وحبِّهم له، وأنَّهم كانوا يستطيعون الإفلاتَ من غوايتِه؛ لو عبدوا اللّٰه تعالى، وأخلصوا له.

سبب ذكرِ البدلِ في قولِه: ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾:

عبادُ اللهِ المختصِّين به تعالى لا يكونونَ إلّا مخلَصينَ

لمّا كان قولُه: ﴿عِبَادَكَ﴾ يفيد أنَّهم لا يميلون عن اللّٰه تعالى إلى شيء سواه؛ لِدلالة الإضافة على معنى الاختصاص، وكان معنى المُخلَصين: أنَّ اللّٰه تعالى أخلصهم لعبادتِه؛ جاء ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بدلًا من ﴿عِبَادَكَ﴾؛ ليكون البدل على معنى الإيضاح والبيانِ للمبدلِ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/144.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/59.

منه ﴿عِبَادَكَ﴾، وللاهتمام بالبدلِ، فإنَّ وصف المخلَصين لا يقال إلا بعد أن يكون للّه فيهم صنعٌ، ولهم به اختصاصُ تشريفٍ وفضائلُ اختصَّهم بذلك؛ برحمة اللّه وفضله، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ عبادَ اللّه لا يكونونَ إلّا مخلَصينَ، أي: من شأنِهم أن يكونوا كذلك(1).

نكتة التَّعبير بلفظِ ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

لا يُغْوِي الشَّيطانُ عبادَ اللّه؛ لأنَّ اللّه طهَّرهم، ولأنَّهم أخلصوا له تعالى

كان الظّاهر أن يقال: إلّا عبادَك منهم من لا أغويه؛ لأنَّ الكلام في الإغواء وإخراجِ من لا يغويه من المستثنى منه، فلمّا ذكر ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ أفادَ نفي إغوائه وكيدِه بطريق الدَّليل، والمعنى: لا أُغويهم، ولا أقدر على إغوائهم؛ لأنَّ اللّه أخلصَهم، وطهَّرهم، أو: لا يعمل فيهم كيدي؛ بسبب إخلاصِهم للّه، فكان ذكرُ الشَّيء بدليلِه أبلغَ من التَّصريح(2).

توجيه القراءات القرآنية في ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾:

تنوُّع المعنى بتنوُّع القراءةِ القرآنية

وَقرأ نافع وَعاصِم وَحَمْزَة والكسائي وأبو جعفر وخلف ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بِفَتْحِ اللّام في كُلِّ الْقُرْآنِ، وقَرَأ ابْنُ كَثِيرٍ وأبو عمرو وابنُ عامرٍ ويعقوب بِكَسْرِ اللّام فيه، فوَجْهُ الْقِراءَةِ بصيغة المبني للفاعلِ أنَّهُمُ الَّذِينَ أَخْلَصوا دِينَهُمْ وَعِبادَتَهُمْ والإيمانَ باللّه وبرُسُله، وابتعدوا عَنِ الرّياء وعن كُلِّ شائِبٍ يُناقِضُ الْإيمانَ والتَّوْحِيدَ، ووجه القراءة بصيغة المبني للمفعول: أنَّهم الَّذِينَ أَخْلَصَهُمُ اللّه بِالْهِدايَةِ والْإيمانِ، والتَّوْفِيقِ والْعِصْمَةِ من الأسواء والفواحش، وَهَذِهِ الْقِراءَةُ تَدُلُّ عَلَى أنَّ الْإِخْلاصَ والْإيمانَ لَيْسَ إلّا مِنَ اللّه تَعالَى(3)، وأن إخلاص العبد دينه للّه تعالى، وبُعده عن كلِّ ما ينافي ذلك سببٌ في اجتباء اللّه له وهدايته وتوفيقه وعصمته إياه.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/442.

(2) الشهاب، عناية القاضي: 5/517.

(3) الأزهري، معاني القراءات: 2/46، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، والواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/144، وابن الجزري، النشر: 2/295.

﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التَّنبيهُ على فائدة المحاورة لمعرفة أغراضِ إبليس وبيانِ ما أعدَّ الله لعبادِه المخلصين

لّما قال إبليس مقولتَه؛ كان كأنَّه قيل: فبماذا أجيبَ؟ فقيل: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾[1]؛ استدراراً لإصغاء المخاطَبين، وتنبيهاً على فائدة هذه المحاورة من معرفةِ أغراضِ إبليس وبيانِ ما أعدَّ الله لعبادِه المخلصين الذين لا يسلكون طريق الغواية.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿صِرَٰطٌ﴾: أصلُ الصراطِ: الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقيمُ، الذي يمُرُّ فيه الشيء بيسر وسهولة، وسُمِّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بسُرعَةٍ لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتُ الشَّيْءَ: إذا ابتلعْتَه؛ لأنَّه - أي: الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم[2]. والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّرِيقُ البَيِّنُ، مُسْتَعارٌ لِلْعَمَلِ الَّذي يَقْصِدُ مِنْهُ عامِلُهُ فائِدَةً[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الله ﷻ هو الحقُّ، وصِراطُه حقٌّ، ودينُه حقٌّ

قال الله تعالى: طريقُ الحَقِّ والهُدى والإخلاصِ طريقٌ مُعتَدِلٌ، لا اعوِجاجَ فيه، يدُلُّ عليَّ، ويوصِلُ إليَّ، وإلى جنَّتي، أو المعنى: هذا طريقٌ، حقٌّ عَلَيَّ أن أراعيَه، وهو ألّا يكونَ لك سلطانٌ على عبادي، إلّا مَنِ اختارَ اتِّباعَك منهم لِغَوايتِه[4].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/60.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط، صرط)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سرط).

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.

(4) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، 607، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ﴾:

عهدُ اللهِ ثابتٌ لا تغيِّرُه الأحوالُ والأزمنةُ والأمكنةُ

يؤتى بمثل هذا الخبرِ للتَّمثيلِ بالتعهُّد لأمرٍ ما، بأنَّ صاحبَه يتوكَّل به، وهو قادرٌ عليه؛ لقوَّة سلطانِه وعِظَم شأنِه، وأنَّ التعهُّد به ثابتٌ، لا تغيِّرُه الأحوالُ ولا الأزمنةُ ولا الأمكنةُ؛ ليكون حرف الجرِّ (عَلَى) على معنى الوجوبِ المجازيِّ؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى لا يتخلَّفُ عن الإيفاء به، ولا يحيدُ عنه، وتقدير التَّمثيل: هذا طريق في ثبوتِه وعدم تخلُّفِه بمقتضى وعدي مثل حق واجب عَلَيَّ أن أراعيه، وهو ألّا يكون لك سلطان على عبادي، إلّا من اختار اتِّباعك منهم لغوايته، وفائدة مجيء الخبر على طريق الاستعارة التَّمثيليَّة المبالغة في إثباتِ أنَّ عباده ﷻ ليس لإبليس عليهم سلطانٌ في التَّأثيرِ عليهم[1].

مرجع اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

الإخلاصُ طريقٌ مستقيمٌ

على ما تقدَّم في تنوُّع التَّوجيه فالْإِشارَةُ تعودُ إِلَى ما يُؤْخَذُ مِنَ الْجُمْلَةِ الْواقِعَةِ بَعْدَ اسْمِ الْإِشارَةِ الْمُبَيِّنَةِ لِلْإِخْبارِ عَنِ اسْمِ الْإِشارَةِ، وَهِيَ جُمْلَةُ ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، ويحتمل أن تعود الإشارةُ إلى مضمونِ الاستثناء، وهو تخليص المخلصين من تأثير إغوائه، وهو على قراءة ﴿ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ بفتح اللّام، أو إلى الإخلاصِ على قراءة ﴿ٱلۡمُخۡلِصِينَ﴾ بكسر اللّام، على معنى: أنَّه طريقٌ يؤدي إلى الوصول إليَّ من غير اعوجاج ولا ضلالٍ[2]، ويحتمل أن يكون الخبرُ على معنى التَّهديد والوعيد لإبليسَ ومن يتبعه، ويكون ﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى (إليَّ)، كالرَّجلِ يَقول لغيره: طريقك عَليَّ، ومسيرك إلَيَّ، أي: لا تفلتُ مني، والمعنى: هذا صراط إليَّ مرجعُه، فأجازي كلًّا بأعمالِهم، وإيثارُ حرفِ الاستعلاءِ على أداة الانتهاءِ (إلى) لتأكيد

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/160، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/52.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

المرجعِ إليه تعالى، وتحقُّق الوعدِ، بمعنى ثبوته وتمكُّنه، كتمكُّن الاستعلاء، فهو على وجهٍ تمثيليٍّ من غير أن يكون هناك استعلاءٌ لشيءٍ عليه ﷻ، فيكون حرف الاستعلاء على طريق المجاز، لبيان المعنى بطريق الدَّعوى والدَّليل[1].

سرُّ التَّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

تنزيل غيرِ المشاهدِ منزلةَ المشاهد لوضوحِه وبيانِه

عُبِّرَ بـ﴿هَٰذَا﴾ الذي أُشيرَ به إِلَى غَيْرِ مُشاهَدٍ تَنْزِيلًا لَهُ مَنْزِلَةَ الْمُشاهَدِ، وَتَنْزِيلًا لِلْمَسْموعِ مَنْزِلَةَ الْمَرْئِيِّ، ولمّا كان ما يعودُ إليه اسم الإشارة في الظّاهر، هو جملة: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ التي جاءت في اللفظ بعدَه؛ أفادَ الكلامُ قَصْدَ التَّشْويقِ إِلَى سَماعِ ما يعود إليه اسم الإشارة عِنْدَ ذِكْرِه، فاسْمُ الْإِشارَةِ هُنا بِمَنْزِلَةِ ضَميرِ الشَّأْنِ في عودِه على ما بعدَه[2]، لتعظيم شأنِ المذكورِ بعدَه، وللتَّنبيه على أهميَّة الإصغاء إليه، والعملِ بما يقتضيه، وإن عاد اسم الإشارة إلى مضمونِ جملة الاستثناء أو إلى الإخلاص المفهوم من الاستثناء، فيكون عائدًا إلى غيرِ مرئيٍّ كذلك لتنزيلِه منزلة المرئي لوضوحِه وبيانِه.

نكتة التعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾:

سهولةُ تحصيل الإخلاص لله تعالى إذا صدقت النِّيَّةُ

عُبِّرَ بصيغة اسم الإشارة للقريب لوضوحِ طريق استقامة عباد اللّه المخلَصين ووضوحِ الإخلاصِ، وللإشعارِ بقربِ تناولِهما وتحصيلِهما.

بلاغة الاستعارة في كلمة ﴿صِرَٰطٌ﴾:

الحثُّ على التزامِ الصراط المستقيم الموصل إلى رضا الله ومحبَّتِه

شُبِّهت سنَّة اللّه التي وضعها للنّاس، وهي: أنَّ عباده ليس لإبليس عليهم سلطانٌ، وأنَّه لا يغوي إلّا من اتَّبعَه، أو هي: أنَّ إبليس لا يستطعُ إغواءَ من أخلصَهم اللّه تعالى له، أو هي: أنَّه لا يستطيع التأثيرَ على من يخلصُ للّه تعالى بالطريق المستقيم، بمعنى دوام الحالةِ

---

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/606، والسمعاني، تفسير السمعاني: 3/140، وابن جرير، جامع البيان: 17/103، والبغوي، معالم التنزيل: 3/58، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والشهاب، عناية القاضي: 5/518.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.

وثباتِها، فحُذِفَ المُشَبَّه، وأقيم المشبَّه به مقامَه على طريق الاستعارة التَّصريحيَّة، والقصدُ الحثُّ على التزامِ هذا الصراط الموصلِ إلى رضا اللّه ومحبَّتِه[1].

فائدة مجيء الصِّفة في قولِه: ﴿مُسۡتَقِيمٞ﴾:

من ينحرفْ عن الصِّراط المستقيم؛ يتسلَّطُ عليه إبليسُ لإغوائِه

لمّا كان لفظُ ﴿مُسۡتَقِيمٞ﴾ نعتًا للصِّراطِ، وكان معنى الصِّراط هو الطَّريق المستقيم[2]؛ أفادت الصِّفةُ التي جاءت تقييدًا للموصوف النِّكرة تقريرَ استقامة صراطِ اللّه تعالى من غيرِ اعوجاج ولا ضَلالٍ، وملازمةَ الصِّراطِ لكمالِ الاستقامةِ، والإيذانَ بأنَّه لا يمكن العُدول عنه إلى غيرِه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ من ينحرفُ عنه يتسلَّط إبليس على إغوائه[3].

توجيه القراءات القرآنية في ﴿عَلَيَّ﴾:

صراطُ الله عَلِيٌّ رفيعُ القدرِ مستقيمٌ لا انحراف فيه

قَرَأ جمهورُ القرّاءِ ﴿عَلَيَّ﴾ بِفَتْحِ اللّامِ وَفَتْحِ الْياءِ، عَلَى أنَّها (عَلَى) اتَّصَلَتْ بِها ياءُ الْمُتَكَلِّم، وَقَرَأ يَعْقوبُ وحدَه ﴿عَلِيٌّ﴾، بكسرِ اللّامِ وضمِّ الياءِ والتَّنوينِ، عَلَى أَنَّهُ وَصفٌ مِنَ الْعُلُوِّ وُصِفَ بِهِ ﴿صِرَٰطٌ﴾، فيكون للصّراط وصفان: أحدهما: كونه عليًّا رفيعَ القدْرِ، والآخر: كونه مستقيمًا لا انحراف فيه ولا اعوجاج، وتقدَّم بيان معنى ﴿عَلَيَّ﴾ على القراءة المشهورة[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.

(2) الراغب، المفردات: (صرط).

(3) أبو حفص النّسفي، التيسير في التفسير: 9/194، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/161.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 17/104، والأزهري، معاني القراءات: 2/69، وابن الجزري، النشر: 2/301.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

منتهى تزيين الشَّيطانِ التَّحريضُ، فمنِ اتَّبعَ الشَّيطانَ؛ فإنَّما يتَّبعُه باختيارِه

لَمّا قالَ إبليسُ: ﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾؛ جاءت هذه الآيةُ تصديقًا لمضمونِ استثناءِ إبليسَ، أو تكذيبًا له في زعمِه أنَّ له القدرةَ على إغواء عباد الله المخلصين، فإنَّه لمّا أوْهَمَ كلامُ إبليسَ أنَّ لَهُ سُلْطانًا عَلَى عِبادِ اللهِ الَّذِينَ يَكونونَ مِنَ الْمُخْلَصِينَ؛ بَيَّنَ تَعالَى في هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبادِ اللهِ سَواءٌ كانوا مُخْلِصِينَ أم لَمْ يَكونوا مُخْلِصِينَ، بَلْ مَنِ اتَّبَعَ مِنْهُمْ إبْلِيسَ باخْتِيارِهِ؛ صارَ مُتَّبِعًا لَهُ، وَلَكِنَّ حُصولَ تِلْكَ الْمُتابَعَةِ أَيْضًا لَيْسَ لِأَجْلِ أَنَّ إبْلِيسَ يَقْهَرُهُ عَلَى تِلْكَ الْمُتابَعَةِ أَوْ يُجْبِرُهُ عَلَيْها، فإنَّ منتهى تزيينه التَّحريضُ والتَّدليسُ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: 22][1].

وأيضًا لَمّا كان اسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ يعود إلى المفهوم من قولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾؛ جاءت هذه الآية على معنى البيان لِلمرادِ من اسم الإشارة، أو يقال: لَمّا جاء الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، وعاد اسم الإشارة إلى مضمونِه - كما تقدَّم في تنوُّع توجيه مرجعِ اسم الإشارة - جاءت هذه الآية على معنى البيانِ والتقريرِ لمفهوم تخليص الله تعالى عبادَه من تأثير إغواء إبليس.

وأيضًا لَمّا أخبر الله تعالى في سياق حكايةِ قولِ إبليس أنَّه لا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/145، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216.

يستطيع إغواء العباد الذين أخلصَهم اللّٰه للخيرِ وللطّاعةِ؛ جاءت هذه الآيةُ لإفادةِ نفي سلطانِه عليهم، وأنَّه إنَّما استثنى عباده من إغوائه؛ لأنَّه ليس له سلطانٌ عليهم[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾: أصلُ (غوي): يَدُلُّ على خِلافِ الرُّشْدِ وإظْلامِ الأمْرِ[2]. والغواية الانجذاب إلى شيء فاسد[3]. والغَواية: الضَّلال واتِّباع الهوى والانهماك في الباطل، ورجلٌ غاوٍ وغوٍ وغَوِيٌّ وغيّان: ضالٌّ، وأغْواه هوَ، وغوى غيًّا: انهمك في الجَهل. وخلافُهُ: الرُّشد[4]. والغَيُّ: جهْلٌ من اعتقاد فاسد[5]. والمقصود بالإغواءِ في الآية: الـمُتَّصِفُ بالغَيِّ، والغَوايةُ، وهي الضَّلالةُ الشَّديدةُ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيان طبيعة البشَر وطبيعة الشَّيطان واستعدادهما واختيارهما في أعمالهما

قال اللّٰهُ لإبليسَ: إنَّ عبادي المؤمنينَ الموحِّدينَ الَّذين هديتُهم، ليس لكَ عليهم حُجَّةٌ وتسَلُّطٌ على قلوبِهم، لكنْ مَن اتَّبَعَك من النّاسِ فرَضِيَ بولايتك وطاعتِك، ومالَ إلى ما تدعو إليه من الضَّلالاتِ؛ فلك عليه تسَلُّطٌ[6].

وفي الآية دَلالةٌ على أنَّ كلَّ مَن لم يعبدِ اللّٰهَ وحدَه، فلا بُدَّ أن يكونَ عابدًا لغَيرِه، فيكون مُشرِكًا، وليس في بني آدمَ قِسمٌ ثالثٌ، بل إمّا موَحِّدٌ، وإمّا مُشرِكٌ، أو مَن خَلطَ هذا بهذا، كالمُبَدِّلينَ من أهلِ المِلَلِ: النَّصارى، ومَن أشبَهَهم مِن الضُّلّالِ المنتسبينَ إلى الإسلامِ[7].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/51.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غوي).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (غوي).
(4) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (غوي).
(5) الراغب، المفردات: (غوي).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/71، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/28، 29.
(7) ابن تيمية، مجموع الفتاوى: 14/282.

وإنَّ مَن لم يحقِّقْ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ وطاعتَه، فإنَّه يَعبُدُ الشَّيطانَ بطاعتِه له، ولم يَخلُصْ مِن عبادةِ الشَّيطانِ إلّا من أخلصَ عُبوديَّةَ الرَّحمنِ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التعبير في قولِه: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾:

عبوديَّة المحبَّة واتِّباع الأوامر هي عبوديَّة التَّشريفِ والتَّكريم

تحتمل هذه الجملة الخبريَّة - في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ - أن تكونَ بيانًا لاسم الإشارة في قولِه تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ - كما تقدَّم - ففيها معنى التقريرِ لإبليسَ فيما استثناه، ولهذا اختير طريقُ الفصلِ لما فيها من معنى التأكيدِ[1]، كما تحتمل أن تكونَ استئنافًا بيانيًّا، فإنَّه لمّا عاد اسمُ الإشارة إلى مضمونِ الاستثناء في قولِه: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾، فكأنَّ سائلًا سأل: جعلَ اللّه سنَّتَه ثابتةً في تخليصِ عبادِه من إبليس، فهل لإبليس أيُّ سلطانٍ على عباد اللّه المخلصين؟ فأجيب بطريق الخطابِ لإبليسَ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، للإيذانِ بتشريف عبوديَّة المحبَّة والطّاعة وتكريمها.

بلاغة تغيير الوضعِ في الإخبار:

تشريفُ عباد اللهِ المخلَصين وتعظيمُ قدرِهم عندَ الله

لمّا أقسم إبليسُ أنَّه سيجتهد في إغواء بني آدمَ؛ استثنى عبادَ اللّه المخلصين، فكان المستثنى منه هم الذين يغويهم، والمستثنى هم عبادُ اللّه، فغُيِّرَ ترتيب تأليف الكلامِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾؛ ليكون بالعكس، لتعظيمِ قدرِ عباده عندَه وتشريفِهم؛ إذ جعلَهم هم الأصل لكونِهم متبوعين محكومًا عليهم بانتفاء سلطانِه عليهم، ولأنَّ المقصود بيان عصمتهم وانقطاع كيدِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي11/161.

الشيطان عنهم، بخلافِ ما جاء في حكايةِ قولِ إبليسَ واستثنائه، فإنَّ المقصود فيه بيان فعله بالتَّزيين والإغواء[1].

فائدة ذِكرِ ﴿إِنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى﴾:

انتفاء إغواء إبليس ليسَ بسببِ استثنائِه، وإنَّما لأنَّ الله أرادَه وقدَّرَه

تفيد ﴿إِنَّ﴾ تأكيدَ مضمونِ الخبر وتقريرَه، فإنَّ إبليسَ اللَّعينَ لمّا استثنى عبادَ الله تعالى من إغوائِه؛ جاء التَّأكيدُ ليؤذنَ أنَّ انتفاء إغوائِه لعبادِ الله تعالى المخلصين ليس بسببِ استثنائِه، وإنَّما لأنَّ الله تعالى أرادَ هذا، وقدَّرَه، وقرَّرَه.

دلالة لفظ ﴿عِبَادِى﴾:

العبوديَّة تحتمل العبوديَّة الخاصَّة وتحتمل العبوديَّة العامَّة

يحتمل أن يكونَ المرادُ من ﴿عِبَادِى﴾ المؤمنين خاصَّةً، ويكون المرادُ منهم عبادَه الطائعين المحِبّين، ويحتمل الاستثناء الاتِّصال والانقطاع - كما سيأتي في دلالة الاستثناء - ويؤيِّده أنَّ الآية تحقيقٌ لمضمونِ الاستثناء في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2]، ويحتمل أن يكون اللفظ واقعًا على جميع العبادِ مؤمنهم وكافرهم، ليكونَ المرادُ عبوديَّة أهلِ السمواتِ والأرضِ، فيكون المستثنى هو الكافر، والمعنى: إنَّ تسليطَه لا يكونُ إلّا على من اتَّبعه من الغاوين، ويؤيِّده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ [سبأ: 21] أي: ما كان تسليطنا إياه إلا لنعلم المؤمنين من الشاكِّين، أي: إلّا لنعلم إيمانَ المؤمن ظاهرًا، وكفْرَ الكافر ظاهرًا[3].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿عِبَادِى﴾:

الخلق كلُّهم عبيد ربوبيَّة الله، وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيَّة

كان الظّاهر أن يقال: (إنَّ المخلصين لي ليس لكَ عليهم سلطان)، لأنَّ المستثنى ﴿عِبَادَكَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والشهاب، عناية القاضي: 5/514، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/161.

(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/140.

(3) أبو أحمد القصاب، النكت الدالة: 2/177، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/493.

﴿مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ هو باعتبار قيد الصِّفةِ، فهي ملحوظةٌ في قَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي﴾، لكن عُدِل إلى ﴿عِبَادِي﴾ بطريق الإضافة، لما في الإضافة من معنى الاختصاص والتشريف والتكريم، وللإشعارِ بعبوديَّتهم للّه في طاعتِه واتِّباع أوامره.

فائدة الإضافة في قولِه: ﴿عِبَادِي﴾:

عبادُ اللّه المقرَّبون لا يتسلَّط عليهم إبليسُ، ولا تقوم له عليهم حجَّةٌ

لمّا أضاف اللّه تعالى عبادَه المخلصين إلى نفسِه؛ كانت الإضافةُ على معنى اللّام التي للاختصاصِ؛ لتفيدَ الإضافةُ تشريفَهم وتكريمهم وتعظيمهم وبيانَ عصمتِهم وحفظِهم، وانقطاعَ مخالب الشيطان عنهم، فعباد اللّه لا يتسلط عليهم إبليسُ، ولا تقوم له عليهم حجة[1].

فائدة النَّفي بـ﴿لَيۡسَ﴾:

إفادة استمرار نفي سلطان إبليس عليهم

لما كان ﴿لَيۡسَ﴾ فعلًا جامدًا يبقى على حالة واحدة؛ ناسب أن يستعمل في الحالة الباقية الدائمة التي لا تتغيَّر، والسُّنَّة الثابتة التي لا تتبدَّل مثل ﴿لَيۡسَ﴾، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، وهي تُفيد استمرارَ نفي تسلُّط إبليس على عباد اللّه المخلصين.

فائدة تقديم ﴿لَكَ﴾:

تأكيد نفي تسلُّط إبليس على عباد اللّه المخلصين، وقصر ذلك عليهم

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، قدِّمَ الجار والمجرور ﴿لَكَ﴾ المتعلِّق بـ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ ليفيدَ التَّأكيدَ، بمعنى تأكيدِ نفي أن يكون لإبليسَ سلطانٌ على عبادِ اللّه، ولِيَدُلَّ على قصر ذلك عليهم، أي: الذين ليس لك سلطان عليهم هم عبادي وحدهم، لا غيرهم.

فائدة تقديم ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، أفادَ تقديمُ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/478، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/202، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/161.

عباد الله مختصّون من بين سائر الناس بعدم تسلُّط إبليس عليهم

على ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ التَّخصيصَ، والمعنى: تخصيصُ نفي أن يكون لإبليس أيُّ سلطانٍ على عبادِ اللّه، مع تأكيدِ هذا التَّخصيصِ، أي: هم مختصّون من بين سائر الناس بذلك الحكم.

نكتة التعبير بلفظ ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾:

ليس للشَّيطانِ حجَّةٌ على عبادِ الله، وليس له قوة القهر على اتِّباعِهم له

لمّا كانَ لفظ ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ بمعنى الحجَّة المتسلِّطة والبرهان القوي؛ أفادَ التَّعبير به أنَّ إبليس ليس له حجَّةٌ متسلِّطةٌ ولا برهانٌ قويٌّ في إغوائهم ودعائِهم إلى الشِّرك والضَّلال، فليس له إلّا التَّزيين، فلا يستطيع إغواءَهم ولا التأثيرَ فيهم إلا بالتزيين، ليفيدَ التَّعبير أنَّ عباد اللّه المؤمنين إنَّما يتَّبعون أمرَ اللّه بحججه وبراهينِه؛ فلا يتَّبعون الشيطان بأمانيِّه التي يمنيِّهم، وشبهاته التي يُلبِس بها عليهم، ويحتمل أن يكون السلطان بمعنى القدرة والقهر والإلجاء، أي: ليس له قدرة القهر بأن يحملهم على العصيان، ويضطرَّهم لفعلِه[1]، ولا مانعَ من حمل اللفظ على المعنيين، بل هو أولى لتكثير المعنى.

سبب إيثار مجيء ﴿سُلۡطَٰنٌ﴾ نكرةً:

لا يلقي الشَّيطانُ عبادَ الله في ذنبٍ إلّا وتزيلُه التَّوبةُ وتمحوه الأوبةُ

لمّا كانت النَّكرة في سياق النَّفي تفيد العمومَ، وكان لفظ السُّلطان يأتي بمعنى الحجَّة والبرهانِ، وبمعنى القدرةِ والقهرِ؛ أفادَ التَّعبير نفيَ أيِّ سلطانٍ لإبليس على عبادِ اللّه، فدلَّ الكلامُ على نفي أيِّ حجَّةٍ أو قدرةٍ عليهم، ويدخل في النَّفي قدرته على إغوائِهم أو التأثيرِ فيهم دخولًا أوَّليًّا، أي: لمّا أوهمَ إبليسُ أنَّ لَهُ عَلَى بَعْضِ عِبادِ اللّه سُلْطانًا حينَ قال: ﴿وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؛ بَيَّنَ اللّه تَعالَى كَذِبَهُ فِيهِ، وَذَكَرَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ سُلْطانٌ وَلا قُدْرَةٌ أَصْلًا، أي: لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى قُلوبِهِمْ، وَلا مَوْضِعِ

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/608، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/443، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/362.

إيمانِهِمْ، وَلا يلقيهم في ذنب يؤول إلَى عَدَمِ القَبولِ، بَلْ تُزِيلُهُ التَّوْبَةُ، وَتَمْحوهُ الأَوْبَةُ(1).

بلاغة مجيء الخبرِ جملةً اسميَّةً:

ثبوتُ انتفاء أن يكون لإبليس سلطانٌ على عبادِ الله

لَمّا جاءَ الخبرُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ جملةً اسميَّةً؛ أفادَ الخبرُ تقوّي الحكم وثبوتَه، ولو قال: (ليس لك على عبادي سلطانٌ)؛ لَمَا كانَ الإخبارُ بقوَّةِ مجيء المبتدأ أوَّلًا، ثمَّ الإخبارِ عنه بالجملة الاسميَّة المنفيَّة ثانيًا، لِما فيه من معنى الحصرِ الذي قوّاه وجودُ الحصرِ في جملة الخبر كما تقدَّم.

فائدة التقديم في قولِه: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾:

تأكيد نفي عموم تسلط إبليس على عباد الله المخلصين وحدهم

اجتمعت في هذه الجملة أدلة كثيرة على إفادة العموم، وهي: الجمع المضاف إلى ضمير يعود إلى الله تعالى ﴿عِبَادِى﴾، والنكرة في سياق النفي: ﴿سُلْطَٰنٌ﴾، وتقديم الجار والمجرور المتعلق بالخبر المحذوف والدال عليه، وتقديم الجار والمجرور المتعلِّق بـ﴿سُلْطَٰنٌ﴾، وهذا التقديم يفيد الحصر مع إفادته العموم، واحتمال أن يكون كلٌّ من الجار والمجرور في ﴿لَكَ﴾ و﴿عَلَيْهِمْ﴾ هو المتعلّق بالخبر المحذوف، وأن يكون هو المتعلِّق بالمبتدأ ﴿سُلْطَٰنٌ﴾، أي: ليس عليهم سلطان كائن لك، أو: ليس لك سلطان كائن عليهم، وبذلك تدل العبارة الوجيزة على المعاني الكثيرة، ويتأكد عموم نفي تسلط الشيطان دون غيره ﴿لَكَ﴾ وحدك، ونفي تسلطه على عباد الله دون غيرهم، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ وحدهم، ونفي سائر أنواع التسلط بكافَّة أشكالها وألوانها: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾، مع الإشارة إلى تَسَفُّلِ الشيطان وحقارته، بما يدلُّ عليه نفي العلو الدال عليه كلمة ﴿عَلَيْهِمْ﴾، مع النفي بكلمة ﴿لَيْسَ﴾.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/145، والقرطبي، الجامع لأحكامِ القرآن: 10/29.

دلالة الاستثناء في قولِه: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾:

تنوُّع دلالة الاستثناء مع صحَّة المعنى واستقامتِه

يحتمل أن يكون الاستثناء منقطعًا، وتكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (لكن) ليفيد أنَّ المقصودَ بمن يتَّبع إبليس من الغاوين هم الكفّارُ خاصَّةً، أي: إنَّ مَنِ اتَّبَعَهُ لَمْ يَنْدَرِجْ في قَوْلِه: ﴿عِبَادِي﴾، لقَوْلِه تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ٦٥﴾ [الإسراء: 65]، وَلَوْ كانَ مُتَّصِلًا؛ لاسْتَثْناهُمْ، فَلَمّا لَمْ يَسْتَثْنِهِمْ؛ دَلَّ عَلَى أنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلوا، فيكون منتهى تزيينه لعبادِ اللّه المخلصين التحريضُ والتَّدليسُ، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: 22]، وفائدة سَوْق الكلامِ بصورة الاستثناء - مع أنَّه على معنى الانقطاع - الترغيب في رتبة التشرُّف بالإضافة إليه والرجوع عن اتِّباع العدو إبليسَ إلى الإقبال عليه، ويحتمل أن يكون الاستثناء متَّصلًا؛ ليفيدَ أنَّ قليلًا من المؤمنين يتَّبع إبليس، وإذا كان المرادُ من لفظ ﴿عِبَادِي﴾ جميعَ العبادِ يكون الاستثناء حقيقيًّا متَّصلًا، ويكون المرادُ نفيَ سلطانِه عن جميع العبادِ باستثناء من اتَّبعه من الغاوين، أي: فالمراد من المستثنى الكافرُ خاصَّةً - كما تقدَّم[1] - ويحتمل أن يكون الاستثناء حقيقيًّا متَّصلًا أيضًا، ويكون اتباع بعض عباد اللّه المخلصين للشيطان في المعاصي التي هي دون الكفر أحيانًا، وليس دائمًا، فلا يخرجون بذلك عن كونهم عباده سبحانه، فهم يوصفون بالغواية وقت المعصية فقط.

دلالة الاسم الموصول في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾:

من يتَّبع الشَّيطانَ ذليلٌ صاغرٌ

عَبَّرَ بالاسم الموصول المشترك الذي أراد به المفردَ، بدلالة عودِ الضَّمير عليه مفردًا في ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ لِيُشْعِرَ بذلَّة من يتَّبع إبليس في كونِه منفردًا ذليلًا ليس له ناصرٌ، على عكس التَّعبير في قولِه: ﴿عِبَادِي﴾ المفيد معنى الاجتماعِ على عبادة اللّه والإخلاصِ للّه.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/478، والبقاعي، نظم الدرر: 11/60، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/53.

فائدةُ التَّعبير بصيغة الماضي ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾:

لمّا كان المرادُ أنَّ من يتَّبع إبليس، يتسلَّط عليه؛ كان التَّعبير بصيغة الماضي المفيد تحقُّقَ الوقوع مؤذِنًا بأنَّ من يتعمَّد اتِّباعَه ويرغب فيه يتسلَّط عليه الشيطان، فيتَّبعه لا محالةَ[1].

مَنْ يتعمَّدُ اتِّباعَ الشَّيطانِ، ويرغب فيه؛ يتسلَّط عليه الشيطان لا محالةَ

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾:

عَبَّرَ بلفظ ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ لِما يفيدُه من معنى اقتفاء أثرِ إبليسَ واللُّحوق به بحيث يتلوه، ويقفوه في إغوائِه والائتمارِ بأوامرِه، ليكونَ موافقًا له، وكأنَّه ناصرٌ له، فيفيدُ اللَّفظُ أنَّ إبليسَ قد سبقَهم إلى الغوايةِ، وأنَّ من يتَّبعُه؛ يقتفي أثرَه فيها[2].

اتِّباعُ إبليس باقتفاء أثره في المعصيةِ والغوايةِ

بلاغة الموصول وصلتِه في قولِه: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾:

عُبِّرَ بالاسم الموصول وصلتِه، لبيان أنَّ إغواءَ إبليسَ للغاوين ليس بسببِ السلطان بمعنى القهر والجبر، بل بسببِ اتِّباعهم له بسوء اختيارهم، فيتسلط عليهم بالوسوسة والتزيين، فأعلمَ أنَّ من اتَّبعه فإنَّما هو مسلَّط عليه بهذا الفهم[3].

اتِّباعُ إبليس باختيار الغاوين، وليس له قوَّة القهر عليهم لاتِّباعِه

فائدة ﴿مِنَ﴾ في قولِه: ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِنَ﴾ لِبَيانِ الجِنْسِ، أي: من جنسِ الغاوين، ففيه مبالغة في الذمِّ[4].

المبالغةُ في ذمِّ المنحرفين عن الصِّراطِ المستقيم

دلالة قولِه: ﴿مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾:

لمّا جاء الجار والمجرور في موضعِ نصبٍ على الحال من الضَّمير المستتر في ﴿ٱتَّبَعَكَ﴾؛ دلَّ على اقترانِ الغواية به في حالِ اتِّباعِه إبليس، ليشعرَ بأنَّ من يتَّبعُه مناسبٌ له ومتناغم معه في الغواية والبُعدِ[5].

مناسبةُ الغاوين لإبليسَ في الغوايةِ والبعدِ عن الله تعالى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/60.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزمخشري، أساس البلاغة: (تبع).
(3) البروسوي، روح البيان: 4/469.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/479.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/299.

المستعدّون للغواية العازمون عليها متهيِّئونَ لتسلُّط الشيطانِ عليهم

دلالة اسم الفاعل ﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾:

لَمّا أفهمَ الكلامُ أنَّ سُلْطانَ الشَّيْطانِ لا يكون إلّا عَلَى مَنْ كانَ غاوِيًا، ولَوْ كانَ غاوِيًا بِالْفِعْلِ؛ لَمْ يَكُنْ لِسُلْطانِ الشَّيْطانِ عَلَيْهِ فائِدَةٌ؛ دلَّ على أنَّ المرادَ من زمن اسم الفاعل ﴿ٱلۡغَاوِينَ﴾ المستقبل، فهو مِنْ بابِ إطْلاقِ اسْمِ الْفاعِلِ عَلَى الْحُصولِ في الْمُسْتَقْبَلِ بِالْقَرِينَةِ، فأفادَ أنَّ ثمَّةَ وَصْفًا بالغواية هو التهيُّؤ لِتَسَلُّطِ الشَّيْطانِ عَلَى مَوْصوفِهِ، وَذَلِكَ هوَ الْمَوْصوفُ بِالْغَوايَةِ بِالْقوَّةِ لا بِالْفِعْلِ، أيْ: بِالِاسْتِعْدادِ لِلْغَوايَةِ لا بِوُقوعِها[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/52.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ٤٣﴾ [الحجر: 43]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الوعيدُ للغاوين بأنَّ مكانَ اجتماعِهم أجمعين هو جهنَّمُ

لَمّا أخبر اللَّه تعالى أنَّ إبليس ومن اتَّبعه من الغاوين؛ ذكر جزاءَهم بذكر مكانِ اجتماعِهم يومَ القيامةِ، أو: لما أخبر اللَّه تعالى أنَّ إبليس ومن يتَّبعه على شاكة واحدة في الغواية؛ أخبر عقب ذلك أنَّهم على شاكلة واحدة في العقوبة وزمانها ومكانها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾: أصلُ (وعد): كَلِمَةٌ صَحِيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ لما يوجد مستقبلًا، يُقالُ: وَعَدْتُه أعِدُهُ وَعْدًا، وَيَكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وَشَرٍّ، فأمّا الوَعِيدُ؛ فَلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ غالبًا، يقولونَ: أوعَدْتُهُ بكذا[1]. والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُدِ، وهو الميعادُ، ويكون المَوعد مصدر وعدته، ويكون المَوعد وقتًا للعِدَة، والموعِدة أيْضًا: اسْم للعِدَةِ، والميعاد لا يكون إلّا وقتًا أو موضعًا[2]. والمقصودُ بالمَوعِدِ في الآية: مكانُ الوَعْدِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

جهنَّم موعِدُ إبليسَ وكُلُّ مَن اتَّبعه من الإنسِ والجِنِّ

يُخبر الحقُّ ﷻ بأنَّ جهنَّم موعد جميع من اتَّبع إبليس، فيَصيرونَ إليها في الآخرةِ، وهي مَقرُّهم وبئس المهاد؛ جزاء ما اجترحوا مِن السَّيئات، وكفاء ما دنَّسوا به أنفسهم من قبيح المعاصي[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة تتابع التأكيد في الآية:

المنهمكُ باقتفاء الغوايةِ ينسى الآخرةَ ويغيبُ عنه مصيرُه

أفادَ تتابع التَّأكيد بـ﴿وَإِنَّ﴾ واللّام الموطِّئة للقسم، ومجيء الجملة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وعد).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/53.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/30، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431، والمراغي، تفسير المراغي: 14/24.

اسميَّةً - في قولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ - أنَّ من يتَّبِع إبليسَ مُنكِرٌ؛ لأنْ تكونَ جهنَّم موعدهم أجمعين، أو: أنَّه لمّا كان منهمكًا في اقتفاء أثرِ الغوايةِ ومتابعته له؛ كان بمنزلة المنكِر للأمرِ، كما أفادَت ﴿وَإِنَّ﴾ واللّام تأكيدَ ثبوتِ أن تكون جهنَّم مكانَ موعدِهم أجمعين.

سبب إيثار ذكر لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

بُعدُ قعرِ جهنَّم مشعرٌ بشدَّة عذاب الغاوين وهولِه

لم يقل الله تعالى مثلًا: (وإنَّ النّارَ لموعدُهم)، بدلًا من قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾، ونكتة ذكر ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون بقية أسمائها: هو أنَّها لمّا كانت مشتقَّة من جهنام، أي: بعيدة القعرِ؛[1] ناسب أن تكون مكانَ وعدِهم واجتماعِهم، للإشعارِ بسوء موضعِهم وقبحِ حالِهم وشدَّةِ عذابهم، فإنَّ بُعدَ القعرِ لا يكونُ إلّا للأسوءِ حالًا.

عود الضَّمير في قولِه: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾:

إحصاءُ كلِّ من اتَّبع إبليسَ وجمعهم فردًا فردًا مع الغاوين في جهنَّم

يحتمل عود الضمير (هُمْ) على الاسم الموصول ﴿مَنِ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾؛ ليفيد الزَّجرَ عن اتِّباعِ إبليس، لِما أفادَه الكلامُ من أنَّ اتِّباعهم إبليسَ سببٌ في أن تكون جهنَّم موعدهم أجمعين، ويكون في التَّعبير التفاتٌ بمجيء الضَّمير بصيغة الجمع بعد ذكرِه مفردًا، ونكتة الالتفات الإيذانُ بإحصاء كلِّ من اتَّبع إبليسَ، وبجمعهم فردًا فردًا؛ ليجتمعوا مع جنسِ الغاوين في جهنَّم، كما يحتمل أن يعود الضَّمير إلى ﴿ٱلْغَاوِينَ﴾، فيكون على مقتضى الظّاهر، ويرجِّحه قربه من الضَّمير وظهور ملاءمته للضمير؛ لأنَّه بصيغة الجمع، ليفيدَ أنَّ جهنَّمَ موعدُ إبليسَ ومن اتَّبعَه، وأنَّ سببَ أن تكونَ جهنَّمُ موعدَهم هو كونهم من الغاوين، فيكونَ السَّببُ باعتبارِ

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 311، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/355.

مآلِ الاتِّباع[1]، وفي مجيء الضَّمير بصيغة الغائب بعد الخطابِ التفاتٌ، وذلك للإشعارِ بالاهتمامِ بوعيدِ الغاوين، ولتذكيرِهم بأنَّ إبليسَ قد انتهى أمرُه، ففيه معنى الزَّجر عن اتِّباعِه، ويأتي تفصيلُه في توجيه المتشابه.

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾:

مكانُ موعدِ الغاوين واجتماعهم هو جهنَّم بفظاعتِها وهولِ عذابِها

لمّا كان المرادُ تفظيعَ حالِ المتَّبِعين إبليسَ يومَ القيامةِ، أو تفظيع حالِ إبليسَ ومن اتَّبعَه، وجاء الكلامُ على أسلوبِ التَّهديد لمن اتَّبعَ إبليسَ في إغوائِه؛ جعلَ مكانَ الوعدِ هو جهنَّم، لِما فيه من الدلالةِ على أنَّ الموعودَ ممّا لا يوصفُ في الفظاعةِ، كما أفادَ الكلامُ أنَّ جهنَّمَ مكانُ وعيدِهم واجتماعِهم[2].

بلاغة الاستعارة:

من يتَّبع الشَّيطان يضرب موعدًا له في جهنَّم

في قولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾ لم يقل: (وإنَّ جهنَّم لمصيرُهم أجمعين)، فعبَّرَ بالوعدِ؛ لأنَّه لمّا جعلَ جهنم موعدًا لهم، سواء أكان الموعد بمعنى المصدر أم اسم المكان، كان الكلامُ على طريقِ الاستعارة التَّهكُّميَّة، فكأنَّهم لمّا اتَّبعوا إبليسَ، أو لمّا كانوا من الغاوين؛ ضربوا وعدًا لهم في جهنَّمَ، فكانوا على ميعاد في مكانِ العذابِ[3]، للإشعارِ بأنَّ اتِّباع إغواء الشيطانِ - بما يلقيه من الوسوسةِ في روع البشر؛ ليكون داعيًا لهم على عمل المنهيّاتِ وترك المأمورات - يجرُّهم إلى الاجتماعِ في هذا المكانِ، ففيه مع التهكُّم تخويفٌ وتهديدٌ.

دلالة الإسنادِ في الآية:

تهديدُ الغاوين ومن يتَّبع إبليس بأنَّ جهنَّمَ مكانُ وعدِهم واجتماعِهم

لمّا جاء ﴿جَهَنَّمَ﴾ مسندًا إليه، و﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾ مسندًا - في

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/195، والزمخشري، الكشاف: 2/579، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/146، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/479، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79.

(3) الشهاب، عناية القاضي: 5/520، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/296.

قولِه: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ﴾ - ولم يأتِ العكسُ بأنْ يقالَ: (وإنَّ موعدَهم أجمعين لفي جهنَّم)؛ آذنَ بأنَّ النَّظرَ متوجِّهٌ إلى الإخبار عن جهنَّم بأنَّها مكانُ وعدِهم واجتماعِهم على سبيلِ التَّهكُّم، ولما فيه من التَّخويف والتَّهديد - كما تقدَّم - لأنَّ الخبرَ مقصودُ الجملةِ، فالغرضُ من مجيءِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ مسندًا إليه الإخبارُ عنها بأنَّها مكانُ وعدِهم، وليسَ المقصودُ الإخبارَ عن مكانِ وعدِهم بأنَّه جهنَّم، فكأنَّهم على علم بجهنَّم، ويجهلون أنَّ موعدَهم فيها بسبب اتِّباعِهم الشيطان وغوايتِهم معه، كما أنَّه جعلَ المكانَ كلَّه موعدًا لهم على سبيلِ المبالغةِ؛ لأنَّه فصَّل في الآية اللّاحقة، فذكرَ أنَّ لها سبعةَ أبوابٍ.

دلالة قولِه تعالى: ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

لا يتخلَّف أحدٌ من الغاوين عن موعدِ اجتماعِهم في جهنَّم

أفادَ اللفظُ تأكيد الضَّمير في قولِه: ﴿لَمَوْعِدُهُمْ﴾، ليفيدَ التَّنصيصَ على العموم، لدفعِ توهُّم إرادةِ التَّغليب في ضمير الجمع أو تخصيصه، والمعنى: أنَّ جهنَّم موعدهم أجمعين من غيرِ أن يتخلَّف منهم أحدٌ، كما يفيد معنى الحاليَّة، أي بمعنى: مجتمعين، أو يقال: يحتمل أن يكونَ ﴿أَجْمَعِينَ﴾ تأكيدًا للضَّمير، كما يحتمل أن يكونَ حالًا منه، والقولُ الأوَّل أجمعُ للمعنى(1).

توجيه المتشابه اللفظي في الآية:

مناسبة مجيء ضميرِ الخطابِ أو الغيبة لسياقِ الكلامِ

قال الله تعالى هنا في سورة الحجر: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على صيغة ضمير الغائبين، وجاء في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ١٨﴾ [الأعراف: 18]، فغُلِّبَ في الضَّميرِ حالُ الْخِطابِ في سورة الأعراف؛ لِأَنَّ الْفَرْدَ الْمَوْجودَ مِنْ هَذا الْعُموم هوَ الْمُخاطَبُ،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/163.

وَهوَ إبْليسُ، وَلِأَنَّهُ المَقْصودُ ابْتداءً مِنْ هَذا الْوَعيدِ؛ لِأَنَّهُ وَعيدٌ عَلَى فِعْلِهِ، وَأَمّا وَعيدُ اتِّباعِهِ فَبِالتَّبَعِ لَهُ، بِخِلافِ الضَّميرِ في آيَةِ الْحِجْرِ، وَهوَ قَوْلُهُ: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ لِأَنَّهُ جاءَ بَعْدَ الْإِعْراضِ عَنْ وعيده بِفِعْلِهِ والِاهْتِمامِ بِبَيانِ مَرْتَبَةِ عِبادِ اللهِ الْمُخْلَصِينَ الَّذينَ لَيْسَ لِإِبْليسَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ، ثُمَّ الِاهْتِمامُ بِوَعيدِ الْغاوِينَ[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/51.

﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ ٤٤﴾ [الحجر: 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تعدُّد أبواب جهنَّم لاستقبال الغاوين

لمّا ذكرَ اللّه تعالى أنَّ جهنَّم موعد الغاوين؛ بيَّن أنَّهم متفاوتون فيها، فما أُجمل في الآية السابقة؛ جاءت هذه الآية بيانًا وتوضيحًا لما تقدَّم[1]، أو يقال: لما أخبر سبحانه في الآية السابقة أنَّ جهنَّم موعد الغاوين ومقر اجتماعهم؛ بَيَّنَ في هذه الآية أنَّهم جميعًا يدخلونها مع كثرتهم؛ لأنَّ لها أبوابًا كثيرةً تَسَعُهُم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّقۡسُومٌ﴾: أصلُ (قسم): يَدُلُّ على تَجْزِئَةِ شَيْءٍ من أجل ضَمِّ الأجزاء إلى الأشخاص[2]. القَسْمُ: مَصْدَرُ قَسَمْتُ كذا قَسْمًا وقِسْمَةً، وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقهما على أربابهما، والنَّصيبُ قِسْمٌ بِكَسْرِ القافِ، فَأمّا اليَمِينُ؛ فالقَسَمُ، قالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ القَسامَةِ، وَهِيَ الأَيْمانُ تُقْسَمُ على أَوْلِياءِ المَقْتولِ إذا؛ ادَّعَوْا دَمَ مَقْتولِهِمْ على ناسٍ اتَّهَموهُم به[3]. والمرادُ بالقَسْمِ في الآية: أن الغاوين يُجَزَّؤون، وتُقسَم أجزاؤهم على أبواب جهنم.

المَعْنى الإجْماليُّ:

إنَّ في جهنَّم دركاتٍ ومنازلَ أعدَّها الله تعالى لأتباع إبليس

بيَّن اللّه تعالى أنَّ لجهنَّم سبعةَ أبواب، لكلِّ باب من أتباعِ إبليسَ نصيبٌ مَعلومٌ، يَدخلونَ منه إلى النّارِ، كلٌّ يدخُلُ مِن بابٍ بحسَبِ عمَلِه، ويستقِرُّ في دَرْكٍ بقَدْرِ فِعْلِه[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/61.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قسم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قسم).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/72، والقرطبي، الجامع لأحكام: 10/30، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/536.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالة جملة ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾:

تعظيم هولِ الدخول إلى جهنَّم، فكيف بمن استقرَّ فيها؟

تحتمل الجملة أن تكونَ مستأنفة، وهو الظاهر، لتفيدَ التَّفصيل بعد الإجمالِ، فإنَّه لمّا ذكر أنَّ جهنَّم موعدهم؛ فصَّل أماكنَ وعدِهم، وتحتمل أن تكون خبرًا ثانيًا لـ﴿وَإِنَّ﴾[1]، فيكون قد أخبر عن جهنَّم بأنَّها مكانُ وعدِهم، وبأنَّ لها سبعةَ أبوابٍ، وفائدة تعدُّد الخبر بيانُ عِظَم شأنِها وهولِ موضِعِها، فإنَّ الخبر يتعدَّد فيما يكون للمبتدأ شأنٌ ينبغي التَّعريفُ بجميع أحوالِه ممّا يتعلَّق بالمخاطَبِ.

سرُّ التَّعبير بقولِه: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾:

لكلِّ بابٍ من أبوابِ جهنَّم خَصوصيَّتُه من العذاب والنَّكال

الظّاهر أنَّ المراد من الأبواب ظاهرُها، والمعنى: لها سبعة أبوابٍ يدخلونها، ليفيد أنَّ لكلِّ بابٍ خصوصيَّتَه في العذاب والنَّكال، وليشعر لفظ الباب بأنَّها دارُهم ومكانُ استقرارِهم، وأنَّه إذا أقفل الباب؛ فلا مفرَّ حينئذٍ، ويحتمل أن يكون المرادُ بالأبوابِ الطبقاتِ، على طريق الكنايةِ عَنْ طَبَقاتِ جَهَنَّمَ؛ لِأَنَّ الْأَبْوابَ تَقْتَضِي مَنازِلَ، فَهِيَ مَراتِبُ وطبقاتٌ، بعضها أسفل من بعضٍ، ينزلونها، والمعنى لجهنم سبعة أطباق، لكلِّ طَبَق من أتباع إبليس نصيبٌ مقسومٌ، وعبَّرَ بالأبواب عن الطبقاتِ للإشعارِ بأنَّها دارُهم وموضعُ استقرارِهم كما مرَّ[2].

سببُ إيثار تعدُّد أبوابِ جهنَّم:

تنوُّع أبوابِ جهنَّم للإسراعِ بتعذيب الغاوين، ولاختلاف مراتبِهم في جهنَّمَ

الحكمة في تعدُّد أبواب جهنَّم مع أنَّ اللّه قادرٌ على أن يدخل أهلها فيها دفعةً واحدةً هو الإيذانُ بكثرة أهلِها وبسرعة تعذيبهم، وعدم تأخير عذاب بعض منهم، ولأنَّه لمّا كانت مراتبُ الغوايةِ مختلفةً اختلفت مراتبهم في جهنَّم، فكان لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ على

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/782، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 11/461.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/105، والماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/443، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، وابن عاشور، التحرير والتنوير14/53.

حسبِ غوايتِه، كما أنَّ تعدُّد أبواب الجنة لكثرتِهم ولسرعة تنعُّمهم، وعدم انتظارهم[1].

سبب إيثار تخصيصِ العدد ﴿سَبۡعَةُ﴾:

مــواردُ الأبــواب بـحسبِ مـواردِ المهلكاتِ

لعلَّ تخصيصَ أبوابِ جهنَّم بالعدد ﴿سَبۡعَةُ﴾ لانحصار مجامع المهلكات في الركون إلى المحسوسات الخمسة ومتابعة القوة الشهوية والغضبية، فيكون العددُ سبعةً، أو لِمناسبته لِمَراتِبِ الإجْرام، بِأَنْ تَكونَ أُصولُ الْجَرائِمِ سَبْعَةً لتكونَ على وفق الأعضاء السبعة من العين، والأذن، واللسان، والبطن، والفرج، واليد، والرجل؛ لأنَّها مصادر السيئات، فكانت مواردها الأبواب السبعة تَتَفَرَّعُ عَنْها جَميعُ المَعاصِي الكَبائِرِ، ولمّا كانت هي بعينها مصادر الحسنات بشرط النِّيَّة، والنِّيَّةُ من أعمال القلب زادت الأعضاء واحدًا، فجعلت أبواب الجنان ثمانية، وأجاز ابن عاشور وغيرُه أن يكون العدد ﴿سَبۡعَةُ﴾ مُسْتَعْمَلًا في الْكَثْرَة، فلا يقصد بالعدد خصوصُه[2]، وهو وجه وجيه فإنَّ العدد سبعة ومضاعفاته يُستعمل كثيرًا في اللغة للكثرة والمبالغة.

فائدة إيثار الإضافة في: ﴿سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾:

تشويق السامع إلى معرفة تمام الخبر

قال: ﴿لَهَا سَبۡعَةُ أَبۡوَٰبٖ﴾، ولم يقل: (لها أبواب سبعة) لتشويق السامع بعد ذكر العدد سبعة إلى معرفة ماهية هذه السبعة، أهي سبعة أشكال، أو سبع طبقات، أو سبعة خزائن؟ فجاءت الإجابة بذكر التمييز المضاف ﴿أَبۡوَٰبٖ﴾، للدلالة على كثرة أبوابها، كثرة مقيدة بالعدد، أو كثرة مطلقة، لا حد لها ولا منتهى، على الاحتمالين الواردين في المراد من العدد سبعة، من حقيقة العدد، أو المبالغة في الكثرة.

---

(1) الشهاب، عناية القاضي: 5/295.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، والبقاعي، نظم الدرر: 11/61، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/203، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/53، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4090.

دلالة جملة ﴿لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾:

لمّا كانت هذه الجملة صفةً لـ﴿أَبۡوَٰبٖ﴾، وكانت الصِّفةُ على معنى تقييد الموصوف النَّكرة؛ أفادت الجملة بيان وصفِ الأبواب لما يفيدُه تنكيرُها من معنى الإبهامِ في بيانِ فائدتِها، فجاءت الصِّفة لبيانِ أنَّ لِكُلِّ بابٍ من الأتباع أو الغواة جُزْءًا مَقسومًا، ففيه تحذيرٌ من متابعةِ إبليسَ ووعيدٌ للغاوين.

تحذيرُ الغاوين ووعيدهم من متابعةِ إبليسَ

بلاغة الإيجاز في الآية:

لمّا جاءت الجملة - في قولِه تعالى: ﴿لِّكُلِّ بَابٖ مِّنۡهُمۡ جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾ - صفةً لـ﴿أَبۡوَٰبٖ﴾ أفاد التَّعبير أنَّه بتقدير (لكلِّ بابٍ من الأبوابِ السبعةِ منهم جزءٌ مقسومٌ)، فحُذِفَ (من الأبواب السبعة) إيجازًا في الكلامِ، وانتظامًا في تأليفِه وبلاغةِ تعبيرِه.

الإيجاز بالحذفِ لانتظامِ الكلامِ وبلاغة التَّعبير

دلالة قولِه تعالى: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

لمّا تقدَّم الجار والمجرور على متعلِّقه ﴿جُزۡءٞ﴾ أفاد الحاليَّة، بمعنى: لكلِّ بابٍ جزء مقسومٌ حالَ كونِ هذا الجزءِ من الغاوين خاصَّةً، لا يشاركهم فيه أحدٌ من عبادي المخلصين[1].

اختصاص تقسيم الغاوين بأبواب جهنم

نكتة التَّعبير بقولِه: ﴿جُزۡءٞ مَّقۡسُومٌ﴾:

لمّا كان الجزءُ بعضَ الشيءِ، وجمعُه أجزاء، وكان المقسومُ من القسم، وهو إفراز النصيب عن غيره، بمعنى تمييز كلِّ قسم عن سواه؛ أفادَ التَّعبيرُ أنَّ أتباعَ إبليسَ أو الغاوين يجمعهم شيءٌ واحدٌ، استحقّوا به جهنَّم، وأنَّه تعالى يُجَزِّئُ أتباعَ إبليسَ أو الغاوين جميعًا أجزاءً مقسومةً معلومةً، فيكون لكلِّ بابٍ جزءٌ من الأتباع مقسومٌ يتميَّز عن سواه من الأقسامِ، بحيث تربط بينهم معصيةٌ ما، ويجمعهم ولاء ما، فلمّا اشترك هذا الجزءُ بالمخالطة ونوعِ الغواية

اشتراكُ الغاوين في نوعِ المعصيةِ في الدُّنيا يوجب مشاركتَهم في العقوبةِ ومكانها في الآخرة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/61.

في الدُّنيا؛ كانَ عليهم الاشتراك في العقوبة والنَّكال يومَ القيامةِ، فكلٌّ يدخل من بابٍ بحسب عمله، ويستقرُّ في دركٍ بقدر غوايته(1).

فائدة تنكير الموصوف ﴿جُزْءٌ﴾:

التعظيم والتكثير في العدد والتحقير في المنزلة

أفاد تنكير الموصوف ﴿جُزْءٌ﴾ عِظَمَ هذا الجزء وكثرة أفراده من ناحية، كما أفاد تحقيره وتحقيرهم وضعفهم من ناحية أخرى، ويزيد من حقارتهم وضعفهم أنَّ هذا جزء من كُلٍّ أولًا، ثم هو مقسوم إلى أقسام كثيرة مرة ثانية، فقسمة الجزء تزيد هذه الأقسام التي هي بعض الجزء ضعفًا وحقارة.

---

(1) الراغب، المفردات: (قسم)، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/536، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 12/7709.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ٤٥﴾ [الحجر: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الجنَّة ثمرة الإخلاص والاختصاص

لَمّا ذَكَرَ مَصيرَ الغاوينَ؛ أتبعَهُ ذِكْرَ ما أعدَّه للمخلِصِينَ المخلَصِينَ، وهم الَّذين اتَّقوا الشِّرك والمعاصيَ، ليظهر التَّباين بين الفريقين[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَعُيُونٍ﴾: أصلُ (عين): أَصْلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على عُضْوٍ بِهِ يُبْصِرُ، وينظُرُ، ثُمَّ يُشْتَقُّ منه، والأَصْلُ في جَمِيعِهِ ما ذكَرنا، قالَ الخليلُ: العَيْنُ النّاظِرَةُ لكُلِّ ذِي بَصَرٍ، والعَينُ تُجْمَعُ على أعْيُنٍ وعُيونٍ وَأعْيانٍ[2]. وعَيْنُ الشَّيْءِ نَفْسُهُ، يُقال: أخَذْتُ مالي بِعَيْنِه، أي: نَفْسَ مالي، وتأتي بمعنى المالِ العَتِيدِ الحاضِرِ، يُقال: اشْتَرَيْتُ عَيْنًا بِعَيْنٍ، أيْ: حاضِرًا بِحاضِرٍ[3]. ويُستعار العَيْنُ لمعانٍ هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة، واستعير للثُّقب في المزادة تشبيهًا بها في الهيئة، وفي سيلان الماء منها، فاشتُقَّ منها: سقاء عَيِّنٌ ومُتَعَيِّنٌ: إذا سال منها الماء، ويقال لمنبع الماء: عَيْنٌ تشبيهًا بها لما فيها من الماء، ومن عَيْنِ الماء اشتقَّ: ماء مَعِينٌ، أي: ظاهر للعيون، وعَيِّنٌ، أي: سائل[4]. ومِن معانيها: الجاسوس، وما ضُرِبَ مِن الدَّنانيرِ والدَّراهِم، وغير ذلك[5]. والمقصودُ بالعيون في الآيةِ: جَمْعُ عَيْنٍ، اسمٌ لثُقْبٍ أرضيٍّ يَخرجُ منه الماءُ من الأرضِ.

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/197، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/361.
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عين).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عين).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (عين).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

حال أهل الجنَّة وما يتمتَّعون به من نعيمٍ مُقيم

إنَّ الذين اتَّقَوا اللّهَ تعالى بامتثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهَى، في بساتينَ قد احتوَت على جميعِ الأشجارِ، وأينَعَت فيها جميعُ الثِّمارِ، حتى سترت ما فيها من كثرتها وكثافتها، وهم كذلك في عُيونٍ مِثْل عُيونِ الماءِ والخَمرِ، والسَّلسبيلِ والتَّسنيم، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ۝٥١ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٢﴾ [الدخان: 51 - 52][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الاستئناف في الآية:

التَّفنُّن في التَّعبير عن المعنى من عادة القرآن في أساليبه

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ على طريق الاستئناف الابتدائي، ففيه انْتِقالٌ مِنْ وَعِيدِ الْمُجْرِمينَ إلَى بِشارَةِ الْمُتَّقِينَ عَلَى عادَةِ الْقُرْآنِ في التَّفَنُّنِ[2]، في الأساليب من جهة، وذكر المقابل الذي يظهر جمال مقابله وكمال وصفه في الحُسْنِ أو السوء.

فائدة ﴿إِنَّ﴾:

تأكيد مضمون الجملة وتقريرها

تفيد ﴿إِنَّ﴾ – في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٤٥﴾ - تأكيدَ مضمونِ جملة نعيم المتقين وتقريرَها، في مقابل تأكيد عذاب الغاوين وأتباع إبليس أجمعين في الآيات السابقة.

براعة حذف متعلّق ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾:

أفضل التَّقوى ومبدؤُها اتِّقاءُ الشِّرك بالله

حُذِفَ متعلِّق ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لإفادة العموم، ليشمل المتقين الشِّرك والفواحش وغوايةَ إبليسَ، وكلَّ سوءٍ يُتَّقى منه، كما يحتمل أن يكون المراد المتَّقينَ الشِّرْكَ بِاللّهِ تَعالَى والكُفرَ به؛ لأنَّه المتبادر في مقابلة حالِ أهل جهنَّم التي تجمع الكافرين، ولأنَّ اتِّقاء الشِّرك أصلُ التَّقوى ومبدؤُها، فيكون المراد منهم المخلَصين الذين ذكرهم اللّه في قوله:

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/54.

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾، وهم المقرّون قولًا واعتقادًا بتوحيدِ اللّه تعالى وبرسالة رسوله ﷺ، وسيأتي تقرير هذا المعنى عند الكلام على قوله تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

دلالة اسم الفاعل في قولِه: ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾:

التَّقوى سببٌ لدخول الجنَّة والاستقرار فيها والتَّلذُّذ بنعيمِها

لمّا كان لفظُ ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ، وكانت (ال) فيه للاستغراق؛ إذ هي اسم موصول؛ لدخولِها على الصِّفة الصَّريحة، وتقدير الكلام: إنَّ الذين اتَّقوا، وقد أفاد ذلك أنَّ جميع من اتَّصف بصفة التَّقوى في جنّات وعيون، وفي مجيء (ال) اسمَ موصولٍ إفادةٌ أخرى، وهي بيان السبب في حصول الجزاء من خلال صلةِ الموصول، والمعنى: أنَّ تقواهم هي سببُ استقرارِهم يومَ القيامةِ في جنّاتٍ وعيونٍ.

دلالة الإخبار في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾:

تنوُّع النِّعَم على المؤمنين في الجنَّة

لمّا جاء الإخبار بالجمع عن الجمع المفيد للاستغراق بدلالة (ال) في ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ احتمل أن يكون لكلِّ فردٍ من المتَّقين جنّاتٌ كثيرة وعيونٌ كثيرة، فيكون الجمعُ من الاستغراق الإفرادي، كما يحتمل أن يكون لكلِّ واحد منهم جنَّة وعين، فيكون من الاستغراق المجموعي على طريق مقابلة المجموع بالمجموع[2].

سرُّ عطف ﴿وَعُيُونٍ﴾ على ﴿جَنَّٰتٖ﴾:

كمالُ انتفاع المتَّقين بالعيونِ التي في الجنَّة

لمّا كان العطف يقتضي مشاركة المعطوف للمعطوف عليه في العامل؛ كان ظاهرُه أن تكون الظَّرفية المدلول عليها بـ﴿فِي﴾ داخلةً على المعطوف والمعطوف عليه، فأمّا كونهم مظروفين في الجنات؛ فظاهرٌ، فالمتَّقون في جنّات، وأمّا حلولهم في العيون؛ فلا يتصوَّر؛ لأنَّ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/147، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/191، والخازن، لباب التأويل: 3/57.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/79، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/301.

المقصود بكونِهم في العيون أن يروها، وتقع عليها أبصارُهم، وينتفعوا منها، وهو كقوله تعالى: ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٥٣﴾ [الدخان: 53]، وإنَّما هم يلبسون السُّندسَ، فأمّا الإستبرق، فلا يُلبَسُ؛ لأنَّه من البُسط، فيكون المرادُ منه الانتفاعَ، ونكتة التَّعبير بالظَّرفية في العيون وفي الإستبرق كذلك، الإشعارُ بكمال الانتفاع بها بحيث كأنَّ العيونَ صارتْ ظرفًا يحويهم، فهي محدقة بهم من كلِّ ناحية، أو يقدَّر كلُّ ظرفٍ بحسبِه، فالمتَّقون في خلالِ جنّاتٍ وفي خلال عيونٍ، بمعنى: أنَّهم بين الجنّاتِ والعيونِ، وذهب بعض المفسِّرين إلى تقدير مضاف، أي: إنَّ المتَّقين في نعيم جنّاتٍ وعيونٍ[1]، والوجه الأوَّل أولى وأظهر؛ لما فيه من كمال المعنى ولتخلُّصِه من التَّقدير.

سبب إيثار اقترانِ العيون بالجنّات:

تكثير نِعَم الجنَّة، فالعيونُ التي في الجنَّة مغايرةٌ للأنهار التي فيها

لما كان المرادُ بالجنّاتِ البساتينَ التي لها ظلال، والظلُّ والماءُ مطلوبان للعرب، ولكلٍّ ما ذرأ الله من النسم؛ قرن إلى الجنّات العيونَ، وجعل ذلك بإزاء ما يُعذَّب به أهل جهنَّمَ، فيكونُ المرادُ مِنَ العُيونِ الينابيعَ المُغايرةَ للأنْهارِ المذكورة في القرآن[2].

فائدة الجمع في قولِه: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾:

كثرةُ مِنَنِ اللهِ على أهلِ الجنَّة

أفاد الجمع التَّكثير بمعنى يكونون في جنّات كثيرة وعيونٍ كثيرة[3]؛ إشعارًا بكثرة النِّعم وإظهارًا لمنَّته تعالى عليهم.

فائدة التَّنكير في قولِه: ﴿جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾:

جنّاتُ الآخرة تختلف عن جنّاتِ الدُّنيا في نوعِها وفي أوصافِها وفي حجمها

أفاد التَّنكير تعظيم الجنّات والعيون وتفخيمهما وتكثيرهما، فلا يُبلَغُ كُنهُها، ولا يقادر قدرها[4]، بمعنى: أنَّها جنّات ليس كسائر

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 9/379، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/165، وزين الدين الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن آي التنزيل، ص: 487، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/147، والإسكافي، درة التنزيل، ص: 1205.

(3) زين الدين الرازي، أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن آي التنزيل، ص: 487.

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 28/165، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/138، والقنوجي، فتح البيان: 13/193.

الجنّات التي في الدنيا في نوعِها وأوصافِها، وعيونٌ ليست كسائر العيونِ التي في الدنيا كذلك.

بلاغة المجاز في الآية:

لمّا أخبر الله تعالى عن المتَّقين بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ - في قولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾ - وكان بعضهم أحياءً لم يموتوا، كما أنَّ بعضهم لم يولدْ بعدُ؛ كان الإخبارُ عنهم بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ إما على طريقِ المجازِ المرسلِ؛ ليكونَ من قبيل تسمية الشيء بما يؤول إليه، بمعنى سيكونون في جنّات وعيونٍ، وإمّا على طريقِ مجاز التغليب؛ بأنْ غُلِّبَ مَنْ مات على مَنْ لم يمُتْ، ونكتة التَّعبير بالمجاز الإشعار بتحقُّق الوقوع، وأنَّه أمرٌ ثابتٌ، للعنايةِ بحال المؤمنين، فجَعَلَ ما يَسْتَقِرّونَ فِيهِ فِي الْآخِرَةِ كَأَنَّهُمْ مُسْتَقِرّونَ فِيهِ فِي الدُّنْيا، وَجاءَ حالُ الْغاوِينَ مَوْعودًا بِهِ فِي قَوْلِه: ﴿لَمَوۡعِدُهُمۡ﴾؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْخُلوها[1].

توجيه القراءات القرآنية في ﴿وَعُيُونٍ ٤٥﴾:

قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وابن ذكوان عن ابن عامر ﴿وَعِيُونٍ﴾ بكسر العين، لمناسبة الياء، ففي القراءَةِ تخفيفٌ لفظيٌّ، وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص وهشام بضمِّها، على الأصلِ[2].

ثباتُ المتَّقين على الإيمانِ في الدنيا يدلُّ على دخولِهم الجنَّة واستقرارِهم فيها يومَ القيامةِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/482، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/482.

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ٤٦﴾ [الحجر: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكريمٌ وتشريفٌ لقدومِ المؤمنين

لَمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ المتقين في جنات وعيون؛ بيَّن أنَّهم مرحَّبٌ بهم في الجنَّة، مسلَّمٌ عليهم، فيقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

وأيضًا لمّا كان المَنزِلُ لا يَحسُنُ إلّا بالسَّلامةِ والأنسِ والأمنِ؛ قال تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ءَامِنِينَ﴾: أصلُ الأَمْنِ: طمأنينةُ النَّفس وزَوالُ الخَوفِ[2]؛ لأنَّها ثقة في الباطن إذا وُجِدَت؛ وُجِدَ الأمنُ، فالأمين والمؤمن أوصافٌ تورثُ الثِّقة والطُّمأنينة والأمن[3]، وللأمن معنيان مُتقاربان: أحَدُهُما الأمانَةُ الَّتي هي ضِدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ التَّصْدِيقُ[4]. يُقال: رَجل أَمَنة، بِالفَتْحِ، لِلَّذي يُصدِّق بكُلِّ ما يَسمع، وَلا يكذِّب بشَيء[5]، ورَجُلٌ أَمَنَةٌ أيْضًا: إذا كانَ يَطمئنُّ إلى كُلِّ أحدٍ، والإيمانُ: ضدُّ الكُفْرِ. والإيمان: بِمَعْنَى التَّصْدِيقِ، ضدُّه التَّكْذِيبُ، يُقالُ: آمَنَ بِهِ قومٌ، وكذَّب بِهِ قومٌ، فأمّا آمَنْتُه الـمُتَعَدِّي؛ فَهوَ ضدُّ أخَفْتُه[6]. والمقصود بالأمن في الآية: النَّجاةُ مِنَ الخَوفِ.

المَعنى الإجْماليُّ:

تحيَّةٌ طيِّبةٌ، يُؤذن بها للمؤمنين بدخول الجنَّة

يُقالُ للمُتَّقينَ يومَ القيامةِ: ادخُلوا الجنَّةَ مُسَلَّمًا عليكم، سالمينَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/63.
(2) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (أمن)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 63.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمن).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (أمن).

من كلِّ داءٍ وآفةٍ، آمِنينَ مِنَ الموتِ والعذابِ والهُمومِ والغُمومِ والأمراضِ، ومن انقطاعِ النَّعيمِ أو نُقصانِه، ومِن سائِرِ المُكَدِّراتِ[1].

وقال ابنُ عاشور: قولُه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾: السَّلامُ ظاهرٌ في التحيَّة؛ لتقييدِه بـ ﴿ءَامِنِينَ﴾، ولو كان السَّلامُ مُرادًا به السَّلامةُ؛ لكان التَّقييدُ بـ﴿ءَامِنِينَ﴾ تَوكيدًا، وهو خلافُ الأصلِ[2]، ولا مانع من إرادة السلامة؛ إذ السلامة متقدمة على الأمن، فهي ماضية أو حاضرة، والأمن حاضر ممتدٌّ إلى المستقبل، ولذلك غُلِّبَ الخوف الذي هو ضد الأمن على ما يستقبل.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

براعة التعبير بقولِه: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾:

سرعةُ دخولِ المتَّقين الجنَّة من غيرِ انتظارٍ

لمّا أخبر الله تعالى أنَّ المتقين في جنّاتٍ وعيونٍ؛ بيَّن أنَّهم عند دخولِهم فيها يقال لهم: ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾، فصيغة الأمر على تقدير قولٍ محذوفٍ، تقديره: (يقال لهم) بطريق الاستئناف؛ إذ ربْطُ الجملة بما قبلها إنَّما يكون به[3]، ونكتة حذفه الإشعار بسرعةِ دخولِهم في الجنَّة من غيرِ انتظارٍ.

نكتة التعبير بلفظ ﴿بِسَلَٰمٍ﴾:

سلامةُ المتَّقين في الجنَّةِ من زوالِ النِّعمِ وحلولِ النِّقم

لمّا كانت الباء للمصاحبة؛ أفاد التعبير أنَّ دخولَهم الجنَّة مصحوبٌ بالسلامةِ، ولمّا جاء اللفظ في سياق الامتنان والإكرام[4]؛ أفاد عمومَ السَّلامة، والمعنى: ادْخُلوا الْجَنَّةَ مَعَ السَّلامَةِ من زوال النِّعم وحلولِ النِّقم، ومن كلِّ أذًى في الحالِ والاستقبال، أي: مَعَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/32.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/59.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/579، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/168، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/347.

الْقَطْعِ بِبَقاءِ هَذِهِ السَّلامَةِ، فيكون لفظ ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ مصدرًا لِسَلِمَ يَسْلَمُ، ويحتمل أن يكون المراد من السلام القول بمعنى التحيَّة، أي: إنَّ دخولَهم الجنَّةَ مصحوبٌ بسلام الملائكة عليهم، ليفيد التَّرحيبَ بهم، فهو أبلغ في الإكرام، أو ادخلوا الجنَّة بأن يسلِّم بعضكم على بعضٍ، على وفقِ ما أمرهم في الدنيا أن يجعلوا الدخول في المنازل بالسلام، فيكون ﴿بِسَلَٰمٍ﴾ اسمَ مصدرٍ بمعنى التَّسليم[1]، ولا مانع من إرادة كل هذه المعاني على طريقة القرآن في إيجازه وبلاغته بذكر الكلمات القليلة التي تحتمل المعاني الكثيرة.

دلالة الحال في قولِه: ﴿بِسَلَٰمٍ﴾:

المتَّقون في سلامةٍ من وقتِ دخولِهم الجنَّة مع دوامِها

الجار والمجرور في محلِّ نصبٍ حالٌ من الضمير في ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾؛ للإيذان بأنَّهم في سلامةٍ من وقتِ دخولِهم في الجنَّة مع استمرار هذه السلامة وعدم انقطاعِها، أو يكون التَّسليم واقعٌ وقتَ دخولِهم كنايةً عن الإكرام والتَّرحيب بهم.

براعة التعبير بلفظ ﴿ءَامِنِينَ﴾:

المتَّقون آمنون من الخروج من الجنَّة ومن كلِّ ما يقطعُ متعتهم فيها

لَمَّا حذف متعلّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أفاد ثباتَ الوصفِ وعمومَ المعنى، أي: ادخلوها بسلامٍ حالَ كونِكم آمنين من الخروج منها، وآمنين من سخط اللّه وعذابِه، وآمنين من الموت، وآمنين من الخوف، وآمنين من المرض، وآمنين من كلِّ الآفاتِ[2].

دلالة الحال في قولِه: ﴿ءَامِنِينَ﴾:

مجيء الحالين على التَّأسيس للإيذانِ بخلودِ المؤمنين في الجنَّة

أخبر عن حالِ المتَّقين الذين يدخلون في جنّاتٍ وعيونٍ بحالين، على معنى التأسيس، لتفيد الحال الأولى معنى السلامة من الآفات، وتفيد الحال الثانية ﴿ءَامِنِينَ﴾ معنى الأمن من الخروج منها، ومن

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/444، والرّاغب، المفردات: (سلم)، والبغوي، معالم التنزيل: 3/60، والزمخشري، الكشاف: 2/597، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 3/162، والواحدي، التفسير البسيط: 12/611.

كلِّ الآفات - كما تقدَّم - ففي الجمع بين الحالين إشعارٌ بخلودِهم فيها، وإذا كان السلام بمعنى التَّحيَّة؛ كان السلامُ صفةً للقائلين، والأمنُ صفةً للداخلين، والمعنى: يقال لهم: بسلام ادخلوها آمِنِينَ، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ ﴿ءَامِنِينَ﴾ بدل من ﴿بِسَلَٰمٍ﴾، ليكونَ بدلَ اشتمالٍ؛ لأنَّ الأمنَ مشتمل على التَّحيَّة[1]، ليفيد مجموع البدل والمبدل منه تمام الإيضاح والبيان وتقريرَ المعنى، أي: هم في سلامة وأمن وأمان حالَ كونِهم في جنّات وعيونٍ.

توجيه القراءات القرآنية في الآية:

قرأ الجمهور: ﴿وَعُيُونٍ ۝٤٥ ٱدْخُلُوهَا﴾، وروي عَنْ رَوَيْسٍ عن يعقوب الحضرمي بِضَمِّ التَّنْوِينِ من ﴿وَعُيُونٍ﴾، وَبكَسْرِ الْخاءِ من (أُدْخِلوها)؛ ليكون الفعل مبنيًّا للمفعول، والفعل من (أدخل) الرُّباعي، والهَمْزَةُ للقَطْعِ نُقِلَتْ حَرَكَتُها إلَى تَنْوِينِ ﴿وَعُيُونٍ﴾، في حالِ الدَّرج، ليفيدَ أنَّ الإدخالَ في الجنَّة قد وقعَ، وجاء الفعل ليخبر عنهم من غيرِ ذكرٍ لِلفاعل؛ لأَنَّ محطَّ النَّظر إلى الدّاخل، وعلى قراءة الجمهور يكون الفعلُ مبنيًّا للفاعل، بصيغة الأمرِ من (دخلَ)، والهمزة للوصل تسقطُ في الإدراج، أي: (يقال لهم ادخلوها) - كما تقدَّم - ويكون الكلام موجَّهًا للمؤمنين بصيغة الطَّلب للتَّرحيب بهم قبلَ دخولِهم الجنَّة[2]، وبمجموع القراءتين يتأكَّد أنَّهم يقال لهم عند الدخول: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾، ويُخْبَر عنهم بعد الدخول بأنَّهم أُدْخِلوا الجنة: ﴿بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾.

(1) أبو البقاء العكبري، التبيان: 4/79، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/191، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 11/463، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

(2) الأزهري، معاني القراءات: 2/69، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/363، وابن الجزري، النشر: 2/301.

﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾

[الحجر: 47]

صفاء قلوب المؤمنين في الجنَّة عنوان دخولهم فيها

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كان الأُنسُ لا يكمُلُ إلّا بمعايشة نفس النوع والجنسِ معَ كمالِ المودَّةِ وصفاءِ القلوبِ عن الكَدَرِ؛ قال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنَزَعۡنَا﴾: أصلُ (نزع): يَدُلُّ على قَلْعِ شَيْءٍ وإزالته بجَذْبٍ قَوِيٍّ[2]. النَّزْعُ: الإزالَةُ بعُنْفٍ؛ لِئَلّا يَبْقَى اتِّصالٌ بَيْنَ المُزالِ، وبَيْنَ ما كانَ مُتَّصِلًا بِهِ، وَمِنْهُ نَزْعُ الثِّيابِ، ومنه: نَزْعُ العَداوة والمَحبَّة من القَلْبِ، والنَّزْعُ عن الشَّيءِ: الكَفُّ عنه، والنُّزوعُ: الاشتياق الشَّديد[3]. وانتزَع الشَّيءُ: انقلَع، ونزَع الأَميرُ العامِلَ عَنْ عَمَلِه: أزالَه، وهو على المَثَلِ؛ لأنَّه إذا أزالَه؛ فقَدِ اقْتَلَعَه[4]. والمَنْزَعة قوَّة عزم الرَّأْي والهمَّة، وَيُقالُ للرَّجُل الجيِّد الرَّأْيِ: إنَّه لجيِّد المَنْزَعة[5]. والنَّزع المقصود به في الآية: قَلْعُ الشَّيْءِ مِنْ مَوضِعِه، والمرادُ: إزالَةُ ما كانَ في قُلوبِهِم في الدُّنْيا مِنَ الغِلِّ عندَ تَلَقِّي ما يَسوءُ مِنَ الآخرين[6].

2) ﴿غِلٍّ﴾: أصلُ الكلِمَة يدلُّ على تَخَلُّلِ شَيْءٍ في شَيْءٍ وثَباته بحدَّة وقوة، كالشَّيْءِ يُغْرَزُ، مِن ذلك قَولُ العَرِبِ: غَلَلْتُ الشَّيْءَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/63.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نزع).
(3) الراغب، المفردات: (نزع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 27/193.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (نزع).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/131.

في الشَّيْءِ، إذا أثْبَتَّهُ فيه، كأنَّهُ غَرَزْتَهُ[1]؛ ومنه سُمِّي الغِلُّ؛ لأنَّ الحِقْدَ يَتَخلَّلُ الصَّدْرَ، والغِلُّ أيضًا: الغِشُّ والعَداوَةُ، مصدرُ الفِعْلِ غَلَّ، فيُقال: غَلَّ صَدرُهُ، يَغِلُّ: إذا غشَّ؛ وحَقَد، والغَلِيلُ: الحِقْدُ والحَسَدُ كالغِلِّ[2]. والمقصود بالغلِّ في الآية: البُغْضُ.

3) ﴿سُرُرٍ﴾: أصلُ (سَرَّ): يدلُّ على إخْفاءِ الشَّيْءِ، وما كانَ مِنْ خالِصِهِ ومُسْتَقَرِّهِ، لا يَخْرُجُ شَيْءٌ منه عن هذا، فالسِّرُّ: خلاف الإعلان، يقال: أسْرَرْتُ الشَّيءَ إسْرارًا، خِلافَ أعْلَنْتُهُ، ومنه السُّرورُ؛ لِأنَّهُ أمْرٌ خالٍ مِنَ الْحُزْنِ[3]. والسَّرِيرُ: المُضطَجَعُ الَّذي يُجلَس عليه من السُّرور؛ إذ كان ذلك لأولي النِّعمة، وجمعه أسِرَّةٌ، وسُرُرٌ، قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ [الطور: 20]، ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾﴾ [الغاشية: 13]، وسَرِيرُ الميِّت تشبيهًا به في الصّورة، وللتَّفاؤل بالسُّرور الَّذي يلحق الميِّت برجوعه إلى جوار الله تعالى[4]. والسَّرِيرُ: مُسْتَقَرُّ الرأس والعُنُق، وسَرِيرُ العيشِ: خَفْضُهُ ودَعَتُه وَما اسْتَقَرَّ واطمأنَّ عليه[5]. والمقصود بالسُّرُرِ في الآية: جَمْعُ سَرِيرٍ، وهو محملٌ كالكُرسِيِّ مُتَّسِعٌ يُمَكِّنُ الاضْطِجاعُ عليه[6].

4) ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾: أصلُ (قبل): أَصْلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ تَدُلُّ كَلِمُهُ كُلُّها على مواجَهَةِ الشَّيْءِ لِلشَّيْءِ بِمُقدَّمِه، فالْقُبُلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: خِلافُ دُبُرِهِ، وذلكَ أنَّ مُقَدَّمَهُ يُقْبِلُ على الشَّيْءِ، والقِبْلَةُ سُمِّيَتْ قِبْلَةً؛ لإقْبالِ النّاسِ عليها في صَلاتِهم، وهي مُقْبِلَةٌ عَلَيْهِمْ أيْضًا[7]. وقابَلَ الشَّيْءَ بِالشَّيْءِ مُقابَلَةً وقِبالًا: عارَضَهُ، وتَقابَلَ القومُ: اسْتَقْبَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا[8]. والمُقابَلَةُ والتَّقابُلُ: أن يُقْبِلَ بعضهم على بعض، إمّا بالذّات، وإمّا بالعناية والتَّوفُّر والمودَّة، قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الواقعة: 16][9]. والمراد بالتَّقابُلِ في الآية: كَوْنُ الواحِدِ يُقابِلُ غَيْرَه بوجهه، وهو أدْخَلَ في التَّأنُّسِ بالرُّؤيةِ والمُحادثة[10].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (غل).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (غل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سر).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سرر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (سرر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/56.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (قبل).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قبل).
(9) الراغب، المفردات: (قبل).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/56.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الأُنسُ لا يَكمُلُ إلّا بمَن هم مِن جِنسِهم مع كمالِ المودَّةِ، وصَفاءِ القُلوبِ عن الكَدَرِ

واقتلَعْنا، وأخرَجْنا ما في صُدورِ هؤلاء المتَّقينَ مِن الحِقدِ والبُغضِ والحَسَدِ، الذي كان بينَهم في الدُّنيا، حالَ كونِهم إخوانًا، يكونونَ على الأسِرَّةِ بعضُهم في مقابِلِ بَعضٍ، ينظُرونَ إلى وُجوهِ جُلَسائِهم، ولا يَنظُرُ بعضُهم إلى قَفا بعضٍ، وأوَّلُ مَن يدخُلُ في هذا العُمومِ أصحابُ النبيِّ ﷺ فيما شجَرَ بينهم من الحوادث الدّافعِ إليها اختلافُ الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين، والشِّدَّةُ في إقامة الحقِّ على حسَبِ اجتهادِهم، كما دلَّت الآية على تزاوُرِ أهلِ الجنَّة، واجتماعِهم، وحُسنِ أدَبِهم فيما بينهم؛ في كَونِ كُلٍّ منهم مُقابِلًا للآخَرِ، لا مُستدبِرًا له، متَّكِئينَ على تلك السُّرُرِ المُزَيَّنةِ بالفُرُشِ واللُّؤلؤِ وأنواعِ الجواهِرِ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل بالواو في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

الإخبار عن حالِ المتَّقين بعدَ معرفةِ مكانِهم وموضع استقرارِهم

لمّا أخبر اللّه تعالى عن المتَّقين بأنَّهم في جنّاتٍ وعيونٍ؛ عطف على الخبر جملة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾؛ لتكون هذه الجملة خبرًا آخر عن المتَّقين، والتقدير: وإنّا نَزَعْنا ما في صُدورِ المُتَّقِينَ مِنْ غِلٍّ[2]، أي: بعد أن أخبر عن مكانِهم يومَ القيامةِ، أخبر عن حالِهم عند اجتماعِهم في ذلك المكانِ.

براعة الاستعارة في قولِه: ﴿وَنَزَعْنَا﴾:

إزالةُ الغلِّ من صدورِ المؤمنين في الجنَّة من نعمِ الله عليهم

النَّزْعُ حَقِيقَةً: هو إزالَةُ الْجِرْمِ مِنْ مَكانِهِ وقلعه من موضعه بقوَّةٍ وسرعةٍ، كَنَزْعِ الدَّلْوِ والثَّوْبِ، ونزع القوس عن كبده، فلمّا تعلَّق النَّزع بالغلِّ الذي هو معنى كامنٌ في الصَّدر؛ كان مجازًا بطريق الاستعارة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/75، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/32، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 431، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/55.

المكنيَّة، بتشبيه المَعْنَى المُتَمَكِّنِ بالذّاتِ المُتَّصِلَةِ بالمَكانِ وتشبيه إزالة وصفِ الغلِّ من صدور المؤمنين دفعةً واحدةً بحيث لا يبقى له أثرٌ بنزعِ الجرم من مكانِه المتمكّن فيه وقلعِه منه، ثم حُذِف المشبَّه به، وكُنِّيَ عنه بالنَّزع الذي هو من لوازمِه، ووجه الشَّبه تمكُّن كلٍّ في موضعِه بحيث يصعب قلعُه في العادة، وَنَزْعُ الغلِّ مِنْ صدور أَهْلِ الجَنَّةِ هوَ إزالَةُ ما كانَ في قُلوبِهِمْ في الدُّنْيا مِنَ الحقد والضَّغينةِ والحسدِ، أي: أزالَ اللّه تعالى الغِلَّ وأسبابَه، وأزالَ طِباعَ الْغِلِّ الَّتِي فِي النُّفوسِ الْبَشَرِيَّةِ بِحَيْثُ لا يَخْطُرُ فِي نُفوسِهِمْ أبدًا[1].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿وَنَزَعۡنَا﴾:

عُبِّرَ بـ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ دون (انتزعنا) للإيذان بأنَّ نزعَ الغِلِّ من صدور المؤمنين يسيرٌ على اللّه تعالى، ولمّا كانت الصّيغة يأتي منها فعل معنى المطاوعة، فيقال: (نزعته، فانْتُزِعَ)؛ أفادت قبول المؤمنين نزعَ الغِلِّ من صدورِهم من غيرِ مشقَّةٍ أو كلفةٍ عليهم، بحيث لا يحتاج إلى أصل المطاوعة.

سرعة انتزاعِ الغلِّ من صدور المؤمنين في الجنَّة من غيرِ كلفةٍ عليهم

بلاغةُ مجيء قولِه: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾:

يحتمل أن يكون قد عُبِّرَ عن المستقبل بِلَفْظِ الْماضِي، وهو المناسبُ للمقام؛ لأنَّه في سياق ذكر ما يناله المؤمنون في الجنَّة، فعُبِّرَ بالماضي؛ لِلإيذانِ بتَحَقُّقِ وُقوعِه وتقرُّره، والمعنى: وَنَنْزِعُ ما في صُدورِهِمْ مِنْ غِلٍّ؛ إذا دخلوا الجنَّة، أو قبل دخول الجنة مباشرة، فلا تبقى عداوةٌ ولا ضغينةٌ، قد وقعَت في الدنيا، ولا يبقى تحاسدٌ بسبب تفاضل منازلهم وتفاوت مراتبهم في الجنة، فنَزَعَ اللّه ذلك من قلوبهم، وطَيَّبَ سبحانه نفوسَهم، وطَهَّرَ ﷻ قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات في الجنَّة، وعلى هذا فما كان من جفاء أو

لا يكون بين المؤمنين إلا التوادُّ والتعاطف

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 9/138، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نزع)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/213، 8/131.

عداوةٍ أو حقدٍ بين اثنين أو أكثر في الدنيا ينزعه الله منهم في الجنَّة، فيكونون إخوانًا على سررٍ متقابلين، والتَّعبير بالماضي عن المستقبل كثيرٌ في القرآن كقولِهِ تعالَى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف: 44]، ويحتمل أن يكون التَّعبير بالماضي على ظاهرِه، وهو المناسب للصّيغة، والمعنى: نزع الله ما في صدور المؤمنين من غلٍّ في الدنيا، فألَّفَ بينَ قلوبِهم بالإيمانِ، كما يحتمل أن تُحمل الصِّيغةُ على النَّزع في الدنيا وفي الجنَّة معًا، فيكون التَّعبير بالماضي على طريقة التَّغليب، وهو أوفى بالمرام، فلا يكون بين المؤمنين إلا التوادُّ والتعاطف، ومن لطائف نزع الغلِّ أنَّ صاحبَ الغِلِّ متعذِّبٌ به، ولا عذابَ في الجنَّة[1].

نكتة التعبير بنون العظمة في ﴿وَنَزَعۡنَا﴾:

نـزْعُ الـغـلِّ من الصُّدور لا يكون إلّا مـن الملك الواحدِ الأحد

عُبِّرَ بنون التَّعظيم للإشعار بأنَّ نزعَ الغلِّ من الصُّدور لا يكون إلّا من الملك الواحدِ الأحد، لقوَّة تمكُّنه في مكامنِ الصُّدور، ففيه إشعارٌ إلى أنَّ من يريدُ نزعَ الغلِّ من صدرِه؛ فعليه التَّوجُّه إلى الله تعالى الذي بيدِه الأمرُ.

دلالة قولِهِ: ﴿وَنَزَعۡنَا﴾ بين الصَّريح والكناية:

بلاغة القرآن بالجمع بين الحقيقة والكناية

في قولِه تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ﴾ يحتمل أن يكون النَّزعُ المذكور بمعنى استخراجِ الغلِّ من صدور المؤمنين؛ إذا دخلوا الجنَّة، فيكون الكلام على مقتضى الظّاهر، ويحتمل أن يكون على خلاف مقتضى الظّاهر، بأن يكونَ النَّزْعُ لِلْغِلِّ كِنايَةً عَنْ خَلْقِهِمْ في الْآخِرَةِ سالِمِي الْقُلُوبِ طاهِرِيها مُتَوادِّينَ مُتَعاطِفِينَ[2]، فلا نزعَ على الحقيقةِ ولا منزوع، فيكون الكلام على خلاف مقتضى الظّاهر.

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/445، والواحدي، التفسير البسيط: 9/139، والزمخشري، الكشاف: 2/580، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/401، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/228، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/168، 169، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/131.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 5/53.

دلالة الاسم الموصول ﴿مَا﴾:

عبَّرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ دون (الذي) في قولِه: ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾؛ لِأنَّه أكثر إبهامًا وعمومًا، فإنَّه لمّا قال ﴿مَا فِي صُدُورِهِم﴾؛ أفادَ العمومَ، ولمّا قال ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾؛ قيَّدَ المرادَ من الاسم الموصول، وكأنَّ الغِلَّ إذا كان في الصُّدور؛ امتلأت بالأوصاف القبيحة من العداوة والشَّحناء والبغضاء والحقدِ والحسد، فالغلُّ أساسُها ومنبعُها، أو يقال: لمّا أُطلق الغِلُّ على الشحناء والعداوة والبغضاء والحقد والحسد؛ كانت كلُّ هذه الخصال المذمومة داخلة في الغِلِّ؛ لأنَّها كامنةٌ في القلب، فعُبِّرَ عنها بلفظ العمومِ؛ لتناول الغِلِّ لجميعِ الخصالِ المذمومة الكامنة في القلوب[1].

الغِلُّ أساسُ الشَّرِّ ومنبعُ الاتِّصافِ بالقبائِحِ

دلالة قولِه: ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾:

الجارُّ والمجرور في موضعِ الحال بتقدير كائنًا من غلٍّ[2]، لتقييد ما هو في صدور المؤمنين وبيان هيئتِه، فيكون الغِلُّ جامعًا لكلِّ الخصالِ المذمومةِ الكامنة في القلوب كما تقدَّم.

الغِلُّ وصفٌ جامعٌ لكلِّ الخصالِ المذمومةِ الكامنة في القلوب

فائدة ﴿مِّنْ﴾ في قولِه: ﴿مِّنْ غِلٍّ﴾:

حرف الجرِّ ﴿مِّنْ﴾ لبيانِ إبهامِ جنسِ ﴿مَا﴾[3]، و﴿غِلٍّ﴾ هو المبيِّن، لِيفيد عِظَمَ تغلغل الخصال المذمومة الكامنةِ في الصُّدور، فهي خفيَّةٌ، ومنبعُها هو الغلُّ.

البيانُ بعد الإبهامِ

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿غِلٍّ﴾:

نجد في قولِه تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أنَّه لمّا كان أصلُ الغِلِّ هو الثَّوب الذي يتدرَّع به الإنسانُ؛ كان إطلاقه على الضَّغينةِ - وما يكون منها من العداوة والحقدِ والإحَنِ، الَّتي تَحْصُلُ فِي النَّفْسِ عِنْدَ إدْراك ما يسوؤها مِنْ عَمَلِ غَيْرِها - على طريقة

تشبيهُ الغِلِّ بالثَّوب الخفيِّ عن العيونِ

(1) الخازن، لباب التأويل: 3/58.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 1/569، والهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 3/52.

(3) السمين الحلبي، الدر المصون: 5/323، وابن عادل اللباب في علوم الكتاب: 9/117.

الاستعارة؛ إذ شُبِّهَت الضَّغينةُ والأوصافُ القبيحةُ التي تكمن في الصُّدور، فتكون خفيَّةً بما يلبسُ بين الثَّوبين، لتغلغل الضَّغينةِ وغيرِها بلطفٍ وحيلةٍ في داخل الصَّدر، فتكون كامنةً فيه(1).

سبب إيثار الحال في قولِه: ﴿إِخۡوَٰنًا﴾:

أخـــوَّة الـجـنَّـة أعظمُ من أخوَّة الـدنـيـا وأدومُ وأخلصُ

لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ المتَّقين في جنات وعيون، وأنَّه نزع ما في صدورِهم من غلٍّ؛ بيَّن هيئتهم في الجنَّة، فهم إخوانٌ في الإيمانِ والمودَّة والمخالصةِ، وإنَّما جاء بطريق الحال لما يشعر به الحالُ من تصوير هيئتهم، وبيانِ حالِهم الدائم في الجنَّة، وأجاز بعض المفسِّرين أن يكون منصوبًا على المدح للإشعار بعظمِ أخوَّتهم في الجنَّة، وأنَّها أعظم من أخوَّة الدُّنيا(2).

دلالة قوله: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

تزاورُ أهلِ الجنَّة واجـتـمـاعُـهـم فـيـهـا وحـسـنُ أدبِـهـم بينهم بـالـتَّـقـابلِ دونَ التَّدابرِ

يحتمل أن يكون ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ و﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالين آخرين، فيكون في الجملة ثلاثة أحوال، هي كونهم إخوانًا متآلفين متعاطفين، وعلى هيئةٍ مخصوصةٍ من الجلوس على سررٍ، فهم في مجلسٍ رفيعٍ موطَّأٍ مرتاحين مسرورين(3)، وعلى هيئة التَّقابل في الوجوه ينظر بعضهم إلى وجوه بعضٍ متصافِين، فإنَّ التقابل يقتضي صفاء القلوبِ، كما يحتمل أن يكونا صفتين لـ﴿إِخۡوَٰنًا﴾(4)، لتقييد أخوَّتِهم بكونِها على سرر ومتقابلين، ليفيد دوامَ أُلفتهم ومحبَّتِهم وسرورِهم في أخوَّتهم، ففيه تعظيمٌ لشأنِ الأخوَّة في الدين.

سرُّ التعبير بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾:

علوُّ مكانتهم في نعيم الجنان

في التعبير بكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 9/138، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/169.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/364، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/483.
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/204، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80.
(4) أبو البقاء العكبري، التبيان: 1/569، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/212.

إشارة إلى عُلوِّ مكانتهم ورفعة منزلتهم وتمكُّنهم من الأسرة، وغير ذلك مما يدلُّ على جملة من أنواع النعيم.

فائدة تردُّد المتعلَّق بين الذكر والحذف:

قلة الكلمات وكثرة المعاني

يحتمل أن يتعلَّق قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ بمحذوف، تقديره متكئين على سرر متقابلين، ودلَّ على هذا قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٢٠﴾ [الطور: 20]، وقريب منه قوله سبحانه: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦﴾ [الواقعة: 15 - 16]، ويحتمل أن يتعلَّق بقوله: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، ودلَّ على هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٤٣ عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٤﴾ [الصافات: 43 - 44]، وكل هذه الاحتمالات صحيحة، وكلُّ هذه المعاني متحقِّقة وزيادة.

نكتة التعبير بلفظ ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾:

ما أحلى الاجتماع مع الأصحاب! وما أمرَّ الاجتماعَ مع الأضداد!

لمّا كان التقابل بمعنى التواجه، وهو نقيض التدابر؛ أفادَ دوامَ تقابلهم، فهم في جميع أحوالهم متقابلين في الوجوه، والمواجهةُ أشْرَفُ الْأَحْوالِ، وأحسنُ في الرُّتبةِ والأنسِ وفي التَّلاقي والمحادثة، وفيه كنايةٌ عن اجتماعِهم وأُلفتِهم ومودَّةِ بعضِهم بعضًا، وتواصلهم وتصافيهم وخلوص محبَّتِهم، وهو مناسب لنزع الغِلِّ، فإنَّ الغِلَّ يقتضي التَّدابرَ حسًّا ومعنًى(1).

توجيه المتشابه اللفظي في الآية:

أوفى وصفٍ بعدَ تطهيرِ القلوبِ من الغلِّ هو الأخوَّة في الإيمانِ

جاء في هذه السّورة قولُ اللّٰه تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا﴾ بزيادة ﴿إِخۡوَٰنًا﴾، وقال تعالى في موضعٍ آخر: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ [الأعراف: 43]، والتَّوجيه فيهما هو أنَّ آية سورة الحِجر نزلت في أصحاب رسول اللّٰه ﷺ،

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/613، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/364، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148.

وآية سورة الأعراف نزلت في عامَّة المؤمنين[1]، كما أنَّه في سورة الحِجر لمّا كان المرادُ تعدادَ أحوالِهم عندَ اجتماعِهم في الجنَّة بقلوبٍ صافيَةٍ، قد نُزِعَ منها الغِلُّ من كونهم على سرر متقابلين، ولا يمسُّهم فيها نصبٌ وتعبٌ وما هم عن الجنَّة بمخرجين؛ ناسب أن يُسبَقَ الكلامُ بذكر أوفى وصفٍ بعدَ تطهيرِ القلوبِ من الغِلِّ، وهو أُخوَّتهم في الإيمانِ، وأمّا في سورة الأعراف؛ فقد اكتفى بذكر أهمِّ وصفٍ عندَ دخولِهم الجنَّة، وهو نزعُ الغِلِّ من صدورِهم من دون ذكر أحوالِهم عندَ الاجتماع لمناسبة ذكر نعيمهم فيها وشكر اللّٰه على هدايتِهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الغِلُّ والضغينة والحقد والحسد:

نَـزْعُ الـغِـلِّ من صـدور المؤمنين في الجنَّة تصفيةٌ لجميعِ الخِصالِ المذمومةِ

الغِلُّ بالكسرِ هو ما يتخلَّل القلب، ويخالطُه ممّا يوجب العداوة والشَّحْناء، ويبقى فيه كامنًا، وينتج منه الحقدُ والضَّغينةُ والحسدُ والبغضاء وغيرها من الخصال المذمومة، ولهذا عُرِّفَ الغِلُّ بالغِشِّ والعَداوةِ والضِّغْنِ والحقْدِ والْحَسَدِ، فالغِلُّ أعمُّ، ومنه تنشأ الصفاتُ المعنويَّةُ المذمومةُ، ولهذا كان نزعُ الغِلِّ من صدور المؤمنين في الجنَّة تصفيةً لجميعِ الخِصالِ المذمومةِ التي تكونُ في القلوبِ، ولو قيل: (ونزعنا ما في صدورهم من حقدٍ) مثلًا، أو (من ضغينةٍ أو من حسدٍ)؛ لقيل: وما حالُ الأوصاف الذميمةِ الأخرى، فعُبِّرَ بالغلِّ للإيذانِ بنزعِ جميعِ الخصالِ القبيحةِ، وذهب القرطبيُّ إلى أنَّ الغِلَّ هو الحقْدُ الكامنُ في الصَّدر، وعلى هذا القول يكون الفرقُ بينَ الغِلِّ والحقدِ: أنَّه لمّا كانَ الحقدُ إمساكَ العداوةِ في القلبِ والتَّربُّصَ بمَن يحقد عليه؛ كان الحقدُ على معنى إضمار الشَّرِّ، ولا يكون كامنًا

(1) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/298.

ومتلبِّسًا بالقلب مثل الغِلِّ، كما أنَّ الغِلَّ هو حقدٌ مضمَّن معنى الحسدِ فيكون الغِلُّ أعمَّ من الحقدِ وأشدَّ تمكُّنًا في القلب منه، والفرق بين الحقد والضَّغينة: هو أنَّ الضَّغينةَ هي الحقد الغليظ الشَّديد الذي ينطوي عليه القلب، فيكونُ مضمرًا مكتومًا، فالضَّغينة أشدُّ من الحقدِ[1].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 7/208، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حقد، ضغن، غل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حقد، ضغن).

﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ٤٨﴾ [الحجر: 48]

لا ينالُ المتَّقين أيَّ تعبٍ في الجنَّة مع خلودِهم فيها

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا كانَتِ الدُّنْيا مَحَلَّ تَعَبٍ بما يُقاسَى فِيها مِنْ طَلَبِ المَعِيشَةِ، وَمُعاناةِ التَّكالِيفِ الضَّرورِيَّةِ لِلحَياةِ الدُّنْيا والحَياةِ الآخِرَةِ، وَمُعاشَرَةِ الأَضْدادِ، وَعُروضِ الآفاتِ والأَسْقامِ، وَمَحَلَّ انْتِقالٍ مِنْها إلَى دارٍ أُخْرَى مَخوفٌ أَمْرُها عِنْدَ المُؤْمِنِ، لا مَحَلَّ إقامَةٍ؛ أَخْبَرَ تَعالَى بِانْتِفاءِ ذَلِكَ في الجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ﴾[1].

وأيضًا لما كان النَّظر في الدوام والمآل بعد دخولِ المتَّقين في جنّاتٍ وعيونٍ؛ قال تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمَسُّهُمۡ﴾: أصلُ (مسَّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[3]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بيدِك، وَهوَ مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فَمِنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرَ: ما يُصِيبُ مِنْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالَى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12][4]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[5]، وحاجةٌ ماسَّة، أي: مُهِمَّة، وَقَدْ مَسَّتْ إليه الحاجَةُ[6].

والمسُّ في الآية: مُستعملٌ في مُطلَقِ الإصابةِ على وجهِ المجازِ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/483،
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/63.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/316.
(5) الخليل، العين: (مسس).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).

2) ﴿نَصَبٌ﴾: أصلُ النَّصَبِ: الإعْياءُ مِنَ العَناءِ، ومَعْناهُ: أنَّ الإنسانَ لا يَزالُ مُنتصِبًا حتَّى يُعْيِيَ[1]. والفعلُ نَصِبَ الرَّجُلُ، بِالكَسْرِ، نَصَبًا: أعْيا، وتَعِبَ؛ وأنْصَبه هو، وأنْصَبَني هذا الأمْرُ، وهَمٌّ ناصِبٌ مُنْصِبٌ: ذو نَصَبٍ، مِثْلُ تامِرٍ ولابِنٍ، وهو فاعلٌ بمعْنَى مَفْعولٍ؛ لأنَّه يُنْصَبُ فِيهِ ويُتْعَبُ، وعَيْشٌ ناصِبٌ: فِيهِ كَدٌّ وجَهْدٌ. والنُّصُبُ: الدّاءُ والبَلاءُ والشَّرُّ. وفي التَّنزِيلِ العَزِيزِ: ﴿مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: 41]، والنَّصِبُ: المريضُ الوَجِعُ؛ وَقَدْ نَصَبهُ المَرَضُ وأنْصَبه[2]. والمقصود بالنَّصَبِ في الآية: التَّعَبُ النّاشِئُ عن استعمالِ الجُهْدِ.

3) ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾: أصلُ (خرج): النَّفاذُ عن الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا. والخُراجُ بالجَسَدِ. والخَراجُ والخَرْجُ: الإتاوَةُ؛ لأنَّهُ مالٌ يُخْرِجُهُ المُعْطِي[3]، الخُروجُ: اسمٌ من أسماءِ يوم القِيامةِ، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ [ق: 42]، أي: يَوْمَ يُبْعَثونَ، فَيَخْرُجون من الأرْض[4]. والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ، ومنه سُمِّي الخوارجُ بذلك؛ لِخُروجِهم على النّاسِ[5]. والمقصود بالخروج في الآية: ضِدُّ الدُّخول. والمرادُ: باقون في الجنّات بقاءً سرمديًّا دائمًا لا ينقطع[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيَّن اللّه تعالى في الآية أنَّ الحياة التي يحياها أهل الجنَّة، حياة أمن، وسلام، وراحة، فلا عمل إلّا ذِكر اللّه تعالى، والتَّسبيح بحمده، والشُّكر لنعمه، ومن تمام هذا النَّعيم أن الَّذي فيه لا يتهدَّده خوفٌ

لا ينالُ المُتَّقينَ في الجنَّةِ أيُّ تَعَبٍ أو مَشَقَّةٍ، ومن دَخلَها لا يَخرُجُ منها

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصب).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نصب).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (خرج).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خرج).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خرج).
(6) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/51.

من أن يفارقه هذا النَّعيم أبدًا، أو يفارق هو هذا النَّعيم، بل هو نعيمٌ دائمٌ مُتَّصل[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

جملة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾ بين الاستئناف والحال:

تعدُّد أحوالِ أهلِ الجنَّة من نعم الله عليهم

تحتمل جملة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أن تكونَ استئنافًا؛ لتفيدَ تعدُّد الإخبار لما له شأنٌ، كما أنَّ في تعدُّد الإخبار تكثيرًا لِلمعنى، وزيادةً في الإيضاحِ والبيانِ، كما تحتمل أن تكون جملةً حاليَّةً[2]، فيكون الكلام من باب ذكرِ حال بعدَ حال، وفي تعدُّد الأحوال تصويرٌ لهيئاتِ المتَّقين في الجنَّة وبيانٌ لأحولِهم؛ ترغيبًا فيها وحثًّا على الاتِّصاف بأوصاف المتَّقين.

بلاغة الكناية في قولِه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾:

لا يصيب المتَّقين أيُّ نصبٍ في الجنَّة وإن كانَ قليلًا

عُبِّرَ بالمسِّ كِنايَةً عَنِ الإصابَةِ؛ ونكتة التَّعبير بالكناية الإشعار بانتفاء إصابتِهم بأقلِّ ما يقعُ عليه النَّصب، فالمسُّ أقلُّ تمَكُّنًا من الْإصابَة، وَهوَ أقل درجاتها؛ لأنَّ المسَّ أقلُّ ما يكون من لصوقِ شيءٍ بالبشرةِ بحيث تتأثَّر به الحاسَّة أو يكون بلصوقٍ من غيرِ إحساسٍ، والمعنى: لا يصيبُهم فيها أيُّ نَصَبٍ ولو كان قليلًا[3].

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ﴾:

التَّرقي في نعم الله على أهل الجنَّة تكريمٌ وتشريفٌ لهم

يعود الضَّمير على المتَّقين بما اتَّصفوا به من كونِهم يدخلون الجنَّة بسلامٍ وكونِهم آمنين، وقد نزع اللّٰه تعالى الغِلَّ من صدورِهم، فهؤلاء المتَّقون الموصوفون بهذه الأوصاف لا يمسُّهم في الجنَّة نصبٌ، فالكلامُ على طريقة التَّرقّي في النِّعَم.

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/204.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/163.
(3) أبو حيان البحر المحيط: 6/483، والكفوي، الكليات، ص: 799.

دلالة مجيء الاسم نكرةً في ﴿نَصَبٌ﴾:

الحركةُ في الجنَّة من غيرِ تعبٍ ولا نصبٍ

أفاد تنكيرُ الاسم ﴿نَصَبٌ﴾ التَّقليل، بل العدم؛ لأنَّه لمّا جاء الاسم النَّكرة في سياق النَّفي؛ أفاد عمومَ انتفاء مسِّهم بأيِّ نصبٍ، فإذا انتفى أقلُّ النَّصبِ؛ انتفى أكثرُه، وانتفت ديمومتُه، والمعنى: لا يكونُ للمؤمنين في الجنَّة ما يوجبه من الكدِّ في تحصيل ما لا بُدَّ لهم منه؛ لحصول كلِّ ما يريدونه من غير مزاولةِ عملٍ أصلًا، أو بألّا يعتريَهم ذلك، وإن باشروا الحركاتِ العنيفة لكمال قوَّتِهم(1).

دلالة التركيب في قولِه: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾:

انتفاءُ خروجِ المؤمنين من الجنَّة أبدَ الآباد

أفاد التَّركيبُ الاسميُّ المنفيُّ ثبوتَ مضمونِ الجملة ودوامَه، بمعنى انتفاء خروجِهم من الجنَّة أبدَ الآبادِ(2).

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿وَمَا هُم﴾:

من أعظمِ النِّعَم في الجنَّة نعمةُ الخلودِ فيها

بعدَ أن ذكر اللّٰه تعالى أنَّ المتَّقين الموصوفين بالأوصاف المذكورة لا يمسُّهم فيها نصبٌ؛ ترقَّى في ذكرِ نعمةٍ أعظمَ وأفضلَ، وهي نعمة الخلود، فلا أحدَ يستطيعُ إخراجَهم من الجنَّة.

فائدة الباء في قولِه: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾:

الاحتراس من احتمال تخصيص العام

أفادت الباء تأكيد نفي إخراجِهم من الجنَّة، وبقاء عموم نفي إخراجهم من الجنة، والمبالغة فيه، وذلك بالاحتراس من احتمال تخصيص العام.

دلالة تقديم قولِه: ﴿مِّنْهَا﴾:

عِظمُ نعماء الجنَّة وجلالُها

قُدِّمَ الجار والمجرور - في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ - لإفادة الحصر الإضافي وتأكيدِه، كما يؤذن التَّقديم بعظمِ نعماء الجنَّة وجلالِها(3).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80، والبروسوي، روح البيان: 4/472، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/56.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4092.

دلالة الاسم نكرة في قولِه: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾:

أفاد مجيءِ الاسم نكرة في سياق النَّفي - في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ - العمومَ، بمعنى انتفاء أيِّ إخراجٍ لهم من الجنَّة.

انتفاء أيِّ إخراجٍ لعباد الله المتقين من الجنَّة

نكتة تذييل الكلامِ عن نعيم الجنَّة:

جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّه تعالى بعدَ أن يدخلَهم الجنَّة، ويذيقهم من نعيمها، إخوانًا على سرر متقابلين من غيرِ أن يمسَّهم فيها نصبٌ، يتمِّم نعمتَه عليهم بالبقاء فيها، وعُبِّرَ بنفي الإخراجِ للإشعارِ بانتفاء الخوفِ من خروجِهم من الجنَّة، فيكون فيه تمام النَّعيم، فإنَّ تمامَ النِّعمةِ الخلودُ[1]، والمراد بنفي خروجِهم من الجنَّة كَوْنُهُ خُلودًا بِلا زَوالٍ، وَبَقاءً بِلا فَناءٍ، وَكَمالًا بِلا نُقْصانٍ، وَفَوْزًا بِلا حِرْمانٍ[2].

إتمامُ نِعَمِ الله على المؤمنين في الجنَّةِ بالبقاء فيها من غير فناءٍ، والكمالِ بلا نقصانٍ، والفوزِ بلا حرمانٍ

نكتة الإخبارِ بقولِه: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾:

لم يقل: (وهم فيها خالدون) كما جاء في آياتٍ أخرى، فذكر الوصف بطريق النَّفي، فقال: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ لتكثير نعمِه تعالى عليهم، فإنَّه لما كان المُنْكِي في كلِّ شيءٍ إنَّما هو الإكراه؛ بني الاسم للمفعول، فقال: ﴿بِمُخْرَجِينَ﴾، للإشعار بأنَّه لا أحدَ يستطيعُ إخراجَهم من الجنَّة، كما حصلَ مع أبيهم آدمَ، كما أفادَ الوصفُ المنفيُّ الدلالةَ على أنَّه لا يمكن أن يوصفوا بأنَّهم مخرجون، فهو نفي للإخراج بأبلغ وجه، أي: ليس من شأنهم أنْ يُخْرَجوا[3].

لا أحدَ يستطيعُ إخراجَ المؤمنين من الجنَّة، كما حصلَ مع أبيهم آدمَ

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّصَب والتَّعب:

النَّصب هو التعب الذي يحصل من الإقامة على عملٍ شديد،

النَّصب لا يكون إلّا في عملٍ محمودٍ، والتَّعب يكون في عملٍ محمودٍ أو مذمومٍ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/148.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/63، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4092.

وقد يكون مصاحبًا للوجعِ، أي: هو التَّعَبُ الذي يصِيبُ المُنْتَصِبَ للأمرِ المُزاوِلَ له، ويقع النَّصبُ على التَّعب القليل والكثير، ومن الكثير ما أخبرَ اللّه تعالى عن قول موسى عليه السلام: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: 62]، وأمّا التَّعب؛ فقد يكون من عملٍ وجهدٍ، وقد يكونُ نفسيًّا[1]، ويقال النَّصب في الأمر المحمود، فناسب نفيُه عن أهل الجنَّة؛ لأنَّ جهدهم فيها محمودٌ، بمعنى أنَّهم يعملون، ويتحرَّكون، ويُنْجِزون، ولا يمسُّهم في عملِهم فيها نصَبٌ، وأمّا التَّعب؛ فيكون من عملٍ محمودٍ أو مذموم، وأمّا ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: 62]، فللإشارة إلى أنَّ السفر كانَ في أمرٍ محمود، وهو أن يتعلَّم موسى عليه السلام من العبد الصّالح ممّا علَّمه اللّه تعالى.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/475، والزمخشري، الكشاف: 3/614، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/364، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/34، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نصب).

﴿۞نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: 49 - 50]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبلَهُما:

من عادةِ القرآنِ الجمعُ بينَ الرَّجاءِ والتَّخويف، لئلّا يقعَ القنوطُ أو التَّمادي

لما كان المفهوم من هذا السياق أنَّ النّاجي إنَّما هو المتَّقي المخلَص الذي ليس للشيطان عليه سلطان، وكان مفهوم المخلَص من لا شائبة فيه، وكان الإنسان محلَّ النُّقصان، وكان وقوعه في النقص منافيًا للوفاء بحقِّ التَّقوى والإخلاص، وكان ربَّما أيْأسَه ذلك من الإسعادِ، فأوجب له التَّمادي في البعادِ، قال سبحانه جوابًا لمَنْ كأنَّه قال: فما حال من لم يقم بحقِّ التَّقوى؟ فقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، وربما كان الإخبار بهذه البشارة العظيمة سببًا للإصرارِ على المعصية والمخالفة؛ أمَرَهُ أن يذكرَ لهم شيئًا ممّا يتضمَّن التخويف والتَّحذير، حتَّى يجتمع الرَّجاء والخوفُ، ويتقابل التبشير والتَّحذير، ليكونوا راجين خائفين، فقال تعالى عطفًا على مفعولِ ﴿نَبِّئۡ﴾: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾[1].

وأيضًا لمّا ذكر اللّه تعالى الجنَّة والنار وذكر ما فيهما على وجهِ التَّرغيب والتَّرهيب؛ ذكر ما يوجبُ دخولهما من أوصافِه تعالى، للإيذانِ بأنَّ مرجعَ دخول الجنَّة والنّار إلى اللّه تعالى وحدَه[2].

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَبِّئۡ﴾: أصلُ (نبأ): ظُهورٌ مَسْبوقٌ بِخَفاءٍ[3]، كالإتْيانِ مِنْ مكانٍ إلى مَكانٍ. يُقالُ لِلَّذِي يَنْبأُ مِنْ أرضٍ إلى أَرْضٍ نابِئٌ، ومِنْهُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/62 - 63، والشوكاني، فتح القدير: 3/161.
(2) السعدي، تفسير السعدي: 1/431.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نبأ).

النَّبأُ: الخَبَرُ؛ لأنَّهُ يأتِي مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ(1). والأَنْباءُ: جَمْعُ نَبأٍ، وأنباءُ الغَيْبِ الأخبارُ المُغَيَّبَةُ عَنِ النّاسِ أو عَنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ(2)، والإنباءُ الإخبارُ بالنَّبأِ، وهو الخَبَرُ ذو الفائدةِ العظِيمَةِ، بحيثُ يَحْرِصُ السّامِعونَ على اكتسابِهِ؛ ولذلكَ تَضَمَّنَ الإنباءُ معْنَى الإعلامِ؛ لأَنَّ المُخْبَرَ بِهِ يُعَدُّ مِمّا يُعْلَمُ، وَيُعْتَقَدُ بوَجْهٍ أخَصَّ مِن اعْتِقادِ مُطْلَقِ الْخَبَرِ، فَهوَ أخَصُّ مِنَ الْخَبَرِ(3). والنَّبْأَةُ: الصَّوْتُ؛ لِأَنَّ الصَّوْتَ يَجِيءُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ومَنْ هَمَزَ لفظَ النَّبِيِّ (النَّبِيء)؛ فَلأَنَّهُ أَنْبأَ عَنِ اللهِ تعالى(4). والنُّبوءَةُ: سِفارَةٌ بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ ذَوي العُقولِ مِنْ عِبادِهِ لإزاحَةِ عِلَلِهم في أَمْرِ مَعادِهم ومَعاشِهم. وتَنَبَّأَ فلان: ادَّعى النُّبوَّةَ(5). والمقصودُ بالإنباءِ في الآيةِ: الإخبارُ عَنْ أَمْرٍ عَظِيمٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

اجتماع التبشيرِ والتَّحذيرِ، ليَكونوا راجينَ خائِفينَ

يقول الحقُّ سبحانه وتعالى: أخبِرْ يا رسول اللهِ صلَّى اللهُ عليك وسلَّم عبادي خبَرًا جازِمًا مُؤكَّدًا: أنِّي أنا كثيرُ المَغفِرةِ لذُنوبِهم؛ إذا تابوا، فأستُرُ ذُنوبَهم، وأتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم، كثيرُ الرَّحمةِ بهم؛ إذا استقاموا، ومِن رحمتي أنِّي لا أعذِّبهم على الذُّنوب بعد تَوبتِهم منها، وأخْبِرْ عبادي أيضًا أنَّ عذابي لِمَن أصرَّ على الكُفرِ والمعاصي، فلم يَتُبْ منها، هو العذابُ الموجِعُ الكثيرُ الإيلامِ؛ فلْيَحذَروا أسبابَ عَذابِي، ولْيُقبِلوا على التَّوبةِ والإنابةِ إليَّ(6).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/92.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/412.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (نبأ).
(5) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبأ).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/81، والشوكاني، فتح القدير: 3/161، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بلاغة الفذلكة في قوله: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ﴾:

ما وعد الله به المؤمنينَ من الجنّات والعيون إنَّما هو بفضله ورحمتِه

لما أتمَّ ذكرَ الوعدِ المشار إليه بقولِه: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾، والوعيدِ المرموز إليه بقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوۡعِدُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾؛ أتبعه بقولِه تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ تقريرًا لِما ذُكِرَ، وتمكينًا له في النُّفوس، وليكون من بابِ الإجمالِ بعدَ التَّفصيل، ولمّا قدَّم في الإجمالِ ما أخَّر في التَّفصيلِ؛ أشعرَ بقربِ الوعدِ من عبادِه سبحانه، وفيه تنبيهٌ إلى أنَّ ما وعدوا به من الجنّات والعيون إنَّما هو بفضل الله تعالى ورحمتِه، وأنَّهم إنَّما استحقّوه بمقتضى وعدِه[1].

سبب إيثار التَّعبير بلفظ ﴿نَبِّئۡ﴾:

الإيذانُ بعظمِ ما يخبَرُ عنه وأنَّه ممّا ينبغي الإصغاء إليه لعمومِ فائدتِه وعِظَمِ أثرِه

لمّا كانَ النَّبأ هو الخبرَ ذا الفائدةِ الجليلةِ والشأن العظيم[2]؛ عُبِّرَ هنا بقولِه: ﴿نَبِّئۡ﴾ للإيذانِ بعِظَمِ ما يخبَرُ عنه، وأنَّه ممّا ينبغي الإصغاءُ له لصدقِه ولِفائدتِه العظيمة، والمعنى: أخبرْ عبادي خبرًا جليلًا عظيمًا[3]، ولمّا كان ما يُخبَرُ عنه أمرًا عظيمًا، وفيه معنى الكلِّيَّة؛ كان ما جاء في الآيتين جاريًا مجرى الأمثال في عمومِه والإخبار به.

سرُّ التَّعبير بصيغة ﴿نَبِّئۡ﴾:

الإيذانُ بطلبِ تكرارِ الإخبارِ عن أوصافِ الله لِعَظِيمِ أثرِها في الإيمانِ

عُبِّرَ بـ﴿نَبِّئۡ﴾ دونَ (أنبِئْ) لدلالةِ صيغة (فعَّل) على تكثير الفعل، بمعنى طلب تكرار الإخبارِ، لعِظَمِ الخبرِ وأهمّيَّتِه، كما أنَّ فيه تنبيهًا على تحقيقه وكونه من قِبَلِ الله[4].

سرُّ التَّعبير بصيغة الخطاب في قولِه: ﴿نَبِّئۡ﴾:

لمّا كان الخطابُ للرَّسول ﷺ بصيغة الأمر، أفادَ أنَّهُ أمَرَ رَسولَهُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/580، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) الراغب، المفردات: (نبأ)، والكفوي، الكليات، ص: 886.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/64.
(4) الراغب، المفردات: (نبأ).

ﷺ أنْ يُبَلِّغَ أتباعَه هَذا المَعْنَى، فَكَأَنَّهُ أَشْهَدَ رَسولَهُ عَلَى نَفْسِهِ في الْتِزامِ المَغْفِرَةِ والرَّحْمَةِ، وفي كونِ عذابِه هو العذاب الأليم، والخطابُ وإن كان الأصل فيه أن يكونَ لمعيَّنٍ، ولكنَّه هنا عامٌّ، فيشمل كلَّ مَنْ يَسْمَعُ الْأَمْرَ مِنْ أَهْلِهِ من أتباعِ رسولِ اللّٰه ﷺ، ويدخل فيه الرَّسول ﷺ دخولًا أوَّليًّا، باعتبارِه المخاطَب الأوَّل، للإيذانِ بأنَّه تعالى أشهدَ رسولَه في التزام المغفرة والرَّحمة لأتباعِه المؤمنين، كما تقدَّم[1].

إشهادُ الرَّسول ﷺ دليلٌ على التزام اللّٰه بالمغفرة والرَّحمة لأتباعِه المؤمنين

دلالة تعدية الفعل في قوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾:

لمّا كان رسولُ اللّٰه ﷺ مأمورًا بتبليغ كلِّ القرآن، وكان مأمورًا بتبليغ أوصاف اللّٰه تعالى التي أمرَه أن يبلِّغَها؛ كان تخصيصُ الأمر هنا بقوله: ﴿عِبَادِيٓ﴾ تشريفًا لهم ولِلإشعار بأنَّه قريبٌ منهم، والمعنى: نبِّئْ كُلَّ مَنْ كانَ مُعْتَرِفًا بِعُبوديَّتي، فيَدْخُلُ فيهِ المُؤْمِنُ المُطيعُ، والمُؤْمِنُ العاصِي، تَغْلِيبًا لِجانِبِ الرَّحْمَةِ والمغفرةِ مِنَ اللّٰه تَعالَى[2].

كلُّ أتباعِ رسولِ اللّٰه ﷺ لهم نصيبٌ من المغفرة والرَّحمة

نكتة التَّعبير بقوله: ﴿عِبَادِيٓ﴾:

لمّا جاء ذكر العبادِ على الإضافة إلى للّٰه تعالى على معنى: أنَّهم موصوفون بكونهم عبادًا للّٰه تعالى، ثُمَّ أَثْبَتَ عَقِيبَ ذِكْرِ هَذا الْوَصْفِ الحكمَ بِكَوْنِهِ غفورًا رَحيمًا، وكان تَرْتِيبُ الْحُكْمِ عَلَى الْوَصْفِ الْمُناسِبِ مُشْعِرًا بِكَوْنِ ذَلِكَ الْوَصْفِ علَّةً لِذَلِكَ الْحُكْمِ؛ دلَّ عَلَى أنَّ كُلَّ مَن قامَ بحقِّ عبوديَّتِه للّٰه تعالى؛ ظَهَرَ في حَقِّهِ كَوْنُ اللّٰه غفورًا رَحِيمًا، وَمَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ؛ كانَ مُسْتَوْجِبًا للعذابِ الأليم[3].

مَن قامَ بحقِّ عبوديَّتِه للّٰه تعالى عرف أنّ اللّٰه غفور رَحيم، وَمَنْ أنْكَرَ استوجب العذاب الأليم

فائدة الإضافة في قوله: ﴿عِبَادِيٓ﴾:

لمّا أضافَ اللّٰه تعالى العبادَ إلَى نفسِه؛ أفاد تفخيمهم وتَشْرِيفَهم تشريفًا عَظِيمًا[4].

تشريف عباد اللّٰه تعالى وتعظيمهم

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.

تعظيمُ شأنِ الخبر عن الله تعالى

فائدة تعدية الفعل بنفسِه إلى المصدر المؤوَّل:

لمّا كان الفعل (نبَّأ) يتعدّى بنفسِه وبحرف الجرِّ؛ كانت تعديتُه هنا بنفسِه إلى المصدر المؤوَّل: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على سبيل المبالغة في تعظيم شأنِ ما عدّي إليه[1].

مجيء الإسنادِ هنا بطريق المصدر المؤوَّل أبلغ في ثبوتِ المعنى ودوامِه

بلاغة التَّعبير بالمصدر المؤوَّل في الآية:

أفاد التَّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل - في قولِه: ﴿أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ - إثباتَ إسناد المغفرة والرَّحمة إلى اللّٰه تعالى، وأن يكون المنبَّأ به جملة إسناديَّة بمعنى تصوُّر إثباتِ المسند (الوصفين الجليلين) لِلمسند إليه على طريق الحصر؛ لأنَّ المرادَ تصوُّرُ إثباتِ المغفرة والرحمة على جهة إسنادِهما للّٰه تعالى، ليفيدَ الإسنادُ اختصاص اتِّصاف اللّٰه بهما، ودوام ذلك، وظهور أثرهما في عباده.

تقريرُ إثباتِ وصفَي المغفرة والرَّحمة لله تعالى

بلاغة تتابع التأكيد في الآية:

لَمّا ذَكَر اللّٰه تعالى المَغْفِرَةَ والرَّحْمَةَ؛ بالَغَ في إثباتِ الوصفَين له ﷻ، فأكَّد الكلامَ بـ(أنَّ) و﴿أَنَا﴾ واسميَّة الجملة، لتقريرِ إثباتِ الوصفين للّٰه تعالى في نفوس المخاطَبين، وللإشعار بقربِ رحمتِه ومغفرتِه منهم.

قربُ الله تعالى من المؤمنين دليلٌ على قربِ مغفرتِه ورحمتِه منهم

سرُّ التَّعبير بصيغة ﴿أَنِّيٓ أَنَا﴾:

لم يقل: (نبِّئْ عبادي أنَّ اللّٰه هو الغفور الرحيم) بصيغة ضمير الغائب؛ لِما يؤذِنُ به ضمير المتكلِّم ﴿أَنِّيٓ أَنَا﴾ بقربِ المتكلِّم وحضورِه عندَ المخاطَبين، فتكون مغفرتُه ورحمتُه أقربَ وأيسر تحصيلًا.

الله وحدَه هو الغفورُ الرَّحيمُ

فائدة مجيء الضَّمير ﴿أَنَا﴾:

يُحْتَمَلُ في ﴿أَنَا﴾ أن يكونَ مبتدأ ثانيًا، و﴿ٱلۡغَفُورُ﴾ خبرًا عنه، وتكون الجملة الاسميَّة خبرًا عن اسم (أنَّ)، كما يحتمل أن يكون ضميرَ فصلٍ، فيفيد تأكيدَ الخبرِ أو تأكيدَ ياءِ المتكلِّم[2]، وعلى كلٍّ يفيد

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/164.

التَّركيب الحصرَ لمجيء الجملة اسميَّةً على التَّوجيه الأوَّل، أو لدلالة ضمير الفصل على التَّوجيه الثّاني، والمعنى: إنّي أنا وحدي الغفورُ الرَّحيمُ، فلا ملجأ لغفرانِ الذُّنوب وللرَّحمة إلّا إلى اللّه تعالى[1].

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

كمالُ المغفرة والرَّحمةِ لله وحدَه

(ال) هنا لاستغراق الأنواع والأفراد الدال على الكمالِ، بمعنى: أنَّي أنا وحدي الذي أتَّصفُ بكمالِ المغفرة والرَّحمة، وأنَّهما يستغرقانِ جميعَ أنواع المغفرة والرحمة، فهو المالك لسائر أنواعهما، ويستغرقانِ كذلك جميعَ عباده سبحانه، أي: هو الذي أحاط محوه للذنوب ورحمته وإكرامه لمن يريد بجميع ما يريد، لا اعتراض لأحد عليه[2].

بلاغة ذكرِ الوصفين ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

الإنسانُ لا ينفكُّ عن حاجتِه إلى مغفرةِ الله ورحمتِه

لمّا اتَّصلت هذه الآية بذكرِ المتَّقين وأحوالِهم في الجنَّة في ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ﴾؛ ناسَبَ ذِكْرُ الْغُفْرانِ والرَّحْمَةِ هنا، وناسبَ تقديمُ هذين الْوَصْفَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ اللَّذَيْنِ وَصَفَ بِهِما نَفْسَهُ على وصفِ عذابِه، كما أنَّه لمّا بدأ بِالصِّفَةِ السّارَّةِ أَوَّلًا وَهِيَ الْغُفْرانُ، وأتبعها بِالصِّفَةِ الَّتِي نَشَأ عَنْها الْغُفْرانُ، وَهِيَ الرَّحْمَةُ؛ كانَ تَرْجِيحًا لِجِهَةِ المغفرةِ والرَّحْمَةِ، وفي ذكر المغفرة إشعارٌ بأنَّه لم يرد بالمتقين من يتَّقي جميعَ المعاصي، كبيرَها وصغيرَها، وأنَّ المكلَّف لا ينفكُّ عن حاجتِه إلى مغفرة اللّه ورحمتِه[3].

براعة التوصيف بالمغفرة والرَّحمة:

المغفرة والرَّحمة فضلٌ من الله، والعذاب توجبُه ذنوبُ العباد

لمّا ذكر اللّه تعالى المغفرة والرَّحمة؛ أسندَ الوصفين إليه سبحانه، ولمّا ذكر الْعَذابَ؛ لَمْ يَقُلْ: (وأنِّي أنا الْمُعَذِّبُ المؤلِم)، وَما وَصَفَ نَفْسَهُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/64، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والبقاعي، نظم الدرر: 11/64.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/483، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80.

بذَلِكَ، بَلْ قالَ: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ للإيذانِ بأنَّهما، أي: الوصفين ممّا تقتضيهما ذاتُه ﷻ، وأنَّ العذاب إنَّما يتحقَّق بما توجبُه ذنوبُ العبادِ، كما أنَّ في تقديم الوصفين وإسنادِهما إلى ذاتِه الشَّريفة ترجيحٌ لِلوعدِ بالمغفرة والرَّحمة على عذابه وتأكيدِه، ومن مرجِّحات الوعدِ أنَّ الإضافةَ في قولِه: ﴿عَذَابِي﴾ لا تستدعي حصولَ المضاف إليه بالفعل، بمعنى: أنَّ عذابي إذا وقعَ هو العذابُ الأليمُ(1).

دلالة مجيء المغفرة والرَّحمة بصيغة فعيل:

المبالغة في الوصف يستدعي المبالغة في الفعل

لمّا جاء الوصفان ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ على صيغة المبالغة؛ أفادا تأكيدَ مغفرتِه ورحمتِه سبحانه لعباده المتَّقين، وأنَّ مغفرتَهُ ورحمتَهُ تحيطان بجميع عبادِه.

براعة العطف في قولِه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾:

لا يُكتَفَى بالإنباءِ عن مغفرة الله ورحمتِه حتَّى يخبرَ عن عذابِه الأليم

لمّا كان العطفُ يقتضي تعلُّقَ العامل بالمعطوف والمعطوف عليه معًا؛ أفاد في قولِه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ أنَّ الإخبار عن عذابِ اللّٰه تعالى الأليم هو أيضًا خبرٌ عظيمٌ، وله شأنٌ كبيرٌ، وتقدير الكلام: (ونبِّئْ عبادي أنَّ عذابي هو العذاب الأليم)، فيفيد الأمرُ وجوبَ اقترانِ الجملتين في الإنباء، وأنَّه لا يُكتفى بالإنباءِ الأوَّل حتَّى يُنبَأ عن الثّاني إتمامًا للمعنى، فما ذكر في بحث ﴿نَبِّئْ﴾ و﴿عِبَادِيٓ﴾ يجري في الجملة المعطوفة كذلك، وأفاد العطف أنَّ الجنَّة لمن استغفر، وأنَّ جهنَّم لمن غوى، وعُرِفَ كذلك أنَّ المتقين إنَّما دخلوا الجنة بمغفرتِه ورحمتِه، وأنَّ الغاوين إنَّما عُذِّبوا بعدلِه(2).

دلالة الإضافة في قولِه: ﴿عَذَابِي﴾:

عذابُ الله ليسَ كأيِّ عذابٍ ممّا يعرفُه النّاس في الدُّنيا

الإضافة هنا على معنى الاختصاص بمعنى: أنَّ العذاب الذي هو مختصٌّ باللّٰه تعالى ليس كأيِّ عذابٍ بل هو العذاب الأليم.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/149، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/64.

فائدة الضمير ﴿هُوَ﴾:

عذابُ الله وحدَه هو العذاب الأليمُ

في قولِه: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ يحتمل الضَّمير ﴿هُوَ﴾ أن يكونَ مبتدأ ثانيًا، وخبره ﴿ٱلْعَذَابُ﴾، وتكون الجملة خبرًا لـ(أنَّ)، كما يحتمل أن يكونَ ضميرَ فصلٍ، ويكون ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ خبرًا لـ(أنَّ)[1]، فعلى الوجه الأوَّل يفيد الإخبار بالجملة الاسميَّة تقوِّي الحكم وتقريرَه، وفيه معنى القصرِ كذلك بدلالة الجملة الاسميَّة، وعلى الوجه الثّاني يفيد الكلامُ القصرَ بضمير الفصل على جهة التَّصريح مع تأكيدِ الخبر، والمعنى: أنَّ عذابي هو وحدَه العذابُ الأليم.

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلْعَذَابُ﴾:

عذاب الله هو العذاب الكامل الأوصاف

تفيد (ال) معنى الكمال، بمعنى أنَّ عذابي هو العذاب الكامل الأوصافِ في التعذيب، والذي يستحقُّ وحده أن يسمَّى عذابًا، فأيُّ عذاب سوى عذاب اللّه ليس بعذابٍ كاملِ الأوصافِ، ولمّا كان حملُ المسندِ على المسندِ إليه من أجلِ أن يفيدَ فائدةً متجدِّدةً؛ دلَّ على أنَّ المرادَ بالإخبار عن ﴿عَذَابِي﴾ المسندُ ونعتُه جمعًا وإفرادًا، والتَّقدير: وأنَّ عذابي هو العذاب الكامل الأليم، فيكون اللّه تعالى قد أخبر عن عذابه بأنَّه العذاب الكامل، وأنَّه أليمٌ، وإنَّما جاء بطريق النَّعت، وليس بطريقِ تعدُّد الخبر للإشعارِ بأنَّ عذابَه لا ينفكُّ عن كونه أليمًا، فهو وصفٌ لازمٌ له.

فائدة (ال) في قولِه: ﴿ٱلْأَلِيمُ﴾:

ألم العذاب في جهنَّم هو الألم الكامل الأوصاف

تفيد (ال) معنى الكمال كذلك، والمعنى الكامل في الألم، بحيث لا يوجد عذابٌ يستحقُّ أن يوصفَ بأنَّه أليمٌ سوى عذاب اللّه تعالى، أعاذنا اللّه منه.

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/164.

دلالة الوصف في قوله ﴿ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾:

العـذاب يـومَ القـيـامـةِ لا يشبهه عـذابٌ آخر

لمّا كان العذاب لا يكونُ إلّا موجِعًا، وكان الأليم بمعنى الموجِعِ الوجعَ الشَّديد؛[1] أفاد الوصف تقريرَ ما تضمَّنه ذكر العذاب من كونِه مؤلِمًا موجعًا وجعًا شديدًا، بمعنى: أنَّ العذاب مؤلمٌ لِمَن يقع عليه، وأنَّه قد بلغ الغاية في ذلك بحيث لا يشبهه عذابٌ آخر.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النَّبأ والخبر:

حـقُّ الـنَّـبَـأِ أن يـكـونَ لـشـأنٍ عـظـيـمٍ وأن يـتـعـرَّى عـن الكذب

النبأ هو الخبر الذي له وقعٌ وشأنٌ عظيمٌ، ومنه اشتقاق النبوَّةِ على القول بأنَّها مسهَّلة من النُّبوءة، لأنَّ النبيَّ مخبرٌ عن اللّه تعالى، ولا يكون النَّبأُ إلّا للإخبار بما لا يعلمه المخبَر، ويجوز أن يكون الخبر بما يعلمه، وبما لا يعلمه، ولهذا يقال: تخبرني عن نفسي، ولا يقال: تنبئني عن نفسي، وكذلك تقول: تخبرني عمّا عندي، ولا تقول: تنبئني عمّا عندي، ولهذا يقال: سيكون لفلان نبأٌ، أي: شأنٌ عظيمٌ، ولا يقال: سيكون له خبر بهذا المعنى، وحقُّ الخبر الذي يقال فيه: نبأ أنْ يتعرَّى عن الكذب، فقد يقع الكذب في الخبر، ولا ينبغي أن يقع الكذب فيما يُنبأُ عنه[2].

توجيه المتشابه اللفظي:

مناسبةُ اللفظ لسياقه وسباقِه

جاء في هذه الآيةِ تقديم وصفِ المغفرة على وصف العذابِ، فقال تعالى: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾، وجاء في سورة المائدة قولُه تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٩٨﴾ [المائدة: 98]، ومناسبتُه أنَّ قوله: ﴿نَبِّئۡ﴾ أمرٌ من اللّه إلى الرسول بأن ينبئَ الخلق، وقُدِّمَ الوصفُ بالمغفرةِ والرَّحمةِ على العذابِ الأليمِ؛ لأنَّ المقصودَ بالإخبارِ اتِّصاف اللّه

(1) الراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ألم).

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 41، والرّاغب، المفردات: (نبأ)، والكفوي، الكليات، ص: 886.

تعالى بوصفي المغفرة والرَّحمةِ، ولأَنَّ المقامَ مقامُ تفضُّلٍ وإحسانٍ لِما سبقَ من ذكرِ الجنَّة وأحوالِها ونعيمِها، فقُدِّمَ الجانبُ الذي فيه اللُّطفُ والإحسانُ، وأمّا آيةُ المائدةِ؛ فقد ذكرت عقيب أحكام شرعيَّةٍ عظيمة، فيها مخالفة لأوامر الله تعالى ونواهيه، وقد يخلُّ بها المرءُ، فقُدِّمَ فيها جانبُ التَّهديدِ، فناسبَ كلٌّ سياقَه[1].

(1) ابن عثيمين، تفسير ابن عثيمين: 2/436.

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ [الحجر: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذكرُ قصص الأنبياء للتَّرغيب في الطّاعة والتَّحذير من المعصية وللاعتبار بهم

لمّا كانَ حصولُ القنوط سببًا لآية المغفرة، والإخبارُ بعذاب الأمم تمثيلًا لآية العذاب؛ ذكرَ اللّٰه تعالى هذه القصَّة عطفًا على ﴿نَبِّئْ عِبَادِيٓ﴾ لتحقيقِ ما يعتبر به المخاطَبون، وليزدجر الغاوون، وأفردَ لهم ذكر من هو أقرب إلى بلادهم ممَّن يعرفونه من المعذَّبين؛ لأنَّه أوقع في نفوسِهم، وليتخذوا ما حَلَّ من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط اللّٰه وانتقامه من المجرمين، ويتحقَّقوا عند ذلك أن عذابه هو العذاب الأليم(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَيْفِ﴾: أصلُ (ضيف): أصلٌ واحِدٌ صَحِيحٌ، يَدُلُّ على مَيْلِ الشَّيءِ إلى الشَّيْءِ، وانْعِطافُهُ إليه، يُقالُ: أَضَفْتُ الشَّيْءَ إِلَى الشَّيْءِ: أَمَلْتُهُ. وضافَتِ الشَّمْسُ تَضِيفُ: مالَتْ؛ وكذلكَ تَضَيَّفَتْ؛ إذا مالَتْ للغُروبِ، والضَّيْفُ مِنْ هذا لِمَيْلِهِ إلى صاحب البيت(2)، يُقالُ: أَضَفْتَه وضَيَّفْتَه: أَنْزَلْتَه عليكَ ضَيْفًا، وأَمَلْتَه إِلَيْكَ، وقَرَّبْتَه، وَلِذَلِكَ قِيلَ: هوَ مُضافٌ إِلَى كَذا، أي: مُمالٌ إِلَيْه، وَيُقالُ: أضافَ فُلانٌ فُلانًا، فَهوَ يُضيفُه إضافَةً؛ إذا ألجأه إِلَى ذَلِكَ(3)، والضِّيفُ: جانب الوادي. وتَضايَفَ الوادي: تضايَقَ(4). والمقصود بالضَّيْفِ في الآية: الضّائفُ، أي: النّازلُ في مَنْزِلِ أحد الناس نُزولًا غيرَ دائِمٍ،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/192، والبقاعي، نظم الدرر: 11/64، 65.

(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضيف)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضوف، ضيف).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضيف).

(4) الخليل، العين: (ضيف).

والمراد بضيف إبراهيم هنا: الملائكة الَّذين نزلوا عنده ضيوفًا في صورةٍ بشريَّة[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

في أنباء الرُّسل وما جرى لهم ما يوجب العِبرة والاقتداء بهم

يقول تعالى: وأخبِرْ عبادي - يا رسول اللّه صلَّى اللّه عليك وسلَّم - عن قِصَّةِ الملائكة؛ ضُيوفِ إبراهيمَ عليه السلام؛ فإنَّ في قَصِّك عليهم ذلك ما يوجِبُ لهم العِبرةَ[2].

هذه القِصَّةُ فيها إثباتُ الملائكةِ، وأنَّهم أحياءٌ، ناطِقونَ، مُنفَصِلونَ عن الآدميِّينَ، وقد تواتَرَ في الكُتُبِ الإلهيَّةِ والأحاديثِ النبويَّةِ أنَّ الملائكةَ تتصَوَّرُ بصورةِ البشَرِ، ويُرونَ في تلك الصورةِ، فيُخاطِبُهم، ويراهم في هذه الصّورة الأنبياءُ وغيرُ الأنبياءِ، كما أخبَرَ اللّه عن ضيفِ إبراهيمَ، ورؤيةِ سارَةَ امرأةِ الخليلِ عليه السلام لهم، وكما كان الصَّحابةُ يَرَون جبريلَ؛ إذا جاء في صورة بشر، ومن ذلك رؤيتُهم له لمّا جاء في صورةِ أعرابيٍّ، وفي صورةِ دِحْيةَ الكلبيِّ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

فائدة الوصل بالواو في قولِه: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾:

اعتبار المؤمنين بما جرى لإبراهيم وما حلَّ بقومِ لوطٍ عليهما السلام

لمّا كانَ العَطفُ بالواو يقتضي الاشتراك في الحُكم، وكانَ فعلُ المَعْطوفِ والمَعْطوف عَلَيْهِ متَّحدًا في الصيغة؛ أفادَ أنَّ المقصودَ الإِنْباءُ بِكِلا الْأَمْرَيْنِ لمناسبةِ ذِكرِ الْقِصَّةِ لما سبق، وأنَّها مِنْ مَظاهِرِ رَحْمَتِه تَعالَى وَعَذابِه، وفائدةُ العطفِ اعتبارُ المؤمنين بما جرى على إبراهيمَ عليه السلام مع أهله من البشرى في تضاعيف الخوفِ، وبما حلَّ بقومِ لوطٍ من العذاب ونجاة لوط عليه السلام مع أهله التابعين له في ضمن

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/54.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/35، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432، والشنقيطي، أضواء البيان: 2/279.

(3) يُنظر ما أخرجه البخاري، الحديث رقم: (4777)، ومسلم، الحديث رقم: (8، 9).

الخوف، وتنبيهُهم بحلول انتقامِه تعالى من المجرمين، وعلمُهم بأنَّ عذاب اللّٰه هو العذاب الأليم[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾:

تعظيم شأنِ ما ذكِرَ في قصَّة إبراهيم للإصغاء إليها

أفاد التعبير بلفظِ ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ أنَّ كلَّ ما يذكَر في قصَّة إبراهيم عليه السلام له شأنٌ عظيمٌ، وأثر بالغ، ينبغي الإصغاء إليه لعظيم أثرِه عندَ المؤمنين وعمومِه فيهم.

دلالة الضَّمير في قولِه: ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾:

ذكرُ قصَّة إبراهيم ولوطٍ تحقيقٌ لذكر وصفَي المغفرة والرَّحمةِ ووصفِ عذابِه الأليم

لمّا كان الضَّمير عائدًا على ﴿عِبَادِيٓ﴾[2]؛ أفاد أنَّ المعنى: ونبِّئْ عبادي الموصوفين بما أنبَأتَهم به في الآية السابقة عن ضيفِ إبراهيم، فيكون الإنباء عن وصفَي اللّٰه تعالى وعن عذابِه مقدَّمًا على الإنباء بقصَّة إبراهيم ولوطٍ عليهما السلام ليكون ذكرُ القصَّة تحقيقًا ودليلًا على ما ذكر من وصفَي اللّٰه تعالى ووصفِ عذابِه.

سبب تعدية الفعل ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾ بـ﴿عَن﴾:

الإخبار عن شأنٍ عظيمٍ

لمّا كان الفعل (نبَّأ) يتعدَّى بنفسِه - كما جاء في الآية السابقة - ويتعدَّى بحرف الجرِّ (عن) كما هنا أفادت تعديته بـ﴿عَن﴾ معنى الإخبار عن شأنٍ عظيم مع بيانِ تفصيلِه[3].

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿ضَيۡفِ﴾:

الضّيافة موضعُ استئناسٍ وراحةٍ وسرور

عُبِّر عن الملائكة بأنَّهم ضيفٌ للإيذانِ بأنَّهم نزلوا بسيدنا إبراهيم عليه السلام على وجهِ زيارته، وأنَّهم ممَّن يستأنسُ بهم، ولمّا تعلَّقت الكلمة بالفعل ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ﴾؛ دلَّ على أنَّ هؤلاء الضَّيف لهم شأنٌ، وأي شأنٍ، وأنَّ نزولَهم بإبراهيم عليه السلام ليس على وجهِ الضِّيافة فقط، ودلَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/80، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/57.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/150.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/172.

وصف الملائكة بالضَّيف على أنَّ الضيفَ اسمٌ لكلِّ نازلٍ على آخر، طَعِمَ عنده أو لم يطعم، وكان نزوله للطَّعام أو لا[1].

سبب تسمية الملائكة بالضَّيف:

الضَّيف له صورةٌ وهيئةٌ، وله حق ومكانة

سُمّوا ضيفًا؛ للإشعارِ بأنَّ مجيئهم كان في صورة من كان ينزل به ﷺ من الضَّيفِ، فوجب أن يستحقوا كرم الضيافة[2].

سبب عدم ذكر وصفِ الرِّسالة:

وصفُ الضِّيافة غـــيرُ وصــف الرِّسالةِ

عُبِّرَ عن الملائكة بـ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ﴾، فلم يتعرض لعنوان رسالتِهم؛ لأنَّهم لم يكونوا مرسَلين إلى إبراهيمَ ﷺ، بل إلى قوم لوطٍ ﷺ، حسبما يأتي ذكرُه في الآيات اللّاحقة[3].

فائدة اسم الجنس الإفرادي (الضَّيف):

حق الضَّيف أن يُكْرَمَ، ولو كان منفردًا

الضيف له حقُّ العناية والرعاية والإكرام بالطعام والشراب والإيناس وغير ذلك، يستوي في ذلك القليل والكثير، حتى وإن كان واحدًا.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 4/121.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/65، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/304.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

وقائعُ قصّةِ ضيفِ إبراهيمَ، مُتمثّلةً في دخولِهم مُسلّمين، ووجَلِه منهم

لمّا ذكر الوعدَ والوعيدَ ذكرَ ما يُحقّقُ ذلك لِما تضمّنَه منَ البُشرى والإهلاكِ بقولِه سبحانه: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ۝٥١﴾ [الحجر: 51] إلى آخرِه(1)، وبيَّن قصَّةَ ضيفِ إبراهيمَ لكلّ سائلٍ، كأنَّه قيل: ما شأنُ ضيفِ إبراهيمَ وما أمرُهم؟ فقيل: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰمًا﴾، الآيةَ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجِلُونَ﴾: أصلُ الوجَلِ: يدلُّ على استشعارِ الخَوفِ. يُقالُ: وَجِلَ يَوْجَلُ وَجَلًا، فهو وَجِلٌ(2)، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: 2]. والوَجَلُ خَوْفٌ مع فَزَعٍ فيكونُ لاستعظامِ المَوجولِ منه، وقد جاءَ فِعْلُ وَجِلَ في الفَصِيحِ بكسرِ العَيْنِ في الماضِي على طريقةِ الأفعالِ الدّالَّةِ على الانفعالِ الباطِنيِّ مِثْلَ فَرِحَ، وَصَدِيَ، وهَوِيَ، ورَوِيَ، وأُسنِدَ الوجَلُ إلى القُلوبِ؛ لأنَّ القَلْبَ يكثُرُ إطلاقُهُ في كلامِ العَرَبِ على إحساسِ الإنسانِ وقَرارةِ إدراكِه، وليسَ المُرادُ به هذا العُضْوَ الصَّنوبريَّ الَّذي يُرسِلُ الدَّمَ إلى الشَّرايينِ(3). والمقصودُ بالوَجَلِ في الآيةِ: الخوفُ الشَّديدُ.

المَعنى الإجماليُّ:

أدبُ الضَّيفِ التَّحيةُ والسَّلامُ، قبْلَ التّكرمةِ والطّعامِ

حينَ دخَلَ الملائِكةُ على إبراهيمَ، فقالوا له عَقِبَ دُخولِهم: نسلِّمُ عليك سَلامًا، قال لهم إبراهيمُ بعدَ أن ردَّ ﷺ: إنّا منكم خائِفونَ؛ لأنَّهم دخلوا عليه بلا إذنٍ وفي وقتٍ لا يجيءُ في مثلِه طارقٌ، أو

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/304.
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وجل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/256.

لأنَّه حين قرَّب إليهم العِجلَ الحنيذَ لم يأكلوا منه، والضَّيفُ إذا لم يأكل ممّا يُقدَّمُ له منَ الطَّعام يُظنُّ أنَّه لم يأتِ لخيرٍ، ويُؤيِّدُ هذا قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: 70][1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ فصْلِ الآيةِ عن سابِقتِها:

قَصصُ الأنبياءِ تَجليةٌ للآدابِ، واسْتِخلاصٌ لِما في الأخلاقِ من رُضابٍ

جاءتِ الآيةُ على طريق الفصلِ؛ للإيذانِ بأنَّ ما يُذكرُ في هذه الآيةِ هو الخبرُ الذي أمرَ اللّه رسولَه محمَّدًا ﷺ أن يُنبِّئَ به، فجملةُ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ بمفهومِها بيانٌ للمفعول به المحذوفِ للعلم به في قولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ [الحجر: 51]؛ إذِ الكلامُ بتقدير: ونبِّئْهم النّبأَ عن ضيفِ إبراهيمَ، لتفيدَ الجملةُ البيانيَّةُ إزالةَ الخفاءِ عنِ النّبأ، مع اقتضاءِ المقامِ إزالتَه، ويحتملُ أن تكونَ بدلًا منَ المفعولِ المحذوفِ، فجاء بطريق البَدلِ لكونِ الكلامِ السّابقِ غيرَ وافٍ بتمامِ المرادِ ولِكونِه أمرًا عجيبًا، فيُشعرُ بوجوب الاعتناءِ به، فيظهرُ بمجموعِ البدلِ والمُبدلِ منه مزيدُ اعتناء بشأنِه وإيضاحٍ لأمرِه[2].

دَلالةُ تصْديرِ الآيةِ بالظّرفِ ﴿إِذْ﴾:

جَوْهَرُ قصّةِ الملائكةِ مع إبراهيمَ، العِبرةُ للمخاطَبين والتّالين

لمّا أفاد الأمرُ في الآيةِ السّابقةِ في قولِه تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ﴾ [الحجر: 51] أنَّ ضيفَ إبراهيمَ لهم شأنٌ بما يُفيدُه لفظُ الإنباءِ أكَّدَ هذا الأمرَ فتصدّرتِ الآيةُ بالظّرفِ ﴿إِذْ﴾ للإشعارِ بعِظَم شأنِ الإخبارِ عنهم وما أتَوا به في ذلك الوقتِ، ولتنبيهِ السّامعين إلى الإصْغاءِ لِما يُذكرُ في الخبرِ عنهم، ففيه تعظيمٌ لشأنِ ذلك الوقتِ لعظَم ما وقعَ فيه منَ الأحداثِ، فإنَّ تعظيمَ الظّرفِ تعظيمٌ لِما وقع فيه.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/82، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/213، والمراغي، تفسير المراغي: 14/32.
(2) الدّسوقيّ، حاشية الدّسوقيّ على مختصر المعاني: 2/460.

دَلالةُ الضّميرِ المُتّصلِ بالفعلِ ﴿دَخَلُواْ﴾:

لمّا عاد الضّميرُ على ﴿ضَيۡفِ﴾ [الحجر: 51] أفادَ أنَّ دخولَهم على إبراهيمَ عليه السلام كان بعُنوانِ الضّيفِ، إيذانًا بالأمانِ له، وأنَّهم كانوا جماعةً، للإشعارِ بعِظَمِ شأنِ ما جاؤوا إليه، فإنَّ دخولَ الجماعة ليس كدخول الفرد هيبةً وإجلالًا للمدخول إليه وبما جاؤوا به.

الدّخولُ إلى البيوتِ بعُنْوانِ الضّيافةِ، إيذانٌ بالأمانِ

فائِدةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في جملةِ ﴿فَقَالُواْ﴾:

تفيدُ الفاء التّرتيبَ والتّعقيبَ، أي كان قولُهم السّلامَ مُرتَّبًا على دخولِهم، وكانَ سلامُهم عَقيبَه من غيرِ مُهلةٍ، إشعارًا بمبادرتِهم إلى طَمأنةِ إبراهيمَ عليه السلام.

الابتداءُ - عَقيبَ الدّخول - بالسَّلامِ، سُنَّةُ الملائكةِ الكرامِ

سِرُّ مَجيءِ الضّميرِ جمْعًا في ﴿فَقَالُواْ﴾:

جُمِعَ الخبرُ عنهم، وهم في لفظٍ واحدٍ، فإنَّ الضَّيفَ اسْمٌ للواحد والاثنين والجمع، ليدلَّ على أنَّ الضَّيفَ كانوا جماعةً.

لفظُ الضَّيفِ يتناولُ المفردَ والجماعةَ

نُكتةُ تَعدِيةِ ﴿دَخَلُواْ﴾، بـ(عَلَى):

أشعرَ تعليقُ تعديةِ الفعل بـ(عَلَى) أنَّ دخولَ الملائكةِ على إبراهيمَ عليه السلام كان دُخولَ جلالٍ وجمالٍ واستعلاءِ تمكُّنٍ وسُموٍّ مخالفًا لدخول بقيَّةِ الضُّيوفِ، فعَظَمةُ المُرسلِ وهو اللّه تعالى تُضفي على المُرسَلِ تشريفًا وتكريمًا.

عظَمةُ المُرسِلِ، تُضفي شرفًا وتكريمًا على المُرسَلِ

دَلالةُ لفْظِ ﴿سَلَٰمٗا﴾ في الآيةِ:

لمّا كان لفظُ السِّلم والسّلامة، يدلُّ على التَّعرّي منَ الآفات الظّاهرةِ والباطنةِ أفاد أنَ ضيفَ إبراهيمَ لمّا دخلوا عليه وكانوا غرباءَ حيَّوْه بالسَّلام؛ للإيذانِ بأنَّهم دخلوا عليه بتحيَّةٍ يبرأُ بها من كلِّ أذًى وعيبٍ وضرٍّ ظاهرًا وباطنًا، ليكونَ دخولُهم دخولَ أمانٍ واستئناسٍ له عليه السلام.

السَّلامُ سُنَّةُ الأنبياءِ والرُّسُلِ والملائكةِ، وتحيَّةُ أهلِ الجنَّةِ

نُكتةُ مجيءِ لفْظِ ﴿سَلَٰمٗا﴾ منصوبًا:

يحتملُ أن يكونَ ﴿سَلَٰمٗا﴾ مصدرًا لفعلٍ محذوف للإيجاز،

أوّلُ ما تكلَّمَ بهِ الضّيوفُ الفِخامُ، مع إبراهيمَ الخليلِ هو السّلامُ

وتقديرُه (سلَّمنا عليكَ سلامًا) بصيغة الماضي لإفادة تحقّقِ الوقوعِ أو (نسلِّمُ عليك سلامًا) بصيغة المضارع لإفادة الاستمرارِ، ليفيدَ ذكرُ المصدرِ تأكيدَ السَّلام وتقريرَه، واللّفظُ وإن جاء بصيغةِ الخبرِ لكنَّ المرادَ منه إنشاءُ السّلام، فيكونُ الكلامُ بطريقةِ مجيءِ الإنشاءِ بصيغة الخبرِ، لإثباتِ وقوعِه وتحقُّقِه وكأنَّه حاصلٌ، ولهذا كان تقديرُ الفعل بصيغة الماضي أولى، أو يكونُ نصبُ ﴿سَلَٰمًا﴾ بإعمال ﴿فَقَالُواْ﴾ فيه، كأنَّه قيل: قالوا قَوْلاً هو سَلامًا، أي لفظُ ﴿سَلَٰمًا﴾ هو معنى ما تكلَّمت به الملائكةُ، ويفيدُ اللّفظُ على التّوجيهَين أنَّ السَّلامَ هو أوّلُ قولٍ تكلَّمَ به الضّيفُ مع إبراهيم عليه السلام[1].

دَلالةُ التَّنكِيرِ فِي لفْظِ ﴿سَلَٰمًا﴾:

السّلامُ يُفيدُ السّلامةَ من كلِّ عيبٍ وأذًى

أفاد التّنكيرُ تعظيمَ سلامِ الملائكة وتفخيمَه بما يناسبُ السّلامَ على سيّدنا إبراهيمَ عليه السلام، ولمّا كان اللّفظُ في سياق التّكريم أفادَ العمومَ والمبالغةَ في المعنى، بمعنى عمومِ السّلامةِ من كلِّ عيبٍ أو أذًى.

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآية:

استِدرارُ أسماعِ المخاطَبين، بالمُساءلةِ عن أقاويلِ الطّرفَيْن

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان في العُرفِ والعادةِ فيما بينَ المخلوقينَ، إذا قيل لهم: دخلَ قومٌ على فلان، فقالوا كذا، أن يقولوا: فما قال هو؟، ويقول المجيبُ: قال كذا، جاء الكلامُ هنا على هذا المخرج[2]، فكأنَّه قيل: فماذا قال إبراهيمُ عليه السلام؟، فأتى قولُه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ على سبيلِ إثارةِ المُتلقّي، واستدرارِ سمْعِه وإصغائه.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ ﴿قَالَ﴾:

مَخايلُ خَوفِ إبراهيمَ عليه السلام، بلسان الحالِ أوِ المقالِ

يحتملُ أن يكونَ القولُ بلسانِ الحالِ، فيَكونُ ذكرُ القَولِ هُنا على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/382، والواحدي، البسيط: 11/467، والزمخشري، الكشاف: 2/580، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/365، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/173.
(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/240.

طريقِ المجازِ بالاستعارة، بتشبيهِ ما ظهرَ على إبراهيمَ عليه السلام من مَخايلِ الخَوْفِ حَتَّى صارَ كالقولِ المُصَرَّحِ بِهِ، ووجْهُ الشّبه هو ظهورُ المعنى، ويحتملُ أن يكونَ بلسانِ المقال، فيكونَ حقيقةً[1]، وتقدَّمَ أنَّ الكلامَ جاء على الاختصار، بطيِّ ذكْرِ ردِّ السَّلام وتقديمِ الطّعام وعدمِ أكلِ الملائكة منه، لمناسبةِ المقام.

دَلالة (إنَّ) في الآية:

الحِوارُ يُزيلُ اللَّبسَ في المقالِ، وإنّما شِفاءُ العِيِّ السّؤالُ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾، وفيه تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملةِ - أي تأكيدُ وجلِ إبراهيمَ وأهلِه منَ الملائكةِ - وتقريرَه؛ لعلَّهم يُزيلون الوجلَ ببيانِ سببِ مجيئِهم، والغايةِ منه.

سِرُّ التَّعبير بصيغةِ الجمْعِ في ﴿إِنَّا﴾:

إفادةُ (نا) تعظيمَ الوجلِ، أو إشراكَ أهلِ إبراهيمَ معه

يحتملُ أن يكون ضميرُ الجمع (نا) للتّعظيم، إشعارًا بعظَم الوجَلِ، بحيث لو كان في الموضعِ جمْعٌ منَ النّاسِ لأصابَهم الوجَلُ منهم، أو أن يكونَ قد جمَعَ أهلَ بيتِه معه في الوجلِ منهم[2].

بَلاغةُ تقْديم ﴿مِنكُمۡ﴾ على ﴿وَجِلُونَ﴾:

التّقديمُ للاهتمامِ والتّخصيصِ، من فصيحِ البَيانِ

لمّا كان أصلُ الكلام: إنّا وَجلونَ منكم، كان تقديمُ الجارِّ والمجرور على متعلَّقِه لإفادة الاهتمامِ والتّخصيصِ بمعنى ما كانَ وجلْنا إلّا منكم.

دَلالةُ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾:

تردّدُ (مِنْ) بين الابتداءِ والسّببيَّةِ، مُفيدٌ في الدّلالةِ البيانيّةِ

تحتملُ (مِنْ) أن تكونَ ابتدائيَّةً لتفيدَ أنَّ ابتداءَ وقوعِ وجَلِهم كانَ منَ الملائكة، كما تحتملُ أن تكونَ سببيَّةً بمعنى أنَّ حصولَ الوجَلِ كان بسببِكم، ليفيدَ أنَّه عليه السلام كان مُطمئنًّا قبْلَ مجيئِهم.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَجِلُونَ﴾:

لمّا كانَ الوجَلُ هو استشعارُ الخوفِ في القلبِ، أو هو اضطرابُ

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/484، والبقاعيّ، نظم الدرر: 11/66.

(2) أبو القاسم الكرماني، لباب النقول، ص: 995، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/173.

النّفسِ لتوقّعِ ما يُكرَه[1] عُبِّرَ به هنا؛ للإشعارِ بأنَّ إبراهيمَ وصفَ ما وقعَ في قلبِه مِن استشعارِ الخوفِ ممّا رآه منهم على سبيل المبالغةِ فأخبرَ عن ذاتِه كُلِّها بالوجَلِ.

الوجَلُ اسْتِشعارٌ للخوف في النّفس، وقد ترتعدُ منه الفَرائصُ

نُكتةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ ﴿وَجِلُونَ﴾:

تحتملُ صيغةُ (فَعِلٌ) أن تكونَ صفةً مشبَّهةً على معنى المبالغةِ في اتّصافِ إبراهيمَ عليه السلام بالوجَلِ منَ الملائكة، ممّا يُشعِرُ أنَّ اتّصافَه بالوجلِ ليسَ على معنى دوامِ الثّبوتِ، بل هو متعلِّقٌ بخوفِه منهم، فلمّا بشّروه ذهبَ عن إبراهيمَ الوجَلُ، وتحتملُ أن تكونَ اسمَ فاعلٍ، لإفادة معنى اتّصافِه بالوجلِ في الحالِ، وأنَّه ذهب لمّا بشّروه بغلامٍ عليم، والصّيغةُ هنا قد روعيَ فيها جانبُ الحدثِ أكثرَ من جانبِ الاسْميّةِ، لظهورِ الوجَلِ واستشعارِ الخوفِ على إبراهيمَ عليه السلام منَ الملائكةِ.

زالَ وجَلُ إبراهيمَ عليه السلام، بمُجرّدِ أن بشّرتْه الملائكةُ

سببُ الوجَلِ في الآية:

لمّا جاء الكلامُ على مقابلة سلامِ الملائكةِ بالخوفِ منهم، كان على خلافِ مُقتضى الظّاهر، وفي الكلامِ إيجازٌ، فقد جاء في آيةٍ أخرى أنَّه عليه السلام ردَّ عليهم السلام ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هود: 69]، ونُكتةُ الإيجازِ بالحذف، سنذكرُها في توجيه المُتشابهِ اللّفظيِّ، وإبراهيمُ عليه السلام إنَّما خافهم؛ لأنَّهم امتنعوا منَ الأكلِ إذ رأى أيدِيَهم لا تصلُ إليه وهم في صورة البشرِ، كما قال: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [هود: 70]، لِما أنَّ المعتادَ عندهم أنّه إذا نزلَ بهم ضيفٌ فلم يأكلْ من طعامِهم ظنّوا أنّه لم يجئْ بخير، فالعلامةُ المؤمِّنَةُ حين ينزلُ الضّيفُ أن يأكلَ الطعام، وكذلك هو في غابرِ الدّهرِ أمنَةٌ للنّازل والمنزولِ به، ولأنَّهم دخلوا بغير إذنٍ وبوقتٍ لا يُعهدُ ولا يُعتادُ الدّخولُ فيه، ولم يظهرْ عليهم أثرُ السَّفرِ أصلًا، فعند ذلك وجِلَ منهم؛ فإنّ الإمساكَ عن تناولِ طعامِ الكرامِ موضعٌ للرّيبة، فلمّا

الملائكةُ في صورة البشر، يُخاطِبُهمُ الأنبياءُ وغيرُهم

(1) الحرالي، تراث أبي الحسن، ص: 201، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.

رأى ذلك ظنَّ إبراهيمُ أنَّهم ملائكة؛ وأنَّهم ما جاءوا إلّا لأمرٍ عظيمٍ؛ حيث لم يتناولوا ممّا قرّبَ إليهم، فأخبرَهم بوجَلِه منهم(1).

تَوْجيهُ التّشابُهِ اللّفظيِّ في الآية:

عـادةُ القُـرآنِ في القَـصَـصِ الـتّـفـصـيـلُ في مـوضـعٍ، والإيجازُ في آخرَ

أوّلًا: جاء في أكثرَ من موضع ذكرُ ردِّ إبراهيم السّلامُ عليهم، كما في قوله تعالى ﴿قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هود: 69]، وقوله: ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٢٥﴾ [الذّاريات: 25]، فإنَّه إذا ذُكِرَ تسليمٌ من قوم على قوم، وردُّ الآخرين عليهم، دلّ ذلك على مسالمة بعضِهم بعضًا(2)، وسببُ طيِّ ذكرِ سلامِ إبراهيمَ عليه السلام هنا وذكرِه في سورة هود والذّارياتِ هو أنَّ الذي في سورتَيْ هود والذّاريات تفصيلٌ وإطنابٌ في ذكر ضيافة إبراهيمَ عليه السلام للملائكة المُكرمين ولِما حدثَ وقتَ بشارتِهم له بالغلام، وأمّا الذي في سورة الحجر فقد جاء الكلامُ على الإيجاز والاختصارِ، مع الإشارة إلى أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قامَ بمقتضياتِ الضّيافة من ردِّ السّلام وتقديمِ الطّعام حينَ قال في سورة الحجر ﴿ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٥١﴾ [الحجر: 51]، فالإضافة مشعرةٌ بوقوع الضِّيافة وتحقُّقِها منَ الطّرفين، فهم قد دخلوا عليه بالسَّلام والبشارةِ وهو قد أدَّى حقَّ الضّيافة، ولهذا وردَ ظرفُ الزّمانِ ﴿إِذۡ﴾ في سورة الحجرِ في صدرِ هذه القصَّة، فهو بمعنى حين، والحينُ قد يكون واسعًا، فيَذكرُ ما هو واقعٌ فيه تارةً جميعَه على ترتيبه، وأخرى على غير ذلك، وتارة بعضَه مع إسقاط البعض مع صدقِ جميع وجوهِ الإخبار لكونِه كان مشتملاً على الجميع، كما أنَّه لمّا ذكرَ في سورة الذّاريات لفظَ ﴿ٱلۡمُكۡرَمِينَ ٢٤﴾ [الذاريات: 24] ذكرَ ما يقتضي الإكرامَ وردَّ التّحية والإكرام، وأمّا في سورة الحجر لم يذكر اللّفظَ، فلم يقتضِ المقامُ ذكرَ ردّ إبراهيمَ، كما أنَّه لمّا كانت سورةُ الحجر

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/448، 9/384، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/275، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/365.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 15/383.

متأخّرةً عن سورة هود، والواقعةُ واحِدَةٌ اكْتُفِيَ بها عَمّا وردَ في سورة هود؛ لأنَّ التَّقْديرَ: (فَقالوا سَلاما قالَ سَلام)، فحذفَ للدّلالة عليه، كما هو عادةُ القرآن المجيد[1].

ثانيًا: جاء في هذه السّورة التّصريحُ بوَجَلِ إبراهيم عليه السلام بصيغة القول، ﴿وَنَبِّئۡهُمۡ عَن ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٥١ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗا قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ ۝٥٢﴾ [الحجر: 51 - 52]، وجاء في سورة الذّاريات ذكرُ الخوفِ من غير تصريحٍ بأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد قال هذا القولَ، فقال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ۝٢٨﴾ [الذّاريات: 24 - 28]، وبيانُه أنَّه لمّا وصفَ اللّه تعالى الملائكةَ بالمُكرَمين في سورة الذّاريات، وذكر كلَّ الأمورِ المتعلّقةِ بالإكرام ومنها ردُّ السلام والمجيءُ بالعجل وتقديمُه لهم، وصف اللّه تعالى نبيَّه إبراهيمَ أنَّه أوجس منهم خيفةً، فوصف ما وقعَ في نفس إبراهيمَ عليه السلام من دونِ تصريحٍ؛ لأنَّ الإطنابَ في مقامِ التّكريم يُنافي أن يصرِّحَ لهم بالوجلِ والخوفِ منهم، وأمّا في سورة الحجر فقال تعالى على لسان إبراهيمَ عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ أي خاطبَهم مباشرةً، لمجيءِ القصّةِ على الاختصار في ذكرِ التّكريم[2]، ولأنَّ مدارها على ذكرِ مجيءِ الملائكةِ بالعذاب على قوم لوطٍ عليه السلام[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّة:

الوجَلُ والخوفُ والخشيةُ والفزعُ:

الوجَلُ هو استشعارُ الخوفِ أو هو اضطرابٌ في النّفس لتوقُّع ما

الـوجَـلُ أشـدُّ الخوفِ، والفزعُ مُـفـاجـأتُـه، والرّهبةُ طولُه، والـخـشـيَـةُ مـنَ الله فقط

(1) أبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156، والبقاعي، نظم الدرر: 11/66.
(2) الواحدي، البسيط: 12/615.
(3) السامرائي، لمسات بيانية، ص: 552.

يُكره، وهو وصفٌ يُصيب القلبَ، وأمّا الخوفُ فهو توقُّع مكروه في المستقبل، والخوفُ توصفُ به الذّاتُ كلُّها، وقيل الوجلُ خَوْفٌ مَعَ فَزَعٍ فيَكونُ لاسْتِعْظام المَوْجولِ مِنْهُ، ويكونُ أخصَّ منَ الخوفِ، وذهب بعضُهم إلى أنَّ الخوفَ أوّلُ المراتب، ثمّ بعده الوَجَلُ، ثمّ الخَشْيةُ، ثمّ الرَّهْبة، والفرقُ بين الخوف والفزع هو أنَّ الفزع مفاجأةُ الخوف عند هجوم غارةٍ أو صوتِ هدّةٍ وما أشبهَ ذلك، وهو انزعاجُ القلب بتوقّع مكروه، وأمّا الرّهبةُ فهي طولُ الخوف، فإذا امتدَّ الخوفُ واستمرَّ سمِّيَ رهبةً، والفرقُ بين الخوف والخشية هو أنَّ الخشية أشدُّ منَ الخوف، وخُصَّتِ الخشيةُ بالله تعالى، وتكونُ من عِظَم المَخشيِّ وإن كان الخاشي قويًّا، والخوفُ يكونُ من ضعفِ الخائفِ وإن كان المخوفُ أمرًا يسيرًا[1].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 242 - 243، والواحديّ، التفّسير البسيط: 10/18، والسّمعاني، تفسير السّمعاني: 3/92، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/213، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 3/70، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 428، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/256.

﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ ٥٣﴾ [الحجر: 53]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الإخْبارُ بِبِشارةِ الـولـدِ، تأنيسٌ للوالدِ وإدخالٌ للسّرورِ إلى قلبِه

لما أخبرَ اللّه تعالى أنَّ إبراهيمَ أخبرَ الملائكةَ بوجَلِه منهم، تشوَّفَ السّامعُ إلى جوابِهم، فجاءت هذه الآيةُ لإزالة الوجلِ من إبراهيمَ عليه السلام[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُبَشِّرُكَ﴾: أصلُ البَشَرة: انتشارٌ واسعٌ على ظاهر الشَّيء: كانتشار جِلدِ البَدن على ظاهره، وانتشارِ الشَّعر على الجلد، وأصل البِشْرِ بالكسر: الطَّلاقةُ والبشاشةُ وبسطُ الوجه: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١﴾ [الصافات: 101]، ﴿وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ﴾ [فصلت: 30]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ﴾ [الأعراف: 57]، ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ﴾ [البقرة: 119][2]. والبُشْرى: ما يُعطاه المُبَشِّر منَ الأمر، والجمع: بُشَر[3]، وهو الخبرُ الذي يُغيِّر البَشَرة مِن حُزْنٍ أو سُرورٍ، ثمَّ خُصَّ في عُرْفِ اللُّغة بالسُّرور، ولا تكونُ إلّا بالخبر الأوَّل[4]، فيُقالُ: أَبْشَرْتُ الرَّجُلَ، وبَشَّرْتُهُ أيْ أَخْبَرْتَهُ بِأَمْرٍ سارٍّ[5]، وسُمِّيَتْ بذلك مِنَ البِشْرِ وهو السُّرورُ؛ لأنَّها تُظْهِرُ طَلاقَةَ وَجْهِ الإنْسانِ وفَرَحَهِ، والمقصودُ بالبُشرى في الآية: الخبرُ السّارُّ المُفرحُ الذي يُظهرُ البشاشةَ على الوجه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/66.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بشر).

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 1/238، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بشر).

(4) النووي، تحرير ألفاظ التنبيه، ص: 267، والبقاعي، نظم الدرر: 11/184.

(5) ابن الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس: 2/128، والعوتبي، الإبانة في اللغة العربية: 2/280.

المَعنى الإجْماليُّ:

بِشارةُ المَلائكةِ بولادةِ إسْحاقَ، طَردتْ مخاوفَ إبراهيمَ، وأشعرَتْه بالأمانِ

يُخبرُ اللّه تعالى في الآية ما قالته الملائكةُ، لإدخال الطَّمأنينةِ على قَلْب إبراهيمَ، قالت الملائكة لإبراهيمَ على سبيل البشارةِ، وإدخالِ السُّرور على قلبه: لا تَخف مِنّا يا إبراهيمُ، ثمَّ عَلَّلوا ذلك بقَولِهم مؤكِّدينَ لِقَلع ما في نفسِه من الوجَلِ المُنافي للبُشرى، فقالوا: إنّا جئنا إليك لنُبشِّرك بغلامٍ ذي عِلْمٍ كثيرٍ بشريعةِ اللّه تعالى وبأوامره ونواهيه، وهو إسحاقُ عليه السلام[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانّي في الآيةِ:

اخْتِصارُ الحِوارِ، مِن بلاغةِ السّياقِ القرآنيّ المُعجِزِ

جاء الكلامُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ وذلك أنَّ مقتضى قولِه تعالى: ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾، أن يُتبَعَ هذا القولُ بقولٍ، فكأنَّه قيل: (فما قال الملائكةُ حين قال إبراهيمُ هذا القولَ)؛ لأنَّه يقتضي أن يكون منَ الملائكة كلامٌ في تأنيسِه وتَسكينه ممّا خامَره، فكأنَّه قيلَ: فما قالوا حينَ رأوه وقد تغيَّرَ ووَجِلَ منهم؟، فقيل: ﴿قَالُواْ لَا تَوۡجَلۡ﴾ جوابًا عن ذلك[2].

دَلالةُ النّهي في قولِه ﴿لَا تَوۡجَلۡ﴾:

النّهيُ عنِ الوجَلِ، هو الكفُّ عنِ الوجَلِ وأسبابِه

أفادت ﴿لَا﴾ النّاهيةُ طلبَ الكفِّ عنِ الوجَلِ بعدَ وقوعِه من إبراهيمَ عليه السلام، ولمّا كان الوجَلُ وصفًا معنويًّا كان المعنى: لا يكنْ منك وجلٌ ولا ينبغي أن يكونَ بل ليكنْ منك الفرحُ؛ فإنّا جئناك مُبشّرين، وإن كنّا لغيرك مُعذّبين، أو يقال: لمّا كان الوجلُ منَ الكيفيّاتِ النّفسيّةِ كان النّهيُ على معنى طلبِ الكفِّ عنِ السّببِ المُؤدّي إليه[3].

(1) البقاعي، إرشاد العقل السليم: 11/66، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 8/55.
(2) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 240.
(3) القشيري، لطائف الإشارات: 2/275، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/173.

سِرُّ حذْفِ مُتعلَّقِ الفعْلِ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾:

الحذفُ بين إرادةِ عُمومِ النّهْيِ، وطلَبِ تَرْكِ الاتّصافِ بالوجَلِ

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ في قولِه تعالى: ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ لإفادةِ العمومِ، والمعنى: لا توجَلْ من أيِّ شيءٍ، وهو المناسبُ لمقامِ سيّدنا إبراهيمَ عليه السلام، ويدخلُ فيه النَّهْيُ عنِ الوجل منَ الملائكة دخولًا أوّليًّا، ويحتملُ أن يكونَ الحذفُ على معنى النّهيِ عنِ الاتّصاف بالوجلِ مطلقًا، أي لا ينبغي أن تتّصفَ بالوجَل ولا يصحُّ وقوعُه منك، أو بمعنى: لا يأتِ منك الوجَلُ.

بَراعةُ الاسْتِئنافِ بجملةِ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾:

البِشارةُ تدفعُ الخَوفَ المُرعِبَ، وتمنعُ الوجلَ المُرهِقَ

جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ؛ ليكونَ جوابَ سؤالٍ تقديريٍّ عن سببِ النّهيِ عنِ الوجلِ، ليفيدَ الاستئنافُ معنى التّعليلِ وبيانَ الحجَّة للنّهيِ عنِ الوجلِ، فإنَّ المبشِّر لا يُخافُ منه، والمبشَّر لا يكاد يحومُ حول ساحتِه خوفٌ ولا حزنٌ، والمعنى إنَّك بمثابة الآمِنِ المبشَّرِ فلا توجلْ، وفيه إشارةٌ بأنَّ البشارةَ تدفعُ الخوفَ والوجلَ[1].

فائِدةُ أداةِ التّوكيدِ (إنَّ):

العملُ على قلْعِ ما في نفسِ إبراهيمَ عليه السلام منَ الوجَلِ

لمّا كانَ إبراهيمُ عليه السلام، قد كان له ظنٌّ بخلافِ ما جاءته به الملائكةُ منَ البشارةِ، ولهذا وجِلَ منهم، كان الموضعُ موضعَ تأكيدٍ بـ(إنَّ)، فكأنَّ ما رآه منهم يبعدُ مثلَه في الظّنِّ أن تكونَ البِشارةُ منهم، فجاءت (إنَّ) لتأكيدِ بشارتِهم له عليه السلام، ولقلْعِ ما في نفسه منَ الوجَلِ المُنافي للبُشرى[2].

بَراعةُ تقديم المُسبَّبِ على السّببِ:

تأنيسُ الخائفِ، مَنهجٌ مع المُؤالفِ والمُخالفِ

قُدِّمَ المسبَّبُ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾ على السّببِ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، فلم يقل: إنّا

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/584، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/66.

نبشّرُك بغلام عليم فلا توجَلْ؛ للمبادرةِ إلى تأنيسِه ودفْعِ الوجلِ من قلبِه، وليكونَ النّهيُ عنِ الوجل عامًّا كما تقدَّم في سبب حذْفِ متعلَّق الفعلِ ﴿لَا تَوْجَلْ﴾، فالعبرةُ بما يدلُّ عليه عمومُ حذفِ المتعلَّقِ وليس بخصوصِ السّببِ.

نُكتةُ التَّعْبير بلفْظِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

البِشارةُ يَعقبُها الفرحُ والسّرورُ، لِما لها من أثرٍ في شفاءِ الصُّدورِ

لمّا كانتِ البشارةُ هي الخبرَ السّارَّ الذي يبسطُ بشرةَ الوجهِ، وذلك أنّ النَّفس إذا سُرّت انتشرَ الدّمُ فيها انتشارَ الماء في الشّجر، فتَنْبَسِطُ بشَرةُ الإنسانِ عِنْد السّرور عُبّرَ بلفظِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ للإشعار بأنَّ ما يُبشّرونَه به يَعقبُه الفرحُ والسّرورُ.

دَلالةُ التَّعْبيرِ بصيغةِ (فَعّل) في الآية:

البِشارةُ بالغلامِ العليمِ، بِشارةٌ عظيمةٌ، لشيخٍ زوجتُه عقيمٌ

عُبِّرَ بصيغةِ (فعّل) الدّالَّةِ على التّكثيرِ في قولِه تعالى: ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ للدَّلالةِ على المبالغةِ في بِشارتِهم؛ للإشعارِ بأنَّ البشارةَ بالغلامِ العليمِ بشارةٌ عظيمةٌ.

نُكتةُ إسنادِ الفعْلِ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

قولُ الواحدِ مِنَ الملائكةِ المُرسَلين، قولٌ لجَميعِهم

لمّا كان الملائكةُ قد جاؤوا بأمرِ اللّه تعالى، وكانوا جميعًا مُؤتمِرين بأمر اللّه تعالى جاء الفعلُ مُسندًا إلى ضمير جماعةِ المتكلّمين؛ للإيذانِ بأنَّ قولَ واحدٍ منهم هو قولُ الجميع.

دَلالةُ مَجيءِ المسنَدِ جملةً في السّياقِ:

إفادةُ (إنَّ) تقويّةَ الحُكمِ، لأنَّ المقامَ مقامُ تأكيدٍ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾، وفيه جاءتِ الجملةُ الفعليّةُ خبرًا عن (إنَّ) لإفادة تَقَوّي الحُكم، والمرادُ تحقيقُ تبشيرِهم إبراهيمَ عليه السلام بغلامٍ عليم؛ لأنَّ المقامَ مقامُ تأكيدٍ لكبَرِ سنِّه هو وزوجُه، بحيث لا يُعهدُ الولدُ من مثلِهما، فيكونُ مجيءُ الولدِ منهما معجزةً له عليه السلام، فاقتضى الخبرُ التأكيدَ[1].

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 212 - 222.

بَلاغةُ المَجازِ المرسَلِ، في السّياقِ الأمثلِ:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، لمّا كان لفظُ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾، بصيغةِ المضارعِ الدّالِّ على الحالِ كانت البِشارةُ بالغلامِ العليم على طريق المجازِ المرسَلِ بتسميةِ الشّيءِ بما يَؤولُ إليه في المستقبل، فوصَفوه في حال البِشارة، بما يَؤولُ إليه منَ البلوغِ والعلم، ونكتةُ التّعبيرِ عنه بصيغة الحالِ الإيذانُ بأنَّه سيولدُ له غلامٌ عليمٌ، وأنَّه واقعٌ لا محالةَ، على سَبيل اليقين.

الإخبارُ بالحالِ عنِ المستقبلِ، يفيدُ تحقُّقَ الوقوعِ

معنَى الباءِ في قولِه تعالى ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

أفادتِ الباء هنا صحَّةَ تعديةِ الفعل إلى ﴿بِغُلَٰمٍ﴾، لتدلَّ على تحقُّقِ البِشارةِ بالغلامِ العليم.

قد يكونُ في سياقِ الكلامِ، ما يُؤكِّدُ الاطْمئنانَ

سببُ إيثارِ التَّعْبيرِ بـ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

لمّا كانتِ البِشارةُ على معنى الخبرِ السّارِّ المُفرِح الذي يكون غيرَ متوقَّعٍ عُبِّرَ بلفظ الغلامِ للإشعارِ بأنَّه ولدٌ ذكرٌ هو في غاية القوةِ وليس هو كأولاد الشّيوخِ ضعيفًا[1].

تَمامُ البِشارةِ، تكونُ بتمامِ المعنَى المُبشَّرِ به

نُكتةُ تَنكيرِ لفظِ ﴿بِغُلَٰمٍ﴾:

يفيدُ التّنكيرُ هنا التّفخيمَ، للإشعارِ بأنَّه غلامٌ ليس كسائرِ الغِلمان.

التّنكيرُ للتّفخيمِ، وسياقُ القصّةِ يفيدُ فخامةَ الغلامِ

دَلالةُ صيغةِ ﴿عَلِيمٍ﴾ في الآيَةِ:

تفيدُ الصّيغةُ معنى المُبالغةِ في الاتِّصافِ بالعلم، والمعنى: نُبشِّرك بغلامٍ موصوفٍ بأنَّه ذو علمٍ غزيرٍ نافعٍ.

دَلالةُ صيغةِ المبالغةِ، على التّكثيرِ في المعنى

سِرُّ الوصْفِ في قولِه: ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾:

لمّا كانتِ البِشارةُ ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، أفاد مَجيءِ الموصوفِ مع صفتِه أنَّ البشارةَ تفيدُ خمسةَ أمور: وجودَ الولدِ، وكونَه غلامًا، وبقاءَه وعيشَه إلى وقتِ البلوغ وهو وقتُ العلم؛ لأنَّ الطّفلَ ليس من أهل

تَوالي المُبشِّراتِ، بما يَليقُ بمقامِ النُّبوّاتِ

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 11/66.

العلمِ، وتفيدُ أنَّه سيُعلَّمُ، وأنّه سيَقبلُ العلمَ، ويكونُ عليمًا، وأيُّ فرحٍ فوقَ هذا؟!(1)، ولما كان خوفُه لخفاء أمرِهم عليه، كان للوصْفِ بالعلمِ في هذا السّياقِ مزيدُ مَزيةٍ، فقالوا: ﴿عَلِيمٍ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يعلمْ بأمرِهم أوّلَ الأمر(2).

تَوْجيهُ القراءاتِ القُرآنيةِ في ﴿نُبَشِّرُكَ﴾:

الفرقُ الدّلاليُّ بين القِراءتَين، يُفصحُ عنِ المدلولِ في أحوالِه المُمكنةِ

قرأ الجمهورُ ﴿نُبَشِّرُكَ﴾ مِن بشَّرَ بالتَّضعيف، فيكونُ منْ بِشاراتِ البُشَراءِ بالخبرِ السّارِّ، أي نخبرُك بالخبرِ السّارِّ الذي يلزمُ منه الطّمأنينةُ والفرحُ والسّرورُ، فيكونُ الفرحُ والسّرور لازمًا للبِشارةِ، ومنَ المعاني الثّواني، ويفيدُ التّضعيفُ التَّكثيرَ لتفخيمِ البشارةِ وكونِها عظيمةً ويلزمُ منَ التّضعيف المبالغةُ في المعنى، وقرأ حمزةُ (نَبْشُرُكَ) بفتح النّون والتّخفيف منَ البِشْر، فيكونُ من جِهَة الأفراحِ والسُّرورِ، والمعنى إنّا نُفرحُك بغلامٍ عليم، فتفيدُ هذه القرءاةُ التّعبيرَ عنِ الفرحِ بدلالةِ المطابقةِ، وهذا الفرقُ الدّلاليُّ بين القراءتَين قد كان المَشْيَخَةُ منَ القرّاءِ المتقدّمين يَقولونَهُ(3).

تَوْجيهُ المتشابه اللّفظيِّ في الآية:

من عادةِ القرآنِ اختيارُ اللّفظِ المُناسبِ للسّياقِ

قال تعالى في هذه السّورة: ﴿لَا تَوْجَلۡ﴾، وقال في سورة هود: ﴿لَا تَخَفۡ﴾ [هود: 70] توسعةً في التّعبير عنِ الشَّيءِ الواحدِ بلفظَين متقاربَيْن، وخُصَّ الّذي في سورة الحجر بـ﴿لَا تَوۡجَلۡ﴾ لموافقتِه قولَه تعالى: ﴿إِنَّا مِنكُمۡ وَجِلُونَ﴾ وما في هود بـ﴿لَا تَخَفۡ﴾ [هود: 70] لموافقته قولَه تعالى: ﴿وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗ﴾ [هود: 70](4).

وَصْفا الحليمِ والعليمِ في سياق الآية:

دِقّةُ السّياقِ في المناسبةِ بين الصّفةِ والموصوفِ

وصفَ اللّه تعالى الغلامَ في هذه السّورة، بقوله: (بِغُلامٍ عَلِيمٍ)،

---

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/448، والقشيري، لطائف الإشارات: 2/275.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 11/67.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/212، والأزهري، تهذيب اللغة: (بشر)، وابن الجزري، النشر: 2/239.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 299.

وجاء في سورة الصّافات: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ١٠١﴾، وفيه وجهان: أحدُهما أن يكون المرادُ بالعليم إسحاقَ عليه السلام وبالحليم إسماعيلَ عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71]، فالتّبشيرُ وقعَ بإسحاقَ عليه السلام، ولأنَّ تبشيرَ إبراهيمَ بعلم إسحاقَ عليه السلام ونبوّته فيه دلالةٌ على بقائه إلى كبره، وهذا يدلُّ على أنَّ الذَّبيحَ إسماعيل[1]، والوجهُ الثّاني منَ التّوجيه أنّه لمّا كان العلمُ هو الذي يدعو صاحبَه إلى كلّ خُلقٍ رفيعٍ عبَّر بوصفِ العليم في هذه السّورة لمناسبتِه للسّياقِ، وجاء في سورة الصّافاتِ الوصفُ بالحليم الذي يفيدُ النَّفيَ عن صاحبه كلَّ خلقٍ دَنيء، لمناسبتِه لحلمِه في الانقيادِ لأبيه ولِما أمره اللّه به، ولوعْدِه أباه بالصّبر في قولِه: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصّافات: 102]، فلا أحلمَ ممّن أسلمَ نفسَه للذّبحِ طاعةً لربِّه، وكلُّ ذلك دليلٌ على تمام الحلم والعقلِ، فيُؤذِنُ الجمعُ بين الوصفَين، أنَّه اجتمع فيه جميعُ الخصالِ الرّفيعة، ونُفيَ عنه كلُّ خُلقٍ دنيءٍ[2].

سرُّ البشارة في الآية:

البِشارةُ حُبورٌ، سواءٌ كانت للزّوجِ أو للزّوجةِ، أو لهما معًا

ذكر اللّه تعالى أنَّ قولَ الملائكةِ وبشارتهم كانَ لإبراهيمَ عليه السلام، وَحُكِيَ في سورَةِ هودٍ قَوْلُهُمْ وبشارتُهم لِامْرَأتِه، فقال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ﴾ [هود: 71] ووجهُه أنَّ البِشارَةَ كانَتْ لَهُما مَعًا، فَقَدْ تَكونُ حاصِلَةً في وَقْتٍ واحِدٍ، أي في وقتِ اجتماعِهما فهِيَ بِشارَتانِ باعْتِبارِ المُبَشَّرِ؛ لأنَّ المسرَّة تكون لكلٍّ واحدٍ منهما، وقَدْ تَكونُ حَصَلَتْ في وَقْتَيْنِ مُتَقارِبَيْنِ، بأنْ بَشَّروهُ بِانْفِرادٍ ثُمَّ لمّا جاءَتِ امْرَأتُهُ بَشَّروها تكريمًا لها كذلك وتأكيدًا للبشارةِ؛ لأنَّ بِشارَةَ زَوْجِهِ بِابْنٍ بِشارَةٌ له أيْضًا[3].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 308، وزكريا الأنصاري، فتح الرحمن: 1/481.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/448.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/116.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البِشارةُ والخبُر:

البِشارةُ لا تكونُ إلّا خيرًا، والخبرُ قد يكونُ خيرًا وقد يكونُ غيرَ ذلك

البِشارةُ هِي أوّلُ ما يصلُ إليك من الخَبَر السّارّ فَإذا وصل إلَيْك ثانِيًا لم يُسمَّ بِشارَة وكانَ خبرًا[1]، كما أنَّ البشارة لا تكونُ إلّا فيما هو خيرٌ ويَعقبُها السّرورُ، وأمّا الخبرُ فقد يكون خيرًا وقد يكونُ غيرَ ذلك.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 264.

﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾ [الحجر: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بِـشـارةُ الملائكـةِ بولادةِ إسحاقَ، وتعجّبَ إبراهيمَ مـن ذلـك، وقد أوغلَ في الكبرِ

لمّا بشّرَ الملائكةُ إبراهيمَ بغلامٍ عليمٍ، كأنَّه قيلَ: فماذا قال إبراهيمُ؟، وبمَ أجابَهم؟، فجاءت هذه الآية، وهي قولُه تعالى: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَّسَّنِيَ﴾: أصلُ (مسّ): يَدُلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليَدِ[1]، يُقالُ: مَسِسْتُ الشَّيءَ أَمَسُّه مَسًّا لَمَسْتَه بيَدِك، وهو مجازٌ في إصابةِ الشَّيءِ وحُلولِه، فَمِنهُ مَسُّ الشَّيْطانِ، أي: حُلولُ ضُرِّ الجِنَّةِ بالعَقْلِ، ومَسُّ سَقَرٍ: ما يُصيبُ مِنْ نارِها، ومَسَّهُ الفَقْرُ والضُّرُّ: إذا حَلَّ به، وأكثَرُ ما يُطلَقُ في إصابَةِ الشَّرِّ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا﴾ [الزمر: 8]، ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا﴾ [يونس: 12][2]، والمَسوسُ من المياه: ما نالته الأيدي[3]، وحاجةٌ ماسَّة أي مُهِمَّة، وَقَدْ مَسَّتْ إليه الحاجَةُ[4]. والمسُّ في الآية: الإصابةُ. والمرادُ: التَعَجُّبُ مِنْ بِشارته بوَلَدٍ مع أنَّ الكِبَرَ مَسَّهُ[5].

2) ﴿ٱلۡكِبَرُ﴾: أصلُ (كبر): أَصْلٌ صَحِيحٌ يدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ[6]. يُقال: كَبُرَ كِبَراً وكُبْراً فهوَ كَبيرٌ وكُبار وكُبّار، بالتَّشْديدِ إذا أفرط، وكَبُرَ بالضَّمِّ يَكْبُر، أي: عَظُمَ. وكَبَّرَ الأمْرَ: جَعَلَهُ كَبيرًا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسس).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مسس)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/316.
(3) الخليل، العين: (مسس).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسس).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

واسْتَكْبَرَه: رَآهُ كَبيرًا[1]. والكبيرُ والصّغير منَ الأسماءِ المُتضايفةِ الَّتي تُقال عند اعتبارِ بعضِها ببعض، وأصلُ ذلك أن يُستعملَ في الأعيان، ثمَّ استُعير للمعاني، نحوَ قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ [التوبة: 3]، ومن ذلك ما اعتُبر فيه الزَّمانُ، فيقال: فلان كَبيرٌ، أي: مُسِنٌّ[2]. والمقصودُ بالكِبَرِ في الآيةِ: كَثْرةُ سِنِي العُمُرِ؛ لأَنَّهُ يقارِنُهُ ظُهورُ قِلَّةِ النَّشاطِ واختِلالِ نظامِ الجِسْمِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

استِفهامُ إبراهيمَ الخليلِ، استفهامُ تعجُّبٍ، من وِلادةِ ولَدٍ لشيخٍ زوجُه عقيمٌ

قال إبراهيمُ للملائكةِ مُتعَجِّبًا: أبشَّرتُموني بولدٍ مع كِبَرِ سِنِّي، فبأي خبرٍ عجيبٍ تُبشِّرون؛ وذلك لأنَّ مجرى الأسبابِ العاديَّةِ يجعلُ ذلك مُتعسِّرًا؛ لأنَّه شيخٌ مسَّه الكِبرُ، وامرأتُه عجوزٌ عَقِمتْ في صدرِ شبابِها، فكيف تُنجبُ في دَبْرِ حياتِها؟![3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ البيانِّي في الآيةِ:

استِمرارُ المُقاوَلةِ بين إبراهيمَ والملائكةِ، لِما في الخبرِ من شأنٍ عظيمٍ

لمّا كان قولُ الملائكةِ بالبِشارةِ بالولد وببقاءِ الولدِ وأن يكونَ عليمًا حليمًا هو العجبُ وكان يقتضي تعجّبَ إبراهيمَ من بِشارتِهم جاء الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، كما يفيدُ الاستئنافُ استِدرارَ سمعِ المُخاطَبين والتّنبيهَ إلى ضرورةِ إصغائِهم لِما في الخبرِ من شأنٍ عظيم.

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾:

تعجُّبُ إبراهيمَ كان ممّا هو في العادةِ، وليس من قُدرةِ اللهِ تعالى

قوله تعالى: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، وفيه جاء الاستفهامُ بطريقِ المجازِ، وإنَّما كان الاستفهامُ مجازيًّا؛ لأنَّ البِشارة

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).

(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/83، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4096.

واقعةٌ وحاصلةٌ، في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، فلا يتأتّى فيها الاستفهامُ الحقيقيُّ، ويفيدُ الاستفهامُ المجازيُّ هنا التّعجّبَ مع الاستبْعادِ، أي تعجّبٌ من أنْ يولَدَ له مع مسِّ الكبرِ إيّاه؛ لأنَّ مثلَ هذه الحالةِ أمرٌ مستبعدٌ عادةً، والذي سوَّغ تعجّبَ إبراهيمَ عليه السلام واستبْعادَه أن يولَدَ له هو أنَّه لم يرَ الولدَ يولَدُ مع قيامِ المانعِ منَ الإنجاب عنده وعند امرأتِه، وإلّا لا يخفَى على إبراهيمَ عليه السلام قُدرةُ اللّهِ هبةَ الولدِ في حالِ الكبرِ، فالتّعجّبُ ممّا هو في العادة وليس ممّا هو في قُدرةِ اللّه تعالى، ويحتملُ أن يكونَ استفهامًا إنكاريًّا، أي إنكارٌ لأنْ يُبشَّرَ بالغلامِ العليمِ في مثلِ هذه الحالةِ، بمعنى لا ينبغي أن يكونَ منّي الولدُ مع مسِّ الكبرِ، ويتولَّدُ منَ الإنكارِ التّعجبُ والاستبعادُ كذلك[1].

بَلاغةُ الحذْفِ في قولِه: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾:

حذْفُ المفعولِ بدَلالةِ السّياقِ، منَ الإيجازِ في الكلامِ

لمّا كان تقديرُ الكلامِ: أبشّرتُموني أن يولَدَ لي، دلَّ على أنَّ مَفْعولَ ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾ محذوفٌ، وحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليهِ، فيكون الحذفُ للإيجازِ[2].

سِرُّ إيثارِ التَّعْبيرِ بالماضي في الآية:

الشّيءُ غيرُ المعهودِ، يقعُ عادةً التّعجُّبُ منه

قوله تعالى: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى﴾، وهو يُعبِّرُ بصيغةِ الماضي للإشعارِ بأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد علمَ تحقُّقَ بِشارتِهم الّتي سُلِّطَ عليها التّعجيبُ والاستبعادُ؛ لأنَّ الشّيءَ غيرَ المعهود يَحسنُ التّعجُّبُ منه أو إنكارُه[3].

بَراعةُ مَجيءِ الحالِ في الآية:

مَجيءُ البِشارةِ بعدَ انقطاعِ الأسبابِ الدُّنيويَّةِ، من مُعجزاتِ النُّبوّةِ الخالدةِ

لم يقل (لأن مسّني أو بأن مسّني)، على معنى السّببية، فَعَبَّرَ بـ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ﴾؛ ليفيدَ الجارُّ والمجرورُ معنى الحالِ[4]،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والشهاب، عناية القاضي: 5/525.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/183.
(4) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/784.

لتقييدِ التّعجّبِ منَ البِشارة أو إنكارِها بحالِ مسِّ الكبرِ إيّاه، وليس في أيِّ حالةٍ أخرى؛ للإيذانِ بأنَّ البِشارة بأن يولَدَ له أعجبُ ما تكونُ عادةً في حالةِ الكبرِ؛ لانقطاعِ الأسبابِ الدّنيويّةِ، فالمرادُ المبالغةُ في تصويرِ حالةِ التّعجّبِ والاستبعادِ أو في تصويرِ حالةِ الإنكارِ الذي يتولَّد منه التّعجّبُ والاستبعادُ.

بَلاغةُ الاسْتعارةِ بتَعْدِيةِ الفعلِ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾:

تعجُّبُ إبراهيمَ عليه السلام من بِشارتِه بالولدِ، في حالِ شدَّةِ الكِبَرِ

لمّا كان حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰٓ﴾ للاستعلاء أفاد هنا الاستعلاءَ المجازيَّ بطريقِ الاستعارةِ التّمثيليَّةِ، أي بتمثيلِ صورة مسِّ الكبَرِ إيّاه وتمكّنِه منه واستعلائِه عليه بصورة استعلاءِ الرّاكبِ على المركوب، ليفيدَ معنى التَّعجّبِ من شدّة تمكُّنِ مسِّ الكّبرِ إيّاه، وضُمِّنَ ﴿عَلَىٰٓ﴾ معنى (مع)، للدَلالةِ عَلَى شِدَّةِ اقْترانِ البِشارَةِ بِمَسِّ الْكِبَرِ إيّاهُ وتمكّنِها منه، كما يحتملُ أن يكونَ مضمَّنًا معنى (بعدَ) أي: أبشّرتُموني بعد أنْ مسَّنيَ الكبرُ[1].

دَلالةُ المصدرِ المُؤوّلِ ﴿أَن مَّسَّنِيَ﴾:

مسُّ الكبرِ للإنسان، بمنزلةِ الطَّبائعِ التي تصيبُه ولا ينفكُّ عنها

أفاد التّعبيرُ بالمصدرِ المؤوَّلِ أنَّ تعجّبَ إبراهيمَ عليه السلام كان من حقيقةِ مسِّ الكبر إيّاه من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصفٍ آخرَ مصاحبٍ له، أي من كثرةِ المسِّ أو قلَّتِه أو تقدُّمِه أو تأخُّرِه مثلًا، ففي التّعبيرِ بالمصدرِ المُؤَوَّل تحصينٌ منَ الإشكالِ في الفهمِ وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ في الوصْفِ، وأفادَ المصدرُ المؤوّلُ الإخبارَ عن مسِّ الكبرِ إيّاه وتحقُّقَ وقوعِه بدلالة الفعلِ الماضي ﴿مَّسَّنِيَ﴾، وأنَّ مسَّ الكبرِ للإنسانِ بمنزلةِ الطّبائعِ التي تُصيبُه ولا يَنفكُّ عنها[2].

(1) النسفي، التيسير في التفسير: 9/204، والزمخشري، الكشاف: 9/204، والمنتجب الهمذاني، الكتاب الفريد في إعراب القرآن المجيد: 4/82، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

(2) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/93، والسامرائي، معاني النحو: 3/147.

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿مَّسَّنِيَ﴾:

الكِبرُ في السِّنِّ مِنَ الأذى، لِما يَطرأُ فيه، من أعراضٍ وأمراضٍ

لّما كان المسُّ يقال في كلّ ما ينالُ الإنسانَ من أذًى وفيما يكونُ معه إدراكٌ بحاسّة اللّمس[1] عبّرَ به هنا؛ للإشعار بأنَّ الكِبرَ في السّنِ منَ الأذَى، وأنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد أدرك أذَى كبرِه في حياتِه ومعاشِه.

دَلالةُ (ال) على العهدِ في ﴿ٱلۡكِبَرُ﴾:

تفيدُ (ال) العهْدَ الحُضوريَّ، بمعنى الكبرِ الّذي أنا فيه الآن.

بَلاغةُ المجازِ في قولِه: ﴿مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾:

لا مَندوحةَ من أعراضِ الكِبرِ، الّتي تصيبُ البشَرَ

لّما كان المسُّ لما يكون فيه جَسٌّ باليدِ، وكان الكبرُ في السّنِ أمرًا معنويًّا يُرى أثرُه كان إسنادُ المسِّ إلى الكبرِ بطريق المجازِ العقليِّ لإفادة المبالغةِ في معنى الإسنادِ الخبريِّ، أي للإيذانِ بشدّةِ إحْساسِه بالكبرِ الذي بلغَه إبراهيمُ عليه السلام وتهويلِ شأنِه، والمعنى: أبشّرتُموني وقد طعنتُ في السّنّ وصرتُ أشعرُ بالكِبرِ وأحسُّ بآثارِه في حياتي[2]؟

المبالغةُ في ظهورِ آثارِ الكِبَرِ عندَ إبراهيمَ عليه السلام، سُنّةُ اللهِ في الأنامِ

معنَى الفاءِ في قولِه: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾:

التّرقّي في التّعجّب، يدلُّ على عِظَمِ البِشارةِ وفخامَتِها

تفيدُ الفاءُ هنا التّرتيبَ والتّرقّي، فهو من قَبيل التّرقّي في التّعجّبِ والاستبعادِ، ليفيدَ التّعجّبَ من ما بشّروه به وما صاحبَ البِشارةَ من أحوالٍ تَستبعدُ في العادةِ مجيءَ الولدِ الموصوفِ بأنَّه غلامٌ عليمٌ.

معنَى الباءِ في قولِه: ﴿فَبِمَ﴾:

تنوّعُ معنى الباءِ لتكثيرِ المعنى، من فصيحِ الاسْتِعمالِ

لّما جاءتِ الباءُ لتعديةِ الفعلِ المتأخّرِ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾ إلى اسم الاستفهام الذي له الصّدراةُ في الكلام، والمعنى فبأيِّ شيءٍ تُبشّرون، أفادتِ الباءُ هنا معنى الملابسةِ، أي ملابسةُ البشارةِ لما يُتعجَّب منه أو لما يُنكرُ عليه لمخالفتِه للعادةِ، وتحتملُ أن تكونَ للآلة بمعنى بأيِّ وجهٍ وطريقةٍ تبشّرونني بالولدِ[3].

(1) الراغب، المفردات: (مسس).

(2) القشيري، لطائف الإشارات: 2/275، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/183.

(3) الزمخشري، الكشاف: 2/581، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

المبالغةُ في التّعجُّبِ من مَجيءِ الولدِ في حالةِ إبراهيم عليه السلام

سَببُ إيثارِ الاسْتِفهامِ بطريقةِ ﴿فَبِمَ﴾:

الاستفهام هنا بـ(ما) الاستفهاميّةِ التي حُذفتْ ألفُها تخفيفًا لدخول الباءِ عليها، والتّقديرُ: فبأيِّ شيءٍ تُبشّرون، ولمّا كان المرادُ نهايةَ التّعجيب منَ الأمرِ جيءَ بـ(ما) الاستفهاميّةِ الدّالَّةِ على العموم، للإشعارِ بأنَّ هذه الحالةَ تَستغرقُ كلَّ ما يمكنُ التّعجّبُ منه وما تقعُ البشارةُ به.

البِشارةُ بعْدَ انقطاعِ الأسبابِ الدّنيويّةِ، أشدُّ تأثيرًا من غيرِها

بَلاغةُ الاسْتِفهامِ في سياقِ الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، يحتملُ هذا الاستفهامُ أن يكونَ حقيقيًّا، فيكونَ استفهامًا من إبراهيمَ للملائكةِ، ليعلمَ هل بشّروه بأمرِ اللّه تعالى؟، ليكونَ أسكنَ لنفسه، أو يكونَ الاستفهامُ عن الحالةِ، فهل يولدُ له في حالةِ الكبرِ أم يُردُّ هو وزوجُه إلى حالةِ الشَّبابِ؟ أو يكونَ سؤالًا عنِ الوجه والطّريقة يعنى: بأيِّ طريقةٍ تُبشّرونَني بالولد، فإنَّ البِشارةَ بما لا يُتصوَّر وقوعُه لا تصحُّ ولا طريقةَ لها في العادةِ، وجمهورُ المفسّرين على أنَّ الاستفهامَ هنا مجازيٌّ مثلُ الاستفهام الأوّلِ، على معنى التّعجّبِ والاستبعادِ من قولِهم، ليفيدَ المبالغةَ في التّعجّبِ؛ لأنَّه غيرُ مُتصوَّرٍ في العادة، فنُزِّلَ الأمرُ العجيبُ المعلومُ منزلةَ الأمرِ غيرِ المعلومِ لأنَّهُ يكادُ يكونُ غيرَ معلوم، فيكونُ استعجابُ إبراهيمَ عليه السلام على معنى استعظامِ نعمتِه تعالى في ضمنِ التّعجّبِ العادي المَبنيِّ على سُنّةِ اللّه تعالى المسلوكةِ فيما بين عباده لا استبعادَ ذلك بالنّسبةِ إلى قُدرته سُبحانه، وأنَّه خلافُ العادة دونَ النّظرِ إلى قُدرةِ اللّه تعالى كما تقدَّمَ، ويحتملُ أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، والتّقديرُ: فبأيِّ شيء تبشِّرون، فهو ينكرُ عليهم بشارتَهم، يعنى: لا تُبشّرونني في الحقيقة بشيءٍ، لأنّ البشارةَ بمثلِ هذا بشارةٌ بغيرِ شيءٍ؛ لأنَّه غيرُ متصوَّرٍ في العادة[1].

---

(1) الماوردي، النكت والعيون: 3/164، والزمخشري، الكشاف: 2/581، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/174، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

بَلاغةُ الاستفهامَيْن في الآية:

التّعجُّبُ من مَجيءِ الولدِ على مَسِّ الكِبَرِ ومن كونِه غلامًا عليمًا

ورد الاستفهامُ الأوّلُ ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾ على معنى التَّعجُّبِ كما هو في الظّاهر، ومثلُه ما جاء في الاستفهام الثّاني كما هو عندَ جمهورِ المفسّرين، والتَّعجّبُ في الاستفهام الأوّلِ يختلف عمّا هو في الثّاني وليس مؤكِّدًا له، فإنَّ الاستفهامَ الأوّلَ على معنى التّعجُّبِ من أصلِ أن يولدَ له وهو في حالِ الكبَرِ، ولهذا جاء مقيَّدًا بالحال في قولِه تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، وأمّا الاستفهام في قولِه تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فهو استفهام تعجّبي - على رأي جمهور المفسّرين كما تقدَّم - من أنّ الولدَ سيكون غلامًا عليمًا، فهو بمعنى الفرحِ والسّرور، فكأنَّه قال: فبأيِّ أعجوبةٍ تبشّرونني؟ أي: فوقَ أن يولدَ لي ولدٌ وقد مسّني الكبرُ سيكونُ لي غلامٌ بالغٌ يكبرُ ويكونُ معي ويكونُ عليمًا.

بديعُ الجِناسِ في: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي﴾ ﴿تُبَشِّرُونَ﴾:

تعجّبُ إبراهيمَ عليه السلام، مع فرحِه وسُرورِه بالبِشارة

جاء الجناسُ للإشعارِ باختلاف معنى اللّفظَين، فإنَّ الاستفهامَ في البِشارة الأولى على معنى التّعجّبِ والاستبعادِ، والاستفهامَ في البِشارة الثّانية مضمَّنٌ معنى الفَرَحِ والسُّرورِ بمجيءِ الولد في حال الكبَرِ وفي كون الولدِ غلامًا عليمًا.

سِرُّ التّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾:

التّعجّبُ منَ الولد على الكِبَرِ، ومنَ الإخبارِ بمستقبل الخبرِ

لم يقل (فبمَ بشّرتمونِ)، فعدلَ عنِ الماضي إلى المضارع للإشارةِ إلى أنَّ سؤالَه عن بِشارةٍ ستأتي وليس عن أمرٍ أتى[1]، وللإيذانِ بأنَّ تعجّبَه الثّاني على وجهِ الفرحِ والمَسرَّة من مجيء الولدِ ومن أنَّه سيكبرُ ويبلغُ، ويكونُ عليمًا، لمقابلة الفعْلِ لِما جاء بصيغة المضارع في قولِه: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 2/183.

تُحذفُ نونُ الجمْعِ، اسْتِثقالًا لاجتماع المِثلَين، وطلبًا للتّخفيف

تَوْجيهُ القِراءاتِ القُرآنيّةِ في ﴿تُبَشِّرُونَ﴾:

قرأ نافعٌ (تُبَشِّرونِ) بِكَسْرِ النّونِ خَفيفَةً في كُلِّ القُرْآنِ، وقَرَأ ابْنُ كَثيرٍ بِكَسْرِ النّونِ وَتَشْديدِها (تُبَشِّرونِّ)، والباقونَ بِفَتْحِ النّونِ خَفيفَةً ﴿تُبَشِّرُونَ﴾، أمّا الكَسْرُ والتَّشْديدُ، فتَقْديرُهُ: تُبَشِّرونَني، فأُدْغِمَتْ نونُ الجَمْعِ في نونِ الإضافَةِ، وأمّا الكَسْرُ والتَّخْفيفُ فعلَى حَذْفِ نونِ الجَمْعِ اسْتِثْقالًا لاجْتِماعِ المِثْلَيْنِ وَطَلَبًا لِلتَّخْفيفِ، وكسرِ النّونِ التي هي علامةُ الرّفعِ بسببِ الياءِ ثمَّ حُذفتِ الياءُ لدلالةِ الكسرة عليها[1].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151.

﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ٥٥﴾ [الحجر: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تَعجُّبُ إبراهيمَ عليه السلام، وتأكيدُ الملائكة، أنْ لا عَجبَ من أمْرِ اللهِ

لمّا ظهرت على إبراهيمَ عليه السلام علاماتُ التّعجُّبِ المُفضي إلى احتمالِ الشَّكِّ في صحَّة الخبرِ أجابوه مؤكِّدين لِما بشّروه به تحقيقًا وصدقًا، كما أنَّ كلامَه اقتضى ردًّا لِما دلَّ عليه تعجُّبُه واستبْعادُه أن يكونَ له ولدٌ فجاءت هذه الآيةُ، لبيانِ أنَّ أمرَ اللهِ لا يُتعجَّبُ منه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾: أَصْلُ القَنْطِ: المَنْعُ، يُقال: قَنَطَ ماءَهُ عنّا، أيْ: مَنَعَهُ، ومنه سُمِّيَ اليَأْسُ قُنوطاً؛ لأنَّ اليائِسَ مَنَعَ نَفْسَهُ مِن رَحْمَةِ اللّهِ تعالى. ويأْتي القنوطُ بمعنى قَطْعِ الأمَلِ، والقُنوطُ: اليَأْسُ مِنَ الشَّيْءِ، يُقال: قَنِطَ مِنَ الخَيْرِ، يَقْنَطُ، ويَقْنِطُ، فهو قانِطٌ، أي: يَئِسَ، وضِدُّه: الرَّجاءُ والطَّمَعُ(2). والمرادُ بالقُنوط في الآيةِ: اليَأْسُ الشَّدِيدُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الحقُّ هو الأمرُ الثّابتُ، ولا عجَبَ، فالله لا يُبشِّرُ إلّا بالحقِّ

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ: بشَّرْناك بولَدٍ قد قضى اللّهُ أنّه كائنٌ بلا شَكٍّ، لأنَّ اللّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ، وأنتم بالخصوصِ - يا أهلَ هذا البيتِ - رحمةُ اللّه وبركاتُه عليكم، فلا تكُنْ - يا إبراهيمُ - مِنَ اليائسينَ مِن فَضلِ اللّهِ، الذين يَستبْعِدونَ وُجودَ الخيرِ، ولكِنْ أبشِرْ بالولَدِ مع الكِبَر، واقبَلِ البُشرى بذلك(3).

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قنط)، والمناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، ص: 257.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/84، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/35، 36، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانِّي في الآيةِ:

من بيانِ السّياقِ تكثيرُ المعنى، بتقليلِ اللّفْظِ

جاءتِ الآيةُ على الفصل؛ لأنَّ جملةَ ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، اقتضت سؤالًا، ودلَّت عليه بالفحوى، فنُزِّلت منزلةَ السّؤال الواقعِ لإغناء السّائلِ عنِ السّؤال، ولتكثيرِ المعنى بتقليل اللَّفظِ، أي بتركِ السُّؤال والعاطفِ، ففُصلت هذه الآيةُ عمّا قبلَها كما يفصلُ الجوابُ عنِ السّؤال، ليكونَ الكلامُ على طريقِ الاستئنافِ البيانيِّ، فكأنَّ السّامعَ قال: فماذا قالتِ الملائكة بعدَ أن استبعدَ إبراهيمُ استبعادَ المتعجِّبِ أن يكون له غلامٌ عليمٌ، فجاءت هذه الآيةُ على طريق الجوابِ للسُّؤال المقدَّرِ.

سِرُّ تَكرارِ الفعلِ ﴿بَشَّرۡنَٰكَ﴾:

مِن بَلاغةِ السّياقِ، أنّ تَكرارَ الفعل، لتأسيسِ المعنى لا لِتأكيدِه

لّما جاء الفعلُ بصورة المكرَّرِ أفادَ تأكيدَ البِشارة المذكورةِ وتحقُّقَ وقوعِها، ولمّا قالوا ﴿بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ كانت هذه البشارةُ على معنًى غيرِ المعنى الذي أفادته جملةُ ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾؛ لأنَّ الأولى تفيدُ تبشيرَ إبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم وهذه تفيدُ أنَّ بِشارتَهم التي بشّروه بها هي بشارةٌ بالحقِّ الذي لا مِريةَ فيه ولا شكَّ.

فائِدةُ مَجيءِ الفعلِ ﴿بَشَّرۡنَٰكَ﴾ ماضيًا:

البِشارةُ بالحقِّ لا تقتضي التّعجّبَ منها، ولا اسْتِبعادَها

جاء الفعلُ بصيغة الماضي؛ للإيذان بأنّ قولَهم ﴿نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾، هو بشارةٌ بالحقّ، فلا تقتضي البشارةُ بالحقِّ التّعجّبَ من أن يولدَ لكَ ولدٌ ولا استبعادَ وقوعِه، كما أنَّ المبشَّر به من عندِ اللّه أمرٌ لا بدّ من وقوعِه وتحقُّقِه فكيف يُتعجّب منه[1]؟!، كما أفادَ مجيءُ الفعل بصيغة الماضي، أنَّه ليس هناك بشارتان، بل هي بشارة واحدةٌ هي البشارةُ بالغلام العليم.

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 5/298.

تَنوّعُ معنى الباءِ، توسيعٌ في المعنى

دَلالةُ الباء في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الباء هنا للتّعْدية على معنى ملابسةِ البِشارة للحقِّ الذي لا لبسَ فيه، ويحتملُ أن تكونَ للآلةِ بمعنى بطريقةٍ هي حقٌّ[1].

دَلالةُ (ال) بين الجنسيَّةِ والعهديَّةِ، مفيدٌ في فهمِ السّياقِ

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تحتملُ (ال) أن تكونَ جنسيَّةً، والمعنى بشّرناك بحقيقةِ الحقِّ ويدخلُ فيه البشارةُ بالغلامِ العليمِ دخولًا أوَّليًّا، وتحتملُ أن تكونَ للعهدِ العلميِّ، بمعنى بشّرناك بالحقِّ الذي هو معهودٌ عندكَ.

دَلالةُ الحقِّ بين معنى اليقينِ، والطّريقةِ التي هي أمرُ الله

دَلالةُ لفْظِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تعتمدُ دلالةُ الباء التي تقدَّم ذكرُها على معنى الحقِّ، فإذا كان المرادُ من الحقِّ هو اليقينُ الذي لا لَبسَ فيه والثّابتُ المقطوعُ الذي لا محالةَ في وقوعِه وكونِه كانت الباءُ للتّعدية على معنى ملابسةِ بِشارتِهم لهذا اليقين، وإن كان المرادُ منَ الحقِّ هو الطريقةُ التي هي حقٌّ وهي قولُ اللّه تعالى وأمرُه الذي لابدَّ من وقوعِه ولا خُلفَ فيه كانت الباء للآلة، وعلى الوجهين يفيدُ الكلامُ أنَّ الولدَ لا بدَّ منه[2].

البِشارةُ بالحقِّ رحمةٌ منَ الله، وتجليةٌ لمعجزاتِه مع أنبيائِه

فائِدةُ الفاء في سياقِ النّهيِ عنِ القُنوطِ:

قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، الفاء هنا تفيدُ التّرتيبَ والسّببيَّةَ، أي ترتّبُ النّهيِ عن أن يكون منَ القانطين على بشارتِهم بالحقِّ، أي بسبب تَبشيرنا لك بالحقِّ لا تكنْ منَ القانطين[3]، والمعنى بشارةُ الملائكة لإبراهيمَ عليه السلام بالغلام العليم والتي هي بِشارةٌ بالحقِّ تقتضي أن لا يكونَ من زمرةِ القانِطين.

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 2/213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.

سِرُّ التَّعْبِيرِ بقولِه: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

بَلاغةُ التَّعْبِيرِ القُرآنيِّ، في اختيارِ اللّفظِ المناسبِ للمعنى

لّما كان تعجّبُ إبراهيمَ عليه السلام منَ البشارةِ واستبعادُه لها إنّما كان لأنَّه لا يكونُ لمَن هو مثلُ حالِه ولدٌ في العادة كان قولُ الملائكة ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾ مُؤْذنًا أنَّه لم يكن يشكُّ في قدرةِ اللّه على هذا الأمر، ولهذا لم يقولوا (فلا تكن من الممترين) مثلًا[1].

سِرُّ نهيِ إبراهيمَ عنِ القُنوط الذَّميم:

مَن حالُه مثلُ حالِ إبراهيم، فإنَّه يُتوقَّعُ منه التّعجّبُ والاستبعادُ

لّما كان اسْتِبْعادُ إبراهيمَ لأن يكون له ولدٌ يُفْضي إلى القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه بَعْدَ أنْ عَلِمَ أنَّ المُبَشِّرينَ بها مُرْسَلونَ إليه مِنَ اللّه قالوا: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، ذَلِكَ أنَّهُ لّمّا اسْتَبْعَدَ ذلك اسْتِبْعادَ المُتَعَجِّبِ مِنْ حُصولِه كانَ ذلك أثَرًا مِنْ آثارِ رُسوخِ الأُمورِ المُعْتادَةِ في نَفْسِه بِحَيْثُ لَمْ يُقْلِعْهُ مِنْها الخَبَرُ الَّذي يَعْلَمُ صِدْقَهُ فَبَقِيَ في نَفْسِه بَقِيَّةٌ مِنَ التَّرَدُّدِ في حُصولِ ذلك فكانت حالُهُ في الظّاهر مثلَ حال الَّذينَ يَيْأسونَ مِنْ أمْرِ اللّه لقولِه نحو أقوالِهم، وفي التّعبير بأسلوب النّهي إشعارٌ بأنَّ من حالُه مثلُ حالِ سيدنا إبراهيم؛ فإنَّه يُتوقَّع منه التَّعَجُّبُ والاسْتِبْعادُ[2].

سِرُّ التَّعْبِيرِ بقولِه: ﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾:

الأدبُ في الكلامِ مع رُسُلِ الله، باختيارِ اللّفظِ المُناسبِ لمقامِهم

لّما كانَ إبْراهيمُ عليه السلام منزّهًا عَن القُنوطِ مِنْ رَحْمَةِ اللّه جاءوا في مَوْعِظَتِه بِطَريقَةِ الأدَبِ المُناسِبِ فَنَهَوْهُ عَنْ أنْ يَكونَ مِنْ زُمْرَةِ القانِطِينَ تَحْذيرًا له مِمّا يُدْخِلُهُ في تلك الزُّمْرَةِ، ولَمْ يَفْرِضوا أنْ يَكونَ هو قانِطًا لِرفعة مقام نبوءته عَنْ ذَلِك، ولهذا عبِّرَ بـ﴿مِّنَ﴾ التّبعيضيَّة[3]، فعدلَ عن أن يقال (فلا تكن قانطًا) إلى ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾، كما أنَّ في التّعبيرِ بالنّهي عنِ الكينونة أبلغَ وأكثرَ تأدُّبًا من أن يقال: (فلا تقنطْ).

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/81.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/60.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/59.

نُكتةُ التَّعْبير بلفْظِ ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾:

لمّا كان القنوطُ بمعنى الإياس منَ الخير[1] أفادَ النّهيُ عن أن يكونَ منَ القانطين تأكيدَ أنَّ البشارةَ بالغلام العليم هي بشارةُ خيرٍ لإبراهيمَ عليه السلام، وجاء بصيغة اسم الفاعلِ للإشعارِ بأنَّ أقبحَ القنوطِ وأتمَّه إذا كان وصفًا ثابتًا.

البِشارةُ بالولدِ بِشارةُ خيرٍ، تفتحُ الأملَ على مِصراعَيه

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾:

(ال) هنا لاستغراقِ أفرادِ القانطين، بمعنى لا تكنْ مثلَ أيِّ فردٍ من أفرادِ القانطين.

النّهيُ عنِ الدّخولِ في زُمرةِ القانِطين، تحذيرٌ من سوءِ العواقبِ

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾:

لمّا كان التّقدير: فلا تكن منَ القانِطِينَ من ذلكَ، أو فلا تكن منَ القانطين من أن يولَد لك غلامٌ عليمٌ، كان حذفُ المتعلَّق لإفادَةِ العموم، بمعنى النَّهيِ عن أن يكونَ لك قنوطٌ من أيِّ أثرٍ من آثارِ رحمةِ اللّه الواسعةِ، أو على معنى النّهيِ عنِ الاتّصاف بصفة القنوط، أي لا يكن لك وصفُ القُنوطِ، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلةِ وإيجازًا في الكلام بعدما دلَّت عليه قرينةُ المقامِ[2].

رَحمةُ الله عامّةٌ واسعةٌ، فلا قُنوطَ من آثارِها

دَلالةُ النّهيِ عنِ القنوطِ في السّياقِ:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان الكلامُ موجَّهًا إلى سيِّدنا إبراهيمَ عليه السلام أفاد أنَّه لا يقصدُ منَ النّهي أنَّ إبراهيمَ عليه السلام قد وقع منه فعلُ القنوط، فهم ينهونَه عنه، فإنَّ القنوط غيرُ متوقَّعٍ منه عليه السلام، فالنَّهْيُ عنِ الشَّيْءِ لا يَدُلُّ على تَلَبُّسِ المَنْهِيِّ عنه به ولا بِمُقارَنَتِه، فيفيدُ أنَّ النّهي غيرُ مستلزمٍ للوقوع؛ لأنَّ الأنبياء قد نُهوا عن أشياءَ قد عُصموا عنها ما لا يحتملُ أن يقعَ منهم ما نُهوا عنه؛ نحوَ قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ٦٠﴾ [آل عمران: 60]، وقولِه:

لم يكن من إبراهيمَ عليه السلام، قنوطٌ من رحمةِ ربِّه

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط).

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/175.

﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ﴾ [الأحزاب: 1]، وذلك ممّا لا يُتوهَّمُ كونُه منهم؛ فلم يكن من إبراهيمَ عليه السلام قنوطٌ من رحمةِ ربّه أصلًا[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القُنوطُ واليأسُ والخيبةُ:

القُـنـوطُ هو اليـأسُ مـنَ الـخـيرِ، وهـو أشدُّ مُبالغةً منَ اليأسِ

اليأسُ هو انقطاعُ الطَّمع أوِ الرّجاء منَ الشَّيءِ، والقنوطُ أشدُّ مبالغةً منَ اليأس، ولا يكونُ القنوطُ إلّا باليأس منَ الخيرِ، فهو أخصُّ منَ اليأس، وأمّا الخَيبةُ فلا تكون إلا بعدَ الأمل؛ لأنَّها امتناعُ نيلِ ما أُمِّل، فأمّا اليأسُ فقد يكون قبلَ الأمل وقد يكون بعدَه[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/151، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/486، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (قنط)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 246.

﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ٥٦﴾ [الحجر: 56]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المناسبةُ بين نهْيِ الملائكةِ عنِ القُنوطِ، وتأكيدِ إبراهيمَ علْمَه الوثيقَ بذلك

لمّا كان استعجابُ إبراهيمَ ﷺ باعتبارِ العادةِ دون أن يكونَ استعجابُه لقدرةِ اللّه على الفعلِ جاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لمّا ألهبوه بالنّهي عن أن يكونَ منَ القانطين ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ ليزيدَ إبراهيمُ الملائكةَ علْمًا على علْمِهم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾: أصلُ (ضلّ): يدلُّ على ضَياعِ الشَّيْءِ، وَذَهابِهِ في غَيْرِ حَقِّهِ[3]. والضّلال: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن، إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَنِ الحُجَّة، وضلَّ النّاسِي، إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[4]. والضَّلالُ: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريقِ، يُقالُ: ضلَّ فلانٌ، يَضِلُّ، ضلالًا: إذا انحرفَ وضاعَ ولم يهتدِ إلى الطَّريق. وضَلِلْتُ الشَّيْء أضِلُّهُ إذا جعلتَه في مَكان وَلم تَدْرِ أين هو، وأضْلَلْتُه، أي أضَعْتُه[5]، ورجلٌ مُضَلَّل أي لا يوفَّقُ لخير، صاحبُ غَواياتٍ وبطالاتٍ. وفلان صاحبُ أضاليلَ، الواحدةُ أُضلولةٌ[6]. والضّالَّة: الحيوانُ الضّائع[7]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصودُ بالضَّلالِ في الآيةِ: خطأُ الطَّريقِ الموصِّلِ إلى المَقْصودِ.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/213.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (ضلّ).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلّ).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة: (ضلّ).
(6) الخليل، العين: (ضلّ).
(7) ابن عباد، المحيط في اللغة: (ضل).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

القنوطُ لا يكونُ إلّا مِنَ الَّذين يَضلّون عنِ الله تعالى، ويَنأون عن هدايتِه

قال إبراهيمُ للضَّيف: ومَن ييئَسُ مِن رَحمةِ اللّهِ إلّا الذّاهِبونَ عن طريقِ الصَّوابِ، الجاهِلونَ بكمالِ قُدرةِ ورَحمةِ اللّهِ الوهّابِ، وأمّا من أنعم اللّه عليه بالهداية والعِلْم العظيم، فلا سبيلَ إلى القنوط إليه؛ لأنَّه يعرفُ من كثرة الأسبابِ والوسائل والطُّرقِ لرحمة اللّه شيئًا كثيرًا، ثمَّ لمّا بشَّروه بهذه البشارة، عرف أنَّهم مُرسلون لأمرٍ مُهِمٍّ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتئنافِ البيانِّي في الآية:

مُحاورةُ الأنبياءِ في البشارة اغتباطٌ لا قنوطٌ

لمّا قال له الملائكة ذلك القولَ كأنَّ سائلًا سأل: فماذا أجابهم إبراهيمُ عليه السلام، فجاءت هذه الآيةُ، وفي الآية إشعارٌ بأنَّ المُحاوَرَةَ في البِشارَةِ لا تَدُلُّ على القُنوطِ، بَلْ ذلك على سَبيلِ الاِسْتِبْعادِ لِما جَرَتْ بِهِ العادَةُ(2).

سَببُ مَجيءِ الوصْلِ بالواوِ في السّياقِ:

تقريرُ إبراهيمَ لقولِ الملائكةِ، إيمانٌ منه بما جاؤوا به

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه لمّا كانتِ الواو للعطف، وكان العطف بالواو لكلامٍ يكونُ من متكلِّمٍ واحدٍ دلَّ على أنَّ في الكلامِ حذفًا هو من كلامِ سيّدنا إبراهيمَ عليه السلام، فكأنَّه قال: بشارتُكم من رحمة اللّه ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، أو يكون قد قرّر قولَهم إيمانًا بما جاؤوا به وعطفَ عليه قولَه المذكورَ، فكأنَّه قال: أنا لا أقنطُ من رحمة اللّه التي بشّرتموني بها ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/85، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 432.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/486.

بَلاغةُ الاسْتفهامِ المجازيِّ في الآيةِ الكريمةِ:

الإنكارُ والعَجبُ كـلُّ الـعـجَـبِ، مـمّـن يـقـنـطُ من رحمةِ الله الواسعةِ

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه أنّ (مَنْ) استفهاميَّةٌ تفيد الإنكارَ الوقوعيَّ فيكونُ الاستفهام بمعنى النّفي على المجاز، أي لا يقنطُ أحدٌ، ولهذا جاءت بعدَه ﴿إِلَّا﴾، ليفيدَ الاستفهامُ الإنكارَ على من يقنطُ من رحمةِ اللّه ونفيَ القنوطِ عن كلِّ عاقلٍ إلّا الضّالين، ويتولَّدُ منه معنى التّعجّب ممّن يقنطُ من رحمةِ اللّه أو يستبعدُها، ليفيدَ أنَّ إبراهيمَ عليه السلام لم يستنكرْ ذلك قنوطاً من رحمة ربِّه، ولكنِ استبعاداً له في العادةِ التي أجراها في عبادِه وخلْقِه[1].

بَلاغةُ التّعْريض في قولِه ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

الـقُـنـوطُ غـيرُ مـتـوقَّـعٍ من إبـراهـيـمَ عليه السلام، ولا ينبغي له

لّما ذكرَ إبراهيمُ عليه السلام لفظ الرّبِّ دونَ أن يقول (من رحمة اللّه) وكان قد قصر اليأسَ على الضّالّين الجاهلين وجاء الكلام على طريق الإنكارِ على القانطين من رحمة ربِّهم كان في الكلام نوعُ تعريضٍ بأنَّهم لم يصيبوا في نهيِه عنِ القنوط، فإنَّه غيرُ متوقَّع منه عليه السلام ولا ينبغي له أن يفكّرَ به[2].

سببُ إيثارِ التّعبير باسمِ الاستفهام (مَنْ):

لا يَنبغي للعاقلِ أنْ يـقـنـطَ من رحمةِ ربِّه أبدًا

عبِّرَ بـ(مَنْ) ليُفيدَ الاستفهامُ الإنكاريُّ معنى العموم من جميع العقلاء، للإشعار بأنَّه لا ينبغي للعاقلِ أنْ يقنطَ من رحمةِ ربِّه، فيكونَ الاستثناءُ في قولِه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ استثناءً منَ العموم.

مُناسبةُ مجيءِ الفعلِ ﴿يَقۡنَطُ﴾ بصيغةِ المضارع:

تـجـدّدُ الحكم واسـتـمـراره، مُـفـيـدٌ لـوصف حـالـةِ الـقـنـوطِ المُستهجَنة

عبِّرَ بصيغة المضارع للدّلالة على تجدّدِ الحكم بالإنكار من يقنطُ من رحمة ربِّه واستمرارِه، وأنَّه إنْ وقع القنوطُ من رحمة ربِّ العالمين فإنّما يقعُ منَ الضّالين.

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/785، والنّسفي، مدارك التنزيل: 2/193، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/82.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

سببُ إيثار التّعْبيرِ بقولِه: ﴿رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾:

كلُّ نَوالٍ منَ اللهِ، هو رحمةٌ من كرمِه وعطاياه

لمّا كان القنوط هو الإياسَ ممّا فيه خيرٌ، عبَّر بقولِه: ﴿مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾ للإيذانِ بأنَّ أعظمَ الخير وأشملَه رحمةُ ربِّ العالمين، وأنَّ كلَّ نوالٍ من اللّه هو رحمةٌ منه ﷻ.

سببُ إيثارِ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿رَبِّهِۦٓ﴾:

قولُ إبراهيمَ عليه السلام، من آثارِ تربيةِ الله تعالى له

قولُه تعالى: ﴿رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾، وفيه أنّ اختيارَ لفظِ الرّبِّ هنا من بين سائرِ الأسامي - فلم يقل مثلًا (من رحمة اللّه) - أوقعُ في المعنى وأكثرُ تأثيرًا في الإنكار، للإشعار بأنَّ قولَه عليه السلام من آثار تربيةِ اللّه تعالى له[1].

بَلاغةُ القصْرِ في سِياقِ الآيةِ:

القُنوطُ من رحمةِ الله، مقصورٌ على الضّالّين خُصوصًا

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وفيه أنّه لمّا دلَّ القصرُ على أنَّ القنوطَ من رحمةِ ربِّ العالمين، مقصورٌ على الضّالين، أفادَ أنَّه لا يتجاوزُهم إلى غيرِهم ولا يتخطّاهم، ولمّا كان القصرُ بطريقِ النّفيِ و(إلّا) يُسلَكُ مع مخاطَبٍ يعتقدُ فيه المتكلِّمُ أنَّه مرتكبٌ للخطإِ مع إصرارٍ عليه أُخْرِجَ الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، وبيانُه أنَّ الملائكةَ لمّا قالوا له ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ﴾ أبرزَهم في معرِضِ من ظنَّ فيه خطأً أنَّه منَ القانطين، مع إصرارِهم على هذا الظنِّ فجاء القصرُ بهذا الأسلوب؛ ليفيدَ أنَّه على يقينٍ من رحمةِ ربِّه وبالبِشارَةِ التي أتَوا بها.

بَلاغةُ التَّذييلِ في قولِه: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

قولُ إبراهيمَ أعمُّ من قولِ الملائكةِ، وأكثرُ فائدةً

لمّا جاء الكلامُ على معنى العموم والكلّيَّة بذكر المسنَدِ والمسنَدِ إليه بصيغةِ العموم كان قولُ إبراهيمَ أعمَّ من قول الملائكةِ وأكثرَ فائدةً، لينبِّههم على أنَّه عارفٌ باللّه عالمٌ بأوصافِ الجلال والجمالِ.

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.

نُكتةُ استثناءِ الضّالّين في الآيةِ الكريمةِ:

استُثنِيَ الضّالّون في الآية دون غيرِهم، فلم يقل مثلا (إلّا الكافرون)؛ لأنَّه لمّا كان الضّالُّ هو الذي ذهب عنه الشّيءُ بعدَ أن كانَ قائمًا عنده، فلا يعرفُ موضعَه، أو ذهب هو عنِ الشّيء بعدَ أن كان بين يديه عبِّرَ به للإيذانِ بأنَّ الضّالَّ هو الذي ذهب منه الحقُّ بعدَ أن كان قريبًا منه، فكأنَّه قد أضاعه من بينِ يديه، أوِ ابتعدَ هو عن الحقِّ بعدَ أن كان بين يديه، فهو ضالٌّ عنِ الهدايةِ والرّشادِ.

الضّالُّ هو من ذهبُ منه الحقُّ، أو من ابتعدَ هو عنِ الحقِّ

فائِدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾:

(ال) هنا تفيدُ استغراقَ الأفراد على معنى الوصفِ الكاملِ في الضّلال، والمعنى لا يقنطُ من رحمة اللّه إلّا الكاملُ في الضّلال على معنى استغراقِ جميع الأفرادِ، وإنَّما قصَرَ القنوطَ على الضّالِّين؛ لأنَّ الضّالَّ يَجْهَلُ كَوْنَ اللّه تعالى قادرًا على ما لا يكونُ في العادة، ويجهلُ أنَّ رحمةَ اللّه تسَعُ الخلقَ ويأتي منها ما يُتعجَّبُ منه، ويَجْهَلُ كَوْنَهُ تعالى عالِمًا باحْتياجِ ذلك العَبْدِ إلَيْه، ويَجْهَلُ كَوْنَهُ تعالى مُنَزَّهًا عَنِ البُخْلِ والحاجَةِ والجَهْلِ فَكُلُّ هذه الأُمورِ سَبَبٌ لِلضَّلالِ[1].

رَحمةُ الله تَسَعُ الخلْقَ، ويأتي منها ما يُتعجَّبُ منه

سِرُّ مجيءِ لفْظِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ بالجمْعِ:

لم يقل: (من يقنط من رحمة ربِّه إلّا الضّالُّ) للإشعارِ بكثرةِ الضّالّين عن طريق الهدايةِ، وللتَّحذيرِ منَ الانضمام إلى جماعةٍ ضالّةٍ؛ فإنَّهم يُضِلّون غيرَهم.

كثرةُ الضّالّين، لا تمنعُ من مواصلةِ طريقِ الحقِّ

نُكتةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ اسمِ الفاعلِ ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ للإيذانِ بأنَّ المرادَ مَن صارَ الضّلالُ وصفًا لازمًا لهم، أي لا يأتي منهم إلّا الضّلالُ، ومن أعظم الضّلالِ قنوطُهم من رحمةِ ربِّهم، فهو أمرٌ عظيمٌ مَهولٌ.

من أعظمِ الضّلالِ، القنوطُ المهينُ، من رحمةِ ربِّ العالمين

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/152.

لـكـلّ وجْـهٍ فـي الـقـراءةِ القرآنيّةِ، وجْهٌ في اللّغةِ العربيّةِ

دَلالةُ تَوجيهِ القراءاتِ في ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾:

قرأ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامر وحمزةُ: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ﴾ بفتح النّون في كلِّ القرآن، وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ: (وَمَنْ يَقْنِطُ) بكسر النّون، فَمن قَرَأ (يَقْنِطُ) قالَ: (قَنَطَ) في الماضي، وَمن قَرأ ﴿يَقۡنَطُ﴾ قالَ: (قَنِط)، و(قَنِطَ يقنَطُ وقَنَطَ يقنِطُ) لهجتان من لهجاتِ العربِ فصيحتان مشهورتان[1].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/366، وابن الجزري، النشر: 2/302.

﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٥٧﴾ [الحجر: 57]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَجيءُ وفْدِ الملائكةِ، وتساؤلُ إبراهيمَ عن غرضِ مجيئِهم سِوى البِشارة

لمّا تحقَّق إبراهيمُ ﷺ البشرى ورأى إتيانَهم مجتمِعين على غير الصّفةِ التي يأتي عليها المَلَكُ للوحي، وكان على علم بأنَّه ما تنزَّلُ الملائكةُ إلا بالحقِّ، علمَ أنَّ لهم غرضًا سوى إيصالِ البشارةِ؛ لأنَّ الواحدَ منَ الملائكة كافٍ في البشارةِ، فكان ذلك سببًا لأنْ يسألَهم عن أمرِهم؛ ليزولَ وجَلُه كلُّه، فلذلك جاءت الآية ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾[1].

أو يقال إنَّه علمَ أنَّ لهم غرضًا سوى البشارةِ لأجلِه أُرسِلوا بقرينة مخاطبتِه لهم بعنوان الرّسالة مع تصديره بالفاء المفيدةِ لترتّب أمرٍ على أمرٍ، ففيه دليلٌ على أنّ مقالتَهم المطويةَ كانت متضمّنةً لبيان أنّ مجيئَهم ليس لمجرّد البشارةِ بل لهم شأنٌ آخَرُ لأجله أُرسلوا فكأنه قال ﷺ: إن لم يكن شأنُكم مجرّدَ البشارة ﴿فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَطۡبُكُمۡ﴾: أصلُ (خطب): يدلُّ على الكلام بَيْنَ اثْنَيْن، يُقالُ: خاطَبَهُ يُخاطِبُهُ خِطابًا، والخُطبَةُ من ذلكَ[3]. ومنه الشَّأْنُ أوِ الأمْرُ، صَغُر أو عَظُم؛ وقيلَ: هو سَبَبُ الأمْر. يُقالُ: ما خَطْبُك؟ أي: ما أمْرُكَ؟ وتقولُ: هذا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأمرُ الَّذِي تَقَع فِيهِ المخاطَبة، والشَّأْنُ والحالُ؛ ومنه قَولُهُم: جَلَّ الخَطْبُ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/67.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).

أي: عَظُم الأمرُ والشَّأنُ[1]. قيلَ: سُمِّيَ خَطْبًا لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أنْ يُخاطِبَ المَرْءُ صاحِبَهُ بالتَّساؤُلِ عنه، فأصْلُهُ مَصْدَرٌ بِمَعْنَى المَفْعولِ، أيْ مَخْطوبٌ فيه، وَجَمْعُهُ خُطوبٌ. والمقصودُ بالخَطْبِ في الآية: الشَّأْنُ المُهِمُّ مِن حالَةٍ أو حادِثَةٍ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إدراكُ إبراهيمَ أنّ وراءَ مجيءِ وفْدِ الملائكةِ الجماعيِّ أمرًا خطيرًا

قال إبراهيمُ للملائكة: فما شأنُكم الخطيرُ الذي أرسَلَكم اللهُ به سِوى البِشارةِ؟ وكأنَّه عليه السلام فَهِمَ من مجرى حديثِهم في أثناء الحوارِ أن ليست هذه البُشرى هي المقصودةُ، بل لهم شأنٌ آخرُ لأجله أُرسِلوا؛ لأنَّهم كانوا عددًا والبشارةُ لا تحتاج إلى مثل هذا العدَد، ومن ثمَّ اكتفى بالواحد في بشارة زكريا ومريم عليهما السلام، وأيضًا لو كانت البشارة هي المقصودةُ لابتدءوا بها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ تَوْسِيطِ الفعلِ ﴿قَالَ﴾:

طيُّ الكلامِ اعتبارًا لِما هو مذكورٌ لا ما هو محذوفٌ

قولُه تعالى: ﴿قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ﴾، توسيطُ ﴿قَالَ﴾ بين قوليه ليكون على طريق الاستئنافِ، إمّا للإيذان بعدمِ اتّصالِ ما بعده بما قبلَه؛ لِيُؤْذِنَ بأنَّ بينهما مقالةً مطويَّةً، وأنَّ الكلامَ تخطّاها لعدمِ ابتناءِ الكلامِ على المطويِّ بل على ما هو مذكور، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿قَالَ ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا ٦١ قَالَ أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ﴾ [الإسراء: 61 - 62]، فإنَّ قوله الأخيرَ ليس موصولاً بقوله الأول بل هو مبنيٌّ على قوله تعالى: ﴿فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ٣٤﴾ [الحجر: 34]، وإمّا أن يكون توسيط ﴿قَالَ﴾ لإظهار الاعتناءِ بمضمون ما بعدَهُ مِنْ

(1) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خطب).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/290.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/36، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/34.

قولِه تعالى: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾؛ للإشعارِ بأنَّه علِمَ أنَّ مجيئَهم ليس لمجرَّد البشارةِ بل لهم شأنٌ آخَرُ خطيرٌ لأجله أُرسِلوا[1].

دَلالةُ الفاءِ الفصيحةِ ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

إنجاءُ المؤمنين وإهلاكُ الكافرين، أهمُّ مِنَ البشارةِ بالغلامِ العليمِ

الفاءُ جوابٌ لشرطٍ محذوفٍ[2]، يدلُّ عليه سياقُ الكلام، والمعنى: فإنْ كان مجيئُكم ليس لمجرَّد البشارة فما خطبُكم أيُّها المرسلون، وفي مجيء الفاء إشعارٌ بأنَّ إبراهيم كان يريدُ أن ينتقل بالكلام معهم إلى ما هو أهمُّ وأعظمُ شأنًا عندَه من أمرِ البشارة بالولد، فكأنَّه علمَ أنَّ تمامَ المقصود من مجيئهم ليس في البشارةِ.

سببُ الاستفهامِ في قولِه: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾:

إشارةُ إبراهيمَ للملائكة، إلى أنَّ لهم خَطْبًا عظيمًا في مجيئهم

لمّا كان الاستفهامُ بـ(ما) على معنى العموم واقترن به لفظُ ﴿خَطْبُكُمْ﴾ أفاد أنَّ الاستفهامَ يستغرقُ أهمَّ شأنٍ من جميعِ شؤونِهم وأحوالِهم، وأنَّ هناكَ أمرًا خطيرًا أُرسِلوا من أجلِه، والسّؤالُ عنِ الخطبِ فيه عنفٌ، قاله إبراهيمُ عليه السلام لمّا أنكرَ حالَهم، فأراد أن يستعلمَ عنِ الأمرِ الذي أتوا لأجلِه، بطريقٍ يُعرّفهم به أنّه على علْمٍ بأنَّ لهم شأنًا عظيمًا في مجيئهم[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿خَطْبُكُمْ﴾:

الخَطبُ هو الشّأنُ الّذي لا يكونُ إلّا في الأمْرِ الخطيرِ

الخطبُ هو الشأنُ المهمُّ من حالةٍ أو حادثةٍ، ولا يَكادُ يُقالُ إلّا في الأمْرِ الشَّديدِ، فَأضافَهُ إلَيْهِمْ للإيذان بأنَّه علمَ أنَّهم يحملونَه إلى القَوْمِ المُعَذَّبينَ، والمعنى، ما أمرُكم وشأنكم الخطيرُ الذَّي لأجْلِه أُرسلتم سَوى البشارةِ[4].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/82.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/176.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/366.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/85.

سِرُّ حذْفِ حرفِ النّداءِ في السّياقِ:

حــذْفُ حــرفِ الـنّـداءِ لـقُربِ المـنـادَى، ولـلإيـجـازِ في الكلامِ

قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، حذفَ حرفَ النّداء (يا) لأنّ الكلامَ في سياق الإيجاز والاختصار، ولهذا جاء الكلامُ مَطويًّا، كما أنّه لمّا كان المنادى وهم الملائكةُ قريبين منَ المنادي لحضورِهم عند إبراهيمَ عليه السلام لم يكونوا بحاجةٍ إلى زيادَةِ تنبيهٍ بذكرِ (يا).

فائِدةُ النّداءِ بصيغةِ ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

الإنباءُ عَنْ خَطَرِ خَطْبِ المُنادَى لـه، وتفخيمِ شأنِ المُنادى

لمّا كان المرادُ نداءَ المرسلين، وكان اللَّفظُ المقصودُ بالنّداء معرَّفًا بـ(ال) اقتضى مجيءَ الوصلة ﴿أَيُّهَا﴾ لتكون هي المنادَى لفظًا، وفائدةُ النّداء بهذه الصّيغة الإنباءُ عَنْ خَطَرِ خَطْبِ المُنادَى له وتفخيم شأنِ المنادَى، لِأنَّ مجيء المُنادَى مبهمًا غَيْرَ مَعْلوم يجعلُ كلَّ سامعٍ مُتَطَلِّعًا إلى المُنادَى، فَإذا خَصَّ واحِدًا كانَ في ذلك إنْباءُ الكُلِّ لِتَطَلُّعِهِمْ إلَيْهِ[1]، كما أنَّ مجيءَ المنادى مبهمًا ثمَّ متبوعًا بنعتٍ يوضِّحُه ويبيّنُه، فيه دلالةٌ على أهمّيَّته، ولمّا جاء النّعتُ أي ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ مشتقًّا، دلَّ على أنَّ تعظيمَهم بسبب رسالتِهم الّتي أُرسِلوا بها، وبسبب كونِهم مُرسَلين من عندِ اللّه.

سِرُّ نداءِ الملائكةِ بعنوانِ الرّسالةِ:

الإيـذانُ بعلْمِ إبـراهـيـم، أنَّ لـهـم شـأنًـا في رسالتِهم

قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾، ناداهم بعُنوانِ الرسالةِ بعد ما كان خطابُه السابقُ مجرَّدًا عن ذلك؛ للإيذانِ بأنَّه علمَ أنَّهم ملائكة، وأنَّ لهم شأنًا آخرَ أُرسِلوا لأجلِه، فأضاف الخطبَ إليهم بعنوانِ الرّسالة من حيث هم حملتُه إلى القوم المعذَّبين، أي ما هذا الخطبُ الذي تحملونه وإلى أيِّ أمَّةٍ أنتم مُرسَلون؟[2].

معنَى (ال) في لفْظِ ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

(ال) هنا عهديَّةٌ، فيحتملُ أن يكون الملائكةُ قد صرّحوا بأنَّهم

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 25/153.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/486، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

مُرسَلون من عندِ اللّه، فتكون (ال) للعهد الذِّكريّ المَطويِّ في الكلام، ويحتملُ أن يكون إبراهيمُ ﷺ قد علمَ بأنَّهم مُرسَلون من حالِهم، فتكون (ال) للعهدِ العلميِّ.

تنوّعُ (ال) بين العهدِ الذِّكريّ والعهدِ العلميِّ، مفيدٌ في البيانِ

سِرُّ بناءِ لفْظِ ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ للمفعول:

خاطبَ إبراهيمُ الملائكةَ بصيغةِ المبنيّ للمفعولِ للإيذانِ بأنَه يعلمُ أنَّ اللّه تعالى أرسلَهم، ويعلمُ أنَّهم يفعلون ما يَأْمُرُهُمُ اللّه به، وللإشعارِ بأنَّه ﷺ أرادَ أن يعلمَ لِمَ أُرسلوا وإلى مَنْ أُرسِلوا.

توجيهُ النّظرِ إلى سببِ إرسالِ الملائكةِ، وإلى من أُرسِلوا

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخَطْبُ والشَّأْنُ:

الخَطْبُ هو الأمرُ العظيمُ الذي يكثرُ فيه التَّخاطبُ وتقعُ فيه المراجعةُ لأهمّيّتِه وعِظم أثرِه، فيكونُ حالًا أو حادثةً أي أمرًا طارئًا، ولا يقالُ لِلوصفِ خطبٌ، والشأنُ هو الحالُ والأمرُ الذي يتّفقُ ويَصلحُ، ولا يقالُ إلّا فيما يَعظمُ منَ الأحوالِ والأمورِ والأوصافِ[1]، فيقالُ للوصفِ العظيم شأنٌ، فالشَّأنُ أعمُّ منَ الخطبِ، ولهذا عبِّر في القرآن عنِ المعنى العامِّ الذي يشملُ الأوصافَ والأحوالَ والحوادثَ بالشّأنِ، للإخبار عن أنَّ اللّه تعالى شاهدٌ عليه، فقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ [يونس: 61][2].

لفظُ الشّأنِ أعمُّ منَ الخطْبِ، وكلاهما من ألفاظِ القرآنِ الفصيحةِ

(1) الراغب، المفردات: (شأن).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/177.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٦٠﴾ [الحجر: 58 - 60]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

الرَّبطُ بين عدمِ القُنوطِ من الرّحمةِ، وبين نجاةِ آلِ لوطٍ منَ العذابِ الشّاملِ

لمّا سأل إبراهيمُ عليه السلام الملائكةَ عمّا أُرسِلوا لأجلِه، كأنَّه قيل: فماذا قالوا؟ فقيل ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ ثمَّ استثنى منهم آلَ لوطٍ، فلا ينالُهم العذابُ، ثمَّ استثنَى من آلِ لوطٍ امرأتَه لتكونَ منَ الغابرين[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّجۡرِمِينَ﴾: أَصْلُ الكَلِمَةِ مِن الجَرْم، وهو: القَطْعُ[2]، وقيل أَصْلُه: الكَسْبُ، وفُلانٌ جَرِيمَةُ أَهْلِه، أيْ: كاسِبُهُم، ومنه سُمِّيَ الذَّنْبُ جُرْماً؛ لأنَّه كَسْبٌ لِصاحِبِهِ[3]، والإجْرامُ: ارْتِكابُ الجُرْمِ وهو الإثْمُ العَظيمُ، وأَعْظَمُ بالإجرامِ الكفْرِ[4]، يُقالُ: أَجْرَمَ الرَّجُلُ: إذا ارْتَكَبَ ذَنْباً أو جَنَى جنايةً[5] والـمُجْرِمُ في اصْطِلاحِ القُرآنِ هو الكافِرُ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩﴾ [المطففين: 29]، والمقصودُ بالإجرام في الآية: الكفرُ، والمرادُ بالقَومِ الـمُجْرِمين: قومُ لوطٍ أهلُ سَدومَ وَقُراها.

2) ﴿لَمُنَجُّوهُمۡ﴾: أَصْلُ الإنجاءِ: الخَلاصُ مِنَ الشَّيْءِ، نَجا يَنْجو نَجْوًا ونَجاءً، مَمدودٌ، ونَجاةً، مَقْصورٌ، وأَنْجَيْتُ غَيْري ونجَّيْته، واستَنْجَى مِنْهُ حاجَتَهُ: تَخَلَّصها. وانْتَجَى مَتاعَه: تَخلَّصه وسَلَبَه،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (جرم).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جرم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 30/210.
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة: (جرم).

ومعنى نجَوْت الشيءَ: خَلَّصته وألْقَيْته. والنَّجاةُ: الخَلاصُ مِنْ ضُرٍّ واقِعٍ[1]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: ما ارتفع مِنَ الأرض فَلَمْ يَعْلُه السَّيلُ فَظَنَنْتُهُ نَجاءَك، والجَمْعُ نِجاءٌ[2]. والمقصودُ بالإنْجاء في الآية: وهو جَعْلُ الغَيْرِ ناجِيًا.

3) ﴿ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أصلُ (غبر): يَدُلُّ على البَقاءِ[3]. يُقالُ: وغَبَرَ الشيءُ يَغْبُرُ أي بَقِيَ، وغَبَرَ الشّيءُ يَغْبُرُ غُبوراً: مَكَثَ وَذَهَبَ، والغابِرُ: الباقي. والغابِرُ: الماضي، وهو مِنَ الأضداد[4]؛ وأشْهَرُ إطلاقَيْهِ هو المُنْقَضي؛ ولذلك يُقالُ: غَبَرَ بِمَعْنَى هَلَكَ. وهو المُرادُ هُنا في الآية: أي: كانَتْ مِنَ الهالِكِينَ، أي: هَلَكَتْ مع مَنْ هَلَكَ مِنْ أهلِ (سَدومَ).

المَعْنى الإجْماليُّ:

سُنّةُ الله تعالى في إنزالِ الهلاكِ، إنجاءُ المؤمنين وحِفْظُهم

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ: إنَّ اللّهَ أرسَلَنا لإهلاكِ قَومِ لوطٍ المُشركينَ إلّا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ به، فلن نُهلِكَهم، وسنُنَجِّيهم أجمعينَ إلّا امرأتَه الكافِرةَ، قَضَينا أنَّها مِنَ المُهلَكينَ الباقينَ في العذابِ؛ لكُفرِها. وقد وصفَهم ﷻ بالإجرامِ؛ لأنَّهم لم يكفروا فقط، بل أضافوا إلى الكُفرِ فَقْدَ الطَّبيعةِ الإنسانيَّةِ. فشذّوا بفاحشةٍ ما سبقَهم بها أحدٌ منَ العالمين، وإذا كانوا قد وصَفوهم بأنَّهم مجرمون، فمؤدَّى ذلك أنَّهم جاءوا لإنزالِ العُقوبةِ بهم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

استِدراجُ الأسماعِ، من عادةِ القرآنِ في القَصصِ، لاستمرارِ الانتفاعِ

قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ﴾، وفيه أنّه لمّا سألَ إبراهيمُ الملائكةَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/130.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (نجو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غبر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (غبر).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/36 - 37، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4097.

عنِ الخطبِ الذي أرسلهم اللّه من أجلِه كان السّامعُ مُتَشَوِّقًا لمعرفة جوابِ الملائكة، فكأنَّ تقديرَ الكلام: فماذا قالتِ الملائكةُ في جوابِ سؤالِ إبراهيمَ، فجاء قولُه تعالى ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾.

دَلالةُ الضّمير في جملةِ: ﴿قَالُوٓاْ﴾:

عَـوْدُ الضَّمير على الاسْمِ بما اتَّصفَ بـه، من فصيحِ البيانِ

يعودُ الضّميرُ على ﴿ضَيۡفِ﴾ [الحجر: 51] بما اتّصَفوا به منَ الرّسالة، أي قال الضّيفُ المُرسلون.

فائِدةُ (إنَّ) في قولِه: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾:

الملائكةُ يأتمِرون بـأمـرِ الـلـه، ويـفـعـلـونَ ما يُؤمَرون

تفيدُ (إنَّ) تأكيدَ مضمونِ الجملة، بمعنى تقريرِ إرسالِهم بالعذابِ إلى القومِ المُجرمين، وجاء الكلامُ مؤكَّدًا للإشعارِ بتقريرِ إرسالِهم وأنَّهم لا حيلةَ لهم في المخالفةِ.

بَلاغةُ مجيءِ المُسنَدِ جُملةً فعليَّةً:

تَحقيقُ إرسالِ المـلائـكـةِ، إلى القومِ المُجرمين

قولُه تعالى: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾، جاءتِ الجملةُ الفعليّةُ خبرًا عن (إنَّ) لإفادة تَقوّي حُكمِ إرسالِهم إلى القومِ المُجرمين، لِما صاحبَ المقاولةَ منَ السّؤال وما خامرَها منَ الإنكار، والمرادُ تحقيقُ إرسالِهم عندَ إبراهيمَ عليه السلام دونَ تخصيصِ الإرسال بهم، فيكونُ التّعبيرُ بالجملةِ الفعليَّةِ أقوى للحُكمِ وأثبتُ له ممّا لو قيل (إنّا مرسلون إلى قومٍ مجرمين).

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالماضي ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾:

إفـادةُ تـحـقُّـقِ الوقوعِ، تأكيدٌ لتنفيذِ أمرِ الله تعالى

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي؛ للإيذانِ بأنَّ إرسالَهم إلى القومِ المُجرمين قد وقعَ وثبتَ، وأنَّ العذابَ واقعٌ لا محالةَ، فلا مجالَ للنّقاشِ في الأمرِ.

دَلالةُ صيغةِ المبنيّ للمفعولِ في ﴿أُرۡسِلۡنَآ﴾:

تـأدّبُ الملائكةِ بـمـوافـقـةِ جوابِهم لسُؤالِ إبراهيمَ عليه السلام

لمّا خاطبهم إبراهيمُ عليه السلام بصيغة المبنيِّ للمفعول في قولِه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ جاء قولُ الملائكة موافقًا له في الصّيغة، لتأكيدِ مقْصدِ إبراهيمَ عليه السلام وتأدُّبًا معه حين عبَّرَ بصيغة المبنيِّ للمفعول، وللإشعارِ بأنَّهم إنّما يفعلون ما يُؤمرون.

مُناسبةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿قَوْمٍ﴾:

التَّعْبيرُ بالقومِ، لإفادةِ أنَّ بعضَهم يُقوّي بعضًا

عُبِّرَ بلفظِ ﴿قَوْمٍ﴾ للإشعارِ بأنَّ قومَ لوطٍ ﷺ مُجتمِعون على أمرِهم وأنَّهم مظاهرون لِمَن هو منهم، وذَوو منعةٍ في شأنِهم، ولمّا كان لفظُ القومِ يُطلقُ على الرّجالِ عُبِّرَ به هنا عنِ الرّجالِ والنّساءِ على سبيلِ التّغليبِ وللتّنبيهِ على أنَّ بعضَهم يُقوّي بعضَهم الآخرَ فيما اجتمعوا عليه.

فائِدةُ تَنْكيرِ ﴿قَوْمٍ﴾ و﴿مُّجْرِمِينَ﴾:

المُجرمون أذلّةٌ مُهانون، وإنِ ادّعَوا القوّةَ فيما يَزعمون

نُكِّرَ الموصوفُ وصفتُه في قولِه تعالى: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ تقليلًا لهم وللاستهانةِ بهم[1]، ويحتملُ أن يكونَ التّنكيرُ لتعظيمِ منعَتِهم ومظاهرتِهم لبعضِهم وأنَّ إجرامَهم كان إجرامًا عظيمًا[2].

فائِدةُ مجيءِ الصّفةِ ﴿مُّجْرِمِينَ﴾:

عَراقةُ الإجرامِ، في الشّذوذِ والانحرافِ عنِ الفِطرةِ الإنسانيّةِ

جاءتِ الصّفةُ تقييدًا للموصوفِ على معنى الذّمِّ، ولمّا تعلَّقَ الحكمُ بالموصوفِ بقيْدِ صِفتِه وكانتِ الصّفةُ وصفًا مشتقًّا أفادَ أنَّ سببَ إرسالِ الملائكةِ هو إجرامُ القومِ، وأنّهم كانوا عريقين في الإجرامِ، بفعلِ الفاحشةِ الشّاذّةِ، وأنَّ إرسالَهم كان لأجلِ الإهلاكِ، واقتُصِرَ في الكلامِ على ذكرِ الموصوفِ وصفتِه دونَ التّصريحِ بذكرِ العذابِ لِعِلْمِ إبْراهيمَ ﷺ بأنَّ المَلائِكَةَ إذا أُرْسِلوا إلى المُجْرِمينَ كانَ ذلك لأجلِ إهلاكِهم واسْتِئصالِهم[3].

بيانُ المقصودِ من قولِه: ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾:

التّعريفُ بالقومِ المُنحرفين بالوصْفِ الذّميمِ، تصويرٌ للواقعِ

لمّا استثنَى ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ دلَّ على أنَّ المرادَ من ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ قومُ لوطٍ، فأفادَ الوصفُ بيانَ المرادِ مع الذَّمِّ.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/486.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/152، والبقاعي، نظم الدرر: 11/68.

مهمّةُ الملائكةِ إهلاكُ المُجرمين، وإنجاءُ المؤمنين

دَلالةُ الاسْتثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾:

يحتملُ هذا الاستثناءُ أن يكونَ اسْتِثْناءً مِنَ الضَّميرِ في ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ فيكونَ مُتَّصِلًا، كَأَنَّهُ قيلَ: إنّا أرسلنا إلَى قَوْمٍ قَدْ أَجْرَموا كُلُّهُمْ إلّا آلَ لوطٍ وَحْدَهُمْ، فـ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ مُستثنون مِنَ الإجرام باقون في حكم الإرسالِ، ويحتملُ أن يكونَ استثناءً مِنْ ﴿قَوْمٍ﴾ فيكونَ مُنْقَطِعًا، لِأَنَّ القَوْمَ مَوْصوفونَ بِكَوْنِهِمْ مُجْرِمينَ وَآلُ لوطٍ ما كانوا مُجْرِمينَ، فيكونَ إخراجُ آل لوطٍ على طريق الاستثناءِ من غيرِ جنسِ المُستثنَى، لاختلافِ الجنسَين، ويَخْتَلِفُ المعنَى بِحَسَبِ اخْتِلافِ نوعِ الاستثناء، فإن كان متَّصِلًا فالمَلائِكَةُ أُرْسِلوا إليهم جَميعًا، ولا يكونُ إرسالُهم خاصًّا للقومِ المجرمين، فيكونُ إرسالُ الملائكة بالنّسبة إلى المجرمين للإهلاك وإلى المؤمنين للإنجاء، أي لِيُهْلِكوا هَؤُلاءِ وَيُنَجّوا هَؤُلاءِ، وإن كان منقطعًا بمعنى أن يخرج آل لوطٍ من حكم الإرسال يكونُ إرسالُ الملائكة إلى القوم المجرمين خاصَّةً، وما أُرْسِلوا إلى آلِ لوطٍ أصْلًا، فيكونُ إرسالُهم إرسالَ هلاكٍ، بقصدِ عذابِ القومِ المجرمين[1].

لفظُ (الآل) يدخلُ فيه كلُّ مؤمنٍ، كما يدخلُ فيه خاصّةُ أهلِ لوطٍ

دَلالةُ لفْظِ ﴿ءَالَ﴾:

عُبِّرَ بِلفْظِ ﴿ءَالَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ للإيذانِ بأنَّ النّاجين هم أتباعُه الذين آمنوا به وكانوا على دينِه ونصروه، ففيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ مَنِ اتّبعَ أحدًا هو من آلِه، وله حكمُهم في النّجاةِ أوِ الهلاك، وبأنَّ الآلَ في قولِهم: اللهمَّ صلِّ على محمَّدٍ وعلى آل محمَّدٍ يدخلُ فيه كلُّ مَنْ تَبِعَهُ، كما يدخل فيه هنا الشَّخصُ نفسُه[2].

بَلاغةُ جملةِ الاستئنافِ في الآيةِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، لمّا كان الاستثناءُ في قولِه

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/581، والفخر الرازي: 19/153، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/450، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/47، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153.

تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ﴾ محتملًا لأن يكونَ متّصلًا وأن يكونَ منقطعًا، كان توجيهُ تركيبِ ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مَبنيًّا على ذلك الاحتمالِ، فإذا كان الاستثناءُ متّصِلًا كان التّركيبُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، ليكونَ بمنزلة جوابِ لسؤالٍ سأله إبراهيمُ عليه السلام، فكأنَّه لمّا استُثْنِيَ آلُ لوطٍ فُهِمَ منَ الاستثناء أنَّهم ناجون منَ العذاب، فكان كأنَّه سألَهم على مقتضى التَّقريرِ والتأكيدِ لأهميَّة الأمرِ عنده، فقال لهم فما حالُ آلِ لوطٍ، وهل سينجون منَ الهلاكِ؟ فقيل ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، ليفيدَ الإخبارَ بنجاتِهم لعدم إجرامِهم ولتقريرِ ما فُهِم منَ الاستثناءِ من مُطلقِ عدمِ شمولِ العذاب لهم، ليكونَ تأكيدًا لمعنَى الاسْتِثْناءِ ولتعليل انتفاءِ العذابِ عنهم؛ فإنَّ مَنْ تُعلَّقُ بهم التَّنجيةُ ينجُّون من شمول العذابِ، وفي الاستئنافِ البيانيِّ اسْتِدرارُ أسماعِ المخاطَبين وإثارتُهم للإصغاءِ إلى رحمة اللّٰه بالمؤمنين وإنجائِهم منَ العذاب والهلاكِ، وإذا كان الاستثناءُ منقطِعًا جرى مجرى خبرِ (لكنّ) في الاتصال بآل لوطٍ؛ لأنّ المعنى: لكنَّ آلَ لوطٍ مُنجَون[1].

نَجّى اللّٰه المؤمنين، لعدَمِ انحِرافِهم عنِ الفطرة، وإنكارِهم للشُّذوذِ

فائِدةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في الآية:

أفادَ تتابعُ التّأكيدِ بـ(إنَّ) واللّام في قولِه تعالى: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾ تقريرَ حكم إنجاءِ آل لوطٍ أجمعين وللإشعارِ بأنَّ تَنْجيتَهم هي تنجيةٌ عظيمةٌ[2].

تَعظيمُ شأنِ إنجاءِ المؤمنين من عذابِ المُجرمين المُنحَرفين

فائِدةُ مَجيء (نا) في قوله: ﴿إِنَّا﴾:

أفاد التّعبيرُ بـ(نا) تعظيمَ أمرِ تنجيَةِ المؤمنين من عذاب المُجرمين المُنحرفين، وأنَّه لا أحدَ يستطيعُ تَنْجيتَهم إلّا اللّٰه الملكُ الواحدُ الأحدُ، وقرَّر هذا المعنى في قولِه تعالى: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾.

لا أحدَ يستطيعُ التّنجيةَ منَ العذابِ، إلّا اللّٰه الملكُ الغلّابُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/582، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/487، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/179.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾:

أفاد التّعبيرُ بالنّجاءِ أنَّ غيرَهم هالكٌ، وأنَّ القصدَ منَ الإرسال إهلاكُ القوم، فهو تقريرٌ لأن يكونَ الاستثناءُ منقطِعًا.

التّنجيةُ العظيمةُ، تُؤْذِنُ بأنَّ الهلاكَ كان عَظيمًا

نُكتةُ التَّعْبير بصيغةِ ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾:

أفاد لفظُ ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ المشتقُّ منَ الفعل الثّلاثي المضعَّفِ (نجّى) المبالغةَ في تنجيةِ آلِ لوطٍ؛ إيذانًا بشدَّة العذاب وهولِه. ولمّا كانَ الإنجاءُ بمعنى الانفصال عنِ الشّيءِ، وكانت النَّجْوَةُ والنَّجاةُ هي المكانُ المُرتفعِ المنفصلُ بارتفاعه عمّا حوله، دلَّ التّعبيرُ بلفظ ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ على أنَّ العذابَ سيعمُّ القومَ والأرضَ التي هم فيها، وأنَّ المؤمنين سيخرجون من أرضِ المُجرمين المُنحرِفين، وأنّهم منفصِلون عنهم بإيمانِهم باللّه وبنبيِّهم لوطٍ ﵇ مميَّزون عنهم بأفعالِهم، كما أفاد أنَّ لِلمؤمنين النّاجين مكانةً مرتفعةً.

عذابُ المُجرمين المُنحرِفين، يعمُّ القومَ والأرضَ

فائِدةُ التَّأكيدِ بقولِه: ﴿أَجْمَعِينَ﴾:

أفاد التّأكيدُ بلفظِ ﴿أَجْمَعِينَ﴾، إحاطةَ آل لوط بالتّنجيةِ منَ العذاب، ففيه إشعارٌ برحمة اللّه تعالى بهم، كما أفادَ دفعَ توهّم أن يكون أيُّ فردٍ منهم، قد بقيَ مع الهالكين إلّا امرأتَه التّي قدّر اللّه أن تكون منَ الغابرين.

إحاطةُ آلِ لوطٍ بالتّنجيةِ إلّا امرأتَه، تفريقٌ بين من آمن، ومن كفرَ

بَراعةُ الاستثناءِ في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾:

استثناءٌ منَ الضّمير في قوله تعالى: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾، أو من ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾، فهو استثناءٌ منَ المُستثنى، فرجعتِ امرأتُه في التأويل إلى القوم المجرمين؛ وفائدةُ مجيء الاستثناء بهذه الطريقة - بحيث لم تدخلِ امرأةُ لوطٍ في القوم المجرمين من أوّل الأمر - أمران: أحدُهما: الإيذانُ بأنَّه كان الأحقَّ والأحرى بها أن تكون منَ النّاجين؛ لأنَّها من آل لوطٍ، لكنَّها كانت منَ الباقين فهلكت، والثّاني هو أنَّه لمّا كان المستثنى الأوّلُ (آلَ لوطٍ) في ضمنِه امرأتُه، وهي لا يجري

امرأةُ الرّجلِ أولَى النّاسِ به، اتّباعًا في إيمانِه وعملِه

الحكمُ عليها بما حُكِمَ به لآل لوطٍ منَ النّجاءِ، وكان تمامُ المعنى يقتضي إدخالَه في لفظه ولا يمكنُ العبارة عنه دون ذلك الذي يجري الحكمُ عليهم، اقتضى الكلام استثناءً ثانيًا لإخراجها من حكم آل لوطٍ وإدخالِها في حكم القوم المجرمين[1].

دَلالةُ الضّمير في قولِه: ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ﴾:

امرأةُ الرّجلِ من آلِـه، وكفرُها استَثْناها منَ النّجاةِ

يعودُ الضّميرُ على ﴿لُوطٍ﴾ بما اتّصفَ به من صفة الإنجاءِ، والمعنى: إلّا امرأةَ لوطٍ الذي نجّيناه وآلَه معه، فيفيدُ الاستثناءُ أنَّها ليست بناجيةٍ منَ الهلاكِ، وإنّما استثناها لدخولِها في آلِه.

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

لا جدوَى منَ النَّسبِ والمُصاهرةِ، إذا عُدمَ الإيمانُ بقوّةِ الله القاهرة

قولُه تعالى: ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، لمّا استثنَى الملائكةُ امرأةَ لوطٍ من أن يُنجّوها، تشوَّفتِ النَّفسُ للوقوفِ على ما قضى اللّهُ به من ذلك، فكأنَّه قيل: فما كان حالُها وهي امرأةُ لوطٍ؟، فقيل ﴿قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، تقريرًا لما فُهِمَ من دلالة استثنائِها منَ النّاجين منَ العذاب.

نُكتةُ التَّعبير بلفْظِ ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

منَ الإجرامِ المُشاركةُ في الفسادِ، والدّلالةُ عليه

لمّا كان لفظُ التّقديرِ بمعنى جعْلِ الشَّيء على مقدار غيرِه لتظهرَ المُساواة والمباينةُ أفادَ أنَّ عذابَ امرأة لوطٍ إنّما كانَ لمُساواتِها قومَها في عملِهم، لمشاركتِها معهم في الفساد، وكانت تدلُّ قومَه على أضيافِه، فاستوجبتِ العقوبةَ معهم، ولمباينتِها آلَ لوطٍ في اتّباعِ لوطٍ على إيمانِه ودينِه[2].

بَلاغةُ تضمين الفعلِ في قولِه: ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

هلاكُ امرأةِ لوطٍ، بحِكمةِ الله وتقديرِه

عُلّقَ فعلُ التّقدير هنا مع اختصاصِ التّعليق بأفعال القلوبِ؛

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 2/582، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/367، والثّعلبي، الكشف والبيان: 15/480، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/214.

(2) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 997، والبقاعي، نظم الدرر: 11/69، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82.

لتضمُّنِه معنى العلم، لترتّبِ تقديرِ عذابِها على علْمِهم به بما علَّمهم اللّه، ففيه إيجازٌ، وفائدةُ التّضمين إثباتُ عذابِها بطريق العلم، والتّقديرُ أنَّ امرأته منَ الغابرين، ليفيدَ أنَّ هلاكَها هو بحكمةِ اللّه تعالى(1).

سببُ الإسْنادِ في الفعْلِ ﴿قَدَّرۡنَآ﴾:

المأمورُ بأوامرِ الملكِ، له حقُّ نسبةِ الأمرِ إلى نفسِه

أُسندَ الملائكةُ فعْلَ التّقديرِ إلى أنفسِهم، وهو للّه تعالى وحدَه، ولم يقولوا (قدَّر اللّه إنّها لمن الغابرين) للإشعارِ بما لهم منَ القُرب والزُّلفى والاختصاص باللّه، ولِأنَّهم هُمُ المَأْمورونَ بِإهْلاكِهِم، كما يَقولُ مَنْ يقومُ بأوامرِ المَلِكِ ومن هو مُتَصَرِّفٌ بأوامرِهِ: أمَرْنا بِكَذا، والآمِرُ هو المَلِكُ، أي لِأنَّهُمْ مُزْمِعونَ على سَبَبِهِ(2).

بَلاغةُ تتابُعِ التَّأكيدِ في السّياقِ:

التَّأكِيدُ لقَطْعِ سُؤالِ النّجاةِ لامرأة لوطٍ

قولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾، فيه تتابعُ التّأكيد بـ(إنَّ) واللّام الموطِّئة للقسم؛ لأجل ما أُشير إليه هنا من عظيم تشوُّفِ الخليل عليه السلام إلى معرفة أمرهم ورغبتِه في نجاة لوط وجميعِ آله، فجاء التّأكيدُ متتابعًا لقطعِ طمَعِه عن سؤالٍ في نجاتها، ولأنَّه قد يخامرُ السّامعين أنَّها قد تَنجو لأنَّها امرأةُ لوطٍ(3).

نُكتةُ التّعبير بقولِه: ﴿لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

التّحذيرُ منَ التّخلُّفِ عن ركبِ المؤمنين، ففيه الهلاكُ بيقينٍ

أفاد التّعبيرُ بـ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ أنَّها منَ الباقين، كما أشعر اللّفظُ أنَّها منَ المتخلّفين عنِ الخروج(4)، ليفيدَ أنَّها ارتكبت معصيةً أخرى سوى مناصرتِها لقومِها، بعدمِ إطاعتِها نبيَّ اللّه لوطاً عليه السلام في الخروج معه، فكانت منَ الباقين مع الكفرة ومنَ المتخلّفين عنِ الخروج،

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/487.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/582، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/62.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/68.

(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/259.

"ليفيدَ أنَّها تَتَخَلَّفُ وتَبْقَى مع مَنْ يَبْقَى حتّى تَهْلِكَ كَما يَهْلِكونَ، ولا تَكونُ مِمَّنْ يَبْقَى مع لوطٍ فَتَصِلُ إلى النَّجاة"[1].

فائِدةُ حذْفِ مُتعلِّقِ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾:

إفادةُ العمومِ، إيحاءٌ بشُموليّةِ العذابِ لكلّ من يَستحقُّه

أفاد حذفُ متعلِّقِ ﴿ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾ العمومَ بمعنى أنَّها منَ الغابرين مع المُجرمينَ المُنحرفين الكفرةِ، فهي باقيةٌ معهم، ومنَ المُتخلّفين عنِ الخروج مع لوطٍ عليه السلام، أي لتهلكَ مع القومِ المُجرمين.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الأهلُ والآلُ:

الأهـلُ علاقـةٌ بالنّسبِ، والآلُ بالقرابَةِ أوِ الصُّحبةِ أوِ الاتِّباعِ

الأهلُ يُستعملُ فيما كان من جهة النَّسبِ والاختصاصِ، فمن جهةِ النّسبِ يقال: أهلُ الرّجلِ لقرابته الأدْنين، ومن جهة الاختصاص، يقال أهلُ البصرةِ وأهلُ العلم، أي الجماعةُ المختصّةُ بما أضيفَ الأهلُ إليه، وأمّا الآلُ فهو خاصَّةُ الرّجل من جهة القرابةِ أوِ الصُّحبة أوِ الاتِّباع، فيقال آلُ الرّجل لأهلِه وأصحابه ولا يقال آلُ البصرة وآلُ العلم، و(آل لوطٍ) أتباعُه وكذلك آلُ (فرعون)، وثمَّة فائدةٌ في استعمال الآلِ تختلف عنِ الأهل، فالآل إن أُفرد دخل فيه المُضاف إليه كقوْلِه تَعالَى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ وقوله تعالى ﴿أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [غافر: 46]، وَأمّا إن ذُكر الرّجلُ ثمَّ ذكرَ آلَه لم يدْخلْ فيهم، فَفرقٌ بَين المُجَرّد والمقرون، فَإذا قيل (اعْط لزيد وَآل زيد) لم يكن زيد هُنا داخِلا في آله، وَإذا قيل: (اعْطه لآل زيد) تناول زيدًا وَآله، وأيضًا، قد يذكرُ آلُ الرّجل، والمرادُ به الرّجل[2].

تَوْجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في السّياقِ:

أوّلًا: قرأ حمزةُ والكسائيّ والحضرميّ (إنا لَمُنْجوهم أجمعينَ)،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/153.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/624، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 281، وابن القيم، جلاء الأفهام، ص: 209.

اختلافُ القراءاتِ، يُفيدُ في ثراءِ المعنى وبيانِه

وقرأ ابْنُ كثيرٍ ونافِعٌ وعاصِمٌ وأبو عَمْرو وابْن عامر ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ مشدّدةً[1]، ووجْهُ التّخفيف هو الإيذانُ بسهولةِ الأمرِ عند اللّه تعالى، أمّا وجهُ التّشديد فهو للتَّنبيهِ على أنَّ أمرَ إنجائِهم كان عظيمًا؛ وللإشعارِ بعِظمِ هلاكِ القوم المَجرمين وهوْلِ استِقصائِهم.

ثانيًا: قرأ أبو بكرٍ عن عاصم في هذه الآية (قَدَرْنا) بالتّخفيف وقرأ الجميعُ بالتّشديد ﴿قَدَّرْنَآ﴾[2]، وقراءةُ التّشديد تفيدُ معنى المبالغةِ في التّقدير، وقراءةُ التّخفيف على معنى أصلِ الفعل، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ التَّخفيفَ بمعنى التَّثقيلِ[3].

(1) الأزهري، معاني القراءات: 2/71، وابن الجزري، النشر: 2/259.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/302.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/367.

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ٦١﴾ [الحجر: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اختِلافُ سببِ مجيءِ الملائكةِ، لاختلافِ الأمرَيْنِ، منَ البِشارةِ والإهلاكِ

لمّا تمَّ ما أريدَ الإخبارُ عنه من تحاوُرِ الملائكة، مع إبراهيمَ عليه السلام، أخبرَ عن أمرهم مع لوطٍ عليه السلام، وللإشارةِ إلى أنَّ الملائكة، جاؤوا إلى إبراهيمَ، بعنوانِ الضَّيفِ، وإلى لوطٍ بعنوانِ الرّسالة، فجاءت هذه الآيةُ[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّروعُ في بيانِ إهلاكِ المُجرمين، وتَنْجيَةِ آلِ لوطٍ المُؤمنين

يقولُ اللّه تعالى: فلمّا جاءتِ الملائكةُ لوطًا وأهلَه، قال لهم: من أيِّ الأقوام أنتم، ولأيِّ غَرضٍ جئتم؟ وإنِّي أخاف أن تمسّوني بمكروه؛ وإنَّما قال هذه المقالةَ؛ لأنَّه لم يشاهدْ منَ المرسَلين حين مقاساةِ الشَّدائد ومعاناةِ المكايدِ من قومه الَّذين يريدون بهم ما يريدون - إعانةً ولا مُساعدةً، فأنكر خُذلانَهم له، وتركَهم نصرَه حين المضايقةِ الَّتي حلَّت به بسببِهم حتَّى اضطرَّ إلى أن يقول: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 80] كما جاء في سورة هود[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائِدةُ الفاء في قولِه: ﴿فَلَمَّا﴾:

بيانُ كيفيّةِ إهلاكِ المُجرمين، وتَنْجيَةِ لوطٍ والمؤمنين

أفادتِ الفاء هنا سرعةَ وصول الملائكةِ إلى لوطٍ عليه السلام ودخولِهم بَيْتَهُ[3]، وفيها إشعارٌ بالشّروعِ بالتّفصيلِ ببيانِ كيفيةِ إهلاك المُجرمين وتَنجيَةِ آلِ لوط حسبما أُجملَ في الاستثناء[4]، ولِتقرير أنَّ مجيءَ الملائكة إلى إبراهيمَ عليه السلام كان قد سبقَ مجيئَهم إلى قوم لوطٍ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 14/35.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83.

اشتدَّ إنكارُ لوطٍ، خوفًا على ضيوفِه، وحسرةً لِما يفعلُه قومُه

دلالةُ الأداةِ (لَمّا) في السّياقِ:

لَمّا كانتِ الأداةُ (لَمّا) بمعنى حين، فتفيدُ وقوعَ شيء لوقوع آخرَ، بحيث يكونُ الثّاني منهما مترتِّبًا على الأوّل؛ فهو بمنزلة الجواب المعلَّقِ وقوعُه على وقوع شيءٍ آخرَ أفاد التّعبيرُ بـ﴿فَلَمَّا﴾ أنَّ قولَ لوطٍ للملائكة ترتّبَ على مجيءِ الملائكةِ عنده، وأنَّ مجيئَهم كان سببًا لنُكرانِه لهم وأنَّ قولَه لهم وقعَ في وقتِ مجيئِهم من غيرِ مُهلةٍ، فكأنَّه ما اشتدَّ إنكارُه لهم إلّا بعد الدّخولِ إلى منزله، خوفًا عليهم وحزنًا لما يفعلُ قومُه[1].

التَّعبيرُ بالمجيءِ، بمعنَى الحُضورِ

نُكتةُ تَعديةِ الفعلِ ﴿جَآءَ﴾:

لَمّا تعدَّى الفعلُ ﴿جَآءَ﴾ إلى المفعولِ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ بنفسِه من غيرِ حرفِ الجرِّ (إلى) أفادَ أنَّ الملائكة جاؤوا لوطًا وحضروا عنده، فليس المرادُ منَ المجيءِ مجرَّدَ وُصولِهم إليه من غير حضورٍ، ويدلُّ عليه مخاطبتُه لهم في قولِه: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾.

مَجيءُ المرسلين، تكليفٌ إلهيٌّ من ربِّ العالمين

دَلالةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿جَآءَ﴾:

يحتملُ أنْ يكونَ المرادُ من الفعلِ ﴿جَآءَ﴾، ابتداءَ مجيئِهم لوطًا ﷺ بمعنَى بمجرَّدِ مجيئِهم وحضورِهم عنده ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ مطلقَ كينونتِهم عنده، بما يشملُ حضورَهم ومحاورتَهم معه، فإنَّ ما حُكي عنه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ أي بالعذاب الّذي كنتَ تتوعَّدُهم به، فيمترون فيه، ويكذِّبونَك قد قشَّروا العصا وبيَّنوا له ﷺ جليّةَ الأمر، فأنَّى يمكنُ أنْ يعتريَه بعدَ ذلك المساءةُ منهم وضيقُ الذَّرْعِ بهم؟![2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/83.

سببُ إيثارِ التّعبيرِ بالمجيءِ إلى الآلِ:

أتباعُ الرّسولِ، لهم حُكمُه في البِشارةِ والنّجاةِ منَ العذابِ

قال ﴿جَآءَ ءَالَ لُوطٍ﴾، مع أنَّ الملائكة قد أتَوا لوطاً ولم يأتوا جميعَ آله؛ للإشعار بأنَّ مجيئَهم للوطٍ ولإنجائِه في حكم مجيئِهم لآلِه وأتباعِه، فهو تشريفٌ لآلِه وبشرى لهم بأنَّ أتباعَ الرّسول لهم حكمُ الرّسول في البشارةِ بالتّنجيَةِ منَ العذاب، كما أنَّه لمّا كان لوطٌ عليه السلام وأتباعُه في بلدةٍ واحدةٍ وكان الملائكةُ قد نَزَلوا في مَنْزِلَةٍ بَيْنَ أهْلِه، عبَّرَ بقولِه ﴿جَآءَ ءَالَ لُوطٍ﴾، وإنْ كانَ المَقْصودُ بِالخِطابِ والمَجيءِ هو لوطٌ عليه السلام[1].

بَلاغةُ وضْعِ الظّاهرِ موضعَ المُضمَرِ:

انتحاءُ أسلوبِ الإظهارِ، تكريمٌ للمُظهرِ

قولُه تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾، وفيه وُضِعَ المُظهَرُ موضعَ المُضمَر، ولم يقل: (فلمّا جاءهم المرسلون)؛ للإيذان بأنَّ مجيئَهم لتحقيقِ ما أُرسِلوا به منَ الإهلاك للقوم المجرمين، والتَّنجيةِ للوطٍ عليه السلام وأتباعِه، كما أنَّ بالإظهارِ في موضعِ الإضمار مزيدَ تكريمٍ للمُظهَر.

فائِدةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾:

تَشريفُ أتباعِ الرُّسلِ بِنِسْبتِهم إليهم

لمّا كانتِ الإضافةُ على معنى اللّام التي تفيدُ الاختصاصَ، أفادتِ الإضافةُ تشريف أتباعِ لوطٍ عليه السلام، فكان التّكريرُ على معنى تقريرِ اختصاصِهم بنبيِّهم ونسبتِهم له، بسببِ اتّباعِهم له وإنكارِهم على القوم المجرمين المنحرفين.

بَلاغةُ تقديمِ ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ على ﴿ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾:

تعظيمُ شأنِ مهمَّةِ الملائكة فيما كُلّفوا به، منَ الإهلاكِ والتَّنجيةِ

قُدِّمَ المفعول على فاعلِه لإفادة التّأكيدِ والتّخصيصِ، بمعنى أنَّ الملائكة لم تَأْتِ إلى أحدٍ بعد مغادرتِهم إبراهيمَ عليه السلام سوى إلى آلِ لوطٍ، تعظيمًا لشأنِ مهمَّتِهم في إهلاكِ المُنحرفين وتنجيةِ المؤمنين.

---

(1) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 998، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/63.

دَلالةُ (ال) في ﴿ٱلْمُرْسَلُونَ﴾:

تـنـوّعُ وصـفِ الملائكةِ، بتَنوُّعِ مهمّتِهم

(ال) هنا للعهدِ، للإيذانِ بأنَّ الّذين جاؤوا لوطًا همُ المرسَلون الّذين خاطبهم إبراهيمُ بعنوان الرّسالةِ كما تقدَّم، فتنوّعَ وصْفُهم بتنوّعِ مهمّتِهم.

﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ٦٢﴾ [الحجر: 62]

تكملةُ إبرازِ فِطرةِ الإنسان إنكارُ الضّيفِ، إنْ جاء على غيرِ وصْفِ الضّيافةِ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا جاءَ الملائكةُ لوطًا تلقّاهم، كما هو شأنُ كبيرِ المنزل، ولمّا وجدَهم على هيئةٍ وشكلٍ غيرِ الّذي يعرفُه ممَّنْ يمرُّ به منَ القبائل، ﴿قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾(1).

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّنكَرُونَ﴾: (نكر): أصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَعْرِفَةِ الَّتي يَسْكُنُ إليها القَلْبُ. ونَكِرَ الشَّيءَ وأنكَرَهُ: لَمْ يَقْبَلْهُ قَلْبُهُ وَلَمْ يَعترِفْ به لِسانُهُ. والبابُ كُلُّهُ راجِعٌ إلى هذا(2). والإنْكارُ: نَفْيُ الشَّيْءِ وجَحْدُهُ وَرَدُّهُ، يُقالُ: أنْكَرْتُ حَقَّهُ، أي: جَحَدْتُهُ وَنَفَيْتُهُ، وكُلُّ ما جَهِلَهُ النّاسُ وَجَحَدوهُ فهو مُنْكَرٌ(3). وتَنْكِيرُ الشَّيْءِ من حيثُ المعنَى جعْلُه بحيث لا يُعْرَفُ، وتعريفُه جعْلُه بحيث يُعْرَفُ. والنُّكْرُ: الدّهاءُ والأَمْرُ الصَّعْبُ الَّذي لا يُعْرَفُ(4). والمقصودُ بالـمُنْكَرِ في الآية: الَّذِي يُنْكِرُهُ غيرُهُ، أي: لا يَعْرِفُهُ. وأُطلِقَ هنا على مَنْ يُنْكَرُ حالُهُ ويُظَنُّ أنَّهُ حالٌ غيرُ مُعتادٍ، أي: يُخشى أنَّهُ مُضمِرُ سوءٍ(5).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مجيءُ الملائكة إلى لوط، في صورة ضيوفٍ شبّانٍ، صِباحُ الوجوه، لم يُعرف لهم مثيلٌ منَ الأقوام، ممّا استدعى لوطًا أن يُنكر ما عاين من طلْعتِهم غيرِ المعهودة، ولأيّ غرضٍ هو مجيئُهم، ولأيّ خطْبٍ جَلَلٍ هو ظهورُهم.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/154.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نكر).
(3) الخليل، العين: (نكر).
(4) الراغب، المفردات: (نكر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/358.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآية:

المُسارعةُ إلى البِشارةِ، دأبُ الصّالحين

جاء الكلام على طريق الاستئنافِ البيانيِّ لاسْتِدرار أسماعِ المخاطَبين، وقُدِّمتِ المقاولةُ بين لوطٍ ﵇ والملائكةِ المرسَلين على ما جرى بينه وبين أهلِ المدينة منَ المُجادلة في ضيْفِه؛ للمسارعة إلى ذكر بشارةِ لوطٍ ﵇ بإهلاك قومِه وتَنجيةِ آله عَقيبَ ذكْرِ بشارةِ إبراهيمَ ﵇ بهما، ولمّا كان المعنَى لا يتمُّ إلّا ببيان كيفيةِ نجاةِ لوطٍ وآلِه أُشيرَ إلى ذلك إجمالاً ثم ذُكرَ ما فَعلَ القومُ وما فُعلَ بهم، ولم يُبالَ بتغييرِ التّرتيبِ الوُقوعيِّ ثقةً بمراعاتِه في مواضعَ أخرى(1).

بَلاغةُ الحمْلِ على الظّاهرِ أو على الكنايةِ:

مَنْ أنكرَ شيئًا نفرَ عنه، وخافَ منه

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾، يحتملُ أن يكون وصفُهم بالقوم المُنكرين، على ما هو ظاهرُ اللّفظِ ليكونَ بمعنَى: نُنْكركم ولا نعرفُكم، ولا تُعرفون بأهل هذه البلدةِ؛ لأنَّ قومه إنَّما يعملون ما يعملون بالغرباء؛ لا يعملون بأهل البلدِ، ويحتملُ أن يكونَ الكلامُ على الكنايةِ؛ لأنَّه لو قصدَ بقولِه ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أنَّه لا يعرفُهم لَما توافقَ مع جواب الملائكة: ﴿بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ فكان المرادُ من: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ كنايةً عن أنّكم قومٌ أخافُ شرّكم؛ لأنَّ مَنْ أنكرَ شيئًا نفرَ عنهُ، وخافَ منهُ، فيكونُ الكلامُ على الكناية، أي تُنْكِرُكم نفسي وتنفرُ منكم، فأخاف أنْ تَطرقوني بشرٍّ، فلذا أضربوا عنه بما ذُكر، أي ما جئناك لإيصال شرٍّ إليك بل لتمشية أمرِك، وتعذيبِ أعدائك بما توعّدتَهم به(2).

فائِدةُ التّأكيدِ بـ(إنَّ) في السّياقِ:

الحذرُ منَ الغريبِ معروفٌ، حالةَ تصرُّفِه على غيرِ المألوفِ

أفادت (إنَّ) تأكيدَ مضمون الجملةِ؛ للإشعار بأنَّ لوطًا ﵇، كان قد تقرَّرَ في نفسِه إنكارُهم، وأنَّه لا يَشكُّ في هذا.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/114، والزمخشري، الكشاف: 2/583، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والشهاب، عناية القاضي: 5/531.

دَلالةُ الجملةِ الاسميّةِ المُصدَّرةِ بـ(إنّ):

قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فيه أنّه لمّا كانتِ الجملة الاسميَّةُ تدلُّ على الثّبوت عبّرَ بها هنا للمبالغة في الوصْفِ خوفًا منهم أو عليهم.

إنكارُ لوطٍ للملائكة، سببُه هَيْئَتُهمْ التّي جاؤوا عليها

فائِدةُ الإخبارِ عنِ الملائكة بأنَّهم ﴿قَوْمٌ﴾:

عبّرَ بالقومِ مع قلَّة الملائكةِ الذين جاؤوا إليه للإشعارِ بأنَّ لوطًا عليه السلام رأى منهمُ القوّةَ، وأنَّه لابدَّ أن يكون لإتيانِكم هذه البلدةَ خطبٌ عظيمٌ[1].

عِظمُ المهمَّةِ يدلُّ على قوّةِ مَنْ جاؤوا بها

سببُ مجيءِ صيغة ﴿مُّنكَرُونَ﴾:

عبّرَ بصيغة المبنيّ للمفعول للإيذانِ بأنَّ كلَّ من تتأتّى منه رؤيتُهم يُنكرهم، ففيه تنبيهٌ لهم بأنَّ إنكارَه لهم أمرٌ لا يختصُّ به، وأنَّ الإنكارَ بسببِ ما هم عليه منَ الهيئةِ وطريقةِ المجيءِ إليه.

إنكارُ لوطٍ للملائكة، ليس بسببِ أمرٍ يخُصُّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/69.

﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٦٣﴾ [الحجر: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المواصلةُ بتوجيهِ نظرِ لـوطٍ، إلى ما هو أهمُّ وأوْلى منَ الإنكارِ

لمّا قال لوطٌ للملائكة: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ وكانت حقيقةُ المنكر هي فيما خرج عن عادةِ أشكالِه، ولم يكنْ على طريقة أمثالِه، أضْربوا عن قوله، وكان جوابُهم أنْ ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾[1]. وأيضًا لمّا قال لهم لوطٌ: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ أجابوهُ بِما يُزيلُ ذلك؛ إضْرابًا عَنْ قولِه وإبْطالًا لِما ظَنَّهُ مِنْ كوْنِهِمْ مِنَ البَشَرِ الَّذِينَ لَمْ يَعْرِفْ قَبِيلَتَهُمْ فَلا يَأْمَنُهُمْ أنْ يُعامِلوهُ بِما يَضُرُّهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَمۡتَرُونَ﴾: أصلُ المَرْيِ من: مَرَيْتُ النّاقةَ: إذا مَسَحْتُ ضرْعَها للحَلَب[3]، والمِرْيَةُ: التَّردُّد في الأمْرِ، وهو أخصُّ مِنَ الشَّكِّ، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ [الحج: 55][4]، والامتِراءُ: المُحاجَّةُ فيما فيه مريةٌ، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34]. والمِراءُ أيضًا: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرِّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَةِ مُماراةٌ؛ لأنَّ كلَّ واحِدٍ يَسْتَخْرِجُ ما عِنْدَ صاحِبِه ويَمْتَرِيه كَما يَمْتَرِي الحالِبُ مِنَ الضَّرْعِ[5].

والمقصود بالامتراء في الآية: الشَّك، أي: بالأمْرِ الَّذي كانَ قومُكَ يَشُكّونَ في حُلوله بهم، وهو العذابُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/71.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/63.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مري).
(4) الراغب، المفردات: (مرى).
(5) الزبيدي، تاج العروس: (مري).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَجيءُ الملائكة لنجدةِ لوطٍ، وتصديقِ وعيدِ الله، لا لِما يُخيفُه ويُؤذيه

الآية حكايةٌ لِما ردَّ به الملائكةُ على لوطٍ؛ لكي يُزيلوا ضيقَه بهم، وكراهيتَه لوجودهم عنده، فقالتِ الملائكةُ له: بل نحنُ ملائِكةُ اللّه، جِئناك بعذابِ قَومِك، الَّذين كانوا يَستخفّون بما أنذرتَهم به من عذاب اللّه ونِقمته، أي: إنَّنا لم نجئَ بما يخيفُك، بل جئنا بالبلاء الَّذي كنتَ تتوَعَّدُ به القومَ فيمترون فيه، ويُكذّبون به، فهذا هو ما جئناك به(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاستئنافِ البيانِّي في الآية:

ما يَلفِظُ الملائكةُ من قولٍ، إلّا له أهميّةٌ وأثرٌ في سامعِه

وردتِ الآيةُ على طريق الاستئنافِ البيانيِّ، لتوجيه أسماعِ المخاطَبين إلى الاهتمامِ بالمقاولةِ بين الملائكة ولوطٍ عليه السلام.

بَلاغةُ التَّعبيرِ على مُقتضَى الظّاهرِ:

تَنبيهُ المؤمنين إلى أن يكونَ السّؤالُ عنِ الأهمِّ

إنْ حُملَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ على إنكار معرفةِ لوطٍ بالملائكة، كان الإضرابُ في قول الملائكة: ﴿قَالُواْ بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ على طريق الأسلوبِ الحكيم، فيكونُ على خلاف مقتضَى الظّاهرِ، وإمّا أن يكونَ من قَبيلِ تلقّي المخاطَب بغيرِ ما يترقَّبُ، وإمّا أن يكونَ من قَبيلِ تلقّي السّائل بغير ما يتطلّبُ، وذلك بتنزيل كلامِ لوطٍ عليه السلام منزلةَ السّؤالِ عنهم لمعرفتِهم، فلمّا كانَ الإضرابُ لا يوافقُ ما قبْلَه من إنكار لوطٍ لهم، دلَّ على أنَّه منَ الأسلوبِ الحكيم؛ لأنَّ لوطًا أنكرَ معرفتَه بالملائكةِ، وجاء جوابُهم في بيان سببِ مجيئِهم، وليس في التّعريف بهم، وفائدةُ العُدول إلى هذا الأسلوب هو تنبيهُ لوطٍ عليه السلام إلى ما هو أهمُّ له وهو معرفةُ سببِ مجيئهم وأنَّه هو الأولى بالقصدِ في السّؤال، ويندرجُ فيه معرفتُه

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/86، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/38، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 7/250.

بهم؛ لعلمِه أنَّه لا يأتي بالعذاب إلّا الملائكةُ، وذهب الماتريديُّ إلى أنَّ الإضرابَ جاء عن كلامٍ مطويٍّ للإيجاز، كما بُنِيت عليه هذه القصّةُ، فيكونُ الكلام على مقتضى الظّاهر، ويكونُ الملائكةُ قد قالوا ذلك له، بعد ما كان بين لوط وقومه مجادلاتٌ ومخاصَماتٌ كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، وغيرِ ذلك منَ المُخاصَمات، وقد كان لوطٌ يعدُهُمُ العذابَ بصنيعِهِمُ الذي كانوا يصنعون؛ ولذلك قالوا له: ﴿ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]؛ فعند ذلك قال: ﴿بَلۡ جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، فيكونُ قد حذف جُملًا للإيجاز مع وضوح المعنى[1]، وإن حُملَ قولُه: ﴿إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ﴾ على الكناية كما تقدَّم كان الإضرابُ على مقتضى الظّاهر؛ لأنَّه جوابٌ لقول لوطٍ عليه السلام.

فائِدةُ التَّعْبير بـ﴿بَلۡ﴾:

رسُلُ اللهِ منَ الملائكة لا تَخذلُ عبادَه، بل تأتي بما يَسرُّهم ولا يُحزِنُهم

تحتملُ ﴿بَلۡ﴾ أنْ تكون إضرابًا إبطاليًّا عن موجبِ الخوفِ المذكورِ، فيكونَ كنايةً كما تقدَّم، والمعنى ما جئناك بما تُنكِرنا لأجله، أو ما جئْناك بشيءٍ تخافُه، بل بما يسرُّك وتقَرُّ به عينُك، فلا تخفْ ولا تحزنْ، وبيانُ وجه هذا المعنى أنّه لمّا كان مجيءُ العذاب مُستلزِمًا للسّرور والذين جاؤوك بالسّرور والتّشفّي من أعدائك لا يُخافُ منهم ولا يُنكَرون، كان مآلُ المعنى: لا تخفْ منّا ولا تُنكِرْنا، كما تحتملُ أن تكون إضرابًا إبطاليًّا عمّا فهمَه لوطٌ عليه السلام من أن يُصيبوه بشرٍّ أو أن يَتركوا نُصرتَه، والمعنى ما خذلناك وما خلّينا بينك وبينهم بل جئْناك بما يُدمِّرُهم منَ العذابِ الذي كانوا يُكذِّبونك حين كنتَ تتوعّدُهم به[2]، والجمعُ بين المعنيَيْن جائزٌ، ويحتمله السّباقُ والسّياقُ.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/451، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/488، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/82، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/182، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.

سببُ إيثارِ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جِئۡنَٰكَ﴾:

ما أخبرَ به الله، فسوف يَتحقّقُ بإذن الله

عُبِّرَ بصيغة الماضي للإيذانِ بتحقّقِ مجيء العذابِ، وأنَّه واقعٌ لامحالةَ[1].

سببُ إيثارِ ﴿جِئۡنَٰكَ﴾ في السّياقِ:

سرورُ المؤمنين بالتّشفّي من عدوِّهم، وتفويضُ العذابِ إلى رسولِهم

قولُه تعالى: ﴿جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، لم يقل: (جِئْناهُمْ بِما كانوا فِيهِ يَمْتَرون)، وسببُ إيثار نِسبةِ المجيء بالعذاب إليه ﷺ مع أنَّه نازلٌ بالقوم؛ للإشعارِ بأنَّه يكون بطريق تفويضِ أمرِ العذاب إلى لوطٍ عليه السلام لا بطريق نزولِه عليه، كأنَّهم جاؤوه وفوّضوا أمرَ العذابِ إليه، ليرسِلَه عليهم حسبما كان يتوعّدُهم به، ففيه تكريمٌ للوطٍ عليه السلام، كما أنَّ في هذه النّسبة إشعارًا بالسُّرور والتّشفّي من عدوّه ولِما يلزمُه من نجاتِه مع أتباعِه[2].

دَلالةُ (الباء) في قولِه ﴿بِمَا﴾:

العذابُ واقعٌ على قوم لوطٍ، لا مفرَّ منه، ولا منأى عنه

تحتملُ (الباء) أن تكونَ لتعديةِ الفعلِ (جاء)، إلى الاسمِ الموصولِ (ما)، وهو الظّاهرُ، أي جاؤوا لوطًا ما كانوا فيه يمترون، على معنى تفويضِ العذاب إليه وإدخالِ السّرور إلى قلبِه، والتّشفّي من عدوّه كما تقدّم، كما تحتملُ أن تكونَ للملابسةِ[3]، بمعنى ملابسة عذاب قوم لوطٍ لمجيئِهم؛ لأنَّهم مأمورون به، فيفيدُ أنَّ العذاب واقعٌ لامحالةَ.

فائِدةُ التَّعبيرِ بـ(ما) في الآية:

وقوعُ العذابِ على المُجرمين، إثباتٌ لصدْقِ رسولِهم، وصحّةِ رسالتِه

أفاد التَّعْبيرُ بالاسم الموصولِ (ما) الذي يفيدُ العمومَ تعظيمَ العذاب الذي جاءهم، ولم تقل الملائكة (بل جئناكَ بعذابِهم الذي كانوا فيه يمترون)، مع حُصولِ الغرضِ الأصليِّ، ليتضمّن الكلامُ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/83.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

الاستئناسَ من وجهين: أحدُهما تحقّقُ عذابِهم وتعظيمُه بما دلَّ عليه لفظُ العموم (ما)، والثّاني تحقّقُ صدقِه ﷺ؛ لأنَّهم كانوا يَشكّون في صدّقِه وصدقِ رسالتِه، ففيه تذكيرٌ لِما كان يكابدُ منهم منَ التَّكذيب[1].

بَلاغةُ المجازِ المُرسَلِ في الآية:

الـكـلامُ على معنَى المآلِ، بهلاكِهم بما ارْتكَبوا من قَبيحِ الأعمالِ

قولُه تعالى: ﴿جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، فيه لمّا كان المعنى جئناك بالعذاب الذي كنت تتوعّدُهم به فكانوا فيه يَمترون، كان الكلامُ على معنى المآل، أي قد عبَّر عن مآل ما صاروا إليه بعدَ تذكيرهم وتوعُّدِهم بالعذاب، فتخطّى ذكرَ السّببِ للإشعارِ بعظَمِ امترائِهم وقُبحِه، وأنّه هو سببُ وقوع العذابِ عليهم[2].

دَلالةُ تركيب ﴿كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾:

الاستمرارُ على المنكر، يوصِلُ إلى التّطبُّعِ عليه وتعوُّدِه

أفاد التّعبيرُ بتركيبِ (كان يفعل) الإشارةَ إلى استمرارِ امترائِهم ومواظبتِهم عليه، وأنَّه كان جِبلّةً فيهم وطبعًا لا يفارقُهم[3].

سببُ إيثارِ التّعْبير بالموصولِ وصِلتِه:

الشّكُّ في صدْقِ الرّسولِ سببٌ لوقوعِ العذابِ، بِلا ارتيابٍ

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، فيه عبّرَ بالاسم الموصول؛ للإيذانِ بوجه بناءِ الخبرِ وهو التّعذيبُ، ليفيدَ الكلامُ أنَّ شكَّهم في صدْقِ لوطٍ وفي رسالتِه وفي ما أوعدَهم به هو سببُ مجيئِهم بالعذاب.

بَلاغةُ تقديم ﴿فِيهِ﴾ على ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

لِلتَّقْديمِ أثرٌ في الدّلالةِ، وفي رعايةِ الفاصلةِ

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿فِيهِ﴾، على مُتعلَّقِه تأكيدَ امترائِهم في العذاب، للإشعارِ بعِظمِ ما وقعوا فيه منَ الامتراء، وفي التّقديمِ رعايةُ الفاصلة كذلك[4].

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/311.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/71، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(4) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

الانحرافُ عنِ الفطرةِ الإنسانيَّةِ، يُعمي عنِ الحقائقِ

دَلالةُ الحرفِ (فِي) على الظّرفيّةِ:

قولُه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، حيث أفاد حرفُ الجرِّ (في) الذي هو للظّرفيَّة شدّةَ امترائِهم في ما أوعدَهم به لوطٌ عليه السلام، حتَّى صارَ ظرفًا لامترائِهم حاويًا له، ليفيدَ أنَّهم كانوا يَشكّون شكًّا عظيمًا.

تجدُّدُ امتراءِ المُنحرفين، دون أن يَتركوا قبيحَ نَزواتِهم

سِرُّ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

عبّرَ بصيغةِ المضارعِ للإشعار بتجدّدِ امترائِهم واستمرارِهم عليه، لئلّا يتركوا قبيحَ نزواتهم وانحرافِهم، وفيه تصويرٌ لحالةِ الامتراء التي كانوا عليها تقبيحًا لها.

سَعْيُ المنحرفين في طلبِ الشّكِّ الأثيم، والاستمرارِ في انحرافِهم

دَلالةُ صيغةِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾ في السّياقِ:

أفاد التّعبيرُ بصيغةِ (يفتعل) أنَّهم كانوا يتكلَّفون الشّكَّ ويجتهدون في طلبِه وتحصيله، لأنَّ الامتراء هو تكلُّفُ المريةِ[1].

طلبُ المُنحرفين الشّكَّ في صدقِ الرِّسالات من أجلِ تكذيبِها

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿يَمۡتَرُونَ﴾:

عبّرَ بـ﴿يَمۡتَرُونَ﴾ دون يشكّون؛ لأنَّ الامتراءَ هو طلب التّشكُّك مع ظهور الدّليل[2]، فيُشعِرُ التّعبير باللّفظ أنَّهم كانوا على علم بالحقِّ الذي جاء به لوطٌ عليه السلام وبما أوعدَهم به لظهورِ الدلّيل، ولكنَّهم كانوا يطلبون الشّكَّ فيه من أجلِ تكذيبه حرصًا على شهواتِهم القبيحة، ولمّا كانوا مكذّبين بلوطٍ وما جاء به عبّر عن تكذيبِهم بـ﴿يَمۡتَرُونَ﴾؛ لأنَّ الجاهلَ يوصَفُ بالشّكّ وإن كان مكذّبًا من جهةِ ما يَعرِضُ له منه، من حيث إنَّه لا يرجعُ إلى ثقةٍ فيما هو عليه، فكأنَّ بقاءَه على الشّكِّ مع وضوح الدّليل إيذانٌ بالتّكذيب، ومن شكَّ في شيءٍ مع وضوحِ صدْقِه وظهوره كان مكذِّبًا فيه[3].

(1) الحرالي، تراث أبي الحسن الحرالي، ص: 274.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 8/385.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/71.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الامتراءُ والشّكُّ والرّيبُ:

إذا ظهرَ الدّليلُ بطلَ الشّكُّ والتّردُّدُ

المِريةُ هي التّردّدُ في الأمرِ مع ظهورِ الدّليلِ، والمِراءُ أخصُّ منَ الشّكِّ؛ لأنَّ الشّكَّ هو تَرَدُّدُ الذِّهنِ بين أمرَين على حدٍّ سواءَ، وأمّا المِراءُ فيكونُ أقربَ إلى التّكذيب بسبب اقترانه بظهورِ الدّليلِ على صحّة أحد الطّرفَين، وأمّا الرَّيبُ فهو شكٌّ مع تُهمةٍ، ودلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ﴾ [البقرة: 2]، وقولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: 23]؛ فإنَّ المشركين - مع شكِّهم في القرآن - كانوا يتَّهمون النّبيَّ بأنَّه هو الذي افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون، وكذلك يقال: إنِّي شاكٌّ اليَوْمَ في المَطَر ولا يجوز أن يُقالَ: إنّي مرتابٌ اليَوْمَ بالمطر، ويقال: إنّي مرتاب بفلانٍ إذا كانَ شاكًّا في أمره واتَّهمه[1].

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 99.

﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٦٤﴾ [الحجر: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إخبارُ الملائكةِ عن سببِ مجيئِهم، والتّأكيدُ على التّنفيذِ في هذه الآية

لَمّا أخبر الملائكةُ أنّهم جاؤوا بالعذاب إلى قومِ لوطٍ أكّدوا ذلك في هذه الآية[1] للنّصِّ على ما جاؤوا به مِنَ اليقين ومنه الإخبارُ بمجيءِ العذابِ.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

إدخالُ الأُنسِ على نفسِ لوطٍ، بتحقيقِ ما أوعدَ الله به قومَه

قالت الملائكةُ لِلوطٍ: وإنّا ما أتيناك إلّا بالأمرِ الثّابتِ المحقَّقِ الَّذي لا مِريةَ فيه ولا تردُّدَ، وهو إهلاك هؤلاء المجرمين من قومِك، وإنّا لصادقون في كلِّ ما قُلناه لك، وأخبرناك به، فكُنْ آمنًا مُطمئنًّا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائِدةُ الوصْلِ بالواوِ في الآية:

العذابُ حقٌّ، يَصْطلي به المُنحرفون عنِ الفطرةِ الإنسانيّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾، فيه أنّه لمّا كانَ قولُ الملائكة: ﴿جِئۡنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ يفيدُ لزومًا أنَّ مجيءَ العذاب حقٌّ لمقابلتِه بامتراءِ قومِ لوطٍ ناسبَ تأكيدَه بما يدلُّ عليه تصريحًا؛ لأنَّ المقامَ مَظنَّةُ الإنكارِ وللمبالغة في وقوعِه ولتثبيتِ الاطمئنانِ في قلبِ لوطٍ عليه السلام.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ﴾:

بَراعةُ التَّفنُّنِ في اختيارِ اللّفظِ المناسبِ لسياقِه ومقامِه

لم يقل: (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون وبالحقِّ)، بعطف الحقِّ على (ما)، فيحتملُ أن تكونَ إعادةُ فِعْلِ ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ﴾ بعد واوِ العَطْفِ للتَّأكيدِ بالمُرادِفِ، وفيه تفنّنٌ في التّعبيرِ؛ لِدَفْعِ تَكْرارِ الفِعْلِ الواحِدِ،

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، وطنطاوي، التّفسير الوسيط: 8/61.

كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣﴾ [الفرقان: 33]، ويُحْتَمَلُ أَنْ يكونَ لخُصوصيّةِ كلِّ فعلٍ، وبيانُه أنَّه لمّا كانَ المُتَعَلِّقُ بفِعْلِ ﴿جِئۡنَٰكَ﴾ أمْرًا حِسِّيًّا وهو العَذابُ الَّذي كانوا فيه يمترون، وكانَ ممّا يَصِحُّ أنْ يُسْنَدَ إليه المَجيءُ بمعنى كالحَقيقيِّ، إذْ هو مَجيءٌ مَجازِيٌّ مَشْهورٌ مُساوٍ للحَقيقيِّ، أوثِرَ فِعْلُ جِئْناكَ لِيُسْنَدَ إلى ضَميرِ المُخاطبِ، ويُعَلَّقُ بهِ ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾، وتَكونُ الباءُ المُتَعَلّقَةُ بِهِ للتّعديةِ لأنَّهُمْ أجاءوا العَذابَ، فموقِعُ قولِه تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ مَوْقِعُ مَفْعولٍ بِهِ، كَما تَقولُ (ذَهَبْتُ بِهِ) بِمَعْنَى أَذْهَبْتُهُ وَإِنْ كُنْتَ لَمْ تَذْهَبْ معه، فهذه الباءُ لِلتَّعْدِيَةِ وهي بِمَنْزِلَةِ هَمْزَةِ التَّعْدِيَةِ، وأمّا مُتَعَلِّقُ فِعْلِ ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ﴾ وهو ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ فهو أمْرٌ مَعْنَوِيٌّ لا يَقَعُ مِنْهُ الإتْيانُ فلا يَتَعَلَّقُ بِفِعْلِ الْإتْيانِ فَغُيِّرَتْ مادَّةُ المَجيءِ إلى مادَّةِ الإتْيانِ تَنْبيهًا على إرادَةِ مَعْنَى الإتيانِ المُسنَدِ إلى الملائكةِ بمعناه الحقيقيِّ وليس بمعنى المجيءِ المجازيّ[1].

نُكتةُ التّعْبيرِ بالماضي في ﴿وَأَتَيۡنَٰكَ﴾:

عبّرَ بصيغةِ الماضي لإفادةِ تحقّقِ وقوعِ الإتيانِ بالحقِّ، وأنَّ الأمرَ قد قُضيَ[2].

ما تأتي به الملائكةُ للرُّسلِ، حقٌّ لا ريْبَ فيه

فائِدةُ الباءِ في قولِه ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

الباءُ هنا للملابسة[3]، بمعنى أنَّ الملائكةَ كانوا في إتيانِهم مُلابسين للحقِّ، فهو غيرُ مُنفكٍّ عنهم.

مُلازمةُ الحقِّ لرسُلِ الله، أمرٌ تجلَّى في الدّعوةِ والمُصابرةِ

فائِدةُ (ال) في لفْظِ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

(ال) هنا جنسيَّةٌ، ليفيدَ أنَّهم جاؤوه بجنس الحقِّ، وهو اليقينُ، وعُبِّرَ عنه بالحقِّ تنصيصًا على نفي الامتراءِ عنه، واللّفظُ يشملُ كلَّ ما يُطلقُ عليه حقٌّ، ممّا أمرَهم اللّه به، ومنَ الإخبارِ بمجيءِ العذاب

دَلالةُ الحقِّ بين معنى العُمومِ والخُصوصِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/64.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/64.

المذكورِ، ويدخلُ فيه العذابُ الذي جاؤوا به دخولًا أوّليًّا، ويحتملُ أن تكون (ال) عهديَّةً، فيكون المرادُ منَ الحقِّ العذابَ[1]، للإيذانِ بتحقّق وقوعِه، وللتّنبيه على أنَّ عدمَ وقوعِ العذاب عليهم هو باطلٌ.

فائِدةُ الواوِ في جملةِ: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

الرُّسلُ صادقون فيما يُخبِرون به

لمّا كان العطف يقتضي التّغايُرَ أفادتِ الواوُ المغايرةَ في المعنى بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، بمعنى أنَّ الملائكةَ جاؤوا باليقين الذي ينبغي أن يكون ثابتًا وأنَّهم صادقون في كلِّ ما يخبرونَه به، فيكونُ الصّدق متعلِّقًا بالقولِ.

بَلاغةُ تتابُعِ التّأكيدِ في ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾:

تأكيدُ الصّدقِ في موضعِ الحاجةِ مطلوبٌ

تتابعَ التّأكيدُ في هذا التّركيب، فجاء بـ(إنَّ) ومثلُها اللّامُ الموطّئةُ للقسَم، لتأكيدِ صدقهِم ليذهب عنه الخوفُ، ويطمئنَّ لهم، وللإيذانِ بأنَّهم ما جاءوا لإرهابِه، ولكن جاءوا لإنزال ما وعدَ اللّه تعالى له بنُصرتِه[2].

فائِدةُ حذْفِ مُتعلّقِ ﴿لَصَٰدِقُونَ﴾:

تأكيدُ الصّدقِ، كالدّليلِ على صحّتِه

يحتملُ أن يكون متعلِّقُ اسم الفاعلِ المحذوفِ معيَّنًا، والتّقديرُ: وإنّا لَصادقون في الإخبار به، أو وإنّا لَصادقون في ما نخبرُك به من أنَّ اللّه مهلكٌ قومَكَ، أي أتيناك فيما قلنا بالخبر الحقِّ أي الثّابتِ، وإنّا لصادقون في ذلك الخبرِ لمطابقتِه للواقع، فيكونُ المتعلَّقُ المحذوفُ معيَّنًا لشدَّة الارتباط بما قبلَه، ويحتملُ أن يكون غيرَ معيَّنٍ لإفادة العموم، بمعنى: وإنّا لصادقون في كلِّ كلام، فيكونُ كالدّليل على صدْقهم في خبرِهم، ويدخلُ فيه صدقُهم فيما أخبروه ﷺ دخولًا أوّليا، وعلى الوجهين الحذفُ للإيجاز، والكلامُ تأكيدٌ إثرَ تأكيدٍ[3].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/625، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/54، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4098.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/115، والزمخشري، الكشاف: 2/583، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الحجر: 65]

الرَّبطُ بين الإخبارِ بعذاب قومِ لوطٍ، وبيانِ أسبابِ النّجاةِ وشروطِها

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أخبرتِ الملائكةُ لوطًا بوقوعِ العذابِ بقومِه أمَروه بما يكونُ سببًا في إنجائه هو وأهلِه، فجاءتِ الآيةُ للشّروع في ترتيب مبادئِ النّجاةِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَسْرِ﴾: السُّرى: اسْمُ مَصْدَرٍ لِلسَّيْرِ في اللَّيْلِ، يُقال: سَرَيْت سُرًى ومَسْرًى وأسْرَيْت بمعنًى إذا سِرْت ليلًا. ويُقالُ: سَرَيْنا سَرْيةً واحِدَةً، والاسْمُ السُّرْيَةُ، بِالضَّمِّ، والسُّرَى وأَسْراهُ وأَسْرَى بِهِ[2]. والسَّرّاءُ: الكثيرُ السُّرى باللَّيلِ، والسِّرايةُ: سُرَى اللَّيْلِ، والسّاريةُ: القومُ يسرون، السّارية أيضًا: الأسطوانةُ، والسَّحابةُ الَّتي تمرُّ ليلًا[3]. والمقصودُ بالسُّرى في الآية: السَّيْرُ في اللَّيْلِ إلى الصَّباح.

2) ﴿بِقِطْعٍ﴾: أصلُ (قطع): أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على صَرْم وإبانَةِ شَيءٍ مِنْ شَيْءٍ. يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا، والقَطيعَةُ: الهِجْرانُ. يُقالُ: تَقاطَعَ الرَّجُلانِ، إذا تَصارَما[4]. والقِطْعُ والقِطْعةُ والقَطيعُ والقِطَعُ والقِطاعُ: طائِفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ تَكونُ مِنْ أوّله إلى ثُلُثِه، وقيلَ للفزاريِّ: ما القِطْعُ مِنَ اللَّيْلِ؟ فقالَ: حُزْمةٌ تَهورُها، أي: قِطْعةٌ تَحْزُرُها ولا تَدْري كَمْ هِيَ. والقِطْعُ: ظُلْمَةُ آخِرِ اللَّيْلِ. والقِطْعُ أيضًا:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (سرى).
(3) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سرى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).

اسْمُ ما قُطِعَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيءَ قَطْعًا[1]. والجميعُ قُطْعانٌ وقِطَعٌ وأقْطاع[2]. والمقصودُ بالقِطْعِ في الآية: الجُزْءُ الأخيرُ مِنَ اللَّيْلِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الشُّروعُ بترتيبِ مبادئِ النَّجاةِ، لِلوطٍ وآلِه، قبل حُلولِ العذابِ بقومِه

قالتِ الملائكةُ: فاخرُجْ أنت وأهلُك مِن أرضِ قَومِك بعد مُضيٍّ وقتٍ مِنَ اللَّيلِ؛ حيثُ تكونُ العُيونُ قد نامَت، ولا يعلَمُ أحدٌ بمَسْراك، وكنْ - يا لوطُ - مِن وراءِ أهلِك، وامشِ خَلْفَهم حينَ تَسري بهم، ولا ينظُرْ أحدٌ منكم وراءَه، ولْتَجِدّوا في السَّيرِ فتتباعَدوا عنِ القرية، وتَنجوا مِنَ العذابِ النّازلِ بأهلِها، واذهَبوا إلى المكانِ الذي تُؤمَرونَ بالمُضيِّ إليه[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

من لَطائفِ الآيةِ الكريمةِ:

الإرشـــادُ إلى اتِّباعِ الأدبِ، بين التّابعِ والمتبوعِ

الآيةُ وإن كانت خاصَّةً بلوطٍ عليه السلام وأهلِه الّذين اتّبعوه، لكنَّها اشتملت مع وَجازتِها على آداب المُسافرين في دينٍ ودُنيا، من أميرٍ ومأمورٍ، وتابعٍ ومتبوعٍ، وتضمّنت ثلاثةَ أوامرَ ونهيًا لتحقيقِ نجاةِ لوطٍ وأهلِه[5].

دَلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَأَسْرِ﴾:

صِـــدْقُ وعْـــدِ الرُّسل، موجِبٌ لاتِّباعِ أوامرِهم

تحتملُ الفاءُ أن تكونَ عاطفةً، لتفيدَ ترتّبَ الأمر بالخروج ليلًا على تيقُّنِ الأمر وصدْقِ الوعدِ وإعلامِ لوطٍ عليه السلام به، ولتفيدَ المبادرةَ بالشّروعِ في أسبابِ النّجاة، وتحتملُ أن تكونَ الفاءَ الفصيحةَ، لتكون جوابَ شرطٍ مقدّرٍ منَ السّياق، بمعنى إذا تيقّن ذلك عندك فأسرِ[6].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قطع).
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة: (قطع).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قطع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 14/87، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/38، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/541.
(5) ابن المنير، حاشية على الكشاف: 2/584.
(6) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

نُكتةُ التَّعْبير بلَفْظِ ﴿فَأَسۡرِ﴾:

قيادةُ الرُّسُلِ للخروج بالمؤمنين، مَنْجاةٌ لهم في كلّ حينٍ

عُبِّرَ بـ﴿فَأَسۡرِ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الأمرَ بالخروج منَ البلدة يكونُ في اللّيل، والمعنى: فاذهب بهم في اللّيل، ولم يقل: (فاذهب أنت وأهلك) مع أنَّه مرادٌ منَ المعنى؛ لأنَّ التّعبير بـ﴿فَأَسۡرِ﴾ يفيدُ أنَّ لوطًا هو الذي يقومُ بالأمر وأنَّ أهلَه تبعٌ له في أمرِه، ويُؤَيِّدُهُ تضمينُ الباء معنى (مع) كما يأتي[1].

دَلالةُ (الباء) في قولِه: ﴿بِأَهۡلِكَ﴾:

التّعْدِيةُ ومعنَى (مع) في سياقِ الآيةِ

تفيدُ الباءُ تعْدِيةَ الفعل إلى ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ وفيها معنى اسطحابِ الأهل، فتكونُ الباءُ مضمّنةً معنى (مع).

دَلالةُ الحال في قولِه: ﴿بِأَهۡلِكَ﴾:

مصاحبةُ الأهلِ في الهجرة، تُهوّنُ عَناءَ السَّفرِ

لمّا كان الجارُّ والمجرور في موضع نصبٍ على الحال، أفاد تقييدَ إسراءِ لوطٍ عليه السلام وخروجِه من قومِه، بكونِه في حالِ اسطحابِ أهلِه معه، ومصاحبةُ الأهل وذوي الإيمان، تُهوّن كثيرًا من وعْثاءِ السّفر.

لُطْفُ التّعْبير بلفْظِ ﴿بِأَهۡلِكَ﴾:

الاجتماعُ على الدّينِ والحقِّ، رحِمٌ معنويّةٌ، بمثابةِ الأهلِ في النّسبِ

في التّعبيرِ ﴿بِأَهۡلِكَ﴾ إشعارٌ باللّفظِ المُهذَّبِ الذي يُستعملُ في الدّلالةِ على صُحْبَة النّساء والأبناء[2]، ولمّا كان الأصلُ في (أهل الرجل) أن يقال لمن يجمَعُه وإيّاهم نسبٌ كان التّعبيرُ بالأهل هنا إشارةً إلى أنَّ الاجتماع على الدّين والحقِّ بمثابة الأهل في النّسبِ.

فائدةُ الإضافةِ، في قولِه ﴿بِأَهۡلِكَ﴾:

على القائدِ أن يهتمَّ بالتّابعين له، باعتبارِهم أقرباءَه وأهلَه

لمّا أضاف الأهلَ إلى لوطٍ عليه السلام، أفادَتِ الإضافةُ اختصاصَهم به، وأنَّ حكمَهم تابعٌ لِحكمِه، وأنَّ عليه رعايتَهم والاهتمامَ بهم كما يهتمُّ الرّجل بأهلِه، كما أنَّ في الإضافة إلى لوطٍ بصيغةِ المخاطَبِ تشريفًا للمؤمنين الّذين اتّبعوه.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراويّ: 13/7733.

فائِدةُ (الباء)، في قولِه ﴿بِقِطۡعٖ﴾:

تفيدُ الباءُ الملاصَقةَ بمعنى لصوقِ خروجِهم ليلًا بطائفةٍ منه؛ ليفيدَ أن يكون وقتُ خروجِهم ملاصِقًا لطائفةٍ منَ اللّيل.

الهلاكُ مؤقّتٌ بميقاتِه المُعيَّن، والحوادثُ قد يَطرقْنَ أسحارًا

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

لمّا كان الجارُّ والمجرور ﴿بِقِطۡعٖ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحالِ أفاد الكلام أنْ يكونَ سيرُ لوطٍ عليه السلام مع أهلِه في حالِ مصاحبتِهم لقطعٍ منَ الليل غيرَ مفارقين له حين السّير، إلى أن يصلوا إلى حيثُ يُؤمرون.

أهمّيّةُ الحالِ، باعتبارِه قيدًا لعاملِه، بمثابةِ الشّرطِ له

فائِدةُ ﴿مِّنَ﴾ في قولِه: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

تفيدُ ﴿مِّنَ﴾ التَّبعيضَ بمعنى أن يكونَ القِطْعُ جزءًا من اللّيل، ليفيدَ أنَّ سيرَهم لم يشتملْ على اللّيل كلِّه، بل كان في جزءٍ منَ اللّيل.

دَلالةُ التّبْعِيضِ على بعضِ الوقتِ منَ اللّيل

نُكتةُ التَّعبير بتركيب ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾:

لمّا كان الإسراءُ لا يكونُ إلّا في ليلٍ، وكان المرادُ من ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ طائفةً منَ اللّيل وجُزءًا منه كان الكلامُ على معنى تأكيدِ الخروجِ في اللّيل[1]، ويحتملُ أن يكونَ المرادُ من ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ شدَّةَ الظّلام، فيكونَ الأمرُ بالخروج في سواد اللّيل أو في آخره وليس في أيِّ جزءٍ منَ اللّيل، فيكونَ قولُه ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ تأسيسًا في المعنى، وعلى كلا الوجهَين أفاد التَّعبيرُ بلفظِ ﴿بِقِطۡعٖ﴾ أن يكونَ السّيرُ في جُزءٍ منه، أي أن لا يشتملَ السّيرُ على اللّيل كلِّه، بل على بعضِه، ففيه إشعارٌ بالمبادرةِ إلى الإسراعِ في السّير وعدمِ التّباطؤ[2].

المُبادرةُ إلى الإسراعِ بالخروجِ، عندَ وقوعِ العذابِ، لضمانِ النّجاة منَ الاستئصال

سببُ إيثارِ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

سببُ إيثارِ لفْظِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على السّوقِ مع أنَّه المقصودُ بالأمر؛ للمبالغة في المعنى؛ إذِ السّوقُ ربّما يكونُ بالتّقدُّم على بعضٍ مع التّأخّرِ عن بعضٍ، ويلزمُه عادةً الغفلةُ عن حال المتأخِّر، كما يلزمُه

المُبالغةُ في سَوقِهم، في مدلول السّياقِ

---

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/183.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/47.

الالتفاتُ في حالِ التّقدّم، وقد نُهيَ عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ﴾[1].

دَلالةُ صيغةِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

أمرُ الله حكمةٌ ورشادٌ، والتزامٌ بأمرِه وسَدادٌ

لمّا كان لفظُ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾ على صيغةِ (افتعل)، دلَّ على الأمرِ بالاجتهاد، في اتّباعِهم وأن يكونَ على إثرِهم.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾:

إفادةُ عدمِ تخلّفِ واحدٍ منهم، حرصًا على سلامةِ أهلِه

أفاد الأمرُ باتّباعِ الأدبارِ لازمَ المعنى وهو أن يُقَدِّمَهُمْ جميعًا أمامَه، فلا يتخلَّفُ منهم أحدٌ، ويدلُّ هذا المعنى بملزومه على أنَّه يكونُ ناظرًا إليهم وأنَّه أقربُ إلى محلِّ العذاب منهم لأنَّه أثبتُهم قلبًا وأعرفُهم بالله، والدّلالةُ على شدّة حرصِه على سلامتهم، ولازمُ المعنى وملزومُه مقصودان؛ لتلازمِهما وجودًا وعدَمًا.

سِرُّ العطْفِ في جملةِ ﴿وَٱتَّبِعۡ﴾:

الحِرصُ على مَنْ أمامَه، وعدمُ الانشغالِ بمَنْ خلْفَه

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾، ومنه قد يقال: ما معنى أمرِه باتّباعِ أدبارهم ونهْيِهم عنِ الالتفات، وعطفِه على ﴿فَأَسۡرِ﴾، وكان يكفي في الهجرة أن يُقال: (فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ) فما معنى التّتميم بالقيدَيْن ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ﴾؟ والجوابُ هو أنَّه أُمِرَ بأن يُقَدِّمَهُم؛ لئلّا يشتغلَ بمَن خلفَه قلبُه، وليكونَ مطّلعًا عليهم وعلى أحوالِهم، فلا يصدرُ منهم هفوةٌ ولا ما يُلامون عليه احتشامًا منه ومهابةً له ولا تفرطُ منهمُ الْتفاتةٌ في تلك الحال المَهولةِ المحذورة، ولئلّا يتخلَّفَ منهم أحدٌ، لغرضٍ له فيصيبَه العذابُ، وليكونَ مسيرُه مسيرَ الهارب الذي يقدّم سربَه ويفوتُ به، ولمّا كان المرادُ مِن اتّباعِ أدبارِ قومِه اتّباعَ ظُهورِهِمْ أفادَ أنَّه يكونُ كالحائلِ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ العَذابِ الَّذي يَحِلُّ بِقَوْمِهِ بِعَقِبِ خُروجِهِ تَنْوِيهًا

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/321.

بِبَرَكَةِ الرَّسولِ ﷺ، ولأَنَّهُمْ أَمَروهُ أَنْ لا يَلْتَفِتَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِه إلى دِيارِ قَوْمِهِمْ لِأَنَّ الْعَذابَ يَكونُ قَدْ نَزَلَ بِدِيارِهِمْ. فَبِكَوْنِهِ وَراءَ أَهْلِهِ يَخافونَ الِالْتِفاتَ لِأَنَّهُ يُراقِبُهُمْ[1].

بَلاغةُ عدمِ الالتفاتِ في الآية:

المُرادُ بالالتفاتِ النّظرُ بالعين، أوِ الإسراعُ وعدمُ التّواني

يحتملُ أن يكونَ النّهيُ عنِ الالتفات على الحقيقة، وله وجهان، فإمّا أنْ يكونَ على مقتضى الظّاهر، فهو منَ الالتفات الذي يكونُ بنظر العين، فيكونُ بمعنى الصّرف عنِ الجهة المستقيمةِ والعُدول بالوجهِ، فيرى ما وراءَه منَ الهول فلا يطيقُه أو يصيبُه ما أصابهم، وإمّا أن يكونَ كنايةً عنِ الإسراع في السّيرِ ومواصلته وترك التَّواني والتوقُّفِ، فإنَّ مَنْ يتلفَّتُ قلَّما يَخلو عن أدنى وقفةٍ، ويحتملُ أن يكونَ على طريق المجاز بالاستعارةِ، بتشبيهِ الانصراف عن جمْعِ آل لوطٍ والتّخلّفِ عنهم بالعُدولِ عنِ الجهة المستقيمةِ، ووجهُ الشّبه هو الضّياعُ والتّيهُ عنِ الصّواب، فيلحقُه الأذَى، والمعنى: ولا ينصرفْ منكم أحدٌ ولا يتخلّفْ لغرضٍ، فيصيبَه العذابُ، كَما أنَّ الالتفاتَ إلى القومِ عندَ الخروجِ من بلدتِهم يُشعرُ بمحبَّتِهم والرّغبةِ بعدم مفارقتِهم فيتخلّفُ عندهم، ففيه نهيٌ عن ربطِ القلبِ بما خلَّفوه وراءَهم، وقيل نُهوا عن ذلك ليوطِّنوا أنفسَهم على المُهاجَرة، فإنّ النّظرَ إلى الأوطان يُهيّج التَّحَسُّرَ والتّحزُّنَ على مفارقتِها[2]، وقال الفخرُ الرازي: "قَوْلُهُ ﴿وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ﴾ الفائِدَةُ فيه أَشْياءُ أحَدُها: لِئَلّا يَتَخَلَّفَ مِنْكُمْ أَحَدٌ فَيَنالُه العَذابُ، وثانيها: لِئَلّا يَرَى عَظِيمَ ما يَنْزِلُ بِهِمْ مِنَ البَلاءِ، وثالِثُها: مَعْنَهُ الإسْراعُ وَتَرْكُ الاهْتِمامِ لِما خَلَّفَ وَراءَهُ كَما تَقولُ: امْضِ لِشَأْنِكَ وَلا تُعَرِّجْ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/583، والطيبي، فتوح الغيب: 9/50، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/64.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/548، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/312.

عَلَى شَيْءٍ. ورابعُها: لَوْ بَقِيَ مِنْهُ مَتاعٌ في ذلك المَوْضِعِ، فَلا يَرْجِعَنَّ بِسَبَبِهِ ألْبَتَّةَ[1].

سِرُّ توسُّطِ النّهيِ في الآية:

مَن يواصلُ السّيرَ، يُتَوقّعُ منه الالتفاتُ

لمّا أمر اللّه لوطًا بالسّيرِ ليلًا بأهلِه وأمره بأنْ يتّبع أدبارَ قومِه وردَ النّهيُ عن أن يلتفتَ منهم أحدٌ؛ لأنَّ توقُّعَ الالتفات لا يكونُ إلّا بعد مواصلةِ السّير، كما أنَّ معرفةَ من يلتفتُ إنّما تكون إذا كان سائقُ القومِ خلفَهم، ولهذا جاء النّهيُ بعد قوله: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، ثمّ أمرهم مواصلة بمواصلة السّير وعدمِ التّوقُّفِ في قولِه ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ مع التزامهم بالنّهيِ عنِ الالتفات.

بَلاغةُ تَقْديم ﴿مِنكُمۡ﴾ على ﴿أَحَدٌ﴾:

التّركيزُ على المُؤمنين الخارجين، وتحصينِهم من أسبابِ الهلاكِ

أفاد تقديمُ الجارِّ والمجرور، الاهتمامَ والعنايةَ، بمن يخرجُ من بلدة قومِ لوطٍ؛ لأنَّ محطَّ النّظر عليهم.

فائِدةُ (مِنْ) في قولِه: ﴿مِنكُمۡ﴾:

النّجاةُ في الحياةِ، مَشروطةٌ بعدمِ الإلتفات الالتفاتِ

(مِنْ) هنا ابتدائيَّةٌ بمعنى لا يكنْ ابتداءُ الالتفات، من أيِّ أحدٍ من أتباعِك، وتحتملُ أن تكون للتّبعيض، بمعنًى: لا يلتفتْ بعضُكم ليشملَ الفردَ والمجموعةَ.

فائِدةُ مجيءِ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرةً:

عمومُ أهلِ لوطٍ عليه السلام، مقصودون كافّةً بالخطابِ

لمّا جاء لفظُ ﴿أَحَدٌ﴾ نكرةً في سياق النّفيِ أفاد العمومَ لجميع أهلِ لوطٍ[2]، فيكونُ النّهيُ عنِ الالتفات للفردِ منهم وللمجموع، ولو قال (ولا تلتفتوا) لأفادَ أنَّ النّهيَ عنِ الالتفات للمجموع بأنْ يلتفتوا جميعًا، وليس هذا هو المرادَ.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿وَٱمۡضُواْ﴾:

لمّا كان المرادُ من لوطٍ وأهلِه السّيرَ في اللّيل مع إنفاذِ الأمر وإنجازِه

---

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154.

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184.

المُـضيُّ يُعبِّرُ عنِ الذّهابِ، بعزيمةٍ قويّةٍ دونَ انثناءٍ

بقوَّةٍ كما يمضي السّيفُ أي ينفذُ في جسم الضّريبة، ويكونُ من غيرِ انثناءٍ ولا تعريجٍ[1]، ولمّا تعلَّق الفعلُ بالأمرِ في قولِه ﴿حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾ ناسبَه التّعبيرُ بلفظِ المضيّ دون أن يقول: (واذهبوا حيث تؤمرون) للإيذانِ بطلب الذّهاب قُدُمًا من غيرِ انثناءٍ، مع تحقيق نفاذِ الأمر بقوَّةٍ، ولهذا تعلَّق الفعلُ والمعنَى: اذهبوا إلى المكان الذي تُؤمرون بالذّهاب إليه وأنفذوا أمرَ الذّهاب إلى هنالك بعزم، كما أنَّ في إيثارِ المضيِّ إلى ما ذكرَ على الوصول إليه واللُّحوقِ به إيذانًا بأهمّيّةِ النَّجاةِ ومراعاةً لِلمناسبةِ في المعنى بينه وبين ما سلفَ منَ الغابرين[2].

دَلالةُ حذْفِ حرفِ الجرّ في الآية:

التّنبيهُ إلى الإسراعِ، وأثرُه في الالتزامِ والاتّباعِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، وفيه أنّ أصلَ الكلام (وامضوا إلى حيث تؤمرون بالمضيّ إليه)، وحُذفَ حرفُ الجرِّ (إلى) على الاتساع، و﴿حَيۡثُ﴾ هنا اسمُ ظرفٍ بمعنى المكان[3]، ونكتةُ حذْفِ حرف الجرِّ التَّنبيهُ إلى الإسراع في الوصول إلى المكان المقصودِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفْظِ ﴿حَيۡثُ﴾:

قد يكونُ المكانُ مُبهمًا، وفيه الخيرُ، ما دام الآمرُ هو الله

لمّا كانَ ﴿حَيۡثُ﴾ منَ الظّروف المُبهمةِ في المكان، وجاء هنا بمعنى المكان أفاد التّنبيهَ على الائتمار بأمر اللّه تعالى وإن كان المكانُ الذي يذهبون إليه مبهمًا عندَهم أوّلَ الأمر، وفيه إشعارٌ بأنَّ على المؤمنين أن يذهبوا حيثما أمرهم اللّه.

بَلاغةُ الحذفِ في قولِه: ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

إفادةُ اتِّصافِهم بالاستجابةِ لأوامرِ الله كلِّها

عُدِّي ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾ إلى الضّمير المحذوفِ على الاتّساع، وأصل الكلام: (تؤمرون فيه) إن كان الضّميرُ المحذوفُ راجعًا إلى ﴿حَيۡثُ﴾، أي: وامضوا حيث تؤمرون في المكان الذي تَمضون فيه،

---

(1) الجوهري، الصحاح، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مضى)، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/230.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/185.

أو (تؤمرون به) إن كان الضّميرُ راجعًا إلى المصدر المفهومِ من ﴿وَٱمۡضُواْ﴾، أي: وامضوا حيث تُؤمرون بالمضيِّ إليه[1] فحذف حرفَ الجرِّ واتّصل الضّميرُ بالفعل ثمَّ حُذفَ لإفادة اتّصافِهم بفعل الائتمارِ والامتثال، فأيُّ أمرٍ يأتيهم منَ اللّه تعالى يأتمرون به.

نُكتةُ الفعلِ ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

أمرُ الله مُلزمٌ، على أيّ طريقٍ أتاك

أفاد التّعبيرُ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول، وجوبَ ائتمارِهم بأمرِ اللّه، سواءٌ جاء الأمرُ عن طريق الملائكة المرسَلين، أم عن طريق الوحْيِ.

فائِدةُ التَّعْبيرِ بالمضارعِ ﴿تُؤۡمَرُونَ﴾:

صُحْبَتُهم بالأوامرِ الإلهيَّةِ، مدَّةَ سيْرِهم، لإشعارِهم بالطُّمأنينةِ

تعبيرُه بصيغةِ المضارع، يُشعرُ بأنَّه يكونُ معهم بعضُ الملائكة عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ[2]، عندَ مواصلةِ السّيرِ إلى انتهاءِ سيرِهم، أو لإشعارِهم بالطُّمأنينةِ بأنَّ اللّه تعالى ناظرٌ إليهم نظرَ عنايةٍ، وأنَّه يُسيّرُهم بأوامرِه، إلى حيثُ سلامتُهم وأمنُهم.

تَوْجيهُ التّشابُهِ اللّفظيِّ في الآيَة:

القصّةُ واحدةٌ، وتصويرُ زَوايا المَشاهِدِ، تختلفُ من سورةٍ إلى أخرى

جاء في سورة هود: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81]، وفي سورة الحجر ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٞ وَٱمۡضُواْ حَيۡثُ تُؤۡمَرُونَ﴾، فجاء في آية هود الاستثناءُ في قولِه ﴿إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81] ولم يردْ في آية الحجرِ، وجاء في آية الحجر: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ ولم يأتِ في آية هود، فأمّا توجيهُ عدم وقوعِ الاستثناءِ في سورة الحجر فهو أنَّه أغنَى عنه قولُه تعالى فيما حكى عنِ الرُّسلِ ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ٥٨ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥٩ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ﴾،

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/584، والنّسفي، مدارك التنزيل: 2/195، والطيبي، فتوح الغيب: 9/52، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/184، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/312.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.

فهذا الاستثناءُ الذي لم يقع مثلُه في سورة هودٍ أغنَى عنِ الاستثناءِ في قوله: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ﴾ [هود: 81]، وأمّا توجيهُ ورودِ: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ فهو أنَّه لمّا قال اللّه تعالى في سورة الحجر حكايةً عنِ الملائكة قولَهم لإبراهيم ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ أخبر عن مخاطبتِهم لوطًا في هذه السّورة بما يُضاهي قولَهم لإبراهيمَ ﷺ، فأردفوا قولَهم له: ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾ بقولهم: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ لأنَّه إذا ساقهم وكان من ورائهم كان تحقيقا لخبرِهم أنّهم مُنَجّوهم أجمعين، وكان على علمٍ بنجاتِهم، فتتوافقُ مُخاطبتُهم له مع مُخاطبتِهم لإبراهيم عليهما السلام(1).

تَوْجيهُ القراءاتِ القرآنيّةِ في ﴿فَأَسۡرِ﴾:

سرى وأسرى لَهجتان فصيحَتان، في استعمالِ العربِ

قَرَأ أبو جعفر ونافعٌ وابْنُ كَثِيرٍ (فاسْرِ) بوصل الألف من سرى يسري، وقرأ الباقون ﴿فَأَسۡرِ﴾ بقطع الألف، من أسريت، وهما لهجتان فصيحتان نزل بهما القرآن، وتوجيهُ القراءة بوصل الألف أنْ يكون المرادُ سرى في أوّل اللّيل، وأمّا قراءةُ ﴿فَأَسۡرِ﴾ بقطع الألف فتكون على معنى أسرى من آخر اللّيل(2)، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّهما بمعنى واحد وهو السّيرُ في اللّيل(3)، فيكونُ الاختلافُ في القراءتين على معنى التّخفيفِ الصّوتيّ في الوصلِ وتحقيقِ المعنى على قراءة القطعِ.

۞ الفروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المُضِّي والذّهابُ:

المُضيُّ هو الذّهابُ لغايةٍ، قُدُمًا من غير انثناءٍ، وقد آثَرَه السّياقُ

تقدَّم الفرقَ بين اللّفظَين عند الكلامِ على نكتةِ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿وَٱمۡضُواْ﴾.

(1) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 148، والإسكافي، درة التنزيل: 2/770.

(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 338، والأزهري، معاني القراءات: 2/46، وابن الجزري، النشر: 2/111.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/367.

الدّابرُ والآخرُ:

الدّابرُ مِنَ الدُّبُرِ وهو خلافُ القُبُلِ، والإدبار خلافُ الإقبالِ، ويكنَّى بالدُّبُرِ عنِ الظّهر، وعن آخر الشّيء ونهايتِه وخلفِه، وأمّا الآخرُ فهو من أخَرَ، وهو خلافُ التّقدّم، والآخرُ يقابلُ به الأوّل، فلمّا قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ أَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أفاد الأمرَ باتّباع ظهورِ الجميعِ، ولو قال: (واتّبع أواخرَهم) لاقتصرَ على اتّباع الجمعِ المقابلِ للمُتقدّمين، فلا يكونُ الاتّباعُ شاملًا للجميع.

الدّابرُ يخلُفُ كلَّ من تقدَّمَه، والآخرُ خلافُ الأوّلِ

﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾

[الحجر: 66]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحذَرُ وتَحَرّي الوقتِ المناسبِ في الخروج من أرضِ القومِ المُجْرمين

لَمّا تقرّرَ بهذا أمرُ إهلاكِهم من غير تصريح ولا تعيينٍ لوقتٍ عيَّن في هذه الآية توقيتَ إهلاكِهم[1]. وأيضًا لَمّا تكلَّمَ في الآيات السّابقة عنِ النّاجين أتبعَه بالكلامِ عن ما وقعَ لِلكافرين المُنحرفين؛ لأنَّ النّجاةَ إنّما تكونُ من عذابٍ أو ضُرٍّ مُتوقَّعِ الوقوع.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿دَابِرَ﴾: أصلُ (دبر): يدلُّ على آخِرِ الشَّيْءِ وخَلْفِه، وهو خِلافُ القُبُلِ، يُقالُ: دَبَرَ النَّهارُ وأَدْبَرَ: إذا جاءَ آخِرُهُ. وَقَطَعَ الله دابِرَهُمْ، أي: آخِرَ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ، وعليه الدَّبارُ: أي انْقطَع الأَثَر[2]. والدّابِرُ مِنَ السِّهام: الَّذي يَخْرُجُ مِنَ الهَدَفِ، كأنَّهُ وَلَّى الرّامِيَ دُبُرَهُ[3]. والدّابِرُ: آخِرُ القَوْم، وآخِرُ الأمْرِ[4]. والتَّدْبيرُ: أنْ يَنْظُرَ الإنْسانُ إلى ما تصيرُ عاقِبَتُهُ وآخِرُهُ، ويُطلَقُ الدُّبُرُ أيضاً على الظَّهْرِ[5]. والمقصودُ بالدّابِرِ في الآية: الآخِرُ، أي: آخِرُ شَخْصٍ[6].

2) ﴿مَقْطُوعٌ﴾: أصلُ القَطْعِ: فَصْلُ وَإِبانَةُ الشَّيءِ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ، يُقالُ: قَطَعْتُ الشَّيْءَ أَقْطَعُهُ قَطْعًا وَقَطيعَةً أيْ فَصَلْتُه، وضِدُّهُ الوَصْلُ، والقطع: البَتْرُ، تقولُ: قَطَعْتُ العُضْوَ إذا بَتَرْتَهُ. والقِطْعَةُ: الحِصَّةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.
(2) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دبر).
(4) ابن عباد، المحيط في اللغة: (دبر).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (دبر).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

المَفْصولَةُ مِنْ شَيْءٍ، ويأْتي القَطْعُ بِمَعْنَى الهَجْرِ والتَّفْريق، والتَّقاطُعُ: التَّهاجُرُ، وَمِنْ مَعاني القَطْعِ أيْضًا: البَتُّ والقَصُّ والعُبورُ[1]. والمقصودُ بالقَطْعِ في الآية: الإزالةُ. وقطعُ الدّابِرِ كِنايَةٌ عَنْ ذهابِ الجَميع.

3) ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾: أصلُ (صبح): أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو لَوْنٌ مِنَ الألوانِ، قالوا: أصلُهُ الحُمْرةُ، وقالوا: وَسُمِّيَ الصُّبْحُ صُبْحًا لِحُمْرَتِه، كما سُمِّيَ المِصباحُ مِصْباحًا لِحُمْرَتِهِ[2]. والصُّبْحُ: أَوَّلُ النَّهارِ، يُقال: صَبَّحْتُ الرَّجُلَ: إذا أَتَيْتَهُ أَوَّلَ النَّهارِ، وأصبحَ القَوْمُ: إذا دخلوا في الصَّباحِ[3]، والصَّباحُ: نورُ النَّهارِ[4]. ويُطْلَق عليه: الفَجْرُ، والغَداةُ، وضِدُّه: المساءُ وجَمعُه: أَصْباحٌ[5]. والمقصود بالصُّبحِ في الآية: أَوَّلُ وَقتِ النَّهار. والمرادُ: داخِلينَ في الصَّباحِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الحقُّ تعالى: ووجَّهْنا إلى لوطٍ ذلك الأمرَ، وأفضَيْنا إليه بما فيه، وذلك عن طريق الوحيِ بوساطة هؤلاء الملائكة، أَنَّ جميعَ قَومِه مُهلَكونَ عن آخِرِهم هَلاكَ استِئصالٍ مَطْلَعَ صَباحِ لَيلتِهم[6].

قَضاءُ اللهِ تعالى لا مَرَدَّ لَه، وعذابُه يُهلكُ رائدَهم، ويقطعُ دابرَهم

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَقَضَيۡنَآ﴾:

هذه الواوُ استئنافيةٌ، أي لاستئنافِ الكلامِ فيما أوحَى اللّه تعالى به إلى لوطٍ، ممّا حكمَ به على قومِه من وقوعِ العذاب عليهم، لِيَستأصِلَهم جميعًا.

مَن أهلكَه الله بالقاضِيةِ، لم يبقَ منه باقيةٌ

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (قطع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبح).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صبح).
(6) الواحدي، الوجيز، ص: 594، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39.

بَلاغةُ التّضمين في قولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾:

الإيجازُ بتقليل اللّفظِ، وتكثير المعنى، مفيدٌ في البيانِ عنِ المرادِ

لمّا تعدَّى الفعلُ (قَضَى) إلى مفعولِه بحرف الجرّ (إلى) دلَّ على أنَّه تضمّنَ معنى (أوحى)، ليفيدَ اللّفظُ الواحدُ معنيَيْن مقصودَين، هما الإيحاءُ الذي يفيدُ أنَّ الأمرَ من عندِ الله والقضاءُ الذي يفيدُ معنى القطعِ في الأمرِ وتهويلِ ما حكمَ به، ففي التّضمينِ تكثيرُ المعنى بتقليل اللّفظ، أي: وقضينا إليه ذلك الأمرَ وأوحينا إليه أنَّ دابرَ هؤلاء مقطوعٌ مُصبحين، والمعنى: وأوحينا إليه ذلك الأمْرَ مَقضيًا مُثبتًا مبتوتًا[1].

فائِدةُ مجيءِ (نا) في قولِه: ﴿وَقَضَيْنَآ﴾:

نزولُ العذابِ بقومٍ لا يقدرُ عليه إلّا الله الواحدُ القديرُ

أفاد التّعبيرُ بالضّميرِ (نا) تعظيمَ ما قضى اللّه تعالى به من استئصال القومِ وإهلاكِهم، وأنَّه أمرٌ لا يقدرُ عليه إلّا الملك الواحدُ الأحدُ.

بَلاغةُ تقديمِ ﴿إِلَيۡهِ﴾ على ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾:

تخصيصُ لوطٍ عليه السلام، بالإخبارِ عنِ استئصالِ قومِه

لمّا تقدّمَ الجارُّ والمجرورُ أفاد تخصيصَ لوطٍ عليه السلام بالإخبارِ عنِ استئصالِهم اهتمامًا بشأنه عليه السلام ورعايةً لحقِّ الرّسالة التي اخْتُصَّ بها عن قومِه، وتخصيصُه بالإخبارِ المذكورِ لئلّا توهنَ نفوسُ أتباعِه عند الخروج حين يعلمون باستئصالِ قومِهم فيَحزنون لهم.

فائِدةُ التَّعْبيرِ باسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تهويلُ العذابِ على القومِ المُجرمين المُنْحَرِفين

لمّا كان ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسمَ إشارةٍ منَ المبهمات، وكان للبعيد، أفادَ التّعبيرُ به تهويلَ ما قضى اللّه به، وتعظيمَه وتفخيمَه، لبُعدِ مرتبتِه[2].

فائِدةُ مجيءِ قولِه: ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾:

تفخيمُ شأنِ الأمرِ الّذي جرى قدَرًا، على قوم لوطٍ العُصاةِ الفجَرة

يحتملُ أن يكون بدلًا من ﴿ذَٰلِكَ﴾ وهو الظّاهرُ، كما يحتملُ أن يكون عطفَ بيانٍ له، وعلى كلا الوجهَين يفيدُ اللّفظُ تعظيمَ اسْمِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/452، والزمخشري، الكشاف: 2/584، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/186، وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 11/185.

الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ وتفخيمَه؛ لأنَّ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ منَ الأمور بمعنى الشّأنِ العظيمِ، فتتنبَّهُ الأنفسُ لمعرفتِه وتتشوّقُ لبيانِه[1].

دَلالةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾:

أمرُ الله قدَرٌ لا يُغالَبُ، وإذا جرى على قومٍ استَأصلَ شأفَتَهم

(ال) هنا جنسيَّةٌ، لِتعظيمِ شأنِ العذابِ الّذي يقعُ عليهم فيَستأصلُهم، فكأنَّ كلَّ ما أوحى اللّه به إلى لوطٍ، هو الإخبارُ عن عذابِهم واستئصالِهم، لهولِ الأمرِ وعِظَمِ شأنِه.

دَلالةُ المصدرِ المُؤوّلِ في الآيةِ:

استِحقاقُ العذابِ العظيمِ، للقومِ المُنحرفين الشّاذّين

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾، وقد أفاد التّعبيرُ بالمصدر المُؤوَّلِ أنَّ الأمرَ الذي قضاه اللّه تعالى هو قطعُ دابرِ هؤلاء القوم من غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصْفٍ آخرَ مقترنٍ به، أي من كثرتِهم أو قلَّتِهم أو كونِهم من قوم لوطٍ أو غيرِ ذلك، ففي التّعبير بالمصدر المؤوَّلِ تحصينٌ منَ الإشكال في الفهم وتخليصٌ له من شوائبِ الإجمالِ في الوصفِ، ولمّا كانَ المصدرُ المؤوّلُ بصيغة الجملةِ الاسميَّةِ أفاد ثبوتَ وقوع العذابِ وتحقُّقَه.

بَلاغةُ الإطنابِ في سياقِ الآيةِ:

تفسيرُ العذابِ، إيذانٌ بعِظَمِه وشِدّتِه على القومِ المُنحرفين

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ﴾، وفيه أنّه لّما كان قولُه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ﴾ مبهمًا، فسّره بطريق الإطناب بالمصدر المؤوّل ﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾ ليكونَ بدلًا من اسم الإشارة على القولِ بأنَّ ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ بدلٌ من اسم الإشارة، وإن كان ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ عطفَ بيان كان المصدرُ المؤوّلُ بدلًا منَ الأمر، أو تفسيرًا له، وإنّما جاء بطريق الإطناب؛ لأنَّ المقام مقامُ تفخيمٍ للعذاب وامتنانٍ على النّاجين، ففي مجيء التّفسيرِ بعد الإبهام زيادةٌ في تعظيم الأمرِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/186، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/65.

وتفخيمِه، والاهتمامِ بشأنِه، وهو أوقعُ في النّفسِ، وكأنّه لا طريقَ إلى إدراك عِظمِ العذابِ إلّا بالوصول إليه بالتّدريج[1].

بَلاغةُ تتابُعِ الكنايةِ في سياقِ الآيةِ:

قطْعُ الدّابرِ بمعنى إهلاكِه، واستئصالِه وقطْعِ نسْلِه

قولُه تعالى: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ﴾، لمّا كان الدّابرُ هو آخرُ شخصٍ من القومِ كان الإخبارُ عن قطعِه كنايةً عن هلاكِهم واستئصالِهم جميعًا حتى لا يبقى منهم أحدٌ؛ لأنَّ قطعَ الدّابرِ لا يكونُ إلّا بعدَ الإتيانِ على من تقدَّمَه، ولا يقطعُ الدّابرُ حتّى يُقطعَ ما دونَه؛ لأنَّ العدوَّ يكون مستقبلًا لعدوِّه، وإذا قطع ذلك وأتى عليه فقد أتى العذابُ من أولِّهم إلى آخرِهم، وفي الكنايةِ عنِ استئصالِهم كنايةٌ أخرى عن قطعِ نسلِهم[2].

دَلالةُ اسْمِ الإشارةِ في قوله: ﴿هَـٰٓؤُلَآءِ﴾:

الاسْتِئصالُ وقطعُ النّسْلِ، عذابُ الشّاذّين عنِ الفطرةِ النّقيّةِ

عبِّر باسْمِ الإشارةِ لتحقيرِهم وللتّنبيهِ على أنَّ العذابَ المَهولَ بالاستئصالِ على هؤلاء هو يسيرٌ في قَدرتِه سُبحانه[3] ولِتَمييز الذين وقعَ عليهِمُ العذابُ أكملَ تَمييزٍ وللإشعارِ بأنَّ وقوعَ العذاب عليهم لِما اتّصفوا به منَ الصّفاتِ القبيحةِ المُنحرفةِ التي عليها مدارُ الحُكم، أي دابرُ هؤلاءِ المُجرمين، ولهذا لم يقل (وقضينا إليه أنَّ دابرهم مقطوع)[4].

نُكتةُ التّعْبير بصيغةِ ﴿مَقۡطُوعٞ﴾:

اسْتِئصالُ القومِ المُنحرِفين، يسيرٌ عندَ الله تعالى

عبِّرَ بصيغةِ المبنيِّ للمفعول؛ للإيذانِ بعظمةِ اللّه تعالى وسهولةِ عذابِهم واستئْصالِهم عنده سُبحانه، كما أنّ إيرادَ صيغةِ المفعول بدلَ صيغةِ المضارع (يُقطعُ) أدخلُ في الدّلالة على الوقوعِ والقطعِ به[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/584، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214، والعصام الإسفراييني، الأطول شرح تلخيص المفتاح: 2/83.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/453، والزمخشري، الكشاف: 2/584، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/368، والفخر الرازي: مفاتيح الغيب: 19/154، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/214.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/73.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/84.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 11/73، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

بدايةُ نزولِ العذابِ عليهم، وقتَ الدّخولِ في الصّباحِ

نُكتةُ التّعبيرِ بلفْظِ ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾:

عبَّرَ بلفْظِ ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ ليكونَ بمعنى داخلين في أوّل وقت الصّباح، فإنَّ همزةَ (أصبحَ) الدّخولُ في الشّيء؛ لأنَّ اللّفظ مُشتقٌّ من أصبح التّامّة.

أعظمُ العذابِ، ما كان ظاهرًا للعيانِ، أمامَ المُعذَّبين

دَلالةُ الحالِ في قولِه: ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾:

أفاد مَجيءُ ﴿مُّصۡبِحِينَ﴾ حالًا[1] أنَّ قطعَ دابرِ هؤلاء القومِ في حالِ دخولِهم في الصّباح وظهورِه، فيكونُ العذابُ أشدَّ عليهم؛ لأنَّه يكونُ أظهرَ في العيانِ وأوّلَ أمرٍ يلاقونَه بعد استيقاظِهم، ومَبْدَأُ الصَّباحِ وَقْتُ شُروقِ الشَّمْسِ ولذلك قالَ بَعْدَهُ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73][2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/155، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/187.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

الجمعُ بين وصفِ العذابِ وأهوالِه، وبين استِبشارِ المُنحرفين بمَعْصيتِهم

لمّا أخبرَ اللّه تعالى عمّا كان من أمر لوطٍ الطّاهرِ هو ومن معه ونجاتِهم منَ القومِ المُجرمين، ولمّا كانَ قد أجمل الكلامَ على قومِه الأرجاسِ شرعَ في تفصيلِ الكلامِ عليهم فبدأ بما كان عندما رأوا ملائكةَ اللّه، فجاءت هذه الآيةُ.

وأيضًا لمّا تمَّ ما دار بينه وبين الرُّسل مقدّمًا لِما بيّن، أتبعه البيانُ عن تفصيلِ حال قومه[1] بعدَ بيانِ نهايتِهم التي كانوا عليها، وهو أسلوب بلاغيٌّ فريد.

وأيضًا جاءت هذه الآيةُ للشروع في حكاية ما صدرَ منَ القومِ عند وقوفِهم على مكان الأضياف منَ الفعل وما ترتّبَ عليه ممّا أُشير إليه أوّلًا على سبيل الإجمالِ، وهذا مقدّمٌ وقوعًا على العلم بهلاكِهم، والواو لا تفيدُ التّرتيبَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أقبلَ القومُ يَستبشِرون بفعْلِ المُنكراتِ في ضيوفِ لوطٍ دون حياءٍ

يُخبر اللّه تعالى أنَّ أهلَ مدينةِ قَومِ لوطٍ قد جاؤوا إلى بيتِ لوطٍ فَرحينَ مَسرورينَ، يُبَشِّرُ بَعضُهم بعضًا بقُدوم أضيافِ لوطٍ؛ طَمعًا في فِعلِ الفاحشةِ بهم، قال لوطٌ لِقَومِه: إنَّ هؤلاء الذين تُريدونَ فِعلَ الفاحِشةِ بهم ضُيوفي، وحَقٌّ على الرجُلِ إكرامُ ضُيوفِه، فلا تَفضَحوني في ضُيوفي بتعاطي ذلك الفِعلِ القَبيحِ، فيَلحَقَني العارُ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/73 - 74.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85، والآلوسيّ، روح المعاني: 7/314.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/90، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/489، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نُكتةُ التّعْبير بلفْظِ ﴿أَهۡلُ﴾:

الـرَّحـمُ على الحقيقة، من يَربطُنا بأصحابِها، الإيمانُ والعملُ الصّالحُ

قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾، وفيه فإنّه لمّا قال الله تعالى في حقِّ لوطٍ ﷺ ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ﴾، قابلَ الكافرين المُنحرفين بقولِه ﴿أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾ مع أنّهم كانوا في بلدةٍ واحدةٍ للإيذان بخصوصيَّةِ أهلِ لوطٍ عن أهلِ المدينةِ وتمايزهم بسببِ إيمانِهم واتِّباعِهم لوطًا ﷺ وبسببِ بعدِهم عنِ الفواحشِ واجتنابِهم لها، فنسبَ المؤمنين إلى لوطٍ تشريفًا وتكريمًا ونسبَ الكافرين إلى المدينةِ التي يقعُ فيها المنكرُ، ولمّا أضافَهم إلى المدينةِ لحقَ بها ما لحقَ بأهلِها.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بالإضافة في ﴿أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

اللّائقُ بأهلِ المدينةِ أن يُكرموا الغرباءَ

لمّا أضيف ﴿أَهۡلُ﴾ إلى ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾ أفاد العمومَ بمعنى الكثرةِ؛ للإشارةِ إلى كثرتِهم مقارنةً مع المؤمنين من أتباع لوطٍ ﷺ، وفي الإضافة إشارةٌ إلى فظاعةِ فعلِهم، فإنَّ اللّائقَ بأهل المدينةِ أنْ يُكرموا الغرباءَ الواردين على مدينتِهم ويُحسنوا المعاملةَ معهم فهم عدَلوا عن هذا اللّائقِ مع من حَسبوهم غرباءَ واردين إلى قصْدِ الفاحشةِ التي ما سبقَهم بها أحدٌ منَ العالمين[1].

فائدةُ (ال) في قولِه: ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

المدينةُ هنا رمزُ الضّلالةِ والسّفاهةِ والانحطاطِ

(ال) هنا تفيدُ العهدَ العلميَّ، بمعنى المدينةِ التي كان قومُ لوطٍ يفعلون المنكرَ فيها.

نُكتةُ التَّعْبيرِ بلفْظِ ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾:

اعتدادُ المُنحرفين بأنفسِهم، لا يمنَعُهم من وقوعِ العذابِ عليهم

عبّرَ بلفْظِ ﴿ٱلۡمَدِينَةِ﴾؛ للإشعارِ باعتدادِهم بأنفسِهم وبقُدرتِهم على فعْلِ ما يَشتهون، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المدينةَ فيها المؤمنون والكافرون.

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 7/315.

نُكتةُ مَجيءِ الحالِ في ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

الاسْتِبشارُ بالشّذوذِ، قُبحٌ ومَفسدةٌ وانتكاسٌ

عبَّرَ بصيغةِ المضارعِ؛ لإفادَةِ التَّجَدُّدِ في استبشارِهم مُبالَغَةً في فرحِهم حينما عَلِموا أنَّ رِجالًا غُرَباءَ حَلّوا بِبَيْتِ لوطٍ عليه السلام فَفَرِحوا بذلك لِيَغْتَصِبوهُمْ كَعادَتِهِمُ القبيحةِ المنافرةِ لوصْفِ الإنسانيَّة، ففي التّعبيرِ إشعارٌ بشدَّةِ رغبتِهم في طلبِ المُنْكر[1]، ولمّا جاء الفعلُ المضارعُ على معنى الحال وكان الكلامُ في سياقِ الذّمِّ أفاد أنَّ استبشارَهم بالمعصيةِ الشّاذّةِ سببٌ لاستحقاقِ العذابِ ودليلٌ على صدْقِ الوعيدِ عليهم، فيكونُ الذّمُّ على مجيئِهم مُسْتَبشرين لفعلِ المعصيةِ القبيحةِ المُنكرة.

دَلالةُ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

التّواطُؤُ مع المُنْحرفين، له حُكْمُ مَعْصيتِهم وقُبحِ فعْلِهم

يحتملُ أن تكونَ الصّيغةُ للمطاوعةِ من بشّرَ فاستبشرَ، ففيه إشعارٌ بأنَّ هناك من أخبرَهم بوجودِ غرباءَ عندَ لوطٍ عليه السلام، على طريقة التّبشيرِ، والمعنى بشّرهم فاسْتَبشروا، ويحتملُ أن تكونَ السّين والتّاءُ للمبالغةِ في استبْشارِهم، وكلا الوجهَيْن يُفيدان المبالغةَ في ذمِّهم.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

الإسراعُ إلى المَعصيةِ مِنَ القبائحِ المُستهجنةِ

أفاد التّعبيرُ بـ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ بدلالة ظاهرِ اللّفظ فرحَهم وسرورَهم طمعًا في فعلِ الفاحشةِ، كما أفاد بلازمِه على طريق الكنايةِ أنَّ مجيئَهم كان على وجهِ السّرعةِ؛ لأنَّ الاستبشار بأمرٍ يقتضي الإسراعَ للوصول إليه عادةً، ودلَّ على سُرعتِهم في المجيء قولُه تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: 78]، والمرادُ الجمعُ بين دلالة اللّفظِ ولازمِه، ففيه ذمٌّ لهم كذلك على سُرعتِهم إلى فعلِ القبائحِ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/74، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ ٦٨﴾ [الحجر: 68]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

دَعوةٌ عاقلةٌ لتَفادي الخِزيِ والعارِ، بالاعتداءِ على الضّيوفِ الأبرارِ

لَمَّا جاء قومُ لوطٍ المُفسدون علمَ بمجرَّدِ مَجيئِهم بوادرَ شرِّهم وفسادِهم وما جالَ في خاطرِهم، فباشرَهم بالقولِ الذي قالَه لعلَّهم ينتهون.

وأيضًا لمّا جاء قومُ لوطٍ إليه كان كأنَّه قيل: فماذا قال لهم لوطٌ، فجاءت هذه الآيةُ.

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿تَفۡضَحُونِ﴾: أَصلُ (فضح): الكَشْفُ، يُقال: فَضَحَ الإناءَ فَضْحًا، أيْ: كَشَفَهُ ولم يَسْتُرْهُ، وأكْثَرُ ما يُسْتَعْمَلُ في السوءِ والقُبْحِ[1]، والفَضيحةُ: اسْمٌ لِكُلِّ أمْرٍ سَيِّءٍ يَشْهَرُ صاحِبَهُ بما يَسوءُ[2]، والافْتِضاحُ: ظُهورُ العَيْبِ وانْكِشافُهُ. الفَضْحُ: الإظْهارُ والتَّبْيينُ، يُقال: فَضَحَ اللِّصَ: إذا أظْهَرَهُ وبَيَّنَ حالَهُ، وفَضَحَ الصُّبْحُ الرَّجُلَ: إذا اسْتَنارَ وتَبَيَّنَ وهو نائِمٌ[3]. ويأْتي بِمعنى التَّشْهيرِ والتَّعْريفِ[4]. ومِن مَعانيهِ أيضًا: ظُهورُ اللَّوْنِ القَبيحِ في الشَّيْءِ[5]. والمقصودُ بالفَضْحِ في الآية: شُهْرَةُ حالٍ شَنيعَةٍ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

التَّشميرُ لمراعاةِ حقوقِ الضّيفِ مِن سُنَنِ المُرسَلين

فائِدةُ التّأكيدِ بـ﴿إِنَّ﴾ في السّياقِ:

التَّأكيدُ بـ﴿إِنَّ﴾ ليس لإنكارِ قومِه أنَّهم ضيفُه، بل لتَحقيقِ اتِّصافِ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضح).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (فضح).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (فضح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (فضح).
(5) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (فضح).

الملائكة بوصفِ الضَّيف، وإظهارِ اعتنائِه بشأنِهم، وتَشمُّرِه لمُراعاةِ حُقوقِهم وحِمايتِهم مِنَ السّوءِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

الضّيفُ بمنزلةِ القريبِ في النَّسبِ، صيانةً وحمايةً

لمّا اقترن اسْمُ الإشارةِ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الذي هو للقريبِ بلفظِ الضَّيفِ أفاد أنَّه أراد تَمييزَهم أكملَ تمييزٍ لتعظيمِهم، وللإشعارِ بأنَّهم بمثابةِ الأقرباءِ له بضيافتِهم عليه[2].

دَلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿ضَيۡفِي﴾:

الاعتناءُ بالضَّيفِ وإكرامُه من سُنَنِ المُرسَلين

لمّا كانتِ الإضافةُ على معنى اللّام أفادت هنا اخْتِصاصَهم به عليه السلام، على معنى العنايةِ بهم وتكريمِهم.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾:

حقُّ الضّيفِ على المُضيفِ، الإكرامُ والاحترامُ

جاء الكلامُ على طريق الكنايةِ بذكْرِ الضّيفِ ليُفيدَ بلازمِه وجوبَ إكرامِهم وعدمِ إهانتِهم والتّعرُّضِ لهم بأيِّ سوءٍ.

سببُ مجيءِ الفاءِ في قولِه: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾:

مَنْ أهانَ الضّيفَ، أهانَ المُضيفَ

لمّا نبَّه لوطٌ قومَه إلى أنَّ الذين عنده هم ضيْفُه، ومن حقِّ الضّيفِ إكرامُه أفادتِ الفاءُ الترتُّبَ، ليكونَ الكلامُ بتقديرِ: إنَّ هؤلاء ضيفي فلا تُؤذوهم، أو فلا تُهينوهم، أو فلا تُسيئوا إليهم فتفضحون، فإنَّ من أهانَ الضّيفَ أهانَ المُضيفَ[3].

بَلاغةُ الكنايةِ في جملةِ ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾:

صلاحُ ربِّ البيتِ، دليلٌ على صلاحِ أهلِ البيتِ قاطبةً

لمّا نهاهُم عن فضيحتِه دلَّ بلازمِه على شُهرةِ أهلِ بيتِ لوطٍ عليه السلام عند الخلْقِ بالصَّلاحِ والأمنِ وحُسنِ الضّيافة.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿تَفۡضَحُونِ﴾:

عبَّرَ بلفظِ ﴿تَفۡضَحُونِ﴾؛ للإشعارِ بأنَّ ما تريدونَه مِنَ الفعلِ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/74.

(3) أبو حيان، البحر المحيط: 6/489.

الشُّذوذُ لا تتقبّلُه العقولُ السّليمةُ، ولا النّفوسُ المُستقيمةُ

القبيحِ بضيفي هو حالةٌ شنيعةٌ منكم لضيفي، بمعنى ستُظهرون من أمري ما يكونُ عارًا عليَّ[1]، ولمّا كانتِ الفضيحةُ اختصَّتْ بما هو عارٌ على الإنسانِ عند ظهورِه وكانت شهرةَ حالٍ شنيعةٍ[2]، أفاد التّعبيرُ بها الإيذانَ بأنَّ ما تفعلونَه منَ الفاحشةِ أمرٌ شنيعٌ لا تتقبّلُه العقولُ وتشمئزُّ منه النّفوسُ.

بَلاغةُ حذْفِ مُتعلّقِ ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾:

مَن أساءَ إلى الضّيفِ فقد أساءَ إلى المُضيِّفِ

حُذفَ مُتعلِّقُ الفعلِ لإفادة العُموم، بمعنى فلا تفضحوني بفضيحة ضيفي عندَهم ولا عندَ الخلقِ، كما يحتملُ أن يكون الحذفُ بمعنى: لا يكنْ منكم فضحٌ لي، فيكونُ على معنى النّهيِ عنِ الاتّصاف بأيِّ شناعةٍ يكونُ بسببِها فضحٌ لي؛ لأنّ من أساء إلى ضيفه أو جارِه فقد أساء إليه، كما أنَّ من أكرم من يتّصلُ به فقد أكرمَ[3].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/628.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/173، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السّنّة: 6/453، والزمخشري، الكشاف: 2/585.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ ٦٩﴾ [الحجر: 69]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الدّعوةُ إلى الله جمْعٌ في التّحفيز بين الوازعِ الدّينيّ، والوازعِ العُرفيّ

لمّا ذكَرَ لوطٌ لقومِه الوازعَ العرفيَّ في قولِه: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾ أتبعَه بالوازعِ الدّينيِّ في هذه الآيةِ استقصاءً بالدّعوة التي جاء بها[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾: أَصْلُ الخِزْيِ: ذلٌّ يُسْتَحى مِنْهُ؛ ولذلك يُسْتَعْمَلُ في كلٍّ منهما، أي: الذُّلّ والاسْتِحْياء[2]، وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أَخْزاهُ اللّه، أي أَبْعَدَهُ وَمَقَتَهُ[3]. والخِزْيُ الفَضيحةُ، وقد خَزِيَ يَخْزَى خِزْيًا إذا افْتَضَح وتَحيَّر فَضِيحَةً[4]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء[5]، والهَوانُ[6]. والمقصود بالخِزي في الآية: الذُّلُّ والإهانَةُ[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّعرُّضُ للضّيف بعد حمايتِه، أجْلَبُ للعارِ

قال لوطٌ لهم: وخافوا اللّهَ أن يُحِلَّ بكم عَذابَه، ولا تُذِلّوني وتُهينوني بالتعَرُّضِ لضيوفي بمَكروهٍ[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الوصْلِ بالواوِ في قولِه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾:

حقُّ الضّيفِ أقرَّه العُرفُ والدّينُ، في كلِّ العُصورِ

أفاد حرفُ العطفِ أنَّ الأمرَ في قولِه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ داخلٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.
(2) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزي).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(5) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خزي).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (خزي).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 14/66.
(8) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39.

في حيّزِ المسبَّبِ وما أفادتِ الفاءُ ترتّبَه على ما قبلَه في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، والمعنى لأنَّ هؤلاء ضيفي؛ فلا تفضحون، ولأنَّهم ضيفي فاتّقوا اللّه، ومثلُه الواو في ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾، والمعنى: ولأنَّ هؤلاء ضيفي فلا تخزون.

سببُ ربْطِ الأمرِ بتقوَى الله:

التّقوَى تَقتضي خشيةَ اللهِ، والحذرَ من عقابِه

لم يأمرْ لوطٌ قومَه بالإيمان باللّه مع أنَّه الأصلُ؛ لاقتضاء المقامِ أن يأمرَهم بالتّقوى لِما تقتضيه التّقوَى من خَشيةِ اللّه والحذرِ من عقابِه، ففيه إشعارٌ بأنَّ فعلَكم يقتضي عقابًا شديدًا، والمعنَى: فاتّقوا اللّه في ركوب الفاحشةِ[1].

دَلالةُ حذْفِ متعلّقِ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾:

تقوَى الله وقايةٌ من كلِّ سوءٍ مُؤذٍ، أو مُنكَرٍ مُستبشَعٍ

حُذِفَ متعلَّقُ ﴿وَٱتَّقُواْ﴾، ولم يقل مثلًا (واتّقوا اللّه في ضيفي أو في فعلِكم أو في ركوب الفاحشةِ) للإيذانِ بأنَّ المقصودَ تحصيلُ تقوَى اللّه مُطلقًا، ففيها وقايةٌ من كلِّ سوءٍ أو منكرٍ.

سِرُّ الجمْعِ بين الأمرِ والنَّهيِ في الآية:

الأدبُ مع الرّسولِ الأكرمِ وأهلِ بيتِه، منَ التّقوَى والمَبَرّةِ

قولُه تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ﴾، وفيه جمعَ بين الأمرِ بتقوَى اللّه تعالى والنّهيِ عن إخزائِه، لِما تفيدُه تقوَى اللّه من مُراعاةِ حقِّ رسولِ اللّه وأهلِ بيتِه الطّاهِرين، فيكونُ قد ذكّرَهم باللّه وبما يوجِبُه الأدبُ والخُلقُ مع رسول اللّه ومع الضّيفِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾:

التّعرُّضُ للضَّيفِ بالسّوءِ، أعظمُ العارِ

لَمّا كان التَّعرّضُ لضيفِ لوطٍ عليه السلام بعد أن نهاهُم عنه بقوله: ﴿فَلَا تَفۡضَحُونِ﴾، أكثرَ تأثيرًا في جانبِه عليه السلام وأجلبَ للعارِ إليه؛ إذِ التَّعرُّضُ للضَّيفِ بعدَ العلمِ بكونِه ضيفًا وبعد المُناصبةِ بحمايتِه أعظمُ العارِ، عبَّر عليه السلام عمّا سَيعتريه بسبب لِجاجِهم ومُجاهرتِهم بمخالفتِه منَ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/416.

الهوانِ والذِّلَّةِ والاستخفافِ والبُعدِ عنِ النّاس بسبب الفضيحة، والمعنَى لا تهينوني بالتّعَرّضِ لهم، ويحتملُ أن يكونَ الفعلُ ﴿تُخْزُونِ﴾ منَ الخزاية وهي الحياء أي لا تُخجِلوني في ضيفي ولا تَجعلوني أسْتَحيي منّ النّاس بتعرّضكم لهم بالسّوء[1].

سِرُّ عدمِ تَصْريحِ لوطٍ في الآية:

لم يصرِّح ﷺ بالنَّهي عن نفس تلك الفاحشةِ؛ لعلْمه بأنَّه لا يفيدُهم ذلك، ورعايةً لمزيدِ الأدبِ مع ضيفِه، حيث لم يصرِّحْ بما يَثقُلُ على سمْعِهم وتنفرُ عنه طباعُهم ويرى الحرُّ الموتَ ألذَّ طعمًا منه[2].

الموتُ ألذُّ طَعمًا، من فعْلِ الفاحشةِ

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الذُّلُّ والخِزيُ:

الخزيُ ذلٌّ لقُبحِ فعلٍ مع هوانٍ وافتضاحٍ، فالخزيُ أخصُّ منَ الذُّلِّ، والذّلُّ قد يوصفُ به على سبيل المدحِ إذا كان من نفسِ الإنسانِ على سبيلِ الانكسارِ والحياءِ، وأمّا الخزيُ فلا يكونُ إلّا ذمًّا، وقيل: الخزيُ الانقماعُ لقُبحِ الفِعْلِ والخَزايةُ الاستحياءُ لقُبحِ فعلٍ؛ لِأنَّهُ انقماعٌ عَنِ الشَّيْءِ لِما فيهِ منَ العَيْبِ[3].

الذّلُّ يكونُ في المحمودِ والمذمومِ، والخزيُ لا يكونُ إلّا مَذمومًا

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/66.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 250، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (خزي).

﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٠﴾ [الحجر: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين تَرجّيهِ لهم أن لا يُخزوه في ضيفه، وردِّهم بالعزمِ على الفاحشةِ

لمّا ذكّرهم لوطٌ بضيفِه وأمرَهم ونهاهُم أجابوه بقولِهم فيما أخبرَ اللّه تعالى عنهم ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَنۡهَكَ﴾: أصلُ (نهي): يَدُلُّ على غايةٍ وبُلوغ. يُقالُ: أنهَيتُ إليه الخبَرَ: بَلَّغْتُه إيّاهُ، ونِهايَةُ كُلِّ شَيءٍ: غايَتُهُ. ومنه نَهَيْتُه عنه، وذلك لأمْرٍ يَفعلُه. فإذا نَهَيْتُهُ فانتَهى عنكَ فَتِلكَ غايَةُ ما كانَ وآخِرُهُ[1]. والإنْهاءُ: الإيصالُ والإبلاغُ[2]، والنِّهايَة: غايَةُ كُلِّ شَيءٍ وآخِرُهُ[3]، والانْتِهاءُ: الاكْتِفاءُ والامْتِناعُ، يُقالُ: نَهِيَ فُلانٌ مِنَ اللَّحْم إذا اكْتَفَى منه[4]. والنَّهيُ: الكَفُّ عَنِ الشَّيءِ والمَنْعُ منه، تَقولُ: نَهاهُ إذا كَفَّهُ ومَنَعَهُ عَنْ شَيءٍ ما، ومنه النُّهْيَةُ وهي العَقْلُ؛ لِأنَّهُ يَمْنَعُ صاحِبَهُ مِنَ القَبيحِ[5]. والمقصودُ بالنَّهيِ في الآية: طَلَبُ تَرْكِ الفِعْلِ بالقَوْلِ على وَجْهِ الاسْتِعْلاءِ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

تَصْميمُ القومِ على الفاحشةِ مع الضُّيوف، دليلٌ على فُحْشِهم وكُفْرِهم

قال قَومُ لوطٍ له: أولَم نَنهَك يا لوط عن ضيافةِ أحدٍ مِنَ النّاس أو تُؤويه في قريتنا؟ فنحن قد أنذَرْناك، ومَن أنذَرَ فقد أعذَرَ. إذ هم كانوا يتعرَّضون لكلِّ غريبٍ بالسّوء، وكان لوطٌ ينهاهم عن ذلك على قدر حولِه وقوَّتِه، ويحولُ بينهم وبين من يَعرضون له، وكانوا قد نهَوْه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نهي).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نهي).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نهي).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (نهي).
(5) ابن عباد، المحيط في اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نهي).

عنِ التَّعرّضِ لهم في مثل ذلك، فكأنَّهم - أخزاهم اللّه - قالوا ما ذكرتَه مِنَ العارِ والفضيحةِ إنَّما جاء من قِبَلك لا من قِبَلنا، إذ لولا تعرّضُك لِما نتصدَّى له لَما اعتراك ما يَسوءُك[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

بَلاغةُ الاسْتِئنافِ البيانِّي في السّياقِ:

تَـنـبـيـهٌ إلى اسـتـمـرارِ الإصغاءِ، لطولِ الأخذِ في الحوارِ والعَطاءِ

لمّا قال لهم لوطٌ ما تقدَّمَ في الآيةِ السّابقة، كان كأنَّه قيلَ: فماذا أجابوه بعدَ تذكيرِهم بما ينبغي الانتهاءُ عن فعلِهم؟ فأجاب: ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، وفي الاسْتِئنافِ استِدرارٌ لأسماعِ المخاطَبين وتنبيهٌ إلى الإصغاءِ للكلام حينما يطولُ للإشعارِ بأهمّيَّتِه.

بَلاغةُ الاسْتفهامِ في الآيةِ:

تعنّتُ المُنحرفين، لطولِ مُكثِهم على الفاحشةِ، ونَهيٌ من يُنكرُ عليهم

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾: وفيه أنّه لمّا كان القومُ يتعرَّضون لكلِّ أحدٍ، وكان لوطٌ عليه السلام يقومُ بالنَّهيِ عنِ المنكر، والحجْرِ بينهم وبين المتعرَّضِ له دائمًا جاء الاستفهامُ على معنى الإنكارِ على حمايتِه لِمن يتعرَّضون له ومنعِهم منَ الوصول إليه، ويتولَّدُ منَ الإنكار تقريرُ نهْيِهم له، وتذكيره وزجره عن حماية الضّيف بمعونةِ المقامِ.

بَلاغةُ التّعبيرِ بتركيبِ ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾:

الـجـمْـعُ بين مـعـنـيَـيْن في تـركـيـب واحـدٍ، من بليغِ البيان

الهمزةُ للإنكارِ والواوُ للعطفِ على مقدَّرٍ، أي ألم نتقدمْ إليك ولم ننْهَكَ عن ذلك، فجمَعَ في هذا التّركيب الاستفهامَ والعطفَ؛ ليجمعَ بين معنيَيْن في تركيبٍ واحدٍ[2].

سِرُّ إيثارِ ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾:

استمرارُ إنكارِ لوطٍ على قومِه، ومواصلتُهم مُعارضتَه

لم يأتِ الفعلُ بصيغةِ الماضي كأن يقال (أوَ ما نهيناك)، لِما يفيدُه النَّفيُ بـ(لَمْ) من قُربِ نهيِهم له، والمعنى تقريرُ قَربِ نهيهم له واستمراره.

(1) المراغي، تفسير المراغي: 14/37.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/85.

بَلاغةُ الكنايةِ في قولِه: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ﴾:

استمرارُ دعوةِ المؤمنين للقومِ المُنحرفين

لمّا دلَّ الاستفهامُ المجازيُّ على تجدّدِ الإنكارِ على لوطٍ على حمايتِه للضّيفِ والغريب، وأفاد مجيءُ الفعلِ المضارعِ مع جازمِه قُربَ دعوةِ لوطٍ لهم إلى تركِ المُنكرِ أفادَ الكلامُ بلازمِه على طريقِ الكنايةِ استمرارَ لوطٍ عليه السلام على دعوتِهم والإنكارَ على أفعالِهم القبيحةِ، بمعنى أنَّه عليه السلام كان مستمرًّا على دعوتِه لهم وكانوا مُستمرّين على نهيِه عن منعِهم منَ الوصولِ إلى رذائِلهم.

نُكتةُ التّعْبيرِ بالفعلِ ﴿نَنۡهَكَ﴾:

جمْعُ قومِ لوطٍ بين شَناعةِ الفعلِ، وشَناعةِ القولِ

في التّعبيرِ بلفظِ ﴿نَنۡهَكَ﴾ إشعارٌ بفظاظتِهم ووقاحتِهم في قولِهم، فالتّعبيرُ بلفظِ النّهيِ يفيدُ الزّجرَ عن غايةِ ما يكونُ وآخره في طلب الكفِّ عن أمرٍ[1]، فهم لقُبحِهم وقُبحِ أفعالِهم يرتكبون شناعةً أخرى في مخاطبةِ رسولِهم عليه السلام.

دَلالةُ (ال) في لفْظِ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾:

لفظُ (العالمين) بمعنَى النّاسِ الّذين مَرّوا بهم

(ال) هنا للعهدِ العِلميِّ، وأرادوا بِهِ هُنا عالَمي زمانِهم من أصنافِ القَبائِلِ أو العالمين الذين مرّوا بهم وأمكن ملاقاتُهم، فعبِّرَ بـ ﴿ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لِقَصْدِ التَّعْميم[2].

بَلاغةُ تَعديةِ فعلِ النّهيِ إلى الذّواتِ:

صَفاقةُ المُنحرفين، في نَهْيِ رسولِهم عن حمايةِ ضُيوفِه المُكرَمين

قولُه تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، تَعْدِيَةُ النَّهْيِ إلى ذاتِ العالَمينَ للمبالغة في النّهي، وهو تقديرُ مُضافٍ دَلَّ عليه المَقامُ؛ إذِ النّهيُ لا يتعلّقُ بالذّوات، أي ألم ننْهكَ عن حمايةِ العالَمين أو عن منعِهم أو عنِ الدَّفعِ عنِ العالَمين[3]، وذهب بعضُ المفسّرين إلى أنَّ التّقديرَ: ألم ننْهك عن أن تضيفَ أحدًا من العالَمين؛ وكأنّهم يقولون

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (نهي).

(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/630، والزّمخشري، الكشاف: 2/585، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 3/215.

له لو انتهيتَ عن ضيافتِهم لا يلحقُ بك هوانٌ ولا خجالةٌ بسَبَبِهم[1]، واعترُضَ عليه بأنَّه لا يوافقُ اسْتِبشارَهم بالضّيفِ وهَرَعَهُم إليه، في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، فكيف ينهونَه عن شيءٍ يَستبشِرون به، ويحتملُ أن يكونَ نهيُهم عن ضيافة الغرباءِ، طمعًا منهم في سهولةِ فعلِ الفاحشةِ، ولأنَّهم كانوا يعلمون أنَّ لوطًا عليه السلام، إذا نزل به الضّيفُ منعَهم منَ الوصولِ إليهم، ومع هذا فالتّقديرُ المذكورُ أوّلًا أولى وأظهرُ[2].

نُكتةُ التَّعبير بلفْظِ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾:

لا حُرمةَ لأحدٍ عندَ المُنحَرفين، لفسادِ طِباعِهم، وسوءِ أخلاقِهم

لمّا كان قومُ لوطٍ يتعرَّضون لكلِّ أحدٍ[3]، عبَّر بلفظٍ يعمُّ الجميعَ في قولِه ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على سبيلِ المبالغةِ؛ للإيذانِ بمزيدِ شَناعةِ فعْلِهم، فلا حرمةَ لأحدٍ عندَهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/117، والبغوي، معالم التنزيل: 3/63، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/188.

(2) ابن المظفر الرازي، مباحث التفسير، ص: 195.

(3) الواحدي، التّفسير البسيط: 12/630، والزمخشريّ، الكشاف: 2/585.

﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دفع الشّرّ بعرض بناته للزّواج، لحفظ ضيوفه، من الانتهاك المحرّم

لمّا أنكروا على لوطٍ ﷺ منعهم مِنَ الأضياف عرضَ عليهم بَناتِه للزّواجِ ظَنًّا أنَّ ذَلِك يردعهم ويُطفئ شَبَقَهُم أو يستحوا ويرقّوا له(1).

وأيضًا لمّا وصلوا إلى هذا الحدِّ مِنَ الوقاحة، ورآهم لا يُقلِعون عمّا هم عليه ذكر لهم الحريم ليحملهم ذلك على الحياء؛ لأنَّه دأبُ مَن له أدنى مروءةٍ ولا سيَّما ذكرُ الأبكارِ في سياقٍ يكادُ يُصرِّحُ بمرادِه(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بَنَاتِيٓ﴾: أصلُ (بنو): كلمةٌ واحِدَةٌ، وهو الشَّيءُ يَتَوَلَّدُ عَنِ الشَّيءِ، كابنِ الإنسانِ وغيرِه، وأصلُ بنائِه بَنَوَ، والنِّسبةُ إليه بَنَوِيٌّ، وكذلكَ النِّسْبَةُ إلى بِنْتٍ، ثُمَّ تُفَرِّعُ العَرَبُ، فتُسَمّي أشْياءَ كَثيرَةً بابْنِ كَذا، وأشْياءَ غَيْرَها بِبِنْتِ كَذا(3)، والبِنْتُ: مُؤَنَّثُ الابْنِ، وهو الوَلَدُ الذَّكَرُ، سُمّيَ به؛ لكَونِه بِناءً للأبِ ومُتَوَلِّدًا عنه، والأُنثى مِنَ الأوْلادِ تُسَمَّى ابنَةً وبِنْتًا، وعند الإطلاقِ يَنْصَرِفُ إلى البِنْتِ مِنَ النَّسَبِ، والجَمعُ: بَناتٌ(4)، والمقصود بـ ﴿بَنَاتِيٓ﴾ في الآية: بَناتُ صُلْبِهِ أو بَناتُ القَوْمِ كُلِّهِم؛ تنزيلًا لَهُم منزِلَةَ بَناتِهِ؛ لأنَّ النَّبيَّ كَأبٍ لِأُمَّتِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/63.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/75.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بنو).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (بنو).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التشجيع على اتّباع الفطرة

قال لوطٌ لِقَومِه: تزوَّجوا مِن نسائِكم(1)، ولا تَفعَلوا ما حرَّمَ اللّهُ عليكم من إتيانِ الذُّكورِ، إن كنتُم فاعلينَ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفصل في الآية الكريمة:

استدرار الأسماع، لاستمرار الاستماع، لما هو مهمٌّ في الحياة

لمّا أنكر قوم لوط عليه السلام على رسولِهم حمايتَه لضيفِه؛ كان كأنَّه قيل: فما أجابَهم لوطٌ عليه السلام، وماذا قال لهم؟ فجاءت الآية على طريق الجواب لسؤالٍ مقدَّر، استدرارًا لأسماع المخاطبين وتنشيطًا لهم على استمرار الإصغاء للقصَّة.

دلالة الضّمير في الفعل ﴿قَالَ﴾:

مصابرة الرّسل في دعوة الأقوام، رغم العناد والأذى والآلام

يعود الضمير على لوط عليه السلام بما اتَّصف به، أي: قال لوط؛ الذي أنكر عليه قومُه منعَهم من الفاحشة ونهَوْه عن حماية ضيفِه؛ ليفيد أنَّه عليه السلام لم ينتهِ عمّا نهَوه عنه، بل استمرَّ على دعوتِه لهم، ولمّا كان الكلام على طريق المقاولة بين لوطٍ وقومِه في شأنِ الأضياف كان التّقدير: قال لوطٌ لقومه حين قصدوا أضيافه.

نكتة التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾:

إتاحة الحلال، للنّأي بالعصاة عن الحرام

لمّا كان اسم الإشارة ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للقريب دلَّ على أنّ زواجَهم ببناتِه سهلٌ يسيرٌ قريبٌ منهم، فالإشارة لتنزيلهم منزلة

(1) ذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ المرادَ بـ ﴿بَنَاتِيٓ﴾: نساءُ أمَّتي، لكونِ النبيِّ بمنزلةِ الأبِ لِقَومِه، وممَّن ذهَب إلى ذلك في الجملةِ: ابنُ جريرٍ، والزجّاجُ، والزّمخشري، وابنُ العربي، وابنُ كثير.
يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 14/91، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/183، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/585، وابن العربي، أحكام القرآن: 3/104، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/542، وممّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السَّلفِ: قتادةُ. يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 14/91، وابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم: 7/2269.
وقيل: المراد بهنَّ: بناتُ لوطٍ عليه السلام، فعرَضَ على قومه التزوُّجَ بهنَّ إن أسلَموا، وممّن ذهَب إلى هذا القولِ: البغوي، والخازنُ. يُنظر: البغوي، معالم التنزيل: 3/62، والخازن، لباب التأويل: 3/60.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 8/582، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/158، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 240.

الحاضر عندهم، ودلَّ بلازمِه على أنَّهم لن يطالوا ما جاؤوا لأجلِه، لبعدِه عنهم.

بلاغة لفظ ﴿بَنَاتِيٓ﴾ بين الحقيقة والمجاز:

النَّبي بمنزلة الأب لنساء قومه، وكلّ بنات أتباعه بناته

يحتمل أن يكون تكون الإضافة في ﴿بَنَاتِيٓ﴾ على المجاز من قبيلِ الاستعارة التّصريحيَّة؛ بتشبيه بناتِ قومِه ببناتِه في الرعاية والاهتمام، وأنَّه ﷺ بمثابة الأب لنساء القوم، أو يكون الكلام على الحقيقة بطريق التّشبيه البليغ، أيّ: هَؤُلاءِ نِساؤُهُنَّ كَبَناتي، وأرادَ نِساءً مِنْ قَوْمِهِ بِعَدَدِ القَوْمِ الَّذينَ جاؤوا يُهْرَعونَ إلَيْهِ، أو أن تكون الإضافة في ﴿بَنَاتِيٓ﴾ على طريق المجاز بالحذف، أي: بناتِ قومي، كما تحتمل الإضافة أن تكون لأدنى ملابسة، فإنَّ نبيَّ كلِّ أمّةٍ بمنزلة أبيهم، والمرادُ ندبُهم إلى زواج بنات قومِه بدلًا من فعلِ الفاحشةِ، ويصحُّ أن يدخل فيه بناته على التّغليب لقصد التّحبيب والحثِّ على التّركِ، كما يُحتمل أن تكون الإضافة على أصلِها من غير حذفٍ ويكون المراد من ﴿بَنَاتِيٓ﴾ بنات صلبه على معنى الزّواجِ منهنَّ لمّا جاءه أكابرُ القوم وحاكموهم[1].

دلالة الإسناد الخبريّ في قولِه ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ﴾:

رعاية الأدب في عرضِ الزّواج، من سنن المرسلين، ولو في مواقف الإحراج

يحتمل هذا التّركيب أن يكون تامًّا من مبتدأ وخبر[2]، وفي الكلام حذفٌ تقديره: هؤلاء بناتي فتزوَّجوهنَ، وحُذِفَ (فتزوّجوهنَّ) لدلالة السياق عليه ولإفادة تقريب زواجِهم منهنَّ، أو يكون التّقدير هؤلاء بناتي لو تزوجتم بهنَّ، فيكون مجيء الخبرِ على خلافِ مقتضى الظّاهر؛ ليفيدَ العرضَ والتّحضيض مع تضمينه معنى التّمنّي لعلمِه بأنّهم ليسوا بفاعلين، وأشار إلى هذا المعنى ابن عاشور

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/413، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/142، 215، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/187، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/367، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/188.

(2) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/786، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/187، والسمين الحلبي، الدر المصون: 7/173.

حين رأى أنَّ الإشارة هنا مستعملةٌ في العرض، والتَّقْديرُ: هؤلاء بناتي فخُذوهُنَّ، والحذفُ فيه لِرعايةِ الأدب في عرضِ الزّواج، أو يكون الإسناد الخبري على طريق المجاز، بمعنى أنَّه لا يقصد حقيقة عرضِ بناتِه للزّواج، وما كان يقصد حقيقة إرادة النّكاح، ولا يحقق في إباحة بناته، بل كان ذلك مبالغةً في التواضع لهم، وإظهارًا لشدة امتعاضِه مما أوردوا عليه طمعًا في أن يستحيوا منه ويرِقّوا له إذا سمعوا ذلك؛ فينزجروا عما أقدموا عليه، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنّما ذلك على جهة التَّشنيع عليه والاستنزال من جهة ما واستدعاء الحياء منه، وهذا كلُّه من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب بل الغرض منه مفهوم، فقد استقر العلم عندهم جميعًا أن لا مناكحة بينهم وهو الأنسبُ بقولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: 78]، ويحتمل أن يكون ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأً و﴿بَنَاتِي﴾ بدلًا أو عطفَ بيانٍ، والخبر محذوف تقديره (أطهر لكم) كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ﴾ [هود: 78]، فيكون المرادُ من مجيء هذا التّركيب الإشارة إلى النّساء، وأنَّهنَّ أطهر لهم في قضاء الوطر عن طريق الزّواج، فأراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم والحميَّة للضَّيف[1].

بلاغة مجيء الشّرط بالأداة ﴿إن﴾:

الشّذوذ عن الفطرة يخرج عن قوانين الله، ويلغي نهيه وأمره

لمّا كانت ﴿إن﴾ تفيد الشّكَّ في وقوعِ الشّرط أفاد التّعبيرُ إيذانَهم بأنَّه يشكُّ في قبولِهم نصحَه لِما يعلمُه من أفعالِهم وقبحِ سريرتِهم، فكأنَّه قال: إن كنتم فاعلين ما أقول لكم فهو خيرٌ لكم، بمعنى أنَّه يجزم بعدمِ فعلِهم ما يقولُ لهم أو باستحالتِه من قِبَلِهم؛ لعلمِه بقبيح

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/414، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/67، والزمخشري، الكشاف: 2/585، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/369، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/143، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/228.

سريرتِهم وعشقِهم للشّذوذ عن الفطرة، أو بأنَّه يشكُّ في رغبتِهم بالزواجِ من بناتِه، والمعنى: إن كنتم فاعلين قضاء الشّهوةِ فاقضوها مِنَ الحلال وهذا التّقدير أولى؛ لما يدلُّ عليه لفظ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ من الفعل وهو قضاء الوطر[1].

بلاغة الكناية في قولِه ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾:

الـــزّواج سبيل تقويمٍ لاعوجاج الشّاردين

إن كان التّقدير: ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ قضاء الشهوة كما تقدَّم، كان التّعبير بلفظ ﴿فَٰعِلِينَ﴾ كنايةً عن طلب الجماع[2].

بلاغة التّعريض بقولِه: ﴿فَٰعِلِينَ﴾:

أفاد التّعبير بلفظ فاعلين التَّعريضَ بأنَّهم كانوا قد عزموا عزمًا ماضيًا على فعل المنكر بإضمار المستنكر، لتحقيقِ مرادهم[3].

دلالة تركيب كان ومعموليها في السّياق:

إشـــارة إلى أهميّة الثّبات عـلى الـنّـصح والإرشــاد، وإن طــال الـرّفـض والعناد

أفاد تركيب كان مع معموليها في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ أنَّ شكَّ لوطٍ عليه السلام في قبول قومِه لنصحِه ورغبتِهم في الزّواج مستمرٌّ، ولكنّه لم يدعْ دعوتَهم ونصحَهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/75، والشّهاب، عناية القاضي: 5/202، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/188.
(2) المجاشعي، النكت في القرآن الكريم، ص: 279.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/7.

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ٧٢﴾ [الحجر: 72]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لا رأي لمن لا يطاع، والعَمَهُ في سكرة الهوى، ليس له دواء

لمّا ذكرَ ما ذكر من أمورِ قومِ لوطٍ عليه السلام وعظيمِ فجورهم، وهم قد فُرِغَ من أمرِهم وقُضيَ باستئصالِهم، كان كلُّ مَن يعلمُ ذلك قاضيًا بأنَّهم لا عقولَ لهم، فأتبع سبحانه ذلك ما يدلُّ عليه فجاءت هذه الآية[1].

وأيضًا لمّا كان الظّاهر من أفعالِ قومِ لوطٍ أنَّهم لا يُقلعون عن أفعالِهم القبيحة جاءت جملة ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ مُعْتَرِضَةً بَيْنَ أَجْزاءِ القِصَّةِ؛ لِلْعِبْرَةِ في عَدَمِ جَدْوَى المَوْعِظَةِ فيمَنْ يَكونُ في سَكْرَةِ هَواهُ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَعَمْرُكَ﴾: أصلُ (عمر): يَدُلُّ على بَقاءٍ وامتِدادِ زَمانٍ، فالعُمُرُ وهو الحَياةُ، وهو العَمرُ أيضًا، فإذا أقسموا فقالوا: لَعَمرُك فتَحوا لا غَيْرُ، والجَمعُ أعْمار؛ وسُمّي الرَّجُلُ عَمرًا تَفاؤُلًا أن يَبْقَى[3]، والعَرَبُ تَقولُ في القسَم: لَعَمري ولَعَمرُك، يَرْفَعونَهُ بالِابْتِداءِ ويُضْمِرونَ الخَبَرَ كأنَّه قالَ: لَعَمرُك قَسَمي أو يَميني أو ما أَحْلِفُ به، وقيلَ: العَمرُ هاهُنا الدّينُ؛ وأيًّا كانَ فإنَّه لا يُسْتَعْمَلُ في القسَم إلّا مَفْتوحًا، يُقالُ: لَعَمرُكَ، يَحْلِفُ بِعَمرِه، أي: حَياتِه[4]، وما أقسَم اللّٰه تَعالَى بحياة أحدٍ إلّا بحياة النَّبي ﷺ[5]، والمقصود بـ﴿لَعَمْرُكَ﴾ في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عمر).
(5) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (عمر).

الآية: قَسَمٌ بحياةِ المُخاطَبِ به، والمُخاطَبُ بها مُحمَّدٌ ﷺ مِنْ قِبَلِ اللّه تعالى[1].

2) ﴿سَكْرَتِهِمْ﴾: أصلُ (سكر) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى حَيْرَةٍ. مِنْ ذلكَ: السُّكْرُ مِنَ الشَّرابِ. يُقالُ رَجُلٌ سِكِّيرٌ، أيْ: كَثيرُ السُّكْرِ[2]، والسَّكْرَةُ: ذَهابُ العَقْلِ، مُشْتَقَّةٌ مِنَ السَّكْرِ - بِفَتْحِ السِّينِ - وهو السَّدُّ والغَلْقُ[3]، والسَّكَرُ - بِفَتْحَتَيْنِ -: الشَّرابُ المُسْكِرُ، والتَّسْكيرُ: التَّحْييرُ، والسِّكْرُ: اسْمُ السِّدادِ الَّذي يُجْعَلُ سَدًّا لِلشِّقِّ ونَحْوِهِ، والماءُ إذا سُكِرَ تَحَيَّرَ[4]، والمرادُ مِنَ السَّكْرَةِ في الآيةِ: ذهابُ العَقْلِ.

3) ﴿يَعْمَهُونَ﴾: أصلُ (عمه): أَصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على حَيْرَةٍ وقِلَّةِ اهتداءٍ، قالَ الخَليلُ: عَمِهَ الرَّجُلُ يَعْمَهُ عَمَهًا، وذَلِكَ إذا تَرَدَّدَ لا يَدْري أيْنَ يَتَوَجَّهُ، والجَمعُ عَمِهون وعُمَّهٌ، والعَمَهُ في البَصيرَةِ كالعَمَى في البصَرِ[5]، وقيلَ: العَمَهُ التَّرَدُّدُ في الضَّلالَةِ، والتَّحَيُّرُ في مُنازِعَةٍ أو طَريقٍ؛ قالَ ثَعْلَبٌ: هو أن لا ألّا يَعْرِف الحُجَّةَ[6]، والعَمَهُ في الرأْيِ، والعَمَى في البصَرِ، ويَكونُ العَمى عَمى القَلْبِ، يُقالُ: رَجُلٌ عَمِ إذا كانَ لا يُبْصِر بِقَلْبِهِ، وأرض عَمهاءُ: لا أعلامَ بها، وذَهَبَتْ إبلُهُ العُمَّهَى إذا لم يدرِ أينَ ذهبتْ، والعُمَّيْهَى مثله[7]، والمقصود بالعَمَهِ في الآيةِ: انطِماسُ البَصيرَةِ وتَحَيُّرُ الرَّأْيِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أجمع أهل التَّفسير في قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ أنَّه قسَمٌ مِنَ اللّه

سكرة الفواحش، تجرّ إلى كلّ فاحش، ولا ينفع معها نصح ولا تقريع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سكر).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.
(4) ابن عباد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (سكر).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (عمه).
(7) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عمه).

ﷻ بمدَّة حياة محمَّد ﷺ تشريفًا له، فقال سبحانه: أُقسِمُ بحَياتِك يا محمَّدُ ﷺ إنَّ قومَكَ لَفي ضَلالتِهم وجَهالتهم وغَفلتِهم يترددون ولا يهتدونَ.

ويُحتمل أن يرجع ذلكَ إلى قوم لوط، أنَّهم كانوا في سكرتهم يعمهون، بسببِ سَكرةِ الهَوى والعِشقِ، وأنَّ الملائكة قالت له: ﴿لَعَمْرُكَ﴾[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدةُ الجملةِ الاعتراضيَّة، في سياق الآية:

استحكام داء الفاحشة العضال، سبيل للزّيغ والفساد والضّلالِ

قوله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، إن كان الكلامُ خطابًا منَ اللّه تعالى لسيدنا رسول اللّه محمَّدٍ ﷺ - وهو الذي عليه جمهور المفسّرين، ونُقل إجماعهم عليه[2] - وكان الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائدًا إلى المكذِّبين من قريش بدلالة المخاطبة كانت الجملةُ اعتراضيَّةً، وأفادت تنبيه المكذِّبين من قريشٍ إلى أنَّ حالَهم كحال قوم لوطٍ في غوايتهم وعدم تمييزهم الصّواب منَ الخطأ ممّا هو بيِّن عندَ عقلِ أيِّ إنسانٍ، وإلى أنَّهم قد كذّبوا مثل تكذيب قوم لوطٍ لكنَّهم لم يعاقبوا بعدُ، فليترقّبوا العذاب إن استمرّوا في ضلالِهم وغيِّهم، ومثله في كون الجملة اعتراضية إن عاد الضّمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ على قوم لوطٍ، ليُفيدَ الاعتراضُ النَّعيَ عليهم، وتماديَهم في ارتكاب تلك الفاحشة؛ لأنَّ في عرضِ نبيِّ اللّه لوطٍ ﵇ بناتِه على القوم، دليلًا على بلوغِ الغايةِ في الأمر، وأنَّه بلغ السَّيلُ الزُّبى، وجاوز الحزامُ الطُّبيَين، كأنَّه قيل: يا محمَّد ﷺ، بحياتك أقسم، إنَّهم لفي سكرتهم يعمهون، وإن كان الكلامُ خطابًا من الملائكة للوطٍ ﵇

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433، والزّحيلي، التفسير المنير: 14/57.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/632، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/39، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.

فالجملة ليست اعتراضًا، ويجب أن يُقدَّرَ: قالت الملائكة: لَعَمرُكَ؛ لتفيدَ بيان سبب الحكم عليهم بالاستئصالِ ووقوع أنواعِ العذاب، فلأنَّهم في سكرتِهم يعمهون فلا ينتفعون بتذكير ولا نصح أخذتهم الرّجفة وجعل اللّه عاليَ المدينة سافلَها كما أفادت الجملةُ تأكيد ما كان يستبعده[1].

بلاغةُ صيغةِ جملةِ القسمِ ﴿لَعَمْرُكَ﴾:

تكريم رسول اللّه ﷺ، وإعلام الأمّة بنعمة وجوده وبعثته

في القسم بعمر رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ أعظم تفضيل له وتكريم، وهذه الآية آية عظيمة في تفضيل رسول اللّه، فلم يقسم اللّه تعالى بعمرٍ غير عمرِ سيدنا محمَّدٍ ﷺ، ولا أقسم بغيره منَ النّاس، وفي القسم بحياتِه ﷺ إيذانٌ بظهورِ رفعته على سائر الخلقِ، وتخصيص له في شرفه ومحبَّته وتفضيلٌ له على سائر البريَّة، فإنَّ اللّه تعالى ما اقسم بخلقٍ من خلقه على جهة المخاطبة سواه ﷺ، وأجلُّ ما أقسم به من خلقه نبيُّنا ﷺ، فعَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رضي الله عنهما، قالَ "ما خَلَقَ اللّه، ﷻ، ولا ذَرَأَ ولا بَرَأَ نَفْسًا أَكْرَمَ عَلَيْهِ مِنْ مُحَمَّدٍ، ﷺ، وما سَمِعْتُ اللّه أَقْسَمَ بِحَياةِ أَحَدٍ إلا بِحَياتِهِ"[2] ووجه القسم بعمر رسول اللّه ﷺ هو أنَّ العمر هو أوقاتٌ لحياةٍ مخصوصة؛ ليفيد القسم بالعمر تشريف أوقاتِ حياته، ولمّا كانت حياة أي إنسانٍ لازمةً لذاته كان القسم بعمره ﷺ قسمًا بذاته وما لازمه فيها من صفاتٍ شريفةٍ منذ أوّل نَفَسٍ له ﷺ في هذه الدنيا إلى آخر نفسٍ له فيها، فلا عمرَ أفضلُ من عمرِ وحياةِ رسول اللّه ﷺ، فكانَ أهلًا أن يقسم به؛ لمزيته على كلِّ عمرٍ من أعمار بني آدم، ولا ريب أنَّ عمره وحياته من أعظم النِّعم والآياتِ على البشرِ جميعًا، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات[3].

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير، ص: 9، و210، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/218، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/49.

(3) ابن العلاء أحكام القرآن: 2/61، وابن القيم، التبيان في أيمان القرآن، ص: 429.

وجه اختصاص ﴿لَعَمۡرُكَ﴾ دون (عُمُرِك) بالقسم:

كثرة استعمال الألفاظ ودورانها في اللّسان، سبيل إلى تخفيفها

خصَّ الاستعمال العربيّ القسمَ بالمفتوحِ العين دون المضموم؛ لإيثار الأخفِّ في القسمِ، وذلك لأنَّ الحلف كثير الدّور على ألسنتهم، فلمّا كثر استعمالُهم إيّاه، لزموا الأخفَّ عليهم[1].

نكتةُ حذفِ المسند ﴿لَعَمۡرُكَ﴾:

صحّة الحذف لدليل يدلُّ عليه، من فصيح البيان

حذف المسند وهو الخبر، لأنَّ خبر القسم محذوف دائمًا للإيجاز؛ لعلم المخاطب بأنَّه قسمٌ، ففي الكلام دليل على المحذوف؛ لأنَّ التقدير لعمرك قسمي، فالعَمرُ مقسمٌ به[2].

غرضُ التّوكيدِ ﴿إِنَّهُمۡ﴾، في جملةِ جوابِ القسم:

المبالغ في التّكذيب لا يفيده تذكير ولا تحذير

قوله تعالى: ﴿لَعَمۡرُكَ إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، وفيه أنّه لمّا كان القسم بعمر رسول الله ﷺ عظيمًا بل هو أعظمُ قسم أقسم الله به بمخلوقٍ دلَّ على تعظيم جواب القسم، ولهذا أكّده بـ(إنَّ) واللّام وتقديم متعلَّق الفعل ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ على الفعل ﴿يَعۡمَهُونَ﴾، وأُكِّدَ الكلامُ بثلاثة تأكيداتٍ ليكون على طريق الخبر الإنكاريِّ؛ للإيذانِ بأنَّ المخاطبين قد أشربوا الإنكار في أنّهم في سكرتِهم يعمهون، وأنَّهم كانوا مبالغين في التّكذيب، فلا يفيدهم تذكير ولا تحذير.

دلالة الضّمير في قولِه ﴿إِنَّهُمۡ﴾ في الآية:

المكذّبون بالرّسل شرورهم رائدة، وكفرهم في أصله ملّة واحدة

يحتمل أن يكون الضّمير في ﴿إِنَّهُمۡ﴾ ومثله في ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾ و﴿يَعۡمَهُونَ﴾ عائدًا إلى المكذِّبين من قريشٍ بدلالة الخطابِ كما تقدّم في توجيه الجملة الاعتراضية، فيكون قد أقسم بعمر رسول الله أنَّ المكذِّبين من قريش لفي سكرتِهم يعمهون، ويحتمل أن يكون

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/183، والزمخشريّ، الكشاف: 2/586، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/369.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/244.

عائدًا إلى قوم لوطٍ، بمعنى أنَّ اللّه تعالى أقسم بعمر رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ على أنَّ قومَ لوطٍ لفي سكرتِهم يعمهون(1).

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياق:

الإخبار أنّهم مغمورون في سكرتهم، وبيان حالهم من العمه

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، تقديم الجارّ والمجرور ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ﴾ لأنه الخبر؛ فهو الحُكم عليهم بأنّهم لفي غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيّرون، وجملة ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ حال، وإنَّ وما دخلت عليه جواب القسم.

نكتة التّعبير بلفظ السّكر في السّياق:

السّكر يذهب بالعقل، وإذا جاءت السّكرة، ذهبت الفكرة

عبَّرَ بلفظ السّكر الّذي هو ذهاب العقلِ، ومنه السّكر بالخمرِ، لأنَّ السّكر حالةٌ تعرض بين المرء وعقله، فكأنَّه يسدُّ عقله، ويمنعه منَ التّمييز(2).

بلاغةُ الاستعارة المكنيّة، في سياق الآية الرّضيّة:

المكذّبون بالرّسل، لا يميّزون الحقَّ، ولا يهتدون إليه سبيلا

لمّا قال ﴿لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ أفاد أنَّ السّكرة كالظرفِ لتحيّرهم، فشُبِّه السّكر بالظَّرفِ على طريق الاستعارة المكنيَّة، بمعنى إحاطةِ السّكر بتحيّرهم وتردّدهم، فهم متغلغلون فيه لا يستطيعون فكاكًا عنه، ولا خروجًا منه، فلا يميّزون الحقَّ ولا يهتدون لطريقه.

بلاغةُ الاستعارة التّصريحيّة في لفظ: ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾:

المكذّب بالرّسالة المحمّديّة، لا يميّز خطأ من صواب

شُبِّه ضلالُهم وغوايتُهم؛ لِغَلَبَةِ دَواعي الهَوَى عَلَى دَواعي الرَّشادِ، بِذَهابِ العَقْلِ ومنعِه(3) من التّمييز بين الهدى والضّلالِ على طريق الاستعارة التّصريحيّة، فالسَّكرة مستعارةٌ للضَّلالِ أو الغواية، والعلاقة هي إزالة العقول عن تمييز الخطأ من الصَّوابِ وليس في

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/635، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/210، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/490.
(2) ابن القيم، التّبيان في أيمان القرآن، ص: 430، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: 2/207.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/68.

وقت السّكرِ فقط بل المراد الدّوامَ، والغرضُ من الاستعارةِ المبالغة في إثباتِ ضلالِهم وغوايتِهم بإثباتِ المدعَّى عليهم، ولِتصوير حالتِهم وهم في ضلالهم وغوايتِهم.

سرّ الإضافة في قولِه ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾:

السّكرة عن الحقّ مخصوصة بالمكذّبين الضّالين

لمّا أضاف السّكرة إلى ضمير الجمع (هم)، وكانت الإضافة على معنى اللّام التي لِلاختصاص أفاد أنَّهم هم الذين أوقعوا أنفسهم في هذه السّكرة، فهي منسوبةٌ إليهم جميعًا، كما أفادت الإضافة أنّ هذه السّكرةَ مخصوصةٌ بهم، بسبب أفعالِهم القبيحة.

نكتة إفراد ﴿سَكۡرَتِهِمۡ﴾ دون جمعها في السّياق:

سبب الضّلال واحدٌ، وهو سدّ العقولِ عن الهداية والرَّشاد

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمۡ لَفِي سَكۡرَتِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾، لمّا أفرد السّكرة ولم يقل: (لفي سكراتِهم يعمهون) ليكون من مقابلة الجمع بالجمعِ في ﴿يَعۡمَهُونَ﴾، دلَّ على أنَّ سببَ ضلالِهم ومعصيتهم وفحشهم واحد، وأنَّهم اشتركوا في الأمر نفسِه، وهو سدُّ عقلِهم عن الهدايةِ والرّشاد، وفي إفرادِ السّكرة إشعارٌ بأنَّ أيَّ عقلٍ سليمٍ، لا يقبل فحشَ فعلِهم.

بلاغة المجاز، في لفظ ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

عمه البصيرة وانطماسُها، بمثابة عمى العينين، وانطماس النّظر

لمّا كان العمه في البصيرة بمثابة العمى للعينين؛ ليفيدَ العمهُ معنى انطماس البصيرة، أفاد بلازمِه على سبيل المجاز تحيُّرَهم وتردّدهم في الضّلال بحيث لا يدرون أين يتوجَّهون ولا يعرفون حسنًا من قبحٍ ولا حقًّا من باطلٍ، لعمهِ بصيرتِهم، ولمّا كان عمه البصيرة وصفًا ثابتًا أفادَ التّعبير به استمرارَهم في غوايتِهم وتماديهم، فلا ينفعُهم نصحٌ ولا تذكيرٌ ليتركوا قبيحَ أفعالِهم، فليس لهم إلّا العذاب(1).

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 1/48، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/189.

دلالة صيغة الفعل المضارع ﴿يَعۡمَهُونَ﴾:

التّعبير بصيغة المضارع، باستمرار ضلالِهم اللّامتناهي

أفاد التّعبير بصيغة المضارع استمرارَ عمهِهم بمعنى تجدّد حدوثِه، أي يمضون في ضلالِهم ويستمرّون عليه ولا يتوقّفونَ فيه ولا يرجعونَ منه، وليس في وقتِ السّكرِ فقطْ، كما أنَّ في مجيء الفعل بصيغة المضارع بناءً على المأثور في الخطاب في حكاية الحال الماضية لاستحضارِ حالة العمه في المشاهدة، والتّعجُّبِ لها[1].

بلاغة مجيء المسند جملةً فعليَّةً:

من سدَّ عقلَه عن الهداية، انطمس عليه في الغواية

لمّا كان جملة ﴿يَعۡمَهُونَ﴾ خبرًا لـ(إنَّ) أفادت الجملة الفعلية تقوّي الحكم بمعنى تحقيق عمههم في سكرتِهم، دونَ تخصيصِه بهم، وأنَّه لا يكونُ مِنْ مثلِهم ممَّن هم في الغوايةِ والضّلالِ إلّا أن يكونوا في سكرتِهم يعمهون[2].

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 12/635، والطيبي، حاشية على الكشاف: 9/54، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.

(2) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 221.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ ٧٣﴾ [الحجر: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

الأمـرُ الإلـهـيُّ بـقـطـعِ دابـرِ الـشـاذّيـن عن الفطرة، بعذاب مـسـتـأصـل مباغت

لمّا بيّنت الرّسل للوطٍ ﵇ حالَ قومِه، وامتثل لأمر ربّه فسرى بأهلِه ليلًا فنجَوا، ولمّا قضى اللّه تعالى بقطعِ دابرِ قومِه ترتّب على الأمرِ نزول العذاب فجاء قولُه تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: أصلُ (صيح): تَشقيقُ الصَّوتِ، مِنْ قَولِهِم: انْصاحَ الخشبُ، أو الثَّوبُ، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، وصيحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ، كذلك[2]، والصّياحُ صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إذا اشْتَدَّ[3]، والصَّيْحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صيحَ في آلِ فُلانٍ إذا هَلَكوا، والصَّيحةُ أيضًا: الغارةُ إذا فوجِئَ الحيُّ بها[4]، ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تفزع عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾، والصّائِحَةُ: صَيْحَةُ المناحة[5]، والمراد بالصَّيْحَةِ في الآية: صَعقةٌ في الهواءِ، وهي صَواعِقُ وزَلازِلُ، وفيها حِجارَةٌ مِنْ سِجّيلٍ[6].

2) ﴿مُشۡرِقِينَ﴾: أصلُ (شرق): أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى إضاءَةٍ وفَتْحٍ. مِنْ ذلكَ شَرَقَتِ الشَّمسُ، إذا طَلَعَتْ، وأَشْرَقَتْ، إذا أضاءَتْ، والشُّروقُ: طُلوعُها[7]، وأشرَقَ القومُ: صاروا في وقت شُروقِ الشَّمس[8]،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/76، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/67.
(2) الراغب، المفردات: (صيح).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(5) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (شرق).

والـمَشْرِقُ والمغربُ إذا قيلا بالإفراد فإشارة إلى ناحيتي الشَّرْقِ والغَرب، وإذا قيلا بلفظ التّثنية فإشارة إلى مطلعي ومغربي الشّتاء والصَّيف، وإذا قيلا بلفظ الجمع فاعتبار بمطلع كلّ يوم ومغربه، أو بمطلع كلّ فصل ومغربه، قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء: 28]، ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧﴾ [الرحمن: 17]، ﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: 40]، وقوله تعالى: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦﴾ [مريم: 16]، أي: من ناحية الشّرق، والـمِشْرَقَةُ: المكان الَّذي يظهر للشّرق[1]، والمقصود بـ﴿مُشْرِقِينَ﴾ في الآية: اسمُ فاعِلٍ مِنْ أشرَقوا؛ إذا دخلوا في وقتِ شُروقِ الشَّمسِ[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

إهلاك قوم لوط ما بين طلوع الفجر إلى شروق الشَّمس، بصورةٍ مفاجئة ساحقة

ذَكَر سبحانه عاقبة أمرهم فقال: فأَخَذَتْهم صيحةٌ عَظيمةٌ هائِلَةٌ مُهلِكةٌ، وقتَ شُروقِ الشَّمسِ[3]، وسبب اختيار هذا الوقت كونهم متجمعين في مساكنهم، ويجمع بين قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ۝٦٦﴾ [الحجر: 66] وبين قوله هنا ﴿مُشْرِقِينَ﴾ بأنّ ابتداءَ عذابهم كان عند الصُّبح، وانتهاءَه كان عند الإشراق.

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾:

العقوبة الشّديدة، أفضل وسيلة لقطع حيلة المفسدين

أفادت الفاء التّرتب والتّعقيب، بمعنى أنَّ اللّه تعالى لمّا قضى عليهم بقطعِ دابرهم ترتّب عليه وقوع العذاب بأخذهم بالصّيحة وما تلاها، كما أفادت الفاء أنَّ اللّه تعالى عاجلَهم بالعقوبةِ بعد أن قضى بقطعِ دابرِهم.

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (شرق).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/69.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/93، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/42.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾:

لَمّا كان الأخذُ هو حوزَ الشَّيءِ وتحصيلَه على سبيل التّمكّن منه أفاد لفظ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ معنى إحاطة الصيحة بهم وتمكّنها منهم أي قهرها إيّاهم[1].

العذاب بالصّيحة، إحاطة وقهر واستئصال

بلاغةُ الكنايةِ، في أخذ الصّيحة لهم:

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، وفيه لمّا كان قولُه ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ دالًّا بظاهرِه على تمكّن القهرِ والهلاكِ منهم أفادَ بلازمِه على طريقِ الكناية بلفظ ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ سرعةَ هلاكِهم وتمكّنه منهم، فيكون المرادُ من التّعبير الملزومَ ولازمَه.

التّعبير بالأخذ عن سرعةِ الهلاكِ، من بليغ السّياق

دلالة (ال) في لفظ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

(أل) في الصيحة جنسيَّة، لتفيد أنّ الصيحة التي أخذتهم فيها كلُّ معاني الصّيحة من القوّة ونفاذ الوصول، فكأنَّ ما سواها ليس بصيحة، والمعنى أخذتهم صيحة هائلةٌ مهلكةٌ، وذهب بعضهم إلى أنَّ (ال) عهدية، والمراد صيحة جبريل، وعلى القول الأول جمهور المفسّرين، فتعيين جبريل ليس مستفادًا من النّظم الجليلِ ولا يتعلَّق به غرضٌ[2].

العذاب بالصّيحة، عذاب مهول، يستأصل من الجذور

دلالة لفظ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ في السّياق:

المرادُ منَ الصّيحة الصَّوتُ العظيمُ الهائلُ، الذي يكون منه العذاب، ويكون بفعلِ اللّه تعالى، أو هي صاعقة العذاب، وهي بفعل اللّه كذلك[3].

الصّيحة هي الصّوت العظيم الهائل أو هي صاعقة العذاب

بلاغة المجاز في قولِه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

أسند الأخذ الذي بمعنى القهر إلى الصّيحة على طريق المجاز

(1) الراغب، المفردات، (أخذ)، والآلوسي، روح المعاني: 7/317.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/189.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/119، والواحدي، التفسير البسيط: 12/636، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.

هلاكُ المنحرفين كان بالصّيحة العظيمة، السّاحقة الماحقة

العقليّ، تعظيمًا لأمر الصّيحة وهولِها، ليفيد التّعبير بلازمِه أنَّ هلاكَهم كانَ بالصّيحة[1].

بلاغةُ الإخبار بالحالِ ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ دون الظَّرف:

من انحرف عن الفطرة السّويّة، سلّط الله عليه أشدَّ أنواعِ العذاب

لمّا كان الحال قيدًا لعامله، وكان على معنى بيان هيئة صاحبِه، ولمّا كان لفظ ﴿مُشۡرِقِينَ﴾ بمعنى داخلين في الشروق، وفي وقتِ إضاءَةِ النّهار، دلَّ التّعبير بالحال هنا على اقترانِ أخذِ الصيحة لهم في حالِ كونِهم داخلين في وقتِ بزوغ الشّمس وإضاءتها، فأفاد الحالُ استصحابَ مشاهدتهم لِهيئتِهم في حالِ أخذ الصّيحة لهم؛ لبيانِ شدَّة الموقفِ وهولِه لِمَن ينحرف عن الفطرة الإنسانيَّة ويكذّب الرّسلَ، ويكون العذاب عليهم بهذه الهيئة أشدَّ ممّا أن يكون في ظلامِ الليل.

توجيه المتشابه اللّفظيّ في مواضع من السّورة:

الإشراق بمعنى الإصباح، موحٍ بالمباغتة، من حيث لم يحتسبوا

قد يقال: قال اللّه تعالى أوّلًا: ﴿وَقَضَيۡنَآ إِلَيۡهِ ذَٰلِكَ ٱلۡأَمۡرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقۡطُوعٞ مُّصۡبِحِينَ ٦٦﴾ [الحجر: 66] فكان قطع دابرهم مصبحين، وقال بعد ذلك: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾، فكيف يجمعُ بين قطع الدّابر في وقت دخولِهم في الصّباح وفي وقتِ دخولِهم في الإشراق؟ والجوابُ من وجهَيْن: أحدهما: أن ابْتِداء العَذاب كانَ من وقت دخولِهم في الصَّباحِ، وتَمامه عِنْد دخولِهم في الإشْراق، أي: إنّهم أهلكوا بعد الفجر مصبحين واستوفاهم الهلاك مشرقين، والثاني: أنَّ الإشراقَ ها هنا بمعنى الإصباح، وهو المناسب لسرعة الأخذ، كما تقدَّم، فإنّ هلاكَهم ليس له زمانٌ ممتدٌّ، وذكر الإشراق هنا دونَ الإصباح للإيذانِ بأنَّهم كانوا يرون وقوع العذاب عليهم؛ لأنَّه كانَ عندَ دخولِهم في وقتِ انتشار ضوء الشّمس، فيكون أشدَّ وأبلغَ[2].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/435.

(2) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/146، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ۝٧٤﴾

[الحجر: 74]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تنوّع العذاب على قومِ لوطٍ المنحرفين، لشدّة غضب الله عليهم

ثمَّ بيَّن الله تعالى ما تسبَّبَ عن أخذِ قومِ لوطٍ بالصّيحةِ، فجاءت هذه الآية لبيانِ شدّة غضبِ الله عليهم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِجِّيلٍ﴾: أصلُ (سجل): يَدُلُّ على انْصِبابِ شَيءٍ بعد امتِلائِه، مِنْ ذلك السَّجْلِ، وهو الدَّلْوُ العَظيمَةُ. يُقالُ سَجَلْتُ الماءَ فانْسَجَلَ، وذلكَ إذا صَبَبْتَهُ، ومنه: سَجَله بالشَّيء: رَماهُ به مِنْ فوْقٍ[2]، والسِّجّيلُ: الصُّلْبُ الشَّديدُ، وهو أيضًا: حَجَرٌ وطينٌ مُختلِطٌ[3]، والسِّجّيلُ أيضًا: وادي نارٍ في جَهَنَّمَ، يُقالُ: سِجّيلٌ بِاللّام، وسَجّينٌ بِالنّونِ[4]، وقيل: إنَّ الكلمة مُعرَّبة عن (سنك كيل) الفارسيَّة، لكنَّها واضحة العُروبة بصيغتها وبانسجامها مع معنى التَّركيب، وقد سَلَّم الأزهريُّ وغيره بتعريب الكلمة، وجَوَّز الزَّجّاج رجوع الكلمة إلى السَّجْل: الصَّبّ، كأنَّها مُرسَلَةً عليهم[5]، والمقصود بالسِّجّيلِ في الآية: طينٌ مُتحَجِّرٌ مِنْ وادٍ في جَهَنَّم.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الضّلال والهوى نهايته الشُّؤم والبلاء، في أقسى عقوبة، وأشدّ عذاب

بيَّن الله تعالى صفة العذاب المدمر الذي أُحيط بقوم لوط نتيجة كفرهم وسوء سلوكهم، فالآية جيء بها لبيان آثار هذه الصَّيحة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/76.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سجل).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/134.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سجل).

وأنَّها قلبت القرية، فجعلت أعلاها أسفلها، أي أنَّها أتت على بنيانها، فجعلته أرضًا، ثمَّ تبع ذلك مطر من حجارة موسومة، معدَّة ومحمَّلة بالمهلكات[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في قولِه: ﴿فَجَعَلْنَا﴾:

الصّيحة كانت سببًا في قلب المدينة رأسًا على عقب

أفادت الفاء ترتّب جعلِ عاليها سافلَها على أخذهم بالصّيحة[2]، ففيه إشعارٌ بعظم هولِ الصّيحة، التي كانت سببًا في انقلاب المدينة بجعلِ عاليها سافلَها.

سرُّ اختيار لفظ ﴿فَجَعَلْنَا﴾ دون (قلبنا):

عذاب المنحرفين عن الفطرة لا مثيل له في الشّدّة والهولِ

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، وفيه عُبِّرَ بلفظ الجعل دون القلب؛ لِما في الجعل من معنى تحويل الشّيءِ من حالةٍ وهيئةٍ إلى حالةٍ أخرى مغايرةٍ للحالة الأولى، بحيث يكون لها صورةٌ وهيئةٌ جديدةٌ، كما أنَّ التّعبير بالجعل يدلُّ على أنَّ جعلَ عاليها سافلها هو جعلٌ عظيمٌ وعجيبٌ، أي: إنَّ العذابَ ليس له مثال سابقٌ في شدّة الهلاكِ وهولِ العذاب برفعِ المدينةِ ثمَّ انقلابِها دفعةً واحدةً وضربِها على الأرضِ[3].

نكتةُ إسناد الفعل إلى ضمير العظمة، في السّياق:

الأمرُ الّذي يتولّاه العظيم، لا يكون إلّا عظيمًا

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، كان حقُّ التّعبير أن يقال: فجعلوا عاليَها سافلَها، أي: الملائكة المأمورون بالإهلاك، فلمّا أسند الجعل إلى ذاتِه تعالى بضمير العظمة (نا)، من حيث إنَّه المسبِّب له؛ لأنَّه تعالى هو الآمر به، أفاد الإسنادُ إلى ضمير العظمة تعظيمَ الجعل المذكور؛ لأنَّ الأمر الذي يتولّاه العظيم لا يكون إلّا عظيمًا،

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/253.
(2) القونجي، مقاصد القرآن: 7/187.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/161.

فكان إسناد الفعل إلى الضَّمير في النّظم الشّريف أوفى بالمبالغة في الكلامِ وأوفق بمقتضى الحال وأنسب بالمقام[1].

بلاغة التّعبير بجعل العالي سافلًا، لا العكس:

المقصود بالعذاب، ما على وجهِ المدينة وليس ما في سافلِها

لمّا كان ﴿عَٰلِيَهَا﴾ مفعولًا أوّلًا للفعل ﴿فَجَعَلۡنَا﴾، و﴿سَافِلَهَا﴾ مفعولًا ثانيًا، وكان أصلُهما مبتدأ وخبرًا، أفاد الكلام أنَّ المقصودَ هو جعلُ أعالي المدينة، أي: وجهها وما عليها ممّا فيه مَقارُّهم ومساكنُهم سافلَها، والمعنى: قلبناها على تلك الهيئةِ، لتهويل الأمرِ وتفظيعِ الخطبِ على القوم الهالكين، وهو أشدُّ عليهم وأشقُّ من جعل سافِلها عاليَها؛ لأنَّ المقصود بالعذاب هو ما على وجهِ المدينة وليس ما في سافلِها، وإن كان جعل عالي المدينة سافلَها مستلزِمًا لجعل سافلِها عاليَها[2].

بديع الطّباق في قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾:

عذاب الله تعالى على قومِ لوطٍ كان معجزة خارقة

جاء الكلام بطريق الطّباق لبيانِ صورة الإعجازِ، بخرق العادةِ بانقلاب المدينة عن طريق تصوّر طرفي الطّباق معكوسين، فيكون الإعجاز بخرق العادات في أمرين أحدهما: بقلعِ الأَرْضِ وإصعادِها إِلَى قَرِيبٍ مِنَ السَّماءِ، والثّاني: بضَربِها مِنْ ذَلِكَ البُعْدِ البَعيدِ عَلَى الأَرْضِ بِحَيْثُ لَم تَتَحَرَّكْ سائِرُ القُرَى المُحيطَةِ بها أَلْبَتَّةَ، ولَم تَصِلِ الآفَةُ إِلَى لوطٍ عليه السلام وأَهْلِهِ مَعَ قُرْبِ مَكانِهِم مِنْ ذَلِكَ المَوْضِعِ، وهِي مُعْجِزَةٌ قاهِرَةٌ[3].

تعيين مرجع الضَّمير في لفظي: ﴿عَٰلِيَهَا﴾ و﴿سَافِلَهَا﴾:

بلاغة التّعبير بعود الضّمير على المدينة الفاجرة

يعود الضّمير على المدينة المذكورة في السياق في قولِه تعالى: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٦٧﴾ [الحجر: 67]، ليفيد انقلابُ المدينةِ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل، والشّهاب، عناية القاضي: 5/209، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 10/160.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/230.

(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/383.

بلازمِه انقلابَها بأهلِها جميعًا، ولو قال (فجعلنا عاليهم سافلَهم) لم يدلَّ على هلاكِهم، ولم يُفهم منه رفع المدينة إلى أعلى، ثم قلبُها بمن فيها وسقوطُها على الأرضِ، بضربِها بها، ليدلَّ على العذاب.

براعةُ الإيجازِ بذكر الملزوم فقط:

براعة تصوير انقلاب المدينة بأهلها، في عبارات مختصرة مؤثّرة

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾، لمّا كان جعل عالي المدينة سافلَها يلزمه جعلُ سافلها عاليَها ليفد أنَّهم قد طمروا تحت المدينة، كان الكلامُ على الإيجاز بذكر الملزوم والاكتفاء به.

دلالة الواو في قولِه ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

مضاعفة العذاب على الشّاذّين، حيث يتخلّل العذاب عذاب آخر

الواو هنا حاليَّة، لتكميل الصّورة وتوضيحها، لتفيد أنَّ إمطار الحجارة كان في حالِ جعلِ عاليها سافلها، أي: كان الإمطار في تضاعيف ذلك قبل تمام الانقلابِ[1]، والآيَةَ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعالَى جمع عليهم ثلاثةَ أَنْواعٍ مِنَ العَذابِ؛ أَحَدُها: الصَّيْحَةُ الهائِلَةُ المُنْكَرَةُ، وثانيها: أَنَّهُ جَعَلَ عاليَها سافِلَها، وثالِثُها: أَنَّهُ أمطَرَ عَلَيْهِم حِجارَةً مِنْ سِجّيلٍ[2].

دلالة الضّمير في شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

إنّ الله ليملي للظّالم، حتّى إذا أخذه لم يفلته

يعود الضّمير على القوم المجرمين الذين ذكرهم اللّه تعالى في قولِه ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ﴾ [الحجر: 58][3]، ليفيد استغراقَ القوم جميعًا بالعذاب، فلم ينفلت منهم أحدٌ، إشعارًا بشدَّة غضب اللّه عليهم جميعًا.

بلاغة الاستعارة في قوله ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾:

المنحرفون بالشّذوذ، غير مأسوفٍ عليهم، فهم حثالة الأنام

لما شبه إنزال الحجارة منَ الطين بالمطر النازل منَ السماء أفاد أنَّ الحجارة كانت متتابعةً من فوقٍ في غايةِ العلوِّ مثل تتابع المطر

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.
(3) أبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156.

النازل من علوٍّ؛ لتكون استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، ولمّا كان المطر ينزل فيما ينتفع منه النّاس عبَّرَ بـ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ ليفيد أنَّ الحجارة النّازلة عليهم من فوقٍ بمثابة العطيَّة تهكّمًا بهم؛ ليكون الكلام على طريق الاستعارة التَّهكميَّة، للإشعار باستحقاقِهم العذاب وأنَّهم غير مأسوفٍ عليهم، مثل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]، فالاستعارة هنا تصريحيَّة تبعيَّة تهكّميّة[1].

نكتة التّعبير بقوله ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ دون (مطرنا):

ذهب بعض اللغويين والمفسرين إلى أنّ الفعل (أمطَرَ) يُستعمل في مواضعِ العذاب، وأمّا (مطرَ) فيُستعمل في مواضعِ الرحمة، ولهذا قال اللّه تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ ولم يقل (مطرنا)، وهذا بالنّظر إلى الاستعمال لا إلى أصلِ المعنى، فلا يُنافي أنَّ التّعبير بـ﴿وَأَمۡطَرۡنَا﴾ يفيد الاستعارة التّهكّميَّة كما تقدَّمَ[2].

يستعمل اللّفظ في المعنى وضدّه، بزيادة حرف على الصّيغة الأصليّة

نكتةُ استعمال حرف الاستعلاء (عَلَى):

أفاد التّعبير بحرف الاستعلاء (عَلَى) تمكّن إنزال الحجارة عليهم، وإحاطتِها بهم.

عذاب الله محيط؛ لا يغني فيه الحذر من القدر

دلالةُ تقديمِ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على ﴿حِجَارَةً﴾:

قُدِّمَ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على المفعول به ﴿حِجَارَةً﴾؛ لإفادة التّخصيص، بمعنى تخصيص إنزال الحجارة بهم؛ ليفيدَ عدمَ إصابةِ لوطٍ وأهلِه الذين خرجوا ليلًا منَ المدينة، ولمّا كان التأكيدُ لازمًا للتّخصيص أفاد التّقديم تأكيدَ إنزالِ الحجارة؛ كما أفاد التّقديم الاهتمامَ بأنْ تصيبَ الحجارةُ القومَ الهالكين جميعًا.

إفادة التّخصيص والتّأكيدِ، بمعنى أنّ العذاب حلّ بهم، دون سواهم

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاء في سورة الحجر قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن

(1) الشّهاب، عناية القاضي: 5/210.

(2) الراغب، المفردات، (مطر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 9/81، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/97.

تنوُّعُ العبارة بتنوُّعِ السّياق، من أفصح البيان

﴿سِجِّيلٖ﴾، وفي سورة هود قوله تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ﴾ [هود: 82]، فجعل الإمطار ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في سورة الحجر، وجعله على المدينةِ في سورة هود فقال تعالى: ﴿عَلَيۡهَا﴾ [هود: 82]، والسّببُ أنَّه لمّا كان الزجر في سورة الحجرِ أعظمَ على المدينة منَ الزجر في سورة هود عليه السلام، لطلبهم أن يأتي بجميع الملائكة، أعاد الضَّمير على المعذبين لا على مدنِهم؛ لأنَّ هذا أصرحُ في استئصالِهم، فقال في سورة الحجرِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾، أي: القومِ المجرمين الذين قلبت المدائن لأجلهم[1]، وأيضًا لمّا لم يرد في سورة هود ذكر المدينة ولا القرى التي سكنها قوم لوط: وعاد الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: 82] على غير مذكور ممّا عُلم منَ السّياق، أي: جعلنا عاليَ المدينة سافلَها، ناسبه أن يقول: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: 82] لتقوية دلالة الضَّمير في العود على المدينة دون غيرِها، وأمّا ما في سورة الحجر فقد تقدَّم ذكر المدينة فعاد الضّمير في: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ على مذكور في اللفظ، فناسبه أن يقول: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾؛ ليكون العذاب مجموعًا على الأرضِ وأهلِها جميعًا؛ بأن يكون إمطار الحجارة في تضاعيف انقلاب المدينة وليس بعدَه.

نكتةُ إسنادِ فعل الإمطارِ لضمير العظمة:

من قوانين الكون الرّاسية أنّ فعل العظيمِ لا يكون إلّا عظيمًا

لمّا تقدَّم أنَّ إسناد فعل الجعل لضمير العظمة (نا) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ أفاد تعظيم الجعل المذكور ناسبَه في قوله ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ أن يسند فعل الإمطار إلى ذاته سبحانه وتعالى لأنَّه هو الآمر، وأفادَ الإسنادُ إلى ضمير العظمة تعظيمَ شأنِ الإمطار بحجارةٍ من سجيل، فإنَّ فعلَ العظيمِ لا يكون إلّا

(1) البقاعيّ، نظم الدرر: 11/77.

عظيمًا، وليوافق المقامَ في بيانِ شدَّةِ غضب اللّه، وهولِ عذابِهِ الّذي نزل عليهم.

فائدةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حِجَارَةً﴾ في السّياق:

حجارة العذاب الّتي نزلت عذابًا ليست كـأيٍّ من الحجارة

لمّا جاءت النّكرة في سياق العذاب أفاد التّنكيرُ تفخيم الحجارة التي نزلت منَ السّماء؛ لتعظيم شأنِ العذاب الذي نزل عليهم، والمعنى أمطرنا عليهم حجارةً ليست كأيِّ حجارةٍ.

معنى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾:

تقييد المنعوت لبيان نوعِه، من البيان المفصح عن المراد

﴿مِّن﴾ هنا بيانيَّة، أي لإفادة بيانِ جنسِ الحجارة، فإنَّه لمّا كان لفظ الحجارة منكَّرًا وكان على معنى التّفخيم كما تقدَّم بيَّن نوعَ الحجارةِ التي نزلت عليهم على طريقِ الإطناب بمجيء الجارِّ والمجرور ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ نعتًا للحجارةِ على سبيل التّقييد للمنعوت؛ لتصوير حالةِ العذاب وهولِه وبيانِ شدَّتِه، فهي حجارةٌ من سجّيل وليس من جنسٍ آخر.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿سِجِّيلٍ﴾، في البيان الجليل:

عذاب المنحرفين بضربِهم بحجارة من سجّيل، من أبشع العذاب

لما كان السجيل هو الشَّيءُ المركّب منَ الحجرِ والطّين بحيث يكون في غاية القوّةِ والصَّلابة، عبّر به هنا لبيانِ قوّة الحجارة وصلابتها؛ للإشعار بشدَّة العذاب وهولِه، والمعنى: وأمطرنا عليهم حجارة من طين بحيث يكون ضربًا شديدًا عليهم، والعرب إذا وصفت المكروه بسِجيلٍ كأنَّها تعني به الشدَّةَ ولا يوصف بهِ غير المكروه منَ العذاب[1].

(1) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 5/364، والماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 10/619، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/383.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥﴾ [الحجر: 75]

تنوّع آياتِ الله للتّعريف بعظمتِه وقدرتِه سبحانه وتعالى

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا ذكرَ أنواعَ العذابِ الذي وقعَ على قومِ لوطٍ، وما تقدَّمه من ذكرِ ضيفِ إبراهيم، وقصَّة لوطٍ، أفادَ أنَّ الإخبارَ عن ما عمّا تقدَّم بأنواعِه هو آياتٌ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، وجاءت الجملة تذييلًا للقصَّة لما فيها منَ العبرة لعمومِ المخاطبين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾: أصلُ (وسم): يَدُلُّ على أثَرٍ ومَعْلَم، ووَسَمتُ الشَّيءَ وسْمًا: أثَّرتُ فيه بِسِمَةٍ[1]، والسِّيما ياؤُها في الأَصلِ واوٌ، وهيَ العَلامَةُ يُعرَفُ بها الخيرُ والشَّرُّ[2]، والوَسْميُّ: أوَّلُ المطَرِ؛ لأنَّهُ يَسِمُ الأرضَ بالنَّباتِ، وسُمّيَ مَوسِمُ الحاجِّ مَوْسِمًا لأنَّهُ مَعْلَمٌ يَجتمِعُ إليه النّاسُ، والتَّوسُّم يقرب مِن الفَراسة، هو الَّذي سمّاهُ القوم: الزَّكانة، وقومٌ: الفِطنة، وقومٌ: الفراسة[3]، والمُتَوَسِّمُ: المُتَحَلّي بِسِمَةِ الشُّيوخِ، وهو مَوْسومٌ بِالخَيْرِ والشَّرِّ[4]، والمُتَوَسِّمونَ: أصحابُ التَّوسُّم، وهو التَّأمُّلُ في السِّمَةِ، أي: العلامَةِ الدّالَّةِ على المَعْلَم، والمُرادُ بـ ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾ في الآية: المُتأمِّلون في الأسبابِ وعَواقِبها، أولئكَ هُمُ المُؤمِنونَ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

مَن تجرَّأ على السَّيِّئات، عوقب بأشنع العقوبات

إنَّ في قصَّةِ قومِ لوطٍ وما فعلَه اللّه ﷻ بهم منَ العذابِ، وبقاءِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وسم).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (وسم).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفّاظ: (وسم).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (وسم).

آثارِ هَلاكِهم، لَعلاماتٍ للمُتفَرِّسينَ المتأمِّلين المتفَكِّرينَ، الذين لهم فِكرٌ وفِراسةٌ يفهمونَ بها ما أُريدَ بذلك، فيَعتَبِرونَ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فصلِ الجملة عن سابقتها:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، جاءت الآية على طريق الفصل، لأنَّها استئنافٌ بيانيٌّ؛ فإنَّه بعدَ أنَّ قصّ الآياتِ كان كأنَّه قيلَ: هل في هذه الآياتِ العظيمة عظة للنّاظرين المعتبرين؟ فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، أو لأنَّها جملةٌ تذييليَّةٌ لتأكيد مفهوم الكلام السابقِ، فإنَّ في ما حُكي من قصَّة ضيف إبراهيم، وقصَّة لوطٍ مع الملائكة، ونجاته وأهله إلّا امرأته منَ العذاب، وإهلاكِ قومِه المجرمين آياتٍ وعظاتٍ لكلِّ المتفرّسين النّاظرين في حقائق الآياتِ.

آيات الله عظةٌ للنّاظرين، وعبرة للمعتبرين

فائدة تتابع التّأكيدِ في نصّ الآية المفيد:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، لَمّا كانت هذه الآياتُ لجميعِ المخاطبين منَ المتّعظين وغيرِهم، ولَمّا لم يعتبر بها المكذّبون بعدَ مرورِهم بها ورؤيتِهم لها أقامَهم مقامَ غيرِ المتوسّمين المتّعظين، وقرَّر أنَّ الانتفاع منها يكون للمتوسّمين المعتبرين، ففي الآيةِ حثٌّ على الاعتبار بقصص الأقوام السابقين التي يخبر اللّٰه عنها، والغرضُ الأسمى من حكاية قصص الأقوام السابقين في القرآن هو الانتفاع منها والاعتبار بها، لتكونَ آياتٍ للمتوسّمين.

الاعتبار هو الغرضُ الأسمى من حكاية قصص السّابقين في القرآن

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ في السّياق المذكور:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، قُدِّمَ المسندُ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على المسند إليه للاهتمام والعناية به، ولا يفيد التّقديمُ هنا الاختصاص.

تقديم عناصر الجملة وتأخيرها، من البيان الفصيح

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/543، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 433.

براعة إدخال حرف الجرّ ﴿فِي﴾ على اسم الإشارة:

الاعتبار يكون بالنّظر إلى بواطنِ الأمور، وليس إلى ظواهرِها فحسب

أفاد حرف الجرّ ﴿فِي﴾ الذي يفيد الظّرفيَّة أنَّ المتوسّمين ينظرون في باطنِ الآياتِ؛ للإشعار بأنَّ الاعتبار بها ليس بالنّظر إلى ظواهرِها، فكأنَّ ما ذكر منَ الأخبار ظرفٌ قد جمعَ الآياتِ للمتوسّمين وأحاطَ بها، فلا يدركُها إلّا النّاظرون فيها.

نكتةُ استعمال اسم الإشارة للبعيد دون القريب:

رفعة شأنِ المعتبرين بآياتِ الله، لخشيتهم منه غالبًا

عُبِّرَ باسم الإشارة الذي للبعيد؛ للإشعار بأنَّ هذه الآيات لا يعتبر بها إلّا المتوسّمون؛ لبعدِ مكانتِها عنِ الاعتبار من جميعِ المخاطبين؛ ليفيد بُعدَ مكانةِ المتوسّمين في الآيات ورفعةَ شأنِهم.

نكتةُ جمعِ الآيات دون إفرادِها:

المتدبّرون يرون الآياتِ بحقائِقِها، لا بأشكالِها فقط

جمع الآيات للإشارة إلى كثرتِها وتنوّعها بما قصَّ اللّه من حديث ضيف إبراهيم ومجيئهم لوطًا وتعرُّضِ قومِه لهم طمعًا فيهم، وما كان من أمرهم آخِرًا من إنجاء المؤمنين وإهلاك الكافرين وقلب المدينة على مَنْ فيها، ففي كلِّ واحدةٍ منها آية، وفي جميعها آياتٌ لمن يتوسَّم ويعتبرُ[1]، وفيه إشعارٌ بأنَّ المتفرّسين يرون الآياتِ ويتأمّلونها بتفصيلاتِها وحقائِقِها لا بظواهرِها.

فائدة تنكير لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ في السّياق:

الحثُّ على الاعتبار بآياتِ الله الكثيرة، من مسالك الإيمان

أفاد تنكير لفظ ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾، في سياق الامتنانِ تعظيمَ الآياتِ المذكورةِ وتفخيمَها، للحثِّ على الاعتبار بها والانتفاع من خبرِها.

معنى اللّامِ في قولِه: ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾:

اختصاص المتوسّمين بالاعتبار، من سبل المبالغة في الادّكار

أفادت اللّام معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّ الآياتِ المذكورة مختصَّةٌ بالمتوسّمين لا تتجاوزهم إلى غيرِهم على سبيل المبالغة.

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 2/819.

فائدة (أل) في قوله ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾:

التّوسُّم في آيات الله، صفة مدحٍ وثناءٍ من الله

تفيد (أل) الاستغراق، بمعنى: إنَّ في ذكر ما تقدَّم منَ الأخبار آياتٍ لِجميع أفراد المتوسّمين، ويحتمل أن تكون بمعنى (الذي)، بمعنى: الذين يتوسّمون، لتعظيم شأنِ المتوسّمين ومدحِهم.

نكتة التّعبير بلفظ ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾:

في إهلاكِ العاصين، وإنجاء الصّالحين، تنبيهٌ لأمّة الإسلام في اللّاحقين

حقيقة المتوسِّم في اللغة: هو الّذي يعلمُ باطنَ الشّيءِ بسِمَةِ ظاهرِه[1]، فالمتوسّمون هم المتفرّسون بالنّظر المتثَبِّتون فيه حتى يعرفوا حقيقة الشّيءِ بسمتِه[2]، فعبَّرَ بالمتوسّمين؛ لأنَّهم الذين ينظرون في وسم المعنى فيستدلّون به على المعنى، فينظرون فيه نظر المتثبِّت، فلمّا أبقت معصية قوم لوطٍ منَ العذاب والإهلاك وسْمًا، كان مَن رأى الوسم استدلَّ به على معصيتِهم، واقتاده النَّظر إلى أن يسأل عن سببِ هلاكِهم ليتجنَّبَ المعاصي لئلّا ينزل به ما نزل بهم، فينزجر عن صنيعه ويتعظ به، لأنَّه يعلمُ أن الذي أهلك قومَ لوط قادرٌ على إهلاك الكفّار المكذّبين، ففي التّعبير بلفظ المتوسّمين تذكيرٌ بأنَّ في إهلاكِ الأمم الماضية وإنجاء المؤمنين منهم إيقاظًا وانتباهًا ووعدًا ووعيدًا وتأديبًا لهذه الامَّةِ، والمعنى فاعتبروا بأحوالهم واجتنبوا أفعالهم، فهذه ديار الظالمين ومصارعهم[3].

بلاغةُ التَّعريضِ في لفظ ﴿لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾:

مـن لـم يتّعظ بالأمم السّابقة، فليس من أهل الاعتبار

في ذكر المتوسّمين تَعْريضٌ بِالَّذينَ لَم تَرْدَعْهُمُ العِبَرُ بأنَّهُم دونَ مَرْتَبَةِ النَّظَرِ، ففي الكلام تَعْريضٌ بِالْمُشْركينَ وبكلِّ مَن لم ينتفعْ من قَصص الأقوام السابقين، الَّذينَ لَم يَتَّعِظوا بأنْ يَحِلَّ بِهِم ما حَلَّ بِالأُمَمِ من قَبْلِهِمُ الَّتي عَرَفوا أَخْبارَها ورَأَوا آثارَها، أي: إنَّهم ليسوا

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/55.

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 12/639.

(3) الزجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/456، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/370، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215، والبروسوي، روح البيان: 4/481.

من أهل النّظر والاعتبار، وإنَّهم إنّما ينظرون في ظواهر الأمور دونَ حقائِقِها وبواطنِها[1].

بلاغة التَّذييل في نهاية الآية الكريمة:

الجملة تفيد عمومَ المعنى، وكونها بمثابة المثل في حكايتِها

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، لمّا جاءت الجملة على معنى العمومِ بما تقدّم من تفخيمِ الآيات واقترانِ (أل) التي للاستغراق في المتوسمين، ومجيءِ الآية بطريق الفصل لتأكيدِ مفهومِ الكلامِ كانت الجملة تذييلًا للكلام[2] لتفيد معنى الحكم الكلّيِّ، فتخرج مخرجَ المثل في حكايتِه وفشوِّ استعمالِه واستقلالِه والاستدلالِ به.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/69.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ [الحجر: 76]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لما حثَّ على الاتّعاظ بما حلَّ في قوم لوطٍ بيَّن أنَّ آثارَهم مشاهدةٌ لمن أتى بعدهم فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾.

من حكمة الله أن جعل آثار الأقوام المعذّبين، راسيَة على الدّوام

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَبِسَبِيلٍ﴾: أَصْلُ (سبل): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على إرسالِ شَيءٍ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وعلى امتِدادِ شَيءٍ، فالأوَّلُ مِنْ قيلِكَ: أَسْبَلْتُ السِّتْرَ، وأَسْبَلَتِ السَّحابَةُ ماءَها وبمائِها، والمُمتَدُّ طولًا: السَّبيلُ وما وضَحَ مِنْهُ، وهوَ الطَّريقُ؛ سُمّيَ بذَلِكَ لامتِدادِهِ[1]. يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، والتَّأنيثُ أَغْلَبُ، وسَبيلُ اللهِ: طَريقُ الهُدى الذي دَعا إليهِ، وجمعُه: سُبُلٌ[2]، والمقصود بالسَّبيل في الآية: الطَّريق.

2) ﴿مُّقِيمٍ﴾: أَصلُ (قوم): يدلُّ على انْتِصابٍ أَوْ عَزْمٍ. يُقالُ: قامَ، يَقومُ، قَوْمًا وقيامًا، أي: وقَفَ وانْتَصَبَ، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ، إذا انْتَصَبَ[3]، والإقامَةُ: الثَّباتُ والاِسْتِقْرارُ، يُقالُ: أقامَ بِالمَكانِ، أي: ثَبَتَ واسْتَقَرَّ فيه، وتُطْلَقُ بِمعنى الدَّوام على الشَّيءِ، كقولِهم: أقامَ الشَّيءَ بِمعنى أدامَهُ، مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [البقرة: 3][4]، والمُقامُ والمُقامَةُ: المَوضِعُ الَّذي تُقيم فيه، والمُقامَة، بِالضَّمِّ: الإقامة، والمَقامَة، بِالفَتْحِ: المَجْلِسُ والجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، والمُقيمُ: الشَّخْصُ المُسْتَقِرُّ في مكانِه غيرَ مُرْتَحِلٍ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبيل).

(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (سبل).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (قوم).

وهو في الآية مُستعارٌ لآثارِ المَدينَةِ الباقيَةِ في المكانِ بتشبيهِه بالشَّخْصِ المُقيم(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّذكير والاعتبار بعاقبة الظّالمين الفجّار

يخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ مدينةَ قَوم لوطٍ في طريقٍ باقٍ واضحٍ ثابتٍ يَسلُكُه النّاسُ، فيَرى كُلُّ مَن يمُرُّ بها آثارَ تَدميرِها، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٣٨﴾ [الصافات: 137 - 138](2).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبةُ عطفِ آية ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ﴾ على السّابقة:

الانتفاع بآيات الله، ممكن لمن أرادَه وارتضاه

لمّا كانت الجهة الجامعة بين هذه الآية وسابقتِها هو الاعتبار بالآياتِ والانتفاع منها؛ ليزدجر الكافرون وليتذكّر المؤمنون، وكان من ضمن الآيات ما حدث لمدينة القوم المجرمين، جاءت الآية بطريق العطف بالواو، ليفيدَ العطفُ الترقّي في بيانِ قرب الانتفاع بالآيات، أي: إنَّ الاعتبار بها ممكنٌ بل في غاية السّهولةِ؛ لأنَّ آثارَها بسبيل ثابتٍ دائِم يسلكه النّاس، فهي على طريق قريش إذا سافروا إلى الشّام، فيرونها إذا مرّوا بها(3).

سبب مجيء التَّوكيدِ، في السّياق المجيد:

بيانُ ردِّ الغافلين عـن غفلتِهـم، وتنبيهُهم إلى ما هو أزكى لهم

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٖ مُّقِيمٍ﴾، لمّا لم ينتفعِ المكذّبون من قريشٍ، ومَن جاء بعدَهم بهذه الآياتِ، وتمادوا في تكذيبِهم وإعراضِهم مع علمِهم بالمدينةِ المهلكةِ، ومرورِهم بها في طريقِهم أقيموا مقامَ المكذّب والحاكم بإنكار وجودِها، فجاءت الجملة مؤكَّدةً

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 433، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/288.

(3) ابن الجوزيّ، زاد المسير: 2/540.

بتأكيدين (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، ليردَّهم عن تماديهم في غفلتِهم وإعراضِهم عن الاعتبار والاتّعاظ بعذاب القومِ السابقين.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير في ﴿وَإِنَّهَا﴾:

يعود الضَّمير على مدينة قوم لوطٍ المهلكة، التي سبق ذكرها في قوله: ﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ﴾[1]، فيعود الضمير على المدينة بما اتّصفت به، والتّقدير وإنَّ المدينةَ التي جعلنا عاليَها سافلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيل لبسبيل مقيمٍ[2]، فأفاد التّعبير بالضّمير الإيجاز في الكلامِ.

التّعبير بالضّمير، للإيجاز في المعنى الكثير

معنى الباءِ في قولِه تعالى: ﴿لَبِسَبِيلٍ﴾:

لمّا كانت الباء هنا على الملابسة، أفادت أنَّ المدينة المهلكة ملتبسةٌ بالسّبيل ملتصقةٌ به غيرَ مفارقةٍ له، للإشعار بأنَّ مَن يمرُّ بالطريق يراها بوضوح.

آثار عذاب قوم لوط، ظاهرة للعيان لمن يمرُّ بسبيلها

نكتةُ اختيارِ مفردةِ (سَبيْلٍ):

عبَّرَ بالسبيل دون الطّريق؛ لأنَّ السّبيل هو الطّريق الواضح البَيِّن الّذي لا يخفى للمارَّة؛ لأنَّه يكون في موضعِ مجيئِهم وذهابِهم، ففيه امتدادٌ، ومنه السّابِلَةُ، وهي المُخْتَلِفَةُ في السُّبُلِ جائيَةً وذاهِبَةً[3]، فيكون التّعبيرُ بالسّبيلِ أوفقَ بالمقام للإيذانِ بوضوحِها، وأنَّهم يرونَها في مجيئِهم وذهابِهم.

الطّريق الواضح البَيِّن الّذي لا يخفى عنِ المارِّ به، هو السّبيل

دلالةُ اختيارِ مفردةِ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

لمّا وصفَ السبيل بالمقيم دلَّ على أنَّ السّبيل ثابتٌ دائمٌ، فلمّا كان ثابتًا أشعرَ بأنَّ مرورَ النّاسِ به دائمٌ غير منقطعٍ؛ للإشعار بأنّ رؤية المدينة أمرٌ مستمرٌّ، وأنَّه سهلٌ يسيرٌ.

مرور النّاس بمدينة قوم لوطٍ، دائم غير منقطع

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/936، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/156، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/215.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/212.

(3) الزّجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (سبل).

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿مُّقِيمٍ﴾:

إثبات المدّعى على وجوب الاعتبار بمآلهم، بالدّليل العقليّ

شبَّه السّبيل الذي به آثار المدينة المهلكةِ الباقية بالشّخص الذي أقامَ في موضعٍ إقامَةً بحيث اتَّخَذَهُ وطَنًا له، فهوَ مُقيمٌ دائمٌ، ليكون الكلام على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة[1]، وبلاغة الاستعارة لإثباتِ المدّعى على سهولةِ رؤيةِ المدينةِ وآثارِها، ويلزمه وجوبُ الاعتبار بعذاب المكذبين المنحرفين، فينتفع بالرّؤية المؤمنون، ويعمى عنها الكافرون.

بلاغة الكناية في جملة ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾:

الحثّ على استمرار الاعتبار والاتّعاظ، بما حلَّ بالقومِ المنحرفين

لمّا كان الإخبار عن المدينة المهلكة أنَّها بطريق واضح بيّن دائم يسلكه النّاسُ، دلَّ بلازمِه على أنَّ النّاس يرون المدينة المهلكة أو أنه في إمكانِهم، ولمّا كان المارَّة يرون المدينة وآثارَها قصد به الانتقال إلى لازمِه، وهو تنبيه النّاس إلى وجوبِ الاعتبار بالمدينة المهلكة بما بقي من آثارِها[2]، والمعنى فاتَّعظوا بآثارها إذا مررتم بديارِهم؛ لأنَّها في طريقكم[3]، فيكون الكلام على طريق الكناية البعيدة لتتابع اللّوازم، وأشعرَ التّعبير بلفظ ﴿مُّقِيمٍ﴾ الحثَّ على استمرار الاعتبار والاتّعاظ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70.

(2) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/196.

(3) بروسوي، روح البيان: 4/480.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ٧٧﴾ [الحجر: 77]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حثُّ المؤمنين على الاعتبار بهلاك المنحرفين، والتّحذير من جرائمهم

لمّا أشار اللّه تعالى إلى الاستدلال بالتوسُّم الدالِّ على أنَّ للمدينةِ نبأً هو في غاية الغرابة، وأتبع ذلك سهولة الوصول إليها حثًّا على إتيانها؛ بقصد نظرها والاعتبار بها، والسؤال عن سبب كونها كذلك، قال تعالى مشيرًا إلى زيادة الحثِّ بالتأكيد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾(1).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الإشعار بأنَّ آيةً واحدةً، تكفي المؤمنين، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم

يقول الحقُّ ﷻ: إنَّ في إهلاكِنا قَومَ لوطٍ، وإنجائِنا لوطًا وأهلَه المؤمنينَ، لعلامةً ودَلالةً واضِحةً للمُؤمِنينَ على انتقامِ اللّهِ مِنَ الكافرينَ، وإنجائِهم من بيْنِ أيديهم سالِمينَ آمِنينَ(2).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّذييلِ في السّياقِ الجليل:

جريان الجملة مجرى المثل، من بيانها المفصح

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، لمّا جاءت الجملة على معنى العموم وجاءت تاكيدًا لمفهوم قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، لأنَّ كون آثار المدينة المهلكة باقيةً يقتضي الاتّعاظ بها والازدجار عن التّكذيب والمعاصي، فلما جاءت على معنى العموم والكلّية خرجت مخرج المثل في حكايتِها واستقلالِها والتّمثيل بها، ويدخل فيها حكاية ما حلَّ بقوم لوطٍ دخولًا أوّليًّا.

المؤمنون يعتبرون بالآيات، والكافرون يرونها تاريخًا وآثارًا

سبب مجيء التّوكيد، في سياق الآية الرّشيد:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، جاءت الجملة متضمّنة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/78.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/99، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544.

ثلاثَة توكيدات: ﴿إِنَّ﴾ واللّام الموطّئة للقسمِ وتقديم المسند على المسندِ إليه؛ لتقريرِ اختصاصِ المؤمنين بالاعتبار بالآيةِ والانتفاع منها، فكأنَّه لا ينتفع منها إلّا المؤمنون، لأنَّ غيرَهم ينظرُ إليها على أنَّها مجرَّدُ تأريخٍ قديمٍ.

فائدة ﴿فِى﴾ في قوله ﴿فِى ذَٰلِكَ﴾:

الظّرفية للتّنبيه إلى تعميق النّظر، في آياتِ الله الملأى بالعبر

لمّا كان حرف الجر ﴿فِى﴾ للظّرفية المكانيّة أفاد هنا أنَّ المشار إليه ظرفٌ للآيةِ قد احتواها؛ للتّنبيه إلى أنَّ الاعتبار بالآية يكون للمؤمنين، لأنَّه يحتاج إلى تفحّصٍ ونظرٍ في داخلِ المشار إليه على معنى الاعتبار والاتّعاظ، فمَن ينظر في ظاهر المشار إليه لا ينتفع، ولن يكون نظره سبيلًا إلى الهداية والإيمانِ.

دلالة اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾:

اعتبار المؤمنين بآيات الله رفعةٌ لهم

عبّرَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ للإشارة إلى عظيمِ ما ذكرَ من أمرِ المدينةِ وما فيها من آثارِ الخَسفِ والإمطارِ بالحجارَةِ المُحماةِ وكونِها بمرأىً من النّاس يشاهدونَها في ذهابِهم وإيّابِهم[1]، وعبّرَ باسم الإشارة الّذي للبعيد للإشعار بهول ما حدث للمدينةِ، وأنَّها تستحقُّ النّظر فيها، كما أنَّ في اسم الإشارة إشارةً إلى رفعةِ مكانةِ المعتبرين المتّعظين، وهم المؤمنون الذين ذكرهم في الآية.

نكتة تقديم الخبر على المبتدأ:

آيــة الــلــه في تأديب العصاة، جديرة بالنّظر لها، والاعتبار بها

قولِه تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفيه جُعل المسند جارًا ومجرورًا، فاستحقّ التّقديم على المسند إليه النّكرة ﴿لَءَايَةً﴾؛ للعناية والاهتمام بالمشارِ إليه، وأنَّه جديرٌ بالنّظر والاعتبار به، وليس في التّقديم تخصيص.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/86.

دلالة مجيء الصّفة في قولِه: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

لمّا كان قوله ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ صفةً لـ﴿لَأٓيَةٗ﴾، وكانت الصفة على معنى التّقييد دلَّ على أنَّ ما ذكر ليس آيةً لكلِّ أحدٍ، بل إنّما ينتفع منها المؤمنون، وأنّه سببٌ للإيمانِ باللّه ورسولِه، فإنَّه إذا أُخبرَ الكفّارُ أن سبب كون المدينةِ هكذا أنّ اللّه أمر بعض جنده فرفعها، ثمّ قلبها، ثم أتبعها الحجارة ثم خسف بها وغمرها بهذا الماء - الذي هو في القذارة وعدم الثمرة مناسب لأفعال أهلها - لأجل عصيانهم رسوله ﷺ، آمنوا حذرًا من مثل هذا العذاب إيمانًا بالغيب[1].

الاعتبار بآيات اللّه سببٌ للإيمانِ بالله ورسولِه وآياته

نكتة التّقييد بالصّفة في قولِه: ﴿لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

لمّا تقيّد الموصوف بوصف المؤمنين دون غيرهم، أفاد أنّ كُلّ من آمن باللّهِ وصدّق الأنبياء والرُّسُل، عرف أنّ ذلِك إنّما كان لأجلِ أنّ اللّه تعالى انتقم لأنبيائِهِ من أولئك المنحرفين الضّالّين، أمّا الذين لا يُؤمِنون باللّهِ، فإنّهُم يحمِلونهُ على حوادِثِ العالمِ ووقائِعِهِ[2].

المؤمنون يرون العذاب انتقامًا من الظّالمين، لا وقائع تاريخيَّة صمّاء

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

جاءت الآياتُ بلفظ الجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ﴾، وذكرت بلفظِ المفرد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، والسّرُّ فيه أنَّه جمع أولًا باعتبار تعدُّد ما قصَّ من حديث ضيف إبراهيم، ومجيء الملائكة لوطًا وتعرُّض قوم لوطٍ لهم، وإنكاره على قومِه، وما كان مِن إنجاء لوطٍ وأهلِه إلّا امرأتَه وما كانَ من إهلاك قومِه المجرمين، وقلب المدينة على مَن فيها، وإمطار الحجارة عليهم، وأيضًا من جهة غمرها بالماء بعد خسفها، ومن جهة كونه مخالفًا لمياه الأرض بالنتن والخباثة، وعدم عيش الحيوان فيه، وعدم

المتوسّم من المؤمنين أكثر تفرّسًا، وأعمق نظرًا من عوامِّهم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/156.

النفع به، ومن جهة فظاعة منظره[1]، فكلُّ آيةٍ منها تحتاجُ إلى توسّم ونظرٍ واعتبارٍ، وأفردَ في آيةِ المؤمنين باعتبار وحدة الضّمير في الآية التي قبلها ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ فالضمير في ﴿وَإِنَّهَا﴾ مفردٌ، أي: إنَّ المدينة المقلوبة لبسبيلٍ ثابتٍ، فكأنها بمرأى العيون لبقاء آثارها، وهذه واحدة من تلك الآيات، فلذلك جاء عقيبه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وليس لآياتٍ للمؤمنين[2]، أو يقال إنَّه جمع في آيات المتوسّمين لأنَّ التّوسُّم من الوسم وهو العلامة، ففي كلِّ آيةٍ ممّا ذكرَ علامةٌ تحتاج إلى نظرٍ وتفرّس، وأفردَ آية المؤمنين بالنَّظر إلى جهة وحدة تلك الآياتِ وهي الدلالةُ على الحقِّ والإيمانِ باللّه وبرسولِه[3].

وأيضًا من أسبابِ تخصيص اعتبار جمعِ الآياتِ بالمتوسّمين وإفرادِ الآية بالمؤمنين هو أنَّه لمّا ذكرَ جُمَلًا ومقدِّماتٍ من عجائب الآيات التي يجول فيها اعتبار المعتبر ويتَّسع له النَّظر، ويتوسَّم منها المتفرِّسُ مخائلَ الهلاكِ ومقدِّماتِ التَّلفِ لأولئك الأشرارِ، قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ أي: المعتبرين النّاظرين الذين يتفرّسون في كلِّ آيةٍ ويتفحّصونَها ويدرسونَها، والمتوسِّم يبحث في تفصيلاتِ الأمور ودقائِقها فيرى المجموعِ بتفصيلاتِه، ولمّا بيّن أنَّ المدينةَ باقيةٌ بآثارِها دلَّ على أنَّها عبرةٌ وعظةٌ لمن يمرُّ بها أو يسمع عنها، والعبرةُ إنَّما ينتفع منها المؤمنون، وتعليق الحكم على المشتقِّ يفيد أنَّ إيمانَهم هو الذي يدفعهم للاعتبار بهذه الآية، وفيه إشعارٌ بأنَّ الإنسانَ تكفيه آية واحدةٌ للإيمان، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ سبب التّخصيص هو "أنَّ المتوسمين المتفكرين بين أيديهم الآيات الكثيرة يدرسونها، فكانت الآيات بالجمع موضع الدراسة والفحص، أما بالنسبة للمؤمنين فالأمر فيها هو العبرة، وهي أمر واحد مأخوذ من مجموع الآيات المتضافرة التي هي موضع الدراسة، ومع تعددها العبرة واحدة"[4].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العَمَه والحيرة:

التحيّر: هو التبلّد في الأمر والتردّد فيه، وأمّا العمه: فيكون في القلب، ويوصف به

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/77.

(2) الإسكافي، درة التنزيل: 2/820، وأبو القاسم الكرماني، أسرار التكرار، ص: 156، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/292.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/190.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4102.

الرأي، وهو بمنزلة العمى في العينين، وينشأ منَ العمه التّردُّدُ والتحيّر بحيث لا يَهْتَدي العامهُ لطريقه ومذهبِه، فالعمه أشدُّ منَ الحيرة، وهو أخصُّ منها، إذ يلزم منَ العمه الحيرة ولا يلزم منَ الحيرة العمه، ولهذا علَّق اللّه تعالى عَمَهَهُم بالسّكرة، ولم يقل (في حيرتِهم يعمهون)[1].

العـمـه يكـون في القلب، وهو أشدُّ منَ الحيرة

التّوسّم والتّأمّل:

التّوسّم: منَ الوسم: وهو الأثر والعلامة، والتّوسّم: هو التفرُّس في الشّيء بدقّة لعلامةٍ فيه، ويدلُّ التفرّس على الفطانةِ والتثبّت في نظر المتفرّس حَتَّى يَعْرِفَ سِمَةَ الشَّيْءِ وصِفَتَهُ وعَلامَتَهُ مع إصابةٍ في النّظر، فيتبصّر الحقيقة ويعتبر بها، وأمّا التأملّ: فهو النظر في الشّيء على سبيل التثبّت فيه، فهو من تركيز النظر على الشيء المتأمّل فيه وإطالة النظر فيه، وفيه معنى الانتظار، فالمتوسّم هو المتفرّس في الشّيء لعلامةٍ دالَّةٍ على معنى، وفيه تبصّر واعتبار وإصابة النّظر فيه، والمتأمّل: هو الذي يطيل النّظر في الشّيء، وقد لا يلزم منه اعتبار[2].

الـتّـوسّـم فيه اعتبار، والتّأمل قد لا يكون فيه اعتبار

المقيم والثابت:

المقيم منَ الإقامة على الشّيء، ويُعبّر بالإقامة عن الدوام في الموضِع وعدم الانتقال منه، ففيه معنى طول اللبث، ولهذا يقال لمن يستوطن مكانًا ويدوم فيه على معنى الإقامة فيه هو مقيم، وأمّا الثابت فقد لا يكون فيه طول لبثٍ ولا إقامة على معنى الدّوام.

الـمـقـيـم مـنَ الإقـامـة علـى الـدّوام، ولا يـشترط ذلـك في الثّابت

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حير، عمه).

(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (أمل، فرس).

﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ [الحجر: 78]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تشابه الظّالمين في نوعِ العذاب، عبرةٌ لكلِّ ظالمٍ، والتّاريخ يعيد نفسه

لما ذُكِرَت قصّة لوطٍ، ضُمَّ إليها ما هو على طريقها ممّا عُذِّبَ به القوم بنوعٍ يشبه عذاب قوم لوطٍ في كونه نارًا من السماء، فجاءت هذه الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَيۡكَةِ﴾: أصلُ (أيك): أصلٌ واحِدٌ، وهي اجتماعُ شَجَرٍ[2]، والأَيْكَة: الشَّجَرُ الكَثيرُ المُلْتَفُّ، وقيلَ: هي الغَيْضة تُنْبِتُ السِّدر والأراك ونَحوهُما مِنْ ناعِمِ الشَّجَرِ، وخَصَّ بعضهم بِهِ مَنْبَتَ الأَثْل ومُجتَمعه[3]، وقيلَ: الأَيْكة جَماعَةُ الأراك[4]، والجَمعُ أَيْكٌ، وأَيِكَ الأراك فهو أَيِكٌ واسْتَأْيَك، كِلاهُما: التفَّ وصارَ أيكة[5]، وأُطْلِقَتْ هنا مُرادًا بِها الجِنْسُ إذ قد كانَتْ مَنازِلُهم في غَيْضَةٍ مِنَ الأشجارِ الكثيرَةِ الوَرَق[6]، وأَصحابُ الأَيْكَة: هم قَوْمُ شُعيبٍ عليه السلام وهم مَدْيَنُ، وقيلَ أصحابُ الأَيْكَةِ فريقٌ مِنْ قَوْمِ شُعيبٍ غيرُ أَهْلِ مَدْيَنَ، فأهلُ مَدْيَنَ هم سُكّانُ الحاضِرَةِ وأَصحابُ الأَيْكَةِ هم باديَتُهُم، وكانَ شُعيبٌ رسولًا إليهم جميعًا[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

عقابُ المكذّبين، مَثارُ تفكيرٍ وعظةٍ للمُتفكِّرين

يقول تعالى: وقد كان أصحابُ الغيضةِ - وهي جماعةُ الشَّجرِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أيك).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أيك).
(4) ابن فارس، مقاييس الله، وابن منظور، لسان العرب: (أيك).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (أيك).
(6) الخليل، العين، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.

الملتَفِّ المُجتَمِع - ظالمِينَ بِشِركِهم باللّهِ، وتَكذيبِهم برَسولِه شُعَيب عليه السلام، وقَطْعِهم الطريقَ، وتَطفيفِهم في الكَيلِ، وبَخسِهم الناسَ أشياءَهم[1].

﴿ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل بالواو، في ﴿وَإِن كَانَ﴾ من الآية:

استمرار الظّلم في اللّاحقين، وتوالي الانتقام مِنَ الظّالمين

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾، وفيه عُطفَت الآيةُ على ما سبقها لاشتراك القصّتين في جهة جامعةٍ بينهما؛ فإنَّ أصحاب الأيكة مِثلُ قومِ لوطٍ في التّكذيب وقبح المعاملة مع النّاس، كما تشترك القصّتانِ في نوعِ العذاب، وفي المكان، وفي كونهما على طريق واحدة، فأهل مكّة يشاهدون ديارَهم في طريق تجارتِهم، ففي الوصلِ إشعار باستمرار الظّلم، واستمرار الانتقام منَ الظّالمين[2].

فائدة التّعبير بـ﴿وَإِن﴾ في الآية الكريمة:

تعظيم شأنِ الإخبار عن الظّالمين، للاعتبار بمآلهم وسوء عذابِهم

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ﴾ أفاد التّعبير بـ ﴿وَإِن﴾ المخفّفة منَ الثقيلة أنَّ اسمها ضمير الشأن محذوف، والتّقدير (وإنَّ الشّانَ)، ولمّا كان الخبر مفسّرًا للشأنِ دلَّ على أنَّه ذو شأنٍ عظيم ينبغي سماعه والاهتمامُ به والاعتبار بشأنِه وبمآلِ الظّالمين.

فائدة تأكيدِ الآية بتأكيدين في سياقها المحكم:

إنكار الغواية، لا يدفع العقاب عنِ المنكر الكذّاب

لمّا ورد في الآية التأكيدُ بـ(إنْ) المخفّفة منَ الثقيلة، واللّام الفارقة بَيْنَ (إنَّ) الَّتي أَصْلُها مُشَدَّدَةٌ وبَيْنَ (إنَّ) النّافيَة، فلمّا ورد التأكيدان دلَّ على أنَّه أنزلهم منزلة المنكرين لأجل تماديهم على الغواية والباطلِ مع العلم بالحقِّ، كما أنَّهم لمّا كانوا منكرين أن يكون عذابُهم لأجل التّكذيب تضمّنت الجملة تأكيدين[3].

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/45، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/544.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/79، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/70 - 71.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 11/79.

سرُّ ذكرِ ﴿كَانَ﴾، في سياق الآية:

لايزال الظّالم يظلم، حتَّى يكونَ الظّلمُ طبعًا عنده، وسجيّة فيه

عُبِّرَ بـ﴿كَانَ﴾ للإشعار بأنّهم كانوا مستمرّين على ظلمهم، وأنَّه كان مثلَ الطّبع عندهم، فلم يتركوه مع كثرة التّذكير والتّنبيه إلى ما كانوا عليه من الظّلم، ولهذا لم يقل (وإنَّ أصحاب الأيكة لظالمون).

توجيه التّسمية بأصحابِ الأيكة في الآية:

أصحابُ الأيكة كانوا في نعيم عظيمٍ، فظلموا فاستحقّوا العذاب

لمّا قال ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ دلَّ على اشتهارِهم بالأيكة، والأيك: الشَّجرُ الملتفُّ المخضرُّ الكثيرُ الورق المجتمع في غيضةِ من الماء ليفيد عظمَ الشجر وكبرَ ثمرتِها، فيدلُّ على أنَّهم كانوا أهل موضع كان ذا ماءٍ وشجر دائم[1]، للإشعار بدوامِ النّعيم الذي كانوا فيه، ولكنّهم ظلموا فاستحقّوا العذاب، وذهب الطبريُّ وغيرُه إلى أنَّ سبب ذكر أصحاب الأيكة هو أنَّ رسولهم شُعَيبًا عليه السلام أُرسل إليهم وإلى أهل مدين، فأَهْلُ مَدين هم سُكّانُ الحاضِرَةِ، وأصْحابُ الأيْكَةِ هُم باديَتُهُم، فأُرسل شعيبٌ عليه السلام إلى أمتين منَ النّاس، وعذّبتا بعذابين شتّى، أمّا أهل مدين، فأخذتهم الصيحة، وأمّا أصحاب الأيكة، فكانوا أهل شجر ملتفٍّ كثيفٍ فعذِّبوا بالنّار منَ السّماء[2].

دلالة المجاز في التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾:

التّسمية بأصحاب الأيكة إمّا بطريق النّقل وإمّا بتسمية المحلِّ باسم الحالِّ

لمّا كان المراد من ذكر أصحاب الأيكة هو البلدةَ، كان التّعبير بطريق النقل منَ الموضعِ الذي يكون فيه الشّجر إلى البلدة كلِّها، فيكون من قبيل النقلِ منَ الجزء إلى الكلِّ، ويحتمل أن يكونَ التّعبير بتسمية المحل باسم الحالّ فيه؛ لشهرة القوم بالأيكة، وللتّذكير بالنّعمة التي كانوا عليها، ثم غلب عليه حتى صار ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ عَلَمًا على البلدة مع الإشعار بمأخذِ المجا.

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/371.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/124، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/457.

نكتةُ اختيار لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ في السّياق:

لمّا كان لفظ الأصحاب يدلُّ على مقارنة الشّيء وملازمتِه، أفاد التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾ ملازمة القومِ للأيكة، واشتهارَهم بها حتّى صاروا يُنسبون لها، لأنهم كانوا يرتفقون بها في معاشِهم وحياتِهم، فكانوا في رياضٍ منَ الأرضِ، إشعارًا بالنّعيم الذي كانوا فيه.

صاحبُ الشّيء يدلُّ على ملازمتِه للشّيء واشتهارِه به

معنى الإضافةِ في: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ﴾:

الإضافة هنا على معنى اللّام بمعنى اختصاصِهم بالأيكة التي صاروا يُنسَبون لها؛ لطولِ ملازمتِهم لها، وانتفاعِهم في حياتِهم منها.

الإضافة لاختصاصهم بالأرض الّتي لزموها

سرّ إيثار لفظ (الظُّلم)، دون (الكفر):

عبّر بالظالمين للإشعار بأنَّهم تجاوزا الحدَّ والحقَّ في كفرِهم، وأنَّهم لمّا أنعم اللّه عليهم بالأيكة لم يشكروا نعمَه، وجحدوا بها، ووضعوها في غيرِ مواضعِها المختصَّةِ بها تعدّيًا وبغيًا.

من الظّلم عدم شكرِ النّعمة وجحودها

دلالة الوصف بالمشتقِّ في قوله ﴿لَظَٰلِمِينَ﴾:

أفاد التّعبير بالاسم المشتقِّ الذي قُطِعَ عن متعلَّقه أنَّ الظّلم صار وصفًا لازمًا لهم، وأنَّهم كانوا ظالمين في كفرِهم، ليدلَّ على أنَّهم اتّصفوا بأعظم الظّلم وأقبحِه.

أعظم الظّلم وأقبحه الشّركُ باللّه، وهو في القرآن ظلم عظيم

﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ [الحجر: 79]

لمّا وصفهم بالظّلم ذكر ما ترتّب على ظلمِهم فجاء بهذه الآية للبيان

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾: أصلُ (نقم): يَدُلُّ على إنكارِ شَيءٍ وعَيْبِه[1]، فيُقال: نَقِمتُ عليه، أنْقِمُ: إذا أنكَرْتَ عليه فِعْلَهُ إمّا باللِّسانِ، وإمّا بالعُقوبَةِ، أو عاتَبْتَهُ عليه[2]، ومِن ذلك: النِّقْمَةُ مِن العَذابِ والانْتِقام، كأنَّه أنكَرَ عليه فعاقَبَهُ، والنِّقْمَةُ أيضًا: كَراهَةُ الشَّيءِ كَراهَةً شَديدَةً، يُقال: نَقِمتُ الأمرَ، ونَقِمتُه: إذا بالَغْتَ في كَراهَتِه[3]، والنِّقمة أيضًا: المُكافَأةُ بالعُقوبَةِ، يُقال: اِنْتَقَمَ اللّهُ منه: إذا عاقَبَهُ[4]، والمقصود بالاِنتِقامِ في الآية: العُقوبَةُ لأجلِ ذَنْبٍ[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الظُّلم عاقبته وخيمة، ونهايته إلى خسار، والدّليل ما بقي من آثار

يقول الحقُّ سبحانه: فانتقَمنا مِن أصحابِ الأيكَةِ الظّالِمينَ، فأهلَكْناهم، والانتقام ليس هنا: التَّشفي مِنَ الجاني والأخذ بغير حقٍّ، بل معناها معناه إنزال العقوبة عقوبة مماثلة لما ارتكبه؛ ولأنَّه كان ظلمًا متواليًا، واعتداءً مُستمرًا، فكان العِقاب مماثلًا له، وشفاءً لغيظ مَن جنى عليهم، وإنَّ كُلًّا مِن ديارِ قَومِ لوطٍ وديارِ أصحابِ الأيكةِ لعلى طريقٍ واضِحة تُشاهَدُ فيه آثارُ هَلاكِهم، فيَعتَبِرُ بها مَن يمرُّ عليها[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقم).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (نقم).
(3) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نقم).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/71.
(5) ابن منظور، لسان العرب: (نقم).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/101، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/45، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4103.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء في: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

الظّلم سببٌ للعقاب، وطريقٌ مُفضٍ للعذاب

لمّا كانت الفاء للتّرتيب والتّعقيب أفادت أنَّ اتّصافَهم بصفة الظّلم كان سببًا في الانتقام منهم، وأنَّه تعالى عاجلَهم بالانتقام.

سرُّ اختيارِ لفظ ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ دون (عذّبنا) أو (عاقبنا):

الانتقامُ يكون جزاءً على كفرانِ النَّعمةِ

لمّا كان أصحابُ الأيكة في نعمةٍ عظيمةٍ، وكانوا قد قابلوا نعمة اللّه بالظّلم والتّكذيب، وكان تركيب (انتقم منه) مضمّنًا معنى الإنكارِ على سوء الفعلِ مع اقترانِه بالعقاب، فيقال: انتقم منه إذا عاقبه بجنايته، فأفاد التّعبير بـ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾ بيانَ جزاء ظلمِهم بكفرانِهم نعمة اللّه ومقابلتها بتكذيب رسولِ اللّه شعيبٍ عليه السلام؛ لأنَّ الانتقامَ يكون جزاء على كفران النّعمة، ولم يذكر اللّه تعالى بمَ كان الانتقام، وبأيِّ نوعٍ منَ العقاب، مع أنَّه لا يسمَّى انتقامًا إلّا بالعقاب؛ لأنَّ السورة بُنيت على الإيجاز كما تقدَّم غيرَ مرَّةٍ، ولأنَّه ليس المقصود معرفة نوعِ العقابِ، بل المرادُ الإنكارُ عليهم وعلى أفعالِهم، وبيانُ أنَّ سببَ الانتقامِ هو ظلمُهم وكفرانُهم النّعمَ(1).

بلاغة التّعريض في جملة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾:

تنبيهُ الظّالمين، بأنَّ الله تعالى، ينتقم لأوليائِه من أعدائِه

لمّا جعل اللّه تعالى الانتقام مرتّبًا على الظّلم كان تعريضًا بالظّالمين من قريش على سبيل الوعيد لهم، وتنبيهًا لِكلِّ ظالم بأنَّه تعالى ينتقم لأوليائِه من أعدائِه جزاء ظلمِهم كما انتقم من أولئك، ففيه إشعارٌ بأنَّ من عادة اللّه تعالى الانتقامَ منَ الظّالمين.

نكتةُ التّعبير بضمير العظمة ﴿فَٱنتَقَمۡنَا﴾:

انتقامُ الله تعالى، ليس كأيِّ انتقامٍ، بل هو خسار الدّارين

أفاد التّعبير بضمير العظمة تفخيمَ الانتقام وتعظيمَه، وأنَّه ليس كأيِّ انتقام، فهو انتقام الملك الواحدِ الأحدِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 47، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نقم).

معنى (مِنْ) في قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾:

دلالة (من) على ابتداء الغاية وانتهائها معًا

قوله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ يشير إلى شدَّة الانتقام من هؤلاء، وكأنَّ المعنى فصَببْنا عليهم انتقامنا صبًّا، حتَّى إنَّه ليُخَيَّل إليك أنَّ بداية الانتقام منهم، ونهايته أيضًا تكون منهم، فمعنى (مِن) ابتداء الغاية وانتهاؤها، وقد قال أبو حيان: "وَقَدْ أَثْبَتَ أَصْحابُنا في مَعاني (مِنْ) أنَّها تَكونُ لِابْتِداءِ الغايَةِ وانْتِهائِها في فِعْلٍ واحِدٍ، وأنَّ الشَّيْءَ الواحِدَ يَكونُ مَحَلًّا لَهُما، وتَأَوَّلوا ذَلِكَ عَلَى سِيبَوَيْهِ وقالوا مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُم: أَخَذْتُ الدِّرْهَمَ مِنْ زَيْدٍ، فزَيْدٌ مَحَلٌّ لِابْتِداءِ الأَخْذِ مِنْهُ وانْتِهائِهِ مَعًا"[1].

دلالة الضّمير في قولِه ﴿مِنۡهُمۡ﴾:

إذا وقع انتقام الله من الظّالمين، فلا يفلت منه أحدٌ

يعود الضّمير على أصحاب الأيكة بما اتَّصفوا به، أي: فانتقمنا من أصحابِ الأيكة الظّالمين، ليفيدَ أنَّ الانتقامَ والإهلاكَ استغرقَهم جميعًا.

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾:

انتقام الله متنوّع فمنه انتقام الاستئصال والإهلاكِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، لمّا كانت الواو هنا حاليَّةً أفاد الكلام اقترانَ كونهما بإمام مبينٍ بانتقام اللّه تعالى من أصحابِ الأيكة، ليشعرَ أنَّ الانتقام انتقامُ استئصالٍ وإهلاكٍ في حالِ بقاء آثارِهم الدالَّة عليهم.

غرض تتابعِ التّوكيد في سياق الآية:

تتابع المؤكِّدات، يدفعُ إنكارَ المنكرين

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ﴾، لمّا كان المكذِّبون من قريشٍ وغيرِهم لم ينتفعوا برؤيةِ آثار القوم المهلَكين فكأنَّهم كانوا منكرين لكونِها في طريقٍ واضحٍ بيّن، لأنَّ الغرضَ من رؤيتِها لم يتحقَّق، فكانوا بمنزلة المنكرين فجاء الخبر على طريقة الخبر الإنكاريِّ مؤكَّدًا

---

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/511.

بتأكيدين (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، لتقريرِ المعنى في نفوس المكذّبين، وليطمئنَّ المؤمنون إلى عدلِ اللّه وعنايتِه بأهلِ الإيمانِ.

مرجع ضمير التّثنية، في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا﴾:

تنوّع عود الضّمير، بيانٌ لسعةِ بلاغة القرآن

يحتمل عودُ الضَّمير على مدينة لوطٍ والأيكة، ويكون إدخالُ مدينة لوطٍ هنا تأكيدًا لقولِه تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾، للحثِّ على زيادةِ الاعتبار بما وقع للقوم المنحرفين المجرمين، ويؤيده مجيء قصّة أصحاب الأيكة عقب قصّة قوم لوطٍ، ويحتمل أن يكون الكلامُ على خلافِ مقتضى الظّاهر، بأنْ يكون الضَّمير عائدًا على الأيكة ومدين، لأنَّ مقتضى الظّاهر أن يقال: (وإنَّها) لذكر الأيكة دونَ مدين، فعدل إلى ضمير التّثنيَة؛ لأنَّه ﷺ كان مبعوثًا إليهما، فكان ذكرُ أحدهما وهو الأيكة منبِّهًا على الآخر، لاشتراكهما في التّكذيب والعذاب، أو يقال: إنَّ ضَميرَ التَّثْنِيَةِ عائِدٌ عَلَى أصْحابِ الأيْكَةِ بِاعْتِبارِ أنَّهُم قَبيلَتانِ، وهُما مَدْيَنُ وسُكّانُ الغَيْضَةِ الأصْليّونَ الَّذينَ نَزَلَ مَدْيَنُ بِجوارِهِم، فاللفظ مفرد ومعناه مثنًّى، فعاد الضّمير على المعنى تنبيهًا إلى أنَّهما قبيلتان(1).

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿لَبِإِمَامٍ﴾:

الآثار شاهدة في الجيل الأخير، على ما لاقاه السّابقون من مصير

الباء هنا للإلصاق، للإيذانِ بأنَّ هاتين المدينتين الملتصقتين بطريق واضح بيّن، فمَن يمرُّ بهما يراهما، فكأنَّه يقول: فلمَ لم تعتبروا بما حصلَ للمكذّبين؟!

بلاغة الكناية، في سياق الآية الكريمة:

بقاء آثار العذاب، طريق للاعتبار بها، لا للغفلةِ عنها

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وفيه لمّا كانت المدينتان ملتصقتين بطريق مسلوكٍ مقصودٍ للمارَّة بيِّنٍ واضحٍ دلَّ بلازمِه على أنَّ المارَّة يرون المدينتين المهلكتين، لينتقَل بهذا المعنى إلى لازمٍ آخرَ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/586، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/157، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، وابن التمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/72.

هو المقصد الأسمى، وهو تنبيهُ المخاطبين إلى الاعتبار بآثار الانتقام منَ القومِ الظّالمين، أي: فكيف يغفلون عن نزول العقاب عليهم إن فعلوا مثلما فعل الظّالمون، فيكون الكلام على طريق الكناية البعيدة لتعدّد اللّوازم.

نكتةُ التّعبير بلفظِ ﴿لَبِإِمَامٍ﴾:

الاعتبار بآثارِ القومِ الظّالمين سبيل الهداية والرّشاد

لمّا كان الإمام هو ما يُهتدى به للوصول إلى المقصود، وصف الطّريق الذي تقع فيه المدينتان بالإمام للإيذانِ بأنَّه طريقٌ يقصد ويتّبَع، فقد سمّي الطريق إمامًا لأنَّ المسافر يَأتَمُّ به حتى يصير إلى الموضع الذي يريد[1]، والغرض من تسمية الطّريق إمامًا تنبيه السّامعين إلى أنَّ الاعتبار بآثارِ الانتقام منَ القومِ الظّالمين سبيل الهداية والرّشاد، وذهب بعض المفسّرين إلى أنَّ المراد من إمامٍ مبينٍ الكتاب، أي: اللّوح المحفوظ، بمعنى أنَّ تقدير العقاب عليهم مكتوب في اللّوح المحفوظ[2].

بلاغة الكناية في قوله ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾:

آثار عذاب الظّالمين، نعمةٌ للمعتبرين، ونقمةٌ على الغافلين

في التّعبير بقوله ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ كنايةٌ عن كونِ الطّريق الموصل إلى هاتين المدينتين مقيمًا ثابتًا في مكانه لم تندرس أعلامه، ولم تنطمس آثاره، فهو طريقٌ يأتمّه المارَّة ويقصده النّاس، فكأنَّ بقاءه نعمة للمعتبرين ونقمةٌ على الغافلين.

بلاغةُ المجاز في قوله ﴿مُّبِينٍ﴾:

آثار الظّالمين دليلٌ على آثار قدرة الله، وانتصاره لأنبيائه وأوليائه

جاء ﴿مُّبِينٍ﴾ صفةً لـ﴿لَبِإِمَامٍ﴾، ولمّا كان لفظُ ﴿مُّبِينٍ﴾ اسمَ فاعل أفاد أنَّ الطّريق مبينٌ لغيره، ولمّا كانَ الطريقُ لا يبينُ بل يستبينه المارون منه كان اسمُ الفاعل على معنى اسم المفعول، وعُبِّرَ بالفاعل عن المفعول مبالغةً في شدَّة وضوحه، وللإشعار بأنَّه موضِّحٌ لآثار

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/101، والزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، والماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/458، والواحدي، التفسير البسيط: 12/642.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/491.

قدرة اللّه وعظيم عقابِه وانتصارِه لأنبيائِه وأوليائِه، وبأنَّه يهدي إلى المقصدِ، أي: الاعتبار بالآثار الباقية(1).

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العقاب والانتقام:

العقابُ نقيضُ الـــثَّـــوابِ، والانتقامُ نقيضُ الإنعامِ

الفرق بينهما هو أنَّ الانتقام يأتي بمعنى المكافأة بالعقوبةِ على ما صنعَ من كفرانِ النّعمة، فكأنَّ المنتقمَ لم يجدْ شيئًا يجزي به سوى العقوبة بالعذابِ والإهلاكِ وسلبِ النّعمة التي كفرَ بها لما يستحقّه بسوء فعلِه، مع ظهور الإنكار على الفعلِ، وأمّا العِقابُ فهو جَزاء على الجُرم بِالعَذابِ ويلزمه الإنكار؛ لأنَّ العقاب نقيض الثَّواب والانتقامَ نقيض الإنعام(2).

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/157، والبقاعي، نظم الدرر: 8/43.

(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (نقم)، والعسكري، الفروق اللغوية، ص: 240.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٨٠﴾ [الحجر: 80]

التّذكير بكفر أصحاب الحجر، بعد هلاك أصحاب الأيكة بظلمهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كان ربما يقول قائل: إنَّه لو كان لأصحاب الأيكة بيوتٌ متقنةٌ لَمنعتهم منَ العذاب؟ عطفَ عليهم مَنْ هم على طريقٍ أخرى من متاجرِهم إلى الشّام، وكانوا قد طالَ اغترارُهم بالأملِ حتَّى اتَّخذوا الجبالَ بيوتًا، وكانت آيتُهم في غايةِ الوضوحِ فكذَّبوا بها تحقيقًا؛ لأنَّ المتعنِّتينَ لو رأوا كلَّ آيةٍ لقالوا: إنَّما سُكِّرتْ أبصارُنا فجاءت هذه الآية عقب ما تقدَّمها[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحِجۡرِ﴾: أصلُ (حجر): أصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو المَنْعُ والإحاطَةُ على الشَّيءِ، فالحَجْرُ حَجْرُ الإنسانِ، يُقالُ: حَجَرَ الحاكمُ على السَّفيهِ حَجْرًا؛ وذلك مَنْعُه إيّاهُ مِنَ التَّصرُّفِ في مالِه؛ والعَقْلُ يُسَمَّى حِجْرًا لأنَّهُ يَمنَعُ مِنْ إتْيانِ ما لا يَنْبَغي[2]، والحَجَرُ معروفٌ، وأحْسِبُ أنَّ البابَ كُلَّه محمولٌ عليهِ ومأخوذٌ منهُ؛ لشدَّتهِ وصلابَتِه، الحِجْرُ حِجْرُ الكَعْبَةِ، وهو ما حَواهُ الحَطيمُ المُدارُ بِالبَيْتِ جانبَ الشَّمالِ؛ وكُلُّ ما حَجَرْتَهُ مِنْ حائطٍ، فهوَ حِجْرٌ[3]، والمقصود بالحِجْرِ في الآية: المكانُ المَحْجورُ، أي: المَمنوعُ مِنَ النّاسِ بِسَبَبِ اخْتِصاصٍ بِهِ، أوِ اشْتُقَّ مِنَ الحِجارةِ لأنَّهم كانوا يَنْحِتونَ بُيوتَهُم في صَخْرِ الجَبَلِ نَحْتًا مُحكمًا[4]، والمرادُ به: ديارُ ثَمودَ ناحيةَ الشّامِ عِنْدَ وادي القُرَى، وهم قومُ صالِحٍ ﷺ[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/80.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حجر).

(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهري، الصحاح: (حجر).

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/72 - 73.

(5) ابن منظور، لسان العرب: (حجر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

يُخبر اللّه تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح، الَّذين كانوا يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنَّهم كذَّبوا المرسلين، أي: كذَّبوا صالحًا، ومَن كذَّب رسولًا فقد كذَّب سائر الرُّسل؛ لاتِّفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه بل لما جاء به منَ الحقِّ الَّذي اشترك جميع الرُّسل بالإتيان به، والتي لا تختلف والذي لا يختلف باختلاف الأمم والأزمان[1].

ذكر أصحاب الحجر وتكذيبهم، ومَن كذّب رسولًا فقد كذب الرُّسُل جميعًا

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة العطف بالواو في الآية:

جاءت الآية بطريق الوصل لمناسبة المعنى، فقد كذَّب كلُّ قوم منَ المذكورين في السّورة رسلَهم، وكان نوع العذاب الذي سُلِّطَ عليهم متماثلًا، وهو عذاب الصّيحة والرّجفة والصّاعقة، وكان أهل مكّة يشاهدون ديارَ هذه الأمم الثلاث، لأنَّها كانت في طريقِ أسفارِهم، فجاءت الآية بالوصل؛ لتكون على التّتميم والإدماج مع ما قبلَها، بختم القصص في هذه السورة بقصة أصحابِ الحجر، الذين كانَتْ منازلُهم وما نزلَ بهم معروفًا عند العربِ، فذكرَهم ليعتبِرَ المخاطبون بهم.

تماثل العذاب على الأمم، لتماثل التّكذيب والظّلم

فائدة تتابع التّوكيد، في قولِه ﴿وَلَقَدۡ﴾:

أفاد مجيء الكلام بتوكيدين: باللّام و(قَدْ) تقريرَ تكذيب أصحابِ الحجرِ لرسولِهم صالح ﷺ، والإشعارَ بأنَّهم كانوا مصرّين على التّكذيب، وأنَّه كانَ متأصِّلًا فيهم، وأنَّ الآياتِ لم تنفع في قلعِهم عن التّكذيب.

مَنْ كانَ تكذيبُه متأصِّلًا، لم تنفعه الآياتُ، ولا العظات

دلالة صيغة فعّل في قولِه ﴿كَذَّبَ﴾:

جاء الفعل بصيغة التّضعيف لأجل تعديتِه إلى المفعول بنفسِه، وفي الصّيغة إشعارٌ بكثرة تكذيبِهم لرسولِهم ومبالغتِهم فيه،

تكذيب الرّسل يجرُّ إلى المبالغة فيه

(1) المراغيّ، تفسير المراغي: 14/40، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434.

فكذَّبوا رسولَهم وجميعَ الآيات التي جاء بها، ودلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾.

نكتةُ ذكر (التّكذيب) دون (الكفر):

اختيار اللّفظ المناسب لسياقه، من بلاغة القرآن

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، عبّر بالتّكذيب دون الكفر؛ لأنَّ سياق القصص في هذه السورة يتكلم في أحوال قوم الرّسل مع رسلِهم وكيف كانت مقابلتهم لدعوة رسلِهم، فأخبر هنا عن تكذيبهم لما جاء به صالحٌ عليه السلام، وفيه إشعارٌ بأنَّ تكذيب الرّسل مبدأُ الكفرِ والضّلال ومآله العقاب.

دلالة مجيء الخبر على مقتضى الظّاهر:

تقديم الفاعل للاهتمام به، من فصيح السّياق

جاء الخبر على مقتضى الظّاهر بتقديم الفاعل على المفعول، فلم يقل (كذّبَ المرسلين أصحابُ الحجرِ)، والسَّببُ هو أنَّه لمّا كان السّياقُ في بيانِ حالِ المكذِّبين وما وقع لهم بتكذيبهم، قُدِّمَ الفاعلُ للاهتمامِ به[1].

نكتةُ اختيار لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾:

قوّة المكذّبين ومنعتُهم، لا تدفعُ عقابَ الله عنهم

لّما كان لفظ الأصحاب يدلُّ على مقارنة الشّيء وملازمتِه أفاد التّعبير بـ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾ ملازمة القومِ للحجرِ، فجُعلوا لِسُكناهم فيها ومقامِهم بها أصحابَها[2]، إشعارًا باشتهارِهم بالحجر حتّى صاروا يُنسبون له، وبأنَّهم ذوو قوَّةٍ ومنعةٍ.

معنى الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ﴾:

شؤم المكان الّذي شهد الكفر والعقاب، يبقى على مدى الدّهر

الإضافة هنا على معنى اللّام، بمعنى اختصاصِهم بالحجر الّذي صاروا يُنسبون له، لطولِ مقامِهم فيه وملازمتهم له، فاشتهروا به لذلك حتَّى صارَ كالعلمِ عليهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/80.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/126.

وجه تسميَة القوم هنا بأصحابِ الحجرِ دونَ (ثمود):

لـكـلّ شيء نصيب في الحالة والوصف من اسمه

لمّا كان الحجرُ هو المكان الذي أحيطت به الحجارة[1]، وكان السّياق في بيان أنَّ قوّتهم وبناءهم البيوت في الجبال لم تمنعهم من عذاب اللّه عُبِّر عن قوم ثمود بأصحابِ الحجر، لدلالة الحجر على الحجارة التي تحيط بالمكان إشعارًا باحترازِهم وتحوّطهم وقوّتهم، ففيه إشارةٌ أنَّ قوّتهم لم تمنعهم من عذاب اللّه.

دلالة (أل) في قولِه ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

تكذيب المرسلين لؤم وهوان إلى يوم الدّين

الظّاهر أنَّ (أل) للاستغراق بمعنى كذّب أصحابُ الحجر كلَّ المرسلين، ويحتمل أن تكون للعهد ليكون المرادُ صالحًا ومن آمن معه من المؤمنين[2].

بلاغة التّعبير في جمعِ ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾:

تكذيب رسولٍ، هو تكذيب لجميعِ الرّسل وما حملوا

الظّاهر أن يكون ذكر ﴿ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ بصيغة الجمع بطريق المجاز في الإيقاع، حيث أوقعَ على جميعِ الرّسل ما أوقعَ على الواحدِ، لأنَّ الكفرة من قومِ صالحٍ لم يواجهوا جميعَ الرّسل حقيقةً، ونكتة مجيء اللفظ بصيغة الجمعِ؛ هو أنَّه لمّا كان جميع الرّسل قد اتّفقت كلمتُهم على التّوحيد والمنع منَ الشّرك والدّعوة إلى الحقِّ والأصول التي لا تختلف باختلاف الأمم والأعصار كان تكذيب الواحدِ من الرّسل بمثابة تكذيب الجميع، فجعل اتّحادَ المكذَّب فيه بمنزلة اتّحاد المكذِّب، ففيه وعيدٌ مِن تكذيب أيِّ رسولٍ منَ المرسلين وتهويلٌ منه، وهذهِ العبارةُ أشنعُ على المكذِّبين، لأنَّ تكذيب كلِّ المرسلين أقبح من تكذيب الواحدِ منهم، ويستحقُّ المكذِّبُ به العذابَ الأشدَّ، والتّعبير بصيغة الجمعِ هنا مثل قولِه تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ

(1) الراغب، المفردات، (حجر).

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/210.

﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٠٥﴾ [الشعراء: 105][1]، فإذا كان تكذيب صالحٍ عليه السلام تكذيبًا لكلِّ الرّسل فكيف بمَن يكذِّبُ خاتمَ الرّسل والنّبيّين سيِّدنا محمَّدًا ﷺ؟!

ويحتمل أن يكون ذكر ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ بصيغة الجمع من باب الكناية؛ لأنَّ الرّسول مَن أتى بوحيٍ منَ اللّه وجاء بمعجزةٍ فيلزم منه أنَّ مَن لم يصدِّق هذا المعنى الذي جاء به الرّسول وردَّه أن يكون قد أعمَّ التّكذيبَ لجميعِ الرّسُلِ[2]، وإذا كان المراد منَ ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ صالحًا ومَن آمن معه فيكون الإطلاق على التّغليب[3]، تكريمًا لأتباعِ المرسَل وتشريفًا لهم.

نكتةُ إيثارِ الجمع بصيغة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، دون الرّسل:

تكذيبُ المرسَلِ تكذيبٌ للمرسِل، وهو الله تعالى

لمّا كانت صيغة ﴿ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ جمعًا لاسم المفعول (المرسَل)، وأفاد بصيغتِه أنَّه مبلّغٌ عن مَن أرسلَه وهو اللّه تعالى، دلَّ على أنَّ تكذيب المرسَل تكذيبٌ للمرسِلِ سبحانه وتعالى.

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

مآل مكذّبي رسلِ الله واحدٌ، في العقاب والعذاب

قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾، في الكلام تعريضٌ بالمكذّبين من قريشٍ ومن يأتي بعدَهم في أنَّهم إن كذَّبوا رسول اللّه محمَّدًا ﷺ فهم بمنزلة من كذَب جميع المرسلين، وأنَّ مآلَهم سيكونُ مثلَ مآلِ مَن كذَّب الرّسل مِن قبلُ، ففي التّعريض وعيد شديد.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/459، والزمخشري، الكشاف: 2/586، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/191.

(2) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/56، وابن التّمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/191.

(3) الشّهاب، عناية القاضي: 5/537، والآلوسي، روح المعاني: 7/318.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ٨١﴾ [الحجر: 81]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط نماذج الكفر بآياتِ صدقِ الرّسل، بأحوال المعرضين عنها

لمّا ذكر اللّهُ تعالى تكذيبَ أصحاب الحجر المرسلين أتبعه بذكر الآيات التي تدلُّ على صدقِ مَنْ أُرسِلَ إليهم، لإثباتِ قيامِ الحجّة عليهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُعۡرِضِينَ﴾: أَصْلُ كَلِمَةِ الإِعْراضِ مِنَ العَرْضِ وهوَ الظُّهورُ والبُروزُ، يُقالُ: عَرَضَ الشَّيْءُ وعَرِضَ يَعْرِضُ ويَعْرَضُ عَرْضًا، أي: ظَهَرَ وبَرَزَ[1]، وقيلَ أَصْلُها مِنَ العَرْضِ وهوَ: خِلافُ الطّولِ، يُقالُ: اعْتَرَضَ الطَّريقَ إذا سارَ عَرْضًا، وسُمّيَ الرَّفْضُ إعْراضًا؛ لأنَّ الرّافِضَ أظْهَرَ خِلافَ الشَّيْءِ، أَوْ لأَنَّهُ كالواقِفِ عَرْضًا في وجْهِ الشَّيْءِ[2]، والإعراض أيضًا: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ، تَقولُ: أَعْرَضَ عَنْهُ أي: صَدَّ وتَوَلّى عنهُ، والمُعْرِضُ: المُتَوَلّي، ويُطْلَقُ الإعْراضُ بِمَعْنَى: الانْصِرافِ عَنِ الشَّيْءِ بِالقَلْبِ، وضِدُّ الإعْراضِ: الإقْبالُ والانْقيادُ والطّاعَةُ[3]، والمقصود بالإعراض في الآية: الصَّدُّ والتَّوَلّي والرَّفْضُ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

آيات الله تعالى دالّة على الحقِّ، وحجّةٌ على المنكرين المعرضين

بيَّن اللّه تعالى مظاهر هذا التَّكذيب لرسولهم عليه السلام فقال: وآتينا ثمودَ حُجَجَنا وبراهينَنا الدّالَّةَ على صِدقِ رَسولِنا صالح عليه السلام فيما دعاهم إليه من عبادة اللّه وحده، والإيمان برسالته، وكانت النّاقة إحدى آيات اللّه البينات: في شربها ودرِّها على خلاف غيرها من النّياق؛ ولذلك أضافها صالح إلى اللّه تعالى حين قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرض).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عرض).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (عرض).

﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٣﴾ [الأعراف: 73]، فكانوا عن هذه الآيات كلِّها مُعرضين، بل مُكذِّبين مُعاندين(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة مجيء الآية بالوصل بالواو:

تكذيبُ الرّسل إعراضٌ عن آياتِ الله، وتنكّر لهدايته

لمّا ذكر الله تعالى تكذيب أصحابِ الحجر نبيَّهم صالحًا ﵇، وأفاد أنَّ تكذيب أيِّ رسولٍ بمثابة تكذيب كلِّ المرسلين، وصل الكلامَ بواو العطف للمناسبة في المعنى، أي: كذّبوا بالمرسلين الذين أرسلناهم وأعرضوا عن الآياتِ التي آتيناهم، وليفيد الكلامُ كفرانَهم النِّعمَ العظيمة التي آتاهم الله إيّاها بإعراضِهم عنها على وفقِ الأمم السابقة.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾، في السّياق:

ظـهـور قـيـام الـحـجّـة على الـكـافـريـن، بـجـعل الآيـاتِ بين أيديهم

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾، لم يقل (أتتهم آياتُنا)؛ لأنَّ صيغة (آتى) تفيد تحصيلَ المأتي عند المفعول، في إشارةٍ إلى تيقّنهم بالآياتِ التي أرسلَها الله لصالح ﵇، إذ أفادت الصّيغة حصولَهم على الآياتِ بمعنى ظهورِ كونِها آياتٍ منَ الله تعالى عندهم، فالدليل على صدقِ الرّسول بين أيديهم، فلا يحتاجون إلى البحثِ عنه، وأكّد هذا بجعل الآياتِ مأتيَّةً لهم، مع أنَّ الآياتِ قد آتاها الله نبيَّهم صالحًا ﵇، ليكونَ الكلامُ أظهرَ في قيامِ الحجَّة عليهم(2).

دلالة الفاعل ضميرًا للعظمة في قولِه: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾:

الإتيانُ بالآياتِ، لا يقدر عليه إلّا الله الواحدُ الأحدُ

عُبِّرَ بضمير العظمة في ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ﴾؛ للإشعار بأنَّ الإتيان

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/53، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/572.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

بالآيات لا يقدر عليه إلّا الملك الواحد الأحد، والمعنى آتيناهم آياتنا بما لنا منَ العظمة والقدرة على يد رسولِهم صالحٍ ﵇، وفي إسناد الفعل إلى ضمير العظمة العائد إلى اللّه تعالى إشعارٌ بأنَّ تكذيبَ المرسلين تكذيبٌ للّه تعالى العظيم المتكبّر المتعال.

فائدة إضافة الآيات إليهم، في قولِه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾:

المعجزة نعمةٌ مِنَ اللهِ على من أُرسل إليهم الرّسول

أضاف الآياتِ إليهم، وإن كانت قد أتت نبيَّهم صالحًا ﵇؛ لأنَّه لمّا كانَ صالحٌ ﵇ مرسَلًا من ربِّهم إليهم بهذه الآيات كان إيتاؤهم إيّاها على معنى المجاز بذكرِ المآلِ؛ للإشعار بأنَّهم قد تيقّنوا من هذه الآياتِ وأنَها من عند اللّه تعالى، وفي التّعبير بـ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا﴾ معنى الامتنان؛ ليفيدَ أنَّهم قد حصلوا عليها وأفادوا منها في حياتِهم ومعاشِهم[1].

نكتة جمع الآياتِ في قولِه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

التّعبير بصيغة الجمعِ، لتنوّعِ آياتِ النّاقة وإعجازِها

لمّا كانت الآية التي جعلها اللّه لصالحٍ ﵇، وهي النّاقة، مشتملةً عَلَى آياتٍ، أي: في كَيْفيَّةِ خُروجها مِنْ صَخْرَةٍ، وحَياتِها، ورَعْيِها، وشُرْبِها عبّرَ عنها بالآيات، أو هي آياتٌ باعتبار تنوّع دلالتِها على قدرة اللّه وعظمتِه.

دلالة الإضافة إلى ضمير العظمة، في قولِه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾:

تعظيمُ المضافِ وتشريفُه لعظمة المضاف إليه

أفادت الإضافة إلى ضمير العظمة تعظيم الآيات وتشريفها، فإنَّ تعظيم المضاف إليه يلحق المضاف.

معنى الفاء في قولِه ﴿فَكَانُواْ﴾:

التّعجيب من حالِ الكافرين، في إعراضهم عن آياتِ المنعم بكلّ النّعم

تفيد الفاء معنى التّرتّب والتّعقيب وأُشربَ فيها معنى المجازاة، أي: ترتّب على إتيانِهم بالآياتِ إعراضُهم عنها، وأنَّ إعراضَهم كان عقيب إتيانِهم بالآياتِ، فكأنَّهم كانوا قد أضمروا في أنفسِهم الإعراض عنها بمجرَّد إتيانها، ولمّا أشربت الفاء معنى المجازاة،

(1) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

أفاد أنَّ جزاء إنعامِنا عليهم بالآياتِ هو إعراضُهم عنها غير ملتفتين إليها، فأفادَت الفاء بدلالتِها التعجيبَ من حالِهم، إذ قابلوا نعمةَ اللّه العظيمةَ بالإعراضِ عنها.

فائدةُ ذكرِ ﴿فَكَانُواْ﴾ في السّياق المحكم:

لا ينفع تذكيرُ الظّالمين إن صارَ إعراضُهم عن آياتِ اللهِ طبعًا

لم يقل (فأعرضوا عنها) وهو أوجز عبارة، وذلك للإيماءِ إلى أنَّهم كانوا مستمرّين على الإعراضِ عن آياتِ اللّه تعالى حتَّى صارَ الإعراضُ طبعًا لهم لا يتغيَّر ولا يفارقهم.

دلالة التّقديم، في قولِه ﴿عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ﴾:

بيان إعراضِ الظّالمين عن آياتِ الله، وإقبالهم على الدّنيا وزينتِها

تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَنۡهَا﴾ الذي هو معمول خبر ﴿فَكَانُواْ﴾ للتّخصيص، بمعنى أنَّهم كانوا معرضين عن الآيات كلِّها خاصَّة، وأمّا عن نحت البيوت منَ الجبال وزينة الدنيا التي تجرُّ إلى الباطل فكانوا مقبلين إليها كما أنَّ في تقديم المعمولِ رعايةً للفاصلةِ فتتناسب رؤوس الآي[1].

دلالة الضّمير في قولِه ﴿عَنۡهَا﴾:

التّوبيخ على الإعراض، يستحقّه من يوصف بذلك

يعود الضّمير على ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ بما اتّصفت به، والمعنى فكانوا عن الآياتِ التي آتيناهم إيّاها معرضين، للإشعارِ بقبحِ إعراضِهم وتوبيخِهم عليه.

نكتةُ التّعبير بالإعراض عن الآيات:

عدمُ التّفكُّر بآياتِ الله، بعدَ إقبالِها، إعراضٌ عنها

عُبِّرَ بلفظ الإعراض دون غيره، للإشعارِ بأنَّهم كأنَّما كانوا يولّون عن الآياتِ مبدينَ عَرْضَهم لها[2]؛ فدلَّ اللفظ على أنَّهم كانوا تاركين للآياتِ مدبرين عنها غير ملتفتين إليها ولا يتفكّرون فيها، بعد أن أتتهم وأقبلت إليهم، فلم يعملوا بما تقتضيه بل كذّبوا بها جميعًا[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81، والآلوسي، روح المعاني: 7/319.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عرض).
(3) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/210.

نكتةُ التّعبير باسم الفاعل ﴿مُعۡرِضِينَ﴾:

رسوخ الإعراض، بكثرةِ التّولّي عن آياتِ الله، حجاب عن الحقّ

أفاد التّعبير باسم الفاعل أنَّ الإعراض عن الآياتِ صار وصفًا لهم، ليفيد رسوخهم في الإعراضِ، وأنَّ إعراضَهم عنها كانَ إعراضا كلِّيًّا[1]، ومن شدَّة إعراضهِم وتكذيبِهم عارضوا الآياتِ، ففعلوا بالنّاقة ما فعلوا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/87، والبروسوي، روح البيان: 4/483.

﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢﴾ [الحجر: 82]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تـنـوّع نعم الله الظّاهرة والباطنةِ، على قوم صالحٍ عليه السلام

لمّا ذكر الله تعالى نعمَه بإيتاء أصحاب الحجر الآيات العظيمة أعقبها بذكر نعمةٍ اختصّوا بها لتظهر آثار نعمه عليهم الباطنة والظّاهرة.

وأيضًا: لمّا كانت الآيات تنبيهًا لقريشٍ من أن ينالَهم مثلُ ما أصاب القوم المكذبين، أخبر أنَّ أصحاب الحجر، الذين كانوا في طريق سفر قريشٍ، كانوا مثلهم في الأمن مِنَ العذاب والغفلة عمّا يُراد بهم مع أنَّهم كانوا أشدَّ منهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَنۡحِتُونَ﴾: أصلُ (نحت): كَلِمَةٌ تَدُلُّ على نَجْرِ شَيءٍ وتَسْويَتِه بحَديدَةٍ[2]، النَّحت: الأَخْذُ مِنَ الشَّيءِ لتجعله على صورةٍ مخصوصَةٍ، كنحت النَّحيتِ والصَّنمِ والبَيتِ من خَشَبٍ وحَجَرٍ ونحوهما، ويكونُ في الأجسام الصَّلبة المحتملة لذلك، وقد يتجوَّز به في غيرها[3]، ونَحَتَ الجبلَ يَنْحِتُه: قَطَعَه[4]، والنُّحاتَةُ: ما يسقط مِنَ المَنْحوتِ، والنَّحيتَة: الطّبيعة التي نُحِتَ عليها الإنسان، كما أنّ الغريزة ما غُرِزَ عليها الإنسانُ[5]، والمقصود بالنَّحْتِ في الآية: بَرْيُ الحَجَرِ مِنْ وسَطِهِ أو مِنْ جَوانِبِه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

اتّخاذ قوم صالح بيوتًا حصينة أمينة، منحوتة في صُلب الجبال

ثم بيَّن الحقُّ تعالى بعض مظاهر حضارتهم وتحصنهم في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/81.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نحت).
(3) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نحت).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (نحت).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (نحت).

بيوتهم المنحوتة في الجبال، فقال: ومكنّاهم في الأرض وجعلناهم أولي قوَّة ومنَعَة، وحضارة ومهارة، وحذْقٍ بفنون البناء والعمارة، حتَّى كانوا يتخذون من جبالها بيوتًا حصينة، حيث كانوا يقطعون حجارتها وينحتونها تسوية لها، ثمَّ يبنون بها قصورهم ليعيشوا فيها آمنين عليها من الهدم، وعلى أنفسهم من العدوان والسّوء؛ لقوة بنائها وبديع إحكامها؛ أو آمنين منَ العذاب لحسبانهم أنَّ الحصون التي بنوها تحميهم منه[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الوصل بالواو في الآية الكريمة:

إعـراضُ قوم صالحٍ عن آيات الله، وانشغالهم بنحتِ بيوتِهم من الجبال

لمّا ذكر اللّهُ تعالى نعمتَه على أصحاب الحجر، أنْ آتاهم الآياتِ ناسب ذكر نعمةٍ أخرى عظيمة لم تكن لغيرهم منَ الأقوام السّابقين، ولمّا كانت الجملتان فعليَّتين ناسبَ مجيء الآية على طريق الوصل بالواو؛ لتكون من عطف جملةٍ فعليَّةٍ على جملةٍ فعليَّة، وفي الوصل بالواو تعجيب من حالِ أصحاب الأيكة؛ إذ كانوا عن آياتِ اللّه معرضين غيرَ متأمّلين لها ولا متفكّرين فيها، لكنَّهم عندَ نحتِ البيوت منَ الجبال كانوا صابرين متأمّلين متفكّرين لِما يحتاجه النّحت من مهارة عالية وذوقٍ رفيعٍ في العمل، فهذه الجملة وقعت موقعَ المقابلة التّعجّبيَّة؛ إذ أعرضوا عنِ التَّأمّل في آيات اللّه الّتي فيها نفعُهم وتأمّلوا في نحتِ بيوتِهم منَ الجبال التي ما أغنت عنهم شيئًا.

سرُّ التّعبير بتركيب ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾:

نحتُ قوم صالحٍ للبيوت من الجبالِ، صنعة توارثوها عن آبائهم

أفاد التّعبير بصيغة (كان يفعل) في قولِه ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾ إلى أنّهم كانوا مستمرّين على هذا العمل مداومين عليه، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ نحتَ البيوتِ من الجبالِ كان صنعةً لهم يتوارثونَها فيما بينهم.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والسّعديّ تيسير الكريم الرحمن، ص: 434، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/572.

نحت الجبال بيوتًا، دليل على القوّة والبأس الشّديد

سرُّ ﴿مِنَ﴾ في قولِه ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

لَمّا كانت ﴿مِنَ﴾ ابتدائيَّة، أفاد التّعبير أنَّ نحتَهم كان مبتدئًا من الجبال، بمعنى أنَّهم ابتدؤوا نحتهم من صخرِ الجبالِ، فخرقوه ودخلوه واتَّخذوه بيوتًا، ففيه إشعارٌ بقوَّتِهم، ويؤيّده قولُه تعالى: ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ٩﴾ [الفجر: 9]، ويحتمل أن تكون ﴿مِنَ﴾ تبعيضيَّة، ليكون المعنى وكانوا ينحتون من بعضِ الجبال بيوتًا[1]، والوجه الأول هو الظّاهر، والمعيّن لكون الجبال بعضَها هو (أل) العهديَّة في ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾ كما سيأتي.

تعظيمُ نعمِ الله بتيسير الصّعابِ وتسهيلِها

فائدة تقديم ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ على ﴿بُيُوتًا﴾:

قُدِّمَ الجار والمجرور على المفعول به لإفادة التّعجيب من حالهم، والتذكير بنعمة ربِّهم عليهم؛ إذ إنّ قوله ﴿مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾ في الأصل صفة لقوله: ﴿بُيُوتًا﴾، فلمّا تقدَّم عليها صار حالًا، كما أفاد التّخصيص بمعنى أنَّ سكناهم لم يكن إلّا في الجبال خاصّةً، وأنَّهم ما كانوا ينحتون بيوتًا إلّا منَ الجبال؛ للإشعار بقوّتهم وبعظيم نعمة اللّه عليهم في أنْ يسّر لهم هذا الأمر.

الجبال دالة على عظمة من نصبها أوتادا، وتذليلها بأمر الّذي سخّرها

فائدة (أل) في قولِه ﴿ٱلۡجِبَالِ﴾:

(أل) هنا عهديَّة، بمعنى الجبال التي كانت في موضعِ سكناهم ومعيشتِهم، فيكون المرادُ من الجبال بعضَها.

قومُ صالحٍ كانوا على علمٍ بالهندسةِ والتّخطيط العمرانيّ

نكتة قوله: ﴿يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ﴾:

جُعِلَ متعلَّقُ النَّحتِ البيوت التي منَ الجبال؛ لأنَّ الأصلَ في النَّحتِ أنْ يتعلق بحجارةِ الجبال لا بغيرِها[2]، وأفادَ التّعبير بـ﴿يَنۡحِتُونَ﴾ معنى اقتطاعِ الحجرِ منَ الجبالِ ونجرِه وتسويتِه بدِقَّةٍ؛ إظهارًا للمنَّةِ عليهم بالقوَّة والتّمكينِ وإشعارًا بما أوتوا منَ العلمِ بالهندسةِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/220.

دلالة التّنكير في قوله ﴿بُيُوتًا﴾:

أفاد التّنكير هنا تعظيمَ البيوتِ التي اتّخذوها للسُّكنى في الجبالِ وتفخيمَها.

لا ريب أنّ البيوت المنحوتة في الجبال هي قصور فخمة

بلاغة الكناية في سياق الآية:

قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾، أفادَ التّعبيرُ بهذه الجملة على طريقِ الكنايةِ بذكرِ ملزوم المعنى وإرادةِ لازمه أنَّهم كانوا مترفِّهين بنعمِ اللّه عليهم وأنَّهم كانوا أولي قوَّةٍ وبأسٍ شديدٍ وأنّ أعمارَهم كانت طويلة؛ لما يفيدُه نحتُ البيوت منَ الجبال بطول بقاء البيوت ومكثِهم فيها، ويشعر التّعبير كذلك بِحذاقتِهم في النّحتِ التي لم تنفعْهم في دفعِ العذابِ[1].

عبقريّة القوم في النّحتِ، لم تدفع عنهم العذابِ

دلالة الحال في قوله ﴿ءَامِنِينَ﴾:

لمّا كان الحال قيدًا لعاملِه وبيانًا لهيئة صاحِبه وكان ﴿ءَامِنِينَ﴾، حالًا من الضّمير في ﴿يَنۡحِتُونَ﴾ دلَّ على أنَّ الحالَ مقارنةٌ، بمعنى أنَّهم كانوا آمنين في حالِ نحتِهم البيوت، ولمّا كان تركيب ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ﴾، يفيد استمرار نحتِهم ومداومتِهم عليه، كما تقدَّم دلَّ على دوام أمنِهم باستمرار عملِهم ومعاشِهم، وتحتمل الحال أن تكون مقدّرةً، أي كانوا مُقَدِّرينَ أنْ يَكونوا آمِنينَ في سكنى البيوتِ بعد الانتهاء من نَحْتِها، وكانَتْ لَهُم بمَنْزِلَةِ الحُصونِ، لا يَنالُهُم فيها العَدوُّ[2].

دلالة الحال بين المقارنةِ والمقدَّرةِ

دلالة حذف متعلّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾:

حذف متعلَّق اسم الفاعل ﴿ءَامِنِينَ﴾ لإفادة أنَّ الأمن صار حالةً لازمةً لهم، فلا يفارقُهم الأمنُ، ويحتمل أن يكون الحذف لإفادة العموم بمعنى آمنين من أن تتهدَّم عليهم البيوت لوثاقتِها واستحكامِها، ومن نقبِ اللّصوص لها، ومن الأعداء وحوادث

الأمـنُ مـن حوادثِ الدّهرِ، لا يمنع عذابَ المكذّبين الضّالين

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/519، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/306.
(2) الشّهاب، عناية القاضي: 5/537، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

الدهر، ولمّا كانت بيوتُهم من الجبال اعتقدوا أنَّهم آمنين من نزولِ عذاب اللّه عليهم كما نزل على الأقوام المكذّبين السابقين، لتوهُّمهم أنّ الجبال تحميهم منه، وذهب المفسّرون إلى تقدير محذوف معيَّنٍ لمتعلَّق الاسم، والظّاهر هو العموم؛ إذ لا مقتضى عنه(1).

توجيه المتشابه:

من بلاغة القرآن مناسبةُ كلِّ لفظٍ لسياقِه وسباقِه

جاء في هذهِ السّورةِ قوله: ﴿وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا﴾ وفي الشُّعراء قال: ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ١٤٩﴾ [الشعراء: 149]، وفي سورةِ الأعراف قال ﴿وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ [الأعراف: 74]، بحذفِ (مِنْ) وفيه مناسبةٌ حسنةٌ، وذلك لأنَّ في الأعرافِ قال ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنۡحِتُونَ ٱلۡجِبَالَ بُيُوتًاۖ﴾ [الأعراف: 74] فتَقدَّمه قولُه: ﴿مِن سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ [الأعراف: 74]، فاكْتَفَى بذكر ﴿مِن﴾ [الأعراف: 74] مع السّهول عن ذكرِها مع الجبال(2)، وأيضًا الذي في سورةِ الأعرافِ جاءَ في سياقِ ذكرِ نِعَمِ اللّهِ الكثيرةِ على قوم صالحٍ، فناسبَ ذكرَ الجبالِ بصيغةِ العموم من غيرِ تبعيضٍ لها؛ للمبالغةِ المناسبةِ لكثرةِ الإنعام، والذي في سورةِ الحجر والشعراء جاءَ في سياقِ ذكرِ تكذيبِهم لنبيِّهم صالحٍ عليه السلام، وليسَ في سياقِ ذكرِ النِّعَم، إذْ قالَ في بدايةِ القصَّةِ في سورةِ الحجر ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ وقال في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٤١﴾ [الشّعراء: 141].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/127، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/372، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والشّهاب، عناية القاضي: 5/537.

(2) الكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 124.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 83]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا كذّبوا رسولَ اللّه صالحًا ﷺ، وكانوا يظنّون أنَّهم آمنون من عذاب اللّه تسبَّبَ عن تكذيبِهم، نزول العذاب بهم ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾.

أمنُ الظّالمين من مكرِ الله، استدراجٌ لهم

المَعْنى الإجْماليُّ:

فأخَذت قومَ صالحٍ صَيحةُ الهلاكِ في ضحوة اليوم الرّابع من اليوم الذي أوعِدوا فيه بالعذاب كما جاء في قوله: ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65][1].

كلُّ تحصُّنٍ زائلٍ أمام عذاب الله المُسلَّط على أعدائه المجرمين

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء، في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

تفيدُ الفاءُ التَّعقيبَ والسّببيَّةَ، ولمّا كان تعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسبه، وكان صالحٌ قد أوعدهم بالعذاب كما جاء في قولِه تعالى: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 65]، دلَّ على أنّ المرادَ منَ التّعقيبِ الزّمنُ القريبُ الذي لا مهلةَ فيه، بعد أن أوعدهم، فالتَّعقيبُ عرفيٌّ، وموافقٌ لزمن الإيعادِ، كما أفادت الفاءُ ترتّبَ الأخذِ بالصّيحةِ على تكذيبِهم المرسلينَ وإعراضِهم واتّخاذِ البيوتِ التي ركنوا إليها للأمن من العذاب[2].

تعقيب كلِّ شيءٍ بحسبِه ووقتِه المناسبِ له

نكتة التّعبير بقوله ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾:

دلَّ التّعبير بـ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ أنّهم حينَ وقوعِ العذابِ أُخذوا أخذَ مَن

جـــزاءُ من يكذّبون الرُّسلَ، ما يطالهم من الذّلّةِ والحقارة

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/104، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 1053، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/41.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

هو في القبضة على غاية الذّلّةِ والحقارة، لإفادة قهرِها لهم وتمكّنها منهم، ومنه الأخيذُ للأسير، والأخذُ بالصَّيحةِ هو الجزاءُ المناسبُ لتكذيبِهم واستكبارِهم وخلودِهم إلى الدّنيا، كما دلَّ اللّفظُ على أنَّ الصَّيحةَ أحاطت بهم إحاطة الآخذ للشيء، للإشعار بأنَّ أحدًا منهم لم يُفلت منَ العذاب[1].

بلاغةُ الكنايةِ في أخذ الصّيْحة لهم:

إهلاكُ الظّالمين، قهرٌ لهم، وشدّة بطشٍ بهم

في التّعبير بـ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ كنايةٌ عن سرعةِ إهلاكِهم بالصّيحة، ويفيد بلازمِه كذلكَ أنَّ إهلاكَهم كان على سبيلِ القهرِ وشدّةِ البطشِ.

بلاغةُ الإسناد المجازيّ، في سياق الآية الكريمة:

أخذ الصّيحة للمقصودين بالعذاب، تشعر بعظمة العظيم

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُشۡرِقِينَ﴾، لمّا أسند الأخذَ إلى الصّيحة، كان الكلامُ على طريق الإسناد المجازيّ، للإيذانِ بالمبالغة في الأخذِ، ولتصوير الحالةِ وهولِها.

بلاغةُ الاستعارة المكنيَّة في لفظ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

بيانُ شدّة البطشِ في الإهلاكِ والاستدلالِ عليه

شُبِّهَت الصّيحة بشخصٍ يأخذُ أخذ القهرِ والإهلاكِ، ثم حُذف المشبه به وذُكر لازمٌ من لوازمه المعبِّر عن الإهلاكِ وهو الصّيحة؛ ليكون الكلام على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، وفائدتها الإشعارُ بهولِ البطشِ الذي أهلكَهم، وليكون الكلام على طريق الاستدلالِ على إهلاكِهم تمامًا.

معنى (ألْ) في لفظ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

الصّيحة الّتي تنزل بالمكذّبين، صيحةٌ هائلةٌ مهلكةٌ

(ألْ) هنا جنسيَّة بمعنى كلِّ معاني الصّيحة التي تكون هائلةً مهلكةً، ويُحتملُ أن تكون (أل) عهديَّة بمعنى الصّيحة، التي هي منَ النّوع الذي أهلكَ غيرَهم منَ المكذبين، كما يحتمل أن تكون عوضًا

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/449، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/227.

عنِ المضاف، والتّقدير فأخذتهم صيحة العذاب، والمعاني الثلاثة مآلُها واحدٌ[1].

المتشابه اللّفظيّ في ذكر الرّجفة والصّيحة والطّاغية:

الرّدُّ على الطّاعنين في دعواهم، تناقض ألفاظ القرآن

طعن بعضُ الطّاعنين في هذه الآيات بأنَّ ألفاظ القرآن قد اختلفت في حكاية هذه الواقعة، وهي الرَّجفةُ والصَّيحةُ والطّاغيةُ، وزعموا أنَّ ذلك يوجب التَّناقض في آياتِ القرآنِ، فذكر هنا في سورة الحجر ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾، وقال في سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ [الأعراف: 78] وفي موضعٍ آخرَ قال: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٦٧﴾ [هود: 67]، وفي موضع آخر قال: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5]، والجوابُ: لا منافاةَ بين ذلك، ولا تناقضَ، فقد عُبِّرَ في كلِّ موضعٍ بما يناسبُ المقامَ، ويكون الذي أصاب ثمودَ - وهم أصحابُ الحجر - صاعقةً أو صواعق متوالية أفضت إلى الرَّجفةِ، أي: صُعقوا فرجفت بهم أرضهم وأعقبها زلازل، فالغالب أنَّ الزَّلزلة لا تنفكُّ عن الصّيحةِ الهائلة العظيمة، فأهلكتهم صَعقين، فجاز أن يُسْنَدَ الإهلاكُ إلى كلٍ منهما، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5] فالباء للسببية، والتقدير بالفعلةِ الطّاغيةِ، والطاغية الطُّغيان مصدرٌ كالعاقبة، والتاء للمبالغة، ويقال للمَلِكِ الجبار طاغية، فمعنى: ﴿فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5] أي بسببِ طغيانهم كقوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ١١﴾ [الشمس: 11] أي: بسبب تجاوزهم الحدَّ باستكبارهم وكفرهم وعَقْرِهم النّاقَة، ويُمكِنُ أنْ يُرادَ بالطّاغيَةِ الرَّجْفَةُ أو الصَّيْحَةُ لِتَجاوُزِ كُلٍّ مِنْهُما الحَدَّ في هولِها وعظمِها وسرعةِ أخذها وبطشِها، أو على إرادةِ الجمعِ بينهما، ولمناسبة الفاصلةِ كذلك أثرٌ في التّعبير بقوله: ﴿بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقة: 5][2].

(1) العليمي، فتح الرحمن: 3/566.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 14/308، وأبو حيّان، البحر المحيط: 5/97.

معنى (مُصْبِحينَ)، داخلين في وقتِ الصّباح

بلاغةُ الإخبار بالحالِ ﴿مُصۡبِحِينَ﴾، دون الظَّرف:

اختير الإخبار عن وقت العذاب بالحال في قولِه ﴿مُصۡبِحِينَ﴾، دونَ الظّرفية بأن يقال في وقتِ الإصباح؛ لِما يدلُّ عليه الحال من تصوير هيئتِهم بأخذِ الصّيحة لهم وهم داخلون في وقتِ الصّباح أي في وقتِ النّهار، وأفاد الحالُ كذلك تاكيدَ إهلاكِهم؛ لأنَّه ذكرهم في الضمير في قولِه ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ وكرّر ذكرَهم بلفظ الحال، فإنَّ معنى ﴿مُصۡبِحِينَ﴾ داخلون في وقتِ الصّباح.

﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٤﴾ [الحجر: 84]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبلَها:

إعمارُ الظّالمين، وكسبهم وبناؤهم الشّامخ، لا يدفعُ من عذاب الله شيئًا

لمّا أخبر اللّه تعالى عن إهلاكِهم بالصّيحة، أتبعه بالإخبار عن أنَّ بيوتَهم التي في الجبال وقوّتهم ومنعتهم لم تدفع عنهم العذاب، ولم تنفعهم شيئًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: أصلُ الغِنَى يَدُلُّ على الكِفايَةِ والسَّعَةِ وكَثْرَةِ المالِ، يُقال: غَنِيَ الرَّجُلُ، يَغْنَى، فهو غَنِيٌّ: إذا كان موسِعًا كَثيرَ المالِ، وضِدُّه: الفَقْرُ[1]، وحقيقَتُه: عَدَمُ الحاجَةِ لِلْغَيْرِ، سَواءً كان ذلك في المالِ، أو في القوَّةِ، أو العِلْمِ، أو غَيْرِ ذلك، والغَناءُ: الاستِغْناءُ والكِفايَةُ، ورجلٌ مُغْنٍ، أي: مجزئ، وقد غَنِيَ عنه فهو غانٍ[2]، والمراد بالغنى في الآية: عدم الجدوى.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أمرُ الله إذا جاء لا يردّه كثرة جنودٍ، ولا قوَّة أنصارٍ، ولا غزارة أموالٍ

يقول اللّه تعالى: فما دفع عنهم وما منعهم من عذابه تعالى ما كانوا يكسبونه من نحت البيوت الوثيقة وجمع الأموال الوفيرة، مع كثرة العدَد والعُدد، بل خرّوا في ديارهم هلكى خامدين كأن لم يكونوا بالأمس[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

خيبةُ الكافرين، بعدم إغناءِ إعمارِهم من عذاب الله

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾:

لمّا كان قوم ثمود يظنّون أنَّ ما كانوا يفعلونَه؛ من بناء البيوت

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللغة: (غني).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 14/41.

في الجبال وجمع الأموالِ وغيرِها، يدفع عنهم العذاب الذي وقع بالأقوام السابقين، أفادت الفاء هنا ترتيبَ عدمِ إغناء ما كانوا يكسبون في وقت نزول العذابِ حسبما كانوا يرجونه، ففيه إشعارٌ بخيبتِهم وخذلانِهم، فالفاء لترتيبِ عدم الإغناء الخاصِّ بوقتٍ ما كانوا يتوقّعونه لا عدمِ الإغناءِ المطلق فإنَّه أمرٌ مستمرٌّ[1].

دلالة استعمال أداة النَّفي (ما):

انتهاء كلِّ ما عمّره الظّالمون وما بنوه، بمجرّد وقوعِ العذاب

اختير التّعبير عن نفي الماضي بـ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ دون (لم يغنِ)؛ لأنَّ (ما) آكد في النّفي من (لم)، والمقام يقتضيه، وهي تقع ردًا على كلامٍ حاصلٍ أو ما نُزّل هذه المنزلة من اعتقادٍ خاطئ أو ظنٍّ فاسدٍ، فعبِّر بـ﴿فَمَآ﴾ لأنَّ قوم ثمود كانوا يعتقدون أنَّ ما يكسبونه من بناء البيوت في الجبال وجمع الأموال والعدد سيغنيهم من عذاب اللّه، كما أنَّ التَّعبير بـ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾ يفيد انتفاءَ إغناءِ ما كسبوه وجمعوه، وانقضاءَه في وقتِ وقوع الصّيحة[2].

سرُّ التّعبير بالإغناء دون النَّفع، في الآية الكريمة:

كلُّ مالٍ لا ينفعُ عندَ الله تعالى، ولا يردُّ العذابَ، فلا غنىً فيه

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾، عُبِّرَ بنفي الإغناء للإشعار بأنَّ كلَّ القنيّات التي كسبوها منَ الأموالِ وغيرِها ليست بغنى، وقد كانوا يظنّون أنَّهم قد اغتنوا بما كسبوا، ففيه تنبيهٌ إلى أنَّ الغنى هو ما يكون منه أمرانِ: الانتفاع ودفعُ الضّرِّ والبلاء، فكلُّ مالٍ لا نفعَ منه عندَ اللّه تعالى، ولا يردُّ العذابَ ولا يدفعُه لا غنىً فيه.

دلالةُ تقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل:

تحقيق المعنى وتخصيصه ومراعاة الفواصل

قُدِّمَ ﴿عَنۡهُم﴾ على الفاعل ﴿مَّا﴾ لتحقيقِ نفي إغناء الأموال ونحت البيوت عنهم ولِتخصيصِه بهم وقتَ أخذِهم بالصّيحة، ولمّا كان الذي يكسبونه ليسَ بمغنٍ عنهم لا في الدنيا ولا في الآخرة

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 5/88.
(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/195.

كان التّخصيص بوقتِ أخذهِم بالصّيحة إضافيًّا للمبالغة، كما أنَّه لو قيل: (فما أغنى ما كانوا يكسبون عنهم) ضعف تأليف الكلامِ وانفرطت بلاغتُه وانخرمت الفاصلة القرآنيَّة، وتناسب رؤوس الآي لا يقصدُ لوحدِه في القرآن المجيد.

دلالة ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾:

الإيمان أساس العمل ومناطُ قبولِه

لّما كانت ﴿مَّا﴾ اسمًا موصولًا[1] وكانت على معنى العمومِ، أفادت استغراقَ كلِّ ما كانوا يكسبون، ممّا كانوا يرجون منه دفعَ العذاب عنهم، وممّا لم يكن في حسبانِهم أصلًا، ليفيد أنَّهم لم ينتفعوا بكلِّ ما كانوا يكسبون، فما أغنى عنهم ما كانوا ينحتون وما عملوا منَ الأصنام، وما مُتِّعوا وأُنعموا به في هذه الدنيا[2]، وفي التّعبير بلفظ العموم إشعارٌ بأنَّه لم يأتِ منهم أيُّ عملٍ صالح، ولم يكسبوا إلّا الأعمال القبيحة، أو أنَّ تكذيب الرّسل يمحو كلَّ عملٍ صالحٍ، فالإيمان أساس العمل ومناطُ قبولِه.

دلالة صلةِ الموصول، في سياق الآية الكريمة:

كسبُ الكافرين في الدّنيا، سببٌ في غفلتِهم عن الإيمانِ والعمل به

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، لّما جاء الكلام على نفي إغنائِهم ما كانوا يكسبون من نزول العذاب بهم، أفاد أنَّهم كانوا يتوقَّعون أنَّ الذي كانوا يكسبونه من نحت الجبال وجمع الأموال وغيرِهما يغنيهم من عذاب اللّه ومن الأذى والضّرِّ الذي أصاب الأقوام المكذبين السّابقين، لتفيد صلة الموصول بيان سبب الحكم المنفيِّ وليس بيانَ سببِ نفي الحكم، أي: إنَّ كسبَهم واجتهادَهم في البناء وغيرِه كان سببًا في اعتقادِهم أنَّهم آمنون من نزول العذاب بهم.

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/492.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنة: 6/459.

دلالةُ ذكر ﴿كَانُواْ﴾، في سياق الآية الكريمة:

رغم الكسب وغزارة الأموال والحصون، فإنّها لم تغن عنهم شيئًا

تفيد ﴿كَانُواْ﴾ أنَّ كسبَهم وعملَهم كان مستمرًّا، وأنَّ الكسبَ كان من عادتِهم، حتَّى صار طبعًا لهم، للإشعار بكثرة كسبِهم وجمعِهم الأموال ونحتِهم البيوت في الجبال، ولهذا لم يقل: فما أغنى عنهم كسبُهم، أو الذي يكسبون.

سرُّ التَّعبير بالكسبِ دون البناءِ أو النَّحتِ:

دقَّةُ اختيار اللّفظ المناسب من بلاغة القرآن

عُبِّرَ بلفظ الكسبِ ليفيدَ كلَّ ما يوصف بالكسبِ من القولِ والعمل، وما كانوا يعتقدونه في قلوبهم، فيشمل ما قالوه لنبيِّهم وتكذيبَهم له، ونحتَهم الجبال، وبناءهم البيوت، وجمعَهم الأموال والعدد، وما كانوا يَسْتَغِلّونَهُ من زُروعِهم وثِمارِهِمُ الّتي ضَنّوا بمائِها عَنِ النّاقَةِ حَتّى عَقَروها لِئَلّا تُضَيِّقَ عَلَيْهِم في المياهِ، فما دَفَعَتْ عَنْهُم تِلْكَ الأموالُ ولا نفعتهم لما جاء أمر ربك[1]، ولو عُبِّر بالبناء أو النّحت لكان المعنى قاصرًا لا يفي بالمقامِ.

بلاغة الاستعارة التّهكّمية في سياق الآية:

أسلوب التهكّم في الجملة، احتقار وتهوين ممّن توهّم القوّة

قولُه تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾: لمّا كان الكسب يقال لما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع، وتحصيل حظّ، كَكَسْبِ المال استعير لفظ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ هنا على سبيل التّهكّم بما كانوا يعتقدون أنّ فيه منفعةً لهم ودفعًا للبلاء عنهم[2].

دلالة التّعبير بصيغة المضارعِ، في الآية الكريمة:

إتقانُ الكسبِ من دونِ إيمانٍ بالله ورسلِه، لا يغني من الله شيئًا

قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، وفيه عُبِّرَ بصيغة المضارع للإشعار باستمرارِهم على طلبِ الكسبِ وابتغائه وتجدّدِه في معاشِهم وحياتِهم، وأنَّهم كانوا يتقنونَ الكسبَ، فلم يغنِ عنهم منَ اللّه شيئًا، وذهب ابن عاشور إلى أنَّ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ بمعنى يَصْنَعونَ،

---

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/486.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/88، والآلوسي، روح المعاني: 7/320.

أي: يصنعونَ البُيُوتُ الَّتي عُنوا بتَحْصينِها وتَحْسينِها كَما دَلَّ عَلَيْهِ فِعْلُ كانوا، فتكون صيغَةُ المُضارِعِ في ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ دالَّةً عَلَى التَّكَرُّرِ والتَّجَدُّدِ المُكَنَّى بِهِ عَنْ إتْقانِ الصَّنْعَة، وبِذَلِكَ كانَ مَوْقِعُ المَوْصولِ والصِّلَةِ أبْلَغَ مِنْ مَوْقِعِ لَفْظِ (بُيوتِهم) مَثَلًا، لِيَدُلَّ عَلَى أنَّ الَّذي لَم يُغْنِ عَنْهُم شَيْءٌ مُتَّخَذٌ لِلْإغْناءِ ومِنْ شَأْنه ذَلك[1].

فائدةُ حذف المفعول في جملة: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

رعاية الفاصلة، ضمان لتناسب رؤوس الآي

أفاد حذف المفعول العائد على الاسم الموصول ﴿مَّا﴾ العموم؛ ليفيد أنَّهم كانوا يطلبون كلَّ أنواعِ الكسب الذي كان في متناول أيديهم، والتَّقدير ما كانوا يكسبونه، كما أنَّ في الحذف رعايةً للفاصلة لتتناسب رؤوس الآيات.

بلاغة الكناية في الآية الحكيمة:

بيان تصوير حالة الخيبة والخذلان، للظّالمين في ذلك الآن

لمّا قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، أفادَ بلازمه أنَّ الصّيحةَ أهلكتهم، وأنَّهم خَرّوا جاثِمينَ ولم ينفلت منهم أحدٌ، وفي الكنايةِ تصويرٌ لحالة الخيبة والخذلانِ للظّالمين.

بلاغة التّعريض في الآية الكريمة:

دعوة القرآن إلى الاعتبار، بأحوالِ الأمم الماضية

في الآية تعريض بأهل مكّة وبمن يكذّب رسل الله ويعرض عن الدّين القويم، وتنبيه لهم، فكأنَّه يقول لهم: كانوا أشدَّ منكم قوَّة وأكثرَ أموالًا، فلم يُغْنِ ذلك عنهم شيئًا، فكيف حالكم وماذا أنتم فاعلون؟[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/216.

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ٨٥﴾ [الحجر: 85]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين هلاك السّابقين، وخلق الكون وإنهائه، بقيام السّاعة بيقين

لَمّا ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّهُ أَهْلَكَ الكُفّارَ فكَأنَّهُ قيلَ: الإهْلاكُ والتَّعْذيبُ كَيْفَ يَليقُ بِالرَّحيمِ الكَريمِ، فأجابَ عَنْهُ بأنّي إنَّما خَلَقْتُ الخَلْقَ ليَكونوا مُشْتَغِلينَ بِالعِبادَةِ والطّاعَةِ فإذا تَرَكوها وأَعْرَضوا عَنْها كان منَ الحِكْمَةِ إهْلاكُهُم وتَطْهيرُ وجْهِ الأرْضِ، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾[1].

لَمّا كان المتنطّع قد يقول: لِمَ عذَّب اللّه هؤلاء الأقوام وأهلكهم، فلو كان قد أماتهم ميتةً طبيعيَّةً وأجَّل عذابَهم إلى قيامِ السّاعة لكان أولى، قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ الآية.

وأيضًا لَمّا قال اللّه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ جاءت هذه الآية لبيان أنَّه تعالى ما خلقَ السموات والأرض وما بينهما من أجلِ كسبِ الأموالِ، والتمتّع بالدنيا، فهذا عبثٌ وليس بشيءٍ، بل خلقهما بالحقِّ والعدلِ.

وأيضًا لَمّا بيَّن في أوّل السورة خلق السماوات والأرضِ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ١٦﴾ [الحجر: 16] وما جاء بعد هذه الآية، وأعقبه ذكر القصص ذكرَ هنا الحكمةَ في خلقِهما فقال: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾.

وأيضًا لَمّا أخبرَ اللّه تعالى عن قصص الأمم المعذّبة جاءت هذه

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.

الآية لبيانِ أنَّ ما أصابَهم إنّما كانَ باستحقاقِهم، فهو من عدلِ اللّه بالجزاء على الأعمال بما يناسبُها[1]، والمناسبات المذكورة متآلفة ولا تتقاطع.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡفَحِ﴾: أصْلُ (صفح): عَرْضُ الشَّيْءِ وجانِبُهُ، ومِنْهُ سُمّيَ العَفْوُ صَفْحًا[2]؛ لأنَّ الَّذي يَصْفَحُ كأنَّهُ يُقابِلُ المُسيءَ بِصَفْحَةِ عُنُقِه إعْراضًا عن إساءَتِه، أو يَتَجاوَزُ الصَّفْحَةَ السَّيِّئَةَ ويُقابِلُهُ بالصَّفْحَةِ الجَميلَةِ، والصَّفْحُ: العَفْوُ والتَّجاوُزُ عن غيْرِه، يُقالُ: صَفَحَ يَصْفَحُ صَفْحًا: إذا عَفا وتَجاوَزَ، ويأْتي بمعنى الإعْراضِ عن الذَّنْبِ وتَرْكِ العُقوبَةِ، فيُقال: صَفَحْتُ عَنْهُ، أي: أعْرَضْتُ عن ذَنْبِه[3]، والمقصود بالصَّفْحِ في الآية: العَفْوُ، وهو مُستَعملٌ هنا في لازِمِه، وهو عَدَمُ الحُزْنِ والغَضَبِ مِنْ صَنيعِ أعداءِ الدّينِ[4].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تذكير بخلق الله الكون بالحقّ، ودعوة للصّفح الجميل، قبل قيام السّاعة الأكيد

يقولُ اللّه تعالى: وما خَلَقْنا السَّمواتِ والأرضَ وما فيهما وما بينَهما إلّا لحِكَمٍ ومَصالِحَ عَظيمةٍ، لا عبثًا وباطِلًا، وخلَقهما سبحانَه بالعدلِ لا بالظلمِ والجورِ، وإنَّ يومَ القيامةِ لآتٍ وواقِعٌ لا ريبَ فيه؛ وفيه يُجازَوْنَ بأعمالِهم، ومِنهم مُشرِكو قَومِك الذين كذَّبوك وآذَوك؛ فأعرِضْ يا محمَّدُ ﷺ عن مؤاخَذتِهم في الدُّنيا، واعفُ عنهم عَفوًا حَسَنًا مِن غَيرِ عِتابٍ[5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (صفح).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 14/106، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546، والبقاعي، نظم الدرر: 11/84.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الكناية في سياق هذه الآية:

الخلق للكون بالحقِّ، لا يلائم استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشّرور

قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وفيه أفادت هذه الآية على طريق الكناية أنَّ إهلاكَ الأممِ السابقة كان بالحقِّ، فإنَّ خلق السماوات والأرضِ وما بينهما بالحقِّ لا يلائم استمرارَ الفسادِ ودوامَ الشّرور، فيفيد لازمُه أنَّ الحكمةَ تقتضي إهلاكَ جميعِ المفسدين كلًّا في وقتِه، ويندرج فيه إهلاكُ الأمم السابقة دخولًا أوّليًّا[1].

مناسبة الوصلِ بالواو في الآية:

بيان سعة المعنى، ومناسبته لما قبله وما بعدَه

مَوْقِعُ الواوِ في صَدْرِ هَذِهِ الجُملَةِ بَديعٌ، فهَذِهِ الجُملَةُ صالِحَةٌ لأنْ تَكونَ تَذْيِيلًا لِقَصَصِ الأُمَمِ المُعَذَّبَةِ؛ بِبَيانِ أنَّ ما أصابَهُم قَدِ اسْتَحَقّوهُ، فهوَ مِنْ عَدْلِ اللهِ بِالجَزاءِ عَلَى الأعْمالِ بِما يُناسِبُها، وهي صالحةٌ لأنْ تَكونَ تَصدِيرًا لِلْجُملَةِ الَّتِي بَعْدَها، وهيَ جُملَةُ ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾[2].

دلالة ضمير العظمة في قوله ﴿خَلَقۡنَا﴾:

شأن الخلقِ وبديع انتظامِه، لا يقدرُ عليه إلّا القادر تعالى

أفاد التّعبير بضمير العظمة (نا) تعظيم شأنِ الخلقِ، وأنَّه ممّا لا يقدر عليه إلّا الملك الواحد الأحدُ، فالمقامُ مقام تعظيمٍ وتفخيمٍ.

فائدة الجمع في قوله ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

لمّا كانت الآية على معنى التّذييل، وكانت على معنى العمومِ والكلّيَّة، ناسب أن يُذكَرَ لفظُ السماوات بصيغة الجمعِ؛ وللإيذانِ بأنَّ كلَّ خلقِه قائمٌ بالحقِّ.

فائدة (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾:

السّموات تمثّل روعة الصّنع البديع

(أل) هنا للاستغراق، فتفيد أنَّه تعالى خلق جميع السّماوات.

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/149، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/216، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

فائدة (أل) في قولِه ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

الأرض موضوعة للأنام، ومسخرة لهم

(أل) هنا للعهد، بمعنى أنَّه تعالى خلق الأرض التي هي معهودةٌ عندكم، والتي تعرفونها.

بديعُ الطِّباق في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

خلقُ الله يدلُّ على عظيمِ قدرته

لمّا ذكر ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ذكر ما قابلها، على طريق الطِّباق؛ للإيذان بإحاطة خلقِه لما ارتفع وما سفل، ولتنبيه المخاطبين إلى التّفكّر في خلقِهما، فإنَّهما ما خُلقا إلّا بالحقِّ.

دلالة (ما) في قولِه ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

ما بين السّماوات والأرضِ، خلقٌ عظيمٌ متنوّعٌ

لمّا كانت (ما) اسمًا موصولًا بمعنى الذي، وكانت على معنى العموم، أفاد عطفها على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أنَّ الذي بين السماوات والأرضِ خلقٌ عظيمٌ متنوِّعٌ، فيَشْمَلُ خلقَ السَّماواتِ والأرْضِ وما بَيْنَهُما خلقَ أصْنافِ المَخْلوقاتِ مِنْ حَيَوانٍ وجَمادٍ ونباتٍ، ويدخل فيه دخولًا أوّليًّا الأُمَمُ الَّتي عَلَى الأرْضِ وما حَلَّ بِها، والمَلائِكَةُ المُوَكَّلونَ بِإنْزالِ العَذابِ، والحَوادِثُ الكَوْنِيَّةُ الَّتي حَلَّتْ بِالأُمَمِ مِنَ الزَّلازِلِ والصَّواعِقِ والكِسَفِ[1].

سبب إيثار ذكر ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾:

مناسبة مجيء (وَما بَيْنَهُما)، لسياق الآيات ونظمها

لمّا ذكر الله تعالى في صدر السّورة أنَّه جعل في السماء بروجًا وزيّنها للنّاظرين، وأنَّه ألقى في الأرضِ رواسي وأرسل الرّياح ممّا خَلَقَ بين السماء والأرض، ناسب أن يعطف هنا على خلق السماوات والأرض قولَه: ﴿وَمَا بَيۡنَهُمَآ﴾؛ لأنَّ الآيةَ من قبيل ردِّ العجزِ على الصّدر كما سيأتي، ففيه إجمالٌ إلى ما تقدَّم ذكرُه ممّا هو بين السّماء والأرض، فتكون الآيةُ فذْلَكَةً بذكر الإجمالِ بعد التّفصيل، لتقريرِ المعنى وتأكيدِه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

بلاغةُ الاحتراسِ في سياق الآية الكريمة:

إضافةُ الظَّرف لضمير التّثنيةِ، لقطع توهّم غير المراد

ضمير التثنية في قوله ﴿بَيۡنَهُمَآ﴾ عائد على لفظَيِ السماوات والأرض، والتقدير وما بين السماواتِ والأرضِ، فالمرجوع عليه السماواتُ باعتبارِ مجموعِها والأرضُ، ولو قال: وما بينها لتوهم أنَّ المرادَ بين السماوات، أو بين قطع الأرض، فجاء الضَّمير بصيغة التّثنية للاحتراس ودفعِ التّوهُّم.

بلاغة القصر في ثنايا الآية الكريمة:

لا يليق بأُلوهية الله وعظمتِه إلّا أن يكون خلقُه بالحقِّ والعدلِ

قوله: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وفيه، لمّا كان الكفّار المكذّبون منكرين لحكمةِ خلقِ السماوات والأرض وما بينهما بسبب أفعالِهم وتصرّفاتِهم المنافية للحقِّ، وكانوا يظنّون أنَّهم يعيشون من أجلِ كسبِ الأموالِ والتمتّع بالدنيا، جاءت الآية بطريق القصر بالنّفي والاستثناء، ليفيدَ الرَّدَّ عليهم في إنكارِهم حكمةَ الخلقِ وأنَّه تعالى ما خلقَه إلّا بالعدلِ والإنصافِ، وللإيذانِ بأنَّه إن لم يكن بالحقِّ كانَ باطلًا وعبثًا، وهذا لا يليقُ بعظمةِ الخالقِ وعجيب خلقِه وسعتِه.

فائدة الباء، في قوله ﴿بِٱلۡحَقِّۗ﴾:

كلُّ ما خلقَه اللهُ تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ

تحتمل الباء أن تكون للملابسة، ليفيدَ أنَّ خلقَ السماوات والأرَضِ وما بينهما ملتبسٌ بالحقِّ غيرَ منفكٍّ عنهما وعمّا بينهما، ويفيد نفي أن يكون خلقهُما بالباطلِ والعبث، وفيه إشعارٌ بأنَّ كلَّ ما خلقَه اللّه تعالى فيه حكمةٌ بالغةٌ، وأفعالُه سبحانَه كذلك، كما تحتمل أن تكون سببية، والتَّقدير على وجهين فإمّا أن يكون المعنى: ما خلقنا السماوات والأرَضِ وما بينهما إلّا للحقِّ، أي: للعدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال، وإمّا أن يكون المعنى ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا بسبب الحقِّ الذي اقتضاه الدّليل من الإيمان والطّاعة أو البعث والجزاء[1].

(1) أبو القاسم الزجاجي، معاني الحروف والصفات، ص: 87، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/541، والهمذاني، الكتاب الفريد: 4/91، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

دلالة قولِه ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ بين الحالِ والصّفة:

الـحَـقُّ بـادٍ في جَميعِ أحْـوالِ المخلوقاتِ، ولا يلبث أن يظهر في عاقبة الأمور

الظّاهر أنَّ الجار والمجرور ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ حالٌ ممّا قبله، ولمّا كان الأصل في الحال أن تكون مقارنةً، أي: على معنى اقترانِ الحالِ بعاملِه في الوقتِ، وكان الظّاهر أنَّ الحالَ من المفعول وما عطفَ عليه أفادَ المعنى - إن كانت الباء للملابسةِ - اقترانَ ملابسةِ الحقِّ بخلق السماوات والأرض وما بينهما، وفيه معنى دوام ملابسة الحقِّ لخلق السماوات والأرضِ وما بينهما واستمرارِها، بِحَيْثُ يَكونُ الحَقُّ باديًا في جَميعِ أحْوالِ المَخْلوقاتِ، والمُلابَسَةُ هُنا عُرْفيَّةٌ فقَدْ يَتَأخَّرُ ظُهورُ الحَقِّ عَنْ خَلْقِ بَعْضِ الأحْوالِ والحَوادِثِ تَأخُّرًا مُتَفاوتًا، فالمُلابَسَةُ بَيْنَ الخَلْقِ والحَقِّ تَخْتَلِفُ باخْتِلافِ الأحْوالِ مِنْ ظُهورِ الحَقِّ وخَفائِهِ عَلَى أنَّهُ لا يَلْبَثُ أنْ يَظْهَرَ في عاقِبَةِ الأُمورِ كَما دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿بَلۡ نَقۡذِفُ بِٱلۡحَقِّ عَلَى ٱلۡبَٰطِلِ فَيَدۡمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٞۚ﴾ [الأنبياء: 18][1]، وإن كانت الباء للسببيَّة أفاد الحالُ اقترانَ سببيَّة الحقِّ بخلق السماوات والأرضِ، فيكون ابتداءُ خلقِها مقترنًا بسببِ إقامةِ الحقِّ الذي اقتضاه الدّليل من الإيمان باللّه وطاعتِه، ويحتمل أن يكون الحال من الفاعل في ﴿خَلَقۡنَا﴾ والتّقدير: (ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا ومعنا الحقُّ)، وأجاز بعض المفسّرين أن يكون ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾ صفةً لمفعول مطلق محذوف: والتقدير: ما خلقنا السماوات والأرضَ وما بينهما إلّا خلقًا ملتبسًا بالحقِّ، فتكون الباء للملابسة، وحُذِفَ الموصوف للعلم به فيكون من الحذف للإيجاز[2].

دلالة الحقِّ في الآية:

قـد يـكـون الإمـهـال، استبقاءَ عُمرانِ جُزْءٍ مِنَ العالَمِ زَمانًا

لمّا جاء قولُه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ عَقِبَ ذِكْرِ عِقابِ الأُمَمِ الَّتي طَغَتْ وظَلَمَتْ، وأنَّ ذَلِكَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/216، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/193.

جَزاءٌ مُناسِبٌ لتَمَرُّدِها وفَسادِها، وأنَّها وإنْ أُمهِلَتْ حينًا بِرَحْمَةٍ مِنَ اللّٰه لِحِكْمَةِ اسْتِبْقاءِ عُمرانِ جُزْءٍ مِنَ العالَمِ زَمانًا فهيَ لَم تُفْلِتْ مِنَ العَذابِ المُسْتَحَقِّ لَها، وهوَ مِنَ الحَقِّ أيْضًا فما كانَ إمهالُها إلّا حقًّا، فلمّا كان الأمر كذلك أفادَ أنَّ معنى الحقِّ هنا هوَ إجْراءُ أحْوالِ المَخْلوقاتِ عَلَى نِظامِ مُلائِمٍ لِلْحِكْمَةِ والمُناسَبَةِ في الخَيْرِ والشَّرِّ، والكَمالِ والنَّقْصِ، والسُّموِّ والخَفْضِ، في كُلِّ نَوْعٍ بِما يَليقُ بِماهيَّتِهِ وحَقيقَتِهِ وما يُصْلِحُهُ، وما يَصْلُحُ هوَ لَهُ، بِحَسَبِ ما يَقْتَضيهِ النِّظامُ العامُّ لا بِحَسَبِ الأميالِ والشَّهَواتِ، فإذا لاحَ ذَلِكَ الحَقُّ المَوْصوفُ مُقارَنًا وُجودُه لِوُجودِ مَحْقوقِهِ فالأمرُ واضِحٌ، وإذا لاحَ تَخَلُّفُ شَيْءٍ عَنْ مُناسَبَةٍ فبِالتَّأمُّلِ والبَحْثِ يَتَّضِحُ أنَّ وراءَ ذَلِكَ مُناسَبَةً قَضَتْ بِتَعْطيلِ المُقارَنَةِ المَحْقوقَةِ، ثُمَّ لا يَتَبَدَّلُ الحَقُّ آخِرَ الأمرِ[1].

سرّ الوصل بالواو في ﴿وَإِنَّ﴾ في السّياق:

لا بدَّ من قيامِ السّاعةِ، ليصل كلُّ ذي حقٍّ إلى حقِّه

لَمّا قال اللّٰه تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ عطف عليه قولَه ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ للإيذانِ بأنَّ هذا الحقَّ يستبين ويظهر عندَ قيام السّاعة، عندَ جزاء المحسن على إحسانه والمسيء على إساءَته، وبأنَّ الدُّنيا ليست بدار جزاء، بل هي دار إقامةِ الحقِّ، فلا بدَّ من قيامِ السّاعةِ ليصل كلُّ ذي حقٍّ إلى حقِّه.

دلالة الواو في قولِه: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ﴾:

الحقُّ لا يَتَخَلَّفُ عَنْ مُسْتَحِقِّهِ ولَوْ غابَ وتَأخَّرَ

الواو عاطفةٌ لجملة ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ على جملةِ ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾ لتكون كلُّ جملة مُسْتَقِلَّةً بإفادَةِ مَضْمونِها لأهَمّيَّتِهِ مَعَ كَوْنِ الجملة المعطوفة مُكَمِّلَةً للمعطوف عليها ومترتِّبةً عليها، فهي في حكم النّتيجة لها، فمَنْ عَرَفَ أنَّ جَميعَ المَخْلوقاتِ خُلِقَتْ خَلْقًا مُلابِسًا لِلْحَقِّ، وأيْقَنَ بِهِ، عَلِمَ أنَّ الحَقَّ لا يَتَخَلَّفُ عَنْ مُسْتَحِقِّهِ ولَوْ غابَ وتَأخَّرَ، وإنْ كانَ نِظامُ حَوادِثِ الدُّنْيا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75.

قَدْ يُعَطِّلُ ظُهورَ الحَقِّ في نِصابِهِ وتَخَلُّفِهِ عَنْ أرْبابِه، فعَلِمَ أنَّ وراءَ هَذا النِّظامِ نِظامًا مُدَّخرًا يَتَّصِلُ فيهِ الحَقُّ بِكُلِّ مُسْتَحِقٍّ إنْ خَيْرًا وإنْ شَرًّا، فلا يَحْسَبَنَّ مَنْ فاتَ مِنَ الَّذينَ ظَلَموا قَبْلَ حُلولِ العَذابِ بِهِم مُفْلِتًا مِنَ الجَزاءِ فإنَّ اللّه قَدْ أعَدَّ عالَمًا آخَرَ يُعْطي فيهِ الأُمورَ مُسْتَحِقّيها، وفي العطف بالواو انْتِقالٌ مِنْ تَهْديدِ المشركين من قريشٍ ووَعيدِهم بِعَذابِ الدُّنْيا إلَى تَهْديدِهِم بِعَذابِ الآخِرَة، أي إنَّ ساعَةَ إنْفاذِ الحَقِّ آتيَةٌ لا مَحالَةَ فلا يُريبُكَ ما تَراهُ مِنْ سَلامَةِ مُكَذِّبيكَ وإمهالِهِم(1).

بلاغة تتابعِ التّوكيد في السّياق الرّشيد:

تحقُّق وقوع السّاعة والحثّ على الإعداد لها

قولُه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾، وفيه جاء الخبر على طريقة الخبر الإنكاريّ بتضمّنه أكثر من توكيدٍ: (إنَّ) واللّام الموطّئة للقسم، واسميّة الجملة؛ للردِّ على المنكرين لإتيانِ السّاعة ووقوعها، ولِتحقيق الإخبارِ بأنَّ السّاعةَ آتيةٌ لا ريبَ فيها، فيفيد الخبرُ المؤكَّدُ تقويةَ الحثِّ على ما ترتّب عليه وهو الأمرُ بالصَّفح الجميل.

بلاغةُ الاستعارةِ المكنية في قولِه ﴿ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾:

الوعدُ بإتيان السّاعة، تسليةً للمؤمنين ووعيد للكافرين

شُبِّهت السّاعةُ وهي ساعةُ البعثِ بشخص آتٍ، فحذف المشبَّه به وذكر لازمًا من لوازمه وهو الإتيان على طريق الاستعارة المكنية الأصلية، لإفادة المبالغة في تحقُّقِ وقوعِها، ففيه تسليَةٌ لرسولِ اللّه ﷺ ووعيدٌ للمكذّبين.

نكتةُ استعمالِ فعل الإتيان في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾:

يستفاد من فعل الإتيان أنها تأتي بغتة

أفاد التعبير بلفظ الإتيان لساعة البعثِ أنَّ إتيانَها سهلٌ؛ لأنَّ الذي يأتي بها هو الذي خلق السماوات والأرضَ وما بينهما بالحقِّ.

بلاغةُ استعمالِ اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لَأٓتِيَةٞۖ﴾:

المبالغة في استجابة الكون كلّه لله وسرعة إتيان السّاعة

أُطلقَ اسمُ الفاعل ﴿لَأٓتِيَةٞۖ﴾ وأريدَ المفعولُ، لأنَّ اللّه تعالى هو الذي يأتي بالسّاعة، أي إنَّ الساعة مأتيَّةٌ لا آتية، فيكون اللفظ قد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/75 - 76.

استعملَ على طريق المجاز المرسل، وعلاقته الفاعلية، ونكتة التّعبير باسم الفاعل الإشعارُ بالمبالغة في سرعةِ الإتيان، وهو ما يتّفقُ مع السياق، والتّنبيهُ إلى أنّها هي التي تأتي إلى الخلقِ، فكأنَّ الخلقَ ينتظرونها، ليتلقَّوا جزاءَهم عندها.

دلالة الإخبار عن السّاعة بأنَّها آتيةٌ:

وقـــوع ساعـةِ البعثِ من الحقِّ الّــذي بـه خلق الله السّماواتِ والأرض

لمّا أخبرَ الله تعالى أنَّ السّاعةَ آتيةٌ أفادَ أنَّ وقوعَها حقٌّ، وأنّها تظهر الحقَّ والعدلَ بمقتضى أنّه تعالى ما خلق السماوات والأرضَ إلّا بالحقِّ.

براعة التّعبير عن يوم القيامة بالسّاعة:

السّـاعـة تفجأ النّاسَ بغتةً، في ساعة لا يعلمها إلّا الله ﷻ

المرادُ بالسّاعةِ ساعَةُ جَزاءِ المُكَذِّبينَ بِسيّدنا مُحَمَّدٍ ﷺ أيْ ساعَةُ البَعْثِ وهو يوم القيامة[1]، وعُبِّر بالسّاعة لأنَّها تفجأ النّاسَ بغتةً في ساعة لا يعلمها إلا الله ﷻ، وللإشعار بسرعة مجيئِها وسرعةِ إقامة البعثِ وسرعةِ جزاء المكذّبين.

بلاغة الكناية في قوله ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾:

الـجَـزاءُ عَـلَى أعْمالِ الكافرين المكذّبين مَوْكولٌ إلَى الله تَعالَى

في الخبرِ كنايةٌ؛ إذ أفاد بلازمِه بعدَ الإخبار عن هلاكِ المكذّبين أنَّ الجَزاءَ عَلَى أعْمالِ الكافرين المكذّبين مَوْكولٌ إلَى اللّه تَعالَى، فينتقم اللّه لرسولِه ﷺ يوم القيامةِ من أعدائه، ويجازي رسولَه على حسناته والكفّار المكذّبين على سيئاتهم، ثمَّ يُنتقل من هذا المعنى إلى معنى آخر لازم له، هو تَصْبيرُ اللّه تَعالَى لسيّدنا رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ وتسليتُه عَلَى سَفاهَةِ الكافرين من قَوْمِه وتكذيبهم له وسلامتهم وإمهالِهم في الدنيا، كما أنَّه تعالى لمّا خلق السماوات والأرضَ بالحقِّ لم يكن لائِقًا بِحِكْمَتِهِ إهْمالُ أمر رسولِه ﷺ، والخطابُ وإن كان في ظاهرِه لرسول اللّه ﷺ لكن يدخل فيه المؤمنون برسولِ اللّه محمَّدٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/74.

ﷺ دخولًا أوّليًّا، فهو تصبيرٌ وتسليةٌ لهم كذلك على ما يلاقون من المكذّبين الظّالمين[1].

بلاغة الكناية في قولِه ﴿لَآتِيَةٞ﴾:

يومُ القيامةِ قريبٌ، فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ

عُبِّرَ بلفظ ﴿لَآتِيَةٞ﴾ للإشعار بلازمِه وهو أنّ الجزاء قريب، لأنَّ الجزاء مقارنٌ ليومِ القيامةِ، وكلُّ ما هو آتٍ قريبٌ[2].

فائدة الفاء، في قولِه ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾:

الصَّفحُ عن الكافرين في الدّنيا وجزاؤهم على ظلمِهم يومَ القيامةِ

الفاء عاطفة لجملة الطّلب على الجملة الاسميَّة لتفيدَ السببيَّة، وبيانُه أنَّه لّما جعل الله تعالى جزاء أعمالِ الكافرين موكولًا إليه سبحانه وجعل حكمهم إلى الآخرة، ولمّا صَبَّرَ الله تعالى رسولَه الأمين ﷺ عَلَى أذَى قَوْمِهِ رتّب عليه بالفاء ترغيبه في الصَّفْحِ عَنهم في الدنيا؛ والمعنى لّما كانَ جَزاءُهُم على قبيح أعمالِهم مَوْكولًا إلَى الوَقْتِ المُقَدَّرِ وهو آتٍ فاصفح الآن عنهم واحْتَمِلْ ما تَلَقَّى مِنْهُم وأعْرِضْ عَنْهُم إعْراضًا جَميلًا بِحِلْمٍ وإغْضاءٍ[3]، وتحتمل أن تكون الفاء هي الفاء الفصيحة التي تفصح عن شرطٍ تقديرُه: فإن كانت السّاعةُ آتيةً فاصفح الصَّفحَ الجميلَ، وعلى الوجهين فالأمرُ بالصَّفح الجميلِ عن المسيئين ثابتٌ غيرُ منسوخٍ بآية القتالِ كما قيل لترتّبه على أمرٍ ثابتٍ هو إتيان الساعة، والمقصود منَ الآية هو المخالقةُ والمعاملة، ولأنَّ الله ﷻ أمرَ نبيَّه ﷺ أنْ يظهرَ الخلقَ الحسنَ، وأنْ يعاملَهم بالعفو، والصفحِ الخالي من الجزع والخوف والعتبِ[4].

براعة التّعبير بلفظ ﴿فَٱصۡفَحِ﴾:

الصَّفحُ هو الإعراض الخالي من جزعٍ وفُحشٍ، وقد يعفو الإنسان ولا يَصْفَحُ

عُبِّرَ بالصَّفح الذي هو في اللغةِ الجنبُ؛ لأنَّهُ إذا أَعْرَضَ عَنْهُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/587، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.

(2) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1004.

(3) الواحدي، التفسير البسيط: 12/644، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/76.

(4) الزمخشري، الكشاف: 2/587، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.

فكَأَنَّهُ قَدْ ولّاهُ صَفْحَتَهُ وصَفْحَهُ، أيْ عُرْضَهُ وجانِبَهُ، فجيء به على طريق الاستعارة التّصريحية التبعيَّة؛ بتشبيه الإعراض عن الذّنب وعن الإساءة بتولية العرضِ للمسيء بجامع التّرك والتّولّي، فكأنَّ المعنى: ولِّهم صفحة عنقِكَ بالإعراض عنهم، وعُبِّر بالصَّفحِ دون العفوِ؛ لأنَّه أبلغُ منَ العفوِ؛ لأنَّ الصَّفحَ هو الإعراض الخالي من جزع وفُحش[1]، وقد يعفو الإنسان ولا يَصْفَحُ[2].

بلاغة الكناية في سياق الصّفح الجميل:

التّـهـيُ عن تعجيل الانتقام مـنَ المـكـذّبين، والـصـبرُ على صنيع أعـداء الدّين

قولُه تعالى: ﴿فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾، لمّا أمر الله تعالى رسولَه ﷺ بالصفح عن المكذّبين أفادَ بلازمِه النّهيَ عن تعجيل الانتقام من المكَذِّبين المستهزئين وعن الحُزْنِ والغَضَبِ مِنْهم ومن صَنيعِ أعْداءِ الدّينِ، ففيه دعوة إلى المعاملة الحسنة مع أعداء الدّين لعلَّهم يؤمنون[3].

فائدة حذف متعلّق الفعل ﴿فَٱصۡفَحِ﴾:

الصّفحُ خلقٌ كريمٌ، ينبغي أن يكونَ وصفًا لازمًا للمؤمنين

حُذِفَ مُتَعَلِّقُ الصَّفْحِ لِظُهورِهِ، أيْ عَمَّنْ كَذَّبَكَ وآذاكَ[4]، والنّكتة في الحذف هو الأمر بأن يكون الصّفح وصفًا لازمًا له ﷺ، فهو ﷺ مأمورٌ بالصَّفح عنهم وعن غيرهم، والمعنى ليكن منك الصَّفحُ الجميل.

فائدة مجيء المفعول المطلق في الآية:

الـصّـفـح الجميل، هو ما لا نقصَ فيه ولا منَّةَ في العرف

قولُه تعالى: ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾، أفاد ذكر المفعول المطلق تأكيد الأمر بالصَّفحِ، ولمّا كان المفعول المطلق لبيانِ نوعِ الصَّفحِ دلَّ على أنَّ الصّفحَ أنواعٌ، وأنَّ منه الجميل والقبيح،، فلمّا وصفَ الصَّفحَ بالجميل أفادَ أنَّ المرادَ أفضلُه وأكملُه وأحسنُه فلا يكون فيه عتبٌ ولا تعرُّضٌ، ولا نقصٌ فيه ولا منَّةٌ في العرف، وفيه حلمٌ وإغضاءٌ، وفي وصف الصَّفحِ بالجميل إشعارٌ بألّا يكون الإعراضُ داعيًا إلى ترك

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/372، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/541.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صفح).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

نصيحتِهم ودعائِهم إلى الحقِّ، بل الصَّفح الجميل طريق لِتليين قلوبهم إلى الحقِّ والإيمانِ باللّه وبرسوله[1].

بلاغة الاستعارة، في قوله ﴿ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ﴾:

الصَّفحُ الجميلُ خلقٌ إنسانيٌّ، فأيُّ إنسانٍ إذا رآه يمدحه ولا يذمُّه

وُصِفَ الصَّفحُ بالجميل على طريق الاستعارة المكنيَّة، فكأنَّه شُبِّه الصَّفح بذاتٍ جميلةٍ تسرُّ النّاظرين بجامع اللَّذَّة الحاصلة عندَ النّظر إليه وقبوله عندَ النّاظرين ثمَّ حُذفَ المشبَّه به وذُكر شيءٌ من لوازمِه، لإفادة المبالغة في الاتّصاف بأفضل أنواعِ الصَّفحِ وأكمله بحيث إذا رآه أيُّ إنسانٍ يمدحه ولا يذمُّه.

بديع ردِّ العجز على الصّدر في الآية:

ذكر الإجمال بعد التّفصيل لإثبات الإحياء والإماتة والحشرِ لله تعالى

لمّا وقعَ في صدر السّورة الاِسْتِدْلالُ عَلَى المُكَذِّبينَ بِالبَعْث بِخَلْقِ السَّماواتِ والأَرْضِ وما بينهما، عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الحجر: 14 - 16] وما بعدها من الآيات التي ذكرت خلقَ الأرضِ وإلقاء الرّواسي وإرسال الرّياح، وخُتِمَتْ بِآيَةِ: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ٢٣﴾ [الحجر: 23] إلَى قَوْلِهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ﴾ [الحجر: 25]، وانتقل هُنالك إلَى التَّذْكيرِ بِخَلْقِ آدَمَ عليه السلام وما فيه مِنَ العِبَرِ. ثُمَّ إلَى سَوْقِ قَصَص الأُمَمِ الَّتي عَقِبَتْ عُصورَ الخِلْقَةِ الأولَى، فلمّا كان الأمرُ كذلك آنَ الأوانُ لِلْعَوْدِ إلَى حَيْثُ افْتَرَقَ طَريقُ النَّظْم حَيْثُ ذَكَرَ خَلْقَ السَّماواتِ والأرض وما بينهما ودَلالَتَهُ عَلَى البَعْث بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، فجاءَتْ عَلَى وِزانِ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا﴾ [الحجر: 16] الآياتُ، فإنَّ ذَلِكَ خَلْقٌ بَديعٌ، وزِيدَ هُنا أنَّ ذَلِكَ خُلِقَ بِالحَقِّ، وكانَ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَإِنَّ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/461، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

ﭐلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ﴾ فذَٰلَكَةٌ لِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ [الحجر: 23] إلى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحۡشُرُهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٢٥﴾ [الحجر: 25]، أي بذكر الإجمال بعد التّفصيل لزيادة تمكين وتقريرِ معنى إثبات الإحياء والإماتة والحشرِ لله تعالى، فعادَ سياقُ الكَلام إلَى حَيْثُ فارَقَ مَهْيَعَهُ، ولِذَلِكَ تَخَلَّصَ إلَى ذِكْرِ القُرْآنِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: 87] النّاظِرُ إلَى قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9][1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/77.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ٨٦﴾ [الحجر: 86]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ربط الصّفح عن الآخرين، بكون الله هو الخلّاق العليم

لمّا أمر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ، بالصَّفحِ عنهم أعقب الأمر بهذه الآية لتكون في موقع التّعليل للأمرِ بالصَّفحِ، أيْ: لأنَّ في الصَّفْحِ عَنْهُم مَصْلَحَةً لَكَ ولَهُم يَعْلَمُها رَبُّكَ، فمَصْلَحَةُ النَّبيِّ ﷺ في الصَّفْحِ هيَ كَمالُ أخْلاقِهِ، ومَصْلَحَتُهُم في الصَّفْحِ رَجاءُ إيمانِهِم[1].

وأيضًا لمّا ذكرَ خلق السماوات والأرضِ وما بينهم قال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ بصيغة المبالغة في الوصفين لكثرةِ ما خلقَ وأنَّه تعالى عليمٌ بما خلق[2].

وأيضًا لمّا أخبر اللّه تعالى أنَّ السّاعة آتيةٌ قرّر أنّه تعالى قادرٌ عَلَى إقامَةِ السّاعَةِ، فإنَّهُ الخَلّاقُ الَّذي لا يُعْجِزُهُ خَلْقُ ما يَشاءُ، وهوَ العَليمُ بِما تَمَزَّقَ مِنَ الأجْسادِ، وتَفَرَّقَ في سائِرِ أقْطارِ الأرْضِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَلَّٰقُ﴾: الخَلْقُ أصلُه: تَقْديرُ الشَّيءِ[4]، والخَلْقُ في كلام العَرَبِ على وجهين: ابتداءُ الشَّيءِ على مثالٍ لم يسبق إليه[5]، والآخر: التَّقدير، تقولُ: خَلقَ اللّه الشَّيءَ يَخلُقه خَلْقًا أحدثه بَعْدَ أن لَم يَكُنْ، والخَلْقُ يَكونُ المَصْدَرَ ويَكونُ المَخْلوقَ[6]، ومن صِفات اللّه: الخالِقُ والخلّاقُ، ولا تجوز هذه الصِّفة بالألف واللّام لغير اللّه ﷻ، وهوَ الَّذي أوجد الأشياء جَميعَها بَعْدَ أن لَم تَكُنْ مَوْجودَةً[7]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/78.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 6/493.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلق).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلق).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خلق).
(7) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة: (خلق).

وتقولُ العَرَبُ: خَلَقْتُ الأديمَ: إذا قَدَّرته وقِسته لتقطع منه مزادَةً، أو قربةً، أو خفًّا[1]. والمقصود بالخلّاق في الآية: الموجدُ الأشياءَ على صورَةٍ مَخْصوصَةٍ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول الله تعالى: إنَّ ربَّك يا محمَّدُ ﷺ قادرٌ على إقامةِ السّاعة؛ لأنَّه هو الذي خلق كُلَّ شَيءٍ، فلا يُعجِزُه شَيءٌ، وسيُعيدُ خَلقَ عِبادِه يومَ البَعثِ، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ، ومِن ذلك عِلمُه بما تفَرَّق من أجسادِ العبادِ، وعِلمُه بجميع أعمالِهم[2].

الله الخلّاق لا يعجزه شيء، وهو العليم بأحوال المخلوقات وأفعالها

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعة تصدير الكلامِ بـ﴿إِنَّ﴾:

أفاد تصدير الكلامِ بـ﴿إِنَّ﴾ ربط الجملة بما قبلها وإيلافَها معها، ولو أسقطت ﴿إِنَّ﴾ رأيتَ جملة ﴿رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قد تجافت عن سابقتِها ولا تكونُ منها بسببٍ، كما أفادت ﴿إِنَّ﴾ معنى التّعليلِ لقولِه: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[3]، والمعنى: لأنَّ اللّه تعالى هو الخلّاقُ لك ولهم ولسائر الموجوداتِ على الإطلاق، وهو العليمُ بأحوالك وأحوالِهم بتفاصيلها فلا يَخْفى عليه شيءٌ مما جرى بينك وبينهم، فهو حقيقٌ بأن تكِل جميع الأمورِ إليه ليحكُم بينكم، فلا تقابلهم إلّا بالصّفح والعفو، لأنَّ في الصَّفْحِ عَنْهُم مَصْلَحَةً لَكَ ولَهُم يَعْلَمُها رَبُّكَ، فمَصْلَحَةُ النَّبيِّ ﷺ في الصَّفْحِ هيَ كَمالُ أخْلاقِه، ومَصْلَحَتُهُم في الصَّفْحِ رَجاءُ إيمانِهم، فالخلق العظيم وصفك والجزاء عندنا، ومجيء الرّبط بجملة مصدَّرة بـ﴿إِنَّ﴾ لتكون بمثابة التّعليل لما سبقَها كثيرٌ في التّنزيل جدًّا ولا سيَّما بعد

أمر الرّسول الأكرم بالصّفح الجميل، والجزاءُ عند الجليل

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (خلق).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 434.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 9/58.

الطّلب، كقولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1][1].

بلاغةُ التَّذييلِ في الآية الكريمة:

الجملة تجري كالمثل، في حكايتها والاستدلال بها

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، جاءت الجملة بطريق التّذييل؛ لتفيد تأكيدَ مفهومِ قولِه: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ﴾، وفيها معنى العمومِ والكلّيَّةِ، ولمّا كانت الجملةُ مستقلّةً بالإفادة جرت مجرى المثل في الاستقلالِ وفشوِّ الاستعمال.

غرض التّوكيد في الآية الكريمة:

إقامة الكافرين مقام المنكرين، والله الخلّاق بشأنهم عليم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، أفاد التّوكيد بـ ﴿إِنَّ﴾ وضميرِ الفصل تحقيق مضمون اتّصاف الله تعالى بأنَّه هو الخلّاق العليم، ويلمحُ فيه إقامة الكافرين المكذّبين مقام المنكرين لكونِ الله هو الخلّاق العليم بكفرِهم وتكذيبِهم رسولَه الأمين ﷺ.

نكتةُ اختيارِ عنوان الرّبوبية في الآية:

الصّفح الجميل عن المسيئين، هو من تربية الله لرسوله الأمين

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾، لمّا كانت الجملة بمثابة التَّعليل لأمرِ رسولِه محمَّدٍ ﷺ بالصَّفحِ الجميل عن المسيئين ناسبَ أن يصفَ ﷻ نفسَه بعنوان الرّبوبيَّة دون (إنَّ الله) للإشارةِ إلى أنَّ الذي هو ربُّه والقائم بأمره دومًا والمتكفِّلُ بشأنِه والمتولّي مصلحته لا يَأۡمُرُهُ إلّا بِما فيه صَلاحُهُ ولا يُقَدِّرُ إلّا ما فيه خَيره[2]، ليفيد أنَّ الصّفحَ الجميل عن المسيئين هو من تربية الله لرسوله ﷺ، وهو من كمالاتِ خلُقِه ﷺ، وهو أقربُ لاستمالةِ قلوبِ المسيئين المكذّبين.

غرضُ إضافة الرّبوبيّة إلى ضمير الخطاب:

حثُّ المؤمنين على التخلُّق بخلقِ الصّفحِ الجميل مع جميع النّاسِ

لمّا كان المقامُ مقامَ خطابٍ لرسولِه محمَّدٍ ﷺ بما دلَّ عليه

(1) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 316، والزمخشري، الكشاف: 2/587، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/88، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/78.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.

خطابُ الأمر في قولِه ﴿فَٱصۡفَحِ﴾ ناسبَه أن يضاف لفظ الرّبوبيَّة إلى ضمير الخطاب، بمعنى إنَّ ربَّك القائمَ بشؤونِك هو الذي يبلِّغك غايةَ الكمالِ، ولمّا كان حقُّ الخطابِ أن يكون لمخاطبٍ معيَّن لكنّه قُصِدَ به العمومُ، أي: غيرُ المعيَّن(1) قصدًا إلى أنَّ العلمَ بكونِ اللّه تعالى هو الخلّاقَ العليمَ ليس مختصًّا بواحدٍ دونَ واحد، فيكون حثًّا للمؤمنين على التخلُّق بخلقِ الصّفحِ الجميل مع جميعِ النّاسِ، ويدخل في الخطابِ سيدنا محمَّدٌ ﷺ دخولًا أوّليًّا لمناسبةِ المقامِ كما تقدَّم.

سببُ ذكر ضمير الفصلِ ﴿هُوَ﴾:

خلق الكون لا يقدر عليه سوى الله سبحانه

أفاد ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾ التّخصيصَ والتأكيدَ، بمعنى ليس من خلّاقٍ عليمٍ سوى ربِّكَ، ليفيدَ أنَّ خلقَ السماوات والأرضِ وما بينهما لا يقدرُ عليه سوى اللّه تعالى.

بلاغةُ اجتماع وصفي ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾:

البِشارَةُ بأنَّ الله يَخْلُقُ مِنْ أصلابِ المكذّبين به، من يكونونَ أوْلياءَ له

أفادَ اجتماعُ الوصفين أنّه هو الذي خلق المكذّبين وخلق كلّ شيء، وبدأ بذكر صفة الخلّاق لمناسبتِه ما أخبر به عن أنَّه تعالى خلق السماوات والأرضَ وما بينهما، واقتران وصف الخلّاقِ بخلق السماوات والأرضِ واردٌ في القرآن في قولِه ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١﴾ [يس: 81]، ولمّا كان هو الذي خلقَهم وخلقَ كلَّ شيءٍ ناسبَه هنا أن يقرن به صفة العليم؛ ليفيدَ أنَّه تعالى عالم بهم وبتدبيرهم، وما يأتون منَ الأفعال السيِّئة القبيحة، فيجيزهم بها يومَ قيامِ السّاعة، ولمّا جاءت الجملة في موضعِ التّعليل للأمر بالصَّفحِ أفاد الكلامُ أنَّ ربَّك هو الخلّاقُ لخلقه؛ العليمُ بمصالحهم بأنَّ الصفح الجميل عنهم أصلحُ من مجازاتِهم على إساءَتِهم، وفيه إيماءٌ إلَى بِشارَةِ النَّبيِّ ﷺ بأنَّ

---

(1) السكاكي، مفتاح العلوم، ص: 180.

اللّه يَخْلُقُ مِنْ أولَئِكَ مَنْ يَعْلَمُ أنَّهُم يكونونَ أوْلياء للنبيِّ ﷺ وهُمُ الَّذينَ آمَنوا بَعْدَ نُزولِ هَذِهِ الآيَةِ والَّذينَ وُلِدوا بعد ذلك، وهذه نُكْتَةُ لِذكر وصف ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ دونَ غَيرِهِ مِنَ الأسْماءِ الحُسْنَى[1].

نكتةُ بناءِ صفة ﴿ٱلۡخَلَّٰقُ﴾ على (فعّال):

لم يستأصل الله كفّار قريشٍ بالإهلاكِ، لأنّه سيخلق من أصلابِهم مؤمنين

تقدَّم أنَّه تعالى ذكر وصفَ الخلّاقِ لمناسبتِه أنَّه سبحانه خلق السماوات والأرضَ وما بينهما، وأفادت صيغة فعّال كثرةَ ما خَلَقَ وكثرةَ أنواعِه، أي: كثرةَ المفعول، وأنَّه تعالى الفاعل للخلق مرَّةً بعد مرَّةٍ، ففيه إيذانٌ بأنَّه تعالى سيخلق مَن يرفع أمرَ هذا الدين من أصلاب كفّار قريش، ولهذا لم يستأصلهم بالإهلاكِ[2].

نكتةُ بناءِ صفة ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ على (فعيل):

الإشارة إلى كمال علم الله الّذي أحاط بكلّ شيء

أفاد مجيء صفة عليم بصيغة فعيل، المبالغة في وصفه تعالى بالعلم، ولمّا جاء الوصف محذوف المتعلَّق أفادَ ثباتَ وصفِ العلمِ على المبالغة بمعنى كمالِ علمِه ولزومِه له سبحانه.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/128، والماتريدي، تأويلات أهل السنّة: 6/461، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/78.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/85، وابن التّمجيد، حاشية على البيضاوي: 11/194.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ۝٨٧﴾ [الحجر: 87]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا صَبَّرَ اللّه تعالى نبيَّه عَلَى أذى قَوْمِهِ وأمَرَهُ بأنْ يَصفَحَ الصَّفْحَ الجَميلَ أتْبَعَ ذَلِكَ بِذِكْرِ النِّعمةِ العَظيمَةِ الَّتي خَصَّ اللّه تَعالَى مُحَمَّدًا ﷺ بها، لِيَسْهلَ عليه تحمُّلُ إيذاءِ المشركين إيّاه؛ لأنَّ الإنْسانَ إذا تَذَكَّرَ كَثْرَةَ نِعَمِ اللّه عَلَيْهِ سَهُلَ عَلَيْهِ الصَّفْحُ والتَّجاوُزُ[1].

مَنْ أوتي القُرْآنَ شَغَلَهُ النَّظَرُ فيهِ وامتِثالُ تَكاليفِهِ، عَنِ الاشْتِغالِ بِزَهْرَةِ الدُّنْيا

وأيضًا لمّا صبّر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ على أذيَّة قومِه ذكّرَه بالنّعمة العظيمةِ التي خصَّه بها فقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، فيَطْمَئِنَّ بأنَّهُ كما أحْسَنَ إلَيْهِ بِالنِّعَمِ الحاصِلَةِ فهوَ مُنْجِزُهُ الوُعودَ الصّادِقَةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَثَانِي﴾: أصلُ (ثني): أصْلٌ واحِدٌ، وهو تَكْريرُ الشَّيءِ مَرَّتَيْنِ، أو جَعْلُهُ شَيئَينِ متواليَينِ أو مُتبايِنَين، وذلك قولُكَ: ثَنَيْتُ الشَّيءَ ثَنْيًا[3]، والاثنانِ أصلٌ لِمُتصرِّفاتِ هذه الكلمة، ويُقال ذلك باعتبار العدَد، أو باعتبار التَّكرير الموجود فيه أو باعتبارهما معًا[4]، والثِّنَى: الأمرُ يُعادُ مَرَّتَيْنِ، والثِّنايَةُ: حَبْلٌ مِنْ شَعَرٍ أوْ صوفٍ، ويُحْتَمَلُ أنَّهُ سُمّيَ بِذَلِكَ لأنَّهُ يُثْنَى أوْ يُمكِنُ أنْ يُثْنى، والمَثْناةُ: ما قُرِئَ مِنَ الكِتابِ وكُرِّرَ[5]، والسَّبعُ المَثاني: هي سورَةُ فاتحةِ الكِتابِ؛ لأنَّها يُثَنَّى بها، أي: تُعادُ في كُلِّ رَكْعَةٍ مِنَ الصَّلاةِ، فاشْتِقاقُها مِنَ اسمِ الاثنَينِ، المُرادُ به مُطلَقُ التَّكريرِ[6].

(1) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/158.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ثني).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثني).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ثني).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

التَّسلية والبشارة للرَّسول ﷺ بالسّبع المثاني والقرآن العظيم

لقد امتنَّ اللّه ﷻ على نبيِّه ﷺ بالمنَّة العظمى، وهي إنزال القرآن عليه فقال: ولقد أنعمنا عليك إذ أنزلنا إليك فاتحة الكتاب، وهي سبع آيات تُثَنَّى وتُكرَّر في الصَّلوات الخمس وغيرها، ويُثْنى بها على اللّه ﷻ؛ وهي القرآن العظيم، وتخصيصُ الفاتحة بالذِّكر واعتبارها القرآنَ الكريم؛ لمزيد فضلها ورفيع مكانتها، ولاشتمالها على مقاصد القرآن كله[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في ﴿وَلَقَدْ﴾ ودلالتها في السّياق:

التَّنويهُ بِالقُرْآنِ والحثُّ على قصر النّظر عليه

الواو إمّا أن تكونَ عاطفةً؛ فتكون من عطفِ القصّة على القصّة، أو الغرض على الغرض، وإمّا أن تكون استئنافيَّةً؛ لتفيدَ افْتِتاحَ غَرَضٍ ومشرَعٍ آخر هو التَّنْويهُ بِالقُرْآنِ وقصر النّظر عليه، والتَّحْقيرُ لِعَيْشِ المُشْرِكينَ وما يتمتّعون به في هذه الحياة الدنيا[2].

بلاغةُ القسم وغرضه في السّياق:

تعظيم القرآن بالقسمِ، تنويةٌ بشأنِه ودعوةٌ للإصغاء إليه

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ﴾، لمّا كانت اللّام جوابَ قسم مقدَّر أفادَ القسمُ وجوابُه تعظيمَ المقسم عليه وهو إتيانُ اللّه تعالى نبيَّه ﷺ سبعًا من المثاني وإتيانَه القرآنَ العظيم، للإشعارِ بأنَّه يستحقُّ الإصغاء إليه والاعتناء بما آتاه اللّه تعالى.

نكتةُ التَّعبير بالفعل ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾، دون (أعطيناك):

إيثار اختيار لفظ الإيتاء لمناسبةِ المعنى وسياقِه

عُبِّرَ بالإتيان المفيد لمعانٍ لا يفي بها سوى هذا اللفظ، فالتعبير بالفعل ﴿ءَاتَيْنَٰكَ﴾ أفادَ معنى الإعطاء والتنزيل والإيحاء، ومجيئه بصيغة المتعدّي إلى مفعولين أفادَ معنى تحصيل المُؤتَى بأن يكون بين يديِّ المُؤتَى إليه، للإشعار بأنَّ اللّه تعالى أوصلَ السبع آياتٍ والقرآن

(1) القرطبي: 10/55، والشّنقيطي، أضواء البيان: 2/315، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 5/576.
(2) الطيبي، حاشية على البيضاوي: 9/58، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.

العظيم إلى سيدنا محمَّدٍ ﷺ بسهولةٍ فضلًا منه ونعمةً، كما أوثِرَ فِعْلُ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ دونَ (أَوْحَيْنا) أَوْ (أَنْزَلْنا)؛ لأنَّ الإعْطاءَ بما دلَّ عليه لفظ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾ أظْهَرُ في الإكْرامِ والإنعامِ والمِنَّة(1).

غرضُ الخطابِ بالضّميرِ في ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ﴾:

إتيانُ سبعٍ من المثاني والقرآنِ العظيمِ، خاصٌّ برسول الختام دون سائر الأنام

أفاد ضمير الخطاب تحقيقَ عظمةِ منَّة اللّه تعالى على سيدنا رسولِ اللّه ﷺ؛ بأنَّ إتيان سبعٍ منَ المثاني والقرآن العظيم خاصٌّ بك لم يؤته أحد قبلك ولا يكون لأحدٍ بعدَكَ، ففيه تشريفٌ للمخاطب ﷺ لشرف الخطابِ وتعظيم الإنعام والمنعم به.

غرضُ تنكير لفظ ﴿سَبۡعٗا﴾:

للسّبع المثاني خصوصيّةٌ، وشأنٌ ليس كشأنِ سائرِ القرآن

لمّا كان جاء لمّا جاء لفظ (سبعٍ) مذكَّرًا دلَّ على أنَّ تمييزه مؤنَّثٌ، فتقدير الكلامِ آتيناكَ سبع آياتٍ أو سورٍ منَ المثاني، والظّاهر أنَّ المراد سبعُ آياتٍ، وهي سورةُ الفاتحة في قولِ أكثرِ المفسرين(2)، وجاء لفظ ﴿سَبۡعٗا﴾ بصيغة النّكرة لتفخيم هذه الآياتِ السبْعِ وتعظيمِها ولبيانِ أنَّ لها شأنًا غيرَ شأنِ سائر القرآن.

بلاغةُ التّعبير، بقوله: ﴿سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾:

الفاتحة هي السّبع المثاني، لانصراف الذّهن إليها

لمّا قال اللّه تعالى: ﴿سَبۡعٗا﴾ دلَّ على أنَّ مميّزه محذوف، والظاهر أنَّه بتقدير (آياتٍ)، فأصلُ الكلامِ آتيناكَ سبعَ آياتٍ(3)، فلمّا حذف التّمييز نوّن المميَّز، ليفيد أنَّه معلومٌ واضحٌ فلا يحتاجُ إلى بيانٍ، وأنَّ الذّهن ينصرف إليها بمجرَّد ذكرِها، ولهذا كان القول بأنَّ المراد منها سورة الفاتحة هو الظّاهر، وفي التّنكير تعظيم لشأنِ السّبع وتفخيمها.

معنى حرف ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾:

ألفاظ القرآن وعجائبه، تثنّى ولا تنقطع بمرور الأزمان

تحتمل ﴿مِّنَ﴾ أن تكون للتّبعيض فيكون ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ اسمًا لِلقرآن،

(1) العكبري، التبيان: 2/787، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/79.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/195.

أي سبعًا مِن القرآن الَّذي هو مثاني، لأنَّ ألفاظَه تثنّى على مرور الأوقات وتكرّر في القراءةِ فلا تَدرُسُ ولا تنقطع دون سائر الأشياء التي تضمحل وتبطل على مرور الأيام، ولأنَّ القصص والأخبار تثنى فيه وتردد، ولأنَّ معانيَه وفوائدَه تتجدّد حالًا فحالًا فلا تنقضي عجائبه، فهي تثنّى بمرور الأوقاتِ والأزمانِ، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: 23]، فيكون قد وصف القرآن بوصفين، فوصفه هنا بالمثاني، ووصفه بالعظم في قولِه ﴿وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ﴾، كما تحتمل أن تكون لبيان الجنس، كقوله: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: 30][1]، فيكون لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾ جنسًا للسبْعِ ووصفًا للفاتحة؛ لأنَّها تُثَنَّى في كُلِّ صلاة، ولأنَّ معانيَها من أوَّلها إلى آخرها على المثاني، فيكون قد وصف الفاتحة بوصفين المثاني والعظم لأنَّها جزء من القرآن[2].

معنى (ال) في لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾:

أهميّة التّعريف في معنى المثاني، ودلالـتـه في السّياق

تحتمل (أل) أن تكون جنسيَّة فيكون لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾، وصفًا للسّبعِ وتكون ﴿مِّنَ﴾ لبيان الجنسِ، وتحتمل أن تكون للاستغراق، بمعنى استغراق سور القرآن، فتكون ﴿مِّنَ﴾ للتبعيض كما تقدَّم.

دلالة لفظ ﴿ٱلۡمَثَانِي﴾:

تنوّع معنى المثاني تعظيم لشأنِ القرآن، وتعميمٌ لمعانيه المبهرة

الظّاهر أنَّ لفظ المثاني جمعُ مَثْنَى، فهو مشتقٌّ منَ التّثنية، وفعله ثنى يثني، والمُثَنّاةُ كُلُّ شَيْءٍ يُثَنَّى، أيْ: يُجْعَلُ اثْنَيْنِ، فيكون المراد تثنية القراءة والمعاني أو تثنية القصص إن أريد بالمثاني القرآن، فيَكونُ اسْتِعْمالُ المثاني على هذا المعنى على طريق المجاز المرسل بعَلاقَةِ الإطْلاقِ، أو يكون كِنايَةً لأنَّ تَكْريرَ الآياتِ بقراءتها في الصّلاة لازِمٌ للفاتحةِ، أو تكرير المعاني لازمٌ للقرآن، ويحتمل أن

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/185، وأبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/217، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/373.

يكون مثنى منَ الثّناء، فيكون وصفًا للفاتحة أو للقرآن على حسبِ معنى ﴿مِّنَ﴾، كأنَّ الفاتحة تُثني على اللّه بصفاته الحسنى، على طريق الإسناد المجازي أي بإسناد الثّناء إلى الفاتحة أو القرآن، أو يكون الكلامُ على طريق الاستعارة المكنيَّةِ بتشبيه سورة الفاتحة أو القرآن بالشخصِ المثني على غيرِه بالجميل ثمَّ حذف المشبَّه به وذكر شيءٌ من لوازمِه وهو الثّناء[1].

نوعُ عطفِ جملة ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ على السّابق:

عطف العامّ على الخاصّ تعظيمًا وتشريفًا لسورة الفاتحة

لمّا عطفَ ﴿وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ على ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي﴾ كان من عطفِ الكلِّ على البعضِ أو العامِّ على الخاصِّ تعظيمًا لشأنِ الفاتحة وتشريفًا لها، لتكرّر ذكرها في ضمنِ القرآن العظيم، ففي العطفِ إشعارٌ بأنَّها أشرفُ سورِ القرآنِ، وأنَّ لها مزيدَ فضيلةٍ وخَصوصيَّةٍ على سائر السّور، وفيه تنبيه للمخاطبين على المبالغة في الاعتناء بها، وليَعْلَمَ أنَّ إيتاءَ القُرْآنِ كُلِّهِ نِعْمَةٌ عَظيمَةٌ[2].

براعة دلالة جملتي العطف في سياق الآية:

دلالة الجملتين على الثّناء والتنبيه والتّعظيم

تدلُّ جملتا العطفِ ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾، على ثناء وتنبيهٍ وتعظيم، فأمّا الثّناء فهو على الفاتحة والقرآن بما وُصِفا به؛ إذ وصف السبع بأنّها من المثاني ووصف القرآن بأنّه عظيمٌ، فكانَ لكلِّ موصوفٍ وسمُه مع اشتراكِ كلِّ موصوف منهما بصفة الآخر، فالقرآن هو المثاني والسبعُ آياتٍ عظيمةٌ؛ لأنَّها من المثاني، وأمّا التَّنبيه فهو لحَثِّ المؤمنين على الاهتمام بهما بما ذكرَ من وصفيهِما، وأمّا التّعظيم فهو في بيانِ شأنِهما عندَ اللّه تعالى.

توجيه تخصيص القرآن بالذّكر، دون بقية الأسماء:

القرآن هو الحاوي جميعَ علوم الأولين والآخرين

لمّا كان الكلام على جهة تعظيم المخاطبِ بما أنعم عليه من

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 9/59، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/80.

(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/219، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/81.

المنزَّل، كان الأنسبُ ذكرَ الاسم الأخصّ العلم على المنزَّلِ على سيدِّنا محمَّدٍ ﷺ، وهو القرآن، لئلّا يلتبس الأمرُ عندَ المخاطبين، فيظنّوا أنَّ المرادَ غير القرآن، وفيه نكتة أخرى، وهي أنَّه لمّا كان لفظ القرآن مأخوذًا منَ القَرءِ بمعنى الجمع، وكان الكلام في سياق الامتنان العظيم الذي خُصَّ به سيّدنا محمَّد ﷺ أفاد التّعبير بالقرآن دون غيرِه أنَّه هو الحاوي لجميع علوم الأولين والآخرين مما في جميع الكتب السّالفة وغيره[1].

نكتةُ الوصفِ بـ﴿ٱلۡعَظِيمَ﴾:

القرآن كلام الله، وهو صفته، وكلام العظيم عظيم

لمّا كان القرآن قد جمعَ علومَ الأوّلين والآخرين ممّا في الكتب المنزّلة استحقَّ وصفَه بالعظمةِ؛ كما أنَّ القرآنَ لمّا كانَ كلامَ اللّه تعالى الصّادر منَ العظيم كان وصفُه بالعظيم تنويهًا بعظمةِ اللّه وصفتِه، وتحقيقًا للوصف اللازم له[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/86.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/81.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الحجر: 88]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحثُّ على الاستغناءِ بالقرآن، عن متاع الدّنيا الزّائل، وزينتها الفانية

لَمّا ذَكَرَ تَعالَى ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَى رَسولِهِ ﷺ وهوَ أَنَّهُ آتاهُ سَبْعًا مِنَ المَثاني والقُرْآنَ العَظيمَ، نَهاهُ عَنِ الرَّغْبَةِ في الدُّنْيا فحَظَرَ عَلَيْهِ أَنْ يَمُدَّ عَيْنَيْهِ إلى شَيْءٍ مِنْ مَتاعِ الدُّنْيا رَغْبَةً فيها، ليستغنيَ بما آتاه من القرآن عن الدّنيا[1].

وأيضًا لمّا كان ما أوتيه سيّدنا محمَّدٌ ﷺ وما سيؤتاه أعظم ما أوتيه مخلوق، اتصل به قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾، أي: فلا تنظر إلى الدنيا فإنَّ الذي أعطيناك أعظم منها[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾: أصلُ (مدّ): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على جَرِّ شَيْءٍ في طولٍ، واتِّصالِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ في اسْتِطالَةٍ، كما أُطْلِقَ على بَسْطِ الجِسْمِ وتَطْويلِهِ، يُقالُ: مَدَّ يَدَهُ إلى كذا، ومَدَّ رِجْلَهُ في الأَرْضِ، ثُمَّ اسْتُعيرَ لِلزِّيادَةِ مِنْ شَيْءٍ، تقولُ: مَدَدْتُ الشَّيءَ أَمُدُّهُ مَدًّا، ومَدَّ النَّهْرُ، ومَدَّهُ نَهْرٌ آخَرُ، أي: زادَ فيهِ وواصَلَهُ فأطالَ مُدَّتَهُ[3]، ومنه: المُدَّة للوقت الممتدّ[4]، ومدَّ اللّهُ الأرضَ يَمُدُّها مَدًّا بَسَطَها وسَوّاها، والمِدادُ: ما يُكْتَبُ بِهِ، لأَنَّهُ يُمَدُّ بالماءِ، ومَدَّه في غَيِّه، أي: أمهلَه وطَوَّلَ لَهُ[5]، وتلكَ

(1) ابن الجوزي، زاد المسير: 2/543، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/494.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/86، وابن جزي، التسهيل: 11/421.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.
(4) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مد - مدد).
(5) ابن منظور، لسان العرب: (مدد).

إطلاقاتٌ شائِعَةٌ صارتْ حَقيقَةً، واستُعيرَ المَدُّ في الآية إلى التَّحديقِ بِالنَّظَرِ والطُّموح به؛ تَشبيهًا لَهُ بِمَدِّ اليَدِ لِلمُتَناوِلِ؛ لأنَّ المَنْهيَّ عنهُ نَظَرُ الإعْجابِ مِمّا هُم فيهِ مِنْ حُسْنِ الحالِ في رفاهيَةِ عَيْشِهِم مع كُفْرِهِم[1].

2) ﴿مَتَّعۡنَا﴾: أَصْلُ المَتْعِ: بُلوغُ الغايَةِ مِنَ الشَّيْءِ، يُقالُ: مَتَعَ النَّهارُ يَمتِعُ مَتْعًا، أي: بَلَغَ غايَةَ ارْتِفاعِهِ[2]، والماتِعُ: الجَيِّدُ البالِغُ الجَوْدَةِ[3]، والمُتْعَةُ: المَنْفَعَةُ، والاسْتِمتاعُ: الانْتِفاعُ[4]، تَقولُ: تَمَتَّعْتُ بِكذا واستَمتَعتُ به إذا انْتَفَعْتُ به، والإمتاعُ: النَّفْعُ، والمَتاعُ: كلّ شَيءٍ يُنتفع بِهِ ويُتبلَّغ بِهِ ويتزوَّد؛ والفناء يَأْتي عليه في الدُّنيا، والجَمعُ أمتِعَةٌ[5]، والمقصود بالتَّمتُّع في الآية: انْتِفاعٌ بما يَلَذُّ ويَسُرُّ.

3) ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾: أصلُ (خفض): يدلُّ على الانْحِطاط بعد العُلوِّ[6]، وهو ضدّ الرّفع، والتَّخفيضُ: مدُّك رأسَ البَعير إلى الأرْض لتركَبَهُ، والخَفْض: الدّعة والسّير اللّيّن[7]، وعَيْشٌ خَفْضٌ: ذو دَعَةٍ وخِصْبٍ[8]، والعرب تَقولُ: أرضٌ خافِضَةُ السُّقْيا؛ إذا كانَت سهلَةَ السَّقْي، وأرضٌ رافِعةُ السُّقيا؛ إذا كانَت على خلاف ذَلك، وفلانٌ خافِضُ الجناح، وخافِضُ الطَّيْر؛ إذا كانَ وقورًا ساكِنًا[9]، وخَفْضُ الجَناح تَمثيلٌ لِلرِّفْقِ والتَّواضُع بِحالِ الطّائِرِ إذا أرادَ أنْ ينحطَّ للوقوع خفض جَناحَهُ يُريدُ الدُّنوَّ، وكذلكَ يَصْنَعُ إذا لاعَبَ أُنثاهُ فهو راكِنٌ إلى المُسالَمَةِ والرِّفْقِ، أوِ الَّذي يَتَهَيَّأُ لِحَضْنِ فِراخِهِ[10].

4) ﴿جَنَاحَكَ﴾: أصلُ (جنح): أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على المَيْلِ والعُدْوانِ، ويُقالُ: جَنَحَ إلى كذا، أي: مالَ إليهِ، وسُمّيَ الجَناحانِ جَناحَيْنِ لِمَيلِهما في الشِّقَّيْنِ، والجُناحُ: الإثْمُ، سُمّيَ بِذَلِكَ لِمَيْلِهِ عَنْ طَريقِ الحَقِّ[11]، وجَناحا الطّائِرِ: يَداهُ، وجَناحُ الإنسان: يَدُه، وفي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.
(2) الراغب، المفردات: (متع).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (متع).
(4) محمد الأصبهاني، المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: 3/148.
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (متع).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (خفض).
(7) الراغب، المفردات: (خفض).
(8) الخليل، العين، وابن عباد، المحيط في اللغة: (خفض).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة: (متع).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.
(11) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنح).

التَّنْزيل: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [الإسراء: 24]، أي: أَلِنْ لَهُما جانِبَكَ[1]، والمقصود بالجناح في الآية: التَّواضُعِ واللّينِ التَّواضُعُ واللّينُ في الـمُعاملة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الإنسانُ مأمورٌ بالتَّواضُعِ لإخوانِه المؤمنين، واستصغار زخارف الدُّنيا

لا تَنظُرَنَّ يا محمَّدُ ﷺ وتتطلَّعَنَّ إلى نعيم الدُّنيا الَّذي متَّعْنا به أصنافًا مِنَ الأغنياءِ مِن قَومِك، الذين لا يُؤمِنونَ باللّهِ واليوم الآخرِ، ولا تتمنَّه، واستغنِ بما آتاك اللّهُ مِنَ القرآنِ عمّا هم فيه مِنَ المَتاعِ الفاني؛ فقد أوتيتَ تلك النِّعمةَ العُظمَى، التي كلُّ نِعمة أُخرَى وإن عَظُمَت، فهي حقيرةٌ في جانِبِها، ولا تَحزَنْ على الكُفّارِ أنَّهم لم يُؤمِنوا، فقَدْ بَلَّغْتَ رسالةَ ربِّك، وأَلِنْ جانِبَك للمُؤمنينَ، وارفُقْ بهم، وتواضَعْ لهم[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة مجيء الآية بالفصل دون الوصل:

كلُّ نعمةٍ من نعم الدّنيا وإن عظمت، فهي حقيرةٌ، بالنّسبة لنعمة القرآن

جاءت الآية على طريق الفصل لتفيد ترتّبها على ما قبلَها، فإنَّه تعالى لمّا أخبره أنَّه قد آتاه النِّعمة العظمى التي كلُّ نعمةٍ وإنْ عَظُمَتْ فهي إليها حقيرة ضئيلة، وهي نعمةُ القرآنِ العظيم، ترتّب عليه الاستغناء به عن كلِّ ما سواه من متاع الحياة الدنيا، والمعنى: فلا تمدّن عينيك إلى متاع الدنيا، فجملة ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ مسببَّةٌ عن قوله ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ﴾، ولما كانت السببيَّةُ ظاهرةً أغنت عن الإتيان بالفاء[3]، فيكون قد أمره بالاستغناء عن المال بالقرآن، أي فإنَّ ما في

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (جنح).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/128، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/57، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/546، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 434، والشّنقيطيّ، أضواء البيان: 2/316.

(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/7.

الدُّنيا من أصناف الأموالِ والذخائر بالنسبة إلى ما أوتيتَه مستحقَرٌ لا يُعبأ به أصلًا، ويحتمل أنْ تكون الآية اعتراضًا بين جملتين، فإنَّه لَمّا كانَ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾ فيه تَسْلِيَةٌ لِلرَّسولِ ﷺ عن تَكْذيبِهم وعَداوَتِهِمُ اعْتَرَضَ بما هوَ مَدَدٌ لِمَعْنَى التَّسْلِيَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الالتفاتِ إلَى دُنْياهُم والتَّأسُّفِ عَلَى كُفْرِهِم ومِنَ الأمرِ بأنْ يُقْبِلَ بِمَجامِعِهِ عَلَى المُؤْمِنينَ[1].

براعةُ الاستعارة، في قوله: ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾:

النّـهـيُ عن مدِّ العين إلى زخارف الدّنيا، مستلزمٌ النّهيَ عن تمنّيها

المَدُّ: أصْلُهُ الزِّيادَةُ، وأُطْلِقَ عَلَى بَسْطِ الجِسْمِ وتَطْويلِه، ويُقالُ: مَدَّ يَدَهُ إلَى كَذا، ومَدَّ رِجْلَهُ في الأرْضِ، واستُعملَ اللفظُ هنا على طريق الاستعارة المكنيَّة، بتشبيه نظرِ العين إلى الشّيء على سبيل التَّحديق به وإدامته والطّموح فيه بمدِّ اليدِ للمتناول، فحُذِفَ المشبَّهُ به وذُكِرَ شيءٌ من لوازِمه وهو المدّ، وفائدةُ مجيء الكلام على الاستعارة بيانُ أنَّ المنهيَّ عنه ليس هو تناولَ الزّخارف، بل هو استحسانُ المنظور إليه، والنّظرُ إليه نَظَرَ الإعْجاب، مِمّا هُم فيهِ مِنْ حُسْنِ الحالِ في رَفاهيَةِ عَيْشِهِم مَعَ كُفْرِهِم، فكأنَّ مدَّ العينِ إلى ما متّع الله به أزواجًا منهم فيه معنى تمنّي تحصيله، فيكون النّهي عن مدِّ العين إلى المذكور مستلزمًا النّهي عن تمنّيه، وسبب النّهي مطويٌّ، ودلَّ عليه سياق الكلام بمجيء النّهي بعد ذكرِ نعمة إيتاء القرآن، والتّقدير: لا تمدّنَّ عينيكَ إلى ما متّعنا به أزواجًا منهم؛ لأنّ ما أوتيتَهُ أعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، ليفيدَ الكلامُ توبيخَهم على انشغالِهم بزخارفِ الدّنيا وزينتها، أي فلَوْ كانوا بِمَحَلِّ العنايَة لاتَّبَعوا ما آتَيْنَاكَ مِنَ القرآن العظيم، ولَكِنَّهُم رَضوا بالمتاعِ العاجلِ فلَيْسوا مِمَّنْ يُعْجِبُ حالُهُم[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/590، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/496، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/89.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/97، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

بلاغة النّهي في: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ بصيغة الخطاب:

النّهي للنّبوّة الخاتمة، عن النّظر إلى الدّنيا، فسائر الأمّة أولى بهذا النّهي

قولُه تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾، وفيه أنّ أصل الخطاب أن يكون لمعيَّن وترك هنا إلى غير المعين لقصد العموم، ليكون المقصود نهيَ أتباعِه ﷺ عن مدِّ نظر العينين إلى ما متّع اللّه به رؤوس الكفرِ وأسيادَه، وأعطاهم من أنواعِ متع الدنيا وعظيم أصنافِها، والنّكتة في مجي الكلام بصيغة الخطاب لسيدنا محمَّد ﷺ هو نهي الأمّة عن النّظر إلى مثل هذا المتاع[1]، فإذا كان اللّه تعالى قد نهى رسولَه ﷺ فسائر الأمّة أولى بالانتهاء، كما أنَّ فيه نكتةً أخرى وهي الدعوة إلى استمرارِ عدم النّظر إلى المتاع المذكور، فليس المقصود هو الانتهاء للنّاظر فقط بل قطع النّظر أصلًا، لأنَّ النّهي توجّه إلى رسول اللّه ﷺ وهو لم يمدَّ عينيه أصلًا لأنَّ النّهي لا يقتضي الملابسة ولا المقاربة، فيكون المقصود توجيه الأمّة إلى عدم الاكتراث بالمتاع.

بلاغة الكناية في قوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾:

الزّجر عن التّشوّف إلَى مَتاعِ الدُّنْيا عَلَى الدَّوامِ

لّما كان مدُّ العينين إلى الشّيء يكون بإدامة النّظر إليه، وإدامة النّظر إلى الشّيء تدلُّ على إرادتِه واستحسانِه والرّغبة فيه، عُبِّرَ عن هذا المعنى بقولِه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ﴾ على طريق الكناية؛ ليفيد أنَّ المنهيَّ عنه هو طموح النّفس إلى الشّيء طموح راغبٍ فيه، ويُنتقل من هذا المعنى إلى لازمه وهو النّهي عن تمنّي ذلك، فيكون المعنى: لا تتمنينّ ما جعلنا من زينة هذه الدنيا متاعًا للأغنياء من قومك، الذين لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر، يتمتعون فيها، فإنَّ مِنْ ورائهم عذابًا غليظًا[2].

فائدة التّوكيد في قولِه ﴿لَا تَمُدَّنَّ﴾:

مدّ العينين إلى سراب الدّنيا الخلّب مدخل للفتنة والضّلالة

أفادت النّون الثّقيلة تأكيد النّهي وتقريرَه، بمعنى النّهي عن أيِّ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/322، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/4112.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/141، والواحدي، التفسير البسيط: 12/656، والزمخشري، الكشاف: 2/588، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/197.

مدٍّ للعينين إلى الزّخارف التي متّع اللّه بها الكفّار، وترك القرآن الّذي بين أيدينا.

نكتة التّعبير بالعينين دون أن يقول عينك:

التّعبير بصيغة المثنّى، للإشعار بأنَّه يشبع العينين لكثرته وتنوّعه

عبِّرَ بالعينين بصيغة المثنّى؛ للإشارة إلى أن ما متعهم به يستحقُّ أن يأخُذَ العينين لكثرتِه وتنوّعه، وفيه إشعارٌ بأنَّ ما متّعهم به فيه يشبع النَّظر إلى زهرة الدنيا وزينتها، ولما أُمِرَ ﷺ بغضّ بصره عما يتمتّع به الكفار في الدنيا تأدّب ﷺ فلم ينظر ليلة المعراج إلى شيء مما رأى في الآخرة، فأثنى عليه الحقّ بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: 17][1].

براعة التّعبير بـ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ دون (لا تنظر):

مدُّ العينين يدلّ على الحرص، وتمنّي حصول ما يُرى، والذي ينظر قد لا يرى أصلًا

قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أبلغُ من (ولا تنظر)، لأنَّ الذي يمدُّ بصره إنّما يحمله على ذلك حرصٌ مقترن بالمدِّ ورغبةٌ فيه وتمنٍّ لحصولِه، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه[2].

توجيه المتشابه:

مناسبة كلِّ آيةٍ لسياقِها وسباقِها، بحيث لا تحتمل الزّيادة ولا النّقصان

قال اللّه تعالى في سورة الحجر ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾، وقال في سورة طه: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ [طه: 131]، فزاد في سورة طه: ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ﴾ [طه: 131]، والسّبب هو أنَّه في سورة الحجر جاء النّهي عن مدِّ العينين إلى ما متّعهم اللّه به مطلقًا، فالسورة بنيت على الإيجاز كما تقدَّم، وأمّا ما في سورة طه فقد بيّن أنَّ ما متّعهم به لأجلِ فتنتِهم ليقابل الأمر باستغراقِ الأوقاتِ بالتسبيح بحمد اللّه في قولِه: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/280.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/70.

﴿تَرۡضَىٰ ١٣٠﴾ [طه: 130]، فاستغراق أوقات الليل والنّهار بتسبيحك بحمد ربِّك يا رسولَ اللّه ﷺ لأجل الرّضى، وتمتّعهم بزهرة الحياة الدنيا باستغراق الأوقات فيها لأجل فتنتِهم، والمعنى الذي أُعطيتَه منَ التّسبيح للكرامة، وما أُعطوه فليس للكرامةِ بل للفتنة، وآية سورة الحجر جاءت من غيرِ واو العطف، والذي في سورة طه جاءت بالواو؛ لأنَّ آيةَ سورة الحجر لم يسبقها طلبٌ، وهي مترتّبةٌ على ما قبلها أو معترضة بين آيتين كما تقدَّم، وآية سورة طه سبقها طلبٌ بالتّسبيح، فاقتضى مجيء الوصلِ بالواو لتكون من عطف الطّلب على الطّلبِ[1].

دلالة استعمال حرف ﴿إِلَىٰ﴾ في السّياق:

وصول مدِّ النّظر إلى المتاع، لذّةٌ للعينين فتتمنّاه النّفسُ

لمّا كان حرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ لانتهاء الغاية، أفاد أنّ تأثُّر العينين بالمتاع يكونُ حين يصل مدُّ نظرهما إلى المتاع وينتهي إليه، فحينئذٍ تستلذُّ العَينان بالمتاع وتتمنّاه النّفس.

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها، في سياق الآية:

متاع الدّنيا كلّ ملكها ولذّاتها، ممّا تمتدّ له العيون، وتتشوّف له النّفوس

عبِّرَ بالاسم الموصول ﴿مَا﴾ لإفادة عموم المتاعِ؛ ليشمل كلَّ ما تستلذّه النّفس وتنتفع به من مالٍ، ومما يلْبسهُ النّاس، وما يرتفقون به من منزل وأثاثٍ ومركب، وغيرها من عُروض الدنيا قليلِها وكثيرِها.

فائدة صلة الموصول ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ في السّياق:

أفاد التّعبير بصلة الموصول بيان أنَّ سبب النّهي عن مدِّ العينين إلى ما عندَ الكافرين هو أنَّ الذي عندهم متاعٌ زائلٌ لا بقاءَ له، وأنَّهم لانغماسِهم في لذّة المتاع انشغلوا به عن الإيمانِ والقرآن.

بلاغةُ ذكرِ التَّمتع دون الإنعام:

ما عندَ الكافرين من المتاع، زائلٌ لا بقاء له

عبّر بـ ﴿مَتَّعۡنَا﴾ للإيذانِ بأنَّ ما آتاهم من زهرة الحياة الدنيا

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/234.

التّمتّع سريع الـزّوال وهو فتنة، والإنعام عطيةُ الله على وجه الإحسانِ والامتنان

انتفعوا به على سبيل التّوسُّع في الحياةِ، وظهرَ أثره بين النّاس لِما يومئُ به لفظ (متع) من معنى الارتفاع، وفي التعّبير إشعارٌ بحصولِ اللَّذَّةِ بما تمتّعوا به، وموافقته لهم تمام الموافقة فيرتاحون له؛ لأنَّ النظر إلى متاع الدّنيا كالمركوز في الطباع، وأنّ من أبصر منه شيئًا من زهرة الدنيا أحبَّ أن يمدّ إليه نظره ويملأ منه عينيه، ولمّا كان التمتّعُ بمعنى الانتفاع السريع الزوال القليل اللبثِ، وإن طال أمدُه في نظرِهم، عبِّرَ بـ﴿مَتَّعۡنَا﴾ للإشعارِ بقربٍ زوالِه وأنَّه إنّما كان فتنةً لهم، ولهذا لم يقل: (لا تمدنَّ عينيك إلى ما أنعمنا به)؛ لأنَّ الإنعام هو عطيةُ اللّه تعالى على وجه الإحسانِ لا على وجهِ الامتحان، ويقتضي الإنعامُ الشّكرَ منَ المنعَم عليه للمنعِم، والنّعمة قد تبقى وقد تزول، كما أنَّ الإنعام يكون على جهة العطاء للانتفاعِ بالنّعمة وشكرِها لا على جهة التّوبيخِ والاستدراج كما في لفظ ﴿مَتَّعۡنَا﴾[1].

نكتةُ استعمال فعل متَّع بصيغة الماضي:

الإيـذان بتحقُّق الـوقـوع، ممّا يـسـتـفـاد من معنى

عبّرَ بصيغة الماضي للإيذانِ بتحقّق وقوع تمتّعهم بما عندهم من الأموالِ وغيرِها، وأنّهم قد حصل لهم الغاية في التمتّع.

معنى الباء ودلالتها في قوله تعالى: ﴿مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾:

البـاء للإلصاق وفـيـهـا معنى السببيَّة

الباء هنا للإلصاق، بمعنى التصاق تمتّعهم بما عندهم منَ الأموال وأنواعِ الطّعام والملبس والمركبِ وغيرِها، فكأنَّهم لا يستطيعون الانفكاك عنه، وقد أشربت الباء معنى السببية، بمعنى: أنَّ تمتّعهم كان بسبب ما عندهم منَ الأموال وغيرِها، فيفيد المعنى أنَّ الذي عندهم كان سبب فتنتِهم.

تعيُّن مرجع ضمير ﴿بِهِۦٓ﴾:

يعود الضّمير على الاسم الموصول ﴿مَا﴾ أي: لا تُمدنَّ

(1) أبو القاسم الكرماني، لباب التفاسير، ص: 1006، والعسكريّ، الفروق اللغوية، ص: 197، ومقاييس اللغة، وابن فارس والراغب، المفردات: (متع) (نعم).

يعود على (ما) أي من الزّخارف

عينيكَ إلى الزخارف التي متعنا بها أصنافًا منَ الكفرة اليهود والنصارى والمشركين.

فائدة تقديم الجار والمجرور ﴿بِهِۦٓ﴾:

قدّم (بِه) للإشعار باهتمامهم بالمتاع، وحتى لا يفصل بين النعت (أزواجًا) ومنعوته (مِنْهُم)

قُدِّم حرف الجرِّ ﴿بِهِۦٓ﴾ على المفعول به ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾؛ للإشعارِ باهتمامِهم بالمتاعِ وعنايتِهم له وسرعة إقبالِهم عليه، كما أنَّه لو أُخِّرَ الجار والمجرور فقيل: (لا تمدّنَّ عينيك إلى ما متعنا أزواجًا به منهم) لضعف النظم وانخرمت بلاغته.

دلالة قوله ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾:

الأزواج أي الكفّار ونساؤهم أو أصناف من الكفّار أو أصنافٌ من الزّخارف

إن كان الأزواج بمعنى النّاس، فله وجهان، فإمّا أن يكون بمعناه المشهور، أي الكُفّارُ ونِساؤُهم، ووَجْهُ تَخْصيصِهم بِالذِّكْرِ أنَّ حالَتَهُم أتَمُّ أحْوالِ التَّمَتُّعِ لِاسْتِكْمالِها جَميعَ اللَّذّاتِ والأُنْسِ، وإن كان بمعنى أصنافٍ منَ الكفّار، فهو على النَّظم الذي جرى به التنزيل؛ أي: لا تمدّنّ عينيك إلى ما متعنا به أصنافًا من سادة الكفر منَ اليهود والنّصارى والمشركين، ووَجْهُ ذِكْرِهِ في الآيَةِ أنَّ التَّمَتُّعَ الَّذي تَمتَدُّ إلَى مِثْلِهِ العَيْنُ لَيْسَ ثابِتًا لِجَميعِ الكُفّارِ بَلْ هوَ شَأْنُ كُبَرائِهِم، أيْ: فإنَّ فيهِم مَنْ هُم في حالِ خَصاصَةٍ فاعْتَبِرْ بِهِم كَيْفَ جُمِعَ لَهُمُ الكُفْرُ وشَظَفُ العَيْشِ، وإن كان الأزواج بمعنى أصناف الزّخارف، كان حالًا من هاء الضمير في ﴿بِهِۦٓ﴾ وتكون (مِنْ) للتبعيضِ، و﴿مِّنۡهُمۡ﴾ على موضع المفعول به للفعل ﴿مَتَّعۡنَا﴾، والمعنى لا تمدنَّ عينيك إلى أصناف الزخارف التي متعنا بها بعضًا من الكفرة كالملابس الفاخرة والمراكب الفائقة والروائح الطيبة، والكلام على التقديم والتأخير، كأنَّه قال: لا تمدَّنَّ عينيك إلى ما متّعنا منهم أزواجا[1].

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/464، والطيبي، حاشية على الكشاف: 10/274، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

فائدة تنكير ﴿أَزْوَاجًا﴾ في السّياق الكريم:

لمّا جاء الجمع المنكّر في سياق النّفي، أفاد العمومَ؛ ليشمل أسياد الكفرة كلّهم، ويدخل فيه بعض أزواجِهم الذين كانوا في وقتِ التّنزيل دخولًا أوّليًّا، كما يفيد التنوُّع، إذا أُريد بالأزواج أصناف متماثلة في النِّعَم.

الإشارة إلى ضرورة احترام حرمات الآخرين، والغضّ عن خصوصياتهم

نكتة جمع ﴿أَزْوَاجًا﴾ في الآية:

الأَزْواجُ هُنا يُحْتَمَلُ أنْ يَكونَ عَلَى مَعْناهُ المَشْهورِ، أي: الكُفّارُ ونِساؤُهُم ووَجْهُ تَخْصيصِهِم بالذِّكْرِ أنَّ حالتَهُم أتَمُّ أحْوالِ التَّمَتُّعِ لِاسْتِكْمالِها جَميعَ اللَّذّاتِ والأُنْسِ كما تقدَّم[1]، ويحتمل أن يكون بمعنى رؤساء الكفّار، وجمعهم لأنَّه لمّا كان المتاع إذا كان قليلًا بأن كان لشخصٍ واحدٍ قد تتصاغره الأعين ولا تمتدُّ إليه تشوّفًا ورغبةً فيه عبّر بصيغة الجمع لأنَّ زخارفَ أصناف الكّفار ورؤسائِهم إذا اجتمعت عظمت وتنوّعت، ففيه إشعار بأنَّ النّهي عن مدِّ العينين إلى المتاعِ مقطوعٌ به وإن عظم وكثرت أنواعه.

النّهي عن مدّ العينين إلى المتاعِ مقطوعٌ به وإن عظم وكثرت أنواعه

معنى (مِنْ) ودلالتها في قولِه ﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

الظّاهر أنَّ (مِنْ) بيان للأزواجِ، إذا كان الأزواج بمعنى الأصناف من النّاس والمعنى أزواجًا من الكفّار من اليهود والنّصارى والمشركين، وتحتمل أن تكون للتبعيض إذا كان الأزواج بمعنى أصناف الزّخارف، والمعنى لا تمدّن عينيك إلى أصناف الزّخارف التي متّعنا بها بعضًا من الكفرة.

بيان للأزواج الكفار أو بعض أصناف الزّخارف

براعة تقييد الإسناد بقوله ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا﴾:

لمّا كان النّهي عن مد العينين يحتمل أسبابًا عدّةً قيّد النّهي بقوله ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا﴾ للإيذانِ بأنّهم ظنّوا أنّهم إنّما مُتِّعوا في هذه الدنيا؛

النّظر إلى متاعِ الدّنيا للاعتبار ممدوحٌ، وللانشغال به عن القرآن مذمومٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.

لخطرِهم وقدرِهم عند الله؛ فنهاه أن ينظر إلى ذلك بعين الذين نظروا هم إليه؛ فخرج من مفهوم القيد النّظرُ للاعتبار[1].

فائدة إسناد الفعل إلى ضمير العظمة في قوله ﴿مَتَّعۡنَا﴾:

التّمتيع استدراج قد يكون سببًا في الهلكة

أفاد إسناد الفعل إلى ضمير العظمة أنَّ ما متّعهم به كثير وكبير وأنَّه بعلمِ الله تعالى، ففيه معنى الاستدراجِ.

بلاغة التّعبير في قولِه ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، بين الكناية والتّصريح:

تسلية الله لرسوله وللمؤمنين بنهيهم عن الحزن على كفرِ الكافرين

يحتمل أن يكون النهي عن الحزن عليهم بما يصيرون إليه من العذاب بكفرِهم كناية عن النّهي عن الإشفاق عليهم، وبعدم الاكتراث بهم، وتركهم وما هم فيه من الإصرار والعناد، وهو كالنَّهي عن إذهاب النفس عليهم حسرات، ويفيد بلازمه الأمر بالإغلاظ عليهم؛ وعُبِّرَ بالنّهي عنِ الحزن دون النّهي عن الإشفاق ليفيد التّسلي والتّخفيف عليه ﷺ بدفع الحزن عن نفسه؛ لأنه كان يحزن لكفرهم بالله وتركهم الإيمان؛ حتى كادت نفسه تتلف لذلك؛ كقوله: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ﴾ [الشعراء: 3] الآية، وقوله: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ﴾ [فاطر: 8] الآية، وفي التّعبير كناية أيضًا عَنْ تَوَعُّدِهِم بأنْ سَيَحِلُّ بِهِم ما يُثيرُ الحُزْنَ لَهُم، وكِنايَةٌ عَنْ رَحْمَةِ الرَّسولِ ﷺ بالنّاسِ، ويحتمل أن يكون النّهي على مقتضى الظّاهر، لأنه ﷺ كان يحزن عليهم، ويضيق صدره؛ لما مكروا به وكادوه، والمعنى لا تحزن على كيدِهم ومكرِهم لك، فإنّي سأجزيهم عليه.

نكتةُ مجيء الفعل ﴿تَحۡزَنۡ﴾ بصيغة المضارع:

تجدُّد النَّهي واستمراره

عبّر بصيغة المضارع للإيذانِ بالنّهي عن الحزن، وعن تجدّد النّهي واستمرارِه وإن استمرَّ الكفرُ، وفيه إشعارٌ بأنَّ كفرَ الكافرين وكيدَهم مستمرٌّ لا ينقطع.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/463.

نكتة ذكر متعلّق الفعل في قوله ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾:

ذكر متعلَّق الفعل؛ للإيذانِ بأنَّ المنهيَّ عنه ليس مطلقَ الحزن بل الحزن عليهم، فيكون القيد مقصودًا في النّهي، ولمّا قيَّده بـ (عَلَى) ولم يذكر ما يكون لأجلِه الحزنُ أفادَ أنَّ النَّهْيَ عَن الحزن عَلَيْهِم شامِلٌ لِكُلِّ حالٍ مِنْ أحْوالِهِم التي مِنْ شَأْنِها أنْ تُحْزِنَ الرَّسولَ ﷺ وتُؤْسِفَهُ، فمن ذلك كفرهم وحُلولُ العَذابِ بِهِم مِثْلَ ما حَلَّ بِهِم يَوْمَ بَدْرٍ فإنَّهُم سادَةُ أهْلِ مَكَّة[1].

التَّـهـي شامِـلٌ لِـكُـلِّ ما يُـحْـزِنُ الـرَّسـولَ ﷺ ويُؤْسِفُهُ

دلالة حرف الجرِّ (عَلَى):

يحتمل أن يكون (عَلَى) بمعناه، ليفيد النّهي عن الحزن عليهم بسبب كفرِهم باللّه؛ لأنَّه ﷺ كان يرغبُ في إيمانِهم، والمعنى: لا تحزن عليهم أنَّهم لم يؤمنوا أو لأنَّهم لم يؤمنوا، ويحتمل أن يكون (عَلَى) مضمّنًا معنى السّببيَّة، والمعنى: لا تحزن على مكرهم وكيدِهم لك، أي: بسبب مكرِهم، وعُبِّرَ بحرف الاستعلاء للإشعار بعظم ما يصيبُه ﷺ من الحزنِ بسبب كيدِهم ومكرِهم بحيث لو أصابَ غيرَه لتمكّن منه الحزنُ، وحذف المضاف (مكرهم) للإشعار بأنَّ ذواتهم كلّها صارت مكرًا وكيدًا له ﷺ[2].

النّهي عن الحزن على الكافرين، لِعظمِ كيدِهم ومكرِهم

بلاغة الوصل بالواو في قوله ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ﴾:

لمّا جمع بين النّهيين بالواو دلَّ على مناسبة في المعنى، ليفيد قَوْلُه: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ﴾ النَّهْيَ عَنِ الالتِفاتِ إلَى أموالِهِم، وقَوْلُه: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾ النَّهْيَ عَنِ الالتِفاتِ إلَيْهِم وأنْ يَحْصُلَ لَهُم في قَلْبِهِ قَدْرٌ ووَزْنٌ[3].

المؤمن لا يلتفت إلـى أموالِ رؤساء الكفرِ، وليس لهم في قلبِه قدرٌ ولا وزنٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/82.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 6/465، وابن الجوزي، زاد المسير: 2/543، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/217.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161، والآلوسي، روح المعاني: 7/323.

بلاغة الوصل بالواو، في قوله ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾:

المؤمن مأمورٌ بالتّواضُع لإخوانِه، وخفْضِ جناحه لهم

لَمّا نَهى اللّه تعالى رسولَه ﷺ عَنِ الالتِفاتِ إلَى الأَغْنياءِ مِنَ الكُفّارِ أمَرَهُ بِالتَّواضُعِ لِفُقَراءِ المُسْلِمينَ، ليجمع بين الإعراض عنِ الكافرين وزينتِهم والإقبال على المؤمنين والرّفق بهم، ففيه تتميم للمعاني بطريق المقابلة، وكأنّه يقول له بدلًا منَ الحزن على الكافرين لأنَّهم لم يؤمنوا أقبلْ على مَن آمن واخفض جناحك لهم وقرِّبهم إليك وطب نفسًا بإيمانِهم من إيمانِ الأغنياء من قريشٍ، أي: إذا كان هناك مَن يستحق العناية والاهتمام فهم المؤمنون، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: 54] وقالَ في صِفَةِ أصْحابِ رَسولِ اللّه ﷺ: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: 29]، أو يقال جاءت الجملة بطريق الوصل لتكون على الاحتراس، وبيانه أنَّه لمّا كان النّهي عنِ الحزن عليهم مفيدًا بلازمِه الإغلاظ عليهم كما تقدّم وأعقبه قولُه تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ناسب مجيء جملة ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ كالاعتراضِ للأمرِ بالرِّفْقِ لِلْمُؤْمِنينَ؛ ليفيد أنَّ معاملة المؤمنين تختلف عن معاملة الكافرين[1].

بلاغة الاستعارة التّمثيليّة في السّياق البليغ:

تعظيمُ من آمنَ لإيمانِه، وتصغيرُ ما عندَ الكافرين لكفرِهم

قوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفيه أنّ أصلَ هذه الكلمة أنَّ الطّائر إذا ضمَّ فرخَه إلى نفسِه بسطَ جناحَه له، ثمَّ خفضَه على الفرخ، للمبالغة في الحنوِّ والحيطة والحفظ والصيانة، وكذلك يفعل إذا أرادَ أنْ ينحطّ للوقوع، فيخفض جَناحَهُ للدُّنوِّ؛ لأنَّ الطائر إذا كفَّ عن الطيران خفض جناحيه، وكَذَلِكَ يَصْنَعُ إذا لاعَبَ أُنْثاهُ فهوَ راكِنٌ إلَى المُسالَمَةِ والرِّفْقِ، فخفض الجناح استعارة تمثيليَّةٌ للرّفق والحنوِّ والتَّواضع واللين والإرفاق والتلطّف بالمؤمنين[2].

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 19/161، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 9/221، وابن عطية، المحرر الوجيز: 3/374، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/217، وأبو حيان، البحر المحيط: 10/57، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.

بلاغة الاستعارة في خفض الجناح، بين المكنيَّة والتّصريحية:

تحتمل الاستعارة التمثيلية أن تكون مكنيَّةً؛ إذ صيغَ التَّعْبيرُ عَنِ الرّفق والتّواضعِ بِتَصْويرِهِ في هَيْئَةِ مدِّ جناحِ الطّائر إذا ضمَّ فرخَه إلى نفسِه[1]، كما تحتمل أن تكون تصريحية تبعية؛ إذ شُبِّهَ التّواضع ولين الأطراف والجوانب عند مصاحبة المؤمنين بخفض الطائر جناحه عند الدنوِّ من صغارِه أو عند إرادة الانحطاط، فأطلق على المشبَّه اسم الخفض بطريق الاستعارة التصريحية، فاشتق منه اخفض بمعنى: ألِن على طريقة التبعية، وفائدة الاستعارة على الوجهين تصوير حالةِ التّواضع على معنى الحنوّ والدنوّ واللّين، والاستدلالُ على وجوب الامتثال له بدخولِ المشبَّه في جنسِ المشبَّه به[2].

التـعـبـير عن الرفق والتواضع بهذه الصّورة في المكنيَّة، وتشبيه التواضع واللين بخفض الطائر جناحه لصغاره في التّصريحيَّة

توجيه معنى التّخييل، في قولِه ﴿جَنَاحَكَ﴾:

لمّا أثبت الجَناحَ الذي هو لازم المشبَّه به وهو الطّير كانت الاستعارة تخييليَّة، ويكون ذكر الجناحِ تخييلًا؛ لأن الجناحَ لمّا نقل من المشبه به إلى المشبه صار السّامع يخيل إليه أن المشبَّه من جنس المشبه به، للمبالغة في الأمر بالرّفق والتلطّف بالمؤمنين.

المبالغة في الأمر بالرّفق والتلطّف بالمؤمنين

معنى اللّام ودلالتها في قوله تعالى: ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾:

تفيد اللام الاختصاص، بمعنى أن يكون خفض الجناح مختصًّا بالمؤمنين دون سواهم.

التّواضع للمؤمنين حصرًا

توجيه تخصيص الحكم بالمؤمنين:

لمّا جعل الحكم متعلّقًا بالمؤمنين وكان اللفظ مشتقًّا أفاد تعليق الحكم بالمشتقِّ الدلالةَ على عليّة المأخذ، بمعنى أنَّ إيمانَ المؤمنين بالله تعالى وبك يا رسول الله ﷺ هو سبب الأمرِ بخفض الجناح

إيمان المؤمن سببٌ للين الجانب، وحنوّ القلب على إخوتِه المؤمنين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 20/368.

لهم، وخصَّ الحكم بهم دون أن يكون للمسلمين مثلًا للإشعار بالعلاقة بين الإيمان بالقلب ولين الجانب.

فائدة حذف متعلّق قوله ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾:

لزومهم وصف الإيمان، أو عموم الإيمان بك وبكلّ ما أتيت به

يحتمل أن يكون حذف متعلَّق اسم الفاعل لقصدِ لزوم وصف الإيمانِ، بمعنى الذين صار الإيمان وصفًا لازمًا لهم، كما يحتمل أن يكون الحذف لقصد العمومِ، والمعنى المؤمنين بِكَ وبما أتَيْت بِهِ وهو القرآن العظيم، لذكره في سياقِه[1].

توجيه المتشابه اللفظي:

التّشريف والإنعام بتلطّف سيّد الأنام، شاملٌ لجميع الأمة، لا بالعلية فقط

أوّلًا: قال اللّه تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، وفي سورة الشعراء: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: 215]، فزيد في الشعراء قوله: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الشعراء: 215]، وتوجيهه أنَّه لما لم يتقدم آية الحجر تخصيص بمدعو بل تقدمها خطابه، ﷺ، بالتأنيس والتسلية عمن أعرض والرفق بمن آمن فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، لم يحتج هنا إلى زيادة، ولما تقدم آية الشعراء قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ٢١٤﴾ [الشعراء: 214]، والإنذار يستصحب التخويف والاستعلاء على من يخاطب به، أتبع ذلك تعالى تلطفًا وإنعامًا على من آمن من عشيرته وغيره بقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥﴾ [الشعراء: 215]، فلو لم يذكر هذه الزيادة لكان الظاهر أنَّ اللّام في ﴿لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ للعهد، فصار الأمر بخفض الجناح مختصًّا بالأقربين من عشيرته، فزيد ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ [الشعراء: 215] ليعلم أنَّ هذا التشريف والإنعام بالتلطف والرّفقِ شامل لجميع متّبعيه منَ الأمة[2].

ثانيًا: الذُّل في قوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/186.

(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/292 - 293، والنيسابوري، غرائب القرآن: 4/234.

[الإسراء: 24]، إشعارٌ بعظم حق الوالدين وتأكيدٌ له، وتنزيهٌ له ﷺ منَ الذّلّ، كما أنَّ خفض الجناح بمعنى التّواضع والرّفق في المعاملة، وخفض جناح الذّلِ بمعنى التّواضع والرّفق في المعاملة مع الذّلَّةِ للوالدين.

﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ [الحجر: 89]

علاقة الأمر بترك زخرف الدّنيا، وخفض الجناح للمؤمنين، بإعلانه أنّه هو النّذير المبين

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا أمر اللّه تعالى رسولَه بمتاركةِ الكافرين، وبعدم الاكتراث بهم، قد يتوهّم متوهّم منهم أنَّهم في حلٍّ منَ الإيمانِ أو أنَّ رسول اللّه ﷺ لم ينذرهم ولم يحذّرهم من عذاب اللّه فجاءت هذه الآية.

وأيضًا لمّا أمَرَ اللّه تعالى رسولَه ﷺ بألّا يَحزَنَ عَلَى الكافرين لعدم إيمانهم، وأمَرَهُ بِخَفْضِ جَناحِهِ لِلْمُؤْمنينَ، أمَرَهُ أنْ يُعْلِمَ الكافرين وغيرَهم أنَّهُ هوَ النَّذيرُ المُبينُ؛ لِئَلّا يَظُنَّ الْمُؤْمِنونَ أنَّهُم لَمّا أُمِرَ عليه السلام بِخَفْضِ جَناحِهِ لَهُم خَرَجوا مِنْ عُهْدَةِ النِّذارَةِ، فأمَرَهُ تعالَى بأنْ يَقولَ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: لَكُم ولِغَيرِكُم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾: أصْلُ (نذر): يَدُلُّ على تَخْويفٍ أو تَخَوُّفٍ، ومنه الإنْذارُ: الإبلاغُ؛ ولا يَكادُ يَكونُ إلّا في التَّخويفِ[2]، والنَّذيرُ: المُنْذِرُ، والجَمعُ: النُّذُرُ، والتَّناذُرُ: إنْذارُ بَعْضِهم بَعْضًا[3]، ومِنْهُ النَّذْرُ، وهوَ أنَّهُ يَخافُ إذا أخْلَفَ، والنَّذْرُ أيْضًا: ما يَجِبُ، كَأنَّهُ نُذِرَ، أيْ أوجِبَ[4]، والمراد بالنَّذيرِ في الآية: المُحَذِّرُ مِنْ شَيءٍ يَضُرُّ.

مهمّة الرّسول ﷺ تبليغ الرِّسالة، والإنذار بعقاب الكفر والعصيان

❁ المَعنى الإجماليُّ:

بيَّن اللّه ﷻ في الآية وظيفة الرَّسول ﷺ، فقال: وقُلْ يا محمَّدُ ﷺ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/497.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نذر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عباد، المحيط في اللّغة: (نذر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نذر).

للمُشرِكينَ: إنّي أنا النَّذيرُ الذي قد أبان إنذارَه، وأظهَرَ الحَقَّ لكم، أُنذِرُكم عذابَ اللّهِ إن لم تُؤمِنوا به[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

مناسبة الوصل بالواو في الآية الكريمة:

المبلّغ عن الله منذر مبين، ومتواضع للمؤمنين

قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وفيه يُحتمل أن تكون الجملة معطوفة على قولِه ﴿وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ﴾، فالمَقولُ لَهُم هَذا القَوْلَ هُمُ المُتَحَدَّثُ عَنْهُم بِالضَّمائِرِ السّابِقَةِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾ وقَوْلِهِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ فالتَّقْديرُ: وقُلْ لَهُم، وتكون جملة ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اعتراضيَّة، ويأتي فيها القول بأنَّها للاحتراس كما تقدَّم[2]، ويحتمل أن تكون الجملة معطوفةً على ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[3]، أي: تواضع للمؤمنين وقل للكافرين: إني أنا النذير المبين، فيكون مجيء جملة ﴿وَٱخۡفِضۡ﴾ تتميمًا لِلمعنى.

غرضُ الأمرِ في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ﴾:

تهديد الكافرين وتحذيرُهم بلفظ (قُلْ)

الأمر هنا على معنى الإرشاد وليس على معنى وجوب الامتثال، وفائدته تهديد الكافرين بهذا القول.

فائدة حذف متعلَّق ﴿وَقُلۡ﴾:

نذارة رسول الله ليست مقصورةً على مشركي مكّة، بل هي وصف ثابتٌ له

لمّا كان التّقدير (قل لهم) أي للكافرين، كان حذف الجار والمجرور لإفادة عموم المقول لهم، أي قل لهم ولغيرِهم[4]، بمعنى أنَّ كونه ﷺ نذيرًا مبينًا ليس مقصورًا عليهم، بل هو وصف ثابتٌ له ﷺ، ويدخل فيه الكافرون المذكورون في السياق دخولًا أوّليًّا.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 14/128، والواحديّ، الوجيز، ص: 598، والسمعاني، تفسير القرآن: 3/152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 6/497.

غرضُ التّوكيد في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا﴾ في السّياق:

ذكر وصف النّذارة دون البشارة لمناسبة المقام

أُكِّدَت الجملة بـ (إنَّ) و﴿أَنَا﴾ وبكونها جملة اسميَّةً لكمال العنايةِ بمضمون المعنى، ولأنَّ المخاطبين المقول لهم هذا القول منكرون لكونِ سيِّدنا محمدٍ ﷺ رسولَ الله أشدَّ الإنكار، وللإشارة إلى رجحان وصفِ النّذارة على وصفِ التّبشير في تحذير المنكرين المكذّبين(1).

فائدةُ استعمال ضمير الفصل ﴿أَنَا﴾:

الفصل بين النعت والخبر، وتأكيد المسند إليه

أفاد ضمير الفصل تأكيد المسند إليه وتقريرَه، بمعنى أنا وليس غيري النّذير المبين كما أفاد أن قولَه ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾ خبرٌ وليس صفةً لضمير المتكلِّم في ﴿إِنِّيٓ﴾.

بلاغةُ القصر ونوعه في السّياق الكريم:

قصر على أنّ (أل) في النذير للجنس، ويمكن أن يكون إضافيًّا أو قصر قلب

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾، تحتمل الجملة أن تكون على القصر إن كانت (أل) في ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ للجنس، فيكون القصر إضافيًّا، لأنَّهم لمّا كذّبوا رسول الله ﷺ وصفوه بأنَّه شاعر أو ساحرٌ، ليكون قصرَ قلبٍ أي لستُ شاعرًا ولا ساحرًا كما تزعمون فإنّي نَذيرٌ مُبينٌ(2)، أو يكون المعنى على قصر القلب كذلك، والمعنى: لست كَما تَحْسَبونَ أنَّكُم تَغيظونَني بِعَدَمِ إيمانِكُم فإنّي نَذيرٌ مُبينٌ غَيْرُ مُتَقايِضٍ مَعَكُم لِتَحْصيلِ إيمانِكُم، وإن كانت (أل) في ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ للعهد بمعنى إني أنا النذّير الذي عهدتّموني بسبب تكرّر إنذارِه لهم من قبلُ فلا قصر في الجملة، لتفيد الجملةُ تقريرَ ما يضمرونه ولا يتكلَّمون به عنادًا منهم وتكذيبًا(3).

بلاغةُ اجتماع وصفي ﴿ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ﴾:

رسول الله ﷺ منذرٌ بلسان المقالِ وبلسان الحالِ

لّما كان رسول الله ﷺ أبين من سائر الأنبياء؛ لكونِه منذرًا بلسانِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.

(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.

(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.

الحالِ؛ لكونِ وجودِه ﷺ من أشراطِ السّاعة، كما أنَّه منذرٌ بلسانِ المقالِ جمع بين الوصفين في الآية[1].

نكتةُ ذكرِ ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ دون (البشير):

بعض النّاس لا ينفع معه سوى التّخويفِ والتّهديد، ولا يجدي وعظه

لَمّا كان الكلام مقولًا للكفرة المكذّبين، وكان على وجهِ الوعيد والتّهديد ناسب الاكتفاء بوصف النّذارة وعدم التّعرّض لوصف البشارة؛ إذِ النِّذارَةُ هيَ الإعْلامُ بِحَدَثٍ فيهِ ضُرٌّ وفيه إشعارٌ بأنَّ بعضَ المكذّبين مَنْ لا ينفعهم سوى التّخويف والتّهديد.

نكتةُ بناء صفة ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ على وزن فعيل:

النّذارةُ وصف ثابتٌ لرسول الله ﷺ

أفاد مجيء اللفظ بصيغة فعيل التي هي بمعنى مفعِل أنَّه ﷺ منذِرٌ، ونكتة التّعبير بصيغة فعيل الإيذانُ بأنَّ النّذارة وصف ثابتٌ لرسول اللّه ﷺ.

نكتةُ مجيء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ خبرًا ثانيًا:

رسول الله ﷺ هو الآتي بالبيّنات، والمبين للتّكاليفِ

لَمّا جاء لفظ ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ خبرًا ثانيًا لـ﴿إِنِّيٓ﴾، أفاد الإخبار عن رسول اللّه ﷺ بوصفين ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ و﴿ٱلْمُبِينُ﴾، فيكون الخبر الثّاني على معنى العموم؛ ليدلَّ على أنَّه ﷺ مبينٌ في كلامِه، وفي ما يدعوهم إليه، ومبين الرشدَ من الغيِّ، فهو الآتي بجميع البيِّنات الوافية، ومبينٌ لجميع التّكاليفِ[2]، ولَمّا جاء الخبر مقترنًا بالنّذير دلَّ على خَصوصيَّة إبانتِه في نذارتِه لهم، أي: أنذركم ببيان وبرهان أنَّ عذاب اللّه نازل بكم إن لم تؤمنوا، ففي مجيء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾ خبرًا ثانيًا مقترنًا بـ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ تحريضٌ على الاجتهاد في التحذير.

نكتة مجيء ﴿ٱلْمُبِينُ﴾، بصيغة اسم الفاعل:

النّذارة لإقامة الحجّة، فلا برهانَ للمكذّبين والكافرين

لَمّا جاء الوصف بصيغة اسم الفاعل دلَّ على أنَّ رسول اللّه ﷺ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/198.

(2) ابن عادل، اللباب: 11/490.

قد قام بفعل الإبانة في دعوتِه وفي نذارتِه وأنَّه متّصفٌ بها اتّصافًا ثابتًا، ليفيدَ قيامَ الحجّة عليهم، فلا برهانَ لهم في الكفرِ والتّكذيب.

بلاغة الكناية في سياق الآية:

الإنــذار تخويف ووعيد

قولُه تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾، وفيه أنّه لمّا جاء الكلام في سياق النّهي عن الالتفات إلى ما متّع اللّه به الكافرين والنّهي عن الاكتراث بهم جاءت هذه الآية لتأكيد الأمر بالتّرقي، ليفيد الكلام بطريق الكناية الأمر بمتاركتِهم[1]، فيكون التّرقّي بالأمر بالمتاركةِ أشدَّ عليهم من عدم الاهتمام بهم، وفي المتاركةِ تخويف لهم ووعيد شديد.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/83.

﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90]

الرّبط بين النّذارة النّبويّة، وبين حال المقتسمين من أهل الكتاب

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

جاءت الآية على طريقة التَخَلُّصِ مِنْ تَسْلِيَةِ النَّبيِّ ﷺ إلَى وعيدِ المُشْرِكينَ الطّاعِنينَ في القُرْآنِ بأنَّهُم سَيُحاسَبونَ عَلَى مَطاعِنِهِم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾: أصلُ (قسم): يَدُلُّ على تَجْزِئَةِ شَيْءٍ[2]، القَسْمُ: مَصْدَرُ قَسَمتُ كذا قَسْمًا وقِسْمَةً، وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقهما على أربابهما، والنَّصيبُ قِسْمٌ بِكَسْرِ القافِ، فأمّا اليَمينُ فالقَسَمُ، وهيَ الأيْمانُ تُقْسَمُ على أوْلياءِ المَقْتولِ إذا ادَّعَوْا دَمَ مَقْتولِهِم على ناسٍ اتَّهَموهُم به[3]، ويُقال: فلانٌ مُقَسِمُ الوجه، وقَسيمُ الوجه، أي: صبيحه، والقَسامَةُ: الحُسن، وأصله من القِسمة، كأنَّما آتى كلّ موضع نصيبه من الحُسن فلم يتفاوت[4]، والمقصود بالمُقْتَسِمينَ في الآية: افْتِعالٌ مِنْ قَسَّمَ إذا جَعَلَ شَيْئًا أقسامًا، وصيغَةُ الافتِعالِ هنا تَقْتَضي تَكَلُّفَ الفِعْلِ، والمُقْتَسِمونَ يُرادُ بِهِم جَمعٌ مِنَ المُشْرِكينَ من قُرَيشٍ[5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

العذاب مُقرَّر على المقتسمين لكتاب الله

بيَّن الله ﷻ تلقي المشركين للقرآن العظيم، فقال: وأنذِرْ قومَك عذابًا مثلَ العذابِ الَّذي نزلَ على الَّذين اقْتَسَموا القرآنَ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/84.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قسم).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قسم).
(4) الراغب، المفردات: (قسم).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/85.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 14/128، والواحديّ، الوجيز، ص: 598، وابن عطيّة، المحرر الوجيز: 3/374.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ التّشبيه بالكافِ، في سياق الآية الكريمة:

التّصوير بالبيان والمعاني، إثراء للدّلالات المخبوءة في السّياقات

عبّرَ بأداة التّشبيه الكافِ دونَ غيرِها للإشعار بأنَّ المشبَّه مخبرٌ عنه بلحوقه بغيرِه، أي: بالمشبَّه به، وللتّنبيه على توافق الصّفات، أي: تشبيه صفة إنزال الكتاب على رسول اللّه ﷺ بصفة إنزال الكتاب على رسلِ المقتسمين من أهل الكتاب، أو على جهة تشبيه صفة الإنذار بالعذاب بصفة إنذار الذي أنزلنا على المقتسمين.

بلاغة التّشبيه في الآية:

ذمُّ اقتسام القرآن بالإيمانِ ببعضِه والكفرِ ببعضِه وتهويلُ أمر الطّعن فيه

يحتمل أن يكون المشبَّه هو الإيتاءَ المَأْخوذَ مِنْ فِعْلِ ﴿ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾، لأنَّ الإيتاء بمعنى الإنزالِ، والتقدير: آتيناكَ إيتاءً كالَّذي أَنْزَلْنا أَوْ كَإِنْزالِنا عَلَى المُقْتَسِمينَ، والمعنى ولقد آتيناك ونزلنا عليك القرآن مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون الذين جعلوا القرآن عضين، ويكون قوله تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ أَزۡوَٰجٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ اعتراضًا بما هوَ مَدَدٌ لِمَعْنَى التَّسْلِيَةِ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الالتِفاتِ إِلَى دُنْياهُم والتَّأَسُّفِ عَلَى كُفْرِهِم، ومِنَ الأمرِ بأَنْ يُقْبِلَ بِمَجامِعِهِ عَلَى المُؤْمِنينَ، ويَجوزُ أَنْ يَكونَ المُشَبَّهُ الإِنْذارَ المَأْخوذَ مِنْ قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ﴾ أي: أنذركم إنذارًا كإنذار الذي أنزلنا على المقتسمين الذين جعلوا القرآن عضين، ليفيد شدَّة الإنذار على المقتسمين من مشركي مكّة وغيرِهم، أو أنذركم عذابًا كالعذاب الذي أنزل على المقتسمين[1].

دلالة (ما) في سياق الآية الكريمة:

توصيف حال المقتسمين الّذين جعلوا القرآن عضين، وعواقب ذلك

تحتمل (ما) أن تكون اسمًا موصولًا وهو الظّاهر، وعبّر بـ (ما) دون الذي للإشارة إلى تهويل ما أنزل اللّه على المقتسمين الذين

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/589، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 3/217، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/459.

جعلوا القرآن عضين، كما تحتمل (ما) أن تكون مصدريَّة والتّقدير: كإنزالِنا على المقتسمين.

سببُ ذكرِ الإنزالِ دون الإنذار، في سياق الآية:

تعظيم إنذار الكافرين وتهويله

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾، على القولِ بأنَّ المشبَّه هو الإنذار يكون سبب ذكرِ الإنزال دون الإنذار لتعظيم الإنذار بذكر تنزيلِه عليهم على معنى تمكّنه منهم وإحاطته لهم؛ لأنَّ الإنزال لا يكون إلّا من علوٍّ، وأكّد هذا التمكّن تعدية الفعل بـ﴿عَلَى﴾.

نكتةُ بناء الفعل للفاعل الّذي هو ضميرُ العظمة:

تعظيم شأنِ المنزَّل لعظمة المنزِّل

عُبِّرَ بصيغة الفعل المبني للفاعل للإيذانِ بأنَّ المنزِّل هو اللّه تعالى، للبيان والإيضاح، وهو مناسب لما وصف اللّه تعالى به رسوله الكريم في الآية التي سبقت في وصفِه بالإبانة في النذارة، ولمّا أسند الفعل إلى ضمير العظمة دلَّ على أنَّ مثل هذا الإنزال لا يكون إلا من الملك الواحدِ الأحد، وفيه تعظيم للمنزَّل.

بلاغةُ إقامة الصّفة مقام الموصوف، في قوله ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾:

الطّاعنون في القرآن كثير وأشدّهم قبحًا المقتسمون

لمّا ذكر الصفة وحذف الموصوف في قولِه: ﴿عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ فلم يقل: (على الكافرين المقتسمين) مثلًا دلَّ على عظم قبح الوصف بحيث استحق أن يقوم مقام الموصوف في الإخبار عنه، وكأنَّهم كانوا مشهورين بهذا الوصف القبيح حتَّى صار علَمًا عليهم، فبعض الأوصاف لشدّة قبحها إذا فعلها صاحبها مرَّةً أو مرَّتين صارت علَمًا عليه، فكيف بتكرّر وصف الاقتسام للقرآن بأن جعلوه عضين، ففرّقوا القول فيه؟!.

نكتة التّعبير بصيغة الافتعال في قولِه ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾:

التكلُّف والتعسُّف في محاولاتهم تفريق القول في القرآن

صيغة المقتسمين مأخوذة من قَسَّمَ إذا جَعَلَ شَيْئًا أَقْسامًا، وصيغَةُ الِافْتِعالِ هُنا تَقْتَضي تَكَلُّفَ فعلِ الاقتسام، بمعنى أنَّهم جعلوه أقسامًا، بتفريق القولِ فيه، وهو في الحقيقة غير ذلك[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/85.

بلاغةُ الإجمالِ بقوله ﴿ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ﴾ قبل التبيين:

تشنيع فعلهم وإلهاب مشاعر المخاطب إلى معرفة جرمهم

في ذكر المقتسمين بوصفِ الإجمال ثم بيانهم بالصفة في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ فلم يقل: كما أنزلنا على الذين جعلوا القرآن عضين، لتشنيع فعلهم، وإلهاب مشاعر المخاطبين إلى معرفة جرمهم وصنيعهم، ولتعظيم شأنِ الطّعن في القرآن من هذه الجهة، وللإشارةِ إلى أنَّه ينبغي التنبّه لمثلِ هذا الطّعنِ.

﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [الحجر: 91]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

التّفصيل بعد الإجمال للإشعار بخطر المقتسمين وبيان قبح عملِهم

لمّا أجمل المرادَ بالمقتسمين إجمالًا، بيّنه بالموصول وصلتِه، ليتّضِح أمرُهم ويستبين حالُهم[1]؛ وذلك أنّه بعد أن ذكر المقتسمين في الآية السّابقة بقوله: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠﴾ [الحجر: 90] بيّن هنا أنّ المقصود بهم الذين أجمعوا أمرَهم على رسول الله ﷺ بغرض صدّ النّاس عنه وعنِ القرآن الكريم، وفي سبيل تحقيق مأربِهم اقتسموا طُرقَ مَكّة للتّنفير عنه وعنِ القرآن، وكان نصيبُ القرآنِ مِنَ المُقتسمين - وهم أهلُ الكتابِ والمشركون - أن قَسَموا القولَ فيه، فقال أهلُ الكتابِ "بعنادهم وجهلهم: بعضُه حَقٌّ موافقٌ للتّوراة والإنجيل، وبعضُه باطلٌ مخالفٌ لهما، فاقتسموه إلى حَقّ وباطل"[2]، وتفرَّق المشركون في وصف كلامِه وأسلوبِه، فقالوا: شعرٌ، أو سحرٌ، أو كهانة، وكذَبوا في هذا كلِّه، فـ"الحالُ أنّه جامعُ المعاني، لا مُتفَرّقُ المباني، منتظِمُ التّأليفِ أشَدّ انتظام، متلائِمُ الارتباطِ أحكم التئام"[3]، مخالفٌ لكلّ ما وصفوه به، فهو نسيجٌ وحدَه.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عِضِينَ﴾: واحدها عِضَةٌ، من عَضَيْتُ الشّاةَ: جعلتُها أعضاءً وأقسامًا بعد أن كانت مجموعةً سويَّةً، والعِضَةُ: الجُزءُ والقِطعَةُ مِنَ الشَّيءِ، والاسم التّعضِيةُ، وأصلُ اللّفظِ عُضْوٌ، فحُذِفَتِ الواوُ الّتي هيَ لامُ الكَلِمَةِ، وعوِّضَ عَنْها الهاءُ، مِثْلُ الهاءِ في سَنَةٍ وشَفَةٍ، ويحتمل

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/85.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 19/163.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/89.

أن يكون اللّفظُ مأخوذًا مِنَ العَضْه، وهو البَهْتُ، فحُذِفَت لامُهُ كما حُذِفَتْ مِن سَنَة؛ إذ أصلُ اللّفظِ سَنْهَةٌ، ومثلُه الشَّفَة، فأصلها شَفْهَة، ومنه العُضَيْهَةُ: أن تَعْضَهَ الإنسانَ وتقولَ فيه ما لَيْسَ فيه، ويُجْمَعُ على عِضينَ[1]، و﴿عِضِينَ﴾ هنا بمعنى فرّقوه، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه، أو فرّقوا القولَ فيه، فقالوا: شِعْر، وقالوا: سِحر، وقالوا: كِهانة، وقالوا: أساطير الأوّلين[2].

۞ المَعْنَى الإجْماليُّ:

تنوّعُ أقوالِ المُكذّبين في القرآن، ليصدّوا النّاسَ عن الهدى

ذكر اللّهُ تعالى وصفَ المُقتسمين ليبيِّنَ حالَهم وعادتَهم، فالمقتسمون: هم الذين جعلوا القرآنَ فِرَقًا وأقسامًا، فمنهم مَن يقول في القرآن: هو شِعرٌ، ومنهم مَن يقول: هو سِحر، ومنهم مَن يقول: هو كَهانة، ومنهم مَن يقول: أساطير الأوّلين، ومنهم مَن يقول غيرَ ذلك، فهم يصرِّفونه بحسب أهوائِهم، أو المقتسمون: هم الذين يؤمنون ببعض القرآن ويكفرون ببعضِه الآخر؛ والفريقان يفعلون هذا ليصدّوا النّاسَ عنِ الهدى والقرآن[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة النّعتِ بالاسم الموصول:

الإنذارُ بالعذاب للّذين يفرّقون القولَ بالقرآن؛ لخيبتِهم وخُسرانِهم

في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، جاء الاسم الموصول نعتًا للمقتسمين؛ ليَصِحَّ إحضارُه بواسطة جملةِ الصِّلةِ المعلومة الانتساب، إلى مشارٍ إليه في ذِهن المُخاطَبين، والمعنى: كما أنزلنا على المقتسمين المَعهودين عندكم أنَّهم جعلوا القرآن عِضين، وفي مَجيء النّعتِ بالاسم الموصولِ بيانٌ لوجهِ بناءِ الخبرِ بما تَدُلُّ عليه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عضه).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 239، والسّجستانيّ، غريب القرآن، ص: 346، وابن الهائم، التّبيان، ص: 207.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/146، ولجنة من أساتذة التّفسير، التفسير الميسر، ص: 266.

الصِّلةُ، أي: بسبب جَعْلِهم القرآنَ عِضين، ففيه إشعارٌ بعلّيَّة الصّلة، للحُكم الثّابتِ للموصول والموصوف[1]، كما أنَّ في التّعبير بالموصول وصِلتِه استهجانًا للتّصريح بالاسم، وإنباءً عن خيبتِهم وخسرانِهم؛ إذ قابلوا قولَه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ٨٧﴾ [الحجر: 87] الذي أفاد تعظيمَ القرآنِ وتعظيمَ المِنَّة به، وأنَّه من عند اللّه تعالى؛ بجعلِه عِضين مفرَّقًا القولُ فيه، وبذا يظهر أن سِرّ فصل الآية عن سابقتها، هو ما بينهما مِن كمال الاتصال.

بلاغةُ الكنايةِ:

ما عاب القرآنَ أحدٌ إلّا بسبب حيرتِه وعجزِه عنِ التّحدّي

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا جعلوا القرآنَ عضينَ، بمعنى: تفريق القولِ فيه؛ أفاد بلازمِه أنَّهم كانوا مُتحيِّرين في أمرِهم، مُتعجِّبينَ مِن عجزهم، يفزعون إلى التَّعليل والتَّعذير والمدافعة بما وقع التَّحدي إليه، ووُجِدَ الحَثُّ عليه، فبسببِ حيرتِهم وعَجزِهم عابوا القرآن فجعلوه عضين[2].

بلاغةُ الكنايةِ:

التَّحذيرُ مِنَ العمل ببعضِ القرآن وتَركِ بعضِه، عقيدةً أو تشهّيًا

وفي قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ كنايةٌ أُخرى، وهي أنَّه لمّا جاء الكلامُ على ذمِّ جَعْلِهمُ القرآنَ عضين، وعيبِه وتقبيحِ فعلِهم وزعمِهم، ليَدُلَّ على كفرِهم بهذا الجَعْل؛ أفاد أنَّ الإيمان يكون في أخذ القرآنِ بجُملتِه، والعملِ بمجموعِه، ففيه تحذيرٌ مِنَ العمل ببعض القرآن وترك بعضِه، بسبب الإيمانِ ببعضِه والكفر ببعضِه الآخر، أو بسببِ التّشهّي في أخذ ما يوافق الهوى، وتركِ ما يخالفُه.

بلاغةُ الإيجازِ:

الإعجازُ في الإيجاز

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا تفرّق قولُ المشركين وأهلِ الكتاب في القرآن، وتنوّعت أوصافُهم فيه؛ أوجزَ

(1) السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص: 181، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/90.
(2) الباقلانيّ، إعجاز القرآن، ص: 22.

مقولاتِهم كلِّها في هذا التّعبير، وليس مِن كلامٍ يوجزه مثلُ القولِ بجعلهمُ القرآنَ عِضينَ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿جَعَلُواْ﴾:

شِدَّةُ مباعدةِ مقولاتِ المُكذِّبين، لحقيقةِ القرآنِ المبين

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾، لمّا كانَ الجعل هنا بمعنى الزّعم أو الحُكم بالباطل، على غيرِ مثالٍ سابقٍ[1]؛ أفاد التّعبيرُ بالجَعْل التّعجيبَ مِن شِدَّة مباعدةِ قولِهم وحُكمِهم لمعنى القرآن وحقيقتِه، كما أفاد التّعجيبَ مِن شِدّةِ تكذيبِهم له؛ إذ أتَوا بما لم يسبقهم إليه أحدٌ في نوعِ الافتراء.

نُكْتَةُ مَجيءِ صلةِ الموصول فعلًا ماضيًا:

حقائقُ القرآنِ منطلقة مِنَ الواقع، لا مِنَ الاحتمال

عبّرَ بصيغة الماضي في الفعل ﴿جَعَلُواْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّهم قد أوقعوا الجَعْلَ المذكورَ، وتحقّقَ وقوعُه منهم، واستمرّوا عليه فلم يتراجعوا عنه، فاستلزم ذلك تحقّقَ ذمِّهم، وتوبيخَ جَعْلِهم.

نُكْتَةُ اختيارِ اسمِ القرآنِ دونَ غيره مِنَ الأسماء:

التّعجيبُ مِن جَعْلِ القرآنِ الجامع لثَمَرة كتبِ الله المُنَزّلَةِ عضين

لم يقل: (الذين جعلوا الذِّكرَ عضينَ) مثلًا؛ لأنَّه لمّا كان القرآن مأخوذًا مِنَ القَرْءِ أو مِنَ القراءة، ويفيد أصلُه معنى الاجتماعِ وعدمِ التّفرّق، ولمّا كانَ في الاسم إيماءٌ إلى أنّه جَمَعَ ثمرةَ كُتبِ اللّه، بل جمع ثمرةَ جميعِ العلوم؛ أفادَ أنَّهم تناقضوا في قولِهم، إذ جعلوا ما هو أمرٌ واحدٌ مجموعٌ مفرَّقًا القولُ فيه؛ ليَدُلَّ التّعبيرُ بلفظ القرآنِ على أنَّه جامعُ المعاني، لا متفرِّقُ المباني، منتظمُ التّأليف أشدَّ انتظامٍ، مُتلائمُ الارتباطِ أحكمَ التئامٍ، ففي مَجيء لفظِ القرآنِ تعجيبٌ مِن جَعْلِهمُ المَذكور[2].

---

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/468.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/90.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظ ﴿عِضِينَ﴾:

القولُ بالتّعضيَة إزالــةٌ لـقِـوامِ القرآنِ وحقيقتِه وجَوهرِه

لمّا عُبِّرَ عن تجزئة القرآن بهتانًا وفِريةً بالتَّعضية، التي هي - فيما ذهب إليه كثيرٌ مِنَ المُفسّرين وأهلِ المعاني[1] - تفريقُ الأعضاء مِن ذي الرّوح، المُستَلْزِمُ لإزالة حياتِه وإبطالِ اسمِه؛ كان الكلامُ على طريق الاستعارة التّصريحيّة الأصليَّة، بتشبيه تفريقِهم للقرآن بالشّخص ذي الرّوحِ، الذي تُفرَّقُ أعضاؤه فتَبْطُلُ حياتُه، وتذهبُ حقيقتُه، وفائدةُ الاستعارةِ: هي الإشعارُ بأنَّ جَعْلَهمُ الباطلَ يُبطلُ حقيقةَ القرآنِ، فهم بزعمِهم هذا أزالوا قِوامَ القرآنِ وما به يكون[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿عِضِينَ﴾:

مِن بلاغة القرآن دِقّــةُ اخـتـيـارِ الكلمة؛ للتّعبير عـنِ الـدّلالـةِ المُحْكَمة

عبّر بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ دون أن يقال: (الذين جعلوا القرآن أجزاءً أو مُفرَّقًا)؛ لأنَّ التَّجزئةَ والتَّفريقَ ربما يوجدانِ فيما لا يَضُرُّه التَّبعيضُ مِنَ المِثليّاتِ، وأمّا التَّعضيَةُ فتكون لذي الرّوح كما تقدّم، فالتّعبير بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ تنصيصٌ على كمالِ قُبحِ القولِ بتعضيَةِ القرآن العظيم[3].

دلالةُ قولِه تعالى: ﴿عِضِينَ﴾:

الإيمانُ الانتقائيّ ببعضِ القرآن الحكيم، مِنَ البُهتان العظيم

يحتمل لفظُ ﴿عِضِينَ﴾ أن يكون جمعَ عضوٍ، واحدِ الأعضاءِ؛ لأنَّ معنى التَّعضيةِ التَّفريقُ، كما تُعَضى الجَزورُ والشّاةُ، فتُفرَّقُ أعضاؤُها، فيكون المعنى الذين عَضَهوا القرآنَ، أي: فرّقوه، فقال بعضُهم: هو سحرٌ، وقال بعضهم: هو شعرٌ، وقال بعضهم: هو كَهانةٌ، وقال آخرون: أساطير الأوّلين، وما أشبه ذلك، ففرّقوا القولَ فيه، ويحتمل أن يكون جمعَ عِضَةٍ، بمعنى: البهتان والرّمي بالباطلِ، والقولِ بما ليس في الشّيءِ، وجُمِعَ جَمعَ السَّلامة عوضًا لِما لَحِقَ اللَّفظَ مِنَ الحذفِ، والمعنى: جعلوا القرآن عضين حين اختلفت

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/662.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 4/489.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

أقوالُهم وتفرَّقت في وصْف القرآن، فرَمَوهُ بالباطلِ بهذا التّفريق، والمعنى متقاربٌ على كلا الاشتقاقين، فيُفيدُ لازمُ المأخذين أنَّهم جعلوا القرآنَ مفترًى، ويدخل في لفظ ﴿عِضِينَ﴾ مَن آمن ببعض القرآن وكفر ببعضه، فعن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما قال: (هم أهلُ الكتابِ؛ جَزَّؤوهُ أجزاءً، فآمنوا ببعضِه وكفروا ببعضِه)، يعني قولَ اللّهِ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾[1]، ويدخل في عمومِ الذَّمِّ مَن يعمل ببعضِه ويترك بعضَه؛ لأنَّه جَزَّأه كذلك[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

عِضين وأقسام:

العِضين هو المُفرّق بهتانًا وكذبًا، وهو مذموم والأقسامُ أجزاءُ الشّيءِ، بلا مَدحٍ ولا ذَمٍّ

والفرق بينهما هو أنَّ العِضين جمع عِضَةٍ، وهو إمّا أن يكون بمعنى الشّيءِ المفرَّق من مجموعٍ على جهة تقطيعه، بعدَ أن كان سويًّا كاملًا، ومنه التّعضيَةُ بمعنى تجزئةِ الأعضاءِ، وإمّا أن يكون بمعنى البُهتِ، ومنه العُضيهةُ: أن تَعْضَهَ الإنسانَ وتقولَ فيه ما لَيْسَ فيه، فيكون ﴿عِضِينَ﴾ بمعنى: أنّهم فرّقوا ما لا يحتمل التّفريقَ كذبًا وزورًا.

وأمّا لفظُ (أقسام): فهو جمع قسمٍ، بمعنى إفرازُ النّصيب وتجزئةُ الشّيءِ، وقد يقع مدحًا، وقد يكون ذَمًّا[3]، فكان التّعبيرُ بلفظ ﴿عِضِينَ﴾ أنسبَ وأوفقَ للنّظم؛ لأنَّ المُشْركين فرَّقوا أقاويلَهم في القُرآن بُهتانًا وكَذبًا، أي: فجعلوه مَرّةً كَذبًا، ومرّةً سِحرًا، ومَرّةً شِعرًا، ومَرَّةً كِهانةً، فيُفيدُ اللّفظُ بإطلاقِه على بهتانِ المشركين في فِعْلِهم وذَمّهم عليه، وأنّهم جعلوا ما هو واحدٌ لا يقبل التّجزئةَ لكونِه حَقًّا، ومِنَ الحَقِّ مَفرَّقًا القولُ فيه، بحسب أهوائِهم.

---

(1) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (3945).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/91، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/86، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/662، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/394، والفخر الرّازيّ: مفاتيح الغيب: 19/163، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/200.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (عضه، قسم).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [الحجر: 92 - 93]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبلَهُما:

مجازاةُ الذين يجعلون القرآن عضين، بالسُّؤالِ والتّقريع يومَ الدّين

لمّا جعل المُقتسمونَ القرآنَ عِضينَ؛ تسبَّب عن فعلِهم وترتّب عليه قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، بالتّأكيد بالقَسَم وما تلاه مِن مؤكّدات، على معاقبتهم ومجازاتهم على ما دأبوا عليه مِن أعمالٍ سيِّئةٍ، ومنها: أنهم ﴿جَعَلُواْ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾، وكأنَّه قيل عن ماذا يُسألون؟ فقيل: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾.

المَعْنى الإجْماليُّ:

السّؤالُ يومَ القيامةِ لجميعِ النّاس، وأشَدُّه ما يكون على المُكذّبين بالقرآن

أقسم اللّهُ تعالى في هذه الآية بربوبيّته؛ تعظيمًا للمُقْسَم عليه، وتشريفًا لنبيِّه ﷺ، فقال ما معناه: فوربِّك يا محمَّدُ لنسألنَّ هؤلاء الذين جعلوا القرآنَ عِضينَ عن جميعِ ما كانوا يعملون في الدّنيا، أي: لَنَسْألَنَّهُم يومَ القيامةِ فيما أمرناهم به، وفيما بعثناكَ به إليهم، مِن آي كتابي الذي أنزلتُه إليهم، وفيما دعوناهم إليه مِنَ الإقرار به، ومِن توحيدي والبراءةِ مِنَ الشّرك، كما أنَّه تعالى سيَسْألُ جميعَ النّاسِ يومَ القيامة عمّا كانوا يعملون، ويحاسبُهم عليه، فإنّه تعالى عنده عِلْمُ كلِّ شيءٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

كلُّ أعمالِ الكُفرِ والمُنكرِ متفرِّعةٌ مِنَ الكفرِ بالقرآن، وتكذيبِ بعضِه أو كلِّه

فائدة الفاء في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾:

أفادتِ الفاءُ التّرتُّبَ والتّفريعَ، والمُفرَّعُ هو القَسَمُ وجوابُه، أي: تسبّب عن جعلِهمُ القرآنَ عضين أنّنا نُقْسِمُ بربّك لَنسألنَّهم عمّا كانوا يعملون[2]، وفيه تهويلٌ وترهيبٌ مِن هذا العمل؛ إذ تسبَّب جَعْلُهمُ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/149.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/237، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

القرآنَ عضينَ، وهو عملٌ واحدٌ، في سؤالهم يومَ القيامةِ عن جميعِ ما كانوا يعملون؛ للإشعار بأنَّ كلَّ أعمال الكفر والمنكر متفرّعةٌ مِنَ الكفرِ بالقرآن، وإنكارِ أن يكون مِن عند اللّه تعالى، وذهب بعضُ المُفَسّرين إلى أنَّ التَّفريعَ في الآية هو على ما سَبَقَ مِنْ قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر: 85]، والمعنى: إنّ السّاعة آتيةٌ فاصفحِ الصَّفحَ الجميلَ عنِ المُسيئين؛ لأنّنا نُقْسِم بالموجِد لك ومُدَبِّر أمورِك لَنسألنَّهم أجمعين يومَ القيامة[1].

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾:

كلُّ وعيدٍ قُرِنَ بالقَسَمِ، فهو في غايةِ الشِّدَّةِ والحَزم

واو القسم تُفيد تعظيمَ المُقْسَم عليه، وأنَّه واقعٌ لا محالةَ، كما أنَّه لمّا جاء القَسَم في سياق الوعيد، أفاد أنّه وعيدٌ شديدٌ في نهاية الشّدّة؛ لأنّه وعيد مقرونٌ بالقَسَم، وكلُّ وعيدٍ قُرِنَ بالقَسَم فهو في غايةِ الشِّدَّة[2].

سببُ إيثارِ التّعبير بالرّبوبيّة في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾:

سُؤالُ اللهِ المُكَذِّبينَ سُؤالُ رَبٍّ يَغْضَبُ لِرَسولِه ﷺ

أقْسَمَ تعالى بذاتِهِ ورُبوبيَّتِهِ مُضافًا إلى الضّمير العائد إلى رَسولِهِ على جِهَةِ تشريفه ﷺ، والمعنى: نقْسِم بالموجِد لك، المُدَبِّر لأمرِكَ، المُحْسِن إليك بإرسالك، لنسألنَّهم عمّا كانوا يعملون، وفي الإضافة إلى ضمير الخطاب إيماءٌ إلى أنَّ في السُّؤالِ المُقْسَم عَلَيْهِ حَظًّا مِنَ التَّنْويهِ بِهِ، وهو سُؤالُ اللّه المُكَذِّبينَ عن تَكْذيبِهِم رسولَه ﷺ، وجَحْدِهم لرسالته، وافترائِهم عليها، سُؤال رَبٍّ يَغْضَبُ لِرَسولِه ﷺ، وفيه بيانٌ لعظيم محبَّة اللّهِ لرسوله ﷺ، ولمّا جاء الخطابُ لرسول اللّه ﷺ، والسّؤالُ بضمير الغائبين؛ أفادَ أنَّه ﷺ لن يُسألَ أصلًا، فجَمعَ في هذه الآية بين لُطف العبارة لرسولِه الأمين ﷺ، والتّهديدِ والوعيدِ للكافرين ولأهل المعاصي أجمعين[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/87.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/466.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/497، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/90، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/87.

بلاغةُ مَجيء الكلامِ على خِلاف مقتضى الظّاهر:

لمّا كان شأنُ السّؤالِ في الظّاهر أن يكون سؤالَ استفهام واستعلام، وكان اللّهُ تعالى هو الأعلم بعملِهم، فلا يسألهم: هل عملتُم كذا وكذا؛ كان التّعبيرُ بقولِه تعالى: ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾ على خلاف مقتضى الظّاهر، فإمّا أن يكون على الكناية، بأن يُراد مِنَ السّؤال لازمُه، وهو المُجازاة على العمل وعقابُ المسؤول، فيُفيدُ الوعيدَ والتّهديدَ، كما تقول لمَن تُهدِّدُه: إنَّما تُسألُ عمّا تفعل، أي: نُجازيكَ به؛ وإمّا أن يكون السّؤالُ سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، فيُقال لهم: لمَ جَعَلتُم القرآنَ عِضينَ؟ ولمَ عصيتُم وتركتُمُ الإيمانَ؟ فتظهرُ فضيحتُهم عند تَعَذّر الجواب، وتتبعُه المجازاةُ على العمل، كما أنَّ مُجرّد توجيهِ السّؤال إليهم فيه لَونٌ مِنَ العذاب[1].

عذابُ اللهِ لاحقٌ بالمكذّبين بالقرآن المُبين، مع ظهور فضيحتِهم يومَ الدّين

فائدةُ التّعبيرِ بنون العَظَمة في قوله: ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾:

أُسْنِد السّؤالُ إليه ﷻ بنون العَظَمة؛ لِترهيب المسؤولين وتهديدهم، ولبيانِ جَلال الأمر، وعِظَم ما يرتكبونَ، وللإيذانِ بأنَّه لا يمتنع عليه سبحانَه أحدٌ منهم، ويفيد المعنى بلازمِه: أنَّه تعالى لا يتركُهم، وليس بغافلٍ عنهم، وإن كانوا يَلْهون ويتقوّلون على القرآن، ويُفرّقون القولَ فيه[2].

التّعبيرُ بالعَظَمة لترهيب المسؤولين يومَ القيامةِ، ولبيانِ عِظَم المَلامة

فائدةُ تتابعِ التّوكيد في قوله: ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾:

جاءتِ الجملةُ مؤكَّدةً بالقَسَم وبالنّون الثّقيلة اللّاحقة للفعل؛ لأنَّ المُخاطَبين كانوا مُنكرين سؤالَ اللّهِ تعالى لهم يومَ القيامةِ عمّا كانوا يعملون في الدّنيا، فجاء الخبرُ على طريقة الخبرِ الإنكاريّ، كما أفاد التّوكيدُ تشديدَ التّهديدِ والوعيد عليهم، وفي تتابع التّأكيد إيماءٌ إلى أنَّه تعالى سيسألُهم عن أدقِّ التّفاصيل[3].

تهديدُ المُكذّبين بالقرآن، بأنَّه تعالى سيسألُهم عن أدقِّ التّفاصيل

(1) النّسفيّ، التّيسير: 9/226، والطّيبيّ، حاشية على الكشاف: 9/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/497، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4115.

(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 13/7779.

تخصيص المُقْتسمين بالسّؤال، تهويلٌ لتكذيبهم القرآنَ بما يقال

دلالةُ عودِ الضّمير في قوله: ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾:

الظّاهرُ أنَّ الضّمير في ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾ يَعودُ على جميع المُكلَّفين، مِنْ كافرٍ ومُؤْمِنٍ؛ لِأنَّ ذِكْرَهُم قد تَقَدَّمَ في قوله تعالى: ﴿وَقُلۡ إِنِّيٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلۡمُبِينُ ٨٩﴾ [الحجر: 89]، أيْ: لِجَميعِ الخَلْق، وقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ المُؤْمنينَ وذِكْر الكافرين، فيعودُ قولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ على الكُلِّ، ويُؤيّده أنَّ السّؤالَ يكون في يوم القيامة، فيَدُلُّ على أنَّ السّؤال لعموم المكلَّفين، إلّا مَن يَدْخُلُ الجنَّةَ بغَيْرِ حِسابٍ، ويحتمل أن يعود إلى المُقْتَسِمينَ؛ لأنَّهمُ الأقربُ ذِكْرًا، ويَكونُ المعنى: أنَّهُ تَعالَى أقْسَمَ بنَفْسِهِ أنْ يَسْألَ هَؤُلاءِ المُقْتَسِمينَ عَمّا كانوا يقولونه مِن اقْتِسامِ القُرْآنِ وجَعْلِه مُتفرّقًا في زعمهمُ الباطلِ، وعَنْ سائِرِ المَعاصي، كما أنَّ قصر هذا السّؤال على المَذكورين في السّياق، وصرفَ العموم إليهم؛ لا ينافي سُؤالَ غيرهم، ويكون تخصيصُ السّؤالِ بهؤلاء المُقتسمينَ تهويلًا لِجَعْلِهمُ القرآنَ ﴿عِضِينَ ٩١﴾ وجحودِهم له[1].

لن يتفلَّت أحدٌ مِنَ المكذّبين مِنَ السّؤال، وسوف يسألُهم واحدًا إثْرَ واحد

نُكْتَةُ التّعبير بالتّوكيد بلفظ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾:

عبّر بـ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ تأكيدًا للضّمير في ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ﴾؛ لِدَفْعِ لَبْسِ ما قد يُتَوَهَّم، أنَّه سيسأل أكثرَهم أو الغالبَ منهم، ليُفيدَ لفظُ ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ تأكيدَ العموم الذي دَلَّ عليه الضّميرُ العائدُ كما تقدَّم، والمعنى: لن يتفلَّت أحدٌ ممّن يعود عليه الضّميرُ مِنَ السّؤال، وعبّرَ بـ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ دونَ (مجموعين)؛ لإفادة أنَّه تعالى سيسألُهم واحدًا واحدًا[2].

سؤالُ الله يومَ القيامة للمكلَّفين يكون سؤالَ توبيخٍ وتقريعٍ، وإقامةٍ للحُجّة

دَفعُ إيهامِ التّعارضِ بين الآية المُثبِتَةِ لوقوع السّؤال، وبين غيرها مِنَ الآيات:

فَإنْ قيلَ: كَيْفَ الجمعُ بَيْنَ قَوْلِه تعالى: ﴿لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾، وبين قوله تعالى: ﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ٣٩﴾ [الرَّحْمَن: 39]؟

---

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/164، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/61، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/497، والآلوسي، روح المعاني: 3/172.

(2) الكرمانيّ، لباب التّفاسير، ص: 1008.

فالجوابُ عنه مِنْ وجوه:

الوجه الأوَّلُ: أنَّ المَنفيَّ هو سؤالُ الاستفهام والاستعلام؛ لِأنَّهُ تَعالى عالمٌ بِكُلِّ أعمالِهم، والمُؤكَّدُ وقوعُه بالقَسَم في قوله: ﴿لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هو سؤالُ التّقريع والتّوبيخ، فيُقالُ لَهُم: لِمَ فعَلْتُم كَذا؟ فحين نفى السّؤالَ، نفى أنَّ أحدًا سيُخبرُه بما لا يعلم سبحانَه؛ وحين أثبتَ السّؤالَ؛ فهذا يعني أنّه سيسألُهم سؤالَ الإقرارِ والتّقريعِ والتّوبيخ، ففيه إقامةٌ للحُجّة عليهم أمامَ الخَلْق.

والوجه الثّاني: أنَّ النّفيَ بالنّسبة إلى بعض المواقف يومَ القيامة، والإثباتَ بالنّسبة إلى بعضها الآخر، فيومُ القيامةِ يومٌ طويل يشتمل على مواقفَ ومواطنَ مهولةٍ، وأحوالٍ مختلفة، وبحسب ذلك تختلف العبارةُ والأخبارُ لاختلاف المقاصد والمواطن، ففي بعض المَواقف يُسألون، وفي بعضها لا يُسألون، ونَظيرُهُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ٣٥﴾ [المُرسَلات: 35]، وقالَ تعالى في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزُّمَر: 31].

والوجه الثّالث: أن يقال: لا تعارضَ بينَ الآيتين، فقولُه تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ٣٩﴾ [الرحمن: 39] يفيد عمومَ النّفي، وقولُه تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ عائِدٌ إلى المُقْتَسِمينَ، وهَذا خاصٌّ بهم، ولا شَكَّ أنَّ الخاصَّ مُقدَّمٌ على العامِّ، فالمعنى: نفيُ السّؤالِ عنِ الجميع إلّا سؤالَ المُقتسمين[1].

سببُ إيثارِ السّؤال عمّا سلفَ مِن عملهم:

السّؤالُ يومَ القيامة يكون عنِ الدّاعي إلى معصيةِ الله على جهة التّهديد

وقع السّؤالُ بـ﴿عَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنّه تعالى لا يسألهم: هل عملتُم كذا وكذا؟ فهو تعالى أعلمُ بهم وبأعمالهم منهم، وأفاد السّؤالُ بـ﴿عَمَّا﴾ أنَّ السّؤالَ يكون عن سبب

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/668، والبغويّ، معالم التّنزيل: 4/395، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/164، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/61.

العمل، والدّاعي إليه على جهة التّهديد والمُجازاة على العمل؛ ليفيدَ قيامَ الحُجّة عليهم، وافتضاحَهُم يومَ القيامةِ.

دلالةُ (ما) في قوله: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

سؤالُ اللهِ تعالى عنِ الأعمال المُنكرة، لا عنِ الأعمالِ الصّالحةِ المؤثّرة

لمّا كان لفظُ (ما) اسمًا موصولًا يُفيد العمومَ دخل فيه السّؤالُ عن جميع ما كانوا يعملون، ولمّا جاء الكلام في سياق التّهديدِ والوعيد، دَلَّ على أنَّ المرادَ بـ(ما) ما كان قبيحًا مِنَ الأعمال، فلا تدخل فيه الأعمالُ الصّالحةُ، وسببُ إيرادِ لفظِ العموم مُرتّبًا على جَعْلهمُ القرآنَ عِضين؛ بيانُ أنَّ كلَّ عملٍ أو قولٍ قالوه هو مُتفرِّعٌ على وصفهم للقرآن بأنّه عضين، فيدخلُ فيه وصفُهم لرسول اللّه ﷺ بالسّحر والشّعر والكذب، فهو نفس التّعضيَةِ، فيُسألُ كلُّ أحدٍ بحسب جِرمِه وعصيانِه، فالكافر يُسأل عن (لا إله إلّا اللّه)، وعنِ الرّسل، وعن كُفْره باللّه وبالقرآن، والمؤمنُ العاصي يُسأل عن تضييعهِ للامتثال بالقرآن، وكلُّ مُكلّف عمّا كُلّف القيامَ به، ويدخل فيه سؤالُ المُكذِّبين بتعضيتهم للقرآن وتفريقهم له دُخولًا أوّليًّا[1].

دلالةُ تركيبِ جملة: ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾:

المُنكرُ مِنَ القبائح مُستبشَعٌ، والمُداومةُ عليه أشدُّ بشاعةً

تُفيد صيغةُ (كان يفعل) أنَّ فِعلَ القبائحِ، ومنه تعضيتُهم للقرآن، كان كالطّبع للمُقتسمين؛ لاستمرارِهم على المُنكر، وتجدُّده منهم، وكأنّ سؤالَهم كان بسبب مداومتِهم على التّكذيب، فلو كذّبوا ثمَّ تابوا لما وقعَ السّؤالُ.

دلالةُ التّعبير بالموصول وصلتِه:

عملُ المنكر، والاستمرارُ عليه، سببُ وعيدِ اللهِ بالعذابِ لديه

عبّر بالاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ ليَصِحَّ إحضارُه بواسطة جملةِ الصّلةِ المعلومةِ الانتسابِ، إلى مُشارٍ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/375، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

إليه في ذِهْنِ المُخاطَبين؛ للإشعار بأنَّ عملَهم معلومٌ عندَ المُخاطَبين، وقد اشتهروا به، ولِتُفيدَ صِلةُ الموصول بيانَ سببِ تشديدِ الوعيد بالسّؤال، ففيه إشعارٌ بأنَّ عملَهمُ القبيحَ، واستمرارَهم عليه، هو سببُ الوعيدِ لهم بالسّؤال يومَ القيامة.

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٤﴾ [الحجر: 94]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مَن أوتيَ القرآنَ كان لِزامًا عليه أن ينشرَه بين النّاس، ويبيّن معانيه

لمّا أخبر اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أنّه هو النّذير المبين، وأخبره أنّه تعالى سيسأل كلَّ واحد عمّا عمل؛ فرَّع عليه الأمرَ بالصّدع بما يُؤمرُ، وأن يعلن ذلك لكلِّ أحدٍ، وألّا يلتفت إلى قول المشركين واستهزائِهم.

ولمّا قال اللّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ [الحجر: 87]، وأفادَ الكلامُ بِصَريحِهِ وكِنايَتِهِ التَّسْلِيَةَ عمّا يُلاقيهِ مِنْ تَكْذيبِ قَوْمِهِ؛ فرَّع عليه هذه الآيةَ، فمن أوتيَ سبعًا مِنَ المثاني والقرآن العظيم، فليس له إلّا الجهرُ بها وإعلانُها للنّاس[1].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾: يدور الصّدعُ على معنى ظهور ما كان غيرَ مُبانٍ، بانفراجٍ في المَصدوعِ والتّأثيرِ فيه بقوَّةٍ، وأصل الصّدع هو الشّقّ في الأجسام الصّلبة كالأرضِ، يقالُ: صدعَ الزّجاجَ، أي: كَسَره، فإذا انشقَّ الشّيءُ بالصَّدعِ ظهر ما كان غيرَ مبانٍ، وفيه معنى الفصلِ والفَرْق؛ لأنَّ الشّقَّ يَفْصِل بين الطّرفين، ويقعُ به الإظهارُ، ومنه: تصدَّعَ القومُ، أي: تفرَّقوا، يقال: صَدَعْتُه فانْصَدَعَ، وصَدَّعْتُه فتَصَدَّعَ، وسُمّيَ الصُّبْحُ صَديعًا لظهورِه، واستُعيرَ مِنَ الصَّدع الصُّداعُ، وهو شِبهُ الانشقاق في الرّأس، مِنَ الوجع والألم[2]، و﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ هنا بمعنى: أظْهِرْ واجْهَرْ[3].

2) ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾: يدور معنى الكلمةِ على اتّساع ما يواجِهُ النّاظرَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/87.
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صدع).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 240.

مِنَ الشَّيءِ الكثيف، فمِن ذلك: العارضُ، وهو السَّحابُ، وعُرْضُ الشَّيءِ: ناحيتُه، وإذا قيل: أَعْرَضَ عنّي، فمعناه: ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، بمعنى: أنَّه انحرفَ عنه وولّاهُ عَرْضَه، أي: أَخَذَ جانِبًا غَيْرَ الجانِبِ الَّذي هو فيهِ، فالإعراضُ هو أن تولّيَ الشَّيءَ عَرْضَكَ، أي: جانِبَك، ولا تُقبِل عَلَيْهِ، بقصدِ عدم الالتفات إليه، ويلزمه عدمُ المبالاةِ به[1].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أهميَّةُ الجَهْرِ بالحَقِّ وإظهارِ الدّينِ، وعدمُ المبالاة بالمُثبِّطين والمُبْطِلين

أمرَ اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ في هذه الآية بتبليغ رسالته قومَه، وجميعَ مَن أُرسل إليه، وأن يمضيَ بما يُؤمر في تبليغِ الرّسالة، فقال له ما معناه: بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ، واجهرْ بدعوة الحَقّ التي أمرك اللّهُ بها، ولا تَلْتَفِتْ لأقوال المشركين، ولا تُبالِ بهم إذا لاموكَ على إظهارِ الدَّعوةِ، ولا يمنعْكَ شيءٌ مِن تبليغِ الرّسالة[2].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة الفاء في قولِه: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾:

ما دام اللهُ تعالى قد تولَّى أمرَ المكذّبين، فلمَ التّقاعسُ عن تبليغ القرآن المبين؟

تُفيد الفاءُ ترتُّبَ الأمرِ بالصّدع على ما قبلَه، بمعنى: إذا كان الّذي تولّى أمرَ سؤالِ المُكذّبين يومَ القيامة ومجازاتِهم على أعمالِهم هو اللّهُ تعالى، فاصدعْ بما تؤمَرُ ولا تلتفت إليهم، ويحتمل أن تكون الفاءُ تفريعًا على جملة: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي﴾ وما بعدَها، ليكون الإتيانُ المَذكور وما جاء بعدَه من كونِه ﷺ نذيرًا مبينًا للنّاس أجمعين، سببًا للأمر بالجهر بالقرآن والإعراض عنِ المشركين.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾:

أُمِر رسولُ اللّهِ ﷺ في هذِه الآية بإظهار الدّعوة، وجاء الكلام على الاستعارة، بتشبيه تبليغ الدّعوة والجهرِ بها وإعلانِها بالصّدع

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (عرض).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/551.

تبليغُ القرآنِ كظُهورِ الفجر الصّادق، الّذي يَشُقُّ ظلامَ اللّيل المُطبق

في الأرضِ، وقُصِد به لازِمُه، وهو ظُهورُ الأمرِ المَحْجوبِ وراءَ الشَّيْءِ المُنْصَدِع، ليكون الكلامُ على طريق الاستعارة التّصريحيَّة التّبعيَّة، ووجهُ الشّبه: الظّهور بعد الخفاء، فهو مِثْلُ ظهورِ الفجرِ الصّادق، يَشُقُّ ظلامَ اللّيل البَهيم، أو تكون الاستعارةُ بتشبيه تبليغِ الدّعوة والإعلانِ بها بصَدْعِ الزُّجاجَة، ووجهُ الشّبه: الظّهورُ والنّفاذُ والتّأثير، ثُمّ حُذِف المُشَبَّهُ وذُكِر المُشَبَّهُ به على طريق الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة كذلك، وحقيقةُ الكلام: فبَلِّغْ ما تُؤْمَرُ به، أو فأظْهِرْ ما تُؤْمَرُ به، والاستعارة هنا أبلغ مِنَ الحقيقة؛ لأنَّ الصّدع بالأمر يكون له تأثيرٌ ونفاذٌ في النّفوس والقلوب، كتأثير صَدع الزُّجاجة، أو كتأثير شَقِّ الأرضِ وظهورِ ما كان خافيًا فيها، وفيه إيذانٌ بأنَّ ما تُؤْمَرُ به حُجَّةٌ على المُخاطَبين، والمرادُ الاجتهاد والمبالغةُ في حُسن تبليغ الأمر والحرص عليه وإظهارِه، بحيثُ يكون مكشوفًا مَجهورًا به، وتقومُ به الحُجَّةُ، كظُهور الفجرِ الصّادق في ظَلام اللّيل، وينقطعُ به العُذْرُ، ويؤَثرُ في النّفس التّأثيرَ الذي يقع معه العِلْمُ بصحّتِه[1].

سببُ إيثارِ التّعبير بـ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ دون (فَبَلِّغ):

الصّدعُ بالقرآن حُجّةٌ على النّاس في كلّ زمان

لّما كان الصّدعُ فيه معنى التّصريح بالأمر؛ لُملازمته معنى الظّهور، ويلزمُه الجَهْرُ بالمُصَرَّح به، وفيه معنى الفَرقِ والفَصلِ أيضًا، فيَحْصُل بالصّدع بالقرآنِ الفَصْلُ بينَ الحَقِّ والباطل؛ كان التّعبيرُ بـ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ أبلغَ مِن (فَبَلِّغ) وإن كان بمعناه؛ لأنّ تأثير الصّدعِ أبلغُ مِن تأثير التّبليغ، فقد لا يُؤَثّر التّبليغُ، والصّدْعُ يُؤَثّر جَزمًا[2]، ولو قال: (فَبَلِّغ بما تُؤْمَر به)، لما أفاد المعنى المقصودَ مِنَ الظّهور والتّصريحِ والجَهْر به، وإن كان يجتمع مع ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ في

---

(1) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 87، والخطابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 44، والباقلانيّ، الانتصار للقرآن: 2/451، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/65، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/88.

(2) السّيوطيّ، الإتقان: 3/152.

معنى الإيصال، بيدَ أنَّ التّبليغ قد يَصْعُب حتّى لا يكونَ له تأثيرٌ، فيَصيرَ بمنزلة ما لم يقع، والإيصالُ الذي له تأثير كصَدْعِ الزُّجاجَة أبلغُ، كما أنَّ في تَعَلّق الأمرِ بالصّدع بقولِه: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ يُفيد أنَّ ما أمرَ به رسولُ اللّهِ ﷺ حُجّةٌ على الآخرين كما تقدَّم، فإنَّه يقالُ: صَدَعَ بالحُجَّة، إذا تكلَّم بها جِهارًا[1].

فائدةُ الباء في قوله: ﴿بِمَا تُؤۡمَرُ﴾:

الصّدعُ بالقرآن، لا يكون من غير جَهْرٍ به وإعلان

الباء هنا للمُلابسة، ولمّا كان الفعل ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ يتعدّى بنفسِه، دَلَّ مَجيءُ الباء على تضمينه معنى الجَهْر، فالباء مِن صِلةِ معنى الصَّدعِ، لا لفظِه، والمعنى: فاصْدَعْ واجْهَرْ بما تُؤْمَرُ به، بحيثُ يكون ما تُؤمرُ به مُلابسًا لِصَدْعِك، فيلزَمُ مِنَ الجَهْر بالقرآن إعلانُه وبيانُه.

دلالة (ما) بين المَصدريّة والموصوليّة:

شرائعُ الإسلام كلُّها مودعةٌ في القرآن، رجاءَ أن ينتفع بها الإنسان

تحتمل (ما) أن تكون بمعنى: (الذي)، وهو الظّاهر عند أكثر المُفسّرين وأهلِ المعاني، والتّقديرُ: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ به مِنَ الشّرائع المودَعة في تضاعيف ما أوتيتَه مِنَ المَثاني السّبعِ والقرآنِ العظيم، فحَذفَ الجّارَّ ثمّ حذفَ الضّميرَ، وهو الهاءُ؛ لطول الاسم بالصّلة، وأفاد الحذفُ الإيجازَ والمبالغةَ في المعنى كما سيأتي، وتحتمل (ما) أن تكون مصدريّة، فيكون التّقدير: فاصْدَعْ بالأمر، أو فاصْدَعْ بمأموريَّتِكَ، أي: بما أنتَ عليه مِن كونكَ مأمورًا بتبليغ رسالتِكَ، وبتبليغ القرآنِ الذي نزلَ عليك[2].

نُكْتَةُ التّعبير بـ﴿بِمَا﴾ دونَ (الّذي):

(ما) الموصولةُ أكثرُ عمومًا مِن (الّذي)، وهي آثَرُ هنا في الاستعمال

على القول بأنَّ (ما) موصولةٌ، عُبِّر بـ﴿بِمَا﴾ دونَ (الذي)؛ لأنَّها أكثرُ عمومًا، والمقامُ يقتضيه.

(1) الرّمانيّ، النّكت في إعجاز القرآن، ص: 87، والخطابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 44، والزّمخشريّ، الكشّاف: 2/590، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/217.

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/94، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/671.

نُكْتَةُ التَّعبير بلفظِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾:

عُبِّر بلفظِ ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ الصّدعَ يشمل القرآنَ، وكلَّ ما يعلنه النّبيُّ ﷺ ويجهر به بينَ النّاس، مِن إنذارٍ وتبليغٍ وغيرِهما، فكأنّه يُشير إلى وجوب الأخذِ بجميع ما يقولُه رسولُ اللّه ﷺ مِنَ القرآن وغيرِه.

الصَّدْعُ يَشْمَلُ القرآنَ وكلَّ ما أعلنَه رسولُ اللهِ ﷺ للنّاس

دلالةُ التَّعبير بالمضارع ﴿تُؤْمَرُ﴾:

لم يقل: (بما أُمِرتَ)؛ للإشعار بتَجَدُّد نزولِ أوامرِ القرآنِ على رسول اللّه ﷺ واستمرارها، فالسّورة مَكّيَّةٌ.

تَجَدُّدُ الصّدعِ بالأوامر، تقتضيه متطلّباتُ المغالبةِ والمواجهة

بلاغةُ حَذفِ العائد في قوله: ﴿بِمَا تُؤْمَرُ﴾:

على القول بأنَّ (ما) موصولةٌ، يكون العائدُ إلى الاسم الموصول محذوفًا للعلِم به، والتّقديرُ: (فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ به)، ونُكْتَةُ الحَذفِ: شمولُ الأمرِ كُلَّ ما أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بِتَبْليغِه، فلَم يَقُل: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ بِتَبْليغِه، أو بِالأمرِ بِه، أو بِالدَّعْوةِ إلَيْه، وهو إيجازٌ بَديعٌ لإفادة المبالغة في التّعميم[1].

حَذفُ العائدِ للإيجاز ولإفادة العموم

دلالة التّعبير بصيغة المبني للمفعول ﴿تُؤْمَرُ﴾:

لـمّا كان السّياقُ في تسليَة رسولِ اللّهِ ﷺ، لم يكن مِنَ المناسب هنا أن يُقال: (بما أمَركَ اللّهُ) على التّصريح بالأمر؛ لُطفًا برسولِ اللّه ﷺ، ولـمّا كان الائتمارُ بأمر اللّه هو شأن رسولِ اللّه ﷺ، دَلَّ على أنَّه ﷺ قد صَدعَ بكلِّ ما أُمِرَ به، ويفيدُ بلازمه أنَّ كلَّ ما جَهَر به رسولُ اللّهِ ﷺ وأبانَه وصرّح به؛ هو ممّا أمَرَهُ اللّهُ تعالى به، كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ٤﴾ [النجم: 3 - 4].

كلُّ ما جَهَرَ به رسولُ الله ﷺ، فهو ممّا أمرَهُ اللهُ تعالى به

بلاغةُ الإيجاز:

قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، اشْتَمَلَتْ هذه الكلمات على

براعةُ الإيجاز في اشتمال أربعِ كلماتٍ على جميع ما في الرّسالة المُحَمّديّة

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 9/467، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/88.

وجازتِها، على جَميعِ ما في رسالةِ سيّدنا محمَّدٍ ﷺ، فالكلامُ مِن براعة الإيجاز وبلاغتِه[1]، ولهذا ذكر أبو عُبيدةَ عن رُؤبةَ قولَه: "ما في القرآن أعْرَبُ مِن قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾"[2].

مناسبة الوصل في قولِه: ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾:

التّصدّي لمقولاتِ المُكذّبين قد يُعيقُ إظهارَ الحَقِّ وإتمامَه

لَمّا جاء الفعلُ ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ على الأمر، عطفَ عليه فعلَ الأمرِ ﴿وَأَعۡرِضۡ﴾؛ ليكونَ مِن عطف الطّلبِ على الطّلبِ، وفائدةُ العطفِ: الإشعارُ بأنَّ الإعراض عنهم يُحَقّقُ الصّدعَ بالحَقِّ ويُتِمُّه على أكمل وجهٍ، وأنَّ الانشغال بالرَّدّ على المشركين والتّصدّي لهم، يُعيق إظهارَ الحَقِّ وإتمامَه.

بلاغةُ حَذفِ متعلَّق الفعل:

المؤمنُ يُعرِضُ عن كلِّ ما يكون سببًا في مَنْعِ تبليغ القرآنِ للنّاس

في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، لَمّا كان الإعراضُ عن المشركين لا يُقْصَد به الإعراضُ عن ذواتِهم، والابتعاد عنهم؛ لأنَّ النّبيّ ﷺ مأمور بالصّدع بالدّعوة والجَهْرِ بها، وكان ظاهرُ قَوله تعالَى: ﴿فَٱصۡدَعۡ﴾ مانِعًا مِنْ ذَلِكَ؛ دلَّ على أنَّ ثَمّةَ محذوفًا يتعلَّق به الإعراضُ، والمعنى: أعرض عن أقوال المشركين ولومِهم حين تَظْهَرُ الدَّعوةُ، وأعرضْ عنِ التّصدّي لهم بالانتقام، فيدخلُ فيه الإعراضُ عن كلِّ ما يكون سببًا في مَنْعِ تبليغِ الدّعوة وإظهارِها أو تعويقِها[3]، فيكون الحَذْفُ لإفادة العموم، ولمّا كانَ تعليق الحُكم على المُشْتَقِّ يُؤْذِنُ بعِلّيّة المَأْخَذ؛ كانت نُكْتَةُ تعليقِ الإعراضِ بالمشركين هي الإشعارَ بأنَّ الإعراضَ عنهم هو بسبب شركِهم باللّه تعالى، وأنَّ شركَهم هو الّذي يدفعُهم إلى مَنْعِ تبليغ الدّعوة.

(1) الزّركشيّ، البرهان في علوم القرآن: 3/226.
(2) السّيوطيّ، الإتقان: 4/155.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

بلاغةُ الكناية:

المؤمنُ مأمورٌ بالصّدع بالقرآن، وليس بالانتقام مِنَ المشركين

يحتمل أن يكون قولُه تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ من باب الكناية؛ فإنَّه لمّا كان معنى قولِهم: (أعرَضَ عنه)، هو ولّى مُبديًا عَرْضَهُ، وتَنَحّى جانبًا، كان المرادُ مِنَ الأمر في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾؛ لازمَه، أي: لا تلتفت إلى ما يقولون، ولا تبالِ بهم، ولا يكن شِرْكُهم صادًّا لك عن تبليغ القرآنِ والجَهْرِ به، ولا تتصَدَّ للانتقام منهم، فأنتَ مأمورٌ بالصّدع بالقرآن، وليس بالانتقام مِنَ المشركين.

﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحجر: 95 - 96]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبْلَهما:

كفايةُ اللهِ المؤمنين أمرَ المُستهزئين، بعد أمرِه بالصّدع بما يُؤْمَرُ

لمّا كان الأمرُ بالصّدع بما يُؤْمَرُ به النّبيُّ ﷺ - أي: بالقرآن والدّعوة - في غاية الشِّدَّةِ عليه ﷺ؛ لكثرةِ ما يَلْقى مِن أذى المُشركين، خَفَّفَ عنه سبحانَه بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ مُعَلّلًا لما تقدَّم، فجاءت هاتانِ الآيتان[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَفَيۡنَٰكَ﴾: كَفَى الشَّيْءُ يَكْفي كِفايَةً فهو كافٍ، إذا قامَ بالأمرِ وحَصَلَ بِهِ الاِسْتِغْناءُ عَنْ غَيْرِهِ، ويدور معنى الكفاية على الاستغناء بالشّيء، يقال: اكْتَفَيْتُ بِالشَّيْءِ، بمعنى اسْتَغْنَيْتُ بِهِ، واسْتَكْفَيْتُه أمرًا فكفانيه، أي: قام به وأغناني عنِ القيام به، ويُقال: كَفاكَ هَذا الأمرُ، أي: حَسْبُكَ، والكِفايَةُ: ما فيه سَدُّ الخَلّة وبلوغُ المُرادِ في الأمر، والكُفْيَةُ - بالضَّمّ -: القوتُ، وهو ما يكفيك مِنَ العيش[2].

2) ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾: يدور معنى (هَزَأ) على التّحرُّكِ والتَّحريك القويِّ بسبب الخِفَّة، ومنه قولهم: هَزَأ الرّاحلةَ: حَرَّكَها، وأَهْزَأَتْ به ناقتُه: أَسْرَعَتْ، والهُزْءُ والهُزُؤ: السُّخْرِيَةُ مع استخفافِ قَدْرِ المُسْتَهزَأ به، والاستهزاءُ: ارتيادُ الهُزُؤِ، وإن كان قد يُعَبّر به عن تعاطي الهُزُؤ[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من نعمة الله على رسوله ﷺ أن كفاه أمرَ المُستهزئين

بعد أن أمر اللّهُ تعالى نبيَّه ﷺ أن يجهرَ بالقرآن ويعلنَ ما أُمِرَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كفي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (هزأ أو هزؤ).

به مِنَ الشّرائع، ولا يلتفت إلى لَوْم المشركين ولا يبالي بهم؛ طَمأنَهُ تعالى بأنَّه قد كفاه أمرَ المُستَهْزئين الذين يَسْخَرون منه، وأنّه تعالى عاصِمُه منهم، فلا ينالون منه ولا مِن دعوته ﷺ، فقال ما معناه: إنّا كفيناكَ أمرَ المُسْتَهزئين بِكَ، السّاخِرين مِن زعماء قريش، الذين اتَّخذوا شريكًا مع اللّه في العبادةِ، فسوف يعلمون عاقبةَ عملِهم في الدُّنيا والآخرة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

فائدة (إنَّ) التّوكيديّة:

تُفيد (إنَّ) تَعْليلَ قولِه تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾، فتكون جملةُ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ تعليلًا للإعْلانِ بما أُمِرَ بِهِ، ومرتبطةً بما قبلَها ارتباطَ المسبَّب بالسّبب عن طريق (إنَّ)؛ ولهذا جاءتِ الجملةُ على طريقِ الفَصلِ لا الوصل، فبينَها وما قبلَها (شِبهُ كمالِ اتّصال)، كما أفادت (إنَّ) تأكِيدَ مضمونِ الخَبرِ وتقريرَه؛ اهْتِمامًا بِشأنِ كفايةِ اللّهِ تعالى رسولَه ﷺ المُسْتَهْزئين، لا لِلشَّكِّ في تَحَقُّقِ الخبرِ[2].

المُسْتَهزئون بالقرآن لن يُعيقوا تبليغَه ونَشْرَه؛ لأنَّ الله تعالى كفى في ذلك رسولَه

دلالةُ الجملةِ الاسميّة ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ﴾:

أفادتِ الجملةُ الاسميَّة الثّبوتَ، بمعنى: ثبوت تولّي اللّهِ تعالى كفايةَ رسولِه ﷺ المُسْتَهزئين، ولو كان الاستهزاءُ بعد وفاته ﷺ، فتكونُ كفايةُ اللّهِ تعالى المؤمنينَ أمرَ المُستهزئين، استمرارًا لكفاية اللّه رسولَه أمرَهم.

ثُبوتُ تَولّي اللهِ كفايةَ المؤمنين أمرَ المُسْتَهزئين واستمرارُه

دلالةُ التّعبير بضمير العَظَمَة:

أفاد التَّعبيرُ بضمير العَظَمة ﴿إِنَّا﴾ في الآية، أنَّ كفاية المُستهزئين لا يَقْدِر عليها إلّا اللّهُ المَلِكُ الواحدُ الأحدُ، وأنَّ كفايتَه عظيمةٌ مهولة؛

لِشِدّة خطرِ المُسْتَهزئين بالقرآن وبالإسلام، تولَّى اللهُ تعالى كفايتَهم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

لِيُشْعِرَ بخطر أمرِ المُسْتَهزئين على القرآن وعلى الإسلام، والمعنى: نكفيكَ المُسْتَهزئين بقَمعِهم وإهلاكِهم[1].

بلاغةُ مَجيءِ المسندِ جملةً فعليَّةً:

تدبيرُ اللهِ تعالى لأمرِ رسولِه ﷺ، وعنايتُه بكفايتِه المُسْتَهزئين

أفادَ مَجيء المُسْنَدِ ﴿كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ جملةً فعليَّةً تقويةَ الحُكمِ، بمعنى: تحقيقِ كفايةِ اللّه تعالى رسولَه أمرَ المُسْتَهزئين، وأنَّ هذه الكفايةَ لا تكون إلّا مِنَ اللّه تعالى، ولا يَقْدِر عليها سِواه ﷺ، ففي الكلامِ معنى تدبيرِ اللّهِ تعالى لأمر رسولِه ﷺ، وعنايتِه ولُطْفِه به.

دلالةُ مَجيءِ الفعلِ بصيغة الماضي:

التّعبيرُ عمّا يكون في المستقبل بصيغة المُضيّ، إيذانٌ بقُربِه، وتَحقّق وقوعِه

كان الظّاهرُ أن يقول: (إنّا نكفيك المستهزئين)؛ لأنَّه تعليلٌ لِلأمر بالصّدْع بالقرآن، فالمعنى: فاصْدَعْ بما تُؤْمَرُ؛ لأنّنا سنكفيكَ أمرَ المُسْتَهزئين، فقد جاء في كتبِ التّفسير: أنَّ رؤساءَ المُستهزئين ورؤوسَهم، ممّن لهم قوَّةٌ وشَوْكَةٌ ورئاسَةٌ، كانوا خمسةً، وكلُّهم ماتَ قبلَ بدرٍ[2]، فتكونُ كفايتُهم بإهلاكِهم، بعدَ الأمر بالصّدع، ويُؤيّدُه قولُه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ على معنى الاستقبال، ونُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة الماضي: الإيذانُ بقُربِه وتَحَقُّقِ وقوعِه، لإخبار اللّه تعالى به، وأنَّه تعالى قد قضى بهذا الأمر، كأمور القيامة ذُكِرَتْ أكثرُها بصيغة الماضي لهذا[3].

فائدةُ الخطاب في قوله: ﴿كَفَيۡنَٰكَ﴾:

مَن يدافعُ اللهُ عنه فهو عظيمُ القَدْرِ عندَه

جاء الكلامُ على طريق الخطاب لرسول اللّه ﷺ، كما هو حال السّياق، وفيه إشعارٌ بعُلوِّ قَدْرِهِ ﷺ، وعِظَمِ مَنْصِبِهِ؛ إذ يدافع اللّهُ تعالى عنه، ويحميه مِنَ المُستهزئين.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/202.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/159.

(3) النّسفيّ، التّيسير في التّفسير: 9/227، 231.

دلالة إسناد الكفاية إلى ذات المُستهزئين:

كفاية المُستهزئين تكون بكفاية استهزائِهم وذواتِهم

لما كان مَعْنَى الكِفايَةِ هو تَولّي الكافي ما يَهمُّ المَكْفيَّ ممّا هو معنًى أو حدثٌ، وليس ذاتًا، فالكافي هو مُتَولّي عَمَلٍ عَنْ غيْرِه؛ لِأَنَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْهِ، أَوْ لِأَنَّه يَبْتَغي راحَةَ المَكْفيّ، ولمّا كان المفعول الثّاني للفعل (كفى) هو المُهمَّ المَكْفيَّ مِنْهُ، وهو هنا ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ وهو اسم ذاتٍ؛ كان المرادُ بكفاية المُستهزئين كفايةَ أحوالِهم، التي يدلُّ عليها المقام، والمرادُ: كَفَيْناكَ الِانْتِقامَ مِنْهُم، وإراحَتكَ مِنِ اسْتِهْزائِهِم، وكانوا يَسْتَهْزِئونَ بِصُنوفٍ مِنَ الِاسْتِهْزاءِ.

ونُكْتَةُ إسناد الكفاية إلى ذات المُستهزئين، إذ لم يقل مثلًا: (إنّا كفيناك استهزاءهم)؛ الإشعار بأنَّه تعالى يكفي رسولَه ﷺ ذواتَهم واستهزاءهم، فلو قيل: كفيتُكَ عدوَّك؛ كان أبلغَ مِن: كفيتُكَ أذى عدوِّك[1].

فائدة (أل) في لفظ: ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾:

الاستهزاء بالقرآن كفرٌ، سواءٌ كان الاستهزاء كثيرًا أو قليلًا

التَّعْريفُ في المُسْتَهْزِئينَ لِلْجِنْسِ، فيُفيدُ العُمومَ، أيْ: كَفَيْناك كلَّ مُستهزئٍ، ويدخل في الذّمِّ والعقوبةِ مَن كثر استهزاؤه وعَظُم، ومَن قَلَّ استهزاؤه وصَغُرَ، ويدخل فيه المُستهزئون مِنْ أكابِرِ الكُفّارِ وأهْلِ الشَّوْكَةِ من قريشٍ دخولًا أوّليًّا، وإذا كَفاهُ اللّه أمرَهُم بِقَمعِهِم وتَدْميرِهِم، كَفاهُ أمرَ مَنْ هو دونَهُم بِالأَوْلَى[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالوصف في قولِه: ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾:

تهويلُ شأنِ الاستهزاء برسول الله ﷺ أو بالقرآن

التَّعْبيرُ عَنْهُم بِوَصْفِ المُسْتَهْزِئينَ إشعارٌ بأنَّهم عريقون في الاستهزاء برسولِ اللّه ﷺ وبما جاء به؛ لتهويل شأنِ الاستهزاء به ﷺ، أو بالقرآنِ ولو كانَ قليلًا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّهُ تعالى كَفاهُ استهزاءَهُم، وهو أقَلُّ أنْواعِ الأذَى، فكِفايَتُهُ ما هو أشَدُّ مِنَ الِاسْتِهْزاءِ مِنَ الأذَى مَفْهومٌ بِطَريقِ الأَحْرَى والأولى[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/173، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/89.

بلاغةُ الكناية:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾، وفيه: أنّه لـمّا تولّى اللّهُ تعالى كفايةَ رسولِه ﷺ في كفايته المُسْتَهْزئينَ، أفاد بلازمِه أنّ المستهزئين لن يصلوا إليكَ، ولن يُؤَثِّروا في جَهْرك بالدّعوة بشيءٍ يُمليه استهزاؤهم، فإنَّنا كفيناك المُستهزئين واستهزاءَهم، وهذا ضمانٌ منه سبحانه لكفايةِ رسولِه أمرَ المُستهزئين، وحمايته له ﷺ منهم.

ضمانُ حمايةِ اللهِ رسولَه ﷺ لتأمين أمرِ الدّعوة ونشرِها

بَراعةُ ذِكْرِ المُستهزئين بعد المشركين، والمقصود فريقٌ واحد:

لَمّا أمر اللّهُ تعالى رسولَه بالصّدع بالقرآن وبالدّعوة إلى الإسلام، وكان المقصود تفرّغ رسولِ اللّه ﷺ لأمر الدّعوة، وعدمُ الانشغالِ بأيِّ أمرٍ عنها؛ أعقبه بالأمر بالإعراضِ عنِ المشركين، فأسندَ الإعراضَ عنهم إلى رسول اللّه ﷺ.

من بلاغة القرآن دقّةُ اختيارِ اللّفظ المناسبِ للمعنى وللنّظم

ولـمّا كان المُستهزئون يشغلون رسولَ اللّه ﷺ عنِ الصّدع بالقرآن، ويَقسون عليه صرفًا له عن أداء مهمّته، فلا جرم أنّ اللّه وكلَ أمرَهم إليه ﷻ، ولـمّا كان الإعراض بمعنى عدمِ الالتفات إلى إساءَةِ المشركين وعتابِهم ولومِهم، ولم يكن في الإشراكِ معنى التّعدّي بالأذى على رسولِ اللّه ﷺ، فليس كلُّ مشركٍ مُستَهْزئًا؛ أُسنِدَ إلى رسول اللّه ﷺ الإعراضُ عنِ المشركين، ولـمّا كان الاستهزاءُ سلوكًا عدوانيًّا، لا قولًا ساخرًا فحسب، وكلُّ مُستهزئٍ كافرٌ؛ أسند اللّهُ كفايةَ المُستهزئين إليه سبحانَه، وهذه بلاغةٌ عالية في إسناد كلّ فعلٍ إلى مَن يناسبُه ويُلائمُه.

دلالة السّين والتّاء في لفظ: ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾:

السّين والتّاء للمبالغة، بمعنى أنَّ المستهزئين كانوا يبالغون في استهزائهم ويكثرون منه حتّى صار وصفًا ثابتًا لهم، ولشِدَّة مبالغتِهم في استهزائهم برسوله الكريم ﷺ، ولِهوله وقُبْحِه عند اللّه تعالى؛ كان الاستهزاءُ في المعنى أشدَّ مِن شركهم؛ إذ جعل

الاستهزاء بالله أو بالرّسول أو بالقرآن هو كفرٌ لا محالة

﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ منعوتًا، ونعتَهم بالشّرك في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾؛ لأنَّ الاستهزاء يتضمّن معنى الكفرِ وزيادة، فصحَّ وصفُهم بالشّرك، على معنى الإيضاح وزيادة المعنى كما سيأتي.

فائدةُ حذفِ متعلّق ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾:

لّما حَذَفَ متعلَّق الوصف ﴿ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ﴾ فلم يقل: (المستهزئين بكَ أو بالقرآن)، فقد أفاد عمومَ الاستهزاء، ودخل فيه الاستهزاءُ برسولِ الله ﷺ دخولًا أوّليًّا.

الاستهزاء بالدّين مذمومٌ، أيًّا كان نوعُه وشكلُه

دلالةُ الوصفِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

جاء الوصفُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ﴾ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ لزيادة إيضاحِ للمُستهزئين الذين كانوا في وقتِ الرّسول ﷺ، فهو وصفٌ كاشفٌ وليس صفةً مقيّدةً، فكأنَّه حَدّد المقصودَ وعيَّنَه بذِكر الصّلة التي تُشير إلى أنّها معلومةُ الانتساب، إلى مشارٍ إليه معيَّنٍ عند المخاطَب، وتقدّم أنَّ رؤساءهم كانوا خمسةً، وكانَ هَلاكُهُمُ العَجِيبُ المَحْكيُّ في كُتُبِ السِّيرَةِ صارِفًا أتْباعَهُم عَنِ الاِسْتِهْزاءِ لاِنْفِراطِ عِقْدِهِم، وفي وصفِهم بأنَّهم يَجْعَلونَ مَعَ اللهِ إلَهًا آخَرَ ذمٌّ لهم، وتشويهٌ لحالِهم، ووعيدٌ لهم، وتَسْليَةٌ لرسولِ الله ﷺ بِأنَّهُم ما اقْتَصَروا عَلَى تماديهم في الاستهزاءِ والِافْتِراءِ عليه، فقَدِ افْتَرَوْا على اللّه تعالى، واجترؤوا على العظيمة، التي هي الإشراك باللّه سبحانه أيضًا[1].

تقبيح أمرِ المستهزئين بالدّين، في جمعهم بينَ الشّرك والاستهزاء

دلالةُ لفظِ ﴿يَجۡعَلُونَ﴾:

قوله: ﴿يَجۡعَلُونَ﴾ هنا بمعنى: يزعمون أنَّ مع الله إلهًا آخر؛ إمّا في التَّسمية، أي: يسمّون مع الله إلهًا آخر، وإمّا في العبادة، أيْ: يعتقدون في عبادتِهم أنَّ مع الله إلهًا آخرَ[2]، فيكون الجَعْلُ بمعنى

ادّعاءُ الشّريك للّه تعالى اختلاق، لا ينبغي أن يكون أصلًا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/90.
(2) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/468.

القولِ والاعتقاد، وفي التّعبير بالجَعْل تعجيبٌ مِن حالِهم، فكأنَّهم قدِ اختلقوا زعمًا لم يكن له مثالٌ سابقٌ، للإشعار بأنَّ مثل هذا الزّعم لا ينبغي أن يكون أصلًا؛ لمخالفتِه العقلَ والواقعَ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع:

ذِكْـرُ الجريرة بصيغة المضارع الـدّالّ على الاستمرار، زيادة في التّوبيخ والذّمّ

عبِّرَ بصيغة المضارع في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ﴾؛ لِلْإشارَةِ إلى استمرارِهم على ذلك، وتجدُّد الأمرِ عندهم حالًا فحالًا، وفيه استحضارٌ للحالةِ[1]، ففي التّعبير بالمضارع زيادةٌ في توبيخِهم وذَمّهم.

دلالةُ التّعبيرِ بالمعيَّة:

الإشراكُ بالله ظُلْمٌ عظيم، كما نصّ عليه القرآن الحكيم

لـمّا كان لفظ ﴿مَعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾ يُفيد أنَّ ما بعدَه هو الأصل؛ نبَّه بذلك إلى أنَّ اللّه تعالى هو الإلهُ الواحدُ الأحَدُ، وأنَّهم أخطؤوا وظلموا حين جعلوا مع الإله الواحد إلهًا آخر، ولـمّا كان لفظُ ﴿مَعَ﴾ ظرفًا يكون للمكان والزّمان، أفادَ أنَّهم كانوا يجعلون معَ اللّهِ إلهًا آخَر في مكان عبادتِهم، وفي كلِّ وقتٍ.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّـهِ﴾:

الإشعارُ بتوحيدِ اللّه وكمالِ أوصافِه، مانعٌ مِنَ الشّرك ومظاهره

عبّر بلفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ العَلَم على الذّات الإلهيَّة الجامع لصفاتِ الجلال والجمال، في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ﴾؛ للإيذانِ بقُبحِ فِعْلِهم واعتقادِهم، وللإيذان بالتّعجيب مِن حالِهم؛ إذ جعلوا مع اللّه إلهًا آخر مع ما رأوا من آياته الدّالَّة على توحيدِه وجَلاله وكمالِ أوصافِه[2].

بَراعةُ ذِكْرِ لفظ ﴿إِلَٰهًا﴾ دون (ربًّا):

الشّرك في الأوامر والنّواهي والمُعتقدات، جُرْأةٌ على الله في مقتضى الأُلوهيّة

لـمّا كان المشركون معترفين بربوبيَّة اللّهِ تعالى، وخَلْقِه لهم، وكانوا يجعلون معَ اللّه إلهًا آخَرَ في عبادتِهم، وليس في اعتقادِهم؛ أفادَ أنَّهم كانوا يُشركون معه تعالى في مقتضى الأُلوهيّة، أي: في الأوامر والنّواهي والمعتقدات الباطلة.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/328.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.

المشركون يعبدون أيَّ إلهٍ يوافق أهواءَهم، وذلك عنوانُ ضلالهم

نُكْتَةُ تنكير لفظ ﴿إِلَٰهًا﴾:

أفاد مَجِيءُ ﴿إِلَٰهًا﴾ نكرةً أنَّهم ما كانوا يعبدون إلهًا معيَّنًا، بل كانوا يعبدون أيَّ إلهٍ يوافق أهواءَهم، فلا يَهمّهم نوعُ الإلهِ، بل المُهِمُّ أن يجعلوه إلهًا لهم، يشركون به مع اللّه تعالى.

الإشراكُ أن يجعل المُشرِكُ ذاتًا أُخرى، يُؤلّهها مع الله ﷻ

نُكْتَةُ الوصف بلفظ ﴿ءَاخَرَۚ﴾:

لمّا كان لفظُ ﴿مَعَ﴾ قد يُفهِم الغَيريَّةَ، أي: قد يُفهم أنَّ المعنى: الذين يجعلون غيرَ اللّهِ إلهًا، فلا يُفهم معنى التّهديدِ على الإشراك، والحالُ أنَّ المكذِّبين مِن أهلِ مكّةَ كانوا مشركين، ولا سيَّما مع التَّعبير بالجَعْل؛ زاد في الصّراحة بذِكْر الصِّفَة مُقيِّدَةً للموصوف؛ لنفي كلِّ احتمال بقوله: ﴿ءَاخَرَۚ﴾، ولئلّا يُظَنَّ أنَّ تعدّد أوصافِ اللّهِ وأسمائِه والدّعاءَ بها إشراكٌ باللّه تعالى، فالإشراكُ أن يجعلَ المُشرِكُ مع اللّه ذاتًا أُخرى على سبيلِ تأليهها مع اللّه ﷻ[(1)].

ترتُّبُ الوعيدِ والعذاب على المُستهزئين بالله وبرسوله وبالقرآن

معنى الفاءِ ونوعُها في ﴿فَسَوۡفَ﴾:

تُفيدُ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ التّرتُّبَ، بمعنى: أنَّ الوعيد الشّديد مرتّبٌ على مَن يستهزئون برسول اللّه ﷺ وبالقرآن، وعلى مَن يجعلون مع اللّه إلهًا آخَر.

التّعبير بـ(سوفَ) للمبالغة في تأكيد الوعيد، وأنَّه كائنٌ لا محالة وإنْ تأخَّر

نُكْتَةُ ذِكْرِ (سَوْفَ) دون (السّين):

لمّا كان حرفُ التّنفيس (سَوْفَ) فيه بُعْدٌ وتَراخٍ في الزّمن المستقبل أكثرَ مِنَ السّين؛ أشعر بانتظار الوعيدِ والتّهديد، وفي انتظار الوعيد تخويفٌ وترهيبٌ لهم، ومِن فوائد التّعبير بـ(سَوْفَ): المبالغةُ في تأكيد الأمر، والإيذانُ بأنَّ الأمرَ كائنٌ لا محالةَ وإنْ تأخَّر، فالغرضُ منه: توكيدُ الوعيد وتثبيتُه، لا كونُه متأخِّرًا[(2)].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.

(2) السّامرائي، معاني النّحو: 4/27.

نكتةُ التّعبير بالمضارع:

قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾، وفيه: أفاد التّعبيرُ بالمضارع المُقترنِ بـ﴿فَسَوۡفَ﴾ وقوعَ علمِهم بالوعيد، وتَحَقُّقَهم مِن عذابِهم في المستقبل لا محالةَ، وأنَّه يتجدّد وقتًا فوقتًا، بما يرون مِنَ الآيات والبيّناتِ.

سوف يتجلّى العِلْمُ بالوعيد، في تحقّق العذابِ الأكيد

بلاغةُ الكناية:

التّعبيرُ بقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ في سياق الآية؛ يُقْصَد منه لازِمُه، وهو المبالغةُ في التّهديد والوعيد[1]، وفائدة الكناية: الإشعارُ بأنَّ ذِكْر أيِّ نوعٍ مِنَ العذاب لا يناسب ما عملوه؛ لفظاعةِ الاستهزاء برسول اللّه ﷺ، والإشراكِ باللّه وجَعْلِهِمُ القرآنَ عِضين، لتذهبَ النّفسُ كلَّ مذهبٍ في تصوّر العذاب وعِظَمِه.

تركُ التَّصريحِ بنوعِ العذاب؛ لقصوره عن فظاعة الاستهزاء بالرّسول المعصوم

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالعِلْم دونَ التَّعبير عنِ المقصودِ مباشرة:

عُبِّر بلفظ ﴿يَعۡلَمُونَ﴾؛ للإيذان بأنّهم سيُحيطون عِلْمًا بالأمر، ولم يقل: (فسوف يَرَون)، أو (فسوف يُعَذَّبون)؛ للتّعريض بجهلهم في كُفرِهم واستهزائِهم، وجَعْلِهِمُ القرآنَ عِضين، ولو كان عندَهم وصفُ العِلْم الصّحيحِ لما فعلوا ما فعَلوا، ففيه إهانةٌ لهم؛ لأنَّ التّعبير يُؤْذِنُ بأنَّهم الآن يجهلون، وسوف يعلمون في المستقبل عاقبةَ أمرِهم.

الاستهزاء بالقرآن وبالرّسول ﷺ جَهْلٌ

نُكْتَةُ حَذْفِ مفعولِ الفعلِ:

حُذِفَ مفعولي ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ لإفادة العموم، والمعنى: فسوف يعلمون ما يلقون من عذاب اللّه عند مصيرهم إليه في القيامة، وما يَحِلّ بهم مِنَ البلاء، وسوف يعلمون شِدَّةَ بطشنا وقُدرتنا على ما نريد، ليكون وازعًا لغيرهم، وسوف يعلمون سوء ما عملوا مِنَ الاقتسام، والعِضَة، والاستهزاء برسول اللّه وأصحابه، إذا نزل العذاب بهم، وسوف يعلمون عاقبةَ ما يأتون وما يذرون في الدّنيا والآخرة[2].

سيعلمُ المُستهزئون وغيرُهم سوءَ عاقبتِهم على استهزائِهم وتكذيبِهم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159، والسّمعانيّ، تفسير السّمعاني: 3/155، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/498.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/159، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/218، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الاستهزاء والسُّخريَةُ:

الاستهزاء فيما يُظنُّ فيه القوّة أو حُسْنُ الرّأي، والسّخريَةُ فيما يُظنُّ فيه الصَّغارُ والذُّلُّ

والفرقُ بينهما: هو أنّ الإنسان يُستهزَأ به من غير أن يسبق منه فعلٌ يُستهزَأ به مِن أجله، والسُّخْر يدل على فعلٍ يسبق مِنَ المَسخور منه، والعبارة مِنَ اللّفظين تدلُّ عن صِحّة ما قلناه، وذلك أنّك تقول: استهزأتُ به، فتَعَدّى الفعلُ منك بالباء، والباء للإلصاق، كأنّك ألصقتَ به استهزاءً من غير أن يَدُلَّ على شيء وقع الاستهزاءُ مِن أجله، وتقول: سَخِرتُ منه، فيقتضي ذلك مَن وقعَ السُّخْر مِن أجله، كما تقول: تعجّبتُ منه، فيَدُلُّ ذلك على فعلٍ وقعَ التَّعَجُّب مِن أجله، والهُزء يجري مجرى العبث، ولهذا جاز: هَزَأتُ مثل عبَثْتُ، فلا يقتضي معنى السُّخريةِ؛ فالفرق بينهما بيِّنٌ[1]، كما أنَّ الاستهزاء هو بمعنى السّخرية على وجه التّعدّي، وهو سلوك عدوانيٌّ، وأمّا السُّخريَة: فهي الإذلال والتّحقير والتّنبيه على عيوبٍ ونقائصَ، على وجهٍ يُضحكُ الآخرين، والاستهزاءُ لا يكون إلّا فيما يَظُنُّ النّاسُ فيه القوّةَ والغلبةَ، أو حُسنَ الرّأي وصوابَ القولِ والعمل، والسّخرية قد تكون فيما يَظُنُّ النّاسُ فيه صَغارًا وذُلًّا.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 254 - 255.

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ٩٧﴾ [الحجر: 97]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبطُ بين حماية الله لرسوله الأكرمِ، وبين علمِه تعالى بما يقول المُكذّبون المُستهزئون

لـمّا أمر اللّهُ تعالى رسولَه الكريم ﷺ بالصّدع بما يُؤمَرُ، وأعقبَهُ الأمرَ بالإعراض عنِ المشركين وعدم الالتفات إليهم وإلى مقولاتِهم التي تُسيء إلى رسولِ الله ﷺ وتُحزِنُه؛ سلّاهُ وطمأنَهُ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾.

وأيضًا: لَمّا كانَ الوعيدُ مُؤْذِنًا بِإمهالِهِم قَليلًا كَما قال تعالى: ﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ١١﴾ [المزمل: 11]، وكَما دَلَّ عَلَيْهِ حَرْفُ التَّنْفيسِ في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾؛ طَمأنَ اللّه نَبيَّهُ ﷺ، بِأنَّهُ مُطَّلِعٌ عَلَى تَحَرُّجِهِ مِنْ أذاهُم وبُهْتانِهِم، مِنْ أقْوالِ الشِّرْكِ وأقْوالِ الاسْتِهْزاءِ، فأمَرَهُ بِالثَّباتِ والتَّفْويضِ إلى رَبِّهِ؛ لِأنَّ الحِكْمَةَ في إمهالِهِم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَضِيقُ﴾: الضّيقُ ضِدُّ السَّعَةِ، وأصلُه مِن ضِيق المكان، يقال: ضاقَ المكانُ فهو ضَيّقٌ، ومنه: تضايق القومُ، إذا لم يتوسّعوا في مكانٍ، ولا يكون الضِّيق إلّا فيما جاز فيه الاتّساعُ، وتوصَف به المعاني على سبيل المَجاز، والضِّيقة: الفَقْرُ وسوءُ الحالِ، ومنه: ضِيق المعاش، وذهب بعضُ اللُّغويين إلى أنَّ الضَّيِّقَ بالتَّشْديدِ: في الأجرام، وبالتخفيف، أي: الضِّيق، في المعاني، وقيل: بِالكَسْرِ والتَّخْفيف في قِلَّة المعاش والمساكن، وما كانَ في القلب فهو ضَيِّقٌ، بِالتَّشْديدِ، وقيل: بِالكَسرِ في الشدَّة، وبالفتح في الغَمِّ، وضِيقُ الصَّدر: يَدُلُّ على الحُزن وكَراهةِ ما ضاق به صَدْرُه[2].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ضيق)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 574.

المَعنى الإجْماليُّ:

تسليَةُ النّبيِّ محمّد ﷺ، وتصبيرُه على أذى قومِه وسفاهتِهم

لمّا أَوْعَدَ اللّهُ تعالى المُستهزئين الذين يُشْرِكون باللّه تعالى، سَلّى نبيَّه ﷺ وصَبَّره في هذه الآية، فقال له ما معناه: ولقد نعلم يا محمّد ﷺ أنَّك يضيق صدرُكَ بما يقول هؤلاء المشركون مِن قومك، مِن تكذيبهم إيّاكَ، واستهزائهم بكَ وبما جئتَهم به، وأنّ ذلك يُحْرِجُك ويُحْزِنُك[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواو في الآية الكريمة:

تأرجُح الواوِ بين عِدّة معانٍ، دليلٌ على بلاغة الحرف في السّياق

تحتمل الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أن تكون عاطفةً لهذه الجملة على جُملَةِ: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾؛ لتكون الجملتان على معنى التّعليل للأمرِ بالصّدع بالقرآن وبالدّعوة إلى الإسلام، والتّسلية له ﷺ، وتحتمل الواو أن تكون للحال، فتكون جملةُ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ حالًا، وتحتمل أيضًا أن تكون استئنافيَّةً؛ لتُفيدَ استئنافَ الكلامِ، والتّمهيدَ لما بعدَها مِنَ الأمر بالتَّسبيحِ بحمد اللّه والسّجودِ له وعبادته[2].

فائدة التّوكيد في: ﴿وَلَقَدْ﴾:

السّياق لإفادة تحقُّق التّسليةِ، وتحقيقِ عنايةِ الله برسولِه ﷺ

تحليَةُ الجملةِ بتوكيدين، أي: باللّام الموطّئة للقسَم وبـ (قَدْ)؛ لإفادة تَحَقُّق ما تضمَّنته الجملةُ مِنَ التَّسلية، وليس لدفعِ الشّكِّ، فلَيْسَ المُخاطَبُ مِمَّنْ يُداخِلُهُ الشَّكُّ في خَبَرِ اللّه تعالَى، ولَكِنَّ التَّحْقيقَ كِنايَةٌ عَنِ الاهْتِمامِ بِعِلْمِ اللّه تعالى، بما في رسول اللّه ﷺ مِن ضِيق الصّدر، وأنَّهُ بِمَحَلِّ العِنايَةِ مِنَ اللّه[3]، ولـمّا أكّد اللّهُ تعالى

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93، والآلوسي، روح المعاني: 7/328، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.

عِلْمَه بالأمر، وكان الوعيدُ للمُتسبّب بالضّيق لازمًا لعلمِه سبحانه كما يأتي؛ كانَ مرجعُ توكيدِ العِلْم إلى توكيد الوعيد لهم[1].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالمضارع ﴿نَعۡلَمُ﴾:

الـوعـيـدُ لمَـن تسبَّبَ في ضيق صَـدره الشّريف ﷺ

صيغة المضارع لإفادة الإعلام باستمرار عِلْمه تعالى بضِيق صَدره ﷺ، باستمرار ما يوجبُه مِن أقوال الكَفَرة[2]، وفي الإخبار عن أنَّه تعالى على علمٍ بما يَضِيقُ به صَدرُ حبيبه ورسوله ﷺ إيذانٌ بالوعيد لَمن هو سببٌ في ضيق صدرِه الشّريف ﷺ؛ لأنَّه ليس المقصود مِنَ الخبر مُجَرَّدَ إثباتِ عِلْم الله بالأمر، بل المقصودُ مآلُه وعاقبتُه، وهو مُجازاتُهم بالعقوبة المناسبة لهم.

دلالةُ التّعبير بالمصدر المُؤوّل في قوله: ﴿أَنَّكَ﴾:

ما يقوله الكَفَرةُ ممّا يضيق به الصّدرُ النّبويّ، يستحقّ الوعيد الشّديد

أفاد التّعبيرُ بالمصدر المؤوَّل أنَّ الوعيد اللّازم للخبر هو بسبب ضيق صدر رسولِ الله ﷺ، مِن غيرِ نظرٍ إلى أيِّ وصْفٍ آخر مصاحبٍ له، فلا ينظر إلى تقييد المصدر بكثرة الضّيق ولا قِلّته، والمعنى: أيُّ ضيقٍ لصَدرِه الشّريف بسبب ما يقولون، يستحقّون به الوعيد الشّديد، ففي التّعبير بالمصدر المُؤوَّل تحصينٌ للكلام مِنَ الإشكال في الفهم، بأن يُتَوهَّمَ تقييدُ المصدرِ بقيدٍ ما، وتخليصٌ له مِن شوائب الإجمال في الوصفِ؛ لأنَّ المصدر المؤوّل لا يأتي معه وصفٌ أصلًا[3].

فائدة (أنَّ) في السّياق الحكيم:

معاناة النّبيّ الأكرم مِنَ الأقاويل المُنكرة، نموذجٌ للدّعاة في كلّ العصور

أفادت (أنَّ) من قوله تعالى: ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾، تقريرَ ضيق صدرِ رسولِ الله ﷺ بما يقوله الكَفَرةُ، مِنَ الشّرك والطّعن في القرآن والاستهزاء به ﷺ، وأنَّه كان مُؤثّرًا فيه ﷺ.

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 4/493.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/9، والآلوسي، روح المعاني: 7/328.

(3) ابن القيم، بدائع الفوائد: 1/93، والسّامرائيّ، معاني النحو: 3/147.

بديعُ الجناس بين: ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ و﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ﴾:

علمُ النّاسِ ناقصٌ يسبقه الجهلُ، وعلمُه سبحانَه مطلقٌ لا يسبقه جهل

جاء الجناس النّاقص في الفعلين: ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و﴿نَعۡلَمُ﴾؛ للإشارةِ إلى أنَّ علمَ النّاس ناقصٌ لسبقِه بجهلٍ، وعلمَه سبحانَه تعالى مطلقٌ لا يسبقه جهلٌ، وأنَّ المُستهزئين سيعلمون ما يجهلون بما يُعَلِّمُهمُ اللّه تعالى مِن علمِه الكامل المُطْلَق، ففيه تنبيهٌ إلى الفَرق بين عِلْم النّاس، ويدخل فيه ما سيعلمه المستهزئون دخولًا أوّليًّا؛ وبين علم اللّه الإلهِ الواحدِ الأحدِ.

سِرُّ دخولِ (أنَّ) على ضمير الخطابِ دون ضمير الشّأن:

علمُ الله تعالى وعنايتُه ولُطْفُه بكلِّ ما يُصيبُ رسولَه ﷺ

لمّا دخلت (أنَّ) على ضمير الخطابِ المُشار به إلى رسولِ اللّه ﷺ، ثمَّ أخبر عنه بالجملة الفعليَّة التي أُعيد فيها ضميرُ الخطاب لقصد ربطِ المسنَد بالمسنَد إليه؛ كان الكلام على معنى الاهتمام برسولِ اللّه ﷺ؛ ليفيدَ تعلُّقَ عِلْمِه تعالى بذاتِه، وبضيق صَدْرِه ﷺ كذلك، ولِيُؤْذِنَ بأنَّ ضيق صدره ﷺ يُؤَثِّر في ذاتِه، ولهذا لم يقل: (ولقد نعلم أنَّه يضيق صدرك) مثلًا، ففي دخول (أنَّ) على ضمير الخطاب وتكريره في الخبر، تأكيدٌ لعلمِ اللّه تعالى وعنايتِه ولُطفِه بكلِّ ما يصيبُ رسولَه ﷺ.

نُكْتَةُ تقديمِ المُسنَدِ إليه ﴿صَدۡرُكَ﴾ على الجارّ والمجرور:

المرادُ الوعيدُ لهم بسببِ قولِهم الّذي يضيق به صَدرُ الرّسولِ الخاتم

قُدِّم المسنَد إليه على الأصل، فيكون مِن تقديم ما حَقُّه التّقديم؛ لقصد تمكّن إسناد الفعل لفاعلِه في الذّهن، ولأنَّه ليس المرادُ تخصيصَ ضيقِ الصّدرِ بسبب ما يقولون، بل الوعيدَ لهم بسبب قولِهم الذي يضيق به صدرُ رسولِ اللّه ﷺ، وأمّا تقديم الجار والمجرور في قولِه تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ﴾ [هود: 12]، فهو للتّنبيه على الاهْتِمام بالمُتَعَلَّق؛ لِأَنَّهُ سَبَبُ صُدورِ الضّيقِ عن الصّدر، كما أنَّ في تقديم الجارِّ والمجرور، ومَجيءِ المصدرِ المُؤول؛ تفسيرًا للضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ [هود: 12]، وتمكينًا

للمعنى في ذِهن المخاطَبِ، واهتمامًا به، ولو جاء الكلامُ من غيرِ ضميرٍ مُجْمَلٍ يُفَسِّره ما بعدَه، وقيل: (وضائقٌ بأن يقولوا لولا أنزل عليه كنزٌ أو جاء معه ملكٌ صَدرُك)؛ لطال البُعْدُ بينَ اسم الفاعل ومرفوعِه، وضَعُفَ تأليفُ الكلامِ، وهو ظاهرٌ[1].

بلاغةُ مَجيءِ المُسنَد جملةً فعليّة:

مـقـولاتُ المُستهزئين لن تجعل المؤمنين يتخلَّون عن دعوتِهم، ولا عن البلاغ

أفاد مَجيءُ المسنَد في قولِه تعالى: ﴿أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ جملةً فعليَّةً؛ تقويةَ حُكم ضيقِ صَدرِ رسول اللّه ﷺ، وتحقيقَه بسبب ما يقولون، والإشعارَ بأنَّ قولَهم لا يُغَيّر من حقيقة ألوهيّة اللّهِ تعالى وتوحيده، ولا يجعل رسولَ اللّهِ ﷺ يتخلَّى عن رسالتِه ودعوتِه، وأنَّ ضيقُ صدرِه الشّريف ﷺ لا يأتي منه إلّا حُزنًا على الافتراء، وأسفًا عليهم لعدم إيمانهم.

فائدة التّعبير بالمضارع ﴿يَضِيقُ﴾:

أقْصَى ما يُتَوقَّعُ هو ضيقٌ يَعْرِضُ لَـهُ بسبب قولِ الكفّار وافتراءِ المُستهزئين

عبّرَ بصيغة المضارع للإشعار بتَجدّد ضيقِ صَدرِ الحبيب سيّدِنا محمَّد ﷺ، بسبب ما يقولون مِنَ الاستهزاء والافتراء[2]، كما أنَّه لمّا حُذِف متعلَّق ﴿يَقُولُونَ﴾ في الآية أفاد عمومَ ما يقولون مِن قبيح الافتراء على اللّه وعلى القرآن، والاستهزاء برسول اللّه ﷺ والافتراء عليه، كما يأتي، فكان التّعبير بصيغة المضارع الدّالِّ على تجدّد الحَدَثِ أنسبَ وأوفقَ لعموم المَقول، بمعنى أنَّه يتجدّد كلَّما افتروا على اللّه تعالى، أو استهزؤوا بك، أو كذّبوا القرآن، أو أعرضوا عنِ الاستجابة، وأفاد أنَّ ضيق صدره الشَّريف ﷺ ليس وصفًا لازمًا فلم يتمكّنِ الضّيقُ من صدره؛ لأنَّ اللّه تعالى شرح له صدره، ولمّا قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/17.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.

[هود: 12]، فقيَّد القول بأمرين فقط: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ﴾ [هود: 12]؛ ناسبَه ذكر اسم الفاعل الدّالّ على أنَّه ضيق عارضٌ غيرُ ثابتٍ ولا مُتجَدِّد، كما أنَّ في ذكر ﴿وَضَآئِقُۢ﴾ [هود: 12] مناسبَةً في اللّفظ، ومراعاةً للنّظير مع قوله تعالى: ﴿تَارِكُۢ﴾ [هود: 12]؛ لِأَنَّ ذَلِكَ أَحْسَنُ فصاحَةً.

وفي التّعبير بصيغة المضارع أو باسم الفاعل إيماءٌ إلَى أنَّ أقْصَى ما يُتوقَّعُ في جانِبِهِ ﷺ هو ضيقٌ قَليلٌ يَعْرِضُ لَهُ بسبب قولِ الكفّار وافتراء المستهزئين(1).

بلاغةُ إسناد الضّيق إلى الصّدر دون القلب:

الضّيق والانشراح مِن أوصاف الصّدرِ وليس القلب

عبّرَ بـ﴿يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾ دون قلبكَ؛ لأنَّ الضّيق لا يستعمل مع القلب، فلا يقال: ضاق قلبُه، فالضّيق إنّما يكون لما يأتي منه الاتّساع في المكان، وهو يكون في الصّدر لا في القلب، ولهذا استعمل الانشراحَ في الصّدر وهو ضِدّ الضّيق، كما في قولِ موسى فيما يحكيه اللّهُ تعالى عنه: ﴿رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥﴾ [طه: 25]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١﴾ [الشرح: 1]، كما أنَّ قلبَه ﷺ لا يَضِيق أبدًا؛ لأنَّه ممتلئٌ بالإيمان باللّه، وفي حالةِ شهودٍ للّه تعالى دائمًا، وذهبَ بعض المفسّرين إلى أنَّه كُنّيَ بِالصَّدْرِ عَنِ القَلْبِ؛ لِأَنَّ الصَّدرَ مَحَلُّ القلبِ، فيكون مِنَ المجاز المرسل، بذكر المَحلِّ وإرادة الحالِّ(2)، ولم يَرِد في القرآن ذِكْرُ ضيق القلب.

بلاغة التّعبير بين المجاز والكناية:

الكَرْبُ مع الضِّيقِ، كما أنَّ الرّوحَ مع السَّعةِ

قوله تعالى: ﴿يَضِيقُ صَدۡرُكَ﴾، لمّا أسند الضّيقَ إلى الصَّدر كان على طريق المجاز؛ للتّعبير عن غَمّه ﷺ وأسَفِه على تخلّيهم عنِ الإيمانِ، وكَدَرِ نفسِه مِن قول المشركين فيما يفترونه على اللّه

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/382، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/154.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/499.

تعالى وعلى القرآن، وفي استهزائِهم به ﷺ، وفي المَجاز كنايةٌ عن كراهة رسولِ اللّه ﷺ ما يقولونه، ويُحتمَل أن يكون التّعبير بضيق الصّدر كنايةً عنِ الغَمِّ والهَمِّ، ويُنتقل منه إلى كراهة رسول اللّه ﷺ ما يقولونه كذلك[1].

دلالة الباء في قولِه: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾:

الأقاويلُ الباطلة يضيق بها الصّدرُ

الباء سببيَّة، أي: يضيق صدرك بسبب ما يقولون[2].

نُكْتَةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول (ما) دون (الّذي):

المُستهزئون لا يصدر منهم إلّا القولُ المنكر، والافتراءُ على الله ورسولِه

عُبِّرَ بالاسم الموصول (ما) دون الذي؛ لأنَّها أكثرُ عمومًا مِن (الذي)، وأيَّد هذا المعنى حَذْفُ معمولِ الفعل ﴿يَقُولُونَ﴾، ليُفيدَ التّعبيرُ بـ(ما) توبيخَهم على كلِّ ما يقولون، فكأنَّه لا يصدر منهم إلّا القولُ المُنكر، وإلّا الافتراءُ على اللّه ورسولِه ﷺ.

بلاغةُ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

توبيخُ مَن يشتهر بقبيح القول أو العملِ وإهانتُه

في قوله تعالى: ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾، لمّا أفاد الاسمُ الموصول توبيخَ عمومِ ما يقولون؛ كان التّعبيرُ بالصّلة ﴿يَقُولُونَ﴾ للإشعارِ بأنَّ ما يقولونه مشهورٌ ومعلومُ الانتسابِ إليهم بينَ المُخاطَبين، ففيه إهانةٌ لهم وتقريرٌ لتوبيخِهم؛ للإيذانِ باشتهارِهم بقبيح القولِ.

فائدةُ حذفِ متعلَّق ﴿يَقُولُونَ﴾:

تهويلُ شأنِ الافتراء على الله وعلى رسولِه وعلى القرآن

أفاد حذفُ متعلَّق القولِ العمومَ، أي: ولقد نعلم بما يقولون على اللّه مِنَ الشُّركاء والصّاحبة والولد، وبما يقولون فيك مِنَ النِّسبة إلى السِّحرِ والشِّعرِ وغيرِ ذلك، وبما يقولون في القرآن مِنَ السّحر وأساطير الأوّلين، وغيرِ ذلك.

ولمّا توعّدهم على ما يقولونَ، وحذف متعلَّقَ القولِ؛ أفادَ الحذفُ

(1) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (ضيق)، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/91.

(2) الخازن، لباب التّأويل: 3/65، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/499.

أنَّ كلَّ ما يقولونَه يدخل في الوعيد، وأنَّه باطلٌ ومن سوءِ القولِ وقبيحِه، مع أنَّهم كانوا يتكلَّمون في أمور معاشِهم وعاداتِهم كذلك، والنّكتةُ فيه: الإشعارُ بأنَّ القولَ الذي يُؤاخَذُ عليه الإنسانُ ويحاسبُ؛ هو ما يفترونه على اللّه ورسوله، وعلى القرآن وما سواه، كأنَّه لا يُسَمَّى قولًا ولا يُعْتَدُّ به؛ تعظيمًا لشأنِ الافتراء بالقولِ وتهويلًا له.

بلاغةُ الكناية:

أمرُ المُستهزئين راجعٌ إلى الله، وما على المؤمنين سوى تفويضِ الأمرِ لله

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾، لمّا كان رسولُ اللّه ﷺ على عِلْم بأنَّه تعالى يعلم به وبأحوالِه ﷺ كلِّها؛ كان الخبرُ على طريق الكنايةِ بإرادةِ لازم المعنى، وهو أمرانِ:

أحدهما: تصبير رسولِ اللّه ﷺ على أذى قولِهم، والتَّسلّي عن ذلك، وتركِ مجازاتِهم، والمعنى: اتركْ أمرَ مُجازاتِهم علينا، واشتغل بما هو أهمُّ لك، مِنَ التّسبيح والعبادة، فنحن على علمٍ بما يكون منهم.

واللّازم الثّاني: هو تهديد الذين يتقوّلون على رسول اللّه، ويكونون سببًا في ضِيقِ صدرِه وأذيَّتِه، بأنَّه تعالى على علم بما يقولون ويفعلون، وأنَّه سيحاسبُهم ويعاقبهم، وأنَّه تعالى إنَّما يُنشِئُهم ويمكّنُهم امتحانًا واستدراجًا منه لهم، كما تقول لمَن تُهَدِّدُه على قولِه أو عملِه وأنَّه سيُعاقَب عليه: أنا على عِلْمٍ بما قلتَ أو بما عملتَ[1].

(1) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/469.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ٩٨ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ٩٩﴾ [الحجر: 98 - 99]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

أمرُ الرّسولِ الأكرمِ بالتّسبيحِ والعِبادَةِ، دفعًا لما ذُكِرَ سلفًا مِن ضيقِ صدرِه بما يقولون

لمّا أخبر اللّهُ تعالى عن ضيق صَدرِ رسولِ اللّه ﷺ بما يقولون، فمرَّةً يفترون على اللّهِ، ومرَّةً يُكذِّبونَ القرآنَ ويجعلونه عِضينَ، وأُخرى ينسبون رسولَ اللّه ﷺ إلى السِّحر أو إلى الجنونِ أو إلى الفِريةِ، ومثلُ ذلك يَعْظُمُ على المَرءِ ويأنَفُ منه؛ قوّى اللّهُ قلبَ رسولِه على احتمالِه، وعلى ألّا يجعلَه سببًا للفتورِ في الإبلاغِ والبيانِ، فلذلك جاءت هاتان الآيتان[1].

ثمَّ أعلمَه تعالى بما يزيل ضِيق صَدره ﷺ بأن يفزع إلى تسبيح اللّه تعالى وتحميدِه؛ إذ ذِكْرُ اللّهِ تعالى يُطمئن القلوبَ المؤمنة، فقال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾.

ولـمّا أمره بعبادة خاصَّة أتبعه بالعامَّة، فقال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْيَقِينُ﴾: يدور معنى اللَّفظ على ثبوت الشّيء وتحقيقه ووضوحِه، ويَقِنَ الأمرُ: ثبتَ ووضحَ، واليقينُ من صفة العِلْم فوقَ المعرفة والدّرايَة وأخواتها، ويفيد تحقيقَ الأمر، ويقال: عِلْمُ يَقينٍ، ولا يقال: معرفةُ يَقينٍ، وهو سكونُ الفَهْم مع ثبات الحُكْم[3]، واليقينُ في الآية بمعنى المَوت؛ لأنَّه موقَنٌ به، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ٤٧﴾ [المدثر: 47][4].

(1) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/91، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/173، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 6/347.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يقن).
(4) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 240، وابن جرير، جامع البيان: 17/159، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/675، 22/456.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الدّعوةُ للتّسبيح والحمد والسّجود، والثّباتِ على ذلك إلى آخر رمق في الحياة

لمّا أخبر اللّه تعالى نبيَّه ﷺ أنَّه يعلم منه أنَّه يضيق صدرُه بسبب ما يقوله الكفّار المُستهزئون في اللّه وفي رسولِه؛ أمره بما يُزيل هذا الضّيق، فقال له ما معناه: فافزع إلى ربّك عند ضيق صدرك، وسَبِّح بحمده شاكرًا له مُثنيًا عليه، وكن مِنَ المُصلّين للّه العابدين له؛ يَكْفِكَ اللّهُ من ذلك ما أهمَّكَ، واستمرّ في عبادة ربّك مُدّة حياتِك حتّى يأتيَك الأمرُ اليقينُ علمُه ووقوعُه، وهو الموتُ الّذي هو موقَن به، وامتثلَ رسولُ اللّهِ ﷺ أمرَ ربّه، فلم يزل دائبًا في عبادة اللّه حتّى أتاه اليقينُ من ربّه[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ التّفريعِ على ضيق الصّدر:

علاجُ ضيق الصّدرِ بالتّسبيح والتّحميد وكثرة السّجود

تُفيد الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحْ﴾ ترتُّبَ الأوامرِ في الآيتين وتفريعَها على ضيق الصّدر، بمعنى: أنَّ ما بعدَها سببٌ لإزالة ما قبلَها[2].

ويحتمل أن تكون الفاءُ هي الفصيحة التي تفصِحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ[3]، والتّقدير: إن ضاق صدرُك بما يقولون، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨﴾.

وفيها معنى التّرتب والتّفريع كذلك، فإنَّهُ تَعالَى لمّا أمَرَهُ في الآيتين بِأرْبَعَةِ أشْياءَ بالتَّسْبيحِ والتَّحْميدِ والسُّجودِ والعِبادَةِ، وجعلَها مترتّبةً على إزالة ضيق الصّدرِ؛ أفادَ أنَّ هذه الأوامرَ الأربعةَ تُزيلُ ضِيقَ الصَّدر، وتُفيدُ انْشِراحَه، وتوجِبُ ذهابَ الهَمِّ والغَمِّ والكَدَرِ، ففي الآيتين إرشادٌ له ﷺ ولكلِّ مؤمنٍ إلى ما يُكشَفُ بِه الغَمُّ، كأنَّه قيل: افعلْ ذلك يَكْشِفْ عنكَ ربُّكَ الغَمَّ والهَمَّ الذي تَجِدُه في صدرك.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/159، ونخبة من أساتذة التّفسير، التّفسير الميسر، ص: 267.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/97.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 8/4118.

ولمّا كان أعظمُ ضيقٍ يُصيب المؤمنَ هو الافتراء على اللّه تعالى والاستهزاء برسوله ﷺ وبالقرآن، وكان التّسبيحُ والتّحميدُ والصّلاةُ والعبادة دواءً لإزالة هذا الهَمّ العظيم؛ كان الأولى والأحرى أن تُزِيل هذه الأمورُ الأربعةُ ضيقَ الصّدرِ الأدنى، والهمَّ الأخفَّ(1).

دلالةُ الجمعِ في التّسبيح والسّجود بيَن القول والعمل:

الرّبطُ في السّياق بين فعلِ القلبِ وفعلِ الجسد، مِن دقّة البيان

لَمّا كانَ الصّادِرُ مِنَ المُسْتَهْزِئينَ يجمع بينَ اعتقادِ القلبِ فيما يستهزئون فيه، وعملِ الجارحة، وهو القول الذي يَقولونَه في الرَّسولِ ﷺ وفيما جاءَ بِهِ؛ أمَرَ اللّهُ تعالى نبيَّه بما يُقابِلُ ذَلِكَ مِنَ التَّنْزيهِ للّه عَمّا نَسَبوا إلَيْهِ مِن اتِّخاذِ الشَّريكِ مَعَهُ، مَصْحوبًا بِحَمدِهِ والثَّناءِ عَلَى ما أسْدَى إلَيْهِ مِنْ نِعْمَةِ النُّبوَّةِ والرِّسالَةِ والتَّوْحيدِ، وغَيْرِها مِنَ النِّعَمِ، فهَذا في المُعْتَقَدِ والفِعْلِ القَلْبِيِّ؛ وبما يقابل ذلك مِنَ السُّجودِ، وهو من فعل الجارحةِ، فجَمَعَ في الأمرَين بين فِعْلِ القَلْبِ وفِعْلِ الجَسَدِ(2).

دلالةُ الأمرِ في قولِه: ﴿فَسَبِّحۡ﴾:

إرادةُ القـــولِ بـالـتّـسـبـيـحِ، واعتقادُ القلبِ بـالـتّـنـزيـهِ، معالجةٌ للكَرب الّذي كان فيه

يحتمل أن يكونَ المرادُ من لفظ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ المعنى المُتعارف عليه، وهو الأمرُ بقول: (سبحانَ اللّه، والحمد للّه)، أو بقول: (سبحانَ اللّهِ وبحمدِه)، والمعنى: فافزع إلى اللّه تعالى فيما نابَكَ بالتّسبيح والتّحميد؛ يَكفِكَ ويكْشِفِ الغَمَّ عنك، ويحتمل أن يكون المرادُ من لفظِ ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ معناه اللّغويّ؛ لأنَّ التّسبيحَ هو التّنزيه، أي: فنزِّهْهُ عمّا يقولون، حامِدًا له على أن هداكَ للإيمان(3).

الغرضُ مِنَ الأمر بيَن التّعيين والعمومِ:

الأمرُ بالتّسبيح والـصّـلاة عند ضيق الـصّـدر، أمـرٌ عـامٌّ لـكـلِّ المؤمنين

جاء الخطابُ في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ بالأمرِ، وإن كان مع مخاطبٍ معيَّنٍ، وخَصَّ اللّهُ تعالى في

(1) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 1/214، والآلوسي، روح المعاني: 7/328.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/328.

هذه الأوامر رسولَ اللّه محمَّدًا ﷺ، لكنّها عامَّةٌ في سائر النّاس[1]، وهذا مِن عظيم نِعَم اللّه على خَلْقِه، فإنَّه ما مِن أحدٍ إلّا ويَضيقُ صدرُه بقولٍ أو عملٍ، فأرشدنا اللّهُ تعالى إلى ما يزيل الضّيقَ بالفَزَع إلى التّسبيح بحمد اللّه، وإلى الصّلاة وعبادةِ ربِّ العالمين.

مَن سبَّح اللهَ تعالى فقد أثنى عليه بما يليق بجلاله

فائدةُ حرفِ الباء في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ للمُلابسة، بمعنى لِيَكُن تسبيحُكَ مُلابسًا لحمد ربِّك[2]، فيُفيدُ أنَّ تسبيح اللّه تعالى وتنزيهَهُ عنِ الشّريك؛ حمدٌ له تعالى وثناءٌ عليه، ويؤيّد هذا المعنى أنَّ الجارَّ والمَجرور: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ في موضع نصب، حالٌ مِنَ الفاعل المُستَتِر، وهو مِنَ الحال المُحقّقة المقارنة، والتّقدير: فسبِّح حالَ كونِكَ حامِدًا لربِّك.

فائدة الإضافة في قوله: ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾:

الحمدُ لا يليق إلّا لله تعالى، فهو المُختصُّ به سبحانه

لـمّا أُضيف الحمدُ إلى مفعوله، أفادتِ الإضافةُ معنى الاختصاص، بمعنى: أنَّ الحمد لا يكون إلّا لربِّك، ومثله الإضافة في ﴿رَبِّكَ﴾، فهي على الاختصاص، بمعنى: ليس لك ربٌّ سواه.

سببُ اختيارِ لفظِ ﴿رَبِّكَ﴾:

تسبيحُكَ بحمد ربِّك، تسبيحٌ لمُدَبّر مُحسِن إليك بالنِّعم العِظام

لم يقل: (بحمد اللّه)؛ لأنّ في التّعرض لعنوان الرّبوبيّة مع الإضافة إلى ضميره ﷺ، ما لا يخفى مِنَ اللُّطف به عليه السلام، ففيه إيذانٌ بأنَّ تسبيحَك بحمد ربِّكَ هو تسبيحٌ لمُدَبِّر أُمورِكَ ومُربّيك، والمُحسنِ إليكَ بالنّعم العظيمةِ، وفيه إشعارٌ بعِلّيَّة الحُكم، أي: بالأمر بالتّسبيح[3].

مناسبة الوصل بالواو في قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

تقديمُ القولِ باللّسانِ على الفعل بالأركانِ

عطفَ تعالى قولَه: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ على ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ

(1) القاضي عبد الجبار، تنزيه القرآن عن المطاعن، ص: 203.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93، والآلوسي، روح المعاني: 7/329.

﴿رَبِّكَ﴾؛ ليكونَ مِن عطفِ الطّلب على الطّلب، على معنى طلبِ التّشريك في الأمرين، ولإفادة تقديمِ القولِ باللّسانِ في الثّناء على اللّه تعالى على الفعل بالأركانِ.

دلالةُ التّعبيرِ بلفظ ﴿وَكُن﴾:

كمالُ العبوديّة لله تعالى، أن يكون شأنُك هو السّجودُ له

أفاد التّعبيرُ بلفظ ﴿وَكُن﴾ أن يكون شأنُكَ وعادتُكَ هو السّجود، بحيث يكون كونًا جِبِلّيًّا لا انفكاكَ له[1].

بلاغةُ التّعبيرِ في تركيب: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾:

أفضليَّةُ السّجودِ لله تعالى، في الكينونة مع جموع السّاجدين

التّعبيرُ بقوله: ﴿مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ أبلغُ مِن أن يقول: (وكن ساجدًا)؛ لأنَّه أمرٌ له بالسّجودِ، وأمرٌ بأنْ يكون مع جماعةِ السّاجدين، فكأنَّه على معنى الأمرِ بتكرير السّجود والدّوام عليه، وفيه إشعارٌ بأفضليَّة السّجود مع الجماعة، أي: أفضليَّةِ صلاةِ الجماعة.

نُكْتَةُ التّعبيرِ بصيغة اسم الفاعل:

مَنْ أكثرَ مِنَ السُّجودِ لله كانَ مِنَ السّاجدين

عبّر بصيغة اسم الفاعل ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾؛ للإشعار بأن يكون السّجودُ وصفًا ثابتًا له، وأن يكون مِنَ العريقين في السّجود، ولا يكون هذا المعنى إلّا بكثرة السّجود واعتيادِه، بحيث يكون وصفًا دائمًا له[2].

بلاغةُ المَجاز المُرسل:

شرفُ السّجودِ لاشتمالِه على التّسبيح والتّذلُّلِ لله

عبّر عنِ المصلّين بـ ﴿ٱلسَّٰجِدِينَ﴾[3]، على طريق المَجاز المُرسل، مِن إطلاقِ الجُزء على الكُلِّ[4]؛ ونُكتَتُه: الإشارةُ إلى شَرف السّجودِ المُشتمِل على التّسبيح بالحمد والتّذلّل والدّعاء، وما ينبغي مِنَ الدّعاء فيه، لا سيما عند الشّدائد، فذَكر مِنَ الصّلاة حالةَ القُرب

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 6/469، والواحديّ، التّفسير البسيط: 12/674، والبغويّ، معالم التّنزيل: 3/69، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/94.
(4) الشّهاب، عناية القاضي: 5/544.

مِنَ اللّه تعالى، وهي السُّجود، وهي أكرمُ حالاتِ الصّلاة وأقْمَنُها بنيل الرَّحمةِ، والاستعانةُ بالصّلاة يكون في كلِّ الحاجات، فكيفَ في إزالةِ الضّيق عن الصّدر؟ فقد قال تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: 45]، وكان النبيُّ ﷺ إذا حَزَبَهُ أمرٌ صلَّى[1]، فهذا منه ﵇ أخذٌ بهذه الآية[2].

لا ينبغي أنْ يخطرَ في بالِ عاقلٍ إيقاعُ السّجودِ لغير الله تعالى

نُكْتَةُ عدمِ تقييدِ السّجود:

في عدمِ تقييد السّجودِ بأن يقال: (وكن مِنَ السّاجدينَ له)، أو (مِنَ السّاجدينَ لِرَبّك)؛ إشارةٌ إلى أنَّه ممّا لا يكاد يخطر في البال إيقاعُ السّجود لغير اللّه تعالى[3].

عبادةُ اللهِ تعالى ليست مختصَّةً بالذِّكْر والصّلاة فقط

مناسبةُ العطفِ بالواو في قوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ﴾:

عطفَتِ الواوُ العمومَ على الخصوص؛ لتُفيدَ إدامةَ العبادةِ والاهتمامَ بها، ودفعَ توهّم تخصيصِها بالتّسبيح بحمد اللّه والصّلاة، كما أفاد العطفُ تأكيدَ الأمرِ المُخَصَّصِ، أي: التّسبيحِ والصّلاةِ؛ لدُخولِهما في: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾.

عبادةُ اللهِ تربيةٌ مِنَ الله تعالى، وإحسانٌ منه إلى عبادِه

بلاغةُ إظهارِ ما حَقُّه الإضمارُ:

كان الظّاهرُ في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أن يقال: (واعبده)؛ لتقدّم عنوان الرّبوبيّة في قولِه تعالى: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، فجاء الكلامُ على خِلاف مقتضى الظّاهرِ؛ بإظهار ما حَقُّه الإضمارُ؛ لتقرير معنى الرّبوبيّة لِمَن يَعبُدُ اللّه تعالى، وللإشعار بأنَّ العبد يجبُ عليه أنْ ينظر إلى إحسان اللّه إليه في عبادتِه، وأنَّ عبادةَ اللّه تربيةٌ مِنَ اللّه تعالى وإحسانٌ منه إليه.

(1) أخرجه أبو داود في سننه، برقم: (1319)، عن حذيفة بن اليمان ﵁.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/98.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/329.

فائدة ذكرِ الرُّبوبيَّة:

لمّا تعلَّق الفعلُ ﴿وَٱعۡبُدۡ﴾ بقوله: ﴿رَبَّكَ﴾، دونَ أن يقال: (واعبد إلهكَ)، وكان معنى الرّبوبيَّةِ هو الإحسانُ والتّدبير والقيام بأمر العبادِ وشؤونِهم؛ أشعرَ التّعبير بلفظ الرّبوبيةِ أنَّ عبادة اللّه تعالى هي في مقامِ الشّكر على إحسانِ المُحسن وتدبيره لأمور عبدِه، والقيامِ بشؤونِه، كما أشعرَ الأمرُ بعدمِ الإخلالِ بالعبادة، والمعنى: دُم على عبادة المُحسنِ لك، المُدبّر لأُمورِك، ولا تُخِلّ بالعبادة حتَّى يأتيَك اليقين[1].

العـبـادةُ هي الشّكرُ على إحسانِ المُحسنِ، وتدبيرِه لأُمور عبدِه

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ ﴿حَتَّىٰ﴾:

عبّر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ دون أن يقال: (واعبد ربّك إلى أن يأتيكَ اليقين)؛ لأنَّ (حتَّى) لا تستعمل إلّا لما كان آخرًا، أو متَّصلًا بالآخِر، ولأنَّها تُفيد أنَّ ما دخلت عليه يكون ذا أجزاءٍ وأقسام، وأنَّ الفعلَ المُتعدّي بها الغرضُ فيه أن ينقضيَ شيئًا فشيئًا حتّى يأتي عليه، فينتهي إلى الغاية[2]، فأفاد التّعبير بـ﴿حَتَّىٰ﴾ في الآية الإشعارَ بأنَّ الأمر بالعبادة مستمرٌّ مدّةَ انقضاءِ الحياةِ، وأنَّ العبادةَ تكون على سبيل التّقضّي للفعل شيئًا فشيئًا، ولا تكون دُفعةً واحدةً، وأنَّ نهاية التّكليفِ بالعبادةِ تكون بالموت.

العبادةُ تكون على سبيل التّقضّي، ولا تكون دُفعَةً واحدةً

بلاغة التّقييد بـ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ دون (أبدًا):

التّعبير بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ أبلغُ من (أبدًا)؛ لاِحْتِمالِ لَفظِ (الأبَد) لِلَّحْظَةِ الواحِدَةِ ولِجَميع الأبَدِ؛ لأنَّ (أبدًا) ظَرْفُ زَمانٍ يَقَعُ على القَليلِ والكَثيرِ[3]، وإنّما يُفيد عمومَ الوقتِ إذا جاء في سياق النّفي، ولـمّا كان لفظ ﴿حَتَّىٰ﴾ يفيدُ معنى انقضاءِ الشّيءِ

العبادةُ تكونُ وقتًا فوَقتًا، وأزمانُ العبادةِ تنطبقُ على أزمان الحياة

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/67، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 11/100.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 166، وما بعدها.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/64.

وقتًا فوقتًا، وليس دُفعةً واحدةً كما تقدّم؛ ناسبَ التّعبيرُ به لِلأمر بالعبادة في جميعِ أزمانِ الحياة؛ ليدُلَّ على أنْ تكون العبادةُ وقتًا فوقتًا، وأنَّ انقضاءَ الحياةِ يكونُ وقتًا فوقتًا، فهو على جهة انطباق أزمان العبادة لأزمان الحياة.

نُكْتَةُ التّقييدِ بحرف انتهاء الغاية الزّمانيَّة:

التّقييدُ بعُمومِ الوقتِ، حاصلٌ لإفادةِ استغراقِه بالعبادة

قد يقال: ما فائدةُ تقييد الكلام بقولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾، وكان قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ كافيًا في الأمر بالعبادة، كما أنَّ كلَّ واحدٍ يعلم أنَّه إذا مات سقطت عنه العبادات؟

وجوابه: أنَّهُ لَوۡ قالَ: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ﴾ مُطۡلَقًا، ثُمَّ عَبَدَهُ مدَّةً أو مرَّةً واحدةً؛ كانَ مُطيعًا، فلمّا قيّده بالتّوقيت بغايةٍ زمانيّةٍ في قولِه تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾؛ أفاد التّقييدُ عمومَ الوقتِ واستغراقَه بالعبادة؛ لأنَّ المعنى: الأمرُ بالعبادةِ على التّأبيد، أي: لا تفارقْ ما أُمِرتَ به مِن عبادةِ ربّكَ، في جميع زمانِ حياتِكَ، وما دُمتَ حيًّا[1].

نُكْتَةُ إسنادِ (الإتيان) إلى (اليقين):

الموتُ هو المتوجِّهُ إلى الحيّ، وهو الطّالبُ له، والإنسانُ في مقام انتظاره

لمّا كان اليقين هو الموتَ كان إسنادُ الإتيان إليه إيذانًا بأنَّ الموتَ هو المتوجِّهُ إلى الحيّ، وهو الطّالبُ للوصول إليه، وأنَّ الإنسان في مقام انتظار الموتِ[2].

بلاغةُ اختيارِ لفظ (الإتيان) دون (المَجيء):

ليس بين الموتِ وبين العبد إلّا انقضاءُ الوقت، وحصولُ الأجل

عبّرَ بلفظ الإتيان دونَ المجيء؛ للإشعار بأنَّ إتيانَ الموت سهلٌ يسيرٌ، وأنَّه ليس بينَه وبين العبد إلّا انقضاءُ الوقت وحصولُ الأجل.

نُكْتَةُ استعمالِ المضارع ﴿يَأۡتِيَكَ﴾:

عبّر بصيغة المضارع لتصوير حالةِ إتيان الموت، وتجدُّدِ حصولِه

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 12/676، والزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/187، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 10/64، وابن عادل، اللّباب: 11/497.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/93.

مع كلِّ إنسانٍ، وفيه إشعارٌ بأنْ يكون العبدُ في حالةِ عبادةٍ عند إتيانِ الموتِ له.

الحثُّ على أنْ يكون العبدُ في حالةِ عبادةٍ عند إتيانِ الموتِ له

نُكْتَةُ تقييدِ إتيانِ اليقين بضمير المخاطَبِ:

لـمّا أسنَد تعالى إتيانَ اليقينِ إلى ضمير المُخاطَب المُعيّن في قولِه تعالى: ﴿يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ وهو الرّسول ﷺ؛ أفاد أنَّه ما من إنسانٍ إلّا ويأتيه الموتُ، فأصلُ الخطاب وإن كان مع معيّن إلّا أنّه قُصِدَ به العمومُ؛ لإفادة تحقّقِ الأمر بالعبادة لكلِّ إنسانٍ مخاطَبٍ.

السّعيدُ مَن يُباغتُه الموتُ وهو مستغرق في عبادة ربّه

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡيَقِينُ﴾:

(أل) هنا للعهد، وهو الموت، فكأنَّه ليس من أمرٍ العِلْمُ بإتيانه يقينٌ لا شكَّ فيه مثلُ الموت.

ليس هناك يقين أشبهَ بالشّكّ منَ الموت

مجازُ التّعبير في تسمية الموتِ باليقين:

سُمّيَ الموتُ يقينًا على طريق المَجاز، بمعنى كونِ لحاقِه بالعبدِ يقينًا مُتحقّقًا، ويحتمل أنّه سمّي يقينًا بمعنى أنَّ العِلْمَ به يقينٌ لا يَمتَري فيهِ عاقِلٌ، فسُمّيَ يَقينًا تَجَوُّزًا، أيْ: يَأْتيك الأمرُ اليَقينُ عِلْمُهُ ووُقوعُهُ، وليس من شيءٍ يأتي يقينًا عندَ جميعِ البشرِ مثلُ الموتِ، ويزول بنزولِه كلُّ شكٍّ[1].

سُمّيَ الموتُ يقينًا لكونِ لحاقِه بالعبدِ مُتحقِّقًا يقينًا

بلاغة الكناية:

لـمّا كان اليقينُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ هو الموتَ؛ أفادَ التّركيبُ بلازمه الأمرَ بالعبادة مدّة استمرارِ الحياة، إلى حينِ انقضائِها بالموتِ، بأنْ لا تَخْلو لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظاتِ الحَياةِ عَنْ هَذِهِ العِبادَةِ، ليُفيدَ أنَّ العبادةَ أوسعُ من معنى الذِّكْر والصّلاة، فتشمَلُ كلَّ شؤونِ الحياةِ[2].

العبادةُ تكونُ مُدّةَ الحياة، فلا تَخْلو لَحْظَةٌ مِنْ لَحَظاتِها عَنْها

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 3/218، وأبو حيّان، البحر المحيط: 6/499، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/92، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 11/204.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/376، والفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 19/166.

بلاغة التّذييل:

هذه الجملة كالمَثل في حكايتها والتّمثُّل بها

لـمّا كان معنى الكلام في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ﴾ على العموم والكلّيَّة، وكانت الجملة تأكيدًا لمفهوم الأمر بالتّسبيح بحمد الله وبالصّلاة، لدخولِهما في عموم العبادة؛ جِيءَ بها تذييلًا، لتكون كالمثل في حكايتِها والتّمثُّلِ بها؛ لعمومِ معناها وانطباقِها على كلِّ مؤمنٍ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّدرُ والقَلْب:

الصّدر أعمُّ مِنَ القلب، وهو مجمَعُ القِوى، ومنه تدخل الواردات إلى القلب

الصّدرُ ساحةُ القلبِ وبيتُه، وهو المَجْمَعُ الذي يحمل القلبَ، فمنِ الصّدرِ تدخل الوارداتُ إلى القلب، فتجتمع في الصَّدر، ثمّ تَلِجُ في القلب، فهو بمنزلة الدّهلِيز له، ومِن القلب تخرج الأوامرُ والإراداتُ إلى الصّدر، ثمّ تتفرّق على الجنود، فالقلبُ غيرُ الصّدر، وإنّما هو فيه، ولذلك قال: ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: 46]، ومواقعُ استعمالِ القرآن لكلمة الصّدر مُفردًا وجمعًا، والحكم عليها بالشَّرْح، والحَرَج، والضّيِّق، والشِّفاء، والإخفاء، والإكناد؛ ترشدُنا إلى أنّه ليس المرادُ منه الصّورةَ المادِّيَة، ولا أجزاءَها المادّية، إنّما المُراد القوى النّفسيّةُ المُستودعَةُ فيه، وأنّ الوَسْواسَ الخَنّاسَ يوجّه كيدَه ووَسْوَستَه دائمًا إلى هذه القلعة التي هي الصّدر؛ لأنّها مجمعُ القِوى، فهو أعمُّ مِنَ القلب[1].

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 2/263، وابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 384.

المحتويات